موسوعة النابلسي للعلوم الإسلامية

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي

تفسير القران الكريم

من سورة الشورى
حتى
سورة الفتح

www.nabulsi.com info@nabulsi.com

التفسير المطول - سورة الشورى 042 - الدرس (01-15): تفسير الآيات 1- 7 ، ظاهرة الوحي
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 21-01-1994

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الأول من سورة الشورى.

الأحرف التي تبدأ بها هذه السورة دليل الإعجاز في القرآن الكريم:

مع الآية الأولى:

(حم(1)عسق(2))

(سورة الشورى)

هذه الأحرف التي تبدأ بها هذه السورة، والأحرف الأخرى وقف منها المفسِّرون مواقف متباينة، وقد ذكرت لكم هذه المواقف في دروسٍ سابقة، والملخّص هو أن هذه الحروف إما أن الله سبحانه وتعالى أعلم بمراده، هذه وجهة نظر بعض المفسرين. أو أن من هذه الحروف نُظِم هذا القرآن الكريم، وهذا دليل الإعجاز. أو أنها أسماءٌ لله عزّ وجل، أوائل أسماء الله عزّ وجل. أو أنها أوائل أسماء رسول الله صلّى الله عليه وسلّم..

عالَم الشهود وعالَم الغيب:

(كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(3))

(سورة الشورى)

كأن هذه السورة (سورة الشورى) تلحُّ على موضوع الوحي، وموضوع الوحي يقودنا إلى مقدِّمةٍ يسيرة، وهي أن في العالَم عالَم الشهود وعالَم الغيب، فعالَم الشهود ما يتصل اتصالاً مباشراً بحواسِّنا، فالشيء قد تراه بعينك، أو قد تسمع صوته بأذنك، أو تشم رائحته بأنفك، أو تلمسه بيدك، فعالَم الحِس هو عالَم الشهود، وسبيل معرفة عالم الحس هو الحواس، فبالحواس نتعرّف إلى عالم الحس، وما سُمِّيَ عالم الحس إلا لأن الحواس هي سبيل معرفته، لذلك فهناك اليقين الحسي، أي اليقين الذي يعتمد على الحواس في معرفة ما حول الإنسان.

ولكن كل شيءٍ غاب عنك أيها الإنسان هو عالم الغيب، فقد غاب عن حواسِّك، ولا سبيل إلى معرفته إلا بالخبر الصادق، فنحن الآن أمام عالمين، عالم الحس وعالم الغيب، فعالم الحس نتعرّف إليه من خلال الحواس، وعالم الغيب نتعرّف إليه من خلال الخبر.

وبشكلٍ مبسّطٍ جداً: لو أنك في زيارة صديقٍ لك في بيته، الغرفة التي أنت فيها هذه بالنسبة إليك عالم الحس، لأنك تشاهد ما فيها ؛ من أثاث، ومن ثريًا، ومقاعد، وأدوات، وتزيينات. لكن الغرفة التي إلى جوارها بعيدةٌ عن حواسّك ولا تعلم عن مضمونها، وعن موجوداتها إلا من خلال إخبار صاحب البيت.

الشيء الذي يعجز عقل الإنسان عن إدراكه الله تعالى أخبره به:

فأنت أمام شيئين: إما أن تتصل بعالم الحس من خلال الحواس، وإما أن تتصل بعالم الغيب من خلال الخبر، فهذا شيء مبسّط جداً. فالشيء إذا ظهرت عينه فسبيل معرفته اليقين الحسي، إلا أن هناك شيئاً بين الحالتين إن شيءٌ غابت عينه وبقيت آثاره، فسبيل معرفته هو الاستنباط العقلي، فلو رأيت وراء الجدار دخاناً، والعقل لا يفهم الشيء إلا بسبب فتقول: لا دخّان بلا نار، فيقينك بأن هناك ناراً خلف الجدار فهذا يقين استدلالي و ليس يقيناً حسياً.

لكن الشيء إذا غابت عينه وغابت آثاره، فلا سبيل إلى معرفته إلا باليقين الإخباري، فعالم الغيب كالمستقبل الذي لا يقع. وكالماضي السحيق، وكالأشياء المُغَيّبة عنك كعالم الجن، وعالم الملائكة، وذات الله عزّ وجل، فهذه عوالم لا نعرفها بحواسّنا، والوحي هو الذي أخبرنا بها، وهذا الكلام مفاده أن الإنسان مهما نما عقله، ومهما اتسعت آفاقه، و تعمّقت ثقافته فهو بحاجةٍ إلى وحيٍ إلهي يخبره عن شيءٍ غاب عنه وعن قدرة عقله في فهمه.

فالقاعدة: إن الشيء الذي يعجز عقلك عن إدراكه فالله سبحانه وتعالى أخبرك به.

ظاهرة الوحي تعدُّ جزءاً من عقيدة المسلم:

إذاً ظاهرة الوحي هي ظاهرة تعدُّ جزءاً من عقيدة المسلم، أما الأشياء التي ضمن نطاق العقل، فعن طريق الاستدلال، والحواسُ وعن طريق المعاينة.

على كلٍ فالعقل مبني على الحواس، إذ يأخذ الآثار ويستنتج النتائج، فهو يأخذ الآثار أولاً التي عرفتها الحواس، ويبني عليها استنتاجات عن طريق محاكمة العقل، فعالم الحس هو عالم الشهود، وعالم الغيب هو عالم الوحي.

لماذا خلقنا الله عزّ وجل ؟ هذا نعرفه من خلال الوحي. وأين كنا قبل أن نأتي إلى الدنيا ؟ وماذا بعد الموت ؟ وبماذا كلّفنا الله ؟ كل ذلك نعرفه من خلال الوحي. إذاً حقيقة الكون ومبدعه وحقيقة الحياة وفلسفتُها و رسالة الإنسان ومهمّته هذا كله نتعرّف إليه من خلال الوحي، إذاً العقل وحده لا يكفي،

وربّما أغناك العقل في معرفة الله عزّ وجل، لأن الكون كلّه تجسيدٌ لأسماء الله الحسنى وصفاته الفضلى، والكون يجسّد أسماء الله الحسنى.

فمن خلال عقلك ذي المبادئ المتوافقة مع نظام الكون(مبدأ السببيّة، والغائيّة، وعدم التناقض) فهذا العقل المتوافق مع مبادئ الكون يتعرّف إلى أنه لابدّ لهذا الكون من خالق. فمن هو الخالق ؟ يقول لك الوحي: الله الذي خلق السماوات والأرض.

الوحي الذي يأتي الأنبياء من لوازم كمال الله عز وجل:

اقرأ القرآن من خلال عقلك فتقول: هذا ليس من كلام البشر، لأن فيه إعجازاً ؛ إعجازاً علمياً، وإعجازاً لغوياً، وإعجازاً تشريعياً، و إخبارياً، تربوياً، وتشعر بالدليل القاطع تلو الدليل أن هذا الكلام ليس كلام البشر، هذا بالعقل تستنبطه، وتؤمن أيضاً أن الذي جاء بهذا الكلام هو رسول من عند الله عزّ وجل معه معجزة، وانتهى والآن دور العقل، فقد أوصلك إلى الله، وهو لا يحيط بالله لكن يصل إليه، وشتّان بين الوصول والإحاطة، أوصلك إلى الله، وأوصلك إلى أن هذا الكلام كلامه، وإلى أن الذي جاء بهذا الكلام رسوله ونبيُّه.

والآن جميع الموضوعات التي يعجز عقلك عن إدراكها أخبرك الوحي عنها ؛ وعن ذات الله، وعن أسمائه الحسنى، وعن سر وجودك على وجه الأرض، ولماذا خلقك ؟ وماذا بعد الموت ؟ وقبله ؟ وما سر هذه الحياة ؟ وما ينبغي لك أن تفعل ؟ فهناك أمر ونهي، وتوجيه، وإنذار، ووعد، ووعيد وهذا كلُّه بالوحي.

والوحي الذي يأتي الأنبياء ولاسيما النبي عليه الصلاة والسلام، إنه من لوازم كمال الله عزّ وجل، ولذلك جاءت الآية:

(كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(3))

(سورة الشورى)

رحمة الله عز وجل تقتضي دعوة عباده إلى الطاعة ليسعدهم في الدنيا و الآخرة:

الوحي إلى النبي عليه الصلاة والسلام ليس شيئاً جديداً، ولا مستحدثاً، ولا شيئاً لم يسبق له مثيل، فهذه سنة الله في خلقه، فأي أبٍ (من باب التقريب والتمثيل) لابدّ أن ينصح ابنه إذا انحرف عن سواء السبيل، فأن ينصح الأب ابنه، وأن يبيّن له طريق الفلاح والنجاح في الدنيا فهذا شيءٌ من لوازم الآباء الصالحين، فإن فعلها أبٌ فليس معنى هذا أنه عمل شيئاً لم يفعله أحد. فشيءٌ طبيعيٌ جداً أن الله سبحانه

وتعالى خالق الكون، ورب العالمين، رحمن الدنيا ورحيم الآخرة لا يدع عباده من دون أمرٍ، ونهيٍ، وتوجيهٍ، وإرشادٍ، ونصحٍ، ووعدٍ، ووعيدٍ، وإنذارٍ، وتبيانٍ.. الخ.

فكلمة

(كذلك)

أي يوحي الله إليك وحياً كهذا الوحي، كما أوحى الله إلى الأنبياء السابقين كذلك أوحى الله إليك، وإذا أوحى الله إليك فهو وحيٌ كما أوحى الله إلى الأنبياء السابقين، إذاً هذه سنة الله في خلقه، ورحمة الله سبحانه وتعالى بعباده تقتضي أن يأمرهم، وأن ينهاهم، وأن يبيّن لهم، وأن يدعوهم إلى معرفته، وإلى طاعته حتى يسعدهم في الدنيا والآخرة.

ما من نبيٍ كُلِفَ برسالةٍ إلا أوحى الله إليه كتاباً يكون منهجاً لأتباعه:

لكن..

(كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ (3))

(سورة الشورى)

الله علمٌ على الذات وصاحب الأسماء الحسنى والصفات الفضلى، قال تعالى:

(وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا)

(سورة الأعراف الآية: 180)

فأسماء الله تعالى كلها حسنى، ولذلك فأية قصّةٍ، أو أي تعبيرٍ ينتقص من كمال الله عزّ وجل ؛ ومن عدالته، ورحمته، ولطفه، وقدرته، وقوّته، وغناه، وعلمه فهذا الكلام مرفوضٌ لأن الله سبحانه وتعالى أسماؤه كلُّها حسنى، وصفاته كلُّها فضلى، إذاً:

(كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ (3))

(سورة الشورى)

فمضامين الكتب السماويّة، أي ما من نبيٍ كُلِفَ برسالةٍ إلا أوحى الله إليه كتاباً يكون منهجاً لأتباعه الذين يدعوهم إلى الله، إذاً كما أوحى الله إلى الأنبياء السابقين أوحى إليك، فهذا الوحي ليس جديداً، وليس غريباً، وليس مستحدثاً..

من احتاج إلى العزيز نال منه العزة و الكرامة:

(اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(3))

(سورة الشورى)

قال علماء التفسير: العزيز في مُلكه، والحكيم في أفعاله. وكلمة عزيز شُرحت سابقاً، أي أن الله سبحانه وتعالى واحدٌ أحد، فردٌ صمد، عزيز أي واحد، ويستحيل أن تحيط به، ويحتاجه كل شيءٍ في كل شيء، عزيز، لذلك أنت محتاجٌ إليه، فإذا احتجت إلى العزيز نلت منه العزّة والكرامة..

اجعل لربّك كل عزّك يستقرُ ويثبت

فإذا اعتززت بمن يموت فإن عزّك ميتُ

* * *

الحكيم، كل شيءٍ وقع أراده الله، وكل ما أراده الله وقع، وإرادته متعلِقةٌ بالحكمة المُطلقة. فالإنسان أحياناً لا يكون حكيماً، لماذا ؟ لأنه قد تنقصه المعلومات، فيرتكب حماقةً بجهله، ولأنه قد يُضغَطُ عليه فيرتكبها، وقد يغريه شيءٌ فيرتكبها أيضاً، لكن الله سبحانه وتعالى منزّهٌ عن كل هذه الصفات التي تُعَدُّ في الإنسان صفات ضعفٍ، فحكمة الله مطلقة، ومعنى ذلك أي أن الذي وقع لابدّ من أن يقع، ولو لم يقع لكان هذا نقصاً في حكمة الله، ولكان الله مَلوماً، فليس في الإمكان أبدع مما كان.

وهذه عقيدة إذا آمن بها الإنسان ارتاحت نفسه، وارتاحت أعصابه، وعلم أن الله سبحانه وتعالى حكيمٌ في أفعاله، وأن شيئاً في الكون لا يقع إلا بإذن الله، وأن كل شيءٍ يقع في الكون هو مزيجٌ من عدالته مع لطفه، وقدرته، وغناه، ورحمته وكل أسمائه الحسنى داخلةٌ في أفعاله.

دخول أسماء الله عز وجل في أفعاله:

بعض المفسِّرين قال: حينما يتحدّث ربنا عن أفعاله يستخدم ضمير الجمع فيقول:

(إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتَى)

(سورة يس: من آية " 12 ")

(إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ(9))

(سورة الحجر)

أما إذا تحدّث عن ذاته يقول:

(إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلَهَ إِلا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمْ الصَّلاةَ لِذِكْرِي(14))

(سورة طه)

فضمير الجمع الذي يستخدم في القرآن الكريم في معرض ذِكْرِ أفعال الله عزّ وجل، يعني أن كل أسمائه الحسنى داخلةٌ في أفعاله.

معرفة أسماء الله الحسنى شيءٌ أساسيٌ في عقيدة المؤمن:

إذاً:

(كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(3))

(سورة الشورى)

فالحقيقة أنك حينما تؤمن بحكمة الله تستقبل قضاء الله وقدره بالرضا، وحينما تؤمن بحكمة الله ترضى عنه، وعن حظوظك من الدنيا، وترضى عن كل مصيبةٍ ساقها الله إليك، ولا تشعر إلا أن الذي بك هو أبدع ما يكون، وتقول مع بعض الأئمة العظام: ليس في إمكاني أبدع مما أعطاني.

والإنسان أيها الأخوة إذا آمن بحكمة الله صان صحّته من العطب، وإذا توهّم أن هذا الذي أتاه ليته لم يأتِ، وأن هذا لو لم يأتِ لكان كذا وكذا، فهذا التفكير ليس سليماً، لأن النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((فَلاَ تَقُلْ: لَوْ أَني فَعَلْتُ كَذَا كانَ كَذَا وَكَذَا، وَ لَكِنْ قُلْ قَدَّرَ اللّهُ وَما شاء فَعَلَ، فَإنّ "لَوْ" تَفْتَحُ عَمَلَ الشّيْطان))

(رواه مسلم عن أبي هريرة)

فمعرفة أسماء الله الحسنى شيءٌ أساسيٌ جداً في عقيدة المؤمن، وإذا قلت: الله خالق الكون. فهذا لا يكفي و أن تؤمن بوجوده، وبأنه هو الخالق، وهو الرب فهذا لا يكفي، والدليل أن إبليس قال:

(فَبِعِزّتِكَ لأُغْوِيَنّهُمْ أَجْمَعِينَ(82))

(سورة ص)

الإيمان الذي لا يحملك على طاعة الله فهذا إيمان لا يقدم و لا يؤخر:

الإيمان الذي لا يحملك على طاعة الله ليس كافياً، بل لابدّ من إيمانٍ يحدث فيك تأثيراً.

فدائماً أيها الأخوة هذه القاعدة أساسيّة: ومعتقدك إذا بقي في معزلٍ عن سلوكك فهذا المعتقد غير كافٍ. والمعتقد الصحيح هو الذي يفعل فعله في سلوكك، فأنت في اللحظة التي تتريّث تقول: هذا لا أفعله لأنه لا يرضي الله، وهذا أفعله لأنه يرضي الله، فالآن إيمانك فعل فعله فيك، أما إذا كان إيمانك لا يقوى على توجيه سلوكك فهذا الإيمان لا يكفي، ولذلك ابحث عن إيمانٍ يكفي، ويكون له أثرٌ واضحٌ في مواقفك، أما إن لم تكن المواقف متأثِّرة بالإيمان فهذه المعتقدات أو هذا الإيمان لا يقدِّم ولا يؤخِّر، والعبرة أن يكون عملك صالحاً، ولا يكون عملك صالحاً إلا إذا عرفت الله المعرفة الكافية، لا أقول: المعرفة المطلقة.لأن المعرفة المطلقة ليست في مقدور أحد، إذ لا يعرف الله إلا الله، لكن المعرفة الكافية التي تحملك على طاعة الله، فمادامت معارفك، ومعتقداتك، ويقينيّاتك تحملك على طاعة الله، كترك الحرام وأخذ الحلال، فالآن مبدئياً هذه العقيدة جيّدة وكافية لاستقامتك على أمر الله.

الحسد والضيق واليأس مشاعر ناتجة عن ضعف الإيمان:

الإنسان إذا ضعفت معرفته بالله ضاقت نفسه، وتبرّم من حياته، وألجأه ضعفه في إيمانه إلى متاعب كثيرة جداً، فيقع في الحسد، والضيق، واليأس، والتشاؤم، والضجر، وفي الشعور بالقهر، والشعور بالظلم، فهذه كلها مشاعر ناتجة عن ضعف الإيمان، أما إذا آمنت بالله حقّ الإيمان ورأيته هو المتصرّف، وهو الحكيم، والقدير، والفعّال، والغني، و السميع، والمجيب، والعليم، والرقيب، والقريب، وهو الذي إذا ناديته قال: لبّيك يا عبدي. وإذا تعاملت معه بهذه الطريقة، طريقة المعرفة، والسؤال، والدعاء، والجواب حُلّت كل مشكلاتك.

ملكية الله عزّ وجل للسماوات والأرض:

أيها الأخوة... أنت في مُلْك الله عزّ وجل وأنت مِلْكُ الله، يقول الله عزّ وجل:

(لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ(4))

(سورة الشورى)

(له)

هذه اللام كما قال عنها علماء اللغة: لام المُلكيّة. أي أن هذا الكون كلّه بسماواته وأرضه له إيجاداً وتصرُّفاً ومصيراً، فهو الذي أوجده، وهو الذي يتصرّف به، وإليه مصيره. فإذا قلنا: له. هكذا، ملكية الله عزّ وجل للسماوات والأرض، ولمن في السماوات والأرض ملكيّةٌ تامّة كاملة، أوجده، ويتصرّف به وإليه مصيره.

فأين المفر ؟ لو أنك عصيت الله عزّ وجل فأنت في قبضته، ودائماً في قبضته، وخللٌ بسيطٌ جداً جداً في جسم الإنسان يجعل حياته جحيماً، والمال عندئذٍ لا يقدِّم ولا يؤخِّر، ولا ينفع ولا يغني، فأنت إذا عرفت أنك في ملكه، فهل يعقل أن تكون في ملكه وأن تعصيه ؟! هل يعقل أن تزور شخصاً في بيته وأنت تحت إشرافه وسيطرته، وأن تستفزه ؟! فمادمت في ملكه لابدّ من أن تطيعه، مادمت في ملكه فهو رقيبٌ عليك، وسيحاسبك، فهو يعلم سرّك ونجواك، سرّك وعلانيّتك، كلمة:

(لَهُ)

(لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ (4))

(سورة الشورى)

إنه هو الذي أوجدها، وهو الذي يتصرّف بها، وإليه مصيرنا جميعاً بدءاً من الفيروسات وانتهاءً بالمجرّات.

فالمجرّة التي تبعد عنّا خمسة وعشرين ألف مليون سنة ضوئيّة له إيجاداً وتصرُّفاً ومصيراً، والفيروسات التي لا تُرى إلا بالمجاهر الإلكترونيّة التي تكبّر الشيء ثلاثمئة، أربعمئة ألف مرّة هذه له أيضاً، وأدق من الفيروس الذرّة، وبالتعبير الشائع من الذرّة إلى المجرّة له، وأنت من هذه المخلوقات.

العاقل من يطيع الله عز وجل و يشكر نعمه:

القصد أيها الأخ الكريم أن تشعر أنك في ملكه، وأنك في قبضته، فهو الذي خلقك، وهو قادرٌ في كل لحظةٍ على أن يتصرّف بك، إسعاداً أو إشقاءً، إعطاءً أو حرماناً، إكراماً أو إهانةً، إما أن يرحمك أو أن يعذِّبك، إما أن ييسِّر لك الأمور أو أن يعسِّرها أمامك، وإما أن يعطيك أو أن يمنعك، وإما أن يسعدك أو أن يشقيك، أنت في قبضته وفي ملكه.

فالشيء الطبيعي المنطقي المعقول أن تطيعه، تعصيه وأنت في ملكه ؟! أم تعصيه وأنت في قبضته ؟! أم تعصيه وإليه مصيرك ؟! وكيف تعصيه وقد خلقك ؟ ويعلم سرّك وجهرك ؟ ولا يعزب عنه شيءٌ من أمرك ؟!

ورد في بعض الأقوال عن سيدنا بلال فيما أذكر:**" لا تنظر إلى صغر الذنب ولكن انظر على من اجترأت "**. فالإنسان حينما يعصي الله عزّ وجل يجترئ على خالق السماوات والأرض، كأنه يستهين بمراقبة الله له، كأنه يستهين بوعيد الله له، ويستهين بهذا الشرع العظيم الذي أُنزِل من أجله، فلذلك كلمة له في قوله تعالى:

(لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ (4))

(سورة الشورى)

أي أنت في ملكه. وكل أعضائك في ملكه ؛ عينك في ملكه. وهناك رجل نال شهادة عُليا من بلد أجنبي، وعُيّن في منصب رفيع جداً، ولحكمةٍ أرادها الله عزّ وجل فَقَدَ بصره، أجرى عمليّة أو عمليتين، انتهت العمليتان بفقد بصره، ولقد جاءه البريد إلى البيت خلال شهر مع موظّف يقول له: يا سيدي هذه المعاملة كذا وكذا، ما توجيهك ؟ يقول له: موافق أو غير موافق، ثم سُرّحَ من منصبه، يقول لأحد أصدقائه: والله يا فلان أتمنّى أن أجلس على الرصيف أتكفّف الناس، وليس على كتفي إلا هذا الرداء، وأن يُردّ إليّ بصري.

الإنسان كلّما ارتقى يتعرّف إلى نعم الله بوجودها لا بفقدها:

عينك بملكه، والأذن بملكه، واللسان بملكه، والعقل كذلك ولماذا وزّع الله هؤلاء المختلين في أكثر أماكن البلد ؟ بكل منطقة يوجد واحد منهم مختلاً عقلياً، ما فائدة ذلك ؟ من أجل أن تعرف نعمة العقل، كيف أن عقلك برأسك متوازن، تتكلّم الكلمة المناسبة، تتحرّك الحركة المناسبة، تقف الموقف الملائم، هذا دليل أنه يوجد عقل برأس الإنسان، لو لم يكن هناك عقل برأسه لأصبح أضحوكةً بين الناس، إذاً يا ربي عرّفنا نعمك بكثرتها لا بزوالها. الإنسان كلّما ارتقى يتعرّف إلى نعم الله بوجودها لا بفقدها.

والنبي عليه الصلاة والسلام كان إذا أفرغ مثانته يقول:

((الحمد لله الذي أذهب عني ما يؤذيني، وأمسك علي ما ينفعني))

(الجامع الصغير: عن " طاووس مرسلا ")

فعمل الكليتين عمل عظيم، تعملان بصمت، وهدوء من دون جلسات ثماني ساعات، من دون اصطفاف بالدور في المستشفيات، وبلا دفع مبالغ طائلة، ولا آلام لا تُحتمل، كليتان تعملان بصمت، إنهما صغيرتان، هادئتان، وكل كلية فيها طاقة تصفية عشرة أضعاف حاجتك، فالكلية نعمة كبيرة جداً.

والكبد له خمسمئة وظيفة، يعمل بانتظام وكذلك المعدة، والأمعاء، والقلب، والرئتين، والبنكرياس.

فاليوم ذكرت في الخطبة أن وزن البنكرياس خمسة وتسعون غراماً، يقوم بوظيفتين خطيرتين، الأولى إفراز مواد هاضمة مؤلّفة من أنزيمات معقّدة جداً وخطيرة جداً، والوظيفة الثانية فيه جزر، فيه من اثنين إلى ثلاثة ملايين جزيرة، ومقياس كل جزيرة مئتا ميكرون، كل الجزر وزنها واحد بالمئة من وزن البنكرياس أي وزنها غرام، فثلاثة الملايين جزيرة وزنها غرام واحد، ثلاث خلايا: خلايا إلفا، وبتّا، وخلايا من نوع ثالث، أول خليّة تفرز مادّة مضادّة للأنسولين، إذا هبط مستوى السكر في الدم تحث الكبد على طرح كميات من السكر زائدة، والخليّة الثانية تفرز أنسولين، هذا إذا نقص في الإنسان يصاب بمرض السكر، والثالثة لم تعرف وظيفتها إلى الآن، ولو اختلّت هذه الخلايا لأصبحت حياة الإنسان جحيماً.

فأنت في ملكه ؛ فالبنكرياس، الكظر، الغدّة النخاميّة التي وزنها نصف غرام تفرز اثني عشر هرموناً، وكل هرمون تتوقّف حياتك الفيزيولوجيّة عليه.

العاقل من استخدم نِعم الله عز وجل في طاعته:

لا أريد أن أفصّل أكثر من ذلك، ولكنني أريد أن يتحسس أحدكم ما معنى أنه في ملك الله ؟ إذا كانت عيناه سليمتين، أذناه سليمتين، ولسانه يتحرّك بانتظام، وبلعومه يعمل بشكل طبيعي، ومستقيمه يعمل

بشكل طبيعي، وأمعاؤه، و معدته، والبنكرياس، والنخاميّة، والدرقيّة هذه كلها تعمل بانتظام، هذه نعمة كبيرة جداً، أنت في ملكه، فإذا شكرت الله على سلامتك ليزيدنَّك صحّةً إلى صحّة، وقوّةً إلى قوّة، وتوفيقاً إلى توفيق، أما إذا كفرت هذه النعم وعصيت الله بها، فأصعب شيء أن تعصي الله بنعمٍ أنعم الله بها عليك، وأكمل شيء أن تستخدم النعم في طاعة الله، فعندئذٍ رضي الله عنك.

تسبيح السماوات و الأرض بالله عز وجل:

الآن الآية:

(تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ (5))

(سورة الشورى)

التفطُّر التشقُّق، فهذه السماوات هي جوامد، لكن ربنا عزّ وجل قال:

(وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ)

(سورة الإسراء: من آية " 44 ")

ومعنى هذا أن هذه الجمادات، والأقمار، والمجرّات، والكواكب السيّارة، والكواكب والنجوم، والكازارات، والمذنّبات، وهذه السماوات الجمادات، وهذه الأرض وما فيها من جبال، ووديان، وصحارى، وأغوار، وشواطئ، وبحار، وبحيرات، وأسماك، وأطيار، وحيوانات، هذه السماوات والأرض تسبّح الله سبحانه وتعالى أولاً، بالدليل القطعي..

(وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ)

(سورة الإسراء: من آية " 44 ")

عرض الأمانة على السماوات و الأرض:

وقال الله عزّ وجل:

(إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ)

(سورة الأحزاب: من آية" 72 ")

ومعنى ذلك أن هذه السماوات والأرض عُرِضت عليها أن تحمل الأمانة فأبت وأشفقت من حملها، وهذه السماوات والأرض إن رأت غفلة الإنسان، وانقطاعه عن ربّه، وشروده عن شرعه، وشقاءه في البُعد عن الله، بل إن رأت معصيته، وكفره، وجحوده، وفجوره، وجريمته، فهذه السماوات والأرض تكاد تتفطّر من هول جريمة الإنسان، من شذوذه، ومن كفره، من انحرافه. وهذا المعنى مأخوذ من آية أخرى في سورة مريم:

(تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ)

(سورة مريم: من آية " 90 ")

بآخر مريم تأتي آية تفسِّر معنى التفطُّر هنا، حينما يدعو الإنسان مع الله إلهاً آخر، أو حينما يقول: إن لله ولداً، إذا قال هذا الكلام..

(تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنّ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ (5))

(سورة الشورى)

للمؤمنين هؤلاء الذين آمنوا بالله عزّ وجل، وكانت لهم أعمالٌ قبل إيمانهم، الملائكة يستغفرون للمؤمنين..

توعد الله عز وجل الإنسان العاصي بالعذاب الشديد:

(لِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَلَا إِنّ اللّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرّحِيمُ(5))

(سورة الشورى)

والشيء الأساسي أنه من أسماء ربنا عزّ وجل أنه الغفور، فمهما كنت تحمل من خطايا فالتوبة مقبولة..

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللّهِ)

(سورة الزمر: من آية " 53 ")

(نَبِّئْ عِبَادِي أَنّي أَنَا الْغَفُورُ الرّحِيمُ(49)وَأَنّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ(50))

(سورة الحجر)

لكن عندما قال الله عزّ وجل:

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللّهِ إِنّ اللّهَ يَغْفِرُ الذّنُوبَ جَمِيعًا إِنّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرّحِيمُ(53))

(سورة الزمر: من آية " 53 ")

قال..

(وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمْ الْعَذَابُ ثُمّ لا تُنْصَرُونَ(54))

(سورة الزمر)

قد يأتي العذاب إن لم تتب إلى الله عزّ وجل.

باب التوبة مفتوح مادام في الحياة فُسحة:

إذاً أيها الأخوة ما دمنا أحياء، مادام القلب ينبض، مادام في الحياة فُسحة، مادام الإنسان يتنفّس باب التوبة مفتوح، وباب المغفرة مفتوح، وباب العطاء مفتوح، إذاً:

(وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ(5)وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ(6))

(سورة الشورى)

فحينما يتخذ الإنسان ولياً من دون الله، ويتحرّك بتوجيه من لا يعرف الله، وينفِّذ نصيحة إنسانٍ جاهل، ويُرضي مخلوقاً ويعصي خالقه، ويطيع ضعيفاً ويعصي القوي، ويطيع الفاني ويعصي الأبدي، قال:

(وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ (6))

(سورة الشورى)

أي يحفظ لهم أعمالهم كلّها، يسجّلها عليهم، وكلّها تحت مراقبته، وهي محفوظةٌ عنده..

كل إنسان مخير لا مسير:

(وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ(6))

(سورة الشورى)

فيا محمّد، لست موكّلاً عنهم، ولن تحاسب عنهم، لأن كل إنسانٍ أعطي الاختيار، فالإنسان مخيّر فإذا فعل شيئاً سيئاً فإنه محاسبٌ عليه..

(وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ(6))

(سورة الشورى)

هذا معنى قول الله عزّ وجل:

(إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ)

(سورة القصص: من آية " 56 ")

من الآيات السابقة نجد أن:

1 ـ الوحي ظاهرة مستمرة:

من هذه الآيات نجد أن العالم مشهود وغيبي، عالم الشهود تتعرّف إليه من خلال الحواس، فإذا غابت عين الشيء وبقيت آثاره فمن خلال العقل، أما عالم الغيب لا تعرفه إلا بالوحي، أو بالخبر الصادق، والله سبحانه وتعالى لابدّ من أن يوحي إلى أنبيائه ورسله ليرشدوا الخلق إلى الحق، وإلى سرّ وجودهم، وطريق سعادتهم. إذاً الوحي ظاهرة مستمرّة، والوحي ليس جديداً ولا مستحدثاً إنه قديم، مادام الله سبحانه وتعالى قد خلق الخلق ليهديهم إليه، إذاً لابدّ من أن يوحي إلى أنبيائه.

2 ـ ملكيّة الله سبحانه وتعالى ملكيّة تامّة:

والنقطة الثانية موضوع المُلكِيَّة، أنت في ملكه، وملكيَّة الله سبحانه وتعالى ملكيَّة تامَّة، أي أنك ملكه خلقاً وتصرُّفاً ومصيراً.

مهمة الأنبياء التبليغ و الإنذار و الإنسان مخير بعد ذلك:

حينما يغفل الإنسان عن ربّه، ويكفر به، ويجحد نعمته وقد سُخِّر له الكون كله من أجله، عندئذٍ السماوات والأرض يتفطّرن من فوقهن.

وأما الذين أشركوا بالله عزّ وجل، وتحرّكوا وفق مشيئة غير الله، عصوا ربهم وأطاعوا مخلوقاً ضعيفاً طارئاً في حياتهم، قال هؤلاء..

(وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ(6))

(سورة الشورى)

فهم مخيَّرون..

(إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ(7)

(سورة الرعد)

(يَاأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ)

(سورة المائدة: من آية " 67 ")

فعليك أن تبلِّغهم فقط، وعليك أن تنذرهم فقط، وهم مخيَّرون إن أحسنوا فلأنفسهم، وإن أساؤوا فعليها.

الكون يتفطّر عجباً وإنكاراً للإنسان الغافل الشارد عن ربّه

أيها الأخوة... الآية التي وردت في سورة مريم عن تفطُّر السماوات والأرض، قال تعالى:

(تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا(90)أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَانِ وَلَدًا(91)وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَانِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا(92)إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلا آتِي الرَّحْمَانِ عَبْدًا(93))

(سورة مريم)

فهذه الآية تفسِّر هذه الآية التي نحن بصددها وهي:

(تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ (5))

(سورة الشورى)

الإنسان إذا انحرف في عقيدته، أو أشرك بالله، أو كفر به، أو انحرف في سلوكه والكون كله مسخَّرٌ له، فعندئذٍ الكون كله يكاد يتفطّر عجباً وإنكاراً لهذا الإنسان الغافل الشارد عن ربّه.

نزول الوحي باللغة العربية:

ثمّ يقول الله عزّ وجل:

(وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآَنًا عَرَبِيًّا ِ(7))

(سورة الشورى)

فالوحي الذي جاء النبي عليه الصلاة والسلام جاء بلسانٍ عربيٍ مبين..

(لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا (7))

(سورة الشورى)

أم القرى هي مكّة المكرّمة، ومن حولها هي بقيّة البلاد، ورسالة النبي صلّى الله عليه وسلّم رسالةٌ للبشريّة جمعاء، وما أرسلناك إلا رحمةً للعالمين.

وبالمناسبة أحد كبار الجغرافيين أثبت أن مكّة المكرّمة، لو رسمنا القارات الخمس على مسطّح، وأخذنا أقطار هذه القارات، أي الأطراف الأربعة، وصلنا أول قطر وثاني قطر، لتقاطعت أطراف القارات الخمس هندسياً بدقّةٍ بالغة في مكّة المكرّمة، فمكّة المكرّمة هي الوسط الهندسي للقارات الخمس، فقوله تعالى:

(لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ(7))

(سورة الشورى)

موضوعات القرآن الكريم واحدة أما أساليبها و لغاتها فمختلفة:

القرآن الكريم له موضوعات كبرى، فما هي ؟ إنها الإيمان بالله ؛ الإيمان به خالقاً ومربياً ومسيّراً، والإيمان به واحداً، وكاملاً، إذًا الوجود والكمال والوحدانيّة. الإيمان بنبوّة الأنبياء موضوع ثان كبير، والإيمان باليوم الآخر، والإيمان بالكتب المنزّلة على رسله. الآن التكاليف ؛ الأمر والنهي، والوعد والوعيد، ومشاهد الجنّة ومشاهد النار، هذه موضوعات القرآن الكبرى.

وفي القرآن الكريم آيات كونيّة، وآيات تكليفيّة، وآيات تكوينيّة، وإيمان بالله، وتوحيد، وبيان لأسمائه الحسنى، وبيان لوحدانيّته، وبيان لوجوده خالقاً ومربياً ومسيّراً، وبيان لأنبيائه ولكتبهم، وبيان لليوم الآخر، وتكاليف أمر ونهي، ووعد ووعيد، فهذه موضوعات القرآن الكبرى.

والعلماء يرجّحون أن هذه الموضوعات الكبرى لكل الكتب السماويّة، استنباطاً من كلمة

(كذلك يوحى)

فالموضوعات واحدة تقريباً، أما الأساليب مختلفة، واللغات مختلفة بحسب الشعوب التي أُنزلت إليها هذه الكتب.

العاقل من يهيئ لله عز وجل جواباً عن كل عمل يقوم به قبل يوم القيامة:

إذاً:

(وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ(7))

(سورة الشورى)

الحقيقة أن الإنسان إذا آمن بالله وحده، ولم يؤمن باليوم الآخر لا يستقيم على أمره، أما إذا آمن باليوم الآخر فمعنى ذلك أن كل حركةٍ وسكنةٍ سوف يُسأل عنها يوم القيامة، إذاً عليه أن يهيّئ الجواب لله عزّ وجل.

نهاية الإنسان إما إلى الجنة أو إلى النار:

إذاً:

(لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ(7))

(سورة الشورى)

ففي هذا اليوم ليس هناك حلٌ ثالث، إما في جنّةٍ يدوم نعيمها، أو في نارٍ لا ينفذ عذابها..

(فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ(7))

(سورة الشورى)

وفي الدرس القادم إن شاء الله تعالى ننتقل إلى قوله تعالى:

(وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ(8))

(سورة الشورى)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الشورى 042 - الدرس (02-15): تفسير الآيات 8- 10 ، رحمة الله ثمنها طاعته و تنفيذ أوامره

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 28-01-1994

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون... مع الدرس الثاني من سورة الشورى.

الله عز وجل لو شاء لجعل الناس كلّهم في طاعته:

مع الآية الثامنة وهي قوله تعالى:

(وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ(8))

(سورة الشورى)

هذه الآية أيها الأخوة في القرآن الكريم وآياتٌ كثيرة مشابهة لها.

(وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى)

(سورة الأنعام: من آية " 35 ")

(وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا (99))

(سورة يونس)

آياتٌ كثيرة تتمحور حول هذا المحور، أن الله عزّ وجل لو شاء لجعل الناس أمةً واحدة، أو لجعل الناس كلهم في طاعة الله، أو لجعلهم غير مختلفين.

الإنسان حمل الأمانة وأمانته نفسه التي بين جنبيه:

الحقيقة هذه الآية يفهمها بعض الناس فهماً ما أراده الله عزّ وجل، ليس المعنى أن الله عزّ وجل شاء أن يضلنا، أو شاء ألا يجعلنا أمةً واحدة، المعنى أن الله سبحانه وتعالى شاء لنا أن نكون مخلوقاتٍ من نوعٍ خاص، لما قال الله عزّ وجل:

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً(72))

(سورة الأحزاب)

فالإنسان حمل الأمانة، فلما حمل الأمانة سخر الله له ما في السماوات وما في الأرض تسخير تعريفٍ وتكريم، ومنحه حرية الاختيار، وفطره فطرةً عالية، وأعطاه عقلاً، وفوق كل هذا أنزل على أنبيائه

شرعاً ليكون ميزاناً دقيقا على ميزاني العقل والفطرة، فهوية الإنسان أنه مخيَّر، وجنسه مخلوقٌ مكلف، ومع التكليف تخيير، الإنسان حمل الأمانة، وأمانته نفسه التي بين جنبيه..

(قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا {9} وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا {10})

(سورة الشمس)

كل إنسان مُنح حرية الاختيار:

شاءت مشيئة الله أن نكون أصحاب مشيئةٍ حرة، وهذا تؤكِّده آياتٌ كثيرة في مقدمتها:

(سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ(148))

(سورة الأنعام)

(وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ)

(سورة البقرة: من آية " 148 ")

(وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى)

(سورة فصلت: من آية " 17 ")

(إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى(13))

(سورة الكهف)

فآيات كثيرة جداً تؤكِّد أن الإنسان منح حرية الاختيار، وما دام قد منح حرية الاختيار فلا بد من أن يختلف زيد عن عُبيد، وفلان عن عِلاّن، فهذا اختار الهدى وهذا اختار الضلال، أي هذا اختار الإحسان وذاك اختار الإساءة، ومثله هذا اختار الإخلاص وذاك اختار الخيانة، وكذلك هذا اختار ما يمليه عليه عقله وهذا اختار أن تسيّره غريزته.

المخلوقات غير مكلفة يُسيّرها رب العالمين:

ولذلك لو أن الله عزّ وجل لم يشأ أن تكونوا مخيرين، أي لو أن الله سبحانه وتعالى لم يشأ أن يحمِّلكم الأمانة، لو أن الله سبحانه وتعالى لم يشأ أن تكونوا مكلّفين، أو لو أن الله أجبركم وألغى اختياركم، وألغى تكليفكم، وألغى حمل الأمانة لجعلكم أمة واحدة كبقية المخلوقات، انظر إلى مخلوقات الله عزّ وجل ليس فيها اختلاف، ليس فيها مشكلات، بل انسجام، لأن المخلوقات غير مكلفة، فما دامت غير مكلفة إذاً هي مسيَّرة، والذي يسيرها هو رب العالمين.

إذاً لا تجد اختلافاً إلا في عالم المكلّفين، لا تجد إحساناً أو إساءةً، استقامة أو انحرافاً، صلاحاً أو طلاحاً، أو خيراً أو شراً، إخلاصاً أو خيانةً، إلا في عالم المكلفين، أما عالم المسيَّرين كبقية المخلوقات لا يختلفون أبداً، بل إن المخلوقات تتحرك وفق خطةٍ بالغة الدقة محكمةٍ لا خلل فيها إطلاقاً.

الاختلاف في عالم المكلفين لا عالم المسيرين:

هذا الذي يقول: لو أن الله عزّ وجل جعلنا أمةً واحدة. أي هل من الممكن أن يكون هناك امتحان حقيقي نزيه، وأسئلة دقيقة جداً، وأساتذة أقوياء مهرة متفوقون، والطلاب تفاوتوا في اجتهادهم، وفي حضورهم، وفي دوامهم، هل يعقل أن تأتي العلامات كلها متساوية ؟ مستحيل، فالعلامات متفوقة، ووسط، وضعيفة، وهناك رسوب، ونجاح، وممتاز، وجيد جداً، وجيد، ومقبول، وضعيف، وراسب، فهذا شأن الاختيار، لكن لو أن إدارة الجامعة ألغت الامتحان إلغاءً كلياً وأعطت علامات موحدة بلا امتحان، هذا الامتحان ليس له قيمة، هذه الشهادة لا قيمة لها إطلاقاً، لا قيمة لها لا عند رئاسة الجامعة، ولا عند الطلاب، أو عند أولياء الطلاب، أي إذا ألغي الامتحان فالنجاح ليس له قيمة، والشهادات لا معنى لها، فهذا مما نفهمه أحياناً من قوله تعالى:

(وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً (8))

(سورة الشورى)

إذا ألغي الاختيار في حياة الإنسان فالإنسان إذا عبد الله يعبده طوعاً:

أن يكون الناس نسخةً واحدة، شخصيةً واحدة، سلوكاً واحداً هذا ممكن، ولكن إذا ألغي اختيارهم، وتكليفهم، وألغيت الأمانة، أي ألغيت هذه الميزة الكبيرة التي أعطاها الله الإنسان فالإنسان إذا عبد الله يعبده طوعاً، ومبادرةً، ومن دون أن يكون مكرهاً ولا مضطراً ولا مجبراً، وإن الله قد أمر عباده تخييراً ونهاهم تحذيراً، وكلّف يسيراً ولم يكلف عسيراً، وأعطى على القليل كثيراً.

أي أن الإنسان مسيَّر ومخير، مخير فيما كُلِف، أنت كلفت بالصلاة، لك أن تصلي ولك ألا تصلي، وكلفت بغض البصر لك أن تغض البصر ولك ألا تغضه، وكلفت أن تكون صادقاً لك أن تصدق ولك أن تكذب، إذ لا قيمة للصدق إلا إذا كان عن اختيار، ولا حساب على الكذب إلا إذا كان عن اختيار، لو أن الله أجبر عباده على الطاعة لبطل الثواب، ولو أجبرهم على المعصية لبطل العقاب، لو تركهم هملاً لكان عجزاً في القدرة، فهذا المعنى الذي يحلّ كلّ المشكلات التي قد يظنها المؤمن مشكلة.

الإنسان مسيّر ومخير:

هل الإنسان مسير أم مخير ؟ الإنسان مسيّر مخير، ففيما كُلِف به فهو مخيّر، وفيما لم يكلّف به فهو مسيّر. فأنت ابن من ؟ ابن فلان وفلانة، جيء بك إلى الدنيا في الأربعينات، وولدت في بلد معيّن، بإمكانات معينة، بقدرات معينة، وببيئة معينة، بخصائص معينة، من أم وأب معينين، تلقّيت العلم من جهة معينة فهذه كلها ليست في اختيارك، لكن حينما قال لك الله:

(وَأَقِمْ الصّلاةَ لِذِكْرِي(14))

(سورة طه)

فأنت الآن مخير بها. قال:

(وَلا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا)

(سورة الحجرات: من آية " 12 ")

فأنت مخير، قال:

(يَا أَيُّهَا الّذِينَ آمَنُوا اتّقُوا اللّهَ وَكُونُوا مَعَ الصّادِقِينَ(119))

(سورة التوبة)

فأنت مخير.

الله سبحانه وتعالى خلق الإنسان ليكون سيّد المخلوقات:

لك أن تجلس مع الكاذبين، ومع أهل الدنيا، والأهواء، وأهل البدَع، والمؤمنين في بيوت الله، أنت مخيّر، فلو أن الله عزّ وجل ألغى الاختيار لجعلكم أمةً واحدة، أي انتهى كل الاختيار، وقد ألغى التكليف، وألغى حمل الأمانة، جعلكم مخلوقات كبقية المخلوقات، ليس لها هذه الدرجات العالية لأن الله سبحانه وتعالى خلق الإنسان ليكون سيّد المخلوقات.

(إِنّ الّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيّةِ(7))

(سورة البينة)

من دون استثناء:

(أُوْلَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيّةِ(7))

(سورة البينة)

(إِنّ الّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنّمَ خَالِدِينَ فِيهَا(6))

(سورة البينة)

بالمقابل..

(أُوْلَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيّةِ(6))

(سورة البينة)

وهذا ما يؤكده الإمام عليٌّ كرّم الله وجهه: **" رُكِّبَ الملك من عقلٍ بلا شهوة (فليس لديه غرائز)، وركب الحيوان من شهوةٍ بلا عقل، وركب الإنسان من كليهما، فإن سما عقله على شهوته أصبح فوق الملائكة ".** أنت مخلوق لتكون فوق الملائكة، وإذا سمت شهوته على عقله أصبح دون الحيوان.

العاقل لا يملك إلا الساعة التي هو فيها:

لا يوجد أيها الأخوة حل وسط، فالإنسان إما أن يتجاوز في مقامه الملائكة المقرّبين ؛ أو أن يسقط إلى أسفل السافلين، إلى أسفل من مرتبة الحيوان. والأمر بيدكم، والاختيار موضوع فينا، والآية الكريمة:

(وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ)

(سورة البقرة: من آية " 148 ")

ليس لك إلا هذا اليوم فالغد لا تملكه أبداً، من منا يملك غداً ؟ أبداً، ولا ساعة، ومن عَدّ غداً من أجله فقد أساء صحبة الموت، الإنسان يكون ملء السمع والبصر فيصبح خبراً، أليس كذلك ؟ إذاً لك الساعة التي أنت فيها، ما مضى فات، الماضي ما دام ليس في إمكانك أن تعيده ولا أن تسترجعه، الزمن السابق ليس في الإمكان أن تسترجعه، والمستقبل لا تملكه، إذاً لا تملك إلا الساعة التي أنت فيها، لذلك:

((بادروا بالأعمال سبعا: هل تنتظرون إلا فقراً منسياً، أو غنى مطغياً، أو مرضا مفسداً، أو هرما مفنداً، أو موتاً مجهزاً، أو الدجال فشر غائب ينتظر، أو الساعة فالساعة أدهى وأمر))

(أخرجه الترمذي عن أبي هريرة)

هذا معنى قوله تعالى:

(وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً (8))

(سورة الشورى)

لأنكم مختلفون إذاً أنتم مخيّرون، لأنكم مخيّرون إذاً أنتم مخلوقات من الدرجة الأولى.

تكريم الله الإنسان بتسخير الكون له:

(فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ)

(سورة الأحزاب)

أنت حملت الأمانة وقلت: يا ربي أنا لها. لذلك كرّمك الله بأن سخر لك ما في السماوات والأرض، كل ما في الكون مسخرٌ لهذا الإنسان، لكن الشيء المؤسف أن كل ما في السماوات والأرض يسبح الله عزّ وجل بنصّ القرآن الكريم، كل من في السماوات والأرض من دون استثناء يسبّح الله عزّ وجل..

(وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ)

(سورة الإسراء: من آية " 44 ")

كيف بكم أيها الأخوة إذا رأيتم أن الجمادات تسبّح، وأن الحيوانات تسبح، وأن أحقر المخلوقات تسبح، وهذا الإنسان المخلوق الأول والمكرم الذي رفعه الله إلى أعلى عليين وسخّر له ما في السماوات والأرض غافلٌ عن ربّه، غارقٌ في دُنياه، غارقٌ في شهواته وملذّاته، فلذلك كما قال بعض العلماء: في الدنيا جنّة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة، هي جنة معرفة الله والقرب منه.

رحمة الله واسعة تسع كل المخلوقات وما على الإنسان إلا أن يختار وأن يدفع ثمنها:

ولكن..

(وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ (8))

(سورة الشورى)

ألا تتضح من هذه الآية أن الإنسان مخير،

(من يشاء)

(وَلَكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ (8))

(سورة الشورى)

ولك أن تعيد فاعل يشاء على الإنسان.

(وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً (8))

(سورة الشورى)

ولكن الله شاءت مشيئته أن يعطيكم حرية الاختيار، وأن يكرّمكم، وأن يجعلكم مخلوقاتٍ مميّزة، فلو شئتم لدخلتم في رحمة الله، رحمة الله واسعة تسع كل المخلوقات، وينالُها الإنسان بالدرجة الأولى لأنه مهيأً لها، ما عليه إلا أن يختار وأن يدفع ثمنها، أما أن يدفع ثمنها فالنبي عليه الصلاة والسلام من أدعيته الشريفة:

((اللَّهُمّ إنّا نَسألُكَ مُوجِباتِ رَحْمَتِكَ، وَعَزَائِمَ مَغْفِرَتِكَ، وَالسّلامَةَ مِنْ كُلّ إثْمٍ، وَالغَنِيمَةَ مِنْ كُلّ برّ، وَالفَوْزَ بالجَنّةِ وَالنّجاةَ (بعونِك) منَ النّار))

(الأذكار النووية)

رحمة الله ثمنها طاعته و تنفيذ أوامره:

يجب أن تدفع ثمن الرحمة، قال تعالى:

(إنّ رَحْمَةَ اللّهِ قريبٌ مِنَ الْمُحْسِنِين(56))

(سورة الأعراف)

ورحمة الله هي عطاؤه، فسِّرها بما شئت، فسِّرها إن شئت تجلياً من الله على قلبه تسعد به، فسِّرها إن شئت توفيقاً، فسِّرها إن شئت حياةً طيبة، وفسِّرها إن شئت قرباً من الله عزّ وجل، وإن شئت غنًى تغتني به أو سلامةً في الدنيا وغنى في الآخرة، كل هذه المعاني التي تخطر في بالك يمكن أن تفسر بها رحمة الله، ورحمة الله لها ثمنٌ باهظ، أقول باهظ لضعف العزّائم، أما الثمن فليس باهظاً طاعة الله عزّ وجل، ما عند الله لا ينال إلا بطاعته، وطاعة الله عزّ وجل في قدرة كل واحدٍ منا، ولا يلتفت أحدكم إلى ما يقوله بعض الناس: يا أخي الفساد عَم، وأين أذهب بعيوني في الطريق. لا، انظر إلى قوله تعالى:

(لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إلا وُسْعَهَا(286))

(سورة البقرة: من آية " 286 ")

فما دمت مكلّفًا بهذه الأوامر فهي في وسعك قطعاً، بإمكانك أن تصلي، وأن تصوم، وأن تغض البصر، وأن تضبط اللسان، وأن تعطي مما أعطاك الله، وأن تدفع زكاة مالك، وأن تحضر مجالس العلم، هذا كلُّه في إمكانك، لذلك لن تحاسب إلا على قدرةٍ أعطاك الله إيّاها، من هنا تأتي المسؤولية.

الخلق سواسية عند الله ليس بينه وبينهم قرابة إلا طاعتهم له:

إذاً:

(وَلَكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ (8))

(سورة الشورى)

فرحمة الله لا تنالها إلا إذا أردتها، ولا تنالها إلا إذا دفعت ثمنها، تنالها بطاعته، سيدنا عمر قال لسيدنا سعد، وكان سعد من أقرب الصحابة لرسول الله، كان إذا دخل عليه يقول:

((هذا خالي أروني خالاً مثل خالي))

ما فدّى أحداً إلا سعد بن أبي وقاص قال:

((ارْمِ فِدَاكَ أبي وَأمِّي))

(صحيح البخاري: عن " عَبْدُ اللهِ بْنُ شَدّادٍ ")

ومع ذلك قال له سيدنا عمر بعد موت سيدنا محمد:**" يا سعد لا يغرّنك أنه قد قيل خال رسول الله فالخلق كلهم عند الله سواسية، ليس بينه وبينهم قرابة إلا طاعتهم له ".**

والله أيها الأخوة بإمكان كل واحد منكم أن يصل إلى أعلى عليين بطاعة الله، وطاعة الله بإمكانك، أي أن تصلي الفجر في جماعة، وأن تذكر الله صباحاً، وأن تفكِّر في ملكوت السماوات والأرض، بإمكانك أن تستغفر الله طوال اليوم، أن تدعوه في كل شأن، أن تؤدّي الصلوات في أوقاتها وبإتقانٍ شديد، وأن تنفق من مالك، وأن تطلب العلم الشرعي، وأن تحضر مجالس العلم، كل هذا في إمكانك.

الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر:

لذلك:

(وَلَكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ (8))

(سورة الشورى)

إن أردت رحمة الله فإليك طريقها، وإن أردت الدنيا فإليك طريقها، ولكنك إذا آثرت الآخرة على الدنيا (دققوا) ربحتهما معاً، وإن آثرت الدنيا على الآخرة خسرتهما معاً. فقراء اليهود خسروا الدنيا والآخرة. يقولون إن أحد العلماء الكبار قديماً كان له شأن كبير جداً، وله أتباع كُثُر، وكان بهي الطلعة، وعظيم القدر، وكثير الهيبة، فمرةً كان مع إخوانه في موقف، فنظر إليه رجل ذمي، معذب، فقير، مهان، يعاني من متاعب الحياة كلِّها، وهذا الإنسان الذمي نظر في قول رسول الله صلى الله عليها وسلم أن:

((الدنيا سجن المؤمن، وجنة الكافر))

(الجامع الصغير: عن " ابن عمر ")

فخطر في باله أن يسأل هذا العالم الكبير قال له: يا سيدي يقول نبيكم: الدنيا سجن المؤمن وجنة الكفار، فأي سجنٍ أنت فيه وأية جنةٍ أنا فيها ؟! فقال هذا العالم الجليل: **" لو نظرت إلى ما أنت فيه، إلى ما ينتظر الكافر من عذاب لكنت في جنة، ولو نظرت ما أنا فيه إلى ما وعدني الله به من مثوبة فأنا في سجن ".**

فهذه الدنيا بكل ما فيها من مُتَع، من مكانة، ووجاهة، وشأن رفيع، ومال وفير، وطعام طيّب، ونساء، وقصور، كل ما فيها لا تعدل عند الله جناح بعوضة.

((أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر))

(الجامع الصغير: عن " أبي هريرة ")

العاقل من يُعِدُّ لساعة الموت عدّتها:

ليس بيننا وبين الجنة إلا أن نطيع الله عزّ وجل، والدنيا لا قيمة لها، هي فانية، يأتي الموت ينهي غنى الغني، ألا ترون أن أغنياء كثيرين حينما ماتوا ورّوا تحت أطباق الثرى شأنهم كشأن أفقر إنسان، فهل هناك كفن حرير، وكفن خام ؟ كله خام، وهل يوجد قبر درجة أولى، أو قبر خمس نجوم ؟ كله قبر، الموت ينهي غني الغني وفقر الفقير، ينهي قوة القوي وضعف الضعيف، ووسامة الوسيم ودمامة الدميم، وصحة الصحيح ومرض المريض، الموت يسوّي بين البشر، فلذلك العاقل من يُعِدُّ لهذه الساعة عدّتها، ويعدُّ لها العمل الصالح، ويعد لها طلب العلم، وخدمة الخلق، والأعمال الطيبة التي ترضي الله عزّ وجل. إذاً:

(وَلَكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ(8))

(سورة الشورى)

أعظم تكريم للإنسان أن يُعرّف نفسه بربها:

الذين اختاروا طريق الكفر، أي أنهم ظلموا أنفسهم، هم ما أرادوا أن يظلموا ولكنهم ظلموا أنفسهم، أرأيتَ لو أن إنساناً خَيَّرته بين شيءٍ نفيسٍ جداً وبين عذابٍ شديد فاختار العذاب، ظلم من ؟ ظلم نفسه، يجب أن نعلم علم اليقين أن أشد أنواع الظلم أن يظلم الإنسان نفسه بإبقائها جاهلةً بعيدةً مسيئة، فليس هناك تكريم أعظم من أن تعرّف نفسك بربها، ومن أن تحملها على طاعته، وتوقفها عند أمر الله، أن تجعلها وقافة عنده، أن تأمرها بالحلال وأن تنهاها عن الحرام، هذا أكبر تكريم، وكل واحد منا بإمكانه أن يكون مكرّماً أشد تكريم، والتكريم الحقيقي ما كان عند الله عزّ وجل لقول النبي عليه الصلاة والسلام:

((ابتغوا الرفعة عند الله))

(الجامع الصغير: عن " ابن عمر ")

والرفعة عند الله تحتاج إلى طاعةٍ لله، وإلى إخلاصٍ له، وإنابةٍ إليه، وتطبيقٍ لأمره، وخدمة لعباداته، وإخلاصٍ لهم.

من انقاد وراء شهواته خسر الدنيا و الآخرة:

(وَالظَّالِمُونَ (8))

(سورة الشورى)

الذين اختاروا الشهوة قد اختاروا أن ينقادوا وراء غرائزهم، وحظوظ الدنيا ولم يختاروا ما عند الله في الآخرة، فهؤلاء ظلموا أنفسهم..

(مَا لَهُمْ (8))

(سورة الشورى)

عندما يأتي العذاب ويستحقوا العقاب..

(مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ(8))

(سورة الشورى)

(وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ)

(سورة الأنعام: من آية " 94 ")

فالإنسان في الحياة له أصدقاء، وأتباع وأقرباء، وجماعة، يحس أن حوله أناسًا كثيرين، ولكن يوم القيامة:

(وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ)

(سورة الأنعام: من آية " 94 ")

عدم معرفة الناس بعضهم بعضاً يوم القيامة إلا في أربعة مواضع:

تروي بعض الآثار عن النبي عليه الصلاة والسلام، أن السيدة عائشة سألته: أيعرف بعضنا بعضاً يوم القيامة ؟ نحن في الدنيا لنا أهل وأقرباء، وأم، وأب، وأخوات، وأصدقاء، وجيران، وفي العمل يوجد شخص أعلى منك، وأدنى منك، وصاحب، وصديق، وجار، وزميل، فهذه العلاقات الاجتماعية في الآخرة هل يا ترى نتعرف إلى بعضنا بعضاً، قالت يا رسول الله: أيعرف بعضنا بعضاً يوم القيامة ؟ فقال عليه الصلاة والسلام:

((نعم يا أم المؤمنين إلا في أربعة مواضع (ذكر أربعة مواضع)عند الصراط، وعند الميزان وإذا الصحف نشرت (وفي موضع رابع لا أذكره الآن) وفيما سوى ذلك يعرف بعضنا بعضاً ـ فهذه أمه، وهذا أبوه، وهذا أخوه، وفلان ابن عمه، وابن خالته ـ قد تقع عين الأم على ابنها تقول: يا ولدي جعلت لك صدري سقاءً وبطني وعاءً وحجري وطاءً فهل من حسنةٍ يعود علي خيرها اليوم ؟ ـ (أي أعطني حسنة الله يرضى عليك) فيقول: يا أماه ليتني أستطيع ذلك إنني أشكو مما أنت منه تشكين))

(ورد في الأثر)

(فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلا يَتَسَاءَلُونَ(101))

(سورة المؤمنون)

إذ تأتي ربك وحدك، ليس معك إلا عملك الصالح وطاعتك له **" يا قييس إن لك قريناً يدفن معك وأنت ميت، وتدفن معه وهو حي، فإن كان كريماً أكرمك، وإن كان لئيماً أسلمك ألا وهو عملك "** اجهد أن يكون عملك صالحاً، اجهد أن تطيع الله عزّ وجل، هذا الذي ينفعك عند قبرك.

لا يليق بالإنسان أن يتخذ ولياً إلا الله:

أول ليلة يوضع الإنسان في قبره، يقول الله عزّ وجل: **" عبدي رجعوا وتركوك "** فالإنسان عندما يشيع جنازة بالمقبرة يعزي أقارب الميت بقوله: عظم الله أجركم. ويذهبوا إلى البيت وانتهى الأمر، أما هذا الذي في قبره ليس له إلا الله، وما دام ليس له إلا الله عليه أن يتعرّف إلى الله في حياته. اعرف ربك في الرخاء يعرفك في الشدة.

(وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ(8)أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ (9))

(سورة الشورى)

أي أنه لا يليق بالإنسان أن يتخذ ولياً إلا الله، لا يليق به أن يهب عمره لغير الله، وأن يهب شبابه ووقته وفكره وطلاقة لسانه وماله لغير الله، فهو أهل التقوى وأهل المغفرة، فأنت لا يليق فيك أن تجيّر لغير الله، أن تكون محسوبًا على غير الله عزّ وجل. سألوا عالمًا جليلاً من قطر عربي تجرى له عملية جراحية: لماذا لك هذه المكانة العالية ؟ فأجاب بتواضع جَم: لأنني محسوبٌ على الله. لم يقل لأني محسوب على جهة أرضية، وعلى الجماعة الفلانية.

فيجب عليك أن تكون محسوباً على الله لا على عبدٍ من عباد الله، إما أن تكون عبداً لله وإما أن تكون عبداً لعبدٍ لئيم، كن عبد الله، لا تأخذك في الله لومة لائم.

الجاهل من يتخذ ولياً من دون الله:

(وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ(8))

(سورة الشورى)

ألا ترون معي أيها الأخوة أن هذه الآية تَشِفُّ عن أن الإنسان مخيّر.

(وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ(8)أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ)

(سورة الشورى)

أي هل من الممكن لطالب جامعي يظن أنه يتعلم من شخص جاهل لا يقرأ ولا يكتب ؟ مستحيل، فنقول له: هذا هو الأستاذ وليس هذا.

وهل من الممكن لك أن تدخل إلى دائرة حكومية فيها ألف موظف وفيها مدير عام، وقضيتك متعلقة بالمدير العام، ثم ترجو حاجباً ليوقع لك معاملتك ؟ بذلك تكون لا تعرف شيئًا، فالإنسان عندما يتخذ من دون الله ولياً هو جاهل.

أشد الناس ظلماً و غباء من اتخذ من دون الله أولياء:

إذاً، أتعلِّق آمالاً على غير لله ؟ وهل ترجو غير الله ؟ وتخاف من غير الله ؟ وترجو العطاء من غيره ؟ وتخاف نقمة غيره ؟ فمعنى ذلك أنك جاهل، أو مشرك، فما وحّدْت الله عزّ وجل، فالمؤمن لا يرجو إلا الله، ولا يعطي ولا يمنع إلا لله، ولا يغضب ولا يرضى إلا لله، وهكذا.

(أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ (9))

(سورة الشورى)

أي هو الولي وحده ولا ولي سواه، لذلك أشد الناس جهلاً..

(يَا بُنَيّ لا تُشْرِكْ باللّهِ إنّ الشّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ(13))

(سورة لقمان)

فأشد الناس جهلاً، وأشدهم ظلماً، وغباءً، وشقاءً من اتخذ من دون الله أولياء، الله هو الولي، ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

آيات التوحيد كثيرة منها:

لذلك فآيات التوحيد كثيرة:

(فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمّ لا تُنْظِرُونِي(55) إِنّي تَوَكّلْتُ عَلَى اللّهِ رَبّي وَرَبّكُمْ مَا مِنْ دَابّةٍ إِلا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنّ رَبّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ(56))

(سورة هود)

(يَدُ اللّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ)

(سورة الفتح: من آية " 10 ")

آياتٌ كثيرة.

(مَا لَهُم مّن دُونِهِ مِن وَلِيّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا)

(سورة الكهف)

(وَهُوَ الّذِي فِي السّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الأَرْضِ إِلَهٌ (84))

(سورة الزخرف)

(وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ)

(سورة الحديد: من آية " 4 ")

آيات التوحيد تبعث في نفس الإنسان الطمأنينة و الراحة:

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكّلْ عَلَيْهِ)

(سورة هود: من آية " 123 ")

(لَهُ مَقَالِيدُ السّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ)

(سورة الزمر: من آية " 63 ")

المقاليد أي المفاتيح.. لَهُ مَقَالِيدُ السّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ..كلما قرأت آيات القرآن الكريم الدالّة على التوحيد ترتاح نفسك، لأنّ أمرك متعلِّق بواحد، فالإنسان يرتاح، وما الذي يمزّق الناس ؟ أن تتوزع بين أولياء كثيرين..

العذاب الأليم عاقبة من يدعو مع الله إلهاً آخر:

(فَلا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنْ الْمُعَذَّبِينَ(213))

(سورة الشعراء)

فمن أكبر أسباب العذاب أن تدعُو مع الله إلهاً آخر.

(فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِ الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(9))

(سورة الشورى)

والمقصود هنا بإحياء الموتى، أن الإنسان حينما يكون جاهلاً بعيداً منقطعاً كأنه ميت، والدليل:

(أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ)

(سورة النحل: من آية " 21 ")

" يا بني مات خزّان المال (وهم في أوج حياتهم) والعلماء باقون بعد حياتهم " فالموت نوعان، موت حقيقي، وموت مجازي، الموت الحقيقي أن يفقد حركة القلب، ويتعطّل دماغه، فهذا هو الموت الحقيقي، ولكن الموت النفسي أن يعيش كما تعيش البهائم ؛ يأكل ويشرب، وينغمس في الملذّات من دون أن يبحث عن ربه ولا عن منهجه ربه، ولا أن يعرف لماذا خلقه الله عزّ وجل..

ليس من مات فاستراح بميتٍ إنما الميت ميت الأحياء

* * *

من عامل الناس كما يعامل الله عز وجل كأنما عبدهم من دون الله:

"يا بني مات خزّان المال وهم أحياء، والعلماء باقون ما بقي الدهر، أعيانهم مفقودة وأمثالهم في القلوب موجودة ".

إنه على كل شيء قدير، فلا تخف من أحد، ولا تخشَ أحداً ولا تخشَ إلا الله، ولا تخشَ مرضاً عضالاً، فالله قادر يشفيك شفاءً ذاتياً، فلا تخشَ إنسانًا قوياً هو بقبضة الله عزّ وجل.

(وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(9))

(سورة الشورى)

أي تعلقت قدرته بكل ممكن.إذاً:

(أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ (9))

(سورة الشورى)

قد يقول أحدهم: أيعقل أن يتخذ الإنسان من دون الله ولياً، الله هو الخالق ؟ الجواب: إنك تعامل هؤلاء الذين اتخذتهم أولياء كما تعامل الله عزّ وجل، أي إنك ترضيهم بسخط الله، وتعصي الله من أجلهم،

تعتمد عليهم كلياً، وتعلِّق عليهم كل الآمال، فأنت لم تقل هؤلاء آلهة، فهذا الكلام غير معقول أن تقوله، لكنك حينما عاملتهم كما تعامل الله عزّ وجل، عبدتهم من دون الله، ومَحَضْتّهم كل إخلاصك وكل ثقتك من دون أن يكونوا أهلاً لذلك فقد اتخذتهم أولياء من دون الله.

كل شيء يملكه الإنسان هو لله عز وجل:

الله هو الولي، لا ينبغي لك أن تتخذ ولياً إلا الله، وأن تعتمد إلا على الله، وتثق إلا بالله، وتمحض غير الله ودّك، فشبابك، عمرك، ذكاؤك، وعقلك، ولسانك، وقلمك، وعلمك، ووقتك، ومالك، وصحّتك، وكل شيء تملكه لله عزّ وجل..

(قُلْ إِنّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ(162)لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوّلُ الْمُسْلِمِينَ(163))

(سورة الأنعام)

(وَهُوَ يُحْيِي المَوْتَى (9))

(سورة الشورى)

تأكّدوا أن الإنسان قبل أن يعرف الله ميّت، وانه إذا عرف الله حي، طالبوني بالدليل:

(يَا أَيُّهَا الّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلّهِ وَلِلرّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ)

(سورة الأنفال: من آية " 24 ")

أي كنتم أمواتًا قبل أن تعرفوه فأحياكم بمعرفته.

عدم استواء المؤمن مع الكافر في الدنيا و الآخرة:

إنسان يكون تائهاً، شارداً، ضالاً، فاسقًا، فاجراً، لا يعرف شيئاً، الحلال كالحرام، والحق كالباطل، والمذهب الوضعي كالمذهب الإلهي، فهو ضائع في الحياة، يسير بطريق مسدود، ويسعى بلا هدف، فمن هذا شأنه هل هو إنسان ؟ الإنسان يعرف ربه، وهدفه، وطبيعة الحياة، وأثمن ما في الحياة، ورسالته بالحياة، يقرأ القرآن، يتفقه في كتاب الله، ويقرأ حديث رسول الله، والصحابة قدوته، والآخرة مَحَطُّ آماله، والانضباط سمة من سمات حياته، فهل هذا كهذا ؟ دققوا في هذه الآيات:

(أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ (18))

(سورة السجدة)

(أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ (35) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (36))

(سورة القلم)

(أمْ حَسِبَ الّذِينَ اجْتَرَحُوا السّيّئَاتِ أن نّجْعَلَهُمْ كَالّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحَاتِ سَوَاء مّحْيَاهُم ومَمَاتُهُمْ سَاء مَا يَحْكُمُونَ)

(سورة الجاثية)

إذاً:

(فَاللّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي المَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(9))

(سورة الشورى)

ثقة الإنسان بربه تبعد عنه الهم و الحزن:

إذا قلنا:

(وَهُوَ عَلَى كُلّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(9))

(سورة الشورى)

هذه الآية وحدها لو تفهّمناها لا تترك ألماً بالإنسان ولا حزن، على كل شيء قدير، إذا قرأها المريض يلقى في قلبه شعاع الأمل، على كل شيء قدير، وهناك أمراض عُضالة أجمع الأطباء على أنها مميتة، وجاءت يد الله الرحيمة فتدخّلت فشفت هذا المريض شفاءً ذاتياً، شيء عظيم جداً أن تثق بالله، من الفقر يجعلك غنياً، من الضعف يجعلك قوياً، من المرض يجعلك صحيحاً، ومن قلّة الشأن يجعلك ذا شأن كبير..

(أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ(1) وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ(2) الّذِي أنقضَ ظَهْرَكَ(3) وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ(4))

(سورة الشرح)

من وضع ثقته بالله حُلّت جميع مشكلاته:

مثلاً وقد ذكرتها اليوم بعقد قران: هل هناك مصيبة بالأرض تفوق أن يكون الإنسان في بطن حوت وفي أعماق البحر وفي الليل ؟ ظلمة الليل، الليل وحده موحش، والليل بالبحر أشد وحشة، وظلمة أعماق البحر، وظلمة بطن الحوت، سيدنا يونس:

(فَنَادَى فِي الظّلُمَاتِ أَنْ لا إِلَهَ إِلا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنّي كُنتُ مِنْ الظّالِمِينَ(87)فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجّيْنَاهُ مِنْ الْغَمّ)

(سورة الأنبياء)

القصة انتهت، وبدأ القانون:

(وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ(88))

(سورة الأنبياء)

هذه الميزة ليست لسيدنا يونس وحده بل لكل مؤمن هكذا الله قال، مهما رأيت الخطب مُدْلهمّاً..

وربَّ نازلةٍ يضيق بها الفتى ذرعاً وعند الله منها المخرج

نزلت فلما استحكمت حلقاتها فرجت وكان يظن أنها لا تفرج

* * *

الإنسان قبل أن يعرف الله ميّت فإذا عرفه دبّت الحياة في قلبه:

الإنسان إذا وضع ثقته بالله لا توجد عنده مشكلة إطلاقاً، لا يوجد عنده هم، ولا حزن، فالله على كل شيء قدير، ويحيي الموتى، والإنسان قبل أن يعرف الله ميّت، فإذا عرفه دبّت الحياة في قلبه، فالمؤمن حي، عنده أحاسيس، وقيَم، ومشاعر، ومنهج، وهدف، ووسائل تخدم هذا الهدف.

وفي درس آخر إن شاء الله تعالى ننتقل إلى قوله تعالى:

(وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ(10))

(سورة الشورى)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الشورى 042 - الدرس (03-15): تفسير الآيات 9-11، الله عز وجل الأنسان ولا أحد سواه

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 11-02-1994

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الكرام... مع الدرس الثالث من سورة الشورى.

الولي هو الله و هو الذي يتولى أمرنا:

مع الآية التاسعة وهي قوله تعالى:

(أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ (9))

(سورة الشورى)

الأولياء جمع وليّ، والولي هو الذي يتولّى أمرنا، وتوجيهنا، و تستعين به، وتسترشده، ونحتمي به، وتلوذ إليه، فالإنسان لا ينبغي له أن يتخذ من دون الله ولياً، لماذا؟ لأن الله سبحانه وتعالى هو الذي يعلم، وغيره لا يعلم، فإذا استعنت بمن لا يعلم أوردك المهالك، والله تعالى هو القوي وغيره ضعيف، فإذا استعنت بالضعيف أسلمك إلى المهالك، فالله سبحانه وتعالى مُسعد وغيره لا يُسعد، فإذا طلبت السعادة في غيره شقيت ولذلك ربنا عزّ وجل يقول:

(أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ (9))

(سورة الشورى)

هذه الصيغة تفيد القَصر ولو أن الله سبحانه وتعالى قال: فالله وليُّك. فليس فيها معنى القصر.

من ضعف تفكير الإنسان وشقائه أن يتخذ من دون الله وليّاً:

لكن..

(فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ (9))

(سورة الشورى)

أي هو وحده الولي ولا وليّ سواه، فإذا قلنا: فلان شاعر. يقول شخص: فلان هو الشاعر. أي هؤلاء كلّهم ليسوا شعراء من كلمة هو، فالله هو الولي، فهذه العبارة تفيد القصر، أي أنّك إذا أردت أن تتخذ وليّاً ليس لك إلا الله ؛ لأنه يعلم وغيره لا يعلم، ولأنه قوي وغيره ضعيف، لأنه مُسعد وغيره محزن، فمن ضعف تفكير الإنسان ومن شقائه أن يتخذ من دون الله وليّاً، والحقيقة فالقضيّة قد تكون عفويّة، فلا

يعقل أن يقول الإنسان: فلان وليّ من دون الله. لا، لكن حينما يتجه الإنسان، ويتوهَّم أن الخير عنده، وأن السوء إذا غضب، وأن السعادة إذا رضي، وأنه بإمكانه أن يعطيك أو أن يمنعك اتخذته وليّاً وأنت لا تدري.

فبوعي الإنسان المسلم صعب أن يقول لك: أنا اتخذت فلاناً ولياً من دون الله. فهذه لا تقع ولكن حينما تنساق لإرضاء الإنسان، أو حينما تعجب بقوّة إنسان، أو بمال إنسان، أو حينما تتوهَّم أن هذا الإنسان يُسعدك من دون الله اتخذته ولياً وأنت لا تشعر..

من اتخذ من دون الله ولياً اتخذ شيئاً مُنْحَطّاً:

(أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ (9))

(سورة الشورى)

كلمة:

(مِنْ دُونِ)

فالإنسان توّاق للكمال، وتواق للأقوى، وللأعلى، و للأجمل دائماً، فعندما يتخذ الإنسان من دون الله ولياً اتخذ شيئاً مُنْحَطّاً، لأنه إذا قيس الإنسان بخالق الأكوان فلا شيء هو وقد تحتاجه في أشد الساعات فلا يلبيك، وقد تطلب منه فلا يعطيك، وقد تستنجد به فلا يُنجدك، وقد تعتمد عليه فلا يُعْتَمَدُ عليه..

(أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ (9))

(سورة الشورى)

ربنا عزّ وجل يؤكِّد لنا أن الله هو الولي، ولذلك فالله عزّ وجل يقول:

(اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنْ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمْ الطَّاغُوتُ)

(سورة البقرة: من آية " 257 ")

الظلمات جمع ؛ فظلمات العقائد، وظلمات العادات، وظلمات التقاليد، وظلمات الشهوات. أما النور فواحد، فالحق لا فيتعدّد، أما الباطل يتعدّد، آلاف مؤلّفة من ألوان الباطل العقائدي والسلوكي، لكن الحق واحد.

المؤمن إن توسّم الخير بمؤمن آخر هذا لا يتناقض مع التوحيد:

إذاً:

(اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا (257))

(سورة البقرة: من آية " 257 ")

والمؤمن حقيقة أيها الأخوة يشعر أن الله وليُّه، وهو الذي يتولّى أمره، وبه يستعين، وبه يسترشد، ألا تقرؤون في أول دعاء الوتر:

((اللهم إنا نستعينك ونستغفرك ونثني عليك ولا نكفرك، ونخلع ونترك من يفجرك، اللهم إياك نعبد ولك نصلي ونسجد وإليك نسعى و نحفد، نرجو رحمتك ونخشى عذابك إن عذابك بالكفار ملحق))

(كنز العمال)

أي أن الله هو الولي، والمؤمن حقيقة إن لم يدرك هذا المعنى فليس مؤمناً، فمؤمن على أعتاب كافر، ومؤمن يظن الخير بالكافر، ويرجو الخير عنده، مؤمن ويبذل ماء وجهه أمامه فهذا مستحيل، فيمكن لمؤمن أن يتوسّم الخير بمؤمن ولكن هذا لا يتناقض مع توكّله على الله عزّ وجل، ويمكن لمؤمن أن يتوسّم السعادة إذا عاشر مؤمناً أعلى منه، فهذا الشيء لا يتناقض مع التوحيد، لكن مؤمن الله وليُّه ويتّجه لغير الله، ويعتمد على غيره، ويأنس بغيره، ويستعين بغيره، فمعنى ذلك أنه اتخذه ولياً من دون الله.

على كل إنسان أن ينتبه لقلبه:

أهم شيء للإنسان أن ينتبه لقلبه، وعلى من يعتمد ؟ وبمن يثق ؟ وبمن يسترشد ؟ فأحياناً لو أن الإنسان سأل عامة الناس في موضوع تأتيه الإرشادات خلاف القرآن الكريم، فيقول لك مثلاً: **" لا تديّن فلاناً، احفظ دراهمك بلا جنون "** فيوجد تضخُّم نقدي بالمئة سبعة عشر فكيف تدينه، ولو سألت مئة شخص ينصحك بعدم إقراض الآخرين، أما ربنا قال:

(مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا)

(سورة البقرة: من آية " 245 ")

فالله عدّ القرض له وليس لعبده، وقال لنبيه داود:

((يا بن آدم، مرضت فلم تعدني. قال: يا رب، وكيف أعودك وأنت رب العالمين ؟ قال: أما علمت أن عبدي فلاناً مرض فلم تعده ؟ أما علمت أنك لو عدته لوجدتني عنده؟))

(الجامع الصغير: عن " أبي هريرة ")

فالشيء الدقيق في الموضوع أن المؤمن لا يمكن أن يسترشد، أو يسأل، أو يستنصح، أو يتحرّك بتوجيه غير المؤمن، ومعنى هذا أنه ليس مؤمناً..

(اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا)

(سورة البقرة: من آية " 257 ")

ولاية الله لك أن تطيعه و تنفذ أوامره:

الله توجيهه بالقرآن، وإذا احتاج القرآن إلى توضيح فالنبي يفسِّر القرآن الكريم، وبعد النبي الصحابة، وبعدهم الفقهاء المجتهدون، فإذا أردت حكم الشرع في موضوع فكأنّك تقول: الله وليِّي، فأنا لا أتحرّك إلا بتوجيهات ربي، وبتعليمات الصانع، وبمضمون كتاب الله. ألم تقل السيدة عائشة: " كان خلقه القرآن". الحقيقة ولاية الله لك تعني أن تطيعه، قال لك مثلاً:

(وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ)

(سورة البقرة: من آية " 221 ")

ومعظم الأسر يريدون شاباً، ويريدون دخلاً كبيراً، وبيتاً واسعاً، ومركبة، وآخر شيء يسألون عن دينه، ويمشون بخلاف القرآن الكريم، ولذلك يعانون من متاعب لا تحتمل، فقد يأتي هذا الخاطب فيذلّهم، ويؤذي ابنتهم، وينغِّص عليهم عيشهم، طمعوا بغناه ونسوا دينه، ومعنى هذا أنهم تحرّكوا بتوجيهات غير توجيهات الصانع.

المؤمن الصادق لا يتحرّك إلا بتوجيهات خالقه:

ما معنى:

(اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا)

(سورة البقرة: من آية " 257 ")

أي أنت لا تتحرّك إلا بتوجيهات خالقك في بيتك، وفي زواج بناتك، وفي تزويج أولادك، واختيار صنعتك، فإذا كانت صنعة مبنيّة على معصيّة أو فيها إعانة لمعصية فربنا قال:

(وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ)

(سورة المائدة: من آية " 2 ")

فإذا كنت تساهم على تقوية منكر، بمعاونة على اغتصاب حقوق، فهذا عمل لا يرضي الله عزّ وجل، فلا يوجد مؤمن على الإطلاق يتحرّك بتوجيه كافر، أو مؤمن يتحرّك من دون توجيهات خالق الكون، فأنت آلة معقّدة جداً لك صانع، وكل واحد منّا يراقب نفسه إذا اشترى آلة غالية كثيراً، ونفعها عظيم، ودخلها كبير، فلا يمكن له أن يسأل جاره، قد يكون جاره إنساناً صالحاً جداً، قد يكون إمام مسجد، أما هذا كمبيوتر يسأل خبير الشركة، لن يسأل شخصاً أميّاً بهذا الموضوع، يقول لك: آلة غالية سأسأل الخبير، يقرأ التعليمات ويترجمها ويهتم فيها، فلماذا أنت في أمور الآلات المعقّدة لا تقبل إلا رأي الخبير، وإذا كان مهندس جاء من شركة هذا أقوى بكثير، ويمكن ألا يعجبك مهندس مقيم في بلدك، فيقول لك: هذا لا يفهم. أنت تريد مهندس الشركة لأنك خائف على الآلة.

فلماذا تتساهل في أمر دينك ؟ وتتلقى توجيهات من غير الله عزّ وجل ؟ يقول لك شخص: يا أخي ابنك إن لم يتعلّم المحادثة في دولة أجنبية فلا يقوى باللغة الإنكليزية، وهي أساس التجارة الآن. والله كلام صحيح، ولكن غاب عنك أنه هناك يجوز أن يضيع دينه، وأن يرجع إنساناً آخر.

من لوازم إيمان المؤمن أن يعرف أمر الله عزّ وجل:

المؤمن الصادق لا يتحرّك إلا بتوجيهات خالقه، ولذلك يسأل، ما أسباب السؤال ؟ لأن وليّك الله عزّ وجل..

(اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا)

(سورة البقرة: من آية " 257 ")

فما حكم هذا الموضوع ؟ هل هو مباح، أم فرض، أم واجب، أم سُنّة مؤكّدة، أم سنة غير مؤكّدة، أم مكروه تنزيهاً، أم تحريماً، أم حراماً ؟ هذه كل الأحكام، فمعنى:

(اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا)

(سورة البقرة: من آية " 257 ")

أن المؤمن لا يتحرّك إلا بتوجيهات خالقه، ولذلك يسأل عن الحكم الشرعي، وطلب الفقه حتمٌ واجبٌ على كل مسلم، ومن لوازم إيمان المؤمن أن يعرف أمر الله عزّ وجل، ولا يكفي أن يعرف الله. ولكن كيف تعبده ؟ فيجب أن تعرف أمره، وكيف تتقرّب إليه ؟ بطاعته، فأين أمره ؟ فلاحظ أن معرفة الله تتكامل مع معرفة أمره.

على كل إنسان أن يتعلم أمور الفقه:

إذا فكّرت بالكون تعرف الله، وإذا قرأت الأحكام الشرعيّة تعرف أمره، فليس من المستغرب أن يكون في بيت كل مسلم كتاب فقه مثلاً، فيه أحكام الطهارة، وأحكام الوضوء، والصلاة، والصيام، والحج، والزكاة،واليمين، والوكالة، والحوالة، فهناك أشياء نتعامل معها يومياً كالشراكة مثلاً، و المضاربة، والقرض الحسن، وأحكام الربا، ومن دخل السوق من دون فقه أكل الربا شاء أو أبى.

إذاً فالقصد أن الله ولي الذين آمنوا لا يتحرّكون إلا وفق تعليماته، وإلا بأوامره، إذاً من لوازم هذه الآية أن تتعلّم أمور الفقه، وهناك أشياء بالفقه لابدّ من أن تعرفها، وهي فرض عين على كل مسلم، مثلاً أحكام الصلاة والصوم والحج والزكاة، وكل حرفة لها أحكام فقه متعلِّقة بها، فإذا كنت شريكاً فيجب أن تعلم أحكام الشراكة، وإذا كنت طبيباً فأحكام الجُعالة، فالطبيب والمحامي والمدرّس يلزمهم أحكام الجُعالة، وإذا كنت تاجراً فأحكام البيع والشراء، هذا إذا آمنت بالله إيماناً حقيقياً وأردت أن تطيعه لابدّ

من معرفة أمره، لكي يتولاك الله، فأنت عندما تنقِّذ أحكام الصانع يتولاك الله. إذ عندما يمرض الإنسان يلجأ إلى طبيب، لماذا لجأ إليه ؟ لعلمه، قال له الطبيب: اترك الملح، وامش كل يوم، وخذ هذا الدواء. وهذه تعليمات الطبيب، فمعنى هذا أن الطبيب تولّى أمر شفائك، فلابدّ من طاعته.

يُحْي المَوْتى: من معانيها:

1 ـ الله عز وجل بعد أن يموت الإنسان يحييه للحساب:

إذاً:

(أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ (9))

(سورة الشورى)

وهناك معنى دقيق جداً بهذه الآية، قال:

(وَهُوَ يُحْيِ المَوْتَى (9))

(سورة الشورى)

أي أن الله عزّ وجل لخّص ولايته بكلمة واحدة، أي تكون ميتاً فتحيا بهذه الولاية، فإذا جهل الإنسان ربه، فلا يعرفه ويتحرّك من دون طاعة لله عزّ وجل، إذ يتحرّك بمعصية، هذا الإنسان ميّت القلب. إذا عرف ربه، وعرف أمره، واستقام عليه، وأقبل عليه أصبح قلبه حيّاً، ربنا قال:

(وَهُوَ يُحْيِ المَوْتَى (9))

(سورة الشورى)

يحيي الموتى فبالمعنى الضيّق، الميّت يحييه، إما أنه بعد أن يموت يحييه للحساب، أو موت العدم ولم نكُ من قبل شيئاً، هذا معنى.

2 ـ الإنسان بلا عمل صالح إنسان ميّت ومن عرف الله فهو حي ولو مات:

والمعنى الأوسع تؤكِّده الآية الكريمة:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ)

(سورة الأنفال: من آية " 24 ")

تؤكِّده الآية الثانية:

(أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ)

(سورة الأنعام: من آية " 122 ")

فمعنى هذا أن الإنسان قد يكون ميّتًا وهو في أوج حياته، وقد يكون حياً وهو تحت التراب، وهذا المعنى العميق للموت والحياة، فالموت والحياة بهذا المعنى إنسان بلا عمل صالح، وبلا معرفة لله يعيش لحظته لشهواته هذا ميّت ؛ إنسان عرف الله، وعرف أمره، ويمشي على منهج، له صلة بالله، ويعمل للآخرة هذا حي، ولو مات، ولهذا قال الله عزّ وجل:

(وَلَا تَحْسَبَنّ الّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبّهِمْ يُرْزَقُونَ(169))

(سورة آل عمران)

فولاية الله عزّ وجل تجعل الميّت حيّاً، وقول الشاعر المشهور:

ليس من مات فاستراح بمَيْت إنما الميّتُ ميّتُ الأحياءِ

* * *

إذا فالإنسان الذي لا يعرف الله كالبهيمة، يتحرّك وفق شهواته ومصالحه، وليس عنده قيم ولا روادع ولا نوازع ولا مبادئ، يتحرّك كالدابّة المتفلّتة من أي منهج فهذا ميّت.

إن كان الإنسان ميتاً لا يحيا إلا بالله تعالى:

إذاً ربنا عزّ وجل يقول:

(أَمْ اتّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ (9))

(سورة الشورى)

أي هو وحده الولي ولا وليّ سواه..

(وَهُوَ يُحْيِي المَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(9))

(سورة الشورى)

أيضاً هذه تطمين، أي أنك عندما اتخذت الله وليّاً الله على كل شيء قدير، إذاً ليس هناك مشكلة، ولا هم، مهما تكن القضيّة عويصة، والمرض عُضالاً، والفقر مدقعاً، والوضع سيئاً فالله على كل شيء قدير. وهكذا تعلّقت قدرة الله بكل ممكن.

إذاً أولاً: إن كان الإنسان ميتاً يحيا بالله، وإن كان يعاني مشكلةً فالله على كل شيءٍ قدير، فلمَ لا تتخذه ولياً ؟! لذلك دعاء السَحَر:

((فَإِذَا مَضَى ثُلُثُ اللّيْلِ أَوْ نِصفُ اللّيْلِ نَزَلَ إِلَى السّمَاءِ الدُّنْيَا جَلّ وَعَزّ فقال هَلْ مِنْ سَائِلٍ فَأُعْطِيَهُ هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ فَأَغْفِرَ لَهُ هَلْ مِنْ تَائِبٍ فَأَتُوبَ عَلَيْهِ هَلْ مِنْ دَاعٍ فَأُجِيبَهُ، حَتّى يَطْلُعَ الْفَجْرُ))

(مسند أحمد: عن " أبي هريرة ")

ونحن الآن في شهر رمضان، فهذا شهر القُرْب، شهر الاتصال بالله عزّ وجل، شهر البذل، وشهر أن الله سبحانه وتعالى يعافي عباده المؤمنين من جميع الهموم، من جميع المصائب.

الغافل عن الله إنسان ميت:

إذاً التركيز في هذه الآية:

(فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ (9))

(سورة الشورى)

فليس غيره ولياً، هو يعلم وغيره لا يعلم، وهو قوي وغيره ضعيف، وهو يسعد وغيره لا يسعد.النقطة الثانية:

(وَهُوَ يُحْيِي المَوْتَى (9))

(سورة الشورى)

الإنسان بالغفلة عن الله ميّت، فإذا أقبل عليه حَيَا قلبه..

(وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(9))

(سورة الشورى)

أي مهما تكن المشكلة كبيرة فالله عزّ وجل عليها قدير، ولذلك الناس حينما يدعون ربّهم عزّ وجل يقول بعضهم: يا رب يا من لا يعجزك شيءٌ في الأرض ولا في السماوات أنت على كل شيء قدير، فالإنسان أحياناً بجهل منه إذا كان له صلة مع شخص قوي يقول لك: لا يوجد مشكلة عندي. مع أنه مع شخص عادي، فيجوز أن يموت فجأةً، فكيف إذا كان له صلة مع خالق الكون ؟.

الله عز وجل حاكم عادل يحكم بين الناس جميعاً:

الآن الآية التي بعدها:

(وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ(10))

(سورة الشورى)

والآن توجد موضوعات خلافيّة بين الناس لا يعلمها إلا الله، بالعقائد، والمذاهب، والتطبيقات، ونظريات اقتصاديّة، ونظريات نفسيّة، وعلاقات اجتماعيّة، وكل إنسان يدّعي أنه على حق وأن نظريّته صحيحة، والخلاف واحد، فالناس فرق، واتجاهات، وأصحاب مبادئ وضعيّة وغير وضعيّة، وكلٌ يدّعي وصلاً بليلى، فهذه زحمة الخلافات فمن يقضي بينها ؟ الله سبحانه وتعالى.

إذا كان هناك سبع قطع معدنيّة صفراء لامعة، وواحدة منها ذهب عيار أربعة وعشرين، والباقي معدن خسيس مطلي بمعدن نفيس، فكلٌ يدعي أنها ذهب خالص، أما هي فواحدة فقط ذهب خالص، ولو أنه صار خلاف، ومنازعات، ومشكلات، وأخذ ورد، يأتي الخبير فيقول: هذه الذهب، وهذه كلها معدن

خسيس، بينما هذه من المعدن النفيس وتلك من المعادن الخسيسة. وانتهى الأمر، فالذي يحكم هو الله عزّ وجل، وربنا عزّ وجل يحكم وينفِّذ.

الله عزّ وجل حكمه تنفيذي:

أحياناً تجد خبيراً يعرف الحقيقة ولكنه ضعيف، وتجد شخصاً قويّاً لا يعرف الحقيقة، لكنه قوي، والذي يعرف لا يقوى على شيء، لكن ربنا عزّ وجل بكلمة

(يقضي)

فتشير إلى المعرفة والتنفيذ بآنٍ واحد. فما الفرق بين أن تسأل المفتي وأن تلجأ إلى القاضي ؟ يوجد فرق بينها، المفتي يقول لك: القضيّة جوابها كذا وكذا، أما القاضي يصدر قراراً ويحال للتنفيذ، بالتنفيذ الشرطة يقبضون على السارق، القاضي معه حكم تنفيذي، أما المفتي معه حكم استشاري، فرق كبير جداً. والله حكم بين الناس لا يقول لأحدهم: أنت عل حق وأنت على باطل، لا، فالذي على حق يرفع شأنه، والذي على باطل يخسف به الأرض، فهناك فرق، إذ حكم الله غير حكم عبد الله، الله عزّ وجل إذا حكم نفّذ.

وأحياناً يحكم على إنسان أنه على حق فيرفع شأنه، ويقويّه ؛ ويحكم على إنسان مبطل أنه على باطل فيضعفه، ويبطل عمله، ويضعفه. وعندما حكم الله بين النبي وأعدائه فما معنى حكم الله ؟ أي أنت على حق وأنتم على باطل، فالله رفع شأن النبي ونصره، وهؤلاء خذلهم وجعلهم في مزابل التاريخ، وانتهى الأمر، إذا حكم الله غير حكم عبد الله، إذا حكم الله فحُكمه مع التنفيذ الكامل، إذ تأخذ حقّك كاملاً..

(وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ (10))

(سورة الشورى)

فأنت بطولتك أن تكون على حق.

من كان على حق رفعه الله و نصره و من كان على باطل خذله و ابتعد عنه:

الله عزّ وجل قال:فَتَوَكَّلْ يا محمّد..

(فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ(79))

(سورة النمل)

(قُلْ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ(91))

(سورة الأنعام)

فقوّتك تستمدُّها من الله، فإذا كنت مع الله انتهى كل شيء، إن لم تكن معه فالمشكلة كبيرة جداً.
فالآن كل أنواع الخلافات ؛ خلافات في العقائد، وفي النظم، والقيَم، فيجوز في مجتمع أن يكون هذا الشيء ليس عاراً، فالآن في المجتمعات الغربيّة عملية الزنا أهون من تناول حبة سكّر، إنه أمر لا يحاسب الإنسان عليه إطلاقاً، شيء طبيعي جداً، فمعنى هذا أنه مجتمع فاسد، فإذا صار خلاف بالعقائد، أو بالنُظُم، أو خلاف بالقيَم، أو خلاف بالحقوق، أو بالتطبيقات، أو بالوسائل، إذا صار خلاف بين بني البشر فالحكم لله، فالله عزّ وجل حكمه تنفيذي، أنتم على حق يرفعكم وينصركم ويؤيّدكم ؛ وأنتم على باطل يخذلكم.

امتحان الله عز وجل للعباد:

لكن ربنا لحكمةٍ يريدها أحياناً يسمح للباطل أن يجول جولة لكي يمتحن الناس، إذ هناك أناس إذا قوي الباطل يأخذون به، ينسوا الحق، هم مع الأقوى وليسوا مع الحق، فهذه مرحلة استثنائيّة لأن الله قال:

(إِنّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا(81))

(سورة الإسراء)

فالله يسمح للباطل بعمل جولة أو جولتين يمتحن فيها الناس، من مال معه رغبة فيما عنده وفي قوّته فقد سقط من عين الله، ومن بقي على إيمانه وعلى ورعه واستقامته فقد ارتفع في عين الله.

الحكمة من كون الأنبياء ضعفاء:

أساساً هناك نقطة مهمّة جداً قد تغيب عن معظم الناس، لماذا كان الأنبياء ضِعافاً، لمَ لم يكونوا أقوياء ؟ لو كانوا أقوياء ودعوا الناس إلى شيءٍ ما لأقبل الناس كلُّهم على تصديقهم، ولكن هذا ليس تصديقاً وليس إيماناً بل خوفٌ منهم، فجعلهم ضعفاء لحكمةٍ رائعة، بحيث إنك يمكن أن تتهم النبي بالكذب، أو بالجنون، أو بالسِحر، أو الشعوذة، أو الشِعر، وتنام مساءً ناعم البال، لذلك الذي يؤمن بالنبي له عند الله مقامٌ كبير لأنه ما آمن به خوفاً ولا طمعاً، فالنبي لا يوجد عنده شيء ليعطيه إياه.
وأوضح موقف عندما كان النبي عليه الصلاة والسلام يمر على آل ياسر وهم يُعَذّبون، فلا يستطيع أن يفكّهم من تعذيبهم فيقول:

((اصبروا يا آل ياسر! فإن موعدكم الجنة))

(كنز العمال)

والدليل الآخر عندما كان النبي في الطائف سُخر منه وكذّب وضُرب، هو رسول الله. فالحكمة العظيمة من كون الأنبياء ضعفاء من أجل أن تكون قيمة الذين يؤمنون بهم عالية جداً، آمنوا بهم لا عن خوف ولا عن طمع، فهم ضعفاء وليس معهم الدنيا.

القوة والمال يأتيان ويذهبان أما الذي يبقى فهو أن تكون على حق:

الناس أحياناً يقبلون على الشيء إما خوفاً طلباً لسلامتهم، أو طمعاً بما عند هذا القوي، إما خوفاً من بطشه أو طمعاً بما عنده، و النبي جعله الله ضعيفًا في البدايات لحكمةٍ أرادها، حتى يكون إيمان من آمن به عظيماً جداً، لأنه ما آمن خوفًا منه فهو ضعيف، ولا عن طمعٍ في دنيا فما عنده دنيا..

(قُلْ إِنِّي لا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلا رَشَدًا(21))

(سورة الجن)

(قُلْ لا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ)

(سورة االأنعام: من آية " 50 ")

(قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ(13))

(سورة الزمر)

فإذا كان الإنسان مستضعفًا فلا مانع، وله الشرف، ونبينا كان في مرحلةٍ مستضعفاً، لكن الأمر أن تكون على الحق، فالقوة والمال يأتيان ويذهبان، أما الذي يبقى فهو أن تكون على حق.

العبرة بخواتم الأعمال:

وقد خطر في بالي أنه صلى الله عليه وسلم في البدايات قال:

((لقد أوذيت في الله وما يؤذى أحد، وأخفت في الله وما يخاف أحد، ولقد أتت عليّ ثلاثون من بين يوم وليلة وما لي ولبلال طعام يأكله ذو كبد إلا شيء يواريه إبط بلال))

(الجامع الصغير: عن " أنس ")

فتعال الآن واشهد مقام النبي عليه الصلاة والسلام، فترى الناس من كل حدبٍ وصوب، من كل الملل والنِحَل، لم يروه، ولم يستمعوا له، ولم يأخذوا من عطائه، مضى على وفاته ألفٌ وخمسمئة عام ومع ذلك ذكره يعطِّر المجالس، يأتون إليه من أطراف الدنيا، يقفون أمام قبره يبكون، ويناجون، ويتأثَّرون، ما معنى ذلك ؟ العبرة ليست بالبداية بل في النهاية.

ألم يكن في الطائف مستضعفاً ؟ ألم يُضْرَب فيها ؟ ألم يكذّب ؟ ألم يسخر منه ؟ ألم يقل:

((اللهمّ إني أشكو إليك ضعف قوّتي، وقلّة حيلتي، وهواني على الناس يا ربّ المستضعفين))

(الطبراني عن "عبد الله بن جعفر"، وفي سنده ضعف)

إذا كان سلطان كبير يحكم ثلثي الأرض جدّد شيئًا بمقام النبي يكتب: الفقير إليه تعالى، أحقر الورى. ليس له ذكر أمام النبي.

فلذلك أيها الأخوة العبرة لا بالبدايات بل بالنهايات، وبخواتم الأعمال، وأن تكون لك بداية محرقة حتى تكون لك نهاية مشرقة، فالعبرة فيما يُختم عملك، الدعاء الشريف:

((اللهمّ اجعل خير أعمالنا أواخرها، وخير يومنا يوم نلقاك وأنت راضٍ عنّا))

(ورد في الأثر)

التوكل على الله يجعل الإنسان قوياً:

إذاً:

(وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ (10))

(سورة الشورى)

فلو كان هناك خلاف فلا مانع، فالعبرة أن تكون على حق لأن الله هو الحق، وسوف يحقّ الحق، الباطل له جولات ثم يضمحل، وقد تطول جولته حتى سبعين عاماً ثمّ ينهار، فالباطل باطل، والعبرة أن تكون على الحق وانتهى الأمر، فالله مع الحق لأنه هو حق..

(وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ (10))

(سورة الشورى)

حكمه إلى الله أي أن الله سبحانه وتعالى يحكم وينفِّذ، أحياناً شخص يحكم ويقول لك: والله لم نستطع تنفيذ الأمر. أحياناً الإنسان يستصدر حكماً ولا يُنفّذ، لكن ربنا عزّ وجل يحكم وينفِّذ..

(ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ(10))

(سورة الشورى)

إذا أردت أن تكون أقوى الناس فتوكّل على الله.

من أخلص لله كان الله معه:

إلا أن هناك نقطة دقيقة: فأنا أشعر أن المؤمن لا يستطيع التوكّل التوكّل الكافي إذا كان عليه شوائب، أو مخالفات، أو معاص، فهذه المعاصي تحجبه عن التوكّل، لكنه لو كان على الحق مئة بالمئة، لو كان مصطلحاً مع الله مئة بالمئة، لو كان مقيماً لأمر الله مئة بالمئة، لو لم تأخذه لومةٌ في الله مئة في المئة وأصابه مكروه يقول: يا رب إني مغلوبٌ فانتصر لدينك. فأروع ما في التوكّل أنك تشعر أنك أقوى إنسان لأن الله معك، ومن كان الله معه فمن ضدُّه ؟! أي إذا كان الله معك فمن عليك ؟

أي أنك إذا كنت مجنّداً غُراً ووالدك قائد الجيش، فمن يجرؤ أن يؤذيك بكلمة ؟ إذا كان الله معك فمن عليك ؟ وإذا كان الله عليك فمن معك ؟ ما معك أحد، إذا الخالق ضدّك انتهى، يهينه أقرب الناس إليه، أحياناً زوجته تهينه، وابنه يهينه إذا غضب الله عزّ وجل على إنسان. لذلك الدعاء الشريف:

((اللهم إني أعوذ بك من تحول عافيتك وفجأة نقمتك وجميع سخطك))

(تخريج أحاديث الإحياء)

أحياناً تأتي المصيبة فجأةً إما بمرض عضال، أو بإهانة شديدة، أو بفقر مُدقع، فإذا كان الله مع الإنسان لا يخاف، إذ أعداؤه تخدمه، انظر إلى هذه النقطة. وإذا تخلّى الله عنه فأقرب الناس إليه يخذله، حتى من كان من صلبه، من أخلص لها طول عمره تقف منه الموقف اللئيم، وأحياناً الزوج يعصي الله إرضاءً لزوجته فقد يمرض، فإذا يئست من شفائه تقول له: طلقني لأن الحياة معك لا تطاق. هذا الجواب، لأنه عصى الله من أجلها فكانت من ألأم الناس تأديباً له.

من اعتمد على الله تولى الله أمره و من اعتمد على نفسه تخلى الله عنه:

والنقطة الدقيقة يا أخوان، هل تعرفون يوم بدر ؟

(وَلَقَدْ نَصَرَكُمْ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ)

(سورة آل عمران: من آية " 123 ")

وهل تعرفون يوم حنين ؟..

(وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا)

(سورة التوبة: من آية " 25 ")

وأنا أقول لكم: في حياة كل واحد منّا باليوم الواحد عدة أيام بدر وحنين، إذا قلت: الله وأنا لا شيء. فهذا ليس تأدُباً بل هذه حقيقة، الله يتولاك، وإذا قلت: أنا ؛ إما بخبرتك، أو بعلمك، أو بمالك، أو بقوّتك، أو بصحّتك فالله يتخلّى عنك، فأنت بين حالين: بين حال التولية والتخلية، فإذا اعتمدت على الله تولّى أمرك، وإذا اعتمدت على نفسك تخلّى عنك.

الأخذ بالأسباب من لوازم التوكل على الله عز وجل:

إذاً:

(وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ(10))

(سورة الشورى)

وقد تتوكّل على الله عزّ وجل من دون أن تأخذ بالأسباب فهذه معصيةٌ كبيرة، لأنه استخفافٌ بنُظُم الكون، الله وضع للكون نظماً، فأنت عندما لا تأخذ بالأسباب تستخفّ بهذه النظم، لذلك من لوازم التوكّل أن تأخذ بالأسباب، ودرس الهجرة درس دقيق جداً بين أيدينا.

النبي عليه الصلاة والسلام سار مُساحلاً، وهناك إنسان لمحو الآثار، وإنسان لتتبُّع الأخبار، وإنسان لجلب الطعام، واستأجر خبيراً من الدرجة الأولى، أخذ بكل الأسباب ثم توكّل، هذا موقف المؤمن، إن أخذت بها واعتمدت عليها فقد أشركت، كشأن الغربيين، وإن لم تأخذ بها كشأن الشرقيين، وكمن يقولون: نحن أمة محمد مرحومة. فحالنا أصبح إلى أسوأ، وإن لم تأخذ بها فقد عصيت، وأنت مؤمن فيجب أن تأخذ بها وأن تعتمد على الله، فالتوكّل من لوازمه أن تأخذ بالأسباب.

سيدنا عمر رأى قوماً في مكّة فقال لهم: من أنتم ؟ قالوا: **" نحن المتوكِّلون "** قال: **" كذبتم المتوكِّل من ألقى حبّة في الأرض ثمّ توكّل على الله".**

فالتوكّل يحتاج إلى أن تأخذ بالأسباب.

على المؤمن أن ينفذ أمر الله عز وجل و قلبه مع الله:

لذلك عندما حكم عليه الصلاة والسلام بين رجلين، الذي حكم عليه قال: **" حسبي الله ونعم الوكيل "** فالنبي تألّم من هذا الكلام، فهي كلمة حق أريد بها باطل، طالب لم ينجح، ما درس يوماً واحداً، فإذا سئل: كيف لم تنجح ؟ فيجيب: هكذا ترتيب الله. ما هذا الكلام ؟ هكذا يريد الله ؟ أنا هل يمكنني أن أفرّ من قضائه ؟ هذا الكلام جدل، فعندما قال هذا الشخص: **"حسبي الله ونعم الوكيل "** فالنبي الكريم قال:

((إنّ اللّهَ تَعالى يَلُومُ على العَجْزِ، وَلَكِنْ عَلَيْكَ بالكَيْسِ فإذا غَلَبَكَ أمْرٌ فقُلْ حَسْبيَ اللّهُ ونِعْمَ الوَكِيلُ))

(أخرجه أبو داود عن عوف بن مالك)

وإذا بذلت الجهد المستطاع ولم تتمكن من الوصول إلى هدفك فقل: حسبي الله ونعم الوكيل. أما قبل أن تقولها يجب أن تأخذ بالأسباب، إذاً التوكّل أيها الأخوة يحتاج إلى أن تأخذ بالأسباب..

(عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ(10))

(سورة الشورى)

هذه الإنابة أي الرجوع إلى الله، إما الرجوع إلى أمره، أو رجوع بقلبك إليه، أي إما رجوع ائتمار أو رجوع إقبال، وكلاهما تعتمده الآية، في قضيّة، ما حكم الله فيها ؟ أنت رجعت إلى الله في هذا الحكم، لأنه هو المرجع، أو حينما صليت أقبلت عليه، ما منحت قلبك لأحد، فقلبك لله عزّ وجل ـ **" لو كنت متخذاً من العباد خليلاً لكان أبو بكرٍ خليلي، ولكن أخٌ وصاحبٌ في الله "** ـ القلب لمن ؟ لله.

(إليه أنيب)

إما أن ترجع إليه في الحكم والأمر والنهي، أو أن ترجع إليه بالقلب، فالمؤمن ينفِذ أمر الله وقلبه مع الله.

بطولة الإنسان أن يكون مع كلام الله عز وجل:

إذاً:

(وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ (10))

(سورة الشورى)

والخلاف قائم أينما ذهبت، وأينما حللت، وفي أي بلد عِشت، ومجتمع أقمت، فلابدّ من اختلاف وجهات نظر، والخلاف مثلما قلنا بالعقائد، والنظم، والمبادئ، والقيم، والأسباب، والعلاقات الاجتماعيّة، وطرق التربية، فتجد الإنسان يربي ابنه على التفلّت يقول لك: أحب أن تكون شخصيّته قويّة، وإنسان يربيه على طاعة الله ورسوله، إنسان يطلق لابنته العِنان، يقول لك: هي مستقلّة في شخصيّتها عني. يظن نفسه أباً مثالياً، فلا يحاسبها أبداً. فهناك خلاف في طرق التربية، بالنظم، وبالقيَم، والتربية، والمبادئ، والعقائد ولكن البطولة أن تكون مع الحق، مع كلام الله عزّ وجل، لأن الله هو الحق وسيحقُ الحق..

نظام الزوجية:

(فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنْ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ(11))

(سورة الشورى)

ومن أوجه المعاني لهذه الآية:

(يذرؤكم فيه)

أي يكثركم بهذا النظام (نظام الزوجيّة) فلو لم يوجد نظام الزوجيّة، وخلق الله مثلاً مليار طن خيار ولكن لا توجد بذور، فتنتهي، ولو خلق الله من كل مادة مليار طن، و استهلكناها لانتهى الأمر، ولو خلق مليون إنسان، أو مليار إنسان ولا يوجد نظام الزوجيّة انتهت.

المرأة فطرها الله عزّ وجل لتكون مكمِلَةً لزوجها:

الله عزّ وجل قال:

(فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ (11))

(سورة الشورى)

انظر هذه الآية ما أدقّها: أي أن زوجتك بشر، وإنسان لها عقل، وفكر، ومشاعر، وأحاسيس، وتغضب وترضى، وتحب وتكره، ويسعدها أن تكون زوجاً لها، ويغضبها أن تكون مقصّراً في حقِّها، هي إنسان لها مشاعرها، ولها قيمها، وطموحاتها، وما يؤلمها، فهي مثلك تماماً..

(مِنْ أَنْفُسِكُمْ (11))

(سورة الشورى)

إلا أنها متكاملة معك، فما زاد في عاطفتها وقلّ في قوة إدراكها لصالح مهمّتها، وما زاد في قوة إدراكك وقلّ في انفعالاتك لصالح مهمّتك، أنت خارج المنزل وهي داخل المنزل، فنقص كمال وليس نقص نقص، إذا نقص شيء في قوة إدراكها وزاد هذا في قوة عاطفتها وحذرها على أولادها، وغيرتها على زوجها، وتلقيها عن زوجها، هكذا فطرها الله عزّ وجل لتكون مكمِّلة لزوجها، وعندما جعل الزوج قوة إدراكه أقوى، وجلده أقوى، وعضلاته مفتولة، وقوة تحمُّله أشد هذه من أجل أن تكمِّلها، تكمله ويكمِّلها، قالت امرأة لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم: " إن ضممتهم إليّ جاعوا، وإن تركتهم إليه ضاعوا " هو يكسب وأنا أربي.

نظام التوالد على مستوى النبات والحيوان والإنسان نظام رائع خلقه الله تعالى:

قال:

(فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنْ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ(11))

(سورة الشورى)

أي يكثِّركم بهذا النظام، فنظام الزوجيّة نظام رائع، الزوجيّة على مستوى النبات، والحيوان، والإنسان، فقد تشتري مهرة (فرس) تلد حصانًا ثاني يوم، فلا أحد أخذ مركبة فرأى مركبة أخرى صغيرة بجانبها ثاني يوم، هذه ليست واردة إطلاقاً، فنظام الزوجيّة نظام التوالد على مستوى النبات والحيوان والإنسان.

الله واحد أحد بيده مفاتيح كل شيء:

(لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ (11))

(سورة الشورى)

أي أن الله عزّ وجل واحدٌ في ذاته، وواحدٌ في أسمائه، وواحدٌ في صفاته، وواحد في أفعاله..

(لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ(11)لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ (12))

(سورة الشورى)

(المقاليد)

هي المفاتيح، فمفتاح كل شيء بيد الله عزّ وجل..

(لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ(12))

(سورة الشورى)

ومعنى هذا أن سعة الرزق وقلة الرزق ليس بذكاء الإنسان ولا بجهده ولكن بتقدير الله عزّ وجل، فالتوفيق أفضل من السعي، أنت اسع لكن اطلب فمع السعي التوفيق، فإذا لم يحصل توفيق فالسعي غير هادف، وغير مجد، اسع وتوكّل، قال لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم:

((أعقلها وأتوكل أو أطلقها وأتوكل ؟ قال اعقلها وتوكل))

(سنن الترمذي عن أنس بن مالك)

وفي درسٍ آخر إن شاء الله تعالى ننتقل إلى بقية الآيات.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الشورى 042 - الدرس (04-15): تفسير الآيات 12-15، على كل داعية أن يدعو إلى الله بلسانه وسلوكه

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 18-02-1994

بسم الله الرحمن الرحيم

مفاتيح كل شيءٍ في السماوات والأرض بيد الله عز وجل:

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الرابع من سورة الشورى، ومع الآية الثانية عشرة وهي قوله تعالى:

(لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ(12))

(سورة الشورى)

كلمة:

(لَهُ)

هذه في رأي علماء النحو لام الاختصاص، أي له وحده، قد تملك شيئاً وبإمكان آخر أن يملكه، وقد تقتني سيارةً وبإمكان آخر أن يقتني السيارة، لكن لام الاختصاص تعني أن هذا الشيء له وحده.

(الْمَقَالِيدُ)

بمعنى المفاتيح، أي مفاتيح كل شيءٍ في السماوات والأرض بيد الله، فالمطر بيد الله، والرياح سرعتها بيد الله، فإن زادت عن حدٍّ معقول دمرت كل شيء،

(لَهُ)

كل شيء تراه عينك أو لا تراه عينك هو بيد الله، فالإنسان أحياناً بحكم طبيعته النفسية يتَّجه للقوي، وللعظيم.

المؤمن لا يليق به أن يُحسب على أحد غير الله:

لو كنتم في مجلس وفيه أشخاص عديدون، فالأقوى أو الأعلم أو الأكثر طلاقة في حديثه تتجه الأنظار إليه، فهو مَعْقِدُ عيون الحاضرين، فطبيعة النفس تتجه نحو الأقوى، أو نحو الذي بيده الأمر، يقول لك: فلان الرجل القوي في هذا المكان. فالأنظار كلها إليه و تهمل ما سواه، فربنا عزّ وجل من أجل أن تلتفت إليه ومن أجل أن تعتمد عليه، وتثق به، وتجعله وكيلك في كل شيء، وتتوكل عليه قال لك:

(لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ (12))

(سورة الشورى)

والإنسان يشعر أحياناً بالضعف، فيحتاج إلى ركن يركن إليه، فالناس من جهلهم ومن شركهم يلجؤون إلى بعضهم بعضاً، ويركنون إلى الأقوياء منهم، فيطمئنون إذا أعطاهم الأقوياء إشارة طُمأنينة، وإذا أعطوهم وعداً، أو أعطوهم عهداً، فالإنسان يطمئن ويقول لك: فلان صديقي، وقد سهرت معه البارحة ومعي رقم هاتفه، وأي قضية أتصل به، فيشعر بطمأنينة مع أنها مزيفة، ولكن الناس لجهلهم ولشركهم إحساساً منهم بضعفهم يلجؤون لبعضهم، ويعتمدون على بعضهم، وهم يقعون في هذا بشتى أنواع الشرك، لكن أنت أيها الإنسان لا يليق بك أن تُحسب على أحد، وأن تمنح ثقتك لغير الله، وأن تعتمد على غير الله، وأن تطمئن لغير تصميم الله لك.

الله عز وجل خلق الإنسان ضعيفاً ليسعد بافتقاره:

لذلك فالله عزّ وجل يبين في هذه الآية،

(له)

هنا لام الاختصاص له وحده..

(لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ (12))

(سورة الشورى)

أي أن الأمطار بيد لله، فلو اجتمع أهل الأرض على أن يتخذوا قراراً بإنزال الأمطار لا يستطيعون، وهذه الأوبئة التي تسري في الناس بشكلٍ مخيف وبسلسلة هندسية فهذه بيد الله، وما دام الناس مقيمين على المعاصي والفواحش والآثام، فهذه الأوبئة تسري فيهم سريان النار في الهَشيم، فالإنسان ضعيف وهذه حقيقة، وخلق الإنسان ضعيفاً، وما خُلق ضعيفاً إلا ليفتقر في ضعفه، كي يسعد بافتقاره، ولو خلقه الله قوياً لاستغنى بقوته فشقي باستغنائه، فالإنسان ضعيف يحتاج إلى قوي يلجأ إليه، وربنا عزّ وجل طمأنك فقال لك: بيدي مقاليد السماوات والأرض.

الصحة بيد الله عز وجل على الإنسان أن يشكره عليها:

الواحد منا بدءاً من جسمه، فالكليتان من الذي يضمن له أن تعملا حتى نهاية عمره ؟ والفشل الكلوي حتى الآن أسبابه مجهولة فجأةً تجده، وأوبئة الكبد، إذا تلف كبد الإنسان يعيش فقط ثلاث ساعات، والناس يخافون من القلب مع أن الكبد أخطر، فالكبد والكلية أخطر من القلب، فهذه الأجهزة الحساسة المصيرية التي إذا توقفت انتهت، الحياة بيد من ؟ بيد الله، والإنسان لو يقرأ بعض التفاصيل في عمل الأجهزة، يرى أن المعجزة أن يستيقظ الإنسان سليماً.

فالدم له تحاليل، فالغدة النخامية تفرز عشرة هرمونات، وزنها نصف غرام، فلو اختل إفراز هرمون واحد لأصبحت حياة الإنسان جحيماً.

البنكرياس فيه مليون جزيرة وزنها غرام تفرز الأنسولين، فلو تعطلت صار معه مرض السكر، وله مضاعفات على العينين، والأطراف، وأكثر مرض الموات من السكر، فإذا كانت هذه المليون جزيرة لم تفرز الأنسولين الكافي فتحدث مشكلة، وهي بيد من ؟ فهذه الجزر بيد من ؟ والدرقية بيد من ؟ والنخامية بيد من ؟ والكظر بيد من ؟

ومعامل نقي العظام لكريات الدم، أحياناً تتوقف فجأة، فالمرض خطير جداً واسمه فقر الدم اللامُصنِّع، فهذا نقي العظام الذي يصنع في كل ثانية اثنين ونصف مليون كرية، هذا بيد من ؟ من الذي يجعله يقف عن العمل ؟ والإنسان يصاب بمرض خطير.

كل إنسان تحت ألطاف الله عز وجل:

معنى ذلك أن الإنسان بدءاً من دماغه هناك شرايين دقيقة جداً والدم يسيل فيها، فلو تجمدت نقطة كرأس الدبوس في أحد شرايين الدماغ، أو في محل ما من الشرايين التي في الدماغ فيفقد ذاكرته، وبمحل آخر يفقد حركته فينشل، وبمحل آخر يفقد توازنه، وبمحل ينسى أصدقاءه، وبمحل يفقد بصره، هي نقطة دم كرأس الدبوس إذا تجمّدت في أحد شرايين الدماغ يصاب الإنسان بأمراض مدمرة، فهذه الشرايين بيد من ؟ فهناك تصلب بشرايين الدماغ، فمرونتها بيد من ؟ والدم سيولته بيد من ؟ فلو صار لزجاً مشكلة، والقلب بيد من ؟ الدسّام بيد من ؟ والشريان التاجي الذي يغذي القلب بيد من ؟ والمعدة، والأمعاء، الكليتان، والكبد، والعمود الفقري، وتراكم هذه الفقرات وهذه الطبقة الغضروفية بينهما، حينما تنقرص بعض الفقرات يقول لك: الحياة لا تطاق، فآلام لا تطاق، فالإنسان تحت ألطاف الله عزّ وجل، قال لك: بيده.

(لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ (12))

(سورة الشورى)

فزوجتك بيده، وأولادك، وتجارتك، وهذه الرياح بيده، تكون رياحاً لطيفة ثم تصبح مدمرة، بأمريكا تحدث أعاصير لا تبقي شيئاً في طريقها، وسرعتها ثلاثمئة كيلو، والخسائر ثلاثون مليار دولار إنه إعصار واحد استمر ليلتين. وبيد من ؟ الحرارة، الآن موجات الصقيع بأمريكا خمس وستون تحت الصفر فكل شيء تعطّل، والرياح، والزلازل بشرقي آسيا.

بيت استغرقت الدراسات الهندسية سنتين، ونفذ بعشر سنوات و انهدم بخمس ثوانٍ، وشدة الزلزال ست رختر فانتهى البيت، فقد كان هنا بيت، بيد من ؟ قال:

(لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ (12))

(سورة الشورى)

من كان قلبه معلق بغير الله فهذا عين النفاق و من التفت إلى الله فهذا هو التوحيد:

نحن إذا آمنا بالله انتهت مشكلتنا، لأننا إذا آمنا بالله اتجهنا له، والإنسان يبحث عن القوي، ويتمتم: من القوي ؟ هذه طبيعة الإنسان، يود القوي زيادة، ويحترمه زيادة، فإذا عطس: يرحمكم الله. وعلى أدنى حركة تجده يقدم واجباته تجاهه، لأنه قوي، فليس معه أي مزح، وأنت اعرف من هو القوي الحقيقي ؟ هو الله عزّ وجل، فإذا عرفت أن الله بيده كل شيء فعلاقتك مع جهة، خلصت من النفاق وانتهى إلى غير رجعة، فإذا عرفت أن الأمر بيد غير الله فهذه مشكلة كبيرة جداً، ولو صليت، وصمت، وزعمت أنك مسلم، فأنت في شرك، وقلبك معلق بغير الله، ويرجو غيره، ويخاف من غيره، وآمالك معلقة على غيره، فهذا هو الشرك، وهذا معنى قوله تعالى:

(وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللّهِ إِلا وَهُمْ مُشْرِكُونَ(106))

(سورة يوسف)

فهو طقوسه لله، أما قلبه فلغير الله، والله يريد قلبك، ولا يريد حركاتك، فإن الله لا ينظر إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم، يريد قلبك، هذا القلب إلى أين هو ملتفت ؟ إلى زيد أو عُبيد، فلان أو علان ؟ فهذا شرك، أما إذا التفت إلى الله عزّ وجل فهذا هو التوحيد.

على الإنسان أن يرضي الله عز وجل و لا يعبأ بغيره:

لذلك فالقرآن قد تعجب أن كل آياته على التوحيد، لأن الآيات كلها بالنهاية من أجل أن تلتفت إليه، وأن لا ترى غيره، وأما إذا تشعبت بك المذاهب فحياة الشك صعبة جداً.

(فَلا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنْ الْمُعَذَّبِينَ(213))

(سورة الشعراء)

إرضاء الناس غاية لا تدرك، ومن استطاع أن يرضي الناس جميعاً فهو منافق، أو ذكي جداً ولكن ذكاءه شيطاني، وأنت عليك أن ترضي الله ولا تعبأ بغيره..

فليتك تحلو والحيـــاة مريرةٌ   وليتك ترضى والأنام غضـاب
وليـت الذي بيني وبينك عامـرٌ   وبيني وبين العالمين خـراب
وليـت شرابي من ودادك سائغٌ   وشربي من ماء الفرات سراب

أقول لعزّالي مدى الدهر اقصروا فكل الذي يهوى سواه يعـاب

* * *

أي أنّك أيها الإنسان لا يليق بك أن تحب غير الله، ولا يليق بك أن تحسب على غير الله، فقد يقول: هذا محسوب علينا. فمن أنت ؟ فلست أهلاً أن يحسب عليك إنسان، كن محسوباً على الله، سألوا عالماً في مرض: لماذا هذه المكانة العالية ؟ قال: لأنني محسوب على الله، ولست محسوباً على جهة أرضية، فهذه الكلمة فيها أدب، ولم يقل: أنا أهل. بل قال: أنا محسوب عليه.

السعي والتدبير شرط لازمٌ غير كافٍ يحتاج إلى توفيق إلهي:

(لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ (12))

(سورة الشورى)

هذه الآية وحدها تكفي، والأعرابي قال لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم: **" كُفيت "** إذ قرأ له آية واحدة ولم يقرأ القرآن كله، ونحن لدينا القرآن ستمئة صفحة، ومصاحف، وتفاسير، وأشرطة، وخطب، ومكتبات ومع ذلك فهناك شرك خفي. فأعرابي آية واحدة قال له: **"كفيت "**. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلّم:

((فقه الرجل))

(لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ (12))

(سورة الشورى)

فالرزق بيده، تجد شخصاً كتلة من الذكاء ولكن رزقه قليل، وشخص آخر على دروشته تجد ماله وفيراً، ولكن يوجد حكمة، فالقضية ليست بالذكاء ولا بالسعي، مع أن السعي ضروري، والتدبير ضروري، ولكن لا يكفي وحده، فالسعي والتدبير شرط لازمٌ غير كافٍ يحتاج إلى توفيق إلهي لأنه هو الرزاق.

من قوانين اتساع الرزق:

1 ـ الاستقامة:

ربنا عزّ جل بيده الرزق ولكن يوَسّعه في المستقيم على أمره وهذا أول قانون:

(وَأَلَّوْ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا(16))

(سورة الجن)

(وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم)

(سورة المائدة: من آية " 66 ")

(وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ)

(سورة الأعراف: من آية " 96 ")

وأول قانون لاتساع الرزق الاستقامة، صدق، وأمانة، وورع تام، فما دمت بهذه الاستقامة، وهذا الورع والأمانة فالله عزّ وجل يقدر لك رزقاً وفيراً.

2 ـ صلة الرحم:

والآن صلة الرحم تزيد الرزق، فإنسان له أخوات، وأولاد أخوات، وله أقارب، يتفقّدهم من حين لآخر وهم بحاجة لمساعدته، فإذا وصلت هؤلاء الأرحام زيارةً ومعونة ودلالةً، فالصلة لها ثلاثة معان ؛ وأقل شيء الزيارة تأنس بها، وثانياً المعونة لا أن تذهب ملوحاً بيديك، ثالثاً الدلالة ؛ أعطهم شريطاً، وأسمعهم درساً، أو أعطهم درساً من عندك، فزيارة ومعونة ودلالة، هذه الصلة تزيد في الرزق وهذا هو الشرط الثاني.

3 ـ الأمانة:

والشرط الثالث: النبي الكريم قال:

((الأمانة غنىً))

والأمين غني لأنه موثوق.

4 ـ الاستغفار:

الشرط الرابع: الاستغفار، فإذا غلط الإنسان واستغفر..

(فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا(10)يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا(11)وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا(12))

(سورة نوح)

5 - إتقان العمل:

فالاستغفار، وصلة الرحم، والأمانة، والاستقامة، وبقي إتقان العمل، فإذا أتقن الإنسان عمله لا يقف، لأنه عندما يدرس الناس من الذي يعمل مستمراً ؟ إذاً هو المتقن، فكل الناس تتحول له، أما عندما يكون السوق قوياً جداً فالكل يعمل، وأما إذا برد السوق فيبقى المتقن يعمل ولا يقف.

الدعاء طريق لحل مشكلات الإنسان بشرط أن يكون حقيقياً:

الإتقان، والاستقامة، وصلة الرحم، والأمانة، وبر الوالدين فهذه كلها من عوامل زيادة الرزق، والرزق بيد الله عزّ وجل، والإنسان يكون عزيز النفس ويضع حاجته عند الله عزّ وجل، وهذا الحديث القدسي الذي لا ينبغي لنا أن ننساه أبداً:

((فَإِذَا مَضَى ثُلُثُ اللَّيْلِ أَوْ نِصفُ اللَّيْلِ نَزَلَ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا جَلَّ وَعَزَّ فقَالَ هَلْ مِنْ سَائِلٍ فَأُعْطِيَهُ هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ فَأَغْفِرَ لَهُ هَلْ مِنْ تَائِبٍ فَأَتُوبَ عَلَيْهِ هَلْ مِنْ دَاعٍ فَأُجِيبَهُ، حَتَّى يَطْلُعَ الْفَجْرُ))

(مسند أحمد: عن " أبي هريرة ")

فالله يقول لك: اسألني، استيقظ بالوقت المناسب وصل ركعتين واسألني، لأنه لم يأمرك أن تدعوه إلا ليستجيب لك، ولم يقل ادعوني فهو إله ما أمرك أن تدعوه إلا ليستجيب..

(وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ)

(سورة غافر: من آية " 60 ")

فأنت بالدعاء أقوى إنسان، بالدعاء تحل كل مشكلاتك، لكن على أن يكون دعاء حقيقياً، وبشروط الدعاء..

(وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِي فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ(186))

(سورة البقرة)

الدعاء يحتاج إلى إيمان بالله واستقامة على أمره و أن يكون من القلب:

بالمناسبة إذا كان إيمان الإنسان بالله ضعيفاً، وإيمانه بالناس قوياً أي أنه مشرك، فإيمانه بزيد قوي وبالله ضعيف، واستجابته ضعيفة لا يطبّق أوامر الله، فتجده لا يستطيع أن يدعو الله، بل يستحي، إذ يوجد حجاب بينه وبين الله، عوامل بعد الإنسان عن الدعاء تلبسه بالمعاصي والشرك، فالشرك

والمعاصي لا تعينان الإنسان على أن يدعو الله دعاءً صادقاً (وهذه نقطة مهمة جداً) أما إذا كان الإنسان مستجيباً لله، ومؤمناً به إيماناً حقيقياً واستجاب له، وأمتع ساعاته حينما يدعو الله عزّ وجل، عندئذٍ:

(وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ)

(سورة غافر)

وجدناك مضطراً فقلنا لك ادعنا نجبك فهل قد كنت حقاً دعوتنا

دعوناك للخيرات أعرضت نائياً فهل لك من يحسن لمثلك مثلنا؟

* * *

فالإنسان بالدعاء قوي جداً، أما الدعاء فيحتاج إلى إيمان بالله وإلى استقامة على أمره، ثم إلى دعاء حقيقي من قلبك، والنتائج مضمونة.

جميع الرسالات السماوية تهدف إلى الإيمان بالله و عبادته:

إذاً:

(لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ(12))

(سورة الشورى)

هو يعلم، يعلم كل شيء..

(شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ(13))

(سورة الشورى)

في أول السورة قال ربنا عزّ وجل:

(كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (3))

(سورة الشورى)

أي يجب عليك أن تشعر أن هذه الرسالات السماوية واحدة، فكلها من عند الله، وكلُّها تهدف إلى هدفٍ واحد أن تؤمن به وأن تعبده.

(أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ)

(سورة المؤمنون: من آية " 32 ")

هذه الآية ذكرها كل الأنبياء.

الدين هو إيمان بالله و استقامة على أمره:

هناك آية أدق من ذلك:

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا أَنَا فَاعْبُدُونِي(25))

(سورة الأنبياء)

فالدين كله له منطلق فكري وله سلوك عملي، فالمنطلق الفكري، أن تؤمن به واحداً كاملاً موجوداً، وأن تؤمن به خالقاً مربياً مسيراً، واحداً في ذاته وفي أسمائه وأفعاله وصفاته، وموجوداً أي أن تؤمن به وأن تستقيم على أمره، هذا الدين كله.

النبي الكريم جاء في الترتيب قبل سيدنا إبراهيم وموسى وعيسى لبيان أنه سيّد الأنبياء:

في أول السورة:

(كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (3))

(سورة الشورى)

هذه السورة مجملة، تفصيلها:

(شَرَعَ لَكُمْ مِنْ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا (13))

(سورة الشورى)

وبالطبع أول رسول جاء للبشرية سيدنا نوح..

(وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى (13))

(سورة الشورى)

فسيدنا نوح، وسيدنا إبراهيم، وسيدنا موسى، وسيدنا عيسى، وسيدنا محمد هؤلاء في نظر علماء التوحيد أولو العزم من الرسل، لكن النبي عليه الصلاة والسلام أولاً جاء في الترتيب قبل سيدنا إبراهيم وسيدنا موسى وسيدنا عيسى، قال: قُدِّمَ لبيان أنه سيّد الأنبياء والمرسلين، ووصف شرعه بأنه وحيٌ من الله وليس وصية، فالوصية تعدّل وتبدل وتزوّر، ولكن الوحي قد حفظه الله سبحانه وتعالى إلى قيام الساعة، ولذلك جاءت الآية كما يلي:

(شَرَعَ لَكُمْ مِنْ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ(13))

(سورة الشورى)

دين الله عز وجل في الأرض واحد و الأنبياء دعوتهم واحدة:

مراد الله عزّ وجل أن يكون دين الله في الأرض واحداً، وأن يكون أتباع الأنبياء مؤتلفين لا متفرّقين، ولا متعادين، ولا متحاربين، فهذا هو الذي بين أتباع الديانات الثلاث لا يرضاه الله عزّ وجل، بل بالعكس هذا مما يُغضب الله، فأن أقيموا الدين أي أن هذا الشرع طبّقوه، واجعلوه قائماً بينكم، في بيوتكم وفي أعمالكم وفي كل نشاطاتكم.

(أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ(13))

(سورة الشورى)

وهذه الخلافات بين أتباع الديانات خلافاتٌ شيطانية ما أنزل الله بها من سلطان، فتقريباً تاريخ البشرية (وهذا الشيء مؤسف جداً) فسلسلة حروب حدثت بينهم أساسها أحقاد دينية قديمة، وهذا الشيء لا يرضي الله عزّ وجل فالأنبياء إخوة..

(آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا)

(سورة البقرة: من آية " 285 ")

فالأنبياء دعوتهم واحدة، أما الأتباع فمختلفون.

المشركون كَبُرَ عليهم أن يتنزّل الوحي على محمدٍ صلى الله عليه وسلم:

(كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ(13))

(سورة الشورى)

المشركون كانوا يتمنون أن تنزّل النبوّةُ والوحي على رجل من القريتين عظيم، فسيد قبيلته أو غني أو رجل كبير، هكذا، فنزل هذا الوحي على إنسانٍ ذي نسبٍ عظيم، وأمانةٍ كبيرة، وصدقٍ عجيب، وقد سأل النجاشي سيدنا جعفر عن دعوة النبي فقال: **" يا أيها الملك كنا قوماً أهل جاهلية ؛ نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف (هذه الجاهلية، الجاهلية الأولى غير الثانية)، الجاهلية الأولى: يا أيها الملك كنا قوماً أهل جاهلية ؛ نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف، حتى بعث الله فينا رجلاً نعرف نسبه (من أوسط بيتٍ في قريش ومن أعرقها) وأمانته وعفافه وصدقه، فدعانا إلى الله لنعبده ونوحده".**

فالنبي كان فقيراً ولكن له نسب عريق، وله استقامة ظاهرة فكان في الجاهلية اسمه الأمين، وعندما هاجر إلى المدينة كان يضع في بيته الأمانات للكفار، فقد كانوا يثقون به أيما ثقة لأمانته وصدقه، وقد عرف بالأمين. والمشركون كَبُرَ عليهم أن يتنزّل الوحي على محمدٍ صلى الله عليه وسلم، وكانوا يتمنون أن ينزل الوحي على الرجل من القريتين عظيم، فربنا عزّ وجل قال:

(كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ(13))

(سورة الشورى)

لكن اختيار الأنبياء هذا من الله وحده..

(اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ(13))

(سورة الشورى)

من لم يطلب الهدى لا ينتفع بأي شيء إطلاقاً:

هناك نقطة مهمة جداً وردت في سورة البقرة أيضاً:

(الم(1)ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ(2)الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ(3))

(سورة البقرة)

(هُدًى لِلْمُتَّقِينَ(2))

(سورة البقرة)

كأنه يوجد قرار سابق يتخذه الإنسان من ذاته بطلب الهدى وعندئذٍ ينتفع بالقرآن، والآيات الكونية، والأفعال الإلهية، و اعلم أنك لا تنتفع بكل وسائل الهدى إلا إذا أردت الهدى.

فلو أن إنساناً يبحث عن جهاز ضغط ليقيس ضغطه تجده مهموماً، دخل إلى مكتبة لا يعنيه منها شيء، ولو قيل له: هذا كتاب جديد، وهذا طبعة حديثة. ولكنه يسأل البائع: هل عندك جهاز ضغط ؟ طلبه جهاز ضغط. أما لو وجد طالب علم، وعنده قائمة كتب، فيدخل إلى المكتبة وعينه على الكتب كتاباً كتاباً.

فالإنسان إذا لم يطلب الهدى فإنه لا ينتفع لا بالقرآن، ولا بالعظماء، ولا بالدعاء، ولا بخطب المساجد، ولا بالأحداث، ولا بأي شيء إطلاقاً.

الهدى قرار داخلي على الإنسان أن يسرع باتخاذه:

لو أن إنساناً ليس لديه بيت، وكان عنده بيت وعليه دعوى إخلاء، فأخلوه، فأصبحت زوجته عند أهلها وهو عند أهله وأولاده بين الجهتين وهو معذب عذاباً لا يحتمل، ويمشي في الطريق هائماً على وجهه يبحث عن غرفة يأوي إليها، فقال واحد: أتريد بيتاً ؟ فيمكن أن يقبّل رجله، وأن يختل توازنه، فإذا كنت طالباً الشيء فعندئذٍ تستفيد من كل شيء، وإذا لم تطلب الشيء، كأن يكون لديه بيت كبير، وبيت ثان مغلق، وبيت ثالث يريد أن يبيعه، وسأله سائل: هل تريد أن تشتري بيتاً ؟ تجده لا يجيبه إطلاقاً ويعرض عنه، وقد لاحظت ملاحظة في كتاب الله كله، كثير من الآيات:

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ(37))

(سورة ق)

(هُدًى لِلْمُتَّقِينَ(2))

(سورة البقرة)

(إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لا يَهْدِيهِمْ اللَّهُ)

(سورة النحل: من آية " 104 ")

فأنت لك قرار سابق إذا لم تتخذه بطلب الهدى لا ينفعك الهدى إطلاقاً، ولا تستفيد.

من لم يطلب الحق لا ينتفع به ولو كان بين يديه:

أوضح مثل على ذلك: لديك آلة تصوير وهي أغلى آلة لكن ليس فيها فيلماً، فمهما تفننت بالتقاط المناظر، فمعنى ذلك أنك لست طالباً، وإذا لم يطلب الإنسان الهدى فلا ينتفع به إطلاقاً، و القرآن بين يديه، وكله كامل، ومطبوع أفخر طبعة، ومسجّل بأحدث القراءات، ومفسر، ودروس علم، وخطب، ولكن ليس هذا طلبه، بل طلبه الدنيا.

فالإنسان إذا لم يطلب الحق فلا ينتفع به ولو كان بين يديه، وطالب الحق ينتفع ببصيصٍ من نور، أو بورقة من كتاب، أو بنصيحة من عالم، نصيحة واحدة، يقول لك: لا أنساها، فعليك أن تجهد لتتخذ هذا القرار، وأن تتخذ قراراً بطلب الهدى لكي تنتفع بالقرآن، وبالخطب، والدروس، تنتفع بالأحداث التي تجري في العالم، والآيات الكونية.

من اتخذ قراراً بالهدى الله عز وجل يهديه و يستعمله صالحاً:

إذاً هذا معنى قول الله عزّ وجل:

(اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ(13))

(سورة الشورى)

فإذا رجع الإنسان لنفسه، وتأمّل ذاته، في سر وجوده، في نهاية وجوده، وفي نهايته، وفي حقيقة الدنيا، وفي خالقه، اتخذ قراراً بالهدى، فالآن الله يهديه. فتصور أباً رأى ابنه شارداً فتجده يسأله: خير يا بني ماذا تريد ؟ فقال له: أريد أن أدرس. فيقول له: تكرم. الأب مقتدر فهيّأ له مدرسة، وأقساطاً، وأساتذة خاصين، وغرفة خاصة، ودخلاً يكفي، وأعفاه من كل أعباء البيت. فلما يطلب الإنسان فالله يعطيه، وأنت اطلب فقط..

(وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا)

(سورة العنكبوت: من آية " 69 ")

أما إذا طلبت فالقضية أصبحت سهلة جداً..

(وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ(13))

(سورة الشورى)

فالإنسان يطلب من الله أن يهديه وأن يهدي به، وأن يرزقه طيباً وأن يستعمله صالحاً، ويطلب موجبات رحمة الله وعزائم مغفرة الله عزّ وجل.

البغي سبب من أسباب التفرقة بين الناس:

(وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ (14))

(سورة الشورى)

التفرق الآن بين المسلمين أقرب شيء لنا، نراه بغياً بينهم أي حسداً، كطلبهم للرئاسة، رئاسة المجالس، فهذا العالم الفلاني، وهذا الداعي الفلاني، طلبهم للزعامة، وللدنيا، وللتجمُّعات الكبيرة، وهذه تجعلهم يطعنون ببعضهم بعضاً، فالتفرقة أسبابها البغي، قال الله تعالى:

(وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ (14))

(سورة الشورى)

أي تفرقوا بغياً بينهم وبعدما جاءهم العلم، وهذه بغياً متعلقة بتفرقوا، عاملها تفرّقوا.

(وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ (14))

(سورة الشورى)

علامة إخلاص المؤمن أن ينتمي إلى مجموع المؤمنين و يحس بهم:

فيا أيها الأخوة الكرام علامة الإخلاص أنك تنتمي إلى مجموع المؤمنين، وترحب بكل المسلمين، وتقدر كل العلماء المخلصين، والدعاة الصادقين، والمستقيمين على أمر الله.

أما علامة البغي فترفع نفسك على حساب الآخرين، وترتفع وتطعن بهم، فهذا الطعن وتقاذف التهم، وتفتيت المسلمين، وشرذمتهم، وجعلهم جماعات جماعات وفرقاً فرقاً وطوائف طوائف، وكتلاً كتلاً، هذه بغياً بينهم، أي عداوةً وعدواناً وحسداً وتطلُّعاً إلى المكاسب الدنيوية الرخيصة.

(وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ (14))

(سورة الشورى)

الكتاب بين أيدينا، والكتب السماوية واضحة جداً، والأدلة قاطعة، والأمور ميسَّرة، وليس لنا حجة، فالحجة عليهم لا لهم، ولكن البغي الذي في نفوسهم جعلهم يتفرقون هذا قانون، فأنت عندما يكون عندك مبيع ولك جار بالحرفة نفسها، وأنت غير مؤمن بالله عزّ وجل، ويهمك أن تطعن ببضاعته وتمدح ببضاعتك، فمعنى هذا كله للزبون، وهو قد أخذ منك الزبون، فتعمل له مشكلة، فهذا سلوك الناس. فعندما يكون التفكير تفكيراً تجارياً، وتفكير زُبن، وترويج بضاعة ودعاية، وطعناً بالبضاعة الأخرى،

فإذا كانت هذه الأمور التجارية انسحبت على الدعاة فهذه مشكلة كبيرة جداً، صارت عداوة صنعة، أما الدعاة إلى الله كلهم على منهج واحد، وعلى قلبٍ، وهدف واحد.

كل إنسان عليه أن يتعاون مع إخوته تعاوناً قوياً:

المفروض في الإنسان أن يكون متعاوناً مع إخوانه تعاوناً قوياً، لأن ربنا عزّ وجل قال:

(وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ)

(سورة المائدة: من آية " 2 ")

تقولها مرة ثانية وثالثة وخامسة: وكل إنسان يتوهم أن الله فقط له والجنة له فقط، وهو على الحق وحده، والناس كلهم ليس فيهم خير، قال: **" من قال هلك الناس فهو أهلكهم ".** وهذا الإنسان متقوقع، وأفقه ضيّق، محدود، أما الإنسان المؤمن فيتعاون مع كل إخوانه المؤمنين بروح متسامحة، وبإنكار للذات، وتمتين لأواصر المحبة والود بين المؤمنين:

((مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى))

(من مسند أحمد: عن " النعمان بن البشير ")

هكذا:

((فإن يد الله مع الجماعة))

(الجامع الصغير: عن " عرفجة ")

((ويد الله على الجماعة))

(الجامع الصغير: عن " ابن عمر ")

((ومن شذ شذ إلى النار))

(الجامع الصغير: عن " عرفجة ")

((عليكم بالجماعة وإياكم والفرقة، فإن الشيطان مع الواحد وهو من الاثنين أبعد))

(الجامع الصغير: عن " عمر ")

((فعليكم بالجماعة فإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية))

(أخرجه أبو داود عن " أبي الدرداء")

الإخلاص يرسخ الانتماء بمجموع المؤمنين:

إذاً التفرق سببه البغي، والبغي يعني الحسد، والعداوة، وطلب الوجاهة، والمكاسب الدنيوية، فإذا انسحبت العقلية التجاريّة على الدعوة إلى الله رأيت الفرقة، والتشرذم، والعصبية العمياء، والانتماء لجماعات صغيرة جداً، وتفتيت المسلمين، والآية واضحة كوضوح الشمس:

(وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمْ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ(14))

(سورة الشورى)

وكنت أقول كلمة دقيقة: كلما انخفض مستوى الإخلاص ترسخ الانتماء لجماعتك وتطعن بالآخرين، وكلما ارتفع مستوى الإخلاص ترسخ الانتماء بمجموع المؤمنين (وهذه نقطة مهمة جداً) والإخلاص هو المحرِّك، فأنت تنفذُ قوله تعالى:

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ)

(سورة الحجرات: من آية " 10 ")

أما إذا كان الإخلاص ضعفاً فيهمك كيانك الذاتي، والمكاسب المادية، والوجاهة الاجتماعية وعندئذٍ تضطر لتطعن بالآخرين، لكي تروج بضاعتك وتصرف الزبائن لعندك، وبالطبع هذا منطق التجّار، أما الدعاة إلى الله فلهم منطقٌ آخر، منطقهم الآخر إذا عزّ أخوك فَهُنْ أنت، وإذا كانت الدعوة ماشية فأنت كن بخدمته، فأخ لك أطلقه الله بالدعوة عاونه، بدلاً من أن تنافسه.

على كل مؤمن أن يساعد الداعية إلى الله إن كان على حق:

أقول هذه الكلمة: لك أخ وانطلق في الدعوة إلى الله، فأنت أمامك أحد أمرين إذا كان على خطأ فانصحه، وإذا كان على حق فعاونه، فهل هناك أكثر من ذلك ؟ أما إن كان على حق وتعمل له مشكلة فمعنى هذا أنه حسد، وكل إنسان يؤلمه تفوّق أخ، أو انطلاق أخ فقد وضع نفسه بخندق المنافقين وهو لا يدري..

(إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ)

(سورة التوبة: من آية " 50 ")

لك أخ من سِنِّك والله أطلقه بالدعوة، وصار له دعوة واسعة، فإذا كان على باطل فانصحه، وإذا كان على حق فادعمه وعاونه، وإذا عزّه الله فسيعزّك معه كذلك، أما هذه النفسية التي تريد كلما انطلق الإنسان فتكبّله وتقيّده وتطعن فيه وتشك بإخلاصه، فهذا تمزيق للمسلمين، وهذا لا يرضي الله أبداً.

الله عزّ وجل أعطى كل إنسان اختياره وأعطاه أجلاً يتناسب مع اختياره:

إذاً:

(وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمْ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ(14))

(سورة الشورى)

وهذه الآية دقيقة جداً أمضيت درساً في شرحها من قبل أسبوعين أو ثلاثة، أي إن ربنا عزّ وجل أعطى الإنسان اختياره، وأعطاه أجلاً يتناسب مع اختياره، فلو أخطأ ضمن هذا الأجل لا يحسمه، بل يؤخره إلى الوقت الذي أعطاه إيّاه.

والمعنى الأعمق إن ربنا عزّ وجل لو أنه حاسب الناس على أخطائهم لقضى عليهم وأهلكهم، لكنه يعطيهم مهلة لعلهم يتوبون، ويعودون، ويتفكرون، ويتذكرون، ومثال على إعطاء الأجل:

لو فرضنا أننا أجرينا للطالب مذاكرة أول سنة فأخذ صفراً، فهل نرسبه رأساً ؟ أم أن عنده فصلاً ثانياً وفصلاً ثالثاً وفحصاً أخير، وهناك فحص شفهي وتحريري ووظائف ونشاط، فليس من المعقول من أول مذاكرة أن ترسّبه، فمن أعطيناه مهلة تسعة أشهر، فيها فصلان دراسيان وفيها مذاكرات وفيها شفهي وكتابي، وفحص نصفي، وفحص أخير، وجَمع للعلامات ومتوسّطات، فهل من المعقول من أول مذاكرة أن نرسبه، هذا لا يعقل.

وعندما يقول ربنا إلى أجل، أي أنت يا عبدي انتبه، فإن رسبت اليوم، فهناك فصل ثان وثالث ومذاكرات، وفحوص، فالإنسان لمّا يرسب فليس معنى ذلك أن هلك، ولكن لو بقي على هذا الوضع فقد هلك، وأما أنه يستطيع أن يغيّر، ويبدِّل، فربنا من رحمته، يعطينا هذه المُهَل..

الخلافات بين الدعاة تبعد الآخرين عن الدين و تطعن به:

(وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ (14))

(سورة الشورى)

أي أهل مكة، فعندما يجد الإنسان خلافات بين الدعاة هذا الطرف يطعن بالطرف الآخر يقول: أهكذا المسلمون !! وأحياناً تجد في بعض البلاد البعيدة يتقاتلون، بعدما انتصروا على العدو المُلحد يتقاتلون الآن وهل هذا الشيء معقول ؟ والله سقطوا كلهم، حرب مدمرة فقط لاستلام زمام الأمور ! بعدما كان هذا الجهاد في أعلى مستوى فقد هبط الآن، فالمشكلة مشكلة وعي (فأهل مكة عندما رأوا هذه الخصومات بين أهل الكتاب وبين المؤمنين) وقد جاءت الآية دقيقة جداً، فقال:

(وَإِنّ الّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ(14))

(سورة الشورى)

فلو كان معك حق ساطع والذين يتعاملون بالحق مختلفون بين بعضهم، فأنت تشك فيهم كلِّهم، فما هذه القصة ؟ ولسان معظم الناس، لو وجدوا بين الدعاة خصومات، وطعناً، ولمزاً، وغمزاً، يقول لك: ما هذا؟ هكذا الدعوة إلى الله عزّ وجل ؟ أهذا دين هؤلاء كلهم ضد بعضهم ؟ والطرف الحيادي قد سقطت كل هذه الدعوة من عينه، فعندما يعمل الإنسان الخصومات مع الآخرين فقد سماه الله كفراً.

من فرّق بين المؤمنين و مزّقهم ارتكب الكفر و هو لا يدري:

في آيات ثانية:

(وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ)

(سورة آل عمران: من آية " 101 ")

لما اختلفت الصحابة بين بعضهم الأوس والخزرج لأن بعض اليهود كَبُرَ عليهم هذا الوفاق وهذا الود وهذه المحبة، فدسوا شاباً ذكّرهم بأشعار في الجاهلية يطعن ببعضهم بعضاً، فظهر بعض ضعاف العقول فاستل أحدهم سيفه والثاني استل سيفه فستصير مشكلة، فخرج النبي إليهم وقال:

((أتفعلون هذا وأنا بين أظهركم))

ونزل قوله تعالى:

(وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ)

(سورة آل عمران: من آية " 101 ")

فهذا الذي يفرق بين المؤمنين ويعمل الإسلام جماعات وفئات وأحزاباً وطوائف وهذه ضد هذه، فهذا يرتكب الكفر وهو لا يدري، فقد مزّق المسلمين، فينظر غيرهم إليهم وكل هذا الإسلام يسقط من عينه، مع أن الإسلام على حق، والقرآن نَيّر بين أيدينا (وهذه نقطة دقيقة جداً) فمكانة المسلمين الكلية تسقط لو اختلفوا بين بعضهم، ولو طعنوا ببعضهم، فنحن المؤمنون نحترم كل الدعاة، والمساجد، والدعوات المخلصة، و هكذا المؤمن، فالدعاة إلى الله هم مدرسون لمنهج واحد، والمنهج هو الكتاب والسنة، وكلنا نقوم بتدريسه، فالكتاب واحد والسنة واحدة، ولا توجد تفرقة، فهذا الذي يرفع من قيمة الدعوة إلى الله في نظر الناس.

لا قيمة للدعوة إلى الله إطلاقاً من دون استقامة على أمره:

هؤلاء أهل مكة لما رأوا هذه الخصومات بين أهل الكتاب وبين المسلمين، قال:

﴿ وَإِنّ الّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ(14)فَلِذَلِكَ (15) ﴾

(سورة الشورى)

يا محمّد..

﴿ فَادْعُ ﴾

(سورة الشورى)

إلى الله..

﴿ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ اللّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ اللّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ(15) ﴾

(سورة الشورى)

فما دام هذا الواقع، خصومات، نفور، فأنت يا محمد ادع إلى الله واستقم كما أمرت، ولا قيمة للدعوة إطلاقاً من دون أن تستقيم على أمر الله.

على كل داعية أن يدعو إلى الله بلسانه و سلوكه:

هناك معنى آخر للآية: استقم على الدعوة أي اثبت عليها. والمعنى الثاني ادع إلى الله وكن قدوةً لهم، ادع إلى الله بلسانك وسلوكك.

﴿ وَلَا تَتّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ (15) ﴾

(سورة الشورى)

هذه الخصومات، والعنعنات، والتبجُّح، والطعن.

﴿ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللّهُ مِنْ كِتَابٍ (15) ﴾

(سورة الشورى)

فالدعوات كلها واحدة، من كتاب نكرة تنكير شمول.

﴿ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ اللّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ اللّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ(15)﴾

(سورة الشورى)

الحجة لله علينا، الحُجَج الداخلية الفردية لا قيمة لها، والكتاب هو الحجة.

﴿ اللّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ(15) ﴾

(سورة الشورى)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الشورى 042 - الدرس (05-15): تفسير الآيات 16-18
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 25-02-1994

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس الخامس من سورة الشورى.

اتحاد أهداف و وسائل المجتمع سبب قوته:

مع الآية السادسة عشرة وهي قوله تعالى:

(وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ(16))

(سورة الشورى)

ولكن نعود قليلاً إلى الآيات السابقة، كي نتابع المعنى المتصل بين آيات الدرس السابق وآيات الدرس الحالي، فربنا سبحانه وتعالى حينما قال:

(وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمْ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ (14))

(سورة الشورى)

أي تفرّقوا بسبب البَغي أي الحسد وطلب المكاسب الدنيويّة، إذاً الحق يجمع والباطل يفرّق، والآخرة تجمع والدنيا تفرّق، والقيم تجمع والحاجات تفرّق، فإذا أردنا أن نجتمع فلنطلب الدار الآخرة، وإذا أردنا أن نجتمع فليكن الحقُّ إمامنا، أما إذا أردنا الدنيا نتنافس، ونختلف، ويطعن بعضنا ببعض، ونتراشق التُهَم، وإذا أردنا أن نجتمع فيجب علينا أن تتحد أهدافنا ووسائلنا، أما إذا تفرّقنا، فكل إنسان طلب مصالح شخصيّة، ولو كان الإطار حقاً، والغلاف حقاً، وهذا مما يؤدِّي إلى تفكيك الأمّة.

إيثار الدنيا على الآخرة سبب تفتت و تفرق المسلمين:

الآية الكريمة:

(وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمْ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ (14))

(سورة الشورى)

أي

(بغياً)

سبب تفرُّقهم، وخصوماتهم، وتفتتهم، وسبب كونهم شيعاً وأحزاباً ومللاً وطوائف، وهذا الوضع المأساوي سببه إيثار الدنيا على الآخرة، والحسد، وطلب الدنيا بوجاهتها، أو مالها، أو مكاسبها، أو بالأتباع.

وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ: من معانيها:

1 ـ اقتضت رحمة الله عز وجل أن يؤجّل للناس أجلاً:

(وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ (14))

(سورة الشورى)

وذكرت لكم في الدرس الماضي أن الله سبحانه وتعالى اقتضت رحمته أن يؤجّل للناس أجلاً، أي يعطيهم فرصة، كما لو أن الطالب نال صفراً في علامة المُذاكرة، فلو أنهينا له عامه الدراسي، واعتبرناه راسباً من أول شهر فهذه ليست رحمة، ولكن لو نال الصفر في المذاكرة الأولى فمعه لآخر شهر حزيران، فهناك مذاكرات، وفحوص، ومعدّلات، ونشاطات، فهذا مما يؤكِّد رحمة الله عزّ وجل..

(وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ (14))

(سورة الشورى)

2 ـ إعطاء الله عز وجل الإنسان فرصة مديدة ليتعرض إلى رحمته و يصل إليها:

وهناك معنى آخر في هذه الآية: أنه ليس القصد أن يحاسبهم بل القصد أن يرحمهم، ولذلك يعطيهم هذه الفُرَص الجديدة، وعندما يكون هدف الإنسان أن يرحم الآخرين فكلّما استنفذوا الفرص يعطيهم فرصاً جديدة، فربنا عزّ وجل أعطانا فرصة مديدة..

(أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ)

(سورة فاطر: من آية " 37 ")

أعطانا فرصة مديدة كي نتعرّض لرحمة الله عزّ وجل، ونصل إليها، ونستحق سلامة الدنيا والسعادة في الآخرة.

الخصومات بين الدعاة إلى الله عز وجل تنعكس على مجموع الدعوة:

لكن النقطة الدقيقة جداً في هذه الآية أن مجموعة الأشخاص الذين يراقبون الخصومات، هذه الدعوة بأكملها قد تسقط، فإذا راقبت عدة دعاة يتراشقون التُهَم، ويجرح بعضهم بعضاً، ويبخس بعضهم مقام بعض، فقد تقول في ساعة غيظ: ما هذه الدعوة ؟ خصومات الدعاة تنعكس على مجموع الدعوة، ولذلك كما قلت في الدرس الماضي: سمّى ربنا عزّ وجل هذه الخصومات كفراً، قال:

(وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ)

(سورة آل عمران: من آية " 101 ")

فليس من صالح الدعوة إلى الله، ولا من صالح مجموع المسلمين، ولا من صالح مستقبل هذا الدين أن تنشر معارف جانبيّة، وخصومات، وعصبيّات، وانحيازات بين الدعاة إلى الله عزّ وجل، إنهم إن فعلوا ذلك سقطوا جميعاً، وسقطت معهم الدعوة.

من رجّح مصلحته على مصلحة المسلمين ضعُف إخلاصه:

ذكرت لكم في الدرس الماضي كيف أن بعض الذين حاربوا المستعمرين في شرق آسيا، وكيف أنهم كانوا كباراً في عيون الجميع، فلمّا تخاصموا فيما بينهم وتناحروا تعجّبنا من هذا الوضع، وسكتت ألسنتنا عن أن نثني عليهم، فالخصومات بين الجماعات الدينيّة خطيرة جداً، وتعود بالخطر على كل الدعوة إلى الله.

فلذلك هذا التفرُّق الذي كان بسبب البغي، والحسد، وطلب الرئاسة، وطلب المَجد، والسيطرة، والدنيا، والمال، والأتباع، هذه كلّها مكاسب دنيويّة.

والإنسان أيها الأخوة بقدر إخلاصه (دقِقوا في هذه الكلمة) إنّه يُرَجِّح مصالح المسلمين العامّة على مصلحته الخاصّة، وكلّما ضعف إخلاصه رجّح مصلحته الخاصّة على مصالح المسلمين، والداعية الذي يرجّح مصلحة جماعته على مصالح جميع المسلمين هذا ضعفٌ في إخلاصه، ولذلك فنحن الآن بحاجة إلى أن نتعاون، وأن نتكاتف، أن يعذر بعضنا بعضاً، وأن نتعاون فيما اتفقنا، وأن يعذر بعضنا بعضاً فيما اختلفنا، نحتاج أن نحترم جميع الدعاة، وجميع العلماء من دون أن ننتقص منهم، وألا نجعل من مجالسنا نهشاً لأعراضهم ومكانتهم، فليس هذا في صالح المؤمنين إطلاقاً.

دعوة الله تعالى النبي الكريم بأن يكون قدوة للناس:

ثمّ يقول الله عزّ وجل:

(وَإِنّ الّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَّابَ(14))

(سورة الشورى)

أي أهل مكّة الذين جاءهم هذا الكتاب..

(مِنْ بَعْدِهِمْ (14))

(سورة الشورى)

من بعد هذه الخصومات..

(لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ(14))

(سورة الشورى)

لذلك يا محمّد

(فادع)

إلى الله على بصيرة، ادع إلى الله واعمل صالحاً، وكن قدوة للناس.

(فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ (15))

(سورة الشورى)

الثبات أساس وصول الإنسان إلى أهدافه النبيلة:

بعضهم قال: هذه الاستقامة في السياق تعني متابعة الدعوة، أي الإصرار، وتحمُّل المتاعب، والثبات، وفي الحقيقة لا يوجد إنسان وصل إلى أهدافه النبيلة إلا بالثبات، والله عزّ وجل يقول:

(أَحَسِبَ النّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ(2))

(سورة العنكبوت)

والله عزّ وجل يضع عقبات ليمتحن المؤمنين، فمنهم من يتجاوز هذه العقبات، ومنهم من يسقط، وهذه العقبات يضعها الله سبحانه وتعالى ليمتحن المؤمنين ؛ وليمتحن صبر المؤمنين، وصدقهم، وثباتهم، وإصرارهم على طلب الآخرة..

(فَلِذَلِكَ فَادْعُ (15))

(سورة الشورى)

أعظم عمل على الإطلاق الدعوة إلى الله بصدق و إخلاص:

أنا والله أقول هذا الكلام وأتهيّب أن يُفهم على غير ما أردت، ما من نشاطٍ في إنسان يتذبذب بين أن يكون أخطر عملٍ على الإطلاق، وبين أن يكون أتفه عملٍ فالدعوة إلى الله، إذا رافقها صدق، وإخلاص، وتطبيق، والتزام فهي أخطر عمل على الإطلاق، وما من إنسانٍ يرقى إليك، لقوله تعالى:

(وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ(33))

(سورة فصلت)

فما من إنسان أعظم من ذلك، إنه دعا إلى الله وعمل صالحاً، دعا وكان قدوةً، وأسوةً، ومثلاً أعلى، والتزم الأمر والنهي، دعا إلى الله وكان سبّاقاً إلى ما يدعو إليه. وكنت أقول لكم دائماً هذا الدعاء الذي يقصم الظهر:

((اللهمّ إني أعوذ بك أن يكون أحدٌ أسعد بما علمّتني مني))

إنسان تدعوه إلى الله، فتبيّن له آية، فتشرحها، وتحلِلها، وتبيّنها، ويصغي، ويصدِّق، ويطبِّق، ويتألَّق، ويرقى وأنت قاعد في أرضك، فأشقى إنسان عالمٌ دخل الناس بعلمه الجنّة، ودخل هو بعلمه النار، ولذلك من أراد أن يصرف وجوه الناس إليه فليتجهّز إلى النار.

((من تعلم العلم ليباهي به العلماء، أو يماري به السفهاء: أو يصرف به وجوه الناس إليه أدخله الله جهنم))

[زيادة الجامع الصغير: عن " أبي هريرة "]

المؤمن الحق يدعو إلى الله تعالى بالعقل و الشرع:

إذاً فلذلك يا محمّد بهذا التمزُّق، والتشرذم، والتبعثُر، والدعوة الساقطة بنظر المُنقطعين عن الله عزّ وجل، لأن أصحابها تراشقوا التهم، وتنافسوا الدنيا، وتدافعوا إليها، وطعن بعضهم ببعض، ولهذا..

(فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ (15))

(سورة الشورى)

فأنت دائماً بين أن تتبع العقل المتوافق مع الشرع، وبين أن تتبع الهوى المتوافق مع الشهوة، فإما أنت رحماني أو شيطاني، ربّاني أو شهواني، تتحرّك بما يمليه عليك العقل والشرع، أو بما يمليه عليك الهوى والشهوات..

الكتب السماويّة كلها من عند الله عزّ وجل:

(وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ (15))

(سورة الشورى)

أما كلمة

(مِنْ كِتَابٍ)

هذه كلمة في هذه الآية تؤلِّف القلوب، فكتابٍ نكرة، أي كل الكتب السماويّة كما أنزلت حق، وكلُّها تلتقي مع بعضها بعضاً، إنَّها من مشكاةٍ واحدة، ولهدفٍ نبيلٍ واحد، ومن عند الله عزّ وجل..

(فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ (15))

(سورة الشورى)

الإنجيل كما أنزله الله على العين والرأس، والتوراة كما أنزلها الله على العين والرأس، والقرآن كما أنزله الله على العين والرأس.

النبي عليه الصلاة والسلام أمر أن يعدل بين الأديان:

(وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ (15))

(سورة الشورى)

(قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلا نَعْبُدَ إِلا اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ)

(سورة آل عمران: من آية " 64 ")

فيمكن أن نأخذ القواسم المشتركة في الأديان كلها، إذا آمنا بإلهٍ واحد، وآمنا بأن الخلق عباده، وأن على كل من عرف الله أن يستقيم على أمره، وأن يحسن إلى عباده، فهذا قاسم مشترك بين كل الأديان، فالنبي عليه الصلاة والسلام أُمِرَ أن يعدل بين الأديان.

من أيقن أن الله واحد وكتابه واحد ورسوله واحد أسرع إلى طاعة الخالق:

لذلك لو أن أهل الكتاب أيقنوا أن هذا القرآن من عند الله، وأن هذا الإنسان رسول الله ينبغي لهم أن يؤمنوا به، وأن يتابعوه وأن يعاونوه..

(اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ (15))

(سورة الشورى)

فهذا الشعور أن الإله الذي أكرم الصحابة الكرام هو نفسه ربُنا، الإله واحد، الذي أنزل هذا القرآن موجود معنا أينما كنّا، فالزمان تغيّر، والمكان تغيّر ولكن الله هو هو، وكتابه هو هو، والمبادئ هي هي، القيَم هي هي، فنحن إذا آمنا بأن الله سبحانه وتعالى واحد، وكتابه واحد، ورسوله واحد، وعباده كلُّهم عنده سواء يتفاضلون بطاعتهم له، انتهى الأمر.

الخصومات بين جماعة الأديان تغضب الله عز وجل:

هذه الفكرة التي تقول: إن الإنسان بآخر الزمان يصعب أن يصير، ففرص التفوّق موجودة في كل زمان، فالفُرَص واحدة، والإنسان عنده مملكتان بيته وعمله، يتمكّن أن يضبط جوارحه هذه بيده، ويتمكّن أن يضبط لسانه، وبصره، وسمعه، ودخله، وإنفاقه، وبيته، وعمله وهذا الذي في قدرته، والإله موجود سميع وبصير..

(اللّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ (15))

(سورة الشورى)

أعجب ما يعجب الإنسان هذه الخصومات بين جماعات الأديان، لأنه على باطل، ولأنه عندما يتحرّك الدين ويتغيّر، ويدخل فيه ما ليس منه، فتجده بالطبع يصطدم مع الدين الآخر فمن هنا تأتي المشكلات، أما لو عادوا جميعاً إلى أصل دينهم، وإلى أصل توراتهم، وإلى أصل إنجيلهم، وعدنا إلى روح قرآننا، وعرفنا ربنا سبحانه وتعالى التقينا، فالله عزّ وجل لا يرضيه هذه الخصومات، وهذه الحروب، وتلك الأحقاد.

التغيير و التحريف أساس اصطدام الكتب السماوية مع القرآن الكريم:

البشريّة تئن الآن إن كان في آسيا، أوفي أوروبا كما تعلمون الأحقاد الدينيّة، والخصومات، والحروب الطاحنة فهل هذا يرضي الله عزّ وجل ؟ كلا لا يرضي الله، إذاً:

(وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللّهُ مِنْ كِتَابٍ (15))

(سورة الشورى)

جاءت كلمة

(كتاب)

نكرة لتؤكِّد أن كل الكتب السماويّة من عند الله، وأنها كلّها في الأصل حقٌ من عند الله، ولكن ما طرأ على بعضها من تغيير، وتبديل، وتزوير، وتحريف طبعاً عندئذٍ اصطدمت مع القرآن الكريم.

الله سبحانه وتعالى لا يتقبّل العمل إلا إذا كان خالصاً وصواباً:

ثم يقول الله عزّ وجل:

(لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ (15))

(سورة الشورى)

كل واحد له عمله، وهذه كلمة دقيقة جداً، أنت تعرف عملك، فهناك عمل مبني على الاحتيال، وعمل مبني على الغِش، وعمل مبني على إيذاء الآخرين، وإنسان يصلح، وإنسان يفسد، وثالث يقدِّم، ورابع يأخذ، وخامس يحسن، وآخر يعتدي، وكل واحد له عمل، ولكن أسعد إنسان من كان عمله وفق الكتاب والسُنّة، ولذلك يقول بعض العلماء: **" الله سبحانه وتعالى لا يتقبّل العمل إلا إذا كان خالصاً، وكان صواباً وفق الكتاب والسنة، وخالصاً ابتغي به وجه الله ".**

وكل واحد منّا يحاسب نفسه حساباً دقيقاً ونحن في رمضان يسأل نفسه، هل عملي مطابق للكتاب والسنة ؟! فيه عدوان ؟ فيه بغي ؟ أم فيه أكل أموال الناس بالباطل ؟ بكسب المال. ومن حديث شريف يقول عليه الصلاة والسلام:

((يا سعد أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة))

[مجمع الزوائد]

من وصل إلى أن يكون كسبه حلالاً وصل لكل شيء وأصبح مستجاب الدعوة:

ما رأيت كلمةً جامعة مانعة موجزةً، مفعمة بالمعاني التفصيليّة كيف يكون طعامك طيّباً ؟ إذا كان ثمنه حلالاً، وكيف يكون الثمن حلالاً ؟ إذا كان الدخل حلالاً، وكيف يكون الدخل حلالاً ؟ إذا كانت حرفتك تنضبط بها تماماً بما أمر الله، فإذا وجد غش فمعنى هذا أن جزءاً من مالك حرام، لقد بعت هذه الحاجة على أنها مستوردة وهي وطنيّة، فأخذت سعراً غالياً، فصار جزء من مالك حراماً، فاشتريت به طعاماً فصار الطعام غير طيّب، وعندما كان الطعام غير طيب لست مستجاب الدعوة، ولذلك مليار ومئتي مليون إنسان يدعو الله عزّ وجل وأمرهم ليس بيدهم.

((يقول العبد: يا رب يا رب ومطعمه حرام ومشربه حرام وغذي بالحرام فأنّى يستجاب له))

[الترمذي عن أبي هريرة]

أي أنك حينما تدع الطعام طيباً، أطب مطعمك أي ثمنه مالاً حلالاً، أي دخلك حلال، وفي كسب رزقك لا يوجد كذب، ولا غش، ولا تدليس، ولا إيهام، ولا احتكار، ولا بضاعة محرّمة، ولا تعامل محرّم، ولا شيء غير سهل، فإذا وصل الإنسان إلى أن يكون كسبه حلالاً وصل لكل شيء، ويصبح مستجاب الدعوة.

((يا سعد أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة))

فكان السلف الصالح حريصًا حرصاً بالغاً على أن يطعم أولاده حلالاً.

من انضبط بمنهج الله عز وجل صار طريقه إلى الله سالكاً:

كل إنسان منّا أيها الأخوة الكرام، اعتقد اعتقاداً جازماً وأنا معك إلى أقصى مدى، لن يقلّ رزقك إذا استقمت على أمر الله، فبعض المطاعم يوجد فيها خمور، فيقول صاحبها: ماذا أفعل ؟ نحن أخذنا المطعم خمس نجوم، وإذا أردنا إلغاء الخمر يصير أربع نجوم، لا حول ولا قوة إلا بالله. يا سيدي الغ الخمر واطمس كل نجوم المطعم، واكسب رضاء الله عزّ وجل. فعندها لا يكون في دخل الإنسان مشكلة، ولا يتعامل ببضاعة محرّمة.

أعدهم لكم ؛ الغش، والكذب، والتدليس، والإيهام، والابتزاز، والاستغلال. فالإنسان يعرف، من خصائص النفس قال:

(بَلْ الإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ(14)وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ(15))

(سورة القيامة)

فالمحامِي يعرف إذا أوهم الموكِل أن القضيّة رابحة مئة بالمئة، وهو يعرف أنها ستمتد معه خمس سنوات، فيمكن أن يأخذ منه خلال خمس سنوات مبالغ طائلة، وبعد هذا يفاجئه مرة واحدة أن القاضي لم يكن نظيفًا. الإنسان يعرف أنه يغشُّ الناس، ولا حاجة لمن يوجّهه، هذه من خصائص النفس البشريّة، فالفطرة تعرف..

(بَلْ الإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ(14)وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ(15))

(سورة القيامة)

فالطبيب والمحامِي نفس الشيء، والمدرّس، يجد طالباً لا أمل منه إطلاقاً فيمنيّه بالنجاح ليعطيه دروساً خاصّة، فهذا الدخل صار حراماً، فالدخل الحرام، ثمن الطعام فيكون الطعام غير طيّب، أنت عند الله مرفوض، فما هذا الحديث:

((أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة))

فعندما ينضبط الإنسان انضباطاً حقيقياً في عمله يصير دخله حلالاً، وطعامه طيّباً، ويصير مستجاب الدعوة، ويكون الطريق إلى الله سالكًا.

قليلٌ من الرزق الحلال خيرٌ من رزقٍ كثير فيه شبهة:

فيا إخواننا الكرام لا تتوهّموا الدين بالصلاة فقط، تقولون صلينا، بينما المحل فيه عشرات المواد المحرّمة، وإذا لم يكن في المحلّ دخّان يقِل البيع، أو طاولات زهر لا نبيع، أو ما ابتسمنا بوجه المرأة وضاحكناها، ومزحنا معها، وأثنينا على جمالها فإنها لا تشتري من عندنا، فمن قال لك هذا الكلام ؟ إذا كان الدخل متلبساً بالمعاصي، والحرمات، والمخالفات، وبالإيهام، والابتزاز، والغش، والتدليس، يصير الدخل غير حلال، وثمن الطعام غير حلال، والطعام غير طيّب، والدعاء غير مستجاب.

فيا إخواننا الكرام إذا عاهد أحدنا نفسه أن يجعل دخله حلالاً فقط، وصل إلى كل شيء، سبحان الله الحلال فيه بركة، ولو كان الدخل محدوداً فالله عزّ وجل يبارك فيه، وقد يعجب الإنسان كيف يعيش بهذا الدخل ؟ يعيش، إذا أعفاه الله عزّ وجل من مصاريف الأطبّاء والصيادلة، والأزمات، والطوارئ، والمصائب إذا أعفاه منها، وصار في قناعة، والمؤمن يأكل بمعي واحد، إذا أكل باعتدال، وإذا كان الشيء اشتراه من منبعه في وقته المناسب بأسعار معتدلة، وكانت الزوجة عندها إدارة وتدبير يكفي هذا الرزق الحلال، لذلك: قليلٌ من الرزق الحلال خيرٌ من كثير من رزقٍ فيه شبهة.

على الإنسان ألا يبني عمله على معصية:

إذاً:

(لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ (15))

(سورة الشورى)

لا تبن عملك على معصية، لا تقل: لا أقدر، فهذه مصلحتي نشأت فيها هكذا. لك عمل وعملك أخطر شيء، وهذا العمل الذي معك في القبر، وكل إنسان يأتيه شبح مصيبة، أو شبح موت بشكل عجيب، وبثوانٍ معدودة يستعرض كل عمله، ويعلم أنه على حق أو على باطل، فالإنسان قبل أن تأتيه الأزمة، قبل وقوعه في ظرف صعب، يوجد طريق مسدود، قبل ما يجد أنه لا مجال يغيّر، وأنت الآن في بحبوحة راجع نفسك، يا ترى عملنا شيء فيه شبهة ؟ أو بضاعة محرّمة ؟ أو تعاملاً محرّماً ؟ أو علاقة محرّمة ؟ أو معصية ترتكب في المحل التجاري ؟ أو مجالاً للإنسان يشعر أن دخله غير حلال ؟

فالسلف الصالح بارك الله لهم في أعمالهم، وفي أهلهم، وأولادهم، وتجارتهم، وصناعتهم، و زراعتهم، كلها فيها بركة ؛ بركة التوفيق، والحفظ، والرعاية..

لكل إنسان عمله و حسابه:

إذاً كلمة

(لَنَا أَعْمَالُنَا)

أنت لك عمل تجاري، ولك عمل وسط بيتك، يا ترى أنت أب مثالي أم غير مثالي ؟ أنتِ أيتها المرأة أم مثاليّة أم غير مثاليّة ؟ تقومين على رعاية أبنائكِ ؟

((أيما امرأة قعدت على بيت أولادها فهي معي في الجنة))

(الجامع الصغير: عن " أنس ")

فالمشكلة أن الإنسان يطلب الدنيا فالدنيا تتصادم، ولو أن الزوج أراد من الزواج المتعة، والزوجة كذلك يتصادما أحياناً، ولكن لو أرادت من هذا الزواج أن ترضي الله بخدمة زوجها، ورعاية أولادها، وأراد الزوج من خلال زواجه أن يأخذ بيد امرأته إلى الله ورسوله، وأن يدل أولاده على الله فإن هذه الأهداف النبيلة تتلاقى، وتتعاون، وتتكامل، وتتناسق، ويكون بينهما تنسيق.

فكل واحد له عمل، ولا أحد بإمكانه أن يحمل وزر إنسان آخر، هذا معنى قول الله عزّ وجل:

(وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى)

(سورة الأنعام: من آية " 164 ")

(لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا (15))

(سورة الشورى)

أخطر شيء بحياة الإنسان زواجه و عمله:

أخ كريم والله أعجبني، يعمل في مطعم، اللحم نوع والإعلان عنه بنوع آخر أعلى بكثير، لم يتحمّل فتركه، لأنه عن طريقه يتم البيع، يجب أن تقول لهم إن هذا اللحم نوعه كذا، وهو ليس نوعه كذا، إنه أرخص بكثير، فمن قال له: هذا ليس شغلك. عندما تبني رزقك على الحرام هذا كذب، هذا بسعر وهذا بسعر، والزبون لن يعرف ولكن يسألك: ما نوعه ؟ هل بلدي، ضع لنا. وهو ليس بلدياً، فالأخ تحسّس، والبيع يتم على يده كل يوم، لو أنه إنسان يوهم الناس بنوع ويعطيهم نوعاً آخر فصار الدخل حراماً.

فأقول لكم دائماً: زواجك وعملك أخطر شيء بحياتك، لأنهما ألصق شيءٍ فيك، وألصق شيء فيك زواجك وعملك، فإذا اختار الإنسان الزوجة المؤمنة، أو إن لم تكن كذلك حملها على الإيمان، وأصلحها، واعتنى بها، وتعامل معها بالنفس الطويل حتى ارتقى بها إلى الله، واختار عمله بحيث لا يكون فيه شبهة، فوالله وصل إلى كل شيء، الزواج والعمل، هذه المعاني قلتها لكم استنباطاً من قول الله:

(لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ (15))

(سورة الشورى)

كل واحد له عمل..

المذاهب الأرضيّة مبنيّة على فلسفة المعاصي والموبقات:

(لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا (15))

(سورة الشورى)

الحجّة هنا معناها الاحتجاج، وأحياناً الإنسان يتسبّب في الباطل، ويرفض المُناقشة الحُرّة، ويرفض الأدلّة القرآنيّة، تأتيه بالقرآن فلا يقبله، يقول لك: هذه الآية ليس معناها هكذا، تأتيه بالحديث الصحيح لا يقبله، تأتيه بأقوال العلماء لا يقبلها، إنه يقبل دينًا وفق شهوته، وهواه، فإذا انقطع التحاجج أو امتنع، أو لم يحدث تحاجج فلا مانع..

(لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ (15))

(سورة الشورى)

أي لا احتجاج بيننا وبينكم..

(اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ(15))

(سورة الشورى)

وعنده حينما نرجع إليه ينبئنا بما عملنا، فأنت على حق وأنت على باطل، وأنت صادق وأنت كاذب، وأنت محسن وأنت مسيء، أما الإنسان بالدنيا فيستخدم ذكاءه لتغطية عمله، ويقنعك أنه على الحق، الحقيقة هو يفلسف المعصية.

كل إنسان أعطاه الله عقلاً كي يرقى به إليه:

هناك كثير من المذاهب الأرضيّة مبنيّة على فلسفة المعاصي والموبقات، فالإنسان عندما أعطاه الله عقلاً كي يرقى به إلى الله، ويتعرّف إليه، فلمّا أراد الدنيا يوجد معه جهاز عجيب، ممكن تستخدم جهازاً تصير أكبر مصمِّم مثلاً، لكنه بهذا الجهاز استخدمه لتزوير العملة، فدخلت بسببه السجن، وهو نفسه ممكن ترقى فيه إلى أعلى مستوى اقتصادي، أنت استخدمه استخداماً آخر في غير ما صُنِعَ له. المركبة ممكن تنقلك إلى هدفك، وممكن تكون عكس ذلك. فلذلك:

(لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ (15))

(سورة الشورى)

إذا انقطع التحاجج بين الناس ليست مشكلة، فهناك آخرة، وإله يعلم وسوف ينبّئ كل إنسان بما عمل..

(اللّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ(15))

(سورة الشورى)

كل إنسان مآبه إلى الله ليحاسبه على عمله في الدنيا:

العلماء قالوا: هذه الآية فيها عشر قضايا..

(فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آَمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ(15))

(سورة الشورى)

وهي من الآيات النادرة ففيها عشر قضايا.

أحياناً الإنسان عندما يناقش أهل الدنيا، وقد يكون مؤمناً عالي الإيمان، أحياناً يعجَز عن مناقشتهم لا لأنه ضعيف الحجّة، بل لأنه ليس بينه وبين الطرف الآخر لُغة مشتركة، فأنت مؤمن بالآخرة والآخرة خارج حسابه، فلا مناقشة، وإذا آمن الإنسان بالآخرة بحياة أبديّة، والدنيا مزرعة الآخرة، فهذا له منطلقات وله أهداف، لو تناقش مع إنسان كافر بالآخرة لا يلتقوا، هذا المال عنده كل شيء، الشهوات تملكه، المكاسب هدفه، فمادام لا يعتقد بيوم الحساب، ولا في الآخرة، إذاً يعد ذكياً إذا حصّل أكبر مبلغ ممكن في أقل جهد ممكن، معنى هذا إذا شخص هرّب مادّة مخدِّرة يكون ذكياً جداً لأنه حصل على أموال طائلة بيسر بسيط، لكن الذي يؤمن بالله واليوم الآخر لا يستطيع أن يفعل هذا، في عنده مبادئ، في عنده أهداف، وأحياناً ينقطع الاحتجاج بين الناس، لا لأنهما على باطل ؛ لا قد يكون أحدهما على حق، إلا أنه حينما لا يكون هناك لغة مشتركة، ولا مبادئ، ولا قيَم مشتركة ينقطع، وإذا انقطع الاحتجاج بين الناس فهناك آخرة، كلنا إلى الله آيبون راجعون، والله سبحانه وتعالى ينبّئ كلاً منا بعمله وبمستواه.

المؤمن منضبط و مطبق لكل ناحية من نواحي الحياة:

الآن:

(وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ(16))

(سورة الشورى)

أي أن الله عزّ وجل أنزل هذا الكتاب على عبده، وعبده النبي عليه الصلاة والسلام دعا إلى الله، والناس استفادوا، واستجابوا، واطمأنوا، وسعدوا، وتألّقوا، على الرغم من كل هذا الإنجاز العظيم للدين، انظر كيف أن المؤمن منضبط أشد الانضباط.

امرأةٌ علمت أن زوجها تزوّج امرأةً ثانية، لكنها مؤمنة فرضيت، المرأة الثانية أيضاً مؤمنة، توفّى الله هذا الزوج، فما كان من الأولى إلا أن أرسلت للثانية نصيبها من الإرث، فقالت لها الثانية: **" لقد طلّقني قبل أن يموت، ليس هذا من حقي".** شيء لا يصدّق أن إنسانًا يقف عند الحدود بهذه الدقّة، فهذا هو المؤمن، هذا مطبق بكل نواحي الحياة ؛ في البيع والشراء، والتجارة، والتعامل.

من استجاب لله أصبح إنساناً كاملاً:

إذاً:

(وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ (16))

(سورة الشورى)

عندما استجاب الإنسان لله صار إنسانًا كاملاً، تثق بأمانته، وصدقه وإخلاصه وعفافه وإنصافه وإحسانه وإنكاره لذاته، فهذه الشخصيّة الفذّة التي صنعها الدين، بعد هذا الإنجاز الضخم تحاجج في هذا الدين، وتحاول أن تثبت العكس، وأن هذا الدين عبارة عن خرافة، وأنه شعور بالضعف عند بعض الناس ؟ إنه كلام غير معقول..

(وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ (16))

(سورة الشورى)

فالناس استجابوا، وطبّقوا، وسعدوا، وتألّقوا، وارتقوا، فانظر إلى مجتمع المؤمنين ليس فيه كذب، ولا تدليس، ولا غش، ولا خداع، ولا أعمال منحطّة، ولا قذارة، ولا عدوان على الأعراض، بل عفّة بالغة، فهذا المجتمع المؤمن الراقي أليس هذا دليلاً عظيماً على أن الدين حق ؟

فإذا لم تر الجامعة ولكنك رأيت خريجي الجامعة، فوجدت علماً ما بعده علم، وأخلاقًا انضباطيّة، وروحاً موضوعيّة، واندفاعاً إلى خدمة الناس، وإنصافًا، واعتدالاً في الأجور، ما هذه الجامعة يا أخي ؟ هذا دليل الجامعة التي خرّجت هؤلاء، فلو لم ترَ الجامعة ولم تدخل إليها لكنك أمام نماذج من خريجيها.

الإيمان يربي أشخاصاً صادقين مخلصين و أمناء:

فهذا الدين يقدِّم نماذج، والله أخ بعث إلي برسالة مرّة قال لي: عشرين مليون ليرة في ذمتي، ولا يملك أصحابها أية وثيقة ولا علم أنها عندي، وقد توفي الأب فجأةً وما أعلم أهله بذلك، بادر إلى نقد هذا

المبلغ للورثة، وإذا لم يفعل ذلك لا أحد يعلم بهذا إطلاقاً، فالقضيّة بينه وبين صاحب المال وتوفي فجأةً، فإيمانه دفعه إلى أن يؤدِّي هذا المال للورثة، الإيمان يصنع المعجزات يا إخوان.

فتصور مجتمعاً ليس فيه كذب أبداً، يا لطيف ! إنه شيء عجيب، ولا انحراف، ولا خيانة، ولا عدوان، بل فيه إنصاف، ورحمة لكنّا في حياة غير هذه الحياة، نحن أحياناً مجتمع صغير تجد فيه قيَماً فيرتاح الإنسان، يسعد، يطمئن، فالآن إذا ذهب أخ مثلاً إلى أخيه وله مصلحة، كله طمأنينة أنه سينصحه، ولا يغشّه، ولا يزيد في السعر عليه، ولن يكذب عليه، سر الطمأنينة أنه مؤمن يخشى الله.

أما إذا دخلت إلى إنسان لا يعرف الله تخاف منه، وستقيده بعقد، وستخاف أن يضع قطعة مستعملة مكان قطعة جديدة، وأن يكذب بالسعر، وأن يغافلك بقضيّة، تخاف أن يأخذ البنزينات، تخاف يبدِّل قطع بالسيارة لا ترتاح له أبداً، أما المؤمن ترتاح له، هذه من ثمار الإيمان، الإيمان يربي أشخاصاً صادقين، مخلصين، أمناء، منصفين، أشخاص متواضعين.

الشقي من وضع نفسه بخندق ضد الدين:

فبعد أن استجيب لله، وتألّق الناس، والآثار واضحة جداً، يأتي بعض الناس ليدحضوا أصل الدين، وأن هذه غيبيات، يقول لك: إنها أفكار ليست يقينيّة. وهذا اتجاه غير صحيح، قال:

(حُجّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ (16))

(سورة الشورى)

أي حجّتهم مردودة بألف دليلٍ ودليل، بالدليل النَقلي، والدليل العقلي، والواقعي، والفطري، فالفطرة تؤيّد، والعقل والواقع والنقل كلها تؤيّد..

(حُجّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ(16))

(سورة الشورى)

وبعد ذلك فالإنسان أيها الأخوة الكرام يكون غلطان أشد الغلط، وشقياً أشد الشقاء لو وضع نفسه بخندق ضد الدين، فهو دين الله عزّ وجل، الإله معه، وهو الخالق، وقد فعل هذا فرعون فكان مصيره الغرق، فعل هذا قارون انتهى، فعل هذا النمرود انتهى، هذا هو التاريخ، الذين عارضوا الدين بقوا في مزبلة التاريخ، فأنت بطولتك أن تكون في خندق المؤمنين، داعماً لهم، مُعيناً إيّاهم، مصدِّقاً لهم، فأخطر شيء عندما يأخذ الإنسان موقفًا معادياً للدين، أو معادياً لمن سمح الله لهم أن يكونوا دعاةً في هذا الدين، طبعاً هم ليسوا معصومين، لكن نحن يجب علينا ألا نشرّحهم بل يجب أن نعينهم، نشجعهم، نغض البصر عن بعض الهفوات حتى يتقدّم الحق.

العمل الصالح من لوازم الإيمان:

فيا إخوان توجد نقطة دقيقة جداً: هذا الباطل يتمدّد، بحكم طبيعة الحياة، فالحياة حركة، وكل إنسان يحب أن ينمي اتجاهه، فإذا تنامى الباطل والحق لم يتنامَ، يتحاصر الحق، إذاً التواصي بالحق سبب لبقاء الحق، فالقضية قضية وجود نكون أو لا نكون، إذا كان الحق منحسراً ومنكمشاً، والمسلم متقوقع وقال: ليس لي دخل، هم أحرار. فإذا كان لك ابنة أخ، ولك ابن أخ فانصحهم، فهذه الآية التي سمعتها انقلها لأخيك، انقلها لابنك، وجارك، وزميلك في العمل، لا تكن منكمشًا لأن العمل الصالح من لوازم الإيمان، إذاً يجب أن ينمو الحق لكي يحافظ على وجوده..

(وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ(16))

(سورة الشورى)

للميزان معنيان:

1 ـ الميزان هو العدل:

الآن:

(اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ (17))

(سورة الشورى)

بعضهم قال: الميزان هو العدل. أي يوجد بالقرآن الكريم مبادئ العدل، وهي كثيرة، وتشريع الزواج، والطلاق، تشريع التعامل في البيع والشراء، تشريعات كثيرة في القرآن، هذه التشريعات هي في الأصل مبادئ للعدل، ومبادئ العدل هي الميزان، فهذا تفسير.

2 ـ الميزان هو العقل:

هناك تفسير آخر: الميزان هو العقل، ممكن لنا أن نزن به الأمور، ربنا عزّ وجل جعل الميزان مع العقل متكاملين، وجعل الكون مع العقل متكاملين، في آية أخرى:

(وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ(7))

(سورة الرحمن)

وهذه الآية الثانية، اثنين لا يوجد غيرهما..

(اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ (17))

(سورة الشورى)

من لوازم القرآن أن الله تعالى أعطانا قوّة إدراكيّة لندرك ما فيه من مبادئ:

فما قيمة الكون من دون عقل ؟ العقل قوة إدراكيّة، ما قيمة العقل من دون كون ؟ يتكاملوا، ما قيمة هذا الكتاب من دون قوة إدراكيّة عند الإنسان ؟ الله قال:

(مَثَلُ الّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا)

(سورة الجمعة: من آية " 5 ")

إذا كان المخلوق ليس عنده قوّة إدراكيّة فهل ينفعه هذا الكتاب ؟ إنه لا ينفعه، إذاً من لوازم هذا الكتاب يكون الله عزّ وجل قد أعطانا قوّة إدراكيّة لندرك ما فيه من مبادئ، وتصوُرات، وقواعد، وأوامر، ونواه، وحكم. إذاً الميزان هنا إما أنه مبادئ العدل التي جاء بها القرآن والتي تحكم بين الناس بالعدل، وإما أن هذا العقل الذي لولاه لما كان لكلام الله من معنى، بالعقل ندرك كلام الله، فالعقل وكلام الله متكاملان، كما أن الكون والعقل متكاملان لا نفع لأحدهما من دون الآخر..

كل إنسان متحرك و أجله ثابت فسيصل إلى النهاية لا محالة:

(وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلّ السّاعَةَ قرِيبٌ(17))

(سورة الشورى)

(السّاعَةَ)

كما قال بعض المفسِّرين: أي يوم القيامة، أو يوم البعث. فلماذا هي قريب ؟ إن الإنسان عندما يتحرّك فمعنى هذا أنه وصل، فإذا دخل أول جامعة أخذ ليسانس وهو في البداية، وما دام دخل فقد مشي، إنها أربع سنوات تمضي كلمح البصر ومادام القطار انطلق وصل، أخي لم يصل، ما دام انطلق وصل وهذا معنى **" كل متوقع آت وكل آتٍ قريب "**.

(وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلّ السّاعَةَ قرِيبٌ(17))

(سورة الشورى)

فنحن كم رمضان أكرمنا الله به ؟ فمن رمضان لرمضان، كل مرّة تراويح ودروس، وبعد هذا يأتي الأجل، و هذا له آخر رمضان، وهذه آخر جمعة صلاّها، وهذا آخر عمل عمله، وهذه آخر بناية عمّرها، في أجل، فمادام الأجل ثابتًا وأنت متحرّك فمعنى هذا أنك وصلت ولو لم تصل، وهذا معنى قول الله عزّ وجل:

(أَتَى أَمْرُ اللّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ)

(سورة النحل: من آية " 1 ")

ومعنى هذا أنه لما يأتِ، وكأنه آت، فإذا أنت ماشٍ باتجاهه ومعنى ذلك أنك وصلت.

الموت لا ينتظر فعلى الإنسان أن يهيئ نفسه من أول لحظة:

إذاً عندما يضع الإنسان ساعة الفراق نصب عينيه يكون أسعد إنسان، فيهيّئ نفسه، شركة الطيران (هذه نادرة جداً) يقول لك: الإقلاع في ساعة نخبرك عنها فجأةً بالهاتف، إنها بين الثانية عشرة ظهراً والثانية عشرة ثاني يوم الظهر(أربع وعشرون ساعة) وأنت لا تملك سوى دقيقة فقط، تنطلق من بيتك فتركب السيارة لتكون في المطار، وبأية لحظة يخبّرونك ضمن الأربع والعشرين ساعة، أليس من العقل أن تهيّئ نفسك من أول ساعة ؟ هذه الأربع والعشرون ساعة في أية لحظة يخبرونك، وليس لديك وقت ولا ينتظرونك، ومعنى هذا الحكمة تقول: يجب أن تهيئ نفسك من أول لحظة، بأية لحظة اتصلوا بك وطلبوك وأنت جاهز، والموت كذلك، الموت لا ينتظر، فهل أنت مصفي حساباتك، وعلاقاتك، إنها علاقات شركة، وعلاقات ذمم، وإنه شيء غير واضح، فهل عملت وصية، الأمور كلها واضحة، هناك شيء ليس لك وكاتبه باسمك، فهذا كله يجب أن ينتبه له الإنسان..

(وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلّ السّاعَةَ قرِيبٌ(17))

(سورة الشورى)

من ازداد علماً ازداد خوفاً:

الذين يكفرون بها..

(يَسْتَعْجِلُ بِهَا الّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا (18))

(سورة الشورى)

استخفافاً، متى يا سيدنا ؟ أكثر الناس يسألون عنها استخفافاً..

(وَالّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا (18))

(سورة الشورى)

ولو تقرأ تاريخ الصحابة تجد العجب العُجاب، فإنسان يخاف هذا الخوف كسيدنا عمر **" ليت أم عمر لم تلد عمر، ليتها كانت عقيماً "**. **" ليتني ألقى الله لا لي ولا علي "**. فمعنى هذا أنه كلّما كبر عقل الإنسان يكبر خوفه.

فأنا مرّة دخلت إلى معمل فرأيت صاحب المعمل مهتماً جداً، فسألته: خير ؟ قال لي: الجسر منكسر من النصف. والله ما رأيت شيئاً وبعدها رأيت فعلاً أنه يوجد شق صغير، فالماء المالح بأساسات المعمل فتّتت التربة من تحت الاستناد فانزاحت العضاضة وانكسر الجسر، قال لي: تحتاج إلى أربعمئة ألف أو

خمسمئة ألف تدعيم. قلت: لو رآها دهّان لقال لك: تحتاج إلى معجون. فهناك فرق كبير بين دكتور مهندس يقول له: تحتاج إلى خمسمئة ألف تدعيم، وبين معجون، فكلّما ازداد علم الإنسان يزداد خوفه.

على الإنسان أن يراقب الله دائماً و يهيئ جواباً لكل سؤال:

أحياناً تكون هناك أمراض خطيرة ولكن ليس لها أعراض، فيمكن أن يظهر بالتحليل فتجد لون الطبيب يتغير، لكن المريض يقول: لا شيء عندي. فهذا الجاهل يقول ذلك، أما العالِم فيعرف ماذا هناك، فكأن الخوف يتناسب مع العلم، وكلّما ازداد علمك يزداد خوفك، وكلّما قلّ العلم يقول لك: ما الذي حدث ؟ كلمات الاستخفاف واللامبالاة دليل الجهل، والآتي هو القدوم على الله عزّ وجل.
والله كل كلمة، وهذا إيماني، كل كلمة، وكل ابتسامة، وكل مبلغ تقبضه من أين قبضته ؟ وكل مبلغ تدفعه لمن دفعته ؟ ولماذا دفعته ؟ وما هي النيّة ؟ إذا عرف الإنسان أنه يوجد سؤال دقيق، وأن هناك حساب، والنيات مكشوفة عند الله عزّ وجل..

(مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إلا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا(49))

(سورة الكهف)

فإذا أيقنت أنه هناك وقفة لابدّ منها، والحساب دقيق، وليس معك حجّة، ولذلك فالنبي قال:

((إذا لم تستح فاصنع ما شئت))

[كشف الخفاء]

من معاني هذا الحديث أن الحساب مع الله، فإذا كانت معك حجّة لله، ومعك مبرّر فليس هناك مانع، فأنت دائماً راقب الله، وهيئ جواباً لله.

السعيد من لام نفسه و حاسبها حساباً عسيراً:

كل واحد منا بأية حرفة، اترك الناس قد يكون الشخص ضعيفاً أمامك، وقد يكون جاهلاً، فإذا كنت على جانب من العلم والطرف الثاني جاهل، فتقول له: أريد ثمانية عشر تحليلاً. فيقول لك: حاضر دكتور. لا يحكي ولا كلمة لأنه واثق منك، ولكن الله يعرف إذا كان العدد مطلوباً كله أو نصفه، فأنت مكشوف كشفاً كاملاً عند الله عزّ وجل، فقبل أن تتكلّم أو تطلب، أو ترفع السعر، أو تنزل السعر، أو تحلف يميناً كذباً، تدلِس، تغش، قف فهل معك لله جواباً ؟ هيّئ لله جواب وانتهى الأمر..

(بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا (18))

(سورة الشورى)

إذاً لينخلع قلب الإنسان خوفاً من الآخرة أن يكون غير مؤمن " **التقيت بأربعين صحابياً ما منهم واحد إلا ويظن نفسه منافقاً** " إنها شدة الخوف من الله، ولا يرضى عن نفسه إلا إبليس، أما المؤمن فقلق، إذ عنده قلق مستمر، لكن هذا قلق مقدّس وليس قلق العقاب، فالقلق المقدّس هل الله راضٍ عني ؟ هل عملي مقبول عنده ؟ وهل نيتي طيّبة ؟ وهل لي مقصد دنيوي ؟ فدائماً يحاسب نفسه، وهذا الحساب المستمر يرقى به، والله أقسم بالنفس اللوّامة فقال:

(لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ(1)وَلا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ(2))

(سورة القيامة)

وكلّما لمت نفسك، وشددت عليها، وحاسبتها حساباً عسيراً، واتهمتها، وحاولت أن تقوّمها فأنت مع السعداء، فالذي لا يؤمن بها يستعجل بها استخفافاً.

من لم يُدخل الآخرة في حساباته اليومية خسر الدنيا و الآخرة معاً:

قال:

(يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ(18))

(سورة الشورى)

أي إذا لم يدخّل الإنسان الآخرة في حساباته اليوميّة. إذ كل واحد منّا يدخل بحساباته أشياء كثيرة، يدخل في حساباته أن هذه المادّة يمكن أن يسمح باستيرادها، يقول لك: أخذت على الخفيف، أنا صاح، تجد التاجر كل قضاياه واضحة في ذهنه، فلماذا الأمور الأخرى ليست واضحة الوضوح نفسه ؟ ولماذا لا تدخل الآخرة بحساباتك اليوميّة ؟ كيف سأواجه ربي وهذه الحاجة ليست لي، اغتصبتها اغتصاباً ؟ كيف أواجه ربي وأنا أدلّس في البيع والشراء ؟ أبيع مواد غذائيّة وفيها مواد مسحوب خيرها ؟ حليب ليس فيه دسم أبداً وأبيعه كامل الدسم، والأطفال كلهم صغار لا يعرفون، كيف سأنام مساءً ؟.

أنا والله أعجب، والله أيها الأخوة أعجب ممن ينام الليل ومتلبّس بحقوق العباد، أو له انحرافات، أو آكل حقوقاً ليست له، فكيف تنام ؟ والديّان لا يغفل ولا ينام، فأبداً إذا كان للعلم مؤشّر، فالمؤشّر الخوف معه تمامه، وكلّما ازداد علمك ازداد خوفك من الله.

العلم مفتاح كل شيء في حياة الإنسان:

رويت لكم سابقاً أنّ أحدهم قال لي: أنا لا أخاف من الله (طالب أرعن) قلت له: معك حق يا ابني. هو استغرب كيف هذا ؟ طبعاً أحياناً يأخذ الفلاح معه على الحصيدة، ابنه عمره سنتان، يضعه بين القمح

يمر ثعبان كبير فيمسكه، ولا يخاف الطفل الصغير، لأنه لا إدراك عنده، وأما لو رآه رجلاً يقفز من خوفه، أما إذا رآه طفل صغير فلا يخاف منه، بل يلمسه. فالخوف يتنامى مع الإدراك.

فالطبيب يعرف الجراثيم، وأحياناً يعرف مضاعفات شيء غير مغسول، فتجده على الفور يغسل، ويعتني، لأنه يرى حالات مرضيّة، وإنتانات، وعدوى، وأمراضاً، فأبداً يتنامى الخوف مع العلم، فالعلم هو مفتاح كل شيء..

(وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا(114))

(سورة طه)

إذا أردت الدنيا فعليك بالعلم، وإذا أردت الآخرة فعليك بالعلم، وإذا أردتهما معاً فعليك بالعلم، والعلم لا يعطيك بعضه إلا إذا أعطيته كلك فإذا أعطيته بعضك لم يعطك شيئاً.

على الإنسان ألا يتخذ أي موقف من المؤمن الورع:

هذه الآية دقيقة الذي يستخف بها غير مؤمن، والمؤمن مشفقٌ منها..

(وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ(18))

(سورة الشورى)

وعلى الإنسان ألا يكون في خندق معادٍ للدين، و هذه نصيحة كبرى، فكلنا مؤمنون والحمد لله، ولكن أحياناً يكون له شريك أشد ورعاً منه، و هو يأخذ الأمور بالحل الأبسط، فإذا كان شخص أورع منك فلا تعاده، إذا لم يحب الاختلاط فلا تعاده، ولا تأخذ موقفاً ضد المؤمن الورع.

وفي درسٍ آخر إن شاء الله تعالى ندخل في قوله تعالى:

(اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ(19))

(سورة الشورى)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الشورى 042 - الدرس (06-15): تفسير الآية 19 ، الله لطيف بعباده
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 04-03-1994

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس السادس من سورة الشورى.

الله لطيف بعباده:

مع الآية التاسعة عشرة وهي قوله تعالى:

(اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ(19))

(سورة الشورى)

كي نوضّح معنى اللطف الإلهي، لو أن قائد مركبةٍ أوقفها فجأةً، لآذى كل من في المركبة، أو لو أنه أقلع بها فجأةً لآذاهم أيضاً، لكن قائد المركبة اللطيف هو الذي يُوقفها ببطءٍ تدريجي، دون أن يشعر الراكب أنها وقفت، ثم يقلع بها تدريجياً دون أن يشعر الراكب أنها أقلعت، هذا هو المعنى المادي لكلمة لطيف.

الأرض أيها الأخوة تدور حول الشمس في مسارٍ إهليلجي ـ بيضوي، والمسار البيضوي له بعدانٌ عن مركزه، بعدٌ أعظمي، وبعد أصغري، ونظراً لأن الشمس تجذب الأرض، فللأرض سرعةٌ وهي في بعدها الأعظمي، وسرعةٌ وهي في بعدها الأصغري، حينما تصل إلى المنطقة الصُغرى (إلى المسافة القريبة من الشمس) تزيد من سرعتها زيادةً ينشأ عنها قوةٌ نابذةٌ تكافئ القوّة الجاذبة، إذاً لابدّ من أن تزيد السرعة هنا، ولابدّ من أن تقلّ هناك.

لكن من عظمة الخالق أن هذه الزيادة تكون بتدريج شديد، وهذا النقصان يكون بتدريج شديد، وقد عبّر الرياضيون عن هذه الحادثة بالتسارع والتباطؤ، فتسارع الأرض لو كان عالياً لانهدم كل ما عليها، وتباطؤ الأرض لو كان عنيفاً لانهدم كل ما عليها، لكن الله لطيفٌ بعباده (هذا المعنى التقريبي للطف)، أي أن الله عزّ وجل يقود عباده إلى مصالحهم الدنيويّة والدينيّة برفق.

الله عزّ وجل يقود عباده برفق إلى مصالحهم الدنيويّة والدينيّة:

لو جاء القرآن في أول آية منه يحرّم الخمرَ، والخمرة في دم العرب في الجاهليّة، لرفضوا هذا الدين كلّه، فالموضوع مُجَمّد عرّفهم بذاته من خلال الكون، ودعاهم إلى الاتصال به، وبيّن لهم أنه لا يليق بكم أن تُصلّوا وأنتم في سُكرٍ شديد، ثم مرحلة بعد مرحلة بعد مرحلة:

(إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ)

(سورة المائدة: من آية " 90")

إذاً فالله كان لطيفًا في تحريم الخمر، فالتعريف الدقيق للطف الإلهي: أن الله سبحانه وتعالى يقود عباده إلى مصالحهم الدنيويّة والأخرويّة برفقٍ، ولطفٍ، وتدريج، ويسرٍ من دون أن يشعروا بعنف الصدمة.

وهذا هو المنطلق، أي أن الله لطيف، فقد يكون الإنسان مليئاً بالنقائص والانحرافات، فيعالجه مرّةً تلو المرّة، يعالجه ويريحه فينتعش، ثمّ يظهر له نقيصة ثانية ويأتي التأديب عليها، فيتذلّل ويتوب ويعود إلى الله، فيريحه لفترة، الثالثة، وتمضي عشر سنوات، إلى عشرين سنة كان كتلة نقائص فصار مجموع كمالات دون أن يشعر. فالتطهير السريع العنيف مُهلك، وقد وصف أحمد شوقي النبيّ عليه الصلاة والسلام فقال:

داويت متئداً وداووا طفرةً وأخفُّ من بعض الدواءِ الداء

* * *

معالجات الله للإنسان لطيفة كي تقوده إلى ما يجب أن يكون عليه:

أحياناً يكون الدواء أصعب من الداء، وأكثر إيذاء للنفس من الداء نفسه، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام:

((عليك بالرفق، فإن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا ينزع من شيء إلا شانه))

[الجامع الصغير: عن " عائشة "]

((إن الله رفيقٌ يحب الرفق، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف))

[أخرجه مسلم عن "عائشة "]

والنبي قال:

((علموا ولا تعنفوا، فإن المعلم خير من المعنف))

[الجامع الصغير: عن " أبي هريرة"]

واللهِ موضوع اللطف يمكن للإنسان أن يمضي فيه وقتًا طويلاً جداً، لأن كل ما في الكون يشهد باسم اللطيف.

فالهواء لطيف، ونحن في أمسّ الحاجة إلى الهواء، فهل تصدِّق أن فوقك أطنانًا من الضغط الجوي وأنت لا تشعر ؟ ولو أن هذه الأطنان قلّت لخرج الدم من أوعيتك، ومن أنفك، ومن فمك وأنت لا تشعر، وهذا الهواء بلا رائحة، لكنّه إذا تحرّك بعنف دمّر كل شيء، يحمل طائرة تزن ثلاثمئة وخمسين طنًا وهو هواء.

والماء لطيف سريع النفوذ، ينفذ في أدقّ المسامات، ويتبخّر في أقل الدرجات، ويتلوّن بأي لون، مذيب يذاب فيه معظم الأشياء، فالماء يؤكِّد لطف الله عزّ وجل والهواء كذلك.

وعندما تنزع أسنان الطفل اللبنيّة بلطفٍ لا يستطيع أكبر طبيب أسنان أن يفعل ذلك، فعلى قدر مهارة الطبيب لكن لابدّ من إبرة بنج، توضع هذه الحقنة في اللثة فتسبب ألماً شديداً، لكن الطفل الصغير وهو لا يدري إذا بسنِّه بين الطعام، فكيف تحرّك السن من جذوره ؟ وكيف انقطع العصب ؟ وسحْبُ العصب لا يحتمل أحياناً، وعند قلع السن إذا كان التخدير غير ناجح يصيح المريض صيحةً ما صاح مثلها في حياته، لكن ربنا لطيف.

فالتعريف الجامع المانع للطيف أنه يوجد هدف وأنت هنا، ويمكن أن تنقل له نقلة عنيفة تُهَشِّم الإنسان حين تصدمه، وأن تنتقل نقلة لطيف، و كل واحد منّا يتصوّر كيف تطوّرت حياته، شيء من التذكير والتخويف والتبشير والإنذار، ووعد، ووعيد، وإكرام، وحجاب أحياناً، وأحياناً تجلٍّ، وأحياناً جفوة أو تخويف، أو مرض، أو شدّة خارجيّة، وهذه معالجات لطيفة كي تقود الإنسان إلى ما يجب أن يكون عليه.

إن الله رفيقٌ يحب الرفق:

لو نظر الإنسان إلى ماضيه كيف أن الله سبحانه وتعالى تلطّف به فنقله من حالٍ إلى حال، ومن درجة إلى درجة، ومن منزلة إلى منزلة، ومن مستوى استقامة إلى مستوى أرقى، ومن مستوى في إقباله إلى مستوى أرقى، هذا هو لطف الله عزّ وجل..

وجدناك مضطراً فقلنا لك ادعنا نجبك، فهل أنت حقّاً دعوتنا

دعوناك للخيرات أعرضت نائياً فهل تلقَ لمن يحسن لمثلك مثلنا

* * *

أي أن الله عزّ وجل لطيف، ترتكب خمسين معصية ويرزقك، وأنت صحيح البدن، معافى ومرزوق، يعالجك واحدة واحدة، ولو حاسبك حساباً سريعاً، وفي استقصاء لهلكك، فربنا لطيف بعباده ؛ لطيف في تربية أجسامهم، فهذا الجسم ينمو شيئاً فشيئاً، إلى أن يشتدّ عوده في العشرين، ويكتمل في الأربعين، ثم يميل هذا الميزان إلى الانخفاض، ثم يردُّ إلى أرذل العمر، فكل شيء بالتدريج.

ومجيء الضوء تدريجاً، فلو أنّ إنسانًا مستغرقًا في النوم في غرفة مظلمة، وتألّق المصباح فجأةً لتضايق، لكن ربنا عزّ وجل يبدأ الضوء بخيط أبيض في الأفق (وهذا هو الفجر)، وهذا الخيط يتسع ويتسع إلى أن تشعر أن الجهة الشرقيّة أكثر إضاءة من الغربيّة، ثم يبزغ قرص الشمس.

فحينما يكون قرص الشمس على مستوى النظر مقبولاً، تشاهده بملء عينيك دون أن تنزعج، لأن هذا الشعاع يتخطّى الطبقة الهوائيّة لا عمقاً بل أفقاً، فالطبقة الهوائيّة حينما يتخطّاها الشعاع أفقاً يخفِّف الهواء منها، فمنظر الشمس في الشروق رائع جداً، وفي الغروب رائع أيضاً، لكن قل: ما أبدع الظهيرة! وانظر إلى الشمس بعينيك فلا تتحمّل شدة الضوء، بل تنبهر، وفي حالات يضعف البصر من الانبهار، وأحياناً الانبهار يسبّب خللاً في الشبكيّة وتخريباً فيها، ولكن حينما تكون الشمس على مستوى النظر تكون لطيفة، ومنظرها مقبول، وفي الغياب مقبولة، أما وهي في كبد السماء فلا تحتمل، فالله لطيف.

الله عز وجل في كل شيء له آية تدل على أنه لطيف:

أقول: لو فكّرت في كل شيء، بدءاً من خلق الإنسان إلى نموّه في رحم أمّه، إلى ولادته، فالله لطيف، فهذا الجنين في بطن أمِّه عندما يخرج، فهو هرمون لا يُرى بالعين، يفرز من غدّة صمّاء في الجسم يعطي أمراً لحوض المرأة فيتحرّك، وحوض المرأة قبل الولادة يتحرّك ويتمفصَل، فيصير المكان مناسباً لخروج الطفل، فيأتي الطّلق بتقلّصات لطيفة، أول الأمر وكل نصف ساعة تقلّص واحد، وبعد هذا كل خمسة وعشرين دقيقة، وبعدها كل عشرين، ثم كل خمس عشرة، ثم كل عشرة، وكل خمس، فانظر إلى هذا التزامن، وهذه البرمجة، فالتقلّص لطيف إلى أن يخرج الطفل من رحم أمّه.

والآن يأتي دور العنف، ينقبض هذا الرحم انقباضاً عنيفًا من أجل أن يغلق كل الشرايين المفتوحة، فعندما صارت الولادة تقطّعت الشرايين، فهناك احتمال أن تموت الأم بالنزيف، فلمّا انقبض الرحم انقباضاً عنيفاً أغلق كل الشرايين، ولو عكس الله الآية لماتت الأم مع طفلها، ولو جاء الانقباض عنيفًا والطفل في الرحم لمات الطفل، ولو جاء الانقباض اللّيّن اللطيف المتزامن بعد الولادة لماتت المرأة الوالدة، فالله لطيف.

وأنا أضرب أمثلة جاءتني عفو الخاطر، لكن لو دقّقت في النبات فالشجرة معمل قائم بذاته، بكل ما في هذه الكلمة من معنى، من دون دخَان، ولا صوت، فلو أحضرت محرّك ماء صغير من أجل أن تستخرج الماء لعكّر على المتنزّه نزهته فلا يستمتع بالنزهة، وصوت المحرك لا يحتمل، من أجل أن تضيء خمسمئة شمعة في محل تجاري، لكن الشجرة معمل من دون صوت، ومن دون دخَان، ولا تلويث جو، بل بالعكس تعطيك أوكسجينًا، فالشجرة تأخذ فضلات الإنسان، وغاز الفحم وتعطي أوكسجينًا منعشًا، فالإنسان الذي عنده ضيق نفس أو معه حساسية ربويّة ينصح أن يمشي بين أشجار الصنوبر، وهذه أعلى أشجار تعطي الأوكسجين، وكأنها كمامة أوكسجين فتنتعش بها، فالله لطيفٌ

بعباده.

لا أعرف من أين أبدأ وكيف أتابع الموضوع، وفي كلِّ شيءٍ له آيةٌ تدلُّ على أنه لطيف.

كل إنسان بإمكانه أن يستشف اسم اللطيف من جسمه:

الولادة، وأجهزتك، فانظر إلى الكلية، فالكلية الصناعيّة كان حجمها بحجم هذه الطاولة والآن على أصغر، لكن ثماني ساعات وأنت مستلقٍ على السرير، وينفتح الشريان، وتوضع البرابيش، ثماني ساعات والتصفية بالمئة ثمانون، وبالمئة عشرون يتبقّى الأسيد أوريك بالدم وهذه مزعجة جداً، أما الكلية الطبيعية فصغيرة وليس لها صوت، وفي الكليتين طاقة للتصفية تزيد عشرين ضعفًا عن حاجة الإنسان، أي كل كلية فيها عشرة أضعاف حاجة الإنسان للتصفية، فالله لطيف.

الكبد له بدءاً من خمس وظائف كبرى إلى خمسمئة وظيفة، ويوجد قول خمسة آلاف وظيفة، وكل خليّة من هذه الخلايا تقوم بكل الوظائف، فالله عزّ وجل لطيف، و لو حدث استئصال لنصف الكبد فيحيا الإنسان حياةً سويّةً.

فالعلم حرف والتكرار ألف، فمن الممكن أن تستشفّ اسم اللطيف في جسمك، فيجب أن تقلِّم أظافرك، إذاً الله عزّ وجل لطيف لم يضع لك أعصاب حس فيها، ولو كان في الأظافر أعصاب حس لاحتجت إلى عملية جراحيّة في المستشفى، وتقول: عندي عملية قص أظافر، طبعاً تحتاج إلى تخدير.

ويجب أن تحلق شعرك، والشعر ليس فيه عصب، كذلك فالله لطيف، وهناك أعصاب محرّكة للشعرة ولكن لا توجد أعصاب حسيّة، ولا تشعر عندما يقص الحلاق شعرك، بل من دون ألم أبداً.

من رفق الله بالإنسان نمو الفواكه بالتدريج:

جسمك، وطعامك، ونمو الفواكه والثمار في لطف، إذ إنّ نمو الفواكه يكون بالتدريج، فالبندورة مثلاً، والخيار، والبطيخ، والمشمش لو نضج في يوم واحد لتلف كله، ماذا نفعل به ؟ يمكن أنْ تحصّل من حقل بطيخ تسعين يوماً تجني بطيخًا، قال لي شخص تعهّد حقل بطيخ: في تسعين يوماً قطفت تسعين شاحنة من هذا الحقل، إنه نمو تدريجي، ومع أن النمو التدريجي خلاف المنطق، فأنت لو ألقيت بطاطا مثلاً في وعاء فيه زيت يغلي، فبحسب المنطق مادامت الظروف واحدة فسيكون النضج واحداً، لكن هذا البطيخ كلّه نما في ظروف واحدة من الماء، والأمطار، والرياح، والبرد، والظروف متشابهة لكل البذور، لمَ لا تنضج هذه المادّة في يوم واحد ؟ الله لطيف.

كيفما تحرّكت، فأجهزتك فيها لطف، فهناك منسوجات لطيفة تتناسب مع الجسم، فانظر أنت إلى ليفة الحمّام الطبيعيّة لها وجه ناعم ووجه خشن، فاللطيف على الوجه الناعم، والخشن على الخشن، فالله لطيف.

ولو دقّقت في كل شيء، الفواكه لو كانت قاسية جداً لاحتاجت إلى منشار، لكن بعضة الأسنان تأكل قسماً منها، انظر إلى الموزة تقشيرها سهل، فالفواكه تجد تقشيرها سهلاً. والبيضة تكسرها بطرف الصحن، فلو كانت علبة سردين لاحتاجت إلى مفتاح، فإذا لم تجد مفتاحاً فإنك تظل عشرين ساعة وأنت تخبطها على الأرض، واحد أعطوه علبة سردين وهو جائع وبدون مفتاح، كانت حريّته مقيّدة، قال لي: من الساعة الثامنة صباحًا إلى الساعة الثانية ظهراً حتى فُتِحَت معي وأنا أحكها على الأرض، أما البيضة فلا تحتاج إلى هذا، فالله عزّ وجل لطيف، ضربة على طرف الصحن تصبح قطعتين، وتضع مئتي واحدة فوق بعض فإنها تتحمل، فالشكل البيضوي هذا أمتن شكل هندسي، إذا بقي الضغط يتحمّل، سلّة كلها بيض، ولكن أمسك البيضة لوحدها وبضربة خفيفة على طرف الصحن تنكسر، فالله عزّ وجل لطيف.

كل شيءٍ خلقه الله يبدو فيه اسم اللطيف:

عنقود العنب إذا أردت قطعه سحباً للأسفل يصبح عصيراً في يدك، أما إلى الأعلى فيصير بيدك، خرج من المفصل، ولو سحبته سحبًا لانعصر ولا ينزل معك، وهذا لكي يقاوم الرياح، فإذا كان هذا العود غير متين فأول عاصفة ترمي العنب كله على الأرض، فخسرت، فكرم العنب يتحمل إذا كان هناك عواصف، وأمطار، والعنب عنب، وأحياناً تريد قطع عنقود، تقطعه بالعكس نحو الأعلى فيصير العنقود بيدك، أما إذا سحبته إلى الأسفل ينعصر ولا ينقطع معك، فهناك لطف إلهي. فأنت لاحظ كل شيء في الكون، هذا اسم واسع، وكل شيءٍ خلقه الله يبدو فيه اسم اللطيف، فربنا قال:

(اللّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ (19))

(سورة الشورى)

وحتى بالمعالجة، يعالج الإنسان والدواء جاهز، تأتيه حركة قلب، فلو كانت تأتيه دوماً لانتحر، تأتي مسًّا، أو تأتي بموجات خفيفة، فلو كانت الآلام تستمر لم يتحمّلها الإنسان، لكن الآلام العنيفة جداً تأتي موجات، وهذا اسمه أجهزة إنذار مبكِّر..

(وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ الْعَذَابِ الأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ(21))

(سورة السجدة)

اسم اللطيف موجود في كل شيء:

الإنسان كلّما صار شفّافًا أكثر يرى المطر لطيفًا، فلو كان المطر ينزل كأفواه القُرَب لآذى الناس، وحطّم الزرع، فالمطر لطيف، وحب العزيز وزنه مناسب، ولو كبر لانكسرت رؤوس الناس كلها، فلو أنّ الناس كانوا يمشون في الطريق وفجأةً نزل حب العزيز، وكل واحدة بحجم البطيخة ما ظلّ رأس سليماً، فالله لطيف، الحجم مناسب، وقطرة الماء مناسبة، وطبعاً هناك حالات يكون الحب كبيراً فيسبب أذى كبيراً.

والبقرة ذلّلها الله لك، فالله عزّ وجل لطيف، فإن البقرة لا تخيفك، فهي حيوان وديع تأخذ منه الحليب، والحليب تصنع منه سمنًا وجبنًا ولبنًا.. إلخ، لكن إذا غافل واحد عن هذا التذليل العظيم، وحصل مرض اسمه التوحُّش عندها تصير البقرة متوحّشة، وقد قرأت منذ أيام في الجريدة أنه استوردت وجبة بقر لكن معها مرض التوحُّش فأوقفوا استيرادها، وهذا مرض خطير.

وأخ من إخواننا بريف دمشق قال لي: بقرة قتلت أول إنسان والثاني وأصابت الثالث، فاضطرّ صاحبها أن يقتلها بالمسدّس، وثمنها سبعون ألفًا، فالله لطيف، فلو كان كل البقر متوحِّشًا لما كان بالإمكان استعماله إطلاقاً.

والغنم، يقول لك: فلان مثل الغنمة. فلو كانت الغنمة كالضبع لما وجدت لحم ضأن أبداً، فأنت تهرب منها لو رأيتها، فالله لطيف بعباده ؛ فهو بالغنم لطيف، وبالبقر لطيف، وبالمطر، وبحب العزيز، وبالنسمات المنعشة العليلة، تجد كل مكيّف ثمنه ثلاثون ألفًا ويحتاج إلى كهرباء، وتخرج نسمات لطيفة تنعش كل الناس من دون مكيفات، أحياناً تأتي موجة برد شديدة وبعدها يدفأ الجوُّ، فلا تحتاج إلى مازوت، ولا تدفئة مركزيّة، والشوفاج تعطّل، والكهرباء لا توجد، إذ تخلّصنا منه كله، فالجو دافئ، والله لطيف.

الله عز وجل إذا أراد معالجة إنسان فيعالجه بلطف ويسخِّر له أناساً ليعينوه:

الذي عنده إحساس يتذوّق نعمة الجو اللطيف، والمطر اللطيف، والغذاء اللطيف، والهواء اللطيف، وقلع سن الطفل اللطيف، والبقرة المذلّلة، والجمل المذلّل، فهذا الاسم في كل شيء موجود، فكيفما تحرّكت ترى اسم الله اللطيف، وهذا الاسم يجعلك تحب الله عزّ وجل.

وحتى عندما يعالج الله الإنسان يعالج نفسه بلطف، والعوام يعبّرون عنها بكلمة: يبلي ويعين. يعمل له مشكلة ويسخِّر له أناساً ليعينوه، و يصيبه بمرض ويسخِّر له طبيب رحيم يطمئنه، فالدواء مسكِّن،

والعملية الجراحيّة ناجحة، يُسَر الإنسان، مرض وآلام لكن العمليّة ناجحة. فالتقدُّم الطبّي أعدّه من لطف الله عزّ وجل بعباده، داواهم بمرض وبعد هذا يسّر لهم المعالجة والشفاء..

(اللّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ (19))

(سورة الشورى)

من ضبط جوارحه و إنفاقه و بيته ذاق طعم القرب من الله عز وجل:

الإنسان إذا لم يحبّ الله عزّ وجل فما هذا الإيمان ؟ الإيمان أساساً كله حب، لا إيمان لمن لا محبّة له، والمحبّة كيف تكون ؟ إنك لن ترى الله عزّ وجل حتّى تحبّه، والإنسان بفطرته يحب الجمال، ويحب الكمال، ويحب النوال والعطاء، فلو أنّ رجلاً دميم الخلقة أعطاك مئة ألف لظلّ قلبك معلّقًا به، لكن منظره ليس على ما يرام، فإذا أعطاك مئة ألف تجد أنك تحترمه احتراماً غير معقول إطلاقاً، وقد يكون قميء المنظر، ومعنى هذا أن الإنسان يحب النوال، والجمال، والكمال، والله عز وجل أفعاله كمال كلها. والجمال من ذاق عرف، فمن يتصل به اتصالاً حقيقياً، وهنا يحتاج إلى صلح مع الله، إذا اصطلحت معه تماماً، ضبطت جوارحك تماماً، وضبطت دخلك، وضبطت إنفاقك، وعملك، وبيتك، وعباداتك ؛ الصلاة والصوم، فأنت معاهده عهداً كاملاً على الطاعة التامّة، فلو فعلت ذلك لأذاقك طعم القرب، و ساعتئذٍ تعرف ما هو الكمال **" واللهِ لو يعلم الملوك ما نحن عليه لقاتلونا عليه بالسيوف "**. تعرف معنى الاتصال بالله كم هو مسعد، هذا الجمال.

والكامل كل أفعاله كاملة، وهذا الكون بين يديك.

ثم النوال فقد منحك الحياة، ومنحك الوجود، والإمداد، هو رب العالمين، ومنحك فوق ذلك الإرشاد.

الله لطيف بعباده منحهم نعمة الحياة و الوجود و الإمداد:

الإنسان عندما ينظر إلى ماضيه كيف نقله الله، وعرّفه على أهل الحق، وجمعه بفلان، فكيف اهتدى، وكيف سمع هذا الدرس فتأثّر، ثم ارتقى، فتزوّج، وكيف اشتغل، وتعيّن في وظيفة، فجمع هذا المال، وربّى أولاده، وزوّج بناته، تجد أنها كلها أعمال لطيفة من الله عزّ وجل.

انظر إلى الطفل الصغير لو كان بعقلية الكبير وبشخصية الكبير لا يُطاق، فالطفل يبكي ويضحك بآن واحد، ولو عاقبته لمصلحته ثمّ طلبته إليك يأتيك فوراً، لأنه لا يحمل الحقد، ولو كان يحقد عليك لم يأتِ، ويقول: أنت ضربتني، لا يُربّى طفلٌ مع أبٍ إطلاقاً، فالطفل عنده ذاتية، صفاء، ولو عاقبته لنسي

العقوبة في ثانية، وصار يتحبّب لك، وهذا يعين على تربيته، ولو كان يحقد عليك فلن يُرَبّى معك، فالله لطيف..

(اللّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ (19))

(سورة الشورى)

هذه بعض المعاني التي يمكن أن تكون محوراً للدرس.

للطف تعاريف كثيرة منها:

لكن أعجبني في القرطبي تعاريف كثيرة للطف، أنقلها لكم، قال ابن عبّاس: الله لطيفٌ بعباده أي حفيٌّ بهم.

وقال عكرمة: **بارٌ بهم.**

وقال السُدِّي: **رفيقٌ بهم.**

وقال مقاتل: لطيف بالبَرِّ والفاجر. حتى مع الكافر لطيف، الكافر يظل عبدًا له، هو خلقه، فأنت منزعج من كفره وهو خلقه، تجد أن الله يعطف عليه، أحياناً ينبّهه، ويحذّره، ويذكّره، ويرسل إليه من يذكِّره، ويبتليه مشكلة، فمع الكافر لطيف، لأن الكافر عبد له. قال: لطيفٌ بالبر والكافر.

الله عز وجل لطيف حتى بالكافر:

كيف يكون لطفه بالكافر ؟ قال: حيث لم يقتلهم جوعاً بمعاصيهم. تجد عندهم مخدِّرات، وزنى، ولِواطًا، وشذوذًا، وتبادل زوجات، وهم يأكلون ويشربون، ويزرعون، ويتحكّمون، فالله لطيف بالكافر رغم معاصيه القبيحة والحقيرة. فأنت أحياناً ولو كنت كاملاً إذا أسيء إليك فإنك توقف المساعدات عن المسيء على الفور، ولا تتحمّل، فليس لديك استعداد لتعطيه مساعدة أثناء الإساءة.

وسيدنا الصديق أعلى مؤمن لم يتحمّل هذا الذي تكلّم على ابنته فمنع عنه المساعدات، فعاتبه الله، واللهُ عزّ وجل يرى معاصيهم، ويرى مخازيهم، وانحطاطهم، ودناءاتهم، وتجاوزاتهم، وكفرهم، وإلحادهم، وهم يزرعون، ويأكلون، والقلب صحيح، والدسّامات تعمل، قال له:

((ابن آدم لي عليك فريضة ولك عليّ رزق، فإذا خالفتني في فريضتي لم أخالفك في رزقك، وعزّتي وجلالي إن لم ترضَ بما قسمته لك فلأسلِّطنّ عليك الدنيا تركض فيها ركض الوحش في البريّة، ثمّ لا ينالك منها إلا ما قسمته لك ولا أبالي، وكنت عندي مذموماً))

((أنت تريد وأنا أريد فإذا سلّمت لي فيما أريد كفيتك ما تريد، وإن لم تسلِّم لي فيما أريد أتعبتك فيما تريد ثم لا يكون إلا ما أريد))

[ورد في الأثر]

إذاً مقاتل قال: لطيفٌ بالبرّ والفاجر، حيث لم يقتلهم بمعاصيهم.

وقال بعضهم: لطيفٌ بهم في العرض والمحاسبة، يحاسب الله عزّ وجل عن واحدة ويعفو عن تسعة.

الله عز وجل يلطف في الرزق من وجهين:

1 ـ جعل الرزق من الطيبات:

قال جعفر: **يلطف بهم في الرزق من وجهين،** أحدهما أنه جعل رزقك من الطيّبات. فالآن في رزق سيروم، تتسطّح وتوضع في اليد إبرة تضخ السيروم ليمدك بالغذاء، لكنه لا ذاق طعمة طيّبة، ولا حلوة، ولا مُرّة، ما هذا الأكل ؟ وما هذه الفتّة ؟ سيروم، الله جعلك تأكل فولاً، وحمصًا، وفتّة، وشوربة، وبطيخًا، وحلويات، وفواكه، فأول لطف أن الرزق له طعم طيّب، وقِوام معقول، وشكل مقبول، ومنظر الفاكهة جميل في حد ذاته، وأحياناً يضعون مناظر للفاكهة تعلق في غرف الطعام، والفاكهة وحدها منظرها جميل.

2 ـ جعل الرزق دفعة وراء دفعة:

والثاني أنه لم يدفعه إليك مرّةً واحدة فتبذره، كذلك لطفه في أن جعل الرزق دفعة وراء دفعة، فالماء لو كانت تنزل الأمطار في يومين من السنة كلها وخُزّن، لاحتجتَ إلى بيت بحجم بيتك بالضبط، فكل إنسان يحتاج إلى بيت بحجم بيته ماء يكفيه سنة، أما الخزان عنده فيعطي كل ثانية ستة عشر متراً مكعّباً من عين الفيجة تسقي خمسة ملايين مقيم في دمشق (فالشام فيها خمسة ملايين) لطيف عنده مستودعات، قال:

(وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ(22))

(سورة الحجر)

انظر إلى هذه الآية ما أجملها **!!** من لطف الله عزّ وجل.

الله عز وجل لطيفٌ بأوليائه:

كذلك الله لطيف، فهذه المرأة الله جعل في مبيضها مجموعة بيوض محدودة، وفي سن اليأس تنتهي، في الخامسة والأربعين أو الثامنة والأربعين، ولو كان معها مثل الرجل كمية مفتوحة وليست محدودة لصَعُب الأمر، فبالتسعين تحمل، وغير معقول أنْ تحمل بنتُ التسعين وترضع، فالله عزّ وجل لطيف بها، جعل البويضات محدودة تنتهي في الأربعين، أما الرجل بالعكس إلى آخر لحظة، فهذا رجل توفي في الخامسة والتسعين وعنده ولد عمره خمس سنوات، فالله لطيف بالمرأة.

هذا رجل يفقد شعره كله ونقول عنه: أصلع. ولكن لا توجد امرأة تفقد كل شعرها، أما النساء فالله لطيف بهن لأن الشعر جزء من كيانها و جمالها، شعرها يخف ولكن لا تفقده كله، فيصبح رأسها مثل الطاسة، وهذا غير معقول.

قال الحسين: **لطيفٌ بهم في القرآن في تلاوته**، وتفصيله، وتفسيره، والقرآن لطف إلهي، نقل لك المنهج بشكل لطيف، ستمئة صفحة، الآن تفتح أي قانون تعديلاته تضيع فيها، عمل لك الكليات بالمصحف، والنبي فصّل لك، فالقرآن الكريم فيه كل كليات الحياة.

قال الجنيد: **لطيفٌ بأوليائه حتى عرفوه.**

وقال محمّد: **اللطيف لمن لجأ إليه من عباده.** إذا يئس عبد من خلقه ولجأ إلى الله تقبّله الله واحتواه، كرّمه، ولبّاه من لطفه.

الله عزّ وجل أخفى عن الناس خواطر الإنسان وتفكيره ورغباته وهذا من لطفه به:

قال: اللطيف الذي ينشر مناقبَ عباده، ويستر مثالبهم، فمن لطف الله عزّ وجل أن الأشياء اللطيفة والطيبة تفوح منك يكشفها الله، والأشياء الخسيسة يخبئها عن العباد، فالله اسمه الستّار، أساساً ستره لطف، لطف بك، فلا يفضحك، فالإنسان تفكيره مخبّأ، إذا كنت تقرأ وتفكير الإنسان غير معقول أن يُفْضَح، فقد يفكِّر تفكيراً منحرفًا ولكنه لابس، ومرتَّب، ومتعطِّر، وجالس في جلسة والناس يحترمونه: أهلاً وسهلاً، تفضّل يا أستاذ، ويكون من داخله غير منضبط، فالله عزّ وجل أخفى عن الناس خواطر الإنسان، وتفكيره، ورغباته، وهذا من لطفه، لأن الله عزّ وجل ستّار، فالنبي مرّة دعا ربّه وقال:

((يا من أظهر الجميل وستر القبيح))

[كنز العمال]

انظر إلى هيكل عظمي للإنسان فإنك تخاف منه، وإذا أرادوا تخويفك يرسمون لوحة عليها صورة جمجمة وعظمتين، فعند تحذيرك من خطر الكهرباء يضعون لوحة مرسوماً عليها جمجمة وعظمتين

فشيء مخيف، وانظر إلى وجه الإنسان ما أجمله بهذا الجلد، انظر إلى الإنسان بعضلاته فقط فشيء مخيف، وبالعظم مخيف، وبالعضلات مخيف، وبالشرايين مخيف، أما في التزيينات في النهاية، فالجلد في النهاية ومن داخله عضلات، وشرايين، وأوردة، وغدد، ومنافذ، وأجهزة، ومن الخارج جلد ناعم لطيف متناسق متكامل، فهذا من لطف الله عزّ وجل.

تتمة معاني اسم اللطيف:

قيل: هو الذي يقبل القليل ويعطي الكثير. يقبل منك شق تمرة، ولقمة تطعمها فقيراً فيجعلها كجبل أُحُد، فهذا من اسم اللطيف.

وقيل: هو الذي يجبر الكسير وييسِّر العسير، والله عزّ وجل لطيف، وتكون قضيّة ميؤوس منها، فيأتي إنسان ويقول لك: إنها سهلة جداً، وليس فيها شيء، فتستغرب وتنصدم، ويحلها لك، لأن الله لطيف فيها، وأحياناً تريد شخصاً بعيداً فتجده أمام وجهك على غير ميعاد، فالله عزّ وجل لطيف.

وقيل: معنى اللطيف هو الذي لا يُخاف إلا عدله ولا يُرجى إلا فضله.

وقيل: هو الذي لا يعاجل من عصاه ولا يخيّب من رجاه.

وقيل: هو الذي لا يردُّ سائلاً ولا يُيَئِّس آملاً.

وقيل: هو الذي يعفو عمن يهفو. قال: **" يا رب أنا ربُّك وأنت عبدي (بدوي من شدة فرحه بالناقة تلعثم لسانه) فقال: " يا رب أنا ربُّك وأنت عبدي"**. فعند غير الله هذه الكلمة لا ينفذ منها أبداً، أما عند الله فتنفذ لأنه يعلم نيتك، عند الله لطيف.

الله عز وجل يرحم من لا يرحم نفسه:

قيل: هو الذي يرحم من لا يرحم نفسه. إذا اتخذ الإنسان قراراً خاطئًا فالله لا يسمح له..

(يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنْ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلا قَلِيلٌ(38))

(سورة التوبة)

الآن:

(إلا تنفروا)

إذا اتخذتم قراراً غلطاً خلاف مصلحتكم الأخرويّة، وخلاف سعادتكم الأبديّة، فما استجبتم للنبي، وما باليتم فلن أريحكم..

(إلا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ)

لأنه لطيف، حتى لو اتخذت قراراً غلطاً فالله لا يعينك عليه، بل يؤدبك.

قال: هو الذي يرحم من لا يرحم نفسه.

من اتخذ قراراً جيّداً فالله يكافئه عليه والقرار السيئ لا يقرّك الله عليه بل يعالجك منه

أنا مرّة زارني شخص (لا أنسى هذه القصّة) قال لي: أنا يا أستاذ نشأت عند معلِم صناعي مُلحد، قال له: لا يوجد إله والدين كلّه خرافة، افعل ما تشاء (وهو طفل صغير نشأ على هذه العقيدة)، قال لي: يا أستاذ لا توجد معصية لم أفعلها من دون استثناء، وكبر وتزوّج وعنده محل فيديو، والقصّة طويلة ولكن فجأةً الأمور تدهورت وأُغلِق المحل بالشمع الأحمر، وفقد كل ماله، و صودر كله، قال لي: المصائب تترى كالمطرقة على رأسي وأقول: لا يوجد إله، ستة أشهر حتى دخل إلى جامع وصلّى وصار يبكي، ومن هنا بدأ الصلح مع الله، ولكن عندما خرج قلت: لو أن الله جعله بهذه الحالة الطيّبة ؛ مال، وغنى، وعقيدة فاسدة، وانحراف أخلاقي، حتى الموت لكان مصيره إلى جهنّم، فربنا عالجه، وهو ما رحم نفسه ولكن الله رحمه، ومعنى اللطيف هو الذي يرحم من لا يرحم نفسه، فأنت إذا اتخذت قراراً جيّداً فالله يكافئك عليه، والقرار السيئ لا يقرّك الله عزّ وجل عليه، بل يعالجك، وعنده أدوية مرّة كثيرة، وعنده أدوية منوّعة كثيرة، أينما ذهبت تجد أدوية.

وقيل: هو الذي أوقد في أسرار العارفين من المشاهدة سراجاً، وجعل الصراط المستقيم لهم منهاجاً، وأجزل لهم من سحائب برّه ماءً ثجّاجاً.

هذا كله من معاني اسم اللطيف.

(اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ(19))

(سورة الشورى)

الله عز وجل ألهم كل إنسان مصلحة يحبها و يهواها و هذا من لطفه بعباده:

وبعد فأنت موجود، وأنت بحاجة إلى اللطيف، فأنت بحاجة إلى الرزق..

(يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ (19))

(سورة الشورى)

هذا تجد خطه جيداً فهو خطّاط، وهذا عنده رغبة بالتزيينات، يقول لك: ورق جدران له فيه ميل، وهذا في الكهرباء، وثالث في التعليم و الهندسة، و في الطب، وفي الأحجار، وفي الرخام، ووفي البلاط، وفي

النجارة والبنّاء، والتدريس، فكل واحد ألهمه الله مصلحة أو صنعة يقتات منها، ويحبها ويهواها ويرغب فيها أيضاً، فهذا لطف من الله عزّ وجل.

وهذه الآية اليوم:

(اللّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ (19))

(سورة الشورى)

وسنجعل الدرس لطيفاً لأن هذه آخر جمعة في رمضان..

(اللّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ(19))

(سورة الشورى)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الشورى 042 - الدرس (07-15): تفسير الآية 20 ، معرفة حقيقة الدنيا جزء من عقيدة المسلم

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 18-03-1994

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس السابع من سورة الشورى.

أساس الحياة الدنيا الكسب و السعي و المجاهدة:

مع الآية العشرين وهي قوله تعالى:

(مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآَخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآَخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ(20))

(سورة الشورى)

أيها الأخوة المؤمنون، الإنسان في الأصل مخلوق للدار الآخرة، لأن الدار الآخرة أبدية، فالله سبحانه وتعالى خلق الخلق ليرحمهم في دارٍ لا موت فيها، ولا نَصَب، ولا تعب، ولا هم، ولا حزن، ولا شيء مما يُنَغِّص الحياة فيها، مخلوقٌ للآخرة، وما الحياة الدنيا إلا إعدادٌ لها، سمّاها الله الحياة الدنيا لأنها إعدادٌ لحياةٍ عليا، فالحياة الدنيا أساسها الكسب، والسعي، وبذل الجهد، والمكابدة، والكدح، قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ)

(سورة الانشقاق)

(لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ)

(سورة البلد)

الحكمة من جعل الدنيا دار التواء لا دار استواء:

أساس الحياة الدنيا بذلٌ الجهدِ، واكتساب العمل الصالح، وأساس الحياة الآخرة الطلب..

(لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ)

(سورة ق)

لمجرد أن تطلب شيئاً فهو بين يديك، ولمجرّد أن يخطر على بالك شيء فهو في متناولك، إنها حياةٌ أبدية سرمدية، لا مرض، ولا قلق، و لا خوف، ولا سيطرة، ولا حسد، ولا نقص، ولا تراجع، وكل منغِّصات الدنيا منتفيةٌ في الآخرة، بل إن الله سبحانه وتعالى شاءت حكمته أن يجعل الدنيا دار التواء،

لماذا ؟ كي ننصرف إلى الآخرة، ولو أن الدنيا جاءت كما نشتهي لكرهنا لقاء الله عز وجل، وليس من الحكمة أن تأتينا الدنيا كما نريد، إذاً نركن إليها، ونكره لقاء الله عزّ وجل.

المؤمن إن لم ينقل اهتماماته إلى الآخرة فعذابه شديد فيها:

لو دققت في حياة الناس، لوجدت كل إنسان له مشكلةٌ تجعله ينفر من الدنيا ؛ إما فقرٌ، أو قلقٌ، أو حياةٌ زوجية ليست سعيدة كما يتمنى، أو أولاد ليسوا أبراراً، أو أولاد أبرار والزوجة ليست وفيّة، أو الزوجة وفية والأولاد أبرار والدخل أقل مما ينبغي له، الدخل جيد، والزوجة جيدة، لكن في الإنسان مرضاً، فطبيعة الحياة الدنيا مؤقّتة، فكل من تعلق بها:

" أوحى ربك إلى الدنيا أنه من خدمك فاستخدميه، ومن خدمني فاخدميه ".

الإنسان إذا عرف حقيقة الحياة الدنيا دار إعداد، فغرفة الصف لا ينبغي أن يكون المقعد فيها وثيراً، فلو أن المقعد وثيرٌ لاستغرق الطالب في نومٍ عميق، فلا بد من مقعدٍ خشن، ولا بد من جوٍ بين البرودة والحرارة، فلو كان الجو لطيفًا دافئًا جداً والمقعد وثيراً جداً، وكل أنواع المقبّلات، والموالح، و الساندويش في غرفة الدرس لنسي الطالب المحاضرة، فطبيعة الحياة الدنيا من أجل أن تكون منطلقاً فيها إلى الله عز وجل.

والحقيقة الإنسان إذا عرف حقيقتها لا يتألم مما فيها، أما إذا ظنها دار استقرار، ودار نعيم، ومتعة، ونشد فيها الراحة المُطلقة، والنعيم المقيم، والعِز، والمال، والجاه، فهذا الذي ينشده في الدنيا مستحيل أن يصل إليه، لأنها مركّبة على النقص، وإذا علمت أنها مُركبة على النقص فترضى بها، وتنطلق منها إلى الله عزّ وجل، وتجعل الهدف الكبير هو الآخرة، لا تعوّل عليها كثيراً، بل عوّل على ما عند الله كثيراً، ولذلك فالمؤمن ما لم ينقل اهتماماته الأساسية إلى الدار الآخرة، فإنه معذبٌ فيها أشد العذاب، بل إن طبيعة الإنسان إذا تقدّمت به السن ضعفت قواه، وضعفت ملكاته.

العاقل من أعدّ العدة لآخرته لا لدنياه:

ربنا عز وجل (وهنا نقطة مهمة جداً) كتب علينا أن ننتقل من الدنيا إلى الآخرة، فلو أن كل واحد منا جاءته الدنيا كما يشتهي تماماً، وحقق كل أهدافه فيها، لكان أصعب يومٍ عليه ساعة الفراق، فهو شيء صعب جداً لكن ربنا من رحمته بنا يكرّهنا بالدنيا من خلال بعض المشكلات، حتى إذا جاء لقاء الله عزّ وجل اشتاق المؤمن إلى هذا اللقاء.

وعلى كلٍ جزء من عقيدة المسلم الأساسية أن يعرف حقيقة الحياة الدنيا: **" إنها دار التواء، لا دار استواء، ومنزل ترح لا منزل فرح، من عرفها لم يفرح لرخاء (مؤقت) ولم يحزن لشقاء (مؤقت) قد جعلها الله دار بلوى، وجعل الآخرة دار عقبى، فجعل بلاء الدنيا لعطاء الآخرة سببا، وجعل عطاء الآخرة من بلوى الدنيا عوضا، فيأخذ ليعطي ويبتلي ليجزي ".**

إنسان يسكن في بيت مستأجر، والنظام القائم أن مالك البيت بإمكانه أن يُخرج المستأجر من دون سبب، ومن دون إنذار، ومن دون مبرّر، فهل يعقل أن يأتي هذا المستأجر وينفق كل دخله في تزيين هذا البيت المستأجر ؟ لهذا المستأجر بيت في البادية، بيت متداعٍ، أليس من العقل أن يرمم ذلك البيت، وأن يؤسسه، وأن يزيّنه، وهذا البيت البعيد فيه المُستقر، وفيه الإقامة الدائمة، وهو الآن خَربٌ متداعٍ، فهل ينفق دخله في البيت المستأجر، أم في البيت الذي سيستقر فيه دائماً ؟ العقل أن تسعى للدار الآخرة، لذلك قال عليه الصلاة والسلام:

((إن أكيسكم أكثركم للموت ذكراً وأحزمكم أشدكم استعداداً له، ألا وإن من علامات العقل التجافي عن دار الغرور والتزوّد لسكنى القبور والتأهب ليوم النشور))

[ضعيف ملاحظة: الألباني المشكاة ([74]/ 5228)قال فيه الذهبي: عدي ساقط]

ففي حياتنا دنيا وآخرة، ومهما اعتنيت بالدنيا لابد من أن تخرج منها، فإذا خرجت منها باختيارك أكرمك الله بها وبالجنة، وإذا أردتها مصراً خسرتها وخسرت الآخرة.

الدنيا ليست مطلوبة لذاتها ولكنها مطلوبة لغيرها:

لذلك فمن الممكن أن ألخص لكم هذا الكلام كله بكلمتين، واللهِ الذي لا إله إلا هو هاتان الكلمتان لو عقلهما الإنسان لسعد في الدنيا والآخرة: **" من آثر دنياه على آخرته خسرهما معاً، ومن آثر آخرته على دنياه ربحهما معاً ".** اطلب الآخرة تطلبك الدنيا، واطلب الدنيا تطلبك الآخرة بالموت فتخسر الدنيا والآخرة، إن طلبت الآخرة آتاك الله الآخرة وطلبتك الدنيا بالرزق والإكرام، وإن طلبت الدنيا وآثرتها على الآخرة، طلبتك الآخرة بالموت وخسرت الآخرة والدنيا.

فالقضية قضية عقل وتفكُّر، وميزان رابح، الدنيا دار الغرور، وهي جيفة طُلاّبها كلابها، ودار من لا دار له، ولها يسعى من لا عقل له، وهي مطية الآخرة، فالذي يدرس في الدنيا من أجل أن تكون شهادته معواناً له على الآخرة، والذي يجمع المال في الدنيا من أجل أن ينفقه ليرقى في الآخرة، والذي يطلب العلم في الدنيا من أجل أن يعلِّمه ليرقى في الآخرة، فالدنيا ليست مطلوبة لذاتها ولكنها مطلوبة لغيرها، من طلبها لذاتها خسر، ومن طلبها لغيرها ربح.

الآخرة تحتاج إلى عمل و تفوق:

بالطبع الآخرة تحتاج إلى عمل، والعمل يحتاج إلى تفوّق ؛ تفوق إما في علمك، أو في مالك، أو في قوتك. فالقوة أنواع ثلاثة، قوة المال، وقوة العلم، وقوة السلطان، فإن كنت على شيءٍ من الدنيا ووظّفت هذا الشيء من أجل الآخرة ربحت الدنيا، ولذلك يوم القيامة:

(وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنْ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ)

(سورة الزمر: من آية " 74 ")

فلولا الدنيا لما كانت الآخرة، ولولا أن الله عزّ وجل جاء بك إلى الدنيا من أجل أن تتعرف إلى الله فيها، وأن تعمل عملاً صالحاً يصلح للعرض عليه يوم القيامة. فنحن إذا ذممنا الدنيا، ذممنا الدنيا المقصودة لذاتها، أما إذا مدحنا الدنيا مدرسة فلا تصل إلى الآخرة إلا بالدنيا.

الدنيا مزرعة الآخرة و تمهيد لها:

لو أن طبيباً أخذ أعلى شهادة وحقق حياة مستقرة ودخلاً مريحاً، ألا يذكر أيام الجامعة بخير؟ لولا هذه الأيام ودراسته والشهادات العليا التي أخذها، لما استطاع أن يجلس في العيادة ويأتيه الناس أفواجاً وزُرافاتٍ يدفعون له ما يريد، إذاً ما ينعم به من بحبوحة، ومن مكانة اجتماعية، ومن استقرار نفسي وأسري، هذه الميزات التي هو فيها الآن بسبب سنوات الجامعة التي أمضاها جاداً دؤوباً.

فنحن إذا ذممنا الدنيا نذم من يطلبها لذاتها، أما إذا مدحنا الدنيا فلأنها مدرسة، ولأنها مزرعة الآخرة، وتمهيدٌ لها، سمّاها الله الحياة الدنيا لأنها تمهيدٌ لحياةٍ عُليا، ولذلك لا تسبّوا الدنيا فنعم مطية المؤمن الدنيا، والآن أحاديث أخرى:

((ليس بخيركم من ترك دنياه لآخرته، ولا آخرته لدنياه، حتى يصيب منهما جميعاً))

[الجامع الصغير: عن " أنس "]

فإن الأولى مطيةٌ للثانية.

على الإنسان أن ينظر بمنظار الإيجابية إلى الدنيا:

الجنة تحتاج إلى عمل، والعمل يحتاج إلى مال، فإذا كانت لك حرفةٌ، أو اختصاصٌ، أو مهنة وكسبت من خلالها المال، فبالمال تنفق على أهلك فترقى، وتنفق على الفقراء فترقى، إذاً نعم مطية المؤمن الدنيا.

إن كان لك في الحياة الدنيا علم وأنفقته في سبيل الله، ارتقيت في الآخرة.

وإن كنت قوياً وجعلت قوتك حماية للضعفاء وعوناً للمظلومين، ارتقيت بقوتك إلى الله عزّ وجل، فهذه النظرة الإيجابية للدنيا.

النظرة السلبية: من كانت الدنيا أكبر همه ومبلغ علمه فقد ضل سواء السبيل، ولكن من جعلها في يديه وكان قلبه متعلقاً بالله عزّ وجل كانت قوةً له على آخرته.

من كان متفوقاً في عمله انتزع إعجاب الناس به و بدينه:

إذاً أنا أتمنى على كل إخواننا الكرام، وعلى كل المؤمنين أن يتفوّقوا في الدنيا، وأن يتفوقوا في العلم، والعمل، فالمؤمن الصادق في عمله قمةٌ، والطالب الصادق في دراسته قمةٌ، والمؤمن الصادق في عمله أو منصبه قمةٌ في الإخلاص واليقظة، لأنك بالدنيا تصل إلى الآخرة، وأقول لكم هذا الكلام الدقيق الآن: عامة الناس، أو الطرف الآخر غير المؤمن، لا يُقبلون على الدين إلا إذا كان المؤمنون متفوقين ؛ في عملهم مَهَرَة، وفي دراستهم أوائل، لأن الذي يرمق المؤمن في تفوقه في الدنيا يحترم دينه، و صلاته، ومبادئه، ولا يمكن أن يحترم الناس مبادئك، ولا اتجاهك الديني، ولا انتماءك إلا إذا رأوك علماً في الحياة، ولذلك فإتقان العمل ضروري، والتفوق في الدراسة ضروري، إن كانت لك حرفة يجب أن تكون فيها الأول، وإن كنت مدرساً، أو محامياً، أو طبيباً، أو مهندساً، أو تاجراً، أو موظفاً فيجب أن تكون متفوقاً في عملك حتى تنتزع إعجاب الناس بك، فإذا انتزعت من الناس إعجابهم بك، احترموا دينك، وصلاتك وانتماءك الديني.

فالحقيقة أنّ الإنسان إذا انسحب من الحياة وقال: مالي وللدنيا. خسر الدنيا والآخرة، فأنا حينما أُقرّع من أحبّ الدنيا أقرّع من أحبها لذاتها، لكن أنت محتاج إلى زواج، والزواج يحتاج إلى دخل، والدخل يحتاج إلى حرفة، ولا بد لك من حرفةٍ تتقنها وتخلص بها، إما أن تكون لك حرفة أو اختصاص، أو شهادة عليا، أو طريقة من طرق كسب الرزق حتى تؤسس بيتًا، وحتى تتزوج امرأة مؤمنة، وتنجب أولاداً طاهرين، وحتى يكون بيتك قدوة للمسلم ؛ فأنت وزوجتك وأولادك وعملك قدوة لهم.

من كان بحاجة إلى عدوه فلن يتمكن من اتخاذ القرار السليم:

الدعوة إلى الله قضية معقدة جداً، وأبرز معالم الدعوة أن يرى الناس إنسانًا كاملاً، ومخلصاً، وصادقاً، وذا مبدأ، يضع رضا الله فوق كل شيء، وفوق كل اعتبار، وإنساناً يضحي بمصالحه من أجل مبادئه، ويضحي بحاجاته الأساسية من أجل مُثُلِهِ العليا، فهو إنسان منضبط بالقيَم، والقيم فوق كل شيء، فإذا لا يوجد إنسان متمثل بهذه المبادئ كيف يتسع الحق وينتشر ؟ لا ينتشر.

وأكبر أخطاء المسلمين أن ليس هناك مجتمع مسلم يطبق هذا الدين تطبيقاً حقيقياً حتى ينتزع إعجاب العالم، فلو نظر العالم إلى المسلمين فماذا يرون ؟ يرون تخلفاً، وفقراً، ويرون أن المسلمين عالة على أعدائهم، فكل المصنوعات من إنتاج أعدائهم، وقطع الغيار والأشياء الأساسية في الحياة من إنتاج أعدائهم، فهم عالة على أعدائهم، فكيف يعجب الناس بالإسلام إن رأوا المسلمين متخلفين ؟ وأنّ مصيرهم بيد خصومهم ؟ فلم يكتفوا ذاتياً، بل هم في كل حاجاتهم عالة على من سواهم.

وسيدنا عمر أيها الأخوة دخل إلى بلدةٍ متفقداً أحوالها، فهاله وأدهشه أن كل أصحاب الصناعات فيها من الأقباط، أي من غير المسلمين، فتألم أشد الألم، وعَنّفَ أصحاب هذه البلدة أشد التعنيف، فما كان منهم إلا أن قالوا المقولة الساذجة: **"الله سخرهم لنا "**. فقال قولة تنمُّ عن عمق تفكيره وعن دقة إدراكه، قال لهؤلاء أصحاب البلدة المقصِّرين في الأعمال: **"كيف بكم إذا أصبحتم عبيداً عندهم "**.

أي ما دمت بحاجة إلى عدوك، إذاً لا تملك القرار السليم، فأنت ضعيف أمامه، يتحكم بكل شيء، فما دام طعامك وحاجاتك من عنده، فويلٌ لأمةٍ تأكل ما لا تزرع، وتلبس ما لا تنسُج.

معرفة حقيقة الدنيا جزء من عقيدة المسلم:

أنا حينما أتحدّث عن الدنيا مُقبِّحاً شأنها إذا أردتها لذاتها، وإذا أردت الاستمتاع بها، وإذا رأيتها دار نعيم مقيم وهي دار قلق وممر وليست مقراً، أما إذا تحدثت عن الدنيا من زاويةٍ ثانيةٍ إيجابيةٍ: فالدنيا مطية الآخرة وممر لها، ففي الدنيا تعمل وفي الآخرة تجازى على عملك، الدنيا دار تكليف والآخرة دار تشريف، والدنيا دار للعمل الصالح، والآخرة دار للنعيم المقيم.

فيا أخي الكريم ؛ جزءٌ من عقيدتك الإسلامية أن تعرف حقيقة الدنيا، كما قلت قبل قليل: ولا يمكن أن تنتزع إعجاب الناس باتجاهك الديني إلا إذا كنت متفوقاً في الدنيا، فيجب أن يكون المحامِي المؤمن أول محامٍ، والطبيب المؤمن والمهندس المؤمن والمدرس المؤمن هم الأوائل أيضاً، وأصحاب الصَنعات المؤمنون أصحاب الصنعات المتقنة المحكمة، فكيف تنتزع إعجاب الآخرين ؟

فأنت الآن لا تدري إن رأيت جهاز حاسوب، تساءلت في نفسك: من الذي اخترعه ؟ ما أعظمه ! تجد نفسك وأنت لا تشعر تعظِّم أصحاب هذه الاختراعات، فكيف تريد من أهل الدنيا أن يحترموا دينك إن كنت عالةً عليهم، مستهلكاً لبضاعتهم، لا تقوى على فعل شيء، وكل شيء بيد خصومك، فهذه دعوةٌ.

على المؤمن أن يكون متميّزاً عن بقية الناس:

نحن في أول الدرس ذممنا الدنيا، إذا جعلتها هدفاً بذاتها، أما إذا جعلتها مطية فالدنيا نعم مطية المؤمن إلى الجنة.

فيا أخي الكريم ؛ في الدنيا تتزوّج، وحينما تتزوج فتاةً مؤمنة وتأخذ بيدها إلى الله ترقى إلى الجنة، وحينما تنجب أولاداً أطهاراً، و تربّيهم على حبّ الله وحبّ رسوله تأخذ بيدهم إلى الجنة، وحينما تظهر أمام الناس مسلماً صادقاً ورعاً عفيفاً أميناً متقنًا أيضاً تقدّم للناس قدوة خَيْر، إذاً تأخذ طريقك إلى الجنة، فالدنيا مطية للآخرة وممرٌ للجنة، فحينما نفهم الدنيا فهماً معكوساً، ماذا قال عليه الصلاة ولسلام ؟

((إنّي لأخْشَاكُمْ لِلّهِ وَأَتْقَاكُمْ لَهُ لكِنّي أصُومُ وَأفْطِرُ وَأصَلّي وَأرْقُدُ وَأتَزَوّجُ النِّسَاءَ فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنّتِي فَلَيْسَ مِنّي))

[صحيح البخاري: " أنس بن مالك "]

يجب أن تقدم للمجتمع قدوة كاملة، زواجاً إسلامياً، بيتًا وعملاً إسلامياً، وتجارة إسلامية، وتعاملاً إسلامياً، ونُزهة إسلامية في مكان بعيد عن الاختلاط، بعيد عن الموبقات، بعيد عن الغناء، فيمكن أن تتنزه نزهةً إسلامية، وأن تسهر سهرةً إسلامية مع إخوان طيبين تتذاكرون كتاب الله وسُنَّة رسوله، فالمؤمن متميّز في سهراته، وفي لقاءاته، وفي ندواته، وحتى في سفره، وإقامته، ومعمله، ومكتبه، ودراسته، وعطائه و أخذه، والمؤمن له هوية، فالمؤمن يجب أن يبدو واضحاً جداً متميّزاً عن بقية الناس.

من آثر آخرته على دنياه ربحهما معاً:

إذاً:

(مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ (20))

(سورة الشورى)

وكلمة:

(حرث)

تفيد أنك ألقيت شيئاً وأخذت أشياء، فهذا الحرث، ألقيت حبة وأخذت أضعافاً مضاعفة، فالآخرة تقدّم لها العمل الصالح وتسعد فيها إلى أبد الآبدين، إذاً هي حرث.

(مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ (20))

(سورة الشورى)

أي نؤتيه الدنيا والآخرة، وهذا المعنى، لمن آثر آخرته على دنياه فربحهما معاً.

أشد الناس خسارة يوم القيامة من طلب الدنيا و نسي الآخرة:

(مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤتِهِ مِنْهَا (20))

(سورة الشورى)

إذا طلب الإنسان الدنيا بصدق، فالله يعطيه إياها، ولكن..

(وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ(20))

(سورة الشورى)

هي نصيبه من الله، لذلك أشد الناس خسارةً:

(قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالأخْسَرِينَ أعْمَالا الّذِينَ ضَلّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أنّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا)

(سورة الكهف)

الدنيا مهما علَت، ومهما كبرت منقطعة بالموت.

من أحبه الله منحه العلم و الحكمة:

(فَأَمّا الإنسَانُ إذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعّمَهُ فَيَقُولُ رَبّي أكْرَمَنِي)

(سورة الفجر)

هذا كلامه، فالله قال له:

(كَلّا)

(سورة الفجر).

ليس عطائي إكراماً ولا منعي حرماناً، بل عطائي ابتلاء وحرماني دواء، هذه الدنيا لو أنها تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى الكافر منها شربة ماء، وهي أهون على الله من أن يجعلها مكافأةً لعباده، فأعطى المال لمن لا يحب، أعطاه لقارون، وأعطى القوة لمن لا يحب أعطاها لفرعون، لكن الذين يحبهم أعطاهم العلم والحكمة..

(وَلَمّا بَلَغَ أشُدّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا)

(سورة يوسف: من آية " 22 ")

من كانت دنياه وفق منهج الله تعالى فمرحباً بها:

إذاً أيها الأخ الكريم ابحث عن العطاء الذي يليق بك وأنت مؤمن، إن جاءتك الدنيا أهلاً بها ومرحباً، ولكن وفق منهج الله، فسيدنا عبد الرحمن بن عوف كان من أغنياء الصحابة، سمع أن أم المؤمنين عائشة قالت:

" أخشى أن يدخل عبد الرحمن الجنة حبواً " فقال: **" والله لأدخلنها خبباً، وما عليّ إذا كنت أنفق مئة في الصباح فيؤتيني الله ألفاً في المساء ".**

نعم مطية المؤمن المال، كان يقول:**" حبّذا المال أصون به عرضي وأتقرب به إلى ربي ".**

قال له سعد بن الربيع: **" دونك نصف مالي ".** فأجابه عبد الرحمن بن عوف: **" بارك الله لك بمالك ولكن دلني على السوق".**

فاليد العليا خير من اليد السفلى، فأنت كن معطياً ولا تكن آخذاً، فلا تتناقض الدنيا مع الدين أبداً، ولكن تتناقض المعصية مع الدين.

في الإسلام لا يوجد دنيا و آخرة فالإنسان كله لله:

والآن هناك سؤال سوف أجيب عنه: هل هناك من ضابط علمي للتفريق بين حبّ الدنيا واتِّخاذها وسيلة للآخرة ؟ الضابط لهذا الموضوع أن الدنيا إذا شغلتك عن فريضةٍ إسلامية: عن صلاةٍ، أو صيامٍ، أو حجٍ، أو زكاةٍ، أو طلب علمٍ، أو عملٍ صالحٍ، إذا شغلتك الدنيا عن هذه المطالب الرفيعة فهذا حب مرضيٌ للدنيا، أما إذا لم تشغلك عن الآخرة وكنت فيه متفوقاً فقد جعلتها مطية لك.

إخواننا الكرام أقول لكم دائماً: عملك وحرفتك وتجارتك وصناعتك ووظيفتك وزراعتك، فأنت طبيب، أو مهندس، أو مدرس، أو محامٍ، فحرفتك إذا كانت في الأصل مشروعة، ومارستها بطريقةٍ مشروعة، وابتغيت بها كفاية أهلك وأولادك ومن يلوذ بك، وابتغيت بها خدمة المسلمين، ولم تشغلك عن فريضةٍ ولا عن واجبٍ ولا عن طلب علمٍ انقلبت حرفتك إلى عبادة، ففي الإسلام لا يوجد دنيا وآخرة، ولا يوجد ساعة لك وساعة لربك، فأنت كلك لله ؛ حياتك وحرفتك ودراستك ونشاطك، وكل حركاتك لوجه الله عزّ وجل، فالمؤمن الصادق يعرف حقيقة الحياة الدنيا، أما الذي يريد الدنيا للدنيا فالويل له، وقد يخسرها في ثانية واحدة إذا توقّف القلب.

الموت مصير كل إنسان:

في أمريكا ألف ومئتا إنسان في وقت قصير (أذكر أنه أسبوع أو أقل) يصابون بسكتة دماغية، وسكتة قلبية، واضطراب بكهرباء القلب إذْ يتوقف القلب فجأةً، فكل هذه الدنيا التي بين أيديهم يخسرونها في ثانيةٍ واحدة، فإذا وضع الإنسان كل أمله فيها قال عليه الصلاة ولسلام:

((بادروا بالأعمال الصالحة فماذا ينتظر أحدكم من الدنيا))

[أخرجه الترمذي والحاكم في المستدرك]

فهذا الحديث مخيف جدًّا، فإنسان أصر على الدنيا وأراد الدنيا فقط، أرادها ومالها، ومتعها، ومباهجها، وشهواتها، فماذا أمامه ؟ قال:

((بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ سَبْعًا هَلْ تَنْتَظِرُونَ إِلَّا فَقْرًا مُنْسِيًا أَوْ غِنًى مُطْغِيًا أَوْ مَرَضًا مُفْسِدًا أَوْ هَرَمًا مُفَنِّدًا أَوْ مَوْتًا مُجْهِزًا أَوْ الدَّجَّالَ فَشَرُّ غَائِبٍ يُنْتَظَرُ أَوْ السَّاعَةَ فَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ))

[أخرجه الترمذي والحاكم في المستدرك عَنْ "أَبِي هُرَيْرَةَ "]

الدنيا، لا بد من أحد هذه السبعة، وإلا كيف تنتهي حياة الإنسان ؟ لما يأتي الأجل إما من الكليتين، أو من الكبد، أو من القلب، أو بحادث، فبالطبع لا بد من الرحيل والرحيل محقق، لكن المؤمن الكيس قال:

((الْكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ- ضبطها بالشرع - وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ))

[سنن الترمذي: عن " شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ "]

الدين مبعث تفوق للإنسان لا مبعث تخوّف:

أنا ما أردت أبداً أن أصرفكم عن طلب الرزق، ولا عن طلب العلم، ولا عن التفوّق في الدنيا، فما أجمل الإنسان إذا تفوّق فيها وفق منهج الله، فهل من الدنيا ألاّ تتزوج ؟ لا واللهِ، هل من الدنيا ألاّ تنجب أولاداً ؟ لا، أنجب أولاداً وربّهم تربية إسلامية ليكونوا عناصر طيّبة في المجتمع، أليس لك عمل ؟ أتقن عملك فإتقانه من الدين، وأخلص في عملك فإخلاص عملك من الدين، فالدين مبعث تفوق لا مبعث تخوّف.

فأعداء المسلمين أكبر وهم يتوهموه أن الدين سبب التخلف، واللهِ إنّ الدين سبب التقدم وسبب التفوق، لكن الدين الذي أراده الله عزّ وجل، ليس الذي ترونه بين الجهلة من سلوك لا معنى له، وتمتمات، ومواقف متناقضة، ليس هذا هو الدين، فالمؤمن شخصية فذّة.

المؤمن أسعد الناس لأنه موصول بالله:

أولاً: المؤمن عالم، فما اتخذ الله ولياً جاهلاً، ولو اتخذه لعلّمه، والمؤمن يعلم الحقيقة العظمى في الكون، فيقرأ القرآن، فهو منهج، وكتاب تاريخ، وتربية، وتشريع، وأحوال شخصية، وفلسفة، والمؤمن له صفة علمية، وله صفة أخلاقية، وهو رجل قِيَم ومبادئ، ومصالحه تحت قدمه، ومبادئه في عينه، إنه جمالي، فأذواق المؤمن عالية جداً، إذْ له أذواق في حياته الخاصة، وأذواقه في الاتصال بالله عزّ وجل، وفي تلاوة كتاب الله، كنت أقول مرةً: واللهِ لو اجتمع ذواقو الغناء في العالم لا يستمتعون بأغانيهم المفضلة كما يستمتع أقل مؤمن بكتاب الله حينما يتلوه.

فإنسان يتلو كتاب الله، أو يستمع إليه، أو يمدح النبي عليه الصلاة والسلام، أو يستمع إلى أذان من صوتِ شَجٍ يذوب قلبه وجداً وطرباً، فليس منا من لم يتغنّ بالقرآن، فالمؤمن له أذواق رائعة جداً، وله أشواق، وله أحوال، **" لو يعلم الملوك ما نحن عليه لقاتلونا عليها بالسيوف "**. فالمؤمن سعيد جداً، إذا لم يقل لك: أنا أسعد الناس فهو غير مؤمن، ما دام مؤمنًا فهو أسعد الناس، لأنه موصول بالله، أو موصول بمصدر السعادة، فمعنوياته عالية جداً، واللهُ يدافع عنه..

(إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنْ الَّذِينَ آمَنُوا)

(سورة الحج: من آية " 38 ")

الإسلام انتماء حقيقي و ليس انتماء تاريخياً:

المؤمن حكيم جداً، لأنه مسدد من الله عزّ وجل، فهو يتحرك وفق منهج الصانع، ولو أنك اشتريت آلة معقدة، وفتحت التعليمات، ونفذتها، فإنّك تضمن سلامتها ومردودها العالي.

فكلمة مؤمن كلمة كبيرة جدّاً، ولكن مع تخلّف المؤمنين والمسلمين، قد يقول أحدهم: هذا الشيخ. يقولها استهزاءً، فهل تعلم من هو المؤمن ؟ إنه شخصية من الشخصيّات النادرة، لا يسخر من القيَم، ولا يُسَخِّرُهَا بل يحتكم إليها، فله وعيٌ عميق، وإدراكٌ دقيق، إنه يرى ما لا يراه الآخرون، ويسمع ما لا يسمعون، فأحاسيسه مرهفة جداً، إنه سعيد في بيته، وسعيد في عمله، فهو شخصية نادرة جداً.

ولكن مع ضياع الناس، ومع تقصيرهم، والمعاصي والمخالفات التي يقترفونها فقد ضيّعوا ثمرة إيمانهم، ولذلك ترى المسلم شخصاً عادياً كهؤلاء لم يلتزم بدينه، ولم يطبق، وعندما لم يطبق صار له انتماء تاريخياً فقط، فهذا مولود مسلم، من أبٍ وأمٍ مسلمَين، هذا الانتماء التاريخي لا يعدُّ إسلاماً، فالإسلام هو انتماء حقيقي، وهو إدراك، وعقل، ومبدأ، واتجاه.

المؤمن كل شيء مدخر له بعد الموت لأنه عرف حقيقة الحياة الدنيا عكس الكافر:

دخلنا بموضوع:

(مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآَخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآَخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ(20))

(سورة الشورى)

أيها الأخوة الكرام، الإنسان يرتقي في الدنيا درجة درجة، فتصور إنسانًا طالعاً درجاً خمسين درجة، ثم سقط من علٍ إلى الحضيض، فالقضية خطيرة جداً، فالإنسان يبدأ متواضعاً، ودخله قليل محدود، و لا يوجد عنده بيت، ثم ينمو شيئاً فشيئاً، فهل من المعقول عندما تبلغ قمّة النجاح، وقمّة الفوز، جمعت المال الوفير، وارتفعت مكانتك وأنت في سماء الشهرة، وأنت في أوج نجاحك يأتي الموت فيأخذ منك كل شيء ؟!! والله مشكلة، مشكلة كبيرة جداً، فالناس في غفلة، والذي تجمعه في عمرٍ مديد يأخذه منك الموت في ثانيةٍ واحدة، لا تستطيع أن تأخذ شيئاً معك، هذا الموت.

إلا المؤمن، فكل شيء مدخر له بعد الموت، لأنه عرف حقيقة الحياة الدنيا، فتحرّك فيها وفق منهج الله عزّ وجل، وكسب أعمالاً تنفعه بعد الموت.

العاقل من أعدّ لساعة الفراق عدّتها:

من باب التمثيل: لو أنّ إنساناً باع أرضه وأرسل ثمنها لبلد آخر، وباع دكانه وأرسل ثمنه لبلد آخر، وكل شيءٍ يملكه باعه وحوّل المبلغ إلى بلدٍ آخر، فما بقي عليه إلا أن يلتحق بماله، فإذا أخذ جواز السفر، وركب الطائرة شعر بسعادةٍ كبرى، لماذا ؟ لأنه قدّم ماله أمامه فسرّه اللحاق به.

أما لو أن إنسانًا كان في أعلى درجات النجاح وقيل له: عليك أن تغادر خلال ساعتين ودع كل شيءٍ في بلدك، فهذه مصيبة كبيرة جداً ؛ ترك بيته، وأرضه، وسيارته، وكل شيء يملكه، فالمؤمن يشبه إنسانًا قدّم ماله أمامه فسرّه اللحاق به، وغير المؤمن إنسان أُمِر أن يغادر فجأةً من دون أي تأخير، إذًا هكذا هو المؤمن.

فيا إخواني إذا عزّى أحدُنا بعضَ المتوفين ولاحظ الفرق الكبير بين بيته الذي كان يسكنه وبين مقبرة باب الصغير، يقول لك: بيت ثمنه خمسة وعشرون مليونًا، أو ثلاثون أو أربعون مليونًا، ثلاثمئة متر، رخام إيطالي وجص، وثريات، و سجاد، لكن أين صاحبه ؟ في القبر، صار بمتر ونصف، وبعرض ستين سنتيمتر، تحت أطباق الثرى، فحادث الموت خطير جداً، فالناس نيام، وهم في غفلة، والإنسان يجب أن يزور القبور، ولو لم يكن له أقرباء فيتبع الجنائز، ويلاحظ اللحظة الحرجة حينما يفتح النعش

ويحمل الميت في كفنه ويوضع في القبر، وتوضع هذه الحجارة، ويأتي الحَفّار فيردم التراب، ويقف أولاد المتوفّى يقبلون التعازي، قال له: **" عبدي رجعوا وتركوك، وفي التراب دفنوك، ولو بقوا معك ما نفعوك، ولم يبق لك إلا أنا ".**

والله أيها الأخوة ما رأيت إنسانًا أعقل من الذي يعدُّ لهذه الساعة عدّتها ؛ أعد لها استقامة، ودخلاً شرعياً حلالاً، وبيتاً مسلماً، من زوجة و بنات وأولاد، وأعدّ لها عملاً صالحاً، فعمله المِهَنِي مشروع، فيه صدق وأمانة، فهو بعيد عن الكذب والغش والاحتيال، فالإنسان أعدّ لهذه الساعة بيتاً إسلامياً، وعملاً إسلامياً، واستقامةً على أمر الله، وعملاً صالحاً، إذا جاء الموت فهو في أسعد لحظات حياته.

اليأس و الإحباط يصيب أهل الدنيا عند مفارقتها:

اقرؤوا سيرة الصحابة ماذا تجدون ؟ تجدون أن كل أصحاب رسول الله رضوان الله عليهم، كانوا في أسعد لحظات حياتهم عند مفارقة الدنيا، والآن اسأل طبيباً مشرقًا يعاين حالات الوفاة (أطباء القلب يعرفون ذلك) انظر إلى فزع الإنسان عند الموت، إذا أيقن أنه سيغادر هذه الدنيا يختل توازنه، ويصبح كالطفل، يصيح ويبكِي، ويندب حظه، وقل للطبيب: صف لي حالة بعض المرضى ؟ انهيار عصبي كامل حينما يوقن أنه انتهى.

لي قريب زار صديقًا له وهو على وشك الموت، وكان قد أعدّ بيتًا فخماً جداً، فرآه متألماً حاقداً ناقماً، وقال له: غداً أموت، وزوجتي هذه تتزوج ويأتي زوجٌ غيري يأخذ البيت، فما هذا الشعور ؟ إنه شعور مدَمِّر، حتى تمَّ بناء هذا البيت مات ألف موتة، وبعد أن نضج لم يستمتع به، صار معه مرض خطير، سوف يغادر، ورأى زوجته غير وفية، وسوف تأتي بزوج حسب مزاجها يستمتع بهذا البيت الذي تعب هو فيه، فهذه مشاعر الدنيا.

الدنيا تغر وتضر وتمر، وشعور أهل الدنيا حين المفارقة شعور لا يصدّق، شعور اليأس والإحباط، أما المؤمن: **"واكربتاه يا أبتِ "**. قال: **"لا كرب على أبيك بعد الموت، غداً نلقى الأحبة محمداً وصحبه ".**

تصور طالباً يدرس على حسابه في بلد أجنبي يسكن غرفة قميئة، يعمل ليلاً نهاراً حتى أخذ الدكتوراه، وهو موعود في بلده بمنصب رفيع جداً، وبأجمل بيت وأجمل زوجة، فهو عندما أخذ الدكتوراه وصدقها، وركب الطائرة هذه أسعد لحظات حياته وهو يعود إلى بلده.

وأحد العلماء سئل كيف القدوم على الله ؟ قال: كالغائب ردّ إلى أهله.

ولو غاب إنسان عن أهله ثماني سنوات، ثم حضر يتفننون له في الطعام الذي يحبه، يطبخون له ست أو سبع طبخات، فأجمل الأكلات يحبها يعملونها له، وغرفة خاصة، وسرير فخم، وملاءات نظيفة، واحتفالات، وزيارات، وسهرات، فهذا للغائب الذي حضر، وهكذا المؤمن.

على كل إنسان أن تكون دنياه مطية للآخرة لا هدفاً لذاتها:

لذلك نحن نريد أن نضع آمالنا بالآخرة، أما الدنيا فنعمل فيها، ونتفوق ولكن بنية عالية، وبين أيدينا لا في قلوبنا، وعلامة الدنيا التي لا ضير من أن تعمل فيها أن لا تشغلك عن طاعة، فإذا كانت صلواتك، وصيامك، وزكاتك، و حجك، وانضباط بيتك، وعملك وفق الشرع إذاً عملك في الدنيا وليس من الدنيا للآخرة، أما إذا كان الأمر: عندنا موسم فتركنا الدروس، ولم نصلِّ الظهر والعصر، بل نجمعهما مساءً. هذا حب الدنيا، فإذا ضيّع الإنسان صلواته، وضيّع مجالس علمه، وضيّع طلبه للعلم وهو منهمك في دنياه فهذا من حبّ الدنيا، أما إذا كان عندك حرص شديد على طاعة الله، فالدنيا عندئذٍ بين يديك، ولا بد من عمل تكسب منه رزقك، والعمل مشروع، والعلم مشروع، والحرفة مشروعة.
فالذي أريد من هذا الدرس إذْ ذممت الدنيا في أول الدرس، فأنا أذم من طلبها لذاتها، ومن جعلها كل همه ومبلغ علمه، ومن جعل الدنيا ديدنه، ومن أراد أن يستمتع بها، ويرتاح إليها، ويقتنص الشهوات فيها، فأنا ذممتها من هذه الزاوية، أما حينما أجعلها مطية للآخرة فلابد من أن تكون متفقاً، أو صاحب حرفةٍ، أو صاحب مالٍ، أو منصبٍ من أجل أن تبذل هذا المال، وهذه الوجاهة، وهذه الحرفة في طاعة الله.

الإتقان و الإخلاص في العمل أساس طاعة الله:

الذين ينفقون أموالهم ليلاً ونهاراً هؤلاء ألا يغبطون على ذلك ؟ هكذا قال عليه الصلاة والسلام:

((لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ الْقُرْآنَ فَهُوَ يَقُومُ بِهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَآنَاءَ النَّهَارِ وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا فَهُوَ يُنْفِقُهُ آنَاءَ اللَّيْلِ وَآنَاءَ النَّهَارِ))

[أخرجه مسلم عن " عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ"]

فالتفوق التفوق في الدنيا، ولكن على أن تكون مطية لا على أن تكون هدفاً لذاتها. وسيدنا النبي اللهم صلّ عليه أمسك يد عبد الله بن مسعود فرآها خشنة، فرفعها هكذا أمام أصحابه وقال:

((إن هذه اليد يحبها الله ورسوله))

فالذي له مصلحة، أو حرفة، يعمل فيها بإخلاص، ويتقنها، ويخدم المسلمين بها ويكسب رزقاً حلالاً ينفقه على أهله هذا والله وليّ..

(ألا إنّ أوْلِيَاءَ اللّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ الّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتّقُونَ(62))

(سورة يونس)

وامرأةٌ تحسن تربية أولادها، وترعى زوجها، وتربيهم، وتعتني بهم، ولا تؤذي خلق الله بسفورها، فهذه المرأة وليّةٌ عند الله عزّ وجل، إنها متزوجة ولها زوج، ولها أولاد تعتني بهم، وتطبخ لهم، وتنظف البيت، وتعتني بنظامهم ودارستهم، ومستقبلهم وأخلاقهم، فهذه ولية.

المسلم لا يرقى عند الله إلا بالعمل الصالح:

وإنسان يعمل في مصلحة بإتقان وإخلاص وصدق، يربح ولكن سعره معتدل، ولسانه طيب، وعمله متقن، فهذا وليّ، فلا تظن أن الإيمان انسحاب من الحياة وتقعد في الجبل، من قال لك ذلك ؟ الإيمان أن تعمل، والنبي قال لرجل يجلس في المسجد نهاراً:

" من يطعمك ؟ ". قال له: **" أخي "**. قال:

((أخوك أعبد منك))

أنا أدعوكم إلى العمل، ولإتقان العمل، وللإخلاص بالعمل، ولاختيار عملٍ يرضي الله، فإيّاك أن تختار عملاً يؤذي الناس، لأن ألصق شيء بحياتك عملك وزوجتك، ابحث عن زوجةٍ مؤمنة تسعدك وتسعد بها، وابحث عن عملٍ يرضي الله، فيه عطاء للناس وخدمة، فيه حلّ مشكلاتهم، ما أكثر الأعمال التي تفسد أخلاق الناس، فما أكثر الأعمال التي لا ترضي الله، وأخطر شيء في حياتك عملك الذي تعيش وتقتات منه.

هناك عمل أساسه إيقاع الأذى بالناس، وعمل أساسه سلب أموال الناس، وعمل أساسه سلب مشاعر الناس الطيّبة، وعمل أساسه الإيقاع بين الناس، فإياك أن تختار عملاً يؤذي المجتمع، ولا تنسَ هذه المقولة: **" إذا أردت أن تعرف مقامك فانظر فيما استعملك "**. وابحث عن عمل فيه عطاء للناس، وكله خير، وأنا أدعو للعمل، ولإتقان العمل، وللإخلاص في العمل، والمسلم لا يرقى عند الله إلا بالعمل، والعمل يحتاج إلى عمل، والعمل الصالح يحتاج إلى عمل تكسب منه رزقك، فأن ينسحب المؤمن ويعيش على هامش الحياة، ويعيش عالة على الآخرين، مهملاً حياته الخاصة، وشؤونه، وعمله غير متقن، فهذا ليس مؤمناً، والمؤمن إنسان متفوق ذو شخصية فذة المؤمن.

على كل إنسان أن يكون عمله الذي يرتزق منه زاده في الآخرة وسبباً لدخول الجنة:

فلذلك أيها الأخوة يجب أن يرفع الناس رؤوسهم، رجل كان يمشي أمام سيدنا عمر مطأطئ الرأس فعلاه بالدُرّة قال له: **"لا تمت علينا ديننا أماتك الله ؟ "** ارفع رأسك، الإنسان إذا أتقن عمله يكسب العزّة، والذي يُهمل عمله يكسب الذِلّة، قال:

(تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ)

(سورة المعارج: من آية " 44 ")

فقانون العِز والذل، إتقان العمل يرفع رأسك، وإهمال العمل يخفض رأسك، فالعمل أساسي، وكل واحد يعتبر (أقول لكم هذا الكلام الدقيق): يمكن أن يكون عملك الذي ترتزق منه زادك في الدار الآخرة وسبباً لدخول الجنة ؛ فالطبيب والمحامِ والمهندس المدرس المخلصون، والتاجر الأمين الصدوق مع النبيين والصديقين يوم القيامة.

هذا الحديث أوقعني في حيرةٍ كبيرة، يا رُبَّ تاجر وباع واشترى وربح، فلماذا صار مع النبيين، ماذا فعل ؟ لأنه كان داعية إلى الله وهو لا يشعر باع بضاعة جيدة بسعر معتدل، ولم يغش الناس ولم يكذب عليهم، وكان سموحاً معهم، فكان داعيةً وهو لا يشعر، فهذا داعية صامت.

لابدّ لكل إنسان من حرفة لتكون يده هي العليا:

أكبر دولة إسلامية اليوم أند ونسيا ويبلغ عدد سكانها مئة وخمسون مليونًا وحدها، والعرب كلهم مئة مليون، هذه فتحت لا عن طريق السيف بل عن طريق التجارة، فأنت أيها التاجر قد تكون داعية وأنت لا تشعر.

والطبيب الذي لا يبتز أموال الناس، ولا يكذب عليهم، ولا يكبّر حجم المشكلة، هذا الطبيب المؤمن داعٍ وهو لا يشعر. والمحامِي كذلك، والمدرس، والمهندس، والموظف الذي يستقبل المواطن ويلبي حاجته بتواضع من دون أن يكبّر عليه المشكلة، هذا مؤمن، وهذا داعية، فإذا ذممنا الدنيا فنحن نذمها من أحبها لذاتها، ومن جعلها حجاباً بينه وبين الله، ومن أراد الاستمتاع بها، ولكن من جعلها مطية نقول له: مرحباً بك، أنت على الحق وأنت في الطريق الصحيح.

الإنسان لابدّ له من حرفة، أو عمل، ولا بد له من أن تكون يده عليا، أما أن يقول: اتركها لسيدك، ويمد يده للناس. أهذا الذي يمد يده للناس مؤمن ؟ يجب أن نعاون بعضنا، ولكن الأصل أن تأخذ حاجتك عند الضرورة وأن تسأل ربك من فضله.

على كل إنسان أن يكون له عمل وفق منهج الله و حدوده:

لذلك أيها الأخوة أكثر الدعاة إلى الله والخطباء يذمّون الدنيا وأنا معهم لأنه حق، ولكن الدنيا التي تقصد لذاتها، أما الدنيا التي يبتغى بها وجه الله، فالإنسان عندما يتزوج، وعندما يختار عملاً تعليمياً، وعملاً مهنياً، أو حرفياً، بإخلاص وإتقان يرقى عند الله، والمسلمون الآن بحاجة ماسة إلى التفوق في أعمالهم، وإلى أن يكتفوا عن استيراد حوائجهم من الغرب، فإذا أنشأ إنسان معملاً صغيراً وأغنانا عن استيراد بضاعة أجنبية، ونقل العملة الأجنبية إلى الغرب فهذا عمل طيب، ولكن على أن يبقى في منهج الله، ووفق حدود الله، فنحن لا ننجح إلا إذا طبقنا منهج الله عزّ وجل، ولذلك فمعرفة أحكام الله الشرعية فرض عين على كل مسلم، لئلا يقع في حرج كبير.

أحياناً تستورد مادة غذائية أولية فيها شحم خنزير وأنت لا تشعر، عملت معملاً ولكنه يصنِّع مادة مشكلة، فأحياناً هناك بعض المواد الغذائية فيها مواد مخدرة، حتى يصير إدمان عليها، فالمؤمن يعمل عملاً تاماً وفق الشرع، وقد اكتشفوا بعض الحلويات المستوردة فيها مواد تسبب عقماً لأطفالنا، وهذا عولج مرةً في مجلس الشعب، فيجب أن نصنع غذاءنا بأنفسنا، وأن نصنع ثيابنا بأنفسنا، وهذا الشيء مفخرة للمسلمين، فكلما رأيت مسلماً له عمل طيب وينفع فيه المسلمين، والعمل وفق المنهج الإلهي فهذا إنسان عظيم، لأنه أولاً خدم أمته، وخدم بلده، وخدم المسلمين وحصنهم من كل انحرافٍ وأذى.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الشورى 042 - الدرس (08-15): تفسير الآيتان 21-22 ،المشرع هو الله لأنه يعلم حقيقة النفس الإنسانية

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 25-03-1994

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الثامن من سورة الشورى.

المُشَرِّع هو الله لأنه يعلم حقيقة النفس الإنسانيّة:

مع الآية الواحدة والعشرين وهي قوله تعالى:

(أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنْ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ(21))

(سورة الشورى)

أيها الأخوة الكرام، هذه الآية فيها استفهام إنكاري، أي أن الله سبحانه وتعالى يُنْكِرُ على هؤلاء أن يشرّعوا تشريعاً يخالف شرع الله عزّ وجل، وهذه الآية تنقلنا إلى موضوعٍ دقيقٍ في الإسلام، وهذا الموضوع هو أن المُشَرِّع هو الله، لماذا ؟

أولاً لأن الإنسان يجهل حقيقة الناس، والذي يشرّع يجب عليه أن يعلم حقيقة النفس الإنسانيّة، وأن يعلم ما تنطوي عليه من حاجات، وما تعانيه من مُلِمّات، فالنفس البشريّة لها طبيعة، فمن هو الخبير بها ؟ هو الله سبحانه وتعالى وهو الصانع، فأنت بشكل بسيط جداً لو عندك جهاز مُعقّد (حاسوب مثلاً) وتعطّل، فهل من الممكن أن تلجأ إلى غير الخبير ؟ وإلى غير الشركة الصانعة ؟ وإلى غير مندوب من الشركة الصانعة ؟

فأولاً المشرّع لا ينبغي له أن يكون إنساناً، فلو أن المشرّع هو الإنسان فالإنسان يجهل، وإذا علم يجهل جانباً ويعلم جانباً، فأحياناً نشرّع من زاوية واحدة، ونجد أخطاء كثيرة جداً، ومضاعفات خطيرة جداً ظهرت معنا دون أن نحسب لها حساباً، وبما أنه لو علم يجهل، ولو علم جانباً جهل جوانب، ولو نظر في هذا التشريع من هذه الزاوية تغيب عنه بقيّة الزوايا، وهو إما أنه يجهل جهلاً مطبقاً، أو أنه يجهل جهلاً جُزْئِيّاً، فما دام هناك جهل فالجاهل لا يشرّع.

الإنسان لا يمكن أن يكون مشرّعاً لعدة أسباب منها:

هذه النفس البشريّة لا يعلم حقيقتها، وقوانينها، وخصائصها، و بُنيتها، وفطرتها إلا الذي خلقها، فحينما نفكِّر، أو حينما نكتشف، إلى أن نشرّع لأنفسنا فقد وقعنا في مطبٍ كبير، وفي جهالةٍ جَهْلاء، وفي هلاكٍ في الدنيا وشقاءٍ في الآخرة، لمجرّد أن تفكِّر أن إنساناً ما كائناً من كان بإمكانه أن يشرّع، فالمشرّع هو الله لأنه هو الخالق، والبارئ، و المصوّر، والعليم، والحكيم، والخبير، والذي يعلم السرّ وأخفى.

1 ـ لأن الإنسان إما على جهلٍ مطبق أو على جهلٍ جزئي:

إذاً أول نقطة: أن مخلوقاً ما كائناً من كان، مهما علا قدره، و كثر علمه، واتسعت ثقافته، وسمت نفسه، لا يستطيع أن يشرِّع لأنه إما على جهلٍ مطبق، أو على جهلٍ جزئي، ومادام في كيان هذا المشرِّع جهلٌ ما ولو كان جزئياً، فإن هذا الإنسان ليس بمقدوره أن يشرّع، والدليل أن أي قانونٍ وضعيٍ من صنع البشر لا تزال ترى له تعديلاتٍ وتعديلاتٍ حتى تغدو التعديلات أكثر من مَتْن القانون، ثم يلغى كلياً ويوضع قانونٌ جديدٌ آخر.

وإن دلّ على شيء فإنما يدل على أن الإنسان ليس مؤهّلاً أن يشرّع، وهذه حقيقةٌ أساسيّةٌ في الدين، أي إنسان (أنا لا أتهم إنسانًا معيّنًا ولو حسنت نيّته) فالإنسان يجهل، أو يعلم جانباً ويجهل جانباً آخر، ومادام في جهل من جانب فلا يمكن أن يكون الإنسان مشرّعاً.

1 ـ الإنسان له مصالح و غرائز فأي تشريع من وضع البشر يخدم مصالح المُشَرّع:

هناك عامل آخر: الإنسان له مصالح، وله غرائز، فإذا شرّع هو فمن أجل مصالحه، ومن أجل غرائزه، فأي تشريع من وضع البشر تشعر أن هذا التشريع يخدم مصالح المُشَرّع قبل كل شيء، أو يخدم غرائزه، فعامل الجهل الكُلي أو الجُزئي، وعامل المصالح التي هي أحد أهداف الإنسان، وعامل الغرائز التي هي تتحكّم بالإنسان أحياناً، فلهذه الأسباب مجتمعةً أو غير مجتمعة فالإنسان لا يمكن أن يكون مشرّعاً.

أي تشريع يضعه البشر له مضاعفات خطيرة جداً:

هل تصدِّقون أن من المجتمعات التي توصف بأنها راقية أو متقدِّمة (بالمقاييس الحضاريّة) من هذه المجتمعات من أقرّت اللواط، تفضّلوا، الإنسان إذا شرّع هكذا يفعل، طبعاً عندما شُرّعَ هذا القانون تملّقاً

لغرائز الناس المنحرفة، مع أن هذا الانحراف ليس في حياة البشر انحرافٌ أدنى منه، ولا أقذر منه، فهو تحطيمٌ للإنسان، ولهذا الطفل الذي سيغدو رجلاً، انتهى الإنسان، فحينما نقول للإنسان: تعال شرّع، يبيح لك الشذوذ. والآن في بعض الدول في اسكنديناڤيا توزّع على الناس المخدِّرات مع الحقن المعقمة لئلا ينتقل مرض الإيدز عن طريق الحقن، فإذا أردنا أن نشرّع فقد ألغينا تشريعًا آخر.

أنا أنقل إليكم بعض اللقطات من التشريعات الوضعيّة في مختلف بلاد العالَم، في الصين ظهر تشريع يُلزم الآباء بإنجاب ولد واحد، فما الذي يفعله أهل الصين ؟ إذا جاءت الأنثى قتلوها إلى أن يأتيهم ذكر فيُصرّحون به، فما الذي حدث بعد حين ؟ أن قرىً بأكملها لا تجدُ فيها أنثى واحدة، تعطّلت الحياة. فالإنسان حينما شرّع ظهر معه هذا.

وفي تونس أي إنسان يطلِّق امرأته تتملّك فوراً نصف ثروته، فأصحاب الأعمال الناجحين عزفوا عن الزواج، وأمضوا حياتهم بالسِفاح، وكسدت سوق الزواج، فاضطرّ الآباء أن يعطوا خاطبي بناتهم سندات أمانة بمبالغ خياليّة إذا طلّقوا يستحقُ عليهم هذا السند. فعندما شرّعنا نحن وقعنا في مأزق كبير، وأي تشريعٍ يضعه البشر يجب أن تجد له مضاعفات خطيرة جداً.

التشريعات التي جاءت في القرآن الكريم كلّما تقدّم العلم أثبت أنها هي الناجحة:

أيها الأخوة، طبعاً ليس غريباً عن أذهانكم أنه قبل عام أو أكثر دولة عظمى من دول العالم سمحت للشاذين بدخول الجيش، إنه تشريع ! فهذه كلّها أدلّة تؤكِد أن الإنسان حينما يشرّع إما أنه يجهل جهلاً كلياً، أو أنه يجهل جهلاً جزئياً، أو أنه يتملّق مصالحه، أو يتملّق غرائزه، فالتشريعات الوضعيّة دائماً لمصلحة واضع التشريع، تحقِق كل مصالحه على حساب الآخرين.

أما إذا كان التشريع من خالق الكون فهو الخالق أولاً، والبارئ و المصوّر، والعليم، والقدير، والعادل، لذلك التشريعات التي جاءت في القرآن الكريم كلّما تقدّم العلم أثبت أنها هي الناجحة، فمثلاً: هناك دول ألغت عقوبة الإعدام، لماذا عادت إلى تطبيق هذه العقوبة صاغرةً ومُرغمة الأنف ؟ صار الإنسان يقتل ثمانية وعشرين شخصاً برشّة واحدة بلا سبب، ضجر، ورفض، وضياع. فالله عزّ وجل قال:

(وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ)

(سورة البقرة: من آية " 179 ")

طبعاً " **القتل أنفى للقتل** " حينما تقتل القاتل، إذاً حينما يفكِّر إنسان بالجريمة يرتدع، وفّرت حياة القاتل الآخر وحياة المقتول، فالشرع الحكيم أمر بقتل القاتل ردعاً لأي إنسان وحفاظاً على حياة الناس، أما بعض المجتمعات التي تظن أنها متقدِّمة حكّمت عقلها في كل شيء، والعقل لا يكفي، العقل وحده ليس مؤهّلاً أن يشرّع. فالمُنطلق أننا نحاسب الناس لكن لا نؤذي حياتهم (شيء جميل) القاتل له سجن،

وبحسب حقوق الإنسان له وهو في السجن حالات طيّبة، له حق أن يقرأ صحيفة، وأن يأكل أكلاً طيّباً، وأن يشاهد وسائل الإعلام، فصار السجن أكثر راحة من بيته، فهذا يدخل السجن وهو في راحةٍ تامّة، ولذلك حينما تفاقمت جرائم القتل في بعض البلاد الغربيّة عادوا إلى تطبيق عقوبة الإعدام مرغمين.

الإسلام دين وسطي:

فيا إخواننا الكرام، الآن الإسلام وسطي، والوسط هو الاعتدال وهو الصواب، والعالم توزّع نحو تطرُّفٍ نحو اليمين وتطرُّف نحو اليسار، والآن بفضل الله ورحمته عاد الطرفان مُرْغَمَيْن إلى الوسط لا اعتقاداً بأحقية الدين، بل انطلاقاً من مصالحهم، فهؤلاء عادوا إلى الوسط، وهؤلاء عادوا إلى الوسط..

(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا)

(سورة البقرة: من آية " 143 ")

من قوانين النفس أنّ الإنسان دائماً يوازن بين المكتسبات وبين التبعات:

أيها الأخوة الكرام، من قوانين النفس، أنّ الإنسان دائماً يوازن بين المكتسبات وبين التبعات، فإذا كانت التبعات أقل من المكتسبات وقع الإنسان في الجريمة، وحينما شَرَعَ الإسلام قطع اليد، طبعاً أحد الشعراء سأل الإمام الشافعي فقال له:

يدٌ بخمس مئينٍ عسجدٍ وديَة ما بالها قُطِعَت في ربع دينار
تناقض ما لنا إلا السكوت له ونستجير بمولانا من العار

* * *

أي أن ديّتها خمسمئة دينار. فأجاب الإمام الشافعي فقال:

يد بخمس مئين عسجد وُدِيَة لكنها قطعت في ربع دينار
هنالك مظلومة غالت بقيمتها وهاهنا ظلمت هانت على الباري

* * *

لمّا كانت أمينة كانت ثمينة فلمّا خانت هانت.

وفي بعض البلاد غير المستنيرة علمياً، وغير المتقدِّمة حضارياً، حينما طُبّق فيه قطع يد السارق حصل العجب العجاب، تعجب أن بائع النقد يترك صندوق النقد بالملايين ويذهب ليصلي، ولا يجرؤ أحدٌ أن يأخُذ شيئاً، وهناك قصص كثيرة جداً عن مجتمع غير حضاري، وغير متقدِّم، وغير متعلِّم ولكن طُبِّقَ فيه هذا الحَد (قطع يد السارق) لأن أكبر مبلغ يناله السارق لا يوازي يده، يعمل موازنة فيقول لك:

لا. أما إذا كان موضوع سجن فقط فالقضيّة سهلة، ألف طريقة يخرج الإنسان منها، بكفالة، وباحتيال، ولذلك:

يدٌ بخمس مئينٍ عسجدٍ ودية ما بالها قُطِعَت في ربع دينار

* * *

عزُّ الأمانة أغلاها، وأرخصها ذل الخيانة فافهم حكمة الباري

* * *

والله عزّ وجل قال:

(وَلا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللّهِ)

(سورة النور: من آية " 2 ")

الشفقة هنا شفقة شيطانيّة، فحينما تُشفق على إنسان يعمل على هدم أركان المجتمع فهذه ليست شفقة، وإنما هي محاباةٌ للمُنحرف.

أعظم ما في التشريع الإلهي أن الذي وضع التشريع هو معك دائماً:

إذاً حينما نسمح لإنسانٍ ما أن يشرّع نقع في أخطاء كبيرة، غالباً أن الإنسان إذا طبّق شرع الله عزّ وجل، فالمؤيّد القانوني لشرع الله أن الله يعلم، ولكن واضع التشريع قد لا يعلم من يخالف هذا التشريع، أو لا يستطيع أن يعلم، فإذا كان بالإمكان أن ينجو من علم واضع التشريع إذاً يحتال عليه، لكنّه إذا علم أن المشرّع هو الله، فلو كان في عقر بيته فلا يستطيع أن يخالف شرع الله، ولو كان وحده في الليل يعجن العجين، في ساعةٍ متأخِّرة من الليل، لا موظّف تموين ولا مراقب، ولكنه يراقب الله عزّ وجل، فلا يستطيع أن يخالف الشرع، فأعظم ما في التشريع الإلهي أن الذي وضع التشريع هو معك دائماً.
فأنت تلاحظ أحياناً الساعة الثالثة لا توجد إشارات، تتخطّى الإشارة الحمراء وأنت مطمئن لأنه لا يوجد شرطي. وهذا مثل بسيط، أن واضع قانون السير لا يستطيع أن يعلم كل المخالفات أثناء الليل، فالشرطي يريد أن ينام، ففي الساعة الثانية عشرة ينام، ومعنى هذا بعد الثانية عشرة لا يوجد شرطي إذاً تخالِف، وهذه من ثمار القانون البشري، فما دام واضع القانون لا يستطيع أن يضبط المخالفات، إذاً هناك عملية صراع بين عقلين، والأذكى ينتصر.

عدم انتظام الحياة إلا بتطبيق منهج الله عز وجل:

الآن في بعض البلدان المتقدِّمة (بمقياس العصر) يوجد أجهزة رادار لكشف السرعة الزائدة، والأذكياء صنعوا جهازاً للتشويش على هذا الجهاز، اضطروا أن يصنعوا جهازاً ثالثًا لكشف جهاز التشويش الموضوع داخل السيّارة، فالأمر هو حرب بين عقلين، أما حينما يضع خالق الكون تشريعاً فهنا لا احتيال عليه، لأن الله يعلم، وسيعاقب، ولن تنتظم الحياة إلا إذا طُبّق منهج الله عزّ وجل، لأن المشرّع وهو الله يعلم السرّ وأخفى، ويعلم أدقّ المخالفات.

والدليل الصيام، فالمسلم، قد يكون شهر رمضان في أيام الصيف الحارة، وساعات الصيام سبع عشرَة ساعة، واستيقظ وهو في حالة عطش شديد، فكيف يمضي هذا اليوم إلى المغرب ؟ يدخل الحمّام والماء بارد، عذبٌ فرات ولا أحد يراقبه، هل يستطيع المسلم أن يبتلع نقطة ماء في رمضان ؟ هذا من أثر التشريع الربّاني. وتجد حالات من الأمانة، والصدق، وعدم الغِش، فإنه شيءٌ عجيب، لأن المراقب هو الله، فإذا قلت: إنسان سيراقب، فالإنسان يباع ويشترى.

يقول لك: كانوا قديماً، لا توجد أجهزة تكشف الحليب المسحوب دسمه، فالأمور فيها تراخٍ، ثم اخترع جهاز مكثِف يوضع في الحليب، ويغوص في السائل بحسب قدر سحب المادّة الدسمة، فهذا جهاز مكثِف، فصار في حل، يسحب الإنسان المادّة الدسمة في الحليب (القشدة) ويضع بدلاً منها النشاء، ويوضع المكثِف فكأن الحليب كامل الدسم. والآن نحن نحضر جهازًا حديثًا جداً يحدِّد المادة الدسمة بأدق المعايير، الذي على الجهاز فقد يشترى وانتهى الأمر مادام التشريع أرضيًا، إذًا لابدّ من أن يكون المشرّع هو الله، لأن الله عزّ وجل يعلم وسيحاسب، ولن تنتظم الحياة إلا بهذه الطريقة.

على الإنسان أن يخاف من عقاب الله لأنه لا مفر منه:

الإنسان أحياناً لو نجا من عقاب الإنسان لا ينجو من عقاب الله، فهناك حالات كثيرة، أخ كريم مرّة سألني هذا السؤال قال لي: أنا في محضر تمكّن يأخذه عن طريق دعوى إزالة شيوع بسعر أقل من سعره بثلاثين في المئة، أي أنه أدخل أربعة أو خمسة صوريين في المزاودة ورفعوا شيئًا قليلاً جداً، فرسا عليه المحضر بثمن يقل عن ثمنه الحقيقي بثلاثين في المئة، والرقم كبير جداً، فعاد إلى بيته ونظر إلى ساعة فِراق الدنيا، ونظر إلى ساعة نزول القبر، فصاحب هذا المحضر ومن أصحابه أيتامٌ كثر، فخاف فسألني، فقلت له: والله قلقك هو الجواب، إما أن تدفع لهؤلاء ثمنه الحقيقي، أو تنسحب من هذه المزاودة، فكان أن انسحب. انظر لأثر التشريع، لو كان المشرّع هو الإنسان فالعمليّة نظاميّة، والمحضر على الشيوع، أقيمت دعوى إزالة شيوع، وأعلن عن المزاودة دخل بالمزاودة أشخاص كلهم

شُركاء، فزادوا مبالغ قليلة جداً، فرسَا المحضر على أكثرهم وهو واحدٌ منهم، فأُخِذَ المحضر بثلثي قيمته الحقيقيّة، فحينما لا نلحظ إلا تشريع الإنسان نقع في حرام شديد، وفي شقاءٍ كبير.

أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنْ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ: هذه الآية تؤكد:

أيها الأخوة الكرام... سمعت قصّة عن إنسان في باريس يسكن في بيت (وهو من دمشق) فذكر لأقربائه أنهم استيقظوا في منتصف الليل على أصوات إطلاق رصاص، ثم علموا في النهاية أن جاره قتل زوجته في الليل، لماذا ؟ لأنها تعمل موظّفة عند مدير عام لشركة، طبعاً فتاة في ريعان الشباب، وهي تعمل معه في غرفة واحدة، وقد استلطفها، وأحبّها وأحبّته فخانت زوجها، فلمّا علم زوجها بخيانتها قتلها أمام أولادها.

فهذا إنسان لا ينطلق من دين، وهذه فطرة الإنسان، فحينما نسمح بالخلوة بين رجل وامرأة وهما في ريعان الشباب، فهذا السماح مخالف لشرع الله عزّ وجل، فكم من جريمةٍ تقع في العالم بسبب مخالفة الإنسان لفطرته، وهناك أدلّة كثيرة جداً، ولكنني قد ذكرت لكم بعض النتائج المدمِّرة في المجتمعات الأخرى حينما طبّقوا شرعاً غير شرع الله عزّ وجل.

1 ـ عدم استقامة الحياة إلا إذا طبقنا شرع الخبير:

أولاً هذه الآية تؤكِّد أنه لا يمكن أن تستقيم الحياة، ولا يمكن أن يسعد الإنسان إلا إذا طبّقنا شرع الخبير، العليم، الغني، القدير، الذي خلق، والذي سوّى، والذي خلق طبيعة النفس، والذي فطرها الفطرة التي شاءها لها..

(أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنْ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ (21))

(سورة الشورى)

طبعاً سر نجاح المؤمن (أو أحد أسباب نجاحه) أنه حينما يطبّق منهج الله، فهو منهج الخالق، ومستحيل أن يكون فيه غلط، وهذا شيء من البديهيّات، وأنت في معالجة جهاز معقّد لا ترجع إلا إلى الشركة الصانعة، ومن الغباء والحُمق أن تعود إلى جارك البائع، وتقدِّم له جهاز حاسوب ثمنه ثلاثون مليونًا، وتقول له: هذا الجهاز فيه خلل، كيف أصلحه ؟ هذا لا يعلم شيئاً، فالإنسان حينما يعود في شؤون حياته إلى غير خالقه وقع في وادٍ سحيق.

2 ـ نظام البشر وضعي بحاجة إلى مؤيد قانوني:

الشيء الثاني، النقطة الدقيقة دائماً حينما يوضع نظام وضعي من صنع البشر، يحتاج في التعبير الحقوقي إلى مؤيّد قانوني. فلو فرضنا صدور قانون للسير، وأن السير على اليمين، والانعطاف، والمركبة، وكل التفاصيل، ولكن ليس فيه أي عقوبة، فهل يُطبّق هذا القانون ؟ لكن فقط يرجى للسائقين ملاحظة ما يلي، لا يوجد ولا مادة عقابية، ولا سحب إجازة، ولا غرامة ماليّة ضخمة، ولا مصادرة المركبة، ولا حبس، ولا شيء إطلاقاً، لكن توجد تنظيمات فقط، فهذا النظام لا قيمة له إطلاقاً لأنه يخلو في العرف القانوني من المؤيّد القانون.

وأعظم مؤيّد قانوني في الشرع الإلهي أن الله يعلم وسيحاسب في الدنيا والآخرة، وتجد شخصاً خائفًا ؛ خائفًا لأن صحّته بيد الله عزّ وجل، وسمعه، و بصره، وقلبه، وشرايينه، ودسّاماته، وكبده، وكليتاه، وجهازه العصبي، وجهازه الهرموني، وغدده، وعضلاته، وعظامه، وزوجته، وأولاده، وبيته، وعمله، وأصدقاؤه، ومن حوله، ومن فوقه، ومن تحته كلهم بيد الله عزّ وجل، فإذا خالف منهج الله، فليس ثمة مؤيد قانوني للشرع الحكيم أعظم من أن الله يعلم.

العلم وحده أكبر مؤيّد قانوني لشرع الله عزّ وجل:

لذلك حينما تعلم أن الله يعلم فلابدّ من أن تستقيم على أمر الله، وقد لا تصدّق أن الله سبحانه وتعالى جعل علّة خلق السماوات والأرض أن تعلم أن الله يعلم، وحينما ذكر هذه الآية الكريمة اختار من بين أسمائه كلِّها اسمين فقط، العلم والقدرة، قال:

(اللّهُ الّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنْ الأَرْضِ مِثْلَهُنّ يَتَنَزّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنّ لِتَعْلَمُوا أَنّ اللّهَ عَلَى كُلّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنّ اللّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلّ شَيْءٍ عِلْمًا(12))

(سورة الطلاق)

من أجل أن تعلم..

(أَنّ اللّهَ عَلَى كُلّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنّ اللّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلّ شَيْءٍ عِلْمًا(12))

(سورة الطلاق)

فالعلم وحده أكبر مؤيّد قانوني لشرع الله عزّ وجل، إن الله يعلم وسيحاسب، وأنت في قبضته، وكل شؤون حياتك بيده، فالله عزّ وجل من قدرته أن يجعل حياة أي إنسان جحيماً لا يطاق، بخلل طفيف في إحدى غدده.

على كل إنسان ألا يعبد غير الله عز وجل:

الغدّة النخاميّة يا إخواننا هذه ملكة الغدد، لها اثنا عشر هرمونًا تفرزه، ومن بعض الهرمونات هرمون توازن السوائل، فلو اختلّ هذا الهرمون يجب أن تستقيل من عملك، وتجلس بجانب المرحاض والصنبور، تشرب عشرين تنكة من الماء وتخرجها، فهذا هرمون من هرمونات الغدّة النخاميّة لو اختلّ وزنه لحصل ذلك.

ولو اختل مركز تنبيه الرئتين النوبي بالبصلة السيسائية فكيف تنام ؟ تنام فتموت، يجب أن تجري تنفُّساً إرادياً، فالتنفس الآلي تعطّل، ومركز تنبيه الرئتين النوبي تعطّل، وبقي التنفُّس الإرادي، تعمل شهيقًا وزفيراً، تنام فتموت على الفور، فالله عزّ وجل بمليون مليون مليون خيار يجعل حياة الإنسان جحيماً لا يطاق.

فلو حصل خلل في الذاكرة لنسيت كل معلوماتك، أحد الأشخاص يحتل منصباً رفيعاً جداً ومعه دكتوراه بفرع علمي نادر جداً، وصل لمنصب قريب من معاون وزير، فقد بصره، طبعاً أول شهر جاملوه فبعثوا له بالبريد إلى البيت، فصدّق عليه، وبعدها سرّحوه، فزاره صديق لي فقال له: والله أتمنّى أن أكون متسوّلاً على قارعة الطريق وليس على كتفي إلا هذا المِعطف، وأن يُردّ إليّ بصري، قال كلمة مؤثِّرة جداً.

فالبصر ثمين، والسمع ثمين، وكذلك النطق، والدماغ أحياناً يكون فيه ورم فجائي، والإنسان في مقتبل الحياة ماذا يفعل ؟ فكيف يعصي الإنسان ربه وهو في قبضته ؟ أقل خلل في الجسم يجعل حياة الإنسان جحيماً لا يطاق، فإذا اختل عقل الإنسان هل يبقى في البيت ؟ إنه يحتاج إلى واسطة للقصير، يقدِّمون استدعاءات، ويوسطون لكي يقبلوه هناك، فالله عزّ وجل بيده كل شيء، فلذلك لا ينبغي لك أن تعبد غيره، ولا ينبغي أن تتبع شرع غير الله عزّ وجل.

التشريع البشري تشريع ناقص والخلل لا يظهر إلا عند التطبيق:

كل شرع يضعه إنسان (دقِقوا) إما أنه ينطلق من جهلٍ كلي، وهذا أسوأ شيء، أو من جهلٍ جُزئي، ومعنى جهل جزئي أي أن هذا القانون يحتاج إلى تعديل، أحضروا لي قانونًا وضعه إنسان على مرّ الزمان، إلا وصار تعديلاته أضخم من متنه بعشرات الأضعاف، وأحياناً يكبر بدرجة معقّدة بحيث يعجز عقل المحامي عن استيعاب القوانين، فتغدو متاهات، لأن التشريع فيه قصور في التعبير، والتقدير أحياناً، وفي ملاحظة الجوانب كلها، وفي النظرة الشموليّة، وفي معرفة طبيعة النفس، فيأتي التشريع ناقصاً، والخلل لا يظهر في البداية بل يظهر عند التطبيق، فصار فيه خلل كبير، نعدِّل فيه تعديلاً أولاً

وتعديلاً ثانياً، وبعد ذلك يصير فيه تعديلات غير معقولة، فيعود الأصل هو التعديل، والشواذ هو الأصل والأصل صار شواذاً، فيُلغى كلُه، وهذا هو التشريع البشري.

الحياة الدنيا تجسيدٌ لما تنطوي عليه النفس والثواب في الآخرة:

لذلك أيها الأخوة عندما تطبّق شرع الله عزّ وجل لا يمكن أن تقع في ضياع إطلاقاً، ولا خطأ، ولا شقاء، ولا إحباط، ولا مشكلة.

فأحياناً القانون البشري يضع عقوبات تدمِّر المجتمع أكثر من مخالفة هذه القوانين، كما قال الشاعر: " **داويت متئداً وداووا طفرةً** ". وأحياناً يكون الداء أقل من الدواء، فالتشريع يكون غير معقول، والعقاب لا يتناسب مع الجرم، إنه جرم صغير محدود وعقاب مدمّر يشمل الحياة بأكملها، فهذا من خصائص التشريع الإنساني، وأنا أقول: حتى في البلاد المتقدِّمة، هناك تشريعات مضحكة ولا تصدّق..

(أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنْ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ (21))

(سورة الشورى)

لكن الله سبحانه وتعالى كان من الممكن أن يفصل بين الناس..

(وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ (21))

(سورة الشورى)

أي أن الله عزّ وجل خلق الإنسان وأعطاه عُمُراَ، فلابدّ من أن يستكمل عمره، وأن يأخذ أبعاده، وأن يُكْشَفَ على حقيقته، وأن تُجَسَّدَ نياته، فهذه الحياة الدنيا تجسيدٌ لما تنطوي عليه النفس، ولذلك شاءت حكمته وجئنا على هذا الأساس، فالحياة دار عمل، أما الجزاء والفصل، والحكم، والتقييم، والعطاء، والعقاب، والثواب ففي الآخرة.

ربنا سبحانه يعاقب بعض المنحرفين في الدنيا لكن العقاب الحقيقي هو يوم القيامة:

لكن قد يقول قائل: ربنا سبحانه وتعالى حينما يعاقب بعض المنحرفين فهذا عقابٌ ردعيٌ لبقيّة المنحرفين، وحينما يكافئ بعض المحسنين فهذه مكافأةٌ تشجيعيّةٌ لبقيّة المحسنين، لكن العقاب الحقيقي الحتمي هو يوم القيامة..

(وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

(سورة آل عمران: من آية " 185 ")

فالعقاب جزئي في الدنيا، فما كل إنسان منحرف يعاقب وما كل إنسان معتدٍ يُعاقب، العقاب الحقيقي هو الذي وعد الله به يوم القيامة، فهناك حتى إن الإنسان حينما يأتي في اليوم الآخر، واللهُ عزّ وجل ذكر في

كتابه الكريم أنّ كل إنسان من دون استثناء يَرد النار، وورود النار غير دخولها، الدخول أن تتلظّى بلظاها، ولكن الورود أن تشرف عليها، من أجل ماذا ؟ من أجل أن تتحقّق من عدالة الله عزّ وجل، ومن أجل أن ترى نعمة الله عليك بالإيمان، ولولا الإيمان لكنت في هذا المكان، فحتى المؤمنون إذا وردوا النار فليعرفوا اسم الله العادل، وأسماء الله سبحانه وتعالى كلّها ظاهرةٌ في الحياة الدنيا، أما اسم العادل هذا فلا يبدو جليّاً تماماً إلا يوم القيامة، هذا اليوم..

(لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى(15))

(سورة طه)

ولذلك فالمؤمن يرد النار دون أن يتأثّر بها إطلاقاً، ولكن يطلُّ عليها إطلالة فيرى عدالة الله عزّ وجل، و يرى من فيها وقد استحقوا عقاب الله عزّ وجل.

الحياة الدنيا دار عمل والآخرة دار جزاء:

إذاً:

(وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ(21))

(سورة الشورى)

فأنت الآن في بحبوحة، لك أن تفعل ما تشاء، ولك أن تحسن و تسيء، وأن تعطي وتمنع، وأن تعلو وتتواضع، وتتقن وألاّتتقن، وأن تُخلص وأن تخون، وأن تتقي وأن لا تتقي، فأنت مخيَّر، لكن العقاب الأليم يوم القيامة، ولذلك:

(اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ)

(سورة فصلت: من آية " 40 ")

إذاً: الحياة الدنيا دار عمل والآخرة دار جزاء، والدنيا دار تكليف والآخرة دار تشريف. **" عش ما شئت فإنك ميّت، وأحبب من شئت فإنّك مفارق، واعمل ما شئت فإنّك مجزيٌ به ".** وعقاب المنحرفين في الدنيا عقابٌ ردعي لبقيّة المنحرفين، فإذا وجدت إنسانًا منحرفًا ما عوقب فهذا شيء طبيعي جداً، لحكمةٍ أرادها الله عزّ وجل، ومكافأة المحسنين في الدنيا مكافأةٌ تشجيعيّةٌ لبقيّة المُحسنين، لكن يوم القيامة هو يوم الجزاء، ويوم الفصل، والحُكْم، والعِقاب، والتكريم، والنَدَم، والفوز.

الفكر الجبري فكر منحرف يتناقض مع عدالة الله عزّ وجل:

إذاً:

(وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ (21))

(سورة الشورى)

في الدنيا..

(وَإِنّ الظّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ(21)تَرَى الظّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمّا كَسَبُوا (22))

(سورة الشورى)

انظر إلى كلمة:

(كسبوا)

فما من إنسان يعمل عملاً إلا من كسبه، والفكر الجبري فكر منحرف، إنه يتناقض مع عدالة الله عزّ وجل، يقولون: الله خلق الإنسان وأجبره على المعاصي كلها، ثم يضعه في جهنّم إلى الأبد، فهذا فكر مرفوض، وهذه عقيدةٌ فاسدة..

(سَيَقُولُ الّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلا آبَاؤُنَا)

(سورة الأنعام: من آية " 148 ")

قول من هذا ؟ إنه قول المشركين..

أفعال الإنسان في الدنيا من كسبهم و اختيارهم:

(لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ)

(سورة البقرة: من آية "286")

ما من عملٍ تعمله إلا من كسبك، أي أنت أردته، لكن الله مدّك بقوّةٍ لتحقيقه، فالفعل فعل الله والكسب كسبك، وأنت اخترته، وأنت جئت إلى هذه الدنيا على هذا الشرط: إنه إذا تعلّقت إرادتك بشيءٍ، فالله سبحانه وتعالى تتعلّق إرادته لتحقيق هذا الشيء لأنه خيّرك، وكلّفك، وحمّلك الأمانة، إذاً شيء طبيعي جداً أن أفعال الإنسان في الدنيا هي من كسبهم. **" ولو أن الله أجبر عباده على الطاعة لبطل الثواب، ولو أجبرهم على المعصية لبطل العقاب، ولو تركهم هملاً لكان ذلك عجزاً في القدرة، إن الله أمر عباده تخييراً، ونهاهم تحذيراً، وكلّف يسيراً ولم يكلِف عسيراً، وأعطى على القليل كثيراً، ولم يعصَ مغلوباً ولم يُطع مكرهاً ".**

في القرآن الكريم آيات كثيرة تؤكِّد أن الإنسان مخيّر:

إذاً:

(تَرَى الظّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمّا كَسَبُوا (22))

(سورة الشورى)

فهناك ليس لك أن تقول: يا رب أنت أجبرتني، فهذا كلام مرفوض، وهناك آيات كثيرة تؤكِّد أن الإنسان مخيَّر..

(وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ)

(سورة البقرة: من آية " 148 ")

(فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ)

(سورة الكهف: من آية " 29 ")

(إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا(3))

(سورة الإنسان)

(وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى)

(سورة فصلت: من آية " 17 ")

أبداً..

(لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ)

(سورة البقرة: من آية "286")

(تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا (22))

(سورة الشورى)

هذا العمل عملهم، باختيارهم، لكن:

(مشفقين)

أي خائفين.

على الإنسان ألا يفرح إذا أخذ شيئاً ليس له لأن هذا العمل سيسحقه يوم القيامة:

الآن دقِق في هذه الآية، المشرك أو الظالم يوم كان في الدنيا، وحقّق هذا الكسب الكبير ظنّ نفسه ذكياً، وشاطراً، ومتفوِّقاً، وفالحاً، وقد ملك كل شيء، لكن حينما يأتي يوم القيامة فهذا العمل الذي تاه به في الدنيا، وافتخر وشعر أنه أعلى من غيره فيه، وهذا العمل نفسه يكاد يسحقه.

مثلاً مع الفارق الكبير الكبير، لو قيل لإنسان: احمل كيلو مخدِّرات وخذ عليه مئتي ألف ليرة خلال نصف ساعة فقبضوا عليه فصار عمله هذا عبئًا ثقيلاً عليه وأصبح يستحق الإعدام، كان يسرح في مئتي ألف فصار يرزح في الإعدام (هذا مثل يقرِّب المعنى) حينما قبلت نقله ظنَّنت نفسك ذكياً جداً، إنك ماهر، وخلال ربع ساعة تحقّق أرباح سنة، ولماذا كان العمل التجاري الشريف ثمينًا ؟ الجماعة مجانين، وهذا العمل أهون، وأسرع وخلال أشهر تصبح مليونيراً، فأمسكوا به والحكم إعدام، فإذا وقف

وراء القضبان، نظره في الأرض، مشفقٌ من هذا الحكم عليه بالإعدام، فالشيء الذي ظنَّه مكسباً وربحاً وذكاءً أرداه.

والآن معظم الناس يغتصب دكانًا، ويأخذ بيتًا، ويظن نفسه ذكياً، يموت أبوه ويخلِّف خمسة أولاد، فيأخذ وكالة من أخوته البنات كلهن فصار كل المال بيده، فمعه وكالة منهن، وبعد حين سجله كله باسمه، فيمشي هونًا ويقول لك: لم أعط أحداً، وهذا مثل المهرّب تماماً عندما عرضوا عليه تهريب الكيلو فرأى نفسه أذكى واحد، وعندما قبض عليه صار صغيراً..

(تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ (22))

(سورة الشورى)

فالإنسان عليه ألاّ يفرح إذا أخذ شيئًا ليس له، لقد استغل ضعف إخوته الصغار، فأخذ كل الأموال..

في الجنة الإنسان في أعلى درجات التكريم و السعادة:

(وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا (22))

(سورة الشورى)

انظر إلى هذا النقلة المفاجئة..

(وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ (22))

(سورة الشورى)

تصوّر شخصاً يتعذّب، يُعذّب بأقصى أنواع العذاب لأنه مجرم مرتكب جريمة قتل، أو جريمة اغتصاب، فهو يُعذّب ويصيح، وهناك إنسان آخر جالس يكرّم في حفلة، وتقدَّم له المرطِّبات، والحلويات، والفواكه، والاحترام، والمكان الجميل، فهل هذا يوازى مع هذا ؟ النقلة المفاجئة..

(تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ (22))

(سورة الشورى)

هذه الكلمة الموجزة تبيّن حقيقة الجنّة، فالدنيا تحتاج إلى عمل، و كَسب، وكَدح، وجُهد، لكنَّك في الجنَّة أي شيءٍ تطلبه تراه أمامك، وأنت في أعلى درجات التكريم، وفي أعلى درجات السرور والسعادة..

(تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ(22))

(سورة الشورى)

الجنة هي الهدف الكبير لكل إنسان عاقل:

إخواننا الكرام لمثل هذا فليعمل العاملون، شبابك أفنه في هذا الهدف الكبير..

(وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسْ الْمُتَنَافِسُونَ(26))

(سورة المطففين)

(فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا)

(سورة يونس: من آية " 58 ")

دعك من الدنيا، فالدنيا زائلة، والدنيا ماضية ومنقطعة، ودار من لا دار له، ولها يسعى من لا عقل له، ولا تزيد عن لقمةٍ تأكلها، وبيتٍ تأوي إليه، وثيابٍ تستُر عورتك، وما سوى ذلك فمحاسبٌ عليه كيف اكتسبته ؟ وكيف أنفقته ؟

سأل ملك وزيره فقال له: من المَلِك ؟ فالوزير خاف فقال له: أنت الملك. فقال له: لا الملك رجلٌ لا نعرفه ولا يعرفنا، له بيتٌ يؤويه وزوجة ترضيه ودخلٌ يكفيه، إنه إن عرفنا جهد في استرضائنا، وإن عرفناه جهدنا في إذلاله.

((مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ آمِنًا فِي سِرْبِهِ مُعَافًى فِي جَسَدِهِ عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا))

(من سنن الترمذي: عن " سَلَمَةَ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ مِحْصَنٍ الْخَطْمِيِّ عَنْ أَبِيهِ ")

على كل إنسان أن يتقرب إلى الله بخدمة عباده ليصل إلى أعلى درجات الجنة:

الدنيا محدودة ولها سقف، فلو كان معك ألف مليون فهل يمكن أن تأكل ألف أوقية من اللحم ؟ أوقية واحدة، أوقية ونصفًا أقصى شيء وتظل متضايقاً، يجب أن تأكل ما تتسع له معدتك، وهل تستطيع لبس بذلتين فوق بعضها إذا كنت غنياً ؟ وهل بذلتك بأربعة أكمام أم بكمين ؟ بل بكمين، وأكثر لا يوجد، سرير واحد، وعشاء واحد، وغذاء واحد، والحياة كلها أوهام..

((مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ آمِنًا فِي سِرْبِهِ مُعَافًى فِي جَسَدِهِ عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا))

(من سنن الترمذي: عن " سَلَمَةَ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ مِحْصَنٍ الْخَطْمِيِّ عَنْ أَبِيهِ ")

أما الآخرة فليس لها سقف، وانطلق إلى الآخرة، انطلق إلى الله عزّ وجل، ادعُ إلى الله، واعمل الصالحات، واقرأ القرآن، وافهمه، وعلِّمه، وتقرَّب من الله عزّ وجل بخدمة عباده، فالآخرة ليس لها سقف، ولك أن تصل إلى أعلى الدرجات وهذا بإمكانك، فأما الدنيا فمحدودة..

(تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ(22))

(سورة الشورى)

هذا الفضل الكبير، العلي الكبير يقول لك: أن تصل إلى الجنّة..

(ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ(22))

(سورة الشورى)

الوصول إلى الجنّة حاجة كل إنسان مؤمن بالله:

لذلك فأحد العلماء الكبار كان في الحرم المكي، فدخل أحد الخلفاء (خليفة المسلمين وربما كان هارون الرشيد) فقال له: **"سلني حاجتك"**. أي اطلب أي شيء. فقال له: **" والله إني أستحي أن أسأل غير الله في بيت الله "**. تَقَصّدَ أن يلتقي به خارج الحرم، وقال له: **" سلني حاجتك "**. قال له: **"والله ما سألتها من يملكها أفأسألها من لا يملكها ؟ "!** قال له: **"سلني حاجتك "**. قال له: **" أريد دخول الجنّة "**. قال له: **" هذه ليست لي "**. فقال له: **" إذاً ليس لي عندك حاجة"**. هذه حاجتي، الوصول إلى الجنّة.

وأبو جعفر المنصور جهد أن يلتقي بأبي حنيفة النعمان، لكنه رفض، ثم توسّط لدى بعض الأغنياء أن ادعوا هذا الإمام العظيم، ولا تخبروه أنني سآتي، فاجتمعا معاً وقال له: **"يا أبا حنيفة لو تغشيتنا (أي لو تزورنا) "**، قال أبو حنيفة: **" إنك إن قرّبتني فتنتني، وإن أبعدتني أزريت بي، ولمَ أتغشّاكم وليس لي عندكم شيءٌ أخافكم عليه، وهل يتغشّاكم إلا من خافكم على شيء "**.

أي أن الإنسان حياته بسيطة جداً، فصحّتك طيّبة، وعندك مأوى واطئ عالٍ، ملك أو أجرة، وصغير أو كبير لا بأس فهذا شيء مؤقّت.

من اشتدت رغبته في الدنيا شقي فيها و من قلت رغبته في الدنيا سعد في الدنيا و الآخرة:

لماذا لا تتضايق في المصيف إذا كانت الحاجات غير جيّدة ؟ لأنك ستظل فيه شهر زمان، ولكن في بيتك الأساسي إذا وجد شيء فيه خلل فأنت تتضايق منه، ومعنى هذا أن الإنسان إذا شعر أن القضيّة مؤقّتة وتنتهي كل مشاكله، حينما يشعر أن هذه الحياة الدنيا مؤقتة سريعاً ما تمضي يرضيك فيها كل شيء، أما إذا رأيتها حياةً مديدةً وهي كل شيء، عندئذٍ لا يرضيك فيها شيء، وتغدو أشقى الناس.

اسمعوا كلام النبي اللهمّ صلّ عليه:

((إن أسعد الناس في الدنيا أرغبهم عنها، وأشقاهم في الدنيا أرغبهم فيها))

وكلّما اشتدّت رغبتك في الدنيا شقيت بها، وكلّما قلّت رغبتك من الدنيا سعدت فيها..

(وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ(22)ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ(23))

(سورة الشورى)

لهذه الآية معنًى دقيق جداً وأرجو الله سبحانه وتعالى أن يمكّنني أن أفسّره في الدرس القادم.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الشورى 042 - الدرس (09-15): تفسير الأية 23

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 01-04-1994

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس التاسع من سورة الشورى.

الخوف و القلق يوم القيامة هو حال الأقوام الذين اقترفوا الآثام في الدنيا:

مع الآية الثالثة والعشرين وهي قوله تعالى:

(ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ(23))

(سورة الشورى)

وقد جاءت الآية التي قبلها:

(تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ (22))

(سورة الشورى)

حينما كان في الدنيا، وكان يظن نفسه ماهراً، أو ذكياً أو عاقلاً، و أخذ ما ليس له وانغمس في الدنيا إلى قمة رأسه، فهذا الذي ظنّهُ مجال فخرٍ إذا هو الآن يهلك به.

(تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ (22))

(سورة الشورى)

النقلة المفاجئة، حال هؤلاء الذين اقترفوا الآثام في الدنيا وهم وجلون خائفون أذلاء يوم القيامة، مشفقون مما هو واقعٌ بهم، النقلة المفاجئة:

(وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ (22))

(سورة الشورى)

المفارقة الحادة بين حال الدنيا و الآخرة:

كما قلت في الدرس السابق إن الجنة مبنية على الطلب، اطلب تُعط، بل إن أي شيءٍ يخطر في بالك تجده أمامك، هذا نظام الجنة، ولكن الحياة الدنيا تحتاج إلى جهدٍ وبذلٍ، وسعيٍ وكدحٍ، ومعاناةٍ ومكابدةٍ، وهكذا طبيعة الحياة الدنيا، وتلك طبيعة الآخرة، فالحياة الدنيا محدودة، إنها أيام معدودة، ولكن الحياة الأبدية خالدة وغير محدودة.

وبعد أن يبين الله سبحانه وتعالى هذه المفارقة الحادة، بين إنسان (كما ذكرت في الدرس الماضي) أراد أن يُهرب مادة ممنوعة أو مادة مخدرة والصفقة يأخذ عليها عشرات الملايين، وهو في أعلى درجات النشوة من هذا المبلغ الضخم الذي حَصّله، فجأةً ألقي القبض عليه والحكم بالإعدام مثلاً، فقبل دقائق كان يعدّ نفسه من الأذكياء الذي جمعوا مالاً طائلاً بجهدٍ يسير، وفجأةً أصبح هذا الشيء الذي ضُبط معه سبب هلاكه وقتله، وضع هذا الإنسان وهو ينتظر النُطق بالإعدام وراء القُضبان، فهل هذا الإنسان يشبه إنسانًا آخر يكرم ؟ يقدم له أطايب الطعام، ويحاط بكل أنواع الحفاوة والتكريم ؟ إن المفارقة حادة جداً بين إنسان على وشك الهلاك مما كسب وإنسان يتلقّى كل تكريم.

(تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ(22))

(سورة الشورى)

مقاييس أهل الدنيا مقاييس مادية:

أيها الأخوة الأكارم، لا يوجد إنسان إلا وعنده مقاييس يقيس الأشياء بها، فالإنسان أحيانًا يقول: فلان حَصّل أموالاً طائلة بزمن يسير فيعده ذكياً، فالمقياس هنا مادي، وفلان وصل إلى منصبٍ رفيع في سنٍ مبكرة، فيعد هذا الوصول إلى هذا المنصب الرفيع أيضاً قدرةً فائقة على استيعاب القِوى التي تحيط به، يعده ذكياً.

فأهل الدنيا لهم مقاييس ؛ فالمال مقياس، والقوة مقياس، والدرجات العلمية العالية جداً، والقدرة على التكيف الاجتماعي، والوسامة فهذه مقاييس الدنيا، ولكن لن تكون مؤمناً أيها الأخ الكريم إلا إذا كانت مقاييسك التي تقيّم الأشياء والأشخاص بها نابعةً من كتاب الله، فحينما تقِيم الأشخاص والأشياء بمقاييس مادية فأنت بعيدٌ عن مقاييس القرآن، أما حينما تقيّم الأشياء والأشخاص بمقاييس قرآنية فأنت مؤمنٌ ورب الكعبة.

فمثلاً إذا عظّمت الغني بماله ولم تعبأ بالمعاصي التي يقترفها، وأزريت بالفقير لقلّة ماله ولم تعبأ بطاعته لله عزّ وجل، فأنت أبعد الناس عن الإيمان، اختلف المقياس، إذا عظّمت الأقوياء لقوتهم رغم معاصيهم، وازوررت عن الضعفاء لضعفهم رغم طاعتهم لله، فأنت بعيدٌ عن أهل الإيمان، فالإنسان لن يكون مؤمناً إلا إذا كانت مقاييسه التي يقيس بها الأشياء والأشخاص مقاييس قرآنية، فيجب عليك أن تحب المؤمن وأن تُكْبِرَهُ، وأن تتودد إليه ولو كان ضعيفاً فقيراً، ويجب أن تزورّ عن القوي الغني المتلبس بالمعاصي ولو كانت مصلحتك المادية متعلقة به.

المؤمن الحق من كانت مقاييسه مطابقة لمقاييس القرآن الكريم:

لن تكون مؤمناً إلا إذا وضعت مقاييس أهل الدنيا تحت قدمك، ولن تكون مؤمناً إلا إذا أقبلت على المؤمن ولا تجمعك به قرابة ولا مصلحة ولا علاقة مادية، فلا تحبه إلا لله، ولا تبغض أهل الدنيا إلا لله، فمن أحب لله، وأبغض لله، وأعطى لله، ومنع لله، فقد استكمل الإيمان.

فأيها الأخ الكريم، ليس من السهل أن تكون مؤمناً وأن تقترب من أهل الدنيا، وأن تدخل في حياتهم الخاصّة، وأن تسعد بالقرب منهم، أين إيمانك ؟ وأين طهارتك وقد خُدِشَت ؟ فليس من الإيمان أن تتضعضع لأهل الدنيا، ومن جلس إلى غني فتضعضع له ذهب ثلثا دينه، فيجب أن تأتي مقاييسك التي تقيس بها الأشخاص والأشياء، مطابقة لمقاييس القرآن الكريم.

المجاملة خلق ذميم على كل مؤمن أن يبتعد عنه:

لذلك كنت أقول دائماً: الخُلُقُ الذميم الذي يقع فيه معظم الناس المجاملة، كأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قد تعطّل، وصار الناس يجامل بعضهم بعضاً، هذا خَلَطَ الأوراق وضيّع المقاييس وأصبح الناس في جهالةٍ عمياء، لأن الله سبحانه وتعالى يغضب إذا مُدح إنسان فاسق متلبّس بالمعاصي، بعيد عن أوامر الدين، إذا مدحته فقد أوقعت الناس في حرج، أو أوقعت الناس في تيهٍ، أين المقاييس الصحيحة ؟

(ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ(22))

(سورة الشورى)

وهذا الذي نقلني إلى هذا التفصيل، وهل ترى أن الفضل الكبير أن تكون مؤمناً ؟ وهل ترى أن الفضل الكبير أن تكون طائعاً ؟ وأن تكون على المنهج الإلهي ؟ وأن يراك الله حيث أمرك وأن يفتقدك حيث نهاك ؟ و أن تثق بما في يد الله أكثر مما تثق بما في يديك، وفي معرفة الله، و طاعته، ألا تقرأ معي قوله تعالى:

(وَلَمّا بَلَغَ أَشُدّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ(22))

(سورة يوسف)

هؤلاء الذين يحبهم الله عزّ وجل آتاهم الحُكم والعلم، بينما الذين لا يحبهم أعطاهم المال.

(إِنّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنْ الْكُنُوزِ مَا إِنّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوّةِ)

(سورة القصص: من آية " 76 ")

الإسلام مجموعة قيم و التزامات ثابتة علينا المحافظة عليها:

المؤمن إن لم يَقِس الأشياء والأشخاص بمقياس القرآن فأين إيمانه ؟ فالإسلام منهج، والإسلام مجموعة قيَم، والتزام، وقد أردت أن أعبّر عن هذا الشيء الصلب فله شكلٌ ثابت وحجمٌ ثابت، أما الشيء السائل فحجمه ثابت لكن شكله متغيّر مع شكل الإناء، لتر ماء يوضع في قارورة طويلة، أو في حوجلة كروية، أو وعاء بيضوي، أو مستطيل، فالماء حجمه ثابت لكن شكله متغيّر.

أما الشيء الصلب فتقول: هذه قطعة مكعبة، وهذه قطعة هرمية، وهذه كرة، فالشيء الصلب يحافظ على حجمه وعلى شكله، والشيء المائع يحافظ على حجمه لا على شكله، لكن العنصر الغازي ليس له شكلٌ ثابت ولا حجمٌ ثابت.

فكيف إذا أصبح الدين غازيّ الطبيعة، غازاً له آلاف الأشكال، و آلاف الحجوم، فالدين شيء ثابت عُلِم بالضرورة، والعقائد والعبادات، والتعاملات والأخلاقيّات كلها ثابتة، فهذا هو الدين، فبقيت صور الدين أما المضمون فمائع أو غازي، بمعنى هذه الإذابة لمعالم الدين في معالم الدُنيا جعلت الأمور تختلف.

ما خيرٌ بعده النار بخير وما شرٌ بعده الجنة بشر:

إذاً من قوله تعالى:

(ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ(22))

(سورة الشورى)

لن تكون مؤمناً عند الله عزّ وجل إلا إذا رأيت الفضل الكبير هو أن تستحق الجنة وما فيها من نعيمٍ مقيم، فلذلك الدعاء الشريف:

((اللهم نسألك الجنة وما قرب إليها من قولٍ وعمل، ونعوذ بك من النار وما قرب إليها من قولٍ وعمل))

[إسناد صحيح قال فيه ابن حجر: تابعه الجُريري، عن جبر، وخالفه أبو نعامة عنه]

والإمام علي كرم الله وجهه يقول في حكمةٍ بالغة: **" ما خيرٌ بعده النار بخير "**. أي لو بلغت إلى أعلى القمم، وبعد هذا النار فليس هذا خيراً **" ما خيرٌ بعده النار بخير، وما شرٌ بعده الجنة بشر "**، وكل أنواع المصائب و المضايقات، إذا انتهت بك إلى الجنة فانعم بها، وكل أنواع النعيم المقيم إذا انتهت بالإنسان إلى النار فبئس هذه الألوان التي يسعى الناس إليها ولا يدرون إلى أين هم سائرون.

والإنسان إذا كان راكباً مركبة ومنطلقًا بأعلى سرعة في منحدر شديد، وفي نهاية هذا الطريق منعطفٌ حاد، وهو في نشوة السرعة، ونشوة الهواء العليل، ثم اكتشف فجأةً أن المكابح معطّلة، فماذا يرى بهذه السرعة أو هذا الانطلاق ؟ يراه هلاكاً له، وهكذا معنى قوله تعالى:

(كَلا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ(5)لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ(6))

(سورة التكاثر)

العاقل من رأى أن طاعة الله و معرفته و التقرب إليه هي الفضل الكبير عليه:

الإنسان الذي يأكل أموال الناس بالباطل ويعدّ نفسه ذكياً، لو علم المصير، وعلم العقاب الأليم، والحساب العسير لرأى نفسه شقياً..

(كَلا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ(5)لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ(6))

(سورة التكاثر)

وهذا الذي يعتدي على أعراض الناس ولو بالنظر، ولو بالكلام، ويعدُّ هذا مهارة في البيع والشراء، أن تدير حديثاً لطيفاً مع امرأةٍ حسناء تظن أنك لطيف، رقيق الحاشية، طليق اللسان، وبإمكانك أن تأسر قلوب هؤلاء، حينما ترى أن هذا العمل فيه عدوان على أعراض الآخرين ولن تغض بصرك عنها..

(كَلا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ(5)لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ(6))

(سورة التكاثر)

إذاً الفضل الكبير أن ترى طاعة الله، وأن ترى معرفته وطاعته والتقرُّب إليه هو الفضل الكبير، لا أن ترى أن المال الوفير هو الفضل الكبير، ولا المنصب الرفيع، ولا الدرجات العلميّة العالية التي تُدِرُّ عليك مئات الألوف، فالفضل الكبير أن تكون مطيعاً لله عزّ وجل، ولذلك فالإمام الجنيد سُئِل: مَنْ وليُّ الله، أهو الذي يطير في الهواء، أم هو الذي يمشي على وجه الماء ؟ قال: **" لا هذا ولا ذاك، أن يجدك حيث أمرك، وأن يفتقدك حيث نهاك، فأنت ولي الله ".**

أيّ إنسان عرف الله وعرف أمره وطبقه فهو وليّ لله:

إخواننا الكرام... الناس يظنون أن الولي إنسان نادر الوجود، الأمر أبسط من هذا بكثير، قال تعالى:

(أَلا إِنّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ(62)الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ(63))

(سورة يونس)

أي واحد منكم إذا آمن بالله حق الإيمان واتقى أن يعصيه حق التقوى فهو ولي الله وربّ الكعبة، امرأةٌ ترعى زوجها وأولادها، ولا تؤذي الناس بمفاتنها، إنها محجبة، ومُصلية، وصائمة، ومطيعة لزوجها

هذه والله وليةٌ لله، ومعلِم يُعَلم الطلاّب علماً صحيحاً ويرعاهم ويربيهم تربية سليمة، دون أن يفعل شيئاً يغضب الله عزّ وجل فهذا والله وليّ لله، وأي إنسان، وأي حرفة، طبيب، أو مهندس، أو محامٍ، أو معلم، أو تاجر، أو بائع، أو موظف، فأيّ إنسان عرف الله وعرف أمره وطبقه وليٌ لله، هذا تعريف القرآن:

(أَلا إِنّ أَوْلِيَاءَ اللّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ(62)الّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتّقُونَ(63))

(سورة يونس)

لن يكون الإنسان مؤمناً إلا إذا كان المقياس الذي يقيس به مقياساً ربّانياً:

أردت من هذا الاستطراد من قوله تعالى:

(ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الكَبِيرُ(22))

(سورة الشورى)

فهل رؤيتك تتطابق مع مقياس القرآن ؟ فلو أن إنسانًا كان ماله قليلاً، وكان مستقيماً على أمر الله، وله صديق متفلِت من أي منهج إلهي لكن ماله وفير، فإذا شعر الأول وهو المؤمن المستقيم أنه محروم، وأن الله قد أعطى فلاناً وهو لا يعرف الله أبداً، فهنا المشكلة، إذا قلت: الله لم يعطني وأعطى فلانًا، وأنت مستقيم وفلان ليس مستقيماً، فمعنى ذلك مقياسك غير قرآني، بل إن مقياسك مادي، ولن تكون مؤمناً إلا إذا كان المقياس الذي تقيس به الأشياء والأشخاص مقياساً ربّانياً.

فلو فتح إنسان محلاً، وكانت البضاعة محرّمة، والتعامل مع الناس محرّم ولكن دَرّ عليه مبالغ طائلة، فهل تراه ذكياً ماهراً ؟ وتقول: هو موفق، وهو على المعاصي والله موفقه ؟ إذا قلت ذلك فأنت لا تعلم من الله شيئاً، دائماً لاحظ نفسك، هل المقياس الذي تقيس به الأشياء والأشخاص مقياس قرآني أم مادي ؟ وأخروي أم دنيوي ؟ وشيطاني أم رحماني ؟ وعاجل أم آجل ؟ فأنت حينما تصلي وتصوم وتحج، لكن مقياسك دنيوي، فدائماً تشعر بالحرمان وترى الناس أذكى منك، وقد تفوقوا، وجمعوا أموالاً طائلة، وتزوجوا، واشتروا بيوتًا، وعندهم مركبات وأنت وراء الناس، فما هذا الإيمان القليل ؟ إذا رأيت أهل الدنيا الذين انغمسوا في شهواتها وأكلوا مالها الحرام، إن رأيتهم أعلى منك قدراً وأنت المؤمن المستقيم، فما هذا الإيمان إذاً ؟ فحينما يقول الله عزّ وجل:

(ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الكَبِيرُ(22))

(سورة الشورى)

يجب أن ترى أن ذلك هو الفضل الكبير، وهذا هو معنى قول المؤمن إذا قرأ القرآن يقول: صدق الله العظيم.

الإيمان ليس ركعات أو دريهمات الإيمان مقياس يتغلغل في كل خلية من خلايا الإنسان:

إن رأيت أن أصحاب الأموال هم أصحاب الفضل الكبير، وكذلك أصحاب المُتَع والمباهج، فأنت لست تقيس الأشياء بمقياس قرآني، إذاً أنت بعيد عن الإيمان، فهذا الذي يظن الإيمان ركعتين يصليهما، ودريهمات يدفعهما إلى الفقير وانتهى الأمر، وكيانه كله كيان دنيوي، ومادي، ووصولي، فهذا ليس إيماناً، الإيمان عالَم آخر، فإذا لم يتغلغل في كل خلية من خلاياك، وفي كل قطرة من دمك، فمقاييسك إيمانية، وأهدافك وبيئتك كذلك، ومن حولك مؤمن، وأنت لا تصاحب إلا مؤمناً، ولا يأكل طعامك إلا تقي.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنْ الآخِرَةِ)

(سورة الممتحنة: من آية " 13 ")

فالإنسان إذا اتصل بالمؤمنين وابتعد عن الكافرين، وأقام علاقات حميمة مع أهل الإيمان، وابتعد عن أهل الكفر والعصيان، فكيف يكون مؤمناً ؟ وكيف اختصر الإسلام إلى خمس صلوات، وصيام وحج، وعبادات شعائرية، أما الموازين والقيم والمبادئ والأهداف النبيلة، فهذه كلها هو في غفلةٍ عنها ؟

من فقد شيئاً من الدنيا و لكن دينه سليم على منهج الله و شكر فهو مؤمن حقيقي:

أيها الأخ الكريم... دقق في هذه الناحية: كلما رأيت القرآن الكريم يقيس شيئاً بمقياسٍ أخروي، إن رأيت أنك بهذا المقياس تطابق القرآن الكريم وتشكر الله عزّ وجل، أما إن كان لك مقياس آخر، غير مقياس القرآن الكريم فالأمر يحتاج إلى عملٍ خطير، والأمر يحتاج إلى تجديد الإيمان، ولذلك لا يمكن أن ترى مؤمناً مستقيماً على أمر الله إلا ويشعر أنه ملك الدنيا بأكملها، ويقول لك: الحمد لله على طاعة الله.

ودقق أيها الأخ حينما كان سيدنا عمر يصاب بمصيبة يقول: **" الحمد لله ثلاثاً، الحمد لله إذ لم تكن في ديني ".** فالإنسان أحياناً يذهب ماله، و يفقد عمله، ويفقد أحد أولاده، وأحياناً يخسر صفقة كبيرة جداً، أو يفوته منصب رفيع، أو بيت جيّد، فالإنسان إذا فقد شيئًا من الدنيا ولكن دينه سليم على المنهج، وعلى صراط الله المستقيم، وعلى دينه القويم، وإذا قال الإنسان: الحمد لله إذ لم تكن في ديني. فمعناها أنه مؤمن، وأما إذا نسي الإنسان قيمة دينه وقيمة اتجاهه الصحيح واستقامته، وندب حظه وسحقته هذه المصيبة فهو بعيدٌ عن أن يكون من أهل الإيمان، وهذا الذي قلته قبل قليل هو:

(ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ(22)ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ(23))

(سورة الشورى)

الأمل الذي مَنّ الله به على المؤمنين وهو دخولهم الجنة ينسيهم كل مشكلات الدنيا:

ضربت مثلاً سابقاً وأعيده للفائدة، قال لي أحدهم: المؤمن سعيد، والله يصيبه ما يصيب الناس دائماً. قلت له: صحيح ذلك، ولكن تصور إنسانًا فقيراً جداً ودخْله قليل جداً، وعنده ثمانية أولاد، وبيته بالأجرة، وعليه دعوة بالإخلاء، فالمصائب تأتيه من كل جهة، وله عم، حجمه المالي خمسمئة مليون مات في حادث وليس له أولاد، وكل هذا المال انتقل إلى هذا الفقير، ولكن إلى أن يصل إلى هذا المبلغ هناك إجراءات وبراءات ذمة ومعاملات، وتحتاج إلى سنة تقريباً، فهذا الفقير المعدَم الذي امتلك خمسمئة مليون فوراً، ولكن إلى أن يقبضها يحتاج إلى سنة، فلماذا هو من أسعد الناس ؟ لم يأكل أكلة زائدة، فأكله هو هو، وبيته، ولبسه هو هو، لكنه دخل في الوعد، والأمل، فهذا الأمل الذي مَنّ الله به على المؤمنين وعدهم بالدخول إلى الجنة، وهذا ينسيهم كل مشكلات الدنيا.

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ(61))

(سورة القصص)

من عرف الله و طبق منهجه فهو في قمة السعادة:

وشيء كبير جداً، أنت مؤمن، والله وعدك بالجنة عرضها السماوات والأرض إلى أبد الآبدين. كان الصحابة يقولون: ليس بيننا وبين الجنة إلا أن نقتل في سبيل الله، بخ بخ تمرات قال: هذه بيني وبين الجنة فألقاها في الأرض، وخاض غمار الوغى، فالإنسان عندما يكون فعلاً يعرف الله عزّ وجل، ويطبق منهجه فإنه يشعر أن له عند الله شيئاً، أن له عند الله عطاءً كبيراً، فهذا الذي يبشر الله به عباده، وهذه البشرى من خالق السماوات والأرض تنسي الإنسان كل متاعب الدنيا، ويتحمل بيتاً صغيراً، وزوجة متعبة، ودخلاً قليلاً، وأولاداً مشاكسين، وبعض الأمراض بجسمه، ويقول لك: الحمد لله.

فالإنسان ما دام على الطريق المستقيم، وعلى المنهج القويم، ويرضي الله رب العالمين فهو قمة السعادة.

الشقي من أعرض عن ذكر الله عز وجل:

لذلك:

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى)

(سورة طه)

والذي أعرض عن ذكر الله لو كان في قمم النجاحات المادية والمعنوية والأدبية، فهذا شقيٌّ شقي ورب الكعبة، وعندما يستقيم الإنسان على أمر الله يشعر أن الله سبحانه وتعالى ينظر إليه بعين الرضا وأن الله معه، وأن الله آخذٌ بيده كلما عثر، وأن الله يدافع عنه، وأن الله يحبه، وهذا الشعور وحده يسعد الإنسان. أحياناً إنسان له منصب رفيع ينظر نظرة لحاجب: كيف حالك يا فلان ؟ يمكث شهراً مسروراً، كلمة لطيفة، وهل يلزمك شيء ؟ يكون الحاجب لا يقرأ ولا يكتب، فالعظيم إذا التفت إلى الصغير أسعده.

الله عز وجل مع المؤمن دائماً بالتأييد و النصر و الحفظ:

ربنا عزّ وجل ينظر إلى قلب عبده المؤمن، والله عزّ وجل ينظر إلى المؤمن بعين الرضا، والمحبة، والتوفيق، وهذا معنى قوله تعالى:

(إِنّ اللّهَ مَعَ الّذِينَ اتّقَوْا)

(سورة النحل: من آية " 128 ")

وهذه معيةٌ خاصة ؛ معهم بالتوفيق، والتأييد، والنصر، والحفظ، أي إذا كان الله معك فمن عليك ؟ وإذا كان الله عليك فمن معك ؟ لا يوجد معك أحد، وإذا كان الله معك والله الذي لا إله إلا هو لو أن أمم الأرض جميعاً اجتمعت على أن ينفعوك بشيءٍ لم ينفعوك إلا بشيءٍ قد كتبه الله لك أي..

إذا كنت في كل حالٍ معي   فعن حمل زادي أنا في غنى

* * *

فهنيئاً لمن ذاق معية الله الحقيقية، فلو كنت معه،

(وَلَنْ يَجْعَلَ اللّهُ)

انظر إلى كلمة لن، لتأبيد النفي..

(وَلَن يَجْعَلَ اللّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً)

(سورة النساء)

(وَقَالَ اللّهُ إِنّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمْ الصّلاَةَ وَآتَيْتُمْ الزّكَاةَ)

(سورة المائدة: من آية " 12 ")

من هان أمر الله عليه هان على الله:

لكنك عندما تقرأ القرآن الكريم وترى أن وعود الله في أغلبها غير محققة لمن يدّعون أنهم مؤمنون، يجب أن تستنبط أن هؤلاء عندهم خلل كبير وخلل خطير، والله قال:

(وَقَالَ اللّهُ إِنّي مَعَكُمْ)

(سورة المائدة: من آية " 12 ")

ولكن ما حال الذين جاؤوا بعد الرعيل الأول ؟ قال:

(فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا (59))

(سورة مريم)

أي حينما يهون على المسلمين أمر الله فلا يطبقونه، يهونون على الله عزّ وجل:

(فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا)

(سورة الكهف)

لا يوجد وزن، لأنه لا يوجد ورع، ولا يقيمون أمر الله، فأمر الله عندهم سيّان فعلوه أم لم يفعلوه.

على كل مؤمن أن يلتزم منهج الله عز وجل في كل شيء:

الدخل يقول لك: حط بالخرج. لو قلت له: أخي هذا حرام فيه شبهة. يقول لك: لا تدقق أسهل لك. هكذا حال المسلمين، النبي يقول:

((يا سعد أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة))

[مجمع الزوائد]

هذه كلمة كبيرة جداً، طعام غير طيّب لأن ثمنه غير حلال، ولأن في الدخل كذب، والكذب يؤدِّي إلى الغش، والتدليس، وتغيير المواصفات، والإيهام، والاحتكاك، وكل مخالفات البيع والشراء موجودة فالربح غير حلال، والطعام غير طيب، وادع حتى تشبع:

((يا سعد أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة))

[مجمع الزوائد]

من أيام أخٌ كريم قال لي: لي قريب عاش ستاً وتسعين سنة، والشيء الغريب أنه يتمتع بأعلى درجات الصحة، فقال لي من حديث لحديث أنْ قال له: يا بني هذه ثمار اللّقيمات الحلال التي أكلناها في شبابنا. يوجد نظام دقيق في الكون، وعدالة مطلقة، كن لي كما أريد أكن لك كما تريد؟

ما من مخلوق يعتصم بالله عز وجل إلا جعل له مخرجاً من كل شيء:

قال الله عزّ وجل:

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا(55))

(سورة النور)

شرط واحد:

(يَعْبُدُونَنِي)

(سورة النور)

فالآن لا يعبدونه، بل يعبدون شهواتهم، ويعبدون الأقوياء، فيعبدون غيره..

((ما من مخلوق يعتصم بي من دون خلقي فتكيده أهل السماوات والأرض إلا جعلت له من بين ذلك مخرجا، وما من مخلوق يعتصم بمخلوق دوني أعرف له ذلك من نيته إلا جعلت الأرض هويا تحت قدميه، وقطعت أسباب السماء بين يديه))

[رواه ابن عساكر عن كعب بن مالك]

من اصطلح مع الله و تعامل معه بصدق جعل ألدّ الناس له في خدمته:

تقول: يا الله. وأنت مخلص، وأنت مقيمٌ على أمر الله، والإسلام مطبّق في بيتك، ومطبق في عملك، وتتقصى الدرهم الحلال ولو بذلت الجهد الكبير، وتنفر من الرزق الحرام ولو كان يسيراً، وأنت بهذا الورع، وبهذا الخوف من الله، والإخلاص، ويجعل للكافر عليك سلطاناً مبيناً !! حاشا لله..

(إنّ اللّهَ يُدَافِعُ عَنْ الّذِينَ آمَنُوا)

(سورة الحج: من آية " 38 ")

(ولَن يَجْعَلَ اللّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً)

(سورة النساء)

عبدي كن لي كما أريد أكن لك كما تريد، كن لي كما أريد ولا تعلمني بما يصلحك، أنت تريد وأنا أريد فإذا سلمت لي فيما أريد كفيتك ما تريد، وإن لم تسلم لي فيما أريد أتعبتك فيما تريد، ثم لا يكون إلا ما أريد.

قضية خطيرة جداً قضية مصير، وسعادة دنيوية وأبدية، واصطلح مع الله، وتعامل معه بصدق، وإخلاص، وضع شهواتك تحت قدمك وضع أمر الله بين عَينيك، وانظر كيف أن أعداءك الألدّاء في خدمتك، بيد الله كل شيء، ما أمرك أن تعبده إلا بعد أن طمأنك قال لك:

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكّلْ عَلَيْهِ)

(سورة هود الآية: 123)

هذا العطاء الأبدي السرمدي.

موضوع الأبد موضوع خطير جداً على كل إنسان أن ينتبه له:

إخواننا الكرام موضوع الأبد لا أحد ينتبه له، فجنة للأبد أي كم مليون سنة تكون ؟ عاش إنسان ستًا وتسعين سنة ما شاء الله، مئة وثلاثًا يقول لك: ما شاء الله على هذا العمر. فهل الآخرة مئة سنة فقط، ألف سنة، مليون سنة، ألف مليون، ألف ألف مليون، مليار مليار، واحد وأصفار للقمر، كيس من الطحين كل ذرة مليون سنة، فما هذه الآخرة ؟ هذا الأبد، الدنيا صغير جداً، فجنةٌ عرضها السماوات والأرض إلى أبد الآبدين ثمنها الطاعة في هذه الدنيا المحدودة، كم سنة كلها ؟

انظر إلى الناس يمضون هذا العمر القصير في المعاصي والآثام، يأتيهم مَلَك الموت فجأة، من أفخر بيت لقبر طوله متر ونصف، هذا المصير، هذا مصير كل حي، فموضوع الموت غائب عن الناس، فهل يستطيع إنسان يدعي أنه لن يموت ؟ فالموت بين أيدينا، وهل في اليوم أقل من خمسين نعوة في الشام، كم مرة يعلن على المآذن عن الموت، ألا نرى الموت بأعيننا كل يوم ؟ ماذا في القبر ؟ وماذا بعد القبر ؟ فهذه أسئلة كبيرة جداً.

الشقي من استهلكته الدنيا و العاقل من عمل لآخرته:

الإنسان يكون من الأشقياء حينما تستهلكه الدنيا، من عمل لعمل، ومن مشروع لمشروع، ومن لقاء إلى لقاء، ومن اجتماع إلى اجتماع، وبعد ذلك جاءه ملك الموت فجأة، أين المصير ؟ أم ماذا كنتم تعملون في الدنيا ؟

(وَكُنّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ(45)وَكُنّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ(46)حَتّى أَتَانَا الْيَقِينُ(47)فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشّافِعِينَ(48)فَمَا لَهُمْ عَنْ التّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ(49)كَأَنّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ(50)فَرّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ(51))

(سورة المدثر)

ورد في بعض الآثار القدسية:

((أن عبدي خلقت لك السماوات والأرض ولم أعي بخلقهن أفيعيبني رغيفٌ أسوقه لك كل حين ؟! لي عليك فريضة ولك علي رزق، فإذا خالفتني في فريضتي لم أخالفك في رزقك، وعزّتي وجلالي إن لم ترضَ بما قسمته لك فلأسلطن عليك الدنيا ـ نجاحات في الحياة الدنيا رجل أعمال ضخم ـ تركض فيها ركض الوحش في البرية، ثم لا ينالك منها إلا ما قسمته لك ولا أبالي، وكنت عندي مذموماً))

[ورد في الأثر]

الفوز العظيم في طاعة الله، وفي السير على منهج الله، وأن تكون واثقاً بما عند الله، وأن تكون واثقاً بوعد الله، ومحباً لله هذا هو الفوز العظيم، وهذا هو الفضل الكبير، قال:

(ذَلِكَ الّذِي يُبَشِّرُ اللّهُ عِبَادَهُ الّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحَاتِ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلّا الْمَوَدّةَ فِي الْقُرْبَى وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنّ اللّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ(23))

(سورة الشورى)

من علامات البعد عن الله عدم تحرك الإنسان إلا بالأجر الجزيل:

إخواننا الكرام، من علامة صدق النبي، وصدق الأنبياء والمرسلين جميعاً أنهم لا يريدون منكم شيئاً..

(قَالَ يَاقَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ(20)اتَّبِعُوا مَنْ لا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا)

(سورة يس)

أبداً أبداً، لا مادياً، ولا معنوياً، فهذه علامة الدعوة الخالصة، فلذلك:

(قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا (23))

(سورة الشورى)

فالإنسان إذا لم يعرف الله عزّ وجل لا يتحرك إلا بأجر، يصير ماديًّا، أي أقل خدمة إذا لم يأخذ عمولة لا يشتغل، لكن إذا عرف الإنسانُ اللهَ عزّ وجل، يحتقر أن يأخذ على عملٍ وَعَدَ الله الأجر الجزيل أجراً في الدنيا، ولذلك فأساس حياة المؤمن العطاء بلا حساب، ولا مقابل، فالمؤمن بني حياته على العطاء، فإذا قبض فليقيم أوده، وليعيش فقط، أما أنه لا يتحرّك ولا يقدم شيئًا إلا بالأجر الجزيل، فهذه علامة الافتقار أو البعد عن الله عزّ وجل.

النبي الكريم بنى حياته على العطاء:

الله عزّ وجل وصف النبي عليه الصلاة والسلام قال:

(قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلّا الْمَوَدّةَ فِي الْقُرْبَى (23))

(سورة الشورى)

إخواننا الذين يتقنون اللغة العربية هذه**"إلا "** أداة استثناء، لكن الاستثناء نوعان ؛ استثناء متصل، واستثناء منقطع، إذا قلت: دخل الطلاب إلا طالباً فهذا استثناء متّصل، أي المستثنى بـ **"إلا"** من جنس المستثنى منه، الطالب طالب، أما إذا قلت: دخل الطلاب إلا المعلم. هذا استثناء منقطع، لأن المعلم ليس طالباً.

(فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ(30)إلا إِبْلِيسَ)

(سورة الحجر)

إبليس ليس مَلَكًا، هذا اسمه استثناء منقطع، فالعلماء قالوا في هذه الآية: هذه إلا أداء استثناء لكن الاستثناء منقطع، أي أن المودة في القربى ليست أجراً له.

النبي الكريم لا يريد شيئاً إلا أن يرى أمته طائعةً لله من بعده:

﴿ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى (23) ﴾

(سورة الشورى)

وقف العلماء وقفةً طويلة عند هذه الآية، ولكن أوجه تفسير وجدته: المودة في القربى أي أن تتوددوا إلى الله فيما يقرّبُكُم إليه، يقول الأب لابنه أحياناً: يا بني لا أريد منك شيئاً، أنا مكتفٍ، لكن أنا طلبي الوحيد منك أن تكون إنسانًا عظيماً مثقفًا، وإنساناً محترماً في المجتمع، هذا الذي يسعدني. فالأب كلما ارتقى مستواه يكون مترَفِّعاً عن عطاء ابنه لكن يتمنى له كل خير. فالنبي عليه الصلاة والسلام لا يريد شيئاً إلا أن يرى أمته طائعةً لله من بعده، منيبةً إليه، عابدةً لله، مقيمةً على أمر الله.

﴿ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى (23) ﴾

(سورة الشورى)

إلا أن تتودّدوا إلى الله فيما يقربكم إليه:

((لا أسألكم على ما أتيتكم به من البينات والهدى أجرا إلا أن توادوا الله ورسوله وأن تقربوا إليه بطاعته))

[مسند الإمام أحمد عن ابن عباس]

هذا حديث ورد عن رسول الله في تفسير هذه الآية. أي أن النبي لا يريد شيئاً ولكن يريد أن نكون مؤمنين، هذا الشيء يريحه، والعظماء فوق المكاسب المادية، فإذا رأوا الناس في بحبوحة، وأخلاق عالية، وتآلف، فهذا الشيء يسعدهم.

وأبسط مثال الأب الغني لو رأى أولاده في مناصب رفيعة علمية، وسمعتهم طيبة جداً، وأشخاصاً محترمين في المجتمع، تجده مسروراً جداً، فهذا الذي يريده.

من علامات الدعاة الصادقين:

1 ـ الدعوة على بصيرة:

إذاً المودة في القربى أن تتودد إلى الله بعملٍ يقربك منه، إن فعلت هذا فهذا جزاء النبي، فالنبي ليس له جزاء، الله سبحانه وتعالى هو الذي يجزيه كل خير.

إذًا النبي عليه الصلاة والسلام لا يريد شيئاً بنص القرآن الكريم، والآية التي تؤكد هذا المعنى:

﴿ قَالَ يَاقَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ(20)اتَّبِعُوا مَنْ لا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ(21)﴾

(سورة يس)

ولو أحدنا أراد أن يتبّع الآيات المتعلقة بصدق الداعين إلى الله عزّ وجل:

(قُلْ هَـذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِي)

(سورة يوسف الآية: 108)

الذي يدعو على بصيرةٍ متبعٌ للنبي عليه الصلاة والسلام.

2 ـ الترفع عن الأجر:

(شَهِدَ اللّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ قَآئِمَاً بِالْقِسْطِ)

(سورة آل عمران: من آية " 18 ")

والذي يبيّن عدالة الله عزّ وجل هو شاهدة الله من أولي العلم.

(قَالَ يَاقَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ(20))

(سورة يس)

الترَفّع عن الأجر هذا من علامات الدعاة الصادقين.

(الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ)

(سورة الأحزاب: من آية " 39 ")

هذا من علامات الدعاة الصادقين.

3 ـ الصبر:

(وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا)

(سورة السجدة: من آية " 24 ")

والصبر من علامات الصادقين.

4 ـ النجاح في الابتلاء:

(وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا)

(سورة البقرة: من آية " 124 ")

الصبر، والنجاح في الابتلاء، والدعوة الواضحة بالدليل، والتعليل، وبيان عدالة الله عزّ وجل، وعدم الخوف إلا من الله عزّ وجل، والترفّع عن أي أجرٍ ماديٍ أو معنوي، هذه خصائص الدعاة إلى الله الصادقين كما وردت في القرآن.

5 ـ المودة من أبرز هذه الخصائص:

من أبرز هذه الخصائص:

(قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى (23))

(سورة الشورى)

المودة سلوك مادي يؤكِّد مشاعر قلبية، أنت تحب شخصاً، فالمحبة شعور داخلي، أساسه المَيْل، تميل أن تذهب إليه، وأن تجلس معه، وأن تكون في قربه، فالحب هو شعور داخلي، هذا الحُب كامن، كيف يعبر عنه ؟ بعمل، فإذا زرته فالزيارة مودة، وإذا قدّمت له هدية فالهدية مودة، ولك أخ مؤمن تحبُّه حباً جماً، تزوج، فعبّرت عن حبّكَ له بهديةٍ في مناسبة زواجه، أو مرض فعُدّتَهُ في بيته، فالمودة سلوك مادي يجسِّد شعوراً قلبياً خالصاً.

المودة سلوك يجسد الحُب:

فهنا الآية:

(إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى)

أي أن المشاعر من دون أن يكون العمل مؤكداً لها كلام فارغ، إلا المودة، أي سلوكاً، والتزاماً، وائتماراً بأمر الله، وعملاً بطاعته، فضابط الجوارح الخمس، وضابط الدخل، وضابط الإنفاق، وضابط اللسان هو المودة، فالمودة سلوك يجسد الحُب.

(إِلَّا الْمَوَدَّةَ)

والهدف ليس السمعة عند الناس، بل القرب من الله، فلو وقفنا عند هاتين الكلمتين سلوك يهدف إلى القُرب من الله، إن فعلت هذا فقد أرضيت النبي في قبره، وإن فعلت هذا فقد جعلت النبي عليه الصلاة والسلام أفرح الناس بنا، لأنه رحيمٌ بأمته أرحم منا بأنفسنا.

(لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ(128))

(سورة التوبة)

النبي الكريم لا يبتغي من الإنسان أجراً بل أن يكون كما يريد:

النبي عليه الصلاة والسلام لا يبتغي منك أجراً ولا شيئاً آخر، بل يبتغي منك أن تكون كما يريد: مؤمناً، وكما قلت قبل قليل: أوضح مثل للأب، الأب الغني المستغني عن أولاده، لا يسعده إلا أن يكون أولاده في أعلى مقام في المجتمع، يصبح الابن قرة عين.

(قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى (23))

(سورة الشورى)

أن تفعل عملاً يعبّر عن حبك لله وتبتغي منه القربى من الله فقط، وإن فعلت هذا فهذا أجر النبي عليه الصلاة والسلام.

لقد اختلفت أسرة في موضوع تجاري، فكلفني أخٌ كريم أن أكون حكماً بينهم، فالأمر استغرق معي عدة سهرات إلى ساعةٍ متأخرة من الليل، فبعد أن انتهت هذه اللقاءات باتفاق طيّب، وكتبوا أوراقاً ووقعوا، وحصلت مودة بالغة، أخطؤوا بحقي خطأً فقال أحدهم: كم تريد ؟ قلت: أعوذ بالله أنا لست محامياً أساساً، ثم قلت: لا، لا أريد على هذه الجلسات أجراً باهظاً، بل أن تحضروا دروس العلم، وهذه اسمها مشاكلة، و المشاكلة في اللغة هي ليس هذا أجراً، لكن النبي لكماله العظيم حينما يرى أمته منيبة يسعد.

فالنبي قبل أن يتوفاه الله عزّ وجل نظر إلى أصحابه في الصلاة فابتسم حتى بدت نواجذه، قال:

((حكماء علماء كادوا من فقههم أن يكونوا أنبياء))

[تخريج أحاديث الإحياء]

من أصلح علاقته مع الله أصلحت علاقته مع الآخرين:

إذا دعا إنسان صغير بالنسبة لأي داعية إلى الله عزّ وجل، ورأى إخوانه منيبين إلى الله عزّ وجل، في صلاتهم خشوع، وتعاملهم إسلامي، وبيوتهم إسلامية، وعملهم إسلامي، وعندهم ورع، واللهِ الذي لا إله إلا هو هذا أكبر جزاء وأكبر عطاء تعطونه لمن يدعونكم إلى الله، وأن تكونوا على ما يريد الله ورسوله، فهذا أكبر عطاء، والإنسان تكفيه لقيمات، أما إذا زرع فسيلة واعتنى بها ثم أثمرت فهذا أجره، والأب والمعلم والداعية كذلك، وكل إنسان يقدِّم شيئًا لا يَفرحُ أن يُقدّم له شيئًا مادياً، بل يفرحه أن تكون في مستوى دعوته.

لكن ماذا يؤلم الداعية إلى الله عزّ وجل ؟ أنْ يوجد إنسان محسوب على هذا المسجد ليس إسلامياً بعمله، وأخلاقيته غير إسلامية، وفي بيته لا يوجد استقامة، في بتعامله المادي يوجد أخطاء كبيرة جداً، يأخذ ما ليس له، يدّعي أنه صاحب دين، وهو محسوب على أهل مسجد وهو ليس منهم، فهذا الذي يؤلم، والذي يؤلم أن تنتمي إلى جماعةٍ دينيّةٍ يظن أنها طيبة طاهرة ولست في مستواها لا في بيتك، ولا في عملك، ولا في أخلاقك ؛ والذي يسعد أن تكون كما يريد الله ورسوله، فالحقيقة الإنسان إذا أحسن فيما بينه وبين الله أحسن الله فيما بينه وبين الناس، أنت أصلح علاقتك مع الله تصلح كل علاقاتك مع الآخرين..

(وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنّ اللّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ(23))

النظر إلى وجه الله الكريم خير عطاء للإنسان في الآخرة:

الحسنة في الدنيا لها عطاء وفي الآخرة لها عطاء، وفوق عطائي الدنيا والآخرة هناك نظرٌ إلى وجه الله الكريم، وهذا المعنى يؤيّده قوله تعالى:

(لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ)

(سورة يونس: من آية " 26 ")

الزيادة النظر إلى وجه الله الكريم، فالحسنة في الدنيا لها عطاء وفي الآخرة لها عطاء، والبر لا يبلى والذنب لا ينسى والديّان لا يموت، اعمل ما شئت كما تدين تدان، أحسن في عملك، وأحسن في بيتك، وفي علاقاتك، وفي كلامك، وكل حركة مسجّلة، فأحسن، وأتقن عملك، وكن صادقاً، وكن وفيّاً للناس، ومخلصاً، وخذ بيد أولادك إلى الله ورسوله، و دُلَّ امرأتك على الله ورسوله، هذا هو الإحسان، فلك الدنيا:

(وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ(46))

(سورة الرحمن)

ولك الآخرة، ولك نظرٌ إلى وجه الله عزّ وجل، ولذلك قال أحد العارفين بالله: **" في الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة جنة القرب من الله "**. وقال أحدهم: **" ماذا يفعل أعدائي بي بستاني في صدري، إن أبعدوني فإبعادي سياحة، وإن حبسوني فحبسي خلوة، وإن قتلوني فقتلي شهادة، فماذا يفعل أعدائي بي ؟ "**.

هذه جنة القرب من الله، وجنة الطاعة لله عزّ وجل، فحبّذا لو ذقنا طعم القرب من الله.

من أخذ بعضاً من الدين و ترك بعضه الآخر لا يسعد و لا يرقى عند الله عز وجل:

آخر مثل أقوله لكم:إنسان اشترى قطع سيارة ؛ محرّكًا، ورفاريف، ودواليب، ومقاعد، وسقفًا مقطوعاً، ومؤخرة مقطوعة وضعها في البيت، وهل هذه القطع تسعده أم هي عبءٌ عليه ؟ يملُّ منها، أما إذا اشترى سيارة متكاملة تمشي وراح بها نزهة يسعد بها، فإذا أخذت الدين قطعاً ونتفًا، صلّيت وصمت، ولكن لا توجد استقامة تامة، ولا يوجد انضباط كامل، وعقيدتك غير صحيحة، فلو أخذت من الدين بعض الأشياء وجمّعتها يصبح الدين عبئاً عليك تملُّ منه، ولكن إذا أخذت الدين منهجاً متكاملاً، وإذا قطفت ثماره فأنت أسعد الناس به، فإن أخذت بعضاً من الدين وتدع بعضاً هذا لا يسعدك، ولا يرقى بك، ولا تحافظ عليه، وسريعاً ما تتفلّت منه.

فمن السهل جدّاً أخْذُ بعض أجزاء من الدين غير متكاملة، وسهل جداً أن يترك فريضة صلاة، ويقول: والله عندنا اجتماع ضروري، أو عندنا سهرة، أو موسم، أما عندما يأخذ الإنسان الدين متكاملاً، منهجاً كاملاً ويقطف ثماره ويحرص عليه حرصه على روحه، فعندئذ تركب هذه المركبة، وتقلّك أنت وأهلك إلى مكان جميل، وتقطف ثمارها، فهي لم تصبح بذلك عبئاً عليك، بل أصبحت مكسباً كبيراً.

من انضبط بمنهج الله عز وجل سعد في الدنيا و الآخرة:

إخواننا الكرام... كما قال الله عزّ وجل في الحديث القدسي:

((إن هذا دين ارتضيته لنفسي، ولن يصلحه إلا السخاء، وحسن الخلق، فأكرموه ما صحبتموه))

[كنز العمال]

والإنسان إذا لم يأخذ الدين من كل أطرافه، بل أخذه متكاملاً، عقيدة ملأت عقله، ومشاعره وقلبه، وسلوكًا ضبط حركته فليس هذا هو الدين، هذا التوازن وهذا التفوق، ينمو عقلك بالعلم، وقلبك بالذكر، وينضبط عملك بمنهج الله عزّ وجل، وهذا التفوق، أما إذا أخذنا جانباً، فالصلاة لا تكلِف شيئًا، ويوجد عندك اختلاط، وأخذنا الحج فهذا شيء جميل سياحة، وبالطبع إنسان ميسور فينزل في أفخر الفنادق، إنه طواف وسعي، فصار اسمه: الحاج فلان، أخذنا الحج من جهة، والصلاة من جهة، لكن لا يوجد انضباط في الحياة اليومية، في البيع والشراء وفي العلاقات الاجتماعية، هذا أخذ قطعاً من سيارة، فأصبحت عبئاً عليه فرفضها، وسهل أن يتخلى عنها، أما لو أخذها متكاملة سعد بها وحرص عليها.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الشورى 042 - الدرس (10-15): تفسير الآيات 24-28 ، رحمة الله عز وجل بعباده

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 08-04-1994

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الكرام... مع الدرس العاشر من سورة الشورى.

من أنكر ظاهرة الوحي ألغى الدين كله:

مع الآية الكريمة الرابعة والعشرين وهي قوله تعالى:

بسم الله الرحمن الرحيم

(أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشَأِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ(24))

الحقيقة الدين في الأصل وحيٌ من السماء إلى الأرض، ونقلٌ من رسول الله إلينا، فحينما تشكِّك بالوحي، أو تشكِّك بمصداقية النبي عليه الصلاة والسلام فقد ألغيت الدين كلّه، فالكفّار كيف طعنوا في هذه الرسالة ؟ أنكروا ظاهرة الوحي..

(أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا)

أي أن هذا النبي الكريم جاء بهذا القرآن من عنده، أي هو الذي جاء به، وهو الذي رتَّبه وأوهم الناس أنه من عند الله عزّ وجل.

إلزام الله عز وجل نفسه أن يهدي عباده:

النقطة الدقيقة جداً أيها الأخوة أن الله سبحانه وتعالى في سورةٍ أخرى يقول:

(إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى(12))

(سورة الليل)

الهدى على الله عزّ وجل، وحيثما وردت كلمة

(على)

متعلِّقة بذات الله الجليلة، فمعنى ذلك أن الله ألزم نفسه أن يهدي العباد. والآن لأستعرض معكم بعض الآيات التي فيها

(عَلَى)

(إنّ رَبّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ(56))

(سورة هود)

فبعضهم يقول: نحن عبيدٌ في ملك الله، والله سبحانه وتعالى حرٌ في أن يجعل الطائع في جهنّم. هذا صحيح ولكنه على صراطٍ مستقيم، ألزم نفسه بالاستقامة..

(فمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرّةٍ خَيْرًا يرَه(7)ومَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرّةٍ شَرًّا يرَه(8))

(سورة الزلزلة)

نفي الظلم عن ذات الله تعالى:

الآيات:

(لا ظُلْمَ الْيَوْمَ)

(سورة غافر: من آية " 17 ")

(ولا تُظْلَمُونَ فَتِيلا(71))

(سورة الإسراء)

(وَلا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا(124))

(سورة النساء)

ولا قطمير.

(وَمَا كَانَ اللّهُ لِيَظْلِمَهُمْ)

(سورة العنكبوت: من آية " 40 ")

آيات كثيرة جداً تصل إلى مئة آية، تنفي عن ذات الله عزّ وجل أدقّ أنواع الظلم.

إلزام الله عز وجل نفسه أن يعدل بين العباد

كلمة:

(إنّ رَبّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ(56))

(سورة هود)

أي ألزم الله نفسه أن يعدل بين العباد..

(وَمَا مِنْ دَابّةٍ فِي الأَرْضِ إلا عَلَى اللّهِ رِزْقُهَا)

(سورة هود: من آية " 6 ")

أي أن الله عزّ وجل ما من مخلوقٍ خلقه إلا وألزم نفسه برزقه، وهذه الآية شرحتها سابقاً لها معنى دقيق جداً، أي ما من دابةٍ، من تفيد استغراق أفراد النوع، وعلى تفيد الإلزام، وما من إلا تفيد الحصر..

(عَلَى اللّهِ رِزْقُهَا)

أي أن الله سبحانه وتعالى طلب منّا أن نعبده وتكفّل لنا هو برزقنا..

(وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى(132))

(سورة طه)

ألوان الهداية لا تعدُّ ولا تحصى:

أردت من هذا أن أصل إلى قوله تعالى:

(إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى(12))

(سورة الليل)

أي أن الله عزّ وجل ألزم نفسه أن يهدي العباد، والله سبحانه وتعالى يهدي العباد بأساليب لا تعدّ ولا تحصى ؛ والكون أحد أسباب الهداية، والعقل أحد أسباب الهداية، والفطرة، وأفعال الله سبحانه وتعالى، والمُعالجة النفسيّة للإنسان، والرؤيا التي يراها الإنسان أحياناً، والعلماء الذين يعينهم الله على نشر الحق في الدنيا كل ذلك أسباب للهداية، فهناك أساليب لا تعدُّ ولا تحصى. وقد فسّر بعضهم قوله تعالى:

(وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمْ اللَّهُ)

(سورة البقرة: من آية " 282 ")

أي ما دام الله يعلِّمكم بأساليب شتّى فلمَ لا تتقونه ؟

(وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمْ اللَّهُ)

الكون يعلِّم، والقرآن يعلِّم، والنبي، والعقل، والفطرة، والحوادث، والرؤى تعلِّم، والدعاة، والمصائب، والضيق النفسي كل ذلك يعلِّمك، أي أن ألوان الهداية لا تعدُّ ولا تحصى.

من افترى على الله كذباً لن يسمح الله له أن يضل الناس إلى ما شاء الله:

إذاً:

(إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى(12))

(سورة الليل)

ما دام الله سبحانه وتعالى تولّى الهداية، وكأن الهداية مستمرّة وما عليك إلا أن تلتقط هذه الهداية، من باب التقريب: فكيف أن البثّ الإذاعي مستمر دائماً، وما على الإنسان إلا أن يشتري جهاز الاستقبال ويستمع، ولن يُفقد من السوق، البث مستمر فعليك أن تلتقط

(إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى(12))

الله عزّ وجل هدى العباد هداية كاملة.

الآن لو أن إنساناً يفتري على الله كذباً فهل يسمح الله له ؟ هل يسمح له أن يضلّ الناس إلى ما شاء الله؟ فهذا يتناقض مع حكمة الله في أن عليه الهدى، مادام الله عزّ وجل يقول:

(إنّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى(12))

(سورة الليل)

أيُّ إنسان يحاول أن يفتري على الله، أو أن يكذب على الله، أو أن يشوّه الحقائق لصالحه، فلابدّ من أن يفضحه الله عزّ وجل، ولابدّ من أن يكشفه، ولذلك يقولون: بإمكانك أن تخدع بعض الناس كلّ الوقت، وبإمكانك أن تخدع كلّ الناس بعضَ الوقت، أما أن تخدع كل الناس كلّ الوقت فهذا مستحيل.

مهما كانت محاولات إضلال الخلق قوية ستتهاوى في النهاية:

بالمناسبة إخواننا الكرام، ليس معنى قول الله عزّ وجل:

(إنّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى(12))

(سورة الليل)

أنه لا تجري محاولة لإضلال الخلق، فالمحاولات على قدمٍ وساق، ولكن هذه الآية تعني أن هذه المحاولات لا تنجح في النهاية..

(إنّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا(81))

(سورة الإسراء)

وقد ترون بأعينكم، وتسمعون بآذانكم كيف أن الباطل مهما دُعِم، ومهما قوي بالأدلّة المفتعلة، ومهما دُعِمَ بالقوّة في النهاية فإنه يتهاوى كبيت العنكبوت.

الوحي كيانٌ مستقلٌ عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم:

لذلك:

(أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا)

هم بهذا ينكرون على النبي الوحيَ، ولا أدري ما إذا كان هناك بحثٌ طويلٌ عميقٌ دقيقٌ عن الوحي ؟ لماذا حينما رأى النبي سيدنا جبريل ضمّه ضمّاً شديداً ؟ لئلا يُظَن أن الوحي منام، ولماذا تأخّر الوحي في براءة السيدة عائشة شهراً بأكمله ؟ فلو أن الوحي شيءٌ بمتناول النبي عليه الصلاة والسلام، وبإمكانه أن يجلبه، وأن يمنعه، فلا يمضي دقائق حتى يأتي بآية تبرّئ السيدة عائشة، نبيٌ عظيم اتُهمَت زوجته بالزنا وهو يعلم براءتها، ولا يملك دليلاً إيجابياً ولا سلبياً، وانتظر شهراً حتى يأتيه الوحي مبرّئًا السيدة عائشة.

طبعاً لا مجال للإسهاب في هذا الموضوع، فهذا موضوع قائم بذاته عنوانه: ظاهرة الوحي في الإسلام، والله عزّ وجل بأساليب كثيرة جداً، وبأحداث عديدة جداً أكّد للعباد أن الوحي كيانٌ مستقلٌ عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، ليس بإمكانه أن يجلبه ولا أن يمنعه، وقد يأتِي الوحي معاتباً النبي عليه الصلاة والسلام، وقد يأتِي الوحي ليثبت حقيقة اتهم به خصومُ النبيّ النبيّ بالجنون، وبالكهانة، وبالشِعر، والوحي نقل إلينا ذلك، ولو أن الأمر بيد رسول الله لأغفل هذه التهم لأنها أصبحت قرآناً يُتلى إلى يوم القيامة.

القلوب بيد الله عز وجل:

أيها الأخوة...

(أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشَأِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ)

ولو طبّقنا هذه القاعدة على إنسان دعا إلى الله، ولو كان في نيات سيّئة لتلعثم المتكلِم، ولانصرف الناس عنه..

(وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ)

(سورة آل عمران: من آية " 159 ")

ما أخلص عبدٌ لله عزّ وجل إلا جعل قلوب العباد تنهال إليه بالمودّة والرحمة، فالقلوب بيد الله عزّ وجل، إذا علم الله من إنسانٍ كذباً، أو نفاقاً، أو تزويراً، أو إضلالاً، أو انحرافاً يصرف عنه القلوب، ويتهمه الناس، وقلوبهم تنفِر منه..

(فَإِنْ يَشَأِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ)

فالله عزّ وجل بكلماته التّامة، وبكلماته الثابتة يمحُو الله الباطل ويحقُّ الحق.

الله سبحانه وتعالى تولّى هداية الخلق و ما على الخلق إلا الاستجابة:

لننتقل معكم إلى التاريخ، هؤلاء الذين عارضوا النبي عليه الصلاة والسلام، وكذّبوه، وادعوا النبوّة، وحَرّفوا الإسلام عن خطِ سيره وما أكثرهم، وما أكثر الفرق الإسلاميّة، وما أكثر الضالين المضلين الفاسدين المفسدين، أين هم ؟ هل لهم ذكرٌ ؟ إنهم في مزبلة التاريخ، وهذا يؤكد أن الله يمحوُ الباطل ويحق الحق بكلماته، ولولا أن هذا الدين دين الله عزّ وجل ما بقي إلى هذه الأيام، لأن المؤامرات التي حيكت على هذا الدين أبلغ من أن توصف، ومع ذلك كل من افترى على الله كذباً، وكل من زوّر

الحقائق يتهاوى كبيت العنكبوت، فهناك فرق ضالّة مضلّة، منحرفة، فاسدة مفسدة شوّهت الإسلام، وجرّته إلى أن يطابق الحياة المعاصرة ومع ذلك فما استطاعوا.
وكأن هذه الآية تشير إلى قاعدة هي: أن الله سبحانه وتعالى تولّى هداية الخلق، بل جعل هداية الخلق عليه..

(إنّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى(12))

(سورة الليل)

ويؤكِّد هذا قوله تعالى:

(وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ)

(سورة الأنفال: من آية " 23 ")

فكأنّه على الله عزّ وجل أن يُسْمِع الخلق، فالهدى على الله، وما علينا إلا أن نستجيب فقط، إذْ علينا الاستجابة.

أمّة محمدٍ صلى الله عليه وسلّم أمّتان أمة الاستجابة وأمة التبليغ:

لذلك ذكرت اليوم في خطبة الجمعة أن أمّة محمدٍ صلى الله عليه وسلّم أمّتان: أمة الاستجابة وأمة التبليغ، فكل من ينتمي لهذه الأمة تاريخياً هو من أمة التبليغ، لكن الذي استجاب لله ورسوله هذا من أمة الاستجابة، ولذلك كل الآيات التي تُثني على أمة سيدنا محمّد، وتَعِدُ أمة سيدنا محمد بالغلبة، والنصر، والتمكين، والاستخلاف، والتأييد هذه الأمّة هي أمة الاستجابة..

(وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ)

(سورة الشورى: من آية " 38 ")

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ)

(سورة الأنفال: من آية " 24 ")

إذاً هذه الآية تؤكِّد أن الذي يفتري على الله، ويكذب على الله، و يضل العباد، ويجرُّ الحقّ لصالحه، ويطمِس، ولا يبيّن، ويَكْتُم، ويسعى بشكلٍ أو بآخر، وبطريقةٍ أو بأخرى أن يضل الناسَ فالله له بالمرصاد، فلابدّ من أن يفضحه، ولابدّ من أن يكشفه، وأن يحبس لسانه، وأن يجعل الناسَ ينفضّون من حوله.

كل من يستخدم الهدى ليجرّ المصالح إلى ذاته الله له بالمرصاد:

لذلك:

(أمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا)

لو كنت كذلك يا محمّد..

(فَإِنْ يَشَأِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ)

(وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ(44)لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ(45)ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ(46)فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ(47))

(سورة الحاقة)

إنسان يلعب بدين الله ؟!

يا إخواننا الكرام... أنقل لكم بعض الكلمات، يقول الإمام الغزالي:**" العوامُ لئن يرتكبوا الكبائر أهون من أن يقولوا على الله ما لا يعلمون "**، لأنهم يضلون الخلق والله لا يسمح لهم، والإمام الغزالي يقول: **" لئن أرتزق بالرقص أهون من أن أرتزق بالدين "**. لأن الذي يرتزق بالدين يلعب بدين الله عزّ وجل، ويحرّكه لصالحه، والله لن يسمح له، بل يقصمه لأن الله عليه الهدى، تولّى هداية الخلق، فكل إنسان يستخدم الهدى ليجرّ المصالح إلى ذاته، والله له بالمرصاد.

من بلّغ رسالات الله يجب أن يخشى الله وحده:

لو أن النبي عليه الصلاة والسلام وهو سيّد الخلق وحبيب الحق..

(وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ(44)لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ(45)ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ(46)فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ(47))

(سورة الحاقة)

(أمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشَأِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ)

وكل إنسان دعا إلى الله أيها الأخوة ليحذر أن يتكلّم في آيةٍ، أو في حديثٍ، أو في حكمٍ فقهي، أو أن يتكلّم ليجرّ مصلحةً إليه، أو ليبعد خطراً عنه، لقد خان الأمانة، ولذلك فالآية الكريمة:

(الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلا اللَّهَ)

(سورة الأحزاب: من آية " 39 ")

هؤلاء الذين يبلِّغون رسالات الله يجب أن يخشوا الله وحده، ولا يخشوا أحداً إلا الله، ولو أنهم خافوا غير الله فسكتوا عن الحق خوفاً ممن يخافونهم، أو نطقوا بالباطل إرضاءً لمن يخافونهم سقطت دعوتهم، فماذا بقي من دعوتهم ؟.

الله عز وجل يعلم السر و أخفى:

ملخّص الملخّص:

الله هو الهادي، وهو تولّى هداية الخلق، وقد تجري آلاف المحاولات لإضلالهم لكنها لا تنجح، ولا يحقُّ في النهاية إلا الحق، ولا يستقرُّ إلا الحق، ولا يتألّق إلا الحق، والباطل زهوق ولو عُمِّر سبعين عاماً..

(إنّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا(81))

(سورة الإسراء)

(أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشَأِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقّ بِكَلِمَاتِهِ)

فكلمة من كلمات الله تنهي باطلاً وتحيي حقّاً..

(إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (24))

أنت كإنسان لك الظاهر، ولكن الواحد الديّان يعلم السرّ وأخفى، فيعلم ما أخفيته عن الناس ويعلم ما يخفى عنك أيضاً، وأنت مكشوفٌ عند الله، حسب نيتك، فهناك من يجر الآية لصالحه ليغطي انحرافه، وليُقنع الناس بأنه على حق، وهناك من يلعب بكلمات الله، وبأحاديث رسول الله، فالصحيح يُضَعِّفُهُ والضعيف يقوّيه من أجل فريةٍ، أو انحرافٍ، أو إرضاءً لإنسانٍ لزيدٍ أو عُبيد، فالله سبحانه وتعالى يتولّى فضحه، ويتولى كشفه، وهذه المحاولة لا تنجح.

تولي الله عز وجل حفظ كلامه:

مثلاً الله عزّ وجل يقول:

(إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ(9))

(سورة الحجر)

ألم تجرِ محاولاتٌ لتغيير كتاب الله ؟ جرت لكنّها ما نجحت، قبل خمسين عاماً (فيما أذكر وفيما سمعت) طُبِعَ خمسون ألف نسخة من هذا المصحف، حُذِفَت منه كلمة واحدة.. وَمَنْ يَبْتَغِ.... الإِسْلامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ.

حذفوا كلمة غير:

(وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ)

(سورة آل عمران: من آية " 85 ")

النسخ كلها أُتلفت وأُحرقت، لم تنجح المحاولة. فإذا كان الله عزّ وجل تولّى حفظ كلامه فليس معنى هذا أنه لا تجرى محاولات لتشويه كلامه، بل تجري لكنها لا تنجح، لأن الإنسان مخيَّر في الدنيا..

(إِنّ الّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمّ يُغْلَبُونَ)

(سورة الأنفال: من آية " 36 ")

أسعد إنسان من آمن بالحق وانسجم معه فكانت النهاية له:

في النهاية دقِق في قوله تعالى:

(وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتّقِينَ(128))

(سورة الأعراف)

العوام يقولون كلاماً يعجبني، يقول لك: لا يصح إلا الصحيح. الأمور تتحرّك، وتسير، وتضطرب، وتتداخل وفي النهاية لا يحق إلا الحق، ولا يصح إلا الصحيح، ولا يستقر إلا ما أراده الله عزّ وجل.

((عبدي أنت تريد وأنا أريد، فإذا سلّمت لي فيما أريد كفيتك ما تريد، وإن لم تسلِّم لي فيما أريد أتعبتك فيما تريد ثم لا يكون إلا ما أريد))

[ورد في الأثر]

ولذلك فأسعد إنسان هو الذي آمن بالحق وانسجم معه فكانت النهاية له. عندما يخالف الإنسان الحق تضطرب نفسه، ويختل توازنه، وقد يحمله هذا الضيق النفسي على أن ينتحر.

من خالف الحق انهار من الداخل و خسر الدنيا و الآخرة:

قلت لكم قبل درسين أو ثلاثة: إنسان يتمتّع بأعلى مكانة في فرنسا، وسمعة، وأسرة، وغنى، ومنصب رفيع جداً كان يتسلّمه (كان رئيس وزارة) فانتحر، فسمعت أن مئة صحفي كتبوا مقالاتٍ عدّة في سر انتحاره، ثم أحد الصحفيين وصل إلى الحقيقة، هذا كان يعتنق مذهباً باطلاً، عمره سبعون سنة، احتقر ذاته لأن إنسان يعتنق مذهباً لا صحّة له، فحمله ذلك على أن ينتحر، واليوم انتحر شخصٌ ثانٍ، لماذا ؟ لأن الإنسان عندما يخالف الحق تنهار نفسه من الداخل، أما الذي يربط نفسه مع الحق..

(وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتّقِينَ(128))

(سورة الأعراف)

أنت ربطت نفسك مع خالق الكون، ومع منهج الله، وكتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه..

(إِنّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُور (24))

باب الرحمة مفتوح على مصراعيه لكل إنسان:

الآن هؤلاء الذين ظلموا أنفسهم وانحرفوا وقصّروا فباب الرحمة مفتوح، وأرجى آية في كتاب الله:

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ)

(سورة الزمر: من آية " 53 ")

فباب التوبة مفتوح..

((لله أفرح بتوبة التائب من الظمآن الوارد، ومن العقيم الوالد، ومن الضال الواجد))

[من كنز العمال: عن " ابن عباس"]

والنبي عليه الصلاة والسلام ذكر قصّةً تعرفونها جميعاً، هذا البدوي الذي ركب ناقته ليقطع الصحراء بها، جلس ليستريح وعليها زاده وشرابه فلم يجدها، أيقن بالهلاك فجلس يبكي حتَّى أدركه النعاس، فأفاق فرأى الناقة، فمن شدة فرحه بهذه الناقة قال:**"يا رب أنا ربُّك وأنت عبدي "**. هكذا ورد في الحديث يقول عليه الصلاة والسلام:

((لله أفرح بتوبة عبده من ذلك البدوي بناقته))

[أخرجه البخاري عن الحارث بن سويد]

من اصطلح مع الله عز وجل غفر له ذنوبه جميعها:

إذا اصطلحت مع الله، وضبطت أمورك، وضبطت جوارحك، و بيتك، ودخلك، وإنفاقك، وبناتك، وأولادك، وعلاقاتك، وندواتك، وسهراتك، ونزهاتك، ضبطتها كلها وفق الشرع، معنى ذلك أنك اصطلحت مع الله، وجعلت بيتك إسلامياً، وعملك إسلامياً، وربَّيت أولادك التربية الصالحة، وحملتهم على طاعة الله، وحفظت بناتك من كل تقصيرٍ أو انحراف، فأنت الآن مصطلح مع الله، والله يفرح بك لرحمته بخلقه، ولذلك يقول الله عزّ وجل:

(وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ)

والله أيها الأخوة ما أعرف شعوراً يسعد الإنسان كشعوره أن الله قَبِلَ توبته، ملك الملوك يقبلك، ويرضى عنك، ويمحو لك خطيئاتك، ويستر لك ما كان منك من قبل !!

((من تاب إلى الله توبة نصوحا أنسى الله حافظيه وجوارحه وبقاع الأرض كلها خطاياه وذنوبه))

[من كنز العمال: عن " ابن عباس "]

((ابن آدم لو جئتني بملء السماوات والأرض خطايا غفرتها لك ولا أبالي))

[ورد في الأثر]

(وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ (25))

من استقام على أمر الله و أخلص وجهه له ذاق طعم القرب منه:

إخواننا الكرام... ما دام القلب ينبض فأنت في بحبوحة وبإمكانك أن تتوب، وبإمكانك أن تصلح ما كان منك، وأن تؤدِّي الحقوق إلى أصحابها، وأن تؤدِّي الذمم التي عليك، وأن تعيد اقتسام الإرث إذا كان فيه ظلم، فإذا وضع الأخ الكبير يده على أموال والده المتوفّى وحرم إخوته الصغار فهو محجوبٌ عن الله عزّ وجل، وبإمكانه أن يعيد توزيع الإرث، وإيّاك أن ترجئ انحرافاً أو مالاً حراماً إلى المستقبل، فقد لا يأتي المستقبل، فلذلك من الآن أصلح حالك.

والله الذي لا إله إلا هو ما رأيت أعقل من الذي اصطلح مع الله في وقتٍ مبكِّر، وسوّى علاقاته مع الله؛ فالذمم، والحقوق، والبيت، استقم، إن استقمت على أمر الله رأيت الطريق إلى الله سالكة، وإذا اتصلت بالله عرفت معنى القُرب، وعرفت لماذا قال أحد العارفين بالله:**" لو يعلم الملوك ما نحن عليه لقاتلونا عليها بالسيوف ".**

من استقام على أمر الله و أقبل عليه تذوق معنى وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ:

إن استقمت على أمر الله وأقبلت عليه، وأخلصت الوجهة إليه عرفت معنى أن في الدنيا جنّة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة، وتذوّقت معنى قوله تعالى:

(وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ(46))

(سورة الرحمن)

وعرفت معنى قوله تعالى:

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)

(سورة الجاثية: من آية " 21 ")

إلهٌ في عُلاه يقول لك: المؤمن له معاملة خاصّة، وله علاقات خاصّة، وله زواج وعمل خاص وسعادة نفسيّة، وكل ذلك خاص به، فأنت إذا عرفت الله كنتَ مستثنًى مما يصيب معظم الناس..

(أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لا يَسْتَوُونَ(18))

(سورة السجدة)

(أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ(35))

أيُعقَل هذا الكلام ؟..

عدم استواء المؤمن مع الفاسق عند الله عز وجل:

(مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ(36))

(سورة القلم)

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ الْمُحْضَرِينَ(61))

(سورة القصص)

أهكذا ظنُّك بالله عزّ وجل ؟ إنسان شاب في مقتبل العمر يخشى الله، ويرجو ما عند الله، ويؤدِّي الصلوات، ويستمع إلى مجالس العلم، ويطلب في شبابه، ويبتغي زوجة مؤمنة، ويتوخّى عملاً صالحاً وحرفة ترضي الله عزّ وجل، فهل هذا الإنسان يُعامل كما يُعامل شاب فاسق منحرف ؟ مستحيل..

(وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ (25) وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِه)

لا يحيا الإنسان إلا بمعرفة الله و بابتغاء مرضاته:

دقِّقوا في هذه الآية:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ)

(سورة الأنفال: من آية " 24 ")

والإنسان ميّت قبل أن يعرف الله، يقول سيدنا علي كرّم الله وجهه: **" يا بني مات خُزّان المال وهم أحياء، والعلماء باقون ما بقي الدهر، أعيانهم مفقودة وأمثالهم في القلوب موجودة ".** تحيا بالعلم، وتحيا بمعرفة الله، وبطاعته، وبابتغاء مرضاته، وتحيا في بيت الله، وبهذا القرآن، وبتطبيق سنة النبي العدنان، بهذا تحيا..

أمة الاستجابة خير أمة أخرجت للناس:

(وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا)

إذا كنت من الذين استجابوا فأنت من أمة الاستجابة، أنعم بها من أمّة، كل الآيات التي تتحدّث عن أمة رسول الله:

(كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاس)

(سورة آل عمران: من آية " 110 ")

من هي ؟ أمة الاستجابة، فأمة الاستجابة ليست أمة التبليغ، كل إنسان وُلِدَ في بلد عربي بحكم انتمائه التاريخي يقول لك: أنا مسلم و أنا من أمة محمّد، وهذا الشيء لا يعتبر إطلاقاً، ولا يُعْبَأ به، ولا تسمّى من أمة محمد صلى الله عليه وسلّم إلا إذا كنت من أمة الاستجابة، أما كلُّنا جميعاً بحكم انتمائنا التاريخي فمن أمة التبليغ، لا من أمة الاستجابة..

(وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ)

فأدنى حركة نحو الله، يعطيك الله عزّ وجل ما لا تحتسب..

(وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى)

(سورة فصلت: من آية " 17 ")

هديناهم..

(إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى(12))

(سورة الليل)

من تحرك حركة نحو الله عز وجل كان الله في قضاء حاجته:

لكن..

(إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى(13))

(سورة الكهف)

فإذا تحرّكت نحو الله خطوة..

((إذا تقرب إلي العبد شبرا تقربت إليه ذراعا، وإذا تقرب إلي ذراعا تقربت منه باعا، وإذا أتاني مشيا أتيته هرولة))

[من الجامع الصغير: عن " أبي هريرة "]

هذا حديث قدسي، أي أنت تحرّك حركة نحو الله، انوِ نيّة طيّبة، انوِ أن تقرأ القرآن، وأن تحفظه، وأن تفهمه، وتحضر مجلس علم، عاهد نفسك على أن تلزم مجلس علم، وانظر ماذا يكون، هم في مساجدهم والله في حوائجهم، تحلُّ المشكلات بشكل عجيب، لأن هذا زكاة الوقت (دقِقوا في هذا الكلام) الله عزّ وجل قادر أن يضيّع لك خمسين ساعة لأتفه الأسباب ؛ فالسيارة توقفت، ليس لها قطع تبديل، بعثت لطلبها فجاءك قياس أكبر بقليل، ارجع وابعث مرّة ثانية، تدفع أموالاً وتنتظر، والآلة معطّلة، والعمال معاشهم مستمر، والله قادر أن يضيّع لك من وقتك مئة ساعة لأتفه الأسباب، فإذا حضرت مجلس العلم فهذا زكاة الوقت، فكيف أن المال له زكاة فالوقت له زكاة، يستنبط هذا من بعض الأحاديث الشريفة:

((من أخّر الصلاة عن وقتها أذهب الله البركة من عمره))

بركة الوقت أن تؤدِّي زكاته ومن تأدية زكاته أن تطلب العلم:

أنت تقول: هذا الذي ألّف الكتاب كم قرأ كتباً حتّى ألّفه ؟ كتاب في اثني عشر مجلّداً، يحتاج إلى عشرين عاماً لتأليفه، والسلف الصالح أعطاهم اللهُ عزّ وجل بركة في أوقاتهم، وبعض العلماء ترك مؤلّفات قُسِّمت على أيام حياته فكان نصيب اليوم الواحد تسعين صفحة، فهل عندك استعداداً أن تقرأ عشر صفحات في اليوم بشكل دائم، تسعين صفحة تأليف، فهذا الوقت له بركة، بركة الوقت أن تؤدِّي زكاته، ومن تأدية زكاته أن تطلب العلم..

((إنّ الْمَلائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا لِطَالِبِ الْعِلْمِ رِضًا بِمَا يَطْلُبُ))

[من سنن الترمذي: عن " صفوان بن عسّال "]

((من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً))

[رواه الترمذي عن" أبي هريرة"]

مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ:

الإنسان يكون في درس يوم الجمعة فيقوم قبل الموعد بساعة ونصف، فيغيّر ثيابه ويلبس، ويتوجّه إلى المسجد، ويركب المركبة العامّة، فإلى أين يذهب ؟ ليس إلى سهرة، ولا إلى ضيافة، ولا إلى مقعد وثير، ولا إلى شيء مضحك، جاء ليتعلّم..

((مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ))

[من صحيح مسلم: عن " أبي هريرة "]

فالمجيء من الغوطة إلى جامع يظن أن فيه حقّاً، ونرجو ذلك، فهذا الطريق إلى الجنّة في النهاية:

((مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ))

فعندما يتوجّه أحدنا إلى بيت الله فأين يذهب ؟ إنه ذاهب إلى الجنّة، لأن هنا مكان معرفة الله عزّ وجل، والسوق والبيت مكان تطبيق معرفة الله، ألم يقل النبي عند دخوله إلى بيت الله:

((اللّهُمّ افْتَحْ لي أبْوَابَ رَحْمَتِكَ))

[من الأذكار النوويّة: عن " أبي حميد "]

هنا توجد رحمة، فإذا خرج من المسجد:

((اللّهُمّ إني أسألُكَ مِنْ فَضْلِكَ))

[من الأذكار النوويّة: عن " أبي حميد "]

أنت بين حالتين إما أنك تطلب العلم، وإما أنك تطبّق الذي تعلّمته، في بيتك وعملك والطريق تطبّق ما تعلّمت، وفي بيت الله تتعلّم، و..

((بلغوا عني ولو آية))

[من الجامع الصغير: عن " ابن عمر "]

من ضيع كل شيء خسر الدنيا و الآخرة:

(وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ (26))

إذا كان الإله يقول:

(شديد)

فما هو الشديد ؟ وإذا قال لك طفل: أنا معي مبلغ كبير. أي خمس ليرات، أما إذا قال لي غني: معي مبلغ كبير. أي معه خمسون مليونًا، فكلّما تكلّم العظيم، ووصف شيئاً بأنه عظيم يكون عظيماً جداً، والإله يقول:

(لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ (26))

وربنا عزّ وجل يقول لهم في آية أخرى:

(فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ(175))

(سورة البقرة)

شيءٌ لا يحتمل أن يُدرك الإنسان أنه ضيّع كل شيء، وفقد وخسر كل شيء، فهذه هي الخسارة، ولهذا يقول سيدنا علي: **"الغنى والفقر بعد العرض على الله".**

الرخاء الاقتصادي في الغالب يرافقه انحراف أخلاقي:

الآن في الدنيا القضيّة لا قيمة لها إطلاقاً، ليس الغني غنياً ولا الفقير فقيراً..

(وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ)

وهناك سؤال كبير: يا ربي لماذا الفقر ؟ إذا وجد في انفتاح قليل واستيراد مسموح، تجد الناس قد انحرفوا انحرافًا شديداً، وهذا شيء ملموس، إذْ يرافق الرخاءَ الاقتصادي انحرافٌ أخلاقيٌّ، فربنا عزّ وجل يقول:

(وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ (27))

الله هو الذي يعلم..

(وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ(216))

(سورة البقرة)

(وَعَسى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ(216))

(سورة البقرة)

هذه الآية أساسيّة، وهي أصل في بابها.

من رضي بما قسمه الله عز وجل له كان أغنى الناس:

إذا رأينا إنسانًا دخله قليل فهذه رحمةٌ من الله، والذي يجبر كسره أن النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((إن الله ليحمي صفيّه من الدنيا كما يحمي أحدكم مريضه من الطعام))

[ورد في الأثر]

((إن الله تعالى يحمي عبده المؤمن كما يحمي الراعي الشفيق غنمه عن مراتع الهلكة))

[الجامع الصغير: عن " حذيفة "]

إذا اختار لك ربنا عزّ وجل شيئًا فابذل جهدك، وحَسِّن دخلك، وارفع ثقافتك، وكفاءة عملك، وافعل كل ما في إمكانك، لكن بعد أن تنتهي كل جهودك إلى هذا المستوى قل: الحمد لله رب العالمين، فأنا لا أدعو إلى الكسل، ولا إلى القعود، ولا إلى ترك الأخذ بالأسباب. خذ بالأسباب، افعل ما تشاء، ولكن إذا انتهت بك كل هذه الأعمال إلى هذا المكان فقل: حسبي الله ونعم الوكيل. ارضَ بما قسمه الله لك تكن أغنى الناس.

(إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ (27))

الله عز وجل بيده خزائن كل شيء:

والله عزّ وجل قال:

(وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ(14))

(سورة فاطر)

ولا خبير مثل الله، وأحياناً تأتي سنوات قاحلة، والناس يجأرون بالدعاء يا رب يا رب. أنا علمت قبل عدة سنوات أن محاصيل القمح ثلاثة ملايين طن، حاجة قطرنا كلِّه مليون طن، ثلاثة أمثال حاجتنا، وفي سنوات مئتان وخمسون ألف طن، أي ربع حاجتنا، فالله عزّ وجل المحاصيل بيده، يزيدها ويقلِّلها، وبيده الثمار والإنتاج ومياه الأمطار، فقد قلّت مياه حوض دمشق إلى درجة أن الناس يئسوا، وأشرفنا على الجفاف، عشر سنوات تقريباً وكان معدّل الأمطار مئة وعشرين، أو مئة وثلاثين، أو مئة وستين مليمتر، إلى أن يئس الناس وظنوا أن خطوط المطر تغيّرت وسوف نلقى جفافاً قاحلاً، فجأةً العام قبل

الماضي كميّات الأمطار التي هطلت في دمشق ثلاثمئة وخمسون ميليمتر، والعام الماضي ثلاثمئة وخمسون، والحالي حوالي مئتين إلى الآن، والله بيده كل شيء، وكل الخزائن والرزق بيده..

(وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ (28))

القنوط من رحمة الله علامة عدم معرفة الله:

أيها الأخوة الكرام... القنوط من رحمة الله علامة عدم معرفة الله، والقنوط من رحمة الله في القرآن الكريم كفرٌ، وجهلٌ، ويأسٌ، ولذلك حينما تضيق الأمور بالإنسان، ويظن أن السماء قد شَحّت فلا تمطر، وأن الأرض قد يبسَت فلا تنبت، وإذا وصل إلى القنوط فهذه حالةٌ لا ترضي الله عزّ وجل، ولكن الله يقول:

(وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ)

قلت لكم قبل قليل: أخ كريم يعمل في حوض دمشق قال لي قبل عدة سنوات: انتهى الأمر، فلابدّ من أن يرحل أبناء هذه المدينة لجفاف الماء، فالحوض المائي في دمشق وصل إلى أقل مستوى، وكل شيء كان مهدّداً بالجفاف، وبعد ذلك جاءت الأمطار، وهناك أنهر جافة من ثلاثين عاماً، والآن فُجّرَت وسالت مياهُهَا، وبعض الينابيع في منين وصلت إلى الشام، فلذلك عندما يعطي ربنا يدهش.

ثقة المؤمن بربه ولو كان في ضيق طارئ:

المؤمن دائماً يثق بالله ولو كان في ضيق مؤقّت، ضيق طارئ، وهذا الضيق تربوي، والله عزّ وجل يقول:

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ)

(سورة النساء: من آية " 147 ")

فكل أنواع الضيق، والتشديد هذا من أجل أن نرجع إليه، فإذا رجعنا إليه زال هذا الضيق، وربنا عزّ وجل ينوّع العلاجات إن لم يرجع الناس إليه، ويبلوهم بالشر فهل يرجعون ؟ وهل يخافون ؟ وبالخير هل يستحيُون من الله ؟ فالإنسان المعرض يمتحن مرّتين: مرّةً بالرخاء ومرّةً بالشدّة، فهل ترجعه الشدّة إلى الله ؟ على كلٍ فالمؤمن يثق بالله عزّ وجل..

(وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ (28))

الله عز وجل هو الرزاق و المعطي:

الآن الشيء الثابت أن الرزق من السماء، فإذا كانت الأمطار غزيرة، والنبات جيّد، والمحاصيل جيّدة فهذا يحرّك عجلة الاقتصاد في البلد، ولقد كنت واقفًا مع شخص عنده معمل مطرّزات ضخم، قال لصديقه أمامي: بعنا بيعاً مخيفًا هذه السنة، قال له: ما السبب ؟ فأجاب: كانت الأمطار في الجزيرة غزيرة جداً. فأنا انتبهت أنه معمل مطرّزات يبيع بكميات مذهلة لأن أمطار الجزيرة كانت غزيرة، ومعنى هذا عندما تنزل الأمطار بغزارة، والمحاصيل تنبت بغزارة فهذا الذي يحرّك اقتصاد البلاد، وأحياناً سعر العملة يزداد بالمحصول الاقتصادي الجيّد، فحصل عندنا مخزون وشيء نبيعه، وقطْع أجنبي، فلذلك الرزق من السماء، فإذا انهمرت السماء بالأمطار، وأنبتت الأرض من خيرات السماء كان هذا حركةً لكل نشاطٍ اقتصاديٍ في البلد، وهذا معنى قوله تعالى:

(وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ (28))

مرّة قلّ إنتاج القمح كثيراً، فثمن مستوردات القمح أرهقت الميزانيّة، لأننا نحتاج أن نأكل الخبز، وأحياناً القمح يكون ثلاثة أمثال حاجة القطر، فالملاحظ أن الرزق من السماء، وأحياناً بشكل متزامن، أي هو مثالي في كل فترة مطرة بعدها شمس، وهذا يعين على إنبات النبات، ونضجه، إذْ نحن في برمجة زمنيّة للأمطار، فالله هو الرزّاق، وهو المتصرّف، والمعطي، والمانع، والمغني، والمفقر.

وفي درسٍ آخر إن شاء الله تعالى ننتقل إلى قوله تعالى:

(وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ (29))

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الشورى 042 - الدرس (11-15): تفسير الآيات29-31
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1994-04-15

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الحادي عشر من سورة الشورى.

الإيمان بالله و التشريع أمران متكاملان:

مع الآية التاسعة والعشرين وهي قوله تعالى:

(وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ(29))

(سورة الشورى)

أيها الأخوة المؤمنون... بادئ ذي بدء هناك آياتٌ دالّةٌ على وجود الله، وعلى كماله، وعلى وحدانيّته، وهناك آياتٌ تشريعيّة، فالنبي عليه الصلاة والسلام حينما دعا إلى الله بَثَّ في نفوس أصحابه الإيمان بالله عزّ وجل، ثم جاء التشريع، فكان الإيمان بالله، وبوحدانيّته، وكماله ووجوده مع التشريع متكاملان، ونحن إذا أردنا لأنفسنا الخير، أو أردنا أن ندعو إلى الله عزّ وجل لابدّ من وقفةٍ متأنيةٍ عند آيات الله الكونية، لماذا ؟ لأنها تعرّفنا بالله، فإذا جاء أمر الله عزّ وجل عرفنا من أين هذا الأمر، فشرف الأمر من شرف الآمر، فإذا أردنا أن نعرف الأمر مباشرةً دون أن نعرف الآمر، أغلب الظن أننا لن نُطبّق الأمر، أو نحتال عليه.

من قصّر في معرفة الآمر انعكس هذا التقصير على إيمانه:

إذا سألت هذا السؤال الدقيق: لماذا يعصي الناس ربّهم ؟ الجواب البسيط لأنهم لا يعرفونه، ولو عرفوه ما عصوه، لقد عرفوا أمره ولكنهم ما عرفوه، فما من واحدٍ في العالم الإسلامي إلا وهو يعلم أن الكذب حرام، والغش حرام، والأمر معروف، لكن الناس قصّروا في معرفة الآمر، فحينما قصّر الناس في معرفة الآمر انعكس هذا الضعف في الإيمان بالله عزّ وجل وانعكس تقصيراً في تطبيق أمره، وإلا فهذه الآيات التي تزيد عن ثلاثمئة آية في القرآن الكريم، والتي تحدّثنا عن هذا الكون العظيم لنصل منه إلى خالقه العظيم، فماذا نفعل بها ؟ إذا أهملنا التفكّر في خلق السماوات والأرض، أو أهملنا معرفة الله عزّ وجل فماذا نفعل بهذه الآيات ؟

الكون أكبر آية من آيات الله الدالة على عظمته:

أيها الأخوة الكرام، نحن في الكون، والكون بيننا تحت سمعنا وبصرنا، فالشمس معروفة، والقمر معروف، والليل معروف، والنهار معروف، والهواء، والماء، وأنواع النباتات، والطعام، والشراب، وأنواع الأطيار، والأسماك، والبحار، والبحيرات، والرياح، فهذا بين أيدينا جميعاً، والآية الكريمة:

(أَوَلَمْ يَرَوْا)

(سورة السجدة: من آية " 27 ")

لكن ما الفرق بين الإنسان المؤمن وغير المؤمن ؟ الفرق أن غير المؤمن بقي في الكون، والكون حقيقة، وأهل الدنيا عرفوه أدقّ المعرفة، فأهل الدنيا كما قال الله عزّ وجل:

(يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنْ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

(سورة الروم: من آية " 7 ")

فقد عرفوا الكون، وعرفوا قوانينه، وغاصوا في أعماق البحار، ووصلوا إلى القمر، وجالوا في الفضاء الخارجي، وكشفوا الذرّة، وكشفوا الخليّة، ووصلوا إلى أدق المعلومات، إذاً فالكون بين أيدينا وتحت سمعنا وبصرنا.

الفرق بين المؤمن وغير المؤمن أن المؤمن تجاوز الحقيقة إلى حقيقة أكبر:

فما الفرق بين المؤمن وغير المؤمن ؟ فالكون حقيقة والمؤمن تجاوز هذه الحقيقة إلى حقيقةٍ أكبر، وانتقل من الكون إلى المكوّن، ومن النظام إلى المنظِم، ومن الخَلْق إلى الخالق، ومن التسيير إلى المُسَيّر، ومن التربية إلى المُربي، فهكذا المؤمن، فإذا بقينا في الكون فنحن والغربيون سواء، لقد درسوا المادّة، والذرّة، وأنواع التُرَب، والنباتات، والحيوانات، وغاصوا في أعماق البحار، ووصلوا إلى خليج مريانا في المحيط الهادي، فاستخدموا سفن أبحاث مصفّحة تصوّر، وصعدوا إلى الفضاء الخارجي، ونقلوا الصورة، والصوت، فالعلماء الأجانب درسوا الكون دراسة عميقة، ولكن خطأهم المُميت أنهم بقوا في الكون.

لكن المؤمن ينتقل من الكون إلى المكوّن، ألم يقل كبير من علمائهم الذي اكتشف النظريّة النسبيّة: **" كل إنسانٍ لا يرى من هذا الكون قوّةً هي أقوى ما تكون، رحيمة هي أرحم ما تكون، عليمة هي أعلم ما تكون، حكيمة هي أحكم ما تكون، هو إنسانٌ حيٌّ ولكنّه ميّت ".**

والماء بين أيدينا، وابنك بين يديك، وتعرف أنه قد كان نطفة من ماءٍ مهين، وتعرف كيف أصبحت هذه النطفة التي هي واحد من أربعمئة أو خمسمئة مليون في اللقاء، وقد تلقّحت أو دخلت إلى البويضة

وانقسمت وكلنا يعلم أنه على هذه النطفة توجد خمسة آلاف معلومة مبرمجة، وأن البويضة فيها خمسة آلاف مليون معلومة مبرمجة، وأن النطفة دخلت إلى البويضة وتمّ الانقسام، وهذا الشيء معروف، ولكن الفرق بين المؤمن وغير المؤمن أن المؤمن خرج من هذه الحقيقة إلى حقيقةٍ أكبر.

من أغفل الآيات الكونية أغفل جانباً أساسياً في الدين وهو معرفة الله:

النِعم هل هناك من ينكرها ؟ فنعمة الهواء، ونعمة الماء، والقلب والرئتين، والحواس الخمس، فالفرق بين المؤمن وغير المؤمن أن المؤمن انتقل من النعمة إلى المُنعم، وهذه أول نقطة، والكون حقيقة بين أيدينا، والكفّار والأجانب وصلوا إلى معلومات في منتهى الدقّة عن الكون، ولكنّهم ما عبروا منه إلى الله، أما المؤمن فقد تكون معلوماته عن الكون أقل بكثير من معلومات غير المؤمن، ولكن هذه المعلومات المتواضعة وصل منها إلى الله.

إذاً فحينما نغفل هذه الآيات الكونيّة، التي تزيد عن ثلاثمئة آية في القرآن الكريم، وقد ذكرها الله عزّ وجل ؟ كي تكون دليلاً لنا على الله، وعلى وجوده، وعلى أسمائه الحسنى، وصفاته الفضلى، ووحدانيّته.

فهذه الآيات أيها الأخوة حينما نغفلها نغفل جانباً أساسياً في الدين وهي معرفة الله، ولذلك فكل إنسان يعصي الله، فالجواب البسيط أنه لا يعرفه ولو عرفه ما عصاه، فقد عرف أمره ولكنّه لم يعرفه، وأمر الله أيها الأخوة يُعْرَف بالمدارسة، وكتب الفقه بين أيديكم جميعاً ؛ فالطلاق والزواج، والإرث، والفرائض، والوصيّة، وأحكام المرابحة، وأحكام المضاربة، والمتاجرة، والمُزارعة، والمساقاة، فأحكام الفقه بالمعاملات واضحة بين أيدي الناس، ولكن هذا أمره، فلمَ كان معظم الناس لا يطبّقون أمره ؟ لا لأنهم لا يعرفونه.

آيات الكون آيات قرآنية و كونية في آن واحد:

إذاً هناك آياتٌ كونيّةٌ تدلُّ عليه، وآياتٌ قرآنيّةٌ تدل عليه، وآيات كونيّةٌ قرآنيّةٌ في آنٍ واحد، وحينما يذكر القرآن الكريم آياتٍ في الكون فهي آياتٌ كونيّةٌ قرآنيّةٌ في آنٍ واحد، يقول الله عزّ وجل:

(وَمِنْ آيَاتِهِ (29))

(سورة الشورى)

فهذه كلمة من للتبعيض، أي هذه بعض آياته، لأن آيات الله سبحانه وتعالى لا تعدُّ ولا تحصى..

(وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ (29))

(سورة الشورى)

فكلمة السماوات والأرض هذا مُصطَلح قرآني يعني الكون، والكون يعني ما سوى الله، فالله فوق الخلق فيها وحده، وما سوى الله هو الكون فالسماوات والأرض، فالله واجب الوجود، وما سوى الله فممكن الوجود وخلق السماوات والأرض، مجرّات متحرّكة، ولو سكنت لأصبحت كتلةً واحدة، وكل متحرّك في الكون يسير في مسار مغلق، والله عزّ وجل عبّر عن هذه الحقيقة بشكلٍ معجز فقال:

(وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ(11))

(سورة الطارق)

أي أن كل متحرّك يعود إلى مكان انطلاقه النِسبي بعد حين..

(وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ(11))

(سورة الطارق)

دوران الأرض حول الشمس من آيات الله الدالة على عظمته:

يقول لك: في السنة ألف وثمانمئة وستين (أو سبعين لا أذكر) مذنّب هالي اقترب إلى الأرض، وفي السنة ألف وتسعمئة وست وسبعين (أو ست وثمانين) عاد إلى اقترابه من الأرض..

(وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ(11))

(سورة الطارق)

فكم مجرّة توجد في السماء ؟ بعضهم قال: قريب من مليون مليون مجرّة. وبعضهم قال: في المجرّة الواحدة قريب من مليون مليون نجم فهذا الكون كلّه يتحرّك، ولولا أنه يتحرّك لأصبح كتلةً واحدة. ولكن يوجد شيء دقيق جداً، فالأرض تدور حول الشمس لكن المسار غير دائري، فهو إهليلجي أي مفلطح، والشكل الإهليلجي له بعدان عن المركز بعد أعظمي، وبعد أصغري، فإذا اقتربت الأرض من الشمس وصلت إلى البعد الأصغر فتزداد قوة جذب الشمس لها، فتزيد سرعة الأرض، ولكي ينشأ من هذه الزيادة قوة جديدة نابذة تكافئ القوة الجديدة الجاذبة، فتبقى الأرض على مسارها. فإذا ابتعدت فلئلا تتفلّت من جاذبيّة الشمس تُبَطِّئ سرعتها، حتى تزيد من جذب الشمس لها وتقلُّ القوّة النابذة إنه شيء دقيق جداً. نظام هذه الأرض وعلى هذا فقس كل كوكبٍ في السماء.

دوران الأرض حول نفسها من عظمة الله عز وجل:

إذا جئنا إلى الأرض، فهذه الأرض تدور حول نفسها بسرعة ألف وستمئة كيلو متر في الساعة، وتدور حول الشمس بسرعة ثلاثين كيلو متراً في الثانية، وبدرس علم صغير مقداره خمسون دقيقة قطعت في أثنائه مئة وثمانية آلاف كيلو متر، والمسافة إلى السعوديّة ألفا كيلو متر، مئة وثمانية آلاف كيلو متر

بمقدار درس من دروس الجمعة، فالأرض تدور حول الشمس ثلاثين كيلو في الثانية، والمجموعة الشمسيّة تتحرّك حول كوكب مركزي، وبعض المجرات تدور بسرعةٍ قد لا تُصدّق إنها مئتان وأربعون ألف كيلو متر في الثانية، وأنت ترى أن الأرض مستقرّة، وكل شيء مستقر، فهذه من عظمة الله عزّ وجل، إذاً:

(وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ (29))

(سورة الشورى)

اكتشاف أي حياة في الكواكب الأخرى القرآن الكريم أشار إليها في كلمة:(فيهما):

الآن توجد آية جديدة:

(وَمَا بَثّ فِيهِمَا مِنْ دَابّةٍ (29))

(سورة الشورى)

هذه الآية هي الآية الوحيدة التي فيها إشارةٌ إلى أنّه إذا اكتُشِف في المستقبل أن في الكواكب البعيدة حياة حيوانيّة (كائنات حيّة) فهذه الآية تشير إلى ذلك..

(وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثّ فِيهِمَا مِنْ دَابّةٍ (29))

(سورة الشورى)

أي في السماوات وفي الأرض من دابّة، والدابّة هي المخلوق الذي يتحرّك، وكل شيءٍ يدبُ حركةً فهو دابّة، والمخلوقات التي تدبُّ على وجه الأرض هي الدواب..

(وَمَا مِنْ دَابّةٍ فِي الْأَرْضِ إلا عَلَى اللّهِ رِزْقُهَا)

(سورة هود: من آية " 6 ")

(فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمّ لا تُنْظِرُونِ(55)إِنّي تَوَكّلْتُ عَلَى اللّهِ رَبّي وَرَبّكُمْ مَا مِنْ دَابّةٍ إلا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنّ رَبّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ(56))

(سورة هود)

دعونا من هذه المخلوقات التي قد توجد في الكواكب الأخرى، والتي إذا اكتشف العلم هذه المخلوقات فالقرآن الكريم أشار إليها في كلمة:

(فيهما)

(وَمَا بَثّ فِيهِمَا مِنْ دَابّةٍ (29))

(سورة الشورى)

عالم الأسماك عالم واسع علينا التفكر به:

لنقف عند الدوابِّ التي بثّها الله في الأرض، فهذا الموضوع من أكبر الموضوعات، عالم الحيوانات ولنأخذ عالم الأسماك. في بعض الموسوعات عن عالم البحار حقيقة تؤكِّد أن هناك مليون نوع من الأسماك فهناك أسماك صغيرة جداً إنها أسماك زينة، وهناك حيتان عملاقة وزن الحوت مئة وخمسون طناً، وجبته المعتدلة أربعة أطنان، وترضع أنثاه رضعة واحدة ثلاثمئة كيلو، فثلاث رضعات في اليوم تساوي طناً، جرّ الحوت مرّة باخرة ثماني وأربعين ساعة وهي تدير محرِّكاتها بعكس حركته فجرّها ولم تستطع الإفلات منه، فهذا هو الحوت.

وهناك أسماك صغيرة فسفوريّة شفّافة سُود، مفلطحة، كرويّة متطاولة، لها أذناب، وأشعار، فدقِق في أنواع الأسماك، فهذا كلام دقيق والعلماء حتى الآن اكتشفوا مليون نوع من الأسماك، وهناك أسماك تمشي على أرجل في قعر البحار، فكيف تتحمّل هذا الضغط الهائل ؟ فالغوّاصات العملاقة إذا انخفض غوصها في البحر عن مئتي متر فإنها تتحطّم، أي إذا تعطّل جهاز قياس البعد عن سطح الماء تتحطّم الغواصة، ولكن هذه السمكة تعيش في قعر خليج مريانا، والبعد يزيد عن اثني عشر ألف متر تحت الأرض، فكيف لا تتحطّم ؟ وربنا عزّ وجل جعل بين أجوافها الداخليّة والخارجيّة منافذ حتى يتساوى الضغط، فهناك ضغط داخلي يكافئ الضغط الخارجي.

وهناك أسماك تدافع عن نفسها بموجة كهربائيّة تزيد عن ستة آلاف فولت، فلو أن هذه السمكة أصابت إنساناً لقتلته، ونحن بمئتين وعشرين تكون الكهرباء خطرة، بينما ستة آلاف فولت تطلقها هذه الأسماك، وهناك أسماك تدافع عن نفسها بسحابة دخَانيّة فتغيب، وهناك أسماك تضيء طريقها في قعر البحار، وهناك أسماك تداوي الأسماك الأخرى، طبيبات فرتلٌ طويل من الأسماك التي تقرّحت حراشِفُها تقف في نظام وتنتظر أن تعالجها هذه السمكة، وهذه السمكة لا أحد يلتهمها، لأنها (هلال أحمر) تقدِّم خدمات للأسماك جميعاً.

عالم البحار من آيات الله الدالة على عظمته:

فيا أيها الأخوة عالم البحار عالم عجيب، فاقرؤوا، وشاهدوا، فالبحار لمن ؟ من أجل أن تعرف الله عزّ وجل. والآن لا يحضرني أشياء كثيرة مرّت بي، لكن والله هناك حقائق عن البحار لا تصدّق، ولولا أن الأسماك الكبيرة تلتهم الصغيرة لأصبح البحر كما لو وضعت في وعاءٍ حمصاً ونشف الماء، ما بقي غير الحمُص، ولو أن الأسماك لا تلتهم بعضها لغلب السمك ماء البحر (يصير البحر من دون مرقة) أي كله سمك وهذا الشيء مخيف، لأن جُراب البيوض في الأسماك ملايين الملايين، فالسمكة عندها

خط تعرف أين هي من سطح البحر، وجهاز ضغط، وأنبوب مفرّغ من الهواء، والسمكة فيها وعاء في أسفله بعض الرملات فإذا كانت على عكس اتجاهها نحو السطح فتعرف ذلك، فكيف تعرف السمكة أن الهواء فوقها وأن قعر البحر تحتها ؟ الله عزّ وجل زوّدها بطريقة تعرف بها ذلك.

إباحة الله عز وجل للإنسان أن يأكل لحم السمك دون أن يذبحه:

الشيء الغريب هو أن الله سبحانه وتعالى أباح لنا أن نأكل السمك الذي نصطاده من دون أن نذبحه، مع أن بعض البلاد الأجنبيّة التي تتملّق المسلمين، وتظن أنهم ساذجون ترسل لهم معلّبات أسماك كتب عليها ذُبحَت على الطريقة الإسلاميّة. أي طريقة إسلامية ؟! السمك لا يُذبَح ويؤكل ميتاً كيف ؟

شخص سأل سؤالاً: إذا كان ذبح الحيوان من أجل تزكيته حقاً فكيف نأكل السمك من دون ذبح ؟ إذا كان الذبح قضيّة شكليّة إذاً ليس له فائدة، ثم اكتُشِف أن السمكة حينما تُصطاد ينتقل كل دمها إلى غلاصمها وكأنها ذُبحَت، فعندما سمح لنا النبي عليه الصلاة والسلام أن نأكل السمك من دون أن نذبحه، وهو لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحيٌ يوحى، فلحم السمك ما فيه دم أبداً، كل دماء السمكة تنتقل عندما نصطادها إلى غلاصمها، فعالم الأسماك..

(وَمَا بَثّ فِيهِمَا مِنْ دَابّةٍ (29))

(سورة الشورى)

مليون نوع من الأسماك على شكل مزهريّة، الأشكال التي للأسماك مهما حاول الإنسان أن يتخيّل فهناك أشكال فوق تخَيُّله بالحجوم والأشكال وهناك أسماك متوحّشة، فسمك القرش مخيف، وأحياناً يصطادوا القرش فيجدوا فيه رأس إنسان، يد إنسان، حاجات، فإذا شعر أن هناك دم إنسان حي فإنه يتوحّش، وهناك سمك لطيف، وسمك لحمة طيّب، وسمك كالأفاعي، وسمك كالخنازير، فأنواع منوّعة من الأسماك، وليس القصد أن يكون هذا الدرس درساً علمياً، بل القصد..

(وَمَا بَثّ فِيهِمَا مِنْ دَابّةٍ (29))

(سورة الشورى)

فما خطر في بال الإنسان أن يفكِّر في عالم الأسماك !

عالم الطيور عالم واسع خلقه الله سبحانه و تعالى:

وعالم الأطيار ؛ أنواعه، وأشكاله، الأطيار الجارحة وغير الجارحة، والتي تغرّد، والتي هي للزينة، والمتوحّشة، وأنواع منوّعة فطير يطير سبعة عشرَ ألف كيلو متر بلا توقّف !! وأي طائرة تفعل ذلك ؟ والطائرة التي وزنها مئة وخمسون طناً، ومئة وخمسون طناً وزن وقودها، وهذا الحجم من الوقود

يكفيها لطيران أربع عشرة ساعة فقط (فهذه طائرة الجانبو العملاقة من أكبر قياس) أما هذا الطائر فيطير من القطب الشمالي إلى القطب الجنوبي بشكلٍ مستمر، ولكن كيف يهتدي ؟ طائر معشِّش في بيت في منطقة الشيخ مُحْي الدين، جاء فصل الشتاء فارتحل إلى جنوبي إفريقيا، والآن هو في طريق العودة ولو انحرف درجة واحدة فإنه يأتي في لبنان، ودرجتين فإنه يأتي إلى تركيّا، إنه يعود إلى دمشق، وإلى الصالحيّة، وإلى الشيخ محي الدين، عرودك، البيت الثالث وينزل في محله، أين كان ؟ كان في جنوبي إفريقيا، فمن دلّه على الطريق ؟

إن قلت: التضاريس. إنه يطير في الليل. فالموضوع دقيق جداً.

الله سبحانه وتعالى هو الذي يُلْهِم الطير إلى أن يصل إلى هدفه:

هناك بحوث علميّة حتى الآن لم يستطع العلم أن يقول: كيف يصل الطير في رحلته الطويلة إلى مكان خروجه ؟ إلى أن جاء بحثٌ يقول إن الطير (لا نظرية المغناطيسية صحيحة، ولا التضاريس صحيحة، ولا الشمس صحيحة، وكل النظريات التي وضعت لتفسير سر وصول الطائر إلى هدفه من دون دليل لم تنجح) فالله عزّ وجل أشار في القرآن الكريم أن الله سبحانه وتعالى هو الذي يُلْهِم الطير إلى أن يصل إلى هدفه..

(أوَلَمْ يَرَوْا إلَى الطّيْر فَوْقَهُمْ صَافّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنّ إلا الرّحْمَانُ)

(سورة الملك: من آية " 19 ")

عزا ذلك إلى ذاته مباشرةً، فالطير يصل إلى هدفه بإمساك الله له ويلهمه طريقه الصحيح مباشرةً، وأي نظريّة لم تنجح إلى الآن، فهناك بحوث بمئات الكتب، ومئات التجارب، فالطيور تلوّن وتُرسل إلى أماكن بعيدة، إلى أستراليا، وهي في بريطانيا، يلونونها، وتعود إلى مكانها فكيف عرفت الطريق ؟ لو أنها سافرت كما هي العادة بخط نحو الجنوب فالآن أخذوها نحو الشرق وعادت، فكيف تعود ؟ إن عالم الطيور عالم قائم بذاته.

التفكر في عالم الأسماك يقودنا إلى الله عز وجل:

عالم الأسماك فيه أشياء مذهلة، فالأسماك التي تعيش في ينابيع الأنهُر في أمريكا ؛ كنهر الأمازون، ونهر الميسسبي، تنتقل من ينابيع الأنهار إلى المحيط الأطلنطي إلى أوروبا (فهذا سمك السلمون) وحينما تعود هذه الأسماك تعود إلى مسقط رأسها في أعالي الأنهار، وتقاوم الشلالات. فهذه حينما تخرج من سواحل فرنسا وتتجه نحو أمريكا، مرّة ثانية لو أخطأت درجة واحدة لجاءت في أمريكا

الجنوبيّة، وهذه في كندا، وهذه في أمريكا الشماليّة، وهذه في المكسيك، وهذه في البرازيل، فكيف تتجه بزاوية دقيقة جداً ؟ لا أحد يعلم.

وهناك أسماك تنتقل من ينابيع نهر النيل إلى بحر الشمال، فتقطع النيل بأكمله، وتدخل البحر المتوسِّط، وتتجه نحو الغرب إلى مضيق جبل طارق، وتتجه نحو الشمال محاذيةً لإسبانيا ثم فرنسا، تدخل إلى بحر المانش ثم إلى بحر الشمال هناك، والله غواصة تضل تحت البحار، فتجد فيها ربُاناً يقودها وخرائط ولاسلكي ومع ذلك ضلّت الطريق وغرقت، فهذه السمكة شكلها كشكل الأفاعي تنتقل من ينابيع نهر النيل إلى بحر الشمال وتعود، من ؟

(مَا يُمْسِكُهُنّ إلا الرّحْمَانُ)

(سورة الملك: من آية " 19 ")

فعالم الأسماك عالم عجيب يجب أن نفكِّر فيه، لنعرف الله عزّ وجل. عالم الأطيار.

تذليل الحيوان للإنسان بقدرة الله عز وجل:

الآية اليوم:

(وَمَا بَثّ فِيهِمَا مِنْ دَابّةٍ (29))

(سورة الشورى)

فهذه الكائنات، الآن الأنعام كيف أنها مذلّلة، فلو أن الله عزّ وجل وضع أخلاق الضبع في الغنمة، فلا تستطيع أن تأكل لحم غنم، ويقول لك: فلان مثل الغنمة ؛ أي مذلّلة، والبقرة مذلّلة، الجمل مذلّل، وهذه كلّها أنعام مذلّلة، فهذه البقرة تصنع الحليب، والآن هناك نوع هجين يعطي ستين كيلو حليب في اليوم، فالحليب كيف يأتي ؟ الغدّة الثديية للبقرة مثل قبّة، خلايا ثديية محاطة بشبكة أوعية دمويّة دقيقة جداً، فهذه الخليّة تأخذ من الأوعيّة الدمويّة حاجتها، وحتى الآن لا أحد يعلم كيف يتم تصنيع الحليب في الخليّة الثديية، ولكن الذي يعلمونه أن هناك مجموعة خلايا على شكل قبّة في أعلاها شبكة أوعية دمويّة، ويرشح الحليب من أسفلها، وكل أربعمئة لتر من الدم تشكل لتر حليب واحد، لأنها تجول في الغدّة الثديية وهذا ثدي البقرة الكبير لو لم يكن له قواطع عرضيّة وطوليّة لتمزّق، لأنه يحمل ستين كيلو، ولذلك له قواطع عرضيّة وقواطع طوليّة، أي أربعة أقسام، وكل حلمة لها قسم، ولو أن أربعة كانوا شركاء في بقرة وأخذ كل واحد حلمة، فإنه يأخذ ربع الكميّة بأكملها، فما هذا الثدي ؟ البقرة آية من آيات الله، والهنود عبدوها من دون الله، أما المؤمنون فيعبدون الذي خلقها وسخّرها لهم. فهذا الحليب مادّة أساسيّة جداً في حياتنا، وأنت عدِّد مشتقات الحليب، آيات كثيرة تؤكِّد هذا المعنى..

(مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشّارِبِينَ(66))

(سورة النحل)

من آيات الله الدالة على عظمته:

1 ـ الناقة:

البقرة آية، و الغنمة آية، والناقة آية، من آيات الله الدالّة على عظمته، مزوّدة بعينين تُريان الجمل البعيد قريباً، والصغير كبيراً، ومزوّدة بأهداب تمنع عنها غُبار الصحراء، فتستطيع الناقة أن تعيش بلا ماء ثلاثة أشهر، ثلاثة أشهر بإمكانها أن تأخذ ماء الخلايا من دون ماء ومن دون غذاء، إنه شيء لا يصدّق..

(أفلا يَنْظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ(17)وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ(18)وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ(19)وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ(20))

(سورة الغاشية)

والناقة تجلس جلسة نظاميّة، فلو أنها تجلس كما يجلس بقية الدواب لا يستطيع الإنسان أن يستخدمها، فكيف يحمِّل عليها وهي مضجعة على اليمين ؟ أما هي فتجلس جلسة نظاميّة، يحمِّل بضاعته عليها ثم تنهض فهي تحمل كل هذا المتاع.

ونحن لا نتحدّث هنا حديثاً علمياً دقيقاً عن هذه الحيوانات، ولكن إشارات لكي تكون هذه الآيات دليلاً على عظمة الله عزّ وجل.

والجمال لا يستغنى عنها في بعض البلاد، رغم كل التطور التكنولوجي والميكانيكي للأسلحة، لأن الصحراء ليس هناك حيوان يستطيع أن يجتازها إلا الجمل، فالجمل آية، والغنم آية، والبقر آية.

2 ـ البقر:

البقر مذلّل، وهناك مرض يصيبه اسمه التوحُش، فالبقرة تقتل أشخاصاً عدّة، يأتي صاحبها مختاراً ويقتُلها وثمنها سبعون ألفاً، وهذا التوحُش يريد أن يلفت لنا ربنا نظرنا إلى نعمة التذليل، وذللناها لكم أعرفتم هذه النعمة ؟ إن غفلتم عنها أريكم كيف تكون البقرة متوحِّشة. ذكر لي أخ كريم أن بقرة قتلت أول شخص والثاني، وكادت تقتل الثالث فأسرع صاحبها إلى المسدّس وأطلق عليها النار وقتلها، وثمنها سبعون ألف ليرة، لأنها توحّشت، عندما قال ربنا:

(وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ)

(سورة يس: من آية " 72 ")

هذه آية كونيّة دقيقة، فعندما يرى الإنسان بقرة، وغنمة، ويأكل من السمك، و الدجاجة، وهذا شيء دقيق جداً، فهذه كلها حيوانات مذلّلة، قال الله:

(وَمَا بَثّ فِيهِمَا مِنْ دَابّةٍ (29))

(سورة الشورى)

جمع الخلائق بعد الموت:

ثم يقول الله عزّ وجل:

(وَمَا بَثّ فِيهِمَا مِنْ دَابّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ(29))

(سورة الشورى)

هذه الآية دقيقة تشير إلى أن الله سبحانه وتعالى سيجمع الخلائق بعد الموت، فكل إنسان سوف ينال حقّه، لاحظوا أيها الأخوة أن الله سبحانه وتعالى أكثر شيء جمع بينهما الإيمان بالله واليوم الآخر، لماذا اليوم الآخر ؟ لأن الإنسان يفعل ما يشاء، ولكن كل شيء يفعله محاسبٌ عليه حساباً دقيقاً، وحساباً عادلاً، ولذلك فالنبي عليه الصلاة والسلام قال:

((أرجحكم عقلاً أشدُكم لله حباً))

[ورد في الأثر]

وقال عليه الصلاة والسلام:

((رأس الحكمة مخافة الله تعالى))

[الجامع الصغير: عن " ابن مسعود "]

لكن هذا العقل الكبير الراجح من لوازمه الخوف من الله ومحبة الله، فأنت عاقلٌ بقدر ما تخاف من الله، وبقدر ما تحبُه.

أعمال الإنسان مسجلة عليه و سيحاسب عليها حساباً دقيقاً:

لذلك:

(وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثّ فِيهِمَا مِنْ دَابّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ(29))

(سورة الشورى)

أي اعملوا ما شئتم لكن أعمالكم كلّها مسجّلة عند الله عزّ وجل فالإنسان إذا أيقن أن الله موجود، وأن الله يعلم، وأن الله سيحاسب، وأن هناك ملائكة تُسَجّل..

(مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ(18))

(سورة ق)

وأن هناك حياة أبديّة لا تنتهي، فالإنسان إذا أيقن بهذا دخل في عالم الاستقامة، وعالم الاستقامة سبب للكرامة، فأنت تريد من الله الكرامة وهو يريد منك الاستقامة.

الاستقامة على أمر الله سبب دخولك الجنة:

بصراحة أيها الأخوة دين من دون استقامة هو كلام فارغ، وثقافات، ومعلومات، ومقالات، ومحاضرات لكن مثله مثل أي شيء آخر، الدين عظمته أن الإنسان إذا استقام قطف كل الثمار، ولن تستطيع أن تقطف ثمار هذا الدين إلا إذا استقمت على أمر الله عزّ وجل، ولذلك من يقول لك: أخي أنا فكري إسلامي. خير تشرّفنا، أنا عندي عواطف إسلاميّة، خير إن شاء الله، لا العواطف تنفعك، ولا هذا الفكر ينفعك، ومطالعاتي إسلاميّة، ومكتبتي إسلاميّة، وأساليبي كلها إسلاميّة، وأنا أريد منك أن تستقيم على أمر الله وكفى، فإن استقمت على أمر الله قطفت كل الثمار، لذلك:

(وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ(29))

(سورة الشورى)

ما من مصيبةٍ في الكون أو في الأرض إلا بسبب معصية من الإنسان:

الآن أيها الأخوة ندخل في آية جديدة:

(وَمَا أَصَابَكُمْ (30))

(سورة الشورى)

والله الذي لا إله إلا هو هذه الآية وحدها لو لم يكن في كتاب الله إلا هذه الآية لكفتنا..

(وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ (30))

(سورة الشورى)

هذه المِنْ يقول عنها علماء اللغة: لاستغراق أفراد النوع. لو قال الله عزّ وجل: والمصائب التي تصيبكم بما كسبت أيديكم. المعنى غير المعنى الدقيق الذي تؤكِّده هذه الآية..

(وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ (30))

(سورة الشورى)

مثلاً لو أن إنساناً قال لك: هل معك مال كي ننشئ مشروعاً تجارياً ؟ تقول له أنت: والله ما معي مالٌ. أنت معك مئتا ألف والمشروع يحتاج إلى مليونين، منك مليون ومنه مليون، إذا قلت: ما معي مالٌ. ماذا تقصد أنت بهذا ؟ أي ما معي مالٌ يكفي لهذا المشروع ولكن إذا قلت: ما معي من مالٍ، أي ولا ليرة

سورية واحدة، فهذه المِنْ تفيد استغراق أفراد النوع، ولا ليرة سورية، ولا نصف ليرة، ولا رُبع ليرة، ما معك شيء، ما معي من مالٍ، من تفيد استغراق أفراد النوع.

كل شيء في الكون بيد الله عز وجل:

والله عزّ وجل قال:

(مَا مِنْ دَابّةٍ إلا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا)

(سورة هود: من آية " 56 ")

أي لا توجد ولا حشرة سائبة:

(مَا مِنْ دَابّةٍ إلا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا)

(وَمَا مِنْ دَابّةٍ فِي الأَرْضِ إلا عَلَى اللّهِ رِزْقُهَا)

(سورة هود: من آية " 6 ")

وحيثما قرأتم كلمة من الزائدة فهذه تفيد استغراق أفراد النوع، فهنا يقول الله عزّ وجل:

(وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ (30))

(سورة الشورى)

أي أقل مصيبة، ورد في الحديث الشريف:

((ما من عثرةٍ))

شخص وقع في الطريق ما حصل له شيء، وقف ومشى فهذه مصيبة إذا قلت: من أين هذه مصيبة، ماشي في الطريق فخدش جلدك مسماراً فما حصل شيء إطلاقاً انتهت العملية، الحديث الشريف:

((ما من عثرة ولا اختلاج عرق ولا خدش عود إلا بما قدمت أيديكم، وما يغفر الله أكثر))

[من الجامع الصغير: عن " ابن عساكر عن البراء "]

الجهل بمعرفة الله و أمره يؤدي بالإنسان إلى المعاصي:

هذه الآية:

(وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ (30))

(سورة الشورى)

ويمكنني أن أقول اعتماداً على هذه الآية: إنه ما من مصيبةٍ في الكون أو في الأرض (نحن نعيش على الأرض) إلا بسبب معصيتنا، وما من معصيةٍ إلا بسبب جهلٍ إما بمعرفة الله أو بأمره، فإن عرفته ولم تعرف أمره أصابتك المصيبة، وإن عرفت أمره ولم تعرفه فما طبّقت أمره أصابتك المصيبة، إذاً هذه الآية:

(وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ (30))

(سورة الشورى)

هذه الآية وحدها تكفي لتعاملك مع الله عزّ وجل..

((يَا عِبَادِي لَوْ أَنّ أَوّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا يَا عِبَادِي لَوْ أَنّ أَوّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا يَا عِبَادِي لَوْ أَنّ أَوّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمّا عِنْدِي إِلا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ يَا عِبَادِي إِنّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ ثُمّ أُوَفِّيكُمْ إِيّاهَا ـ دققوا الآن ـ فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللّهَ وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلا يَلُومَنّ إِلا نَفْسَهُ))

[من صحيح مسلم: عن " أبي ذر "]

كل مصيبةٍ أصابت الإنسان بسبب معصيةٍ لكن ما كل معصيةٍ يتبعها مصيبة:

هذه الآية:

(وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ (30))

(سورة الشورى)

وهناك مصائب أدبيّة، انحرجت، في مصائب ماديّة، فذهب منك مئة ألف، وهناك مصائب معنويّة، أهانك إنسان لا سمح الله، وهناك مصائب أسريّة ابن غالٍ مات، مرض، وأحياناً حبس حريّة، وأحياناً إهانة، وأحياناً ذل، وأحياناً فقر مُدقع، وأحياناً ألم لا يُحتمل، وأحياناً انحرجت قليلاً، فذكرت رقماً غير صحيح، فقال لك شخص: الرقم غير صحيح من أين أتيت به ؟ فاستحيت في نفسك، فهذه كذلك مصيبة..

(وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ(30))

(سورة الشورى)

العكس غير صحيح، أي أن كل شيء أصابك بسبب معصية، لكن ما كل مخالفة وذنب يتبعها مصيبة، هو يعفو عن كثير (فالمعنى دقيق) فكل مصيبةٍ أصابت الإنسان بسبب معصيةٍ أو ذنب، لكن ما كل ذنبٍ أو معصيةٍ يتبعها مصيبة..

الله عز وجل عفو يعفو عن الإنسان و يسامحه و يعطيه فرصاً كثيرة:

(وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ(30))

(سورة الشورى)

فربنا عزّ وجل يحاسب قليلاً ويعفو كثيراً، إذ يحاسبك عن واحدة ويسامحك بعشرة كي تتعظ، وكي تقترب، والله يعطي فرصاً كثيرة..

(وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ(30))

(سورة الشورى)

وهذه الآية قد تكون شعاراً للإنسان يضعها في بيته، وفي مكتبه ودكّانه حتى لا يتهم الخالق العظيم بشيء، الله عزّ وجل عادل.

المصائب التي تنزل بالإنسان ما هي إلا معالجة من الله عز وجل:

اسمعوا الآية الكريمة:

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ)

(سورة النساء: من آية " 147 ")

الله ماذا يفعل بالمصائب التي ينزلها بكم ؟ لا معنى لها بالنسبة له لكنها معالجة..

(وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ(30))

(سورة الشورى)

هذه الآية يجب ألا تغيب عن أذهان إخواننا الكرام، لا يلومن إلا نفسه.

من تعامل مع الله عز وجل بصدق و استقامة نال:

1 ـ السرور و السعادة و التيسير:

تعامل معه بصدق وباستقامة تر من السرور والسعادة ما لا سبيل إلى وصفه، وتر من التيسير..

(فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى(5)وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى(6)فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى)

(سورة الليل)

2 ـ الحياة الطيبة:

وهذه واحدة، ترى الحياة الطيّبة..

(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً)

(سورة النحل: من آية " 97 ")

3 ـ دفاع الله عن الذين آمنوا:

ترى أن الله يدافع عن الذين آمنوا، هذه الثالثة:

(وَلَيَنصُرَنّ اللّهُ مَنْ يَنصُرُهُ)

(سورة الحج: من آية " 40 ")

4 ـ النصر و التأييد:

والآية الرابعة..

(وَأَنّ اللّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ(19))

(سورة الأنفال)

فهو معهم بالنصر، والتأييد، والحفظ، والتوفيق، والدفاع عنك، والحياة الطيّبة، والتيسير، فهذه كلها وعود الله عزّ وجل، فإذا لم تتحقّق هذه الوعود فلعلّة أن هناك كسباً لا يرضي الله عزّ وجل..

(فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ(30))

(سورة الشورى)

كل إنسان في قبضة الله عز وجل:

الآن:

(وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ (31))

(سورة الشورى)

فإنسان يظن نفسه قوياً ؟ فالقوي هو الله عزّ وجل، ونقطة دم تتجمّد في مكان بالدماغ فيقول لك: خثرة دماغيّة، فشلل نصفي، وبمكان آخر جنون، وبمكان ثالث فقد ذاكرة، وفي مكان رابع عمى، وفي مكان خامس نِسيان، فالإنسان ضعيف جداً، في مكان ثالث يقول لك: درجتين لا يستطيع أن يمشي، إذا كان في القلب، وبالأعصاب، فشيء لا يحتمل..

(وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (31))

(سورة الشورى)

فأنت في قبضة الله، فتصوّر لو أن آلة تتحرّك على الكهرباء وأنت عندك الفيش، لو كبست الزر وقفت كلها، إذا قالت لك الآلة: أنا قويّة، وأنا كذا. ولا كلمة تكبس زراً فتقف، وكل من يقول: أنا، فهو جاهل، فكلمة أنا أي جاهل لا يعرف الله، وربنا عزّ وجل حكمته عجيبة يجعل إنساناً عليلاً ثلاثين سنة على الفراش، وإنساناً يموت مثل الحصان بلا سبب، فحالات كثيرة جداً يقول لك: سكتة قلبيّة، أو سكتة

دماغيّة ولم يكن فيه شيء، وهو يسوق سيارته، ويشتغل، وهو قاعد سهران مال برأسه فإذا هو قد مات..

(وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (31))

(سورة الشورى)

الموت و الحساب نهاية كل إنسان:

نحن جميعاً في قبضة الله فكيف نعصيه ؟ وكيف ننسى ساعة اللقاء وساعة المغادرة ؟ وكل يوم فيه خمسون أو ستون نعوة، وفيه خمسون مثلهم بغير نعوات، إعلان بالمآذن، فخمسون شخصاً غادروا من مدينتنا إلى غير رجعة، فماذا بعد الموت ؟

(وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (31))

(سورة الشورى)

أغنياء يموتون، وفقراء يموتون، وأقوياء، وضعفاء، وجبابرة، ومستضعفون، وأذكياء، وأغبياء، وكل إنسان يموت، وكل مخلوقٍ يموت..

(وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (31))

(سورة الشورى)

فالله عزّ وجل قادر أن ينهي الحياة، وقادر أن يجعل الحياة جحيماً لا يُطاق..

(وَمَا وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ(31))

(سورة الشورى)

فالولي هو الذي يولِّيكم، والنصير هو الذي ينصُركم، من دون الله لا ولي ولا نصير، فالله هو الولي والله هو النصير.

من أصابته مصيبة فليبحث عن السبب و ليتوب إلى الخالق لتنزاح عنه:

إخواننا الكرام تطبيقاً لهذه الآية: إذا أصابت الإنسان مصيبة من كل أنواع المصائب ؛ أدبيّة، أو معنويّة، أو ماديّة، أو جسميّة، أو في أسرته، أو في بيته، أو في عمله، أو أي نوع من أنواع المصائب إذا أصابته (لا سمح الله ولا قدّر) فالموقف الأخلاقي العلمي الدقيق أن يحاسب نفسه حساباً عسيراً، فإذا عرف السبب بطل العجب.

فكل أخ كريم (لا سمح الله ولا قدّر) أزعجته قضيّة فيقول: يا أخي في الدنيا حلو وحامض ولفّان (كأنواع الرُمّان) وهذا كلام العوام، فالدهر يومان يومٌ لك ويومٌ عليك، وهذا كلام عوام أيضاً، فالقدر

سخر منه، وهذا كلام فلاسفة بعيدين عن الله عزّ وجل، والدنيا حظوظ، لا ليست حظوظاً فهذا كلام كذلك ليس له معنى، وليس له وزن في الدين إطلاقاً الوزن في الدين الإنسان إذا أصابه شيء ليقف عند هذه الآية، إله يقول لك:

(وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ (30))

(سورة الشورى)

ليبحث عن السبب فإذا وصل إليه، يتوب منه، وتزاح عنه المصيبة..

(إِنّ اللّهَ لا يُغَيّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتّى يُغَيّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ)

(سورة الرعد: من آية " 11 ")

نوع المصيبة يتوافق مع الذنب الذي أصابت الإنسان من أجله:

يوجد آية ثانية جميلة جداً:

(وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللّهِ)

أن الله عادل، وحكيم، والله ليس له مصلحة أن يعذِّبنا، ومن يؤمن بالله، بكمالاته، وحكمته، ورحمته، وعدالته وتربيته

(يَهْدِ قَلْبَهُ)

إلى حكمة المصيبة:

(وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ)

(سورة التغابن: من آية " 11 ")

وكأن ربنا عزّ وجل من حكمته أنه إذا ساق لإنسان مصيبة ينفث في روعه، أو يلهمه أن هذه من أجل كذا، أو أن نوع المصيبة يتوافق مع الذنب الذي أصابته من أجله.

فعندنا إشارتان، شخص بخل بالزكاة، وهي قصّة واقعة مع أحد الأشخاص الذين أثق بكلامهم، عليه زكاة فرضاً أحد عشر ألفاً وستمئة وخمسون ليرة، فما دفع الزكاة، واستجاب لضغط زوجته: أنها نريد ترتيب البيت، وتريد أن تدهنه. فلم يدفع الزكاة، صُدمت مركبته، فكان التجليس والقطع والدهان أحد عشر ألفاً وستمئة وخمسين ليرة بالضبط وهذه إشارة لعدم دفع الزكاة.

المؤمن الصادق يلهمه الله الحكمة من وراء المصيبة التي أصابته:

أغلب المصائب تأتي من جنس الذنب، فإذا وجد تكبُّراً تجد إهانة، وإذا وجد إسرافاً أو تقتيراً، أو إهمالاً لزوجة ابنك في البيت فيأتي إهمال لابنتك من زوجها بالمقابل، وإذا حصل إهمال للوالد يأتي إهمال

للابن، وأغلب الظن تأتي المصائب بشكل يوحي للإنسان بسببها، إما أن التوافق بين المصيبة وبين الذنب، أو أن الله عزّ وجل يلقي في روع المؤمن الصادق: أن يا عبدي هذه من أجل كذا، فانتبه. إما منام، أو إلهام، على كلٍ..

(وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ)

(سورة التغابن: من آية " 11 ")

إلى حكمتها.

كلما كبر عقل الإنسان ازداد محبة لله و خوفاً منه:

إخواننا الكرام كلّما كبر عقل الإنسان يزداد خوفه من الله، فيضبط لسانه، ويضبط سمعه، وبصره، وبيته، وعمله، فلا كذبة، ولا غش، ولا حركة، وكلّما كبر العقل يزداد الخوف، وكلّما كبر العقل تزداد المحبّة لله عزّ وجل، احفظوا هذين الحديثين أرجحكم عقلاً أشدُّكم لله حباً.

((رأس الحكمة مخافة الله تعالى))

[الجامع الصغير: عن " ابن مسعود "]

(وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ(30))

(سورة الشورى)

لا أحد يتملّق نفسه فيقول: أخي هذه ترقية، أنا لي عند الله مقام، فلولا هذه ما ارتقيت لهذا المقام. لا إذا أصيب أخوك بمصيبة فالأدب أن تقول: هذه ترقية، وإيّاك أن تتهم أخاك إذا ألمّت به مصيبة أنه مقصِّر بذنب، لا هذا من سوء أخلاق المؤمن مع إخوانه، فإذا أصابت المصيبة أخاك فأحسن الظن به وقل: هذه ترقيه إلى مستوى أعلى، أما إذا أصابت الإنسان مصيبة فلا يتملّق نفسه، ولا يرش على الموت سكّراً، ليكن مع نفسه صريحاً وجريئاً، وليبحث عن الذنب، فإذا تعامل مع الله بهذه الطريقة قطع أربعة أخماس الطريق إلى الله، وبالتعبير العامي ـ بدأ يفهم على الله ـ قال له: يا رب لقد عصيتك ولم تعاقبني. قال: **" يا عبدي لقد عاقبتك ولم تدر، ألم أحرمك لذّة مناجاتي ".**

كلّما شعر الإنسان بمشكلة عليه أن يترك الحل الأرضي ويبحث عن العلّة السماويّة:

الآن هنا مصائب من نوع جديد للمؤمنين، ما فيه شيء، كل شيء على أحسن ما يرام ولكن يحجبك عنه، فالصلاة ما فيها شيء، تقرأ قرآناً ولا تشعر بشيء، وتذكر وما تحس بشيء، وبالذكر لا تذوق حلاوة، وبالتلاوة لا تجد لذة، ومعنى هذا فأنت محجوب، ولماذا أنت هكذا ؟ اعلم أن عندك مشكلة

فابحث عنها. فالإنسان إذا ارتقى يعاقب بالحَجب فقط وأموره كلها منتظمة وليس عنده مشكلة، ولكن إذا صلّى لا يشعر بطعم الصلاة، فهو محجوب، قال له: **" ألم أحرمك لذّة مناجاتي".**

فيا إخواننا الكرام هذا كلام رب العالمين، كلام الذي خلقنا والذي إليه المصير، لا أحد يتملّق نفسه، ولا أحد يغطي..

(وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ(30))

(سورة الشورى)

وكلّما شعرت بمشكلة اترك الحل الأرضي وابحث عن العلّة السماويّة.

من أصابته مصيبة عليه أن يرجع إلى كتاب الله و يتعامل معها تعاملاً علمياً:

أحياناً هناك بلاد أصابها مصيبة، وهي بلاد بأكملها، فالله قال:

(وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ(112))

(سورة النحل)

ارجع إلى كتاب الله دائماً، فهذه الآية يمكن أن تكون شعاراً لكل مؤمن يضعها في بيته، ويضعها في عمله، وفي مكتبه، وفي محفظته..

(وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ(30))

(سورة الشورى)

ويتعامل مع المصائب تعاملاً علمياً، فهذه لماذا ؟ شخص راكب مركبة فوقفت في الطريق، فبدأ يبكي، ارفع الغطاء وانظر ماذا يوجد ؟ بدل من أن تبكي وتنادي وتصيح افتح وانظر ما سبب وقوفها، وقوف المركبة فيها سبب، في محركها علّة، وبدل أن تعمل صخباً، وضجيجاً وصياحاً. لا لا، دعك من هذا فهذا موقف غير علمي، هذا موقف جهلي فافتح وابحث عن السبب، فإذا ظهر السبب بطل العجب، والله كريم وكلنا عباده..

(إِنّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللّهِ أَتْقَاكُمْ)

(سورة الحجرات: من آية " 13 ")

العلاقة الوثيقة بين الذنب و المصيبة:

هناك خطأ بكسب المال، فنقص منك مبلغ، وجاء إنسان وحمّلك غرامة كبيرة، لأنه بالكسب يوجد خطأ، فصار خلاف زوجي ومعنى هذا هناك إطلاق بصر، ومن ذلك كان أحد الأشخاص رجلاً معتبراً موظّفاً

وعنده خمس أو ست بنات متزوجات، وعنده هواية بسيطة ينزل من حي المزّة إلى طريق الصالحيّة في أيام الصيف، مارين يمتّع نظره بالنساء فصار معه مرض، ارتخاء الجفون، فإذا أراد أن يرى إنساناً فإنه يمسك الجفن ويفتحه وينظر إليه..

(وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ (30))

(سورة الشورى)

انظر علاقة المصيبة: ارتخاء الجفون بسبب إطلاق البصر، والشقاق الزوجي من إطلاق البصر، وذهاب المال وإتلافه من كسبه، فكسب المال قد يكون حراماً، فكل إنسان ينتبه، فإذا انتبه يكون قد قطع أربعة أخماس الطريق إلى الله، وهذه الآية اجعلها شعاراً لك..

(وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ(30))

(سورة الشورى)

الحياة الطيبة ثمن الاستقامة على أمر الله عز وجل:

كل مصيبة وراءها ذنب، ولكن ما كل ذنبٍ وراءه مصيبة لأن الله عفو كريم، يريحك قليلاً، ثم يبعث لك واحدة فانتبه، يريحكم فترة طويلة شهراً أو شهرين ولا يحدث لك شيئاً، إذ يكون عندك أخطاء ولكن يريحك مرّة ثانية فتأتي مشكلة ثانية، إلى أن تستقيم وجهَتك إلى الله، ويستقيم عملك تماماً فتجد الحياة أصبحت طيّبة كما قال الله عزّ وجل:

(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً)

(سورة النحل: من آية " 97 ")

هذا كلام رب العالمين، فهذه الآية ليست آية خلافية، وليست آية معقّدة تحتاج إلى مفسّرين، ومعاجم لغة، أخي آراء الأشعريين كذا، لا تحتاج لأنها آية واضحة، وهي مفسّرة بنفسها، والقرآن بعض آياته متشابهة وأغلبه محكم، لا تحتاج لمفسّر..

(وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ(30))

(سورة الشورى)

هذه بدون تفسير، هذه اجعلها شعاراً لك، وضعها في بيتك، وفي مكتبك، وجيبك.

من دقق في كل شيء توجه إلى الله عز وجل و نال رضاه:

كلّما شعرت بشيء غير طبيعي تذكّر الآية، ماذا فعلت ؟ ماذا حكيت ؟ أين كنت ؟ ومن أين جئت ؟ وكيف تكلّمت ؟ وكيف بعت هذه البيعة ؟ واحد من إخواننا عنده معمل ألبسة صغير، وقد جاءه شخص

درويش فقال له: بعني خمس قطع، وهو يبيع ثلاثمئة، أو خمسمئة، فعندما طلب منه خمس قطع رأى ذلك إهانة له، فقال له: ليس عندي مفرّق. قال له: لا تؤاخذني. وخرج، يقسم لي بالله ثلاثة وعشرين يوماً ما دخل لمعمله زبون، وقال لي: نشف دمي، لماذا صار معي هذا ؟ لا يوجد بيع أبداً ؟ تذكّر الذي كسر خاطره، وطلب منه خمس قطع ولم يرضَ أن يبيعه، فالآن أصبح يبيع قطعة واحدة، فالله أدّبه، ولكن عندما حرمه الله من الزبُن ثلاثة وعشرين يوماً ونشّف له دمه وألقى في روعه: أن عبدي هذه من أجل تلك، تتذكّر فلاناً الذي جاء لعندك وطلب خمس قطع بأدب وهو فقير، فلو بعتها له. وأنت رأيتها إهانة لك فحرمك الله البيع ثلاثة وعشرين يوماً، وعلى هذا فقِسْ، فما من شيء يقع إلا في حكمة منه، ولكن نحن لا نعرف، يقول لك: فلان صار معه هذا، وفلان صار معه هكذا، فلو أنت دقّقت تجد كل شيء بحساب دقيق، وهذه الطريقة تعين على التوجُّه إلى الله سبحانه وتعالى.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الشورى 042 - الدرس (12-15): تفسير الآيات 32-37 ،البحار همزة وصل لا همزة قطع بين القارات

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 22-04-1994

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس الثاني عشر من سورة الشورى.

الجوار في البحر كالأعلام من آيات الله الدالة على عظمته:

مع الآية الواحدة والثلاثين وهي قوله تعالى:

(وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ (32))

(سورة الشورى)

مرةً ثانية من تفيد التبعيض، أي ومن بعض آياته الدّالّة على عظمته الجواري في البحر كالأعلام، والجواري جمع مفردها جارية وهي التي تجري، أي السفينة، كالأعلام ؛ كالجبال، فهذه السفينة التي تمخر عباب الماء ما الذي يحملها ؟ هذا الذي كشفه بعض علماء الغرب وقال: وجدتها وجدتها. حين وضع يده في الماء، فشعر أن قوةً تدفعها إلى الأعلى، فالسائل متماسك، ومعنى متماسك أي أنه لا يقبل بسهولة أن ينغمس فيه جسم، فالإنسان لو ملأ وعاءً من الماء ووضعه في بركة ماء لشعر أن نصف وزنه قد ذهب، أو أكثر من ذلك، فأين ذهب الوزن ؟ إن قوةً في الماء تدفع نحو الأعلى، ولولا هذه القوة، لكانت البحار أداة قطعٍ بين القارّات، بينما هي همزات وصل.

البحر ما هو إلا أداة اتصالٍ بين اليابسة:

لو أردنا أن نُعَبِّد طريقاً إلى أمريكا، أو طريقاً إلى أفريقيا، أو إلى آسيا، أو إلى أوقيانوسيا، نحتاج إلى أموال لا يعلمها إلا الله، لكن البحر في الحقيقة طرقٌ معبدة، وما عليك إلا أن تصنع سفينةً وأن تتحرك أينما تشاء.

فهذا البحر بقوّة تماسك الماء، أو بقوة الدفع نحو الأعلى، له قانون يعرفه الذين درسوه، فهذا البحر بهذه الخصائص أصبح أداة اتصالٍ بين اليابسة، ولولا هذه الخاصة لكان سبباً في القطيعة التامّة بين القارات.

(وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِي فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ(32))

(سورة الشورى)

أرقى أنواع الذكر التفكر في خلق السماوات والأرض:

إذاً الماء وحده هذا آية يدل على عظمة الله، فلو أن الإنسان فكر لأن الآيات التي بثّها الله في الكون لا تعدُّ ولا تحصى، ولكن ربنا جلّ جلاله ذكر في القرآن بعض الآيات الكونية، فالذي ينبغي أن نذكره أن الله حينما ذكر بعض هذه الآيات، إذاً هي موضوعاتٌ مثالية للتفكّر، ولما حدثنا ربنا عزّ وجل عن الماء فقال:

(وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ(22))

(سورة الحجر: من آية " 22 ")

فالمؤمن عليه أن يمشي في هذا الطريق، والإشارات القرآنية إلى الآيات الكونية هذه موضوعاتٌ للتفكر، وحبّذا لو أن كل مؤمنٍ جمع الآيات الكونية في القرآن الكريم، وجعلها عنوانات لموضوعات التفكر، فإذا أراد أن يصلي الفجر وبعد الفجر أراد أن يذكر الله، فمن أرقى أنواع الذكر التفكر في خلق السماوات والأرض، لأن الله سبحانه وتعالى يقول:

(وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقّ قَدْرِهِ)

(سورة الزمر: من آية " 67 ")

فكيف نقدره حق قدره ؟ إذا تعرفنا إليه، وكيف نتعرف إليه ؟ من خلال خلقه.

إذاً العلماء قالوا: **أرقى عبادة على الإطلاق التفكر في خلق السماوات والأرض**، لأن هذه العبادة تضعك وجهاً لوجهٍ أمام عظمة الله عزّ وجل، وأنا أقول دائماً مئات المرات بل ألوف المرات: إن التفكر في خلق السماوات والأرض أسرع طريقٍ إلى الله، وأوسع بابٍ تدخل منه على الله (وأوسع باب وأقصر طريق) فلذلك الآن مهمتنا أن نحصي الآيات الكونية في القرآن الكريم.

وشيء جميل جداً أن تقرأ القرآن الكريم قراءة تدبر، وتأمل وبحث، ودرس، وإحصاء، وأن تُحصي الآيات الكونية، وأن تجعل منها موضوعاتٍ مثالية للتفكر.

الماء من آيات الله الدالة على عظمته:

واليوم الآية هي الماء، وهذا الماء آية من آيات الله العظمى الدالة على وجوده وحكمته، وعلمه، فالماء؛ هو سائل لا لون له، تصور لو أن للماء لوناً. ولا طعم له، تصور لو أن للماء طعماً، ولو كان طعماً طيّباً فكل أنواع الطبخ فيها ماء، وكل أنواع الشراب فيها ماء، ولو أن للماء طعماً لخرجت من جلدك بسبب هذا الطعم، ولو أن للماء لوناً لا تحتمل ذلك، فلا لون له ولا طعم له ولا رائحة.

ولو أن الماء أيها الأخوة يتبخّر بدرجة مئة، أي لو أن الإنسان غسل بيته لبقي الماء في أرض البيت أشهراً طويلة، فغير معقول أن تصل الحرارة لدرجة مئة في البيت، وهذا مستحيل، لكن الماء يتبخر بدرجة أربع عشرة، ويغلي بدرجة مئة، ويحافظ على هذه الدرجة. بينما الزيت تصل حرارة الزيت إلى درجات عاليةٍ جداً، ولذلك فالإنسان إذا طبخ بالماء يطمئن، ولو بقيت على الموقد ساعاتٍ طويلة، فالماء عند الغليان تثبت حرارته. والنفوذ نفوذ الماء شيء عجيب، ينفذ من أدق المسامات ومهما كان المسام ضيقاً ينفذ منه الماء، ومستوى سيولته لو أنه لزج لا يحتمل، ولو أنه كالقطر في لزوجته فكيف تغسل الأواني ؟ فتصور أنه لا لون له، ولا طعم، ولا رائحة، يتبخر بدرجة أربع عشرة، وهو سريع النفوذ في المسام الدقيقة.

خواص الماء:

هذا الماء إذا أراد أن يتوسّع، وأن يتمدد، فليس في الأرض كلها قوةٌ تقف أمام توسعه، فلو جئت بأرقى أنواع المعادن، بسبائك، بخلائط معادن قاسية جداً، وأدخلت فيها ماءً وتجمد الماء، لانشطر المعدن شطرين، واليوم أحدث وسيلة لاقتلاع الرخام من مناجمه أن تحفر أنبوباً وأن تملأه ماءً وأن تبرد الماء، من أربع جهات تجد هذا الصخر قد نزع من مكمنه.

فالماء إذا تمدد، لا قوة في الكون تقف أمامه، وإذا أردت أن تضغطه لا تستطيع.

وقد سمعت من أحد الإخوان الكرام عن تجربة أجروها، فضغطوا بمكبس وزنه ثمانمئة طن على متر مكعب من الماء، فهذا الوزن البالغ ثمانمئة طن ما تمكنت أن تضغط الماء ولا ميلي، لأنه لا يضغط. وإذا تمدد لا شيء يقف أمامه، فهو كثير النفوذ، يتبخر في درجة أربع عشرة ولا لون له، ولا طعم، ولا رائحة.

الماء شأنه كشأن كل العناصر يتمدد بالحرارة و ينكمش بالبرودة:

هذا الماء فيه خاصّة أيها الأخوة، يجب على الإنسان أن يعرف لولا هذه الخاصّة لما كنا جميعاً على سطح الأرض، ولما رأيت في الأرض نباتاً واحداً، ولا حيواناً واحداً، ولا إنساناً، ولولا هذه الخاصّة لانعدمت الحياة على وجه الأرض، ما هذه الخاصّة ؟ هي أن الماء شأنه كشأن كل العناصر، بالحرارة يتمدّد، وبالبرودة ينكمش.

وتفسير هذه الظاهرة تفسير دقيق، فالحرارة من خصائصها أنها تباعد بين الذرّات، والبرودة تقرّب بين الذرّات، فالجسم في الحرارة ينتقل من حالة الصلابة إلى اللزوجة ثم إلى الميوعة فإلى السيولة فإلى

التبخُّر فنظرياً أي معدن يمكن أن يصبح بخاراً، ففي الدرجات العالية جداً البازلت يصبح سائلاً، فالبراكين في الأساس سائل أسود، فما هذا السائل ؟ إنه صخر، وعند التبرُّد يعود صخراً من أقسى أنواع الصخور، فالحرارة من شأنها أن تباعد بين الذرّات، وأن تحوّل الجسم من حالة صُلبة إلى حالة سائلة، فإذا جاءت البرودة تقاربت الذرات، فانتقل الجسم من الحالة الغازيّة إلى الميوعة إلى التجمُّد. والهواء يمكن أن يصبح سائلاً، فحينما يأتون للمريض بأسطوانة أوكسجين، إذا حملت هذه الأسطوانة تحس أن بها سائلاً، فالغاز بالبرودة يصبح سائلاً.

ظاهرة انكماش الماء و تمدده وراء ظاهرة الحياة على سطح الأرض:

بالمناسبة: البرودة تلتقي مع الضغط في إحداث النتيجة، والحرارة تلتقي مع رفع الضغط في إحداث النتيجة، فيمكن أن نجعل من السائل مادةً جافّة كالحليب المجفّف، وقهوة مجفّفة، نغلي القهوة فتصير مجفّفة، إما برفع الضغط أو برفع الحرارة، ونقل العنصر من الحالة الغازيّة إلى الحالة السائلة إما بالضغط أو بالتبريد، ونحن نقول هذا تميز لخاصّةٍ خطيرة، إن الماء شأنه كشأن أي عنصر، إذا سخّنته يتمدّد وإذا برّدته يتقلّص(ينكمش) الماء ويمتاز بخاصّة أنك إذا برّدته ينكمش كأي عنصر، لكن عند الدرجة زائد أربعة تنعكس الآية، بدل أن ينكمش يتمدّد.

ويمكن أن تعرف فتح الشيء بتجربة بسيطة جداً، املأ قارورة ماء وأحكم إغلاقها، وضعها في غرفة التبريد في الثلاجة، وانظر بعد حين كيف أن الزجاج قد انكسر، فالماء حينما يتبرّد يتمدّد، وهذه الخاصّة هي وراء انتشار الحياة على سطح الأرض، لأن البحار إذا بردت في أيام الشتاء، أو في القطبين الشمالي والجنوبي تجمّدت، فإذا تجمّدت حسب القانون انكمشت، فزادت كثافتها فغاصت إلى الأعماق، فالطبقة الثانية تتجمّد وتزيد كثافتها وتغوص إلى الأعماق، إلى أن تصبح البحار كلُّها متجمِّدةً، وعندئذٍ ينعدم التبخُّر، ومع انعدام التبخُّر ينعدم المطر، ومع انعدام المطر ينعدم نمو النبات، ومع انعدام النبات ينعدم الحيوان الذي يعيش على النبات، وإذا انعدم الحيوان وانعدم النبات تبعهما الإنسان، فهذه الظاهرة (ظاهرة انكماش الماء) وتمدُّد الماء عند التبريد في الدرجة زائد أربع هي وراء ظاهرة الحياة على سطح الأرض، فربنا عزّ وجل في هذه الآية يشير إلى ظاهرة الماء..

(وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِي فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ(32))

(سورة الشورى)

الله عز وجل لحكمة بالغة خصّ كل بلد بمحصول معين:

هذه السفينة التي تمخر عُباب الماء، الآن بعض السفن حمولتها مليون طن (كلام دقيق) مليون طن حمولة بعض السفن، وقد سمعت مرّة تسعمئة حصان قوة المحرّك لدقّة السفينة كي تحرفها يميناً أو يساراً، فهذه المدينة العائمة ما الذي يحملها ؟ وهي مصنوعة من أمتن أنواع الحديد وتحمل مليون طن..

(وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِي فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ(32))

(سورة الشورى)

وهناك آيات كثيرة، قال:

(لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ)

(سورة فاطر: من آية " 12 ")

فأنت تشرب شاياً، والشاي يأتي من سيلان، وليس عندنا شاي فتجد أنه بهذه البحار وتلك السفن تنتقل الحاجات، والأغذية، والمحاصيل، والقمح، والمصنوعات من بلدٍ إلى بلد، ومن قارةٍ إلى قارة، ولو أننا حاصرنا بلداً حصاراً اقتصادياً فإنه ترتفع فيها الأسعار إلى درجة جنونيّة إذاً ما معنى الحصار الاقتصادي ؟ أي منعنا السفن أن تصل إلى هذا البلد محمّلة بالبضائع التي يحتاجها الناس، وربنا عزّ وجل لحكمةٍ أرادها جعل كل بلد يختص بشيء، فهذا البلد يزرع الرُز، وهذا عنده محصول قطن، وهذا بن، وهذا سكّر، فخصّ كل بلد بمحصول تمتاز به، وجعل العلاقات بين الشعوب هو الذي أرادها الله سبحانه وتعالى.

البحار همزة وصلٍ لا همزة قطع بين القارات:

إذاً هذه البحار أصبحت بهذه الخاصّة لأنها تحمل السفن، فأصبحت همزة وصلٍ لا همزة قطع بين القارات..

(وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِي فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ(32)إِنْ يَشَأْ يُسْكِنْ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ(33))

(سورة الشورى)

والآيات نزلت يوم كانت السفن شراعيّة، ونحن عندنا قاعدة عندما قال ربنا عزّ وجل:

(وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً)

(سورة النحل: من آية " 8 ")

إذا ركب الإنسان الآن طائرة حديثة جداً مثلاً **(كونكورد)** أو ركب قطاراً سرعته ثلاثمئة وخمسون كيلو متراً في الساعة، أو ركب حوّامة تحوم فوق الماء، أو مركبة حديثة جداً فقد يتساءل: أين..

(وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً)

فالله عزّ وجل هو الذي أنزل هذا القرآن، قال:

(وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ(8))

(سورة النحل)

لأن هذا كلام خالق الكون، وهو علم ما كان، وعلم ما يكون، وعلم ما سيكون.

كلام الله عزّ وجل يغطي الماضي والمستقبل معاً:

إذاً قال:

(وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ(8))

(سورة النحل)

فإذا قرأت هذه الآية قلت:

(وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً)

(سورة النحل: من آية " 8 ")

ولو وقفت هنا تقول: فأين الطائرة ؟ وأين القطار السريع ؟ وأين هذه المركبات الفارهة ؟ قال:

(وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ(8))

(سورة النحل)

فهذه الآية غطّت المستقبل، فهذا ليس كلام بشر، ولو أنه كلام بشر لما رأى إلا خيلاً، وبغالاً، وحميراً، فإذا وقف عند هذه الكلمة وقرأ هذا الكتاب أناسٌ بعد ألف عامٍ، أو ألفي عام، وركبوا الطائرات، وركبوا القطارات، وركبوا السفن العملاقة وكأنها مدن تتحرّك فوق سطح الماء يقولون: هذا ليس كلام الله عزّ وجل. لكن كلام الله عزّ وجل يغطي الماضي والمستقبل، قال:

(وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ(8))

(سورة النحل)

الريح هي القوّة الدافعة للسفن عن طريق الأشرعة:

كذلك:

(إِنْ يَشَأْ يُسْكِنْ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ (33))

(سورة الشورى)

فالمقصود بالريح هنا الطاقة التي تحرّك هذه السفينة، وقتها كانت الرياح لسفن شراعيّة، قال:

ما كل ما يتمنّى المرء يدركه تجري الرياح بما لا يشتهي السَفِنُ

* * *

السَفِنُ أي صاحب السفينة (أو تجري الرياح بما لا تشتهي السُفُنُ. وهذه رواية ثانية للبيت).

الطاقة التي أودعها الله في الأرض عن طريق الأشجار:

الآن يوجد طاقة بتروليّة، والله أشار إليها فقال تعالى:

(الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنْ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ(80))

(سورة يس)

فقد يعجب الإنسان، ما هذه المفارقة التي جعلت من الشجر الأخضر ناراً ؟! الشجر الأخضر لا يشتعل فهو يعس عسيساً، والله قال:

(الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنْ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ (80))

(سورة يس)

الحقيقة إحدى نظريات البترول أنه في العصور المطيرة التي شكّلت نباتاتٍ عملاقة، فهذه النباتات بفعل الزلازل طُمِرَت تحت سطح الأرض وشكّلت حقول البترول، وكلمة أخضر إشارة إلى أن هذا النبات ما كان له أن يكون نباتاً إلا بفضل المادّة الخضراء في الأوراق، فهذا وصف سببي لأن في الورقة الخضراء معملاً (وهكذا قرأت عنها في موسوعةٍ علميّة) أن الورقة الخضراء فيها معمل تبدو أعظم المعامل التي صنعها الإنسان تافهة أمامه، وشيء عجيب، أن ثمانية عشر معدناً مذاباً بالماء تصعد على خلاف جاذبيّة الأرض من الأسفل نحو الأعلى، عن طريق خاصّة الشعريّة، فتصل إلى الورقة فيها الآزوت تأخذه من الجو، وفيها اليخضور وفيها الفوتونات مخزّنة بها الطاقة الشمسيّة، وفيها مواد عديدة تصنع هذه الورقة بشيءٍ معجز نُسُغَاً نازلاً، وهذا النسغ النازل هو سائل، ومنه تتكوّن الجذور الجديدة، ومنه تتكوّن فروع الجذور، والجذوع ونموّها، والأغصان والأوراق والثمار، وكلها من هذا النسغ النازل.

وليس في مقدور الإنسان أن يصنع سائلاً يحقنه مرّةً فإذا هو خشب أو يحقنه مرّةً فإذا هو كاوتشوك، أو هو معدن، فهذا شيء فوق طاقة الإنسان، لكن هذا النسغ النازل يفعل هكذا. فربنا عزّ وجل جعل هذه الطاقة التي أودعها في الأرض عن طريق الأشجار..

(الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنْ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ(80))

(سورة يس)

ً إذا أشارت هذه الآية إلى أن الريح هي القوّة الدافعة لهذه السفن عن طريق الأشرعة، فالسفن الحديثة تتحرّك عن طريق الوقود السائل الذي خلقه الله في الأرض.

الله عز وجل خالق كل شيء:

وحينما قال الله عزّ وجل:

(وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ(8))

(سورة النحل: من آية " 8 ")

والعلماء قالوا: عُزِيَت هذه الوسائل الحديثة في خلقها إلى الله، لأن الله هو الذي ألهم، وهو الذي أودع الطاقات في الأرض، وهو الذي يسّر صناعتها، ولذلك فالنبي عليه الصلاة والسلام كان إذا ركب دابّةً يقول:

((سبحان الذي سخّر لنا هذا وما كُنّا له مُقرنين))

[من الأذكار النوويّة]

والإنسان إذا ركب سيّارة يقول: **" اللهمّ إني أسألك خيرها وخير ما صنعت له، وأعوذ بك من شرّها وشرّ ما صُنِعَت له "** فأحياناً يركب الإنسان مركبة فتكون سبب دماره، أو سبب عاهة دائمة، أو شلل، أو انقطاع النخاع الشوكي في العمود الفقري فيصبح مشلولاً **" فأسألك خيرها وخير ما صنعت له، وأعوذ بك من شرّها وشرّ ما صُنِعَت له "..**

(إِنْ يَشَأْ يُسْكِنْ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ (33))

(سورة الشورى)

إذاً نعمة السفينة، ونعمة قوة دفع الماء، ونعمة تحريكها كله بيد الله عزّ وجل..

الإيمان صبرٌ عند البلاء وشكرٌ عند الرخاء:

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ(33))

(سورة الشورى)

أي للمؤمن، فالمؤمن صبّارٌ شكور..

((والإيمان نصفان نصف صبر ونصف شكر))

[من أحاديث الإحياء: عن " ابن منصور الديلمي "]

((الصبر من الإيمان كالرأس من الجسد، فإذا ذهب الصبر ذهب الإيمان))

[ورد في الأثر]

فيجب أن تُعَرّف الإيمان بأنه صبرٌ وشكرٌ، صبرٌ عند البلاء وشكرٌ عند الرخاء، وصبرٌ على المصائب وشكرٌ على النعم، وهذا المؤمن في المصائب صبور، وفي الرخاء شكور، قانعاً بالذي له، ولا يبتغي ما ليس له..

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ(33))

(سورة الشورى)

امتحان الشكر أهون على الإنسان من امتحان الصبر:

الحقيقة امتحان الشكر أهون من امتحان الصبر، فالإنسان أحياناً ينطلق إلى الله مع النِعَم، فإذا حُجِبَت عنه النعم فقد يسقط، وهذا معنى قوله تعالى:

(وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ)

(سورة الحج: من آية " 11 ")

ولذلك فالامتحان يجب أن يكون مع الشكر ومع الصبر..

عقاب الله عز وجل لمن قصّر في عبادته و توحيده:

(أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا (34))

(سورة الشورى)

ومعنى يوبقهنّ أي يهلكهنّ، أو يغرقهنّ بما كسبوا، وقصّةٌ أرويها كثيراً أن باخرةً بُنيت في عام ألفٍ وتسعمئة واثني عشر، وقيل عندما بُنيت: إن القدر لا يستطيع إغراق هذه السفينة، لأنها بنيت بطرائق غريبة جداً، فقد بنيت على طبقتين وبين الطبقتين حواجز كثيرة، فلو أنها خُرقت من جانبٍ أُغلقت الأبواب الداخليّة فأصبح الخرق محصوراً، ومن شدة ثقة الذين بنوا هذه السفينة لم يصنعوا لها قوارب نجاة، لأن القدر لا يستطيع أن يغرقها، كما زعموا في نشرتها، وأبحرت أول رحلةٍ لها من بريطانيا إلى أمريكا، وقد ركب في هذه السفينة أغنياء أوروبا، وقدّر بعض العلماء أن ثمن حلي النساء التي كُنّ يتزيّن بها تصل إلى ألوف الملايين، وهي من الروعة والجمال والأناقة بشكلٍ لا يوصف.

وفي أول رحلةٍ لها اصطدمت بجبلٍ ثلجي فشطرها شطرين، وحول هذه السفينة عشرات بل مئات السفن، ولا سفينة بادرت إلى إنقاذ ركّابها لأن كل السفن ما صدّقت أنها تغرق، فلمّا أرسلت هذه السفينة إشارات استغاثة ظنوها احتفالات، فهي تحتفل، وشُطرت شطرين وغرق ركّابها، وقبل عدة أشهر فيما أذكر عثروا عليها، واسمها تيتانيك..

ما من مصيبة إلا وراءها معصية:

(أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا (34))

(سورة الشورى)

وهذه الباء هي باء السبب، قال تعالى:

(فَبِظُلْمٍ مِنْ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ)

(سورة النساء: من آية " 160 ")

باء السببيّة، الباء لها معان كثيرة وأحد معانيها السبب، مثلاً بتقصيرك عاقبتك وبتفوّقك أكرمتك، هذه باء السبب..

(أَوْ يُوبِقْهُنّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ(34))

(سورة الشورى)

كما قلنا في الدرس الماضي: كل مصيبةٍ وراءها معصية، لكن ما كل معصيةٍ وراءها مصيبة، لأن الله يعفو عن كثير..

((ما من عثرة ولا اختلاج عرق ولا خدش عود إلا بما قدمت أيديكم، وما يغفر الله أكثر))

[من الجامع الصغير: عن " ابن عساكر عن البراء "]

(وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ(30))

(سورة الشورى)

من يجادل في أحقية هذه العقيدة و يشكّك بها خياره خيار وقت فقط:

(وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ(35))

(سورة الشورى)

هذا الذي يقول مثلاً: يا أخي الدين غيبيات، والناس دخلوا في عصر العلم، وهذا الدين لا يصلح لنا. فهذا الذي يجادل في القرآن، ويجادل في أحقِية الدين، وفي جدوى الدين، وفي الطرح الديني، وفي التصورات الإسلاميّة، إن الله بدأ الخلق بآدم، والإنسان في الدنيا في مرحلة إعداد لحياة أبديّة، فهذه هي النظريّة الإسلاميّة، والنظرة الإسلاميّة لحقيقة الكون والحياة والإنسان، فهذا الذي يجادل في أحقية هذه العقيدة يشكِّك بها ويأخذ عليها بعض المآخذ، ولا يجعل من الإسلام نظاماً يصلح لكل مكان وزمان، أي أن له طروحات لا يرضى بها عن الإسلام، قال:

(وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ(35))

(سورة الشورى)

خيار الإيمان ليس خيار قبول أو رفض إنما هو خيار وقت فقط:

إخواننا الكرام، الإنسان أحياناً في شبابه يكون قوياً شديداً عتيداً يتفلسف على الله عزّ وجل ويطرح طروحات وينتقد فيقول: لست مقتنعاً بهذا الأمر ولست مقتنعاً بهذا الحكم وهذا التفسير غير مقبول. ولكن

كلّما تقدّمت به السن، ورأى أنه لابدّ من أن يغادر الدنيا، وماذا بعد الموت ؟ أنا أعرف عشرات الأشخاص، بل مئات في بداية حياتهم كانوا ملحدين، فلمّا تجاوزوا الأربعين بدؤوا بالصلاة، فهذا الخيار خيار وقت.

دقِقوا في هذا الكلام أيها الأخوة: فأنت أحياناً تخيّر خيار قبول أو رفض. أتشتري هذا البيت ؟ تقول: نعم أو لا، أتسافر إلى هذا البلد ؟ تقول: نعم أو لا، أنت حينما تتخيّر أن تسافر أو أن تشتري فأنت أمام خيار قبول أو رفض، إلا أن خيار الإيمان ليس خيار قبول أو رفض أبداً فخيار الإيمان خيار وقت، أي إن لم تؤمن وأنت في رَيْعان الشباب لابدّ من أن تؤمن وأنت في خريف العمر، ولكن والله الذي لا إله إلا هو شتّان (والكلام لإخواننا الشباب موجّه) شتّان بين من ينشأ في طاعة الله وبين من يأتي إلى ربه وقد انحنى ظهره، وشاب شعره، وضعف بصره فهو جيّد لا بأس.

شتّان بين من ينشأ في طاعة الله وبين من يأتي إلى ربه وقد انحنى ظهره:

أي أن خيار الإنسان في الإيمان ليس خيار قبولٍ أو رفض والدليل من هو أكفر كفّار الأرض الذي قال صراحة، وبأعلى صوته:

(أنا ربكم الأعلى)

فرعون ولكن ماذا قال حينما أدركه الغرق ؟ قال:

(آمَنْتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ)

(سورة يونس: من آية " 90 ")

ومعنى هذا أنه آمن، لكن متى آمن ؟ بعد فوات الأوان عندما مات، فلا يوجد إنسان مخيّر بالإيمان إلا خيار وقت فقط، خيار الإنسان بالإيمان ليس خيار قبول أو رفض، لأن ربنا عزّ وجل قال يوم القيامة:

(فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ(22))

(سورة ق)

(يَقُولُ يَالَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي(24)فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ(25)وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ(26))

(سورة الفجر)

بطولة الإنسان أن يؤمن في ريعان شبابه:

(وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَالَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيه(25)وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيه(26)يَالَيْتَهَا كَانَتْ الْقَاضِيَةَ(27)مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيه(28)هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيه(29)خُذُوهُ فَغُلُّوهُ(30)ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ(31)ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ(32))

(سورة الحاقة)

خيارنا خيار وقت فقط ولكن البطولة أن تؤمن وأنت شاب في رَيْعَان الشباب، لأنك إذا آمنت وأنت شاب شكّلت حياتك تشكيلاً إسلامياً، واخترت المهنة الشريفة التي فيها نفعٌ للناس واخترت الزوجة الصالحة وربّيت أولادك التربية الإسلاميّة، فإذا تقدّمت بك السن وأنت محاط بأناس مؤمنين، وبأناس مُحبّين، وموالين وبيتك إسلامي وعملك إسلامي وزوجتك وأولادك وبناتك وأصهارك، أما إذا عاد الإنسان إلى الله في سنٍ متأخّرة فقد ينجو بنفسه، لكن ينظر حواليه فإذا أهلٌ متفلّتون من أمر الله عزّ وجل، وإذا حرفة قد لا ترضي الله عزّ وجل، يتمزّق كل يومٍ ألف مرّة فلذلك خيارنا خيار وقت.

على كل إنسان أن يعرف ربه قبل فوات الأوان:

هناك خيار آخر، فلو أن الإنسان آمن في الحياة الدنيا فكلّما تقدّمت به السن يميل إلى الإيمان، لكن البطولة وأنت شاب، وأنت تغلي والشهوات مستعرة، والطاقة عالية، والعضلات مفتولة، في هذا السن إذا آمنت بالله عزّ وجل نفعك إيمانك نفعاً لا حدود له، لذلك:

(وَلَيْسَتْ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمْ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ)

(سورة النساء: من آية " 18 ")

هذه ليست توبة..

(يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا)

(سورة الأنعام: من آية " 158 ")

فنحن مدعوون إلى أن نعرف الله قبل فوات الأوان، وفي سنٍ مبكّرة جداً كي تُشَكّل حياتنا تشكيلاً إسلامياً.

(وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ(35))

(سورة الشورى)

كل إنسان مصيره إلى الله عز وجل:

ما لك إلا الله عزّ وجل، يموت الإنسان ويُوضع في قبره وأنا أقول لكم أيها الأخوة: من أدق العبر أن تمشي في جنازة، وأن ترى بعينك كيف يُفتح النعش، وكيف يُحمل هذا الإنسان وقد لُفّ بالقماش الأبيض مقيّد اليدين والرجلين، وكيف يُلقى في هذا القبر، وكيف تُوضع فوقه البلاطة وكيف يُهال عليه التراب، وكيف يعود أولاده إلى البيت وقد دفنوا أباهم. ويقول الله عزّ وجل لهذا الإنسان في أول ليلة: **" عبدي رجعوا وتركوك "** وأحياناً الناس يفرحون، فواحد له عمة معها أموال طائلة، فلما توفيت لبس الأسود

وعمل نفسه حزيناً وأحد الذين عزّوه قالوا له: تهانينا. وكثير من الناس يفرحون بموت أشخاص معينين ويحزنون حزناً شكلياً قال له:عبدي رجعوا وتركوك وفي التراب دفنوك ولو بقوا معك ما نفعوك، ولم يبق لك إلا أنا وأنا الحي الذي لا يموت.

إلى الله المصير، النهاية عنده، فالبطولة أن تقيم معه علاقة طيبة من الآن.

الرباني من يقيم علاقة طيبة مع الله عزّ وجل أساسها الطاعة و البذل:

من هو الربّاني ؟ قال الله:

(وَلَكِنْ كُونُوا رَبّانِيّينَ)

(سورة آل عمران: من آية " 79 ")

من هو الرباني ؟ هو الذي يقيم علاقة طيبة مع الله عزّ وجل أساسها الطاعة، والبذل، والعبادة الصحيحة، والتصدق، وطلب العلم ونشره.

الله عز وجل يعلم كل من يطعن و يقلل من شأن الدين و يتكفل هو بحسابه:

(وَيَعْلَمَ الّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا (35))

(سورة الشورى)

يطعن وينتقد ويقلل من أهمية الدين..

(مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ(35))

(سورة الشورى)

كلنا إليه..

(أفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ(17)وَإِلَى السّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ(18)وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ(19)وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ(20)فَذَكّرْ إِنّمَا أَنْتَ مُذَكّرٌ(21)لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ(22)إِلّا مَنْ تَوَلّى وَكَفَرَ(23)فَيُعَذّبُهُ اللّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ(24)إِنّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ(25)ثُمّ إِنّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ(26))

(سورة الغاشية)

هذه الآية تكفي:

(إِنّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ(25)ثُمّ إِنّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ(26))

(سورة الغاشية)

المصير إلى الله.

الآخرة خير و أبقى للإنسان من الدنيا:

(فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا (36))

(سورة الشورى)

ما هذه:

(مِنْ شَيْءٍ)

لو إنسان يسكن في بيت ثمنه بضع عشرات الملايين، والله سماه شيئاً، هذا التنكير تحقير، ولو كان عنده أموال منقولة أو غير منقولة بألوف الملايين، فهو شيءٍ تنكير تحقير ولو يتمتع بكل ما في الحياة الدنيا من مباهج فهو شيء تنكير تحقير، من دون تفاصيل ولو أنه ملك الدنيا بحذافيرها ؛ المال والنساء، والبيوت، والقصور، والبساتين، والمركبات، واليخوت، والطائرات، ولو أنه يملك أكبر الشركات..

(فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ(36))

(سورة الشورى)

دققوا في عبارة:

(خَيْرٌ وَأَبْقَى)

أي أن الآخرة خير من الدنيا وأبقى خيرٌ نوعاً وأبقى زمنا ولو خيرنا إنساناً (هذا مثل أضربه دائماً) لو خيرنا إنساناً بين دراجة تتملكها دائماً وسيارة تركبها ساعة، فتختار الدراجة طبعاً، لأنها الأبقى، ولو خيرنا إنساناً بين دراجةٍ يملكها دائماً، وسيارةٍ تملكها دائماً، هل يحتاج الإنسان إلى تردد ؟ مباشرةً يختار السيارة، ولو خيرناه بين دراجةٍ يركبها ساعة، وسيارةً يتملكها دائماً، فإذا اختار الدراجة فيكون يحتاج إلى القصير (مشفى المجانين) إذاً قال تعالى:

(فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى (36))

(سورة الشورى)

وهذا الإيمان.

من عرف ربه و طبق منهجه ارتاح من عناء الدنيا:

إذا آمنت باليوم الآخرة ارتحت من عناء الدنيا **" إن هذه الدنيا دار التواء لا دار استواء، ومنزل ترح لا منزل فرح، فمن عرفها لم يفرح لرخاء، ولم يحزن لشقاء، قد جعلها الله دار بلوى، وجعل الآخرة دار عقبى، فجعل بلاء الدنيا لعطاء الآخرة سبباً وجعل عطاء الآخرة من بلوى الدنيا عوضا، فيأخذ ليعطي ويبتلي ليجزي ".**

إخواننا الكرام لا تنحل مشاكلنا كلها إلا إذا نقلنا أهدافنا إلى الدار الآخرة، ترضى من الدنيا باليسير، فماذا تحتاج من الدنيا ؟ لقمةً تقيم بها صلبك، وغرفة تؤويك، وثوباً يستر عورتك. مرة قلت لكم سابقاً ملك كبير سأل وزيره قال له: من الملك ؟ فالوزير خاف ما هذا السؤال ؟ قال له: أنت. قال له: لا، الملك رجلٌ لا نعرفه ولا يعرفنا، له بيتٌ يؤويه وزوجة ترضيه ورزقٌ يكفيه، إنه إن عرفنا جهد في استرضائنا، وإن عرفناه جهدنا في إذلاله لا يعرفنا ولا نعرفه.

وكذلك المؤمن إذا عرف ربه وطبق المنهج، له غرفة يسكن فيها وقميص يرتديه ووجبة طعام يأكلها، وعنده زوجة وله دخل يكفيه بصعوبة فيمشي الحال، فهو ملك الدنيا بحذافيرها، مالي وللدنيا إذا لم ينقل الإنسان أهدافه إلى الآخرة، فالدنيا تغر وتضر وتمر، متعبة، أوحى ربك إلى الدنيا أنه من خدمك فاستخدميه، ومن خدمني فاخدميه..

(وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ(36))

(سورة الشورى)

يقول عليه الصلاة والسلام:

((لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ))

[من سنن الترمذي: عن " سهل بن سعد "]

نيل الدنيا ليس مقياساً للتفاضل بين الناس:

أبى الله عزّ وجل أن يجعل الدنيا مكافأةً لأوليائه، وأن يجعل الحرمان منها عقاباً لأعدائه، قد يعطيها أعداءه، يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، أعطاها سيدنا سليمان..

(قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لا يَنْبَغِي لأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي)

(سورة ص: من آية " 35 ")

وأعطاها فرعون، أعطاها سيدنا عبد الرحمن بن عوف، وأعطاها قارون، فإذا كانت الدنيا تعطى لأعدائه ولأوليائه إذاً ليست مقياساً إطلاقاً.

على كل إنسان أن يجعل بينه و بين المعصية هامش أمان:

إذاً:

(فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ(36)وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ(37))

(سورة الشورى)

ومن صفات المؤمن أنه يجتنب، ومعنى يجتنب أي أنه يترك هامشاً بينه وبين المعصية وهذا معنى قوله تعالى في الحديث عن الخمر:

(فَاجْتَنِبُوهُ)

أي دع بينك وبينه هامشاً ولذلك فالنبي قال:

((إن الله لعن الخمر ولعن شاربها ولعن عاصرها ولعن مؤديها ولعن مديرها ولعن ساقيها ولعن حاملها ولعن آكل ثمنها ولعن بائعها))

(من كنز العمال: عن " ابن عمر ")

وكل شيء متعلق بالخمر محرم، وهذا معنى فاجتنبوه، فالاجتناب أبلغ من التحريم وأبلغ بكثير، والدليل:

(تِلْكَ حُدُودُ اللّهِ فَلا تَقْرَبُوهَا)

(سورة البقرة: من آية " 187 ")

وفي آية:

(تِلْكَ حُدُودُ اللّهِ فَلا تَعْتَدُوهَا)

(سورة البقرة: من آية " 229 ")

فلا تقربوها اجعل بينك وبين المعصية هامش أمانٍ.

كل معصية لها قوة جذب فيكون الأمر بالاجتناب:

قال:

(وَلاَ تَقْرَبُواْ الزِّنَى)

(سورة الإسراء الآية: 32)

(وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ)

(سورة الإسراء: من آية "324")

(تِلْكَ حُدُودُ اللّهِ فَلا تَقْرَبُوهَا)

(سورة البقرة: من آية " 187 ")

هذا معنى الاجتناب، أن تدع بينك وبين المعصية هامشَ آمان. وأوضح مثل لو أن تياراً كهربائياً شدته ثمانية آلاف فولط، فالمسؤولون عن الكهرباء هل يضعون الإعلان على الشكل التالي أم على شكلٍ آخر: يمنع مس التيار، أم الاقتراب منه. التيار ثمانية آلاف فولط يجذب الشخص من بعد ثمانية أمتار، فيجعله فحمة، فالإعلان ليس ممنوعاً مس التيار أو ممنوعاً الاقتراب منه، ويوجد معاص لها قوة جذب وكل

معصية لها قوة جذب جاء الأمر باجتنابها لا بتركها والأمر باجتنابها، لأن فيها قوة جذب، منها الزنى قال:

(وَلاَ تَقْرَبُواْ الزِّنَى)

(سورة الإسراء الآية: 32)

والنظر طريق للزنى وصحبة الأراذل طريق له والمشي بأماكن موبوءة كذلك ومطالعة موضوعات ساقطة طريق أيضاً.

(وَلاَ تَقْرَبُواْ الزِّنَى)

فغض البصر طريق للعفة والبعد عن الأماكن المشبوهة كذلك وعدم الخلوة والزواج طريق للعفة، إذاً كل معصية لها قوة جذب فيكون الأمر بالاجتناب.

على كل مؤمن أن يبتعد عن أسباب المعصية:

(وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ (37))

(سورة الشورى)

أي أن هؤلاء المؤمنين يهربون لا من المعصية بل من أسبابها، وهناك مثل دقيق أضربه دائماً: الشهوة تشبه صخرة في قمة جبل، فأنت مخير أن تدفعها إلى الوادي أو أن بقيها على قمة الجبل، لكنك إذا دفعتها لا تقف إلا في قعر الوادي، فإذا دفعتها قليلاً ورجوت أن تبقى في مكانٍ متوسط لا تستطيع. فأنت مخير، أن تبتعد عما يقربك من الزنى، فإذا اجترأت وجلست في جلسة مختلطة وخلوة، وصاحبت الأراذل فهذا الأمر ينتهي بك إلى الفاحشة، ولذلك فالشريف هو الذي يهرب من أسباب الخطيئة لا من الخطيئة نفسها، إذاً هذا معنى الاجتناب، فالمعصية لها قوة جذب، إذاً لابد من أن تجعل بينك وبينها هامش أمان.

الإيمان والقرآن قيّدا المؤمن عن كثيرٍ من هوى نفسه:

(وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ(37))

(سورة الشورى)

أي أنه ملك نفسه عند الغضب، فالإنسان المؤمن يملك نفسه ولا تملكه، فالإيمان قيْد، والقرآن قيّد المؤمن عن كثيرٍ من هوى نفسه، والإنسان ليس دابة يفلت كما يريد، فمن يقول: لا أقدر. فمن أنت حتى لا تقدر ؟ ومعنى ذلك أنك لست إنساناً، وكل إنسان يقول: لا أقدر. فعنى ذلك أنه ليس إنساناً، فالإنسان يتميز بالسيطرة على أعضائه، وعلى جوارحه، وعلى ملكاته.

(وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ(38))

(سورة الشورى)

وفي درسٍ قادمٍ إن شاء نتابع شرح هذه الآيات.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الشورى 042 - الدرس (13-15): تفسير الآيات 38-43
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1994-04-29

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس الثالث عشر من سورة الشورى.

الدنيا شيء عابر سريع الزوال:

مع الآية السادسة والثلاثين وهي قوله تعالى:

(فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آَمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ(36))

(سورة الشورى)

إلى آخر الآيات. هذه الآيات أيها الأخوة تحدِّد خصائص المؤمنين المؤمن فرد، والمؤمنون مجتمع، فمجتمع المؤمنين لهم خصائص.

وأول شيءٍ أيها الأخوة فالله سبحانه وتعالى يخاطب المؤمنين فيقول:

(فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آَمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ(36))

(سورة الشورى)

أي أن الدنيا بمجملها، بكل ما فيها من متع، وشهوات، ومباهج، وحظوظ، وأموال، ونساء، وأطعمة، وبيوت، وبساتين، مما فيها قال:

(فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا (36))

(سورة الشورى)

والمتاع هو الشيء المؤقّت، شيءٌ عابر، وسريع الزوال، لا يبقى ولا يستقر.

الدنيا بكل ما فيها من متع لا تغني عن الآخرة شيئاً:

الإنسان أحياناً يشتري شيئاً يأكله في الطريق، وقد يشتري قطعة ماس ثمنها نصف مليون، فهذا الشيء الذي يأكله في دقائق وانتهى الأمر، لقد أكل هذه الشطيرة وهذه الحلوى وبقيت في فمه دقيقة، وكان استمتاعه بها ثانية واحدة إنه متاع، أي شيءٌ سريع الزوال، لا يستقر وليس له أثر يبقى.

ولكن عندما يشتري الإنسان قطعة ماس بنصف مليون ليرة، فهذه باقية ؛ فحجمها، وشكلها، وصفاؤها، وبريقها، وضوؤها باقٍ، وقد يتوارثها رجل عن رجل، وامرأة عن امرأة، وجيل عن جيل ومن باب التقريب شيءٌ عابر لا يستقر وطارئ ليس له أثر مستمر، وشيءٌ غير باقٍ، والدنيا بمجملها وبكل ما فيها من مال، ومُتَع، وبيوت، وبساتين وقصور، ومركبات، وأماكن عَلِيّة، ومباهج فهذه كلُّها..

(فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا (36))

(سورة الشورى)

وليست فيها قيمة في ذاتها، بل شيءٌ طارئ عابر والدنيا ساعة سريعة الزوال، وشيكة الانتقال، تغر وتضر وتمر وهذا معنى:

(فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ (36))

(سورة الشورى)

قدرة الإنسان على الاستمتاع بالدنيا محدودة جداً:

إنسان أوتي مالاً عريضاً، ومن كل هذا المال، ماذا يأكل ؟ لا يستطيع أن يأكل فوق حجم معدته، وعلى كم سرير ينام ؟ إنه ينام على سرير واحد، وتكفيه غرفة واحدة، فهذا المال الوفير لا يستطيع أن يستمتع به، فالقدرة على الاستمتاع بالدنيا محدودة جداً وهذا معنى..

(فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا (36))

(سورة الشورى)

وما أوتيتم من شيءٍ تنكير تحقير..

(فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا (36))

(سورة الشورى)

ولحكمةٍ أرادها الله أبى أن يجعلها مكافأةً لأوليائه، وأبى أن يجعل الحرمان منها عقاباً لأعدائه، وقد تُعطى الدنيا لمن يحب ولمن لا يحب، فتعطى للمؤمن والكافر وليس في إعطائها أي دليلٍ على أن هذا الإنسان محبوبٌ عند الله، وليس في الحرمان منها أي دليل على أن هذا المحروم منها لا يحبه الله عزّ وجل، هكذا..

(فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى (36))

(سورة الشورى)

خيرٌ في ذاته وأبقى في أمده..

مجتمع المؤمنين يقوم على القيَم و المبادئ لا على المتع و الحاجات:

(لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ(36))

(سورة الشورى)

إذاً فالجماعة المؤمنة ليس همُّها الدنيا وجماعة المؤمنين ومجتمع المسلمين لا يبني مجده على الدنيا، ولا على المُتَع، ولا على الرفاهية، ولا على توفير الحاجات التي عندما يستخدمها الإنسان يشعر أنه فوق البشر، فهذه الجماعة المؤمنة أي مجتمع المؤمنين يقوم على القيَم لا على المتع، ويقوم على المبادئ لا على الحاجات، لأن الدنيا بمجملها لا تعدل عند الله جناح بعوضة.

أيعقل أن النبي عليه الصلاة والسلام وأصحابه الكرام الذين اختارهم له، هذا الإنسان العظيم الذي بلغ قمّة الكمال الإنساني، أيعقل أن ينام في غرفةٍ صغيرة، وأن يأكل خشن الطعام، وأن يرتدي خشن الثياب، وأن تكون حياته بسيطة ؟ **" ما لي وللدنيا"**. وهؤلاء الذين جاؤوا في آخر الزمان يأكلون ألوان الطعام ويشربون ويتمتّعون بأجمل البيوت، ويركبون أجمل المركبات..

((لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ))

[من سنن الترمذي: عن " سهل بن سعد "]

الدنيا دار عمل و تكليف و الآخرة دار جزاء و تشريف:

للإمام عليٍّ كرّم الله وجهه قولٌ فيصلٌ في هذا الموضوع، يقول هذا الإمام الجليل: **" فلينظر ناظرٌ بعقله أن الله أكرم محمّداً أم أهانه حين زوى عنه الدنيا ؟ فإذا قال أهانه فلقد كذب، وإن قال أكرمه فلقد أهان غيره حيث أعطاه الدنيا ".**

أي أنه لا يقلِّل من شأنك عند الله أنك فقير، ولا أنك من عامة الناس، ولا ممن إذا حضروا لم يُعرفوا ولا إذا غابوا لم يُفتقدوا.

ولا أنسى كلمة قالها سيدنا عمر حينما كانت غزوة نهاوند، وكان عدد المسلمين يقلُّ عن الثلاثين ألفاً، وكان عدد جيش الكُفْرِ يزيد عن مئة وثلاثين ألفاً، وكان من قلق هذا الخليفة العظيم على جنوده المسلمين أنه أمضى وقتاً طويلاً يمشي في أسواق المدينة دون أن يجرؤ أحدٌ على أن يكلِّمه من شدة قلقه، ثمّ جاء رسولٌ من معركة نهاوند، وسأله عمر رضي الله عنه عن واقع المسلمين فقال: **" مات فلان وفلان واستشهد فلان وفلان وفلان "**. وذكر له أسماء الذين يعرفهم قال: **"ومن أيضاً ؟ "** قال: **" وهناك أناس لا تعرفهم بالاسم قد استشهدوا "**. فما كان من هذا الخليفة الراشد إلا أن قال قولاً: **"وما ضرّهم أني لا أعرفهم إذا كان الله يعرفهم ".**

فلذلك أيها الأخوة مجتمع المؤمنين لا يقوم على الدنيا ؛ ولا على المال، والترف، والمتع، لا، إنه يقوم على المبادئ، وعلى أن الدنيا دار عمل وأن الآخرة دار جزاء، والدنيا دار تكليف والآخرة دار تشريف، وأن هذه الحياة هي حياةٌ دنيا، وأحياناً ننسى معنى الكلمة، حياةٌ دنيا وأن الإنسان مخلوقٌ لحياةٍ عُليا..

((إن في الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب أحد))

[من الجامع الصغير: عن " سهل بن سعد "]

خصائص المؤمنين:

لذلك نحن الآن مع آيات تصف خصائص المؤمنين، فمجتمع مؤمن ما خصائصه ؟ يقول لك: مجتمع الكفاية والعدل أو مجتمع القانون لا المحسوبيات ومجتمع تكافؤ الفرص مثلاً، والعدل وهذه كلمات حديثة، والآن إذا عُدنا إلى كتاب الله فما الأوصاف التي وصف بها جماعة المؤمنين ؟ مجتمع مؤمن، أليس لهذا المجتمع خصائص تميّزه عن بقية المجتمعات ؟ الآن مجتمع المؤمنين مجتمع فيه صدق، ووفاء، وأمانة، وإخلاص، وليس فيه غش، ولا حسد، ولا غيبة، ولا نميمة، بل فيه تعاون، وتكاتف، وحُب، وإخلاص، وتناصح، وتلاقٍ، وتزاور، ومؤاثرة.

ومجتمع الكفّار مجتمع فيه تباعد، وتباغض، وحسد، وتآمر، واحتيال، وكراهية، وحقد، فنحن الآن أمام آياتٍ تصف مجتمع المؤمنين وهذا المجتمع أساسه يقوم على المبادئ لا على المادّة، ويقوم على القيم لا على الحاجات.

تفوق الفاسق لا يرفعه عند الله عز وجل:

لذلك يقول الله عزّ وجل:

(فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ (36))

(سورة الشورى)

هذا ينقلنا إلى أن الأجانب حينما تفوّقوا في الدنيا فهذا لا يرفعهم عند الله عزّ وجل:

(حَتَّى إِذَا أَخَذَتْ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ(24)وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلامِ)

(سورة يونس)

متاع الحياة الدنيا قاسم مشترك بين كل الناس:

(وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ (36))

(سورة الشورى)

في ذاته..

(وَأَبْقَى (36))

(سورة الشورى)

أمداً، لكن هذا ليس لكل الناس، متاع الدنيا لكل الناس، والدنيا عرضٌ حاضر يأكل منه البر والفاجر، والآخرة وعدٌ صادق يحكم فيه ملكٌ عادل. فمتاع الحياة الدنيا للكفّار وللمؤمنين، فالكافر يأكل والمؤمن يأكل،والكافر يسكن في بيت مريح والمؤمن يسكن في بيت مريح، والكافر يتزوّج والمؤمن يتزوّج والكافر يُنجب والمؤمن ينجب والكافر يستمتع بالشمس الساطعة والمؤمن كذلك، فمتاع الحياة الدنيا قاسم مشترك بين كل الناس..

(فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا (36))

(سورة الشورى)

المؤمن له عطاء خاص يتميز به عن بقية الناس:

لكن الآخرة خالصةٌ للمؤمنين ولذلك قالوا: إن الله يعطي الصحّة (تجد أحياناً شخصاً ملحداً قوي البنية) وإن الله يعطي الصحّة والذكاء والمال والجمال للكثيرين من خلقه، ولكنه يعطي السكينة بقدرٍ لأصفيائه المؤمنين، فالمؤمن له عطاءٌ خاص يتميّز به عن بقية الناس..

(وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ(36))

(سورة الشورى)

فإذا لم تتوكّل على الله فعلى من تتوكّل ؟

من توكل على الله تكفل الله عز وجل بالدفاع عنه:

مجتمع المؤمنين مجتمع أولاً يطيع الله عزّ وجل، يقيم فيما بينه منهج الله، ومن لوازم هذا المجتمع أنه إذا جاءت قوةٌ طاغية يبذل المؤمن ما في وسعه لكنّه في النهاية يتوكّل على الله، والله سبحانه وتعالى أخبره أنه يدافع عنه:

(إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنْ الَّذِينَ آمَنُوا)

(سورة الحج الآية: 38)

(إن يَنصُرْكُمُ اللّهُ فَلاَ غَالِبَ لَكُمْ)

(سورة آل عمران الآية: 160)

(وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة الروم)

هكذا..

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا (55))

(سورة النور)

إذاً التوكّل على الله من صفات الجماعة المؤمنة، ومن صفات الفرد المؤمن.

على كل مؤمن أن يعدّ ما استطاع من قوة و على الله الباقي:

لو فرضنا جماعة مؤمنة إمكاناتها محدودة، وعلى أبوابها عدوٌ شرس، فماذا تفعل ؟ تطبّق قوله تعالى:

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ)

(سورة الأنفال)

والفارق بين القوة المُتاحة والقوّة الكافية يتولاّها الله عزّ وجل، فهناك فارق بينهما، وهذا الكلام يدعو للتفاؤل، وهناك من المسلمين من يدعو إلى اليأس يقول لك: يا أخي هناك مسافة حضاريّة كبيرة بيننا، فلو عشنا ألف عامٍ آخر لا نستطيع أن نلحق بهم، وهذا كلام غير مقبول لأن الله عزّ وجل قال:

(وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا (141))

(سورة النساء)

فأنت عليك أن تأخذ بكل قوّةٍ متاحةٍ بين يديك وعلى الله الباقي..

(وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ)

(سورة آل عمران الآية: 123)

المجتمع المؤمن مركز الثقل فيه في الآخرة بعكس المجتمع الفاسق:

إذاً الآية الأولى تبيّن مركز الثقل في الآخرة، فالمجتمع المؤمن مركز الثقل فيه في الآخرة لا في الدنيا، لكن أهل الدنيا كل إمكاناتهم، وكل مكتسباتهم، وكل إنجازاتهم في الدنيا ؛ بناء بنوه وجسر عمّروه وبيوت أنشؤوها ولكن مجتمعاً متفسّداً منحلاً أخلاقياً، فيه تحاسد وفيه تباغض، وتدابر، وتطاحن، وحقد، إنه مجتمع متفتّت ولو كان المظهر جميلاً.

والآن من ذهب إلى بلدٍ غربي يأخذه العجب من شوارعهم العريضة، وحدائقهم الغنّاء، وأبنيتهم الشاهقة، والمواصلات، وأماكن البيع والشراء، لكن لو دخلت إلى بيوتهم فمرض الإيدز يفتك بهم، والانحراف الأخلاقي لا حدود له، وزنى المحارم مُتَفَشٍ بشكل مذهل، وثلاثون بالمئة من حالات الزنى زنى محارم، بين الابن وأمه، والأم وابنها، والأخ وأخيه، والأب وابنته، فهذا المجتمع منحل، ولذلك فمجتمع المؤمنين يقوم على القيَم ولا يقوم على المظاهر الماديّة، فالمظاهر الماديّة مقبولة وليس فيها نقص، أما أن نكتفي بالمظاهر الماديّة فلا يجوز هذا، وهؤلاء هم المؤمنون قال:

(وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ(36))

(سورة الشورى)

خصائص المؤمنين الجماعية:

من هم المؤمنون ؟ وما خصائصهم ؟ الآن خصائصهم الجماعيّة قال:

(وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ (37))

(سورة الشورى)

ماذا يفهم من هذه الكلمة ؟ يفهم منها أن الإنسان إذا اجتنب كبائر الإثم فيما بينه وبين الله، والفواحش فيما بين العبد وبين بقية الناس، إذا اجتنب الكبائر فالله سبحانه وتعالى غفورٌ رحيم، أي يتجاوز عن الصغائر، والصغيرة هي العمل الذي تهمُّ به ولا تعمله، من بعض تفسيراتها والصغيرة هي الذنب الذي لا تصرُ عليه، وسريعاً تندم على فعله وسريعاً ما تستغفر الله عزّ وجل، أو حينما تحدِّثك نفسك بمعصيةٍ ولا تفعلها فهذه صغيرة، فما كان في نفس الإنسان من وساوس ومن خطرات ومن رغبة في معصية معيّنة ولا يفعلها فهذه صغيرة يعفو الله عنها، بدرت منك غلطة لا تقصدها فسرعان ما استغفرت الله عليها، أو أعلنت توبتك منها، أو ندمت عليها فهذه صغيرة ولكن لو أنك أصررت على أدق المعاصي فتغدو كبيرة، لقول النبي عليه الصلاة والسلام:

((لا كبيرة مع الاستغفار، ولا صغيرة مع الإصرار))

[من الجامع الصغير: عن " ابن عباس "]

قبول الله عز وجل التوبة عن عباده:

على كلٍ فالآية توحي بشيء، أي أن الله عزّ وجل غفور رحيم ويقبل التوبة عن عباده، فإذا قال العبد: يا رب، قال الله: لبيك يا عبدي..

((إن الله تعالى يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل، حتى تطلع الشمس من مغربها))

[الجامع الصغير: عن " أبي موسى "]

((ينزل الله كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير فيقول عز وجل من يدعوني فأستجيب له، من يسألني فأعطيه، من يستغفرني فأغفر له ؟))

[من أحاديث الإحياء عن " أبي هريرة "]

إذاً..

(وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ (37))

(سورة الشورى)

تعني أن الله سبحانه وتعالى يغفر الزلاّت، والصغائر، والذنب الذي لا تُصِرُّ عليه، والذنب الذي تندم على فعله، والذي تستغفر الله منه والذي لا تقصده، والخطأ والذنب الذي تحدّثك نفسك به دون أن تفعله، فهذه كلّها صغائر، وربنا عزّ وجل رفع عن أمة النبي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه..

على كل إنسان أن يتجاوز عن أخيه إذا غضب لأن الله عفو رحيم:

(وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ(37))

(سورة الشورى)

وقد يسأل سائل: ما العلاقة بين الآيتين ؟ إنها علاقةٌ متينة، أي أيها المؤمن كما أن الله سبحانه وتعالى تجاوز عنك في الصغائر، فأنت إذا غضبت تجاوز عن أخيك المؤمن، كما أن الله عاملك بالمغفرة والعفو والحلم فأنت خليفته في الأرض، فإذا وقع تحت يدك إنسان وقد أذنب لا تكن قاسياً، ولا حاقداً، ولا منتقماً..

(وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ(37))

(سورة الشورى)

هذا هو المؤمن، فالمؤمن يُسترضى ويعفو، فأناسٌ كثيرون أمر النبي بقتلهم لأنهم أساؤوا خلال عشرين عاماً لهذا الدين، ولأصحاب رسول الله وقتّلوا منهم، وهجوا الإسلام والمسلمين، وفعلوا كل ما يؤذي الله ورسوله، فلمّا فتح النبي مكّة عفا عن كل أهل مكّة وقال:

((اذهبوا فأنتم الطلقاء))

إلا بعض النَفَر الذين بلغت إساءتهم حداً لا يعقل، فهؤلاء حياتهم كلّها شر فالنبي أهدر دمهم، ويكفي أن تأتي امرأة أحدهم إلى النبي وتقول له: **" يا رسول الله أنا زوجة فلان أمِّنه أمنك الله "** فيعفو عنه. فتقول له: **" أريد علامةً على ذلك "**، فيعطيها عمامته الشريفة. أصحابٌ كرام.

من علامات المؤمن:

1 ـ لا يوجد عنده حقد أبداً:

عمير بن وهب قال لصفوان بن أميّة: **" لولا هؤلاء الأولاد الذين أخشى عليهم العَنَت، ولولا ديون ركبتني لذهبت إلى محمّدٍ وقتلته وأرحتكم منه "**، فهذا قول عمير بن وهب لصفوان بن أميّة زعيم الشرك في مكّة فصفوان انتهزها فقال له: **"يا عمير أولادك هم أولادي ما امتدّ بهم العمر، وديونك علي بلغت ما بلغت، فامض لما أردت"**.

فسقى سيفه سُماً وعلّقه على كتفه، وركب ناقته وتوجّه إلى المدينة ليقتل محمّداً عليه الصلاة والسلام، فرآه سيدنا عمر فقال:**"هذا عدو الله عمير جاء يريد شراً"**. ساقه للنبي، وكَتَفَ بحمّالة سيفه وجرى حوار لطيف قال له النبي عليه الصلاة والسلام: **"ما الذي جاء بك يا عمير؟"** قال: **" لأفدي أخي أو ابني "**. قال: **" وهذا السيف الذي على عاتقك؟ "** قال: **" قاتلها الله من سيوف وهل نفعتنا يوم بدر ؟ "** قال له: **" ألم تقل لصفوان لولا ديون ركبتني وأطفال أخاف عليهم العنت لذهبت وقتلت محمّداً وأرحتكم منه ؟"** وقف وقال: **" أشهد أنك رسول الله لأن هذا الذي جرى بيني وبين صفوان لا يعلمه أحد إلا الله وأنت رسوله"**. وأسلم.

ويقول سيدنا عمر: **" دخل عمير على رسول الله والخنزير أحبّ إليّ منه وخرج من عنده وهو أحبّ إليّ من بعض أولادي"**. فما في الإسلام عداوة دائمة أبداً، المسلم لا يكره الإنسان الكافر بل يكره كفره فقط ويكره انحرافه، أما كإنسان يحبّه ولذلك الإنسان إذا رجع إلى الله أصبح أخاك وانتهى الأمر، وعلامة المؤمن لا يوجد عنده حقد أبداً وأعدى أعداء المسلمين لو أنه اصطلح مع الله يجب أن تحبّه من أعماق أعماقك..

2 ـ يغفر إذا غضب:

(وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ(37))

(سورة الشورى)

فالله عزّ وجل قال: كما أنني أعفو عنكم وأسامحكم وأتجاوز عن خطاياكم وأغفر لكم، فأنتم إذا غضبتم اغفروا..

(وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ(37))

(سورة الشورى)

فهذا المنتقم إيمانه ضعيف، والله عزّ وجل وصف أهل الكفر بأنهم إذا بطشوا بطشوا جبّارين، لا يرحمون. وسيدنا رسول الله في الطائف لا يوجد إساءة وجّهت إليه أبلغ من هذه الإساءة، جاءهم على قدميه مشياً(ثمانين كيلو متر على رجليه، والطُرُقات إلى الطائف طرقات وعرة جداً فحينما رصفوا طريقاً إلى الطائف قبل سنوات، جبال كأنها جُزر) فالنبي وصل إليهم ودعاهم إلى الإسلام، وبيّن لهم، وهداهم إلى سبيل الله، ما كان منهم إلا أن كذّبوه، وسخروا منه، وأغروا صبيانهم بإيذائه، قال له جبريل: **"لو شئت لأطبقت عليهم الجبلين "**. قال:

((اللهمّ اهدِ قومي إنهم لا يعلمون عسى الله أن يُخرج من أصلابهم من يوحّده))

من وصل إلى الله صَغُرَ عنده كل شيء:

إذاً:

(وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ(37))

(سورة الشورى)

فهؤلاء المؤمنون، ليس عندهم تشفٍ وما يجري في العالم اليوم شيء والله لا يحتمل، فالإنسان رخيص جداً، شيء بسيط يقول لك: عشرة آلاف قتيل بيومين قتلوا في إفريقيا. فالقتل على قدمٍ وساق، وهذه من قسوة الإنسان، ومن بُعده عن الله عزّ وجل. **" ما تظنون أني فاعلٌ بكم ؟ "**. قالوا: **" أخٌ كريم وابن أخ كريم "**. قال:

((اذهبوا فأنتم الطلقاء))

وسيدنا يوسف ماذا فعل به إخوته ؟ وضعوه في غيابة الجب ليموت، عندما دخلوا عليه قال:

(لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ)

(سورة يوسف: من آية " 92 ")

(وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنْ السِّجْنِ)

(سورة يوسف: من آية " 100 ")

لم يذكر الجُب لئلا يحرجهم، ولئلا يذكِّرهم بجريمتهم، ويخذلهم ولم يقل: وأنتم مخطئون، قال:

(مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي)

(سورة يوسف: من آية " 100 ")

فالمؤمن عنده عفو، ورحمة، وصدره واسع جداً، فهو حينما وصل إلى الله صَغُرَ عنده كل شيء، فمن هذا الذي تهجّم عليه ؟ هو إنسان جاهل اعفُ عنه وانتهى الأمر..

الإنسان في الدنيا يتعامل تعاملاً واقعياً مع الحياة:

(وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ(37)وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ (38))

(سورة الشورى)

كنت اليوم في حفل فألقيت كلمة ذكرت فيها مثلاً جديداً أنه: لو إنسان يحمل دكتوراه لكن بلا عمل، ثم قرأ في الصحيفة إعلاناً عن شاغر في الجامعة فالمؤهِّل هي الشهادة التي يحملها، والأوراق الثبوتيّة كلها يمكن أن يأتي بها، وهو بلا عمل وينتظر عملاً بفارغ الصبر، وقد قرأ الإعلان في الصحيفة، وشهادته مناسبة، وسِنه، وجنسيّته، وأوضاعه كلها مناسبة، والمعاش كبير جداً، والمنصب رفيع. يا ترى إذا قرأ الإعلان عصر يوم السبت فصباح الأحد ماذا يفعل ؟ إلى أي ساعة يبقى في سريره ؟ والله يمكن ألا ينام الليل أبداً، فإذا ما أصبحت الساعة الثامنة خرج من البيت ليحصل على هذه الوثائق، ويقدِّم الطلب لينال هذا المنصب الرفيع. فالإنسان في الدنيا يتعامل تعاملاً واقعياً، والله عزّ وجل يقول:

(وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ (38))

(سورة الشورى)

على كل إنسان أن يستجيب لله و للرسول و يلزم جماعة المؤمنين:

أنت ماذا فعلت ؟ الحق واضح كالشمس، تستمع إلى الحق ناصعاً كضوء النهار، وأنت ماذا فعلت ؟ هل استجبت لله عزّ وجل ؟ وهل أجريت تعديلات في بيتك، وعملك ؟ وهل جعلت لنفسك منظومة ؛ هذه تجوز وهذه لا تجوز ؟ وحاسبت نفسك يومياً ؟ ماذا فعلت من أجل أن تصل إلى الله ؟ وهل ابتغيت إليه الوسيلة ؟ وهل تعرّفت إليه ؟ وتعرّفت إلى منهجه ؟ وعملت العمل الصالح الذي يُرضيه ؟ ولزمت جماعة المؤمنين ؟ وهل تلقّيت العلم الشرعي ؟ وتعلّمت القرآن، وعلّمته ؟ وهل أمرت بالمعروف ؟ وماذا فعلت بزوجتك ؟ هل تركتها على انحرافها أم لزمت نصحها وتوجيهها ؟ وتركت بناتك يفعلن ما يشأن أم ربّيتهن تربية صالحة ؟

(وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا (38))

(سورة الشورى)

مثل آخر: إنسان لا يوجد لديه بيت وهو بأشد الحاجة إلى بيت خطب فتاة ومضى على الخطبة سنتان، ولا يوجد بيت، ومعه مبلغ نصف مليون، والبيت مليون فما فوق ولو بلغه أن هناك بيتاً سعره نصف مليون ومناسب، وجاهز للبيع، وفارغ، وتسجيل رسمي، لا ينام هذه الليلة أبداً ولو أن العلاقة مع صاحب هذا البيت وهو في أقصى مكان في الأرض لذهب إليه، وهكذا طبيعة الإنسان، هل أدركت أن

الدين شيء عظيم جداً ؟ وهل انطلقت مستجيباً لله ولرسوله ؟ إذا أذّن المؤذِّن فماذا تفعل ؟ يناديك هَلُمّ إلى طاعتي، هَلُمّ إلى الاتصال بي.

المسلم حركة يتحرّك لمعرفة الله و تطبيق أوامره:

لذلك:

(وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ (38))

(سورة الشورى)

فالإسلام حركي، والإيمان حركي فليس هناك إيمان سكوني، إيمان إنسان مضّجع في سريره، قابع في بيته، ويقول ما دخلنا، لا توجع رأسك، ليس هذا هو المسلم، المسلم حركة يتحرّك لمعرفة الله ويحضر مجلس علم وينقل ما تعلّم إلى الآخرين، كما قال عليه الصلاة والسلام:

((بلغوا عني ولو آية))

[من الجامع الصغير: عن " ابن عمرو "]

يحاول أن يهدي أولاده، وزوجته، وإخوانه، وجيرانه، وزملاءه ومن حوله، ومن فوقه، ومن دونه، هكذا هو المؤمن.

العمل الصالح أساس وصول الإنسان إلى الله عز وجل:

كما قلت سابقاً: في اللحظة التي يستقر فيها الإيمان في قلب المؤمن يعبّر عن ذاته بذاته، عن طريق العمل الصالح. فليس هناك مؤمن مكتوف اليدين، فلا يوجد مؤمن سلبي، أو متقوقع، أو انهزامي، فالمؤمن متحرّك، يطلب العلم والله عزّ وجل قال:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ)

(سورة المائدة: من آية " 35 ")

فأنت هدفك حِمص وتحتاج إلى وسيلة (سيارة) فإذا كنت مصرّاً على أن تصل إلى هذه المدينة فلابدّ من أن تبحث عن وسيلة تنقلك إلى حمص. فإذا أردت أن تصل إلى الله فأنت بحاجة إلى وسيلة، ومن معاني الوسيلة أن تتعرّف إليه، ومن معاني الوسيلة أن تتعرّف إلى منهجه، وأن تلزم جماعة المؤمنين..

(وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ)

(سورة الكهف: من آية " 28 ")

(يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ(119))

(سورة التوبة)

فهذه من لوازم الوسيلة، ومن لوازمها العمل الصالح، وأن تقدّم شيئاً، وأن تبني حياتك على العطاء لا على الأخذ، وأن تبحث عمن تعلِّمه، عمن تقدّم له خدمةً، ومن تعينه كي يرضى الله عنك..

الاستجابة لأمر الله طريق الإنسان للاتصال بالخالق سبحانه:

(وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ (38))

(سورة الشورى)

وبعد أن استجابوا لربّهم أصبح الطريق إلى الله سالكاً..

(وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ (38))

(سورة الشورى)

لن تستطيع أن تتصل بالله إلا إذا استجبت لأمره، فحينما تطبّق أمر الله عزّ وجل تشعر أن الطريق إلى الله صار سالكاً..

((ذَاقَ طَعْمَ الْإِيمَانِ مَنْ رَضِيَ بِاللَّهِ رَبًّا وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولا))

[من صحيح مسلم: عن " عبد المطلب "]

الاتصال بالله ثمنه طاعة الله..

العاقل من استشار غيره في كل عمل يُقْدِمُ عليه:

(وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ (38))

(سورة الشورى)

فالمؤمنون ليس عندهم كبر، ولا تسلّط، ولا استبداد بالرأي..

(وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ (38))

(سورة الشورى)

ولذلك ورد في الحديث الشريف أنه:

((ما ندم من استشار ولا خاب من استخار))

[ورد في الأثر]

فأنت حينما تستشير ماذا تفعل ؟ تستعير عقل أخيك الإنسان، لك أخ له أربعون سنة خبرات في البيع والشراء، فأنت إذا استشرته استعرت كل خبرته بلا مقابل، فالمؤمن يستشير في كل عمل يُقْدِمُ عليه ويسأل أهل الخبرة من المؤمنين.

عدم استبداد المؤمن برأيه:

في معنى أوسع من ذلك: المؤمنون ليس بينهم من يستبد برأيه. فشاءت حكمة الله أن تجري هذه الحادثة في عهد النبي، ليقف النبي عليه الصلاة والسلام الموقف الكامل من أصحابه: وحين أنزل النبي عليه الصلاة والسلام جيش المسلمين في موقعة بدر في مكانٍ ما، جاءه صحابيٌ جليل اسمه الحُباب بن المنذر (أي أن هذا الصحابي في أعلى درجات الحب، وفي أعلى درجات الأدب، والغيرة على المسلمين فجاء النبي عليه الصلاة والسلام وأنا أقول: يقطر أدباً ويقطر تواضعاً) قال:

" يا رسول الله أهذا الموقع وحيٌ أوحاه الله إليك أم هو الرأي والمشورة ؟ " قال عليه الصلاة والسلام:

((بل هو الرأي والمشورة))

قال: **" يا رسول الله ليس بموقع "** ماذا فعل النبي ؟ هل غضب منه ؟ لا. وهل أبعده ؟ لا. وهل قال: اغرب عن وجهي تجرّأت علي ؟ لا أبداً بل قال له:

((الرأي والمشورة))

قال: **" يا رسول الله ليس بموقع"**. لذلك أعطى النبي أمره للجيش أن يستقرّ في الموقع الذي أشار عليه الحُباب.

لماذا شاء الله أن تقع هذه الحادثة ؟ كان من الممكن أن يوحي الله لنبيّه الموقع المناسب وحياً عن طريق جبريل، لأن جبريل جاءه في آلاف المرّات بموضوعاتٍ أقل من هذا الموضوع، وكان من الممكن أن يلهمه المكان المناسب، لكن شاءت حكمة الله أن يكون هذا الأمر على ما كان ليقف النبي الموقف الكامل ممن نصحه، وليُعَلِّم النبي أصحابه، وأمّته من بعده، والدعاة إلى الله من بعده، والأمراء المؤمنون بعضهم لبعضٍ نصحة متوادون، أي إذا جاءك إنسان مخلص ناصح فأصغ إليه، واشكره وأعطه أذناً صاغية، تفهّم نصيحته، فهذه صفات المؤمنين..

المؤمنون نصحة متوادون لا استعلاء بينهم:

(وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ (38))

(سورة الشورى)

استبداد بالرأي لا يوجد، واستعلاء، وتشنُّج، وسيطرة كلها لا توجد، قال له: **" الخليفة أنت أم هو ؟ "**. قال له: **" هو إذا شاء"**. انتهى الأمر..

(وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ (38))

(سورة الشورى)

سيدنا الصديق على جلال عظمته قال لسيدنا عمر: **" مدّ يدك لأبايعك "**. قال: **" أنا ؟ (غير معقول يوجد قول لا أذكره الآن لكن بمعنى) "** **والله لأن أقطّع إرباً إرباً أهون من أن أكون أميراً على قومٍ فيهم أبو بكر "** هل أكون أميراً ؟، قال له: **"امدد يدك لأبايعك "**. فقال سيدنا عمر: **" أنت أفضل مني "** قال له: **" بل أنت أقوى مني "** قال له: **" قوتي لك مع فضلك "** وأنا بخدمتك وهكذا المؤمنون..

(وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ (38))

(سورة الشورى)

هذه صفة جماعة المؤمنين، إذا عزّ أخوك فهُن أنت، فأنت في خدمة إخوانك، **" وما ضرّهم أني لا أعرفهم إذا كان الله يعرفهم ؟ "**. فأنت جندي تعمل في خدمة الحق، أعرفك الناس أم لم يعرفوك، أرفعك الناس أم لم يرفعوك، أنوّه الناس بفضلك أم لم ينوّهوا به، ماذا يعنيك ؟ يعنيك أنك تفعل عملاً يرضي الله عزّ وجل.

فوائد الشورى:

إذاً:

(وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ (38))

(سورة الشورى)

يا إخواننا الكرام الأب يسأل أولاده أحياناً، الشورى لها مجموعة فوائد، أولاً: قد تكون غافلاً عن فكرةٍ تأتيك ممن هو أدنى منك، والإنسان دائماً إذا كان في موقع اتِّخاذ القرار، يكون عليه ضغط، فإذا سأل إنساناً بعيداً عن الضغط يعطيه رأياً صحيحاً وكل إنسان بموضع اتخاذ القرار في عليه ضغط شديد، وهذا الضغط أحياناً يبعده عن الحقيقة، فلو أن كل إنسان كان حوله جماعة مستشارين.

فسيدنا عمر بن عبد العزيز بحث عن أرقى إنسان علماً وورعاً وتُقى اسمه عمر بن مهاجر، قال له: **" يا عمر اجلس إلى جانبي وراقب أحكامي، فإذا رأيتني ضللت فأمسكني من تلابيبي وهُزّني هزّاً شديداً وقل لي: اتق الله يا عمر فإنك ستموت"**.

استشر يا أخي، قبل أن تقدم على عمل استشر أولي الخبرة من المؤمنين، واستشر من هم أعقل منك ومن هم أطول منك خبرةً، وأكثر منك قرباً من الله عزّ وجل، ولا تفعل شيئاً ارتجالاً..

(وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ (38))

(سورة الشورى)

فالإنسان بأسرته يستشير، وإذا كان موظّفاً في دائرة وحولهُ موظّفون آخرون عليه أن يستشيرهم، ما قولكم سنفعل كذا ؟ قد تأتيك أفكار لم تكن تعرفها. فأولاً الشورى حقيقيّة، والشورى أيضاً تؤلِّف القلوب،

وتزيل الأحقاد، فالقلوب تتألف، والأحقاد تتلاشى، والآراء تتضافر وهذه هي الشورى، والمؤمن الصادق يستشير ؛ على مستوى أسرته وعلى مستوى عمله، وجامعه، لا يقدم، وأحياناً يسافر الإنسان ويكون السفر ليس فيه خير، فيسأل من سافر قبله وغادر..

العطاء و الإنفاق من أبرز صفات المؤمن:

(وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ(38))

(سورة الشورى)

فجماعة المؤمنين أساسها العطاء والإنفاق وأبرز صفة بالمؤمن الإنفاق، ينفق وقته، وماله، وعلمه، وخبرته. أنا مرّة استشارني أخ كريم بعمل صناعي، فقلت له: والله أنا لا أعرف مدى جدوى هذه الصنعة، استشر من تجد فيه الأهليّة. قال لي أنه ذهب إلى أحد الأسواق التي تبيع هذه السلعة، وسأل أصحاب المحلات واحداً واحداً، وأكثرهم أشار عليه أن هذه المصلحة ليس فيها نفع إطلاقاً، ولها مشكلات، فجاء إلي مرّة ثانية وقال لي: هكذا قالوا. قلت له: أعرف واحداً في هذا السوق أظنّه مؤمناً فاذهب إليه واسأله. أعطاه كلاماً آخر وقال له: مصلحة جيّدة جداً وأرباحها مجزية وموادِّها الأوليّة متوافرة، ومشكلاتها قليلة. قلت: سبحان الله المؤمن نصوح !! فهذا المؤمن نصحه أما هؤلاء لضعف إيمانهم ظنوه أنهم سينافسهم فأبعدوه عن هذه المصلحة، فالمؤمن نصوح وهذا ما ورد في الحديث الشريف:

((إن المؤمنين قوم نصحة بعضهم لبعض متوادون وإن بعدت ديارهم وأبدانهم، وإن المنافقين قوم غششة بعضهم لبعض))

[كنز العمال]

ليس من حق المسلم أن يخنع ولا أن يذِل:

(وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ(39))

(سورة الشورى)

وهل جماعة مؤمنة فيها ذل، وخنوع، وضعف !! لا..

(وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ)

(سورة المنافقون: من آية " 8 ")

استعن بالله ولا تعجز..

(وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ(39))

(سورة الشورى)

فالإسلام لا يأمرك أن تدير خدّك الأيسر لمن ضربك على خدّك الأيمن، يقول لك:

(وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ(39))

(سورة الشورى)

صاحب الحق له أن يأخذ حقّه أو أن يعفو:

الإسلام أيها الأخوة وسطٌ بين أن تدير خدّك الأيسر لمن ضربك على خدّك الأيمن، وبين أن تكيل له الصاع صاعين، الإسلام يقول لك:

(وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ(39))

(سورة الشورى)

فالمسلم حينما يُبغى عليه ويرضى، ويخضع، و يتطامن سقطت قيمته بين الناس، فالناس يحبون العزيز القوي، فلذلك ليس من حق المسلم أن يخنع، ولا أن يذِل، ولا أن يخضع..

(وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ(39))

(سورة الشورى)

لكن إذا أراد أن ينتصر ليس له أن يبغي، ولا أن يزيد الصاع صاعين..

(وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا (40))

(سورة الشورى)

إخواننا الكرام صاحب الحق له أن يأخذ حقّه، وهو مخيّر أن يعفو وأما الذي عليه الحق فيجب أن يؤدِّي الحق ولذلك قالوا: **" العدل قسْريّ والعفو والإحسان طوْعِيّ "..**

(وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ (40))

(سورة الشورى)

من أيقن أن عفوه عن المذنب يصلحه فليعفُ عنه:

لكن دقِّقوا في هذه الآية:

(فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ (40))

(سورة الشورى)

ما معنى:

(وَأَصْلَحَ)

هنا ؟ أحياناً عفوك عن هذا المذنب يصلحه، فإذا أيقنت أنك إذا عفوت عن هذا المُذنب تأخذ بيده إلى الله وسيدنا الرسول اللهمّ صلِّ عليه، أحد الصحابة واسمه حاطب بن بلتعة ارتكب في العرف الحديث

جريمة الخيانة العُظمى، والنبي عليه الصلاة والسلام يزمع فتح مكّة، فهذا الصحابي أرسل رسالة إلى أهل مكّة يخبرهم فيها أن محمّداً يريد أن يأتيكم غازياً فخذوا حذركم وهذه الرسالة في كل الأنظمة في العالم، وفي كل أطوار البشريّة تعدُّ خيانة عظمى توجب القتل.

فالنبي عليه الصلاة والسلام جاءه الوحي: أن فلاناً قد أرسل رسالة مع امرأةٍ اسمها فلانة، وهي في طريقها إلى مكّة، يخبرهم بأن محمداً يزمع أن يغزوكم، أرسل أحد الصحابة أو صحابيّان، وعثرا على الرسالة في شعر هذه المرأة في مكان اسمه الروضة بين مكّة والمدينة، وجيء بالرسالة وقُرئت، وجيء بحاطب، ما كان من عمر إلا أن قال: **" يا رسول الله دعني أضرب عنق هذا المنافق ".**

قال النبي عليه الصلاة والسلام كلمة لو دقّق الإنسان في مضمونها لذابت نفسه حباً بهذا النبي الكريم، قال له:

((يا عمر إنه شهد بدراً))

أي إن النبي عليه الصلاة والسلام لشدّة وفائه ورحمته ما أراد أن يهدِر عمل هذا الصحابي، قال:

((يا عمر إنه شهد بدراً))

قال:

((يا حاطب ما حملك على ما فعلت))

قال: **" والله يا رسول الله لا كفرت ولا ارتددت ولكن ليس لي يدٌ عند قريش ولي هناك أموال، فخشيت أن يأخذوا أموالي وأن يؤذوا أهلي، وأردت أن يكون لي عندهم هذه الصنيعة، والله ما كفرت ولا ارتددت، واغفر لي ذنبي يا رسول الله ".** فقال عليه الصلاة والسلام:

((إني صدّقت ما قاله حاطب فصدِّقوه ولا تقولوا فيه إلا خيراً))

قال كُتّاب السيرة: إن عمر بن الخطّاب نظر إلى الذنب فرآه خيانة عظمى ولكن النبي عليه الصلاة والسلام نظر إلى صاحب الذنب فرآها لحظة ضعفٍ طارئة، فبدل أن يسحقه مدّ يده وأنهضه من كبوته. وهذا الصحابي الجليل قام من كبوته، وجدّد إيمانه، وتألّق في عهد النبي، وبعثه النبي بعد حين مبعوثاً شخصياً له إلى بعض الملوك، تجاوز العقبة.

عفو الإنسان عن أخيه يعطيه معونة على أن يلتزم الحق و يستقيم:

إخواننا الكرام هذه الآية دقيقة جداً:

﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ (40) ﴾

(سورة الشورى)

فأحياناً عفوك عن أخيك تعطيه معونة على أن يلتزم الحق وعلى أن يستقيم. وأنا أعرف رجلاً (سمعت هذه القصّة ممن أثق به) عاش في الأربعينات في هذه البلدة، خطيب مسجد من الخطباء اللامعين رأى النبي عليه الصلاة والسلام، قال النبي له في الرؤيا: **" قل لجارك فلان إنه رفيقي في الجنّة "**. جاره سَمّان، فهذا الخطيب اللامع تأثر، وطرق باب جاره وقال له: لي عندك كلامٌ قليل، دخل إلى البيت وقال له: لك عندي بشارةٌ من رسول الله، ولكنني والله لن أقولها لك إلا إذا أخبرتني بماذا فعلت.

طبعاً تمنّع أن يقول وبعد أخذٍ ورد تكلّم هذا الجار عن العمل الذي فعله واستحق به هذه البشارة من رسول الله. قال: تزوّجت امرأةً وبعد دخولي بها بخمسة أشهر وجدت بطنها يحمل مولوداً في الشهر الثامن أو التاسع، فعلمت أنها زلّت قدمها قبل أن أتزوّجها. قال له: بإمكاني أن أطلِّقها وبإمكاني أن أسحقها، وأفضحها لكن شعرت أنني إذا عفوت عنها لعلّها تتوب توبةً نصوحاً، فجاء بقابلةٍ في الليل وولّدت له امرأته، وأخذ هذا المولود تحت عباءته، ولمّا أذّن الفجر وانتظر حتى أُقيمت الصلاة ؛ ولمّا نوى الإمام الصلاة دخل إلى المسجد ووضع المولود وراء الباب، فلمّا انتهت الصلاة بكى الطفل الصغير المولود حديثاً وتحلّق حوله المصلون وجاء هو واحداً منهم وقال: ما القصّة ؟ قالوا هناك طفلٌ وراء الباب، قال: أعطوني إياه أنا أكفله. وأعاده إلى أمِّه وسترها ولم يفضحها. فقال النبي عليه الصلاة والسلام لهذا الخطيب:

((قل لجارك فلان إنه رفيقي في الجنّة))

من عفا عن أخيه شعر بنشوة الظفر على ذاته:

أحياناً الإنسان بعفوه يشتري أخاه وينقذه وبعفوه يرفعه وينهضه، أما إذا انتقم منه فقد أعان عليه الشيطان، وإذا عفا عنه أعانه على الشيطان..

﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ (40) ﴾

(سورة الشورى)

وسيدنا الرسول اللهمّ صلِّ عليه، حاطب بن بلتعة ارتكب خيانة عظمى، يستحقُ عليها القتل في كل الأنظمة والقوانين، ومع ذلك قال له:

((لا يا عمر إنه شهد بدراً))

فأنت أحياناً يسيء إليك إنسان تملك أن تصلحه إذا عفوت عنه، قال:

﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ (40) ﴾

(سورة الشورى)

يزداد عزّاً ويزداد رفعة، وتألّقاً، وقرباً، قال العلماء في هذه الآية:

(مَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ)

الذي يعفو يصلح نفسه، والذي يعفو يشعر بنشوة، ويحسُّ أنه انتصر على ذاته، وعلى شهوة الانتقام، فهذه شهوة، من عفا عن أخيه شعر بنشوة الظَفَر على ذاته وعلى نفسه وشعر بقيمته الإنسانيّة، ولذلك فالذي يعفو هو نفسه يصلح نفسه، والذي عفا عنه يصلحه.

بطولة المؤمن أن يعفو عمن ظلمه عند قدرته على ذلك:

إذاً:

(فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ (40))

(سورة الشورى)

الإصلاح للذي تعفو عنه، تنهضه من كبوته، والإصلاح لنفسك بمعنى أنك انتصرت على شهوة الانتقام..

(فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ (40))

(سورة الشورى)

((ما تجرّع العبد جرعة أعظم عند الله من غيظٍ كتمه في سبيل الله))

[ورد في الأثر]

قال الله:

(وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنْ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ(134))

(سورة آل عمران)

فسهل جداً إذا كنت قوياً وأساء إليك إنسان أن تبطش به وتسحقه سحقاً، ولكن البطولة أن تعفو عنه، عفو المُقتدر، فالعفو عند المقدرة.

الإسلام دين خُلُق و رحمة:

اللهمّ صلّ عليه عندما فتح مكّة (طبعاً التاريخ كلمات نقرأها أما الوقائع فصعبة كثيراً) وكفّار قريش كادوا للنبي عليه الصلاة والسلام عشرين عاماً قتلاً، وتعذيباً، واغتصاب أموال، وتشهيراً، وهجاء، ثلاثة حروب قادوها ضده، ائتمروا على قتله، وائتمروا على إخراجه، وائتمروا عليه مع اليهود، فلمّا فتح النبي مكّة بعشرة آلاف سيفٍ متوهِّجة تنتظر كلمة من فمه الشريف.

والله أيها الأخوة كان بإمكانه أن يلغي وجود قريش كلِها، وهم عرفوا أنهم تحت رحمة كلمةٍ تخرج من فمه، قال:

((ما تظنُّون أني فاعلٌ بكم))

قالوا: **" أخٌ كريم وابن أخ كريم "**. قال:

((اذهبوا فأنتم الطلقاء))

فعندما دخل مكّة فاتحاً قال كتّاب السيرة: كادت ذؤابة عمامته تلامس عنق بعيره تواضعاً لله عزّ وجل.

وأبو سفيان عندما رأى منه هذا الموقف قال له: " يا بن أخي ما أرحمك، وما أكرمك، وما أوصلك، وما أحلمك ". فهذا هو الإسلام، الإسلام كله خُلُق.

الإنسان الذي يعفو عن غيره يزداد تألقاً عند الناس و عند الله:

لذلك أيها الأخوة..

(فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ (40))

(سورة الشورى)

فالذي يعفو عن أخيه يصلحه، ويأخذ بيده، وينهضه، ويعينه على الشيطان ؛ والذي ينتقم من أخيه يسحقه، ويفضحه، ويعين الشيطان عليه، فإذا عفوت عن أخيك أصلحت نفسك وانتصرت على شهوة الانتقام، ولذلك فالإنسان الذي يعفو يزداد تألّقاً عند الناس وعند الله، وبالمناسبة فبعض العلماء قالوا: لا يكون العفو عفواً إلا عن إنسان بالغ في الإساءة إليك ثم أصبح في قبضتك، وبإمكانك أن تسحقه فعفوت عنه. أما الذي يقول: أنا عفوت عنه. وهو أقوى منك هذا كلام فارغ، ولذلك العفو عند المقدرة فقط أما إن لم تكن قادراً عليه فاصبر أو لا تصبر فهذا هو الواقع.

من أراد أن يأخذ حقه عليه أن يأخذه دون أن يزيد عليه:

(فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ(40))

(سورة الشورى)

أي إذا أردت أن تأخذ حقك يجب أن تأخذ الحق فقط دون أن تزيد عليه، أما سأكيل له الصاع صاعين. فهذه لا آية ولا حديث وهذا كلام شيطاني، فإذا أردت أن تكيل له الصاع كِل صاعاً بصاع..

(وَلَمَنْ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ (41))

(سورة الشورى)

(وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا (40))

(سورة الشورى)

لو أراد أحدهم أن يأخذ حقّه، قال:

(فَأُوْلَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ(41))

(سورة الشورى)

العدل قسري أما العفو فطوعي..

(وَلَمَنْ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُوْلَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ(41)إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ(42)وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ(43))

(سورة الشورى)

من كان إيمانه بالله قوياً وتوحيده قوياً عليه أن يؤمن بالقضاء و القدر:

آخر آية:

(وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ(43))

(سورة الشورى)

إخواننا الكرام، أحياناً يأتي القضاء والقدر مباشرةً من الله مثلاً: شخص وقع ابنه من الشرفة فمات، فلمن يتجه الأب ؟ وسوف يحاكم من ؟ وسينتقم ممن ؟ ويقيم دعوى على من ؟ لا يوجد أحد، ابنه وقع من الشرفة إلى الأرض فمات، ولكن حينما يُدهس سائق سيارة ولداً، فبالحالتين الابن مات ولكن مرّة مات قضاءً وقدراً ومرّة مات بفعلٍ بشري، فالإنسان عندما يكون إيمانه بالله قوياً جداً، وتوحيده قوياً جداً ولو أن الفعل المؤلم جاءه على يد إنسان فيبقى موحِّداً ويبقى مؤمناً وإن الله وحده هو الذي شاء ذلك، ولذلك فليس عنده حقدٌ دفين على هذا الذي جرى على يده هذا العمل.

من صبر على قضاء الله و قدره فأجره على الله:

الآية الكريمة:

(وَلَمَنْ صَبَرَ (43))

(سورة الشورى)

على قضاء الله وقدره..

(وَغَفَرَ (43))

(سورة الشورى)

لمن كانت هذه الإساءة على يديه، قال:

(إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ(43))

(سورة الشورى)

إن يحتاج إلى إيمان قوي وإلى توحيد قوي والآية الكريمة:

(وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ(17))

(سورة لقمان)

من عاقب المذنب أو عفا عنه عليه أن يرى أن الله وحده هو الذي سمح له أن يفعل هذا:

أما هذه الآية:

(وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ(43))

(سورة الشورى)

لذلك المؤمن لو جاءه مكروهٌ على يد إنسان يرى أن الله وحده هو الذي سمح له أن يفعل هذا وتبقى علاقته مع الله، ويقف من هذا الذي ساق الله على يده الشر موقفاً حكيماً، إما أن يعاقبه لمصلحته، وإما أن يعفو عنه ولكن بالحالتين ليس في قلبه حقدٌ عليه. إنسان تلقّى ضربة من العصا فهل ألمه من العصا أم من الذي ضرب ؟ بل من الضارب، فإذا صبّ كل نقمته على العصا يكون جاهلاً، وعليه أن يتألّم ممن ضرب لا من العصا لأنها أداة، وينبغي أن تعلم أن كل البشر الذين يُخافُ منهم إنهم عصيٌ بيد الله، والدليل:

(فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ (55) إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آَخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (56))

(سورة هود)

الإيمان الكامل أن تقف موقفاً حكيماً من دون حقد ولا إشراك بالله ممن تلقيت منه الأذى:

الإيمان الكامل حتّى لو جاءك لا سمح الله شر على يد إنسان، فهذا الإنسان لا يستطيع أن يفعل ما فعل إلا بعد أن يأذن الله، وهذا الإنسان سيحاسب ولكن شاءت حكمة الله أن يكون الأذى على يده، إذاً يجب أن تقف موقفاً حكيماً من دون حقد، ولا إشراك بالله، فمع التوحيد الكامل تقف الموقف الكامل، فإن كانت الحكمة أن تعاقبه لتردعه عن أن يعود لمثلها فلا مانع ولكن بالحالتين بدون حقد..

(وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ(43))

(سورة الشورى)

آيات تصف جماعة المؤمنين:

إخواننا الكرام هذه الآيات آيات تصف جماعة المؤمنين:

(فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (36) وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ (37) وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (38) وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ (39) وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (40) وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ (41) إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (42) وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ(43))

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الشورى 042 - الدرس (14-15): تفسير الآيات 44-46، الدنيا ليست مقياساً للتفاضل بين الناس

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1994-05-06

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الرابع عشر من سورة الشورى.

على الإنسان أن يعفو عمن يعتقد أنه بالعفو عنه يقربه من الله:

مع الآية الكريمة الرابعة والأربعين وهي قوله تعالى:

(وَمَنْ يُضْلِلْ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ(44))

(سورة الشورى)

أيها الأخوة... قبل أن أمضي في الحديث عن هذه الآية الكريمة، سُئلت سؤالاً في الأسبوع الماضي حول آيات الدرس السابق، والسؤال هو: يبدو أن في الآية مفارقةً بين قوله تعالى:

(وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمْ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ(39)وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ (40))

(سورة الشورى)

كأن الله سبحانه وتعالى يثني على المؤمنين الذين إذا أصابهم البغي ينتصرون، ثم يقول:

(فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ(40))

(سورة الشورى)

فكيف نوفِّق بين أن ينتصر المؤمن على من بغى عليه، وبين أن يعفو عنه ؟ ذكرت في الدرس الماضي جانباً من تَبْيَان المفارقة بين الجزئين، والحقيقة إذا غلب على ظنِّك أنك إذا عفوت عن إنسانٍ أساء إليك سيجعله يجترئ على ظلم الآخرين فيجب ألا تعفو عنه، ويجب أن تنتصر منه، أما إذا غلب على ظنِّك أنك إذا عفوت عنه أصلحته وقرّبته إلى الله عزّ وجل فيجب أن تعفو عنه، وهذا هو المقياس.

من عفا عن غيره أجره على الله لا يقدر بثمن:

المؤمن لقوة التوحيد الذي ملأ كيانه ليس له حظٌ وليس له رغبةٌ في الانتقام، ولكن إذا كان الأصلح، والأكمل، والأحكم أن تنتصر من هذا الذي بغى عليك كي تردَعه عن أن يظلم إنساناً آخر، فالحكمة أن

تنتصر منه، أما إذا رأيته قد نَدِم، وكان ضعيفاً أمامك، ورأيت فيه جانباً من الخَير بحيث أنك إذا عفوت عنه تقرّبه من الله عزّ وجل، وتُنْهضُهُ وتعينه على نفسه فالأولى أن تعفو عنه، فهذا هو المقياس..

(وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ(39)وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ (40))

(سورة الشورى)

الأجر ما بيّن، قال:

(فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ (40))

(سورة الشورى)

ولو أن أحداً (من باب التقريب) قال لك: أجرك من الملك. ماذا تعني كلمة مَلِك ؟ هل سيعطيك قلم رصاص ؟ وهل ليرة واحدة سيعطيك ؟ فماذا تعني أجرك من الملك ؟ شيء لا يقدّر..

(فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ (40))

(سورة الشورى)

على كل مسلم أن يوقع الجزاء العادل بمن بغى عليه إن كان العفو لا ينفع معه:

أنت حينما تكون قادراً على أن توقع الجزاء العادل بمن بغى عليك، لكنك رأيت أنك إذا عفوت عنه تنهضه من كبوته، وتعينه على شيطانه، وتقرّبه من ربّه ومن المسلمين، وتجعله ينضمُّ إلى المؤمنين بعفوك عنه فيجب أن تعفو عنه ولكن أين حقّك ؟ أجرك على الله. إذا كان لك مع واحد ألف، وقال لك شخص: سامحه وخذ مني مليوناً. ألا تسامحه ؟..

(فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ (40))

(سورة الشورى)

إذاً الذي يجمع بين طرفي الآية هو أنه إذا غلب على ظنِّك أنك بعفوك عنه تقرّبه، فيجب أن تعفو عنه، أما إذا غلب على ظنِّك أنك بعفوك عنه تجعله يجترئ، ويعتدي على إنسان آخر فيجب عليك أن توقفه عند حدِّه.

الله تعالى منتقم إذا أساء الإنسان يوقفه عند حدِّه ويحمله على الاستقامة:

لعمري إن معنى المنتقم، المنتقم اسمٌ من أسماء الله عزّ وجل، فإذا قلنا: فلان انتقم. لا نشعر أننا نثني عليه، فكأننا نَذُمُّهُ، فالله سبحانه وتعالى منتقم بمعنى إذا أساء الإنسان يوقفه عند حدِّه ويحمله على الاستقامة وعلى التوبة والانتقام من الله ليس بالمعنى الذي نفهمه فيما لو نُسِبَ هذا الاسم إلى الإنسان،

الانتقام من الله عزّ وجل يعني أن الله إذا رأى عبداً طغى وبغى، واستمرأ الظلم، وتجاوز الحدود، واعتدى يعالجه معالجةً يوقفه بها عند حدِّه رحمة به، لأن الله عزّ وجل قال:

(وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا (180))

(سورة الأعراف)

أسماؤه كلّها حسنى، وكماله مُطْلَق، وكل ما في الكون ينطق بوجوده ووحدانيّته وكماله، فهذا التوضيح من الدرس السابق..

(وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمْ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ(39)وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ(40))

(سورة الشورى)

الله عز وجل خلق الإنسان ليهديه لا ليضله:

أما الدرس الذي بدأنا به..

(وَمَنْ يُضْلِلْ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ(44))

(سورة الشورى)

إخواننا الكرام... لا يعقل أن يَخْلِقَ الله الإنسان ليهديه إليه ثمّ يضلِّه، هذا الشيء لا يتناسب مع روح القرآن، ولا يتناسب مع سرِّ الوجود..

(إِلا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ)

(سورة هود: من آية: " 119 ")

فكيف يضلُّهم ؟ ماذا نفعل بالآيات التي تعزو الإضلال إلى الله عزّ وجل ؟

الحقيقة أن الله جلّ جلاله سمّى القرآن الكريم مثاني ومعنى مثاني أي أن كل آيةٍ تنثني على أختها فتفسِّرها.

إذا عُزي الإضلال إلى الله فهو:

1 ـ الإضلال الجزائي المبني على الضلال الاختياري:

قال تعالى:

(فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ)

(سورة الصف: من آية: " 5 ")

فإذا عُزيت إزاغة القلب إلى الله، قال العلماء: هذه الإزاغة الجزائيّة المبنيّة على زيغ اختياري. وإذا عُزي الإضلال إلى الله فهو الإضلال الجزائي الذي بني على ضلالٍ اختياري.

وأنا دائماً أوضِّح هذه الآية بمثل في متناولكم جميعاً: عندما لا يداوم طالب بالجامعة، ولا يشتري كتباً، ولا يؤدي امتحاناً، لقد أعطي فرصة ليسجِّل فلم يسجِّل وأُنْذِر فلم يستجب وأُعطي فرصة استثنائيّة ليقدِّم الامتحان من خارج الجامعة فلم يقدِّم، أرسل له مندوب شخصي ليقنعه بمتابعة الدراسة فلم يستجب، اسمه داخل السجلات وعندئذٍ صدر قرارٌ بترقيم قيده من الجامعة، فهل هذا الترقيم ظلمٌ له ؟ إن هذا الترقيم تعبيرٌ عن موقف الطالب، إنه ترقيمٌ جزائيٌ مبنيٌ على اختيارٍ ذاتيٍ من الطالب، فكلّما عُزي الإضلال إلى الله عزّ وجل، فهو الإضلال الجزائي المبني على ضلالٍ اختياري ويؤكِّد هذا المعنى قوله تعالى:

(فَلَمّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ)

(سورة الصف: من آية: " 5 ")

وهذا هو المعنى الأول الذي يمكن أن نَلْمَحَهُ من الضلال.

2 ـ أو هو الضلال الحُكْمِيّ:

المعنى الثاني كما قال بعض العلماء: هو الضلال الحُكْمِيّ. كيف ؟ يضربون على ذلك مثلاً يوضِّح الفكرة: فأنت في الطريق إلى بلدةٍ بعيدة، وفي منتصف الطريق رأيت فرعين رئيسين للطريق، يا ترى أحمص من أي الفرعين ؟ رأيت رجلاً يقف على المفرق فسألته: أين حمص ؟ قال لك: من هنا. فقلت له: جزاك الله خيراً. وعندما رأى منك هذا الود وهذه الاستجابة، وهذا التقدير أعطاك عشرات المعلومات الإضافيّة قال: انتبه بعد كذا كيلو متر يوجد تحويلة، وبعد كذا كيلو متر يوجد حاجز وبعد كذا كيلو متر هناك سؤال، وهنا في الطريق مُنزلق. فأنت عندما قبلت هذا الإرشاد من هذا الإنسان أعطاك معلوماتٍ كثيفةً كثيرةً، قال تعالى:

(إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى(13))

(سورة الكهف)

جاء إنسان آخر فرأى طريقين متشابهين من دون لوحة، ورأى رجلاً يقف فقال له: من أين حمص ؟ قال له: من هنا. قال له: أنت كاذب. فهل بإمكان هذا الدليل أن يعطيك المعلومات الإضافيّة ؟

من رفض الدين سيرفض تفاصيله أيضاً:

الإنسان عندما رفض الدين أصلاً فكل الميزات، والتفاصيل، والأحكام، والأدلّة، والقواعد، وأصول التعامل، وأصول التربية، وأصول كسب المال، وكل هذه الحقائق والقوانين حُرِم منها حكماً وأضلّه الله ورفض الإنسان أصل الدين ورفض جوهر الدين، إذاً تفاصيل الدين، وأحكام الزواج، وأحكام الطلاق، والبيع، والشراء، وطريق تربية الأولاد والسعادة في النفس. إنه رفض الأصل وكان مع رفضه الأصل رفضه للتفاصيل، إذاً هذا أيضاً إضلال، ولذلك قال الله عزّ وجل:

(وَمَنْ يُضْلِلْ اللَّهُ (44))

(سورة الشورى)

الحالة الثانية.

3 ـ أو أن الله تعالى يضل عن شركائه و لا يضل عن ذاته:

الحالة الثالثة دقيقة جداً، أن الله سبحانه وتعالى لا يضل عن ذاته بل يضلُّ عن شركائه، فأنت حينما تتخذ إنساناً إلهاً لا تقول: هو إله. لا لكن تعتمد عليه، وتثق به، وتطيعه في كل شيء ولو عصيت الله عزّ وجل، فحينما ترى أن هذا الإنسان ينفعك، ويرفعك، ويعطيك، ويغنيك، وأن رضاه جنّة وغضبه نار، فلو تركك ربنا عزّ وجل على ما أنت عليه لمتّ مشركاً، ماذا يفعل ؟ لا يضلِك عن ذاته بل يضلّك عن هذا الشريك. أي وأنت في أحوج ما تكون إليه يتخلّى عنك، وأنت في أشد الشعور بأنه قوي يريكه ضعيفاً متخاذلاً، وأنت تظنُّ أنه وفيّ يبدو لك لؤمه، فالله أضلّك ولكن ما أضلّك عن ذاته بل أضلّك عن شركائه.

الإنسان حمل الأمانة ومن لوازمها أنه مُنِح حريّة الكسب:

لو أن معلِماً مخلصاً رأى طالباً يروّج بين زملائه أسئلة يدّعي أنها من المدرّس، وهو كاذب بهذه الدعوى، فلو جاء المدرّس بهذه الأسئلة في الامتحان، لقوّاه ودعّمه، فماذا يجب أن يفعل المدرّس ؟ أن يأتي بأسئلةٍ لا علاقة لها إطلاقاً بهذه الأسئلة التي يروّجها هذا الطالب، كي يكشف كذبه ويجعله صغيراً، هذا معنى آخر من معاني الضلال. فالله سبحانه وتعالى يضلُّ عن شركائه.

فالمعنى الأول: هو الضلال الجزائي المبني على الضلال الاختياري.

والمعنى الثاني: هو الضلال الحُكْمِيّ، بمعنى أن الإنسان رفض أصل الدين فخسر تفاصيل الدين، والأحكام الدينيّة، وأساليب الحياة السعيدة.

والمعنى الثالث: هو أن الله سبحانه وتعالى يضلُّ عن شركائه، ولا يضلُّ عن ذاته.

وهذه المعاني الثلاثة تليق بأسماء الله الحسنى، مضلٌ عن شركائه، مضلٌ أي يحقِق اختيار العبد، أنت جئت إلى الدنيا على أساس أنك مختار، وأن لك إرادةً، فإذا أصررت على شيء فلابدّ من أن يُنَفّذ وهذه طبيعة الأمانة، فالإنسان حمل الأمانة، ومن لوازمها أنه مُنِح حريّة الكسب، فلو أصرّ على الضلال فلابدّ من أن يسمح الله به، ليس معنى أنه أراد أي رضي، قد يريد ولا يأمر وقد يريد ولا يرضى، أمرك بالطاعة ورضي لك الطاعة، لكنّك إذا أصررت على المعصية سمح لك بها تنفيذاً لوعده (فالفكرة دقيقة جداً) ما أمرك بالمعصية، ولا رضي لك المعصية، لكنّك إذا أصررت عليها سمح لك بها، لأن هذا هو التكليف، وهذه هي حرية الكَسْبِ، وهذه هي الأمانة التي حُمِّلتها.

كل إنسان خلقه الله تعالى في طور الاختيار و الابتلاء:

إذاً فرّق علماء التوحيد بين إرادته، وبين أمره، وبين رضاه، أراد ولم يأمر، وأراد ولم يرضَ..

(إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنّ اللّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ(8))

(سورة إبراهيم)

(إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنّ اللّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ)

(سورة الزمر: من آية: " 7 ")

(قُلْ إِنّ اللّهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ(28))

(سورة الأعراف)

لم يأمر ولم يرضَ، ولكنّه أراد بمعنى أنه سمح. أي إذا كنت صيدلياً وتحتاج إلى موظّف على مستوى عالٍ من العلم، فجاءك موظّف متمرّن وأردت أن تمتحنه، فجئت بكمية من الأدوية ووضعتها على الطاولة وقلت له: هذه الخزانة فيها مضادات حيويّة وهذه الخزانة فيها فيتامينات وهذه فيها سموم وهذه فيها كذا، فهذه الأدوية ضعها في أمكنتها. فإذا مسك دواء الفيتامينات ووضعه مع السموم، وتحرّك باتجاه هذه الخزانة، فأنت إذا منعته ألغيت اختياره وهو الآن في طور الامتحان، فيجب أن تسمح له بالتحرُّك الخطأ، فالآن أنت تمتحنه، فيجب أن تسمح له بذلك. فأنت في طور الاختيار والابتلاء.

كل إنسان يحاسب يوم القيامة على اختياره في الدنيا:

لمّا يختار الإنسان المعصية ويصرُّ عليها يُسمح له بها، فهذا معنى أن الله سبحانه وتعالى أراد من هذا العبد أن يعصيه وبمعنى أنه سمح له وبمعنى أن الله سبحانه وتعالى حينما جاء به إلى الدنيا، جاء به على هذا الأساس، فما هو الأساس ؟

(كُلا نُمِدُّ هَؤُلاء وَهَؤُلاءِ مِنْ عَطاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا(20))

(سورة الإسراء)

اطلب تُعطَ..

(مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا(18)وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا(19)كلا نُمِدُّ هَؤُلاء وَهَؤُلاءِ مِنْ عَطاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا(20))

(سورة الإسراء)

كلام واضح كالشمس، بيّن، قال عليه الصلاة والسلام:

((تُركتُمْ على الواضِحَةِ، لَيلُها كَنَهَارِها))

[أخرجه الموطأ.الحديث موقوف إسناد صحيح]

من يصرّ على الضلال و يرفض الدين فالنار مثوى له:

إذاً:

(وَمَنْ يُضْلِلْ (44))

(سورة الشورى)

فعندما يصر الإنسان على الضلال، ويضلّه الله جزاء اختياره، أو عندما يرفض الدين أصلاً، ويضلّه الله ضلالاً حكمياً، أو أن الله سبحانه وتعالى يضلّه عن شركائه..

(وَمَنْ يُضْلِلْ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ (44))

(سورة الشورى)

هو أرحم الراحمين وهو العليم، والرحيم، والحكيم، والقريب، والقوي، والغني، فعندما يرى الله عزّ وجل بعلمه بهذا الإنسان أنه مصرٌ على المعصية، فمن في الأرض بإمكانه أن يهديه ؟

(وَمَنْ يُضْلِلْ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ(44))

(سورة الشورى)

الإنسان كلّما ارتقى مستواه يخاف بعقله:

أيها الأخوة... شيءٌ دقيقٌ جداً، من تعاريف العقل: أن العاقل لا يفعل شيئاً يندم عليه، وحينما تفعل شيئاً ثمّ تندم عليه فهذا ضعفٌ في عقلك فهؤلاء الظالمون..

(وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ(44))

(سورة الشورى)

إخواننا الكرام... الإنسان كلّما ارتقى مستواه يخاف بعقله، وكلّما هبط مستواه يخاف بعينه والإنسان العاقل يصل إلى الشيء بعقله قبل أن يصل إليه حقيقةً، ودائماً العاقل يحتاط للأمور قبل وقوعها، ويعيش المستقبل والأقل عقلاً يعيش الحاضر والغبي يعيش الماضي. فالإنسان عندما يكون قوياً ويتحرّك حركة وَفق شهواته، ثم يدفع ثمن انحرافه كبيراً عندئذٍ يندم وحالة الندم دليل ضعف العقل، فمن هو الإنسان الذي لا يندم ؟ هو العاقل والنبي عليه الصلاة والسلام فيما روي عنه أنه يقول:

((أرجحكم عقلاً أشدُّكم لله حبّاً))

[ورد في الأثر]

((الْكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ))

[من سنن الترمذي: عن " شداد بن أوس"]

العاقل يحتاط للأمور قبل وقوعها:

إذاً يُمتحن العقل فيما إذا فعلت فعلاً فهل تندم عليه أو لا تندم ؟ وكلّما ندمت على شيءٍ فحينما فعلته كان هناك ضعفٌ في العقل، ولذلك فهؤلاء الظالمون..

(وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ (44))

(سورة الشورى)

والإنسان أحياناً يدخّن مثلاً يقول لك: ليس في جسمي شيء فماذا حصل ؟ وهناك إنسان واحد عاش مئة وثلاث عشرة سنة وكان مدخّناً يتخذه حجّة. لكن الأطبّاء يؤكّدون أن الدخّان له آثار واضحة جداً في القلب، والرئتين، والضغط، والشرايين، والأوردة.. إلخ، ولكن متى يتخذ قراراً صارماً بالإقلاع عنه ؟ حينما يُعطب، فهل هذا دليل عقله ؟ لا فكل إنسان يخاف بحواسِّه فهذا يدلُّ على ضعف عقله، وكل إنسان يخاف بعقله فهذا يدل على رجاحة عقله، فالطلاب الكُسالى متى يندمون على كسلهم ؟ في أثناء الامتحان، فهذا السؤال لم يعرفه، وهذا ما قرأه، وهذا لم يتوقّعه، ولكن الطالب النبيه من أول يوم بالعام الدراسي يتصوّر الامتحان وصورة الامتحان لا تفارقه إطلاقاً، فيتوافق أو يتكيّف مع الامتحان في أول يومٍ في العام.

المؤمن يعيش المستقبل و الملحد يعيش اللحظة:

المؤمن يعيش المستقبل، تُرى هل في حياتنا جميعاً حدث سيقع أشد واقعيّة من الموت ؟ وهل واحد منّا يجرؤ على أن يقول: أنا لن أموت ؟ لكن هذا الموت ما هو ؟ نقلة خطيرة من كل شيء إلى لا شيء.

فكل واحد له بيت، وغرفة نوم، وغرفة طعام، ومطبخ، وحمّام، وله زوجة، وأولاد، ووجبة غذاء، ووجبة عشاء، ومسليّات، ومرفِّهات، وأماكن جميلة، وهذه المقابر أمامكم، فهل هناك قبر خمس نجوم ؟ لا يوجد، كله نجمة واحدة أو نجوم الظهر، فهذا الحدث الواقعي هل يستطيع واحد أن يتلافاه ؟ إذاً كل إنسان يخاف عند الموت يكون ضعيف العقل، أما النبي قال:

((الْكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ))

[من سنن الترمذي: عن " شداد بن أوس "]

ويقولون: الأغبياء يعيشون لحظتهم، فقوي ينكب على الشهوات فيعيش لحظته ويأكل ويشرب، ويستمتع ولا يصلي ولا يفكِّر في ربّه ولا يتأدّب معه ولا يطيعه مادام قوياً، فمتى يصيح ؟ عندما يمرض.

بطولة الإنسان أن يخاف من الله و يلجأ إليه عند الرخاء لا الشدة:

أنا سمعت أن طائرة تقل أشخاصاً ملحدين، فلمّا دخلت في غيمةٍ مكهربةٍ واضطربت وكانت على وشك السقوط، ما من هؤلاء المُلحدين إلا ويقول: يا رب أنقذنا. فالإنسان عند المصيبة يلجأ إلى الله والناس جميعاً كذلك ولذلك فالبطولة وأنت في الرخاء، وأنت في النَعيم، والصحّة والقوّة، والمال، وأنت شاب في رَيْعان الشباب، تتقِّد عزيمة ومضاءً أن تخاف من الله، لذلك..

((ابن آدم اعرفني في الرخاء أعرفك في الشدّة))

[ورد في الأثر]

((اغتنم خمسا قبل خمس شبابك قبل هرمك وصحتك قبل سقمك وغناك قبل فقرك وفراغك قبل شغلك وحياتك قبل موتك))

[من أحاديث الإحياء: عن " ابن أبي الدنيا "]

(وَمَنْ يُضْلِلْ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمّا رَأَوْا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ(44))

(سورة الشورى)

فالأغبياء يتعظون بحواسِّهم، والعوام يخافون بعيونهم. أما العاقل فيخاف بالكلمة، يخاف من الوعيد فقط ويفكِّر في المستقبل.

كل ظالم يعالج بالذل و المهانة:

يقول هذا الظالم بشكل يائس: هل هناك من أمل أن أعود إلى الدنيا فأؤمن ؟ وهل هناك من أمل أن أعود إلى الدنيا فأستقيم وأصلي ؟

(هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ(44))

(سورة الشورى)

وفي الأعم الأغلب إن الظالم كان قوياً، وكان متكبّراً، ومستبّداً، ومسيطراً، فهذا القوي كيف يُعالج ؟ بالذل..

(وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنْ الذُّلِّ (45))

(سورة الشورى)

وليس خشوع التقوى ولا خشوع العبادة ؛ ولكن خشوع الذل والمهانة فأن يكون إنسان رئيس عصابة سرقة، مجرماً عاتياً، متكبّراً، فظاً غليظاً وحينما يقع في قبضة العدالة تراه صغيراً، متطامناً، نظره في الأرض فأين عُنْجُهيّته ؟..

(وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنْ الذُّلِّ (45))

(سورة الشورى)

من شدّة خوفهم..

(يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ (45))

(سورة الشورى)

تُرى ماذا سيُفْعَلُ بهم ؟

المؤمنون يوم القيامة هم سادة الموقف:

أحياناً الإنسان إذا كان مجرماً وألقي القبض عليه يضطرب اضطراباً شديداً، ولا ينظر إلا بطرفٍ خفي..

(وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنْ الذُّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا(45))

(سورة الشورى)

لمن السيطرة في اليوم الآخر ؟ للذين آمنوا، هم سادة الموقف وأحياناً في الدنيا يكون الكفار هم سادة الموقف، فالكلام لهم والرأي لهم..

(مَا أُرِيكُمْ إِلا مَا أَرَى)

(سورة غافر: من آية: " 29 ")

فالحق الذي يقولون والباطل الذي لا يقولون، فالكفار هم سادة الموقف في الدنيا (أحياناً طبعاً) ولكن المؤمنين يوم القيامة هم سادة الموقف..

(إِذَا وَقَعَتْ الْوَاقِعَةُ(1)لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ(2)خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ(3))

(سورة الواقعة)

فالذي كان في الأوج تراه في الحضيض، والذي كان في الحضيض تراه في الأوج.

الحظوظ في الدنيا توزّع توزيع ابتلاء و في الآخرة توزيع جزاء:

ذكرت اليوم في الخطبة أن الحظوظ في الدنيا توزّع توزيع ابتلاء، وسوف توزّع في الآخرة توزيع جزاء، فأنت لك حظ من المال معيّن، فقد يكون وفيراً وقد يكون قليلاً وقد يكون معدوماً، فحظّك من المال هو مادّة امتحانك مع الله، فأنت ممتحن بوفرة المال، وفلان ممتحن بقلّة المال، وهذا وسيم الطلعة ممتحن بوسامته، وآخر دميمٌ ممتحنٌ بدمامته وهناك ذكيٌ جداً ممتحنٌ بذكائه، أو محدود التفكير ممتحنٌ بمحدوديّة التفكير القوي ممتحنٌ بقوّته، والضعيف ممتحنٌ بضعفه، والصحيح ممتحنٌ بصحّته وغير صحيح ممتحنٌ بمرضه، وهذا له زوجة وأولاد ممتحنٌ بأسرته، وذاك حُرِمَ إلى حين من الزوجة والأولاد فممتحنٌ بالحِرمان، فالحظوظ في الدنيا موزّعة توزيع ابتلاء، فأنت ممتحن مرّتين: ممتحن بما في يديك وممتحن بما ليس في يديك، لكن هذه الحظوظ توزّع في الآخرة توزيع جزاء.

الغنى غنى العمل الصالح والفقر فقر العمل الصالح لأن الموت ينهي كل شيء:

كنت أوضِّح هذا، لو أن إنسانين عاشا ثمانين عاماً بالتمام والكمال واحد كان غنياً وواحد كان فقيراً، وأن الأول رسب في الامتحان فتاهَ بماله على عباد الله، وأنفق ماله على شهواته وانحطاطه وملذّاته الرخيصة، وأن الفقير امتحن بالفقر فنجح فكان عفيفاً صابراً متجمِّلاً، لم يحمله الفقر على أن يأكل مالاً حراماً، ولا عن أن يكفر بالله عزّ وجل، وماتا والموت أنهى غنى الغني وفقر الفقير.

وإذا شئتم أنهى الموت قوّة القوي وضعف الضعيف، وصحّة الصحيح ومرض المريض، ووسامة الوسيم ودمامة الدميم، وأنهى الموت كل شيء وبقي العمل، وهذان الشخصان هل سيعيشان حياةً إلى ما لانهاية، فالذي نجح في امتحان الفقر سيكون غنياً إلى الأبد، والذي رسب في امتحان الغنى سيكون فقيراً إلى الأبد، إذاً الدنيا لا عبرة لها، وهذا ما قاله سيدنا علي كرّم الله وجهه: **"الغنى والفقر بعد العرض على الله "**. فالغنى غنى العمل الصالح، والفقر فقر العمل الصالح. وعندما سقى سيدنا موسى للمرأتين قال:

(رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ(24))

(سورة القصص)

أنا مفتقر لهذا.

الموت ينهي كل شيء:

إخواننا الكرام... لو واحد عنده تجارة رابحة، يبيع في اليوم بمليون ليرة، وربحه بالمئة خمس وثلاثون، وكل يوم ثلاثمئة وخمسون ألف، ومضى عليه يومٌ لم يزدد علماً، ولم يزدد قرباً، ولم يدعُ إلى الله، ولم يصبر على ما ابتلاه الله فهو خاسر رغم الدخل الكبير، لأن الله عزّ وجل يقول:

(وَالْعَصْرِ(1)إِنّ الإنسَانَ لَفِي خُسْرٍ(2))

(سورة العصر)

كلام خالق الكون، لو عندك شركة متعدّدة الجنسيّات، لها في كل العالم فروع، بعض الشركات في العالم فائضها مليار دولار وسمعت أن بعض الشركات (رقم فلكي) ربحت هذا العام ألف مليار دولار، ربنا عزّ وجل يقول:

(وَالْعَصْرِ(1)إِنّ الإنسَانَ لَفِي خُسْرٍ(2))

(سورة العصر)

لأن الموت يُنهي هذه الثروة، وأنتم ترون بأعينكم أحياناً يحضر الإنسان تعزية في بيت ثمنه خمسون مليوناً، وتزييناته خمسة ملايين، وفرشه بثلاثين مليوناً، وصاحبه قاعد في مقبرة باب الصغير. فالموت ينهي كل شيء، ينهي الغنى، والفقر، وينهي المرض والصحّة.

بطولة الإنسان أن يكون على منهج الله وفي طاعة الله والإقبال عليه:

إذاً ليست هذه نعمة، هذا ما قاله الله عزّ وجل:

(فَأَمّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعّمَهُ فَيَقُولُ)

(سورة الفجر)

هو يقول:

(رَبّي أَكْرَمَنِ(15)وَأَمّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبّي أَهَانَنِ(16)كَلا)

(سورة الفجر)

ليس عطائي إكراماً ولا منعي حرماناً، عطائي ابتلاء وحرماني دواء. وانتهى الأمر وبطولتك أن تكون على منهج الله وفي طاعة الله وفي الإقبال عليه والصبر على قضائه وفي التقرُّب إليه، والدعوة إليه، وفي طلب العلم، وتعليمه، هذه بطولتك، وهذا الذي يبقى.

وأحدهم قال: إذا أردت أن تعرف ما إذا كنت من أهل الدنيا أم من أهل الآخرة فانظر ما الذي يفرحك، أن تأخذ أم أن تعطي ؟ فهناك إنسان عندما يقبض يَشْرَئب، وإذا كان عليه دفع يماطل ويتضايق كثيراً من الدفع فالمؤمن يسعد إذا أعطى، لأن العطاء خلود في الجنّة، فمن قدّم ماله أمامه سرّه اللحاق به.

المؤمن أكبر من أن يحزن على فقد الدنيا:

(وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنْ الذُّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ(45))

(سورة الشورى)

فقد تخسر كل شيء وأنت الرابح، وتفقد مالك كله وبيتك وتجارتك وكل شيء وأنت الرابح الأول، وسيدنا عمر كان إذا أصابته مصيبة قال: **"الحمد لله ثلاثاً، الحمد لله إذ لم تكن في ديني "** فالدين سليم فليس هناك مشكلة، وما خرقت الاستقامة، وما ارتكبت معصية، وما أكلت مالاً حراماً، وما تركت الصلاة، وما تركت مجلس علم، فالدنيا إن أقبلت أقبلت وإن أدبرت أدبرت، اللهمّ صلِ عليه قال:

((عَجِبْتُ لأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ إِنْ أَصَابَهُ مَا يُحِبُّ حَمِدَ اللَّهَ وَكَانَ لَهُ خَيْرٌ وَإِنْ أَصَابَهُ مَا يَكْرَهُ فَصَبَرَ كَانَ لَهُ خَيْرٌ وَلَيْسَ كُلُّ أَحَدٍ أَمْرُهُ كُلُّهُ لَهُ خَيْرٌ إِلا الْمُؤْمِنُ))

[من مسند أحمد: عن " صهيب "]

المؤمن أكبر من الدنيا وأكبر من أن يفرح بها، وأن يحزن على فقدها، وقد قرأت عن سيدنا الصديق، والله هذه الكلمة قرأتها أكثر من أربعين عاماً كأنها حُفرت في نفسي أنه: ما ندم على شيءٍ فاته من الدنيا قط.

الدنيا أحقر من أن يجعلها الله ثواباً للمؤمنين أو عقاباً للكافرين:

الدنيا لا قيمة لها..

((لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ))

[من سنن الترمذي: عن " سهل بن سعد "]

هي أحقر من أن يجعلها ثواباً للمؤمنين، أو عقاباً للكافرين والدليل:

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ)

(سورة الأنعام)

(أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ)

الأموال، مع البيوت، والبساتين، والنساء..

(حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ(44))

(سورة الأنعام)

(لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ(196)مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ(197))

(سورة آل عمران)

(وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنْ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ(126))

(سورة البقرة)

فقط.

الدنيا ليست مقياساً لأنها تعطى للمؤمن و الكافر:

ربنا عزّ وجل قال:

(وَمَنْ كَفَرَ)

وكذلك الكفّار..

(فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ(126))

(سورة البقرة)

فالدنيا عرضٌ حاضر يأكل منه البَرُّ والفاجر، والآخرة وعدٌ صادق يحكم فيه ملكٌ عادل. والله أعطى الملك من لا يحب وأعطاه من يحب، أعطاه من لا يحب لفرعون، وأعطاه من يحب لسيدنا سليمان..

(رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لا يَنْبَغِي لأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي)

(سورة ص: من آية: " 35 ")

أعطى المال من لا يحب أعطاه لقارون، وأعطاه من يحب ابن عوف، قال: **"ماذا أفعل ؟ والله لأدخلّن الجنّة خبباً (أي هرولة) ماذا أفعل إذا كنت أنفق مئة في الصباح فيؤتيني الله ألفاً في المساء ؟ "** ما له ذنب. الدينا ليست مقياساً، تُعْطَى للكافر وتعطى للمؤمن، ويُحرم منها الكافر ويحرم منها المؤمن، إذاً ليست مقياساً..

رأسمال الإنسان نفسه:

(وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا (45))

(سورة الشورى)

دقِقوا في هذا القول:

(إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ (45))

(سورة الشورى)

لسيدنا علي كلمة دقيقة جداً، يقول لسيدنا حسن: **"يا بني ما خيرٌ بعده النار بخير (الحياة إذا انتهت إلى النار ما خيرٌ فيها إطلاقاً) ما خيرٌ بعده النار بخير (أموالها، ونساؤها، ومكانتها، ووجاهتها إذا انتهت إلى النار فليست خيراً) وما شرٌ بعده الجنّة بشر (مرض، وفقر، وقهر، إذا انتهى بك الأمر إلى الجنّة فأنت الرابح الأول) وكل نعيمٍ دون الجنّة محقور، وكل بلاءٍ دون النار عافية ". " فلينظر ناظرٌ بعقله أن الله أكرم محمّداً أم أهانه حين زوى عنه الدنيا ؟ فإن قال أهانه فقد كذب، وإن قال أكرمه فلقد أهان غيره حيث أعطاه الدنيا ".** ماذا أعطي النبي من الدنيا ؟ لم يُعطِ منها شيئاً، غرفة صغيرة جداً، ما ترك شيئاً **" ما لي وللدنيا ؟ ".**

من عرّف نفسه بالله و حملها على طاعته ربح الدنيا و الآخرة معاً:

إذاً:

(إنّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أنفُسَهُمْ (45))

(سورة الشورى)

رأسمالك نفسك، فإن عرّفتها بالله وحملتها على طاعته فأنت الرابح الأول، ولو كنت فقيراً، أو ضعيفاً مستضعفاً، أو تعاني من مشكلات الحياة الدنيا..

(إنّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ (45))

(سورة الشورى)

لك زوجة، وأولاد، وبنات، فممكن أن ترقى إلى الله بزوجتك، عرّفها بالله واحملها على طاعته ترق بها، وزادُك إلى الله أولادك تنفق عليهم، ولو تركتهم هملاً ولم تربهم لخسرت، ولو أنك ربيتهم، وعرّفتهم بكتاب الله وسنة رسوله، ونشّأتهم على حب النبي عليه الصلاة والسلام وآل بيته، حتى صاروا أعلاماً من بعدك فأنت الرابح الأول.

أبواب الخير و العمل الصالح مفتوحة أمام كل إنسان:

الله عزّ وجل أعطاك فرصاً، وهذه الفرص لم تستفد منها وأعطاك زوجة، وأولاداً، وبنات، فإذا جاء للإنسان بنتان فربّاهما تربيةً صالحة يقول عليه الصلاة والسلام:

((أنا كفيله في الجنّة))

وواحد عنده واحدة فقال له: وواحدة ؟ قال له:

((واحدة فأنا كفيله في الجنّة))

كل بيت فيه بنت، فهذه البنت يمكن أن تكون سبب الجنّة لأمها وأبيها ولكن ربّها تربية عالية، ربّها على كتاب الله، وسنة رسوله، والصلاة والحجاب، والحياء، وأن تُبعد عنها المغذيات الثقافيّة الفاسدة، فهذه تفسدها، إذا اطلعت على عمل فني ففيه المتدينة محتقرة والفاجرة هي المحترمة، فتشتهي أن تكون مثل الفاجرة، أما كل بيت فيه بنت فالبنت وحدها يمكن أن تدخل أبويها الجنّة، واحدة حتى يزوجهما أو يموت عنهما فأنا كفيله في الجنّة فالله عزّ وجل أعطاك أبواباً للخير ؛ زوجتك باب، وأولادك الذكور باب، لأنه:

((إِذَا مَاتَ الإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلا مِنْ ثَلاثَةٍ إِلا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ))

[من صحيح مسلم: عن " أبي هريرة "]

فعملك باب للخير، ومهنتك باب للخير، وأولادك، وزوجتك، وكل حركاتك جعلها الله مهيّأة لأن تكون أعمالاً صالحة..

(وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ (45))

(سورة الشورى)

الابن استمرار لأبيه إن رباه تربية صالحة:

الآية التي تقابلها:

(يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا)

(سورة التحريم: من آية: " 6 ")

انظر فهذه آية ثانية، خسروا أنفسهم وأهليهم..

(وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ)

(سورة الطور: من آية: " 21 ")

فإذا ربّى الإنسان ولده تربية صالحة لا يموت، ولن يموت لأن هذا الولد استمرار، إذ صار خليفته، فهذا ولد صالح يدعو له فليس هناك موت بالنسبة له، يقول لك: غابت عينه فقط. وهذا صحيح، أما هو فلم يمت، بل ترك أثراً مستمراً، هذه تأكيد على كلمة أهليهم..

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا)

(سورة التحريم: من آية: " 6 ")

في الآخرة لا يوجد مس بل عذاب مقيم:

(وَقَالَ الَّذِينَ آَمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ(45))

(سورة الشورى)

عذاب مقيم، والإله يقول: عذاب مقيم، عذاب من الإله، قال الله:

(فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ(175))

(سورة البقرة)

سأل واحد رسول الله اللهمّ صلِّ عليه فقال له: **"عظني ولا تطل "**. قال له:

((قل آمنت بالله ثمّ استقم))

قال: **"أريد أخفّ من ذلك "**(هذه ثقيلة عليّ). قال له:

((إذاً فاستعدّ للبلاء))

إذاً لا تحب أن تستقيم تحمّل، وكل إنسان يعصي الله يتحمّل، وأحياناً آلام الدنيا لا تحتمل، ويقول لك: جاءتني كريزة رمل فلم أنم منها طوال الليل، صحت واسترحت. وآلام الضرس لا تحتمل، وآلام الأمعاء والشقيقة لا تحتمل، والله عزّ وجل يمس الإنسان بالعذاب، ومعنى المس معنى دقيق جداً، فإذا أمسك إنسان مكواة ووضع اللعاب على إصبعه، أقل مساحة ممكنة، وأقل وقت ممكن، ومخفّف وهو اللعاب، يقول لك: مثل النار. فهذا المس، والله في الدنيا يمسُّنا مساً، ولكن في الآخرة لا يوجد مس بل عذاب مقيم أي دائم، والفرق كبير جداً، ولذلك قال تعالى:

(وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ(21))

(سورة السجدة)

الولي من دلّ الآخرين على الخير:

(وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءَ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ (46))

(سورة الشورى)

فالولي هو الذي يدُل على الخير، والله عزّ وجل أودع فيك العقل وسخّر لك الكون، وفطرك فطرة عالية، وأنزل لك كتاباً، وبعث الأنبياء، وسخّر العلماء، وعلّمك بالأحداث، وعلّمك بالتربية النفسيّة، وكل شيء فالله سخّره للهدى ولم تهتدِ بهدى الله، فهل من المعقول جهة ثانية تهديك ؟ لذلك:

(وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءَ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ(46))

(سورة الشورى)

وعندما يقع الإنسان، إذا كان الله معك فمن عليك ؟ وإذا كان الله عليك فمن معك ؟ ما معك أحد، فالدنيا فيها وحشة، والإنسان لا يعتز بشبابه، في خريف عمره، إما في عمر ثمانين، وإما في أرذل العمر، والإنسان أحياناً يرخي الله عزّ وجل له الحبل، ولكن عندما يستحق العقاب تجده صار يعاني ما يعاني.

كل إنسان بإمكانه أن يتوب إلى الله تعالى قبل أن يَأْتِيَ يَوْمٌ لا رجعة فيه:

أيها الأخوة... مطلع الآيات يقول الله عزّ وجل:

(وَمَنْ يُضْلِلْ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ(44))

(سورة الشورى)

هذا موقف الظالمين يوم القيامة، فالله عزّ وجل يخاطبنا ونحن في الدنيا فيقول: أنتم بإمكانكم أن تتوبوا..

(اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ (47))

(سورة الشورى)

أيها الناس..

(مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ (47))

(سورة الشورى)

والآن نحن في بحبوحة، وهذا قول الظالمين يوم القيامة..

(هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ(44))

(سورة الشورى)

أما نحن فالمرد موجود، والصلحة بلمحة.

العاقل من تاب إلى ربه قبل فوات الأوان:

إذا رجع العبد العاصي إلى الله نادى منادٍ في السماوات والأرض أن هنؤوا فلاناً فقد اصطلح مع الله، تماماً كما كان يفعل بعض الصالحين، يشتري قبراً في حياته ويضجع فيه يوم الخميس ويتلو قوله تعالى:

(قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (99) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً)

(سورة المؤمنون الآية: 100)

يقول لنفسه: قومي قد أرجعناكِ، الآن يمكن أن نرجعك، وربنا يقول:

(اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ (47))

(سورة الشورى)

أيها الناس، الأحياء طبعاً..

(مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ (47))

(سورة الشورى)

وهؤلاء قالوا:

(هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ(44))

(سورة الشورى)

الجواب: لا. أما فالآن المرد موجود، ونحن في الدنيا الآن والقلب ينبض، ونحن الآن في بحبوحة وبإمكاننا أن نتوب..

(اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنْ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ مَلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ(47))

(سورة الشورى)

خاتمة:

وفي درسٍ قادمٍ إن شاء الله نفصِّل في هذه الآية الدقيقة، وأدق ما فيها كلمة:

(نكير)

(اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنْ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ مَلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ(47))

(سورة الشورى)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الشورى 042 - الدرس (15-15): تفسير الآيات 47-53

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1994-05-13

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون... مع الآية السابعة والأربعين من سورة الشورى.

دعوة الله عز وجل لعباده أن يطيعوه و يستجيبوا له:

مع الدرس الخامس عشر من هذه السورة، الآية الكريمة وهي قوله تعالى:

(اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنْ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ مَلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ(47))

(سورة الشورى)

أيها الأخوة...

(اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ (47))

(سورة الشورى)

الله سبحانه وتعالى يدعونا في هذه الآية إلى أن نستجيب لله، ومعنى أن نستجيب له أي أن نتوب إليه، أو أن نطيعه.

الإيمان حياة القلوب:

الله سبحانه وتعالى في آيةٍ أخرى يقول:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ (24))

(سورة الأنفال)

فالإنسان قبل أن يؤمن ميّت، أما إذا عرف الله سبحانه وتعالى فأصبح حياً، فالإيمان حياة القلوب، وهذا الجسد يحتاج إلى طعامٍ وشراب حتى يحيا، أو حتى يستمرّ في حياته، ولكن النفس البشريّة تحتاج إلى الإيمان حتى تحيا، فصدّقوني أن كل إنسانٍ غفل عن ربه في حكم الميّت. قال: **" يا بني مات خُزّان المال وهم أحياء، والعلماء باقون ما بقي الدهر، أعيانهم مفقودة وأمثالهم في القلوب موجودة ".**

من عاش لمآربه الدنيوية إنسان ميت و لو كان على قيد الحياة:

يجب أن نفهم أيها الأخوة أن للقلب حياةً، وأن للجسد حياةً، والجسد قد نفحصه بمعايير طبيّة فإذا هو في أعلى درجات نشاطه، ولكن لو فحصنا قلب الإنسان (قلب نفسه) فقد نراه ميّتاً، وربنا سبحانه وتعالى يقول:

(أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ)

(سورة النحل: من آية " 21 ")

ميّت، هذا الذي يعيش لحظته، يعيش لمآربه الدنيويّة، ولا يعرف ربّه، ولا يأتمر بأمره، ولا ينتهي بنهيه، ولا يسعى للآخرة فهذا ميّت، بل إن بعض الأجانب الذين قالوا: كل إنسانٍ لا يرى في هذا الكون قوّةً هي أقوى ما تكون، عليمةً هي أعلم تكون، حكيمةً هي أحكم ما تكون هو إنسانٌ حي ولكنّه ميّت. قال هذا الكلام أعلم علماء الفيزياء، فيجب أن نفرّق بين حياة الجسد وحياة القلب.: **" يا بني مات خُزّان المال وهم أحياء والعلماء باقون ما بقي الدهر ".**

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ (24))

(سورة الأنفال)

(أَوَ مَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ (122))

[سورة الأنعام]

(أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ)

(سورة النحل: من آية " 21 ")

أسوق لكم الآيات الكريمة، والأحاديث الشريفة، وأقوال الصحابة الكرام من أجل أن تتضح لنا الحقيقة..

أمراض الجسد تنتهي عند الموت وأمراض النفس تبدأ بعد الموت:

(يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (88) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (89))

(سورة الشعراء)

معافى من الأمراض، فأمراض الجسد أيها الأخوة تنتهي عند الموت ولكن أمراض النفس تبدأ بعد الموت، ويستمرُّ عذاب الإنسان بأمراضه النفسيّة إلى أبد الآبدين، لكن أمراض الجسد مهما تكن وبيلةً فتنتهي عند الموت، ويقول لك: مات واستراح. لكن الكافر يبدأ عذابه بعد الموت والناس نيام إذا ماتوا انتبهوا، فالإنسان حينما لا يستجيب لله عزّ وجل يموت قلبه، وإذا مات قلبه ضلّ عقله وشقيت نفسه، والله سبحانه وتعالى يقول:

(فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَى(123))

(سورة طه)

ومن لم يتبع هدى الله عزّ وجل ضلّ عقله وشقيت نفسه.

من اتبع رضوان الله سعد في الدنيا و الآخرة:

والإنسان أيها الأخوة قد ينطلق من منطلق نفسي، ما منّا واحدٌ إلا ويحب نفسه ؛ ويحب وجوده، وسلامة وجوده، وكمال وجوده، واستمرار وجوده.و انطلاقاً من حبه لنفسه عليه أن يستجيب لله عزّ وجل، فالإنسان يحب استمرار الوجود، والإنسان يحب أن يعمِّر مئة سنة، ما من إنسان إلا ويشتهي ذلك، ولكن ما الذي يجعلك تسعد إلى أبد الآبدين ؟ أن تستجيب لله عزّ وجل، لكن لو أراد الإنسان الدنيا وحدها فهو يقامر، لأن كل آماله متعلِّقة بضربات قلبه، فلو وقف القلب فجأةً انتهى كل شيء، وتحوّل عنه كل شيء، وخسر كل شيء، خسر الدنيا وخسر الآخرة، ولذلك لا يرتاح الإنسان ولا تطمئن نفسه إلا إذا شعر أنه إذا توقّاه الله فله عند الله جنّة وسعادة، قال تعالى:

(أفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ الْمُحْضَرِينَ(61))

(سورة القصص)

من ابتعد عن الله عز وجل شعر بقلق يأكل قلبه:

في أعماق الإنسان البعيد عن الله قلق، وشعور بالخوف من المستقبل، تُرى ماذا يخبّئ له المستقبل ؟ يخبئ له مرضاً عضالاً ؟ تُرى هل المرض في قلبه، وفي كبده ؟ أو في كليتيه ؟ وفي الخلايا ورم غير طبيعي ؟ تُرى هل ينتظره حادث ؟ هل في شيخوخة يُردُّ إلى أرذل العمر ؟ هذا القلق المخيف الذي يأكل قلوب العباد سببه البعد عن الله عزّ وجل.

والآن يوجد أمراض متفشّية في العالم من أبرزها مرض الكآبة، يقول لك: نوبات كآبة. لأن خطّه البياني نازل وليس صاعداً، وكلّما تقدّمت به السن ضعفت إمكانيّته في الاستمتاع بالحياة، ويكون في أوج عطائه، فتقاعد وأصبح على الهامش، والكلام لأولاده، قال:

(إمّا يَبْلُغَنّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا (23))

(سورة الإسراء)

كان ابنك عندك، فصرت عنده، فهذا الخط البياني حينما ينزل فالمؤمن العاقل الأريب الموفّق، هو الذي يسعى ليكون خطه البياني صاعداً باستمرار، فإذا عرفت الله عزّ وجل فخطّك البياني صاعد، وإذا تقدّمت بك السن فلك شيخوخةٌ متألِّقة ؛ فيها العطاء، والوقار، والحب، والقوّة والنبي عليه الصلاة والسلام من أدعيّته:

((ومتعنا بأسماعنا وأبصارنا، وقوتنا ما أحييتنا))

[من كنز العمال: عن " ابن مبارك "]

المؤمن متفائل لا ينتظر من الله إلا الخير:

المؤمن متفائل، لا ينتظر من الله إلا الخير، والسعادة، والسلامة، ولكن بشرط أن تستجيب له، وأن تعقد الصلح معه، وأن تعود وتنيب إليه، وأن تأتمر بأمره، وتنتهي عمّا عنه نهاك..

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ (24))

(سورة الأنفال)

ومعنى هذا دعوة الله عزّ وجل أنه يدعوك لحياة القلب، فإذا أصبح قلبك حياً عشت به سعيداً في الدنيا وبعد الموت، ولا يوجد ما يجذب نظر قارئ السيرة أكثر من أن أصحاب رسول الله رضوان الله تعالى عليهم ما منهم واحدٌ إلا وكان يعيش أسعد لحظات حياته عند مفارقة الدنيا. ولو سألت الآن طبيباً يعمل في أمراض عضالة يقول لك: حينما يشعر المريض بأنه قد أُصيب بهذا المرض تنهار أعصابه، ويصبح كالأطفال، لأنه سينتقل من كل شيء إلى لا شيء، أما المؤمن فسينتقل من شيء إلى كل شيء.

شعور العبد أن الله يحبّه شعور لا يقدّر بثمن:

النبي عليه الصلاة والسلام صوّر انتقال المؤمن من الدنيا إلى الدار الآخرة فقال:

((كما ينتقل الجنين من رحم أمّه إلى سعة الدنيا))

[ورد في الأثر]

كان الجنينُ يعيش في سبعمئة وخمسين سنتيمتراً مكعّباً في الرحم فانطلق إلى الدنيا، والمؤمن كذلك ينتقل بالموت من ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة، كما ينتقل الجنين من ضيق الرحم إلى سعة الدنيا. فنحن نسعى إلى الراحة النفسيّة، والراحة النفسيّة لا تكون إلا بمعرفة الله، في فراغ.

والله أقول لكم هذا الكلام: لا يملؤه لا المال، ولا الجاه، ولا السلطان، ولا الصحّة، ولا الذكاء، ولا العلو في الأرض، لا يملؤه إلا أن تعرف الله، وأن تكون متبعاً لأمره، فشعور العبد أن الله يحبّه شعور لا يقدّر بثمن، وشعوره أنه في ظل الله، وفي رحمته، والله يدافع عنه..

المؤمن كل جهده في الدنيا يتجه إلى حُسن العلاقة بالله:

(إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَانُ وُدًّا(96))

(سورة مريم)

هذا الشعور بالانتماء إلى خالق الأكوان، شعور بالانتماء إلى رب العالمين، وأنك في ظل الله، وأن الله لا يتخلّى عنك، وأنه يحبُّك، وأنك كما قال الله عزّ وجل:

(فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا)

(سورة الطور: من آية " 48 ")

وهذا الشعور لا يقدّر بثمن، وإذا شئتم عليه دليلاً: فالإنسان أحياناً يعقد صلة مع إنسان قوي أو ذي شأن في المجتمع، فالأرض عندئذٍ لا تسعه، فإذا كان معه صورة مع شخص مهم يضعها في صدر بيته، ويطلع عليها الزوّار تأكيداً لهذه العلاقة، ولكن المؤمن علاقته الطيّبة بربّه، فالمؤمن ربّاني أي أن كل جهده في الدنيا يتجه إلى حُسن العلاقة بالله والقضيّة سهلة جداً، وكل هؤلاء الذين تقع عينك عليهم هم عباد الله، فإذا أكرمت واحداً منهم فكأنّك أكرمت ربّك، وإذا نصحت الناس يرضى الله عنك، وإذا كنت لهم وفياً وخدمتهم وصدقتهم يرضى الله عنك.

على كل إنسان أن يصطلح مع نفسه:

الإنسان إذا صدق مع عباد الله قاطبةً (دون تعيين) كان صادقاً، ومخلصاً، وأميناً، وخيّراً، ومعطاءً، فالخلق كلُّهم عيال الله وأحبُّهم إلى الله أنفعهم لعياله. أما آن الأوان أن يصطلح الإنسان مع نفسه ؟ وأن يدخل معها في سلام، لأن الفطرة عالية، فعندما ينحرف الإنسان فهناك عذاب داخلي، وهناك غليان داخلي، ووخز، وتأنيب، وتضييق، يقول لك: متضايق، الأرض كلّها لا تسعني، وأكاد أنفجر. فلماذا تنفجر ؟ إنك آكل شارب نائم، تملك كل شيء، فلماذا الضيق ؟ هذا ضيق البُعد عن الله، أو ضيق العذاب النفسي، وضيق تعذيب الفطرة لذاتها.

يوم الدين لا يستطيع أحدٌ أن يردّه:

لذلك فربنا عزّ وجل يقول:

(اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدّ لَهُ (47))

(سورة الشورى)

ومعنى:

(لَا مَرَدّ لَهُ)

أحياناً يكون الإنسان على موعد مع شخص فيلغي الموعد، وأن يقف أمام فلان في اليوم الفلاني، فيعمل واسطة ويؤخِّر اليوم إلى شهر، أخي أجّل لي الدعوى لأسباب مرضيّة، فيأتي بتقرير طبي يؤجّل الدعوى، فالأيام الحاسمة في حياة الإنسان قد تؤجّل أو قد تُلغى، فإذا كنت أقوى من خصمك فتلغي

الدعوى كلِها فتنشطب مثلاً، وإن كان عليك مسؤوليّة وسؤال وجواب، فإذا كان لك شخص أقوى من الذي سيسألك فيلغي لك اللقاء كله، فهذا اليوم الحاسم هل يُلغى، فالإنسان بحياته الدنيا يحتال أحياناً على إلغاء الأيام الحاسمة في حياته، إما أنه يغادر، أو يلغي، أو يتوسّط، أو يكون أقوى من الشخص الذي سيحاسبه فلا يأتي فهذه الأيام الحاسمة أيام الحساب، وأيام دفع الثمن، وأيام الحُكم، فهذا اليوم قد يُرد، أو يُدفع، أو يُلغى، أو تهرب منه، أو تبعده عنك ولكن يوم الدين لا يستطيع أحدٌ أن يردّه..

(اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ (47))

(سورة الشورى)

يوم القيامة هو اليوم الحاسم عند كل إنسان:

هذا اليوم الحاسم، هذا اليوم الذي تُسأل فيه عن مالك من أين اكتسبته ؟ وفيم أنفقته ؟ وتُسأل عن شبابك فيم ضيّعته ؟ وتسأل عن عمرك فيم أفنيته ؟ وتسأل عن علمك ماذا عملت به ؟ هذا اليوم:

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَه(7))

(سورة الزلزلة)

تحاسب فيه على الابتسامة، وعلى الإعطاء، والأخذ، والكلمة والنظر..

(يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ)

(سورة غافر: من آية " 19 ")

هذا اليوم لا مردّ له..

(اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ)

(سورة فصلت: من آية " 40 ")

فهذا أمر تهديد:

(اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ)

كل شيء محسوب..

((عش ما شئت فإنك ميت، وأحبب من شئت فإنك مفارقه، واعمل ما شئت فإنك مجزي به))

[من الجامع الصغير: عن " علي "]

والله هذا الحديث الشريف يكفي العباد:

((عش ما شئت فإنك ميت، وأحبب من شئت فإنك مفارقه، واعمل ما شئت فإنك مجزي به))

يقول عليه الصلاة والسلام:

((بَادِرُوا بِالأَعْمَالِ سَبْعًا هَلْ تَنْتَظِرُونَ إلا فَقْرًا مُنْسِيًا أَوْ غِنًى مُطْغِيًا أَوْ مَرَضًا مُفْسِدًا أَوْ هَرَمًا مُفَنِّدًا أَوْ مَوْتًا مُجْهِزًا أَوِ الدَّجَّالَ فَشَرُّ غَائِبٍ يُنْتَظَرُ أَوِ السَّاعَةَ فَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرّ))

[من سنن الترمذي: عن " أبي هريرة "]

على كل إنسان أن يستجيب لله قبل فوات الأوان:

كلام خالق الكون بين يدينا، يقول: يا عبادي استجيبوا قبل فوات الأوان، وقبل أن يأتي يومٌ لا بيعٌ فيه ولا شراء، وقبل أن يأتي يومٌ..

(يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (88) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (89))

(سورة الشعراء)

وقبل أن يأتي يومٌ تقول فيه:

(يَقُولُ يَالَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي(24))

(سورة الفجر)

(يَالَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلا(27))

(سورة الفرقان)

(يَاوَيْلَتِي لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلانًا خَلِيلا(28))

(سورة الفرقان)

قبل أن يأتي يومٌ تقول:

(يَالَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيه(25)وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيه(26)يَالَيْتَهَا كَانَتْ الْقَاضِيَةَ(27)مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيه(28)هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيه(29))

(سورة الحاقة)

من رحمة ربنا عزّ وجل أن هذه المواقف الحاسمة أخبرنا ربنا عنها قبل فوات الأوان، وهذه المواقف التي لابدّ أن تقع أُخْبِرْنَا عنها قبل أن تقع.

خيار الإنسان مع الإيمان خيار وقت فقط:

إذاً:

(اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ (47))

(سورة الشورى)

هذا ينقلنا إلى الحقيقة الثانية، إخواننا الكرام أنت لك خيار، وخيارك مع أشياء كثيرة خيار قبول أو رفض، أتشتري هذا البيت ؟ تقول لا. أتسافر لهذه الجهة ؟ تقول: نعم أسافر. فخيارك مع أشياء كثيرة خيار قبول أو رفض، إلا أن خيارك مع الإيمان خيار وقت فقط، أي أنك لابدّ من أن تؤمن الآن أو بعد فوات الأوان، فلا ينجو من هذا الخيار ولا فرعون، قال:

(آمَنْتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ(90) آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ(91))

(سورة يونس)

من لم يؤمن الآن فلابدّ من أن يؤمن بعد فوات الأوان:

هذه النقطة دقيقة جداً، يجب أن تبعث الإنسان إلى مزيد من الطاعة إلى الله، خيارك خيار وقت، إن لم تؤمن الآن فلابدّ من أن تؤمن بعد فوات الأوان..

(اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ (47))

(سورة الشورى)

هذا اليوم لا نهرب منه، ولا نستطيع أن تؤخّره، ولا أن تتحاشى المسؤوليّة فيه، هذا اليوم..

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (92) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (93))

(سورة الحجر)

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (7) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (8))

(سورة الزلزلة)

قالت السيدة عائشة:

((يا رسول الله أيعرف بعضنا بعضاً يوم القيامة ؟ قال: نعم يا أمّ المؤمنين إلا في أربعة مواضع: عند الصراط، وعند الميزان، وإذا الصحف نُشِرَت، وفيما سوى ذلك قد تقع عين الأم على ابنها تقول له: يا ولدي جعلت لك بطني وعاءً، وحجري وطاءً، وصدري سقاءً فهل من حسنةٍ يعود عليّ خيرها اليوم ؟ يقول: ليتني أستطيع ذلك يا أمّاه إنما أشكو مما أنتِ منه تشكين))

[ورد في الأثر]

التركيز على هذا اليوم..

(اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ (47))

(سورة الشورى)

العاقل من هيأ لله جواباً عن كل عمل قبل أن يلقاه:

إخواننا الكرام... قبل أن تقول كلمة، وقبل أن تُعطي، وأن تغضب، وأن تبتسم، وأن تصل، وتقطع، وتُسافر، وتؤسّس هذا المشروع هيّئ الجواب لله، لماذا فعلت هذا يا عبدي هل معك حجّة ؟ أو دليل ؟ وهل هناك آية تجيز عملك ؟ فالمؤمن العاقل دائماً عنده هاجس واحد: ماذا أقول لربي يوم القيامة ؟. دخلت زوجة عمر بن عبد العزيز عليه فرأته يبكي قالت له:**" مالك تبكي ؟ "**. قال لها: **" دعيني وشأني "** فلمّا أصرّت عليه قال: **" وُليت هذا الأمر فنظرت إلى الفقير الضائع، وابن السبيل، والشيخ**

العاجز (وذكر أصنافاً من المعذّبين) فعلمت أن الله سيسألني عنهم جميعاً، وأن حجيجهم يوم القيامة هو رسول الله، فلهذا أبكي ".

يجب عليك ولو كنت في أية وظيفة ظلمت إنساناً، أو اعتديت عليه أو ألبسته تهمة بالباطل، أو ابتززت ماله، فيما إذا كنت قوياً، أو ذكياً بالاحتيال، أو أوهمته أن معه مرضاً خبيثاً، وأنه يحتاج إلى تحاليل كثيرة فالإنسان أحياناً يكسب المال حراماً إما بقوّته أو بحيلته، فإذا قوي فبقوّته ادفع، وإذا لم يكن قوياً فبحيلته، فقبل أن تأخذ المال هل أخذته حلالاً طيّباً ؟ وهل أخذته وفق الشرع إن كنت تاجراً ؟ أم هل غششت الناس ؟ أم أوهمتهم أن هذه البضاعة من نوع خاص وهي أقل بكثير من ذلك ؟

الله عز وجل لا يكلف الإنسان إلا بما أقدره عليه:

فيا أيها الأخوة الكرام... هذه آية حاسمة:

(اسْتَجِيبُوا (47))

(سورة الشورى)

النجاة النجاة، ما دام القلب ينبض، ومادام الإنسان يمشي على قدميه وبإمكانه أن يحضر مجلس علم، وبإمكانه أن يغض بصره، ويضبط لسانه، وينزّه سمعه عن كل ما لا يرضي الله عزّ وجل، ويصلح بيته، ويقيم فيه الإسلام، ويصلح عمله، وكله بيده، فأنت لا يكلِف الله نفساً إلا وسعها الله لا يكلِفك إلا بما أقدرك عليه.

على كل إنسان أن يتلافى أموره الخاطئة من قبل أن يأتي يوم لا مرد له:

فيا أيها الأخوة...

(مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدّ لَهُ (47))

(سورة الشورى)

يعض على إصبعه ندماً. أضرب هذا المثل دائماً: وأحياناً إنسان يرتكب جريمة، ويُساق إلى المحكمة، ويحاكم، ويحكم عليه بالإعدام، ويصدّق الحكم، ويساق إلى المشنقة. والآن أمام المشنقة هو مرتكب جريمة، ومعترف بها، والحكم مستأنف ومميّز، والقرار مصدّق من أعلى سلطة في البلد، والآن تنفيذ الحكم إعدام، أيحب أن يبكي فيبكي، أيحب أن يضحك فيضحك، أيحب أن يتماسك فيتماسك، أيحب أن ينهار أتركه يسقط، فلابدّ من تنفيذ الحكم فيه، وهذا هو الطريق المسدود، وهذا هو اليوم الذي لا مردّ له، فنحن الآن في بحبوحة، ويمكن أن نتلافى أمورنا كلها، والإنسان يجب أن يضحك.

كلمة ليت لا تنفع الإنسان يوم الحساب:

أستطيع أن أعمل مراجعة دقيقة لدخلي، ولإنفاقي، ولبيتي، ولضبط البيت، ولكن يأتي يوم لا مرد له، ويقف الإنسان أمام طريق مسدود مهما فعل، لو قال:

(يَقُولُ يَالَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي(24))

(سورة الفجر)

كلمة ليت لا تنفعه، ولو قال:

(يَالَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلا(27))

(سورة الفرقان)

لا تنفعه..

ويا ليتني أرد ولا أكذِّب، لا تنفعه:

(رَبِّ ارْجِعُونِ(99)لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ)

(سورة المؤمنون)

لا تنفعه..

(فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ(34))

(سورة المطففين)

(تَلْفَحُ وُجُوهَهُمْ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ(104)أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ(105)قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ(106)رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ(107)قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ(108))

(سورة المؤمنون)

هذا اليوم ما له مرد، وهذا الطريق المسدود لا توصل نفسك إليه، وبالعمر بقيّة، وبحبوحة، وأنت نشيط الآن..

يوم القيامة ليس بإمكان أي إنسان أن يتهرب منه:

(اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ (47))

(سورة الشورى)

قال لك: غض بصرك، قال لك: نزّه سمعك.. من استمع إلى صوت قينةٍ صُبَّ في أذنيه الآنك يوم القيامة، قال لك: اضبط بيتك..

(يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا)

(سورة التحريم)

آيات قرآنيّة كلها..

(إلا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ)

(سورة النساء: من آية " 29 ")

لو كان فيها احتيال فليس فيها تراض، ولو كُشف للطرف الآخر أنك احتلت عليه أيرضى عنك ؟ إنه لا يرضى، فليس هناك بيع عن تراض فهذا البيع صار مشبوهاً، فالأمر بيدنا الآن، ولكن عند الموت ليس بيدنا، والآن باختيارك أن تهتدي، وأن تستقيم، وأن تصدق، فهذا اليوم الذي لا مردّ له ليس هناك إمكان أن تتهرّب منه، ولا أن تهرب منه، ولا أن تدفعه، ولا أن تستصدر استثناء خاصاً بك: ولا أن فلاناً يطوى من الحساب، فهذا اليوم لا مردّ له..

عدم وجود أي ملجأ يلجأ إليه الإنسان هرباً من الحساب:

(مَا لَكُمْ مِنْ مَلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ(47))

(سورة الشورى)

إذاً اليوم لا مردّ له فهل هناك ملجأ، إذا وجد قصف صاروخي وهناك ملجأ فنصف مصيبة، أما هذا اليوم فلا مردّ له ولا ملجأ تلجأ إليه من هذا اليوم، ولا جهة في الخلق جميعاً تُنكر عليك، أو تنكر على من يصيبك ما أصابك. فأحياناً الإنسان يُعاقب، ولكن له ناساً يحتجون، ويعترضون، ويكتبون، وينشرون مقالة، ويتجمّعون، ويطالبون ويتوسّطون، ففي الدنيا لو أصاب إنساناً ظلم فهناك من ينكر هذا الظلم الذي لحق به، فالعلماء قالوا:

(مَا لَكُمْ مِنْ مَلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ(47))

(سورة الشورى)

أي لا أحد يستطيع أن يستنكر ما حلّ بهذا الإنسان.

كل إنسان يوم القيامة يحاسب بمفرده:

لأنه:

(وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ)

(سورة الأنعام: من آية " 94 ")

ففي الحياة الدنيا يوجد تجمُّعات، وجماعات، يقول لك: هذا من جماعتي والله إذا أحد اقترب عليه نعمل كذا وكذا. لا يوجد ذلك يوم القيامة ففي الدنيا أحياناً ينتمي الإنسان إلى جماعة فتحميه، وقد تحميه على الحق إذا كانت جماعة مؤمنة، وعلى الباطل إذا كانت جماعة غير مؤمنة، وفي الآخرة:

(وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ)

(سورة الأنعام: من آية " 94 ")

لا يقدر أحد أن يتكلّم بكلمة.

عدم استطاعة الإنسان إنكار ذنوبه يوم القيامة لأن أعماله كلها مسجلة عليه:

لذلك:

(مَا لَكُمْ مِنْ مَلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ(47))

(سورة الشورى)

لا أحد يستنكر ما يحل بكم من عذاب، وليس بإمكانكم أن تنكروا الذنوب التي وقعت، وفي الدنيا إذا لم يوجد على الإنسان مستمسك، أو وثيقة، أو سند، أو صورة مثلاً فينكر، ويقول: هذا اتهام المتهمين وافتراء المفترين، وهذه محاولة تشويه لسمعتي. أما إذا وجد مستمسك، أو صورة، أو كتاب، أو مكالمة هاتفية مسجّلة فصار مداناً، ولكن يوم القيامة لا يستطيع الإنسان أن يُنكر أي ذنبٍ اقترفه، لأن هذا الذنب يعرض عليه. والآن أحدث المخالفات تُرسل الصورة مع التاريخ والساعة إلى البيت، وهذه المخالفة، لا يستطيع أن يتكلّم ولا كلمة.

حدّثني شخص فقال لي: كنّا في بلد أجنبي، فجاءتني مخالفة بسعر غالٍ كثيراً، فأنا على عادتي اعترضت أن هذا غير معقول، وأنا ما كنت في هذا المكان في هذه الساعة. فذهب لكي يحتج على المخالفة ذات الرقم العالي فقابلوه بأعصاب باردة، قال له: انتظر. دخل وعاد بالصورة صورة المركبة وهي تخالف بالساعة والتاريخ، فخجل، ولكن الآن تضاعفت المخالفة لأنك لم تصدِّقنا، فجعلوه يدفعها مرة أخرى فالصورة مسكتة.

فأن تقول: أنا لم ارتكب هذا الذنب. تعرض أعمال الإنسان على الإنسان متحرّكة، ملوّنة بأحجامها الحقيقيّة، فالآن لا تستطيع أن تنكر الذنوب التي اقترفتها، ولا أحد يستنكر ما يحل بك.

من عدّ غداً من أجله فقد أساء صحبة الموت:

(اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ (47))

(سورة الشورى)

متى هذا اليوم ؟ هل هناك إنسان يضمن أن يعيش ساعة بعد هذه الساعة ؟ قال: **" من عدّ غداً من أجله فقد أساء صحبةالموت ".**

كلّكم يسمع من حين لآخر موت فلان وموت فلان، اسألوا أقرباءه وليس هناك إنسان يموت إلا وهو يفاجأ بموته، وفي مخيلته أشياء لعشرين سنة، أو خمس عشرة، أو ثلاث عشرة. وقد رويت لكم قصّة لا أنساها: جلست مع إنسان في التعليم قال لي: أريد أن أستقيل وأذهب إعارة لبلد شمالي إفريقيا (بلد عربي) فهناك العمل مريح جداً والمعاش ثلاثة أمثال. وأنا أستمع له. ويقول: وسأقضي أول صيفيّة في فرنسا، والثانية في إنكلترا (حافظهم) والثالثة في إسبانيا، والرابعة في إيطاليا، وسأقضي الصيفيّة بأكملها أتملّى معالم هذا البلد، ريفه، ومتاحفه، وعادات أهله وتقاليده، وأنا لا أحب هذه الزيارة المستعجلة، وقال ثم أرجع بعد خمس سنوات أقدِّم استقالة وأتقاعد، فشيءٌ جميل ! وأفتح محلاً تجارياً وأضع فيه تحفاً، ولا أريد هذه الأشياء التي لها انتهاء مدّة وعطبها سريع بل تحف جيدة، ويكون أولادي قد كبروا فأضعهم في هذا المحل. وأنا أسمع له وضيّفني كأساً من الشاي وخرجت من عنده وذهبت إلى بيتي، وعندي بعد الظهر ساعات ليلاً، وأنا أعود إلى البيت مشياً رأيت نعوته على الجدران، والله في اليوم نفسه وليس غداً ثاني يوم. قال: **" من عدّ غداً من أجله فقد أساء صحبة الموت ".**

على كل إنسان أن يستعد للقاء الله عز وجل:

هذا اليوم الذي لا مردّ له متى ؟ لو كان بعد سنة (فجيّد ماشي الحال) ولكنك لا تعرف متى، أترى فجأةً؟ أم خثرة في الدماغ فجأةً ؟ أو سكتة قلبيّة. واحد ينتظر أن يأخذ مئة وعشرين مليوناً ميراثه من شخص ثري وحصّته من الميراث هذه، وهو يعمل ليلاً ونهاراً، ويغسل وجهه وقع ميّتاً ولم يقبض قرشاً واحداً. فالحياة ملأى بهذه القصص ؛ بيت لا يُسكن، وصاحبه معه شهادة عُليا لا يستخدمها، ويكتب كتابه ولا يتزوّج، فهذا اليوم متى ؟ لا نعرف، من منا يضمن أن يعيش بعد ساعة ؟ أبداً، فما دام اليوم الذي لا مرد له، نهاية الحياة هذا اليوم ليس بيدي، إذاً عليّ أن أكون مستعدّاً دائماً للقاء الله عزّ وجل.

كل إنسان مخير و ما على الرسول الكريم إلا التبليغ:

قال:

(فَإِنْ أَعْرَضُوا (48))

(سورة الشورى)

الإنسان مخيّر، أنت يا محمّد عليك أن تبلِّغ..

(وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلا الْبَلاغُ الْمُبِينُ(18))

(سورة العنكبوت)

(يَاأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنْ النَّاسِ)

(سورة المائدة: من آية " 67 ")

أنت عليك أن تبلِّغ..

(فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا (48))

(سورة الشورى)

فلست بمكلّفٍ أن تسجّل أعمالهم وأن تحاسبهم، فأنت مبلِّغ فقط، فإذا بلّغت فقد انتهى أمرك، والإنسان يقف بعد الحج أمام قبر النبي اللهمّ صلِّ عليه يقول له: **" أشهد أنك بلّغت الرسالة وأديت الأمانة، ونصحت الأمّة وكشفت الغُمّة، وجاهدت في الله حقّ الجهاد، وهديت العباد إلى سبيل الرشاد "**. انتهى، بلّغ، لأن الإنسان مخيَّر..

من آثر دنياه على آخرته إنسان تافه شارد عن الحق:

(فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ (48))

(سورة الشورى)

لكن هذا الإنسان الشارد، الذي لم يستجب لله عزّ وجل، الذي آثر الدنيا إنسان تافه، ودليل تفاهته قال:

(وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا (48))

(سورة الشورى)

يختل توازنه، تجد الإنسان إذا نجح في الحياة فقلما يبقى متماسكاً، يحكي عن حاله، وعن إنجازاته، وأمواله، ودخله الكبير، ونجاح شركته، ومبيعاته المُتنامية، ورحلاته، وصفقاته، وبيته، ويعزمك إلى البيت ليريك كم متر مساحته، فالبلاط أتى به من إيطاليا، وهذا القوس عمله له فلان، ودائماً يحكي لك عن حاله، والذي عنده هذه الإمكانيّة يفتخر ويتباهى ويعرض منجزاته على الناس قال: هذا الإنسان..

(وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا (48))

(سورة الشورى)

ولكن هذا فرح غير مرغوب فيه..

على كل إنسان ألا يفرح بالدنيا لأنها سريعة الزوال وشيكة الانتقال:

(لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ(76))

(سورة القصص)

أي لا تفرح بالدنيا لأنها سريعة الزوال وشيكة الانتقال، من عرفها لم يفرح لرخاء، لأنها مؤقّتة، ولم يحزن لشقاء، قد جعلها الله دار بلوى وجعل الآخرة دار عُقبى..

(وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ(48))

(سورة الشورى)

فوضعه مضطرب، على العطاء يختل توازنه، ويستخفُّه الفرح، وعلى المُصاب ينهار وييئس، وهذا الإنسان البعيد عن الله بين اليأس القاتل وبين الفرح المُضحك، خفيف.

ثقة المؤمن بالله عز وجل ثقة كبيرة:

أما المؤمن فلا تستخفُّه الدنيا، ولا تسحقه الآلام، متماسك، في البلاء صابر في الرخاء شاكر..

((عَجِبْتُ لأمْرِ الْمُؤْمِنِ إنّ أمْرَهُ كُلّهُ خَيْرٌ إنْ أصَابَهُ مَا يُحِبُ حَمِدَ اللّهَ وَكَانَ لَهُ خَيْرٌ وَإنْ أصَابَهُ مَا يَكْرَهُ فَصَبَرَ كَانَ لَهُ خَيْرٌ وَلَيْسَ كُلُ أحَدٍ أمْرُهُ كُلُهُ لَهُ خَيْرٌ إلا الْمُؤْمِنُ))

[من مسند أحمد: عن " صهيب "]

فهذا التماسك، مع المصاب له أمل بالله عزّ وجل، واثق، بأن يفرجها عليه الله، وقد حدّثني أخ فقال لي: ذهبت لأجري عملية في القلب في بلد أجنبي، وكنت أنتظر إجراء العمليّة فدخلت ممرّضة تحمل دكتوراه نسّقت الأزهار، وسألتني دون أن تلتفت إلي: ما عمليّتك ؟ فقلت لها: العملية الفلانيّة، ومن طبيبك ؟ فقلت فلان، وهو من أشهر أطبّاء بريطانيا قالت له: غير معقول هل قبل ؟ قال لها: نعم قبل. قالت له: غير معقول هذا من الصعب أن يقبل. قلت لها: قبل وأنا جئت على موعد. قالت: هذا عمل مئة ألف عمليّة ولا واحدة خابت معه، وقد تكلمت بهذا الكلام فارتاح له، وبعدما دفع الفاتورة فإذا فيها مكتوب: ألفا جنيه رفع للمعنويات.

المؤمن لا يحتاج لأن يدفع ألفين لرفع المعنويات، معنوياته عالية سلفاً، ولا حاجة لمن يرفع له معنوياته، هو واثق بربّه، فهم أدركوا أن الإنسان عندما يكون عنده معنويات عالية يشفى سريعاً، فالعضويّة تعينه على الشفاء، والمؤمن وحده عنده معنويات عالية، فله ثقة بالله عزّ وجل وأكبر ثقته أن الله لا يتخلّى عنه، وأن الله لا يسلمه، وأن الله لا يقدّر له إلا الخير..

(قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إلا مَا كَتَبَ اللّهُ لَنَا هُوَ مَوْلانَا)

(سورة التوبة: من آية " 51 ")

هذه المعنويات العالية لا تجدها ولا بمئة مليون، أن تشعر أن خالق الكون يحبّك ولا يتخلّى عنك، وهو أقوى الأقوياء، وكل خصومك بيده..

المؤمن غال على الله عزّ وجل و لن يضيعه أبداً:

(فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمّ لَا تُنْظِرُون (55) إنِّي تَوَكّلْتُ عَلَى اللّهِ رَبّي وَرَبّكُمْ مَا مِنْ دَابّةٍ إلّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إنّ رَبّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ(56))

سُجل عليه ألفين مقابل أنها قالت له: كيف قبل غير معقول !. قال لها: معقول أنا جئت على موعد. قالت له: عمل كذا عمليّة ولا واحدة أخطأ فيها. فارتاح، وعندما وثق من الطبيب وارتاح أن العملية ناجحة سلفاً، فهذه العضويّة المتفائلة تعين على شفاء ذاتها، هكذا القاعدة الطبيّة. أما المؤمن وهو في أشد الحالات تجده واثقاً من الله عزّ وجل، فالله لا يضيعني، ولن يتخلّى عني، فالنبي عليه الصلاة والسلام مرض فأعطي دواء ذات الجنب، فغضب غضباً شديداً، وقال: **ذلك مرضٌ ما كان الله ليصيبني به.**

استنبطوا من هذه الواقعة أن المؤمن غال على الله عزّ وجل، فهو يؤدِّبه، في أمور كبيرة كثيرة صعب أن يسوقها الله عزّ وجل للمؤمن، فهو يرحمه ولا يفضحه، ودائماً يسبل عليه ستره، وخاصة في غيبته، وكان سيدنا علي إذا سافر يقول: **"اللهمّ أنت الرفيق في السفر، والخليفة في الأهل والمال والولد ".** تُرى أي جهة في الكون تكون معك في السفر ومع أهلك في الحضر ؟ مستحيل إلا الله عزّ وجل. فعندما يدعو الإنسان ربه عزّ وجل بهذا الدعاء إذا سافر، أحياناً في غيبة الإنسان تصير مشكلة، ويصير حادث دهس، ومرض مفاجئ، وحالة خطرة، فأحياناً تشوُّه بوجه ابنته بسبب وقوع إبريق الشاي عليها، فالإنسان إذا سافر يكون قلقاً، أما إذا دعا هذا الدعاء: **" اللهمّ أنت الرفيق في السفر، والخليفة في الأهل والمال والولد "**، يستريح.

من عرف ربه و استقام على أمره ألقى في قلبه السكينة و الأمن:

هذه راحة النفس لا تقدّر بثمن، وإذا عرف الإنسان الله عزّ وجل واستقام على أمره يلقي الله في قلبه السكينة، فتجد في قلب المؤمن سكينة لو وزّعت على أهل بلدٍ لكفتهم، فهو واثق من الله عزّ وجل، فلن يضيّعه ولن يخذله، ولن يسلمه، ولن يجعل لكافرٍ عليه سلطاناً، أنت خائف من الله في البيع والشراء، فهل يخيفك من إنسان ترجف أمامه ؟ حاشا لله، إذا كنت خائفاً منه لا يخيفك من أحدٍ آخر، أما إذا لم تخف منه، فتستغل ثقة الناس فيك، وتقتنص أموالهم بالباطل، وتغشّهم، فيأتيك شخص لا تقيم له وزناً يجعلك تضطرب، فكثير من الأشخاص دخل عندهم موظف ليحاسبهم على السعر وما السعر، فسقطوا أرضاً وإسعاف إلى العناية المشدّدة رأساً، ما تحمّلوا، فأنت تخاف من الله فيما بينك وبين العباد فالله لن يخيفك من عبدٍ مثلك ؟ لا والله حاشا لله (من هاب الله هابه كل شيء) **" ومن خاف من الله خافه كل شيء، ومن لم يخف من الله أخافه الله من كل شيء ".**

الإنسان مخير في الدنيا لا مسير:

المؤمن متماسك، والله يلقي في قلبه الثبات، ويلقي في قلبه الأمن..

(فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَـئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ)

(سورة الأنعام)

فالإنسان مخيَّر..

(فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا(48))

(سورة الشورى)

فرحه بهذه الرحمة يستخفُّه..

الله سبحانه وتعالى يملك كل شيء خلقاً وتصرُّفاً ومصيراً:

(وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ (48) لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

سابقاً قلت لكم كلمة أن الله يملك السماوات والأرض وهذه أوسع أنواع المُلكيّة، إنها مُلكيّة خَلق، ومُلكية تصرُّف، وملكية مصير، ونحن بني البشر أحياناً نملك التصرُّف ولا نملك المصير، أو نملك المصير ولا نملك حق الانتفاع (بيت مؤجّره بسعر رخيص) وقد تملك الانتفاع والرقبة ولكن لا تملك المصير (قد ينظّم هذا المكان فيعطونك عشر قيمة بيتك) إذاً الإنسان ملكيّته محدودة، لكن الله سبحانه وتعالى يملك كل شيء خلقاً وتصرُّفاً ومصيراً..

تكريماً للبنات قدّم الله عز وجل الإناث على الذكور في هذه الآية:

(لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ(49))

فالله عزّ وجل قدّم الإناث على الذكور تقديم تكريم، لأن العرب كانوا يكرهون البنات في جاهليّتهم..

(وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ(58))

(سورة النحل)

ولذلك فربنا عزّ وجل تكريماً للبنات قدّم الإناث على الذكور، ولكن جعل الإناث نكرةً..

(يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا (49))

(سورة الشورى)

ويجب أن تكون المرأة محجّبةً لئلا تُعْرَف، من هنا جاء التنكير..

تعريف الذكور في هذه الآية تعريف تشريف:

(وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ(49))

(سورة الشورى)

أخّر الذكور لكن الله عزّ وجل عرّف الذكور، والتعريف تعريف تشريف، قال:

(يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ (49) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ(50))

فالعقيم من الله، والذي عنده خمسة بخمس أو ثلاث باثنين، أو اثنتين بثلاثة، واحد بواحدة فمن الله، والذي عنده ست بنات فمن الله، والذي عنده ثمانية ذكور فمن الله..

(يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ (49) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ(50))

الله عز وجل جعل صفوة خلقه بأحوال متفاوتة تغطي كل البشر:

سيدنا لوط آتاه الله الإناث وحدهن، وسيدنا إبراهيم آتاه الله الذكور، وسيدنا محمّد آتاه الله الذكور والإناث، وسيدنا يحيى جعله الله عقيماً، فهؤلاء الأنبياء صفوة الخلق واحد آتاه الله ذُكراناً، وواحد آتاه إناثاً، وواحد جعله عقيماً، وواحد آتاه ذكوراً وإناثاً، وكل واحد منا كيفما كان وضعه يوجد نبي عظيم يشبهه، ونبي ابنه سيئ كابن سيدنا نوح، ونبي والده كان كافراً، ونبي زوجته كافرة، ونبي كان قوياً، ونبي كان ضعيفاً ونبي كان غنياً، ونبي كان فقيراً، والذي كان فقيراً فله أسوة بالنبي عليه الصلاة والسلام، كان راعي غنم.

فهذه الدنيا لا قيمة لها، فالله جعل صفوة خلقه بأحوال متفاوتة تغطي كل البشر، ولو أن امرأة تُكلِم في شرفها وهي بريئة براءةً حقيقيّة فلها في السيدة عائشة أسوة حسنة، وزوجة النبي عليه الصلاة والسلام تكلّم الناس عنها كلاماً لا يرضي، ولكن الله برّأها، فكيفما تحرّكت فهناك نبيٌّ أو صحابيٌّ، أو تابعيٌّ يُغَطِّي هذه الحالة..

كل ما جاء من عند الله عز وجل وحي لا يملك النبي استقدامه ولا دفعه:

(إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (50) وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا)

والآن ظاهرة الوحي ختم الله بها هذه السورة، أي أن هذا الذي جاء من عند الله عزّ وجل هو وحي، وليس شيئاً تراءى للنبي، عندما كان يأتيه الوحي وكانت الناقة تبرك لثقله، وكان النبي عليه الصلاة

والسلام يتفصّد عرقاً، ومرّةً كانت رُكبة النبي فوق ركبة ابن عبّاس فكادت تَنْحَطِم، فالوحي شيء ثقيل جداً يأتي، ولا يملك النبي استقدامه ولا دفعه، فلمّا تحدّث الناس عن عائشة رضي الله عنها تأخَّر الوحي شهراً، فماذا يفعل النبي ؟ الوحي تأخّر، إلى أن جاء الوحي ببراءتها بحكمةٍ بالغة.

أنواع الوحي:

1 ـ إما أن يأتي الوحي على شكل إلهام:

إذاً:

(وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ(51))

إما أن يأتي الوحي على شكل إلهام، كما قال عليه الصلاة والسلام:

((إن روح القدس نفثت في روعي أن نفساً لن تموت حتى تستوفي رزقها فاتقوا الله عباد الله، وأجملوا في الطلب واستجملوا مهنكم))

[ورد في الأثر]

هذا وحي على شكل إلهام.

2 ـ أو إيحاء عن طريق التكليم:

أو إيحاء عن طريق التكليم، كما كلّم الله موسى من وراء حجاب.

3 ـ أو عن طريق سيدنا جبريل:

أو أن يأتي سيدنا جبريل فيوحي للنبي ما يريد الله أن يوصله إليه.

عدم استطاعة أي إنسان أن يرى الله في الدنيا:

(وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ(51))

بعضهم قال:

(وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا)

عن طريق جبريل..

(أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ (51))

كما كلّم الله موسى، ولكن ما رآه، ولا يستطيع بشرٌ على الإطلاق ولو كان نبياً أن يرى الله في الدنيا، وهذه حقيقة..

(رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنْ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنْ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا)

(سورة الأعراف: من آية " 143 ")

إذاً عندما كلّم الله سيدنا موسى كلّمه من وراء حجاب.

لا طريق نأخذ منه الحق إلا عن طريق الأنبياء:

الاتجاه الآخر في الآية أن الله عزّ وجل..

(وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا)

عن طريق سيدنا جبريل..

(أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ (51))

كما كلّم الله موسى تكليماً..

(أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ)

فنحن الآن نحن نُبلّغ عن طريق رسول الله، وبقية البشر يبلّغون عن طريق الرسل، والله عزّ وجل يبلِّغ الأنبياء وصفوته من خلقه عن طريق سيدنا جبريل، أو التكليم، وهم يبلِّغون البشر، وهذا اتجاه آخر بالآية..

اختار الله تعالى الأنبياء لتبليغ رسالته لأنهم معصومون وقِمَمٌ في معرفة الله وطاعته:

(إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ (51))

فالوحي تبليغ السماء للأرض، خالق الكون خلق الخَلق ألا ينبغي لهم أن يبلِّغهم ؟ لماذا خلقهم ؟ وماذا يريد منهم ؟ ألا ينبغي لهم أن يعرّفهم بذاته ؟ وبأمره ونهيه، بما أعدّ لهم بعد الموت ؟ فالله سبحانه وتعالى عن طريق الوحي بلّغ الخلق لماذا خلقهم ؟ وماذا أوجب عليهم ؟ وما الذي يشقيهم ؟ وما الذي

يسعدهم ؟ وماذا بعد الموت ؟ وأين كانوا بعد الموت ؟ ومن الذي خلقهم ؟ وأسماؤه وصفاته، هذا هو مضمون الوحي..

(وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا)

أما عن غير طريق الأنبياء فهذا كلّه دَجَل، فالسماء لا تتصل بالأرض (أي بالخلق) إلا عن طريق الأنبياء والمرسلين، وكل العلماء يجب عليهم أن يأخذوا عن الأنبياء، فالعالم ناقل ولكن لا يوجد عالم يأتيه الوحي أو يبتدع شيئاً، لأن الأنبياء معصومون..

(إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ(33))

(سورة آل عمران)

فالأنبياء معصومون، وهم قِمَمٌ في محبة الله، وقِمَمٌ في معرفة الله وطاعته، والإخلاص له، ولذلك اصطفاهم وجعلهم أنبياءه ورسله، وأوحى إليهم، وأيّدهم بالمعجزات، وأمرهم بالتبليغ، وعصمهم عن الخطأ إذاً لا طريق نأخذ منه الحق إلا عن طريق الأنبياء، أما أي شخص آخر مهما كان عظيماً، ومهما كان عبقرياً، أو ذكياً، أو مُطّلعاً، أديباً كبيراً أو مصلحاً اجتماعياً فهو يخطئ ويصيب، ونأخذ ما هو حق وندع ما هو باطل.

دور العلماء دور التبيين فقط:

هناك نقطة مهمّة جداً، إذا اعتقدنا أن هناك جهة أخرى يمكن أن تستقي منها المعرفة، والمَنهج، والحقائق نكون دخلنا في متاهات لا تنتهي، ونحن لا نعتقد إلا أن الحق من عند الله، وعن طريق الأنبياء، ومهمة العلماء التبيين فقط، فالعالِم الحقيقي عبارة عن لوح بلور شفّاف، يشفُّ عن دعوة الأنبياء، فلا شيء من عنده إطلاقاً، وكما قال سيدنا الصديق: **" إنما أنا متبع ولست بمبتدع "**. أي إنسان مهما علا شأنه في الحياة لا يمكن أن يأتي بجديد..

(الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا)

(سورة المائدة: من آية " 3 ")

وانتهى الأمر، فدور العلماء دور التبيين، ولا يجوز لإنسان أن يقول لك شيئاً من دون دليل، ومن هو حتّى يقول لك: هذا من عندي ؟ وما جاءنا عن صاحب هذه القبّة الخضراء فعلى العين والرأس، وما جاءنا عن غيره فنحن رجال وهم رجال، كل رجلٍ يؤخذ منه ويُردُّ عليه إلا صاحب هذه القبّة الخضراء، لأنه معصوم.

أمانة الأنبياء أمانة التبليغ وأمانة العلماء أمانة التبيين:

قال لك:

(وَمَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا)

(سورة الحشر: من آية " 7 ")

وانتهى الأمر، قال لك:

(لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ)

(سورة الأحزاب: من آية " 21 ")

هو يأمرك وينهاك، وتقتدي بسيرته، ونأخذ عنه جميعاً، والعلماء كلُّهم عالةٌ على رسول الله يأخذون منه، ويوضِّحون للناس سُنَّته، وانتهى دورهم، أما هل يستطيع عالم أن يقول لك: خذ هذا من عندي ؟ لا، فالعلماء دورهم دور النقل والتبيين، والأنبياء دورهم دور تلقِّي الوحي والتبليغ، فأمانة الأنبياء أمانة التبليغ، وأمانة العلماء أمانة التبيين..

(لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلا تَكْتُمُونَهُ)

(سورة آل عمران: من آية " 187 ")

هذا هو الوحي، فليس هناك حق من غير طريق الوحي، وهناك دجاجلة مضللون، وأصحاب أهواء، وأصحاب مصالح، ودجّالون، ومنحرفون، وأفّاكون، فلا نأخذ الحق إلا من الله عن طريق الوحي، وعن طريق فهم الأنبياء لهذا الوحي. وعندنا أصلان كتاب الله وسنة رسوله، ما إن تمسّكنا بهما فلن نضلّ بعدها أبداً، ولا يمكن أن يستمر الدين كما بدأ إلا بهذه الطريقة، ألا نضيف عليه شيئاً وألا نحذف منه شيئاً.

حياة قلب الإنسان لا تكون إلا بهذا الدين العظيم:

وآخر آية:

(وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا (52))

(سورة الشورى)

كلمة:

(روحاً)

أي أن هذا الوحي بمجمله، فالقرآن بمجمله، والسنة التي بيّنته بمجملها سمّاه الله روحاً، أي يهبك الحياة، كنت ميتاً قبل هذا الوحي، فأحياك الله بهذا الوحي، إذاً هو روح..

(وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا (52))

(سورة الشورى)

هذا روح، أي أن حياة القلب بهذا الدين، وهذا القرآن..

عدم معرفة النبي الكريم تفاصيل الدعوة إلى الله حتى جاءه أمر الله تعالى:

(مَا كُنْتَ (52))

(سورة الشورى)

يا محمَّد..

(مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ (52))

(سورة الشورى)

النبي عليه الصلاة والسلام وبقية الأنبياء معصومون قبل البعثة، أما هنا..

(مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ (52))

(سورة الشورى)

تعني شيئاً آخر، أي أنت مؤمن بالله، محبٌ له، محسن لخلقه، لكن تفاصيل الشريعة ما كنت تعرفها، وطريق الدعوة إلى الله لا تعرفه..

(مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ (52))

(سورة الشورى)

فهذا الكتاب بتفاصيله، بالعبادات الشعائريّة، وبالعبادات التعامليّة، وبالأمر، والنهي، والأخلاق، والمعاملات، والعقائد، وهذا الكتاب ما كنت تعلمه يا محمَّد.

وما كنت تعلم أيضاً كيف تدعو إلى الله.

قدوم الوحي بتفاصيل الشريعة و الطريقة في الدعوة إلى الله:

جاءك الأمر: افعل كذا، ادع كذا، خاطب الناس بهذه الطريقة..

(ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ)

(سورة النحل: من آية " 125 ")

(فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ)

(سورة آل عمران: من آية " 159")

أي جاء الوحي بتفاصيل الشريعة وبتفاصيل الطريقة في الدعوة إلى الله..

الدعوة إلى الله تعالى مآلها صراطٌ مستقيم:

(وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا)

نور.

تصوّر إنساناً ماشياً في طريق فيه ظلام دامس، وبهذا الطريق حفر، وأكمات، وصخور، ومنزلقات، ووحوش، وحشرات قاتلة، فلو أن معك مصباحاً منيراً، فهذا المصباح المنير يقيك الوقوع في الحفرة، والارتطام بالصخرة، ويقيك أن تلدغك الحشرة، وكل هذه الأخطار تتلافاها بهذا النور.

من سار إلى الله تعالى وصل إلى طريق الجنة:

الصلاة نور كما قال عليه الصلاة والسلام، والمؤمن مستنير يرى الحق حقاً والباطل باطلاً، قال:

(جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ(52))

(سورة الشورى)

هذه الدعوة مآلها صراطٌ مستقيم ومعنى مستقيم أي أقصر الطرق إلى الله..

(صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ(53))

(سورة الشورى)

أي أنت يا محمّد تهدي إليّ، وكل دعوتك مآلها إليّ، وأنتم أيها المؤمنون حينما تتلقون هذا الوحي بالفهم للقرآن والتطبيق، فأنتم تسيرون في الطريق إلى الله، فبالتعبير الدارج: فهل تعرف مع من أنت ماشٍ ؟ أنت ماشٍ بطريق يوصل إلى الجنّة..

((إِنّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا لِطَالِبِ الْعِلْمِ رِضًا بِمَا يَطْلُبُ))

[من سنن الترمذي: عن " صفوان بن عسّال المرادي "]

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الزخرف 043 - الدرس (1-9): تفسير الآيات 1-8 ،القرأن الكريم لا يعلو عليه شيء وحكيم يضع الأمور في نصابها

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 27-05-1994

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الأول من سورة الزخرف.

الحروف التي في أوائل السور هي دليل إعجاز القرآن وسبيل الإيمان به:

الحروف التي ترد في أوائل السور كما سبق أن قلنا إن من تفسيراتها أن الله أعلم بمرادها، ومن تفسيراتها أن هذا القرآن المعجز إنما نظم من هذه الحروف التي بين أيديكم، ومن معاني هذه الحروف أنها أوائل لأسماء الله الحسنى، ومن معاني هذه الحروف أنها أوائل لأسماء الرسول عليه الصلاة والسلام، والقرآن كما قال الإمام علي كرم الله وجهه:

" القرآن حمّال أوجه."

على كلّ كما أن التراب نفخ الله فيه فإذا هو بشر سوي، إنسان يفكر وفي دماغه مليارات الخلايا، فيه أجهزة، له أعضاء، له عظام، له عضلات، فيه أوردة وشرايين وأعصاب حسّ وأعصاب حركة وغدد صماء، يعني شيء يعجز الفكر عن إدراكه، من تراب، فكذلك جعل من هذه الحروف كتاباً لله معجزاً وهي بين أيدينا، فالتراب بين أيدينا، وعندنا الدليل قريب، فمثلاً هذه البقرة ماذا تأكل ؟ الحشيش الأخضر، أو العلف، العلف بين أيدينا هل بإمكاننا أن نصنع منه حليباً ؟ الدجاجة ماذا تأكل ؟ تأكل هذا الطعام الذي نضعه لها، هل بإمكاننا أن نأخذ هذا الطعام ونصنع منه بيضاً ؟

هناك إعجاز في الخلق، فكما أن الله سبحانه وتعالى صنع من مواد بين أيدينا شيئاً معجزاً، كذلك هذه الحروف بين أيدينا، فكان هذا القرآن الكريم ومن تلك الحروف معجزاً، سبيل الإيمان به إعجازه.

(قُلْ لَئِنْ اجْتَمَعَتْ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا(88))

(سورة الإسراء)

الإيمان هو حقائق مدعمة بالأدلة والبراهين وليس كلاماً يُلقى:

قد يقول قائل: المؤمن ينبغي أن يعلم علم اليقين أن هذا الكلام كلام رب العالمين بالدليل، أما الإدراك الفطري البسيط فلم يعد قادراً على الوقوف أمام الشبهات، أمام الضلالات، أمام النظريات الهدّامة، ربما

كان التقليد قبل خمسين عاماً ينفع صاحبه، أما الآن فمن كان إيمانه إيماناً تقليدياً فهذا التقليد لا ينفعه ولا يمنعه من أن ينحرف، إلا أن يكون له إيمان تحقيقي دقيق مدعم بالدليل والبرهان، فالقضية دقيقة جداً، إنّ هذا الكلام كلام الله، وينبغي على كل منا أن يسأل نفسه: ما الدليل عندي على أنه كلام الله ؟ لأنه لما يأمر الله فهو أمر خالق الكون، ولما ينهَ فهو نهيُ خالق الكون، ولو أن الإنسان تحقق أن هذا القرآن كلام خالق الكون فلا يمكن أن يعصيه، كما أنه لا يمكنك أن تعصي مخلوقاً قوياً، إذا تحققت أن هذا الإنسان قوي وهو يفعل ما يقول، فهذا الذي يتجرأ ويعصي أمر الله عز وجل في هذا القرآن فهو بحاجة إلى تحقق وإلى تثبت.

وأنا لا أريد أن أقول لكم أنه يجب ألا نقرأه قبل أن نؤمن بأنه من عند الله، لا، لكن احذروا أن يكون إيمانكم إيماناً ساذجاً، إن كان عندك دليل قطعي أن هذا القرآن كلام الله فهذا أحد أبواب الإيمان، وأحد أركان الإيمان أن تؤمن بوجود الله وكماله ووحدانيته، وأحد أركان الإيمان أن تؤمن بكتبه، وأحد أركان الإيمان أن تؤمن بأنبيائه، وأحد أركان الإيمان أن تؤمن أن القدر خيره وشره من الله عز وجل، هذه أركان الإيمان، فأحد أركان الإيمان الخمسة الإيمان بالكتاب.

على كل ليس موضوعنا في هذا الدرس الأدلةُ التي يقوم عليها الإيمان بهذا الكتاب، ولكن هذا موضوع ينبغي أن نفكر به، وإذا وصل الإنسان إلى دليل قطعي تخضع له النفس على أن هذا القرآن كلام الله فقد قطع شوطاً على طريق الإيمان، الإيمان حقائق مدعمة بالأدلة والبراهين وليس كلاماً يلقى، وليس موضوعاً يُقبل من دون أدلة وبراهين.

يعني مثلاً: إن الله عز وجل يشهد لنا أن هذا القرآن كلامه، كيف ؟ خذ آية من كتاب الله:

(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً(97))

(سورة النحل 97)

بعض الأدلة على أن القرآن هو كلام الله:

لو أن شاباً استقام على أمر الله واصطلح معه وفعل ما أمر الله وانتهى عما نهى عنه وزجر وعاش حياة طيبة، هذه الحياة الطيبة التي ذاقها وعاشها هي شهادة الله له أن هذا القرآن كلامه، وإليك مثلاً آخر إذا دخل الطلاب إلى قاعة التدريس ورأوا أنه قد كتب على السبورة: غداً الأحد الساعة الأولى مذاكرة في مادة الجبر، فحينما دخلوا ورأوا هذا الكلام على السبورة، ترى أهذا كلام الأستاذ أم أن طالباً يمزح كتبه ؟! ما الذي يؤكد أن هذا كلام الأستاذ ؟ يوم الأحد الساعة الثامنة، إذا دخل أستاذ الرياضيات وذكرهم بالمذاكرة وطلب أن يهيئوا الأوراق والأقلام وأن يضعوا الكتب بعيداً عنهم وأملى عليهم

الأسئلة هذا الحدث يؤكد أن الكلام الذي كتب البارحة هو كلام الأستاذ وهذه الآية أحد الأدلة على أن القرآن كلام الله فاقرأ:

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا(124))

(سورة طه 124)

فأيّ إنسان إذا كان يحيا حياة ضنك لأنه أعرض عن ذكر الله، هذه الحياة الضنك هي شهادة الله له أن هذا القرآن كلامه، هذا دليل كما قال الله عز وجل:

(بَلْ كَذّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ(39))

(سورة يونس 39)

وتأويل القرآن وقوع وعده ووعيده، إتلاف مال المرابي شهادة الله لعباده أن القرآن كلامه، الحياة الطيبة التي يحياها المؤمن شهادة الله لعباده أن القرآن كلامه، المعيشة الضنك التي يحياها الكافر شهادة الله للعباد أن هذا القرآن كلامه، نمو مال الصدقة شهادة الله لعباده أن القرآن كلامه، المال إذا نما بعد صدقة وبعد إنفاق فهذا دليل أن القرآن كلام الله، لأن الله عز وجل قال:

(يَمْحَقُ اللّهُ الرّبَا وَيُرْبِي الصّدَقَاتِ(276))

(سورة البقرة 276)

فأية آية في القرآن الكريم تؤكد الأحداث الكونية أو غير الكونية مضمونها فهذا دليل على أن القرآن كلامه.

(وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ(117))

(سورة هود)

إن رأيت قرية انغمست في الرذيلة والفساد والانحطاط والعدوان، ثم أهلكها الله بوباء أو بحرب أهلية أو بحرب كونية أو بفيضان أو بزلزال أو بصاعقة فهذا الذي وقع دليل أنه كلام الله.

إيمان المؤمن بكتاب الله كإيمانه بوجوده:

وإني أتمنى على كل أخ كريم أن يكون إيمانه بهذا الكتاب كإيمانه بوجوده، كيف قال ديكارت: أنا أفكر فأنا موجود، كذلك إيمان المؤمن بهذا القرآن ينبغي أن يكون كإيمانه بوجوده، وإذا كان الإنسان لديه ارتياب بالقرآن الكريم فما عليه إلا أن يشمر ويبحث عن الحقيقة، لأنه من جاهد في سبيل هذه الحقيقة وصل إليها.

(وَالّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنّ اللّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ(69))

(سورة العنكبوت)

ليس معقولاً أن يتعامل الإنسان مع أموره الدنيوية بحزم وبتدقيق وبحث ودرس واستنباط وتوقع، ونشاطه في الحياة الدنيا منضبط، وأن يتوانى في أمور الآخرة ويتقاعس عن أمور الدين، فهذا ذنب كبير وتقصير مرذول.

((ابن عمر، دينك دِينك، إنه لحمك ودمك، خذ عن الذين استقاموا، ولا تأخذ عن الذين مالوا))

[كنز العمال عن ابن عمر]

أن يتعامل الإنسان مع أمور الدين بتهاون وعفوية ومن دون تحقيق فهذا شيء غير معقول. ذات مرة قال لي شخص ويدينه أمام نفسه غداً كما يدينه عند الله تعالى، هذه كلمة: ما ذنب الإنسان لو التقى صدفة بعالم متساهل في أمر ما، وسأله في مثل هذا الموضوع فأفتى وتساهل في فتواه فالذنب عليه، قلت له: لا تأخذ عنه، فأنت المسؤول وفي عنقك إثم، قال: كيف ؟ قلت له: لو أن عندك بيتاً وأردتَ أن تبيعه، وفي اليوم الذي أردت أن تبيع هذا البيت التقيت صدفة بدلال وقال لك ثمنه مليونان، فهل تبيعه هذا البيت عند أول تثمين ؟ لا، فلماذا في أمر البيت تسأل دلالين أو أكثر، وتسأل أصدقاءك والجيران، وغيرهم، وغيرهم، فلماذا في أمور بيع البيت تأخذ الاحتياطات، وتتأكد، وتطلب التواتر، وتطلب الحل الوسط ؟ وهكذا لتكن آخرتك غالية عندك:

((ابن عمر، دينك دِينك، إنه لحمك ودمك، خذ عن الذين استقاموا، ولا تأخذ عن الذين مالوا))

[كنز العمال عن ابن عمر]

ربنا سبحانه وتعالى يقسم تارة ولا يقسم تارة أخرى:

إذاً ربنا سبحانه وتعالى يقسم بالكتاب المبين، وكما تعلمون أن الله يقسم أو لا يقسم ويقول أحياناً:

(والشمس وضحاها(1))

(سورة الشمس)

ويقول أحياناً:

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ(75))

(سورة الواقعة)

فإذا أقسم فليلفت نظرنا إلى عظمة هذا الشيء بالنسبة إلينا لا بالنسبة إليه، وإذا لم يقسم فليلفت النظر إلى أن هذا الشيء بالنسبة إلى الله لا شيء، وبعضهم قال: أنه إذا قال فلا أقسم لها معنى آخر، بمعنى أن هذا الشيء بنصاعته ووضوحه وثبوته لا يحتاج إلى قسم، الإنسان أحياناً يقول هذه القضية لا تحتاج إلى نقاش يعني واضحة كالشمس، ربنا عز وجل يقول هنا:

(وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ(2))

(سورة الزخرف)

المنهج الذي أنزله الله على أنبيائه كتاب مبين له صفة الديمومة:

هذا يعني أن ربنا عز وجل لما خلق الإنسان أعطاه منهجاً، والمنهج مكتوب، والكتابة للثبات والديمومة، وبحسب مفهومنا إذا الشيء وثِق بالكتابة فهو يعني أنه ثابت ودائم، وإذا الشيء كان شفهياً فهو متبدل وزائل، والإنسان ألف أن الشيء المكتوب أثبت، فربنا عز وجل يخاطبنا بحسب مفاهيمنا، فهذا المنهج الذي أنزله الله على أنبيائه كتاب مبين، يعني شيء واضح ثابت له صفة الديمومة والثبات.

وقال بعض العلماء الكتاب في الآية هو الكتاب السماوي، فكلمة الكتاب إذا أطلقت انصرفت إلى كل الكتب السماوية، وأما المبين: واضح البيان يعني معظم آيات القرآن الكريم بينة وواضحة، يعني محكمة لا لبس فيها، لا تحتاج إلى تفسير ولا إلى زمخشري ولا إلى قرطبي بل هي واضحة وضوح الشمس، لكن بعض الآيات المتعلقة بالذات الإلهية فهذه الآيات قد تحتاج إلى بيان، قال تعالى:

(فاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ(43))

(سورة النحل)

أما آيات الحلال والحرام، وآيات التكاليف، والآيات التي تبنى عليها أصول العقيدة فهذه آيات واضحة وضوح الشمس.

(وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ(2)إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ(3))

(سورة الزخرف)

اللغة العربية واسعة التعبير وتعبر عن أدق المعاني:

هذا القرآن الكريم بلسان عربي مبين، يعني ربنا سبحانه وتعالى شرفنا حينما جعل كلامه باللغة العربية، ويبدو أن اللغة العربية في أعلى مستويات اللغات الإنسانية، وقد درسنا في الجامعة أن هذه اللغة العربية من أرقى اللغات الإنسانية، ليس هذا قول العرب أنفسهم ولكنه قول الأجانب، قول علماء اللغة، وليس المجال الآن مجال الحديث عن خصائص اللغة العربية، فهذه اللغة تتمتع بصفات مذهلة من أولى هذه الصفات: التصريف، يعني خذ الفعل مثلاً، فمنه ؛ الفعل الماضي والمضارع والأمر، ومنه فعل ماض ثلاثي، وماض رباعي، وماض خماسي، وماض سداسي، وكل حرف يزاد على الفعل يقابله زيادة في المعنى، فكتب: لها مدلول، لكن (كاتَبَ) لها مدلول آخر، (كاتَبَ) فعل يفيد المشاركة يعني كتبت إليه وكتب إليّ، أما (كتب) فمن جهة واحدة، (تكاتب) تعني شيئاً آخر، (استكتب) مدلولها مدلول

آخر، وعندنا اسم فاعل، واسم مفعول، واسم زمان، واسم مكان، واسم تفضيل، واسم آلة، ومصدر مرة، ومصدر هيئة، كل هذه الصيغ سواء كانت فعلية أو اسمية جاءت من فعل (كتب).

بنية الكلمة تتبدل وتعطي عدة معان:

وهناك طرق كثيرة تتبدل فيها بنية الكلمة وتعطي معنى آخر، وأحياناً ضمة تغير معنى الكلمة، يعني يُثني غير يَثني، أثنى عليه مدحه، أثنى يُثني، لكن ثنى القضيب يثنيه، فالضمة غير الفتحة، فهناك شواهد كثيرة جداً، أحياناً تقول في اللغة العربية (نظر) إلى الشيء وأحياناً تقول (لمح)، (فلمح) تفيد أنك نظرت ثم أعرضت، لو أن باباً مفتوحاً ومن خلفه امرأة فالمؤمن لمحها بمعنى أنه بمجرد أن عرف أن هناك امرأة غض بصره عنها، هذا معنى لمح، لكن معنى لاح شيء أي ظهر واختفى، التبدل في لمح من الناظر، والتبدل في لاح من المنظور.

وهناك (حدَجَ):

((حدث القوم ما حدجوك بأبصارهم))

[ورد في الأثر]

ومعناها النظر مع المحبة، وهناك (شَخَصَ) وهو النظر مع الخوف.

(فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا (97))

(سورة الأنبياء)

وهناك (رنا) وهي النظر مع السرور، إنسان نظر إلى منظر طبيعي، أو شيء جميل، مثلاً سهل أخضر ووراءه جبل مسنن والجو لطيف، يقول رنوت إلى المنظر، (رنا) غير (حدج) غير (لاح) غير (لمح)، وهناك (حملق) يعني ظهر حملاق عينه الأحمر، وهناك (بحلق) اتسعت حدقة العين، وهناك (استشرف) تمطى مع النظر، وهناك (استشف) حرك يديه مع النظر، وهناك نظر شزراً مع الاحتقار، وهناك خمسون فعلاً للنظر في اللغة العربية، اللغة العربية كما يقول علماء اللغة واسعة التعبير، فيها سعة تمكن الكاتب أن يعبر عن أدق المعاني، فلما قال الله عز وجل:

(وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى(17)قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى(18))

(سورة طه)

لو أننا بدلنا كلمة (أهشّ) بكلمة (أضرب) لما أمكن، لأن (ضرب) غير (هشّ)، (لوحّ) غير (هشّ)، (هشّ) أي وضع العصا على كتف الدابة من دون أن يؤلمها، أهشّ بها على غنمي، معنى دقيق جداً، وليس لدينا مجال لبحث هذا الموضوع لأن هذا علم قائم بذاته اسمه فقه اللغة العربية، وموضوعه

الحديث عن خصائص اللغة العربية في التعبير، وهناك خصائص أخرى دقيقة جداً منها أن الفعل الثلاثي مثل (علم) له ستة تقاليب: علم، لمع، وهذه التقاليب لا بدّ من أن نلمح فيها معناً واحداً، قاسماً مشتركاً بين كل التقاليب، وهذا يترك للاختصاصيين في اللغة العربية.

ثبات اللغة العربية واتساعها:

هناك ظاهرة الإعراب في اللغة، وظاهرة الاشتقاق، والثبات في اللغة العربية في التعبير، هل تصدقون أن آداب اللغة الإنكليزية التي كتبها شكسبير وأمثاله في القرن السادس عشر الميلادي لا يمكن أن تُقرأ اليوم أبداً إلا مترجمةً من اللغة الإنكليزية إلى اللغة الإنكليزية معنى ذلك أن هذه الإنكليزية متبدلة، سريعة التبدل، بينما اللغة العربية ليست كذلك ؛ طلابنا في الصف العاشر يقرؤون شعر امرئ القيس الذي قيل قبل ألف وخمسمئة عام، في حين أن ما كتبه أدباء الإنكليزية في القرن السادس عشر لا يمكن أن يُقرأ اليوم إلا مترجماً، من اللغة الإنكليزية إلى اللغة الإنكليزية، لكن ما كتبه شعراؤنا في الجاهلية يقرؤه طلابنا في مدارسهم كما لو أنه كتب اليوم، وهذا البيان لامرئ القيس مثال واضح:

ألا أيـها الليل الطويل ألا انجلِ بصبح وما الإصباح منك بأمثـل

فيا لك مـن ليـل كأن نجـومه بكـل مغار الفـتل شُدّت بيذبـل

* * *

هذا شعر قيل قبل ألف وخمسمئة عام، فثبات العربية في التعبير واتساعها في التعبير، وظاهرة الإعراب، يعني حركة واحدة كلها خصائص متفوقة.

(إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ(28))

(سورة فاطر 28)

هذه الفتحة على كلمة (الله) تعني مفعولاً به مقدماً انتهى الأمر.

على كل أحياناً كلمة واحدة مثلاً: (حسَب) يعني عدّ، طيب (حسِب) بالكسرة ظنّ، و(حسُب) يقول لك أنا ابن فلان أي افتخر بحسبه، وأما (حسبُك) اكتف، و(قدَم) سبقه بقدمه، (قدِم) أصبح قديماً حركة واحدة اختلفت فغيرت المعنى، وكذلك بين (منصِب رفيع) و(منصَب) هناك اختلاف في المعنى، والاختلاف كبير بين الكلمتين، فاللغة العربية دقيقة جداً، والإنسان حينما يتبحر في اللغة يرى شيئاً لا يقدر بثمن.

إتقان قواعد اللغة والتعبير شرط أساسي ولازم لفهم النصوص القرآنية:

ربنا عز وجل شرفنا حيث جعل كلامه باللغة العربية، لكن ماذا يستنبط من قوله تعالى:

(إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا (3))

(سورة الزخرف)

يستنبط أن هذا القرآن لا يفهم إلا وفق قواعد اللغة، يعني إتقان قواعد اللغة وإتقان مدلولات الكلمات وإتقان أساليب العرب في التعبير وهذا شرطٌ أساسي ولا أقول: (شرط كافٍ) بل هو شرط لازم وأساسي لفهم النصوص القرآنية.

(إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ(3))

(سورة الزخرف)

فهم كلام الله يتم وفق قواعد اللسان العربي المبين ثم الحكم الشرعي:

شيء آخر، إذاً لا يمكن أن نفهم كلام الله عز وجل الذي أنزله بلسان عربي مبين إلا وفق قواعد هذا اللسان العربي المبين أولاً، ثم الحكم الشرعي ثانياً، أي لا يمكن أن نأتي نحن بفهم جديد لكتاب الله، وقد قرأ كتاب الله خمسة عشر جيلاً قبله، وفهموه على نحو واضح وصريح، يعني أنّ كل نظرية تبني تفسير القرآن على ما لم يُعهد عند الصحابة والتابعين وتابع التابعين فهي فهم خاطئ، فحين سمع هذا القرآن الكريم أجدادنا في العصور الأولى (وهم خير من يفهم اللغة) فإنهم فهموه على نحو معين، أما أن نأتي نحن الآن ونقول قراءة معاصرة ونفهم كلام الله على نحو مغاير لما فهمه السلف من قبل فهذا ابتداع شيطاني لا علاقة له بأصل اللغة.

(إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ(3))

(سورة الزخرف)

يعني الأمور مُيسّرة، والقرآن واضح ذو أدلة، وتعليلات وهناك آيات كونية، وآيات تكوينية، وآيات تشريعية، وآيات تاريخية، في آيات علمية.

(وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ(4))

(سورة الزخرف)

القرآن يصدر عن مبادئ أساسية اعتمدها الله سبحانه:

أيها الأخوة. (أمّ الكتاب) بعضهم قال: يعني اللوح المحفوظ وقد تكون (أم الكتاب) هذه المبادئ الأساسية التي صدر عنها هذا الكتاب فمثلاً هناك عشرات المراسيم التشريعية، لكن كل هذه المراسيم

التشريعية إنما تنطلق من مادة واحدة في الدستور، هي أن التعليم حق لكل مواطن، مثلاً من حق المواطن الحرية، ففي الدستور مبادئ أساسية وهذه المبادئ تترجم إلى عشرات بل مئات القوانين التشريعية.

فهذا القرآن على ما فيه من سور وآيات هو في النهاية يصدر عن مبادئ أساسية اعتمدها الله سبحانه وتعالى لتكون علة الخلق وغاية الإيجاد.

(وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ(4))

(سورة الزخرف)

يعني: القرآن عليٌّ لا يعلو عليه شيء، أي إذا وفِّق الإنسان في حياته الدنيا وفِّق إلى قراءة القرآن، إلى تلاوته حق التلاوة، وإلى فهمه حق الفهم، وإلى العمل به فما فاته شيء في الحياة الدنيا، فاعلم أن أعلى درجات العلم أن تفهم كلام الله، لأن فضل كلام الله على كلام خلقه كفضل الله على خلقه، كم هي المسافة بين الخالق والمخلوق ؟ هي نفسها بين كلام الخلق وكلام الخالق.

فالذي يمضي وقته في قراءة قصة لكاتب قصصي، أو قراءة مسرحية، أو قراءة مقالة، ليس هناك مانع من أن تقرأ، لكن أن تنصرف إلى قراءة ما كتبه البشر وتعرض عن قراءة كلام خالق البشر فهذه خسارة كبيرة جداً، أن تنصرف إلى قراءة ما كتبه البشر وهم ضعاف يتناقضون أحياناً، يجهلون أحياناً، سطحيون أحياناً، ترى التناقض في كلامهم أحياناً، ترى اختلافاً في كلامهم، وقد ترى كتاباً غير وافٍ أو غير متوازن، فصل فيه عمق شديد وفصل هزيل، وقد يكون الكتاب سطحياً وليس فيه أدلة، ومن دون تطبيقات، وقد يكون مليئاً بالمتناقضات، هذا شأن كلام البشر، لكن لكلام خالق البشر شأن آخر أي لا ريب فيه البتة.

(وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا(82))

(سورة النساء)

القرآن عليٌّ لا يعلو عليه شيء وحكيم يضع الأمور في نصابها:

لقد مضى على نزول هذا الكتاب ألف وأربعمئة عام ونيف، فهل في العلوم الكونية كلها حقيقة علمية واحدة تتعارض مع كلام الله ؟ مستحيل، هذا دليل على أنه كلام الله، وإليكم هذه الآية الفذة، ربنا قال:

(وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ(8))

(سورة النحل)

لو أن واحداً ركب طائرة جامبو أو كونكورد، أو ركب باخرة حمولتها مليون طن، أو ركب الحوامة فوق البحر، أو ركب قطاراً سرعته 360كم/سا، فكل هذه الوسائل تندرج تحت قوله تعالى:

(وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ(8))

(سورة النحل)

لأن الله عز وجل يعلم ما سيكون، لو كان هذا الكلام من عند رسول الله ما كان يعرف أن هناك وسائل أخرى سوف تكون، كذلك حينما تقرأ القرآن تمتلئ ثقة أنه كلام خالق الكون، ولديك إحساس فطري يدفعك إليه.

(إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى(12))

(سورة يس)

من يجرؤ على أن يقول هذا الكلام من بني البشر جميعاً ؟ هذا من اختصاص الخالق، إذاً عليٌّ لا يعلو عليه شيء، حكيم يعني يضع الأمور في نصابها، الآية الفذّة أيها الأخوة:

(أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ(5))

(سورة الزخرف)

دليل قربك من الله عز وجل هو عقابه كلما أذنبت والتدقيق في الحساب معك:

والله إن هذا الكلام دقيق المعنى جداً، ما من مصيبة أشد على الإنسان من أن يكون خارج العناية الإلهية، يعني ضرب عنه الذكر صفحاً، كأن يقول لك أنا حذفت اسمك من جدولي، بالتعبير الآخر وضعت إشارة إكس على اسمك انتهى، فلما يكون الإنسان منصرفاً إلى الدنيا مصرّاً على الشهوات فالأمر مخيف جداً، وهو أن يخرجه الله عز وجل من مجال العناية المشددة.

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ(44))

(سورة الأنعام)

أخواننا الكرام. المؤمن الذي يعاقبه الله كلما أذنب، ويدقق معه الحساب كثيراً فهذا مؤمن قريب من الله عز وجل، إذا أحبّ الله عبده عجّل له بالعقوبة، إذا أحبّ الله عبده عاتبه في منامه، إذا أحبّ الله عبده ضيّق عليه أحياناً، أوحى ربك إلى الدنيا أن تضيقي وتشددي وتكدري وتمرمري على أوليائي حتى يحبوا لقائي، فكم يثلج الصدر أن تكون في عناية الله، بل أن تكون في عنايته المشددة، فالإنسان إذا أخطأ وعاقبه الله فلا يتبرم بل ليفرح لأن هذا يعني أنه مقبول ومرغوب ويُنتظر منه أن يكون مؤمناً كاملاً، والدليل هذه المعالجة وهذه التربية وهذا الاهتمام، والخطورة أن ينساق الإنسان وراء شهواته دون أن يعاقبه الله عز وجل، بل يترك حبله على الغارب، اقرأ قوله تعالى:

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ(44))

(سورة الأنعام)

أخطر شيء أن يطرد الإنسان من العناية الإلهية:

الخطورة كل الخطورة أن يطرد الإنسان من العناية الإلهية، وأن يطرد من العناية المشددة، وأن يفعل كل المعاصي دون أن يصيبه الله بمصيبة إذاً فقد وقع في فخ الاستدراج، وكمثال على العناية والاهتمام: أبٌ له ثلاثة أولاد ؛ ولد متفوق في الدراسة، وولدٌ ذو عاهة في دماغه، وولد ذكي ولكنه مقصر في الدراسة، تجد الأب ترك الأول والثاني، الأول تركه لأنه يسير وفق الهدف، وهو متفوق في قدراته العلمية ومتفوق في تحصيله الدراسي، والثاني تركه الأب دون أن يحاسبه لعجزه، أما الثالث الذي يتمتع بقدرات عالية لكنه مقصر، فيهتم به أبوه غاية الاهتمام لأنه يرجو منه خيراً إذا لاحقه.

فالله عز وجل إذا كان الإنسان مصرّاً على الدنيا، وليس فيه خير إطلاقاً يعطيه الصحة والجاه والمال والقوة، يعني بالتعبير العامي خذها وانمحق.

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً (44))

(سورة الأنعام)

من غفل و انحرف عن منهج الله عالجه الله بعقاب و هذا دليل خير:

أما الإنسان الذي يحاسب حساباً عسيراً، ويدقق معه ويعاتبه، مرّة بمنام مخيف، ومرة بمشكلة تؤرقه، كلما غفل وكلما انحرف يعالجه العقاب فهذا دليل خير وأنك في العناية المشددة، وأنك في مجال رحمة الله، هذه رحمة الله.

(فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ(147))

(سورة الأنعام)

بَأْسُ الله من رحمته، هنا:

(أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ(5))

(سورة الزخرف)

يعني رحمة الله تقتضي ألا يضرب الذكر عنّا صفحاً فإذا أسرفنا يعالجنا ولا يهملنا.

لهذه الآية عدة معانٍ:

1 ـ المعنى الأول استنكاري:

أن هذا الاستفهام في الآية استفهام استنكاري، يعني رغم أن بعض الناس يسرفون في المعاصي فالله سبحانه وتعالى يؤدبهم ويقربهم، يسوق لهم من الشدائد ما يحملهم على طاعة الله.

2 ـ المعنى الثاني تهديدي:

يعني إذا أسرفتم في المعاصي نضرب عنكم الذكر صفحاً.

(يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنْ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ(38)إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(39))

(سورة التوب)

الله عز وجل يسوق الشدائد للعبد، ويسوق له ما يؤلمه، ولكنه رغم الإيلام يبقى مصراً على المعصية، فإن أصرّ على ما هو فيه عندئذ يفتح الله له باب الدنيا إلى أن يأتيه أجله فيقصمه قصماً.

عقاب الله للمؤمن كلما أغضبه هو رحمة بالمؤمن ليكون في مرتبة عالية:

أخواننا الكرام. الأخ المؤمن الذي كلما أغضب الله أدبه فهذه رحمة من الله، وهذه عناية مشددة، وهذا لطف، وهذا يعني أنك مطلوب، وأنك مرغوب فيك، وأن فيك خيراً، وأنك مؤهل لتكون في مرتبة عالية، اسمعوا الآية الكريمة:

(إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنْ الْمُفْسِدِينَ(4)وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمْ الْوَارِثِينَ(5))

(سورة القصص)

هذه الآية تكفي المستضعفين تثبيتاً، وتكفيهم أملاً بفرج الله فما دام الله عز وجل يريد بنا الخير وأن يرقى بنا ليعرفنا الحقيقة، وأن يحملنا على طاعته فمرحباً بهذا الذي يسوقه لنا، لكن الأكمل أن نسير إلى الله من دون سلاسل، عجب ربك من قوم يساقون إلى الجنة بالسلاسل، الأكمل أن نذهب إليه طائعين، راغبين، مخبتين.

العاقل من أتى ربه بمبادرة منه مختاراً لا مقهوراً:

إذا كنتم ترغبون في أن نلخص دروس عشرين سنة فاسمعوا هذا التلخيص: إما أن تأتيه مسرعاً، أو أن الله سبحانه وتعالى يأتي بك راكضاً، والأكمل أن تأتي من تلقاء نفسك، أي بمبادرة منك ومختاراً لا مقهوراً.

فهذه الآية لها معنيان، يعني ولو كنتم قوماً مسرفين فرحمتنا تقتضي ألا نخرجكم من عنايتنا المشددة، وهذا استفهام إنكاري:

(أَفَنَضْرِبُ عَنكُمْ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ(5))

(سورة الزخرف)

والمعنى الثاني إذا أسرفتم في المعاصي لم نعبأ بكم وأهملناكم وشأنكم تائهين نضرب عنكم الذكر وهذا تهديد.

(وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ(6))

(سورة الزخرف)

و(كم) هذه التكثيرية، يعني أرسلنا أنبياء كثيرين، فأحياناً تقول: كم كتابٍ عندي !. وقد تقول كم كتاباً عندك ؟ فهذه استفهامية، لكن كم كتابٍ عندي ! هذه اسمها خبرية أو تكثيرية.

خيار الإنسان مع الإيمان خيار وقت وليس خيار قبول ورفض:

(وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ(6)وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ(7)فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَمَضَى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ(8))

(سورة الزخرف)

معنى ذلك أن الإنسان مهما كذب، وأعرض، واستهزأ، فلا بدّ من أن يعترف بالحق، لكن بعد فوات الأوان، هذه الحقيقة أقولها كثيراً، وهي خطيرة جداً، خيارك مع الإيمان ليس خيار قبول أو رفض، الكأس أمامي فهل أشرب أو لا أشرب ؟ هذا اسمه خيار قبول أو رفض، لكن حيال فكرة الإيمان، فخياري مع الوقت، وليس خيار قبول أو رفض، الوقت يمشي شئت أم أبيت، بعد حين يؤذن العشاء فأنا خياري مع الوقت خيار انتظار، أما خياري مع هذا الكأس خيار شرب أو عدم شرب، خيار الإنسان مع الإيمان خيار وقت فقط، يعني إما أن يؤمن في الوقت المناسب فيستفيد من إيمانه أشد الاستفادة ويسعد في الدنيا والآخرة، وإما ألا يؤمن في حياته، فيؤمن عند الموت ؛ لكن هذا الإيمان لا قيمة له ولا ينفعه أبداً، إذ جاء بعد فوات الأوان.

إن لم نؤمن عاجلاً فلا بد أن نؤمن متأخرين فنخسر الدنيا والآخرة:

هذه الفكرة أخطر فكرة يمكن أن تحرك الإنسان نحو الله عز وجل، فما من إنسان أشد كفراً من فرعون، يكفيه كفراً أنه قال أنا ربكم الأعلى، ومع ذلك حينما أدركه الغرق ماذا قال ؟

(قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنْ الْمُسْلِمِينَ(90))

(سورة يونس)

وهناك آيات كثيرة تحمل ذات المعنى، وحّد الرجل، لكن متى ؟ وهو يغرق، إذاً هل كان خيار فرعون مع الإيمان خيارَ قبولٍ أو رفض ؟ لا بل كان خيار وقت، لأنه ما آمن حينما دعي إلى الإيمان بل آمن حينما أدركه الغرق، ونحن إن لم نؤمن عاجلاً، فلا بدّ أن نؤمن متأخرين، لكن إن آمنا الآن نكسب الدنيا والآخرة معاً، وإن أخرنا الإيمان لحين الأجل نخسر الدنيا والآخرة معاً، إما أن تربح الدنيا والآخرة معاً وإما أن تخسرهما معاً.

(وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون(7)فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَمَضَى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ(8))

(سورة الزخرف)

الحكمة من بقاء آثار الأقوام الطاغية:

ربنا عز وجل شاءت حكمته في أن يترك هؤلاء الأقوام العتاة الطغاة آثاراً، تشهد لهم بقوتهم، يعني هل عندنا مهندس يستطيع أن يفتح نافذة في بناء تدخلها الشمس يوماً واحداً في العام كله، وهو يوم ميلاد إنسان ما، بناء نافذةٍ ضيقة بزوايا معينة بحيث تدخلها الشمس في العام كله مرة واحدة هذا شيء مذهل، وهذه النافذة ترمز إلى تاريخ محدد، وأصبح وجودها تاريخاً..

إذا ذهب زائر إلى الأهرامات ونظر إليها، فإنه يشاهد كلّ حجر تقريباً طوله خمسة أمتار وأحياناً ثمانية أمتار، عرضه أربعة أمتار، ارتفاعه متران، وقد حُمل من صعيد مصر، فعلى أي مركبات نقل والمسافة من النيل إلى منطقة الهرم كبيرة ؟ حوالي اثني عشر كيلو متراً فكيف نقل هذا الحجر، وعلام نقل ؟ ثم كيف وضع في قمة الهرم ؟ فالأهرام تعد من عجائب الدنيا السبع.

وأما الأنباط، فقد نحتوا الجبال بيوتاً وعمله أيضاً من عجائب الدنيا السبع، هؤلاء أقوام، ولما دخلنا إلى المتحف الفرعوني وجدوا الخبز الذي كانوا يأكلونه قبل سبعة آلاف عام رأيناه بأم أعيننا، وكذلك اللحم الذي كانوا يأكلونه قبل سبعة آلاف عام وجدناه محنطاً، وكذلك رأينا مركباتٍ، وألبسةً، ومذهبات، مما يذهل الإنسان، فهؤلاء أقوام لهم حضارات شاهدة على عظمتهم، ولكنهم بادوا.

وكذلك قلعة بعلبك التي فيها أعمدة ستة، كيف نحتت ؟ وكيف قطعت ؟ إنها شواهد تاريخية تكاد تنطق.

قراءة التاريخ تؤكد أن هؤلاء الأقوام كانوا أكثر قوة وبطشاً ومع ذلك أهلكهم الله بكفرهم:

(وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ(6)وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون(7)فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَمَضَى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ(8))

(سورة الزخرف)

يعني الإنسان، فقراءة التاريخ أو مشاهدة الآثار تقف بك أمام حقائق ناصعة تؤكد أن هؤلاء الأقوام كانوا أشدّ منا قوة وأكثر بطشاً ومع ذلك أهلكهم الله بكفرهم وعنادهم قال تعالى:

(فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ (19))

(سورة سبأ)

دخلنا قاعة في آثار الأنباط لا تقل عن حجم هذا المسجد منحوتة بالجبل الصخري، بأبعاد هندسية دقيقة جداً مكعب كامل، ليس بناء ولكنه نحت في الجبل، الأعمدة منحوتة من الجبل، التيجان منحوتة من الجبل، البيوت، الحمامات كلها منحوتة من الجبل، وبيوت منحوتة من الجبل ولها نوافذ تهوية وغرف عديدة ليس هناك بناء إطلاقاً، وإنما منحوتات!!.

(وَتَنْحِتُونَ مِنْ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ(149))

(سورة الشعراء)

الأهرامات دليل، عاد وثمود دليل آخر.

(فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَمَضَى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ(8))

(سورة الزخرف)

الاعتراف بوجود الله لا يكفي بل لا بد من الالتزام بمنهجه سبحانه وتعالى:

المشكلة أن هؤلاء الذين بطش الله بهم وأهلكهم ودمرهم لو سألتهم لأجابوك أنهم يقرّون بوجود الله، فاسمع قوله تعالى فيهم:

(وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ(9))

(سورة الزخرف)

فهل الاعتراف بوجود الله يكفي ؟ لا.. لا يكفي، الاعتراف بوجود الله لا يكفي ولا ينجي، لا بدّ من أن تلتزم منهج الله عز وجل، فإيمانهم هذا اسمه إيمان إبليسي، إبليس قال لربه:

(قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ(82))

(سورة ص)

الاستقامة على أمر الله والتزام الأمر والنهي هو الذي ينجي من عذاب الله:

إبليس اعترف بوجود الله واعترف بعزته واعترف بربوبيته قال: ربي، وقال: فبعزتك، إذاً الاعتراف بوجود الله لا ينجي من هلاك الدنيا وعذاب الآخرة، الذي ينجي منهما أن تستقيم على أمر الله، وأن تلتزم الأمر والنهي، ليس الولي الذي يطير في الهواء ولا الذي يمشي على وجه الماء ولكن الولي كل الولي الذي تجده وقافاً عند الأمر والنهي.

(وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ(9)الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ(10))

(سورة الزخرف)

هذا موضوع للتفكر فتفكروا فيه، كيف أن الله عز وجل جعل هذه الأرض ممهدة لحياتنا ؟ وجعلها منبسطة، فلو كانت الأرض كجدران مائلة من الصخور كيف نتحرك عليها ؟ وكيف نبني عليها البيوت ؟ لكنه سبحانه جعلها مسطحة، وجعل لنا التربة هشة، ولو أنها كانت صخرية فكيف نأكل ونشرب ؟ وجعل الأشياء مرتبطة بها عن طريق الجاذبية، هذا الكأس له وزن، ما معنى الوزن ؟ يعني لو تركناه لانجذب إلى مركز الأرض، يعني له قوة جذب، فكل شيء على سطح الأرض ينجذب إلى مركزها، لولا هذه القوة لما استقر شيء عليها وهذا يبدو واضحاً في مراكب الفضاء، فإذا تجاوزت المركبة الفضائية مركز الجاذبية الأرضي ولم تدخل في جاذبية القمر تصبح الحياة فيها صعبة جداً، الأشياء تطير لانعدام الوزن، فحالة انعدام الوزن صعبة جداً، الحاجات ترى عند السقف إذ ليس هناك وزن، وهذا الوزن له حدّ لو كان الكأس وزنه مئة كيلو فليس باستطاعتي أن أملأها، يعني أن هناك وزناً معقولاً يتناسب مع قدرة الإنسان، كما يتناسب مع قوة الجذب.

للأرض قوانين تحكمها لتناسب حياة الإنسان:

إذاً الأرض ممهدة، فهي مسطحة أولاً، ومؤلفة من تربة ثانياً، وثالثاً يلُفّها هواء نتنفسه، وفيها ماء نشربه، والماء لا لون له ولا طعم ولا رائحة، عذب فرات، وعلى سطحها بحيرات، وبحار، وجبال وكلها ذات آثار كبيرة في الطقس والمناخ، إضافة إلى النباتات والحيوانات، وقبتها سماء صافية، هذا معنى قوله تعالى:

(الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا (10))

(سورة الزخرف)

ممهدة، مهيأة، وفيها المعادن من الرخيص المبذول كالحديد مثلاً، ومنها الثمين النادر كالذهب والفضة، وفيها معادن لينة كالرصاص سريعة الانصهار، ومعادن بطيئة الانصهار لها استعمال آخر، وفيها أشباه معادن، وفلزات، هذا كله يندرج تحت قوله تعالى:

(الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا (10))

(سورة الزخرف)

وفيها وسائل لكسب الرزق، والممرات والوديان، ولها قوانين تحكمها، مثلاً قانون أرخميدس، فإذا وضعنا جسماً في الماء يطفو على سطح الماء بقدر وزن الماء المزاح، قوة دفع نحو الأعلى، إذاً لولا أن الماء يمتاز بهذه الخاصة لما أمكننا السفر عبر البحار والمحيطات، وعلى سطحها نزرع ونأكل، ونصيد السمك في البحار، ونبني البيوت من موادها الأولية للبناء، ومن موادها نكتسي ونلبس الملابس بأنواعه. فهذه سبل للكساء، وتلك سبل للغذاء، وسبل للبناء، وسبل لكسب الرزق، وسبل زراعية، وسبل صناعية، وسبل تجارية، وبحار، وبلاد، وأنهار، وجبال، هذا معنى قوله تعالى:

(وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا (10))

(سورة الزخرف)

يعني: طرقاً، وهي إما طرق تعبرونها أو طرق لكسب العيش.

(لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ(10)وَالَّذِي نَزَّلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ(11))

(سورة الزخرف)

آيات ودلائل على وحدانية الله سبحانه:

تجد الأرض في الشتاء قاحلة، الأشجار يابسة، المنظر مكفهر، تهطل الأمطار الوفيرة، فتهتز الأرض، وتنبت النبات الأخضر، والأشجار تزهر وتورق وتثمر، كانت حطباً أصبحت أشجاراً مثمرة ذات أنواع منها التفاح والكمثرى الخ.. وفيها الفواكه التي تطيب بها النفوس، إذاً:

(وَالَّذِي نَزَّلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ(11))

(سورة الزخرف)

الله من خلق هذا كله، الآيات صارخة لكن الإنسان الغافل لا يراها، والله هناك آيات في النبات تكفي لتجعل الإنسان يسجد لله عز وجل عمره كله، وآيات خلق الإنسان كافية وآياتٌ في طعامه وشرابه، وفي الحيوانات آيات، في النبات آيات، وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد.

(وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ(12))

(سورة الزخرف)

الآيات الكونية في القرآن هي موضوعات للتفكر:

أيها الأخوة الكرام. أعود فأذكركم بأن القرآن الكريم كثيراً ما يذكر الآيات الكونية، وهذه الآيات يمكن أن تكون موضوعات للتفكر، فعلينا أن نفصل فيها ما أمكن. قال سبحانه:

(وَالَّذِي نَزَّلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ(11))

(سورة الزخرف)

ظاهرة الماء هذه من أضخم الموضوعات للتفكر، وكذلك ظاهرة الزوجية.

(وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا (12))

(سورة الزخرف)

فنظام الزوجية في الخلق نظام دقيق وبديع.

(وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ(12))

(سورة الزخرف)

كيف أن الماء يحمل الجواري المنشآت كالأعلام فهذا موضوع فسيح الجنبات أيضاً، وكيف أن هذه الحيوانات التي سخرها الله لنا نركبها وننتفع بها ونأكل من لحمها، فهذا كذلك موضوع واسع.

(لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ(13))

(سورة الزخرف)

ولنا عودة إلى هذه الآيات في الدرس القادم إن شاء الله تعالى.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الزخرف 043 - الدرس (2-9): تفسير الآيتان 9-14، تسخير كل شيء للأنسان بقدرة الله تعالى

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 10-06-1994

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الثاني من سورة الزخرف.

العلم ليس هدفاً وإنما وسيلة للعمل:

مع الآية التاسعة وهي قوله تعالى:

(وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنّ خَلَقَهُنّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ(9))

(سورة الزخرف)

أيها الأخوة... العلم ليس هدفاً في ذاته إنما هو وسيلة، فتعلموا ما شئتم فو الله لن تؤجروا حتى تعملوا بما علمتم، إذا نمت ثقافة الإنسان ولم ينمُ مع ثقافته عمله لم يزدد من الله إلا بعداً، من ازداد علماً ولم يزدد هدىً أي لم يستفد من علمه لم يزدد من الله إلا بعداً، فالعلم في الإسلام ليس هدفاً بذاته إنما هو وسيلة للعمل، والعمل ثمن الجنة.

الأصل أن الإنسان خلق لجنّة عرضها السماوات والأرض، هذه الجنة يُؤَهل إليها بالعمل الصالح، والعمل الصالح سببه العلم الصحيح، فالعلم أولاً هو الباب الرئيسي، ولكن العلم وحده إذا اكتفينا به فلا قيمة له والدليل:

(وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنّ خَلَقَهُنّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ(9))

(سورة الزخرف)

الإنسان يرتقي عند الله بعمله الصالح وانضباطه وفق منهج الله:

ومع ذلك لم يستقيموا، ولم يتوبوا، ولم يُقبلوا، لذلك قال بعض العلماء: هذا الإيمان إيمانٌ إبليسيٌ (منسوب إلى إبليس) لأنه قال: ربي، وقال:

(قَالَ فَبِعِزّتِكَ لَأُغْوِيَنّهُمْ أَجْمَعِينَ (82))

(سورة ص)

إذاً الإنسان لا يرتقي عند الله بحجم معلوماته، وحجم ثقافته الإسلامية، بل يرتقي عند الله عز وجل بحجم عمله الصالح وانضباطه وفق منهج الله، هذا أول معنى يستفاد من تلك الآية.

وعالم بعلمه لم يعملن   معذب من قبل عباد الوثن

***

يعني لو أن إنساناً على وشك الموت عطشاً، وعلم أن في هذه الجهة ماء عذب فرات ولم يتحرك إليه ومات عطشاً فذنبه أشد ممن لم يعرف ومات عطشاً، لذلك قال الله عز وجل:

(إِنّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النّارِ(145))

(سورة النساء 145)

الذين علموا ولم يعملوا هم المغضوب عليهم، الذي لم يعلم ولم يعمل هم الضالون، قال تعالى:

(اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ(6)صِرَاطَ الّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضّالِّينَ(7))

(سورة الفاتحة)

المغضوب عليهم علموا ولم يعملوا فهلكوا، الضالون لم يعلموا ولم يعملوا فهلكوا، النتيجة واحدة، بل إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار.

لا يُقبل الإنسان في الآخرة إلا بحدّ أدنى من معرفة الله وطاعته:

لذلك قال تعالى:

(وَالْعَمَلُ الصّالِحُ يَرْفَعُهُ(10))

(سورة فاطر)

وقال تعالى:

(فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا(110))

(سورة الكهف)

وبهذا جاءت الآية الكريمة واضحة الدلالة:

(وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا(19))

(سورة الإسراء 19)

لا يكفي أنك تريد الآخرة، ولكن سعى لها فلم يقل سبحانه: وسعى له، قال وسعى لها سعيها، فلها سعي خاص، لها شروط خاصة فلا يقبل الإنسان في الآخرة إلا بحدّ أدنى من معرفة الله وطاعته، هؤلاء قالوا:

(وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنّ خَلَقَهُنّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ(9))

(سورة الزخرف)

الانتماء الشكلي للدين لا يقدم ولا يؤخر:

وأنت لو تجولت في أرجاء العالم الإسلامي، فهل تجد فيه من أدناه إلى أقصاه من ينكر وجود الله عز وجل ؟ لا أبداً، وهناك من يؤدي بعض العبادات، وهناك من يرتدي مثل أزياء المسلمين، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام في الحديث الصحيح:

((وَلَنْ يُغْلَبَ اثْنَا عَشَرَ أَلْفًا مِنْ قِلَّةٍ))

[أبو داود عن ابن عباس]

ونحن اليوم ألف مليون ومئتا مليون مسلم وليست كلمتنا هي العليا، معنى ذلك الانتماء الشكلي للدين لا يقدم ولا يؤخر، حينما قال الله عز وجل:

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمْ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي(55))

(سورة النور 55)

حجمك عند الله بحجم عملك الصالح الذي يحتاج إلى نية خالصة وهي ملخص التوحيد:

إذاً مختصر الكلام، وملخص الملخص، والكلام المجدي حجمك عند الله لا بحجم معرفتك الدينية، وثقافتك، واطلاعاتك، ومعلوماتك، ومدى ما تعرف من كتب، ومدى ما قرأت، بل حجمك عند الله بحجم عملك الصالح، والعمل الصالح يحتاج إلى نيّة خالصة، والنية الخالصة ملخص التوحيد، تسعى في طريق التوحيد فتخلص لله رب العالمين وتعمل الأعمال الصالحة فترقى عند الله، أما كثقافة إسلامية فمتوافرة والحمد لله، وهي كثيرة جداً، لكن هذه الثقافة وتلك العواطف لا تجدي في بناء رقعة الإسلام وعزة المسلمين.

يا إمام (والكلام للإمام الجنيد) من ولي الله ؟ أهو الذي يطير في الهواء ؟ قال: لا، أهو الذي يمشي على وجه الماء ؟ قال: لا، قالوا: مَن إذاً ؟ قال: الولي كل الولي من تجده وقافاً عند الحلال والحرام، أن يجدك حيث أمرك وأن يفقدك حيث نهاك.

يعني بكل بساطة اقرأ قول الله تعالى:

(أَلَا إِنّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ(62)الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ(63))

(سورة يونس)

بكل بساطة:

(إِنّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ(13))

(سورة الحجرات)

الإخلاص والعمل الصالح هما المقياس الحقيقي عند الله عز وجل:

تعليق قريب من موضوع الآية، النبي عليه الصلاة والسلام ألم يكن أعظم الخطباء قاطبة ؟ بلى، ألم يكن عالماً ؟ بلى هو أعلم العلماء، أفصح الفصحاء، أبلغ البلغاء، أعظم الخطباء، كان قائداً محنكاً، سياسياً ماهراً، كل الصفات كانت متوافرةً فيه، لما أراد الله عز جل أن يثني عليه بماذا أثنى ؟ بأخلاقه، قال:

(وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ)

(سورة القلم)

فالمهارات التي يكتسبها الإنسان بحكم عقله، وذكائه، وقوة إدراكه هذه لا ترفعه عند الله، ما الذي يرفعه ؟ إخلاصه وعمله الصالح، هذا المقياس الحقيقي عند الله عز وجل، فإذا أردنا أن نرتقي عند الله عز جل وقد أرشدنا النبي عليه الصلاة و السلام للطريق، فقال:

((ابتغوا الرفعة عند الله))

[أخرجه ابن عدي في الكامل عن ابن عمر]

إذا أردنا أن نرتقي عند الله هذا هو المقياس، فالكلام كثير، والكلام لا يقدم ولا يؤخر، وكلامٌ لا ينتهي، دعوةٌ باطلة خاضوا بحار الهوى دعَوْا وما ابتلوا:

كل يدعي وصلاً بليلى وليلى لا تقر لهم بذاكا

***

حجمك عند الله بحجم عملك الصالح الخالص لوجه الله، هذا كلام مختصر مفيد والدليل:

(وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنّ خَلَقَهُنّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ(9))

(سورة الزخرف)

الإخلاص محصلة التوحيد:

ومع ذلك لم يستقيموا، ومع ذلك لم يتوبوا، ومع ذلك لم يقبلوا، فهذا الكلام لنا جميعاً، حجمك عند الله لا بحجم معلوماتك بل بحجم أعمالك الخالصة، والإخلاص محصلة التوحيد، والتوحيد معرفة الله موجوداً وواحداً وكاملاً، تعرفه من خلقه ومن كلامه ومن أفعاله.

ثم إن ربنا عز وجل يعرفنا بذاته قال:

(لَيَقُولُنّ خَلَقَهُنّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ(9))

(سورة الزخرف)

مَن هو العزيز العليم ؟ الآن الكلام اختلف:

(الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ (10))

(سورة الزخرف)

إذاً هذا تعريف الله لذاته، لو كانت الآية (الذي جعل لنا) لكان هذا الكلام متابعة لكلام المشركين ؛ بل هو كلام الله سبحانه:

(الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا (10))

(سورة الزخرف)

الأرض (مهد) لها عدة معانٍ:

والآن دقق النظر أيها الأخ في كلمة (مهد) المهد لمن ؟ للطفل الصغير، ومن الطفل الصغير بالنسبة لأبويه ؟ ما من شيء أغلى على الأب والأم من الطفل الصغير، لذلك المهد يهيأ ليحقق له كل وسائل راحته، فراش وثير، قماش ناعم، الغرفة دافئة، يعني يقدم المهد للطفل الصغير كل وسائل الراحة، فربنا عز وجل شبه الأرض التي نحن عليها بالمهد، فما وجه الشبه ؟ هذه الأرض سطحها مهد، إن الإنسان قد يركب طائرة يطير بها فوق مناطق وعرة لا يمكن أن يعيش عليها الإنسان، جبال كرؤوس المسننات، انحدارات قوية جداً، هذه المنطقة لا يمكن أن يعاش عليها، فلو أن الأرض كلها بهذا الشكل يستحيل أن نعيش عليها.

1 - المعنى الأول أنها مسطحة:

فأولاً معنى (مهد) أن الله سبحانه وتعالى جعل مساحات شاسعة منبسطة من أجل أن يسهل علينا أن نبني وأن نتحرك وأن نكسب رزقنا فالأرض مسطحة من معاني:

(الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا (10))

(سورة الزخرف)

2 - المعنى الثاني أنها ذات تربة زراعية قابلة للإنبات:

وأما التربة التي إذا زرعتها تنبت لك النبات الذي هو قوام حياتك فهذا من معاني أن الأرض (مهد) للإنسان، لو أن الأرض من صخر ماذا نـأكل ؟ كيف نعيش ؟ كيف نبني البيوت ؟ لكن الأرض جعلها الله تربة قابلة للإنبات، وقد مرت الأرض بحقب كثيرة حتى أصبحت بهذه الحالة التي نحن عليها.

3 ـ المعنى الثالث أن الأرض مستقرة:

شيء آخر، هذا السكون التام، فلو أن الأرض تهتز دائماً لما استقر عليها بناء، والأبنية تتصدع، لكن الأرض جعلها الله (مهداً) بمعنى أنها منبسطة، وأن قوامها تربة تصلح للإنبات، وأنها مستقرة مع أنها تدور حول الشمس بسرعة تقدر بثلاثين كيلو متراً في الثانية الواحدة، طبعاً الطائرة تهتز، والقطار يهتز، والسيارة تهتز ومع الاهتزاز فالأشياء لا تستقر عليها فهي كانت قلقة بحركتها، لكن الأرض تبني عليها البناء فيبقى إلى ما شاء الله، ونعمة الاستقرار نعمة من خلق الله عز وجل، وإذا لم نعرف قيمة هذه النعمة فقد رأينا ماذا تفعل الزلازل في بعض البلاد، بناء شامخ بأقل من ثلاثين ثانية يصبح أنقاضاً بعضها فوق بعض.

4 ـ المعنى الرابع أن الأشياء التي على الأرض مستقرة أيضاً بفعل قوة جذب الأرض لها:

وهذا شيء آخر ؛ الأرض مستقرة، وقد قال الله عز وجل:

(أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا(61))

(سورة النمل)

حركة مع السكون، سكون حركة، حركة ساكنة، هذه أرقى أنواع الحركة، تتحرك بثلاثين كيلو متراً في الثانية ومع ذلك الأرض مستقرة استقراراً تاماً.

شيء آخر، هذا القلم إذا وضعته على الطاولة يبقى في مكانه ولا يطير، ما الذي جعله في المكان لا يتزحزح عنه ؟ قوة جذب الأرض له، إذاً من نعم الله الكبرى أن الأرض تجذب كل شيء على سطحها إلى مركزها، فهذه نعمة أخرى.

إذاً معنى أن الأرض (مهد) أولاً هي مسطحة، ثانياً ذات تربة زراعية تنبت لنا الطعام والشراب، ثالثاً مستقرة، رابعاً الأشياء التي عليها أيضاً مستقرة بفعل قوة جذب الأرض لها، ثم إن هذه الأرض تتحرك، ومن حركتها ينشأ الليل والنهار، ومن دورتها حول الشمس تنشأ الفصول الأربعة، ومن ميل محورها ينشأ اختلاف الليل والنهار، هذه كلها من معاني قوله تعالى:

(الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا (10))

(سورة الزخرف)

شيء آخر، هذه الطبقة الهوائية التي تلفُّ الأرض من أوجدها ؟ فالهواء قد لا نعرف قيمته، إن الهواء ليحمل طائرة وزنها 350 طن وعلى متنها خمسمئة راكب مع أمتعتهم على ارتفاع أربعين ألف قدم، هذا هو الهواء، والله سبحانه لطيف والهواء يمثل لطف الله عز وجل، لا يحول بينك وبين الآخرين فلا

يشكل حاجزاً، لكنه شيء مهم جداً، بحيث لو أن مركبة فضائية أدخلت مجال جو الأرض لاحترقت باحتكاكها بالهواء، فالهواء نستنشقه، ونسبه ثابتة أكسجين وغاز الفحم، هذه النسب الثابتة بفضل أن النبات يعمل عكس عمل الإنسان، النبات يأخذ غاز الفحم ويطرح الأكسجين، نحن نأخذ الأكسجين ونطرح غاز الفحم، فالهواء إذاً آية تندرج تحت قوله تعالى:

(الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا (10))

(سورة الزخرف)

الماء، الهواء، الحركة، الحرارة وغيرها من معاني أنها (مهد) للإنسان:

وكذلك الماء الذي على سطح الأرض، هذه المساحات الواسعة جداً من المياه التي تحويها المحيطات من أجل أن تتبخر فتكون غيوماً، فتكون أمطاراً تحيا بها الأرض في بقاع أخرى، إذاً ماؤها من معاني أنها (مهد) للإنسان، وهواؤها من معاني أنها (مهدٌ) للإنسان، وحركتها التي ينشأ عنها الليل والنهار والفصول الأربعة من معاني أنها (مهد) للإنسان، وجاذبيتها للأشياء التي عليها من معاني أنها مهد للإنسان، واستقرارها مع حركتها من معاني أنها (مهد) للإنسان، وسطحها المستوي من معاني أنها مهد للإنسان، وتربتها التي تنبت من معاني أنها (مهدٌ) للإنسان.

وكلمة (مهد) هو الفراش الوثير المهيأ خصيصاً للطفل الصغير، الطفل يحتاج إلى عناية فائقة، وهذه العناية الفائقة أساسها المحبة الفائقة والرحمة الفائقة، وهذا الفراش يهيئ له كل أسباب الراحة، وكذلك الأرض.

ثم إن الحرارة معتدلة، يعني أحياناً 18، 20، 30،35، 6، 7، 0، كلها مقبولة، أما لو أن الأرض توقفت عن الحركة لأصبحت الحرارة في النهار 350 درجة فوق الصفر، وفي الطرف الآخر 270 درجة تحت الصفر. ولانتهت الحياة، فالحرارة أيضاً (مهدٌ)، حرارة إضافة إلى ماء، إلى هواء، إلى حركة ساكنة، إلى استقرار، إلى جاذبية، إلى تربة، إلى تسطح، وفوق هذا كله هذا الضياء، فالله جعل الشمس ضياء، وجعل القمر نوراً، والشمس والقمر آيتان من آيات الله الدالتان على عظمته.

معانٍ أخرى لكلمة (مهد):

ثم إن هذه الجبال الشامخة مستودعات للمياه ورواسي للأرض، ثم إن هذه البحار المالحة، وهناك حكمة بالغة من ملوحة البحار، وكل النظريات التي تتحدث عن سبب ملوحة البحار نظريات ليس لها دليل علمي أكيد، فمن الذي جعل هذا البحر عذباً فراتاً، وجعل هذا البحر ملحاً أجاجاً ؟ الله سبحانه وتعالى،

والبحيرات والأنهار والينابيع، بعض الأنهار، ومنسوب نهر الأمازون يقدر بثلاثمئة ألف متر مكعب بالثانية، دمشق فيها خمسة ملايين، نبع الفيجة كثافته في أعلى درجاته 24 متراً مكعباً بالثانية ومع ذلك فهذا النبع يكفي دمشق كلها، فهذا وذاك كله من عطاء الله عز وجل.

وبالتربة معادن منها معادن الحديد والنحاس والألمنيوم والقصدير والرصاص، معادن لا يعلم عددها إلا الله و أشباه معادن، فهذه التربة فيها فلزات، وفيها طاقة، وهذا البترول الذي أودعه الله في باطن الأرض أيضاً من معنى قوله تعالى:

(الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا (10))

(سورة الزخرف)

ثم إن هذه النباتات، الغابات نباتات رعوية، نباتات غابات، نباتات أشجار مثمرة، أنواع النباتات لا يعلم عددها إلا الله، تكاد هذه النباتات تغطي كل حاجات الإنسان، فنبات للّيف، نبات للسِّواك، نبات للخلة، نبات للألوان، نبات للمواد اللدنة، نبات للصناعات، نبات للغذاء، نبات للزينة، أنواع النبات لا يعلمها إلا الله، هناك أوعية أساسها نباتي كالنحاس تماماً، هناك مسابح يسبح بها المصلون من نبات خاص حباته صغيرة كروية مثقوبة أيضاً كله نبات، فالنبات من معاني قوله تعالى:

(الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا (10))

(سورة الزخرف)

والحيوانات، حيوانات مفترسة، حيوانات أهلية، حيوانات مذللة، الأنعام، الجمال، الأغنام، الأبقار، البقرة وحدها آية من آيات الله الدالة على عظمته، الجمل وحده آية، الخروف الذي نأكله من جعله مذللاً لنا، كلٌ فيه خير لنا، هذه كلها آيات، هذا معنى قوله تعالى:

(الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا (10))

(سورة الزخرف)

الأطيار، الأسماك، النباتات، المعادن، الينابيع، الأنهار، البحيرات، البحار، الجبال، الوديان، السهول، الأغوار كلها إن أردت أن تسميها بيوتاً بلاستيكية، تجد الحرارة في الشتاء ثلاثين أو خمساً وثلاثين، يعطيك جميع أنواع الخضراوات في غير موسمها، يعني هذا الحديث يطول، ويندرج كله تحت قوله تعالى:

(الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا (10))

(سورة الزخرف)

الله عز وجل مهد لحياة الإنسان وفيها كل مستلزماته:

الأرض مهدت لحياة الإنسان وفيها كل مستلزماته، كل أنواع المعادن هناك معادن ثمينة القيم، هناك باخرة غرقت قبل مئة عام والآن أخرجوها سبائك الذهب التي فيها كأنها الآن سبكت، الذهب لا يتأثر لا بالماء ولا بالهواء ولا بالملوحة ولا بأي أعراض الجو، الذهب له وظيفة، البلاتين له وظيفة، الحديد له وظيفة، الألمنيوم له وظيفة، النحاس له وظيفة، القصدير له وظيفة، الرصاص له وظيفة، فالإنسان لو تأمل بخصائص المعادن الفيزيائية والكيميائية لأخذه العجب العجاب، معدن ينصهر في حرارة معدلة ألف وخمسمئة درجة، الرصاص ينصهر في درجة مئة، وإذا برد يتمدد، يعني إذا أراد الإنسان أن يعامل الرصاص مع الحجر يكفي أن يحفر حفرة في الحجر لها شكل الإناء ويضع الحديد فيها، ثم يصب الرصاص فإذا برد الرصاص تمدد وأصبح الحديد والرصاص كتلة واحدة.

لو تبحر الإنسان بالعلم لوجد ما يبهر العقول ويذهلها:

قد تجد محلاً تجارياً الغلق مربوط بكتلة من الحديد مغروزة في الحجر عن طريق الرصاص، الرصاص ينصهر بدرجة مئة ويتمدد بالتبريد، فمن أعطاه هذه الخاصة ؟ فالإنسان إذاً بحاجة إلى معدن سريع الانصهار يتمدد عند البرودة، وينفرد هذا المعدن بهذه الخاصة، النحاس ناقل شديد للحرارة، طبعاً هذه معلومات بدائية جداً وبسيطة يدرسها الطلاب في مرحلة التعليم الثانوي، لكن لو تبحّر الإنسان بالعلم وكان مختصاً في الفيزياء أو الكيمياء ودرس خصائص المعادن لوجد ما يبهر العقول ويذهلها.

الفضة من شأنها أن تطهر المياه في معامل تكرير المياه، ففي آخر مرحلةٍ من مراحل التكرير يسيل الماء بأنابيب من الفضة الخالصة لأن فيها إشعاعات معقمة للمياه، إذاً الفضة لها دور حساس ونافع. بعض المعادن تعدّ علاجاً للجسم توضع على شكل أساور، فعلم المعادن لا حدّ له، ونحن في مجال العلم في البداية، وقد قال بعض العلماء:

" لم تبتل بعدُ أقدامنا ببحر المعرفة."

طبعاً هذه معلومات موجزة حول قوله تعالى:

(الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ(10))

(سورة الزخرف)

الله عز وجل جعل في الأرض سبلاً لكسب الرزق:

ما معنى السبل هنا ؟ المعنى دقيق جداً، هذا الإنسان أولاً فطره الله فطرة معينة، وخلق فيه دوافع وحاجات، خلق فيه حاجة إلى الطعام ودافعاً إلى طلب هذا الطعام، فهما حاجة ودافع، وخلق فيه حاجة إلى الشراب، كما خلق فيه حاجة إلى الطرف الآخر نصفه الثاني كما خلق فيه حاجات كثيرة جداً، هو بحاجة إلى الطعام وإلى الشراب وإلى الكساء وإلى السكن، لكن أكبر دافع هو الجوع ويحتل في مدارج التسلسل المرتبة الأولى.

وأوجد الله عز وجل (وهنا المعنى دقيق جداً) أوجد الحَر، كم إنسان يعيش على صناعة منتجات لمكافحة الحر، عُدّ المعامل المختصة في صناعة المراوح، والمكيفات، ومعامل المرطبات في العالم، فستجد رقماً مذهلاً، وانظر نظرة اعتبار كم أداة يستخدمها الإنسان إذا شعر بالحر ؟ والبرد سبب للعيش، كم إنسان عيشه قائم على صناعة المدافئ، والوسائد، والأغطية الصوفية ؟ إذاً هناك ملايين يعيشون على المنتجات التي يستدعي وجودها حرُ الصيف وبرد الشتاء.

المرض ؛ كم إنسان يعيش بسبب الإصابات المرضية ؟ ما عدد الأطباء بالعالم؟ إحصاء قرأته مرة يقول: إن مئتين وخمسين ألف طبيب من البلدان النامية يقيمون في بلد متقدم، الأطباء في العالم عددهم كثير جداً، والطبيب من أين دخله ؟ دخله من ذوي الأمراض.

كذلك فإن الخلافات بين الناس هناك من يعيش عليها إنهم المحامون، إذاً اتضح معنى السبل لديك أيها المؤمن، أي أن الله عز وجل جعل السبل لكسب الرزق، لكن الناس كلهم الله رازقهم، وأردت من هذا الكلام أن الله عز وجل جعل أسباب كثيرة لكسب الرزق، هذا قد تقرؤه في تفسير القرطبي حيث يقول:

" السبل هي سبل المعايش التي هي أسباب لكسب الرزق."

المقصود من كلمة (معايش):

أنت تحتاج إلى بيت، كم إنسان يعمل في إنشاء البيوت ؟ بدءاً من العمال، إلى المهندسين، إلى المصممين، إلى المنفذين، إلى المهندس المعماري، والمهندس المدني، وعامل الكهرباء، وعامل التمديدات الصحية، وعمال الطلاء، وعمال التبليط، وعمال المفروشات، وعمال الديكور، هذا البيت الذي تسكنه انظر كم إنسان عمل فيه ! وكذلك الطعام الذي تأكله ! ولكل مادةٍ من مواد الزراعة معامل وخبرات متراكمة لسنوات عديدة، تحسين الإنتاج من أجل أن تأكل طبقاً من السلطة مثلاً، فإنتاج المأكولات يعمل فيها الملايين، والكساء، فكم إنسان يعمل في المنسوجات ؟ بدءاً من غزل الخيوط إلى نسجها إلى صبغها إلى تفصيلها إلى بيعها جاهزة، لو أحصيت تجد الملايين يعملون في تأمين حاجة

اللباس، ملايين يعملون في تأمين حاجة الطعام، هذا الرغيف الذي تأكله كم إنسان عمل به ؟ كيف اشتُريَت البذور وفُلحت الأرض وألقيت البذور وألقي السماد، ثم حصد، ثم طحن، ثم خبز، كم إنسان يعمل في هذا الرغيف ؟ هذا معنى معايش.

الشَّعر كم إنسان يعمل في حلق الشعر في العالم ؟ تسوُّس الأسنان كم إنسان يعيش على تسوس أسنان البشر ؟ ملايين، أجهزة وأدوات واستيراد ومواد سنية، وكم إنسان يعيش على منتجات تستخدم في الحمامات ؟ المواد الأولية، الصنابير، الأحواض وغيرها.

الله تعالى جعل خيرات الأرض قابلة للانتفاع بعد تدخل الجهد البشري فيها:

النقطة الثانية، لو أن الله سبحانه وتعالى خلق هذه المواد جاهزة للاستعمال من غير تدخل اليد البشرية إذاً لما كان هناك حاجة للعمل والعمال، إذاً لحكمة أرادها الله فإن كل خيرات الأرض لم يجعلها الله عز وجل قابلة للانتفاع بها إلا بعد تدخل جهد بشري، والله سبحانه يقول:

(قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى (49) قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى (50))

(سورة طه)

فمادام هناك جهد بشري فمن خلال هذا الجهد البشري يبتلى الإنسان، يعني بشكل ملخص، أودع فيك الدافع إلى الطعام والشراب فالإنسان يحتاج إلى أن يعمل، وجعل لك معايش، هذا مجال عمله بالتعليم، وهذا مجاله بالطب، وهذا صيدلة، وهذا هندسة، وهذا محام، وهذا عامل، وهذا صانع، وهذا تاجر، وهذا مزارع، وهذا مكتبات، وهذا بالتأليف كل إنسان الله عز وجل يسرّ له عملاً يقتات منه ويكسب منه رزقه، كل هذا الكلام يندرج تحت قوله تعالى:

(الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ(10))

(سورة الزخرف)

وملخص ما سبق يترجمه قول النبي صلى الله عليه وسلم:

((كل ميسر لما خلق له))

[رواه الطبراني عن عبد الله بن بسر]

وكل يعمل في مجال معين، وقال أيضاً:

((الخلق كلهم عيال الله))

[رواه أبو يعلى عن ابن مسعود]

والعمل أيضاً من خلق الله عز وجل، فسبحان الذي قدر فهدى.

الدافع إلى الطعام والشراب هو المحرك الأول عند الإنسان:

مثلاً.. لو أُلغي دافع الجوع فرضاً لما كان هناك حاجة لأعمال كثيرة، بل لعل الإنسان أقرب للدعة والسكون، لكنه مادام يجوع فلا بدّ من أن يتحرك ليأكل، فصار العمل ضرورياً، وكل يتجه لاختصاصه، إذاً فدافع الجوع أساس الحركة، والدافع إلى الطعام والشراب المحرك الأول عند الإنسان. ثم إن الإنسان يتقن حاجة ويحتاج إلى الكثير من الحاجات، يتقن عملاً واحداً ويحتاج إلى المئات، ولذلك فإن الله عز وجل أراد للإنسان أن يكون اجتماعياً بالطبع، لا أحد يقدر أن يعيش وحده، ولنفترض أنه كان فلاحاً، فهو يزرع القمح، لكنه يحتاج إلى من يطحن ويصنع الخبز، وهو يحتاج إلى كساء، كما يحتاج لتعليم أولاده، لو الإنسان أحبّ أن يعيش لوحده ينبغي أن يتعلم كيف يعلم أولاده، إذاً ألف إنسان يقدم لك الكثير من الحاجات وأنت تقدم حاجة واحدة، فهذا معنى قول الله تعالى:

(الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ(10))

(سورة الزخرف)

ثم هانحن مع الدافع كي نبقى كأفراد ؛ فلنستمع لله تعالى يقول:

(وَالَّذِي نَزَّلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ(11))

(سورة الزخرف)

الحفاظ على بقاء النوع لأن الحياة أساسها ازدواجي:

بعد أن خلق الله الأرض، وجعلها مهداً، وجعل فيها إمكانات لكسب الرزق، وجعلنا نحتاج إلى الرزق كي نبقى أحياء، والرزق من السماء، فهذه الأمطار تهطل، والينابيع تتفجر، والنبات ينبت، والحيوان يعيش، والإنسان يأخذ طعامه من النبات والحيوان إذاً الآن:

(وَالَّذِي نَزَّلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ(11))

(سورة الزخرف)

فالبند الثاني إذاً الحفاظ على بقاء الفرد.

(وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا (12))

(سورة الزخرف)

ويطالعنا الآن موضوع الحفاظ على بقاء النوع، ذكر وأنثى، على مستوى الإنسان وعلى مستوى الحيوان وعلى مستوى النبات، بنية الحياة ازدواجية، في عالم البشر ذكر وأنثى، وفي عالم النبات ذكر وأنثى، وفي عالم الحيوان ذكر وأنثى.

(وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا (12))

(سورة الزخرف)

بعضهم قال: الحياة الإنسانية أساسها مزدوج، خير وشر، حق وباطل، جمال وقبح، عطاء ومنع، فقر وغنى، صحة وسقم، دنيا وآخرة، شيطان وملك، يعني الحياة الدنيا أساسها ازدواجي هذا معنى قوله تعالى:

(وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا (12))

(سورة الزخرف)

والمعنى القريب أن الله عز وجل جعل الحياة البشرية قائمة على أساس أن الإنسان ذكر وأنثى، فما هو المعنى ؟ إنه استمرار الحياة، كيف يستمر البشر ؟ عن طريق التزاوج، لولا التزاوج لانقرض النوع البشري، كيف يستمر النبات ؟ عن طريق اللقاح والتزاوج، كيف يستمر الحيوان ؟ عن طريق التزاوج، قد تجد للسمكة الواحدة مثلاً ملايين البيض، يعني أن الله أعطى السمك وغيره خاصية التكاثر والتزاوج، وكل المخلوقات متشابهة تتكاثر عن طريق اللقاح.

الفلك والأنعام من آيات الله الدالة على عظمته:

وهناك حاجات للسفر والانتقال، لقد أكل الإنسان وشرب، وسكن البيت، وتزوج، والآن أحب أن يسافر، قال:

(وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ(12))

(سورة الزخرف)

الفلك سفن في البحر، والماء من طبيعته أن يدفع الأجسام التي تطفو عليه نحو الأعلى (مبدأ أرخميدس) لولا هذا المبدأ لما كانت هناك ملاحة على وجه الأرض، فهذه الفلك من آيات الله الدالة على عظمته والأنعام.

(وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ(8))

(سورة النحل)

وللسفر طائرة، وقطار، وسيارة، وهذا يندرج تحت قول الله سبحانه وتعالى:

(وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ (12) لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ (13) وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ (14))

(سورة الزخرف)

الآيات تؤكد أن الذي يخلق ما لا تعلمون هو الله تعالى:

هذه الآية دقيقة المعنى جداً، فالنبي عليه الصلاة والسلام جعلها دعاءً للسفر، يعني أن الإنسان إذا استخدم دابة من دواب الأرض فينبغي أن يذكر نعمة الله عز وجل، حتى ولو ركب سيارة فمن خلقَ موادها الأساسية ؟ ومن أودع في الأرض هذه الطاقة البترولية التي تتحرك بها ؟ حتى إن بعض الآيات تؤكد أن هذا الذي يخلق ما لا تعلمون هو الله عز وجل، فكأن الله عزا صنع الأجهزة الحديثة للتنقلات إلى ذاته عزّ وجل، فالإنسان إذا ركب طائرةً أو سيارةً أو قطاراً أو دابة بحسب العصر والتطورات قال:

(لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ(13))

(سورة الزخرف)

بعض المفسرين قالوا: مقرنين بمعنى مطيقين، الإنسان لا يطيق أن يمشي إلى الحجاز مشياً، فجعل له هذه الدواب وهذه الإبل ثم أصبح في زماننا يركب الطائرة أو السيارة قال تعالى:

(وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ(13))

(سورة الزخرف)

إنجازات البشر من آيات الله الدالة على عظمته وفي رأسها العقل البشري:

ما كنا نطيق الوصول إلى هذه الأهداف البعيدة لولا هذه الوسائل التي منّ الله بها علينا، وبعضهم قال: وما كنا مقرنين أي لا فضل لأحد سواه، يعني هذا الفضل لله وحده، والإنسان العاقل إذا تمتع ببعض النعم التي هي من صنع الإنسان يجب ألا ينسى الله عز وجل لأنها في الحقيقة لولا توفيق الله لما كانت، ولولا أن الله ألقى في نفس المخترع وذهنه هذا الاختراع لما كان هذا الاختراع، فحتى إنجازات البشر إنما هي في الحقيقة من آيات الله الدالة على عظمته وفي رأسها العقل البشري، قد تجد آلة تختصر الوقت والجهد، أجل إن هذه الآلة من إنتاج هذا العقل البشري الذي أودعه الله فينا، إذاً فمن أودع هذا العقل فينا ؟ الله عز وجل، من أعطاه هذه الإمكانات كي يخترع ؟ الله جلّ جلاله، انظروا أصنافاً أخرى من المخلوقات هل اخترعت شيئاً ؟ لا، إذاً لولا أن امتنّ الله علينا بهذا العقل لما كانت هذه الإنجازات التي أمامكم.

(وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ(14))

(سورة الزخرف)

وهذا المعنى دقيق جداً، الإنسان حين يركب طائرة فاحتمال سقوطها قائم ولو كانت من أحدث المبتكرات ولأعظم الشركات، وفيها احتياطات إلى ما لا نهاية ومع ذلك قد تسقط ويغلب على الظن أن يموت جميع ركابها، فالإنسان إذا ركب مركبة أو دابة فالدابة قد تجنح به، والناقة قد تدق عنقه، والسيارة قد تتحطم، والطائرة قد تسقط، فالإنسان إذا أراد أن يسافر ينبغي أن يصطلح مع الله، وأن ينهي كل المشكلات بحيث لو جاءت منيته كان سليماً معافى عند الله، كأن الله يذكرنا أن يا أيها الإنسان حينما تركب هذه الدابة أو تركب هذه الوسيلة من وسائل النقل لتنقلك إلى بلد آخر فلا تنسَ:

(وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ(14))

(سورة الزخرف)

على الإنسان أن يهيئ نفسه دائماً للقاء الله تعالى:

والحقيقة أيها الأخوة أن الذي يفكر بالعودة إلى الله عز وجل دائماً فإنه ينجو من عذاب الله، فليهيئ نفسه للقاء الله دائماً، وتعلمون أن لقاء الله عز وجل لا يتعلق بعمر معين، هناك أناس يموتون شباباً، وأناس يموتون كهولاً، وأناس يموتون في سن متأخرة جداً، فالموت لا يعرف صغيراً ولا كبيراً، ولا مقيماً ولا مسافراً، ولا متزوجاً ولا أعذباً، ولا غنياً ولا فقيراً، فالمفروض أن يكون الإنسان ذاكراً لقاء الله تعالى في كل ظروفه.

أيها الأخوة بهذه المناسبة أذكركم أن الإنسان العاقل حقاً هو الذي يستعد أبداً للقاء الله عز وجل، يستعد لهذا اللقاء بالاستقامة، يستعد لهذا اللقاء بالأعمال الصالحة، يستعد لهذا اللقاء بإنفاق المال، يستعد لهذا اللقاء بطلب العلم، يستعد لهذا اللقاء بالتضحية والإيثار، فالإنسان كلما كان عمله أقرب إلى مرضاة الله عز وجل كان شوقه إلى الله أكبر، لقاء الله محبب، لكن الناس من جبلتهم أنهم يخافون الموت، والحقيقة أن الناس يخافون الموت لا لأنه مخيف ولكن لأن الله يقول:

(وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ(158))

(سورة آل عمران)

على الإنسان أن يبني آخرته على حساب دنياه:

يعني إذا ألقي القبض على إنسان وساقوه إلى أمه، فماذا عند أمه ؟ لا يوجد ما يخيف، فيبقى مطمئناً، ولما سئل أحد العلماء: لماذا نكره الموت ؟ قال لأنكم عمرتم الدنيا وخربتم الآخرة، والإنسان بطبيعته يكره أن ينتقل من العمار إلى الخراب، فالإنسان إذا أصلح دنياه على حساب آخرته فإنه ترتعد فرائصه من الموت، وهو يكره نباتاً معيناً يوضع على القبور، ويكره سماع القرآن لأنه صار يتلى في المناسبات

الحزينة، الإنسان إذا عمّر دنياه على حساب آخرته يرتجف قلبه من ذكر الموت، أما إذا بنى آخرته على حساب دنياه يقول مرحباً بلقاء الله، ولو رأيت الصالحين في لحظات احتضارهم لرأيت العجب العجاب، لرأيته في أسعد لحظات حياته حينما يلقى ربه.

دعاء السفر:

الإنسان إذا ركب هذه المركبات فليتل قوله تعالى:

(سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين(13))

(سورة الزخرف)

فما قولكم طائرات بعض بلاد العالم الإسلامي ركابها يشربون الخمور على متنها، ونسي أحدهم أنه معلق بين السماء والأرض، أعلى متن الطائرة يشرب الخمر أيعقل هذا ! أيقترف المعصية في الأرض وفي البحر وفي الجو ؟

(ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاس(41))

(سورة الروم)

أيعقل هذا أن يتم أثناء الانتقال من بلد إسلامي إلى بلد إسلامي، والشركة مسجلة في أحد هذين البلدين والخمر يدار على ركاب الطائرة وكأنه شيء عادي جداً، سبحان الله فأي عقلٍ مسلمٍ يرضى أن يكون هذا ! قال تعالى:

(فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُور (46))

(سورة الحج)

وقال أيضاً:

(وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ(14))

(سورة الزخرف)

على العاقل أن يتهيأ للقاء الله بطلب العلم والعمل الصالح:

ألا يعلم الإنسان أنه لا ينجو من هذه الساعة الأليمة إلا إذا كان مستعداً لها، والاستعداد لها بطاعة الله، والعاقل هو الذي يتهيأ للقاء الله دائماً، يتهيأ لهذا اللقاء بتحرير دخله، وضبط بيته، وضبط جوارحه، وطلب العلم والعمل الصالح.

(وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ(15))

(سورة الزخرف)

الله عز وجل خلق كل حيوان مهيئاً لبيئته الخاصة:

الآن دخلنا في موضوع الشرك، لقد خلق الله عز وجل الإنسان في أحسن تقويم، وهيأ له هذه الأرض التي جعلها له مهداً، وجعل له أسباب لكسب الرزق، وأنزل له الماء من السماء ليكون قوام رزقه، جعل له نظام الزوجية، وسخر له من خلقه ما يتنقل عليه في أسفاره وترحاله. فالجمل مثلاً أيها الأخوة بإمكانه أن يعيش ثلاثة أشهر من دون ماء وهو في عرض الصحراء، يقول العلماء: إن الجمل يستطيع أن يأخذ الماء من خلاياه، وليس في الأرض الآن وسيلة نقل في الصحراء إلا الجمل، في أرقى الدول الجمل أداة أساسية للتنقل في الصحراء، هذا من خلق الله عز وجل، الجمل له عين تريه البعيد قريباً والصغير كبيراً، وللجمل رموش تقي عينيه إذا ثار الغبار في الصحراء، والله عز وجل قال:

(أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ(17))

(سورة الغاشية)

يعني رقبة الجمل، سنام الجمل، والسفينات على بطن الجمل وقوائمه الأمامية والخلفية من آيات الله الدالة على عظمته من خلال بديع خلقه، وإن جلسة الجمل النظامية آية من آيات الله الدالة على عظمته، فالإنسان إذا نظر إلى كيفية خلق الجمل يأخذه العجب العجاب، كل حيوان مهيأ لبيئته الخاصة.

الشرك أن تتخذ مخلوقاً نداً لله وتجعله إلهاً:

ومع ذلك رغم أنه جعل الأرض مهداً للإنسان، وأن المعايش قد يسرها الله عز وجل لكل إنسان ورزقه وأغدق عليه نعمه، وجعل له زوجاً من طبيعته ومن شاكلته، وهيأ له ما ينتقل به من مكان إلى مكان، ومع ذلك جعلوا له من عباده جزءاً، فأشركوا معه شركاء، والشرك أن تتخذ مخلوقاً نداً لله وتعطيه ودك وطاعتك وحبك وتجعله إلهاً، هذا هو الشرك، لذلك قال الله تعالى:

(إنّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ(13))

(سورة لقمان)

المشرك كأنما هوى من السماء إلى الأرض، قال تعالى:

(ومن يشرك بالله فكأنما خرّ من السماء (31))

(سورة الحج)

وقال تعالى:

(وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا(48))

(سورة النساء)

وقال:

(إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ(15)أَمْ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُمْ بِالْبَنِينَ(16))

(سورة الزخرف)

الكراهية للبنات هي نظرة جاهلية:

وكذلك قالوا: الملائكة بنات الله، بينما خصوا أنفسهم بالذكور أيعقل هذا !

(وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَانِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ(17))

(سورة الزخرف)

يعني هذه الكراهية للبنات نظرة جاهلية رعناء، النبي عليه الصلاة والسلام حينما ولدت فاطمة الزهراء أمسكها وتشممها وضمها وقال: ريحانة أشمها وعلى الله رزقها. والنبي عليه الصلاة والسلام علمنا أنه:

((من كن له ثلاث بنات فعالهن وآواهن وكفهن، وجبت له الجنة. قلنا: وبنتين ؟ قال: وبنتين. قلنا: وواحدة ؟ قال: وواحدة))

[رواه الطبراني عن أبي هريرة]

ذلك أن البنات سبب في دخول آبائهن الجنة إذا أحسن صحبتهن وتربيتهن، والإنسان كلما ارتقى إيمانه يحتفل بالبنات أكثر وأكثر، ولا يعبأ بهذه التفرقة غير العادلة بين الذكور والإناث.

نوع الجنين يحدده الرجل:

الله عز وجل قال حينما تحدث عن امرأة عمران:

(فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى(36))

(سورة آل عمران)

ولكن هذه الأنثى أنجبت السيد المسيح وهو نبي عظيم، إذاً النظرة إلى البنات بمنظار الجاهلية نظرة بغيضة عند الله سبحانه، ولا تليق بالمؤمن، وكل إنسان ينفر من امرأته، ويسخط عليها، لأنها أنجبت البنات فهو جاهل جهلاً مطبقاً، لأنه ثبت بالعلم أن نوع الجنين لا تحدده بويضة الأنثى بل يحدده حُوين الرجل.

(وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى(45)مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى(46))

(سورة النجم)

فالذكر والأنثى لا علاقة لهما بالبويضة بل علاقتهما بالحوين.

(وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَانِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ(17))

(سورة الزخرف)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الزخرف 043 - الدرس (3-9): تفسير الآيات 15-25
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1994-06-17

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الثالث من سورة الزخرف.

العلم غذاء العقل والذكر غذاء القلب:

مع الآية الخامسة عشرة وهي قوله تعالى:

(وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ(15))

(سورة الزخرف)

وقبل أن أبدأ شرح هذه الآية أريد أن أضع بين أيديكم حقيقة تعيننا على فهم كتاب الله، هذه الحقيقة هي أن الإنسان كما تعلمون جسد وقلب وعقل، فإذا اعتنى بعقله وغذاه بالعلم فقد حقق شطراً من الدين، وإذا اعتنى بقلبه فأكثر من الذكر فقد حقق الشطر الآخر، أما أن يكتفي الإنسان بسماع الدروس، حتى ولو أبدى إعجابه بالدروس، فما لم يكثر من ذكر الله عز وجل فلا يشعر بالسعادة التي وعد الله بها المؤمنين، فأحياناً الأخ يشكو ويقول: حينما سلكت طريق الإيمان كنت في سعادة كبيرة ما لبثت أن تضاءلت، إلى أن أصبحت أنكر على قلبي الأحوال التي أعيشها ؟!

فالجواب على هذا الشعور الذي ينتاب بعض الناس هو أن الدين يحتاج إلى علم كغذاء للعقل، وإلى ذكر كغذاء للقلب، وأبرز ما في الذكر الصلاة.

الذكر لا ينعقد إلا بالالتزام التام بالأمر والنهي:

قال تعالى:

(وَأَقِمْ الصّلَاةَ لِذِكْرِي(14))

(سورة طه)

الإنسان حينما يصلي ينبغي أن يخشع بصلاته، وأن يستحضر عظمة الله عز وجل، وأن يعيش الآيات التي يقرؤها، وإذا ركع يشعر أنه خاضع لله عز وجل، وإذا سجد يشعر أنه يستمد العون من الله، فالصلوات ذكر، وتلاوة القرآن ذكر، والأدعية ذكر، والاستغفار ذكر، لكن هذا الذكر لا ينعقد إلا بالالتزام التام بالأمر والنهي، والنبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((إن الشيطان يئس أن يعبد في أرضكم ولكن رضي فيما دون ذلك مما تحقرون من أعمالكم))

[كنز العمال 941]

من ذكر الله تعالى شعر بأثر ذلك في قلبه ونفسه:

إن الإنسان الذي يشكو من أنه ينكر على قلبه ما يعانيه، فعلاجه ضبط جوارحه ضبطاً تاماً كما أمر الله، وضبط دخله وإنفاقه، وضبط بيته، حينما يحقق هذا كله يشعر أن الطريق صار إلى الله سالكاً، فإذا ذكر الله عز وجل سواء في الصلوات الخمس.. أو في تلاوة القرآن.. أو في الأدعية والاستغفار يشعر بأثر ذلك في قلبه ونفسه، فإذا حضر مجلس العلم ليستمع إلى تفسير القرآن مثلاً فنفسه مهيأة لهذا السماع، أما أن يتلقى معلومات ودقائق وتفسيرات وتعليلات من دون أن يرافق هذا العلم ذكر، ومن دون أن يرافق هذا الذكر استقامة تامة وانضباطاً وبذلاً، فهو لا زال بعيداً محجوباً، وكل أخ يشكو فتور صلواته، فالجواب هو في قوله تعالى:

(فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا (110))

(سورة الكهف 110)

الدين قضية مصيرية والإقبال على الله هو مصدر السعادة:

أليست الصلاة لقاءً مع الله ! أليس اللقاء مع الله مسعداً ! ألا يشعر المصلي حينما يصلي أن الله تجلى على قلبه ! فهذه قضية متكاملة، قضية الاستقامة مع العمل الصالح، قضية طلب العلم كغذاء للعقل، وقضية الذكر وفي قمة الذكر الصلوات الخمس، والأدعية والاستغفار وتلاوة القرآن.

فلما يلتزم المسلم بكل جوانب الدين يقطف الثمرات، كنت أضرب هذا المثل دائماً: أن الإنسان يمكن أن يشتري قطعاً من سيارة (عجلات، هيكلاً، مقاعداً، محركاً)، لكن هذه القطع المتناثرة، ولو كان لها ثمن باهظ، في مجموعها لا تشكل سيارة لينطلق بها حيث يريد كذلك الدين، فالإنسان لم يأخذ بالدين من كل جوانبه، يعني اعتنى بقلبه ذاكراً، واعتنى بعقله متعلماً، واعتنى بسلوكه مستقيماً ومحسناً فلا يقطف ثمار الدين، ويظل يشكو، ويعاني، ولم يدرك حقيقة أن الدين قضية مصيرية.

الدين كلٌّ متكامل:

الإنسان حينما يصطلح مع الله فهو يتعامل مع خالق الكون، فهل من المعقول إن أقبلت على الله أن تشعر بالوحشة والملل ؟ مستحيل، فالله عز وجل هو مصدر السعادة، مصدر السرور، مصدر

الطمأنينة، مصدر الثقة، مصدر السكينة، كل المشاعر العالية جداً التي يحس بها المؤمن إنما هي ثمرة من ثمار الاتصال بالله، والدين كلٌ متكامل فلنأخذ به كلاً، لا أن نأخذ منه جانباً، وأن ندع جوانب.

الدين فيه كليات ثلاث:

1 ـ كلية السلوك:

لقد قلت سابقاً: الدين فيه كليات ثلاث، هذه الكليات الثلاث متكاملة، كلية العلم، كلية القلب، كلية السلوك، السلوك فيه شيئان: انضباط وعمل صالح، الانضباط هو الالتزام والاستقامة والطاعة، هذه كلها مترادفات، يعني ما من واحد إلا ويعلم الحلال والحرام، إطلاق البصر حرام وغض البصر طاعة لله عز وجل، الكذب حرام والصدق طاعة لله عز وجل، الإخلاص والخيانة، الإحسان والإساءة، فالإنسان حينما يستقيم يجعل الطريق إلى الله سالكاً، بقي أن يتحرك على هذا الطريق، الحركة هي العمل الصالح، العمل الصالح يدفعك في طريق الإيمان، والاستقامة تذلل العقبات التي في طريق الإيمان.

تصور أنك أمام طريق كله عقبات، وتقود مركبة صغيرة وكل عقبة تتشكل من خمسة أمتار مكعبة من الإسمنت المسلح، وهي كثيرة في الطريق فالطريق إذاً مسدود، كل عقبة عبارة عن معصية، فالإنسان حينما يزيل هذه العقبات يعني حينما يستقيم، يعني حينما يضبط بيته وعمله وجوارحه ولسانه وعينه وسمعه، معنى ذلك أن العقبات أزيلت من طريق الإيمان.

فحينما يبذل من ماله، من وقته، من عضلاته، من خبرته، من جهده يتحرك على هذا الطريق، والحركة هي العمل الصالح، فإذا عمل صالحاً تحرك على هذا الطريق، هذا الجانب السلوكي.

2 ـ كلية القلب:

الجانب القلبي الصلوات الخمس، الذكر، التلاوة، الاستغفار، والدعاء.

3 ـ كلية العلم:

الجانب العلمي طلب العلم، معرفة كتاب الله عز وجل والتفسير، ومعرفة سنة النبي عليه الصلاة والسلام لقول الله عز وجل:

(وَمَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا(7))

(سورة الحشر)

معرفة الله تؤدي إلى صدق الطاعة والعبادة:

ومعرفة سيرة الرسول ليكون لنا من النبي أسوة، إذاً أركان المعرفة معرفة كلام الله والكتاب المقرر، تصور أن إنساناً سيتقدم لامتحان بعد يومين ومكتبته عامرة بالكتب، وهذا الامتحان مصيري وسيحدد بعد يومين ولديه كتاب واحد مقرر، أليس العقل كل العقل أن يقرأ الكتاب المقرر ؟ ويترك ما عداه. ذكرت في درس سابق: كل علم ممتع، لكنّ هناك علماً ممتعاً نافعاً، أما علم الدين فهو علم ممتع نافع مسعد، قد تقرأ في النعوة أن فلاناً يحمل أعلى شهادة، لكن حينما توفاه الله عز وجل مفعول هذه الشهادة انتهى، قد يكون أعلم إنسان في النحو، قد يكون أعلم إنسان في الطب، قد يكون أعلم إنسان في الهندسة حينما يفاجئه أجله يتوقف مفعول شهادته واختصاصه وينسى الناس تفوقه لمجرد وفاته، إلا من كان عالماً بالدين، فالذي سار في سبيل معرفة الله في حياته فهذه المعرفة تنفعه بعد الموت وإلى أبد الآبدين، لأن معرفة الله تؤدي إلى صدق الطاعة والعبادة.

لذلك ليس هناك تناسب إطلاقاً بين أن تتعلم علم الخليقة وبين أن تتعرف إلى الله عز وجل، كل العلوم المادية العصرية من طب وفيزياء وكيمياء ورياضيات وطبيعيات وفلك وعلم نفس هذه علوم الخليقة، وهناك علوم الشريعة، وهناك علوم الحقيقة.

معرفة الله عز وجل تحتاج إلى مجاهدة:

معرفة الله عز وجل لا تحتاج لا إلى مدارسة ولا إلى إصغاء ولا إلى مطالعة ولا إلى كتابة ولا إلى تذكر تحتاج إلى مجاهدة، الإمام الغزالي رحمه الله تعالى قال: جاهد تشاهد.

المجاهدة توصلك إلى الاستقامة، يعني إنسان يضبط جوارحه فهو كمن يعرض نفسه للرحمة، أما حينما يتفلت الإنسان يقع الحجاب، ومع الحجاب يأتي الملل والسأم، والله الدرس طويل، وكل شيء قاله نعرفه سابقاً، الإنسان حينما تفتر همته يضعف اتصاله بالله عز وجل، ويتخلف عن القافلة، ويفوته زاده من الإيمان.

إذاً الذي أتمناه على الأخوة الكرام أن يأخذ كل منّا الدين من كل جوانبه، الجانب الاعتقادي العلمي، حضور مجلس العلم طلب للعلم، طبعاً المعلومات تتراكم، لأنه يتلقاها أسبوعياً فلا يفوته منها درس، وتتكون لديه القناعات، وتتراكم، والمسلم لا يعرف فضل طلب العلم إلا إذا جالس شخصاً في سنه لم يطلب العلم فيرى فرقاً شاسعاً بينه وبين من جالس ويرى سبقه وثراءه، عرف التوحيد، وعرف بأن الله سبحانه وتعالى بيده كل شيء، وعرف بأن الله سبحانه وتعالى بيده مقاليد السماوات والأرض، عرف أن الله يراقبه، ويكلؤه، وعرف أن الله سيحاسبه، ويكافئه، هذه المعرفة لا تقدر بثمن، لكن أهل الدنيا في

عداوة، وخصومة، وضلال، فيدفعون الثمن باهظاً نتيجة جهلهم بأحوالهم، كلام سخيف، وتفكير ضحل، وشرك واضح، واهتمامات بالدنيا زائلة، وهذا يعرفه كل من طلب العلم، فطلب العلم فريضة على كل مسلم، الإنسان بالعلم يرقى، ويسعد.

لا أحد ينال ثمار هذا الدين إلا إن أخذه من كل جوانبه:

والخلاصة ؛ أيها الأخوة الكرام.. أنه لا أحد منّا ينال ثمار هذا الدين العظيم يانعة ناضجة، إلا إذا أخذه من كل جوانبه ؛ الجانب السلوكي استقامة وعمل صالح، الجانب العلمي معرفة كتاب الله وسنة رسوله، وسيرة نبيه وصحابته، ومنهاجنا درس تفسير، ودرس فقه وحديث، ودرس سيرة، هذه أركان ثقافتنا الإسلامية ؛ القرآن كلام الله والنبي يفصل كلام الله في أقواله ويعبر عن فهمه لكلام الله بأفعاله، فنحن نريد الكتاب والسنة والسيرة، والفقه نأخذه من السنة.

بقي على الإنسان أن يذكر الله في خلواته، والذكر متعلق بالاستقامة، إذا لم يكن هناك استقامة فالإنسان يمل من الذكر، يقوم إلى الصلاة وهو كسول، لا يذكر الله إلا قليلاً، قال الحسن البصري: إذا قرأت القرآن ولم تشعر بلذة، وإذا صليت الصلوات الخمس ولم تشعر بخشوع فاعلم أن الإيمان تعدوه غشاوة كثيفة.

معنى ذلك أن الطريق مسدود، يعني أنه في حجاب فابحث عن سبب الحجاب، الإنسان لا يجامل نفسه، أكثر الناس يسخطون على قلة أرزاقهم، لكن يرضون عن عقولهم، وأنا أضيف إلى ذلك أنهم يرضون عن إيمانهم، لأن الإنسان أحياناً يتوهم أنه يوازن نفسه مع قطاع الطرق فيرى نفسه ولياً، يوازن نفسه مع المنحرفين، مع المقصرين، مع العصاة، مع تاركي الصلاة، فيجد نفسه من الأولياء، هذا خطأ كبير، يجب أن تقارن نفسك مع الصالحين، مع المؤمنين الصادقين، مع العلماء العاملين، مع العلماء المخلصين، مع التابعين، مع النخبة التي اختارها الله عز وجل لتكون من أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام، فالإنسان دائماً إذا أراد أن يسعد عليه أن يوازن دنياه مع من هو دونه، وعليه أن يوازن إيمانه مع من هو فوقه حتى يسعد، فهذا الكلام إجابة عن سؤال أحد الأخوة الكرام عن أن الإنسان بعد حين تفتر أحواله.

وهناك جواب آخر، جواب طبيعي جداً.

الشيء إذا وجد يُؤْلَف:

الإنسان حينما ينتقل فجأة من بيت صغير إلى بيت واسع في حي بمقياس الناس راقٍ يشعر بنشوة ليومين أو ثلاثة أو عشرة، لكن بعد شهر أو شهرين يكون قد ألف البيت الجديد، وألِف مساحته الواسعة وألِف مرافقه الجيدة، هذه النقلة النوعية معها فورة هذه الفورة بعد الانتقال المفاجئ من شيء إلى شيء، أمرٌ طبيعي جداً، وبعد حين يألف الإنسان أحوال أهل الإيمان، هذا ما قاله الصديق عليه رضوان الله قال: بكينا حتى جفت مآقينا.

النقلة المفاجئة من الكفر إلى الإيمان، من التفلت إلى الاستقامة، من الضياع إلى الهدى، هذه النقلة المفاجئة مسعدة جداً، لكن من الطبيعي جداً أن هذه النقلة ستتضاءل النشوة التي رافقتها، لأنها أصبحت مألوفة، فمثلاً قد يشتري شخص مركبة، ولفرحته لا ينام تلك الليلة، ويتجول في الشوارع إلى ساعة متأخرة من الليل فرحاً بها، لكن بعد سنتين لا يركبها إلا عند الضرورة، معنى أن الشيء إذا وجد يؤلف.

من آثر مرضاة الله على شهوات نفسه ارتقى عند الله عز وجل:

إذا أحد شك أن أحواله في مسيرة الإيمان قد ضعفت فتفسير ذلك وتعليله أنه ألف ما هو فيه، واعتاده، والدليل لو أن واحداً يشكو من ضعف أحواله ألمّ بمعصية أو مخالفة فإنه يشعر وكأنه قد سقط من السماء إلى الأرض، إذاً حينما كان يشكو ضعف أحواله كان على اتصال بالله عز وجل، والدليل طمأنينته، والدليل سعادته، لكن هذه السعادة ألفها فظنها تراجعاً، أقول: إنها ليست تراجعاً.

وإليكم قصة أذكرها كثيراً ؛ شخص سمع من شيخه أن لكل معصية عقاباً، وزلت قدمه بمعصية خفيفة فصار ينتظر العقاب من الله عز وجل، مضى يوم ويومان وثلاثة فلم يشعر بعقاب أصابه، ففي الصلاة ناجى ربه وقال: ربي عصيتك ولم تعاقبني ؟ فوقع في قلبه أن الله تعالى قال له: عبدي قد عاقبتك ولم تدر، ألم أحرمك لذة مناجاتي ؟ فالإنسان عندما يكون على اتصال بالله يشعر بسعادة، والإنسان حينما يستقيم استقامة تامة، كأن يمشي في الطريق ويغض بصره بشكل حازم وإذا كان وقت الصلاة دخل المسجد، وصلى خاشعاً، يشعر بأنه عفّ عن أشياء، وليس هناك من يعاقبه لو فعل عكسها، ويرى أن الدافع وراء غض بصره هذا كان خوفه من الله عز وجل فقط، ويقول في نفسه ويردد بلسانه:

(إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ(28))

(سورة المائدة)

فيشعر عندئذٍ بالسعادة الغامرة، إذ آثر مرضاة الله على شهوات نفسه، فارتقى، واستعلى.

طلب العلم ومذاكرته والتدقيق في أفعاله تمكّن المرء من ترسيخ معلوماته:

فيا أيها الأخوة الكرام... ثلاثة أشياء أتمناها عليكم ؛ وأن تتحلوا بها متواكبة متزامنة معاً جنباً إلى جنب، أولاً طلب العلم، عن طريق حضور مجالس العلم، وأن يضاف إلى ذلك مذاكرة ما تلقاه في تلك المجالس، هذا ثانياً، فالإنسان إذا سمع درساً ولم يراجعه في البيت، تتفلت منه المعلومات، ثم تتلاشى، فيحسن به أن يعيده مع زوجته، ومع أولاده، ومع أقربائه، ومع جيرانه، ومع زملائه في العمل، فالعلم يلقى في الهواء والتأثير آني، لكن المراجعة والمذاكرة تمكن المرء من ترسيخ معلوماته، ثم الاستفادة منها، والله عز وجل قال:

(قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ(46))

(سورة سبأ 46)

إذاً ؛ لقد أفاد هذا الإنسان علماً عندما حضر المجالس، ثم رسخ علومه، ومكنها في قلبه، وذاكرته عند مذاكرته، أما الأمنية الثالثة فعليه أن يدقق جداً في أفعاله، وأعماله، وفي دخله، وفي إنفاقه، وفي بيته، وفي سائر تصرفاته، يجعل ذلك كله موافقاً لشرع الله، وهذا هو الجانب السلوكي، وصار عندئذ من الذين آمنوا وعملوا الصالحات، ومن بعد ذلك فإن الله عز وجل قال:

(وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ(3))

(سورة البقرة)

الذكر يحقق طمأنينة القلب والنفس:

لكل إنسان ما يميزه عن غيره، فمثلاً في مجال المعرفة ؛ هذا يتقن اللغة، وهذا يتقن الرياضيات، وذاك يتقن الهندسة، وآخر يتقن حرفة معينة، كل إنسان يتقن شيئاً، فإذا بذل من حرفته، من خبرته، من معلوماته، من طاقاته، من جاهه شيئاً للمؤمنين ابتغاء وجه الله عز وجل يكون قد حقق الجانب السلوكي، فهو إذاً استقام وعمل أعمالاً صالحة، وحضر مجالس علم وذكرها، وبقي عليه الجانب القلبي فإذا قام للصلاة فليصلّ خاشعاً، متقناً صلاته، وليكن ذاكراً، إما ذكراً منفرداً أو ذكراً جماعياً، وليدْعُ ربه، وليستغفر الله، وبهذا يحقق خشوع جوارحه وطمأنينة قلبه ونفسه، وصار الآن بإمكانك أن تقطف ثمار الدين وأصبحت (وقد تزودت بزاد العلم والمعرفة ثم الذكر والاستقامة) أهلاً للدعوة لله سبحانه وتعالى، تدعو غيرك عن علم وبصيرة، وتجاوزت نفسك إلى الآخرين، ولأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك مما طلعت عليه الشمس.

صفات البشر لا تليق بخالق البشر:

نحن الآن مع قوله تعالى:

(وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا (15))

(سورة الزخرف)

أي قال الكفار من أهل الجاهلية: إن الملائكة بنات الله، لأن الابن في الأصل جزء من الأب والأم، فاطمة بضعة مني من أكرمها فقد أكرمني، من أحبها فقد أحبني، ومن أبغضها فقد أبغضني، الابن دائماً جزء من الأب، فهم حينما قالوا إن الملائكة بنات الله ماذا فعلوا ؟ جعلوا الذات الإلهية مركبة من أجزاء، هذا خلاف علم التوحيد.

(وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا (15))

(سورة الزخرف)

يعني وصفوا الإله العظيم بأن له بنات، أو ذرية، والذرية تكون من أجل الاستعانة بهم حينما تتقدم به السن، أو ليأنس بهم، أو ليكمل ضعفه بهم، فالإنسان يتخذ الأهل عن حاجة، أو عن ضعف والإنسان ضعيف، وهكذا خلق، فمع زوجته وأولاده يتكاملون، الرجل بحاجة إلى الأنثى، والعكس صحيح، وإذا اجتمعا صارا بحاجة إلى أولاد، والأبناء بحاجة إلى آبائهم، فهذه صفات البشر لكنها لا تليق بخالق البشر.

فالخلاصة أنهم جعلوا الذات الإلهية مركبة، كل شيء فيه أجزاء فهذا يعني أنه مركب، هذه الآلة فيها أجزاء فمكن أن نفصل أجزاءها بعضها عن بعض، إذاً مركّبة، والله عز وجل منزه عن التبعيض والتركيب، والجزئية، والمكان، والزمان، والصورة كل هذه الصفات لا تليق بالله عز وجل.

(وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ(15))

(سورة الزخرف)

كفرٌ ظاهر بيّن، يكفر أحدهم ويتبجح بكفره، يكفر ويفتخر بكفره ويتطاول، يعني إذا أحسنت إليه لا يقابل الإحسان بالإحسان، بل يقابل الإحسان بالإساءة.

الذين يعصون الله قابلوا نعمه بالكفر والعصيان:

هؤلاء الذين يكفرون ويعصون الله، ثم يعتدون على عباد الله، ونسوا أن الله امتن عليهم بنعمة الوجود، نعمة الصحة، نعمة الإمداد، وبدل أن يقروا بها، ويشكروا الله عليها قابلوا هذه النعم بالكفر، والعصيان، والطعن، والسباب أحياناً، إذاً:

(وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا (15))

(سورة الزخرف)

أي جعلوا لله أولاداً، جعلوا له ابناً، فبعضهم جعل له ابناً، وبعضهم جعلوا الملائكة بناتٍ لله عز وجل.

(إِنَّ الْإِنسَانَ (15))

(سورة الزخرف)

كلمة الإنسان معرفة بـ (أل) في القرآن:

كلمة الإنسان وردت في الآية معرفة، وكذلك في الآية التالية:

(إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا(19)إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا(20)وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا(21)إِلَّا الْمُصَلِّينَ(22))

(سورة المعارج)

(إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ(2)إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا)

(سورة العصر)

فحيثما وردت كلمة الإنسان معرفة بـ (أل) في القرآن فهذه (أل) الجنس، يعني جنس الإنسان قبل أن يتصف بالإيمان عملياً، وقبل أن تصطبغ نفسه بصبغة الله عز وجل، فهو كفور، هلوع، وفي خسر.

الفاجر لا يكتفي بالكفر بل يبالغ في إظهار الكفر:

(وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا (15))

(سورة الزخرف)

هذا يعني كفره ظاهر، وأنه يعمل على إظهار كفره، هذا اسمه الفاجر، الفاجر لا يكتفي بالكفر بل يبالغ في إظهار الكفر، وبعض الأمراض الوبيلة التي تطحن البشرية اليوم (مرض الإيدز)، والذين يصابون به هم مجاهرون بضلالهم هذا، فهم فجرة، والنبي الكريم حدّث عنه قال:

((لم تظهر الفاحشة في قوم قط حتى يعلنوا بها إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا))

[روى ابن ماجة و البزار والبيهقي عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ]

وهؤلاء الذين ينغمسون في فعل الفاحشة صار لهم نقابات في بعض البلاد الغربية، ويطالبون بحقوقهم، والتحقوا في بعض البلاد في الجيش، ويمارسون فاحشتهم علناً، ويحميهم القانون، فهؤلاء كفرة فجرة. ولقد طالعتنا الصحف مؤخراً بأخبار عن مرض جديد اسمه (آكلة اللحم)، والإنسان ينتهي مع هذا المرض بأربع وعشرين ساعة وسببه جنسي أيضاً، وكأن الله سبحانه رفع العيار قليلاً، فإذا لم يتأثروا بالمرض الأول، وهو (الإيدز)، فهناك مرض آخر.

(وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ(15)أَمْ اتّخَذَ مِمّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُمْ بِالْبَنِينَ(16))

(سورة الزخرف)

والخليقة مؤلفة من ذكور، وإناث، وكان العرب في الجاهلية يكرهون البنات.

الحديث في كتاب الله عن وأد البنات:

(وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنثَى ظَلّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ(58)يَتَوَارَى مِنْ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ على هون)

(سورة النحل)

وتعلمون أيضاً أن العرب كانوا يئدون البنات، وقد قال الله عز وجل:

(وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ(8)بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ(9))

(سورة التكوير)

المولود هدية من الله عز وجل ذكراً كان أم أنثى:

لكن المؤمن يرى أن هذا المولود هدية من الله عز وجل ذكراً كان أم أنثى، ويحتفل بالبنت كما يحتفل بالذكر لأنها هدية الله عز وجل، وربنا عز وجل قال:

(فَلَمّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذّكَرُ كَالْأُنْثَى(36))

(سورة آل عمران)

لقد تمنت امرأة عمران أن يأتيها غلام يدعو إلى الله، فلما جاءتها أنثى قالت وليس الذكر كالأنثى لأن الأنثى قعيدة البيت، والله عز وجل قال:

(وَاللّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ(36))

(سورة آل عمران)

لكن الله عز وجل قبلها، وجعلها أماً لنبيّ عظيم، وكثير من النساء اللواتي يلدن ذكوراً، فهؤلاء منهم من يصلحون العالم وتكون هي السبب في إنجابه، أما هنا الآية:

(أَمْ اتّخَذَ (16))

(سورة الزخرف)

ارتكاب الكفار خطأ جسيماً بادعائهم أن لله بنات:

فقد ادّعوا أن لله بنات، لكنكم كيف تَصطفُون لأنفسكم الذكور وتنسبون البنات إلى الله ؟ لو أراد الله أن يتخذ لنفسه ولداً لاتخذه ذكراً وليس أنثى.

(وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ(15)أَمْ اتّخَذَ مِمّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُمْ بِالْبَنِينَ(16))

(سورة الزخرف)

يعني أنت تختار لنفسك الذكور وتجعل لله عز وجل الإناث:

(تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى (22))

(سورة النجم)

ففي الآية الأولى جعلوا لله جزءاً حينما نسبوا له الذرية، ثم ارتكبوا خطأ آخر إذ جعلوا هذا الجزء أنثى، وليس ذكراً يعني أنهم اقترفوا خطأً مركباً.

(وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرّحْمَانِ مَثَلًا ظَلّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ(17))

(سورة الزخرف)

طبعاً حينما تقول: إن الله اتخذ الملائكة بنات رفعنا الملائكة إلى جنس الألوهية، وهناك رجل في الجاهلية زوجته ولدت بنتاً فغاب عن البيت من شدة ألمه، فقالت زوجته:

مال أبي حمزة لا يأتينا

غضبان ألا نلد البنينا

وإنما نعطي الذي يعطينا

* * *

نوع الجنين هو شأن الرجل:

وبعد تقدم العلم أثبت أن نوع الجنين ذكراً أو أنثى ليس من شأن المرأة بل هو من شأن الرجل، لقوله تعالى:

(وَأَنّهُ خَلَقَ الزّوْجَيْنِ الذّكَرَ وَالْأُنْثَى(45)مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى(46))

(سورة النجم)

فالمرأة ليس لها علاقة إطلاقاً بموضوع الذكر، أو الأنثى، فأن يغضب الإنسان من امرأته إن أنجبت له بنتاً، فهذا منتهى الجهل، ويذكر أن رجلاً قال: إن أنجبت بنتاً فهي طالق، فجاءته ببنتين معاً فلم تطلق شرعاً من جهة، ومن جهة أخرى عاقبه الله تعالى بولادة بنتين دفعة واحدة.

(وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَانِ مَثَلًا ظَلّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ(17))

(سورة الزخرف)

يعني اسوداد الوجه دليل الألم، والإنسان إن يفرح يتألق ويتورد وجهه وتتحرك عيونه حركة زئبقية، أما إذا تألم يسودّ وجهه وتجمد عيناه، هذه علامات الحزن، هنا اسودّ وجهه وهو كظيم أي ممتلئ ألماً، ويكاد أن ينفجر غيظاً.

الله عز وجل وصف الفتاة أن من طبيعتها أنها تحب الزينة:

(أَوَمَنْ يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ(18))

(سورة الزخرف)

من هذا الذي يُنَشَأ في الحلية ؟ قالوا: هي الفتاة تنشأ في الحلية، والزينة، والدلال، فالله عز وجل وصف الفتاة أن من طبيعتها أنها تحب الزينة، وهذا جزء من طبيعتها.

(وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ(18))

(سورة الزخرف)

هذا المخلوق الأنثى الله عز وجل صممه تصميماً يتناسب مع دوره في الحياة، هذا الموضوع ينقلنا إلى موضوع دقيق المعنى هو أنّ الرأي السديد والعقيدة الصحيحة المرأة كالرجل تماماً في ثلاثة أشياء.

المرأة مساوية للرجل في التكليف والتشريف والمسؤولية:

في التكليف مكلفة بالإيمان وبأركان الإيمان، ومكلفة بالإسلام وبأركان الإسلام، وفي التشريف، يعني أن امرأة مؤمنة (والله الذي لا إله إلا هو) هي خير عند الله من مليون مشرك، من مليون رجل كافر، فالأنثى مكلفة ومشرّفة.

إذاً المرأة مساوية للرجل تماماً في التكليف، وفي التشريف، وكذلك في المسؤولية، وهذه الأخيرة تعني النقطة الثالثة.

((كلكم راع وكل مسؤول عن رعيته، المرأة راعية في بيت زوجها، وهي مسؤولة عن رعيتها))

[متفق عليه عن عبد الله بن عمر]

وقال عليه الصلاة والسلام:

((أيما امرأة قعدت على بيت أولادها فهي معي في الجنة))

[الجامع الصغير 3002]

اعلمي أيتها المرأة وأعلمي من خلفك أن حسن تبعل المرأة زوجها يعدل الجهاد في سبيل الله، يعني مكلفة ومشرفة ومحاسبة كالرجل تماماً، هذا معنى قوله تعالى:

(هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ(189))

(سورة الأعراف)

والخلاصة ؛ أن المرأة تشعر كما يشعر الرجل، وتحب كما يحب، وتكره كما يكره، وتبغض كما يبغض، وتتمنى كما يتمنى، وتؤمن كما يؤمن، وتكفر كما يكفر، وتفعل كما يفعل، وترقى كما يرقى، لا فرق بينها وبين الرجل مطلقاً، و قد تكون مؤمنة إلى درجة كبيرة، صديقة، السيدة مريم كانت صديقة، والسيدة خديجة، والسيدة عائشة، والسيدة آسية امرأة فرعون.

(وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنْ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ(11))

(سورة التحري)

والله الذي لا إله إلا هو أيما امرأة عرفت ربها، وقامت على تربية أولادها، وأطاعت زوجها، وكانت امرأة مثالية السلوك والأخلاق، فهي ولية عند الله عز وجل لقوله تعالى:

(أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ(62)الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ(63))

(سورة يونس)

النظرة الجاهلية للمرأة قبل الإسلام وبعده:

أخواننا الكرام. أية نظرة للمرأة تجعلها أقل من الرجل هي نظرة جاهلية، والجاهلية جاهليتان: جاهلية قبل الإسلام حيث كانوا يئدون البنات، وجاهلية أخرى بعد الإسلام، فحينما تُستغل الفتاة لأرخص الأهداف، فتكون الفتاة وسيلة للإعلان، أليس هذا امتهاناً للمرأة ؟ والله امتهان وأعظم امتهان، المرأة في الأصل أم أو أخت أو بنت أو زوجة إن هذا شنيع عليها، أن تصبح البنت سلعة تجارية، وإني أعوذ بالله من هذا الانحراف المدمر إنها جاهلية القرن العشرين فجاهلية ما قبل الإسلام تئد البنت، والجاهلية الثانية أنهم فتنوا البنات والفتنة أشد من القتل، فالإنسان الجاهلي كان يحفر حفرة ويضع ابنته حيّة فيها ثم يواريها.

(وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ(8)بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ(9))

(سورة التكوير)

والإنسان الحديث يقول لك: أنا ديمقراطي، أنا أُطلِقُ لابنتي العنان، أحب أن تختبر الحياة بنفسها، أحب أن تمارس التجربة الإنسانية باختيارها، فإذا أطلق لها حريتها، وهي بطبيعتها الأنثوية في الأمور العامة ضعيفة النظر، فلماذا مثلاً ينبغي أن يوافق ولي الفتاة والفتاة على الزواج ؟ لأن ولي الفتاة أخبر بالرجال، وهي لها الحق أن تختار شريك حياتها من حيث المظهر، والمخبر، لكن الأب معرفته بالرجال

أعمق بحكم المخالطة، إنّ المرأة مساوية للرجل تماماً في التكليف والتشريف والمسؤولية ولكن هناك استثناء، والآية الكريمة:

(وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى (36))

(سورة آل عمران: 36)

النقص يكون كمالاً في بعض الأحيان:

فالمرأة مجهزة نفسياً وعقلياً وجسمياً لتكون أماً، ولتكون زوجة، لذلك زاد الله عز وجل في انفعالها، وعاطفتها، ورحمتها، وحنانها على قوة إدراكها للقضايا العامة وقوة حجتها في الأمور النظرية، طبعاً لسنا بحاجة إلى محاضرة في أمور فلسفية بل نحن بحاجة إلى أم ترعى أولادها وتعتني بهم وتكون مصدر سعادة لزوجها ولأولادها.

ومن هنا فإن ما زاد في عاطفتها وانفعالها ورحمتها واهتمامها بأولادها وبيتها وزينتها وما نقص من قوة إدراكها وقلة اهتمامها بالقضايا العامة فهو كمال فيها، وما زاد في قوة إدراك الرجل للقضايا العامة وشدة اهتمامه لها وما نقص من قوة انفعاله وقوة اهتمامه في الأمور التزيينية والأسرية فهذا كمال فيه، وهاأنذا أضرب مثلاً بمركبتين ؛ مركبة ركاب ومركبة بضاعة، فأما مركبة البضاعة فإن مكان البضاعة يزيد على حساب مكان الركاب، بينما مركبة الركاب زادت مساحة الركاب على حساب مساحة البضاعة فهذا كمال فيها، في الأولى زيادة ونقص وهو كمال فيها، وفي الثانية زيادة ونقص وهو كمال فيها، الله عز وجل كامل وخلقه كامل.

بنية المرأة وبنية الرجل ليس فيهما نقص عيب بل نقص كمال:

فبنية المرأة العقلية والجسمية والنفسية كمال فيها، وبنية الرجل العقلية والنفسية والجسدية كمال فيه، هذا ليس نقص عيب بل نقص كمال، فأنت تريد أن تحمل بضاعة بهذه الشاحنة فهل معقول أن تجعل مكان البضاعة واحداً بالمئة من حجمها فقط ؟ ليس معقولاً، لكن مركبة الركاب أوسع مساحة للركاب، وأقل مساحة للحاجات، فإذاً ممكن أن يكون النقص كمالاً في حالات خاصة معينة.

وبشكل مجمل أقول: ما زاد في قوة إدراك الرجل وشدة اهتمامه بالقضايا العامة والفلسفية وما نقص من شدة انفعاله واهتمامه بالقضايا التزيينية، فهذا كمال فيه، وما زاد من قوة انفعالها وعطفها وحنانها وأنوثتها وما نقص من قوة إدراكها للقضايا العامة، فهذا كمال فيها، فمثلاً إذا دخل إلى بيته، ووجده غير مرتب، والطعام غير ناضج، والأولاد بمظهر لا يليق، والبيت فوضى لا تحتمل، وعند دخوله ألقت

عليه امرأته محاضرة في نظام الدولة الجديد، فهذا الأمر منها إساءة اختصاص، وإهمال في الواجبات التي خلقت من أجلها، قال تعالى:

(وقرن في بيوتكن (33))

(سورة الأحزاب: 33)

البيوت مسؤوليات وللمرأة وظيفة فيها:

وللبيوت مسؤوليات، وللمرأة وظيفة، وصدق الله العظيم الذي خلق، وقدر، إذ يقول:

(أَوَمَنْ يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ (18))

(سورة الزخرف)

وهذا صرح في أن البنت مفطورة على حب التزين من أجل أن ترضي زوجها، وصدق الشاعر العربي حيث يقول مخاطباً المرأة:

فدعي الرماح لأهلها وتعطري

***

وتمام الآية:

(وَهُوَ فِي الْخِصَامِ (18))

(سورة الزخرف)

فالمشادات الفكرية، والقضايا الفلسفية ليس للمرأة باع طويل فيها، فلقد سمعت مثلاً أن أحداث لبنان السابقة لها تفسير عربي ودولي وطائفي، بينما سمعت تفسيراً نسائياً، فقلن: أصابت لبنان عين، فالمرأة أحياناً تدرك إدراكا مختصراً، وقناعتها بريئة، وفطرية، لذلك قال عليه الصلاة والسلام:

((إذا صلت المرأة خمسها وصامت شهرها وحفظت فرجها وأطاعت زوجها قيل لها ادخلي من أي أبواب الجنة شئت))

[مجمع الزوائد 7351]

المرأة دينها مختصر، أما دين الرجل في ألف مزلق بكسب المال، وألف مزلق بإنفاق المال، يعني الرجل أمام آلاف الأحكام الشرعية التي ينبغي أن يطبقها حتى يفوز، أما المرأة إذا صلت فرضها وصامت شهرها وأطاعت زوجها وحفظت نفسها دخلت جنة ربها، يعني ربع دين المرأة طاعة زوجها، قال عليه الصلاة والسلام:

((لو أمرت أحدا أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها))

[تخريج أحاديث الإحياء للعراقي 9]

لعظم حقه عليها.

حرص المؤمن على أسرته وعلى سعادة أبنائه:

فيجب على الآباء أن يربوا بناتهم على هذه المفاهيم، والأمهات على هذه المفاهيم والأحكام كي يعود للبيت تألقه، وكي تصبح بيوت المسلمين جنات صغيرة، لكن المرأة صارت تبدي كل زينتها للطريق، وكل ما فيها من تقصير لزوجها، والبيوت تعمها الفوضى لذلك أي مجتمع تضعف فيه الأسرة ينتهي إلى خسارة ودمار، ووضع الأسرة الأجنبية يشهد بذلك، فالأسرة عندهم وجودها بات إلى زوال. أما المؤمن فدائماً يحرص على أسرته، وعلى سعادة أبنائه، وعلى الوئام والوفاق، والحقيقة أن بطولة الإنسان أن يكون سعيداً في بيته، لأنه إذا سعد في بيته انعكس هذا على عمله، هذا معنى القرآن الكريم:

(أَوَمَنْ يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ (18))

(سورة الزخرف)

إن الله عز وجل في الآية السابقة لم يمدح، ولم يذم ولكنه وصف، هذه الفتاة مصممة على أن تكون أماً تحتاج إلى عاطفة، تحتاج إلى رحمة، تحتاج إلى إدراك سريع، فيها حب التزين، الله عز وجل خلق الحلي لتكون زينة للنساء، والواقع يؤكد ذلك، ويلتقي مع نص الآية، قال تعالى:

(وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَانِ إِنَاثًا (19))

(سورة الزخرف)

جعلوا الملائكة إناثاً وهذا افتراء آخر لأنهم مخلوقات نورانية لا يعصون الله:

هذا افتراء آخر، فأول افتراء أن جعلوا لله من عباده جزءاً، الافتراء الثاني جعلوا هذا الجزء بنتاً، والافتراء الثالث جعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً، ليس بين الملائكة ذكوراً وإناثاً، والملائكة ليسوا كالبشر يتوالدون، فالتوالد يقتضي أن يكون هناك ذكر وأنثى، والملائكة صنف ثالث من الخلق، فهم مخلوقات نورانية لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون.

(وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَانِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ (19))

(سورة الزخرف)

ومن ثم فهل رأيت أنت أنهم إناث، وحينما خلقهم الله فهل كنت مع الله عز وجل تخلق، أو تشاهد عملية الخلق ؟

(أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ (19))

(سورة الزخرف)

لقد سجل الله عليهم مقالتهم هذه، وسيسألون عنها.

(وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَانُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ(20))

(سورة الزخرف)

ولقد تكررت مقولتهم هذه في القرآن الكريم مرات عديدة.

(سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ(148))

(سورة الأنعام)

عقيدة الجبر عقيدة مضلة تلغي التكليف:

في الآية إشارة لعقيدة الجبر بأن تعتقد أن الله أجبرك على المعصية أو على الكفر وهذه عقيدة ضالة مضلة، هذه العقيدة تلغي التكليف، تلغي الأمانة:

(إنا عرضنا الأمانة(72))

(سورة الأحزاب 72)

تلغي الثواب، تلغي العقاب، تلغي المسؤولية، تلغي الجنة والنار، تلغي جدوى نزول الكتب السماوية، تلغي جدوى إرسال الأنبياء، والمرسلين، تجعل الدين تمثيلية عابثة، فلذلك قال تعالى مخبراً عنهم:

(سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ(148))

(سورة الأنعام)

ومقولة العوام من الناس تلتقي مع تلك المقولة بأسلوب آخر فيقولون: طاسات معدودة بأماكن معدودة، يعني الجبر، يقولون لسنا لنا حيلة وهذا ترتيب سيدك، هذا جبر أنت ليس لك علاقة أبداً، والله ألهمك المعصية، هذه عقيدة أهل الجبر، وهي عقيدة زائغة، سيدنا عمر لما جيء له بإنسان شارب الخمر، قال له: والله يا أمير المؤمنين إن الله قدر عليّ ذلك، قال: أقيموا عليه الحدّ مرتين، مرة لأنه شرب الخمر، ومرة لأنه افترى على الله، وقال له: ويحك يا هذا إن قضاء الله لم يخرجك من الاختيار إلى الاضطرار.

الإنسان مخير فيما يفعل أو يقول:

لو أن الله أجبر عباده على الطاعة لبطل الثواب، ولو أجبرهم على المعصية لبطل العقاب، ولو تركهم هملاً لكان عجزاً في القدرة، إن الله أمر عباده تخييراً، ونهاهم تحذيراً وكلف يسيراً ولم يكلف عسيراً، وأعطى على القليل كثيراً، ويجب أن نؤمن بأن الإنسان مخير فيما يفعل، أو يقول.

(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ(46))

(سورة فصلت)

(إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا(3))

(سورة الإنسان)

(وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى (17))

(سورة فصلت 17)

(وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ(148))

(سورة البقرة)

هنا قالوا:

(وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَانُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ (20))

(سورة الزخرف)

هذا جدل وهذا افتراء على الله، إذ قالوا: إنهم مجبرون على أن يعبدوا هؤلاء.

(وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَانُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ(20))

(سورة الزخرف)

أشد أنواع الكذب أن يخرص الإنسان:

أي يكذبون، وأن يخرص الإنسان فهذا في الحقيقة أشد أنواع الكذب، ثم إن الله سبحانه وتعالى يشير إلى أدلتهم الواهية:

(وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَانُ مَا عَبَدْنَاهُمْ (20))

(سورة الزخرف)

فهل لديكم دليل عقلي ؟

(مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ (20))

(سورة الزخرف)

المقصود بالعلم هنا المشاهدة.

(إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ(20))

(سورة الزخرف)

هم لم يكونوا مع الله عز وجل حينما خلق الملائكة، وأفادت كلمة يخرصون أن الله عز وجل نفى عنهم الدليل العقلي، أما النقلي:

(أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ(21))

(سورة الزخرف)

الدليل العقلي والدليل النقلي:

فهل لديهم نص ؟ وهذه إشارة دقيقة جداً في هاتين الآيتين إلى الدليل العقلي والدليل النقلي، وقالوا:

(وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَانِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ(19)وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَانُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ(20))

(سورة الزخرف)

وبعد ؛ فهل هذه الدعوة، وهذا الافتراء، وذاك الكفر، ورد عندهم بكتاب منقول عن الله عز وجل ؟

(أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ(21)بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ(22))

(سورة الزخرف)

أيْ على طريقة أو على دين، والأمة في الآية هي الطريقة التي تؤم والنهج الذي يتبع.

(إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ(22))

(سورة الزخرف)

نحن هكذا نشأنا وهكذا تربينا، أولياؤنا هكذا علمونا، آباؤنا هكذا قالوا لنا، أجدادنا هكذا كانوا، تركوا النقل وليس نقل ولا عقل بل هو تقليد الآباء والأجداد.

(بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ(22)وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ(23))

(سورة الزخرف)

يعني عقل تقليدي لا يغير ولا يبدل، عادات، وتقاليد، وتراث، يقول لك تراث وصار التراث عندهم إلهاً.

(وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا (23))

(سورة الزخرف)

ثماني آيات في القرآن اقترن فيهن الترف مع الكفر:

وكلمة " **المترفون** " في القرآن في ثماني آيات حصراً، وفي هذه الآيات الثماني اقترن الترف مع الكفر:

(إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ(23))

(سورة الزخرف)

الترف مثلاً أن تقيم حفلة عرس أو حفلة عقد قران بعشرين مليون ليرة، بينما يمكن لشاب أن يتزوج بمئة ألف، ويسكن مع زوجه ببيت صغير خارج دمشق، وبالمقارنة بين الحالتين يتبين لنا بحق أن عمل الأول يفسر لنا الترف، والمترفين.

(إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ(23)قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ(24))

(سورة الزخرف)

إذاً هم لن يغيروا، بل هم مصرّون على موقفهم.

(قالَ أوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأهْدَى مِمّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قالُوا إنّا بِمَا أرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ(24)فانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ(25))

(سورة الزخرف)

علاقة الآيات التالية بالآيات السابقة:

فالسؤال الذي يفرض علينا ذاته هو ما علاقة الآيات التالية والتي تتحدث عن سيدنا إبراهيم بالآيات السابقة:

(وَإِذْ قالَ إبْرَاهِيمُ لِأبِيهِ وَقوْمِهِ إنّنِي بَرَاءٌ مِمّا تَعْبُدُونَ(26)إلّا الّذِي فَطرَنِي فَإِنّهُ سَيَهْدِينِي(27))

(سورة الزخرف)

هذا سؤال للدرس القادم، ما علاقة القصة بين إبراهيم بسياق الآيات ؟ القرآن مترابط، فالحديث الآن عن هؤلاء الذين وجدوا آباؤهم على أمة وإنهم على آثارهم مقتدون، قال تعالى:

(قالَ أوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأهْدَى مِمّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قالُوا إنّا بِمَا أرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ(24)فانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ(25)وَإِذْ قالَ إبْرَاهِيمُ لِأبِيهِ وَقوْمِهِ إنّنِي بَرَاءٌ مِمّا تَعْبُدُونَ(26)إلّا الّذِي فَطرَنِي فَإِنّهُ سَيَهْدِينِي(27))

(سورة الزخرف)

الله سبحانه نفى عنهم الدليل العقلي والدليل النقلي وأبقى لهم التقليد الأعمى:

دققوا النظر فستجدوا أن الله سبحانه وتعالى نفى عنهم الدليل العقلي، كما نفى عنهم الدليل النقلي، وأبقى لهم تقليدهم الأعمى، وهكذا سيدنا إبراهيم قال لأبيه وقومه:

(إنّنِي بَرَاءٌ مِمّا تَعْبُدُونَ(26))

(سورة الزخرف)

فالله عز وجل ينتظر منا ألا نقلد أحداً، ويريد منا أن نؤمن به بطريق العقل، والنقل، وفي درس قادم آخر نتابع هذا الموضوع إن شاء الله.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الزخرف 043 - الدرس (4-9): تفسير الآيات 26-32
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1994-06-24

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الرابع من سورة الزخرف.

الاتصال والترابط بين آيات القرآن:

مع الآية الكريمة السادسة والعشرين، وهي قوله تعالى:

(وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ(26))

(سورة الزخرف)

الحقيقة أن بين آيات القرآن الكريم اتصالاً و ترابطاً، هذا المعنى في الترابط أشار القرآن الكريم إليه في قوله تعالى:

(كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آَيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ(1))

(سورة هود)

قد لا تجد بين المقطعين أو الآيتين رابطاً لغوياً، لكنك تجد الرابط المعنوي قطعاً، فحينما قال الله عز وجل:

(وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آَبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آَثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ(23))

(سورة الزخرف)

أي نحن نقلد آباءنا، هكذا نشأنا، وهكذا تربينا، وهكذا التقاليد، وهكذا العادات، وهذا هو التراث.

(إِنَّا وَجَدْنَا آَبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آَثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ(23))

(سورة الزخرف)

فربنا جلّ جلاله جاء بمثل حيّ، بنبي كريم، بأبي الأنبياء، بالنبي الذي اجتمع على تعظيمه كل الناس، قال:

(وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ (26))

(سورة الزخرف)

أي واذكروا إذ قال إبراهيم لأبيه:

(وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ(26))

(سورة الزخرف)

التقليد في العقيدة مرفوض:

أيها الأخوة، لا تقليد في العقيدة، في العقيدة التقليد مرفوض وغير مقبول، وعند جمهور العلماء فسق، وعند بعضهم كفر، التقليد لا يكون في العقيدة إطلاقاً، لو سمحنا أن يكون في العقيدة تقليد لأصبحت كل الفرق الضالة على حق، لأنهم ما فعلوا إلا أنهم قلدوا من قبلهم، لا يمكن أن تعطل عقلك مع أي إنسان، ويقول النبي عليه الصلاة والسلام:

((إنما الطاعة في معروف))

[متفق عليه عن علي]

لذلك فالمترفون الذين يحبون الدنيا يقلدون آباءهم، يقتدون بهم، يقدسون العادات ولو كانت مخالفة لكتاب الله، يقدسون التقاليد ولو كانت باطلة، يقدسون التراث ولو كان انحرافاً، الله عز وجل يبين أن هذا النبي الكريم وقف الموقف التالي من أبيه وقومه، قال:

(إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ(26))

(سورة الزخرف)

أي براء من الأصنام التي تعبدونها، إنْ هي إلا أسماء سميتموها ما أنزل الله بها من سلطان، وبراء من عبادتكم لها، وبراء مصدر استعمل مكان الصفة، يعني إنني بريء، براء لأنها مصدر لا تجمع ولا تثنى ولا تذكر ولا تؤنث، تقول المرأة إنني براء، ويقول الرجلان إننا براء، ويقول الرجال إنا براء، على كل هذه القضية لغوية، براء مصدر حلّ محل الصفة.

(إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ(26)إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي (27))

(سورة الزخرف)

العبادة لا تكون لغير الله:

هذه الآية تبين أن العبادة للذي فطرك وحده، لأنه هو سبب وجودك، هو الذي خلق، هو الذي صور، هو الذي رزق، هو الذي ربى، هو الذي هدى، هو الخبير، هو المشرع، إليه المصير، إليه المآب، لا يمكن أن نتصور عبادة لغير الله، وهذا الذي يعبد غير الله يقع في مستنقع آسن، يعني احتقر نفسه، وأخذ بجريرة فعله.

(وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ(130))

(سورة البقرة 130)

أنت حينما تعبد غير الله تحتقر نفسك، يعني باللغة الدارجة لا يليق بك أن تعبد غير الله، أنت المخلوق المكرم، أنت المخلوق الأول لا يليق بك أن تعبد غير الله، هو الذي خلقك، هو الذي أوجدك، هو الذي

رباك، هو الذي سيّرك، هو الذي أمدّك، هو الذي هداك، بيده كل شيء، مالك الملك، إليه يرجع الأمر كله، له مقاليد السماوات والأرض، إليه المصير، هو الأول والأخر والظاهر والباطن، أفتعبد غير الله عز وجل **!؟**

(إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ(26)إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِي(27))

(سورة الزخرف)

الهداية لا تكون إلا من الذي فطر الإنسان:

إذا قال إبراهيم عليه السلام إنه سيهدين بمعنى أنه سيزيدني هدىً، وبمعنى أنه سيثبتني على الهدى وسيزيدني هدى، لكن هناك معنى آخر يستنبط من هذا: أن الهداية لا تكون إلا من الذي فطر الإنسان، يعني عندك جهاز كمبيوتر لو أنه أصابه خلل، أو لو أردت أن تستعمله لا يمكن أن تهتدي إلا بتعليمات الصانع، لا يليق بجهاز معقد جداً أن تسأل عن طريقة استعماله إنساناً جاهلاً، أو صديقاً حميماً لا خبرة له، أو إنساناً أمياً، أو بائعاً لطيفاً تحبه كثيراً، فهؤلاء جميعاً لا يفقهون بهذا الجهاز، ولا يمكن أن نهتدي إلى طريقة تشغيله وصيانته إلا بالاستعانة بصانعه.

ففي الآية إذاً معنيان دقيقان: الأول لا يمكن أن نعبد إلا الذي فطرنا، والذي فطرنا هو الذي سيهدينا، والمعنى أنه من لوازم الكمال الإلهية.. من لوازم ربوبية الله عز وجل أنه لا يدع عباده من دون توجيه، فمثلاً من المعاني الدنيا لأبوة الأب أنه يوجّه أولاده نحو الحق والخير، أيعقل أن يتوهم الأب أن كل مهمته في إطعام أولاده وإكسائهم فقط ؟ لا، فأقل أب يهتم بأخلاق أولاده، وبدينهم، وبمستقبلهم، فمن لوازم كمال الأب أن يوجه أولاده إلى طريق الخير، إذا كان في قلب الأب شيء من الرحمة قليل، وبهذا القليل يحنو على أبنائه، ويرحمهم فكيف بالرحمن الرحيم **!** أيدع عباده من دون توجيهات، من دون رسل، من دون أنبياء، من دون إلهام، من دون تبيين، من دون توضيح فالآية تعني أن الذي فطر الإنسان هو الذي سيهديه هو وحده، يعني الهدى لا يمكن أن يؤخذ إلا من الخالق، إنسان مفكر، مصلح اجتماعي، إنسان طرح أفكاراً، طرح منهجاً، نقول له: بادئ ذي بدء من أين جئتنا بهذا المنهج ؟ من عندك، من أنت حتى تكون مُنظِّراً لنا ؟ من أنت حتى تكون مشرعاً لنا ؟ ماذا تملك من خبرات ؟ ماذا تملك من علم حتى تشرع لهذا الإنسان ؟ لذلك أي تشريع وضعي باطل في أصله، لأن المشرع رجل، إنسان علمه محدود، الدليل:

(وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا(85))

(سورة الإسراء)

العبادة لا تكون إلا لله والهدى لا يكون إلا من الله:

(وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ(255))

(سورة البقرة 255)

صاحب العلم المحدود بالنسبة لطبيعة النفس البشرية لا يمكن أن يكون مشرعاً للبشر، ولو أن الإنسان تعمق في العلم إلى حدّ ما لأن له نزوات وله سهرات وله مصالح وله سقطات، لا يمكن لبشر كائناً من كان أن يكون مشرعاً، لأنه لا يعلم وإذا علم لا ينصف، حينما يشرع الإنسان يوجب التشريع لمصالحه الشخصية، ولا يحيط علماً بخفايا النفس لدى من يشرع له، فلذلك الآية فيها معنيان دقيقان: الأول أن العبادة لا تكون إلا لله، وأن الهدى لا يكون إلا من الله، فمن الذي ينبغي أن تعبده ؟ هو الذي أوجدك من العدم.

(هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا(1))

(سورة الإنسان)

من الذي ينبغي أن تعبده ؟ هو الذي أمدك بما تحتاج، فهذا الهواء من الذي أمدك به؟ وهذا الماء من أمدك به ؟ لو أن السماء شحت ويبس النبات ومات الحيوان ماذا نفعل ببلادنا ؟ نهجرها، لو أن السماء شحت هل تستطيع قوى الأرض مجتمعة أن تصدر قراراً بإنزال المطر ؟ لا، وهذه حقيقة بين أيدينا جميعاً، إذاً من الذي ينبغي أن يعبد ؟ هو الذي خلق، وهو الذي يرزق، وهو الذي يربي، وهو الذي بيده كل شيء، وهو الذي إليه المصير، هذا الذي ينبغي أن تعبده، ومن هذا الذي يقدر على أن يهديك ؟ هو الخالق، أي بمعنى مبسط جداً ؛ أيُّ آلة بين يديك بالبديهة وبالفطرة ومن دون تعقيدات تشعر أن الجهة التي يمكن أن تزودك بالتعليمات لتشغيلها هي الجهة الصانعة وحدها، وأنت لا تقبل أساساً أن تأخذ التوجيهات من غير صانع هذه الآلة، فكم من آلة معقدة، فأول شيء يتبادر له أن يطلب التعليمات، فإن كانت مثلاً باللغة الأجنبية قام وكيل هذه الشركة بترجمة التعليمات بلغتك ليسهل عليك استخدامها، فإذاً أنت بالفطرة حريص على سلامة آلة، أفلا تكون حريصاً على سلامتك، وسعادتك، وآخرتك، فإن كنت حريصاً على كل ذلك، فلن تسلم، ولن تسعد إلا بتطبيق تعليمات الصانع، لذلك:

(وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ(26)إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِي(27))

(سورة الزخرف)

(إلا) استثناء متصل بمعنى أني أعبد الله وحده:

قال (إلا) هذا استثناء متصل، هذه العبارة ترد كثيراً في دروس التفسير، معنى استثناء متصل: أي أن المستثنى منه من جنس المستثنى، إذا قلت: حضر الطلاب إلا خالداً، خالد طالب، أما المنقطع أن يكون

المستثنى من غير جنس المستثنى منه، كأن تقول: حضر الطلاب إلا المدرس، فالمدرس ليس طالباً، فالعلماء قالوا هذا استثناء متصل، لأنهم يعبدون الله ويعبدون أصناماً من دون الله

(إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي (27))

(سورة الزخرف)

هذا استثناء متصل، أي أنا أعبد الله وحده.

(وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ (28))

(سورة الزخرف)

كلمة التوحيد باقية في عقب سيدنا إبراهيم:

إن الذي جعلها كلمة باقية في عقبه هو الله عز وجل، يعني كلمة التوحيد باقية في عقب هذا النبي العظيم سيدنا إبراهيم، وكلمة التوحيد هي لا إله إلا الله، وإذا أردت أن تعرف الدين كله فهو أن تؤمن أنه لا إله إلا الله، فاعلم أنه لا إله إلا الله، لكن دقة الآية أنّ الله عز وجل لم يقل فقل لا إله إلا الله بل قال: **فاعلم أنه لا إله إلا الله**، والإنسان لو فهم القرآن فهماً دقيقاً لانتبه لأفعال الأمر، ومؤدى كل منها، فالله جل جلاله حينما يقول لك فاعلم أي، فاعلم أن الله جل جلاله حينما يقول ذلك فاعلم هذا يقيناً، ما قال قل، قد يقول أحدهم ما معنى قول النبي الكريم: من قال لا إله إلا الله بحقها دخل الجنة ؟ الجواب معروف، قيل وما حقها ؟ قال أن تحجزه عن محارم الله، أحياناً يأتي القول تعبيراً عن عقيدة واضحة، هنا القول بمعنى قل ذلك عن عقيدة، وعن علم:

(وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ(28))

(سورة الزخرف)

الشرك أن تتوهم أن الأمر بيد غير الله:

الرجوع إلى الله دائماً، والإنسان عندما يرى أن الأمر بيد غير الله فإنه لا يرجع إلى الله، بل يرجع إلى من يتوهم أن الأمر بيده، وهذا هو الشرك.

(إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ(13))

(سورة لقمان)

لكن إذا أيقنت أن الأمر كله بيد الله ترجع إلى من ؟ إلى الله، أيضاً ببساطة إذا دخلت إلى دائرة حكومية وأنت محتاج إلى موافقة، تقول: الموافقة بيد من ؟ يا ترى هل بيد المدير العام أم معاون المدير العام ؟

أم مدير الشؤون الذاتية ؟ فإذا أبلغت أن الموافقة من حق المدير العام وحده فإلى أين تتوجه ؟ إلى المدير العام، وتدع كل من سواه، لذلك فهذه كلمة التوحيد.

(وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ (28))

(سورة الزخرف)

أي ذريته.

(لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ(28))

(سورة الزخرف)

إلى الله، فالشرك يرجعك إلى غير الله، يرجعك إلى عبد من عبيد الله، يرجعك إلى الجهة التي أشركتها مع الله، لكن التوحيد يرجعك إلى من ؟ إلى الله، لذلك قال تعالى:

(فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنْ الْمُعَذَّبِينَ(213))

(سورة الشعراء)

من أراد أن يسعد في الدنيا و الآخرة فليرجع إلى الله عز وجل:

إذا أردت أن تسعد فارجع إلى الله، وإذا أردت أن تشقى فارجع إلى غير الله، غير الله عز وجل ليس شيئاً لكن الله كل شيء، وجعلها الله كلمة باقية في عقبه، والهاء في عقبه تعود على سيدنا إبراهيم:

(لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ(28))

(سورة الزخرف)

لعل الذراري من بعده يرجعون إلى الله دائماً، نقطة دقيقة جداً أنت ترجع لمن بيده الأمر، فإذا علمت أن الله بيده الأمر ترجع إلى الله، وإذا علمت أن الأمر بيد زيد أو عبيد أو فلان تتوجه إلى زيد أو عبيد أو فلان، تتوجه وتتوسل معصية الله لأنك أشركته مع الله.

ولقد قلت مرة في خطبة في يوم عرفة يوم وقفة عيد الأضحى المبارك، قلت: من قال الله أكبر ثم أطاع مخلوقاً كائناً من كان وعصى خالقه فهو بحكم من لم يقل: الله أكبر ولا لمرة واحدة ولو رددها بلسانه ألف مرة، لأنه إنما أطاع الأقوى في تصوره، ومن كسب مالاً حراماً، فكأنه ما قال الله أكبر ولا لمرة ولو رددها بلسانه ألف مرة، لأنه رأى أن هذا المال أكبر عنده من الله، أو من طاعة الله، ومن لم يُقم الإسلام في بيته إرضاءً لأهله فهو ما قال الله أكبر ولا لمرة أبداً، ولو رددها بلسانه ألف مرة، لأنه إنما رأى أن إرضاء أهله أكبر عنده من إرضاء الله عز وجل، فالأمر بات واضحاً جلياً.

(وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ(28))

(سورة الزخرف)

الله عز وجل يعلمنا أنه لا إله غيره عن طريق الوحي:

الله عز وجل لا إله غيره لكن دائماً يعلمنا أنه لا إله غيره، كيف يعلمنا ؟ يعلمنا عن طريق الوحي، القرآن كله يلخص بكلمة لا إله إلا الله، تقول هذه مبالغة، لا ليست مبالغة.

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ(64))

(سورة النساء)

ليس القرآن كله، بل الكتب السماوية كلها تحوم حول **" لا إله إلا الله ".**

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ(25))

(سورة الأنبياء)

لا إله إلا الله هي العقيدة وطاعة الله عز وجل هي السلوك:

العقيدة لا إله إلا الله والسلوك هو العبادة، لذلك العلماء قالوا: لا إله إلا الله نهاية العلم والتقوى نهاية العمل، فأنت إذا وصلت إلى لا إله إ لا الله وصلت إلى الحقيقة الكبرى التي لا حقيقة بعدها، وإذا أطعت الله عز وجل فأنت أكرم الخلق.

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ(25))

(سورة الأنبياء)

معرفة أنه لا إله إلا الله هي الكلمة التي تقوم عليها العقيدة الصحيحة، وطاعة الله عز وجل هي السلوك الصحيح، وما سوى ذلك باطل في باطل.

(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ(1)الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ(2)وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ(3))

(سورة المؤمنون)

اللغو ما سوى الله عقيدةً وسلوكاً، أيُّ حركة لغير الله لغو وباطل، وأي توهم بعيد عن الله عز وجل لغو وباطل، يعني أنت ترجع لمن بيده الأمر فإذا علمت أن الله بيده كل شيء رجعت إليه.

الله عز وجل ما أمرك أن تعبده إلا بعد أن طمأنك أن الأمر كله إليه:

لذلك فالله عز وجل ما أمرك أن تعبده إلا بعد أن طمأنك أن الأمر كله إليه قال:

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ(123))

(سورة هود)

الله جل جلاله هو الذي ينبغي أن يعبد، والله جل جلاله هو الذي ينبغي أن يستهدى، الحديث القدسي:

((يا عبادي! كلكم ضال إلا من هديته. فاستهدوني أهدكم. يا عبادي! كلكم جائع إلا من أطعمته. فاستطعموني أطعمكم. يا عبادي! كلكم عار إلا من كسوته. فاستكسوني أكسكم. يا عبادي! إنكم تخطئون بالليل والنهار، وأنا أغفر الذنوب جميعا. فاستغفروني أغفر لكم. يا عبادي! إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني. ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني. يا عبادي! لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم. كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم. ما زاد ذلك في ملكي شيئا. يا عبادي! لو أن أولكم وآخركم. وإنسكم وجنكم. كانوا على أفجر قلب رجل واحد. ما نقص ذلك من ملكي شيئا. يا عبادي! لو أن أولكم وآخركم. وإنسكم وجنكم. قاموا في صعيد واحد فسألوني. فأعطيت كل إنسان مسألته. ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر. يا عبادي! إنما هي أعمالكم أحصيها لكم. ثم أوفيكم إياها. فمن وجد خيرا فليحمد الله. ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه))

[صحيح مسلم عن أبي ذرّ]

إنه كلام قطعي، والله عز وجل أكبر وأعظم من أن يظلمك، أو من أن يحرمك، أو من أن يعطي غيرك ولا يعطيك، أومن أن يكرم غيرك ولا يكرمك.

(بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى جَاءَهُمْ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُبِينٌ(29))

(سورة الزخرف)

كلمة متعت: أي أطلت أعمارهم وأعطيتهم ما يشتهون، يعني فقد تجد إنساناً باعه طويل في الدنيا، المال عنده موفور، وصحته قوية، ودخله كبير، وجاهه عريض، ولا ينقصه شيء من الدنيا وبهجتها، فهل هذا إكرام ؟ هذه الدنيا لا علاقة لها بالإكرام إطلاقاً.

(فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ(15)وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ(16)كَلَّا)

(سورة الفجر)

فلا هذا صحيح ولا هذا صحيح، ليس عطائي إكراماً بل هو ابتلاء، وليس منعي حرماناً بل هو دواء.

حظوظ الدنيا درجات نرقى بها إلى الجنة أو دركات نهوي بها إلى جهنم:

ملخص الملخص أن: حظوظ الدنيا درجات نرقى بها أو دركات نهوي بها، وهي حيادية، كل شيء أعطاك إياه بإمكانك أن ترقى به إلى الجنة، وبإمكان الإنسان الضّال أن يهوي به إلى جهنم، الشيء نفسه كالعقل يمكنك أن تصل به إلى الله، ويمكن أن تستخدمه في المكر والدسيسة والكذب والاحتيال، والمال كذلك، والصحة كذلك، والذكاء كذلك، وطلاقة اللسان كذلك، أي حظ من حظوظ الدنيا يمكن أن تستخدمه

لتكون في أعلى عليين، وأي حظ من حظوظ الدنيا يمكن أن تستخدمه فتكون لا سمح الله في أسفل سافلين.

(بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءِ وَآَبَاءَهُمْ (29))

(سورة الزخرف)

ولقد جاء الحديث الشريف أن النبي عليه الصلاة والسلام قال:

((والله لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى الكافر منها شربة ماء))

[الترمذي عن سهل بن سعد]

لا أعتقد أن هناك مخلوقاً أهون على الناس من بعوضة، فالنبي عليه الصلاة والسلام لم يقل بعوضة بل قال جناح بعوضة.

ولقد رأى النبي الكريم مرة شاة ميتة وقد تفسخت فقال:

((انظروا إلى هذه الشاة كم هي هينة على أهلها، والله للدنيا أهون على الله من هذه الشاة على أهلها))

الدنيا ليست عطاءً بل متاعاً ما دامت تنتهي إلى الموت:

وما أكثر ما أردد الكلمة التالية: الموت ينهي غنى الغني، ينهي فقر الفقير، ينهي قوة القوي، ينهي ضعف الضعيف، ينهي وسامة الوسيم، ينهي دمامة الدميم، ينهي كل شيء، إذاً الدنيا ليست عطاء، فمادامت تنتهي بالموت إلى لا شيء فإذاً ليست عطاءً، هذا العطاء لا يليق بالله عز وجل، لا يليق بالله أن يعطيك شيئاً ثم يسترده، وهذه الفكرة الأخيرة تؤكد لنا هذه الدنيا بمجملها ليست عطاءً، وهذا ملخص قول الله عز وجل:

(بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءِ وَآَبَاءَهُمْ حَتَّى جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُبِينٌ(29))

(سورة الزخرف)

يعني إلى أن أسمعهم الرسول القول الحق، وأن الدنيا متاع والمتاع الشيء العابر، وهي متاع الغرور يُغتر بها.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ)

(سورة التوبة 38)

وبعد ؛ فهل سمعت ؛ أن الله يعجب من سلوك بعض الناس إذ يتناقلون إلى الأرض ويؤثرونها.

(أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآَخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآَخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ(38))

(سورة التوبة 38)

هذه الآية مما تهتز لها النفوس ! وإليك آية أخرى:

(قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنْ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا(77))

(سورة النساء)

إنّ الرب العظيم يقول هذا عطاء قليل يجب أن نصدقه وألا نحرص عليه وألا نعصي الله أو نتنافس من أجله.

أشقى الناس من يأتيه الحق فيكفر به:

(وَلَمَّا جَاءَهُمْ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ(30))

(سورة الزخرف)

هذا أشقى إنسان إذ يأتيه الحق فيكفر به، يأتيه الحق فيسخر منه، يأتيه الحق فيتهم من يأتي بالحق بالسحر والشعوذة والكهانة وما إلى ذلك.

(وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ(30))

(سورة الزخرف)

هناك سؤال أطرحه عليكم: الكفار قالوا عن النبي إنه ساحر ومجنون وقالوا كاهن، هذه تهم وبهتان، هذا ما قالوه، فلماذا أثبته الله في القرآن وصار يتلى إلى يوم القيامة ؟

(وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ(39))

(سورة الذاريات)

ما الحكمة من أن الله سبحانه وتعالى أثبت التهم الباطلة التي نعت بها النبي عليه الصلاة والسلام وهو سيد الخلق وحبيب الحق ؟ الجواب: أنّ أيّ إنسان دعا إلى الله في الدنيا، ثم إذا هاجمه من هاجمه، وطعن به من طعن، وانتقص من قدره من انتقص فلئلا يتألم لما يصفه به الآخرون، فإنه يتعزى عندما يجد لنفسه في شخص النبي الكريم أسوة حسنة، يعني هذه التهم التي أتهم بها النبي وهو منها براء أثبتها الله في القرآن الكريم تطييباً لخاطر أمته من بعده، فإذا النبي الكريم قالوا عنه ساحر وشاعر ومجنون وكاهن فمن أنت ؟ فطب نفساً، وتابع مسيرة الدعوة إلى الله والإيمان به، والعمل الصالح الذي يرضاه.

الحياة الدنيا هي معركة أزلية بين الحق والباطل:

أيها الأخوة إن الحياة الدنيا كلها من بدايتها إلى نهايتها معركة أزلية بين الحق والباطل، والنبي الكريم قال:

((للمؤمن أربعة أعداء: مؤمن يحسده، ومنافق يبغضه، وشيطان يضله، وكافر يقاتله))

[الجامع الصغير 7352]

فليمعن أحدكم النظر في الحديث فالدنيا دار ابتلاء، وليست دار استواء:

(بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُبِينٌ(29))

(سورة الزخرف)

الإنسان يمتع لكن إذا جاء الحق ولم يستجب يهلك، أحياناً الله عز وجل يعطيك فرصة، لكن بعد أن توضحت الأمور وأسمعك الحق بالحجج الدامغة لن يعذرك أبداً.

المؤمن لا يقلد بل يتحقق بالدليل:

وبعد فالآية الأولى:

(وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ(26))

(سورة الزخرف)

توجز أمر المؤمن الصادق من أنه لا يقلد ولكن يتحقق، وأنت كمؤمن لا يليق بك إلا الدليل.

(وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ(117))

(سورة المؤمنون)

أنت تحتاج إلى برهان، إذاً:

(حَتَّى جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُبِينٌ(29)وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ(30))

(سورة الزخرف)

العلم هو الوصف المطابق للواقع وغير ذلك فهو جهل:

يعني إذا قلت عن هذه الكأس إن هذا الماء الذي فيها ليس صافياً وهو صافٍ، فوصفك المغاير للحقيقة هل يغير من طبيعة الماء شيئاً ؟ أبداً لن يغير شيئاً، من تعاريف العلم: أنه الوصف المطابق للواقع، فإن لم يكن الوصف مطابقاً للواقع فليس علماً، أصبح جهلاً، الجهل ليس فراغاً بل الجهل علاقات باطلة، والإنسان الجاهل عنده آلاف العلاقات، وآلاف التصورات، وآلاف المقولات لكن كلها غير صحيحة، أما الأمي فهو الفارغ، فالأمي وعاء عقله فارغ، أما الجاهل فعقله مملوء بالعلاقات الباطلة، وبالتصورات الخاطئة، وبالأفكار الفاسدة، وبالعقيدة الزائغة، فهذا هو الجهل.

لو أن مصباح الزيت الذي في السيارة، ظنه السائق مصباحاً تزيينياً، فإذا تألق، فهذا التألق من أجل أن يسليه أثناء القيادة فيكون هذا جاهلاً، فالجاهل هو الذي لديه تصورات ولكنها كلها باطلة.

القرآن كلام الله لا يليق به إلا أن ينزل على عظيم حسب نظرة الكفار:

(وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ(30))

(سورة الزخرف)

قولهم عن الحق أنه سحر لن يجعله سحراً، بل يبقى الحق حقاً والباطل باطلاً، والأسماء لا قيمة لها.

(إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآَبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ)

(سورة النجم 23)

(وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآَنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ(31))

(سورة الزخرف)

هم عندهم العظيم هو الغني، والعظيم هو الوجيه، والعظيم هو القوي، وهذه هي مقاييسهم، وإذا كان القرآن كلام الله فلا يليق به إلا أن ينزل على عظيم حسب نظرتهم، وعلى رجل من أعلام قومهم فمن هو محمد بنظرهم ؟ فقير، يتيم الأب والأم، ليس من هؤلاء الكبار الأغنياء الأقوياء المسيطرين.

(وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآَنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ(31))

(سورة الزخرف)

يعني لو أن هذا القرآن نزل على الوليد بن المغيرة نقبله، هذا إنسان من زعماء مكة، لكن من هو محمد إزاءه ؟ يقول الله عز وجل:

(أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ (32))

(سورة الزخرف)

مقياس ربنا الطاعة ومقياس أهل الأرض الغنى والجاه:

النبوة رحمة الله عز وجل أفهم يقسمونها ؟ هذا شأن الله عز وجل، الله له مقاييس أخرى، مقياس أهل الأرض الآن هو الغنى لكن مقياس ربنا الطاعة له، فقد تجد صاحب شركة ضخم الثروة والسطوة لكن حاجبه عند الله أعظم منه، مقياس ربنا عز وجل الطاعة، في حين أن مقياس الناس الغنى، والقوة، والجاه، والسلطان.

سيدنا عمر رضي الله عنه قال لسيدنا سعد بن أبي وقاص: **يا سعد لا يغرنك أنه قد قيل خال رسول الله، فالخلق كلهم عند الله سواسية**، ليس بينه وبينهم قرابة إلا طاعتهم له فقط.

فأنت بطولتك أن تعرف مقياس ربنا عز وجل، ابتغوا الرفعة عند الله وطريقها التقوى والطاعة، بينما هي عند الناس المال والقوة.

عالم القيم وعالم الدين هو الحق عند الله عز وجل:

أي شخص قوي يقولون هذا يده تصل إلى كل مكان فالناس يحترمونه كثيراً، كما يحترمون الغني والقوي وهذا مقياس مادي، لكن عالم القيم وعالم الدين هو الحق عند الله عز وجل، والإنسان لا يرقى إلا بمعرفة الله وبأخلاقه الفاضلة، والدليل: أن النبي عليه الصلاة والسلام هو أعظم عند الله، واسمع يا أيها الأمي حسبك رتبة في العلم أن دانت لك العلماء.

وبعد فقد تجد شاباً يحمل شهادة الليسانس في الشريعة، ثم يحصل على دبلوم في الشريعة، ثم شهادة ماجستير، وبعد ذلك يختار حوالي عشرين حديثاً من أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقوم بشرحها ويقول: هيأت أطروحة في الحديث الشريف، ونال على أثر هذه الأطروحة شهادة الدكتوراه.

فماذا فعل هذا الشاب القدير ؟ فهم بعضاً من أحاديث رسول الله، فأين هذا وغيره من النبي صلى الله عليه وسلم.

إذاً يا أيها الأمي حسبك رتبة في العلم أن دانت لك العلماء.

إنّ النبي عليه الصلاة والسلام كان أعظم الخطباء، وأعلم العلماء، وأفقه الفقهاء، وأقضى القضاة، وأعظم المفتين، وكان قائداً عسكرياً، وزعيماً مدنياً، ومصلحاً اجتماعياً، ولما أراد الله عز وجل أن يمدحه فبماذا مدحه ؟ لقد قال سبحانه:

(وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ(4))

(سورة القلم)

فهذا مقياس ربنا.

الصفة المرموقة عند الله الخلق العظيم:

الإنسان قد يكون ذكياً جداً، وطليق اللسان، وقد يكون فهيماً، ويحمل أعلى الشهادات، وهذه كلها صفات عقلية، وأما الصفة المرموقة عند الله الخُلُق العظيم، ومن هنا قال عليه الصلاة والسلام:

((ذهب حسن الخلق بخير الدنيا والآخرة))

[رواه الطبراني عن أنس بن مالك]

فإذا أردت أن ترقى عند الله فكن ذا خلق عظيم، لأن الله عز وجل يمكن أن تعرفه، ويمكن أن تعرف أمره، ويمكن أن تعرف خلقه، أما خلق الله عز وجل الفيزياء والكيمياء والرياضيات والفلك والهندسة والطب وعلم النفس وعلم الاجتماع والتاريخ والجغرافيا والفيزياء النووية والكيمياء العضوية والكيمياء اللاعضوية هذه علوم الأرض، وهي علوم خلق الله، وأما علم أمر الله، فهو الشريعة والفقه والمقارن

وأصول الفقه وأحكام الزواج والطلاق وأحكام العارية والبيوع إلى أخره هذا علم الأمر والنهي وعلم الشريعة.

لكن معرفة الله لا تحتاج إلى مدارسة بل إلى مجاهدة، جاهد تشاهد، إذا غضضت بصرك عن محارم الله فالله عز وجل ألقى محبته فيك وتجلى عليك وألقى في قلبك نوراً تعرفه به هذا معنى من عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم.

(وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنْ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ(31)أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا (32))

(سورة الزخرف)

إن كل ما يتعلق بدنياهم قد قسمه الله بينهم، قال سبحانه نحن قسمنا بينهم معيشتهم، وجعلنا فيهم غنياً وفقيراً، قوياً وضعيفاً، صحيحاً وسقيماً، وفيهم على الخط الوسط وآخرون تحت الأحمر.

(نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا (32))

(سورة الزخرف)

فكل ما يتعلق بهم ولا يستطيعون تدبيره نحن قسمنا بينهم معيشتهم، أما ما يتعلق برحمة الله عز وجل، فقال سبحانه:

(أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ (32))

(سورة الزخرف)

هذه الآية فيها معنيان:

هذه الآية من أدق الآيات:

(وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ(32))

(سورة الزخرف)

هناك معنيان للآية: أما المعنى الأول فسأسمعكم إياه، وأما المعنى الثاني سأبينه لكم:

1 ـ المعنى الأول:

قد جعل الله غنياً وفقيراً لحكمة بالغة، وجعل قوياً وضعيفاً، وجعل صحيحاً وسقيماً، وجعل ذكياً وأقل ذكاءً، وجعل وسيماً وأقل وسامة، حظوظ الدنيا متفاوتة، شخص ما حجمه المالي ألف مليون، وآخر مئتا مليون، وثالث لا يكفيه راتبه يومين، هذه أرزاق متفاوتة، والعقول متفاوتة، والقوة متفاوتة، هذا هو المعنى الأول.

2 ـ المعنى الثاني:

الله أعطى كل إنسان اختصاصاً، ومن خلال اختصاصه تفوق على الآخرين، فهناك الطبيب والمهندس والحقوقي والمدرس والأستاذ الجامعي، كما أن هناك الميكانيكي والحداد والنجار وعامل البناء إلى غير ذلك من الأعمال والمهن وكل برز في اختصاصه، وكل يحتاج إلى غيره.

هذه الآية تعني إذاً أن الله أقدر كلّ إنسان على عمل، ويسره له، وبهذا العمل تفوق على بقية الخلق، وأنت بهذا الاختصاص سيد، ولو أعطوا عالماً من علماء الأزهر الكبار تخطيط قلب ليدرسه فماذا يفهم منه ! يرى خطوطاً ليس إلا، بينما الطبيب ينظر إلى التخطيط فيقول عند المريض تسرع في القلب، كما يفهم الطبيب منه أشياء كثيرة، فعالم الأزهر أمام التخطيط أُمّي، وهذا الطبيب أمام معاني كتاب الله أُمّي.

(وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ (32))

(سورة الزخرف)

كل إنسان تفوق بشيء فهو سيد في مجاله، ولذلك قيل:

احتج إلى الرجل تكن أسيره، واستغن عنه تكن نظيره، وأحسن إليه تكن أميره.

فأنت ذو باع طويل بالعلم ولك شخصيتك عندك جهاز معطل فلا بد لك من شخص مختص يصلحه، وإلا بقي معطلاً، لأنه ليس لديك قدرة أو خبرة لإصلاحه، وهذا المعنى الثاني للآية:

(وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا (32))

(سورة الزخرف)

الله رفع بعض الناس فوق بعض درجات ليصبح المجتمع متكاملاً:

المعنى بصورة عامة أن الله سبحانه وتعالى رفع بعض الناس فوق بعض درجات في الاختصاصات، وفي كافة المجالات الدنيوية.

(وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا (32))

(سورة الزخرف)

ليصير المجتمع البشري متكاملاً، ولو كان كل فرد يتقن كل شيء لما بقيت حاجة ليكون الإنسان اجتماعياً ولاستغنى كل فرد بنفسه ولكن:

(وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا (32))

(سورة الزخرف)

سخرياً ؛ من السُّخرة لا من السخرية، أي الخدمة، أنت تَخدِمِ وُتخدَم، بهذه الطريقة أنت تمتحن، الإنسان يمتحن بالعمل، لكن الإنسان لو جعل اختصاصه لجمع المال، مسرور لأنه يملك ثروة طائلة، الله نبهه أنه ليس القصد أن تجمع الثروة من الاختصاص.

(وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ(32))

(سورة الزخرف)

القصد من الحرفة أن تخدم بها المسلمين، فمن أين يأتي الجشع ؟ حينما تريد من هذه الحرفة أن تجمع ثروة طائلة، أنت إذاً تفعل أشياء مخالفة للفطرة، ترفع الأسعار وتستغل وتطعن بغيرك وتدلس وتكذب وتوهم وتغش ثم تجمع الأموال، لكن:

(وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ(32))

(سورة الزخرف)

ليس الهدف من الحرفة جمع المال بل خدمة الناس:

بالمناسبة أيها الأخوة. إليكم هذه الحقيقة الصارخة إن أيّ إنسان بأي حرفة إذا وضع المادة هدفه سقط وهان، أما إذا وضع المادة وراء ظهره ارتقى، وجاءته المادة حلالاً، وكل إنسان صاحب حرفة مادي ينتهي إلى خسران، فاجعل همك الأول خدمة المسلمين، فإذا كنت بهذا الإتقان وهذا الإخلاص أتتك الدنيا وهي راغمة، وإذا أردت الدنيا وحدها على حساب اختصاصك وإخلاصك وصدقك وإتقانك ذهبت منك الدنيا وذهب منك المال واستحق الإنسان لعنة الناس، ولذا فكل إنسان يستغل حرفته لابتزاز أموال الناس، فهو ملعون عند الله وعند الناس، وكل إنسان يهدف إلى خدمة الناس والمادة وراء ظهره يأتيه الثناء من الله ومن الناس وتأتيه الدنيا راغمة مثقلة بالمال الحلال هذه نقطة مهمة جداً، ولتعلم أن أكبر رأسمال تملكه في دنياك هو ثقة الناس، ولن يتحقق لك ذلك إلا بالتقوى والصلاح، واجعل نصب عينيك:

(وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ(32))

(سورة الزخرف)

واجعل شعارك في عملك:

(وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ(32))

(سورة الزخرف)

أتقن عملك، وانتظر من الله الثواب:

(وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ(32))

(سورة الزخرف)

والإنسان عند الموت يفقد كل شيء، ولكن رحمة الله هي التي تبقى، وتنفع.

الاختصاصي يصل بإخلاصه إلى رحمة الله:

من المعاني المستفادة من هذه الآية: أن الإنسان صاحب الاختصاص (كل إنسان له اختصاصه وعمله هو اختصاصه) ممكن أن يصل بعمله إلى رحمة الله، بإخلاصه وصدقه وأمانته ونصحه للمسلم، أما بعدم إخلاصه وغشه وتلاعبه واحتياله فقد يصل إلى المال الوفير ولكن يخسر نفسه، إذ يضيعها في جمع المال، واللهاث وراء الثراء. فبعض الأطباء يعطي المريض إبرة ماء مقطر ليكسب ثمنها حراماً وغشاشة، ولئن كان المريض لا يعرف فإن ربك بالمرصاد، لا أحد يجعل اختصاصه استغلالاً لحاجة الناس إليه، الله عز وجل يقول:

(وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ (32))

(سورة الزخرف)

إن على كل إنسان أن يتقي الله، خلل بسيط بدماغه يذهب اختصاصه، أنا أعرف رجلاً يحمل دكتوراه من النوع الذي نحن في أمسّ الحاجة إليه، وارتقى بالمناصب إلى منصب معاون وزير، وتزوج امرأة من أوروبا وعاش في بحبوحة، ثم فقد بصره وقبع في بيته، ثم سرّح من منصبه، أنقل لكم ما قاله لصديقه، قال له: والله أتمنى أن أجلس على الرصيف وأن أتسول وألا أملك من الدنيا إلا معطفي وأن يردّ الله عليّ بصري، فليتعظ الإنسان بغيره، ولا يستغل اختصاصه لظلم الناس، ولا يبتز أموال الناس، ولا أن يتعالى باختصاصه على الناس، وليعلم أن للناس كرامة عند الله سبحانه هو خلقهم والكل عياله والآية دقيقة المعنى جداً ولئن كان قد رفعك بهذا الاختصاص، أو رفعك بهذه الوظيفة، فعليك أن تعلم أن الله أعطاك ليمتحنك، فإن اجتزت الامتحان فهنيئاً لك، وإلا فالحذر الحذر، قال الله عز وجل:

(وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ (32))

(سورة الزخرف)

من أجل أن تخدم أخاك، لا من أجل أن تستغله:

(لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا (32))

(سورة الزخرف)

عطاء الله للإنسان امتحان له:

حينما رفعك فوق منزلة أخيك فمن أجل أن تخدمه، ومن أجل أن ترقى إلى الله بخدمته، يقول الله عز وجل:

(وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ(32))

(سورة الزخرف)

فإخلاص الإنسان في عمله، وإتقانه لعمله وصدقه وأمانته ونصحه للمسلمين هدف سامٍ وكبير ومرتقٍ إلى الله عز وجل ومشرف، إن بعض معامل الطحينة تضع إسبيداج في هذه المادة فتصبح بيضاء فيرتفع سعرها خمس ليرات، وهذه المادة تستعمل في الدهان هذا يجعل كسبه للمال عن طريق تلوين هذه المادة الغذائية بلون يؤذي الناس في صحتهم، ولئن كان الآخرون لا يعرفون لكن الله عز وجل يعرف ويشاهد ثم ينتقم، واعلم أنك إذا أخلصت واتقيت الله فرحمته خير لك من المال كله.

ما كل ربح هو مال، فأحياناً يكون الربح رحمة الله ومحبته لك ورضوانه، فتقر عينك، وتطمئن نفسك، ويأتيك الرزق وفيراً، لأن الله لا يخلف الميعاد، فهو القائل:

(وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا (2) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ(3))

(سورة الطلاق)

وكرر دائماً:

(وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ(32))

(سورة الزخرف)

الدرس القادم إن شاء الله تعالى:

(وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَانِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِنْ فَضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ(33)وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ(34)وَزُخْرُفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ(35))

(سورة الزخرف)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الزخرف 043 - الدرس (5-9): تفسير الآيات 33-45

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 01-07-1994

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الخامس من سورة الزخرف.

الآيات التالية أصل في نفي الجبر:

مع الآية الثالثة والثلاثين وهي قوله تعالى:

بسم الله الرحمن الرحيم

(وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ (33) وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ (34) وَزُخْرُفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ (35))

(سورة الزخرف)

هذه الآية أيها الأخوة أصل أيضاً في نفي الجبر، كما أن قوله تعالى:

(سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ(148))

(سورة الأنعام)

فهاتان الآيتان أصل في نفي الجبر عن الإنسان كذلك هذه الآية ؛ لولا إعرابها أو معناها حرف امتناع لوجود، أداة شرط غير جازمة، و (لو) حرف امتناع لامتناع أداة شرط غير جازمة.

(وَأَلَّوْ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا(16))

(سورة الجن)

الفرق بين (لو) و (لولا):

امتنعنا عن أن نسقيهم ماءاً غدقاً لامتناع استقامتهم على الطريقة، حرف امتناع لامتناع، لو جئتني لأكرمتك، امتنع إكرامي إياك لامتناع مجيئك، لكن (لولا) حرف امتناع لوجود، لولا المطر لهلك الإنسان، امتنع هلاك الإنسان لوجود المطر، الآية:

(وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا(33))

(سورة الزخرف)

لمَ لمْ يجعل الله عز وجل لبيوت الكافرين سقفاً من فضة ؟ طبعاً القصد لجميع الكافرين ؛ فهناك كفار فقراء، وبعض الكفار أغنياء، أما الآية: لمَ لمْ يجعل الله لكل كافر بيتاً واسعاً مزخرفاً فيه من المباهج وما تحار معه العقول وما لا يعد ولا يحصى ؟

(وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِنْ فِضَّةٍ(33))

(سورة الزخرف)

لمَ لمْ يجعل الله بيوت الكافرين من فضة ؟

تصور أن السقف كله من الفضة، في زماننا بعض البيوت سقوفها من الجبص فيقول الناس شيء بديع، مذهل، فكيف إذا كان فضة مزخرفة ؟ من الفضة الخالصة المزخرفة المنقوشة.

(وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ (33))

(سورة الزخرف)

المعارج هي الأدراج، يعني وأن يكون للبيوت أدراج فخمة جداً من الرخام ولها جوانب مزخرفة، أي أن كل شيء ممكن أن يرتفع مستواه إلى درجة مذهلة.

(وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ (33) وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا)

(سورة الزخرف)

والأبواب من فضة أيضاً.

(وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ (34))

(سورة الزخرف)

ناهيك عن أن السرر كذلك من الفضة.

(وَزُخْرُفًا(35))

(سورة الزخرف)

والإنسان قد يدخل إلى بيت فيه فخامة، وفيه أناقة، وفيه زينة، وفيه اتساع، وفيه راحة، وفيه وسائل، وقال سبحانه:

(وَزُخْرُفًا(35))

(سورة الزخرف)

أي أن السقف من الفضة المزخرفة، والأدراج من الفضة المزخرفة، والأبواب من الفضة، والسرر التي يجلسون عليها من الفضة، والبيت إجمالاً مزخرف، وبتعبير العصر يقولون: زينة وزخارف تحار فيها العقول.

الله تعالى لم يجعل الدنيا للكفار لأنه أصلاً لم يخلق للجنة أناساً وللنار أناساً:

ليس القصد الفضة بالذات، القصد أن الله عز وجل لو خلق الإنسان ليكون كافراً ولم يرد منه الهدى، ولم يخلقه لجنة عرضها السماوات والأرض، لو أن الله خلق للجنة أناساً كما يزعمون وخلق للنار أناساً، لو أن الله سبحانه وتعالى خلق الإنسان في الأصل كافراً وخلق إنساناً آخر في الأصل مؤمناً، لو أنه فعل ذلك لجعل الدنيا للكفار لهوانها على الله سبحانه، متى تعطي عدوك شيئاً ؟ إذا كان هذا الشيء هيناً عليك، ولأنها هينة فقد شبهها النبي عليه الصلاة والسلام بشاةٍ ميتةٍ متفسخة فقال لأصحابه حين رآها: انظروا إلى هذه الشاة كم هي هينة على أصحابها ألقوها في الطريق، وللدنيا أهون على الله من هذه الشاة على أصحابها، والحديث الذي تعرفونه جميعاً يؤكد حقيقة شأن الدنيا، قال عليه الصلاة والسلام:

((والله لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى الكافر منها شربة ماء))

[الترمذي عن سهل بن سعد]

الله تعالى جعل الدنيا دار بلوى والآخرة دار عقبى:

الدنيا هينة على الله لا قيمة لها، يعطيها لمن يحب ولمن لا يحب، بل في الأعم الأغلب يعطيها لمن لا يحب، من عرفها لم يفرح لرخاء ولم يحزن لشقاء، قد جعلها الله دار بلوى، وجعل الآخرة دار عقبى، فجعل بلاء الدنيا لعطاء الآخرة سبباً، وجعل عطاء الآخرة من بلوى الدنيا عوضاً، فيأخذ ليعطي ويبتلي ليجزي.

إذاً (لولا) حرف امتناع لوجود، لماذا لم يعط الله للكفار ما يشتهون من زينة الدنيا ؟ من متاعها ؟ من مباهجها ؟ من بيوتها ؟ من نسائها ؟ من قصورها ؟ من مركباتها ؟ من مقاصفها ؟ من بساتينها ؟ من جناتها ؟ ليس القصد البيت فقط، البيت وما يتبع البيت، البيت والبستان والمركبة، لِمَ لمْ يعط الله جلّ جلاله للكافرين هذه المباهج التي يصبو الناس جميعاً إليها ؟ قال سبحانه:

(وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً(33))

(سورة الزخرف)

الناس كلهم مخلوقون لهدف واحد ومدعوون لمعرفة الله:

لئلا يكون الناس أمة واحدة، ما معنى أمة واحدة ؟ أي مخلوقون ليؤموا هدفاً واحداً، مخلوقون لهدف واحد، مدعوون لمعرفة الله، مطلوبون للجنة، لو أن الله عز وجل خلق أناساً للنار وأناساً للجنة، خلق أناساً مؤمنين وأناساً كافرين، لو أن الله سبحانه وتعالى أجبر عباده على الكفر لم يكن هناك من حكمة

في تعذيب الكفار في الدنيا، والتضييق عليهم، وسوق الشدائد لهم، لكن لأنه خلق كل خلقه ليسعدهم، خلق كل خلقه من نفس واحدة ومن طبيعة واحدة ولهدف واحد نبيل، لأن الناس كلهم خلقوا لهدف واحد إذاً سيعالجهم وسيضيق عليهم، ولا يعطيهم سؤلهم في الدنيا كما يريدون، بل يعطيهم ما ينبغي أن يعطيهم إياه كي يلتفتوا إلى الله عز وجل.

الناس أمة واحدة، من طبيعة واحدة، من بنية واحدة، من جبلة واحدة، أودعت فيهم الشهوات ليرقوا من خلالها إلى رب الأرض والسماوات، أعطوا حرية الاختيار، زودوا بعقل يدلهم على الله عز وجل، فطروا فطرة نقية صافية طاهرة، خصائص واحدة والهدف واحد والطريق واحد، كل هذه المعاني تجمعها كلمة:

(وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً(33))

(سورة الزخرف)

الله سبحانه خلق الناس ليكونوا سعداء في الدنيا والآخرة:

يعني أنت ترضى من أب عنده خمسة أولاد أن يهيئ واحداً ليكون طبيباً وواحداً ليكون حاجباً، ويكون أحدهم دخله غير محدود وآخر دخله محدود، ويهيئ أحدهم ليكون عالماً بينما يُبقي أحدهم جاهلاً، فهذا تصرف لا تقبله من أب أساساً، فالله عز وجل خلق الناس أمة واحدة ليؤموا هدفاً واحداً، ليقصدوا الجنة وما أعدّ لهم فيها من نعيم مقيم، خلقهم جميعاً ليكونوا سعداء في الدنيا والآخرة، هذا المعنى الذي يليق بالله عز وجل.

(وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً(33))

(سورة الزخرف)

((يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ، فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ، يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلَّا مَنْ أَطْعَمْتُهُ، فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ، يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ عَارٍ إِلَّا مَنْ كَسَوْتُهُ، فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ، يَا عِبَادِي، إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا، فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ، يَا عِبَادِي، إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي، يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، فَسَأَلُونِي، فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ، يَا عِبَادِي، إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدْ اللَّهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ))

[أخرجه مسلم عن أبي ذر]

أرجو الله سبحانه وتعالى أن أكون وفقت في توضيح معنى:

(وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً(33))

(سورة الزخرف)

جميعاً مطلوبون، جميعاً خلقنا للجنة، جميعاً خلقنا للسعادة، جميعاً يحفزنا الله عز وجل لنلتفت إليه ونتقرب منه، فليس هناك عبد مخلوق للنار كما يدعي بعضهم، وعبد مخلوق للجنة، ليس هناك عبد قدّر عليه أن يكون كافراً من الأزل، وكفر في الدنيا نفياً لقضاء الله عز وجل، وسوف يحاسب في الآخرة لأنه كفر بقضاء الله، هذه المعاني الجبرية ما أنزل الله بها من سلطان، إذاً امتنع امتناع الكفار في الحياة الدنيا لأنهم مخلوقون للجنة.

الدنيا دار عمل و تنافس و ابتلاء:

كذلك ليس من الحكمة أنه إذا إنسان خُلق للجنة أن تمتعه في الدنيا إلى أقصى درجة، كما أنه ليس من الحكمة أن تجعل في الصف التعليمي المقاعد وثيرة جداً بحيث تصبح كالسرر تتحرك كمقاعد الطائرات، فهذا ليس معقولاً لصف في مدرسة، فلو أن المقعد مريح إلى درجة أنه يصبح كالسرير فلأبسط حركة ينام الطالب، هذا المكان مكان انتباه، مكان سماع محاضرة، مكان تفاعل مع المدرس وليس مكان استلقاء، أيعقل أن يكون الصف فيه كل ما لذّ وطاب من الطعام ؟ ليس من المعقول لأنه يتنافى مع الهدف التعليمي.

فلو أن الدنيا هي كل شيء للإنسان، لو أن الدنيا ليس وراءها آخرة فالمنطق يحتم ألا يكون هناك عذاب، وليس هناك مشكلة غنى وفقر، ولا قوي وضعيف، ولا غني وفقير، ولا وسيم ودميم، ولا غبي وذكي، إذا كان إلهنا واحداً وخلقنا للدنيا فلماذا التفاوت ؟ لا معنى للتفاوت، لكن لأننا خلقنا للآخرة ولجنة عرضها السماوات والأرض، وجئنا إلى الدنيا لتكون دار عمل ودار تنافس ودار ابتلاء لذلك هناك الشدائد، هناك الابتلاء بالعطاء والمنع، هناك الابتلاء بالغنى والفقر، والابتلاء بالقوة والضعف، دار ابتلاء، دار عمل، دار كشف، دار توبة، دار إنابة إلى الله عز وجل، فلذلك التنعم يأتي عرضاً، ليس التنعم في الدنيا هو الأصل، والنبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((إِيَّاكَ وَالتَّنَعُّمَ فَإِنَّ عِبَادَ اللَّهِ لَيْسُوا بِالْمُتَنَعِّمِينَ))

[أخرجه أحمد عن معاذ بن جبل]

الله تعالى عندما يعطي الدنيا للكافر لا لكرامته على الله بل لهوانه عليه:

إذا كان هناك إنسان يبني حياته على السرور، على الاسترخاء، على التنعم بالطعام والشراب وكل المباهج، يقعد عن طلب الحق، يقعد عن طلب العلم، يقعد عن عمل صالح، فهذا الإنسان ما عرف حقيقة الدنيا بل جهلها، إذاً ما الذي لم يجعل للكفار جميعاً بيوتاً فخمة وبساتين غنّاء وقصور رحبة ومال وفير وجمال لماذا ؟ لأنهم ما خلقوا للدنيا فقط، ولا أنهم خلقوا ليكونوا كفاراً، طبعاً هناك حالات نادرة، هناك إنسان يعطى الدنيا لا لكرامته على الله، بل لهوانه على الله، كما قال الإمام عليّ كرم الله وجهه:

"فلينظر ناظر بعقله أن الله أكرم محمداً أم أهانه حين زوى عنه الدنيا"

قضية السيرة النبوية تعد أهم موضوع في هذا الأمر، يعني سيد الخلق وحبيب الحق ـ سيد ولد آدم ولا فخر ـ سيد الأولين والآخرين، سيد الأنبياء والمرسلين، المخلوق الأول الذي أقسم الله بعمره الثمين، لم يسكن في بيت فخم، كان إذا صلى قيام الليل نحى السيدة عائشة جانباً حتى يصلي لأن غرفته الصغيرة جداً لا تتسع لصلاته ونومها، كان إذا دخل بيته يقول:

((هل عندكم شيء ؟ قالوا: لا، قال: فإني صائم))

[مسلم عن عائشة]

بينما في بيوتنا لا يمكن ألا تجد شيئاً أبداً، لو أن الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى الكافر منها شربة ماء، لأن النبي عليه الصلاة والسلام سيد الخلق وكان فقيراً، قال:

((لَقَدْ أُخِفْتُ فِي اللَّهِ، وَمَا يُخَافُ أَحَدٌ، وَلَقَدْ أُوذِيتُ فِي اللَّهِ، وَمَا يُؤْذَى أَحَدٌ، وَلَقَدْ أَتَتْ عَلَيَّ ثَلَاثُونَ مِنْ بَيْنِ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، وَمَا لِي وَلِبِلَالٍ طَعَامٌ يَأْكُلُهُ ذُو كَبِدٍ إِلَّا شَيْءٌ يُوَارِيهِ إِبْطُ بِلَالٍ))

[أخرجه أحمد والترمذي وابن ماجة عن أنس]

السيدة فاطمة طلبت من النبي عليه الصلاة والسلام خادمة، فقال:

((والله يا فاطمة لا أؤثرك على فقراء المسلمين، لا أجد المزيد وفقراء المسلمين أولى منك))

لا يليق بخالق الأكوان أن يخلق أناساً للنار وأناساً للجنة:

فلولا أن يكون الناس أمة واحدة، وأنهم جميعاً مطلوبون، جميعهم مخلوقون لجنة عرضها السماوات والأرض، ويريد أن يتوب الله علينا جميعاً، جميعاً يريد أن يبين الله لنا، أن يخفف عنّا، هذا المعنى يتناسب مع عظمة الله ومع كماله، إذا الإنسان ميز بين أولاده يسقط، فإن كان هذا لا يليق بإنسان أيليق بخالق الأكوان ! قد تجد الإنسان خطأً يميز بين أولاده أو عن غير قصد فيصبح أحدهم في أعلى مرتبة اجتماعية، يعتنون بدراسته إلى حد أن يأخذ الدكتوراه ويزوجه أجمل فتاة وأفخر بيت، وابن آخر مهمل،

مثل هذا الأب يسقط في عينيك، هذا ابنك وهذا ابنك، لم كل هذه العناية بزيد وقد حجبتها عن عبيد ؟ ما ذنب الثاني ؟ إن كان هذا لا يليق بإنسان ضعيف أيليق بخالق الأكوان أن يخلق أناساً للنار ولا ذنب لهم وأناساً للجنة من غير سبب يدعو لذلك، فهذا المعنى لا يليق بحضرة الله عز وجل.

(وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِنْ فَضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ (33) وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ (34) وَزُخْرُفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآَخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ (35))

(سورة الزخرف)

عطاء الله سرمدي وأبدي فهو الجنة لا الدنيا:

كلمة متاع تعني شيئاً وشيك الزوال من الناس، مَن اعتنى بكسوة بيته سنتين، ويوم انتهى العمل في البيت توفى صاحبه ولم يسكنه، وهناك أشخاص نالوا أعلى الشهادات، وما استمتعوا بها أبداً مات في المطار في طريق العودة إلى بلده، أناس كثيرون قبضت أرواحهم ليلة عرسهم، معنى ذلك أن الدنيا هينة على الله عز وجل، بالمناسبة لا يليق بالله عز وجل أن تكون الدنيا عطاءً له لأن الدنيا منقطعة، كنت أقول دائماً أن الموت ينهي غنى الغني، إنسان ترك أربعين مليوناً ألف مليون، أربعة آلاف مليون دولار، لا بدّ من أن يموت فإذا مات ما مصير هذا المال ؟ لم يعد له، إذ مات، وانتهى أمره، فالموت ينهي غنى الغني وينهي فقر الفقير، وقوة القوي، ووسامة الوسيم، وذكاء الذكي، ينهي كل شيء، إذاً لا يليق بالله عز وجل أن تكون الدنيا عطاءً له، بل الله يعطي الشيء الأبدي السرمدي، عطاؤه الجنة.

(وَزُخْرُفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا(35))

(سورة الزخرف)

الحياة الدنيا خيال ولا يبقى منها إلا العمل الصالح:

متاع، كأن يأكل الإنسان وجبة طعام، فمدة استمتاعهِ بطعم الشيء لحظات أثناء مضغ اللقمة، والحركة قبل البلع، واللسان يدفع اللقمة إلى سقف الحلق، وهناك أعصاب ذوق في هذه اللحظة تشعر أن هذه الطعام لذيذ، طبعاً بعد ثانية إذا انتقلت هذه اللقمة إلى المري فالمعدة، غدت الفلافل مثل اللحم في جوف المعدة، هي كلها ثوان أثناء المضغ فقط، وبعد ذلك استوى الأمران، متاع.

يقال أحياناً: الدنيا خيال، يعني هذا العمر كيف مضى ؟ لا أعرف مثل لمح البصر، انظر فالإنسان يولد ويعتني به الأهل ويدخل المدرسة إلى كافة المراحل، ابتدائي، إعدادي، ثانوي، ويعيش في اهتمامات الدراسة، بعد ذلك يريد أن يتزوج، ومن ثم جاءه أولاد وتحولت اهتماماته إلى الأولاد، بعد ذلك زوج

الأولاد، ثم لم يلبث أن تقاعد، ثم أصبح عرضة للعلل في جسمه فينتبه إلى السكر وغيرها وبعد ذلك تطبع ورقة الوفاة، وعظم الله أجركم، هذه هي الدنيا خيال ؛ وكل ما فيها مضى، ويبقى من العمل الصالح أجره ومن اللذة تبعتها، هذه رحلة الحياة الدنيا، فليأخذ المرء منها لآخرته، وليكن عاقلاً، وليحذر.

(وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآَخِرَةُ(35))

(سورة الزخرف)

الأبدية، السرمدية، الدائمة، المتنامية:

(عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ (35))

(سورة الزخرف)

لمن اتقى الله في الدنيا، اتقى أن يعصيه، اتقى غضبه، اتقى سخطه.

أغلب آيات القرآن تتحدث عن الإيمان بالله واليوم الآخر فهما متلازمتان:

فالملاحظ أيها الأخوة أن الله سبحانه وتعالى في أكثر الآيات التي تتحدث عن أركان الإيمان يذكر الإيمان بالله مع اليوم الآخر طبعاً أركان الإيمان هي الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقضاء والقدر خيره وشره من الله تعالى، لكن أكثر ركنين يتلازمان في القرآن: الإيمان بالله واليوم الأخر، إذا آمنت بالله من دون اليوم الآخر ينشأ هناك مئات التساؤلات ليس لها أجوبة، فمثلاً قوي وضعيف يموت القوي قوياً، ويموت الضعيف ضعيفاً، وهناك إنسان لا يملك أن يفعل شيئاً وإنسان آخر بيده مقاليد الأمور، إنسان يملك أموالاً لا تأكلها النيران وإنسان يشتهي أن يأكل لقمة فلا يجدها، فلو أُلغي الإيمان باليوم الآخر ينشأ مليون سؤال بدون جواب، لكن اليوم الآخر فيه تسوية حسابات.

إن الدنيا كلها تنطق بأسماء الله الحسنى، الكون كله يجسد أسماءه الحسنى، لكن الدار الآخرة تؤكد عدالته، تتم فيها تسوية الحسابات كلها، مرة قرأت مثلاً أعجبني: لو فرضنا أن أناساً جلسوا في مسرح والمسرحية بدأت، فإذا الأحداث تطورت إلى أن وصلت إلى عقدة ثم أُرخِيَ الستار فلماذا يبقى الناس في مقاعدهم مع أن الستار أرخي ؟ لأن الناس يعتقدون أن المسرحية لم تنته بعد، ما مصير القاتل ؟ ما مصير هذا الذي خان ؟ فالقصة لم تنته بعد، ونحن في الدنيا يأتي الموت والوقائع لم تنته، هناك ظالم، ومظلوم، ومغتصب، وقاهر، ومقهور، مستغِل ومستغَل، ولقد مات الاثنان، ثم لا بدّ من يوم تسوى فيه الأمور يعود الحق إلى أصحابه، يؤخذ للمظلوم من الظالم، للضعيف من القوي، للمغتصَب من المغتصِب، فلذلك الإيمان بالله واليوم الآخر هما الركيزتان الأساسيتان لأركان الإيمان.

(وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ (36))

(سورة الزخرف)

إعراض الإنسان بنفسه عن رؤية الحق و صم أذنيه لسماعه:

عشا يعشو، طبعاً الفعل المضارع مجزوم بحذف حرف العلة والضمة دليل أن الحرف المحذوف هو الواو، أصل الفعل عشا، عشا لها معنى، وعَشِي يعشى لها معنى آخر عشي يعشى يعني لم ير بوضوح لضعف في بصره، هناك بصير وأعمى وأعور وأعشى، الأعشى ضعيف البصر، والأعور بعين واحدة، والبصير بصير، والأعمى أعمى، عشا يعشو لم ير حقيقة الشيء لضعف في بصره وهذا المعنى هنا غير مقصود، أما الفعل هنا فهو عشا يعشو، فما معنى عشا يعشو ؟ أي أن الإنسان لم ير حقيقة الشيء لا لضعف في بصره ولكن لرغبة في ألا يرى، أي يتعامى، يتعاشى، يُعرِض بنفسه عن أن يرى ويتعامى عنها.

معنى ذلك أن الله زودك بالعقل الذي يريك الحق حقاً، فأداة معرفة الله العقل السليم، كما أعطاك بصر كي ترى آيات الله، أعطاك سمع كي تستمع إلى آيات الله، وأعطاك لساناً كي تسأل، بالعين ترى الآيات، وبالأذن تسمع المواعظ، وباللسان تسأل، وبالعقل تحاكم، ومع ذلك يعشو يعني يريد ألاّ يرى، يريد ألا يسمع، يريد ألا يفكر، فعشا يعشو، يعني عدم وضوح الرؤيا لا لضعف في عينيه بل لرغبة في عدم الرؤيا، وهو لا يريد أن يرى.

(وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ(36))

(سورة الزخرف)

يتعامى عن آيات الله، يتعامى عن الموعظة، يُصم عن سماع الحق، يعطل فكره، ولا يُعمله في الخير.

(وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ (36))

(سورة الزخرف)

لا أحد يستطيع أن يُضل أحداً أبداً:

أخواننا الكرام الإنسان بين إلهام ملك وبين وسوسة شيطان إذا كان الإنسان مع الله يأتي الملك فيلهمه، وإذا ابتعد عن الله عز وجل يبادر الشيطان ليوسوس له، لكن بالمناسبة لا أحد يتوهم أن الشيطان بإمكانه أن يضل الإنسان، لكن هناك توافق بين رغبة الإنسان في الضلالة والانحراف والمعصية، وبين وسوسة الشيطان له، توافق فقط، أما الشيطان، فلا يستطيع أن يفعل شيئاً لقوله تعالى:

(وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ(22))

(سورة إبراهيم)

يجب أن تعتقد أن الشيطان لا يستطيع أن يفعل شيئاً إذا كنت معتصماً بالله، إذا كنت مستعيذاً بالله، لكن الإنسان حينما ينقطع عن الله عز وجل ويتمنى الدنيا، فالشيطان أصبح رفيقاً له، رفيقاً يدله على الشر، فالشيطان ليس له دور حقيقي ولكن دوره من قبيل تحصيل الحاصل، لاحظ في المدرسة أن الطالب المنضبط الأخلاقي ذا التربية العالية لا يتأثر أبداً برفاق السوء، يظل بعيداً عنهم ويحتقرهم، لكن رفاق السوء يؤثرون بمن ؟ بشاب منحرف في الأساس، شاب ضائع، شاب ليس عنده رادع ديني، فمثل هؤلاء الشباب يؤثر فيهم رفاق السوء وكخلاصة أنه لا أحد يستطيع أن يضل أحداً أبداً.

(قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ(27)قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ(28))

(سورة ق)

وقال:

(وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ (36))

(سورة الزخرف)

تحضير الأرواح مجرد كذب و دجل:

هؤلاء الشياطين ماذا يفعلون ؟ أحياناً يقال إنهم يقومون بتحضير أرواح، وهم بهذا يدجلون على الناس، حقيقة تحضير الأرواح أن هذا الإنسي المتعاون مع الجن يسأل قرين هذا المتوفى فيحدثه حديثاً مسهباً عن تفاصيل حياته، ويوهمون أنهم حضّروا روح هذا الميت، الميت لا يأتي، ولا تحضر روحه، ولكن هذا القرين الشيطاني كان قريناً للإنسان الذي مات كافراً، وهو يعرف كل تفاصيل حياته، إذاً يستعين الإنسان أحياناً بالجن في معرفة تفاصيل حياة من توفاهم الله على غير ملة الإسلام.

(وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ (37))

(سورة الزخرف)

هذا السبيل هو سبيل الله عز وجل، سبيل الجنة، سبيل السعادة في الدنيا والآخرة، مهمة الشياطين الصدّ عن السبيل، والشيطان هكذا قال:

(لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ(16))

(سورة الأعراف)

الشيطان لا يتحرك إلا عندما ينوي الإنسان السير إلى الله تعالى:

الملاحظ أن الإنسان مادام في المعاصي والموبقات والانحرافات ليس لديه مشاكل نفسية، وليس لديه وسوسة، ولا ضيق ولا كوابيس أبداً، لكن لمجرد أن يتجه إلى الله تقوم قيامة الشياطين، فمتى الشيطان يتحرك ؟ حينما يزمع هذا الإنسان السير إلى الله.

(لَأَقْعُدَنّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ(16)ثُمّ لَآتِيَنّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ(17))

(سورة الأعراف)

تارة يزين له الحداثة والتقدم والعلمانية والمجتمع والعلم، وتارة يزين له التقاليد البالية في تراث الآباء، ويكون في التراث المعاصي الكثيرة، وعادات كلها خروج على الدين، إما أن يأتيه من الحداثة أو من التقليد، أو عن شمائلهم، وهي المعاصي، أو عن أيمانهم وهي الوسوسة، فدائماً يأتي الشيطان للمؤمن من باب أن يلقى في روعه أنك أنت لست مؤمناً، بل أنت منافق، أنت لا تحب الله عز وجل، يلقي في ذهنه خواطر سيئة، هذا الذي يفعله الشيطان، عن أيمانهم وعن شمائلهم، ومن بين أيديهم ومن خلفهم.

(وَإِنّهُمْ لَيَصُدّونَهُمْ عَنِ السّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنّهُمْ مُهْتَدُونَ (37))

(سورة الزخرف)

أخطر شيء في الحياة أن تتوهم أنك على حق وأنت على باطل:

والحقيقة أن الخطر الأكبر في حياة الإنسان أن يتوهم أنه على حق بينما هو على الباطل، من الناس من يدري ويدري أنه يدري فهذا عالم فاتبعوه، ومنهم يدري ولا يدري أنه يدري فهذا غافل فنبهوه، ومنهم من لا يدري ويدري أنه لا يدري فهذا جاهل فعلموه، لكن أخطر واحد منهم من لا يدري ولا يدري أنه لا يدري هذا شيطان فاحذروه.

المشكلة أن يكون الإنسان على باطل ويحسب أنه على حق، منحرف ويحسب أنه مستقيم، مسيء ويحسب أنه محسن، مفسد ويحسب أنه مصلح، ضال ويحسب أنه مهتدٍ، ماله حرام ويحسب أن هذا ذكاء، يقتنص الموبقات ويحسب أنه ذو باع طويل في خبرات الحياة، هذه كلها أوهام لذلك:

(قُلْ هَلْ نُنَبّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا(103)الّذِينَ ضَلّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا(104))

(سورة الكهف)

المبتدع أحب إلى إبليس من العاصي لأن المبتدع لا يتوب لكن العاصي يتوب:

ضل سعيهم وهم يحسبون أنهم مهتدون، يعني أخطر آفة في الإنسان أن يكون في وضع سيئ جداً ويتوهم أنه خلاف ذلك، المشكلة إذا الإنسان عرف نفسه أنه مقصر أو عاصٍ أصبح باب التوبة أمامه مفتوحاً، لكن حينما يظن نفسه أنه على حق بينما هو على باطل فقد أغلق عليه باب التوبة، وقالوا أيضاً: المبتدع لا يتوب، قالوا: الابتداع أحب إلى إبليس من المعصية، إذا الإنسان اعتقد عقيدة فاسدة، فالشيطان يرحب به أكثر من المعصية، لأن المعصية قد يتوب منها الإنسان ولأنها معروفة أنها معصية بالبديهة، بالفطرة، بالنص، فكل من النص والفطرة والبديهة تؤكد أنها معصية، إذا أدرك الإنسان أنه وقع في المعصية فاحتمال التوبة كبير جداً، لكن إذا وقع في عقيدة فاسدة بابتداع هذا لا يتوب، قالوا المبتدع لا يتوب، وقالوا الكبائر هي ذنوب المبتدعين، والصغائر ذنوب المتبعين، فإبليس أحب إليه أن تبتدع من أن تعصي، لأن المبتدع لا يتوب، ولكن العاصي يتوب.

(وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ (37))

(سورة الزخرف)

العلم هو الوصف المطابق للواقع وكل وصف خلاف الواقع هو جهل:

الحقيقة أن الشيء الخطير جداً أن تعتقد عقيدة غير صحيحة وهذا هو الجهل والضلال، لكن تعريف العلم: الوصف المطابق للواقع، أي أن تصف الشيء بما هو فيه، فكل وصف خلاف الواقع جهل، وإذا كانت العقيدة ترتكز على جهل فذلك هو الضلال البعيد، يعني لما الإنسان يحرص أن تأتي كل تصوراته وعقائده وفق الواقع معنى ذلك أنه على حق، أما خلاف الواقع، فهو باطل.

الناس نيام إذا ماتوا انتبهوا، أحد الصحابة قال:**والله لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً**، وقال صحابي آخر: **والله لو علمت أن غداً أجلي ما قدرت أن أزيد في عملي**، يعني أن من نعمة الله الكبرى على الإنسان أن تتفتح بصائره في الحياة الدنيا، وهذا الذي أقوله لكم الآن قلته سابقاً، يعني مشكلة الإيمان مشكلة وقت فقط، خيارك في الإيمان ليس خيار رفض أو قبول بل خيار وقت، لأنه لا بدّ لأي إنسان أن يتوب ولكن بعد فوات الوقت لا تنفعه توبة أبداً، بقي أن تؤمن قبل فوات الأوان، الإيمان سيحصل لكن عليك أن تستفيد من وقتك، بقي أن تؤمن في الوقت المناسب، بقي أن تؤمن وأنت معافى وأنت صحيح وأنت غني وأنت قوي وأنت حي، هذا هو الإيمان النافع.

(حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ(38))

(سورة الزخرف)

شيطان الإنس أشد فتكاً وإضلالاً من شيطان الجن وكلاهما يُدعى قريناً:

كان هناك اتصال حميم، ولقاءات، واستشارات، والقرين كما قال العلماء: قد يكون من الإنس لا من الجن، ولما ربنا عز وجل قال شياطين الإنس والجن، فقد قُدم شياطين الإنس على الجن تقديم أهمية ربما كان شيطان الإنس أشد فتكاً وإضلالاً من شيطان الجن، لأن بينهما تجانس، صديق لصديقه، صاحب لصاحبه، إنسان مرح لطيف ذكي دلك على معصية، على انحراف، على بؤرة فساد، على مكان ترتكب فيه المعاصي، وكلاهما شيطان الإنس أو الجن سماه الله قريناً.

(حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ (38))

(سورة الزخرف)

هناك عداوة حال وعداوة مآل وعداوة المآل أخطر:

هناك في الحقيقة عداوة حال وعداوة مآل، عداوة المآل أخطر، عدو الحال تتقيه، لك عدو يعيش معك تتقيه، تتقي أن تتحرك بتوجيهاته، تتقي أن تصاحبه، تتقي أن ينال منك، لأنه عدو في الحال وهناك إنسان هو عدو في الحقيقة لكنك لا تعرفه عدواً بل تعرفه صديقاً حميماً ودوداً محسناً ذكياً، فتلتقي معه فيأخذ بيدك شيئاً فشيئاً ـ لا سمح الله ولا قدر ـ إلى طريق الهاوية، متى تعاديه ؟ بعد الموت، لذلك لما ربنا عز وجل قال:

(إِنّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ)

(سورة التغابن 14)

بعض العلماء حملوا هذه الآية على عداوة المآل، يجوز وهو في الدنيا أن يحبّ زوجته حباً جماً، فقد تحمله على معصية وقد تدفعه إلى الكسل والقعود عن طلب العلم، وقد تزين له الدنيا، وقد يرضيها ويعصي ربه وهو مستمتع في حياته الدنيا، أما إذا جاءه الموت يخلق في نفسه عداوة لهذه الزوجة لا حدود لها، لماذا ؟ لأنها سبب شقائه، وسبب دماره، فهذه عداوة مآل لا عداوة حال.

(حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ (38) وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ(39))

(سورة الزخرف)

كل إنسان أودع الله فيه عقلاً يدنيه أو يرديه وهو مأخوذ بأفعاله الاختيارية:

قد تدعي أن المسؤولية على فلان، لا، كل إنسان محاسب عن نفسه، وكل إنسان أودع الله فيه عقلاً يدنيه أو يرديه.

(اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا(14))

(سورة الإسراء)

وقال:

(قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ(27)قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ(28)مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ(29))

(سورة ق)

فلما يقع الإنسان بمخالفة كبيرة ويلقى عليه القبض متلبساً بهذه الجريمة، فما ينفعه أن يقول فلان دلني على هذا، فلان أغواني، هذه كلام لا يسمع منه، وقوله مردود عليه، والإنسان مأخوذ بأفعاله الاختيارية.

(وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ (39) أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ(40))

(سورة الزخرف)

الإنسان مخير وكل إنسان له اختيار:

هذا الذي أصمّ أذنيه عن سماع الحق مختاراً، وهذا الذي أغمض عينيه عن رؤية الآيات مختاراً، وهذا الذي عطّل عقله عن إجراء المحاكمة المنطقية اختياراً، هذا إذا اختار الضلال واختار الشهوة واختار الدنيا لا يستطيع أحد وفيهم رسول الله أن يهديه إلى سواء السبيل لماذا ؟ لأن الإنسان مخير، كل إنسان له اختيار:

(لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ (286))

(سورة البقرة)

من هنا قوله تعالى:

(إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ)

(سورة القصص 56)

الإنسان مخير، فإن لم يشأ الإنسان الهداية فلن يهتدي، ولا أحد يستطيع أن يهديه إلى سواء السبيل، فأعظم الناس سيدنا النبي وقد رأى عمه كماله، ومنطقه، وحجته، ونورانيته، ورأى صدق دلالته، رأى ذلك كله، ومع ذلك لم يؤمن، أفأنت يا محمد:

(أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (40))

(سورة الزخرف)

لا تستطيع.

النبي بلّغ الرسالة لكن تلقي التبليغ والعمل به بيد الإنسان لا بيد المرسلين:

أما قوله تعالى:

(وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ(52))

(سورة الشورى)

يعني أن دعوتك حق، والنبي يبلغ، أما الاستجابة فصاحبها مخير، التبليغ وقع وهو حق لكن تلقي هذا التبليغ والعمل به هذا بيد الإنسان لا بيد الدعاة ولا المرسلين، الآن:

(فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ (41))

(سورة الزخرف)

إن كل إنسان يتمنى أن يرى نهاية القوي الظالم، يتمنى أن يرى نهاية المنحرف الذي أخذ أموال الناس بالباطل، الذي بنى مجده على أنقاض الآخرين، الذي بنى حياته على موت الآخرين، الذي بنى غناه على فقر الناس، الذي بنى أمنه على خوف الناس، يتمنى أن يرى إحقاق الحق، لكن الله عز وجل يسلّي نبيه فيقول:

(فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ(41))

(سورة الزخرف)

على المؤمن أن يكون عمله مطابقاً لمنهج الله عز وجل:

قبل أن ننتقم منهم فلا ضير، وأنت عزاؤك أنك على الحق، كفاك على عدوك نصراً أنه في معصية الله، وهناك أشخاص يقولون أين الله عز وجل ؟! الله موجود، المهم أن تكون أنت على الحق، أن تكون على الصراط المستقيم، أن تكون على المنهج الصحيح، أن يكون عملك مطابقاً لمنهج الله عز وجل، أما الكافر فالله انتقم منه أم لم ينتقم فليس هذا من شغلك، قال تعالى:

(لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ(196)مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ(197)لَكِنْ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ)

(سورة آل عمران)

وقال:

(وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ(42))

(سورة إبراهيم)

وقال:

(فَلَا تَحْسَبَنّ اللّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنّ اللّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ(47))

(سورة إبراهيم)

وقال:

(وَكَأَيّنْ مِنْ نَبِيّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللّهُ يُحِبُّ الصّابِرِينَ(146))

(سورة آل عمران)

على المؤمن أن يرضى بقضاء الله وقدره:

المؤمن معنوياته عالية جداً، كل إنجازه عظيم لأنه على الصراط المستقيم، أما أن الله عز وجل انتقم من الكفار أم لم ينتقم فهذا شأن الله عز وجل، والمؤمن أديب مع الله لا يحشر أنفه فيما لا يعنيه، والنبي عليه الصلاة والسلام علمنا دعاء:

((اللهم رضّنا بقضائك وبارك لنا بقدرك حتى لا نحب تعجيل ما أخرت، ولا تأخير ما عجلت))

والإنسان يتمنى شيئاً أخره الله بأن يعجله، أو شيئاً عجله الله أن يؤخره، سلِم أمرك لله عز وجل، وهذا ما خاطب الله به نبيه صلى الله عليه وسلم:

(فَإِمّا نَذْهَبَنّ بِكَ فَإِنّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ (41))

(سورة الزخرف)

وسواء ذهبنا بك، أم لم نذهب بك فلا بدّ من أن ننتقم منهم، في عاجل أمرهم أم في آجله.

(أَوْ نُرِيَنّكَ الّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ (42))

(سورة الزخرف)

قضية زمن فقط، هذا تعبير مستخدم الآن ؛ قضية وقت، يعني صدر قرار بتنحيته مع وقف التنفيذ، ينتظر الوقت المناسب، قرار صدر بقي أن ينفذ هذا القرار بالوقت المناسب، فالقضية منتهية يا محمد لا تقلق.

(فَإِمّا نَذْهَبَنّ بِكَ فَإِنّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ (41) أَوْ نُرِيَنّكَ الّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ(42))

(سورة الزخرف)

العبرة في العاقبة:

لهذا عليه الصلاة والسلام قال لعدي بن حاتم:

((يا عدي لعله إنما يمنعك من الدخول في هذا الدين أنك ترى الملك والسلطان في غيرهم (يعني أن المسلمين كانوا ضعافاً جداً وأعداؤهم أقوياء) و أيم الله ليوشكن أن تسمع بالمرأة البابلية تحج البيت على بعيرها لا تخاف، ولعله يا عدي إنما يمنعك من الدخول في هذا الدين ما ترى من حاجتهم (من فقرهم)))

المؤمن فقير وضعيف ومستضعف ولا يريد شيئاً، والإنسان يقول ما هذا الدين أهله كلهم ضعاف، متخلفون، كما هو حال العالم الثالث اليوم.

((والله يا عدي ليوشكنّ المال أن يفيض فيهم حتى لا يوجد من يأخذه))

النبي عليه الصلاة والسلام في الهجرة تبعه سراقة، وبعد أن غاصت قوائم حصان سراقة في الرمال وقال يا محمد: أعدك أنك لا ترى مني ما تكره، فقال له:

((كيف بك يا سراقة إذا لبست سواري كسرى))

النبي ملاحق ومهدور دمه وضعت مئة ناقة جائزة لمن يأتي به ميتاً أو حياً، ومع ذلك كان واثقاً من نصر الله، ومن وصوله إلى المدينة، ومن إنشاء كيان إسلامي، ومن حرب الفرس والانتصار عليهم، وأن يؤتى بسواري كسرى إلى المدينة، وما لبث أن جيء بسواري كسرى وتاجه وسرواله وكل ما يلبسه كسرى، سيدنا عمر قلبه بقضيب بيده احتقاراً له وقال:**إن هؤلاء الذين أدوا هذا لأمناء،** قال له سيدنا علي: **يا أمير المؤمنين عفوت فعفوا، ولو رتعت لرتعوا، ثم قال: أين سراقة ؟ وجيء بسراقة فألبسه تاج كسرى وقميص كسرى وسواري كسرى وقال: بخ، بخ، أعيرابي من بني مدلج يلبس سواري كسرى، وتحققت نبوة النبي عليه الصلاة والسلام.**

العبرة للآخرة، العبرة للعاقبة، الله عز وجل قال:

(وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ(128))

(سورة الأعراف)

وقال:

(أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ (42) فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ)

(سورة الزخرف)

سواءً أنتقم الله من الكفار أم لم ينتقم، أحاسبهم في الدنيا أم لم يحاسبهم، أريت نتائج أعمالهم أم لم تر.

التمسك بالحق ينبغي أن يكون لأنه حق فقط ولا ينبغي أن يعلق على قوة المسلمين:

قال سبحانه:

(فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (43))

(سورة الزخرف)

الآية دقيقة المعنى جداً، معنى الآية: يعني لا يحملنك على ترك الدين أن ترى المؤمنين ضعافاً، أو أن تراهم فقراء، أو أن تراهم معزولين، أو أن تراهم عطلاً من متاع الدنيا، لحكمة بالغة تارة يقوّي المؤمنين وتارة يقوي أهل الدنيا، فإذا جاء دورك في الحياة في عصر كان فيه المؤمنون مستضعفين والقوة للكفار، فهذا الوضع لا يحملنك على عدم اتباع الدين.

(فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (43))

(سورة الزخرف)

إذاً استمساكك بالحق لا ينبغي أن يعلّق على قوة المسلمين، ولا على غناهم، ولا على أنهم بيدهم الأمر، استمساكك بالحق ينبغي أن يكون لأنه حق فقط، أقوياء ضعاف مستضعفين أغنياء بيدهم مقاليد الأمور أم ليست بيدهم، فهذا لا يقدم ولا يؤخر في حقيقة مسألة الإيمان:

(فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ (41) أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ (42) فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ)

(سورة الزخرف)

يجب أن يكون الحق وحده سبباً لإتباعنا له:

انتقمنا منهم أم لم ننتقم، أريناك ما نعدهم أم لم نرك ما نعدهم فهو سواء، شخص يأتي بالقوة، إنسان يأتي بالحجة، الحق حق إن كان أصحابه ضعافاً أو أقوياء سواء، إن كان أصحابه أغنياء أو فقراء، إن كان أصحابه متمسكين بمقاليد الأمور أو متفلتين، فلا تجعل المظاهر سبباً لانصياعك، اجعل الحق وحده سبباً لإتباعك له.

وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ: لهذه الآية معانٍ ثلاثة:

ثم يقول الله عز وجل: إن هذا القرآن الذي أوحي إليك:

(وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ(44))

(سورة الزخرف)

1 ـ أن هذا القرآن رفع من شأن النبي وأمته:

المعنى الأول: أن هذا القرآن رفع من شأن هذه الأمة، رفع من شأن النبي عليه الصلاة والسلام، أوحي إليه هذا القرآن ورفع من شأن أمته، وهذا يؤكده قوله تعالى:

(أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ(1)وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ(2)الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ(3)وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ)

(سورة الشرح)

وكل إنسان يؤمن بالله عز وجل ويستقيم على أمره لا بدّ من أن يرفع الله له ذكره، هذا من عطاء الله في الدنيا، له اسم متألق وسمعة طيبة وشأن وهيبة ومكانة، هذا المعنى الأول.

2 ـ الثاني أن هذا القرآن تذكرة للمؤمن بفطرته وبإيمانه:

والمعنى الثاني: أن هذا القرآن تذكرة لك، الإنسان بالفطرة مؤمن، الفطرة إذا انطمست يأتي القرآن ليذكر المؤمن بفطرته وبإيمانه.

(وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ (44))

(سورة الزخرف)

يعني كل ميزة وراءها مسؤولية، كل إنسان يرقى درجة يحاسب بدرجة أعلى، ما دام هذا القرآن أنزل علينا باللغة العربية ونحن عرب فنحن محاسبون أشدّ من غيرنا.

(وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ (44))

(سورة الزخرف)

3 ـ أن في القرآن نماذج بشرية متعددة ومتباينة:

وأما المعنى الثالث ؛ فكل من يقرأ القرآن يجد فيه وصفاً للناس، كما يجد نماذج بشرية متعددة ومتباينة.

(إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ(15)آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ(16) كَانُوا قَلِيلًا مِنْ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ(17))

(سورة الذاريات)

هذا نموذج هل أنت منهم ؟ لعلنا منهم إن شاء الله تعالى.

النماذج البشرية متباينة فعلى كل إنسان أن يعرف أي نوع هو:

ثم هناك نموذج آخر:

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ(2))

(سورة الأنفال)

هل أنت منهم ؟ أي أن الله ذكر نماذج ؛ وهو ذكرٌ لك ولقومك وصف النبي بأعلى وصف فقال:

(وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ(4))

(سورة القلم)

وصف المؤمنين منهم سابق ومنهم مقتصد، ووصف الكفار أيضاً، ووصف المنافقين والفجار، كما وصف المؤمنين، والمتقين، والصديقين، والأولياء:

(أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ(62)الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ(63))

(سورة يونس)

فأنت من أيّ هؤلاء ؟ ذكر لك إذا قرأت القرآن تعرف أين أنت من هؤلاء، المعنى الأول ذكر لك أي رفع لشأنك أنت وأمتك، هذا شرف لك ولقومك أن يأتيك هذا القرآن من عند الله عز وجل، والمعنى الثاني ؛ تذكير لك، فالفطرة عالية، لكنها تحتاج إلى تذكير، والمعنى الثالث ؛ أنك إذا قرأت القرآن عرفت أين أنت من هؤلاء المؤمنين، هل أنت مع المتقين ؟ مع الصديقين ؟ مع المؤمنين ؟ مع المقتصدين ؟ مع المقصرين ؟ مع المذنبين ؟ مع العصاة ؟ تعرف أين أنت من هؤلاء.

(وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ (44))

(سورة الزخرف)

عن كل صغيرة وكبيرة ندّت منكم في الدنيا.

يوم القيامة سوف تُسأل عن كل صغيرة وكبيرة:

آخر آية:

(وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا(45))

(سورة الزخرف)

طبعاً الرسل ماتوا، اسأل أتباعهم.

(أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آَلِهَةً يُعْبَدُونَ (45))

(سورة الزخرف)

الأديان كلها تدعو إلى التوحيد ومع ذلك فهم يعارضون:

فأنت يا محمد ما كنت بدعاً من الرسل، ما جئت بشيء لم يأت به الأنبياء من قبلك، أنت على شاكلة الأنبياء، ودعوتك كدعوتهم، والأديان كلها تدعو إلى التوحيد فلماذا هؤلاء يعارضونك ؟ هل جئت بشيء خلاف السابق ؟

(وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آَلِهَةً يُعْبَدُونَ (45))

(سورة الزخرف)

ثم يقول الله عز وجل:

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآَيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (46))

(سورة الزخرف)

هذه القصة إن شاء الله تعالى نبدأ بها درسنا القادم.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الزخرف 043 - الدرس (6-9): تفسير الآيات 46-56

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1994-07-08

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الكرام مع الدرس السادس من سورة الزخرف.

قصة قرآنية حول نبي كريم دعا إلى الله:

مع الآية السادسة والأربعين وهي قوله تعالى:

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآَيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (46))

(سورة الزخرف)

ربنا سبحانه وتعالى يقول في آية أخرى:

(لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ)

(سورة يوسف 111)

وكذلك يقول سبحانه:

(وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ)

(سورة هود 120)

يحتاج الإنسان أحياناً إلى مثل حيّ وتطبيق عمليّ للثبات على منهج الله تعالى:

إذاً القصة القرآنية حول نبي كريم دعا إلى الله، وتحمل في دعوته ما تحمل، ثم انتصر على خصومه وتمت كلمة ربك لهذا النبي بالنصر والتأييد، هذه القصة من شأنها أن تثبت النبي محمداً صلى الله عليه وسلم.

ويقاس على هذا أنك إذا أردت أن تدعو إلى الله عز وجل وجئت المدعوين بمَثَل حيّ، إنسان وقف موقفاً صحيحاً وطبق أمر الله، وذكرت لهم كيف أن الله أكرمه وحفظه وأيده ونصره، هذه القصة الواقعية التي تثبت حقائق الدين وتؤيد نصوص الشريعة هذه لها دور خطير في الدعوة إلى الله، لأن الإنسان أحياناً لا تكفيه النصوص النظرية، ولا تكفيه الموضوعات المجردة، بل يحتاج إلى مثل حي، ويحتاج إلى تطبيق عملي، ويحتاج إلى أن يرى إنساناً كفّ عن الحرام فأكرمه الله.

هناك قواعد مستنبطة من التعامل غير الشرعي، منها أن الإنسان إذا لم يكذب لا يربح، إذا لم يغش لا يربح، وإذا لم يحتَل على الناس لا يربح، هذه قواعد شيطانية مستنبطة من طرائق الكفار في تعاملهم،

فأنت حينما تأتي بمثل حي عن إنسان صدق، وكان الصدق ليس في صالحه لكن الله سبحانه وتعالى قلب له المعايير فأكرمه بصدقه، إن هذه الأمثال الحية تقدم دعماً للمؤمنين.

فلذلك أيها الأخوة الكرام إذا كنت تعرف حادثة واقعية تبين أن إنساناً وقف الموقف الصحيح، وطبق أمر الله، وطبق شرع الله والله سبحانه وتعالى أكرمه فهذا مما يعين المدعو على التثبت والثبات على منهج الله عز وجل، من هذا المنطلق ربنا عز وجل يقول:

(وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ)

(سورة هود 120)

والنبي عليه الصلاة والسلام بشر (هو سيد البشر لكنه بشر) ولولا أنه بشر تجري عليه كل خصائص البشر لما كان سيد البشر، فالخوف من طبيعة البشر، ولقد كان خوف النبي على هذه الدعوة وعلى سلامتها، فلذلك ربنا عز وجل جعل هذا القرآن منجماً أي كان ينزل في مناسبات خاصة وفق الحوادث التي تجري في عهد النبي من أجل تثبيت قلب النبي عليه الصلاة والسلام، يقول الله عز وجل:

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآَيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ(46))

(سورة الزخرف)

الله أرسل المنهج للناس مع الأنبياء ليحد من شهواتهم وانحرافهم:

الحقيقة أن الفارق من حيث القوة كبير جداً بين كل من سيدنا موسى وفرعون، فسيدنا موسى إنسان فقير خرج من قصر فرعون خائفاً هائماً على وجهه، وصل إلى مدين وعاش فيها مع سيدنا شعيب، وأرسله الله عز وجل إلى فرعون، وفرعون من جبابرة الأرض، فسيدنا موسى ضعيف طريد أرسله الله بآيات إلى فرعون، ومن سنن الله سبحانه وتعالى أنه إذا أرسل رسولاً، فإنه يؤيده بما يؤكد أنه رسول، ويجري على يديه معجزة، وهذه المعجزة تنطق بأن هذا الإنسان رسول الله.

والسبب واضح لأنه إذا أرسل الله الأنبياء للناس بمنهج، فهذا المنهج من شأنه أن يحدّ من شهوات الناس، ومن طغيانهم وانحرافهم، فأغلب الظن أن علية القوم الأقوياء والأغنياء يرفضون دعوة الأنبياء، هذا هو الأعم الأغلب، ماذا يقولون ؟ يتهمون هؤلاء الأنبياء والمرسلين بالكذب، كيف يردون عليهم ؟ بالمعجزات، إذاً اتهام المنتفعين بالكفر والانحراف للأنبياء بالكذب فلا بدّ من أن يكون مع النبي دليل وحجة أنه رسول، ولذلك قال تعالى:

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا(46))

(سورة الزخرف)

ولبعض العلماء رأي في أن أفعال الله عز وجل حينما تصاغ بضمير الجمع يستفاد منها أن فعل الله عز وجل داخل فيه كل أسمائه الحسنى، يعني فعل الله فيه لطف وعلم وعدالة ورحمة، ولقد أرسلنا فجاء الضمير بالجمع، أما حينما يتحدث الله عن ذاته يقول:

(إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمْ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي(14))

(سورة طه)

فالحديث عن الذات يقتضي ضمير المفرد، والحديث عن الأفعال يقتضي ضمير الجمع لأن كل أسماء الله جلّ جلاله داخلة في هذا الفعل.

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا(46))

(سورة الزخرف)

الآيات والمعجزات هي الدليل على صدق الرسالة:

الآيات هي الدليل على الرسالة، ألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين، ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين، لم يألف الناس أن العصاة تنقلب إلى حية حقيقة.

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ(46))

(سورة الزخرف)

ويقول بعض العلماء حينما قال الله عز وجل لسيدنا موسى في المناجاة:

(وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى(17))

(سورة طه)

إله يسأل، ما معنى هذا السؤال ؟ ألا يعلم الله أنها عصا، فسيدنا موسى حينما سأله الله هذا السؤال في المناجاة انتهزها مناسبة ليطيل الحوار مع الله عز وجل قال:

(قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي(18))

(سورة طه)

واستحيا أن يطيل الجواب فقال:

(وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى(18))

(سورة طه)

فلو أن الله سبحانه وتعالى كان يريد أن يتابع الحوار لسأله يا موسى ما هذه المآرب الأخرى، لكن الله جلّ جلاله حينما سأله وما تلك بيمينك يا موسى ليوضح له أنها عصا من خشب وبعد قليل سوف تنقلب إلى حية (أفعى) تسعى.

(وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَامُوسَى(17)قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى(18)قَالَ أَلْقِهَا يَامُوسَى(19)فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى(20)قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى(21))

(سورة طه)

المعجزة التي جاء بها نبينا محمد ليست معجزة حسية بل معجزة دائمة:

لكن أيها الأخوة من فضل الله على أمة النبي صلى الله عليه وسلم أن المعجزة التي جاء بها النبي ليست معجزة حسية، المعجزة الحسية كعود الثقاب يتألق ثم ينطفئ ويصبح خبراً يصدقه من يصدقه ويكذبه من يكذبه، لكن معجزة النبي عليه الصلاة والسلام كتاب بين أيدينا، كلما تقدم العلم كشف عن جانب من إعجاز هذا القرآن الكريم، فهو معجزة دائمة إلى يوم القيامة.

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ(46))

(سورة الزخرف)

طبعاً ليس فرعون وحده هو المقصود بل فرعون وقوم فرعون، فقال سيدنا موسى:

(فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (46))

(سورة الزخرف)

ولقد عاش موسى في قصر فرعون عمراً مديداً، قال الله تعالى حكاية عن فرعون:

(قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ(18)وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنْ الْكَافِرِينَ(19))

(سورة الشعراء)

القصص في القرآن الكريم لها مغزى:

يعني فرعون تذكر أن هذا الإنسان الذي يقول إني رسول من رب العالمين كان عندنا في القصر، في قصر فرعون، لأنه يروى أن فرعون رأى في منامه أن طفلاً من بني إسرائيل سوف يقضي على ملكه فاتخذ قراراً بذبح أبناء بني إسرائيل جميعاً وبزعمه يكون قد انتهى الأمر ولم يكن يدري أن الذي سيقضي على ملكه سيربيه في قصره.

ودائماً القصص في القرآن الكريم لها مغزى، فالله عز وجل يذكر المغزى أحياناً وفي أحيان كثيرة يدع القارئ يستنبط المغزى، ففرعون التقط سيدنا موسى من اليم، ولم يكن يدري أن هذا الطفل الذي سيربى

في قصره سوف يخرج من قصره خائفاً ويلتقي بسيدنا شعيب ويعود رسولاً إلى فرعون وسيقضي على ملكه.

(فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (46))

(سورة الزخرف)

كلمة رسول رب العالمين، فهذه الكلمة تحدث عند المؤمن أثراً كبيراً، إذاً ليس موسى شخصاً عادياً، بل هو رسول الله عز وجل، القرآن كلام رب العالمين، هذا الأمر أمر رب العالمين، هذا الرسول رسول رب العالمين، شيء عظيم جداً أن خالق الكون يرسل رسولاً وهذا الرسول يتكلم بوحي من الله عز وجل، فلما إنسان ما لا يعبأ برسول الله ولا بسنته ولا يعبأ بكلامه فهذا دليل على عدم إيمانه.

(فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (46) فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ (47))

(سورة الزخرف)

الإنسان عقل وشهوة ؛ الشهوة تدعو للانحراف والعقل يدعو لطاعة الله:

السخرية والاستهزاء والضحك دليل الجهل، أو أن الإنسان حينما يكون منغمساً في شهواته يرفض أي دعوة سماوية تضعه على صراط مستقيم، الإنسان له عقل وله شهوات، شهواته تدعوه إلى الانحراف لكن عقله يدعوه إلى طاعة الله عز وجل، مثل ما قال سيدنا علي: ركب الإنسان من عقل وشهوة، وركب الحيوان من شهوة بلا عقل، ركب المَلَك من عقل بلا شهوة، إذاً فالإنسان عقل وشهوة، فإن سما عقله على شهوته كان فوق الملائكة، وإن سمت شهوته على عقله أصبح دون الحيوان.

يعني ولقد ضربت هذا المثل كثيراً لأنه يعبر عن حقيقة ثابتة ؛ لو أن إنساناً ركب مركبة في أيام الصيف الحارة، عن يمينه شمس وعن شماله ظل ظليل، لكن هذه المركبة تدور حول ساحة وتأخذ مساراً عكسياً، فالطريق مداه ساعة، ودورة هذه المركبة حول هذه الطريق التي مداها ساعة تستغرق دقيقة واحدة، فلو أن الإنسان صعد إلى هذه المركبة، ورأى عن اليمين شمساً، وعن اليسار ظلاً، فإذا جلس في المقاعد التي تضربها أشعة الشمس المحرقة لدقيقة واحدة ثم لا تلبث أن تنعكس الآية ويغدو آخر الطريق في الظل الظليل، أما إذا ركب وفق حاجات جسده وعطل عقله يقبع في الظل لكن بعد دقيقة واحدة تنعكس الآية ويغدو في حر الشمس إلى آخر الطريق.

إذاً هي قضية تحكيم العقل، العقل أداة معرفة الله، أداة محاكمة، أداة ترى بها المستقبل قبل أن تصل إليه، فمثلاً ؛ مرة سألوا طالباً نال الدرجة الأولى على كل الطلاب في الامتحانات العامة: ما سبب هذا التفوق ؟ فقال كلمة لها معنى دقيق: لأن ساعة الامتحان لم تغادر مخيلتي طوال العام.

وكذلك المؤمن ساعة المغادرة، ساعة لقاء الله عز وجل، ساعة الموت إذا كانت ماثلة في ذهنه طوال حياته، ففي كل موقف وفي كل حركة وعند كل عطاء وكل منع يذكر كيف سيقابل ربه في هذا الموقف، معنى ذلك لابد أن يستقيم على أمر الله.

الخير كله في طاعة الله والشر في معصيته سبحانه:

(فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ (47))

(سورة الزخرف)

ضحك الساذج، ضحك الجاهل، ولا تنسوا أيها الأخوة أن أعدى أعداء الإنسان على الإطلاق هو الجهل، وأن الذي يحب نفسه حباً جماً ويؤثرها على كل شيء يجب أن ينطلق من هذه المحبة إلى طاعة الله عز وجل، لأن الخير كله في الطاعة والشر كله في المعصية، خالق الكون يقول:

(وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا(71))

(سورة الأحزاب)

يجب أن تعتقد أنه من المستحيل أن تعصي الله وتفوز، ومن المستحيل أن تطيعه وتخسر، سبحانك إنه لا يذل من واليت ولا يعز من عاديت، تطيع الله ومع طاعته كل الفوز، ومن يعص الله فمع معصيته كل الخسارة.

إذاً هم يضحكون لكن بعد ذلك سوف يبكون، ضحكوا أولاً وبكوا ثانياً، البطل هو الذي يضحك آخر الأمر، يضحك حينما يلقى الله عز وجل وقد غفر له ذنبه واستحق جنة ربه، هذه هي البطولة، لأن هناك آيات تؤكد هذه الحقيقة:

(فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ(34))

(سورة المطففين)

العاقل هو الذي لا يفعل شيئاً يندم عليه:

العبرة ؛ من يضحك آخر المطاف، أما في أول المطاف هناك من يضحك وهو ساذج، يضحك وهو جاهل، يضحك وهو لا يدري أنه سوف يبكي، ونحن في حياتنا الدنيا قد نرى الخارجين عن القانون يسرقون، ويحسبون أنهم بهذه السرقة سبقوا الناس جميعاً، حصلوا أموالاً طائلة بلا جهد، أما حينما يقعون في قبضة العدالة ويودعون في السجن لسنوات طويلة يدركون أنهم كانوا أغبياء.
فمن العاقل إذاً ؟ هو الذي لا يفعل شيئاً يندم عليه، علامة عقلك الراجح أن كل أفعالك التي تفعلها لا

تندم عليها أبداً، أما الذي يندم هو الذي حكم شهوته في أفعاله فجاء وقت دفع فيه ثمن انحرافه باهظاً فبكى.

(فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ(34))

(سورة المطففين)

وقال:

(قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ(108)إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ(109)فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ(110))

(سورة المؤمنون)

الله يري المؤمن آياته كل يوم بتأييده مع ضعفه وخذلان الكافر مع قوته:

قال أيضاً:

(وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا(48))

(سورة الزخرف)

الحقيقة أيها الأخوة إذا أردنا أن نتوسع في فهم هذه الآية، وآيات الله لا تنقطع بل هي متلاحقة، طبعاً إذا وسعنا مفهوم هذه الآية فالله عز وجل يري الناس آياته كل يوم، يري آياته بتأييد المؤمن على ضعفه، وخذلان الكافر مع قوته، لأن في الحياة قواعد مستنبطة من طبيعة الحياة المادية، يعني مثلاً: لو أنك أقرضت إنساناً قرضاً حسناً، وعلى حسابات الآلة الحاسبة القرض الربوي أربح، والضمانات التي تقدمها بعض الجهات التي لا ترضي الله ذات جدوى في تحقيقها الربح والفائدة كما يبدو.

لكن حينما تلتزم بأمر الله عز وجل، فالله عز وجل يريك آياته، قد يؤتيك من الإكرام والعطاء مالا سبيل إلى وصفه لأنك التزمت أمر الله عز وجل ولم تقترف المعصية، قد يتراءى لك الخير في المعصية، أو قد تتوهم أن مصلحتك في المعصية، أما حينما تستقيم على أمر الله طاعة لله عز وجل هناك ظروف تستجد لا تعرف معناها، هذه الظروف كأنها آية من آيات الله الدالة على عظمته، مثلاً لو أن واحداً ترك شيئاً لله، دخل كبير مشبوه، فقال إني أخاف الله رب العالمين، حسب الظاهر هذا الدخل يحل له كل المشكلات، يوفر له بيتاً ومركبة وزواجاً لكن هذا الدخل مشبوه، فلما آثر طاعة الله عز وجل وحجزه عن قبض هذا المال خوفه من الله عز وجل، الآن تأتي الأمور بشكل غير طبيعي لتقدم لهذا المؤمن العطاء الجزيل الذي لم يكن متوقعاً وهذا معنى قول الله عز وجل:

(وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا(2)وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ)

(سورة الطلاق)

إذا انطلقت من طاعة الله يرزقك من حيث لا تحتسب ويجد لك من كل ضيق مخرجاً:

ما معنى مخرجاً ؟ المخرج يعني بناء محكم الإغلاق، وإنسان في هذا البناء ليس له مخرج وضاق به الأمر، قال:

(وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا(2))

(سورة الطلاق)

المخرج: باب فرج، والأمر كان محاطاً، ومغلقاً، فأحدث الله فيه فرجاً.

نزلت فلما استحكمت حلقاتها فرجت وكنت أظنها لا تفرج

* * *

وقال:

(وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا(2)وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ)

(سورة الطلاق)

الآية دقيقة المعنى جداً، أنت إذا أطعت الله عز وجل قلت هذا حرام لا أقبله، وهذا الدخل مشبوه لا أقبضه، وهذا العمل لا يرضي الله لا أفعله، أنت إذاً انطلقت في حركتك اليومية من طاعة الله ولو بدا لك أو توهمت أنها خلاف مصالحك المادية ربنا عز وجل سيريك آياته بأن ترزق من حيث لا تحتسب، وأن تفتح لك أبواب النجاة بعد أن بدت لك أنها مغلقة، لذلك بعض الشعراء يقول:

كن عن همومك معرضا وكل الأمور إلى القضا
وابشر بخيـر عاجل تنسى به ما قد مضى
فلرب أمر مسخـط لك في عواقبـه رضا
ولربما ضاق المضيق ولربما اتسـع الفضا
اللــه يفعل ما يشاء فلا تكــن معترضا
الله عودك الجميــل فقس على ما قد مضى

* * *

وإني لأرجو الله سبحانه وتعالى أن أوفق إلى توضيح هذه الفكرة، هناك قواعد يستنبطها الناس من طبيعة الحياة كأن تسمع مثلاً أن فلاناً تزوج امرأة غنية، هذا المال الذي تملكه سوف يسعده، فلأنه لم يرع الدين في اختيار الزوجة لكنه راعى المال، فالمال قد يشقيه، لكنه لو اختار زوجة لدينها تنفيذاً لسنة النبي عليه الصلاة والسلام ولو أنها فقيرة وأنها أقل من أختها الغنية تلك، فلعل الله سبحانه وتعالى يريك آياته بأن يسعدك عن طريق هذه الزوجة التي اخترتها إرضاءً لله عز وجل، وعملاً بتوجيه رسوله.

تأويل الآيات وقوع الوعد والوعيد:

إذاً هناك قواعد مادية يعرفها جميع الناس، وأوامر الله عز وجل تتناقض مع هذه القواعد المادية، فالمؤمن يلزم جانب الشرع، وحينما يلزم جانب الشرع يريه الله من آياته، يكون ضعيفاً فيقويه الله عز وجل، يكون فقيراً فيغنيه، تكون الأمور معسرة فتتيسر له، إذاً الآيات دائماً بين أيدينا، وما من حادثة تقع إلا آية دالة على عظمة الله، بل إن الله سبحانه وتعالى يقول:

(بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ)

(سورة يونس 39)

قال بعض العلماء: تأويل الآيات وقوع الوعد والوعيد، هذا الكلام إيضاح وبيان لقوله تعالى:

(وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا(48))

(سورة الزخرف)

يعني ؛ قلعة من قلاع الكفر بعد سبعين عاماً تنهار وتصبح شتاتاً ؟! أليست هذه آية من آيات الله عز وجل ؟ هذه آية كبرى، ما كان أحد يتوقع أن هذه القلعة التي بنيت على أساس أنه لا إله، تنهار بهذه البساطة وبهذه السرعة، هذه آية من آيات الله عز وجل، وأحياناً قد ترى بلدة غارقة في الفسق والفجور، فيأتيها زلزال فيقوضها عن آخرها وهذه آية من آيات الله عز وجل.

كل ما يجري من حولك هو آيات تدل على عظمة الله عز وجل:

قوم يفسقون ويفجرون ويأكلون الربا يبتليهم الله بحرب أهلية تسحقهم، هذه آية من آيات الله عز وجل، لو أردت أن تنظر إلى الأحداث نظرة توحيدية دينية لرأيت كل ما يجري في العالم آياتٌ تدل على عظمة الله عز وجل، لا تفصل بين ما يجري وبين كتاب الله قال تعالى:

(وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ(112))

(سورة النحل)

وأنت أيها المؤمن وحدك إذا استقمت على أمر الله ترى من آيات الله الدالة على وجوده وعلى عظمته الشيء الكثير، منذ سنتين أرسلوا إلى الفضاء الخارجي مركبة سموها المتحدي، فهذه المركبة بعد سبعين ثانية أصبحت كتلة من اللهب، مع أنهم راجعوا جاهزيتها مراجعة دقيقة جداً بالعدّ التنازلي، وكل جهاز له جهاز مضاعف ومع ذلك، آيات، طبعاً هذا الدرس يضيق بنا عن ذكر الآيات، لكن كل دقيقة وكل ثانية وكل حدث في العالم لو تعمقت في فهمه وحللته وتأملت فيه لوجدته آية دالة على عظمة الله.

من اختار جانب الله رفعه الله و من اختار جانب الشر خذله الله:

هذا:

(وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ(48))

(سورة الزخرف)

هذه آية مستمرة، طبعاً هذه الآيات التي مع الأنبياء معجزات صارخة، لكن هناك آيات كثيرة جداً تقع لأحدنا وتقع لمن حولنا وتقع في مجتمعاتنا وفي مجتمعات أخرى نراها كل يوم.

(وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا(48))

(سورة الزخرف)

قد يتصدق الإنسان، وهو في ضائقة مادية، فيأتيه رزق وفير وهو لا يدري يقول هذه آية من آيات الله، وقد يبخل أحدهم بهذا المال فيضيع منه هذا المال، وتلك آية من آيات الله، حينما يختار جانب الله عز وجل يرفعه الله، حينما يختار جانب الشر يخذله الله عز وجل، هذه آية من آيات الله، ضمن مجال عملك هناك آيات، وإذا الإنسان أطاع الله في عمله فالله يحميه من الأشرار، وعندما الإنسان يستغل جهل الناس ويكسب مالاً حراماً يأتيه من هو أقوى منه فيأخذ هذا المال، وهذه آية من آيات الله الدالة على عظمته.

الله دائماً مع المؤمنين والكفار لا ينجحون إلا لجولة بسيطة وبعدها يخذلهم الله:

طبعاً الآية متعلقة بسيدنا موسى، لكن كل مؤمن إذا فكر يجد أن هناك آيات تحيط به كل يوم، تنطق بأن الله موجود، وأن الأمر بيده، وأنه عادل، وأنه رحيم، وأن الله سبحانه وتعالى مع المؤمنين، وأن الكفار لا يفلحون ولا ينجحون ولا يتفوقون ولا ينتصرون إلا لجولة بسيطة وبعدها يقيم الله جلّ جلاله الحق على أنقاضهم.

(وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا(48))

(سورة الزخرف)

أحياناً نيأس من شدة جفاف السماء، فيقال: إن المخزون الجوفي نفذ، المياه الجوفية انخفضت للعشر، هذه البلاد مهددة بالعطش لا بدّ من أن نغادرها، فتأتي سنة بأمطار غزيرة تفوق الحدّ السنوي بضعفين، قبل سنتين بلغ المنسوب ثلاثمئة وخمسين مليمتراً في دمشق بعد أن يئس الناس من هطول الأمطار الغزيرة، هذه آية من آيات الله الدالة على عظمته، قد تأتي مواسم جيدة جداً، وأحياناً يطوف عليها طائف من ربك وهم نائمون، تحترق بالصقيع، على مستوى الزراعة والصناعة والتجارة والأنواء الجوية والطقس، ودخل الإنسان إن كان دخلاً مشروعاً فله معاملة من رب العالمين، وإن كان غير مشروع فله معاملة أخرى، ولقد توسعت في شرح هذه الآية لأنها تمس واقعنا جميعاً:

(وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (48))

(سورة الزخرف)

كل أنواع العذاب من أجل أن ترجع إلى الله عز وجل:

أيها الأخوة الكرام تأملوا في هذه الآية فهي أوضح الآيات، إن بعض الأشخاص وبسذاجة يقولون: يا أخي هذا عذاب من الله إذ لا ترى أحداً إلا وقد مسه الأذى والضرر، إن هذا كلام الجاهلين فالله عز وجل يقول:

(وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (48))

(سورة الزخرف)

افهم ـ رحمك الله ـ ختام الآية، فكل أنواع العذاب من أجل أن ترجع إليه، فإذا رجعت إليه فاقرأ الآية التالية:

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا(147))

(سورة النساء)

انتهى الأمر، واتضح، وبان فهو مثل الشمس، إنه كلام ربنا عز وجل.

(وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (48))

(سورة الزخرف)

إذا وقعت في مصيبة فاعلم أن هذه المصيبة هي تنبيه ولفت نظر:

أيها الأخوة أتمنى على الله أن كل أخ مؤمن لما تدركه أحداث معينة ألا يكون ساذجاً مع هذه الأحداث، بل عليه أن يقول: إن الله غني عن تعذيبي، وهذه المصيبة التي لحقت بي لها حكمة، فما هي الحكمة ؟ لعل في هذه المصيبة ردعاً، لعل في هذه المصيبة دفعاً، لعل في هذه المصيبة كشفاً، لعل في هذه المصيبة تنبيهاً ولفت نظر.

(وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (48) وَقَالُوا)

(سورة الزخرف)

طبعاً هناك آية سابقة ذكرتها لكم:

(وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ(94)ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ(95))

(سورة الأعراف)

للدعوة أربع مراحل:

معنى ذلك أن هناك أربع مراحل ؛ أول مرحلة أن الله يدعونا دعوة شفهية عن طريق الأنبياء والمرسلين والدعاة الصادقين، يا عبادي اتقوا الله، يا عبادي آمنوا بالله ورسوله، يا عبادي أقيموا الصلاة وآتوا الزكاة، يا عبادي قولوا للناس حسناً، هذه دعوة شفهية وهي أول مرحلة ثم إن لم يستجيبوا أخذوا بالبأساء والضراء فلعلهم يضرّعون، فإن لم يتضرعوا يأت مكان السيئة الحسنة لعلهم يشكرون، فإن لم يشكروا دخلوا في مجال المرحلة الرابعة وهي مرحلة القصم.

(فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ(95))

(سورة الأعراف)

هذه مراحل نظامية، تُدعى أولاً إلى الله، تدعى إلى الحق يجب أن تستجيب، فإن لم تستجب فهناك مرحلة ثانية وهي البأساء والضراء، يعني العذاب لعلهم يرجعون، لعلهم يضرعون، لم تضرع ولم ترجع ولا استجبت فهناك مرحلة ثالثة بدلنا مكان السيئة الحسنة، خير وأموال وفتحنا أبواب كل شيء لعلهم يشكرون، فما شكرت إذاً لا أنت استجبت ولا تضرّعت ولا شكرت فما بقي إلا الهلاك، ومع هذا البيان صارت الآية واضحة المفهوم تماماً.

(وَقَالُوا يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ(49))

(سورة الزخرف)

بعض المفسرين قالوا: الساحر له مكان كبير فهذا ليس استهزاء بل هو تعظيم، عندهم الساحر هو العالِم، وهذا يشير إلى أنهم ما اعترفوا به نبياً.

(وَقَالُوا يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ (49))

(سورة الزخرف)

أي أنهم قالوا لموسى: سوف نؤمن لك، فادع الله أن يكشف عنا هذه المصائب، القمل والجراد والضفادع والدم في تسع آيات وسنؤمن لك ونهتدي، المرحلة الثالثة:

(فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ (50))

(سورة الزخرف)

البطولة أن تدعو الله وأنت في الرخاء وهذا حال المؤمنين:

الحقيقة أيها الأخوة الكرام... قد يصاب أحدٌ بمصيبة فيبتهل ويتضرع، ويدعو يا رب، فالله عز وجل يستجيب له، ويكشف عنه هذه المصيبة، ومن ثم فكل بطولته ينبغي أن تكون في تنفيذ عهد الله عز وجل، لكن الإنسان الغافل بالرخاء ينسى وبالشدة يتذكر، هذا شأن أي إنسان جاهل، أي إنسان قليل

الإيمان، ولتلاحظ أن أكثر الناس عند الشدة يقولون يا الله، فلو أن أشخاصاً ركبوا البحر والموج ارتفع والباخرة أصبحت كريشة في هذا البحر، فلن تجد إنساناً إلا ويدعو الله عز وجل، فبطولة هؤلاء بالشدة لا بالرخاء، لكن البطولة أن تدعوه وأنت في الرخاء، وأنت صحيح معافى، وأنت في حالات السلام والاطمئنان، وهذه هي حال المؤمنين.

(فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ (50))

(سورة الزخرف)

إن الإنسان كلما هبط مستواه الفكري خاف بعيونه، أما المؤمن فيخاف بعقله، ولكن الكافر يخاف بعينه، فحينما يواجه الشدة يقول يا الله، فإذا أزيحت عنه الشدة ينسى ويعود إلى شهواته.

مرة ذكرت لكم أن شخصاً بينما كان يقود سيارته أصابته أزمة قلبية، وزوجته إلى جنبه، ومن رحمة الله به أن صديقه مر بسيارته الواقفة، فلما صرخت زوجته نزل الصديق وحمله إلى المقعد الخلفي وأخذه إلى المستشفى، إلى العناية المشددة، فحينما أفاق من هذه الأزمة طلب مسجلة، وذكر أن الدكان كذا ليست لي بل لإخوتي والمزرعة الفلانية وهكذا وبدأ يعترف بما اغتصب من حقوق لإخوته، فلما صحا من أزمته وعاد إليه نشاطه طلب هذا الشريط وكسره، وعاد إلى ما كان عليه من اغتصاب أموال إخوته، فالله عز وجل أعطاه مهلة خمسة أشهر ثم جاءته القاضية وقضى بها نحبه، ومضى إلى ربٍ عادلٍ، لكن العبرة أن الله سبحانه وتعالى أمرضه، ثم عافاه، ثم أمهله فهل من مدّكر ؟

المصائب هي إنذار مبكر من الله سبحانه وتعالى:

وليعلم أخواننا الكرام أن المصائب إنذار مبكر، والله عز وجل من سننه الكونية سوق الشدة، ثم يرفعها لينظر ماذا يفعل صاحبها ؟ يدعوك أولاً، فإن لم تستجب، جاء بالشدة، فإن لم تتضرع جاء بالخير فإن لم تشكر، فقد انتهى الامتحان، ولابد من المقصلة انتهى، ولابد من ينتظر أن يقصمه الله عز وجل، أسعد الناس الذي يستجيب بعقله من دون مشاكل، ومن دون شدائد، ومن دون مصائب، ومن دون مضايقات، ومن دون اختبار، هذا أسعد الناس، ويأتي بالدرجة الثانية من إذا أصابته المصيبة استفاد منها، وعاد إلى الله، ثم المرحلة الثالثة إذ يأتي بالرخاء استدراجاً، فنرجو من الله أن نكون من الفريق الأول وأن نستجيب لعقولنا، راشدين بإيماننا.

(يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ)

(سورة الأنفال 24)

اسمع، واستجب، وفكر، وحكّم عقلك، وقل: هذه الدنيا ممر، وليست دار مقر، منزل ترح لا منزل فرح، دار عمل لا دار أمل، دار تكليف لا دار تشريف، مرحلة مؤقتة، جسر نعبر من خلاله إلى الآخرة، فإذا عرف الإنسان حقيقة الدنيا سار على منهج الله عز وجل.

(وَقَالُوا يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ (49) فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ (50))

(سورة الزخرف)

وقال تعالى:

(فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ)

(سورة الفتح 10)

وقال:

(وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ(51))

(سورة الزخرف)

تلبية دعوة موسى بكشف البلاء عن قومه كانت دعماً لهذا النبي العظيم:

طبعاً لما تتابعت الشدائد عليهم، وطُلب من سيدنا موسى أن يدعو الله عز وجل لرفع هذه المصائب، ورفعت فما الذي حصل ؟ صار لسيدنا موسى مكانة عند قوم فرعون، وأنه إنسان عظيم، فكأنه نافس فرعون، ونازعه مكانته، فأراد فرعون أن يستنقذ مكانته، قال تعالى:

(وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ(51))

(سورة الزخرف)

هل هناك أحد ينازعني في هذا الملك ؟ وبالمناسبة اذكر أن كلمة (لي) مهلكة لصاحبها، فهو من خلالها يريد أن يحوز كل شيء.

(وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ (51))

(سورة الزخرف)

فسيدنا موسى حينما طُلب منه أن يدعو الله عز وجل ودعا ربه فكشف هذا البلاء فكأن هذا كان دعماً لهذا النبي العظيم، فالناس التفتوا إلى سيدنا موسى فأين فرعون من موسى ؟ وأين ملكه ؟ لذلك استنقذ ملكه، قال تعالى:

(وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ (51) أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ (52))

(سورة الزخرف

مقياس أهل الدنيا هو المال والقوة:

ماذا يملك موسى ؟ إنسان ضعيف فقير مشرد هائم على وجهه، فماذا يملك هذا الإنسان ؟ بل انظروا إليه إنه مهين، وكذلك لا يكاد يبين بكلامه.

(فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ(53))

(سورة الزخرف)

دليل العظمة في عهد فرعون أن الرجل له سواران من ذهب وقلادة في عنقه من الذهب أيضاً، ليس مع موسى ذهب، وأين الذهب الذي يتحلى به، انظر مقياس فرعون، وهذا مقياس أهل الدنيا دائماً.

(وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ (51) أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ (52))

(سورة الزخرف)

يعني ضعيف، ليس حوله حاشية ورجال، ليس عنده أتباع، ليس غنياً، لا يملك ذهباً.

(فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ (53))

(سورة الزخرف)

الطاعة يجب أن تكون في المعروف لا في الباطل:

أين أتباعه ؟ أين الذين حوله ؟ أين الذين يرفعونه ؟ طبعاً قاسوه بمقياس مادي، الإنسان العظيم بمقياسهم هو القوي والغني، غني بالذهب وقوي بأتباعه، هذا لا أتباع ولا ذهب بمقياس فرعون، أما أدق آية:

(فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (54))

(سورة الزخرف)

وطُمِسَ على قلوب قومه لفسقهم، فاستخف عقولهم فأمرهم بما لا يعقل، لكنهم أطاعوه إنهم كانوا قوماً فاسقين، لما الإنسان يطيع مخلوقاً في معصية الخالق أو يطيع أمراً سخيفاً، فهذا لا عقل له، أروي هذه القصة مراراً، وأذكركم بها: لما أحد الصحابة كان أميراً على جماعة بأمر النبي وقال علماء السيرة كان به دعابة (أي عنده طرفة) **فأمر بإضرام نار عظيمة**، وقال لأصحابه: **اقتحموها ألست أميركم ؟ أليست طاعتي طاعة رسول الله ؟** الصحابة وقفوا مترددين، بعضهم قال كيف نقتحمها ونحن إنما آمنا بالله فراراً منها ؟ فما اقتحموها ولم يستجيبوا له، فلما عرضوا أمرهم على النبي، قال عليه الصلاة والسلام:

((لو دخلوها ما خرجوا منها إلى يوم القيامة، إنّمَا الطاعةُ في المعروف))

[متفق عليه عن علي بن أبي طالب]

لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق:

الحقيقة أن الإنسان يبدو سخيفاً، وسقيم العقل حينما يطيع إنساناً فيما لا يرضي الله عز وجل أو في أمر سخيف، علامة شخصيتك أنك لست ألعوبة ولا دمية ولا ريشة أنت إنسان لك اختيارك، يعني مما يستفاد أن زوجة فرعون آسية كانت صدِّيقة لم تنخدع به، وبملكه، وتعالت عليه لكفره، كما قال عليه الصلاة والسلام:

((كَمُلَ من الرجال كثير، ولم يكمُل من النساء إلا مريمُ بنتُ عمران، وآسِيَةُ امرأةُ فرعون، وخديجةُ بنتُ خويلد، وفاطمةُ بنت محمد))

[متفق عليه عن علي بن أبي طالب]

ماذا يستفاد من أن امرأة فرعون كانت صدِّيقة ؟ المعنى عميق جداً أن المرأة مستقلة عن زوجها في دينها، وليست تابعة له في المعصية، هذه امرأة لها شخصيتها، هي صدِّيقة وزوجها أكفر كفار الأرض، المعنى أنه لا حجة لامرأة تقول هذا زوجي ليس فيه دين فماذا أفعل ؟ من قال لك هذا ؟ امرأة فرعون صدِّيقة وزوجها كافر، لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، أن تكون امرأة فرعون صدِّيقة هذا مما يرفع قيمة النساء، هي لها اختيارها ولها شخصيتها ولها اتجاهها ولها محاكمتها ولها إيمانها.
فلذلك هذا الذي استخف قومه، رأى في عقولهم السقم والسفه فاستخف بهم، وأمرهم أمراً غير معقول، قال لهم: أنا إله، أنا ربكم الأعلى، فصدقوه لضعف عقولهم، وأطاعوه فيما لا يرضي الله عز وجل، فلماذا كانوا ضعاف العقول، والنفوس ؟ قال:

(إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (54))

(سورة الزخرف)

لا تقبل بأية فكرة أو فتوى إلا إذا اتفقت مع نصوص الدين:

أخواننا الكرام لما يعصي الإنسان ربه يصبح مثل سقط المتاع ليس له قيمة أبداً، يخاف من ظله، ومتى يُستخف بالإنسان ؟ ومتى تضعف نفسه وتتهاوى معنوياته ؟ ومتى يخنع ؟ ومتى يذل ؟ ومتى يقبل الضيم ؟ إذا كان عاصياً لله عز وجل، إذا كان عبداً لشهواته والآية دقيقة المعنى جداً بل هي من أدق الآيات دلالة في القصة.

(فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ(54))

(سورة الزخرف)

يروون: إن الشيطان تمثل شخصاً وطرق باب عابد، فقال له: أنا الخضر، فهذا العابد لضعف عقله، ومحاكمته، وإيمانه فرح به فرحاً شديداً، ورحب به ترحيباً شديداً، قال له: رفعت عنك الصلاة ففرح

أكثر، ورفعت عنك الصيام ففرح أكثر، ثم إن هذا نفسه طرق باب عالم فقال له: أنا الخضر، فقال له وقد عرف حقيقته: يا عدو الله لست الخضر وكاد يهوي عليه بالعصا، يعني عالم واحد أشد على الشيطان من ألف عابد، كن عالماً، أو متعلماً، أو مستمعاً، ولا تكن ضعيف العقل، لا تقبل أية فكرة، أو أي خبر، أو أية خرافة أو أي حكم، أو أي فتوى، إلا إذا اتفقت مع نصوص الدين.

يعني أنا أتألم حينما أسمع أن فلاناً أفتى بكذا، فهل هذا فلان مشرّع ؟ أنت يا أخي مؤمن، وعندك كتاب وسنة، وعندك قرآن قطعي الثبوت والدلالة، وعندك سنة نبوية مطهرة صحيحة، هذا هو المقياس، أما إذا صار كل إنسان مشرعاً فقد انتهى الدين إلى ضياع، وصار عندنا مليون دين.

(فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ(54))

(سورة الزخرف)

القبول والرفض كلاهما بحاجة إلى دليل:

قال له النبي الكريم:

((لو دخلوها ما خرجوا منها إلى يوم القيامة، إنّمَا الطاعةُ في المعروف))

[متفق عليه عن علي بن أبي طالب]

دائماً اطلب الدليل، اطلب التعليل، لا تكن إنساناً ساذجاً.

(قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنْ اتَّبَعَنِي)

(سورة يوسف 108)

دين الله عز وجل له أدلة.

(وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ(117))

(سورة المؤمنون)

لابد من برهان، حجة، دليل، نص قرآني، نص نبوي صحيح دلالته واضحة، لا تقبل شيئاً من غير دليل، وإياك أن ترفض شيئاً بدون دليل، لا القبول ولا الرفض كلاهما يحتاج إلى دليل، لئلا تكون من هؤلاء:

(فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (54) فَلَمَّا آسَفُونَا)

(سورة الزخرف)

أي أغضبونا، أسخطونا، فلما عصونا.

(فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ (55))

(سورة الزخرف)

من حكمة الله أن يكون الأنبياء ضعافاً ليكون الإيمان بهم خالصاً لله تعالى:

هناك حكمة ظاهرة أيها الأخوة وهي أن الأنبياء لحكمة أرادها الله عز وجل يرسلون وهم ضعفاء، شخص عادي ضعيف، ليست في معصمه أساور من ذهب وليس معه جماعة تذود عنه، ليس غنياً بالذهب وليس قوياً بالجماعة، فهو ضعيف، والدليل النبي عليه الصلاة والسلام ماذا قال عنه كفار مكة ؟ قالوا عنه شاعر، وقالوا عنه ساحر، وقالوا عنه مجنون، وقالوا عنه كاهن، لو كان قوياً لا يستطيعون أن يقولوا هذا الكلام، لكن شاءت حكمة الله أن يكون النبي ضعيفاً، وتستطيع أن تقول عنه مجنون وساحر وكاهن وشاعر وأن تنام في بيتك مطمئناً ولا شيء عليك، معنى ذلك أنه ضعيف جداً، لو كان على جانب من القوة وقلت عنه مجنون لانتقم منك أشد الانتقام.

وشاءت حكمة الله أن يكون الأنبياء ضعافاً، ليكون الإيمان بهم خالصاً لله، فحينما تؤمن بهذا النبي وتنصاع لأمره، ولا يحدوك رغبة بما عنده لأنه لا يملك شيئاً من متاع الدنيا، ولا رهبة فليس هناك ما يخيف، إذاً ليس عنده شيء لا من دواعي الترغيب ولا من دواعي الترهيب، لذلك من يؤمن بالنبي يؤمن به مخلصاً لله عز وجل.

أما الحكمة الثانية فهي ؛ أن هذا النبي يقوى، ويقوى، وهذا الطاغية يضعف، ويضعف.

(إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ(4)وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ(5)وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ(6))

(سورة القصص)

الإنسان لا يجب أن يكون عبداً لغير الله لأن عبد الله حر:

أيها الأخوة الكرام...

(فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (54))

(سورة الزخرف)

يعني أنت أيها الإنسان لا ينبغي أن تكون عبداً لعبد، أنت عبد لله، كن حراً، ولا تكن أداة بيد أحد، ولا تكن خطيئة لأحد، ولا تكن تابعاً لأحد، كن عبداً لله عز وجل فعبد الله حر، أي أن فرعون لما استخف قومه طبعاً أمرهم بأوامر سقيمة غبية، ونفذوا هذه الأوامر.

(فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (54))

(سورة الزخرف)

فسقهم جعلهم هزيلي العقول ضعيفي النفوس، فسقهم مع ضعف عقولهم وشغف نفوسهم جعلهم أدواتٍ رخيصة بيد فرعون.

(فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (54) فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ)

(سورة الزخرف)

لما عصونا وأغضبونا انتقمنا منهم.

(انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ (55))

(سورة الزخرف)

قصة سيدنا موسى مع قومه الضعاف:

والقصة معروفة سيدنا موسى مع قومه الضعاف.

(إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ(54)وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ(55))

(سورة الشعراء)

فرعون وما أدراك ما فرعون ؟ بقوته وجيشه وبطشه كان وراء موسى.

(قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ(61)قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِي رَبِّي سَيَهْدِينِي(62))

(سورة الشعراء)

وربنا عز وجل أمره أن يضرب البحر بعصاه، فانفلق، فكان كل فرق كالطود العظيم، سار سيدنا موسى وأصحابه في البحر في الطريق اليابسة، فلما خرج من البحر، وكان قد تبعهم فرعون، فلما كانوا وسط اليم عاد البحر بحراً، عندئذ قال فرعون: آمنت بالذي أمنت به بنو إسرائيل:

(قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنْ الْمُسْلِمِينَ(90)أَالْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنْ الْمُفْسِدِينَ(91))

(سورة يونس)

المؤمن عاقل يتعظ بغيره بينما الشقي دائماً يتعظ بنفسه:

أيها الأخوة موضوع الإيمان موضوع وقت، إن لم تؤمن في الوقت المناسب لابدّ من أن تؤمن بعد فوات الأوان، والقضية قضية وقت، يعني خيارك مع الإيمان لا خيار قبول أو رفض بل الخيار خيار وقت، قل متى أؤمن ؟ الإيمان مجدٍ في حينه، لكنه بعد فوات الأوان ليس مجدياً.

(فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ (55) فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا)

(سورة الزخرف)

يعني وجبة سابقة، ومستعجلة إلى النار.

(وَمَثَلًا لِلْآَخِرِينَ (56))

(سورة الزخرف)

والمؤمن عاقل يتعظ بغيره، والشقي دائماً يتعظ بنفسه، السعيد من اتعظ بغيره، الله جعل قوم فرعون مثلاً لكل من بغى وطغى، وقال أنا ربكم الأعلى، بئس العبد عبد طغى وبغى، ونسي المبتدا والمنتهى، سلفاً يعني وجبة سبقت كفار مكة إلى جهنم:

(النّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدّ الْعَذَابِ(46))

(سورة غافر)

العبرة أن السعيد من يتعظ بغيره:

يعني من ستة آلاف سنة أضربها بثلاثمئة وخمسة وستين يوماً ضربُ اثنين فهم يعرضون على النار غدواً وعشياً.

(فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِلْآَخِرِينَ (56))

(سورة الزخرف)

أكرر، وأعيد ففي الإعادة إفادة، السعيد من اتعظ بغيره والشقي لا يتعظ إلا بنفسه.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الزخرف 043 - الدرس (7-9): تفسير الآيات 57-66
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1994-07-15

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس السابع من سورة الزخرف.

العقل والشهوة متناقضان فمن يتبع شهوته يضعف عقله:

مع الآية السابعة والخمسين، ولكن قبل أن نمضي في شرح هذه الآية أود أن أقف قليلاً عند قوله تعالى حينما قص علينا ربنا جل جلاله قصة فرعون، ففي نهاية القصة قال:

(فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (54))

(سورة الزخرف)

وكأن هناك علاقة بين الفسق وبين خفة العقل، استخفهم لأنهم كانوا فاسقين، والإنسان حينما يتبع شهوته يضعف عقله، لأن إتباع الشهوة مناقض للعقل، إما أن تتحرك وفق عقلك أو أن تتحرك وفق شهوتك، وحينما توعّد الله هذه الأمة بالهلاك وصف سبب هذا الهلاك فقال تعالى:

(فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا(59))

(سورة مريم)

كلمة المسلمين ليست هي العليا الآن لأنهم أخلفوا وعدهم لله:

إذا أردت أن تحلل أسباب ضعف المسلمين وهم يزيدون على ألف ومئتي مليون في العالم، إذا أردت تحليلاً قرآنياً لضعف المسلمين، وكيف أن كلمتهم ليست هي العليا، وأن الله فيما يبدو تخلّى عنهم، لا، فإنه ما أخلف وعده معهم، ولكنهم هم الذين أخلفوا وعدهم مع ربهم، قال:

(فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا(59))

(سورة مريم)

الله أودع في الإنسان الشهوات وجعل لها قنوات نظيفة:

أما موضوع الشهوات، فما من شهوة أيها الأخوة أودعها الله في الإنسان إلا وجعل لها قناة نظيفة، شهوة النساء، وشهوة المال، وشهوة العز والعلو في الأرض، هذه الشهوات الأساسية لها قنوات، لك أن

تكسب المال الحلال، ولك أن تتزوج من شئت، ولك أن ترتفع لا عن طريق إيقاع الأذى بالآخرين ولكن عن طريق نفعهم ومعرفة ربك، إذاً ما من شهوة أودعها الله عز وجل إلا وجعل لها قناة نظيفة، فإتباع الشهوات المقصود به من دون منهج الله عز وجل، والإسلام واقعي، كما أنه دين الفطرة.

(فاسْتَخَفّ قوْمَهُ فَأطاعُوهُ إنّهُمْ كَانُوا قوْمًا فاسِقِينَ (54))

(سورة الزخرف)

على الإنسان أن يحسن استخدام عقله:

والفسق في تعريفه الدقيق الخروج عن منهج الله، آلة معقدة جداً، وهناك تعليمات للصانع، فاستعمال الآلة بخلاف التعليمات فسقٌ بها، أخرجتها عن تعليمات الصانع، والإنسان حينما يحب ذاته ويحرص على مصلحته، وعلى سعادته، ويحرص أيضاً على كمال وجوده وعلى سلامة وجوده وعلى استمرار وجوده، فعليه أن يطبق تعليمات الصانع، ويحسن استخدام عقله، وهذا الإنسان حينما يستخدم عقله لحظة، الإنسان وصل إلى القمر، ووصل بمركبة يسيرها إلى المشتري، والرحلة استغرقت ست سنوات وسرعة هذه المركبة تزيد عن أربعين ألف كيلو متراً في الساعة، وصل إلى الفضاء وغاص في أعماق البحار، إذ وصل إلى أعمق نقطة في المحيط الهادي وهي خليج مريانا، كما توصل إلى نقل الصورة عبر الأقمار الصناعية ونقل الأوامر عن طريق أجهزة حديثة جداً، ومن بعد ؛ فكأن الله سبحانه وتعالى يعاتب عباده الضالين يوم القيامة، ويقول: لو أنكم استعملتم عقولكم بنسبة واحد من المليون لعرفتموني، ها أنتم قد فعلتم ما فعلتم، ووصلتم إلى ما وصلتم، واخترعتم ما اخترعتم، ويسرتم لحياتكم السبل وقربتم المسافات، واخترعتم المركبات، وقذفتم بأنفسكم في البحار، ووصلتم إلى أطباق السماء، لو أنكم استخدمتم هذا العقل الذي أودعته فيكم أدنى نسبة لعرفتموني، لذلك:

(فاسْتَخَفّ قوْمَهُ فَأطاعُوهُ إنّهُمْ كَانُوا قوْمًا فاسِقِينَ (54))

(سورة الزخرف)

خُلِق العقل ليكون أداة لمعرفة الله فهو أصل الدين:

أيها الأخوة ما من عطاء على وجه الإطلاق يفوق هذا العقل الذي ميز الله به الإنسان على بقية المخلوقات، وهذا العقل إنما خلقه الله من أجل أن تتعرف إليه به، معظم الناس يستخدمون عقولهم لغير ما خلقت له، خلق العقل من أجل أن يكون أداة لمعرفة الله، فاستخدم الإنسان العقل للوصول إلى مآربه الخسيسة، ولجمع الأموال بأساليب غير مشروعة، لذلك فإن العقل كما أنه عطاء كبير، فهو في الحقيقة وبال كبير، فيما لو لم يستخدم وفق منهج الله عز وجل.

آية دقيقة الدلالة ؛ فالإنسان حينما يقبل شيئاً من غير دليل شرعي، وغير منطقي، وغير واقعي، ويتناقض مع الفطرة، ويتناقض مع العقل، يقبله ويعطل عقله ويتعامى عن فطرته ويتجاهل الواقع فهذا إنسان سفيهُ العقل أحمق، إذاً فرعون ما كان له أن يعطي أوامره لهؤلاء الذين كانوا معه لولا أنهم ضعاف العقول، وهؤلاء الذين كانوا معه ما كانوا ليكونوا ضعاف العقول لو أنهم اتبعوا الحق، بل اتبعوا شهواتهم فضعفت عقولهم فاستخف بهم فأمرهم فنفذوا أمره.

يعني فما من شيء يرفع شأن الإنسان في الحياة الدنيا ويميزه عن بقية المخلوقات كالعقل، والآيات التي تتحدث عن العقل والعلم في القرآن الكريم تقترب من ألف آية، وما من أمر إلهي إذا عرضته على العقل السليم إلا ويقبله، وما من نهي إذا عرضته على العقل السليم إلا ويقبله، فديننا دين العقل، إنما العقل أصل الدين، أفلا يعقلون ؟ أفلا ينظرون ؟ أنى تؤفكون ؟ قليلاً ما تذكرون، الآيات التي تتحدث عن الذكر والعقل والفكر والتذكر والتدبر تقترب من ألف آية.

العقل أصل الدين وفرعون استخف قومه لأنه وجد عقولهم سقيمة:

إذاً فهذه الآية دقيقة المعنى جداً، لماذا استخف قومه ؟ وجد عقولهم سقيمة، لماذا ضعفت عقولهم ؟ لأنهم اتبعوا شهواتهم، إذاً إتباع الشهوة يتناقض مع العقل، تقريباً لو مثّلتَ العقل نقطة هنا والشهوةَ نقطةً هناك، وأنت بينهما، فإذا اقتربت من الشهوة ابتعدت حكماً من العقل، وإذا اقتربت من العقل ابتعدت حكماً من الشهوة، وأنا حينما أتحدث عن الشهوة لا أتحدث عن الشهوة التي تمارس وفق منهج الله، لا، فهذه انطلقت في قناتها الطبيعية المشروعة.

(وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ(5)إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ(6))

(سورة المؤمنون)

لا لوم عليك، إذا كسبت المال الحلال ليس عليك لوم، إذا اقترنت بامرأة وأنجبت منها أطفالاً ليس عليك لوم، وإذا ابتغيت الرفعة بين عباد الله عن طريق طاعة الله عز وجل ليس عليك لوم، اللوم حينما تتبع الشهوة من دون منهج، وحينما يتبع المرء الهوى فإنه لا محالة زائغ قال تعالى:

(وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ (26))

(سورة ص)

وهذا تعليق على الآية السابقة:

(فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (54))

(سورة الزخرف)

ومن ثمّ فإن الإنسان لا ينبغي له أن يهمّش نفسه في الحياة فالإنسان أعماله ومشاغله وطلب الرزق وهموم العيش تستهلكه فلا تبقي له وقتاً ليتأمل وليتعرف إلى ذاته ويسأل من أنا ؟ وأين كنت ؟ وإلى أين المصير ؟ وماذا يعني الموت ؟ وماذا بعد الموت ؟ ومن خلقني ؟ ولماذا خلقني ؟ وما المنهج الذي ينبغي أن أسير عليه ؟ كيف أكسب المال ؟ كيف أنفق المال ؟ كيف أختار الزوجة ؟ كيف أختار الأصهار ؟ هناك أمور كثيرة جداً، فإذا أصم أذنيه تستهلكه الحياة، ويعمى عن الحق، ويهمش، فإذا نام استيقظ، ثم يأكل، ويشرب، ويعمل، ويجمع الأموال، وينفقها من غير هداية أو رشد، يزين بيته إلى أن يأتيه ملك الموت، فيقول:

(رَبِّ ارْجِعُونِ (99) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا)

(سورة المؤمنون)

لا بد من وقفة تسأل بها نفسك أيعقل أن يُخلق هذا الكون عبثاً ؟

إذاً أيها الأخوة الكرام لابد من وقفة متأنية، لابد من وقفة تحاسب بها نفسك حساباً يسيراً، بل حساباً عسيراً كي يكون حسابك يوم القيامة يسيراً، لابد من وقفة لتعلم حقيقة أنك على سفر، فهذه الدنيا ليست دار قرار، فالنبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((إن أكيس الناس أكثرهم للموت ذكراً، وأحسنهم له استعداداً))

[أخرجه يحيى بن هاشم عن زيد بن علي]

والتفكر أجود قال تعالى:

(إِنّ فِي خَلْقِ السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللّيْلِ وَالنّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ(190)الّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكّرُونَ فِي خَلْقِ السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النّارِ(191))

(سورة آل عمران)

ولابد من سؤال تلقيه على نفسك يومياً ؛ هذا الكون العظيم أيعقل أن يخلق سدى وعبثاً وباطلاً ؟

(وَمَا خَلَقْنَا السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ(38))

(سورة الدخان)

ليس معقولاً، فاللعب عمل عابث بلا هدف.

(مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلّا بِالْحَقّ(39))

(سورة الدخان)

خيار الإنسان مع الإيمان خيار وقت لا خيار قبول:

ما هو الحق ؟ الحق الشيء الثابت والهادف، المخلوقات خلقت لتبقى والموت عرض يصيبها.

(كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ)

(سورة آل عمران 185)

خلقت لتبقى إلى أبد الآبدين.

(وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ(77))

(سورة الزخرف)

خلقت لتبقى إلى أبد الآبدين، إما في جنة يدوم نعيمها، أو نار لا ينفد عذابها.

أيها الأخوة الكرام خيارك مع الإيمان خيار وقت لا خيار قبول أو رفض، خيارك متى تؤمن ؟ لأنه لابدّ من أن تؤمن، فاحذر أن تؤمن بعد فوات الأوان، فرعون آمن عند الموت، طبعاً فالإنسان عند الموت يعلم الحقيقة علم اليقين ولكن لا ينفعه علمه هذا.

(فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ(22))

(سورة ق)

على المؤمن أن يتأمل ليعرف إلى أين هو ذاهب:

المؤمن حينما يأتيه الموت ويرى مقامه في الجنة يقول: لم أر شراً قط، كل المصائب التي ساقها الله له من أجل أن يطهره ويرقى به بها، ويكرر لم أر شراً قط، والكافر لمّا يرى مقامه في النار يقول لم أر خيراً قط ولو كان في الدنيا بأعلى درجات التنعم والغنى والقوة.

فيا أيها الأخوة الكرام مزيداً من التأمل، تأمّل، صلّ الفجر واجلس وتأمل إلى أين أنت ذاهب ؟ الله عز وجل قال:

(فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ (26))

(سورة التكوير)

هناك أناس جمعوا أموالاً طائلة ووصلوا إلى مراتب عالية وجاءهم ملك الموت فكانوا صفر اليدين، انظر فهل الطريق الذي أنت فيه سالك أم غير سالك ؟ أم يوصل إلى مطب كبير، وإلى شقاء كبير؟

(فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (35))

(سورة يونس)

وقال:

(فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ (26))

(سورة التكوير)

وقال أيضاً:

(فَأَنَّى تُصْرَفُونَ (6))

(سورة الزمر)

على المؤمن أن تكون عقيدته ثابتة وأن يبتعد عن الاعتقادات الفاسدة:

وها نحن الآن مع موضوع جديد فإلى الآيات التي تبدأ بقوله تعالى:

(وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ (57) وَقَالُوا أَآَلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ (58) إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ (59))

(سورة الزخرف)

أيها الأخوة هذه القصة تبين أن عقيدة الإنسان أهم شيءٍ في حياته، والخطأ في العقيدة مشكلته أنه خطأ قد لا يتراجع عنه الإنسان، لأن المعتقِد خطأ يظن أنه على صواب، أما المذنب إذا عرف أنه مذنب فقد يتوب من ذنبه، لذلك إبليس لا يفرح بالمعصية بل يفرح بالابتداع وهو أن تعتقد اعتقاداً فاسداً، فكل واحد من المؤمنين الطيبين يجب أن يعرف بالضبط ما عقيدته ؟ هل عقيدته مطابقة لكتاب الله عز وجل ولِما جاء به النبي عليه الصلاة والسلام ؟ إن لم تكن كذلك عليه أن يصحح قبل فوات الأوان.

هؤلاء العرب في الجاهلية اعتقدوا اعتقادات فاسدة، وكذلك أهل الكتاب اعتقدوا اعتقادات فاسدة، ومناقشتنا ستنصبُّ حول موضوع العقيدة، والإنسان حينما يعتقد اعتقاداً جازماً أن لهذا الكون خالقاً ومربياً ومسيراً موجوداً وواحداً وكاملاً، وأسماءه كلها حسنى وصفاته كلها فضلى، وأنه أنزل كتباً من عنده إلى البشر ليهتدوا بها، وأن القرآن الكريم قد حفظه الله من أن يُغير أو يبدل، وأن الأنبياء عباد مكرمون اصطفاهم الله عز وجل وأنعم عليهم بالوحي وأيدهم بالمعجزات وهم معصومون قبل النبوة وبعدها، وأن هناك مخلوقات نورانية هي الملائكة سخرها الله عز وجل لمهمات كثيرة منها أنها تسجل على العبد أعماله الصالحة والطالحة، وأن هناك عالماً بعد الموت أبدياً، في الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، هذه أركان الإيمان ينبغي أن نتعلمها، ينبغي أن نعقلها، ينبغي أن نتبناها، ينبغي أن تحرك مجرى حياتنا وتوجهه.

يجب أن نؤمن بالحساب يوم القيامة:

الشيء الملاحظ أنك قد ترى إنساناً مسلماً من أب وأم مسلمين ولا ترى في حياته اليومية ولا في أعماله ولا في تصرفاته ما تشعر معه أنه يعمل للآخرة، بالعكس قد ترى في تصرفاته ما ينبئ أنه لا يحسب حساباً إطلاقاً لليوم الآخر، وأنه يتحرك وكأن هذا الكون لا إله له ولا خالق، القوي يأكل

الضعيف، الذكي يحتال على الغبي، الغني يزداد غنىً والفقير يزداد فقراً فالقضية خطيرة جداً، فلقد تعلمنا في المدرسة الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله، إذا آمنت أن الملك كما أخبرك الله عز وجل يسجل عليك كل شيء، فلن تقول: كذباً، أو زوراً، أو بهتاناً، ولن تحلف بالله كذباً، ولن تغش المسلمين، ولن تحتال لكسب المال، كيف تجحد الفضل ؟ كيف لا تكون منصفاً مع الآخرين إذا حكموك ؟ فمعنى ذلك أنه لابد أن تؤمن بعناصر الإيمان المذكورة وتؤمن كذلك بالحساب يوم القيامة، ولذلك لابد من مناقشة قضية العقيدة نقاشاً واضحاً مقنعاً:

(وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ (57))

(سورة الزخرف)

المعجزات مقبولة عقلاً لكنها غير مقبولة عادةً:

سيدنا عيسى نبيٌّ عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام عُبِدَ من قبل النصارى من دون الله، فلما قال الله عز وجل:

(إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ)

(سورة آل عمران 59)

إذاً لا تعجبوا من أن يخلق الله إنساناً من غير أبٍ ! فالله على كل شيء قدير، أن يخلق الإنسان من دون أب فهذا شيء غير مألوف، لكنه مقبول عقلاً لأن الذي خلق الكون من عدم، الكون بأكمله، والمجرات بأكملها، مليون مليون مجرة، في كل مجرة مليون مليون نجم، هذا الكون بأكمله خلق من عدم، أيعجز الله عز وجل أن يخلق إنساناً واحداً من غير أب ! فالمعجزات مقبولة عقلاً لكن غير مقبولة عادة، فلماذا عُبِد من دون الله ؟ لأنه من دون أب، من دون أب كمثل آدم فسيدنا آدم خلق من دون أب وأم، السيدة حواء بلا أم، سيدنا عيسى بلا أب، بينما البشر العاديون من أب وأم، أربع حالات موجودة، تتعلق بخلق الإنسان، ويستفاد منها أن السبب يقترن مع المسبب، وليس خالقاً له.

الأسباب تقترن مع النتائج ولا تخلقها:

لما ربنا عز وجل خلق هذه القوانين ليُعْلِمنا أن الله هو الخالق وليس السبب هو الذي يخلق، الإنسان حينما يبتعد عن الله عز وجل يتوهم أن الأسباب تخلق النتائج، لكن علماء العقيدة يرون أن الأسباب تقترن مع النتائج ولا تخلقها، والدليل أن السبب قد يختلف، وتأتي النتيجة صحيحة، كسيدنا عيسى، فقد تخلف السبب وجاءت النتيجة، وقد توجد النتيجة بلا سبب، أو قد يوجد السبب ؛ كأم وأب كاملين ولا ينجبان أولاداً، إذ جعلهما الله عقيمين.

إذاً فحينما تخرق العادات فهذا من أجل أن نعلم أن السبب وحده لا يكفي لخلق النتيجة.

حينما يستخدم العقل لغير ما خلق له فهو كثير الجدل والمناقشة:

لذلك:

(وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ (57))

(سورة الزخرف)

معنى يصِدّون أي يضجرون، يصُدون أي ينصرفون، أما يصِدون أي يضجرون، هم ماذا أرادوا ؟ هم أرادوا أن آلهتهم خير من عيسى، وقالوا:

(وَقَالُوا أَآَلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ(58))

(سورة الزخرف)

نحن نعبد الملائكة، والملائكة أقرب إلى الله من البشر، ونحن ماذا فعلنا ؟ إذا كان النصارى قد عبدوا المسيح فنحن نعبد الملائكة.

(وَقَالُوا أَآَلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا(58))

(سورة الزخرف)

كلمة (الجدل) أيضاً أحب أن أقف عندها وقفة، العقل شيء ثمين جداً، لكن لو أن الإنسان اتبع شهوته سيجد أن لديه جهازاً خطيراً يستخدمه لتحقيق شهواته، لذلك فحينما يستخدم العقل لغير ما خلق له فهو كثير الجدل والمناقشة في الكلام وإظهار الحق باطلاً والباطل حقاً، وكل إنسان يتمتع بعقل وذكاء ولم يكن على هدى من الله عز وجل يستخدم هذا العقل لشهواته ومآربه واقتناص الشهوات وجمع الأموال وردّ الحق ورفع شأنه على الآخرين، العقل له نشاط ينقلك إلى أعلى عليين لو استخدمته وفق ما صنع له، وقد يودي بك إلى الهلاك إذا استخدمته لغير ما صنع له.

الآن هناك آلات طابعة تطبع الصورة الملونة غالية الثمن جداً يقترب ثمنها من مليون ليرة، هذه الآلة يمكن أن تستخدم استخدامات صحيحة وقانونية تجعلك من الأغنياء من خلالها، أما إذا استخدمتها لتزوير العملة فقد تودع في السجن، والآلة هي نفسها إن استخدمتها في الأغراض المشروعة اغتنيت منها وإن استخدمتها في الأساليب غير المشروعة أودت بك إلى السجن، فكيف العقل ؟!

المجادلة والافتراء و قلب الحق إلى باطل هذا كله نشاط عقلي ولكن لغير ما خلق له العقل:

فالمجادلة والمماحكة والإفك والافتراء وقلب الحق إلى باطل والباطل إلى حق وافتعال المبررات للصد عن سبيل الله، هذا كله نشاط عقلي ولكن لغير ما خلق له العقل.

(وَقَالُوا أَآَلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ (58))

(سورة الزخرف)

لنحتكم وإياكم للمنطق ؛ المنطق أتعجبون من أن عيسى بلا أب ونسيتم أن آدم بلا أب ولا أم:

(إِنّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللّهِ كَمَثَلِ آَدَمَ (59))

(سورة آل عمران)

فلم يعجبهم هذا المثل.

(وَقَالُوا أَآَلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ(58))

(سورة الزخرف)

هم يعبدون الملائكة، والملائكة أقرب إلى الله في زعمهم من البشر فماذا فعلوا هم ؟ قال:

(مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا (58))

(سورة الزخرف)

الجدل سلاح المنحرفين والمنافقين:

بالمناسبة ما أضلّ الله قوماً بعد إذ هداهم إلا أوتوا الجدل، الجدل سلاح المنحرفين، سلاح المنافقين، سلاح الكفار، سلاح الفجار فمثلاً:

جاء أعرابي النبي عليه الصلاة والسلام، قال: **يا رسول الله عظني ولا تطل**، بهذه البساطة، فتلا عليه النبي صلى الله عليه وسلم الآية الكريمة:

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرّةٍ خَيْراً يَرَهُ (7) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرّةٍ شَرّاً يَرَهُ (8))

(سورة الزلزلة)

قال: **كُفيت**، آية واحدة اكتفى بها، فالنبي تأثر، قال: **فقُه الرجل.**

أيها الأخوة لو تبرأ الإنسان وتنزه عن مآربه الدنيوية وعن ترهات الجاهلية وعن أهوائه وعن مصالحه وابتغى الحقيقة لوجه الله عز وجل، فو الله لا تلبّث في مناقشته لنفسه أكثر من دقيقة واحدة، فالأمور واضحة كالشمس، كون ينطق بوجود الله، وينطق بكماله، وينطق بوحدانيته، وينطق بقدرته، وكتابه بين أيدينا لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وأنبياء كالشموس مثلٌ عليا، وقدوةٌ صالحة، ومنهجٌ واضح جداً، العقل يقبله والفطرة ترتاح له والواقع يؤيده والنقل يدعمه، ماذا بقي إلا التحرك نحو الله عز وجل، فماذا ننتظر ؟ النبي قال:

((شمروا فإن الأمر جد، وتأهبوا فإن السفر قريب، وتزودوا فإن السفر بعيد (يعني وقته قريب، ومسافته بعيدة) وخففوا الأثقال فإن في الطريق عقبات كؤود، لا يجتازها إلا المخفون، يا أبا ذر جدد السفينة فإن البحر عميق، وأخلص النية فإن الناقد بصير))

على الإنسان أن يستقيم على أمر الله وأن يلتزم بمقتضيات الإيمان:

الإنسان لا ينبغي أن يتأخر، إن سمع الحق فليُشمِّر، وليؤد الصلوات، وعليه أن يستقيم على أمر الله، يراجع حساباته، يراجع بيته هل فيه مخالفة شرعية ؟ يراجع عمله، يتوب من ذنب اقترفه ليصلح ما أفسد، إذاً هناك حقوق عالقة فليؤدها قبل فوات الأوان، فأحياناً يصدر قانوناً يحرك البشر حركة مذهلة، ويصدر تصريحاً أحياناً في بيع وشراء، فيدفع الناس في حركة تعاملية نشيطة، ومشروع قانون قد يغير معالم التجارة كلها والله يقول لكم:

(يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ(102))

(سورة آل عمران)

أفلا تتحركون ؟ ويقول:

(يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ)

(سورة التحريم 8)

أفلا تبادرون. ماذا دهاكم ؟! فيجب أن تشمر وأن تبادر وأن تتحرك، لذلك قال سبحانه:

(وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا)

(سورة الأنفال 72)

هو آمن ؛ لكنه لم يأخذ موقفاً عملياً، آمن لكنه لم يلتزم، آمن لكنه لم يحرك ساكناً، آمن لكنه قال: سبحان الله ولا حول ولا قوة إلا بالله ليس باليد حيلة، هذا إيمان إبليسي لأن إبليس آمن وقال: فبعزتك، اعترف بوجود الله، وبأنه عزيز، ولكن تحرك حركة معاكسة لمقتضيات الإيمان.

الخطأ في العقيدة مستمر أما الخطأ في السلوك فمنقطع:

أيها الأخوة الكرام ليس المقصود تفاصيل هذه المناقشة بل المقصود أن تعتقد عقيدة صحيحة، لأن الخطأ في العقيدة مستمر أما الخطأ في السلوك فمنقطع، تغلط فتتوب، أما الذي يعتقد اعتقاداً فاسداً هذا كيف يتوب ؟ يظن أنه على حق.

(وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ (57))

(سورة الزخرف)

يضجرون، ويعجبون، وقالوا:

(وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ (58))

(سورة الزخرف)

يعني الخصومة جزء من حياتهم، شريرون، يحبون الجدل بالتعبير العامي العيّ، المؤمن عملي في كل قضية، الصحابة الكرام الذين هم بتقييم النبي عليه الصلاة والسلام إذ قال خير القرون قرني الصحابة لم يلتفتوا إليها، ربنا عز وجل قال:

(لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ)

(سورة الفتح 18)

يجب أن ننظر إلى المضمون لا إلى الشكل:

بنص القرآن رضي الله عنهم فهم خيرة الخلق، وحققوا الهدف من خلقهم وكانوا مع نبيهم، فالموضوعات التي لم يهتموا بها ينبغي ألا نهتم بها، ينبغي ألا نخوض في خلافات، وفي مماحكات، وفي مناقشات، الحياة قصيرة لا تحتمل جدلاً ولا عيّاً، والأفكار فيها بسيطة جداً، خلاصتها هذا الإله خالق الكون وهذا كتابه وهذه سنة نبيه فماذا تفعل أنت ؟ تحرك يا أخي، تب إلى الله، اعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك، ولا تقحم نفسك في خصومات وخلافات وجدل عقيم، وينقضي العمر وأنت في جدل لا طائل منه.

لو فرضنا ؛ أن إنساناً قرأ إعلاناً على الجدار لمنع التجول تحت طائلة إطلاق الرصاص، ثم وقف عند الإعلان هذا الخط رائع والحبر لامع والتوقيع جميل، بدأ يحلل هذا البلاغ إلى أن جاءت رصاصة فقتلته، انظر المضمون أولاً، أن تدخل إلى بيتك فقط، لكن اهتمامنا انصبّ على الشكل حتى نسينا المضمون، الإنسان عليه أن يتحرك نحو النجاة، عليه أن يستقيم، واللهِ إن عدل ساعة أفضل من أن تعبد الله ثمانين عاماً، أن تستقيم على أمر الله كما قال أحد العلماء: ترك دانق من حرام خير من ثمانين حجة بعد الإسلام، (الدانق) عشر الدرهم يعني عشرين قرشاً سورياً، واللهِ لأن أمشي مع أخ في حاجته أفضل من صيام شهر مع اعتكاف في مسجدي هذا، كن عملياً، الدين بسيط ولكن نحن عقدناه، قضاياه بسيطة، وربنا رب النوايا، النبي الكريم كلما سئل في الحج قال: افعل ولا حرج.

التاريخ لا علاقة لنا به نأخذ منه الإيجابيات فقط:

ليس القصد أن تقصر، لا ؛ لكن لا تدخل في مجادلات وخلافات وفي مسائل، الخلاف بين الفرق الإسلامية هذا لا ينفعك، هدفك واضح، والطريق سالك للهدف، واترك أي مشكلة وراء ظهرك والغ التاريخ كله من ذهنك وذاكرتك.

(تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ(134))

(سورة البقرة)

انتهى الأمر، هذا التاريخ ليس لنا علاقة به، نأخذ منه الإيجابيات، نأخذ منه ما يحفزنا إلى البطولة، أما ما كان عبئاً علينا ندعه، العبء تركناه والحافز أخذناه، المنهج واضح أنا أريد أن تكون عملياً.

(وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا)

(سورة الأنفال 72)

هنا الهجرة تعني ترك الباطل، المهاجر من هجر ما نهى الله عنه، المشكلة أن على الإنسان أن يشمر وينطلق إلى الله طالباً النجاة.

(فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ(50))

(سورة الذاريات)

وقال:

(مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ (58))

(سورة الزخرف)

العبرة بالتطبيق والقصد أن تتبع منهج الله عز وجل:

حبُّ المناقشة، والحوار، والمجادلة، والمماحكة تجري في عروقهم، والأخذ والرد وقيل وقال، قال رسول الله:

((إِنّ اللّهَ كَرِهَ لَكُمْ ثَلَاثًا ؛ قِيلَ وَقَالَ، وَإِضَاعَةَ الْمَالِ، وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ))

[متفق عليه عن المغيرة بن شعبة]

يجب أن نعرف الصحابة الكرام بماذا ارتقوا ؟ كيف رضي الله عنهم ؟ كيف أحبوا النبي حباً جماً ؟ كيف فدوه بأرواحهم وأموالهم ؟ اتبعوا المنهج، لكن نحن لا نتبع المنهج ومازلنا نناقش، تجده يؤيد العالم الفلاني لا الفلاني، والدعوة الفلانية لا الفلانية، يخوض في أعراض العلماء وهو لم يطبق شيئاً من دعواتهم كلهم، فكل واحد دعاك إلى الله على العين والرأس، دعاك إلى الله وفق منهج الله فلا تعقد الأمور، ولا تعمل انتماءات، وتطعن بهذا، وتسوء سمعة هذا، وتخطئ هذا، ليس هذا هو القصد، القصد أنهم كلهم يشرحون منهجاً موحداً هو الكتاب والسنة بأساليب متنوعة، العبرة بالتطبيق، ممكن أن تكون عند أعظم داعية ولا تكون مطبقاً، فمع رسول الله وعلى يساره كان يجلس أحد المنافقين، فلما مات قال: أريد قميص رسول الله ليكفن به، فأعطاه الرسول قميصه وقال: **ما يغني عنهم من الله شيئاً، لقد استقر في جهنم حجراً كان يهوي به سبعين خريفاً**، لكن صحابي طلب قميصه، فسألوه لماذا ؟ قال: **إذا جاء الملكان وقالا: من نبيك ؟ قلت: هذا قميصه.**

القصد إذاً ؛ لا هذه المظاهر، ولا القصد السلوك الذي يبوئك مكانة ما، بل القصد أن تكون مخلصاً لله عز وجل، طاهر النية، طاهر السريرة، مطبقاً لمنهج الله فالإسلام يبدو لك بسيطاً، نحن عقدنا الإسلام

حتى أصبح فرقاً، وشيعاً، ومذاهب، واتجاهات، وخصومات، وأدلة القرآن والسنة بين أيدينا، والكون ينطق بوجود الله، وعظمته، والله فطر الإنسان فطرة تؤهله للمعرفة الصحيحة.

(بَلْ الْإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ(14)وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ(15))

(سورة القيامة)

ابتعد عن الخصومات الفكرية وكن عملياً:

قد يجد شخص أمامه خمسمئة ليرة فينحني ليتناولها وفي نيته أن يبحث عن صاحبها إذاً هو في عبادة لله، بينما إنسان آخر ينحني ليتناولها وفي نيته أن يأخذها لنفسه فهو عاصٍ، الشكل واحد لكن اختلفت النوايا، قال سبحانه:

(بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ (58))

(سورة الزخرف)

التعبير العامي (العيّ)، قال رسول الله:

((إِنّ اللّهَ كَرِهَ لَكُمْ ثَلَاثًا ؛ قِيلَ وَقَالَ، وَإِضَاعَةَ الْمَالِ، وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ))

[متفق عليه عن المغيرة بن شعبة]

أنت كن عملياً وواقعياً والتزم ودعك من كل الخصومات الفكرية، فإنها ترهات جاهلية.

(إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ(59))

(سورة الزخرف)

بالنبوة وهذه نعمة عظمى.

(إِنّ اللّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ(33))

(سورة آل عمران)

أنعمنا عليه بالنبوة، أيدناه بالمعجزات.

(وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ (59))

(سورة الزخرف)

جعلناه مثلاً لقدرتنا، كن فيكون من دون أب، وجعلناه مثلاً للحياة بعد الموت.

(وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ (60))

(سورة الزخرف)

نحن جميعاً في قبضة الله كن فيكون:

أنتم أيضاً في قبضة الله، كن فيكون، زل فيزول، يمكن أن نذهب بكم جميعاً وأن نأتي بملائكة مكانكم ولا تضرونه شيئاً:

(وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ (17))

(سورة فاطر)

وقال:

(وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ(38))

(سورة محمد)

بمجموعكم خمسة آلاف مليون بشر، كن فيكون، زل فيزول، بادوا وانتهوا وجعلنا مكانهم ملائكة.

الموت نوعان ؛ موت في النوم وموت عن طريق ملك الموت:

(وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ (60) وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ)

(سورة الزخرف)

الهاء تعود على سيدنا عيسى، في هذه الآية أقوال كثيرة، من هذه الأقوال أن القرآن الكريم ينبئ بقيام الساعة، أو أن سيدنا عيسى مجيئه في آخر الزمان مرتبط باقتراب الساعة، لأن سيدنا عيسى لم يمت بعد.

(إِذْ قَالَ اللَّهُ يَاعِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنْ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ)

(سورة آل عمران 55)

فسيدنا عيسى ما مات الموت الأبدي، الموت نوعان ؛ موت في النوم، وموت عن طريق ملك الموت.

(قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ(11))

(سورة السجدة)

وقال:

(اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا)

(سورة الزمر 42)

فالوفاة التي وصف بها سيدنا عيسى وفاة النوم، وسوف يعود إلى الدنيا في آخر الزمان، وهذا شيء ثابت في القرآن.

(وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ)

(سورة الزخرف)

ولكن عَلَم الساعة إذا ظهرت العلامات الكبرى والصغرى، فإذا ظهرت هذه العلامات اقترب معها مجيء سيدنا عيسى.

على المؤمن أن يتنبه حتى لا يصده الشيطان عن سبيل الله:

قال تعالى:

(وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (61) وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ(62))

(سورة الزخرف)

أي لا يصدنكم الشيطان عن سبيل الله عز وجل، لأن الإنسان حينما يكون على الإيمان يأتيه الشيطان ليصده عن هذا السبيل، فيقول أنا قبل أن أتوب ليس عندي أي مشكلة، طبعاً لأنك كنت موافقاً للشيطان وهو راضٍ، هذه الآية مما يزعج الشيطان، من الطبيعي أن الإنسان عندما يسلك طريقاً إلى الله عز وجل تتوارد على قلبه خواطر كثيرة فيحتار في أمره، لأن الشيطان بدأ عمله، وعمله مثل اللقاح يأتي مخففاً فيعطيك مناعة، لا أحد يتألم من خاطر شيء أو شبهة طرحها الشيطان، هذه كاللقاح تماماً، جراثيم مخففة من أجل أن ينتج الجسم مصلاً واقياً من هذه الجراثيم، أما المؤمن فإذا خطر بباله خاطر وتألم لهذا الخاطر، فهذا دليل على أن هذا الخاطر هجين عليه أولاً، وثانياً هذا الخاطر يبحث عن جواب محكم لهذه الشبهة فيزداد إيمانه، تتكون لديه قدرة ليرد أي خاطر آخر.

(وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (63) إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ(64))

(سورة الزخرف)

المعجزات تأتي لتوافق طبيعة العصر:

سيدنا عيسى جاء بالبينات، من البينات إحياء الميت، وأنه أبرأ الأكمه والأبرص كذلك بإذن الله، طبعاً إذا الله عز وجل أرسل نبياً فهذا النبي يحمل للناس منهجاً، والمنهج يحد من شهوات الناس، ومن انحرافاتهم، ومن طغيانهم، فالإنسان لما يحد من انحرافاته صار عنده سبيل للدفاع عن نفسه فلا يكذب النبي ولا يقاومه، بل يصغي إليه ويقبل منه.

فلابدّ من معجزات يؤيد الله بها أنبياءه، المعجزات توافق طبيعة كل عصر، لو فرضنا أن عصراً لا يهتم بالطب، والنبي جعلت معجزاته طبية فلن يفهم أحد منها شيئاً، فليس لها قيمة، إذاً لا بدّ من معجزة في موضوع تفوقَ فيه عصر ذلك النبي.

وفي زمن سيدنا موسى ؛ كان السحر متفوقاً جداً، فجاء فرعون بالسحرة الذين أتوا بحبال وعصي جوفاء، طبعاً أتوا بأفاعٍ وضعوا فيها زئبقاً، ووضعوها على سطح ساخن، فالزئبق تمدد، ولما تمدد الزئبق تحركت الحبال والعصي كالأفاعي، عمل السحرة مهارة وإتقان قال تعالى:

(فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (45))

(سورة الشعراء)

وعلت الدهشة الوجوه، ووجم السحرة، إنها أفعى حقيقية وليست زئبقية، لأن هذا ثعبان مبين أكل كل هذه الأفاعي التي اصطنعها السحرة، فالسحر كان يومها متفوقاً جداً، فكانت المعجزة حية أو ثعباناً انقلب عن عصا موسى وهزم السحرة وانقلبوا صاغرين:

(فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (46))

(سورة الشعراء)

في زمن سيدنا عيسى كان الطب متفوقاً، أما الطبيب مهما كان متفوقاً فإن مات شخص وطلب من الطبيب إحياءه فيقول: هذا ليس من شأني، وفوق طاقتي، بل هذا لله.

إن الطبيب له علم يدل بـه إن   كان للناس في الآجال تأخــير

حتى إذا ما انتهت أيام رحلته حار   الطبيب وخـانتــه العقاقيـر

* * *

هذه فوق طاقة البشر إذ لا يستطيع طبيب أن يحيي ميتاً، فسيدنا عيسى أحيا الميت، وأبرأ الأكمه والأبرص بإذن الله، هذه أمراض مستعصية، وأنبأ الناس بما في بيوتهم من مدخرات، فهذه بينات واضحة جاءت بأدلة لتدل على أنه نبي من عند الله عز وجل.

الحكمة كلام الله عز وجل الذي لا يأتيه الباطل لا من بين يديه ولا من خلفه:

قال تعالى:

(وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ(63))

(سورة الزخرف)

الحكمة يعني الإنجيل، الكلام الذي لا يأتيه الباطل لا من بين يديه ولا من خلفه، الحكمة كلام الله عز وجل، ما هذه الحكمة ؟ كلام واقعي منطقي صحيح، الإنسان إذا طبقه قطف نتائجه، أجل هذه هي الحكمة.

(قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ(63))

(سورة الزخرف)

وكلما سئل سيدنا عيسى من قبل بني إسرائيل عن قضايا خلافية بينهم مما في توراتهم فإنه يبين هذا الذي اختلفوا فيه، أما كلمة (بعض) أي أنه أجاب عن كل سؤال سئل عنه لكن هناك خلافات ما أجاب عنها لأنه لم يسأل عنها.

(وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (63) إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (64))

(سورة الزخرف)

وقال:

(وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَاعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ(116)مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ(117)إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(118))

(سورة المائدة)

الخلاف ليس من النص بل من النفوس الضعيفة:

وقال:

(فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ(65))

(سورة الزخرف)

الخلاف فيما بينهم حسداً وظلماً وعدواناً واستعلاءً، والخلاف ليس من النص بل من النفوس (وهذه آية دقيقة جداً) القرآن الآن واحد والسنة واحدة، والخلاف خلاف حسد، خلاف كبر، خلاف بغي، خلاف عدوان، خلاف مصالح، ما عليه المسلمون اليوم من خلاف لا يعود إلى أصل دينهم، و لا إلى نصوصهم المقدسة، بل يعود إلى نفوس ضعيفة، هذه نقطة مهمة جداً، الخلاف بين المسلمين دليل انحرافهم، دليل بعدهم عن الدين، لو أنهم أخلصوا لاتفقوا، ولو أنهم أخلصوا لاتحدوا، طبعاً الخط المستقيم بين نقطتين يمر وحده، ولا خط غيره، أريد خطاً ثانياً يأتي فوقه تماماً، وكذلك الثالث فوقه تماماً، لو رسمت ألفَ مليون خطٍ مستقيم بين نقطتين فكلها تتطابق، لأن الحق واحد لا يتعدد، لكن الباطل يتعدد.

(وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ)

(سورة الأنعام 153)

السبل جمع سبيل.

(يُخْرِجُهُمْ مِنْ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ)

(سورة البقرة 257)

الخلاف بين المسلمين ليس بسبب دينهم بل بسبب مصالحهم وانحرافاتهم:

والظلمات جمع، والنور مفرد، فالحق لا يتعدد، إذاً الخلاف أساسه الحظوظ النفسية، أساسه البغي، العدوان، الكبر، الحسد، المصالح المادية هذه تصنع الخلاف، أما الدين فهو واحد والقرآن واحد والسنة واحدة والهدف واحد والمنهج واحد والدستور واحد، فالخلاف الذي بين المسلمين الآن ليس بسبب دينهم لا، بل بسبب مصالح وأهواء وانحرافات وأمراض نفسية وكبر وحسد.

(فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ(65))

(سورة الزخرف)

من بينهم خلاف داخلي أسبابه أسباب أرضية وليست علوية.

(فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ (65))

(سورة الزخرف)

ظلموا الحقيقة، ظلموا أنفسهم، تكلموا بغير الحق، لمصالح، لمكاسب، الله عز وجل يتوعد هؤلاء بعذاب يوم أليم.

(هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (66))

(سورة الزخرف)

من يفتي بخلاف ما يعلم فهو آثم عند الله أكثر ممن يفتي بلا علم:

رجل في بلد إسلامي أفتى بمعصية، خرّجها وعللها بتعليلات ملفقة، دخل عليه شخص (حدثني مباشرة بلسانه) وهو على فراش الموت، رفع يديه إلى السماء وأشهد الله أنه بريء من كل فتوى أفتى بها سابقاً، متى ؟ بعد فوات الأوان، فالإنسان وهو حي يجني مكاسب، ومطامع، ورغبات، ومالاً، ومظاهر، ومكانة علية، لكن حينما يقول ما ليس بحق، يفتي بخلاف ما يعلم، هناك من يفتي بلا علم هذا آثم عند الله، لكن إثمه أقل من الذي يفتي بخلاف ما يعلم، يعلم الحقيقة ويفتي خلافها لحظ دنيوي، قال سبحانه:

(فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ (65) هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (66))

(سورة الزخرف)

النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((بادروا إلى الأعمال الصالحة ما ينتظر أحدكم من الدنيا))

[أخرجه الترمذي عن أبي هريرة]

لو أردنا الدنيا وحدها فما المغنم ؟ لو أعرض الإنسان عن الله وعن دين الله ولو انكب على الدنيا فماذا في الدنيا من مغانم ؟ هذه كلمة خطيرة جداً جعلتها محوراً لدرس طويل وهي: ثم ماذا ؟ صرت غنياً وبعدها على باب صغير، صرت قوياً وبعدها إلى القبر، صرت أعلى درجة علمية ثم ماذا ؟ هذه (ثم ماذا) تقصم الظهر، ثم ماذا بعد الغنى إلا القبر، ماذا بعد القوة إلا القبر، طبعاً القول الشهير: كل مخلوق يموت ولا يبقى إلا ذو العزة والجبروت، الليل مهما طال فلا بدّ من طلوع الفجر، والعمر مهما طال فلا بدّ من نزول القبر.

كل ابن أنثى وإن طالت سلامته   يوماً على آلة حدباء محمول

فـإذا حملت إلى القبور جنازة   فـاعلم بأنك بعدهـا محمول

***

المؤمن يتفوق إذا بقيت لحظة اللقاء مع الله في ذهنه دائماً:

ذكرت لكم في درس سابق أنهم سألوا طالباً نال الدرجة الأولى على جميع طلاب القطر: ما سبب هذا التفوق ؟ قال: لأن لحظة الفحص لم تغادر مخيلتي طوال العام، أعجبتني هذه الكلمة، وأنا أقول لكم المؤمن يتفوق إذا بقيت لحظة اللقاء مع الله دائماً في ذهنه، قبل أن يتكلم بأية كلمة يقول بينه وبين نفسه ماذا أقول لله إذا سألني لم تكلمت بكذا وكذا ؟ لم أقمت هذه العلاقة ؟ لم أعطيت ؟ لم منعت ؟ لم خاصمت؟ لم طلقت ؟ فكل حركة وسكنة سوف تُسأل عنها يوم القيامة:

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ(92)عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ(93))

(سورة الحجر)

وقال:

(هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (66))

(سورة الزخرف)

هل هناك أحد مات وتوقع الموت قبل أن يموت ؟ قليل ما هم، قد يكون إنسان في ذهنه مشاريع، فمثلاً قال أحدهم: مدخل البيت غير لائق فرتب، ودهن، ووضع تزيينات، ووضع مزروعات، إلى أن انتهى من عمله هذا، ثم توفي فكان هذا المدخل مناسب جداً للذين يعزون بوفاة هذا المتوفى، فالموت يأتي بغتة، والقبر صندوق العمل، لذلك:

((بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ سَبْعًا، هَلْ تَنْتَظِرُونَ إِلَّا فَقْرًا مُنْسِيًا ؟ أَوْ غِنًى مُطْغِيًا ؟ أَوْ مَرَضًا مُفْسِدًا ؟ أَوْ هَرَمًا مُفَنِّدًا ؟ أَوْ مَوْتًا مُجْهِزًا ؟ أَوْ الدَّجَّالَ ؟ فَشَرُّ غَائِبٍ يُنْتَظَرُ، أَوْ السَّاعَةَ ؟ فَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ))

[أخرجه الترمذي والحاكم عن أبي هريرة]

هذه سبع نهايات لا بدّ من إحداها، سبع نهايات لمن أراد الدنيا، أما لمن أراد الله:

(قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلْ الْمُؤْمِنُونَ(51))

(سورة التوبة)

من تعلّم القرآن متعه الله بعقله حتى يموت:

لن يأتيك إلا الخير، يعني من تعلم القرآن متعه الله بعقله حتى يموت، أما أرذل العمر فهذه لغير المؤمنين، إن المؤمن ليتألق تألقاً ما بعده تألق كلما تقدمت به السن.

(هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (66) الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ (67))

(سورة الزخرف)

هذه آية دقيقة الدلالة جداً، سنقف عندها وقفة مطولة في الدرس القادم إن شاء الله.

(الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ (67))

(سورة الزخرف)

يعني هناك خلة أساسها المعصية والمصلحة، وهناك خلة أساسها الطاعة والإيمان، فالخلة التي أساسها الطاعة والإيمان هذه لا تتأثر، ولا تتبدل، ولا تتغير.

(الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ (67))

(سورة الزخرف)

فادعوا الله أن يجعل علاقاتنا علاقات إيمان، هذه علاقاتٌ ثابتة لا تتأثر لا بالمصالح ولا بتقلبات الظروف ولا بتغيرات الأحوال.

الصداقة والأخوة التي أساسها معرفة الله وطاعته لا تتأثر بالظروف والأحوال:

وعدتكم أنه في الدرس القادم نقف عند هذه الآية، لكن الخلة هي الصداقة والمودة، العلاقة بين اثنين إذا كانت أساسها المصلحة والشهوة هذه تنقلب إلى عداوة مع انقطاع المصلحة والشهوة، أما الصداقة والأخوة التي أساسها معرفة الله وطاعته هذه علاقة تتنامى وهي أثبت من كل شيء، ولا تتأثر أبداً بالظروف والأحوال، لذلك فالمؤمنون كما قال عليه الصلاة والسلام:

((المسلمون كالرجل الواحد إذا اشتكى عضو من أعضائه تداعى له سائر جسده))

(كنز العمال 759)

أما غير المؤمنين علاقتهم بحسب المصالح، إذا كان هناك مصالح فهناك علاقة بينهم، وإذا انقطعت المصالح انقلبت هذه العلاقات إلى عداوات، وأما المصالح أو الشهوات، فمثلاً قد يكون بين زوجين حب

أساسه قضاء حاجة كل منهما من غير روابط إيمانية، فإذا ما في إيمان وأصيب الزوج أو الزوجة بمرض أو افتقر أحدهما قامت بينهما عداوة، إن عالم الإيمان عالم رائع جداً، لا يتأثر الإيمان وعلاقات الإيمان بأي متغير، المتغيرات لا تقدم ولا تؤخر، لأن أساس العلاقة الإيمانية شيء متين، فلها جذور بعيدة في تربة القلوب الصادقة.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الزخرف 043 - الدرس (8-9): تفسير الآيات 67-79
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 22-07-1994

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الثامن من سورة الزخرف.

الخلة هي الصداقة الحميمة التي تتنامى بين المؤمنين إذا قامت على طاعة الله:

مع الآية السابعة والستين وهي قوله تعالى:

(الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ (67))

(سورة الزخرف)

الخلة هي الصداقة الحميمة، والصداقة الحميمة أو الخلة تُبنى على دعامتين: إما على طاعة الله، وإما على معصية الله، فإذا بنيت على معصية الله فأساسها أمران: إما المصالح، وإما الشهوات، وعلى كلٍ فأية خلة، وأية صداقة، وأية علاقة تبنى على معصية أو على مصلحة كل منهما يُلقي اللوم على الطرف الآخر، ويظن أن الطرف الآخر هو السبب في هذا الشقاء الذي وصل إليه.

أما خلة المؤمنين فالعلاقة بينهم قائمة على الأخوة الصادقة، هذه أخوة متنامية، ويزداد نماؤها بعد الموت، لذلك ربنا عز وجل قال:

(عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ(47))

(سورة الحجر)

فهؤلاء المؤمنون بينهم مودة ومحبة، هذه المودة والمحبة تتنامى، حتى إن هذا النماء يتطور إلى الدار الآخرة، فلذلك من بعض ما يسعد المؤمن في الجنة أن يلتقي مع أخيه المؤمن، مما يسعد المؤمن في الجنة المودة التي كانت قائمة بينه وبين المؤمنين في الدنيا واستمرت.

(الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ (67))

(سورة الزخرف)

الخلة بين غير المؤمنين تدوم ما دامت المصلحة قائمة:

الحقيقة أن هذه الخلة بين غير المؤمنين قائمة، مادامت المصلحة قائمة هناك علاقة، فإذا زالت هذه المصلحة زالت تلك العلاقة، هذه الخلة وتلك المودة الظاهرة، أو هذه الصداقة تدوم مادامت هذه المصلحة، تدوم مادامت هذه الشهوة التي تجمع بين الخِلين، إلا أنها إذا انقطعت هذه الشهوة لسبب أو

لآخر وزالت تلك المصلحة لسبب أو لآخر تلاشت هذه المودة، وأصبحت عداوة لأن الثمن الباهظ الذي يدفعه كلا الطرفين يعزوه كل منهما إلى الطرف الآخر.

والله سبحانه وتعالى ؛ يسأل العبد عن صحبة ساعة، فليس هناك علاقة في الأرض أشرف من العلاقة بين مؤمنين، وما من علاقة أدوم من علاقة بين مؤمنين، وما من علاقة أكثر نماءً من علاقة بين مؤمنين، والأيام لا تزيد هذه العلاقات إلا متانة، ولا تزيد الصلات بين المؤمنين إلا وثوقاً ومحبة، وربنا سبحانه وتعالى في آية أخرى يقول:

(وَإِنّ كَثِيرًا مِنْ الْخُلَطاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ(24))

(سورة ص)

الخُلطة تعني شراكة أو علاقة عابرة أو علاقة دائمة أو علاقة زواج.

الخلة بين المؤمنين هي عدل وإنصاف وخارج نطاق الإيمان هي بغي وعدوان:

(وَإِنّ كَثِيرًا مِنْ الْخُلَطاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلّا الّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ(24))

(سورة ص)

يستنبط من هذه الآية التي لها علاقة بالآية الأولى أن كل خلة، أو كل اختلاط بين شخصين خارج نطاق الإيمان، فلا بدّ أن يشوب هذه العلاقة بغي أو عدوان أو ظلم، أما إذا كانت هذه الصحبة وهذه العلاقة والخلة والخلطة بين مؤمنين فهناك العدل والإنصاف.

على كل الإنسان أن يختار إخوانه وأصدقاءه بعناية فائقة، لأن الصاحب ساحب، والإنسان يُعرف مِن قرينه، والتأثير الذي يكون من الأصحاب والخلان والأصدقاء تأثير كبير جداً، وقيل لا تصاحب من لا ينهض بك إلى الله حاله ولا يدلك على الله مقاله، يعني هذا الصاحب يجب أن تختاره بحيث إذا تكلم تزداد علماً من كلامه، وإذا التقيت معه لقاءً عفوياً وصارت خلطة بينك وبينه تشعر بالراحة من نفسيته الطاهرة وحاله الطيبة.

اختيار الصديق أمر أساسي في حياة كل إنسان:

إذاً شيء مهم جداً أن نحسن اختيار أصدقاءنا أو أخواننا لأن هذا الصديق وهذا الأخ إما أن يكون له تأثير إيجابي وهذا المرجح والمطلوب، أو أن يكون له تأثير سلبي وهذا هو المحذور، طبعاً المتقون الطائعون لله عز وجل هؤلاء خلتهم تتنامى.

(الْأَخِلّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوّ إِلّا الْمُتّقِينَ (67))

وبهذه المناسبة النبي عليه الصلاة والسلام نهى عن كل عمل من شأنه أن يضعف هذه العلاقة، وكل عمل من شأنه أن يمتن هذه العلاقة أمر به، ولو استعرضت الأحاديث التي تحض المؤمنين على أن يحسنوا معاملة إخوانهم لرأيت العجب العجاب، ما من شيء يضعف هذه العلاقة إلا نهى النبي عنه، نهى عن الغيبة لأنها تمزق العلاقة بين المؤمنين، نهى عن النميمة لأنها تفسد ما بينهم، نهى عن السخرية، نهى عن أن يحتقر المؤمن أخاه، نهى عن أن يسلمه، نهى عن أن ينهره، نهى عن أن يغتابه، نهى عن أن يفسد العلاقة فيما بينهما، فلو تتبعت الأحاديث ذات الطابع الاجتماعي من أحاديث النبي عليه الصلاة والسلام لرأيت أن كل شيء يضعف العلاقة بين المؤمنين نهى النبي عنه، نهى أن يحاكي المؤمن أخاه المؤمن أي يقلده، فإذا قلده في مشيته فقد اغتابه، إذا قلده في حركاته فقد اغتابه، فإذا قلده في نبرة صوته فقد اغتابه، التقليد ممنوع، قالت عائشة عن ضرتها: إنها قصيرة، قال:

((يا عائِشَةَ لَقَدْ قُلْتِ كَلِمَةً لَوْ مُزِجَتْ بِمَاءِ الْبَحْرِ لَمَزَجَتْهُ))

[رواه أبو داود والترمذي عن عائشة]

على المسلم أن يعمل بالأسباب التي تقوي علاقته بأخيه المسلم:

إذاً انتبه لأي شيء يضعف العلاقة بينك وبين أخيك، جانبه، كأن الله يريد أن نكون صفاً واحداً كالبنيان المرصوص، كأن الله يريد أن نكون كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى، إن الله يريد أن نكون كتلة واحدة، وهذه الكتلة الواحدة لا تكون إلا بأن نراعي حقوق بعضنا بعضاً، المسلم أخو المسلم لا يظلمه، ولا يخذله، ولا يسلمه، ولا يحقره، ولا يأكل ماله، كل المسلم على المسلم حرام دمه، وماله، وعرضه، مال أخيك محرم عليك أن تأخذه بأي طريقة، محرم عليك أن تنال من عرضه، وعرضه سمعته.

إذاً على المسلم أن يعمل بالأسباب التي تقوي علاقته بأخيه المسلم، من هذه الأسباب أن تبدأه بالسلام، من هذه الأسباب أن تعوده إذا مرض، أن تهنئه إذا أصابه خير، أن تعزيه إذا أصابه شر، أن تعينه إذا طلب العون، أن تقرضه إذا طلب القرض، أن تدافع عنه إذا نال الناس منه، إذاً دقق يد الله مع الجماعة، وربنا سبحانه وتعالى في سورة الحجرات (اقرؤوها فهي تبين الآداب الاجتماعية) يقول:

(يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَومٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الظَّالِمُونَ(11)يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنْ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ)

(سورة الحجرات)

اقرأ سورة الحجرات وانظر إلى هذا الأدب الرفيع الذي يريد الله أن نتأدب به.

من أحد أسباب سعادة المؤمن في الجنة أن يكون مع إخوانه المؤمنين:

إذاً نحن الآن في موضوع الخلة، فهذه المودة التي بين الأخوة المؤمنين إن كانت قائمة على الدنيا تنتهي بالعداوة، وإن كانت لله وحده وعلى طاعة الله تنتهي بالتنامي والازدياد حتى إن أحد أسباب سعادة المؤمن في الجنة أن يكون مع أخوته المؤمنين على سرر متقابلين.

(الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ (67))

(سورة الزخرف)

اللهم اجعل أخوتنا خالصة لوجهك الكريم، ودائماً عندنا قاعدة ؛ أخوان مؤمنان أقربهما إلى الله عز وجل أشدهما حباً لصاحبه، أضعفهما إيماناً أقلهما حباً، كلما نما حبك لله نما حبك لأوليائه، ونما حبك لإخوانك المؤمنين، والمؤمن يبني حياته على العطاء لا يقول: ماذا أخذت ؟ بل يقول: ماذا أعطيت ؟ دائماً يبحث عمن يعطيه، وأن يقدم لإخوانه كل ما يستطيع، لذلك العلاقة بين المؤمنين الكل للواحد والواحد للكل، والله ما آمن والله ما آمن من بات شبعان وجاره إلى جانبه جائع وهو يعلم، ما آمن.

التطبيق العملي لهذه الآية اختر إخوانك بعناية فائقة، سهل عليك أن تختار أخاً مؤمناً، لكن البطولة أن تحافظ على أخوته، الاختيار سهل، وأن تقوم علاقة عابرة بين مؤمنين فالقضية سهلة جداً، كمن كان في نزهة أو سهرة أو في المسجد فيصافحه، ويسأله عن اسمه، ويقيم معه علاقة، فهذا سهل جداً، لكن البطولة أن تحافظ على هذه العلاقة، والأكثر بطولة أن تنمي هذه العلاقة إلى أن تغدو علاقة مثالية لا يفصمها مصالح قريبة، أو بعيدة.

ابتعد عن الأمراض النفسية التي تشتت العلاقة بين المؤمنين:

إنّ الإنسان المسلم يسره أن يرى المؤمنين على محبة، ومودة، وتعاون، ومؤازرة، وتضحية، وكلهم يحافظ على مودة أخيه، يدافع عن أخيه، وهذه علامة طيبة، وأن الجميع بخير، أما إذا كان هناك غيبة، ونميمة، وسخرية، ومحاكاة، واحتقار، وترفع، ونظرة إلى الآخرين على أنهم دونك، فهذه كلها أمراض نفسية وهذه الأمراض النفسية من شأنها أن تفتت العلاقة بين المؤمنين، فلذلك قال تعالى:

(وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ)

(سورة الأنفال 46)

هذه السمعة الطيبة التي لكم بين الناس تتلاشى بمنازعتكم.

(الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ (67))

(سورة الزخرف)

وقد ترى الناس جميعاً قال تعالى:

(تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى)

(سورة الحشر14)

لكنهم شتى ومتفرقون، فحينما تكون العلاقة على غير حب الله ورسوله تجد مودة ظاهرة، لكن في الخلفيات هناك عداوات وحسد وبغضاء، وكل شخص يحيك للطرف الآخر مطباً ليقع فيه، فالعلاقة بين الناس البعيدين عن الله عز وجل علاقة لا يحسدون عليها أبداً، والله سبحانه وتعالى وصفها بهذا الكلام البليغ، وقال:

(تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى)

(سورة الحشر14)

وقال:

(وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ)

(سورة الأنفال63)

الألفة بين المؤمنين من خلق الله تعالى:

فما قولك بأن الألفة التي بين المؤمنين من خلق الله، فقد يبدو لبعضهم أن إنفاق المال يؤلف القلوب، فإن دعوت واحداً إلى طعام نفيس، أو أمّنت له بيت، أو أعطيته معونة كبيرة جداً، فالشيء المعروف عند الناس والمنطقي والواقعي أن إنفاق الأموال من شأنه أن يؤلف القلوب، وكل الجهات في العالم إذا أرادت أن تستميل رجلاً، أو أن تشتري رجلاً بالتعبير المعاصر تمده بالمال، المال تشتري به الرجال، وتشتري به المودة ولكن إلى حين، لكن ربنا عز وجل يقول:

(لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ)

(سورة الأنفال63)

لو أنفقتم مئات الملايين من أجل تأليف القلوب لا تستطيعون، وهذا المال ينفق وتبقى العداوة بينهم قائمة، وربما انقلبت إلى صراع عنيف، لذلك:

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ)

(سورة الأنفال36)

كلما كثرت نقاط التشابه بين شخصيتين ازدادت الألفة بينهما:

الآية دقيقة المعنى جداً، لو أنفقت ما في الأرض جميعاً من أموال ما ألفت بين قلوبهم يا محمد ولكن الله ألف بينهم، إذاً هذه المودة بين أخوين مؤمنين بفضل الله، وتوفيقه، قد يزور أحد أخاه ولا يبتغي من هذه الزيارة أي شيء إلا أنه يحبه في الله، والنبي عليه الصلاة والسلام علمنا أنك إذا أحببت أخاً في الله يجب أن تعلمه، قل له أحبك في الله، وعليه أن يقول لك أحبّك الذي أحببتني من أجله.

وأنا أقول لكم: والله إنها علامة طيبة جداً وجود هذه المودة الكبيرة بين المؤمنين فأحياناً ألاحظ أن أخوين كريمين يجلسان فيسعدان سعادة كبيرة بهذا اللقاء وقد لا يحس كلاهما بالوقت كيف ينقضي يقول: مكثنا ساعات ونحن في قمة السعادة، التفسير سهل جداً ؛ هو التوافق، لأنه كلما كثرت نقاط التوافق بينك وبين أخيك ازداد الحب بينكما، فالمؤمنون من طبيعة واحدة، من سجية واحدة، من جبلة واحدة، أهدافهم واحدة، طريقهم واحد، الله ورسوله جمع بينهما، فتجد أنه كلما كثرت نقاط التشابه بين شخصيتين ازدادت الألفة بينهما، وقد أكد النبي عليه الصلاة والسلام هذا الكلام حينما قال:

((الأرواح جند مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف))

[تخريج أحاديث الإحياء للعراقي]

وكما قيل رب أخ لك لم تلده أمك، يعني أخ من بلد بعيد، هذا البلد له عادات وتقاليد من اختصاص آخر، من جبلة خاصة، لكن جمعك به الإيمان، فترتاح إليه وتركن إليه أضعاف ما تركن إلى قريب نسب وله اتجاه آخر، إذاً القانون العلمي كلما كثرت نقاط اللقاء بينك وبين أخيك ازدادت المحبة بينكما، إذاً فهناك محبة عفوية وحتمية بين كل مؤمنين على وجه الأرض، لو دخل مؤمن على ألف رجل منافق، وفيهم مؤمن واحد لحنّ أحدهما للآخر تلقائياً من بين الألف، ولو دخل منافق على مئة مؤمن بينهم منافق واحد لحنّ هذا المنافق لمن يشابهه في نفاقه.

لا تكون الخلة متينة بين رجلين إلا إذا كان أساسها طاعة الله عز وجل:

إذاً أخوة الإيمان ثمينة جداً، وإذا قرأتم الحديث الشريف المتعلق بالعلاقات الاجتماعية تجدون هذه الحقيقة، مثلاً إفشاء السلام ينمي المودة، أن تنادي أخاك بأحب الأسماء إليه، أن تلبي دعوته إذا دعاك، أن تزوره من حين لآخر، أن تسلم عليه، أن تعينه في حاجاته، أن تهنئه، أن تعزيه، أن تقرضه، أن تتعامل معه بما يرضي الله ورسوله، فهذا كله ينمي العلاقة، في الطرف الآخر أن يزدري أحدهم الآخر، ويحتقره، ويعمل على أن يسلمه، وأن يأكل ماله، وأن ينال من عرضه، وأن يُحقره، وأن يغتابه، وأن ينمّ بينه وبين الآخرين هذا كله يضعف العلاقات.

أردت من هذه الكلمة السريعة أن أوضح أن الخلة هي العلاقة المتينة الوشيجة بين رجلين لا تكون وشيجة ومتينة ومستمرة ومتنامية إلا إذا كان أساسها طاعة الله عز وجل.

مرة سمعت كلمة ؛ أن أشخاصاً لهم اجتماع أسبوعي، أكثر الناس هكذا يجتمعون في بيت واحدٍ، وفي يوم معين في الأسبوع، هذا اللقاء بقي يتجدد سبعة عشر عاماً، والشيء العملي أن هذه اللقاءات سريعاً ما تتلاشى، قد تدوم شهراً، أو شهرين، تتوقف، فسأل سائل ما سرّ هذا اللقاء الذي استمر لمدة سبعة عشر عاماً ؟ فقالوا: لأنه ليس فيه غيبة، ولا نميمة، ولا نساء، فسر المودة طاعة الله عز وجل، فإذا أخذ كل واحد ما له وما عليه، قد تقوم علاقة في سفرةٍ واحدةٍ أدى الأجرة واحد، فانتهت العلاقة، لكن كل إنسان أدى ما عليه وعلى مستوى الخدمة، وعلى مستوى الإنفاق، فالعلاقة تستمر.

((النبي عليه الصلاة والسلام كان مع أصحابه في سفر، فأرادوا أن يعالجوا شاة، دققوا قال أحدهم: عليّ ذبحها، وقال الثاني: عليها سلخها، وقال الثالث: وعليّ طبخها، فقال عليه الصلاة والسلام: وعليّ جمع الحطب، فقالوا: نكفيك ذلك، فقال: أعلم أنكم تكفونني ذلك، ولكن الله يكره أن يرى عبده متميزاً على أقرانه))

[ورد في الأثر]

تطبيق السنة يقوي العلاقة بين المؤمنين ومخالفتها يمزق هذه العلاقة:

كما قلت قبل قليل ببساطة بالغة يمكن أن تقيم علاقة مع مؤمن، لكن البطولة يجب أن تحافظ على هذه العلاقة، تحافظ عليها بأداء الحقوق، تحافظ عليها بالمشاركة في الأعمال، إذا سافرت معه، إذا شاركته، فالمشاركة في الأعمال تستوجب العدالة بأن تأخذ ما لك وأن تعطي ما عليك، أن تزوره، أن تسلم عليه، أن تناديه بأحب الأسماء إليه، ألا تغتابه، لو نفذنا السنة لكنا كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً، الاعتذار إذا أخطأت فاعتذر، أخوك أخطأ التمس له العذر، التمس لأخيك عذراً ولو سبعين مرة، هكذا النبي عودنا، من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه، قضية خاصة به لا تتدخل بشؤونه، لا تسأله فتحرجه، ماذا تتقاضى في الشهر وكم ؟ وزوجتك ماذا كان مهرها ؟ بينك وبينها، هذه الأسئلة تعني تدخلات في شؤون الغير، تحدث نفوراً، فإذا كنت تحب أن تحافظ على علاقة طيبة مع إخوتك المؤمنين يجب أن تطبق السنة، تجد أنك كلما طبقت السنة قويت العلاقة، كلما خالفت السنة تمزقت العلاقة.

يكفي أن النبي علمنا أنك إذا كنت تسير مع أخوين وأسرّ أحدهما للآخر حديثاً، وسمع وقع أقدام من بعيد، فإذا التفت هذا الإنسان المتكلم أي خشي أن يسمعه أحد فهذا المجلس صار بالأمانة، حتى لو لم يقل لك احفظ هذا السر، المؤمن يستر، إذا أفشى لك سراً من أسرار حياته، أفشى لك مشكلة داخلية في بيته، فهذه المشكلة سر ينبغي ألا تشيع بين الناس أو يسمع بها أحد.

ربنا عز وجل يشرف عباده حينما ينسبهم إلى ذاته بقوله يا عبادي:

أخواننا الكرام اقرؤوا السنة فيما يتعلق بالعلاقة الاجتماعية وطبقوها تقطفوا ثمارها، والله في القريب العاجل تقطفوا ثمارها حباً ومودة وإخلاصاً وتضحية، وكان أصحاب النبي عليهم رضوان الله مثلاً أعلى في العلاقة الطيبة فيما بينهم.

(الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ (67) يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ (68))

(سورة الزخرف)

هذه هي السعادة المطلقة، ثم إن ربنا عز وجل يشرف العباد حينما ينسبهم إلى ذاته فيقول: يا عبادي، هؤلاء الذين عبدوا الله في الدنيا، هؤلاء الذين عرفوه، هؤلاء الذين أطاعوه، هؤلاء الذي آثروا مرضاته على ما سواه، هؤلاء الذين وقفوا عند الأمر والنهي، هؤلاء الذين ما تجاوزوا أمره، كان سيدنا عمر وقافاً عند كتاب الله، هذا يستحق هذا الشرف العظيم، يا عبادي.

الحياة الدنيا مركبة على الخوف مما سيأتي:

ما العطاء الآن:

(يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ (68))

(سورة الزخرف)

الحزن على ما مضى والخوف لما سيأتي، فبهذه الآية غُطِّي الماضي والمستقبل في آن واحد، يا عبادي أنتم في ظلي، أنتم في جنتي، لا خوف عليكم اليوم مما سيكون، الحياة كلها مخاوف، الحياة الدنيا طبيعتها كلها مخاوف، من منا يضمن ألا يصيبه مرض عضال.

كل الذين أصابهم مرض عضال كانوا أصحاء مثلنا، ثم فجأة ظهر هذا المرض، إذاً هناك قلق مرعب، من منا يضمن أن دخله سيكون مستمراً ؟ لا أحد، قد تنشأ ظروف مفاجئة، فيقل الدخل، أو تبور التجارة وتكسد البضاعة، تقدم الزمن عليه ليس في صالحه، كلما تقدم به العمر ضعفت قواه، قلّ استمتاعه بالدنيا، فالحياة كلها مقلقات، كلها مخاوف، والخوف ليس خاصاً بغير المؤمنين، سيدنا موسى خرج منها خائفاً، الحياة فيها خوف، وفيها قلق، وفيها حزن.

(وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنْ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنْ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرْ الصَّابِرِينَ(155))

(سورة البقرة)

قد يخاف الإنسان المؤمن أن يعصي ربه، يخاف على هذه الصلة التي بينه وبين الله أن تنقطع، فالحياة مُركّبة على الخوف، إن هذه الدنيا دار التواء لا دار استواء، ومنزل ترح لا منزل فرح، فيها موت، فيها مرض، فيها فقر، فيها هم، فيها حزن، مثلاً شخص يتزوج ويختار أفضل زوجة، وينجب ولداً يحتل مكانة كبيرةً في قلبه، يسخن، ويمرض، فإذا بالأب والأم يتألمان ألماً لا حدود له، والطبيب قال: لعله مصاب بالتهاب سحايا، فماذا دهى الأب والأم ؟ هذه الحياة كلها متاعب، كلها هموم، وكلها أحزان.

الدنيا دار كدح وسعي وابتلاء وكل هذا يتلاشى عند الموت:

فالآية يا عبادي كنتم في دار ابتلاء وانتهت، كنتم في دار عمل وانتهت هذه الدار، كنتم في دار بذل، وفي دار كدح.

(يَاأَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ(6))

(سورة الانشقاق)

كنتم في دار سعي.

(وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا(19))

(سورة الإسراء)

فالدنيا دار سعي، ودار كدح، ودار ابتلاء، ودار عمل، ودار تكليف، وكلها متاعب، والعمر قصير، والهموم كبيرة، وترى الإنسان يصيبه مرض، ويتلوه مرض، فساعة يخاف من أمراض في قلبه، وساعة من جلده، وساعة من نمو الخلايا نمو عشوائي، قد يخاف من أن يمرض ابنه أو زوجته، أو يقل دخله، أو يفقد حريته، أو يتعرض لحادث.

(يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ(68))

(سورة الزخرف)

انتهى الخوف، والقلق، والحزن، وتبدد الخوف من الضياع والحيرة، كل متاعب الدنيا تلاشت عند الموت وعاد المؤمن إلى ربه راضياً مرضياً.

(يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ (68))

(سورة الزخرف)

مهما كنت مُنعّماً في الدنيا فالجنة أعظم:

لو فرضنا أن شخصاً كانت دنياه من أعلى مستوى في الرغد والاستقرار، مال وفير، قصر منيف، زوجة جميلة رائعة، أولاد أبرار، أصلاً هذا شيء مستحيل، ولكن أفسحوا لخيالكم أن يحلق، ولو أنه

انتقل إلى الجنة، والأمر ليس نحو الأدنى بل نحو الأعلى، فالإنسان طبيعياً إذا انتقل من بيت إلى بيت أرقى لا يتألم، لهذا ورد عن النبي الكريم أن المؤمن حينما يموت ينتقل من ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة كما ينتقل الجنين من ضيق الرحم إلى سعة الدنيا، أما قوله:

(وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ (68))

(سورة الزخرف)

فمهما كنت منعماً في الدنيا، مهما كنت في صحة جيدة، مهما كنت موفقاً في حياتك، مهما تناولت أطيب الأطعمة، سكنت في أجمل البيوت، ركبت أجمل المركبات، فالجنة أعظم.

(يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ (68))

(سورة الزخرف)

لا عطاء أعظم من هذا العطاء، هذا هو الفوز العظيم، هذا هو النجاح الحقيقي، يقول لك فلان ناجح في عمله ومتألق، هذا نجاح مؤقت لكن عطاء الآخرة هو الفوز الأكبر، هذا هو النجاح، هذا هو التفوق، هذا هو الفلاح، هذه هي البطولة، ليس من يقطع الطرق البطل إنما من يتق الله البطل، اتق الله، وأوصل نفسك بهذا المقام ليخاطبك الله عز وجل بقوله:

(يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ (68))

(سورة الزخرف)

ترى الآخرين يوم القيامة في حال لا يحسدون عليه:

لكن الآخرين يوم القيامة هذا حالهم الذي لا يحسدون عليه:

(وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ(2))

(سورة الحج)

أنت ترى هؤلاء الذين كانوا في الدنيا مستمتعين منغمسين في شهواتهم تراهم يحترقون بالنار، وأنت في مأمن ويقول الله لك:

(يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ (68))

(سورة الزخرف)

لا أنتم تحزنون تغطّي الماضي، ولا خوف عليكم اليوم تُغطّي المستقبل، من هم عباد الله بتعريف جامع مانع مختصر مفيد ؟ قال:

(الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ (69))

(سورة الزخرف)

ثمن الجنة الإيمان بآيات الله وهو ثمن متاح لكل إنسان:

آمن بآيات الله الكونية، آمن بآياته القرآنية، آمن بآياته التكوينية، آمن بأفعاله، فكلها عدالة، آمن بخلقه، آمن بقرآنه، الذين آمنوا بآياته وكانوا مسلمين، طائعين، مستسلمين لأوامرنا، هذا الثمن، هذا ثمن غير تعجيزي، ثمن متاح لكل إنسان، عطاء الله عظيم، قد يكون هناك شروط تعجيزية، ولكن عند الناس بعضهم مع بعض، وفيما بينهم، فمن هم العباد الذين ناداهم الله فقال:

(يَا عِبَادِيَ (56))

(سورة العنكبوت)

نسبهم إلى ذاته وشرفهم بهذه التسمية، والذين:

(لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (62))

(سورة البقرة)

قال:

(الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ (69))

(سورة الزخرف)

والآيات بين أيديكم، هذا القرآن بين أيديكم، وهذا الكون بين أيديكم، وهذه أفعال الله بين أيديكم، فكروا فيها.

(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ(11))

(سورة الأنعام)

يوم القيامة ترى الفرح والحبور على وجه المؤمن حينما يرى الجنة وما فيها:

فكر في أفعال الله، وفكر في كلامه، وفكر في خلقه، يعني آمن بالله، آمن بالله أولاً واستسلم لأمره ثانياً، ائتماراً وانتهاءً، تستحق أن تكون من هؤلاء العباد الذين طمأنهم الله عز وجل يوم القيامة وقال:

(يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ (68) الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ (69) ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ (70))

(سورة الزخرف)

تحبرون قال العلماء: هناك فرح حقيقي، الفرح إذا ازداد في القلب ظهر على الوجه، قد يفرح إنسان في قضية ولكنه لا يظهر فرحه، كأنه فرح من الداخل، قد يعقد صفقة رابحة، ولكن لا يظهر عليه أثر فرح، يفرح ويكتم فرحه، لكن تحبرون لها معنى دقيق في اللغة، يعني الفرح إذا بلغ مرحلة كبيرة جداً يظهر على الوجه، يتألق وجهه، تصبح عيناه زئبقيتان، تبرق عيناه، الحبور أن يظهر الفرح على وجهك،

فالمؤمن لما يرى الجنة، لا قلق فيها، ولا خوف، ولا حزن إلى أبد الآبدين، لا يخشى كبراً في السن، ولا الوهن والمرض، فقد كان في دنياه يحمل حقيبة أدوية دائماً، هذه انتهينا منها، رأى الجنة رضوان من الله عز وجل، الحور العين، جنات وفواكه مما يشتهون، أي شيء يخطر في البال يكون بين يديك، لهم فيها ما يشاؤون.

فمن شدة فرح المؤمن حينما يرى إكرام الله له ويرى الجنة وما فيها يحبر، يعني يظهر فرحه على وجهه.

كلما ارتقيت درجة في الجنة ازددت شأناً ومكانة:

وقال:

(يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ (68) الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ (69) ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ (70))

(سورة الزخرف)

طبعاً قد يأكل الإنسان بصحن من كرتون في وليمة لأنه لا يحتاج إلى غسيل، أما إذا كان ضيف كبير القدر والمقام فالصحون من الدرجة الأولى.

(يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ(71))

(سورة الزخرف)

إذا كان الضيف كبير المكانة رفيع المنزلة جداً يصبح مستوى الأواني فخماً جداً، أحياناً تكون الملاعق من الذهب الخالص، الأكواب من فضة، فكلما كان الضيف كبير الشأن وله قدر كبير تكون الأدوات أرفع مستوى وأبهى.

(يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (71))

(سورة الزخرف)

في الجنة كل أنواع النعيم ويسمح الله لهم بالنظر إليه:

سعادة متناهية، يعني كل أنواع النعيم في الجنة، وفوق كل هذا، فالمؤمنون يرون ربهم يوم القيامة كالبدر تماماً فيغيبون من نشوة النظرة خمسين ألف عام، لهم ما يشاؤون فيها من حور عين، من فواكه، من أنهار، من جنان.

(لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ(35))

(سورة ق)

يسمح الله لهم أن ينظروا إليه.

(يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (71) وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (72))

(سورة الزخرف)

حضور مجالس العلم، طلب العلم، تلاوة القرآن، ذكر الله، الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، صلاة الليل، إنفاق الأموال، غض البصر، هذه حرام لا أفعلها، هذا الموقف الأديب في الدنيا والتحلي بمكارم الأخلاق مع طاعة الله عز وجل، التوجه إلى المساجد، طلب العلم، إقامة أمر الله في البيت، هذا ثمن الجنة.

(إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ(15)آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ(16)كَانُوا قَلِيلًا مِنْ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ(17)وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ(18)وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ(19))

(سورة الذاريات)

كلما كان جهدك وتعبك أكثر في الدنيا كلما نلت العطاء الأكبر في الجنة:

هذه النتيجة سبقتها مقدمات ـ يعني مثلاً لتقريب الفكرة ـ إنسان عمله توقيع فقط يقول لك عشرة آلاف، وواحد يعمل اثنتي عشرة ساعة ويأخذ مئتي ليرة، هذا نال شهادة دكتوراه هو خبير في اختصاص نادر جداً، عندما كان يدرس وقد أمضى ثلاثاً وثلاثين سنة أين كنت أنت ؟ وأيام دراسته يبقى إلى الساعة الثالثة صباحاً كل يوم، أين كنت أنت ؟ كنت تنام، فالإنسان الذي يضحي لابد أن يقطف الثمار، وكلما كبرت التضحية كانت الثمار أوفر وأينع، هذه في الدنيا قد تراها، هناك مهن الجهد فيها بسيط، والدخل كبير، لكن قبلها كان الإعداد ثلاثاً وثلاثين سنة، لكن إذا كان الإعداد بسيط فالعمل اثنتي عشرة ساعة وبمئتي ليرة مثلاً، إن العمل شريف، وأنا لا أنتقص من قيمة الفاعل، لكن لما يكون جهد الإنسان كبيراً ودخله قليلاً فمعنى ذلك أنه ليس عنده خبرة فنية أي أنه ذو خبرة عضلية فقط، جهد عضلي، أما إذا كانت هناك خبرة فنية فنظرة أو توقيع يوجب خمسة آلاف، أو أقل أو أكثر.

في الجنة الآن هذا العطاء الكبير له سبب:

(كَانُوا قَلِيلًا مِنْ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ(17)وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ(18)وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ(19))

(سورة الذاريات)

كذلك قال الله تعالى:

(فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمْ اقْرَءُوا كِتَابِيه(19)إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيه(20))

(سورة الحاقة)

في الآخرة كل شيء بحسابه:

في الدنيا هذه الساعة لم تغب عن ذهني والناس نيام، ساعة اللقاء، ساعة الحساب، ما غابت عن ذهني أبداً.

(إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيه(20)فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ(21)فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ(22)قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ(23)كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ(24))

(سورة الحاقة)

كل شيء بحسابه، والله يقدر الليل والنهار.

(يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (71) وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (72))

(سورة الزخرف)

الجنة بالعمل وبرحمة الله عز وجل.

(لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ (73))

(سورة الزخرف)

الفاكهة دليل الإكرام، المبالغة في الإكرام.

المجرمون يحتارون من شدة الألم في الآخرة:

صورة أخرى:

(إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (74) لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ (75))

(سورة الزخرف)

أي أنّ الإنسان قد يحتار من شدة الألم، الإبلاس هو الحيرة، قد تأتي الإنسان نوبات ألم شديدة، وقد يصيح، وأحياناً يكز على أسنانه، ويشد على المقعد، وقد يضجر، ويكظم غيظه، يسكت، إنه محتار ماذا يفعل ؟ ألم لا يحتمل.

(إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (74) لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ (75) وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ(76))

(سورة الزخرف)

محاسبة كل إنسان على عمله يوم القيامة:

لا ظلم اليوم، قال تعالى:

(وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا (77))

(سورة النساء)

وقال:

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَه(7)وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَه(8))

(سورة الزلزلة)

وقال:

(وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ(47))

(سورة الأنبياء)

وقال:

(لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ (75) وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ (76))

(سورة الزخرف)

الإنسان اختار بنفسه حمل الأمانة فإن أداها بحقها فله عطاء يفوق الخيال:

بساعة من ساعات الألم الشديد الذي لا يحتمل:

(وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ (77))

(سورة الزخرف)

إنه لا يموت فيها ولا يحيا، الحالة لا تطاق، يموت فيستريح أم يحيا حياة مريحة لكن:

(وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ(77))

(سورة الزخرف)

الإنسان خُلق ليبقى ويسعد، وهو اختار بنفسه حمل الأمانة.

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا(72))

(سورة الأحزاب)

لقد حمل الإنسان الأمانة، فلو أنه أدى هذه الأمانة بحقها فله عطاء يفوق حدّ الخيال، المؤمن إذا أدى الأمانة يبلغ في سعادته أضعاف الملائكة، يتجاوز الملائكة المقربين لأنه فيه شهوة، ويتعرض لمخاطرة، فالموظف دخله محدود لأنه بلا مسؤولية، ولا يعاني قلقاً ولا خوفاً، فلماذا التاجر أحياناً يربح

أرباحاً باهظة ؟ فهذه الأرباح ثمن المغامرة يمكن أن يفلس، يمكن أن يخسر، دائماً قرار المغامرة فيه احتمالان إما أن يربح ربحاً فاحشاً، وإما أن يخسر ويفلس.

الإنسان إما أن يكون خير الخلق أو أنه شر الخلق لا يوجد حل وسط:

الإنسان قبل حمل الأمانة، فهو إما أن يبلغ في سعادته أضعاف الملائكة، وإما أن يهوي إلى أسفل سافلين، لا يوجد حل وسط، ركب المَلَك من عقل بلا شهوة، وركب الحيوان من شهوة بلا عقل، وركب الإنسان من كليهما، فإن سمت شهوته على عقله أصبح دون الملائكة كالحيوان، وإن سمى عقله على شهوته أصبح فوق الملائكة لذلك:

(إِنّ الّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيّةِ(7))

(سورة البينة)

على الإطلاق:

(إِنّ الّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُوْلَئِكَ هُمْ شَرُ الْبَرِيّةِ(6))

(سورة البينة)

فالإنسان إما أنه خير الخلق، وإما أنه شر الخلق لا يوجد حل وسط، ونحن ما دمنا أحياء فهناك بحبوحة، ونحن حملنا الأمانة وقبلناها، وكل شيء محاسبون عليه.

السعيد من عرف حقيقة ذاته وحقيقة الأمانة التي يحملها واستغل الوقت كله للعمل للآخرة:

السعيد من عرف حقيقة ذاته وحقيقة الأمانة التي يحملها واستغل الوقت كله للعمل للآخرة، وقد قال عليه الصلاة والسلام:

((إن أكيسكم أكثركم للموت ذكراً، وأحزمكم أشدكم استعداداً له))

ألا وإن من علامات العقل التجافي عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود، والتزود لسكنى القبور، والتأهب ليوم النشور، وقال:

((الكَيّس مَنْ دانَ نفسَه، وعَمِلَ لما بعد الموت، والعاجزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وتمنّى على الله))

[أخرجه الترمذي عن شداد بن أوس]

قال تعالى:

(إِنّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنّمَ خَالِدُونَ (74) لَا يُفَتّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ (75) وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظّالِمِينَ (76) وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُكَ قَالَ إِنّكُمْ مَاكِثُونَ (77) لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقّ وَلَكِنّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقّ كَارِهُونَ (78))

(سورة الزخرف)

على الإنسان أن يفكر بشكل صحيح وأن يتحمل مسؤولية قراره:

في الدنيا الحق، بلغت الحق كاملاً، ودعيتَ إلى الحق، ودعيت إلى معرفة الله، دعيت إلى طاعته، دعيت إلى بذل المال في سبيله، دعيت إلى الائتمار بأمره، ولكنك كرهتَ الحق، وقلت إن هي إلا أساطير الأولين.

(لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ (78) أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ (79))

(سورة الزخرف)

أحياناً الإنسان يفكر ويتخذ قراراً أحمقاً، هكذا اتخذ قراره، وربنا عز وجل يتخذ قراراً بمعاقبته.

(أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ (79))

(سورة الزخرف)

الله هو القوي، فإذا أنت اتخذت قراراً بأن هذا الدين لغير هذا الزمان، أو كله غيبيات، ونحن في عصر علم، فلابد من أن تتحمل المسؤولية، لذلك الله عز وجل قال:

(أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ (79))

(سورة الزخرف)

الإنسان قد يتخذ قراراً في معصية لكن الله أكبر من قراراته وهو له بالمرصاد:

أحياناً قد تكون قصة بليغة في التعبير عن معنى آية مما يغني عن شرحها، فاسمع يرعاك الله، حدثني رجل اشتغل في شراء الصوف في البادية، كان صغير السن، وليس فقيهاً في أمور التجارة فخطر في باله أن يتلاعب في الوزن، فاشترى كمية من الصوف من أحد تجار البضاعة وأعطاه زوراً وبهتاناً أوزاناً كلها مغلوطة، فبعد أن شعر البدوي أن هناك تلاعباً في الميزان تألم، وقال له: إن شاء الله تجدها في صحتك إن خدعتني في الوزن وغششتني، قال: وبعد أن قال صاحب البضاعة هذه الكلمة، دخلت مع نفسي في صراع وقتاً طويلاً والسيارة منطلقة بي، وأقول لنفسي: أأرجع وأعطيه الفرق، أم أبقى ساكتاً، ماذا أفعل ؟ قال لي: وقبل بلدة (الضمير) القريبة من البادية اتخذت قراراً ألا أرجع إليه، فو الله ما أكملت القرار في نفسي حتى وجدت نفسي في بركة من الدماء، إذ انقلبت السيارة والبضاعة تبعثرت، والسمن سال، وأصابني نزيف، وأخذوني إلى بعض الخيام ليسعفوني.

إذاً ؛ فالإنسان قد يبرم أمراً، أو يتخذ قراراً في معصية، أو يتخذ قراراً بعدوان على أموال الناس، يتخذ قراراً بأكل الحقوق، يتخذ قراراً بسحق خصمه، لكن الله أكبر منه ومن قراراته.

(أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ (79))

(سورة الزخرف)

انتبه أن تتخذ قراراً في معصية لأن الله عز وجل يدمرك بالمقابل:

كنت في العمرة وحدثني شخص بدوي من أطراف جدة، له أرض لما توسعت جدة أصبحت أرضه ضمن دائرة التنظيم، فأحب أن يبيعها لمكتب عقاري، فتلاعب أصحاب المكتب عليه وأخذوها بثلث قيمتها، وبنوها بناية من ثلاثة عشر طابقاً، كانوا ثلاثة شركاء، أول شريك وقع من أعلى سطح البناء فنزل ميتاً، الشريك الثاني مات بحادث سيارة، أما الثالث فانتبه أن القضية كبيرة، وأنه احتال مع شريكه على صاحب الأرض بالثلثين تقريباً، فبقي يبحث عن صاحب الأرض أكثر من ستة أشهر حتى عثر عليه ونقده الفرق، فقال له البدوي: أنت أدركت نفسك.

(أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ (79))

(سورة الزخرف)

آية تتضمن كل معاني التخويف والتهديد، انتبه أن تتخذ قراراً في معصية، في عدوان، لأن الله عز وجل يتخذ قراراً بالمقابل يدمرك به، يتلف مالك كله، أو يتلفك أنت نفسك.

(أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ (79))

(سورة الزخرف)

قال أعرابي: **يا رسول الله عظني وأوجز، فتلا عليه هذه المقولة:**

((قُلْ آمَنْتُ بِاللَّهِ ثُمّ اسْتَقِمْ))

لما قال: ثم استقم، قال: أريد أخف من ذلك، قال:

((إذاً فاستعد للبلاء))

[رواه مسلم عن سفيانَ بن عبد الله]

إذا الإنسان لم يقبل الاستقامة، ولم يقبل أن يعطي الناس حقوقهم، بل أخذ أموال الناس بالباطل، فأمامه عقاب كبير، إن ربك لبالمرصاد.

انتبه أن تتخذ قراراً مغلوطاً لأن الأمر كله بيد الله:

أصيب شخص بمرض عضال، وبينما يقود سيارته، فاجأته أزمة قلبية، فأخذ إلى المشفى، وهناك طلب مسجلة، بدأ يذكر المتجر لفلان، وذاك المحل الآخر لفلان من خوفه، لكنه بعد أن صحا مما هو فيه

ومضى عدة أيام طلب الشريط وكسره، ورجع إلى ما كان عليه، وبعد ثمانية أشهر عادت إليه الأزمة القلبية، ومات على أثرها هذه الآية دقيقة الدلالة جداً فاحذر !!

(أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ (79))

(سورة الزخرف)

انتبه أن تتخذ قراراً مغلوطاً، فيه عدوان، أو معصية، أو أكل أموال بالباطل، أو عدوان على الأعراض، أو إيقاع الظلم.

(أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ (79))

(سورة الزخرف)

الأمر بيد الله عز وجل، فالآية هذه تنطبق عليها، والله هناك آلاف الوقائع.

اعلم أن الله يعلم سرك ونجواك واجعل من هذه الآية شعاراً في تعاملك مع الآخرين:

وكخلاصة ؛ اجعل هذه الآية نصب عينيك، ولترفع منها شعاراً في تعاملك مع الآخرين، وأظنك قد نجوت إن التزمت.

(أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ (79) أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ (80))

(سورة الزخرف)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الزخرف 043 - الدرس (9-9): تفسير الآيات 80-89
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 29-07-1994

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس التاسع والأخير من سورة الزخرف.

إذا أراد أحد إبرام أمر فليتدبر عاقبته وليعلم أن لكل شيء حسابه:

مع الآية التاسعة والسبعين وهي قوله تعالى:

(أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ (79))

(سورة الزخرف)

وقد بينت في الدرس الماضي طرفاً من هذه الآية، حيث إن الله سبحانه وتعالى يبين أن الإنسان قد يفكر، وقد يتخذ قراراً، أو يبرم أمراً، لكن حينما يبرم الإنسان أمراً يعلم أن الله بيده كل شيء، وأن الله سبحانه مطلع على كل شيء، و أن الإنسان في قبضته عز وجل، فالإنسان حينما يتجاهل أن الأمر بيد الله وأن الله مطلع عليه وأن الله سيحاسبه يغدو بإبرامه هذا الأمر أحمقاً، يبدو باتخاذه هذا القرار متسرعاً بل متهوراً.

فالإنسان قبل أن يتحرك، قبل أن يعطي، قبل أن يمنع، قبل أن يغضب، قبل أن يتخذ قراراً، قبل أن يبرم أمراً، قبل أن يضع خطة، قبل أن يسيء إلى غيره، فعليه أن يفكر بماذا سيجيب ربه يوم القيامة ؟ وما حجته ؟ إذا أراد أحدكم إبرام أمر فليتدبر عاقبته، فأنت لك أن تتخذ أي قرار ولك أن تبرم أي أمر ولكن لكل شيء حسابه، ولكل عمل نتائجه، ولكل سيئة عقاب، ولكل حسنة ثواب، والأمر ليس كما يتوهم الناس.

(أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى(36))

(سورة القيامة)

هكذا بلا حساب، بلا مسؤولية، بلا جزاء، بلا ثواب، بلا عقاب، بلا جنة، بلا نار.

(أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ(115))

(سورة المؤمنون)

الدين هو العقل ومن لا دين له لا عقل له:

الجاهل وحده يتوهم ذلك، وقد ترى إنساناً يتحرك حركة عشوائية ويتطاول ويعتدي ويأخذ ما ليس له ويؤذي ويبالغ في إذلال الآخرين أو في أخذ ما في أيديهم ويظن نفسه ذكياً متفوقاً متمكناً وهذا هو الحمق بعينه، وهذا هو الجهل بعينه.

أيها الأخوة الكرام قبل أن تتحرك، قبل أن تتخذ قراراً، قبل أن تطلّق، قبل أن تتزوج، قبل أن تعقد صفقة، قبل أن تحدد سعراً، قبل أن توقع أذى، قبل أن تتحرك، فكر واذكر أنك في قبضة الله، فكر واذكر أن كل أمرك بيد الله، فكر واعلم أن الله سبحانه وتعالى قادر بثانية واحدة أن يجعل حياتك جحيماً، الإنسان تعالجه المصيبة فجأة من دون سابق إنذار، إما في جسده، أو في ماله، أو في أهله، أو في أولاده، أو في عقله، فهذا الذي يرتكب الحماقات ويسيء إلى الناس إما معتداً بقوته، وإما معتداً بجبروته، وإما معتداً بذكائه هذا هو الجاهل بعينه.

أخواننا الكرام، دائماً فرقوا بين من هو متفوق في اختصاصه، غافل عن ربه، هذا ليس ذكياً، ولو بدا لكم أنه ذكي، ربما نسمي ذكاءه ذكاءً جزئياً محدوداً مهنياً حرفياً، لكن الذكاء الحقيقي هو الذكاء الشمولي الذي تعرف من خلاله حجمك، وأين كنت ؟ وإلى أين المصير ؟ وماذا ينبغي أن تفعل ؟ الذكاء الذي يضم الآخرة إلى الدنيا، والمسؤولية إلى العمل، والجزاء إلى المقدمات، هذا هو الذكاء، فلذلك من لا دين له لا عقل له، إنما الدين هو العقل.

كلما زاد إيمانك زاد خوفك من الله:

(أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ (79))

(سورة الزخرف)

هذه الآية يمكن أن تطبق على آلاف آلاف الوقائع، اتخذ الزوج قراراً بتطليق زوجته ظلماً وتعسفاً وهو يظن أنه قادر على كل شيء، قد يصاب بمشكلة لا يتحملها، قد يتخذ التاجر قراراً بعقد هذه الصفقة ولو كانت حراماً، قد يتخذ مَن أولاه الله أمرَ بعض الناس قراراً بإيقاع الأذى بمن هم دونَه، ويغيب عن ذهنه أن الله سيحاسبه حساباً شديداً لذلك:

(أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ (79))

(سورة الزخرف)

يعني البطولة لا أن تتفوق في لحظة واحدة، ولا أن توقع الأذى بالآخرين، اثنان لا تقربهما، الإشراك بالله والإضرار بالناس، فحينما تتخذ قراراً بالإضرار بالناس لا ينبغي أن يغيب عن ذهنك أن الله

بالمرصاد وأنه حسيب، النبي عليه الصلاة والسلام أرسل غلاماً في حاجة، وغاب طويلاً، والنبي بشر، فغضب، فلما عاد الغلام، قال عليه الصلاة والسلام:

((لولا خشية القصاص لأوجعتك بهذا السواك))

[الطبراني عن أم سلمة]

أيها الأخ الكريم، كلما ازداد إيمانك ينبغي أن يزداد خوفك من الله، يجب أن تفحص إيمانك عن طريق شدة خوفك من الله، فالخوف من الله يتناسب مع معرفته، لذلك أخوف إنسان على وجه الأرض من الله هو النبي عليه الصلاة والسلام، وكلما قلّ الإيمان قلّ الخوف من الله، فإذا انعدم الإيمان انعدم الخوف، لذلك قال بعضهم:

ذو العقل يشقى في النعيم بعقله وأخو الجهالة في الشقاوة ينعم

* * *

الخوف المقدس هو أن تعرف أنك مسؤول وتعرف حدود مسؤوليتك:

فإذا آمنت بالله عز وجل، وعرفت حدود مسؤوليتك، وعرفت الرسالة التي أناطك الله بها وعرفت أن هذه الدنيا دار عمل، وأن الآخرة دار جزاء، وأن كل حركة أو سكنة محاسب عليها وأنه:

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ(7)وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ(8))

(سورة الزلزلة)

تشعر أنك خائف، وهذا هو الخوف المقدس، تشعر أنك مسؤول، لذلك لا تعجب أن يقول عمر: ليت أم عمر لم تلد عمر، ليتها كانت عقيماً، أجل لا تعجب، لا تعجب إن رأيت نفراً من أصحاب رسول الله وهم الذين جاهدوا معه وباعوا أنفسهم في سبيل الحق، لا تعجب أن يتهموا أنفسهم بالنفاق، كما قال بعض التابعين: لقيت أربعين من أصحاب رسول الله وما منهم أحد إلا ويظن نفسه منافقاً، لا تعجب كلما ازدادت معرفتك بربك ازدادت المسؤولية التي أناطها بك وعرفت المهمة التي كلفك بها معرفة أكثر، لذلك قال عليه الصلاة والسلام:

((والله لو تَعلَمُونَ مَا أعلَمُ لَضحِكتُمْ قليلاً، وَلَبَكَيْتُمْ كَثيرا، وما تَلَذَّذْتُم بالنِّساءِ على الفُرُش، ولَخَرَجْتُمْ إلى الصُّعُدَاتِ تَجأرُونَ إلى اللهِ))

[الترمذي عن أبي ذر]

على الإنسان أن يخشى الوقوف بين يدي الله فالصدق منجاة والكذب مهواة:

الحساب دقيق، والدليل أن إنساناً لو طُلب منه أن يقابل جهة ما بعد يومين، فلا ينام الليل وهو نظيف ومستقيم، فما بالك أن يسألك خالق السماوات والأرض، الذي يعلم السر وأخفى، أنت أمام إنسان من جنسك تخشى السؤال، ماذا سأسأل ؟ ماذا فعلت حتى طلبت ؟ فكيف إذا وقفت بين يدي الواحد الديان وهو الذي يعلم كل شيء، لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء.

والشيء الذي يلفت النظر هو أن الإنسان قد يؤتيه الله في الدنيا طلاقة لسان، وقوة بيان، ونصاحة حجة، قد يستطيع قلب الحق باطلاً، وقلب الباطل حقاً، قد يستطيع أن ينتزع إعجاب من يستمع إليه، وأن يقنع الناس، هذا الذي سماه بعض الصحابة جدلاً، قال كعب بن مالك: لقد أوتيت جدلاً، يعني عندي قوة إقناع، ولو أردت أن أسترضي رسول الله ليوشكن الله أن يسخطه عليّ، عرف أن الله بيده كل شيء، قال: فأجمعت صدقه، فحينما سأله رسول الله صلى الله عليه وسلم عن سرّ تخلفه عن غزوة تبوك قال: والله يا رسول الله إني أوتيت جدلاً، ولكنني لم أكن في وقت من الأوقات أنشط مني ولا أقوى في الوقت الذي تخلفت فيه، فالنبي عليه الصلاة والسلام أكبر صدقه، وقال: أما هذا فقد صدق، سمع من خمسة وثمانين رجلاً مختلقاً أعذاراً، وقبلها منهم وسكت عنهم، أما هذا الصحابي فقال عنه: أما هذا فقد صدق، لذلك الصدق منجاة، والكذب مهواة.

يعني أشعر أن الآية لها ظلال كثيرة:

(أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ (79))

(سورة الزخرف)

كلما ازداد المؤمن علماً ازداد انضباطاً على منهج الله:

قلبك بيده، عينك بيده، الشبكية بيده، مركز البصر في الدماغ بيده، نمو الخلايا بيده، ضيق الشرايين بيده، عمل الكلية بيده، يقال فشل كلوي أخطر من مرض القلب، تشمع الكبد بيده إن توقّف الكبد انتهى أجله وليس هناك أمل إلا الموت، فالإنسان ماذا يملك ؟ والله لا يملك شيئاً، فأي عضو في جسده لو تعطل قلبَ حياته إلى جحيم، هذه الأعضاء ليست بيدك، الله عز وجل قال:

(قُلْ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ)

(سورة آل عمران 26)

فعلام القول إنني سأفعل ولن أفعل، وأعطي ولن أعطي، تأدب مع الله، ولتعلم أنك كلما ازددت علماً ازددت تأدباً مع الله، كلما ازددت علماً ازددت تواضعاً لله، كلما ازددت علماً ازددت خوفاً من الله، كلما

ازددت علماً ازددت انضباطاً على منهج الله، لماذا مجلس العلم ؟ لتعرف الله، لتنعكس هذه المعرفة سلوكاً راقياً، كمالاً في التعامل أدباً مع الله، أدباً مع عباد الله، تواضعاً للمؤمنين، والنبي عليه الصلاة والسلام وهو قمة البشر كلهم، يقول الله له:

(وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنْ اتَّبَعَكَ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ(215))

(سورة الشعراء)

على المؤمن أن يحسب حساب كل شيء لأنه يعلم أن الله عليم بأفعاله خبير بنواياه:

هذا المؤمن غالٍ على الله، بل إن من توجيهات النبي عليه الصلاة والسلام أن تتواضع لمن تعلم، وأن تتواضع لمن تتعلم منه، هذا مجتمع المؤمنين مجتمع راقٍ حقاً، مجتمع متكاتف، متعاون، متساوٍ.

(أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ (79))

(سورة الزخرف)

قد يحلف الإنسان يميناً كاذباً، يميناً غموساً، وسماها العلماء غموساً لأنها تغمس صاحبها في النار، ولأنها لا كفارة لها، ومن حلف يميناً غموساً عليه أن يجدد إيمانه، يحلف يميناً بكل بساطة يميناً كاذبة، وربنا عز وجل قد ينتقم منه انتقاماً سريعاً وقد يعطيه مهلة.

مضمون هذه الآية يعني أنك قبل أن تتحرك لابد من أن تحسب حساباً لأشياء كثيرة، الذي يؤسَف له أن بعض الناس إذا تحرك يحسب حساباً لكل شيء، ذكي جداً، لكنه يغفل عن ربه، وأنه مطلع عليه، ناظر إليه، عليم بأفعاله، خبير بنواياه، يرى كل أفعاله، وسوف يحاسبه حساباً دقيقاً.

(وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ(47))

(سورة الأنبياء)

ورد في السنة المطهرة أنه:

((ما من عثرة، ولا اختلاج عرق، ولا خدش عود إلا بما قدمت أيديكم، وما يغفر الله أكثر))

[أخرجه ابن عساكر عن البراء]

وليس هناك مجال لذكر قصص كثيرة تؤكد هذه الآية، إياك أن تتخذ قراراً، أو تبرم أمراً لا يرضي الله لأن الله بالمرصاد، إياك أن تتخذ قراراً بإيقاع الأذى، إياك أن تتخذ قراراً بالاستعلاء، شخص عاقل قرأ وصية فقال تكتب على ظفر لإيجازها وبلاغتها قال: اتضع لا ترتفع، اتبع لا تبتدع، الورع لا يتسع، هذه وصية.

(وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ(31))

(سورة الأعراف)

وقال:

(وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا(26)إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا(27))

(سورة الإسراء)

الخوف من الله هو النجاة لأن رأس الحكمة مخافة الله:

هناك الآن من يدفع عشرات الآلاف ليلتقط محطة تلفزيونية تفسد أهله وأولاده بماله، وهو عند الناس مسلم.

(أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ (79))

(سورة الزخرف)

الخوف من الله هو النجاة، أن تخاف من الله، الإنسان رأسه عنوان حياته، فلو قطع رأسه ماذا بقي منه؟ لا شيء، النبي الكريم يقول رأس الحكمة مخافة الله، إذا كانت الحكمة إنساناً فرأسها مخافة الله، فإذا ألغيت مخافة الله، فما بقي شيء من الحكمة إطلاقاً، والحقيقة الخوف من الله يتناسب مع العلم بالله، كلما ازداد علمك ازداد خوفك، لعل الخوف مؤشر لمعرفتك بالله.

الطبيب مثلاً ؛ لكثرة ما يرى في المستشفى من إنتانات معوية، من أمراض سارية، من عدوى، تجده يبالغ في النظافة، يبالغ بمعالجة الخضار بمواد كيماوية حتى تقتل الجراثيم، لماذا يخاف كل هذا الخوف؟ قد لا يأكل شيئاً في المطاعم لأنه يرى كل يوم حالات الإنتانات، وحالات الالتهابات، وحالات العدوى، والأمراض السارية يراها بعينه، لذلك هو يخاف، لماذا هو يخاف أكثر من الناس ؟ لأن علمه أكبر وأعمق من علم الناس في هذا الموضوع، هذا مثل، وأنت كلما تعرفت إلى الله أكثر خفت منه أكثر.

كلمة، ماذا تعني كلمة (قصيرة) ؟ السيدة عائشة قالت قصيرة عن أختها صفية، فقال:

((يا عائِشَةَ لَقَدْ قُلْتِ كَلِمَةً لَوْ مُزِجَتْ بِمَاءِ الْبَحْرِ لَمَزَجَتْه))

[رواه أبو داود والترمذي، عن عائشة]

كلمة (قصيرة)، فما قولك بما فوق هذه الكلمة، وقال أيضاً:

((وإن الرجل ليتكلم بالكلمة لا يلقي لها بالاً يهوي بها في جهنم سبعين خريفاً))

[الترمذي عن أبي هريرة]

أفضل الإيمان أن تشعر أن الله معك ويراقبك وهذا يدعى مقام المراقبة:

فهذا الذي يغوص في أعراض الناس، وينهش أعراضهم، ويغتابهم، ويوقع بينهم العداوة والبغضاء، كيف يكون حسابه عند الله عز وجل ؟

(أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ (79))

(سورة الزخرف)

يعني بالتعبير الدارج ؛ أنت هذا الذي صدر عنك، حسناً سوف نريك:

(أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ (79) أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ (80))

(سورة الزخرف)

أفضل الإيمان أن تشعر أن الله معك ويراقبك، وهذا المقام سماه العلماء مقام المراقبة، وهذا يجعلك مع الله دائماً ومع منهجه، ومع سنة نبيه، ومع الإحسان إلى الخلق.

(أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ (80))

(سورة الزخرف)

على المؤمن أن يعلم أن الله يعلم كل شيء وسيحاسب كل إنسان على عمله:

ذات مرة ذكرت لكم أن الله سبحانه وتعالى اختار من بين أسمائه كلها اسمين، وقد يعجب الإنسان لماذا هذان الاسمان بالذات، قال:

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنْ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا(12))

(سورة الطلاق)

إذا أيقنت أنه يعلم وأنه قدير وأنه يحاسب انتهى الأمر عند جميع الناس إلى الاستقامة، أنت لا تنفذ الأمر إذا علمت أنه لا يعلم، أو علمت أنه يعلم ولكن لا يحاسب، أو علمت أنه يحاسب ولكن لا يعلم، أما إذا أيقنت أنه يعلم وسوف يحاسب فقد انتهى كل انحراف وضلال، ودقق أيها الأخ الكريم أنت مع إنسان مثلك إذا كان أقوى منك ويعلم وسوف يحاسب فلا يمكن أن تعصيه، هذا مع إنسان فكيف مع خالق الأكوان ؟

(أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ (80))

(سورة الزخرف)

كل شيء مسجل، لقد استطاع الإنسان أن يسجل على أي إنسان كل حركاته وسكناته، يعني أن الإنسان بلغ درجة صار كل شيء لديه مسجلاً صوتاً، أو صوتاً وصورة فإذا الإنسان استطاع أن يسجل فالله على كل شيء قدير، والإنسان سيرى أعماله يوم القيامة مكتوبة.

(اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا(14))

(سورة الإسراء)

فإذا آمن بالملائكة كما أمر الله عز وجل وأنهم يكتبون كل الأعمال فمن البديهي أن يستقيم، أنت حينما تقول: السلام عليكم ورحمة الله في الصلاة على من تسلم ؟ على الملائكة الذين أوكل الله إليهم كتابة أعمالك الصالحة والطالحة.

قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ: هذه الآية لها عدة تفسيرات:

(قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ (81))

(سورة الزخرف)

لهذه الآية تفسيرات كثيرة، بعضهم قال: إنْ بمعنى ما، يعني ما للرحمن ولد وأنا أول العابدين له وحده، ولا شريك له هذا معنى.

والمعنى الثاني: قل إن كان للرحمن ولد، فأنا أول من يعبده لكن ليس له ولد، هذا طرح افتراضي لكن ليس له ولد، فلو أن له ولد فأنا أول من يعبده، أو قل إن زعم للرحمن ولد فأنا لا أعبد إلا الله وحده، هذا المعنى الثالث.

أول معنى ليس للرحمن ولد لذلك أنا أعبد الله وحده هذا هو المعنى الأول، المعنى الثاني: لو افترضنا أن للرحمن ولداً فأنا أول من أعبده، المعنى الثالث: إذا زُعم للرحمن ولد، فأنا أعبد الله وحده لا شريك له.

(قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ (81) سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (82))

(سورة الزخرف)

الله تعالى منزه أن يكون له ولد لأن الولد أساسه أن الإنسان يكمل به ضعفه:

كلمة سبحانك تفيد التنزيه، يعني نزّه الله عن أن يكون له ولد، لأن الولد أساسه أن الإنسان يكمل به ضعفه، الإنسان ينجب ولداً حتى إذا تقدمت به السن رأى شاباً إلى جانبه، فمن ضعف الإنسان يتمنى إنجاب الولد، لأن الإنسان سينتهي إلى عدم يقول لك هذا الولد يخلفني من بعدي، يخلد ذكري في

الأرض هذا من ضعف الإنسان، إما من ضعفه أو من فنائه، لكن الله سبحانه وتعالى لا يليق به هذه المعاني.

(سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (82))

(سورة الزخرف)

أيعقل أن يكون له ولد ؛ هو الأول والآخر والظاهر والباطن، هو الأزلي الأبدي لا أول له ولا آخر، هو غني عن كل مخلوق، يحتاجه كل شيء في كل شيء وهو غني عن كل شيء.

(قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ (81) سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (82))

(سورة الزخرف)

هذا التسبيح، سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر هذه الباقيات الصالحات التي قال الله عنها:

(وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا(46))

(سورة الكهف)

الذكر يؤهل الإنسان ليكون في ذمة الله في نهاره وليله:

إنك إن سبحته وإن وحدته وإن كبرته وإن حمدته فقد عرفته، وإن عرفته عرفت كل شيء، ابن آدم اطلبني تجدني فإذا وجدتني وجدت كل شيء، إن عرفته تقربت منه، وإن تقربت منه سعدت بقربه في الدنيا والآخرة، ملكت كل شيء، هذا معنى قوله تعالى:

(وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا(46))

(سورة الكهف)

كتاب الأذكار للإمام النووي فيه أذكار النبي التي كان يذكرها كل يوم صباحاً ومساءً، فالإنسان إذا وفق إلى أن يذكرها، وإلى أن يستغفر الله في اليوم ألف مرة، فيقول أستغفر الله، فقد حقق خيراً لنفسه ومفازاً:

(فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا(10)يُرْسِلْ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا(11)وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا(12))

(سورة نوح)

فالاستغفار سبب لرحمة الله عز وجل، أجل، سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر هذه الباقيات الصالحات، لا حول ولا قوة إلا بالله هذه من أذكار النبي عليه الصلاة والسلام، فلو اطلعتم على أذكار النبي وحاولتم أن تقرؤوها صباحاً كل يوم، فهذه مما تعين الإنسان على أن يكون مسلحاً طوال النهار، مسلحاً بقربه من الله، فكل هذا الذكر أهّله لأن يكون في ذمة الله نهاره كله وليله.

غير المؤمن يكون غير جاد بطلب الحقيقة وهذه التسلية عبّر الله عنها بكلمة يخوضوا:

(فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا(83))

(سورة الزخرف)

قال المفسرون: فذرهم يخوضوا في باطلهم، ويلعبوا في الدنيا، يعني غير المؤمن غير جاد في طلب الحقيقة، بل يريد أن يتسلى، ما قولك في الموضوع الفلاني ؟ ما قولك في السحر ؟ ما قولك في الكتاب الفلاني ؟ ليس عنده رغبة قوية في معرفة الحق، يتسلى بالأفكار تسليةً، هذا التسلي في الأفكار عبّر الله عنه في القرآن بكلمة " **يخوضوا** ".

(فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا (83))

(سورة الزخرف)

يخوض يعني أي شيء لا يقنع به، يطرح لك مئة موضوع، وليس عنده استعداد أن يصدق موضوعاً، هذا يشكك، هذا لا أعتقد، تجد شخصاً مترفاً ليس عنده رغبة بمعرفة الحقيقة ولا بتبنيها ولا بالسعي لها لست أدري، ولماذا لست أدري ؟ لست أدري، هذا معنى ذرهم يخوضوا.

تجد الإنسان يقرأ ويطالع لكن قراءة ليست هادفة، قراءة متعة، فتتكون عنده ثقافة واسعة، وعنده إمكانية أن يتكلم في المجالس كلاماً لطيفاً محبباً مسلياً للناس، لكن هو لا ينضبط لا بمنهج ولا بسلوك، لأن الحقيقة الكبرى ما عرفها، ما عرف سرّ وجوده ولا غاية وجوده، ولا عرف عن ربه شيئاً، ويقرأ، ويتعلم، ويستمع، ويشاهد، ويتأمل، ويلاحظ، وأصبح عنده مجموعة مقولات ليتسلى بها.

للمؤمن هدف واضح وهدفه معرفة الله وكل ما يقربه لله:

معنى " **يخوضوا** " ليس هناك هدف واضح، لكن المؤمن هادف، وهدفه أن يعرف الله، كل ما يقربه من الله يتمسك به، وكل ما يبعده عن الله يبتعد عنه وانتهى الأمر، عنده هدف، وعنده اصطفاء، الحياة محدودة، إن أردنا أن نقرأ كل شيء وأن نطالع كل شيء فالوقت لا يتسع، مثلاً تجد مجلة فيها ثلاثون مقالة، منها تسع وعشرون مقالة لا تعنيك نعم أنت تقرأ لكن هناك حقيقة أكبر لابد أن تعرفها، والحياة قصيرة، الإنسان فجأة يشعر بمرض يقربه من أجله، فليستغل حياته على قصرها، ويتدارك نفسه قبل مباغتة الأجل، وليعرف ربه.

الوقت ثمين جداً، أوضح مثل لذلك الطالب الذي عنده امتحان بعد أسبوع، سنة التخرج والمادة الأخيرة وهذه المادة أهم مادة ولها كتاب مقرر وهذا التخرج مهم جداً يبنى عليه مستقبله، يبنى عليه زواجه، يبنى عليه مكانته الاجتماعية، وعنده مكتبة ضخمة أربعة جدران كلها تغص بالكتب، أيعقل أن يقرأ

قصة في هذا الأسبوع، أو مسرحية مثلاً أو كتاباً لطيفاً عن غرائب العالم، أو قصص العرب، الآن نريد الكتاب المقرر الذي سيحدد مصير نجاحنا آخر العام، هذه حالة المؤمن، لا يكون مبعثراً كما أنه لا يتشتت، ولا يكون هائماً على وجهه لا، أنا أريد كتاب الله وسنة نبي الله وسيرة النبي وأصحابه الكرام، هذا منهجي في الحياة، أتقن معرفة كتاب الله وكلام رسول الله، وسيرة النبي عليه الصلاة والسلام، وبعدها أقرأ ما يعينني على فهم كتاب الله، أقرأ موضوعاً علمياً يزيد من إيماني بالله، هذا ممكن، المطالعة الهادفة، القراءة الهادفة، أما أن أقرأ كل شيء بلا منهج، وبلا هدف، بل أقرأ تسلية، وتمضية وقت ليس هذا من صفات المؤمن.

في حكم الآخرة كل الدنيا لعب:

(فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا (83))

(سورة الزخرف)

اللعب ؛ الله عز وجل سماه لعباً، ماذا يعني اللعب ؟ يعني عمل لا هدف له بل عمل عابث، قد يلعب المرء للساعة الواحدة ليلاً بالطاولة ماذا استفاد ؟ هل ألفت كتاباً ؟! أو ألفت موضوعاً ؟! أو دعوت إلى الله ! ما عملت شيئاً، هذا اللعب عمل لا طائل منه، مثلاً لاحظ طفلاً صغيراً يمسك بلعبة، فأنت كإنسان راشد تراه ضيق الأفق، لو أخذتها منه عنوة، يبكي ساعة، فهل من المعقول تبكي أنت من أجل لعبة ؟! لا فأنت كبير، لكن لا تنس أن ما أنت فيه لو تجاوزته إلى مرحلة تالية في حياتك لرأيت نفسك تلعب، أنت مهتم بالتحف، مهتم بالسجاد النادر مثلاً، لكن لو تجاوزت الدنيا لرأيت هذه الهواية الراقية في نظرك لعباً، لأنه لا طائل منها جاء الموت فأنهى كل شيء، فالدنيا كلها لعب.

(اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ)

(سورة الحديد 20)

فأنت ترى لعباً في مرحلة تجاوزتها، لكن المرحلة التي تعيشها فيها لعب وأنت لا تدري، سمعت بأذني أن شخصاً يقول قضيت ستة أشهر وأنا محتار أأجعل تمديدات التدفئة داخلية أم خارجية، بعد ذلك قال: نجعلها داخلية، وبعد عشرين عاماً حينما تفسد الأنابيب نجعلها ظاهرةً، هذا الرجل حينما يأتيه ملك الموت يرى أن هذا لعباً، فاللعب عمل لا طائل منه، لكن المشكلة أنت لا ترى اللعب إلا في مرحلة تجاوزتها، وما أنت فيه ترى نفسك جاداً وهو لعب أيضاً، في حكم الآخرة كل الدنيا لعب.

(فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ (83))

(سورة الزخرف)

المؤمن يعلم أن الله خلاق وفعّال لكن غير المؤمن يعتقد أن الله خلاقاً وليس فعالاً:

هذا اليوم يأتيهم كالصاعقة، حينما يأتي ملك الموت ويرى المؤمن مكانته في الجنة يقول لم أر شراً قط، قد تكون حياته مشحونة بالآلام والمتاعب والمعالجات والمضايقات ويقول لم أر شراً قط، أما أهل الدنيا الذين انغمسوا في شهواتها وأكلوا مالاً حراماً وتطاولوا على عباد الله إذا رأوا مكانتهم في النار يقول أحدهم: لم أر خيراً قط، كل شيء تنعّم به في الدنيا لا يراه شيئاً.

(فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا (83))

(سورة الزخرف)

هذه (ذرهم) تهديد، قد يقول الأب لزوجته: اتركيه لي (يقصد ابنه) تهديد.

(فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ (83) وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ)

(سورة الزخرف)

يعني أكثر الناس يتوهمون أن الله عز وجل خلق الكون وأعطى كل إنسان إمكانات، ثم ترك العباد وشأنهم، لا، ليس هذا من شأن الله، إن هذا لا يليق بعدالة الله، ولا بكمال الله، ولا بوحدانية الله، ولا بأنه فعال، الأجانب يرون أن الله خلاقاً وليس فعالاً، أعطى كل إنسان إمكانات وأطلق العباد في زعمهم يفعلون ما يشاؤون، لذلك لا يخافون من الله، بل يخافون من بعضهم بعضاً، لكن عقيدة المسلم الصحيحة أن الله سبحانه وتعالى خلاق وفعال، يعني كما هو في السماء إله هو في الأرض إله، الأمر كله بيده، هذا هو الإيمان الحق، فلا يقع شيء إلا بعلمه وبإرادته ومشيئته، هذا هو التوحيد، الله عز وجل بيده كل شيء، ما أمرك أن تعبده إلا بعد أن طمأنك أن الأمر كله عائد إليه، قال:

(وإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ)

(سورة هود 123)

وقال:

(وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ(84))

(سورة الزخرف)

علينا أن نفسر ما يجري في العالم تفسيراً توحيدياً ينسجم مع القرآن الكريم:

قد يحلو للإنسان أن يفسر كل شيء تفسيراً أرضياً بعيداً عن الإيمان، وقد يفسر الأحداث الكبرى في العالم من زاوية مادية محضة، أن فلاناً قوي، وفلاناً ضعيف، وفلاناً اعتدى، وفلاناً استغل، وفلاناً سيطر، وفلاناً قهر، يجب أن تفهم كل شيء من زاوية هذا القرآن الكريم، يعني أوضح مثل كأن يقول

فلان: هنا وقعت في مشكلة، وهناك قامت حرب أهلية، وهنالك حدث اجتياح، دون أن يعزو ذلك لإرادة الله ومشيئته، وما علم أن الله عز وجل قال:

(وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ(112))

(سورة النحل)

عليك أن تفسر كل ما تسمع من أحداث كبرى في العالم تفسيراً توحيدياً، تفسيراً ينسجم مع القرآن الكريم، لكن إذا تجاهلت أن الله هو الإله في الأرض، إذا توهمت أن الله إله في السماء فقط، عندئذ ينصرف الذهن إلى تفسير كل شيء تفسيراً أرضياً بعيداً عن تفسير أن الله في الأرض إله، وكل شيء بيد الله عز وجل، هذا شيء مريح كما أنه هو الحق، من دون هذا الإيمان تشعر بالقهر، تشعر بالذل، تشعر أن إنساناً لا يرحم وبيده الأمر، وأن جهة تطغى وهي قوية، وأن الناس ضعاف مقهورون له، أساساً أكبر عقبة أمام ضعاف الإيمان هي هذه العقبة، يرى مثل ما قال رسول الله لعله يا عدي أنما يمنعك من دخول في هذا الدين ما ترى من كثرة عدوهم، لعله يا عدي ما يمنعك من الدخول في هذا الدين ما ترى من حاجتهم (فقراء)، لعله يا عدي ما يمنعك من الدخول في هذا الدين أنك ترى الملك والسلطان في غيرهم، هذه كلها عقبات، إذا رأيت أن الأمر بيد أعداء المسلمين وهم أقوياء وأذكياء وبأيديهم التكنولوجيا الحديثة وتحت تصرفهم كل شيء ونحن ضعاف لا نملك شيئاً، طبعاً هذه الفكرة وحدها تسبب القهر، والضعف، والتخاذل، والخنوع، لكن إذا أيقنت أن الله سبحانه وتعالى بيده كل شيء وهو على كل شيء وكيل، هذه الفكرة وحدها ترفع معنوياتك.

(وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ (84))

(سورة الزخرف)

يجب تطبيق منهج الله حتى نصبح في حال أفضل:

أفعاله كلها حكيمة، وحكمته مبنية على علم.

(وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ(85))

(سورة الزخرف)

تبارك أي كثر خيره، الله عز وجل خلق السماوات والأرض وأمدّ الإنسان بكل شيء، والخيرات التي أودعها الله في الأرض لا تعدّ ولا تحصى، والعطاء كبير ولكن الإنسان هو الذي أفسد الحياة، الحياة لا تفسد إلا حينما يتحرك الإنسان حركة خلاف منهج الله، وربنا عز وجل وصف الكفار بأنهم يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً، الفساد أساسه إنسان مخير خرج عن منهج الله، الله صمم الأنثى والذكر

للزواج، فأحدث أهل الضلال الزنى، كما أحدثوا الملاهي، وقامت هناك انحرافات، صمم الحاجات من أجل أن تكسب منها رزقاً حلالاً فانحرف الإنسان إلى السرقة، ووقع البغيٌ، والعدوان، والاحتيال، والتدليس، والكذب، والغش، والاحتكار هذه كلها انحرافات عن منهج الله، لو طبقنا منهج الله في كل شيء لكنا في حال غير هذه الحال.

(وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ(85))

(سورة الزخرف)

الجهل هو العدو الأول للإنسان وهو سبب الشر:

من أين يأتي الشر ؟ من سوء استخدام الأشياء، أضرب مثلاً أعيده كثيراً الملح مادة أساسية في الحياة، وكذلك السكر مادة أساسية، ومسحوق التنظيف أيضاً مادة أساسية، لكن إذا وضعت الملح في الحلويات تفسد، إن وضعت السكر في الطبخ يفسد، يعني الموضوع سوء استخدام، والله عز وجل خلق كل شيء لحكمة بالغة، الدين أساسه تعاليم وإرشادات للناس في استخدام كل الأشياء، والله عز وجل كما أقول دائماً ما أودع فينا شهوة إلا وجعل لها قناة نظيفة نعبر بها هذه القناة، أما حينما يخرج الإنسان عن منهج الله يكون الفساد في الأرض، لذلك تأكد أنه ليس هناك مشكلة إلا ومن ورائها معصية، ولا تقع معصية إلا من ورائها جهل، فالجهل هو العدو رقم واحد للمؤمنين.

(وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (85))

(سورة الزخرف)

والإنسان عليه أن يهتم أكثر ما يهتم بساعته هو، يعني ساعة لقاء الله عز وجل.

(وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ(86))

(سورة الزخرف)

أي ؛ صنم، حجر، اللات، العزى، الأشخاص الذين تعتمد عليهم وترجو نفعهم وتخشى ضرهم هؤلاء من دون الله لا يملكون الشفاعة، شفاعة تقريب من الله عز وجل قال سبحانه:

(إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (86))

(سورة الزخرف)

علينا أن نتعلم من إنسان نثق بعلمه وبخبرته:

إذا الإنسان شهد الحق، فمعرفته تنفعك، وحاله ينفعك، وإذا سألته تنتفع من جوابه، إن أصغيت له تنتفع بعلمه، يدلك على الله، وعلى طاعة الله، وعلى طريق القرب من الله، وعلى طريق سعادة الدنيا

والآخرة، فالشفاعة هنا أي من شهد الحق ينفعك ـ الشفع الزوج ـ إذا اقتربت منه، تعاملت معه، سألته، جالسته، صاحبته، اقتبست من علمه تستفيد منه، يعني شفع لك.

فالمعنى اللطيف لهذه الآية أن الله سبحانه وتعالى يقول هذه الأصنام التي تعبدونها من دون الله لا يملكون لكم الشفاعة، لا ينفعونكم أبداً:

(إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (86))

(سورة الزخرف)

يعني يشهد الحق ويعلم أنه شهد الحق، يعلم ويعلم أنه يعلم، هذا الذي تنفعك شفاعته، هذا معنى قول الله تعالى:

(يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ(119))

(سورة التوبة)

وقال:

(وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ)

(سورة الكهف 28)

وهذا معنى قول النبي عليه الصلاة والسلام:

((وَإِيَّاكُمْ وَالْفُرْقَةَ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ مَعَ الْوَاحِدِ))

[الترمذي عن ابن عمر]

أنت يجب أن تتعلم من إنسان تثق بعلمه وتثق بخبرته إذاً:

(وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (86))

(سورة الزخرف)

علينا ألا نفصل بين القناعة والسلوك فهما متلازمتان:

لا تصاحب من لا ينهض بك إلى الله حاله ويدلك على الله مقاله، يعني صاحب من يدلك على الله مقاله وينهض بك إلى الله حاله، هذه الصحبة صحبة المؤمنين.

(وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ (87))

(سورة الزخرف)

أما بعد ؛ لو فرضنا أن مريضاً مرضه شديد، ويتألم ألماً لا يحتمل، وسألته: أين المستشفى ؟ يقول لك: هذه المستشفى أمامك مثلاً، ولكنه ذهب إلى نزهة ولم يذهب للمستشفى، فتقول له: إلى أين أنت ذاهب يا هذا ؟ طالب تعرفه في الشهادة الثانوية تقول له: متى الامتحان ؟ يقول لك: اليوم، لكنه يتخلف عن الذهاب للامتحان، ويذهب يتنزه، فتقول له: إلى أين أنت ذاهب ؟

شيء غريب جداً، وهذا هو حال أهل الكفر، فإذا أقرّوا أن الله هو خالق السماوات والأرض وبيده كل شيء فماذا ينتظرون ؟ ما الذي يمنعكم أن تتوبوا إليه يا قوم ؟ وأن تقبلوا عليه ؟ وأن تقيموا أمره ؟ الفصل بين القناعات والسلوك خطير جداً، في العالم الإسلامي اليوم لن تجد مسلماً لا يعلم أن الله هو الخالق، وأن الجنة والنار حق، وأن الحياة تنتهي بالموت، حركة الإنسان الذي لا يطلب العلم الديني حركة عجيبة جداً، يمشي في طريق مناقض لقناعاته.

(وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنّ اللّهُ فَأَنّى يُؤْفَكُون (87))

(سورة الزخرف)

يعني أين ينصرفون، وقول النبي عليه الصلاة والسلام:

(وَقِيلِهِ يَا رَبِّ إِنّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُون (88))

(سورة الزخرف)

الدعوة إلى الله تحتاج إلى نفس طويل وإلى إدراك عميق:

النبي عليه الصلاة والسلام أمره الله أن يصفح.

(فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (89))

(سورة الزخرف)

يعني إذا أنت رأيت واحداً بعيداً متلبساً في معصية فعليك ألا تحقد عليه، بل يجب أن تشفق عليه كالطبيب تماماً، الطبيب لو رأى إنساناً يعاني من مرض جلدي مزعج هل يحقد عليه ؟ لا، هو طبيب يشفق عليه، فهذا الذي لا يصفح قاسٍ، ومن ضعف إيمانه يقسو، ومن ضعف إدراكه، من ضيق أفقه، من إعراضه عن مجالس العلم، من جهله بكلام الله، من عدم إيمانه بحقيقة الحياة الدنيا تأتي قسوته، قد يكون لك صديق، أو قريب، أو جار منغمس في المعاصي ولا يصلي، فأشفق عليه مبدئياً، ثم ادعه دعوة الحاني إلى دين الله عز وجل:

(وَقِيلِهِ يَا رَبِّ إِنّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ (88) فَاصْفَحْ عَنْهُمْ)

(سورة الزخرف)

إن الدعوة إلى الله تحتاج إلى نفس طويل، إلى صدر واسع، إلى إدراك عميق، إلى رحمة، إلى تحمل، إلى تجلد، وإلا إن ضاق الداعية بالناس ذرعاً فكيف يهديهم ؟ إن حقد عليهم كيف يهديهم ؟ إن عاداهم فكيف يهديهم ؟ النبي عليه الصلاة والسلام وهو سيد الخلق وحبيب الحق المعصوم الذي يوحى إليه قال له سبحانه وتعالى:

(وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ)

(سورة آل عمران 159)

على الداعية أن يكون على خلق حتى يملك قلوب الناس:

الداعية الآن ماذا يملك من صلاحيات ؟ لا يملك شيئاً، يملك فقط أن يعلم الناس، وأن يكون أخلاقياً معهم حتى يملك قلوبهم، الأقوياء ملكوا الرقاب، والعلماء ملكوا القلوب، وشتان بين الملكين، واحد بقوته يملك أن يحركك كما يشاء، لكن الداعية الصادق المخلص يملك قلبك بإحسانه، وبكماله، فأنت إذا أردت أن تدعو إلى الله عز وجل لا ينبغي أن تحقد على العصاة.

أبو حنيفة النعمان له جار مغنٍ أزعجه إزعاجاً لا حدود له، طوال الليل يغني، يقول: أضاعوني وأي فتىً أضاعوا، مرة ألقي القبض عليه فذهب أبو حنيفة ليتوسط له كي ينقذه بحكم حق الجار، فلما دخل على صاحب الشرطة، طبعاً أكبره إكباراً شديداً، وأطلق كل من معه إكراماً له، ففي طريق العودة قال يا فتى: هل أضعناك ؟ فكان صبر أبي حنيفة على جاره سبباً في توبة هذا الجار.

فالمؤمن يصبر ؛ يصبر على أذى الجيران، وعلى أذى المعرضين، وعلى أذى المقصرين، يتطاولون أحياناً، يتكلمون كلاماً فيه سخرية.

(فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (89))

(سورة الزخرف)

النبي الكريم أمسكه أعرابي من ثوبه، وشده بعنف حتى أثر في عنقه، وقال: أعطني من هذا المال، فهو ليس مالك ولا مال أبيك فتبسم النبي عليه الصلاة والسلام، وقال: **صدق إنه مال الله**، نبي كريم، يعني حوادث كثيرة جرت مع النبي لو جرت مع غيره لكان قطع رأسه فوراً، قال تعالى:

(فَاصْفَحْ عَنْهُمْ(89))

(سورة الزخرف)

على المؤمن أن يتقرب إلى الله بخدمة خلقه والصبر عليهم:

الصفح أساسه الرحمة، إذا دعوت إلى الله يجب أن تحب الناس جميعاً، ينبغي أن تصبر عليهم، أن تصبر على جفوتهم، وعلى أذاهم أحياناً، على أسئلتهم أحياناً أخرى، وعلى بعض تصرفاتهم.

(فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (89))

(سورة الزخرف)

بعض الشيوخ يقولون: ما وصل فلان إلى ما هو عليه من نضج حتى بذلنا جهداً كبيراً، يأتي إلى مجالس العلماء شاب غر، لكنه بعد سنة يكون قد نضج، وتوازن، وعرف الحقيقة، وأسرع إلى الله عز وجل، لو أنك لم تصبر عليه لما صار إلى حاله الجديدة، صبرك هو سبب نضجه، يعني هذه الآية خطاب للنبي عليه الصلاة والسلام في الدرجة الأولى ولكل من سار على سنته في الدرجة الثانية:

(فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (89))

(سورة الزخرف)

قلب المؤمن لا يعرف الحقد أبداً، ولا يضيق ذرعاً بالناس، يرى أن هؤلاء عباد الله وأحبهم إلى الله أنفعهم لعباده، وأنت دائماً تتقرب إلى الله بخدمة خلقه، ولا تنسوا هذا الحديث الشريف:

((اصنع المعروف إلى من هو أهله، وإلى غير أهله، فإن أصبت أهله أصبت أهله، وإن لم تصب أهله كنت أنت أهله))

[رواه ابن النجار عن علي]

فهذه نهاية حميدة، وخلاصة نافعة، كان هناك تابعي جليل أقذع بعضهم عليه بالسباب وهو الشعبي، فبكل بساطة قال لمن يؤذيه: إن كنت صادقاً فيما تقول غفر الله لي، وإن كنت غير ذلك غفر الله لك، الهادئ الحليم موصول بالله عز وجل وعنده قلب كبير يطفئ الشر كله، لأن العنف إذا قابلته بالعفو تجده صغّر فاعله، وأزرى به، وانفض من حوله الناس.

(فَاصْفَحْ عَنْهُمْ(89))

(سورة الزخرف)

لا عداوة في الإسلام بل علينا أن نتمثل أخلاق النبي الكريم:

تسمع أن فلاناً اسمه صفوح، كلمة كبيرة، كلمة صفوح تعني أن يتمثل أخلاق النبي، كان صفوحاً عليه الصلاة والسلام، عكرمة بن أبي جهل وهو أعدى أعداء النبي قاتله عشرون عاماً، فلما أسلم أحبه النبي حبّاً جماً، وإكراماً له قال:

((جاءكم عكرمة مسلماً، فإياكم أن تسبوا أباه فإن سب الميت يؤذي الحي ولا يبلغه))

عمير بن وهب جاء ليقتل النبي عليه الصلاة والسلام، سيدنا عمر شعر بنيته، وهو مقبل، فقيده بحمالة سيفه وساقه إلى النبي، والنبي صاحب هذا القلب الكبير ليس عنده حقد أبداً، ليس عنده شيء اسمه ضغينة، يحب الخلق كلهم، قال: **يا عمر أطلق سراحه**، وقال له: **ادنُ مني يا عمير**، قال: **سلم علينا**، قال له: عمت صباحاً يا محمد، قال: **قل السلام عليكم**، قال: لست بعيداً بسلام الجاهلية، ما الذي جاء بك إلينا يا عمير ؟ قال: جئت أفكّ أخي من الأسر، قال له: **وهذا السيف الذي على عاتقك ؟** قال: قاتلها الله من سيوف، وهل نفعتنا يوم بدر ؟ قال له: **ألم تقل لصفوان لولا أطفال صغار أخشى عليهم العنت، وديون ركبتني لذهبت وقتلت محمداً وأرحتكم منه**، وقف عمير وقال: **أشهد أنك رسول الله**، لأن هذا الكلام جرى بيني وبين صفوان ولا يعلمه أحد إلا الله وأنت رسول الله.

لقاء شخصي، أما مغزى القصة فنجده في قول عمر: دخل عمير على رسول الله والخنزير أحب إليّ منه، وخرج من عندي وهو أحب إليّ من بعض أولادي.

لا عداوة في الإسلام أبداً، تُعادي أنت عمله فقط، فإذا رجع إلى الله صار أخاك في الله، إذا لم تشعر بالحب لإخوانك المؤمنين فلست مؤمناً، لذلك:

(فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (89))

(سورة الزخرف)

أسعد الناس من استعمله الله في الخير وأشقاهم من استعمله في الشر:

أخيراً ؛ المرعبون في النار، شرّ الناس من اتقاه الناس مخافة شره، المؤمن سلام لا يخرج منه إلا كل خير، تجد الناس مرتاحين له، وإذا كان شخص يخيف لا يجعلك تنام الليل، ويمكن أن يشي بك وشاية مهلكة، فهذا في عداء مع الناس، وهو عدو نفسه حقاً وأولاً، أما المؤمن ليس عنده هذا الحقد، هو سلام، وهو مصدر سعادة للناس، لذلك إذا أردت أن تعرف مقامك عند الله فانظر فيما استعملك، أسعد الناس من استعمله الله في الخير، وأشقى الناس من استعمله الله في الشر.

منذ أيام بينما كنت في طريقي إلى بعض أشغالي، قال لي شخص: هذا ملهى ضخم أنشأه شخص ومات قبل أن يفتتحوه بأيام، قلت له من باب الطرفة: هذه صدقة جارية له، يعني أن كل معصية تقع فيه حتى يوم القيامة فهي في صحيفته.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الدخان 044 - الدرس (1-4): تفسير الآيات 1- 9 ، القرآن الكريم منهج الناس جميعاً

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 05-08-1994

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون مع الدرس الأول من سورة الدخان.

مواقف العلماء من الحروف التي افتتحت بها بعض السور:

(حم(1)وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ(2)إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ(3)فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ(4)أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ(5))

(سورة الدخان)

(حم)

كما ذكرت سابقاً الحروف التي افتتحت بها بعض السور ومنها حم وقف العلماء منها مواقف متعددة من هذه المواقف:

1 - إنها دليل إعجاز القرآن الحكيم:

إنها دليل إعجاز القرآن الحكيم، فهذا الكتاب الذي بين أيدينا مؤلف من كلمات والكلمات مؤلفة من حروف هي بين أيدينا، ومع ذلك فهذا الكتاب أعجز من أن يأتي بمثله أو بسورة منه بل وبآية واحدة منه أهل السماوات والأرض، وأكبر دليل على أن هذا الكلام كلام الله، إعجازه، ومعنى إعجازه أنه يعجز الإنسان أن يأتي بمثله، أو أن يأتي بتشريع حكيم، أو بتشريع مبني على قواعد النفس، أو تشريع يسعد النفس إذا طبقته، فيه إعجاز تشريعي وفيه إعجاز علمي و بياني و إخباري و تاريخي، أي هذا الكتاب له بحث طويل.

تحدي الله عز وجل العرب جميعاً أن يأتوا بمثل هذا القرآن:

على كل من هذه الأحرف، كيف أن الإنسان مركب من مواد مأخوذة من التراب، لكن لو جئنا بهذا التراب وعالجناه هل بالإمكان أن يغدو إنساناً ينطق، ويتكلم، ويفكر، أي إعجاز بالخلق. وهذا الحليب من يأتي به، من البقرة والبقرة تأكل الحشيش وهل بإمكان كل من في الأرض أن يصنع من الحشيش

حليباً وهذه البيضة من أين تأتي بها الدجاجة ؟ تأكل مما في الأرض فهل بالإمكان أن نأخذ ما تأكله ونصنع منه بيضة ؟ لا، ولله المثل الأعلى فهذا الكتاب، الحروف التي بين أيدينا هي بين أيدينا وقد نظم منها ومع ذلك يعجز الإنسان عن أن يأتي بسورة من هذه الآيات.

فالمعنى الأول أن هذا الكتاب المعجز، مادته بين أيديكم فان لم تفعلوا أي أن الله عز وجل تحدى العرب جميعاً أن يأتوا بمثل هذا القرآن، لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً.

(وَإِنْ كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِمّا نَزّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللّهِ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ(23)فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتّقُوا النّارَ الّتِي وَقُودُهَا النّاسُ وَالْحِجَارَةُ (24))

(سورة البقرة)

2 ـ هذه الحروف أوائل لأسماء الله الحسنى:

المعنى الثاني أن هذه الحروف أوائل لأسماء الله الحسنى.

3 ـ إنها أوائل لأسماء النبي عليه الصلاة والسلام:

وبعضهم قال: إنها أوائل لأسماء النبي عليه الصلاة والسلام: هو حامد ومحمود، محمود عند الله وعند الناس وعند نفسه.

4 ـ الله أعلم بمراده:

وبعضهم قال: الله أعلم بمراده والقرآن حمّال أوجه ولا أحد يزاحم أحداً في هذا الكلام المعجز.

قسم الله عز وجل بالقرآن الكريم ليبين قيمته للناس:

(وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ(2))

(سورة الدخان)

الله سبحانه وتعالى أقسم بهذا الكتاب المبين والله جلّ جلاله إذا أقسم بشيء دونه فليبين للناس قيمة هذا الشيء. أحياناً لا يقسم:

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (75) وَإِنّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (76))

(سورة الواقعة)

حتى إذا قال الله لا أقسم أي أن هذا الشيء من شدة وضوحه ودلالته وبيانه لا يحتاج إلى قسم، أي ما دام الشيء دون الله عز وجل، فالعظيم لا يقسم بما هو دونه أو إذا أقسم فليبين أن الله جل جلاله هذا الشيء عظيم بالنسبة إلينا، والنقطة الدقيقة أن الله عز وجل يقول:

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ (1))

(سورة الأنعام)

والسماوات والأرض تعبير عن الكون والكون هو ما سوى الله، فالحمد لله الذي خلق السماوات والأرض.

لا قيمة لوجود الإنسان من دون منهج يسير عليه:

في آية أخرى:

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ (1))

(سورة الكهف)

فماذا يستفاد من هذا ؟ يستفاد من هذا أن الكون كله في جهة وكلام الله في جهة، ويستفاد أيضاً أن الله عز وجل يقول:

(الرَّحْمَنُ (1) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (2) خَلَقَ الْإِنْسَانَ (3) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (4))

(سورة الرحمن)

كيف علم الإنسان القرآن قبل أن يخلق ؟ قال هذا ترتيب رتبي، أي لا قيمة لوجود الإنسان من دون القرآن أو لا قيمة لوجود الإنسان من دون منهج يسير عليه. فكيف أن الآلة المعقدة جداً، والغالية جداً ذات النفع الكبير، تحتاج إلى كتيب يرشدك فيه إلى طريقة الاستعمال والصيانة لرفع المردود والمحافظة عليها، فإن هذا الكتاب لا يقل أهمية عن الآلة نفسها، إذا ربنا عز وجل يلفت نظرنا إلى أن هذا الكتاب فيه سر سعادتنا، فأنت آلة معقدة، لو تحركت بلا منهج هلكت وأهلكت وشقيت وأشقيت و ضللت وأضللت وفسدت وأفسدت. فحركة بلا منهج، تصور سيارة تنطلق بسرعة مئة بلا مقود وبلا قائد، فالدمار حتمي والهلاك حتمي والسقوط في الوادي حتمي، فحينما قدم الله تعليم القرآن على خلق الإنسان أي أن حياة الإنسان بلا منهج تغدو شقاء و فساداً وهلاكاً وانحرافاً و إيذاءً.

الآيات المتعلقة بأصول العقيدة والأمر والنهي آيات محكمات لا تحتاج إلى تفسير:

(وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ(2))

(سورة الدخان)

لكن كتاب الله عز وجل مبين، واضح البيان، أي الآيات المتعلقة بأصول العقيدة وبالأمر والنهي آيات محكمات لا تحتاج إلى تفسير. أحيانًا يتوهّم الإنسان أن الكتاب بحر من غاص فيه هلك، هناك تسعة أعشار كلام الله لا يحتاج إلى تفسير.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحاً)

واضحة:

(إِنّ اللّهَ يُحِبُّ التَّوّابِين)

(لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم)

اقرأ القرآن تجد أنك تقرأ الآيات و في معظمها لا تحتاج إلى مفسر، آيات محكمات هن أم الكتاب: الآيات المتعلقة بالعقيدة والتكليف والحلال والحرام وبأسباب سعادتنا وأسباب شقائنا فهذه الآيات كلها محكمات واضحات نيرات.

(وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ(2))

الآيات المتشابهات تحفز الهمم وتخلق التنافس الشريف بين العلماء:

لحكمة بالغة بالغة جاءت بعض الآيات متشابهات

(فَأَمّا الّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ)

فهنالك حكم كثيرة من وجود آيات متشابهات: أولاً: ظنية الدلالة: إذا صار للعلماء دور في فهمها وتفسيرها واكتشاف مضامينها وتوجيهها وجهة خاصـــة، وصار فيه حفز للعلماء، ومنافسة، وأحكام اجتهادية وتفصيلية غنية جداً تسع كل الحالات وكل البيئات وكل الظروف، وصار فيه شيء يتحدى به الإنسان من أجل أن يجتهد وأن يشمر فهناك حكم أدرجهـــا العلماء بوجود آيات متشابهات وهي قليلة جداً، والإنسان حين يفهم آية متشابهة، يعبر فيها عن حسن ظنه بالله عز وجل. أي لو أنك قرأت قوله تعالى:

(يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ)

فلو أنك لا تعرف الله عز وجل هل هو يضل الناس ؟ ولكن لو أنك تعرف الله وتعرف أن الله سبحانه وتعالى خلقنا ليرحمنا وليهدينا سواء السبيل. فعندئذ تفسر

(يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ)

تفسيراً يتناسب مع كمال الله عز وجل: أن هذا الضلال الذي عزي إلى الله هو الضلال الجزائي المبني على ضلال اختياري. فآيات متشابهات تحفز الهمم وتخلق التنافس الشريف بين العلماء وقد يجتهد المجتهدون في فهمها مناحي عدة، وهذه المناحي تغطي كل الحالات المستجدة والبيئات والتطورات.

معظم آيات القرآن الكريم آيات محكمات:

إذًا الإسلام فيه ثوابت وفيه متغيرات الثوابت تؤكده الآيات المحكمات، والمتغيرات تغطيه الآيات المتشابهات، فوجود الآيات المتشابهات تشبه المعنى الفلاني من جهة والمعنى الآخر من جهة ثانية، فهذا معنى متشابهات، فلو فرضنا قلت أعطِ فلاناً ألف درهم و نصفه، أمر متشابه هل هي ألف و خمسمئة أم ألف ونصف درهم، ألف درهم ونصفه، الهاء تعود على الدرهم أم على الألف. فإن عادت على الدرهم فهي ألف ونصف درهم، وإن عادت على الألف فألف وخمسمئة، وهذا نص متشابه، فالإنسان يمتحن به، أي هناك من يفهمه ألف ونصف، فيه امتحان و فيه حفز للذهن و فيه انغماس في الاجتهاد وفيه توجيهات. ليس الموضوع أن نستعرض حكمة وجود آيات متشابهات، لكن إن معظم آيات القرآن الكريم محكمات، وواضحات نيرات، بينات لا يزيغ عنها إلا ضال.

(وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ(2))

(سورة الدخان)

بين العبارة، واضح العبارة، محكم.

من عرف الله سعد في الدنيا و الآخرة:

(إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ(3))

(سورة الدخان)

قال بعض العلماء: إن هذا القرآن نزل من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا في رمضان وفي ليلة القدر ذاتها، ثم نزل تباعاً على النبي صلى الله عليه و سلم نزولاً بحسب الوقائع والمناسبات، وبعضهم قال ابتدأ نزوله في رمضان، لكن الذي يعنينا أن هذه الليلة المباركة عاد خيرها على البشرية جمعاء، فإذا سعد الناس في حياتهم و عرفوا ربهم وسعدوا في كل شؤون حياتهم وأكرمهم ربهم بفضل هذه الدلالة وهذا القرآن. هذا معنى قول الله عز و جل:

(لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ (3))

(سورة الدخان)

في حياة الإنسان ليلة مباركة و ليلة مشؤومة:

أنت أحياناً تسهر سهرة مع صديق مؤمن يلفت نظرك لأشياء في الدين و إلى آيات في كتاب الله وإلى حكمة وجودك في الأرض تنتبه وتصحو وثاني يوم تتوب، وتصلي، وتغض بصرك، وتحرر دخلك، وتضبط جوارحك، تشعر أنك ترقى و ترقى، وتوفق في عملك، وتوفق في زواجك، وتشعر بقيمة وجودك في الحياة، بِعِظَم الرسالة التي تحملها، لا تفتأ تقول: والله كل هذا الخير جاءني في تلك الليلة التي سهرت بها مع فلان، وقد كانت هذه الليلة سبب هدايتي وسعادتي، ليلة مباركة والإنسان بلقاء وخطبة، وبدرس علم، وتفسير، ولقاء، ومحاورة، ومناقشة، تشرق في ذهنه الحقيقة فيلقى في نفسه نور الحق، وينطلق إلى طريق الله عز و جل، مفعماً بالحماس والإقبال فهذه الليلة (فأنا أقرب المعاني) وأنت إنسان مؤمن عادي ولو كان هناك لقاء وفي هذا اللقاء جرى تبادل أفكار وطرحت موضوعات متعددة ومتعلقة بالدين، وموضوعات دقيقة وعميقة مدعمة بالأدلة والبراهين وأنت شعرت بأن هذا الذي طرح جواباً لمشكلات تعانيها و حلول لقضايا مشكلة في حياتك، وانطلقت بعد هذا اللقاء إلى طاعة الله و التوبة إليه، يأتي عليك عشرون عاماً و تقول لا أنسى هذه الليلة التي كانت سبيلاً لهدايتي، وأحيانا الإنسان يمر أمام مسجد، ويدخل ليصلي فإذا هناك درس علم قد تكون كل سعادته من هذا الدرس، يقول لك إن سبب هدايتي هو هذا الدرس، وسبب عودتي إلى الله، وسبب توبتي هو هذا اللقاء، إنها ليلة مباركة هذه، أحياناً يتلقى الإنسان نبأ مؤلماً في مكان معين وفي زمان معين، ويمضي عشرون عاماً في حياته ويقول هذا اليوم لا أنساه، لا أعاده الله علي.

القرآن الكريم أسعد الناس في شتى بقاع الأرض:

في حياة الإنسان ليلة مباركة و ليلة شؤم، ومكان مبارك و مكان غير مبارك، وربنا عز وجل في اللحظة التي تتعرف على الله فيها، وتهتدي إليه و تتوب إليه وتعقد الصلح معه وتنطلق إليه، فهذه اللحظة، أو الليلة مباركة و اليوم والمكان المباركان، وكل شيء يحيط بهذا الحدث مبارك، فأحياناً الإنسان يتلقى نبأ نجاحه مثلاً في محل تجاري، وخلال خمسين سنة وكلما مرّ أمام هذا المحل يقول لك في هذا المكان تلقيت نبأ نجاحي، وأحياناً يتلقى نبأ ساراً في مكان معين، لكن الله عز وجل يقول:

(إنا أنزلناه في ليلة مباركة)

(أي هذا القرآن) وهذا القرآن سعد به الناس جميعاً في شتى بقاع الأرض.

من رحمة الله بعبادهم إنذارهم و تحذريهم:

ما قولك بإنسان يتحرك وفق منهج، وهذا المنهج رقي به إلى الله (ارتقى إلى الله) وهذا المنهج جعله يقبل على الله، ويحب الله عز وجل، فالإنسان أيها الأخوة لا يشعر بقيمته و لا بإنسانيته ولا بسر وجوده في الحياة ولا بالمهمة التي أوكله الله إياها ولذلك:

(إنا أنزلناه في ليلة مباركة)

فكلنا جميعاً أثناء حديثنا مع إخواننا و أصدقائنا يقول لك تباركنا، والله يبارك فيك، منزل مبارك، و لقاء مبارك، وحفل مبارك، أي لا يفتأ أحدنا أن يقول هذه الكلمة في اليوم آلاف المرات، ومعنى البركة الخير والرحمة الواسعة، نزل من السماء إلى الأرض حينما نزل هذا القرآن نزل على النبي العدنان عليه الصلاة والسلام.

(إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ(3))

(سورة الدخان)

أي الرحمة تقتضي الإنذار.

وجود الله عز و جل من لوازمه أنه غفور رحيم:

فما معنى

(إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ)

هذه كان فعل ماض ناقص، طبعاً تقول الجو صاح، ضع كان في أوّل الجملة تصبح كان الجو صاحياً، كان فعل ماض ناقص (ناقصاً ليس تاماً) الفعل التام يدل على الحدث خرج، دخل، أشعل، أطفأ، قام، قعد، كسر، هذه الأفعال تامة لكنّ كان تعرب فعل ماض ناقص لأنها لا تدل على حدث تدل على زمن الجو الصاحي، كان الجو صاحياً أي ربطنا علاقة بزمن معين، وهذا معنى فعل ماض ناقص، لكن حين يقول الله عز و جل:

(وَكَانَ اللّهُ غَفُوراً رَحِيماً)

كيف تفسر هذه الآية أي أن الله عز و جل كان في الماضي و الآن أليس غفوراً رحيماً ؟ لا، هذه إذا أتت في مثل هذه الآيات لها معنى آخر، أي هذه صفة مترابطة مع الموصوف ترابطاً وجودياً، أي منذ أن كان الله هو رحيم، ورحمته ملازمة لوجوده:

(وكان الله عليماً حكيماً وكان الله غفوراً رحيماً)

كان إذا جاءت مع اسم الله الأعظم تشير إلى هذه الصفة أو هذا الاسم متلازماً مع الذات الإلهية تلازماً وجودياً، فوجود الله عز و جل من لوازمه أن الله غفور رحيم تلازماً وجودياً، بحيث إن الصفة لو زالت عن الموصوف زال، فترابط الصفة مع الموصوف ترابطًا وجودياً هذه أقوى درجة في الترابط.

كلمة منذرين دليل رحمة الله عز وجل:

نقول هذه طائرة غالية الثمن وقد تقدم بلا ثمن أحياناً فهذه الصفة ليست ملازمة لوجودها، طائرة قدمت بلا ثمن، قد تقول هذه الطائرة جميلة جداً قد تحترق تصبح غير جميلة أي أية صفة تلازمه هي صفة طارئة أما إذا وصفتها أنها تطير؛ فالطيران صفة مترابطة مع الموصوف ترابط وجودي فإذا ألغي الطيران ألغيت الطائرة، هذه نقطة دقيقة جداً فحينما يصف الله جل جلاله ذاته بأنه كان عليماً ؛ أي علمه أزلي أبدي ملازم لوجوده مادام موجوداً فهو يعلم أنها قضية ثابتة مقطوع بها

(إنّا كُنّا مُنذِرِينَ)

فالإنذار: مثلاً أنت جالس في مكان و رأيت طفلاً يقترب من المدفأة فلماذا تقوم من مجلسك و تصيح ؟ لماذا ؟ إنه دليل رحمتك، أما لو فرضنا جندياً في المعركة وتقدم العدو أمام لغم، فهل ينبهه ؟ لا، ليس معقولاً أن ينبه، هو ينتظر أن يقع في هذا اللغم (الرحمة تقتضي الإنذار) أما الحرب فتقتضي إيقاع الأذى بالآخرين، فكلمة منذرين دليل رحمة، وهناك أشخاص أحياناً يتلافون وقوع الأخطار برحمة في قلوبهم لكن الذي لا يعبأ أن يقع ألم شديد بمخلوق فهذا دليل على ضعف رحمته.

الإنذار صفة تؤكد رحمة المنذر دائماً:

إذا معنى

(إنّا كُنّا مُنذِرِينَ)

الإنذار دليل رحمة الله عز وجل فربنا عز وجل دائماً ينذر عباده من مغبة أعمالهم (يقول الأب انبرى لساني) فهل من المعقول أن يرى أب ابنه مقصراً بدراسته ويبقى ساكتًا ؟ ولا حركة، يقول هو حرّ ويعرف مصيره ! إن اجتهد له وإن لم يجتهد فعليه، فهذا ليس موقف أب أبداً، موقف الأب ينذر ويحذر وينصح ويتابع الأمر، أي يقول لك انبرى لساني وأنا أنصح ابني ليدرس فالإنذار صفة تؤكد رحمة المنذر دائماً:

(إنّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنّا كُنّا مُنذِرِينَ(3))

(سورة الدخان)

القرآن الكريم كتاب هداية أنزله الله عز وجل:

(فيها)

(سورة الدخان)

في هذه الليلة التي نزل فيها القرآن.

(يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ(4))

(سورة الدخان)

الآية دقيقة جداً، يفرق: يتضح، يبين، ينجلي.

(كل أمر)

من الحكمة أن يبين، وبعض الأحيان ينتظر الإنسان أن يجد في القرآن كل شيء، نعم هو كتاب هداية ولكن هل أنواع الفلزات واردة في القرآن ؟ لا ليست واردة، ذلك لأنه كتاب هداية وكذلك هل وردت الصفات الكيميائية للرصاص في القرآن ؟ لا ليست واردة، فهذه الأمور متعلقة بالدنيا والعلماء عامة وعلماء الفيزياء خاصة هم المعنيون بمتابعتها.

فالقرآن هو كتاب هداية والله عز وجل هناك أوامر بينها و قضايا أغفلها، فالذي من الحكمة أن يبينه بينه والذي أغفله فمن الحكمة أن يغفله. إذًا فيها يفرق: يبين، يجلي، يوضح كل أمر من الحكمة أن يبين، أي هنالك اصطفاء بكتاب الله.

الاصطفاء في القرآن الكريم:

القرآن سكت عن قضايا فمثلاً لم يذكر أنواع الطعام، أي كُلْ ما شئت ولكن من غير إسراف ولا مخيلة، فلنفترض أن إنسانًا أكل أرزاً والثاني برغلاً والثالث فاصولياء وآخر بامياء، فما الحكم الشرعي في ذلك؟ ليس هناك أي شيء، فهذه الأمور سكت الله عنها.

ومثلاً لبس أحدهم ثياباً بيضاء والآخر ثياباً ملونة. فاللباس يجب أن يكون ساترا للعورة والطعام يجب أن يكون حلالاً طيباً.. وكل واشرب من دون إسراف ولا مخيلة.

وكذلك التفاصيل المتعلقة بالبيوت، عدد الغرف، والنمط.. وقضايا لا علاقة لها بالدين، فمسكوت عنها.

أما قضايا المرأة فربما تؤدي للفساد أو إلى البعد عن الله عز وجل، ففيها تشريعات. وكذلك قضايا كسب المال فربما أدى هذا إلى انحراف، ففيها تشريعات. فكل قضية من الحكمة أن تُبَين بيّنها الله عز وجل، أي أنت مثلاً في محطة وقود ولديك مكان للوحة، فماذا تكتب في هذه اللوحة ؟ قد تكتب ألف إعلان و لكن هنالك إعلان مصيري: ممنوع التدخين، فالدخان ربما سبب حرق كل هذه المحطة، أو

أطفئ المحرك مثلاً فيختار الإنسان إعلانات أو بيانات متعلقة بسلامة الناس في هذه المحطة. إذاً ليس كل شيء يكتب في هذه المحطة، فلو فرضنا كتب فيها السكر مادة غذائية، فليس لها علاقة بالمحطة، بل يجب أن يكتب شيئاً بسلامة المحطة.

مجموع القضايا التي عالجها القرآن تام لا يحتمل قضية جديدة:

القصد أنه ليس كل شيء في الحياة ذُكر في القرآن، أما كل شيء أنت بحاجة إليه فتجده في القرآن، وكل شيء من الحكمة أن يعالج، عولج في كتاب الله، فهذا معنى قوله تعالى:

(الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا (3))

(سورة المائدة)

اليوم أكملت (الكمال نوعي)، وأتممت (الإتمام عددي)، مجموع القضايا التي عالجها القرآن تام لا يحتمل قضية جديدة، كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار، طريقة المعالجة كاملة، لا يحتاج كتاب الله عز وجل أن تعالج الموضوعات معالجة أعمق أو معالجة أوسع أو أطول أو أغنى، فمن قال ذلك فكلامه مردود.

(الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا (3))

(سورة المائدة)

وأما القضايا التي سكت عنها القرآن ليس من الحكمة أن تعالج إطلاقاً.

القرآن الكريم منهج الناس جميعاً:

إذاً:

(فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ(4))

(سورة الدخان)

الله عز وجل ذكر قصة سيدنا يوسف، ذكر تفاصيل وأغفل أخرى، فالذي ذكره متعلق بالحكمة، بالمغزى من القصة، والذي أغفله لا علاقة له بالمغزى، إذاً في هذه الليلة المباركة التي عاد خيرها على البشرية جمعاء، في هذه الليلة المباركة التي نزل فيها القرآن (ذلك المنهج و الدستور) للبشرية جمعاء. في هذه الليلة يفرق - يبين - يجلي - يوضح- كل أمر من الحكمة أن يوضح، و كما تعلمون كل شيء وقع أراده الله وكل شيء أراده الله وقع، و إرادة الله متعلقة بالحكمة المطلقة، وحكمته المطلقة متعلقة بالخير المطلق. أي كل شيء وقع لو لم يقع لكان نقصاً في حكمة الله، كل شيء وقع ينبغي أن يقع، وليس في الإمكان أبدع مما كان، هذا معنى:

(فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ(4))

(سورة الدخان)

كلام رب العالمين لا يوازى بكلام آخر أبداً:

(أَمْراً مِنْ عِنْدِنَا)

الناس لا يستوعبون هذا المعنى، أي يوازن بين تشريع البشر وتشريع خالق البشر، ليس هناك موازنة مطلقاً، ويوازن بين قول قاله فلان مهما كان اسمه كبيراً و بين كلام خالق الكون.

(أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ(5))

(سورة الدخان)

هذا كلام رب العالمين، هذا كلام الذي خلق السماوات والأرض، هذا كلام الخالق البارئ المصور، رب العالمين، بيده مقاليد السماوات والأرض، العليم، الحكيم، القوي، هذا شيء لا يوازى بكلام آخر.

نزول القرآن الكريم في ليلة مباركة من الله عز وجل ليرحمنا و يتجلى علينا:

(أَمْراً مِنْ عِنْدِنَا)

من عند الله خالق السماوات والأرض،

(إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ)

ما دام فعلُ كان جاء مع ذات الله عز وجل، فالله عز وجل من أسمائه: الرحيم، وهذا من أسمائه الحسنى: الحكيم، الرؤوف، العدل.

(إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ)

: لماذا أنزلناه في ليلة القدر ؟

(فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ)

ولماذا في هذه الليلة ؟

(يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ)

قال:

(رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ)

إعرابها مفعول لأجله، كأن تقول وقف الطلاب احتراماً للمدرس، لماذا وقفوا ؟ المفعول لأجله يجاب عنه بكلمة لماذا، لماذا أنزل الله هذا القرآن في ليلة مباركة ؟ ولماذا أنذر الله عباده بهذا القرآن ؟ وأرسل أنبياءه ؟ لماذا أرسل نبيه بهذا القرآن ؟ قال:

(رحمة من ربك)

ليرحمنا، ليتجلى علينا، ليسعدنا في الدنيا والآخرة، خلقنا ليسعدنا، خلقنا ليرحمنا، لا كما يقول الجهلة.

المصائب مناقضة للرحمة و لكن تقتضي رحمة الله عز وجل أن يفعل هذا ليردك إليه:

إخواننا الكرام، لماذا صنعت السيارة ؟ صنعت لتسير، سيرها علة صنعها، كان من الممكن أن تشتري سيارة بلا عجلات وترفعها على أعمدة، ولكن هذه ليست سيارة، السيارة صنعت من أجل أن تسير، إذاً لماذا فيها مكابح ؟ المكبح يفعل فعلاً مناقضاً لحركتها، ومهمته أن يوقفها ؟ فتشعر أحياناً أنه ضروري لسلامة صاحبها، وأحياناً السلامة ليست بالحركة بل بالوقوف، لذلك مع أن المكبح يناقض علة صنع السيارة فهو يوقفها، لكنكم تعلمون جميعاً أن إيقاف المركبة هو أسلم شيء أحياناً في السيارة، فإذا وقفت ينجو صاحبها من الهلاك، أما إذا بقيت تسير فيهلك صاحبها، فلو أن طريقاً تنتهي بواد وليس هناك إشارات مسبقة، فلما فوجئ السائق أنه اقترب من الوادي يقف، فالوقوف ضمناً فيه سلامة السيارة. ولذلك فالمصائب هي مناقضة للرحمة فهو خلقنا ليرحمنا وليسعدنا، فالفقر والمرض والقهر والسجن هذه الآلام كلها مكابح، تقتضي رحمة الله عز وجل أن يفعل هذا لذلك قال تعالى:

(فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (147))

(سورة الأنعام)

فبعض الأحيان تكون كل سعادتك على أثر مصيبة، كل السعادة بعد مشكلة، بعد ضائقة، وملمة، وتضييق، وتشديد. فالسعادة قد تكون لفتة إلى الله عز وجل وهذه اللفتة تحتاج إلى صعق أحياناً. القلب يقف أحياناً فيستخدم أطباء القلب صعقة كهربائية، فبهذه الصعقة ينبض والصعقة مؤلمة جداً ولكن هذا الألم الشديد دفع القلب إلى الحركة.

الله عز وجل يعلم السر و ما يخفى:

إذاً:

(رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ(6))

(سورة الدخان)

هو السميع لما تقول، العليم لما تنطوي عليه نفسك، فلو لم تتكلم يعلم، فنحن مع بعضنا: أنت لا تعلم إلا إذا قلت لك ولكن إذا بقيت ساكتاً فأنت لا تعلم، مثلاً أقول لك إني أعاني هذه المشكلة: فالآن علمت بهذه المشكلة بعد أن أعلمتك بها أما لو بقيت ساكتاً فأنت لا تعلم، وربنا عز وجل إنه هو السميع العليم، فإن تكلمت يعلم فهو السميع، و إن لم تتكلم يعلم فهو العليم أي يعلم ما تقول، و مالا تقول، وما يخفى عنك،

وما أعلمته وما أسررته لذلك قال سيدنا علي: علم ما كان و علم ما يكون وعلم ما لم يكن لو كان كيف كان يكون، فمثلاً إنسان على الدخل المحدود جيد السيرة فلو صار معه ألف مليون لا يعلم حاله إلا الله ؛ على الدخل المحدود جيد أما على الغنى فقد ينتكس و قد يغدو إنساناً آخر.

من كان الدين خارج اهتمامه لا يسمع مهما بينت له:

(أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ(5)رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ(6)رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ(7))

(سورة الدخان)

معنى موقنين هناك شرح لغوي دقيق، الفرق بين التقي والمتقي: المتقي يريد أن يكون تقياً، فهو غير التقي، فالتقي بلغ التقوى لكن المتقي في طريقه إليها، ويريد أن يكون في هذه المرتبة، والموقن هو الذي يبغي اليقين، فالمشكلة هو أن في الآية إشارة دقيقة ؛ فأنت إذا أردت أن لا تعلم، لا تعلم، ولن تعلم إلا إذا أردت أن تعلم، ولهذا قال بعضهم: لم أجد أشد صمماً من الذي يريد أن لا يسمع، تجد أحياناً إنساناً لا يعنيه من كل هذا الموضوع شيء، فلو دعوته لسماع شريط أو قراءة مقالة أو حضور درس فلا الدرس و لا الشريط و لا القراءة يعنيه، والدين خارج اهتمامه إجمالاً و تفصيلاً، ولذلك مهما حاولت أن تبين و أن تفصل فهو لا يسمع، هو في واد و أنت في واد.

الإنسان مخير لا مسير:

الله عز وجل قال:

(رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا)

لكن أنت أيها الإنسان لا تعلم ولا توقن إلا إذا أردت أن تعلم وأردت أن توقن، فأحياناً يدخل الإنسان إلى محل تجاري و يكون في المحل مئات الأنواع من البضائع، هو يبحث عن نوع واحد من البضاعة فلو أن البائع عرض عليه بضائع أخرى يبين له ميزاتها (صفاتها) وسعرها الرخيص لوجود رخصة فالإنسان يبغي حاجة واحدة من كل هذا المحل، فلذلك مهما تكلم البائع وبيّن وفصّل وبيّن مميزات الحاجة وأسعارها الرخيصة والتي لا تنافس، يجبه هذا الإنسان بأن كل هذه الأمور لا تعنيه هو يريد حاجة معينة. فأنت لما تبين لإنسان شارٍ ميزات حاجة لا يريدها فالكلام موقف مضحك، وجهد ضائع، وجهد غير مجد لا تبين لإنسان ما لا يريد. قال:

(رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا)

فأنتم لا تعلمون قيمته ولا عظمته و لا ربوبيته ولا قدرته ولا رحمته إلا إذا كنتم موقنين، أي إلا إذا أردتم اليقين. ولذلك فالإنسان مخير، وأبو لهب عاش مع النبي صلى الله عليه وسلّم، أنت تتمنى أن تراه في المنام فلو رأيته في المنام أعتقد بأنك تبقى أشهراً و أنت مغموس في سعادة لا توصف، وأبو لهب كان معه، رآه رأي العين لكنه لم يرد أن يؤمن.

إذا أردت الحقيقة كل شيء يعلمك:

(إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ(7))

(سورة الدخان)

أيْ إذا أردتم اليقين حتى يؤثر بكم. أي أحياناً إن لم يكن في آلة التصوير فيلم فمهما وقفت أمام منظر جميل وجهدت أن تجعل الشجرة ضمن هذا المنظر وأن تضبط المسافة والسرعة و الفتحة وحاولت أن تعمل أرضية من الورد مثلاً و فوق الشجرة منظر بحر.... كل ذلك بلا جدوى، فلا تتعب حالك كل هذا الجهد ضائع لأن الإنسان رفض الهدى، أما إذا أردت اليقين كل شيء يعلمك، فأحياناً الكافر يعلمك و كلمة تعلمك، ومنظر. وقد سمعت عن شيخ من شيوخ الأزهر بدأ بطلب العلم (غير الأنصاري) بالخمسين بدأ يتعلم القراءة والكتابة، وبالخمسين حفظ القرآن و طلب العلم و ما مات إلا شيخاً للأزهر و لكن من علمه ؟ نملة علمته، صعدت على الحائط أمامه 48 مرة وتقع وكان عمره آنذاك 48 سنة فقال النملة أذكى مني ؟ 48 مرة صعدت ثم وقعت و هي تعيد الكرة فهذا رجل اتعظ بالنملة و طلب العلم و ما مات إلا شيخاً للأزهر، نملة علمته. أي أنت إذا أردت الحقيقة كل شيء يعلمك، فالكون و الحوادث وكل شيء يعلمك. بحياتنا آلاف المواعظ، فالحوادث التي نحياها، ونعيشها، ونراها، ونسمع بها هي مواعظ كبيرة جداً. والقرآن فيه كل شيء، السنة، وكذلك السيرة، والفقه.

من أراد أن يرى الله فالله عز وجل لا إله إلا هو:

(إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ(7))

(سورة الدخان)

أي إذا أردتم اليقين، أي أردتم أن تروا ربكم و رب آبائكم الأولين.

(رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ(7)لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ)

(سورة الدخان)

لا يوجد غيره، كل ما سواه صورة، قال تعالى:

(وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـكِنَّ اللّهَ رَمَى)

(سورة الأنفال الآية: 17)

ما هذه الآية ؟

(وما رميت)

الله عزا الفعل له،

(إذ رميت)

لم ترم أنت

(ولكن الله رمى)

عدم خوف المؤمن لأن هذه الحياة بيد الخالق سبحانه:

(يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ (10))

(سورة الفتح)

(اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ)

(سورة الزمر)

(لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ)

(سورة الأعراف الآية: 54)

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ)

(سورة هود الآية: 123)

(رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ(7))

(سورة الدخان)

بيده الحياة وبيده الموت ولذلك فالمؤمن لا يخاف لأن هذه الحياة بيد الله، لا يستطيع مخلوق أن ينهيها و لو رأيت في الظاهر أن إنساناً حكم على إنسان بالإعدام، فالمقتول يقتل في أجله، وهذه الحياة بيد الله، هو المحيي وهو المميت، والإنسان إذا أيقن أن الحياة بيد الله والموت بيد الله سعد واطمأن وارتاح وصار شجاعاً وترك النفاق.

الحياة و الرزق بيد الله وحده:

شيئان خطيران: الحياة والرزق والله عز وجل قطع أمر العباد عن موضوع الحياة والرزق، فالحياة بيد الله والرزق بيد الله، و لا يستطيع مخلوق أن يمنح الحياة و لا أن يسلب الحياة، ولا أن يعطي ولا أن يمنع.

(مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ)

(سورة فاطر الآية: 2)

(لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ)

(سورة الدخان)

لا معبود بحق إلا هو، ولا رازق، ولا معطي، ولا مانع، ولا رافع، ولا خافض، ولا ممد، ولا باسط، ولا قابض، ولا معزّ، ولا مذل إلا الله هذه معناها

(لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ)

من أيقن أن الأمر كله بيد الله عز وجل فلن يعبد غيره:

إذاً: لا معبود بحق إلا هو، ولا يستحق أحد العبادة إلا الله، لأنه بيده كل شيء، أي أنت قد تكون موظفاً بدائرة فتعرف من أقوى واحد فيها فتجد بأن كل الولاء له، قد يكون أقل من قمة الدائرة لأسباب أو لأخرى، قد يكون معاون المدير وأقوى من المدير فيكون الولاء كله لهذا وليس للآخر، شعرت بأنه الأقوى فسلكت سلوكاً طبيعياً، فأنت تمنح ودك واهتمامك وكل وسائل التكريم لمن بيده الأمر في عملك. فإذا أيقنت أن الأمر كله بيد الله، وحده لا شريك له.

(لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمْ الْأَوَّلِينَ(8))

(سورة الدخان)

فالله عز وجل أليس برب الصحابة الكرام الذين أعطاهم و نصرهم و أيدهم ومكنهم في الأرض وطمأنهم و استخلفهم ؟ أليس ربنا ربهم ؟ أليس ربهم ربنا ؟ هو هو، العلة فينا، في تقصيرنا.

(فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا (59))

(سورة مريم)

فاعتقد أنه ربكم ورب آبائكم الأولين، هو هو.

من كانت عقيدته مفعمة بالشك و سلوكه لعب خسر الدنيا و الآخرة:

(بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ(9))

(سورة الدخان)

أي أن كلام الله موجز و قد يكون إعجاز كلام الله في إيجازه.

(بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ(9))

(سورة الدخان)

أي عقيدتهم مفعمة بالشك و سلوكهم لعب، فبعض الأحيان تجد الناس منهمكين في لعب وفي مباريات ومنافسات، فتقول أَمَعْقُول ثمانمئة مليون إنسان يتابعون مباراة بالعالم ؟ يلعبون، هي فعلا أساساً لعبة،

يلعبون (أي عمل بلا هدف) فلو أن فلان أدخل هذه الكرة، ماذا حدث في العالم ؟ هل حصل رخاء اجتماعي ؟ وهل حصل تكافؤ فرص ؟ وهل التغى الفقر في العالم ؟ التغى الظلم في العالم، فماذا حدث ؟ ما حدث شيء، اللعب عمل بلا جدوى، ولا هدف، وأحياناً يرى الإنسان طفلاً صغيراً يمسك بعلبة ثقاب ويسيرها كسيارة، وهو فرح بذلك، وإذا أخذها أحدهم منه يبكي بدموع سخية، فهو تصور علبة الثقاب سيارة يسيرها على الأرض، فأنت ترى صغر عقل هذا الصغير، علبة ثقاب يمسكها الطفل ويحدث لها صوتاً وكأنها سيارة لو أخذتها منه لبكى، فوالله الذي لا إله إلا هو لو نظر مؤمن (أكرمه الله بسعة الأفق والقرب من الله عز وجل) إلى إنسان بعيد عن الله، غافل، غارق في هواية من هوايات الأرض و الله يراه مثلما يرى الكبير الطفل الصغير بهذه الطريقة: ضيق الأفق وسخيف العقل يعمل عملاً لا طائل منه و يستهلك وقته بلا جدوى.

لا تصح حركة الإنسان إلا إذا عرف الهدف من وجوده في هذه الدنيا:

الله عز وجل قال:

(بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ(9))

(سورة الدخان)

أي أوصاف ربنا عز وجل هي أوصاف بليغة، صفتان: في عقولهم شك و في حركتهم لعب، والآن أحياناً تجد بعض الألعاب تكلف مئات الملايين، ألوف الملايين، وتجذب مئات الملايين و في النهاية ليس لها هدف إلا إملاء وقت فراغ أو استقطاب الناس، طبعاً الإنسان بلا غاية، خلق بلا غاية، بلا هدف، تصور أن إنساناً ذهب لفرنسا ليدرس (مثل واضح) أي هو راح لمهمة واحدة أن يأتي بدكتوراه، و يجوز بفرنسا أشياء ملهية جداً فهنالك المتحف والمقاصف و المسارح و فيه مكتبات ودور لهو، أشياء كثيرة تجذبه، لكن إذا غفل الإنسان عن مهمته و عن هدفه الكبير تصبح حركته عشوائية. لنضرب هذا المثل: أحدهم ذهب إلى فرنسا ونام في الفندق وبعد أن استيقظ لديه سؤال كبير جداً، لماذا أنا هنا ؟ كل إنسان مسافر لديه هذا السؤال: لماذا أنا هنا ؟ أي إن كنت قد جئت تاجراً فتجده باليوم التالي بعد الثامنة صباحاً يأكل و يلبس ومعه العناوين، إلى أين ذهب ؟ إلى المعامل و المؤسسات لأنه جاء هذه البلدة تاجراً فالحركة صحت لأنه عرف الهدف.

آخر أتى طالب علم، نام في الفندق استيقظ صباحاً، وتناول طعام الفطور، ولبس وراح إلى السوربون، فلأنه جاء طالب علم توجه نحو المعاهد و الجامعات.

الآخر أتى سائحاً، نام بالفندق استيقظ تناول طعام الفطور ثم لبس بعدها و ذهب إلى برج إيفل مثلاً، فما الذي حدد الحركة: معرفة الهدف. وأنت في الدنيا، متى تصح حركتك ؟ تجد بأنك رتبت زواجك مع

عملك ومهنتك وتربية أولادك ولهوك وحزنك كله ضمن منهج واحد لهدف. لا تصح الحركة إلا إذا عرف الهدف.

من جاءت حركته موافقة لهدفه سعد في الدنيا و الآخرة:

الآن عرفنا الهدف، كيف نسعد ؟ لا تسعد إلا إذا جاءت الحركة مطابقة للهدف. فمثلاً (أنا أستخدم هذا المثل كثيراً) طالب على وشك أن يؤدي امتحاناً صعباً بآخر مادة في سنة التخرج و اختصاصه مهم جداً ونادر ويعلق أهمية كبرى على نجاحه، والآن جلس في غرفة مظلمة قميئة تحت الدرج وفتح الكتاب المقرر وقرأ بشغف ونهم واستوعب وحفظ وغلب على ظنه بأنه سينجح في هذه المادة، تجد أعصابه مرتاحة لأنه الدراسة والمذاكرة والفهم والتحضير ومناقشة الفقرات في الكتاب تفوق فيها، إذا غلب على ظنه أنه سينجح، حقق هدفه فسعد.
وهذا الطالب نفسه لو جاء أصدقاؤه و أخذوه قبل الامتحان بأسبوع إلى مكان جميل على البحر أو في جبل أخضر وأطعموه أطيب الطعام و أصدقاؤه يحبهم حباً جماً فالمكان جميل وراحة وكلام لطيف وطعام طيب، فلماذا ينقبض ؟ لأن هذه الحركة، والنزهة، تتناقض مع الامتحان، ويحس بالانقباض، كلمتان: متى تصح حركتك ؟ إذا عرفت هدفك، والثانية متى تسعد ؟ إذا جاءت حركتك موافقة لهدفك. فالذي ذهب لفرنسا ببعثة ولا يكون معه دكتوراه، فأمضى وقته كله في الملاهي و في المتاحف وفي المتنزهات، يحس بانقباض وضيق عميق لأنه لم يأت ليتنزه بل أتى ليدرس.

النفس البشرية لا ترتاح إلا إذا عرفت بأنها مخلوقة لمعرفة الله و طاعته:

النفس البشرية لا ترتاح إلا إذا عرفت هدفها و عرفت بأنها مخلوقة لمعرفة الله و لطاعته، فتجد المسلم قد تكون حياته خشنة، وقد يكون وقته كله ملآن بالمشاغل لكنه سعيد لأنه شاعر بأنه يتحرك ضمن هدف واضح. هذه الدنيا هي دار ابتلاء وليست دار استواء، ودار تكليف لا دار تشريف، ودار عمل لا دار جزاء، فإذا جهد كالتاجر في الموسم لا يعرف إن كان قد أكل أم لا من كثرة البيع والمردود، وهو يتمنى أن يكون في بيع كثير ولا يعود إلى بيته، أحياناً لا يكون هنالك بيع إطلاقاً فهو مرتاح ولكن متضايق لكساد بضاعته وكثرة التزاماته فالإنسان لا يسعد إلا إذا جاءت حركته اليومية مطابقة لهدفه، ولا يعرف صحة الحركة إلا إذا عرف الهدف الحقيقي، لذلك أيها الأخوة أن تعرف لماذا خلقك الله عز وجل ؟ ولماذا أنت في الدنيا ؟ و ماذا قبل الموت ؟ وماذا بعد الموت ؟ و ما البرزخ ؟ و ما الدار الآخرة؟ فهذه أساسيات يجب أن تعرفها قبل كل شيء و لاشيء يعلو عليها، ولديك أولويات في حياتك

أن تعرف من أنت، هويتك، هناك أناس يعيشون على هامش الحياة، أي كالناقة عقلها أهلها ثم أطلقوها لا تدري لم عقلت و لم أطلقت ؟

فإنسان يسير يقول أنا مع الناس إن أحسن الناس أحسنت، وإن أساؤوا أسأت، وأكثرية الناس بهذا الشكل، وكذلك الناس، الزي، والترتيب، وكذلك جميع التجار، وكل الأعراس، مع الناس. لا يكن أحدكم إمعة، من هو الإمعة ؟ الذي يقول أنا مع الناس إن أحسنوا أحسنت وإن أساؤوا أسأت، أي فكره معطل وهو أخطر شيء أودعه الله فيه.

شعور الإنسان أن الله عز وجل وعده بالجنة هذا الوعد ينسيه كل متاعب الحياة:

فنحن يجب أن نعرف لماذا خلقنا ؟ و ما المهمة التي أوكلت بنا ؟ وما ذا بعد الموت ؟ لذلك عندئذ تتوقف كل حركاتك، نشاطك، مهنتك، بيتك، أولادك، وحتى أوقات الفراغ تملؤها وفق هذا الهدف، واللهو الذي سمح الله به تفعله وفق هذا الهدف، والعلاقات الاجتماعية، والمناسبات، وكل حركة، وكل سكنة مبنية على هدف مسبق نابع من عقيدتك الصحيحة. ولذلك حضور مجلس العلم ينمي في الإنسان التصورات الصحيحة و المقتبسة من منهج الله عز وجل.

الإنسان يجد نفسه بعد فترة حركته صحيحة، سلوكه منضبط، علاقاته كلها وفق منهج الله عز وجل، هذا يعطيه راحة نفسية فتجد المؤمن سعيداً، أسباب سعادته شعوره بأنه يسير بشكل صحيح و كذلك شعوره بأن في انتظاره عطاء كبيراً، شعوره بأن الله عز وجل وعده بالجنة و هذا الوعد ينسيه كل متاعب الحياة. ومرة قال لي أحدهم أنت تقول إن المؤمن سعيد و لكني أراه كبقية الناس فقلت له: إذا افترضنا أن شخصاً فقيراً دخله أقل من مصروفه بكثير ولكنه فجأة ورث مبلغاً كبيراً جداً، وليتمكن من الحصول على ميراثه يحتاج إلى عامين من معاملات إدارية مختلفة فلماذا هو في هاتين السنتين هو أسعد الناس ؟ علماً بأنه لم يحصل على شيء لكنه موعود. الله قال:

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا)

(سورة القصص الآية: 61)

أي سر سعادة المؤمن الله وعده بالجنة و الدنيا مؤقتة وهو راضٍ عن حاله.

الخاسر من علّق آماله كلها على الدنيا و العاقل من علّق سعادته بالآخرة:

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (61))

(سورة القصص الآية: 61)

تجد الواحد منا يرتب ويرتب، لديه قلق عميق فلو مات فجأة لأن عنده مشكلة متعلقة بالقلب تجده انهار وكل هذا التعب على الأرض لغيره، فلما يعلق الإنسان أمله بالدنيا فهو يقامر بسعادته مقامرة ويغامر بها. أما إذا علق سعادته بالآخرة تجده يقبل كل مشكلة، يمتصها امتصاصا لأنّ هدفه حاصل. إذا:

(بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ(9))

(سورة الدخان)

أرجو من الله عز وجل أن نكون في يقين و لا نلعب، نتحرك وفق ما يرضي الله، إن الله يحب معالي الأمور ويكره سفسافها ودنيها، وشرف المؤمن قيامه في الليل وعزه استغناؤه عن الناس.

(بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ(9))

(سورة الدخان)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الدخان 044 - الدرس (2-4): تفسير الآيات 10- 36 ، التأديب الإلهي للإنسان

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 12-08-1994

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الثاني من سورة الدخان.

من سنن الله في خلقه نقل الحق إلى الناس:

ربنا سبحانه وتعالى يقول في الآية العاشرة:

(فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ(10)يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ(11)رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ(12)أَنَّى لَهُمْ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ(13)ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ(14))

(سورة الدخان)

أيها الأخوة: قبل أن نمضي في الحديث عن هذه الآيات، وعن اختلاف العلماء في تفسيرها، لابد من مقدمة دقيقة تلقي ضوءاً على مضمون هذه الآيات.

أيها الأخوة: ربنا سبحانه وتعالى، من سننه في خلقه، أنه ينقل الحق إلى الناس عن طريق الأنبياء المرسلين والدعاة الصادقين، يبلغ الناس الحق بطريقة أو بأخرى، عن طريق نبي أو رسول أو داعية أو عالم أو عن طريق مؤلف..... الخ. هذا الإبلاغ، والموقف الذي ينبغي أن يقفه الإنسان من بلاغ ربه أن يستجيب.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ (24))

(سورة الأنفال)

الاستجابة هي الموقف الذي ينبغي أن يقفه الإنسان من بلاغ ربه:

كل واحد من الأخوة الأكارم ينبغي له إذا سمع مقالة تدعوه إلى الهدى، أو خطبة تدله على الخير، أو جلس في مجلس علم بين له الطريقة إلى الله، أو قرأ كتاباً من الكتب المعتمدة التي تبين له الحقيقة الدينية، أو سمع شريطاً، أو أي أسلوب من أساليب إبلاغ الحق إلى الناس، يجب عليك أن تستجيب وأن تعلم أن هذا بشكل أو بآخر من عند الله. و لاسيما إذا جاءت الدعوة مؤيدة بالآيات الكريمة و مفسرة وفق القواعد الصحيحة والسنة الصحيحة المطهرة، إذا دعيت إلى الحق عليك أن تستجيب، فإن لم

تستجب فحرصاً على مصلحتك ورحمة بك ودفعاً لك إلى الهدى، عندئذ لابد من المعالجة، والله عز وجل عنده أنواع منوعة وأساليب عديدة من أنواع المعالجة لأنك كلك في ملكه، أجهزتك كلها، وأعضاؤك، وأنسجتك، وأحياناً النسيج ينمو نمواً عشوائياً، فالأنسجة والأعضاء و الحواس والأجهزة، كل شيء تتمتع به بملك الله عز وجل. ومن حولك الزوجة والأولاد، ومن فوقك ومن تحتك الرزق، وكل شيء بيد الله.

من لم تستجب لله في الدعوة السلمية نقل نفسه لمرحلة الثانية هي الشدة:

لذلك ربنا عز وجل حينما يصمّ الإنسان أذنيه عن سماع الحق، وحينما تأتيه الدعوة شفهية، وسلمية، ولطيفة، ولا يستجيب لها، يكون هو باختياره عرّض نفسه لمرحلة ثانية في الدعوة، المرحلة الثانية هي الشدة.

(وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (21))

(سورة السجدة)

وكلام واضح كالشمس، جلي، في أكثر آيات القرآن الكريم، إن لم تستجب بالدعوة الكلامية، وبالدعوة البيانية، واللطيفة، والسلمية، فأنت بمحض اختيارك نقلت نفسك إلى أسلوب آخر من أساليب الدعوة. والآن الدعوة عن طريق الشدة، إن لم تستجب لله بلطائف الإحسان، ساقك الله إليه بسلاسل الامتحان، إن لم تأته مسرعاً حملك أن تأتيه مسرعاً، وإن لم تأته مسرعاً طواعية حملك على أن تأته مسرعاً قهراً. والموقف الأول أكرم وأعظم، وهذه الدنيا بين أيديكم، ما من قصة إلا وتؤكد هذه الحقيقة، ما من حدث إلا ويؤكدها.

فإن لم تستجب إلى الله في الدعوة السلمية الكلامية البيانية اللطيفة ؛ نقلت نفسك طواعية إلى المرحلة الثانية من مراحل الدعوة: البأساء والضراء، والهموم والأحزان، والأمراض والمشكلات، والقهر والقلق والخوف.

الإنسان باختياره وتقصيره ينقل نفسه إلى أسلوب آخر في الدعوة:

الآن لو أن الإنسان لا سمح الله دخل في المرحلة الثانية طواعية، فقد وضع نفسه في المرحلة الثانية، وأحياناً يقول لك الطبيب: هذا المرض يعالج بالحبوب إذا اعتنيت بأخذ الدواء، فإن لم تعتن بالدواء وتفاقم المرض فلابد من عملية جراحية، والأمر بيدك: إما أن تعالج معالجة لطيفة بحبوب بعد الطعام على شهرين أو ثلاثة، وإما إذا أهملت الحبوب ولم تعتن بالمعالجة الدوائية، فلابد من معالجة جراحية،

ساعتئذ هنالك تخدير وهناك غرفة عمليات وفتح بطن ومشكلات.. فالإنسان أحياناً هو باختياره وبتقصيره وعدم استجابته لربه ينقل نفسه إلى أسلوب آخر في الدعوة.

على كل لو أن الإنسان انتقل إلى المرحلة الثانية، فيسوق الله عز وجل إليه من الشدائد والضيق لعله يعود أو يرجع، والموقف الكامل أن يتضرع، ولو دخل إلى هذه المرحلة فعليه أن يقول يا رب تبت إليك، إذا رجع العبد العاصي إلى الله نادى مناد في السماوات والأرض أن هنؤوا فلاناً فقد اصطلح مع الله. أيضاً شيء رائع جداً أن الإنسان حينما يدخل وهو لا يشعر بالمرحلة الثانية عليه أن يتوب إلى الله وأن يقلع وأن يتضرع.

من لم تُحْدث المصيبة في نفسه موعظة فمصيبته في نفسه أكبر:

أحياناً هذه الشدة يفسرها الإنسان تفسيراً أرضياً لا سماوياً، ويقول لك هذه هي الحياة: مد وجزر، يوم لك ويوم عليك، ويقول لك عندما تأتيه المصيبة: قلب لي الدهر ظهر المجن:

(ثُمّ بَدّلْنَا مَكَانَ السّيّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتّى عَفَوا وَقَالُوا قَدْ مَسّ آبَاءَنَا الضّرّاءُ وَالسّرّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ(95))

(سورة الأعراف)

وشيء طبيعي، هكذا الحياة، لا يفسر الشدائد تفسيراً قرآنياً، كما أرادها الله أن تكون، لذلك قيل: من لم تحدث المصيبة في نفسه موعظة فمصيبته في نفسه أكبر.

من لم يستجب لله هناك مرحلة ثالثة يؤدب الله بها عبده هي الإكرام الاستدراجي:

بعد ذلك فهنالك مرحلة ثالثة: مرحلة الإكرام الاستدراجي.

(ثُمّ بَدّلْنَا مَكَانَ السّيّئَةِ الْحَسَنَةَ (95))

(سورة الأعراف)

كان هنالك شدة انفرجت فيقول الإنسان كانت الأمور صعبة فأصبحت ميسرة ولكن لم يعد الناس إلى الله عز وجل، هذه مرحلة ثالثة، كان هناك ضيق ؛ انفرج الضيق، كانت هناك أشياء صعبة المنال فأصبحت موفورة، والناس على ما هم عليه من فسق و فجور، أحياناً الله عز وجل يبدل الأسلوب: أولا دعوة كلامية بيانية لطيفة ثم معالجة بالسراء والضراء ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة، إذًا إكرام استدراجي، والموقف الكامل في الإكرام الاستدراجي الشكر.

القصم هو المرحلة الأخيرة من مراحل التأديب الإلهي:

إن لم يستجب بالدعوة البيانية ولا تضرع بالمعالجة التأديبية و لا شكر بالإكرام الاستدراجي فماذا بقي؟ بقي القصم:

(فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً (95))

(سورة الأعراف)

انتهى الأمر.

أيها الأخوة الكرام: هذا الملخص مستقى من آيات كثيرة، وهو من روح القرآن الكريم بأكثر من سورة و أكثر من موضع تؤكد هذه الحقائق. دعوة بيانية، معالجة تأديبية، إكرام استدراجي، القصم، من هو السعيد ؟ الذي يصغي إلى الحق بأذنه قبل أن تأتي المعالجة التأديبية، و إذا فاته الإصغاء إلى الحق بأذنه و عندما تأتي المعالجة التأديبية يتضرع إلى الله عز وجل، وإذا فاته التضرع ودخل في مرحلة ثالثة يشكر ويتوب، وإلا فلا بد له من حسم لهذا التردد وذاك التأرجح بين قيل وقال و فلان زعم كذا وفلان على حق وفلان على باطل، هذا الكلام ملخص الملخص.

الله عز وجل لو ترك الإنسان على اختياره لاستمرأ المعاصي والآثام:

الله عز وجل يقول:

(فَارْتَقِبْ)

(سورة الدخان)

(يا محمد) والارتقاب ليس للخير، فارتقب لهم أن يأتي العلاج الإلهي. وأنا أقول لكم هذا الكلام المستقى من هذه الآية، عندما يكون الإنسان غارقاً بالنعم وهو غارق بالمعاصي، غارق بالنعم وهو ملتفت إلى الدنيا وقد أدار ظهره للدين فرحمة الله به وحرصه عليه ورأفته به لابد من أن يساق إليه شيء ليصحو، فهو غافل، ومسترسل، فلو أن الله سبحانه وتعالى لم يرسل للناس ما يؤدبهم، ما يحملهم على التوبة، لكان معظم الناس من أهل النار.

أي لو أن الله عز وجل ترك الإنسان على اختياره ولم يسق له أية معالجة إطلاقاً فالناس يستمرؤون المعاصي والآثام، وفي الأعم الأغلب يعيشون لحظتهم فقط، والآن من هو الغبي ؟ الغبي الذي يعيش لحظته، في هذه اللحظة ليس فيه شيء، إذ يأكل كما يشتهي، و يشرب كما يشتهي، و يذهب إلى أي مكان يريد، ويلتقي مع من يحب، ويفعل ما يحلو له، ولا يعبأ بكل القيم والمبادئ، فهذا الإنسان هو

النموذج المعاصر، يعيش لحظته، يعيش واقعه، فإذا جاءه الموت فجأة، أو جاءه المرض بغتة، فعندئذ يقول:

(يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي (24))

(سورة الفجر)

والذي يندم هو الغبي والعاقل لا يعمل عملاً يندم عليه، العاقل يرى الشيء قبل أن يصل إليه، ويعيش مستقبله والأقل عقلاً يعيش واقعه و الغبي يعيش ماضيه.

العاقل من أعدّ العدة لساعة الموت:

أيها الأخوة الكرام: هل يستطيع أحد على وجه الأرض أن ينكر وقوع الموت، أيوجد إنسان خلد ؟ أقوي أم ضعيف ؟ أعالم أم جاهل ؟ أمستقيم أم منحرف ؟ أي إنسان كان، وأي نوع فمحكوم علينا بالموت جميعاً، وهل هناك من حدث أشد واقعية وحتمية من الوقوع في الموت ؟ فمن هو العاقل ؟ الذي يعد له.

والحقيقة أيها الأخوة الكرام لكي لا يدخل الإنسان في متاهات التشاؤم، إذ لا علاقة إطلاقاً بين الموت والتشاؤم، فالموت حدث لابد منه وقد يأتي بعد ساعة وقد يأتي بعد خمسين عاماً، لكنه لابد من أن يأتي، وإذا أتى لا يؤخر ولا دقيقة، وما بعد الموت حياة أبدية سرمدية ؛ إما في جنة يدوم نعيمها أو في نار لا ينفد عذابها، فمنتهى العقل يقتضي أن تعد لهذه الساعة فلك أن تعمل، ولك أن تدرس، وأن تشتري بيتاً، وأن تؤسس مشروعاً، وأن تتزوج، وأن تنجب وأن تزوج بناتك.... وكل هذا مشروع، ولكن النقطة الدقيقة أن الله عز وجل نهى عن الهوى من غير هدى من الله. هناك ميول أودعها الله فينا، ميل أودعه الله فينا، إذا تحركت به وفق منهج الله فلا شيء عليك، أي إذا تمنى الشاب أن يتزوج، وأن يستقل ببيت صغير وأن يكون له عمل يدر عليه دخلاً معقولاً، فهل في هذا الميل ملامة ؟ لا، فهذا الهوى وفق منهج الله. أما إذا تطلع إلى الزنا، وخرج عن منهج الله فقد وقع في الإثم العظيم.

السعيد من استجاب لله ورسوله:

لو أن إنساناً أراد أن يعمل وأن يكسب المال بطريق مشروع فلا شيء عليه، وإذا أنفقه في الوجه المشروع فلا شيء عليه. الشيء الذي حرمه الله أن تتبع الهوى من غير هدى من الله.

الشيء الذي أود أن أقوله لكم: نحن أمام أربع مراحل: مرحلة الدعوة البيانية ومرحلة التأديب الإلهي والإكرام الاستدراجي والقصم. والسعيد من استجاب لله إذا دعي، والقرآن دعوة من الله، والحديث

النبوي الشريف دعوة من الله، والعلماء الأمناء على هذه الرسالة ؛ العاملون المخلصون الذين ينقلون لك ما في الكتاب والسنة بأمانة تامة ؛ من دون إضافة شيء أو حذف شيء هؤلاء أيضاً ينوبون عن النبي صلى الله عليه وسلم في إبلاغ الناس، فالسعيد من استجاب لله ورسوله إذا دعاه.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ (24))

(سورة الأنفال)

من لم يستجب لله فقلبه ميت لا محالة:

دقق في هذه الكلمة، فالإنسان إن لم يستجب فهو ميت ولو كان ضغطه 12 - 8 ونبضه 70 وعمل تحليلاً وكان كله كاملاً، فهذه الحياة لا قيمة لها، إنها حياة الجسد، أما قلبه فَمَيّت، إن لم يستجب فهو ميت. والله عز وجل قال:

(وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ(22))

(سورة فاطر)

مقبورون في شهواتهم. قال:

(أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ)

(سورة النحل الآية: 21)

إذا جلست مع إنسان ساعات طويلة يحدثك عن كل شيء إلا عن الله واليوم الآخر وهذا الدين وماذا بعد الموت، هذه الموضوعات لا يفقه عنها شيئاً، فإذا طرقت بعض هذه الموضوعات تثاءب وتململ واعتذر وقام من المجلس، هذا ميت ومنتهٍ.

والطبيب إذا وضع يده على المريض وقال "خالص". تماماً والله أشعر أحياناً يوجد أشخاص "خالصون" فمهما حاولت تقرب، وتبعد، وتذكره بالموت، وبالآخرة وبالقرآن، يقول لك غيبيات ولكن واقعيين، وكأن الموت غير واقعي وحسب اعتقاده، لنكن واقعيين:

(يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآَخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ(7))

(سورة الروم الآية: 7)

الموت تحفة المؤمن:

لذلك إذا سمح الله للإنسان أن يتعرف إلى الحق في الدنيا، وعرف سر وجوده، وعرف عظمة هذا الإله العظيم، عرف ماذا بعد الموت، فله عمل متعلق بالآخرة، وله عمل لا يبتغي به أجراً ولا سمعة ولا عطاءً ولا شكوراً... إطلاقاً، له عمل وهو زاده في الآخرة.

أيها الأخوة الكرام: من هو الشقي ؟ ومن هو التعيس ؟ والخاسر ؟ والمخفق ؟ الذي يعمل للدنيا فقط والدنيا تنتهي بثانية واحدة، مثلاً أحدهم انتهى عمره أثناء عملية لوزات، وآخر أثناء عملية بحصة بالمرارة مات، أحياناً بلا سبب إطلاقاً.

مرة دعينا إلى مولد في بعض المساجد دخلت إلى المسجد واستقبلني أحد من أقام هذا المولد وصافحته ورحّب بي وقعدت في مكاني في المولد، شعرت بحركة غير طبيعية سألت فقالوا توفي الآن الذي استقبلك ! كان واقفًا فوقع ميتاً. فالموت قريب جداً وحينما يأتي تخسر كل شيء، الذي جمعه خلال سبعين عاماً يخسره بثانية واحدة إلا المؤمن فالموت تحفة المؤمن وعرس المؤمن، لأن كل هذه الحياة لهذه الساعة، ينتظرها بفارغ الصبر، تصور طالباً درس ليلاً نهاراً، صباحا ومساء، حتى أتقن الكتب لها، فقرع جرس الامتحان يلقي في قلبه الفرح، هو ينتظر هذه الساعة بفارغ الصبر ليصب علمه كله داخل الورقة، وليأخذ الدرجة الأولى ويتيه على زملائه بالفوز، فإذا تكلمت عن الموت من الناحية السلبية فأنا لا أنسى الناحية الإيجابية، والإنسان عندما يموت يلقى الله عز وجل، قال تعالى:

(وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ(158))

(سورة آل عمران)

الدنيا أحقر من أن تكون عطاءً لإنسان أو عقاباً له:

يا إخواننا الكرام: الإنسان إذا نقل اهتماماته و أهدافه للآخرة تهون عليه الدنيا، والله يرضيه منها بيت صغير ولقمة تمسك رمقه، ليس له طموح أكثر، الدنيا ماضية، دائماً أبداً تذكر: أن الله أكرم محمداً أم أهانه حين زوى عنه الدنيا ؟ فإن قال أهانه فقد كذب، وإن قال أكرمه فلقد أهان غيره حيث أعطاه الدنيا.

و هذه الدنيا أحقر من أن تكون عطاء لإنسان وأحقر من أن يكون الحرمان منها عقاباً لإنسان، لأنها زائلة، لنفكر في موضوع الأبد. فما معنى الإنسان عندما يموت إلى أبد الآبدين ؟ يا ترى مليون سنة، ألف مليون سنة، ألف ألف مليون سنة، ألف ألف ألف وأنا أقول هذا الكلام عشر ساعات مليون سنة، أكثر. إخواننا الكرام، أي رقم مهما بلغ فمثلاً واحد وأمامه أصفار بطول أربعين كيلو متر هذا الرقم صفر أمام اللانهاية، تصور رقم واحد بدمشق وأصفاراً حتى حلب، لأنقرة، لموسكو، للقطب، المحيط الهادي، القطب الجنوبي، إفريقيا، مكة، لِتبوك، لعمان، لدمشق أي رقم واحد وأمامه أربعون ألف كيلومتر أصفاراً وبين الصفرين 1 مم فهذا الرقم ضعه صورة والمخرج لانهاية فتكون القيمة صفر، بالرياضيات أكبر رقم إذا نسب للانهاية فهو صفر. والآخرة لانهاية،

(لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَا)

فهذه الدنيا كلها هي سنوات محدودة، وكلها متاعب، فهل من المعقول من أجلها أن نضيع الآخرة، معقول من أجل امرأة نضيع ديننا، ومن أجل مبلغ من المال كبر أو صغر نضحي بقيمنا ومبادئنا، ولا يوجد عقل، فبالعقل تصل إلى الشيء قبل أن تصل إليه.

الله عز وجل يجعل التأديب من جنس الذنب:

أيها الأخوة: الآن الآيات من هذا المعنى، يوجد دعوة بيانية، تأديب، وإكرام استدراجي، وقصم

(فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ(10))

(سورة الدخان)

يا محمد ارتقب لهؤلاء الكفار يوماً أسوداً، يوماً تأديبياً، وقلت قبل قليل إنسان منحرف وماله حرام لم يضبط جوارحه وفق منهج الله، ولم يقم الإسلام في بيته، لا يبالي بدخله أحراماً كان أم حلالاً، لا يبالي بإنفاق ماله، فهذا الإنسان ليس من باب التشاؤم، بل من باب رحمة الله به، وأن الله رب العالمين، وأنه الله لا يدع عباده معطلين من التربية، هذا الإنسان المنحرف لابد من أن يسوق الله إليه شيئاً ما: أنواع منوعة، فالصيدلية الإلهية فيها مليار دواء، وكل بلد له أساليب معينة، أحياناً يذهب الإنسان إلى بلد يقول لك هنا لا يوجد مشكلة، عند الله في هذا البلد تأديب من نوع ثان، وكل مكان فيه أساليب لربنا عز وجل بتأديب، وهذا هو الإنسان.

إخواننا الكرام: أي أقرب تأديب: جسم الإنسان مثلاً القناة الدمعية هي أضيق قناة في جسم الإنسان بين مؤق العين وبين الأنف، فلماذا الأنف رطب دائماً ؟ لأن فائض الدمع يصل للأنف، وهذه القناة الدمعية لو سدت صار فيضان دمع على الخد دائماً والدمع مادة قلوية، وبعد حين يصير مجرى أحمر، ويتخرش الخد، ودائماً بحاجة لمنديل لمسح الدمع، يعني حياة الإنسان تغدو جحيماً لو أن القناة الدمعية سدت.

مثل آخر: أحدهم يرغب بالتنزه في الطرقات أيام الصيف مساء ليمتع عينيه بمنظر الغاديات الرائحات، الله أدبه بارتخاء الجفون فنحن ننظر براحة والجفن مفتوح، وعندما ننام يرتخي الجفن بينما هذا الشخص يرتخي جفنه أثناء النهار ولا يستطيع أن يرى إلا إذا فتح عينيه بيديه ليرى، هذا تأديب وربنا عز وجل أحياناً يجعل التأديب من جنس الذنب كي يعلم العبد وكي يجعله موعظة للناس.

العاقل من اتعظ بغيره:

الدعاء الذي قرأته مرة وتأثرت به: اللهم لا تجعلنا عبرة لأحد من خلقك. فعلى الإنسان ألا يكون قصة فعندما ينحرف يصبح قصة، فالله قال:

(فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ)

لما الإنسان ينحرف، ويتجاوز الحدود، ولا يطبق أمر الله عز وجل، ويظلم، ويبغي، يجعله الله قصة ليُتعظ به، فأنا أقول دائماً لإخواننا الحياة مسرح وفيها أماكن للمشاهدين وخشبة مسرح، المستقيم له محل مع المشاهدين يرى و يسمع فإن لم يستقم جرّ إلى خشبة المسرح ليكون قصة، ويشاهد، فإن لم يستقم على أمر الله جرّ إلى خشبة المسرح ليجري له حدث مؤلم يصبح قصة ومتعة للناس.

الآن اسمع ما الذي يتناقله الناس، أحيانا تجد قصة غريبة، أحياناً انهياراً لإنسان وأحيانا تأديباً قاسياً فالناس يتسلون بهذه القصص فالدعاء: اللهم لا تجعلنا عبرة لأحد من خلقك. أي ألا نكون قصة، فإذا سمع أحدنا قصة واتعظ فلا مانع، ولكن عليه ألا يكون هو نفسه قصة.

فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ: من بعض تفسيرات هذه الآية:

1 ـ كنى الله عز وجل عن جفاف السماء و قحط الأرض بالدخان:

(فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ(10))

(سورة الدخان)

من بعض تفسيرات هذه الآية أن سنوات القحط والمجاعة تجعل أمام العين غشاوة و هذه ثابتة علمياً، أي شدة الجوع تضعف البصر أو إذا السماء شحت بالأمطار سنوات جفاف، يصبح الجو مغبراً، أحياناً يغبر الجو وكأن فيه دخاناً من قحط السماء، ومن جفاف الأرض وكلكم يرى أول مطرة تأتي في أيلول يصبح الجو نقياً، كان مغبراً بآخر الخريف، جفاف فالجو كله يغبر، فإذا جاءت الأمطار فيُصبح الجو نقياً والأشياء متألقة، فربنا عز وجل كنى عن جفاف السماء وعن قحط الأرض وعن انعدام الرزق بالدخان، أو عن الغشاوة التي تكون على العين من شدة الجوع بالدخان، أي تأديباً.

من يعص ربه كأن لسان حاله يقول يا رب دمرني:

أنا كنت أقول لإخواننا إنه كلما رخص لحم النساء غلا لحم الضأن، وكلما قلّ ماء الحياء قل ماء السماء والدليل قوله تعالى:

(وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاء غَدَقًا لنفتنهم فيه)

(سورة الجن)

وحدثنا الله عن أهل مدين قال سيدنا شعيب: إني أراكم بخير (الخير وفرة المواد ورخص الأسعار) فلما قالوا ربنا باعد بين أسفارنا. فالمفسرون وقعوا في حيرة، فهل من المعقول أن يدعو إنسان الله أن يتلفه و يدمره ؟ فمعنى باعد بين أسفارنا، إن كانت البلاد خضراء ففيها مياه وينابيع وأنهار وفيها جنات وتكون الأسفار متقاربة والإنسان أحياناً لا يحتاج إلى حمل زاد إطلاقاً، والآن في بعض الأماكن التي تموج بالسكان كل مكان فيه حاجات ميسرة ولا يوجد مدن متمايزة ويقول لك إن العمران أصبح متصلاً، باعد بين أسفارنا أي يا رب امحق هذه الزراعة وهذه البساتين، والكلام غير معقول، إلا أن بعض المفسرين قالوا: حين يعصي الإنسان ربه وحينما يطغى و حينما يبغي كأن لسان حاله يقول يا رب دمرني، يا رب أفقرني، وأتلف مالي. فإذا كان الكسب حراماً كأنه يقول يا رب أقم حكمك فيّ، أتلف مالي، نحن لدينا قاعدة هناك لسان المقال ولسان الحال فعندما يعصي الإنسان فكأنه يقول يا رب أدبني، وأتلف مالي، ودمرني.

(يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ(11))

(سورة الدخان)

2 ـ أو الدخان من أشراط الساعة:

وبعضهم قال الدخان من أشراط الساعة، ومن أشراط الساعة: الدجال والدخان وطلوع الشمس من مغربها ودابة الأرض ويأجوج ومأجوج، فهذه أشراط الساعة ومنها الدخان. فالتفسير الأول: أي قحط من السماء وأي سنة من سنوات الجفاف الشديدة و أي فقر شديد يلحق بالعباد هو بمنزلة دخان من السماء وأن العين من شدة الجوع ترى أنها مغشاة أو أن الجو مغبر وكأنه دخان.

التفسير الثاني: الدخان من علامات الساعة الكبرى، ومن علامات القيامة.

(فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ(10))

(سورة الدخان)

أي دخان من أثر جهنم، من أثر نار جهنم وهذا الدخان يأتي قبل يوم القيامة.

(يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ(11))

(سورة الدخان)

تضرع جميع الناس إلى الله عز وجل عند الشدة:

من شأن العباد:

(رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ(12))

(سورة الدخان)

أي لا يوجد إنسان أثناء الشدة إلا ويقول يا رب عدت إليك أنقذني، وبالمناسبة هذا الالتجاء عند الشدة يستوي فيه كل الناس، لا فضل لك فيه، وأعتى الكفار يدعو ربه عند الشدة ويقول يا رب أنقذني، ولذلك فالبطولة أن تكون في الرخاء ملتفتاً إلى الله عز وجل، وأنت في بحبوحة وفي صحة، أما عند الشدة فكلهم يتضرع ولكن قد لا ينفع هذا التضرع.

(رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ(12)أَنَّى لَهُمْ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ(13))

(سورة الدخان)

استجابة الإنسان عند الشدة أقل من وضعه في الرخاء:

الإنسان وهو تحت الشدة تكون استجابته أقل من وضعه في الرخاء. أما إذا كان في رخاء ويوجد نبي ومعه أدله ومعه آيات وأشياء واضحة جداً، فهل يعقل أن تكون استجابته عند الشدة وهو في ضائقة كاستجابته وهو في بحبوحة:

(أَنَّى لَهُمْ الذِّكْرَى (13))

(سورة الدخان)

كأن الله سبحانه وتعالى يبين لنا أن الإنسان حين الشدة، فقد تعمي بصره، وقد تربكه، والشدة قد تعطل فكره، قد تسحقه.

اتهام الكفار النبي الكريم بالكذب و الجنون لأن دعوته تتعارض مع شهواتهم:

(أَنَّى لَهُمْ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ(13)ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ(14))

(سورة الدخان)

أي هناك من علمه هذا الكلام أو هو مجنون، نبي كريم على الله، معه وحي من السماء، ومعه كتاب وأخلاقه رضية، وما عُرف عنه كذب قط، صادق أمين، وعفيف ذو نسب، هذا النبي العظيم يقال عنه:

(مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ(14))

(سورة الدخان)

لأن دعوة النبي تتعارض مع شهوات الكفار، ولذلك ماذا يفعلون ؟ يلجؤون إلى رد هذه الدعوة عن طريق تكذيب النبي صلى الله عليه وسلم.

(إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ(15))

(سورة الدخان)

هذا الإكرام الاستدراجي:

(إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ(15))

(سورة الدخان)

من رُفعت عنه الشِدّة و لم يتب إلى الله تعالى فلا يفرح بها:

النقطة الدقيقة أيها الأخوة، إذا كان الإنسان مقيماً على معصية ودخل في ضائقة ثم انفرجت هذه الضائقة فلا يفرح، فهذا انفراج مؤقت، أما إذا كان مقيماً على معصية وكان في ضائقة، جاءت الضائقة علاجاً له، وقد تنفرج الضائقة دون أن يقلع عن المعصية، فلا يفرح، فهذا استدراج:

(إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ(15))

(سورة الدخان)

أنا أعرف رجلاً مغتصباً حقوقًا كثيرة، وله محل تجاري وأراض، وأبنية من أخوته حيث كان أكبرهم فلما توفي أبوه اغتصب هذه الأموال، فجاءه مرض عضال ونقل إلى المستشفى، صرح بأن المحل الفلاني لأخوته عند شعوره بأن أجله قريب، ثم ردت له صحته وشعر بأنه أصبح كما كان فطلب الشريط المسجل فيه تصريحه وكسره، وعاد إلى ما كان عليه، وعاش بعد هذا الحادث ثمانية أشهر، ثم جاءت الطامة الكبرى. فمن سنن ربنا عز وجل في خلقه أحياناً يرفع الشدة مؤقتاً، فالإنسان إذا رفعت الشدة ولم يتب فلا يفرح فيها. فهذا رفع مؤقت،

(إنكم عائدون)

(إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ(15)يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنتَقِمُونَ(16))

(سورة الدخان)

الله عز وجل منتقم جبار ممن اعتدى على حقوق الآخرين:

الله عز وجل حين يعاقب يعاقب وإذا بطش بطش، وإذا انتقم انتقم، ولذلك فمرة أحدهم قرأ على درع:

إذا جار الأمير وحاجباه وقاضي الأرض أسرف في القضاء
فويل ثم ويل ثم ويـل لقاضي الأرض من قاضي السماء

* * *

وإنسان اشترى مع أخيه بيتاً ودفعا قيمة البيت مناصفة بينهما، وكان البيت باسم الأخ الأول وتمكن بخُبْثِه أن يهدد أخاه بإخراجه من البيت مع أن نصف البيت لأخيه، ثم أخرجه منه، وجعله في الطريق طمعاً بثمن البيت كله، والله أيها الأخوة أنا عشت هذه القصة، ولم يمض شهر إلا وأصيب بمرض خبيث بالأمعاء فهذا الذي اغتصب البيت، وكنت أظن بأن يبقى سنتين في هذا المرض وبعد شهر ثان توفاه الله

(إِنَّا مُنْتَقِمُونَ)

الإنسان إذا اعتدى على ما ليس له، استخدم قوته وفهمه واستغل ضعف الطرف الآخر وأخذ ما ليس له

(إنا منتقمون)

الله ينتقم.

خوف الإنسان من الله يتناسب مع حجم إيمانه:

أيها الأخوة الكرام:

(إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ(15))

(سورة الدخان)

إذا رأيت الله يتابع نعمه عليك وأنت تعصيه فاحذره، أما إذا كان الإنسان مستقيماً على أمر الله والله عز وجل أكرمه، فهذا إكرام حقيقي، هذا نتيجة طاعته لله عز وجل فالإنسان عليه أن يشكر، كل هذا الكلام مفاده، الإنسان يفكر، عليه أن يقف من حين لآخر ليقيّم نفسه، بيتي هل فيه مشكلات ؟ وعملي هل هناك علاقات غير شرعية ؟ لأن رأس الحكمة مخافة الله وخوفك من الله يتناسب مع حجم إيمانك، كلما ازداد إيمانك ازداد خوفك، والعالم هو الذي يخاف وأنا حينما أنقل لكم أقوال بعض الصحابة الكرام عن شدة خوفهم من الله فهذا كلام حقيقي، صحابي كريم لا يمثل بكلامه، بل يخاف الله حقاً، وهذا هو الخوف المقدس، وذاك هو القلق المقدس، والسعي المقدس لاكتساب مرضاة الله عز وجل.

(يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ(16))

(سورة الدخان)

توعد الله عز وجل الفاسد بالعذاب العظيم:

بعض الأحيان نرى بالصحف والمجلات بعض الزلازل، تجد بأن زلزالاً جعل بناء بكامله ركاماً في غمضة عين، فالزلازل والبراكين و الفيضانات و الأعاصير، فإعصار ضرب غربي أميركا فكانت الخسائر 30 ملياراً، فالأعاصير، والفيضانات، والزلازل، والبراكين، و الحروب الأهلية الطاحنة، والقهر، والمجاعات، إذا كانت البلاد استمرأت الفساد والزنا ودور الدعارة كانت أكبر من دور السكن بكثير والكسب الحرام أكثر من الحلال بكثير فهذا المجتمع تنتظره بطشة من الله عز وجل، الأمثلة كثيرة جداً:

(وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ(112))

(سورة النحل)

(وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ(17))

(سورة الدخان)

سيدنا موسى، ومعنى

(فتنا)

أي امتحنا وابتلينا والفتنة هي الامتحان.

الداعية الصادق ينقل للإنسان ما جاء في الكتاب والسنة دون زيادة أو نقصان:

(أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ(18))

(سورة الدخان)

أي أيها العباد أدوا إلي طاعتكم وعهدكم الذي عاهدتم به ربكم أو يا فرعون أعطني بني إسرائيل لأخرج بهم كلاهما صحيح.

(أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ(18))

(سورة الدخان)

أمين على وحي السماء، فالنبي الحق والرسول الحق أمين على وحي السماء ولا يستطيع أن يزيد كلمة ولا حرفًا ولا أن يحذف، وهكذا الداعية الصادق، ينقل لك ما جاء في الكتاب والسنة دون زيادة أو نقصان.

الكبر بطر الحق و غمط الناس:

(وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ(19))

(سورة الدخان)

من هو المتكبر ؟ الكبر بطر الحق و غمط الناس. بطر الحق: رد الحق، أي يتكبر على الله أن يطيعه، فقد لا يعجبه حكم الله في موضوع ما، فمثلاً هذا حرام، فيقول لك نحن في حياة عصرية، فلابد من نماء الأموال، أنجمد المال ؟ لابد من الربا فهو لا يعبأ بالحكم الشرعي والآية القرآنية بهذا الموضوع، فهذا الذي لا يعبأ بحكم الله يستعلي على الله.

الحكمة من عصم النبي الكريم من الناس:

لذلك:

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ)

[سورة الأحزاب: الآية 36]

لذلك لا يوجد خيار، فإذا كنت مؤمناً حقاً ورأيت أمر الله في الكتاب والسنة، انتهى الأمر.

(وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ(20))

(سورة الدخان)

أي أن الله يعصم النبي من الناس، يعصمه من أن يقتل، قبل أداء الرسالة لأنه إن قتل قبل أداء الرسالة انتهت الدعوة بموته، لذلك فالله يعصمه، وأما إذا أدى الرسالة فممكن.

(وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ(21))

(سورة الدخان)

هذه الآية تذكرنا بقوله:

(مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لاَ تُنظِرُونِ * إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ)

(سورة هود)

وحي الله عز وجل إلى سيدنا موسى أن يتجه باتجاه البحر:

(وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ(20)وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ(21))

(سورة الدخان)

لكم شأنكم.

(فَدَعَا رَبَّهُ أَنّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ(22))

(سورة الدخان)

فربنا عز وجل أوحى إلى سيدنا موسى:

(فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنّكُمْ مُتّبَعُونَ(23))

(سورة الدخان)

(إنهم يكيدون كيدا وأكيد كيدا)

(سورة الطارق)

(إِنّ كَيْدِي مَتِينٌ)

(سورة الأعراف)

(فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا (23))

(سورة الدخان)

سيدنا موسى مع بني إسرائيل ضعاف مستضعفون وفرعون وجبروته وقوته وجيشه وأتباعه، لا يوجد تناسب أبداً، فأُمِرَ سيدنا موسى من قبل الله عز وجل أن يتجه باتجاه البحر.

من يعصِ الله عز وجل يقصمه الله قصماً:

(فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنّكُمْ مُتّبَعُونَ(23)وَاتْرُكْ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ(24))

(سورة الدخان)

لما ضرب بعصاه البحر وأصبح طريقاً يبساً فلما كاد أن يخرج منه وخاف أن يتبعه فرعون فهم أن يضرب مرة ثانية ليعيد البحر كما كان قال واترك البحر رهواً، دعه كما كان لأن فرعون سوف يتبعه من هذا الطريق وفي منتصف البحر سوف يعيد الله البحر بحراً، واترك البحر رهواً أي ساكناً إنهم جند مغرقون.

(كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنّاتٍ وَعُيُونٍ(25)وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ(26)وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ(27)كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ(28))

(سورة الدخان)

الإنسان حين يعصي يقصمه الله قصماً، فيترك أموالاً وبساتين وبيوتًا وأراضي وزوجة ومتاعاً، فالإنسان كلما نما وكلما كبر يتنامى استمتاعه بالحياة، أما إذا قصمه الله قصماً ترك هذا كله

(كَمْ تَرَكُوا)

هذه الآية دقيقة جداً، كم تكثيرية.

(كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنّاتٍ وَعُيُونٍ(25)وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ(26)وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ(27)كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ(28))

آيات واضحة جداً.

من مات فاجراً فرح بموته كل شيء:

(فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمْ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ(29))

(سورة الدخان)

بالعكس فرحت السماوات والأرض، لأن المؤمن مبارك والكافر مؤذٍ، مؤذٍ بكل شيء، فإذا مات العبد الفاجر استراح منه كل شيء، فما بكت عليهم السماء، أما المؤمن فأينما وجد يصلي ويسجد ويدعو ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر و يرحم الناس، فأينما سار فله آثار طيبة، فكيفما تكلم له آثار طيبة، وأينما حلّ له آثار طيبة، فبيته مكان للدعوة، ومركبته في خدمة الحق، إنه ينفق ماله في سبيل الله، ومن حوله يحبونه لشدة عطفه عليهم ورحمته بهم، فالمؤمن مبارك والحقيقة دليل صلاح العمل أن الإنسان إذا مات، هل يفرح الناس بموته أم يحزنون ؟ ليجهد الإنسان أنه إذا توفاه الله ليكون له أثر طيب.

إسراف فرعون في ظلم بني إسرائيل:

(فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمْ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ(29)وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ الْعَذَابِ الْمُهِينِ(30))

(سورة الدخان)

كان فرعون يعذب بني إسرائيل عذاباً مهيناً.

(مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِنْ الْمُسْرِفِينَ(31))

(سورة الدخان)

مستعلياً، لقد أسرف في الظلم، ما ظلم فقط ولكنه أسرف في الظلم، طبعاً بلغه بأن طفلاً من بني إسرائيل سوف يقضي على حكمه حيث رأى ذلك في المنام ؛ فعوضاً عن أن يتوب أمر بذبح كل أولاد بني إسرائيل، وأية قابلة لا تبلغ رجال فرعون عن مولود ذكر، تقتل مكان المولود، فالقابلة تبلغ، فيأتي الرجال لذبح المولود، وهذا مبالغة في الظلم.

(إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِنْ الْمُسْرِفِينَ(31))

(سورة الدخان)

إنكار البعث و النشور من قِبل الكفار في كل زمان و زمان:

(وَلَقَدْ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ(32)وَآتَيْنَاهُمْ مِنْ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُبِينٌ(33)إِنّ هَؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ(34))

(سورة الدخان)

قومك يا محمد يقولون:

(إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ(35))

(سورة الدخان)

هذا قول الكفار كلهم، لا يوجد غير الدنيا، و موتة واحدة، نحيا ونموت، فالجنة هنا والنار هنا، والذي معه مال في الجنة، والمحروم من المال في جهنم، فهذه مقولة الناس الجاهلين.

(فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ(36))

(سورة الدخان)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الدخان 044 - الدرس (3-4): تفسير الآيات 37- 50 ، يوم القيامة هو يوم الفصل بين الخلائق

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 19-08-1994

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الكرام: مع الدرس الثالث من سورة الدخان.

العبودية لله عز وجل:

مع الآية السابعة والثلاثين وهي قوله تعالى:

(أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ(37))

(سورة الدخان)

معنى أهم خير أم قوم تبع أي أن قوم تبع كانوا أقوى منكم وكانوا أشد منكم وملكوا أطراف الأرض ومع ذلك أهلكهم الله عز وجل فمن أنتم ؟ هذا كلام دقيق، لو أردنا أن نسحبه على حياتنا المعاصرة، فإن كنت قوياً فقد أهلك الله من هو أقوى منك، وإن كنت غنياً فقد دمر الله مال من هو أغنى منك، وإن كنت ذكياً فقد وقع الذكي في شر عمله، فالإنسان إذا توهم أنه على شيء فقد أشرك، لأن هذا الشيء لو أراد الله أن يمحقه محقه في طرفة عين، وليس لك أي حول ولا أي طول، وهذا المعنى هو معنى العبودية لله عز وجل، إذا كنت على شيء فمن فضل الله، وإذا كنت على جانب من القوة فمن كرم الله، إن كنت على جانب من اليسر فمن إكرام الله لك.

قوة المال و العلم و السلطان من دون إيمان تحمل صاحبها على الطغيان:

(كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى (6) أَنْ رَآَهُ اسْتَغْنَى (7))

(سورة العلق)

الإنسان قبل أن يعرف الله متى يطغى ؟ أن رآه استغنى، أن رأى نفسه قد استغنى، فالقوة في المال، والقوة في العلم، والقوة في السلطان، وهذه من شأنها من دون إيمان أن تحمل صاحبها على العدوان، ولهذا يقول عليه الصلاة والسلام: المؤمن القوي خير وأحب إلى الله تعالى من المؤمن الضعيف. معنى القوي، أي أن القوة من دون إيمان خطرة لأنها تهلك صاحبها، كيف تهلكه ؟ توقعه في الغرور، والقوة تحجب عن الحقائق، والمال يحجب، وكذلك التفوق العلمي في العلوم المادية تحجب، فهناك ثلاث قوى: قوة العلم وقوة المال وقوة السلطان، هذه من دون إيمان من شأنها أن تحمل صاحبها على الطغيان،

ولذلك فالإنسان أحياناً بجهد جاهد قد يصل إلى قمة النجاح ولكن بغفلة يسيرة يقع في الشرك، فيعتد في نفسه ويقول إنما أوتيته على علم عندي، فبلحظة واحدة وبغفلة يسيرة يصبح في الحضيض، فما الذي أهلكه ؟ شركه، وإذا قال أنا فقد هوى، إذا قال نحن (نحن أولو قوة وأولو بأس شديد) فقد هووا، أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين فقد هلك، إنما أوتيته على علم عندي فخسفنا به وبداره الأرض.

من بقي في النعمة ونسي المنعم فقد أشرك بالله:

انتبه إنّ الله عز وجل يعطي ويمتحن، فإن أعطاك شيئاً فلا تنس أن الله هو الذي تفضل عليك به، وكان فضل الله عليك عظيماً، فإذا ملكت النعمة فلا تنس المنعم، وإذا ملكت الذكاء فلا تنسَ أن الله سبحانه وتعالى بقطرة دم لا يزيد حجمها عن حجم رأس دبوس تفقد ذاكرتك، ويختل عقلك، ويتوسط أهلك كي يودعوك في مستشفى الأمراض العقلية، بواسطة وبجهد جاهد، كان قد اشترى هذا البيت ورتبه ونظمه وأولاده يتوسطون الآن كي يضعوا أباهم في مستشفى الأمراض العقلية، فنقطة دم إذا تجمدت في بعض أوعية المخ تزول الذاكرة بأكملها، ويكون هذا المصاب يحمل دكتوراه فتُمْحَى المعلومات كلها، وهكذا زالت شخصية الإنسان وقد أردت من هذه الأمثلة أن أبين بأن الإنسان إذا أعطاه الله شيئاً كنعمة القوة فعليه ألاّ ينسى من أنعم عليه بهذه القوة، وهو في نعمة المال وفي نعمة الصحة، ألاّ ينسى أن الله سمح له بذلك، فإذا بقي في النعمة ونسي المنعم فقد أشرك، وإذا أشرك يؤدب، فكيف يؤدب ؟ يريه الله النعمة بفقدها لا بدوامها، وكان عليه الصلاة والسلام يدعو ربه ويقول: اللهم أرنا نعمك بدوامها لا بزوالها.

شكر النعمة فيه سعادة حينما تعرف قدر المنعم:

أيها الأخوة الكرام: بالشكر تدوم النعم، كان عليه الصلاة والسلام تعظم عنده النعمة مهما دقت، وكم منا من يدخل إلى بيته ومعه مفتاح البيت، وعنده مأوى، وكم ممن لا مأوى له، فلو ذهبت إلى شرقي آسيا فملايين الأسر تنام على قارعة الطريق، هو وزوجته وأولاده، أو في القوارب، فمعك مفتاح، وعندك مأوى، ووجدت ثمن الطعام فهذه نعمة كبرى، وهي أنّه تعالى أطعمك، سيدنا عمر استقبل رسول عامله على أذربيجان فلما استضافه في بيته قال يا أم كلثوم: ما عندك من طعام ؟ قالت: والله ما عندنا إلا خبز وملح، فقال سيدنا عمر: (عملاق الإسلام وخليفة المسلمين): هاته لنا، أكل مع ضيفه خبزاً وملحاً ولما انتهى قال: الحمد لله الذي أطعمنا فأشبعنا، وأسقانا فأروانا. أنت حينما تأكل، كم نوعاً من الطعام ؟ تأكل

ألوانًا مختلفة في بعض الولائم، فهل قلت الحمد لله من أعماق أعماقك للذي أطعمنا فأشبعنا وأسقانا فأروانا. شكر النعمة فيه سعادة، حينما تعرف قدر المنعم.

أي شيء بالجسم لو تعطل يجعل الحياة جحيماً، والله عز وجل يحبك أن تشكره، وألا تنسى فضله، وألا تتعامى عن كرمه، وكان فضل الله عليك عظيماً، وأكبر فضل هو أنه هداك إليه، عرفك بذاته، علم فيك الخير فأسمعك الحق، وهذا فضل كبير، فلذلك: إن الإنسان لو وصل إلى شيء من القوة، الله قد دمر من هو أقوى منه، كلكم يعلم ويرى أحياناً مدينة من أرقى المدن، مدينة سياحية جميلة جداً، دخلها كالبحر، هي على البحر ودخلها كالبحر، زلزال في ثلاث ثوانٍ جعلها قاعاً صفصفاً، فالله كبير، وإذا بلدة فسقت فإنّه تعالى يدمرها، وإذا إنسان فسق فإنه يزلزله، وإذا إنسان تجاوز يرسل إليه مرضاً عضالاً.

ثناء النبي الكريم على ملك التبابعة:

فيا أيها الأخوة الكرام، هذه الآية

(أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبّعٍ)

قوم تبع أي قوم سبأ وتبع أي كان ملكهم، والتبابعة ملوك اليمن، كما أن القياصرة ملوك الروم والأكاسرة ملوك الفرس، كان من هؤلاء الملوك ملكاً صالحاً أراد أن يغزو الجزيرة العربية فوَصل إلى المدينة، وأعلمه بعض العلماء أن هذه المدينة مكان هجرة رسول وسيأتي بعد حين، فامتنع عن غزوها، فلما وصل إلى الكعبة، نبؤوه أيضاً أن هذه الكعبة بيت الله فكساها وأكرمها، فالنبي الكريم كان يثني عليه لأن الأخبار تواترت بأنه كان صالحاً، وبعض الروايات تؤكد أنه كان نبياً.

(أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبّعٍ)

(سورة الدخان)

تبع دمرهم الله بسد مأرب، لأنهم فسقوا.

المعصية تودي بصاحبها إلى الهلاك:

قالوا ربنا باعد بين أسفارنا، والإنسان حين يعصي فلسان حاله يقول: يا رب دمرني، الآية حيرت العلماء، فمعقول أنّ إنسانًا يدعو على نفسه، فبلادهم جنات، وبساتين، وأنهار، وخيرات، إني أراكم بخير، وفرة المواد ورخص الأسعار، إني أراكم بخير، كانت البلاد متصلة، لشدة الرخاء والعمران البساتين والماء والأنهار والينابيع: العمران متصل، فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا، يعني يا رب دمرنا، اجعل أرضنا قاحلة، ودمر هذه البساتين، وجفف هذه الأنهار، إنّه كلام غير معقول، فهذه الآية حيرت

علماء التفسير، فبعضهم قال: الذي يعصي الله لسان حاله يقول: يا رب دمرني، وإذا كان البيت فيه معصية كأنك تقول يا رب دمر هذه الأسرة، وامحق هذا الرزق، إذا دكان فيها بيع طيب وصار فيها معاص، وصار فيها غش، وصار فيها كذب، تحرش بالنساء، فكأن صاحب هذه الدكان يقول: يا رب امحق هذا الرزق، ويا رب دمرني، وهذا لسان حال العاصي، شاء أم أبى.

من يعصِ الله يمحقه و يدمره:

(فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا)

(سورة القصص الآية: 8)

أيعقل أن يلتقط إنسان طفلاً لكي يكون له عدواً، هذه الآية أيضاً حيرت العلماء، هذه اللام لام التعليل فاخترع علماء النحو إعراب لهذه اللام قالوا هذه هي لام المآل، لأنه لا يعقل لإنسان أن يلتقط طفلاً ليكون له عدواً، ولكن في النهاية ما الذي حصل ؟ أن هذا الطفل سيدنا موسى هو الذي قوض عرش فرعون حينما دخل في البحر فتبعه فرعون فأغرقه الله عز وجل، إذا أردت من هذا التفصيل أن الإنسان في بيته ومع زوجته وأولاده وبعمله عندما يعصي على علم، أي يعرف نفسه أنه يعصي، فكأن لسان حاله يقول: يا رب دمرني، وامحق هذا الرزق، و أنشب خلافاً بيني وبين زوجتي، وحينما يتطلع الإنسان إلى غير زوجته ويطلق بصره في الحرام فكأنه يقول: يا رب دمر سعادتي الزوجية، فالله يخلق مشكلات: فكلاهما عندئذ لا يطيق الآخر وكلاهما يتجاوز حدوده مع الآخر، إلى أن يقع الخلاف والخصومة ويدخل الشيطان فيحلف بالطلاق لأتفه سبب ويشرد الأولاد، ولقد كان بيتاً عامراً بذكر الله فصار خرباً من المعصية. فالمعاصي تدمر.

من اعتصم بأقوى مخلوق من دون الله جعل الله الأرض هوياً تحت قدميه:

لذلك:

(أهم خير أم قوم تبع)

(سورة الدخان)

هناك أقوى منك دمره الله، ما من مخلوق يعتصم بي من دون خلقي، أعرف ذلك من نيته، فتكيده أهل السماوات والأرض، إلا جعلت له من بين ذلك مخرجاً، وما من مخلوق يعتصم بمخلوق دوني، أعرف ذلك من نيته، إلا جعلت الأرض هوياً تحت قدميه، وقطعت أسباب السماء بين يديه.

إذا اعتصمت بأقوى مخلوق من دون الله، حصل لك ذلك، ولذلك كلما ازددت خوفاً من الله فهذا يدل على كبر عقلك، وكلما رجح عقلك ازداد خوفك، ورأس كل الحكمة مخافة الله، لا تبعد كثيراً، بل اسمع

الأخبار، ترى كيف أن الله يدمر مدناً، وأقواماً، ويمحق أمماً، و تجارات، وواضحة جداً هذه الأخبار فلو سمعتها عليك أن تسمعها بأذن موحدة، وعليك أن ترى يد الله تعمل في الخفاء، يد الله فوق أيديهم، وعليك أن ترى أن الله في السماء إله وفي الأرض إله، ومالكم من دونه من ولي ولا يشرك في حكمه أحداً، وأن الله خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل، وأنه ما تسقط من ورقة إلا هو يعلمها، فإذا سمعت الأخبار، وقرأتها فعليك أن تفهمها بعقل موحد، افهمها بأن الله وراء كل شيء، وأنه بيده كل شيء، وأنه لا راد لمشيئته، ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، افهم هكذا، ترى تفسيراً رائعاً.

على الإنسان ألا ينسى القرآن الكريم و يغتر بالأقوام الفاسدة:

يمكن أن تشاهد مثلاً حرباً أهلية في بلد، تسمع أخباراً خلال عشر سنوات عن التدمير وعن القتل، يُقتل مئات الألوف، وتدمر الأبنية، ويمكن أن تقرأ مئة تفسير لهذه الحرب ولكن لا تنس تفسير الله لها:

(وَضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللّهِ فَأَذَاقَهَا اللّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ)

(سورة النحل)

تغب عن تفسير الله عز وجل، تغب عن القرآن الكريم فهو يعطيك تفسير أي شيء، حتى لو رأيت أمة متقدمة تتحكم بمعظم الشعوب رخاء، وبيوتًا رخيصة، مواصلات، ومركبات رخيصة، وكل شيء فيها جميل، وكلها خضراء، لا تغتر بهؤلاء:

(لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ(196))

(سورة آل عمران)

من يقرأ القرآن الكريم يطمئن قلبه و ترتاح نفسه:

لا تنس القرآن الكريم:

(مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ(197))

(سورة آل عمران)

(فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُواْ بِمَا أُوتُواْ أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً)

(سورة الأنعام الآية: 44)

لا تنس القرآن، فلو قرأت فيه كل يوم لعشت مع التفسير الصحيح لكل شيء، فلا تغترّ أبداً:

(وَلاَ تَحْسَبَنَّ اللّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ)

(سورة إبراهيم)

(فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ(47))

(سورة إبراهيم)

فهذا القرآن الكريم حين تقرأه يطمئن قلبك، وترتاح نفسك لكلام خالق الكون، يقول لك: أنا يا عبدي أفعل كذا وأفعل كذا، فكن دائماً مع التفسير الديني للأشياء.

من لم يضبط شهوته وفق منهج الله لابد وأن يعتدي على حقوق الآخرين:

(أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ(37))

(سورة الدخان)

لأنهم فسقوا وفجروا ومن لوازم الفسق العدوان، عندما تتحكم بالإنسان شهوته لابد وأن يعتدي على حقوق الآخرين، ولو ضبط شهوته وفق منهج الله، لم يكن معتدياً، ولو ضبط شهوته في حبه للمال أو للنساء أو للعلو في الأرض وفق منهج الله لا يعتدي.

كمال الخلق يدل على كمال التصرف:

ثم يقول الله عز وجل:

(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ(38))

(سورة الدخان)

ما هو اللعب ؟ هو العبث، أو عمل لا طائل منه، فلعب الطاولة، ما نتيجتها ؟ تحررت القدس، أو أسست مشروعاً أو أخذت شهادة عليا، أو ساهمت في حل مشكلة ببلدك، فما معنى اللعب ؟ عمل لا طائل منه، وليس له ثمرة إطلاقاً، عبث، اللعب هو العبث، وربنا عز وجل ينفي أن يخلق الأرض والسماوات لاعباً، بالكون لا يوجد عبث، إله عظيم لا يعبث ولا يلعب، كمال الخلق يدل على كمال التصرف.

(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ (38))

(سورة الدخان)

يعني الكون.

(وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ(38))

(سورة الدخان)

الله عز وجل نفى عن أن يكون خلق السماوات والأرض باطلاً:

الموضوع نجمعه من أطرافه، هناك آية أخرى:

(وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً)

(سورة ص الآية: 27)

فربنا عز وجل نفى عن أن يكون خلق السماوات والأرض باطلاً، ونفى أن يكون خلق السماوات والأرض لعباً، فإذا عرفنا ما اللعب وما يقابله، وإذا عرفنا ما الباطل وما يقابله، أي أن الله عز وجل خلق السماوات والأرض بالحق، ما خلقها باطلاً ولا لعباً، فالحق هو ما يقابل اللعب وما يقابل الباطل، والباطل الشيء الزائل، فمن الممكن أن ننشئ جناحاً في المعرض من قماش من أجل 20 يوماً فقط، أما إذا أردنا أن نبني بناء يبقى مئات السنين، نبنيه من الحجر، فإنشاء بناء ليعيش مئات السنين، غير إنشاء جناح في معرض من أجل 20 يوماً فقط، فالباطل الشيء الزائل، أما الحق فالشيء الدائم الأبدي السرمدي، فاللعب الشيء العابث أما الحق فهو الشيء الجاد، فاجمع اللعب والباطل وما يقابله من الدوام والجدية، تجد الحق أن تعمل عملاً نبيلاً ثابتاً، فيه الثبات والسمو، والاستمرار والعظمة.

من أراد الآخرة عليه أن يعمل لها في الدنيا:

أحياناً يحتار الإنسان، يقول لك ما هذه الحياة ؟ حتى استقر وضعه بالأربعين، ومن الأربعين للخمسين استكمال تثبيت مكانة واستكمال تركيز أوضاع، ومن الخمسين إلى الستين كلها متاعب صحية، الميزان نزل، ومعترك المنايا بين الستين والسبعين فهذا إذا وصل إلى الستين، فحالياً لم يعد له إلا القليل فهل من المعقول ثلثا العمر إعداد والثلث الثالث متاعب، وكل هذا الكون من أجل عشر سنوات، إذْ لا يتناسب الكون معها، مجرة تبعد عن الأرض أربعاً وعشرين ألف مليون سنة ضوئية، يوجد في الكون مليون مليون مجرة وكل مجرة فيها مليون مليون كوكب، فهذ شيء عجيب جداً فمن أجل عشر سنوات، انظروا إذا كنت مخطئاً، هذه النعوات أمامكم، كلما رأيت نعوة اسأل ما عمر صاحبها ؟ الجواب 53، 42، 39، 47،63 فهذا الأخير معمر، فمتى استقر ؟ ومتى تزوج ؟ متى أصبح له دخل ثابت ؟ وركز مكانته ؟ بالأربعين أو بالخامس والأربعين، كون من أجل عشر سنوات ؟ لا يتناسب، فلا يتناسب أن تعمر غرفة ضمن معرض من البيتون المسلح سماكة الحائط 1 م من أجل عشرة أيام ثم تهدمها بالمهدّة الآلية، إنه عمل غير عاقل، فإذا كان الشيء مديداً فيجب أن يكون الهدف كبيراً.

كل إنسان مخلوق ليحاسب إما إلى جنة أو إلى نار:

ربنا عز وجل قال:

(أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا)

(سورة المؤمنون الآية: 115)

أي لعباً:

(أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى)

(سورة القيامة)

حياة دنيا تنتهي بالموت وانتهى كل شيء، وهذا ظن الجاهل، والإنسان مخلوق ليحاسب، جاء الله بك إلى الدنيا لتعرفه وتعرف منهجه وتطبقه، وسوف تحاسب عن كل حركة و سكنة، وسوف تلقى جزاء العمل في جنة يدوم نعيمها أو في نار لا ينفد عذابها.

الموت بداية الحياة عند المؤمن:

(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ(38))

(سورة الدخان)

يوجد آية أخرى:

(ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا (27))

(سورة الدخان)

فالذي يؤمن بالعبثية والزوال وأن الموت نهاية الحياة وأن لاشيء بعد الموت فهو كافر، بأوسع معاني هذه الكلمة، لكن الموت بداية الحياة.

(يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي (24) فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ (25) وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ (26))

(سورة الفجر)

المؤمن الحق لا يفرح إلا بعطاء الله:

الحياة الآخرة هي الحيوان أي هي الحياة الحقيقية لو كانوا يعلمون، وهي الحياة الحقيقية التي خلقت من أجلها، إنها حياة لا يوجد فيها قلق ولا حر ولا برد ولا هرم ولا مرض.

((أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ))

[متفق عليه عن أبي هريرة]

(لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلْ الْعَامِلُونَ(61))

(سورة الصافات)

(وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسْ الْمُتَنَافِسُونَ(26))

(سورة الصافات)

(قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ)

(سورة يونس)

والمؤمن الحق لا يفرح إلا بعطاء الله، العطاء الأبدي السرمدي، أما العطاء الدنيوي فهو زائل، ولا يسمى هذا عطاء.

الهدف من خلق السماوات و الأرض إسعاد الخلق:

(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ(38))

(سورة الدخان)

أي خلقنا السماوات والأرض بالحق لهدف كبير وهو إسعاد الخلق، فبالكون تتعرف إلى الله وإن عرفت الله وعرفت منهجه واتبعت منهجه سعدت بقربه في الدنيا والآخرة، هذا ملخص الملخص.

(مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ (39))

(سورة الدخان)

لهدف كبير ودون عبث أو لعب:

(وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ(39))

(سورة الدخان)

جئت لا أعلم من أين ولكنــي أتيت !

ولقد أبصرت أمامي طريقاً فمشيت

أين كنت ؟ أين صرت ؟ أين أبصرت طريقي ؟ لست أدري.

كيف لا تدري والقرآن بين يديك ؟ هذا حمق، وتردد كلمة لا أدري والله عز وجل يبين لك:

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)

(سورة الذاريات)

الفرق بين الحياة الدنيا و الحياة العليا:

الآية واضحة كالشمس.

(إ لاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ)

(سورة هود الآية: 119)

(يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي(24))

(سورة الذاريات)

الله يميز بين الحياة الدنيا والحياة العليا واحدة دار عمل وتكليف والأخرى دار استقرار وتشريف ونعيم مقيم، الأولى حياة نظامها الكسب والسعي وبذل الجهد والكدح.

(يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ(6))

(سورة الانشقاق)

فهناك النظام:

(لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ (16))

(سورة الفرقان)

إنه اختيار فقط ولمجرد أن يقع في ذهنك طلب تراه أمامك.

(مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ(39))

(سورة الدخان)

فأكثرهم لا يعلمون.

يوم القيامة هو يوم الفصل بين الخلائق:

(إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ(40))

(سورة الدخان)

كم فرقة وكم اتجاه وكم مبدأ وكم جماعة في الأرض الآن، خذ قارة قارة: مئات الجماعات كل جماعة لها مبدأ ولديها أدلة، إذاً من على الحق ؟ أمر يحير، المسلمون آلاف الفرق والنصارى آلاف الفرق وكذلك اليهود بالإضافة إلى البوذيين والسيخ والهندوس وديانات إفريقيا وأمريكا اللاتينية، كم دين يوجد في الأرض وكم اتجاه وكم فئة وكم حزب...... فمن يا ترى من هؤلاء على حق ؟ يجيب تعالى ؟

(إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ(40))

(سورة الدخان)

ففي هذا اليوم يفرز فيه كل الخلق، هذا على حق والآخر على باطل.

(إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ(40))

(سورة الدخان)

الفصل بين الخلائق، كل يدعي أنه على حق، من هو صاحب الحق.

في الدنيا مقاييس تدل الإنسان على الله عز وجل هي:

1 ـ الكون:

في الدنيا مقاييس، ولندخل الآن في هذا المقياس: الشيء الثابت الكون، قال ديكارت أنا أفكر فأنا موجود، لدينا شيء ثابت هو الكون فالشمس ثابتة والقمر والليل والنهار والأرض، الجبال، والبحار، والنباتات، والأسماك، والأطيار، وجسمك، وقلبك، ورئتاك، فأنت أمام آلاف الآيات الدالة على عظمة الله، يوجد لهذا الكون خالق، مربٍ، ومسير، وموجود، وواحد كامل. وكل ما في الكون يدل عليه، يدل على وجوده، وعلى كماله، وعلى وحدانيته، هذه ثابتة ولا يستطيع إنسان كائناً من كان أن ينقض هذه الحقيقة، الصنعة تدل على الصانع، والتسيير يدل على المسير، والخلق على الخالق، والتربية على المربي، والنعمة على المنعم، فهذا هو الخالق العظيم، وكمال الخلق من لوازمه كمال التصرف، أيعقل لإله عظيم خلق فسوى وقدر فهدى أن يدع عباده بلا توجيه، ولا منهج، ولا نظام، وأن ينساهم وأن يدعهم هملاً.

2 ـ القرآن الكريم:

والآن دخلنا في موضوع المقياس: الكون ثابت، كل ما في الكون يدل على الله، وعلى أنه خالق، ومرب، ومسير، واحد وكامل وموجود، وجيد، فالله موجود وخلقه كامل ومعجز فمن لوازم خلقه المعجز الكامل وتصرفاته الكاملة، أيعقل أن يبقى الناس بلا منهج ؟ ولا دليل ؟ فمثلا وزارة مواصلات تشق طريقاً وبعد فترة تضع إشارات تحذيرية للمنعطفات ولكل ما يجب تنبيهاً السائق، لوحات مختلفة وإلا تكثر الحوادث، إذاً بعد أن شق الطريق وضعنا إشارات لتنبيه الناس، الله عز وجل نور السماوات والأرض أي خلق الكون ونوره بالوحي أرسل كتاباً وهو لا يقل عن الكون، الحمد لله الذي خلق السماوات والأرض، الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب، فالكون في كفة والقرآن في كفة أخرى، منهج وهذا المنهج من عند الله، وما الدليل على أن هذا الكتاب هو من عند الله ؟ هنالك دليل قطعي: إعجازه: ففيه إعجاز إخباري لغيب الماضي، ولغيب الحاضر والمستقبل، ففيه إعجاز علمي، وإعجاز تشريعي، وبياني، وتربوي، فإذا كان الأمر يهمك هناك مليون دليل على أن هذا القرآن هو كلام الله، ومستحيل لمخلوق مهما علا أن يأتي بمثله، ولو اجتمعت الأمة على ذلك، هذا شيء ثابت آخر.

3 ـ النبي و كلامه:

والذي جاء بهذا الكتاب هو رسول قطعاً فما دام هذا معجزاً فالذي جاء به رسول، فأصبح لديك ثلاثة ثوابت: فالكون ثابت، والقرآن ثابت، والنبي وكلامه (ما صح عنه بالتمام فهو ثابت) وأصبح لديك قرآن وسنة، فأي شيء تسمعه ولو كان مليون مقولة تعرضها على القرآن والسنة فإن وافقت الكتاب والسنة فهي صحيحة.

من جرّ الحقائق إلى صالحه ولعب بالأفكار فحسابه يوم القيامة:

يوجد لدينا أدلة قبل يوم الفصل، وأما إذا كان هناك تعنت.

(إِنّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ(40))

(سورة الدخان)

وإذا كان فيه تعنت وفيه مكابرة وجرّ الأمور لمصلحة جهة معينة، فالإنسان يتحرك بعض الأحيان لا وفق قناعاته بل وفق مصالحه، فيزين فكرة لغاية في نفس يعقوب ويرفض فكرة لغاية في نفس يعقوب، هذا الرفض لا قيمة له والقبول لا قيمة له، لأنه قبول مصلحي و رفض مصلحي.

من أراد معرفة الحقيقة تعرّف عليها في الدنيا قبل يوم الفصل:

لو أردت الحقيقة وأنت في الدنيا وقبل أن تصل إلى يوم الفصل فتعرفها، من الثوابت: الكون ثابت والقرآن ثابت وكلام النبي ثابت، هذا هو الحق. تركت فيكم اثنين ما إن تمسكتم بهما فلن تضلوا بعدي أبداً: كتاب الله وسنة نبيه. وبكل قضية تسمع أحياناً فكرة، وتقرأ مقالة في مجلة، وتسمع محاضرة، اِعْرِضْ هذا على كتاب الله، فأهم عمل تفعله وقبل كل شيء، وقبل أن تأكل أن تفهم كلام الله، لأنه هو المقياس، هو الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وهو الكتاب المقرر، فيه النجاة، فلذلك عندما يجلس الإنسان في مجلس علم ليفهم كلام الله يقوم بأخطر عمل في حياته، ولا شيء يعلو على هذا العمل إطلاقاً، أنت الآن تتعلم كلام الله، فهو منهجك، ومقياسك، فلو أردت الحقيقة تعرفها في الدنيا قبل يوم الفصل، لو أردتها صادقاً، لو أردتها مخلصاً، تعرفها قبل يوم الفصل، لكن لو ركب الإنسان رأسه وجر الحقائق إلى صالحه ولعب بالأفكار وزور ودجل وحاور لمصلحة يريدها، هذا يقول له حسابه يوم الفصل.

(إِنّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ(40)يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَنْ مَوْلًى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ(41))

(سورة الدخان)

يوم القيامة يأتي كل إنسان ربه فرداً:

الحياة الدنيا مبنية على العلاقات والجماعات والتحزبات والكتل، هذا من جماعتنا وهذا ضدنا وهذا معنا وهذا ليس معنا وهكذا الحياة الدنيا، لكن يوم القيامة: يا فاطمة بنت محمد، يا عباس عم رسول الله، أنقذا نفسيكما من النار، أنا لا أغني عنكما من الله شيئاً، لا يأتيني الناس بأعمالهم وتأتوني بأنسابكم، من يبطئ به عمله لن يسرع به نسبه:

(أَفَمَنْ حَقّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنقِذُ مَنْ فِي النّارِ(19))

(سورة الزمر)

يا محمد، تنقذ من في النار.

(يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا ِ(19))

(سورة الزمر)

يا رسول الله أيعرف بعضنا بعضاً يوم القيامة ؟ قال نعم يا أم المؤمنين، إلا في أربعة مواطن.... وفي غير هذه المواطن قد تقع عين الأم على ابنها، تقول له يا بني: جعلت لك صدري سقاء وبطني وعاء وحجري وطاء فهل من حسنة يعود علي خيرها اليوم ؟ يقول هذا الابن لأمه يوم القيامة: ليتني أستطيع ذلك، إنما أشكو مما أنت منه تشكين.

(يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا ِ(19))

(سورة الزمر)

لذلك الإنسان أحياناً كل الدنيا مبنية على أن هناك جماعة محيطة بإنسان، يوم القيامة يأتي كل إنسان ربه فرداً.

(وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوّلَ مَرّةٍ (94))

(سورة الأنعام)

رحمة الله عز وجل خير للإنسان يوم القيامة من كل أهل الدنيا:

الإنسان يسافر بعض الأحيان إلى بلد لا يعرفه فيه أحد، شخص عادي، قد يكون في بلده معروفاً ومخدوماً ومعززاً ومكرماً، بهاتف يحل ألف مشكلة، أما في بلد آخر لا أحد يعرفه والآخرة هكذا:

(وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوّلَ مَرّةٍ (94))

(سورة الأنعام)

(إِنّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ(40))

(سورة الدخان)

لا يوجد هناك جماعات ولا تحزبات ولا تكتلات ولا وساطات:

(يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَنْ مَوْلًى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ(41)إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ(42))

(سورة الدخان)

إلا من رحم الله طبعاً رحمة الله خير للإنسان من كل أهل الدنيا.

(وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ(32))

(سورة الزخرف)

من مشاهد يوم القيامة:

1 ـ شجرة الزقوم طعام الأثيم:

(إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ(43)طَعَامُ الْأَثِيمِ(44))

(سورة الدخان)

الآن مشهد من مشاهد النار، هذه الشجرة تنبت في البادية من أخبث أنواع الشجر، قال هي طعام الأثيم، الذي وقع في الإثم والمعصية في الدنيا.

2 ـ الزيت المغلي:

(كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ(45))

(سورة الدخان)

المهل عكر الزيت والزيت إذا غلى، فدرجته عالية جداً، يحترق فيه الشيء فوراً، والزيت المغلي لا يحتمل.

3 ـ سوق الكافر إلى منتصف الجحيم:

(كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ(45)كَغَلْيِ الْحَمِيمِ(46)خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ(47))

(سورة الدخان)

عتالة و أما المؤمن يأتي ربه كالوفد وأما الكافر يعتل عتالة كأنه من سقط المتاع:

(خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ(47))

(سورة الدخان)

أي إلى منتصف الجحيم.

4 ـ عذاب الجحيم:

(ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ(48)ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ(49))

(سورة الدخان)

أي كنت في الدنيا عزيزاً، أخذته العزة بالإثم، يعني مثلاً لا يصلي، اتبع جنازة والجنازة دخلت إلى المسجد ليصلى عليها فهو أكبر من أن يصلي بالمسجد، بل أكبر بكثير، وقف خارج المسجد ليدخن وينتظر إلى إن تخرج الجنازة.

(ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ(49))

(سورة الدخان)

أي كما قال عليه الصلاة والسلام: ألا يا رب نفس طاعمة ناعمة في الدنيا، جائعة عارية يوم القيامة، ألا يا رب نفس جائعة عارية في الدنيا، طاعمة ناعمة يوم القيامة، ألا يا رب مكرم لنفسه وهو لها مهين، ألا يا رب مهين لنفسه وهو لها مكرم.

من يعصِ الله لكرامة مزعومة وسلامة موهومة فالنار مثوى له:

أحياناً الإنسان يوضع في موقف حرج، لو صدق لتزلزل، يؤثر أن يصدق وأن يتزلزل على أن يغضب الله عز وجل، ولكن الله ينقذه، ويكرمه، أحياناً الإنسان محافظة على ما يتوهم أنه سلامة وكرامة يعصي الله، فمحافظة على سلامته الموهومة وعلى كرامته المزعومة يعصي الله، فإذا عصى الله يقال له يوم القيامة:

(ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ(49))

(سورة الدخان)

أنت لكرامة مزعومة ولسلامة موهومة عصيتني لذلك الله عز وجل يقول له هذه الكلمات كي يرى أنه اختار الأسوأ وحينما كان في الدنيا.

(إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ(50))

(سورة الدخان)

الغارق في المعاصي ينفي الدار الآخرة ليتحرك حركة عشوائية:

عندما يغرق الإنسان في المعاصي لكي يتوازن مع نفسه يقول لك: من مات ورجع وقال لك أنه في آخرة ؟ حتى يتوازن، و أكثر الأشياء راحة نفي الدار الآخرة ؛ لأنه إذا نفى الدار الآخرة فقد نفى الجزاء والحساب، عندئذ يتحرك حركة عشوائية، ويأكل مال هذا، ويشتم ويعتدي على هذا، ويغتصب ويطغى

ويبغي، فصعب على الإنسان أن يتطاول ويأخذ ما ليس له إذا كان عنده يقيناً وأن هناك حساباً، ولذلك فأركان الإسلام خمسة: الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وأكثر ركنين بالإيمان متلازمين الإيمان بالله و اليوم الآخر. إذا ألغيت اليوم الآخر يقيناً عندها لا توجد استقامة، وتصبح الدنيا كل شيء، فالحقيقة الإيمان باليوم الآخر من لوازم الإيمان بالله، عندئذ كل عمل يقيم وفق ساعة الحساب يوم القيامة.

الإيمان باليوم الآخر من لوازم الإيمان بالله:

أيها الأخوة، كما قلت قبل قليل الإيمان بالله واليوم الآخر يتلازمان في أكثر سور القرآن، الإيمان باليوم الآخر أن تؤمن أن هناك حياة أبدية سرمدية هي الحياة الحقيقية وهي الحياة التي خلقت من أجلها، لذلك إذا آمنت باليوم الآخر تجعل هذه الحياة الدنيا مدرسة للآخرة، حياة إعدادية لمدرسة عليا أبدية فلذلك التناقض من أين يأتي ؟ يأتي التناقض والهم والحزن من اعتبار الحياة الدنيا هي الحياة الأساسية، لذلك النقص مزعج، نقص المواد، وارتفاع الأسعار، ونقص شيء في الصحة، وعدم التوفيق في زواجه وفي عمله، هذه الهموم يراها كبيرة ساحقة لأن آماله كلها في الدنيا، لو أنه نقل أهدافه وآماله واهتماماته إلى الآخرة، كل شيء في الدنيا يرضيه لأن الحياة مؤقتة: عش في الدنيا كأنك مسافر، عندما يسكن الإنسان في بيت شهراً واحداً بمصيف، يكون فيه أخطاء كثيرة جداً ونواقص كثيرة جداً لا يعبأ بها أبداً، هو جاء استجماماً فأي شيء فيه نقص أو خلل أو خطأ يتجاوزه لو أردت أن تعيش الدنيا كما تعيش شهراً في مصيف تحل كل المشكلات، لأن الحياة مؤقتة، والشيء الذي يلفت النظر أن الإنسان أحياناً يهيئ بيتًا لا يسكنه، وينال شهادة لا يستفيد منها فالمنايا بالمرصاد، لا يجد إنساناً لديه ضمانة أن يعيش بعد ساعة وكل إنسان يموت لديه أمل يعيش عشرين سنة قادمة، فالموت يأتي بغتة والقبر صندوق العمل والدنيا ساعة فاجعلها طاعة والنفس طماعة عودها القناعة، أي لابد من نقل الاهتمامات لليوم الآخر، ولابد من الإيمان باليوم الآخر إيماناً حقيقياً، أن تجعل هذا اليوم محط الرحال ونهاية الآمال، لذلك الدنيا مقبولة في أي وضع، النبي قال: اخشوشنوا فإن النعم لا تدوم.

من نقل أهدافه الحقيقية للدار الآخرة يسعده كل شيء:

تلاحظ إنساناً يجد الحياة الدنيا أكبر همه، ولذلك فأي نقص في المواد أو بالدخل يخرجه من جلده، تجده ناقماً دائماً كثير الشكاية يرى أن المال كل شيء، والطعام الطيب كل شيء، والبيت الواسع كل شيء، الزوجة، النزهة، هذا مبلغه من العلم أما لو نقل أهدافه الحقيقية للدار الآخرة يسعده كل شيء ويرضى

بكل شيء، إن هذه الدنيا هي دار التواء لا دار استواء، ومنزل ترح لا منزل فرح، من عرفها لم يفرح برخاء ولم يحزن لشقاء، قد جعلها الله دار بلوى وجعل الآخرة دار عقبى، فجعل بلاء الدنيا لعطاء الآخرة سبباً وجعل عطاء الآخرة من بلوى الدنيا عوضاً فيأخذ ليعطي ويبتلي ليجزي.

في درس قادم إن شاء الله تعالى نتابع تفسير هذه الآيات أما من حكمة ربنا عز وجل بعد كل مشهد من مشاهد العذاب هناك مشهد من مشاهد أهل الجنة.

(إِنّ الْمُتّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ(51)فِي جَنّاتٍ وَعُيُونٍ(52)يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ(53)كَذَلِكَ وَزَوّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ(54))

(سورة الدخان)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الدخان 044 - الدرس (4-4): تفسير الآيات 51- 59 ، مشهد من أهل الجنة و أهل النار

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 26-08-1994

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الكرام: مع الدرس الرابع والأخير من سورة الدخان، ومع الآية الواحدة والخمسين.

العاقل من اختار الجنة لا النار المحرقة:

أيها الأخوة الكرام، يبين سبحانه وتعالى في المقطع الأخير من سورة الدخان مشهدين من مشاهد يوم القيامة، مشهداً لأهل النار ومشهداً لأهل الجنة وقبل أن نمضي في الحديث عن هذين المشهدين، لابد من مقدمة.

أيها الأخوة: نحن الآن في الحياة الدنيا وبعد الحياة الدنيا تأتي الآخرة، ونحن في الحياة الدنيا مخيرون فمن إمكاناتنا أن نؤمن أو لا نؤمن، أن نستقيم أو أن لا نستقيم، أن نحسن أو أن نسيء، هذا ضمن خيارات الإنسان، وربنا جل جلاله يبين المقدمات والنتائج، فمن فعل هذا في الدنيا، فهذه نتيجته، فهل يوجد عاقل واحد يستعمل عقله ولو ساعة من الزمن يحتار بين عمل نتيجته نار محرقة إلى أبد الآبدين، وعمل نتيجته جنة عرضها السماوات والأرض.

الآلام في الدنيا لها وظيفة أبعد من وظيفتها الآنية:

أيها الأخوة الكرام: اليوم الآخر يجب ألا يغيب عن أذهان كل مسلم، ولا لحظة، الآن في حركته اليومية: سيعامل زوجته، ماذا أمر الله وماذا نهى ؟ إن فعل ما أمر فمصيره إلى الجنة، إن فعل ما نهى وأصر على فعله فمصيره إلى النار، ففي كسب المال، وفي إنفاقه، وفي كل حركاته و سكناته، ربنا سبحانه وتعالى يقول:

(إن شجرة الزقوم (43) طعام الأثيم(44))

(سورة الدخان)

أي الله عز جلاله يقرب إلينا الأشياء التي لا نحبها من أجل أن نقيس عليها ما في الآخرة من عذاب، بالمناسبة لدينا أشياء في الحياة، في الحياة آلام: ألم الحرق، وألم الفقر، وألم الذل، وأشياء مسعدة: الصحة، والجمال، والكمال، والنوال، لماذا كانت هذه الأشياء المزعجة في الدنيا ؟ ولماذا كانت هذه الأشياء المسعدة في الدنيا ؟ من أجل أن الله سبحانه وتعالى إذا حدثنا عن شيء في الآخرة يكون لهذا

الحديث معنى، الدليل: إذا ذاق الإنسان ألم الحرق، فالطفل الصغير لا يعرف ما الحرق، يقترب من المدفأة، فإذا لامست يده جدار المدفأة يصيح مذعوراً، الآن ماذا حدث ؟ خبرة مؤلمة، فكل شيء متعلق بالنار والمدفأة يبتعد عنه بسبب هذه الخبرة، فإذا قلت له بعد حين، هذا الشيء يحرق يخاف، كلمة يحرق أثارت عنده خبرات مؤلمة، لذلك الآلام في الدنيا والأشياء المسعدة والسارة في الدنيا، لها وظيفة أبعد من وظيفتها الآنية، وظيفتها البعيدة أن الله سبحانه وتعالى إذا حدثنا عن عذاب النار وعن طعام أهل النار وعن شرابهم وعن حريقهم ففي الدنيا نار ونار الدنيا تحرق، والحريق مؤلم جداً، الحر لا يحتمل، موجة حر ارتفاع خمس درجات زيادة عن المعدل أو عشر درجات لم يحتمل الناس هذا، فكيف بألم الحريق.

الأشياء المسعدة والسارة في الدنيا لها وظيفة أبعد من وظيفتها الآنية:

بالمقابل الله عز وجل، خلق أشياء جميلة، لماذا هذه الأشياء الجميلة ؟ خلق أماكن جميلة، وأشخاصاً حسان الوجوه، وأعطى الطعام نكهة طيبة، هذه الأشياء الجميلة لتكون مرتكزات فيما لو أن الله سبحانه وتعالى حدثنا عن أحوال يوم القيامة، عن أحوال أهل الجنة، لهذه الكلمات مرتكزات، تصور إنساناً لم ير البحر أبداً ولم ير صورته أبداً فمثلاً لو لم نُر إنساناً صورة البحر، ولا صوت موجه، ولا منظره، ولا تعامل معه، ولا ركبه، قل أمامه كلمة بحر مرة، مرتين، ثلاثاً... مليونًا. فهذه الكلمة تعني باء وحاء وراء، ثلاثة حروف لا تعني عنده شيئاً، أي ربما خاف من البلل من كأس ماء ولم يخف من البحر، ولكن لو أن الإنسان رأى البحر أو ركبه، أو رأى أمواجه الهائجة، أو استمتع بمنظر البحر، أو خاف منه، فهذه كلها خبرات: خبرات مسعدة ومؤلمة بعد حين كلمة بحر تثير عنده كل هذه الخبرات.

الإنسان في الدنيا لا يزال في بحبوحة التوبة و العفو و المغفرة:

لذلك في التربية أخطر أنواع التعليم، التعليم اللفظي، إنه كلمات جوفاء لا معنى لها، يقرأ الإنسان كتاباً ويحفظه غيباً وينساه بعد الامتحان، لأنه تعليم لفظي، أما إذا فيه خبرات عملية، أية كلمة تغطي هذه الخبرة لو أعيدت لأثارت كل هذه الخبرات، فلذلك الأشياء المؤلمة والأشياء المسعدة في الدنيا لها وظيفة بعيدة أنها تصبح مرتكزات لوصف أهل الجنة ووصف أهل النار، أليس في الأرض أماكن جميلة ؟ جبال خضراء ؟ بحار صافية ؟ أليس في الأرض وجوه جميلة ؟ وطعام طيب ؟ هذا كله مرتكزات فيما لو أن الله سبحانه وتعالى حدثنا عن أهل الجنة وعن أهل النار، المشكلة أننا اليوم في الحياة الدنيا، نحن

في بحبوحة التكليف و بحبوحة الاختيار والتوبة والمغفرة والعفو، كل هذا الآن ممكن، لو جئتني عبدي بملء السماوات والأرض ذنوباً غفرتها لك ولا أبالي.

الذنوب الاعتقادية والسلوكية مصيرها إلى النار و الأعمال الطيبة مصيرها إلى الجنة:

الآن:

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرّحِيمُ (53))

(سورة الزمر)

(نَبّئْ عِبَادِي أَنّي أَنَا الْغَفُورُ الرّحِيمُ (49))

(سورة الحجر)

إذا تاب العبد توبة نصوحاً، أنسى الله حافظيه والملائكة وبقاع الأرض كلها خطاياه وذنوبه. إذاً فالدرس خطير جداً لأنه نحن في بحبوحة: بحبوحة أننا أحياء، بحبوحة أن الله سبحانه وتعالى أعطانا الاختيار، وأن الإصلاح ممكن، والتوبة، وإصلاح الماضي ممكن، فربنا عز وجل يصف لنا الآن أحوال أهل النار الذين وقفوا موقفاً سلبياً من الحق، أي الذين عارضوا الحق وأرادوا نشر الباطل وأوقعوا بين الناس، والذين كسبوا أموالهم بالحرام، كل هذه الذنوب الاعتقادية والسلوكية مصيرها إلى النار، وكل الأعمال الطيبة الاعتقادية والسلوكية مصيرها إلى الجنة.

تذكير الله عز وجل المؤمنين بأن طعام أهل النار من شجرة الزقوم:

(الزقوم)

شجر خبيث ليس في الجزيرة أخبث منه، فربنا عز وجل ذكر المؤمنين أو ذكر قراء القرآن الكريم بأن طعام أهل النار من هذه الشجرة.

(إن شجرة الزقوم (43) طعام الأثيم(44))

(سورة الدخان)

فالإنسان أحياناً جائع يريد أن يأكل وقد لا يجد إلا طعاماً لا يؤكل فهو بين ألم الجوع وبين ألم تناول هذا الطعام.

(إن شجرة الزقوم (43) طعام الأثيم(44))

(سورة الدخان)

من هو؟

(الأثيم)

الأثيم على وزن فعيل هو الآثم الذي يرتكب الإثم والمعصية، فأنت أمام منهج، في كل حركاتك وسكناتك، فإذا تعاملت مع نفسك خلاف منهج الله هذا إثم، وإذا قصرت في أداء العبادات هذا إثم، وإذا قصرت في معاملة الخلق فيما عليك من واجبات هذا إثم، وإذا اعتديت هذا إثم أشد، وإذا أخذت ما ليس لك هذا إثم أشد وأشد:

(إن شجرة الزقوم (43) طعام الأثيم(44))

(سورة الدخان)

لكل إنسان منهج يسير عليه فمن قصّر في واجباته فالنار مثوى له:

المؤمن عليه أن يعرف ما هي الآثام ؟ ما الأعمال التي إذا فعلها كانت إثماً وكان هو آثماً أو كان أثيماً؟ والأثيم صيغة مبالغة، معنى مبالغة: أي أعماله الآثمة متعددة، أو ارتكب عملاً أثيماً كبيراً، المبالغة إما في الكم وإما في النوع، في النوع ارتكب عملاً في منتهى الإثم، أما أثيم في المعنى الآخر ارتكب أعمالاً كثيرة، فطبعا الأثيم غير الآثم، والإنسان إذا ارتكب إثماً واحداً يقال له آثم، وأما إذا ارتكب مجموعة ذنوب صار أثيماً أو ارتكب إثماً كبيراً جداً يقال عنه إنه أثيم - على وزن فعيل - صيغة مبالغة اسم الفاعل قال:

(إن شجرة الزقوم (43) طعام الأثيم(44))

(سورة الدخان)

هنالك آية أخرى تذكرنا في هذا المعنى:

(لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ (6))

(سورة الغاشية)

ضريع: شوك.

(طعام الأثيم(44))

(سورة الدخان)

هذه الشجرة.

الزيت المغلي عذاب الكافر يوم القيامة:

ثم قال:

(كالمهل يغلي في البطون(45))

(سورة الدخان)

أي أن الإنسان أحياناً يصب كأس شاي حار جداً ويظن بأن الحرارة معتدلة فيشرب شربة كبيرة، ويبقى يومين أو أكثر ولسانه محروق، إذا كان الكأس أحر مما ينبغي، وأحياناً يتناول طبق حساء، من الوعاء رأساً فيشرب ملعقة واحدة فيحترق لسانه، فكيف إذا تناول زيتاً مغلياً:

(كالمهل يغلي في البطون (45) كغلي الحميم(46))

(سورة الدخان)

الحقيقة عذاب الحريق لا يحتمل، والسائل الحار، وأحيانا الغاز الحار، ولهب النار كلها لا يحتمل.

(كغلي الحميم(46) خذوه فاعتلوه إلى سواء الجحيم(47))

(سورة الدخان)

أي الإنسان المجرم حتى في الدنيا إذا وجِدَ إنساناً مرتكب جريمتين أو ثلاثًا وكان مختفيا ثم ألقي القبض عليه كيف يساق إلى دوائر الأمن ؟ تفضل مثلاً أو شرف ! لا يقال له شرف أو تفضل بل لابد من خمسين أو ستين ضربة أثناء السوق، وهذا الضرب والإهانة تتناسب مع جريمته.

من هان أمر الله عليه هان على الله:

ربنا قال:

(خذوه فاعتلوه (47))

(سورة الدخان)

كأنه شيء هين رخيص، لأنه في الدنيا لم يعرف الله، في الدنيا لم يطع أوامره، فصار على الله هيناً، والشيء الذي أقوله دائماً: مرة حدثني أخ قال كنت ببلد من بلاد أوروبا الشرقية أقسم لي بالله أنه غادر المدينة التي يقيم فيها إلى المطار الساعة الثانية ليلاً ؛ حيث أن إقلاع الطائرة الساعة الثالثة أو الرابعة، جذب نظره في أيام الشتاء القارس طابور طوله 5 كم فسأل السائق ما القصة ؟ في أيام الشتاء، صقيع، ثلج برد والناس واقفون لخمسة كيلو متر الساعة الثانية بعد منتصف الليل، فأجاب: قالوا إن غداً الساعة الثامنة هنالك توزيع لحم، كان تعليقي على هذا الخبر: هان أمر الله على الناس فهانوا على الله.

بإمكانك أن تفسر أكثر ما يعاني منه المسلم حينما يهون أمر الله عليه هونه على الله فالإنسان بقدر طاعته لله يغلو على الله عز وجل، الناس رجلان بر تقي كريم على الله وفاجر شقي هين على الله، معنى كريم أي أن حياتك مقدسة، زواجك، عملك كلاهما مقدسان، كرامتك محفوظة، رأسك مرفوع، لا يذلك الله عز وجل، ولا يجعل كافراً له عليك سلطان، ولا يجعلك تقف و تتضعضع أمام إنسان قوي أو إنسان غني، الله كريم وعزيز والعزيز من كان معه فهو عزيز، فلذلك لما يهون الإنسان عليه أمر الله، يهون هو على الله.

(خذوه فاعتلوه (47))

(سورة الدخان)

الإنسان بقدر طاعته لله يغلو على الله عز وجل:

شتان بين إنسان يدعى إلى حفل ليُكرم تجد أنهم يسألونه أن يرسلوا له من يأخذه ويُستقبل من أبعد مكان، ويُشيع إلى باب السيارة، ويُعظم، ويُكرم، ويُثنى عليه، ويُطلب منه الدعاء، وهذا تكريم، ولما يكون الإنسان مجرماً يساق إلى السجن مع الركل والضرب والوخز وما شابه ذلك.

(خذوه فاعتلوه إلى سواء الجحيم(47))

(سورة الدخان)

أي أنا الذي أتمنى أن أنقله إليكم نحن الآن أحياء جميعاً والقلب ينبض، باب التوبة وباب العمل الصالح وباب إصلاح الماضي كلها مفتوحة، وهناك علاقات وذمم، وأشياء ليست لك، أخذت في وقت الجاهلية وهي في حوزتك وليست لك، وتعرف صاحبها نحن الآن في بحبوحة: بحبوحة أننا أحياء، بحبوحة أن باب التوبة مفتوح، وأن الإصلاح ممكن، أن أداء الحقوق ممكن لأصحابها، حقوق العباد أيها الأخوة مبنية على المشاححة، ولا تسقط إلا بالأداء أو بالمسامحة، وربما كانت حقوق الله عز وجل مبنية على المسامحة لكن حقوق العباد مبنية على المشاححة.

فنحن أمام مشهدين: مشهد لأهل النار ومشهد لأهل الجنة، أهل النار:

(طعام الأثيم(44))

(سورة الدخان)

باب التوبة مفتوح على مصراعيه في الدنيا:

اسأل أنت أين الآثام ؟ النظرة إلى المرأة الأجنبية إثم، سماع ما لا يرضي الله إثم، أن تنطق بالغيبة، وبالنميمة، وأن تأخذ ما ليس لك، أن تزدري الآخرين، أن تحتقرهم، أن تستعلي عليهم، أن تسيء المعاملة، وأن تظلم كلها آثام.

(إن شجرة الزقوم (43) طعام الأثيم(44))

(سورة الدخان)

فاعمل إحصاء للآثام وابتعد عنها، هذا التفكير العلمي، نحن أحياء، أما أن يقول أحدكم أنا شاب وعمري ثماني عشرة سنة، كم حادثة شاب رحل للدار الآخرة في ريعان الشباب، ربنا عز وجل لحكمة تربوية هائلة جعل انتقال الإنسان من الدنيا في كل الأعمار، شاب يموت، والذي عرسه بعد يومين

يموت، والذي نال الدكتوراه ولم يأت إلى بلده، والذي بنى البناء ولم يسكنه، والذي حصّل أموالاً طائلة ولم يستفد منها، كلهم يموتون وكل مخلوق يموت ولا يبقى إلا ذو العزة والجبروت. والليل مهما طال فلا بد من طلوع الفجر، والعمر مهما طال فلا بد من نزول القبر، أي أردت من هذه المقدمة نحن أحياء في بحبوحة، والقلب ينبض في بحبوحة، باب التوبة مفتوح والإصلاح ممكن، والإحسان ممكن، وأداء الحقوق ممكن، والمسامحة، وكل شي ممكن في هذه الدنيا وبعد هذه الدنيا كل شيء مغلق.

سَوْق الكافر المتعالي إلى جهنم سوقاً شديداً:

(خذوه فاعتلوه إلى سواء الجحيم(47))

(سورة الدخان)

قال المفسرون

(اعتلوه)

أي سوقوه سوقاً شديداً، كما تشاهدون ركلاً، وخزاً، وضرباً وسباباً.

(ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم(48))

(سورة الدخان)

وقد نسمع عن ثوران بركان فتجد الحمم سائلة، هذه الحمم صخر بازلتي سائل، حرارته تزيد عن 1500 درجة فإذا تجمد شكل صخوراً سوداء، أساس بعض المحافظات براكين، فمحافظة السويداء أساسها براكين، وكلها حجار سُوداً:

(ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم(48))

(سورة الدخان)

الله عز وجل جمع لأهل النار كل أنواع العذاب:

الآن في عندنا عذاب مادي أحياناً تُحرق يد الإنسان، أو يشعر بموجة ألم في كليتيه، ويشعر بألم في رأسه هذا كله عذاب مادي، لكن أحياناً يتلقى الإنسان كلمات قاسية لا ينساها سنوات عديدة، لدينا عذاب مادي و عندنا عذاب أدبي، فالله عز وجل جمع لأهل النار كل أنواع العذاب.

(ذق إنك أنت العزيز الكريم(49))

(سورة الدخان)

فمن بعض معاني هذه الآية أنه كان في الدنيا عزيزاً وقد استكبر على الله أن يطيعه أو يسجد له، وأبت نفسه أن يقف عند أمر الله، لم يعبأ بأمره، ولا بنهيه، أي عزة الإثم مع أن الله سبحانه وتعالى هو

العزيز، ومع أن الله سبحانه وتعالى ما كان ليذل مؤمناً وكلكم يقرأ في دعاء القنوت: سبحانك إنه لا يذل من واليت ولا يعز من عاديت، فالمؤمن عزيز لأنه مع العزيز والكافر ذليل لأنه عادى العزيز.

(خذوه فاعتلوه إلى سواء الجحيم(47) ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم(48))

(سورة الدخان)

ذق ألوان العذاب إنك كنت في الدنيا:

(ذق إنك أنت العزيز الكريم(49))

(سورة الدخان)

توعد الله عز وجل كل إنسان آثم بالعذاب الشديد:

أي كما قلت لكم في الدرس السابق، كما قال عليه الصلاة والسلام: ألا يا رب نفس طاعمة ناعمة في الدنيا جائعة عارية يوم القيامة، ألا يا رب نفس جائعة عارية في الدنيا طاعمة ناعمة يوم القيامة. سيدنا الصديق خرج عن كل ماله فلما قال له النبي عليه الصلاة والسلام: ماذا أبقيت لنفسك يا أبا بكر ؟ قال: الله ورسوله، والذين استحوذوا على الأموال وعاندوا الواحد الديان وحاربوا النبي ماتوا شر ميتة ولعنهم التاريخ وهم في مزبلة التاريخ.

أتمنى على الله عز وجل أن نفهم هذه الفكرة، فهذه المقدمات تؤدي إلى هذه النتائج، يجب أن نعلم أن هذه المقدمة هذه نتيجتها، فربنا عز وجل في صفحة واحدة عرض مشهدين: الآثمون هذا مصيرهم.

(خذوه فاعتلوه إلى سواء الجحيم(47) ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم(48))

(سورة الدخان)

ثم يعذب عذاباً أدبياً نفسياً:

(ذق إنك أنت العزيز الكريم(49))

(سورة الدخان)

من حملته عزته أن يكفر بالله سيُعذب عذاباً مادياً و معنوياً يوم القيامة:

إذا كان الإنسان في منصب رفيع ثم اقتيد للسجن فأقل كلمة من الجندي تهينه. إذا قال له يا سيادة هذه إهانة، قد يقولها استخفافاً، فالإنسان إذا كان مستكبراً وكان مترفعاً وكان له مكانة في الدنيا، هذا حينما يساق إلى النار يذوق عذاباً آخر غير عذاب الحريق وغير العذاب المادي، العذاب الأدبي والمعنوي يتكلم الإنسان أحياناً كلمة، يبقى شهراً متألماً من نفسه، كيف تكلم بها، وأحياناً يسمع كلمة من شخص

قاسية، فيها إهانة، فيها استخفاف، وسخرية، لا أبالغ قد يبقى سنة بأكملها وهو يتألم كلما ذكرها فالعذاب الأدبي لا يقل أحياناً تأثيراً عن العذاب المادي:

(ذق إنك أنت العزيز الكريم(49))

(سورة الدخان)

كنت في الدنيا عزيزاً وحملتك عزتك أن تكفر بالله، لقد كنت مستمتعاً بمباهج كثيرة توهمت أنك إذا آمنت بالله ذهبت عنك، لكنك تمسكت بها وبقيت في الباطل.

من لم يكن كلامه مطابقاً للحقيقة فكلامه لا يقدم و لا يؤخر:

الآن:

(ذق إنك أنت العزيز الكريم(49) إن هذا ما كنتم به تمترون(50))

(سورة الدخان)

أي الإنسان إذا كذب بشيء وكان هذا الشيء حقيقة واقعة ثم واجه الحقيقة يتألم أشد الألم، أي عُرِض عليه أن هذا العمل مصيره إلى السجن، في الدنيا لو خالف الأنظمة النافذة وكان العقاب شديداً جداً، ُنصح، نُبّه، ذُكِّر، لم يرتدع فلما وقع في قبضة العدالة جزاء ما اقترفت يداه يتألم أشد الألم لأنه نُبه سابقاً لكنه لم يصدق قال:

(إن هذا ما كنتم به تمترون(50))

(سورة الدخان)

أي ما كنتم به تكذبون، فلك أن تقول ما شئت، وأن تصدق وأن تكذب، ولكن إياك أن تُكذب شيئاً لابد من أن يقع، هنا البطولة، لك أن تقول عن هذا الإنسان ما شئت، أنت مخير، لك أن تقول أن هذه ليست شمساً في رابعة النهار، إن قلت ذلك فهي شمس، وكلامك لا يقدم ولا يؤخر، وادّعاؤك وافتراؤك وتكذيبك لا يقدم ولا يؤخر، هذه أشياء دقيقة في المعنى، إن هذا كأس ماء هو كأس ماء فلو قلت عنه شيئاً آخر، الكلام لا يغير من طبيعته إطلاقاً، قل عن هذا الكأس إنه فنجان، يبقى كأساً، قل عن هذا الكأس إنه إبريق يبقى كأساً لا كلمة فنجان تجعله فنجانًا و لا كلمة إبريق تجعله إبريقًا، كلامك إن لم يكن مطابقاً للحقيقة لا قيمة له، إنه لا يقدم ولا يؤخر.

الإثم في الدنيا إذا كان متكرراً سيقود صاحبه إلى النار:

لذلك:

(ذق إنك أنت العزيز الكريم(49) إن هذا ما كنتم به تمترون(50))

(سورة الدخان)

وملخص هذا المشهد أن الإثم في الدنيا إذا كان متكرراً أو كان كبيراً وأصر عليه صاحبه فهذا الإثم يقوده إلى النار، وفي النار يصب على رأسه من الحميم ويعاقب عقابين عقاباً مادياً وعقاباً معنوياً وهذا العقاب الواقع كان يكذب به، لذلك قال عليه الصلاة والسلام: والله والذي نفس محمد بيده لو تعلمون ما أنتم عليه بعد الموت ما أكلتم طعاماً عن شهوة (تذهب الشهية) ولا دخلتم بيتاً تستظلون فيه، ولذهبتم إلى الصعدات تبكون على أنفسكم.

لذلك المؤمن ساعة الفراق وساعة لقاء الله وساعة الوقوف بين يدي الله عز وجل لا تبرح ذهنه ولا دقيقة. لذلك في عطائه ومنعه، في غضبه ورضاه، ووصله وقطعه، في كل مواقفه يفكر كيف يواجه الله عز وجل بهذا العمل.

المتقي وعده الله بمقام مسعد و طمأنينة عالية يوم القيامة:

الآن الطرف الآخر:

(إنّ الْمُتَّقِينَ (45))

(سورة الدخان)

هذا الذي اتقى أن يعصي الله، يقول لك هذه حرام، أحياناً في الدنيا الكافر يضحك على المؤمن: ألا زلت خائفاً، إنك لا ترى شيئاً في الدنيا، كل شيء حرام وحرام.... ما هذه الحياة ؟ يسخر منه، هذا المتقي الذي يقف عند حدود الله، فيخاف أن يعصي الله، وقاف عند كتاب الله، يخشى أن يكون كسبه حراماً، وأن يكون إنفاقه حراماً، وأن يستمتع بما يغضب الله:

(إن المتقين في مقام أمين(51))

(سورة الدخان)

أي في مقام مسعد، لكن مع السعادة طمأنينة، وأحياناً يكون الإنسان في مقام عالٍ في الدنيا ولكن عنده قلق عميق أن ينحى عن هذا المنصب، هذا القلق العميق يفسد عليه الاستمتاع بهذا المنصب، لا يجد أمناً. وهناك إنسان وصل إلى دخل كبير عنده شيء يفسد عليه هذا الدخل هو خوفه أن ينقطع هذا الدخل. أنت من خوف الفقر في فقر، ومن خوف المرض في مرض، وتوقع المصيبة مصيبة أكبر منها.

(إن المتقين في مقام أمين(51))

(سورة الدخان)

وما هم منها بمخرجين.

الحياة الدنيا مشحونة بالمتاعب حتى تتضاعف السعادة في الآخرة:

لا يوجد بالجنة تقدم بالسن، ولا أمراض ولا نوبات كلية، أمراض قلب وضعف سمع، ولا ضعف بصر ولا خرف، ولكن شباب دائم، كل شيء تشتهيه بين يديك، والمنافسة لا يوجد، إزاحة شخص لآخر عن منصبه لا يوجد، وكل متاعب الدنيا يبرأ الإنسان منها في الآخرة.

في الحقيقة مما يضاعف نعيم أهل الجنة أن الحياة الدنيا متعبة فجاء إلى الدنيا فوجد فيها المتاعب والمخاوف والمقلقات والأمراض والمنافسة أحياناً والناس لا يرحمون والناس لا يرضون، ولا يوجد أحد ليس عنده قصص تملأ أشهر يحدثك عن متاعبه في الحياة، هذه المتاعب لحكمة بالغة، لو أن الله عز وجل لو أعطى الإنسان سؤله: ولو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم وقفوا على صعيد واحد وسألني كل واحد منكم مسألته ما نقص ذلك في ملكي إلا كما ينقص المخيط إذا غمس في مياه البحر، ذلك لأن عطائي كلام وأخذي كلام.

أي أن الله عز وجل قادر أن يعطي كل إنسان مطالبه، شكل يعطيه أعلى شكل، وكذلك أعلى دخل، وأفضل زوجة وأعلى بيت وأعلى مركبة، وعندئذ نكره لقاء الله عز وجل، فالحياة الدنيا شاءت حكمة الله أن تكون مشحونة بالمتاعب، حتى تتضاعف السعادة في الآخرة، كل شيء كان في الدنيا يؤلمك يزول في الجنة، يكون الإنسان ساكنًا في بيت صغير وفيه متاعب، وشمسه قليلة، فينتقل لبيت الشمس في كل الغرف، وكان البيت صغيراً فأصبح كبيراً، وكان له درج فصار فيه مصعد مثلاً، كان فيه مدا فئ أصبح فيه تدفئة مركزية، كان فيه حر فصار فيه تكييف، وكل شيء في البيت القديم يضاعف سعادته في البيت الجديد، كان هنالك أشياء مزعجة كثيرة جداً هنا فاستراح هنا منها، لذلك من حكمة الدنيا المتعبة أنها تضاعف سعادة آل الجنة.

ورود الناس على النار يوم القيامة يضاعف سعادة المؤمن أضعافاً مضاعفةً:

بل إن الناس جميعاً بما فيهم المؤمنون سيردون النار لقوله تعالى:

(وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا (71))

(سورة مريم)

ورود النار ليس دخولها، لكن المؤمن يطّلع على النار، يطلع على مكانه فيها فيما لو عصى الله في الدنيا، ينظر إلى أهل الدنيا الذين لم يبالوا بطاعة الله، أين مصيرهم ؟ فيطمئن قلبه لعدالة الله ويرى أين مصير الجبابرة، ثم يرى مكانه في النار لو لم يكن مؤمناً، هذا الورود على النار يوم القيامة يضاعف سعادة المؤمن أضعافاً مضاعفةً، كذلك متاعب الدنيا من شأنها أن تزيد من سعادة المؤمن يوم القيامة.

(إن المتقين في مقام أمين(51) في جنات وعيون(52))

(سورة الدخان)

فالإنسان إذا كان لديه حديقة، وأرض خضراء، وأشجار باسقة، وينبوع ماء، وشلالات أحياناً يقول لك مثل الجنة، أي أن الله عز وجل جعل اللون الأخضر والنبات الأخضر والماء العذب الفرات وأصوات العصافير هذه كلها مسعدة للنفس.

(إن المتقين في مقام أمين(51) في جنات وعيون(52))

(سورة الدخان)

لابد وأن يكون دخَلَ الإنسان إلى بيت ومزرعةٍ جميلةٍ جداً منسقة الأزهار، فيها أشجار ، ومسطحات خُضر، وشلالات، هذه نماذج مصغرة جداً.

أعدّ الله لعباده الصالحين يوم القيامة:

1 ـ البساتين و الأنـهار:

((أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ))

[متفق عليه عن أبي هريرة]

إنه وصف دقيق.

(إن المتقين في مقام أمين(51) في جنات وعيون(52))

(سورة الدخان)

أي بساتين وأنـهار.

2 ـ ما رقّ و ثخن من الحرير:

(يلبسون من سندس وإستبرق متقابلين(53))

(سورة الدخان)

فيه حرير رقيق وحرير ثخين،

(السندس)

ما رق من الحرير، و

(الإستبرق)

ما ثخن من الحرير.

3 ـ سرر مريحة يتحدث كل للآخر حديثاً لا حقد فيه و لا ضغينة:

(متقابلين)

جلسات مريحة، لا يرى أحدهم إلا وجه الآخر، فيه تقابل، طبعاً وهم على هذه السرر متقابلون يتحدثون حديثاً عذباً، يتحدث كل للآخر عن تجربته في الدنيا، عن معرفته بالله، وعن أسباب إيمانه واستقامته، إنه حديث رائع فيه محبة ولا يوجد حسد ولا غيبة ولا ضغينة ولا تنافس.

(في جنات وعيون(52) يلبسون من سندس وإستبرق متقابلين(53))

(سورة الدخان)

4 ـ حور عين:

ومن تمام نعمتهم في الآخرة:

(كذلك وزوجناهم بحور عين(54))

(سورة الدخان)

(الحور)

تحار العين في جمالها، الجمال المطلق في الجنة، في الدنيا الجمال متفاوت ولا يوجد امرأة كاملة، إذا كملت من جهة نقصت من جهة ثانية، حتى لو كمل جمالها نقص عقلها، فهناك توازن، والمجموع ثابت ولكن في الآخرة كما ل مطلق في كل شيء، ولحكمة بالغة فالنساء في الدنيا متفاوتات ولسن على ما ينبغي أن يكن كلهن، في الآخرة:

(وزوجناهم بحور عين (54))

(سورة الدخان)

كلام مختصر مفيد،

(الحور)

تحار العين في حسنهن و

(عين)

لهن عيون واسعة والعينان ذات العينين الواسعتين والحوراء شدة بياض العين وشدة سوادها، هذا الوصف كان العرب مغرمين به

(وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ)

أي امرأة كما ينبغي أن تكون في أعلى مستوى، لا يوجد في الجنة العيوب التي هي في الدنيا، فالإنسان بعض الأحيان يعاني من الكلام المستمر، من النغص في البيت، قد تكون الزوجة جيدة لكن لها إلحاحاً على موضوعات معينة يضجر منها في النهاية. قال:

(وزوجناهم بحور عين. يدعون فيها بكل فاكهة آمنين(55))

(سورة الدخان)

5 ـ لهم فيها ما يشاؤون من فاكهة وهم آمنون:

بالإضافة إلى الزوجة الحوراء و العيناء لهم فيها ما يشاؤون من فاكهة وهم آمنون، وأحيانا يخاف الإنسان من أن تُفقد هذه الفاكهة، أو يخاف أن تنتهي، أو يخاف ألا يشتريها (طبعاً الفاكهة بالجنة لا مقطوعة و لا ممنوعة)، أو ينتهي وقتها، أو يُمنع استيرادها (لا مقطوعة ولا ممنوعة)

كل شيء بعد الموت أصعب من الموت على الكافر و أهون على المؤمن:

(لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى (56))

(سورة الدخان)

أي لا يوجد إلا موتة واحدة، حينما يلقى الإنسان ربه وبعد هذا الموت نعيم في نعيم، أي آخر شيء يمكن أن يزعج المؤمن حين تنزع روحه وتصعد إلى الملأ الأعلى.

(لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى (56))

(سورة الدخان)

لذلك الكافر كل شيء بعد الموت أصعب من الموت وأما المؤمن كل شيء بعد الموت أهون من الموت، من الموت إلى الجنة، القبر روضة من رياض الجنة، لهذا قال سيدنا علي: يا بني ما خير بعده النار بخير (أي كل شيء مهما بدا لك عظيماً في الدنيا إذا انتهى إلى النار ليس بخير)، وما شَرٌّ بعده الجنة بشر (حياة كلها شظف وخشونة ومتاعب وأمراض وهموم وأحزان إذا انتهت بك إلى الجنة فهذا ليس شراً، بل خير محض)، وكل نعيم دون الجنة محقور وكل بلاء دون النار عافية.

(إذاً كذلك وزوجناهم بحور عين(54) يَدعون فيها بكل فاكهة آمنين(55))

(سورة الدخان)

نظام الدنيا أساسه الكدح و نظام الآخرة أساسه الطلب:

نظام الآخرة نظام طلب فقط وأما نظام الدنيا فنظام كدح وسعي:

(يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ (6))

(سورة الإنشقاق)

نظام الدنيا أساسه الكدح، فإذا أراد إنسان أن يأكل لقمة يحتاج إلى ساعات ليشتري الخضرة واللحم ويطبخ.... وإذا أراد أن يذهب إلى مكان جميل يحتاج أكثر من خمس ساعات أحياناً...إذ لا يوجد شيء في الدنيا إلا وله ثمن، بينما في الآخرة لهم ما يشاؤون، اطلب تعط.

النعيم في الآخرة مضاعف:

(لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى ووقاهم عذاب الجحيم(56))

(سورة الدخان)

فالنعيم مرتان، مرة لأنهم في نعيم، ومرة لأنهم ووقوا عذاب الجحيم، إذا كان الواحد كاد أن يغلط، لم يغلط، فكلما رأى مصير الذين فعلوا هذا الغلط يشكر الله عز وجل لأنه لم يتورط وتتضاعف سعادته.

(فضلا من ربك ذلك هو الفوز العظيم(57))

(سورة الدخان)

الجنة هي الفوز العظيم للإنسان:

إخواننا الكرام:

(ذلك هو الفوز العظيم)

(سورة الدخان)

هذا هو الفوز، بعض الأحيان يكون الفوز بنظر الناس شيئاً آخرَ، المال عندهم فوز، وكذلك المنصب والنجاح كله فوز، ولكن الفوز العظيم هو أن تدخل الجنة. ولهذا فأحد خلفاء بني أمية التقى بعالمٍ جليل، فقال له سلني حاجتك ؟ فأجابه ليس لي عندك حاجة، فلما ألح عليه قال والله أستحي أن أسأل في بيت الله غيرَ الله، فلما التقاه خارج بيت الله، قال له ثانيةً سلني حاجتك ؟ قال له والله ما سألتها من يملكها، أفأسألها من لا يملكها ؟ فلما ألح عليه قال أريد أن أدخل الجنة، فأجابه: هذه ليستْ لي، فقال العالم إذاً ليس لي عندك حاجة.

(فضلا من ربك ذلك هو الفوز العظيم(57))

(سورة الدخان)

ولابد لكل أخ كريم من أن يتصور ما هو الفوز العظيم، لأن كل إنسان أحياناً يتصور فوزاً، هو في فوز جزئي، يقول لو وصلت إلى هذا المستوى فقد فزت، الدنيا كلها لو وصلت إلى قمة مجدها، وقمة الغنى فيها، وقمة السلطان فيها، لا تُعد عند الله فائزاً، الفوز العظيم أن تصل إلى الجنة. هكذا كلام رب العالمين:

(ذلك هو الفوز العظيم)

(سورة الدخان)

هذا الفوز وليس دونه فوز، دون هذا الفوز ليس هناك فوز وليس فوقه فوز، هذا هو الفوز:

(ذلك هو الفوز العظيم)

(سورة الدخان)

من توهم أن الفوز هو الاستمتاع بالدنيا فهو جاهل و واهم:

كل إنسان متوهم فوزاً غير هذا الفوز فهو جاهل وواهم، والمال ليس فوزاً وحيازته ليستْ فوزاً، أن يتمتع الإنسان بصحة جيدة ويعيش 98 سنة فليس فوزاً عند الله، هنالك طغاة عاشوا 130 سنة، أن تكون في أعلى مرتبة اجتماعية ليس فوزاً، أن تستمتع في كل شيء في الدنيا ليس فوزاً، دقق بالآية:

(فضلا من ربك ذلك هو الفوز العظيم(57))

(سورة الدخان)

ليس فوقه فوز وليس دونه فوز.

الزمن في صالح المؤمن و ليس في صالح الكافر:

(فإنما يسرناه بلسانك لعلهم يتذكرون(58))

(سورة الدخان)

هذا قرآنٌ تَذكِرة.

(فارتقب إنهم مرتقبون(59))

(سورة الدخان)

انتظر لابد من تحقيق الوعد والوعيد، الزمن ليس في صالح الكافر، هو في صالح المؤمن، لأن مضي الزمن سيوف يؤكد للمؤمن صحة رؤيته، وصلاح عمله، وفوزه الحقيقي، وأما غير المؤمن الزمن يفاجئه بأن أفكاره غير صحيحة ورؤيته كانت مشوشة، ضبابية، قيمه ساقطة، مبادئه هدامة، فالزمن لصالح المؤمن، وليس في صالح الكافر والدليل:

(فارتقب إنهم مرتقبون(59))

(سورة الدخان)

الأيام لا تلد للمؤمن إلا الخير:

(قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا (51))

(سورة التوبة)

وأما الأيام لا تلد للكافر إلا الشر، هل تنتظرون إلا فقراً منسياً، أو غنىً مطغياً، أو مرضاً مفسداً، أو هرماً مفنداً، أو موتاً مُجهزاً، أو الدجال، فشر غائب ينتظر، أو الساعة والساعة أدهى و أمر.

مشهد أهل النار رادع للإنسان ومشهد أهل الجنة دافع له:

هذا المقطع إخواننا الكرام نحن أحياء والقلب ينبض، وباب التوبة مفتوح، وباب الإحسان والإصلاح والمسامحة والأداء كلها مفتوحة، وكل عمل له نتيجة، فهذه المقدمة تؤدي إلى هذه النتيجة، الأثيم هذا مصيره والمتقي هذا مصيره، ومعنى متقٍ أي اتقى أن يعصي الله، وبكل بساطة هناك مشهدان: مشهد لأهل النار والسبب هو الإثم، ومشهد لأهل الجنة والسبب هو التقوى، فهذا وقع في الإثم وهذا اتقى أن يقع في الإثم، هذه المقدمة أدت لهذه النتيجة وختام السور دائماً ملخص لها، ومن نعمة الله علينا أي أحياناً المدرس من شدة رحمته بالطلاب، يعطيهم نماذج أسئلة لئلا يتفاجؤوا، يقول لك مثلاً بالفحص يوجد مسألة ومعادلة و سؤال نظري والمسألة خمسة طلبات، وكأن الله عز وجل يسرب لنا ما سيكون قبل أن يكون.

فهذان المشهدان في القرآن مشهد لأهل الجنة ومشهد لأهل النار، ونحن في الدنيا قبل أن نصل إليها، ولكن من يقول لك هذا حق ورب الكعبة ؟ ولكن إن وصلت إلى دار الحق تصبح الرؤيا حقيقية وثابتة ولكنك لا تستفيد من هذه الرؤيا بعد أن رأيتها، إلا أنك في الدنيا لو رأيت هذا، أو صدقت بهذا، وتبنيت هذا فينعكس هذا إلى عمل صالح واستقامة، فالذي أتمنى من الله عز وجل أن ينقلب هذان المشهدان الأول والثاني إلى دافع وإلى رادع، مشهد أهل النار رادع، ومشهد أهل الجنة دافع، فإذا كان المشهد الأول ردعاً والثاني دفعاً فقد تحقق المراد من هذين المشهدين في أواخر سورة الدخان.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الجاثية 045 - الدرس (1-8): تفسير الآيات 01 – 09
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1994-09-02

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الأول من سورة الجاثية.

بسم الله الرحمن الرحيم

(حم (1) تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (2) إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآَيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ (3) وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آَيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (4) وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آَيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (5) تِلْكَ آَيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآَيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ (6))

أيها الإخوة الكرامَ

حَــــم

(حم)

معاني الحروف المقطّعة

هذه الحروف من أوائل السور: إما أنها أوائل أسماء الله تعالى، أو أوائل أسماء رسول الله صلى الله عليه وسلّم، أو هي إشارةٌ إلى إعجاز القرآن البياني، أن هذا القرآن الكريم نُظِم من هذه الأحرف، والله سبحانه وتعالى يتحدّى البشر جميعاً أن يأتوا بآيةٍ من مثله، أو كما قال بعض المفسّرين: **" الله أعلم بمراده "..**

(تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ)

شرف الرسالة من شرف المرسِل

الرسالة شرفها من شرف المُرْسِل، قيمة الكتاب من قيمة الكاتب، قيمة الرسالة من قيمة المُرْسِل، الله سبحانه وتعالى في آياتٍ كثيرة يشير إلى أن هذا البيان بيان الله، وتوجيه الله، وكلام الله، إنّ هذا الأمر أمر الله، وهذا النهي نهي الله، وهذا التفسير للكون وللحياة وللإنسان تفسير الله، إن هذا الكتاب من عند خالق الكون، لذلك قالوا: **" فضل كلام الله على كلام خلقه كفضل الله على خلقه ".**

إن الإنسان إذا لم يستحضر عَظَمَةَ الله عزّ وجل وهو يتلو كلام الله لا يستفيد منه، ما لم يشعر الإنسان حينما يقرأ القرآن أن هذا القرآن كلام الخالق..

(لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ)

(سورة فصلت: آية " 42 ")

الله عزّ وجل كماله مطلق، حكمته مطلقة، علمه مطلق، خبرته مطلقة، كلامه لا يمكن أن يتطرّق إليه شكٌّ، ولا خطأٌ، ولا غفلةٌ، فمن حينٍ إلى آخر يذكِّرنا الله عزّ وجل بأنّ الكلام كلامه..

تَنْزِيلُ الكِتَابِ مِنَ اللّهِ

(تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ)

إنّ اسم الله علمٌ على الذّات.. على ذات الله.. الله جلّ جلاله له أسماء حُسْنى.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنّ رَسُولَ اللَّهِ صَلّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ قَالَ:

((إِنّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا، مِائَةً إِلّا وَاحِدًا، مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنّةَ))

[متفق عليه]

معنى الإحصاء ليس العدّ،

(لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدّهُمْ عَدًّا)

الإحصاء أرقى من العد، إذا قال الإنسان: الله هو الخالق، البارئ، المصوّر فهذا عدٌّ، وليس إحصاءً، أما النبي الكريم فقال:

((مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنّةَ))

معنى إحصاء أسماء الله

فكلمة (الله) هي العَلَم على الذّات لصاحب الأسماء الحُسْنى والصفات الفُضلى، ولا تعرف معناها إلا إذا تفكّرت في خلق السماوات والأرض، كلمة واحدة نلقيها على ألف إنسان كل إنسان يفهم منها شيئاً بحسب خبرته.

يُروى أن إنسانًا يمشي في الطريق سمع كلمة كُرسي، هو أستاذ في الجامعة، ويحمل أعلى شهادة، لكن لم يُتَح له أن يكون أستاذًا ذا كرسي، وهو يتوقّع أن هذا الذي يحلُّ محلّه ليس في مستواه، فهو متألِّم دائماً، فإذا سمع كلمة (كرسي) فهذه الكلمة تثير في نفس هذا الأستاذ شجونًا وآلامًا، وتمنيّات، وطموحات، وقد يمشي في الطريق ساعةً أو ساعتين، وكل خواطره أثارتها كلمة (كرسي)، إذاً الكلمة أثارت خبرات، أثارت تصوُّرات، أثارت طموحات.

يسمع هذه الكلمة: (كرسي) إنسان آخر يعمل في حلاقة الشَعر، يوجد عنده كرسيين، ويتمنَّى المزيد، لكن يخشى أن ترتفع الضريبة، يخشى ألاّ يجد من يعمل على هذا الكرسي، أيضاً ساعة، وساعتين، وثلاثًا وهو يمشي في خواطر أخرى، ما الذي أثار كل خواطره ؟ كلمة: (كرسي).

يسمع كلمة (كرسي) إنسان يحتاج في بيته إلى كَراسٍ، ولكن لا يملكها، ولا يملك ثمنها، فالغرفة فارغة، ويأتيه ضيوف، ولا يملك ثمنها ؟ أيضاً ساعة أو ساعتين وهو يفكر في كلمة (كرسي).

ويسمع كلمة (كرسي) إنسان متعب، فيتمنَّى أن يرى كرسيّاً يجلس عليه، فهذه كلمةٌ واحدةٌ أثارت تصوُّراتٍ شتَّى، ومعانيَ شتَّى.

ضربت هذا المثل لأصل به إلى أنك لو قلت: الله، فهذه الكلمة ماذا تثير في نفسك ؟ تثير في نفسك كل خبراتك مع الله.. فبحجم خبراتك، بحجم تصوُّراتك لله، بحجم تفكُّرك في خلق السماوات والأرض، بحجم عطائك، بحجم إقبالك على الله، بحجم تمنيّاتك أن يرضى الله عنك، فكلمة واحدة تثير عندك كل الخبرات، هذه الكلمات لها مضامين، وحينما تفقد الكلمة مضمونها تصبح لا قيمة لها، لذلك كلمة (الله) يقولها آلاف الناس، هناك من يُشْهِدُ الله، وهو يكذب، يقول: الله وكيلك، والله يراه، ليس لها مضمون عنده أبداً، هناك من يعتدي على الناس، ويقول: الحمد لله، الله وفّقنا، إلى ماذا وفّقك ؟ إلى إيذاء الناس ؟! فهناك كلمات يقولها الناس ليس لها مضمون أبداً، لكن المؤمن كلّما فكّر في خلق السماوات والأرض يزداد مضمون هذه الكلمة عنده.

لو فرضنا أن لك قريبًا يعمل في حقل التعليم الجامعي، تعرفه أنه أستاذ جامعة، لكن لم تلتق معه ولا مرّة، ولا ناقشته ولا مرّة، فكلمة أستاذ جامعة لها عندك حجم، أما لو جلست معه مرّةً، وسمعت من علمه الغزير، يظهر حجم هذه الكلمة بشكل أوسع، لو كنت طالباً عنده، واستمعت إلى محاضراتٍ سنواتٍ عدّة، وكل محاضرة رأيتها أجمل من أختها، وأعمق من أختها، فحجم تقديرك لهذا الأستاذ يساوي حجم خبرتك معه.

وكلما ازددت معرفة بالله اقشعر جلدك عند ذكره ووجل قلبك، واضطرب خشوعًا، وأتساءل: ما بال أناسٍ يسبُّون الدين أحياناً ؟ ويتهجّمون على الذّات الكاملة، ولا تملك إلا أن تقول: هذا لا يفقه شيئاً في الدين، فكلّما فكّر الإنسان في خلق السماوات والأرض ازداد حجم معرفته، وكلّما ازداد حجم معرفته ازداد حجم خشيته، لهذا يقول لنا ربنا عزّ وجل:

(تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ)

تَنْزِيلُ الكِتَابِ مِنَ اللَّهِ العَزِيزِ الحَكِيمِ

فأحياناً يقول لك أحدهم: يا أخي نفِّذ هذا الأمر، تقول: مِنْ مَنْ ؟ اهتمامك بالأمر ومبادرتك إلى تنفيذه، وتعظيمك له بحسب الآمر، إذا كنت جنديًا، وأمرك عَرّيف، قد لا تعبأ به، أما إذا رأيت أن قائد الجيش وقّع على هذا الأمر تبادر إلى تنفيذه فوراً.

مدلولات النطق بكلمة (الله)

كل هذه الأمثلة ما أردت منها إلا شيئاً واحداً، كل واحد منّا إذا ذكر كلمة (الله) أثارت في نفسه مكنونات بحسب تفكّره في خلق السماوات والأرض، بحسب تأمُّله في آيات الله الدّالة على عظمته، بحسب خبراته في الاتصال به، بحسب أذواقه في الإقبال عليه، بحسب طموحه إلى مرضاته، كل هذه الخبرات، وتلك المعاني، والتصورات، والتأمُّلات، والأذواق إنما تثيرها كلمة (الله)، فـ (الله) تثير في الإنسان كل خبراته مع الله، كل أشواقه، كل ذكرياته الطيّبة.

فالمؤمن عليه أن يُحْكِمُ الصلة مع الله، لأن هذه الصلة إذا ضعُفَت أو انقطعت فلا شيء في الدنيا يرضيه، لأنه ذاق طعم القُرب، وما سوى هذا القُرب لا شيء يملأُ عينه أبداً، مهما اغتنى، وقد يغتني، وقد يأكل أطيب الطعام، وقد يجلس في أجمل الأماكن، وقد يسكن في أجمل البيوت، يقول لك: لا أنسى تلك الأيّام الخوالي التي كانت صلتي بالله فيها محكمة، إذاً اجهد في معرفة الله، وفي التفكّر في خلقه، وفي الإقبال عليه، وفي الاتصال به، وفي مناجاته، وفي خدمة خلقه، وفي الالتزام بأمره ونهيه، إلى درجة أنه إذا ذُكِرَ الله وَجِلَ قلبك، واقشعرّ جلدك، وانهمرت دموعك، هذا معنى:

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ)

(سورة الأنفال: 2)

لو قلت لك: حدِّثني عن ربِّك، فماذا تقول ؟ الله خلق السماوات والأرض ؟ أكمل ! ما بالك سكت ؟ بينما ترى المؤمن الذي سلك طريق الإيمان، وله مجلس علم، وله اتصال بالله، وله إقبال عليه، وله حبُّه له، وله شوقه إليه يحدِّثك ساعات وساعات، يمضي الوقت فلا يشعر به لا المتكلِّم ولا السامع، هذه خبرات، الإنسان المؤمن الصادق شغله الشاغل الله عزّ وجل، لذلك قال:

(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (1) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (2) وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (3))

(3 سورة المؤمنون)

قال علماء التفسير: **" اللغو ما سوى الله "..**

(وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ)

حدّثني أخ عن صديق له صلة بالله وثيقة، أناب إلى ربه إنابةً رائعة، حديثٍ دنيويّ تافه لا يلتفت إليه، ولا يُصغي إليه، ولا يدلي برأيه فيه أبداً، أما إذا كان الحديث عن الله عزّ وجل تألّق وتكلّم، فالمؤمن هذه الحقيقة العُظمى تملأ نفسه، وتحتلُّ أكبر مكانةٍ في قلبه بل تحتلُّ كل قلبه، لذلك ورد في الأثر:

((أن يا عبدي، طهّرت منظر الخلق سنين أفلا طهّرت منظري ساعة))

منظر الله عزّ وجل هو القلب، القلب منظر الرب..

((إنّ اللّهَ لا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ ـ هذا طويل وهذا قصير، هذا أبيض وهذا أسمر، هذا وسيم الطلعة وهذا دميم ـ وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ))

(صحيح مسلم عن أبي هريرة)

الله جلّ جلاله يحبُّ في العبد أن يكون قلبه ذاكراً، ولسانه شاكراً، وبدنه على البلاء صابراً، يحبُّ في العبد أنه إذا صمت فكّر في آيات الله..

" أُمِرْتُ أن يكون صمتي فكراً ونطقي ذكراً ونظري عبرةً ". يحبُّ في العبد أن يُشْغَلَ بمعرفة الله، أن يملأ الكون كل اهتمامه، لأن الكون بابه إلى الله، وأقول لكم دائماً، وأعيد هذا الكلام كثيراً: إذا أردت أن تدخل من أوسع بابٍ إلى الله فدونك الكون، وإن أردت أن تقطع أقصر طريقٍ إلى الله فدونك الكون، لأنك لا تعرف الله لا بعينك ولا بسمعك، الله لا يُرى، ولا يُسمع، لكن لا تعرفه إلا بعقلك، فكأنّ الكون طريقٌ وحيدٌ لمعرفة الله عزّ وجل، وهذا المعنى ورد في هذه الآية:

(تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ)

الحَكِيم

(العزيز) الغالي والعزيز النادر، لكن علماء التوحيد قالوا: " العزيز هو الذي يحتاجه كلُ شيءٍ في كلِ شيء، ويستحيل الإحاطة به والوصول إليه "، ويمكن أن تصل إلى الله، لكن مستحيل أن تحيط به، باستقامتك وأعمالك الصالحة تصل إليه، أما أن تحيط به علماً فهذا أمر مستحيل.

(وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلا بِمَا شَاءَ)

(سورة البقرة: آية " 255 ")

(وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ الْعِلْمِ إِلا قَلِيلا)

(85 سورة الإسراء)

إذاً يحتاجه كلُ شيءٍ في كل شيء، وهو لا يحتاج شيئًا، هو الصمد، كل شيء بحاجته بينما وجود الله عزّ وجل ذاتي..

الحَكِيمِ

(الحكيم) هو كل شيء تراه عينك، لو لم يكن على ما هو عليه لكان هذا نقصاً في حكمة الله، هذا الحكيم، حكمته مطلقة، لهذا القاعدة الدقيقة تقول: **" كل شيءٍ وقع أراده الله، وكل شيءٍ أراده الله وقع، والذي أراده الله متعلِّقٌ بحكمته المطلقة، وحكمته المطلقة متعلِّقة بالخير المطلق "، " ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن "، " وإرادته متعلقة بالحكمة المطلقة، والحكمة المطلقة متعلقة بالخير المطلق ".**

أما الإنسان فقد لا يكون حكيماً، لماذا ؟ يرتكب الإنسان أعمالاً ليست حكيمة لنقصٍ في علمه، أو لضغطٍ عليه، أو لوقوعه تحت تأثير إغراء شديد، كل هذا الله جلّ جلاله منزّهٌ عنه، لذلك حكمته مطلقة، هذا الذي دفع بعض العارفين بالله على أن يقول: **" ليس في الإمكان أبدع مما كان ".**

هذا الشعور وتلك العقيدة، أو هذا التصور هذا الذي سبب طمأنينة المؤمن، فهو لا يندم على شيء، ولا يتمنّى أن يكون في غير الذي أقامه الله فيه، لأن حكمة الله مطلقة، هو مولود في المكان الفلاني، من الأب الفلاني، من الأم الفلانيّة، بهذه الإمكانات، بهذه القدرات، بهذا المستوى الاقتصادي والمعاشي، الله يسّر له عمله، يرى أن هذا كلّه بحكمة الله عزّ وجل، من هنا قال عليه الصلاة والسلام:

((عَجِبْتُ لأمْرِ الْمُؤْمِنِ، إنّ أمْرَ الْمُؤْمِنِ كُلّهُ لَهُ خَيْرٌ، لَيْسَ ذَلِكَ لأحَدٍ إلا لِلْمُؤْمِنِ، إنْ أصَابَتْهُ سَرّاءُ شَكَرَ، وَكَانَ خَيْرًا، وَإِنْ أصَابَتْهُ ضَرّاءُ صَبَرَ، وَكَانَ خَيْرًا))

(مسند أحمد: عن صهيب)

حالة المؤمن حالة راقية جداً، لأنه يرى حكمة الله، لا يوجد شيء يزعج المؤمن، لأن ما يزعج المؤمن هو الشرك، الشرك أن تتعامل مع الأشياء، وكأنّها قِوى مستقلّة عن الله عزّ وجل، شيء مخيف، وإنسان أقوى منك، وإنسان لا يحبُّك، ويتمنّى دمارك، فإذا تعاملت مع الأشياء بهذه الطريقة.. بطريقة المشركين.. أنّ هذه الأشياء المخيفة هي قِوى مستقلّة عن الله عزّ وجل فيجب أن تخاف، ويجب أن ينخلع قلبك، فالحياة كلها مخاوف، أقربها إلينا مخاوف الأمراض الوبيلة، الأمراض العُضالة، فهناك أشخاص أقوياء، وهناك مزالق كبيرة، وألغام، وحقول فيها ورطات، لكن المؤمن إذا استقام على أمر الله، وأقبل عليه ووحّده، علاقته مع جهة واحدة، وهذه الجهة هي الله عزّ وجل، لهذا ورد في الأثر:

((اعمل لوجهٍ واحدٍ يكفك الوجوه كلها))

((مَنْ جَعَلَ الْهُمُومَ هَمًّا وَاحِدًا هَمّ آخِرَتِهِ كَفَاهُ اللّهُ هَمّ دُنْيَاهُ، وَمَنْ تَشَعّبَتْ بِهِ الْهُمُومُ فِي أحْوَالِ الدُّنْيَا لَمْ يُبَالِ اللّهُ فِي أيّ أوْدِيَتِهَا هَلَكَ))

(رواه ابن ماجة عن عبد الله بن مسعود)

اجعل لربّك كل عز ك يستقرُّ ويثبت

فإذا اعتززت بمن يمو ت فإن عزّك ميّتُ

* * *

إخواننا الكرام.. لا يوجد شيء يسعدنا كالتوحيد، والتوحيد هو الدين، لا تعجبوا عندما ربنا يقول:

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إلا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إلا أَنَا فَاعْبُدُونِ)

(25 سورة الأنبياء)

الآن ربنا عزّ وجل يبيّن لك أن فحوى دعوة الأنبياء كلِهم التوحيد، التوحيد نهاية العلم، طاعتك لله عزّ وجل نهاية العمل، فإذا وحدّته وعبدّته فقد جمعت المجد من طرفيه، الله عزّ وجل ما خلقك إلا من أجل أن توحدّه، وأن تعبده، هذا هو ملخّص الدين كلِه، أما التوحيد فكلمة نقولها جميعاً، والبطولة لا في لفظها، ولكن في فهم فحواها تقول: ألف مليون دولار، هذه كلمة، وقد لا تملك منها واحدا، أن تلفظ هذا الرقم شيء، وأن تملكه شيءٌ آخر، أن تقول: لا إله إلا الله بلسانك شيء، وأن تكون موحِّداً شيٌ آخر، الله جلّ جلاله يقول:

(فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إلا اللَّهُ)

(سورة محمد: آية " 19 ")

فَاعْلَمْ أمرك أن تعلم، لأنك إذا علمت لم تبق هناك مشكلة..

(فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ (55) إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آَخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (56))

(سورة هود56)

التوحيد يحتاج إلى جهد كبير، لكن والله الذي لا إله إلا هو لو وصلتم إلى معشاره لكنتم أسعد الناس، التوحيد هو ألاّ ترى مع الله أحداً، لا حقد، ولا بغضاء، ترى اليوم أكثر الأمراض أسبابها شدّة نفسيّة، والشدّة النفسيّة شعور بالقهر أحياناً، يقول بعض الشعراء:

يا أعدل الناس ! إلا في معاملتي فيك الخصام وأنت الخَصْمُ والحكمُ

* * *

أحياناً يكون الشخص قويّا، وهو لا يحبُك، وبحسب الظاهر مصيرك بيده، هذا الشعور وحده يدمِّر الصحّة النفسية، أما بالتوحيد فلا، لأنه:

(مَا مِنْ دَابَّةٍ إلا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

(سورة هود56)

فهذا الكلام كلام الله..

(تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ)

العزيز

العزيز هو القوي، الغني، هو المُعطي، المانع، هو الرافع، الخافض، هو المعز، المذل، إن وجدت إنسانًا يضحك ببراءة أقول: هذه نعمة الله عليه، الله قادر أن يُبَكِّي الإنسان، يُبَكِّي الرجال، يبكِّي الأبطال..

(وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى)

(سورة النجم43)

إذا استيقظ الإنسان معافى في جسمه، وعنده قوت يومه، أولاده في أسِرّتهم، زوجته في صحّة جيّدة، لا توجد عنده مشكلة، ولا فضيحة، يضحك، تجده مرحًا ولطيفًا، وجوده مؤنس، أما لو ساق الله عزّ وجل له مشكلة تراه لا يضحك أبداً، إذا تعطلت بعض أعضائه، أو تعطّلت بعض الأجهزة، أين الضحك ؟ تختفي البسمة من على وجهه نهائيّاً..

(وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى)

إذاً: (عزيزٌ) لا يوجد غيره، و(حكيم) كل شيءٍ ساقه لعباده محض رحمةٍ وفضلٍ وعلمٍ وعدالةٍ.. عزيزٌ حكيم..

(إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ)

إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ

السماوات، هذه المجرّات، مليون مَليون مجرّة، في كل مجرّة مَليون مليون نجم، أحياناً الإنسان في أيّام الشتاء إذا كان في غرفة فيها أشعّة الشمس، وكنست الأرض ترى ذرّات عالقة في الهواء، هباب، ليس لها حجم إطلاقاً، وليس لها وزن، الأرض لو قيست بما في الكون من مجرّات وكواكب فهي كهذه الذرّة.

المجموعة الشمسيّة بأكملها نقطة على درب التبّابنة، ودرب التبابنة مجرة متوسطة، إذا رسمنا درب التبابنة بشكل مغزلي نقطة على طرف هذا الدرب فهي المجموعة الشمسيّة بأكملها.

قبل عشر سنوات فيما أذكر أرسلوا مركبة فضائيّة إلى المُشْتَري، هذه المركبة كانت أسرع مركبة صنعها الإنسان، تسير بسرعة أربعين ألف كيلو متر في الساعة، الآن في الطيران هناك طائرة سرعتها أعلى من سرعة الصوت، ثلاثمئة وثلاثين متر في الثانية، أما الطيران التجاري العادي فسرعته تسعمئة أو ثمانمئة وخمسين كيلو متر في الساعة، أما هذه المركبة فسرعتها أربعون ألف كيلو متر في

الساعة، بقيت هذه المركبة في طريقها إلى المشتري ست سنوات، المركبة وصلت، وأرسلت صورًا من هناك، ست سنوات بسرعة أربعين ألف كيلو متر في الساعة حتى وصلت هذه المركبة إلى كوكب ليس بعيداً جداً في المجموعة الشمسيّة.

وكم من المجرات في السماء بعيدة لا تطال ؟ أحدث رقم قرأته في بعض المقالات أربعة وعشرون ألف مليون سنة ضوئيّة، معنى ذلك أن هذه المجرّة الآن صوّرناها بطريق معقّد جداً علمي عن طريق الطيف الضوئي، هذه المجرّة كانت في هذا المكان قبل أربعة وعشرين ألف مليون سنة ضوئيّة، الضوء يقطع في الثانية الواحدة ثلاثمئة ألف كيلو متر، الدقيقة ضرب ستين، الساعة ضرب ستين، اليوم ضرب أربع وعشرين، السنة ضرب ثلاثمئة وخمسة وستين، اكتب ثلاثمئة ألف ضرب ستين على الآلة الحاسبة.. ضرب ستين، ضرب أربع وعشرين، ضرب ثلاثمئة وخمسة وستين، هذا ما يقطعه الضوء في السنة، ضرب أربعة وعشرين ألف مليون، هذه مجرّة من المجرّات كانت هنا قبل أربعة وعشرين ألف مليون سنة، أين هي الآن ؟ والله لا ندري، هذا هو الكون.

هناك نجوم حجمها يزيد على حجم الشمس بملايين المرّات، شمسنا نجم متواضع جداً، يوجد في برج العقرب نجم اسمه قلب العقرب يتسع للشمس والأرض مع المسافة بينهما، بين الشمس والأرض مئة وستة وخمسون مليون كيلو متر، والشمس تكبُر الأرض بمليون و ثلاثمئة ألف مرّة، جوف الشمس يتسع لمليون و ثلاثمئة ألف أرض، وبينهما مئة وستة وخمسون مليون كيلو متر، ونجم قلب العقرب يتسع للأرض والشمس مع المسافة بينهما، ألسنة اللهب التي صُوِّرت في أثناء الكسوف طولها مليون كيلو متر تخرج من قرص الشمس، وبعض الألسنة نصف مليون..

(إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ)

المذنَّب هالي كل اثنين وسبعين سنة يدور دورة، في عام ألف وتسعمئة واثني عشر مرّ بالقرب من الأرض، وقبل سنوات وصل للدورة نفسها، هذه ساعة (بيج بن) وهي الساعة الأولى في العالم بدقّتها، وربما فقدت دقتها بمقدار ثانية أو ثانيتين في السنة كلها، ويصحّحونها بمرور نجم، النجم أدق من ساعة (بيج بن)، حركة الأنجم شيء لا يُصدّق، والحديث عنه يطول، ويحتاج إلى صفحات وصفحات.

ولكن بشكل مبسّط الأرض تدور، وفي دورانها الحياة، إذا توقفت عن دورتها صار الوجه المُقابل للشمس حرارته ثلاثمئة وخمسون درجة، عندها يموت كل شيء، مئتان وسبعون تحت الصفر، وحكمة الله جعلتها تدور، الله علّمنا..

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ)

(سورة القصص: آية "71 ")

الله علّمك كيف تفكِّر، تصوّر الشيء وخلاف ما هو عليه، تصوّر ليلاً أبديًا، أو نهارا أبديًا، تصوّر الليل ساعة فقط، والنهار ساعة، تصوّر دورة الأرض حول الشمس مئة سنة، معنى هذا أن الربيع يدوم ربع قرن، وربع قرن آخر للصيف، هذا غير معقول، تصوّر الأرض صغيرة جداً، يصير وزن الإنسان فيها كيلو، ففي القمر روّاد الفضاء وزنهم يتضاءل ممن كان على الأرض بستين كيلو، يصبح في القمر وزنه عشرة كيلو، وزنك يتناسب مع حجم الكوكب، فإذا حرّك رائد الفضاء قدمه حركة بسيطة ارتفع عالياً في الهواء، لأنه لا يوجد لديه وزن، توجد أماكن بين الأرض والشمس لا يوجد فيها وزن إطلاقاً.. انعدام الوزن.

إذا صلّى أحدنا الصبح، وأراد أن يفكِّر قليلاً فليفكِّر في الليل والنهار..

(وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ)

(سورة فصلت: آية " 37 ")

كيف صار هذا النهار ؟ الأرض تدور، ولو اختلف لأصبح الليل سرمديًا والنهار سرمديًا، لو أنها دارت ومحورها عمودي على مستوى دورانها لانعدمت الفصول وألغيت، فيكون مكان في الأرض صيف إلى أبد الآبدين، ومكان آخر ربيع دائم، ومكان ثالث شتاء دائم، ومكان غيره خريف إلى الأبد، أما تبدُّل الفصول فمن ميل محورها، الشمس هنا، وهنا أشعّة عموديّة، هنا مائلة، إذاً هنا صيف وهنا شتاء، دارت الأرض صار هنا محورها عموديًا، وهنا مائلا، تبدّلت، إذا ركب إنسان طائرة من أمريكة الشماليّة إلى البرازيل يجد العجب العُجاب، في الشمال خمسة أمتار ثلج، وفي البرازيل الناس يسبحون على شاطئ البحر، في الشامل شتاء، وفي الجنوب صيف، جنوب الكرة عكس شمالها، فعندما يكون الطرف الآخر في الأرض ليلاً يكون عندنا نهار، فإذا ركب الإنسان طائرة في الساعة السابعة، ومشى باتجاه الغرب بسرعة الشمس يصل في السابعة هناك دون أي وقت زائد، فهذه الآيات الكونيّة دالّة على عظمة الله..

(إنّ فِي السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ)

إنّ فِي السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ

طبعاً هذه أمثلة، أما أنت فيجب أن تفكِّر، ألم تلاحظ ذات مرة أن الشمس تُشرق من مكان، وفي الفصل الثاني من مكان آخر ؟! الله قال:

(فَلا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ)

(سورة المعارج: آية 40)

وقال:

(رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ)

(سورة الشعراء: آية " 28 ")

وقال:

(رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ)

(سورة الرحمن17)

ورد المشرق جمعًا ومثنًّى ومفردًا، إذا قال: مشرق أي جهة الشرق، أما إذا قال: مشرقين أي المشرق الأدنى والأعلى، فالذي له بيت مطل على الشرق أو على الغرب يلاحظ أن الشمس تغيب في الشتاء في مكان، وفي الصيف في مكان، والمسافة كبيرة جداً، ويلاحظ الإنسان في الشتاء أن الشمس تدخل إلى أعماق الغرفة، أما في الصيف فتكون عموديّة، تجد أنه قلّما تدخل الشمس إلى الغرف في الصيف، تدخل مترًا فقط، معنى هذا أن أشعة الشتاء مائلة، أما في الصيف فهي عموديّة، هذه أشياء تلفت النظر.

فهل يا ترى فكّرنا في الشمس ؟ هذه الشمس من خمسة آلاف مليون سنة متقدة، ولن تنطفئ قبل خمسة آلاف مليون سنة، فليس لدينا الآن مشكلة، ولكن هذا الاتقاد من أين جاء ؟ هل عندك شيء يشتعل من غير وقود ؟ عندك مدفأة من دون مستودع وقود ؟ عندك مركبة تمشي من غير بنزين ؟ هذه طاقة، من أين هذه الطاقة لهذه الشمس ؟ وبعد مئة وستة وخمسين مليون كيلو متر الشمس بعدسةٍ تُحرق الورق، يقول لك: أشعّة محرقة، يحترق جلد أحدنا إذا سبح في الصيف، لأن هذه الأشعّة محرقة، فما هذه الشمس ؟ الله قال:

(وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ)

(سورة فصلت: آية " 37 ")

القمر موضوع، الشمس موضوع، الليل موضوع، النهار موضوع، الفصول موضوع، أبراج السماء موضوع، أقسم الله جل جلاله فقال:

(وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ)

(سورة البروج 1)

المذنّبات موضوع، الكازارات موضوع، الآن توجد الثقوب السوداء مقبرة النجوم، لو أن الأرض دخلت إلى ثقبٍ أسود في الفضاء الكوني لأصبح حجمها كحجم البيضة، ولها الوزن نفسه، فهذه الآيات يجب أن نتأمّل فيها، يجب أن نفكّر فيها، يجب أن تكون طريقنا إلى الله عزّ وجل.

هذا الموضوع الأول:

(إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ (3) وَفِي خَلْقِكُمْ)

وَفِي خَلْقِكُمْ

خَلَق الإنسان، إذاً أكبر موضوع في التفكّر هو خلق السماوات والأرض.

الآن مرحلة ثانية، قال:

(وَفِي خَلْقِكُمْ)

آيات الله في بديع مخلوقات

إنسان وزنه خمسة وثمانون كيلوًا، ولكن ما هو أصله ؟

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ)

(سورة القصص: آية " 71 ")

إن سنتيمترًا مكعّبًا من الحوينات فيها خمسمئة مليون حُوين ؟ والإنسان من حوين واحد، والحوين جسم له عنق، وله ذيل، وله رأس مدبّب فيه غشاء تحته مادّة نبيلة، وأقوى حوين يصل إلى البويضة، إذا لامس البويضة تمزّق الغشاء، والمادّة النبيلة أذابت جدار البويضة ودخلتها، وصار داخل البويضة لقاح، وفي الطريق البويضة الملقّحة من المبيض إلى الرحم تنقسم عشرة آلاف قسم، وفي الرحم تُغْرَس فيتشكّل الجنين، تصير الجمجمة، والدماغ، العمود الفقري، العظام، العضلات..

(ثُمّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ)

(سورة المؤمنون: آية " 14 ")

طفل له عيون، يبكي، له صوت، يتنفّس، فيه أنف، فيه قصبة متصلة بالرئتين، فيه قلب مشطور إلى أذينين وبطين، أوردة، شرايين، عضلات، كلى، معدة، أمعاء، بنكرياس، كبد، غدّة درقيّة، غدّة نخاميّة، غدد الكظرين، الحوض، العضلات، الجلد، اقرأ عن الإنسان تجد أنه حوين لا يُرى بالعين، لقّح بويضة لا تُرى بالعين، غُرس بجدار الرحم، تشكّل العمود الفقري، من أين جاء العظم ؟ العظم مادّة قاسية، فمن أين جاءت ؟ ترسّبت المواد الكلسيّة، وشكّلت جهازًا عظميًا، وهو قِوام الإنسان، هيكل، قفص صدري، عمود فقري، العين فيها مئة وثلاثين مليون عُصيّة، العصب البصري فيه تسعمئة ألف عصب، لكل عصب ثلاثة أغمدة، وثلاثمئة ألف شعرة، لكل شعرة شريان ووريد، وغدّة دهنيّة وغدّة صبغيّة، وعضلة وعصب لكل شَعرة. كم في اللسان من خليّة ذوقيّة ؟ و لا يزال عملُ الأذن عجيبًا، السمع، البصر، الحركة، كيف يتحرّك الإنسان ؟

(وَفِي خَلْقِكُمْ)

(وَفِي أَنفُسِكُمْ)

(سورة الذاريات: آية " 21 ")

فلو فكّر الإنسان في خلقة لا ينتهي في مئة سنة، وكلّما فكّر يزداد تعظيمًا لله عزّ وجل..

(وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ)

البعوضة لها جهاز رادار، وجهاز تحليل دم، وجهاز تمييع دم، وجهاز تخدير، وجناحاها يرفّان أربعة آلاف رفّة في الثانية، ولها ثلاثة قلوب، قلب مركزي، وقلب لكل جناح، ولها محاجم، ولها مخالب..

(إِنّ اللّهَ لا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا)

(سورة البقرة: آية " 26 ")

الذبابة: إن أعظم طائرة عسكريّة صنعها الإنسان لا ترقى إلى واحد بالمئة من مناورة الذبابة وحركتها، هل توجد طائرة تطير بأقصى سرعة، وخلال ثانية تأخذ زاوية قائمة ؟ غير ممكن، هل توجد طائرة تحط على مطار في السقف ؟ الذبابة تقف على السقف، حركة الذبابة يعجز عن تقليدها أكبر طائرة عسكريّة، وكذلك شأن النمل.

اقرؤوا عن النحل تجدوا أنه شيءٌ لا يُصدّق، كيلو العسل محصلة طيران أربعمئة ألف كيلو متر، اقرؤوا عن خليّة النحل، عن عادات النحل الاجتماعيّة، النظام الاجتماعي، فيه ملكة، فيه ذكور، فيه إناث، وفيه عاملات، وفيه حُرّاس، وفيه كلمة سر، هل يستطيع عاملان يعملان لبلاط غرفة، أحدهما يبدأ من الجدار الأيمن، والثاني من الأيسر أن يلتقيا على بلاطة نظاميّة ؟! النحل يبدأ من كل الجهات فيشكِّل شكلاً هندسيًا نظاميًا، وشمع النحل أيضاً شيء مذهل.

اقرؤوا عن النمل، اقرؤوا عن النحل، اقرؤوا عن الحشرات، اقرؤوا عن بعض الحيوانات، قال الله تعالى:

(وَذَلّلْنَاهَا لَهُمْ)

(سورة يس: آية " 72 ")

هذه البقرة إذا توحّشت فإنها تقتل الإنسان، مرض يصيب البقر اسمه التوحُّش، مرة بقرة توحّشت فقتلت أول شخص والثاني الله، وعطبت الثالث، فقتلها، قال الله سبحانه:

(وَذَلّلْنَاهَا لَهُمْ)

لو أن الله لم يذللها، لو ركّب الله أخلاق الضبع في الخروف فكيف يمكن أن تذبحه ؟ يضرب مثلا فيقال: فلان مثل الغنمة، من ذلّله لنا ؟ الله عزّ وجل، اقرأ الآيات، هذا الحليب الذي تشربه، كيلو الحليب محصلة جَولان أربعمئة لتر دم في ثدي البقرة، ثدي البقرة غدّة كالقبّة، هنا توجد شبكة أوعية دقيقة جداً، وهذه الخلية الثديية حتى الآن لا أحد يعرف كيف تعمل، تختار من الدم ما يعجبها، وترشح نقطة حليب منها، فهذا ثدي البقرة ألا يتمزّق وهي تحمل أربعين كيلوًا ؟ لأن البقرة تحلب أربعين كيلوًا، لكن في وسط الثدي جدر عرضيّة طوليّة لكي تمسك الوزن، هذا تصميم من ؟ البقرة معمل، تصميم من ؟ الغنمة

معمل، الدجاجة معمل، بيضة فيها كل شيء هذا والدليل تصير فرخًا صغيرًا، البيض فيه غذاء عظيم ؟ فيه كالسيوم، فيه بروتينات، فيه فيتامينات، فيه دهون، كل شيء فيه، الله قال:

(وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ)

الدجاجة موضوع، البقرة موضوع، الغنمة موضوع، الحشرات موضوع، الحوت، الحوت وزنه مئة وخمسون طنًا، رضعته الواحدة إذا أراد أن يُرضِع وليده ثلاثمئة كيلو، وجبته المعتدلة أربعة أطنان.. فكيف لو كان جائعاً ؟!! لقد جرّ ذات مرّة سفينة لمدة ثمانٍ وأربعين ساعة في عكس اتجاهها هذا والمحركات تعمل بأقصى طاقاتها، خلق الحوت، وخلق الفيروسات، الفيروسات لا تُرى بالمجهر، فيروس الإيدز حيّر العالَم كلّه، أهلك البشريّة، ما هو قوي أبداً، لا يُرى بالعين ولا بالمجهر، فالآيات تبدأ من فيروس الإيدز إلى الحوت..

(وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)

أمامكم فُرَص، هذا الكون بين أيديكم، سخّره الله لكم بنص القرآن الكريم:

(وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ)

(سورة الجاثية: آية " 13 ")

كل شيء مسخّر لك، النبات موضوع للتفكر، الحيوان موضوع للتفكر، خلقك موضوع للتفكر، خلق الحيوانات التي حولك موضوع للتفكر، فمن الممكن لإنسان أن يتعرّف إلى الله بشكل واسع جداً من خلال الكون.

مرّة أخيرة: الكون أقصر طريقٍ إلى الله، وأوسع بابٍ تدخل منه على الله، وربنا عزّ وجل يقول:

(تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ)

لا يوجد طريق، الطريق الوحيد إلى الله هو الكون، فكِّر، لأنك كلّما فكّرت ترى الله عظيماً، وكلّما استعظمت الله عزّ وجل تستقيم على أمره، وإذا استقمت سلِمْت، وإن عملت الصالحات سعدت بالله عزّ وجل، لأن الاستقامة سلامة، والعمل الصالح سعادة أساسها معرفة الله:

وفي كل شيءٍ له آية تدلُّ على أنه واحد

* * *

كل ما في الكون ينطق بوجود الله، ينطق بعلم الله، ينطق بحكمة الله، ينطق برحمة الله، ينطق بعدالة الله، ما عليك إلا أن تفكِّر، هذا الفكر حرام أن تعمِله فيما لم يُخْلَق له، مهمّته الأولى أن يعمل في خلق السماوات والأرض، النبي الكريم استيقظ في الليل، وتوضّأ، وقرأ قوله تعالى:

(إنّ فِي خَلْق السّمَاوَاتِ وَالْأَرْض وَاخْتِلَاف اللّيْلِ وَالنّهَار لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَاب (190) الّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكّرُونَ فِي خَلْق السّمَاوَاتِ وَالْأَرْض رَبّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النّار(191))

(ال عمران 190)

ثم قال:

((الويل ـ أي الهلاك ـ لمن لم يفكِّر في هذه الآية))

[ابن حبان عن عائشة]

فإذا فكّر الإنسان في طعامه الله عزّ وجل قال:

(فَلْيَنْظُر الْإِنْسَانُ مِمّ خُلِقَ (5) خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ (6))

(سورة الطارق5-6)

هذا الذي يقف أمامك ووزنه مئة كيلو أساسه حوين من خمسمئة مليون حوين، صار إنسانا يتحمل، عنق الفخذ عنده مئتان وخمسون كيلوًا من الضغط، ميناء أسنانه أقسى مادّة في الأرض بعد الماس، هذه من أين أصلها ؟ من حوين منوي، من أين جاءت هذه القساوة وهذه المتانة في العِظام ؟

الدماغ فيه مئة وأربعون مليار خليّة لم تُعْرَف وظيفتها بعد في، والله إن هذا شيء مذهل.

الأطبّاء أمامهم فرصة، عندهم معلومات أوليّة حول خلق الإنسان شيء لا يُقدّر بثمن، فالإنسان يفكِّر، يفكِّر في طعامه، في شرابه، في خلقه، في سمعه، في بصره..

(أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ (8) وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ (9) وَهَدَيْنَاهُ النّجْدَيْنِ (10))

(سورة البلد)

النجدان هما الثديان، كما قال ابن عبّاس، هذا الحليب معقّم، وفيه مناعة، دافئ في الشتاء، وبارد في الصيف، متدرّج في تعييره، شيء يعجز عن صنعه الإنسان، والآن شركات الحليب الصناعي، أو حليب القوارير مكلّفة أن تكتب على علبها: **" لا شيء يعادل حليب الأم ".**

فنحن أمام آيات كثيرة جداً، لو أخذت آيَة آية، ودرستها بهدوء يقشعر جلدك، هذا الطريق إلى الله، استقامتك بقدر خشيتك، وخشيتك بقدر معرفتك بالله، ومعرفتك بالله بقدر تفكّرك بآياته. مرّة ثانية الآيات:

(تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللّهِ الْعَزِيز الْحَكِيمِ (2) إنّ فِي السّمَاوَاتِ وَالْأَرْض لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ (3) وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (4) وَاخْتِلَافِ اللّيْلِ وَالنّهَار وَمَا أَنْزَلَ اللّهُ مِنَ السّمَاءِ مِنْ رزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْريفِ الرّيَاح آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (5) تِلْكَ آيَاتُ اللّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقّ فَبأَيّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ (6))

والحمد لله رب العالمين

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الثاني من سورة الجاثية، ومع الآية السادسة.

في الدرس الماضي أيها الإخوة تحدثنا عن آيات الله الدالة على عظمته، وهي قوله تعالى:

(إِنّ فِي السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ (3) وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (4) وَاخْتِلَافِ اللّيْلِ وَالنّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللّهُ مِنَ السّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرّيَاحِ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (5))

إِنّ فِي السّمَاوَاتِ والأرْض لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ

فالآيات الأولى آيات السماوات والأرض، والآيات الثانية الكائنات الحية، والآيات الثالثة آيات الرزق، أي أن الله عزّ وجل خلق الكون مسخراً لكم، وخلقكم، وسخّر لكم ما في السماوات والأرض جميعاً منه من أجل أن تُرزقوا.

النقطة الدقيقة: أن الإنسان عندما يجول فكره في آيات الله عندئذٍ تتسع دائرة معرفته، وأثمن شيءٍ على الإطلاق أن تعرف الله، والطريق الإجباري الوحيد الذي لا طريق سواه أن تعرف الله من خَلقه، فكلما تفكّرت في خلقه ازدادت معرفتك، ازدياد المعرفة يتبعها ازدياد الطاعة، والطاعة تطبيق المنهج، معنى ذلك أنك سَلِمْتَ في الدنيا، وسعدت في الآخرة، وأساس كل الخيرات تبدأ بمعرفة الله، ومعرفة الله أساسها التفكر في الكون.

فأنا أدعوكم إلى اليقظة الفكرية، شربت كأس ماء النبي قال لك: سَمِّ، ما معنى سمّ ؟ أي قل: بسم الله الرحمن الرحيم، مَن جعله عذباً فراتاً ؟ من جعله لا لون له ولا طعماً ولا رائحة ؟ من جعله بهذه السيولة ؟ بهذه الخصائص ؟ البسملة من أجل أن تفكِّر في هذه النعمة، والحمد من أجل أن تشكرها، فإذا تناولت الطعام ؛ رغيف الخبز، الخضار، الفواكه، ابنك أمامك، نسمات عليلة، ترتدي ثيابًا من قطن، مَن خَلق القطن ؟ ثياب من الصوف في الشتاء، مَن خلق الصوف ؟ تنام على سرير، فراش وثير، من خلق هذا الفراش ؟ من خلق هذه المواد الأولية ؟ فلما يعوّد الإنسان فكره ليجول في النعم، في البداية يحتاج إلى جهد، لكن بعد ذلك يصبح التفكّر في آيات الله ديدنه، وشيئاً من سلوكه اليومي، وكلما جال الفكر في الكونيات اتسعت معرفتك بالله عزّ وجل، لذلك:

(إِنّ فِي السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ)

إنّ فِي السّمَاوَاتِ والأرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ

هذه الشمس أمامك، القمر أمامك، المجموعة الشمسية أمامك، فكر، وانظر، واقرأ، فكلما قرأت عن الكون تزداد تعظيم لله، كلما استمعت إلى محاضرات عن الكون تزداد تعظيمًا لله، كلما تأملت في خلق السماوات والأرض تزداد تعظيمًا لله، فلكَ أن تقرأ، ولك أن تسمع، ولك أن تفكر، كل هذه الطرق تؤدِّي إلى معرفة الله.

منهج التفكر في الخلق

وهناك منهج قد ذكرته من قبل: تصور أن الشيء ليس موجوداً، كيف تغدو حالتك ؟ ألغ هذا المفصل وفكِّر، تصور الإنسان بلا عين، أو بعين واحدة، بلا أذنين، أو بأذن واحدة، بلا لسان، بلا مثانة، تصور الرئتين لا تعملان بشكل ذاتي، تحتاج إلى أمر إرادي، فلا تستطيع النوم على الإطلاق، يلغى النوم، وأنت بحاجة إلى النوم، معنى ذلك أن هناك خالقًا حكيمًا، لو أوكل إليك التنفس فلا يمكنك أن تنام، وإذا نمت تموت، وهناك مرض أساساً يصيب الرئتين، يصيب مركز التنبيه النوبي في البصلة السيسائية، فالمريض به لا يستطيع النوم، فاخترعوا له دواء، واعتبروه إنجازًا كبيرًا جداً، يجب أن تأخذه كل ساعة مرة، فأنى لك أن تنام، أنت تنام ست ساعات بكل راحة، والرئتان تعملان بانتظام.

فبجسمك تفكَّر، والكون من حولك، كأس الماء، رغيف الخبز، الفواكه، الثمار، ابنك أمامك، النهر، الطائر، السمك، عَوِّد نفسك أن تفكر.

أول منهج: الشيء وعدمه، تصور حياتك من دون هذا الشيء.

المنهج الثاني: الشيء وخلاف ما هو عليه.

المنهج الثالث: الشيء وأصله، فهل يعقل أن عنق الفخذ يحمل مئتين وخمسين كيلوًا ؟! معنى ذلك أن الاثنين يحملان خمسمئة كيلو ؟ أي أن الإنسان يتحمل نصف طن ؟ فعظم عنق الفخذ مصمم أن يلقى نصف طن، معقول أن تكون أصل هذه القساوة من ماء مهين ؟!! ميناء الأسنان يعد ثاني أقسى عنصر في العالم، معقول أن يكون هذا الميناء أساسه من ماء مهين سائل ؟!! معنى هذا كيف تشكل هذا العظم وميناء الأسنان ؟ الشيء أمامك، فربما ترى عينك و تسمع أذنك.

الإنسان يمشي على قدميه، فهل يمكنك أن توقف ميتًا على قدميه ؟ الوقوف قضية ليست سهلة، انظر كيف يضعون خلف بعض واجهات المحلاّت مجسمات للنساء أو للرجال، للألبسة الجاهزة، انظر إلى الأرض قاعدتها سبعون سنتيمترًا لكي يقف النموذج، وإلا وقع، معنى هذا أن في داخل الأذن قنوات، ثلاث قنوات دائرية فيها سائل، وفيها أشعار تتأثر بالسائل، فلما يميل الإنسان السائل يثير الأشعار

الموجودة في الطرف المقابل، فالإنسان على الفور يعدل وضْعه، التوازن عملية خطيرة جداً، لو حدث التهاب في الأذن الوسطى، فالإنسان يمشي بقدمين متباعدتين لكي يوسع الدائرة الاستنادية، وإلا يقع، فهل التوازن سهل ؟

فالعين موضوع، والأذن موضوع، واللسان موضوع، والأوردة والشرايين موضوع، والشعر موضوع، وطبقات العين من الداخل، ومراحل الأذن من الداخل موضوع.

(وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ)

(سورة الذاريات20)

الأبواب الثلاثة: الكون و الخلق والرزق

هذه الآيات الكونية خلقها الله عزّ وجل كي نتعرف إليه بها، فلا يكون موقفنا من الكون موقف المنتفعين الأجانب، ينتفع فقط ولا يتعظ، هذا الكون له وظيفتان كبيرتان ؛ الوظيفة الكبرى أن يكون هذا الكون دليلاً لك إلى الله، والوظيفة الصغرى أن تنتفع به، الكفار اكتفوا بالصغرى، انتفعوا بالكون، استخرجوا المعادن، صنّعوا المعادن، استخرجوا المياه، أنشؤوا السدود، صنعوا مركبات، صنعوا نقل الصورة والصوت، استفادوا من الكون، لكن لم يتعظوا به، المؤمن يَعْبُرُ من النعمة إلى المنعم، من الكون إلى المكوّن، من النظام إلى المُنَظِّم، من التسيير إلى المُسَيِّر، من التربية إلى المربي، دائماً ينتقل إلى الأصل؛ الكافر يبقى في الشيء، يبقى في النعمة، فيستغرق فيها، وينسى المُنْعِم.

تصور رجلاً ماشيًا في الصحراء بمركبة أو على جمل، إما أن المركبة تعطّلت، أو غاب الجمل عنه، وهو بالصحراء فأيقن بالهلاك، والهلاك هنا قطعي، من التعب والبكاء والخوف أصابته سِنَةٌ من النوم، فنام، ثم استيقظ، رأى مائدة عليها ما لذ وطاب، فهل من المعقول أن يأكل على الفور ؟ ينظر من أعد هذه المائدة ؟ من وضع هذه المائدة ؟ من هيأها ؟ من وضع هذا الطعام ؟ من وضع هذا الشراب ؟ أمن المعقول لإنسان يقبل على النعمة، وينسى المنعم ؟ هل من المعقول أن تدعى إلى وليمة فتدخل البيت وتتناول الطعام، وتأكل، وبعد ذلك ترجع، وتخرج من الباب ؟ ولا تشكر الداعي إلى الطعام ؟ فكيف بالإنسان يقبل على نعم الدنيا يستهلكها وينسى المنعم ؟

الشكر أن تعرف أن هذه النعمة من الله، وأن يمتلئ قلبك امتناناً له، وأن تخدم عباده شكراً على نِعَمِهِ، فالشكر إدراك وحال وسلوك.

(إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ (3) وَفِي خَلْقِكُمْ)

خلق الإنسان..

(وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ)

انظر إلى الدجاجة، البقرة، الخروف، الأطيار، الأسماك..

(آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (4) وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ)

ليل ونهار، صيف، شتاء، ربيع، خريف..

(وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ)

الأمطار.

(فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)

آيات الكون، وآيات الخلق، وآيات الرزق، أبواب ثلاثة، وهذه بين أيديكم في متناولكم، تحت سمعكم وأبصاركم، ما عليك إلا أن تفكر، ما عليك إلا أن تفكر في هذه النِعَم التي أنت غارقٌ فيها، أما الآية الدقيقة:

(تِلْكَ)

آيات الخلق، وآيات التكوين، آيات الكون، وآيات الخلق، وآيات الرزق..

(تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ)

تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ

الله عزّ وجل يتلو عليك عناوينها فقط، لأن كل آية تحتاج إلى سنوات، هذه الآيات الواردة في كتاب الله، إن هي إلا رؤوس موضوعات عليك أن تفكر بها، والإنسان الموفّق إذا أراد أن يرسم منهجًا لتفكره يجعل آيات الكون في كتاب الله هي المنهج..

(تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ)

نحن هنا مع استفهام إنكاري، والمعنى ليس هناك من حديث آخر، استفهام إنكاري، معه نفي أي:

(فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ)

فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ

ما من حديثٍ آخر غير هذا الحديث، ما من بابٍ آخر غير هذا الباب، ما من طريقٍ آخر غير هذا الطريق، ما من أسلوبٍ آخر غير هذا الأسلوب أبداً..

(فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ)

فإذا أعرض الإنسان عن التفكّر في خلق السماوات والأرض فقد أعرض عن معرفة الله، وكلما صغرت معرفته كثرتْ معاصيه، أنت تقول: أنا ليس من المعقول أن أعصي الله عزّ وجل، فما السبب ؟

لأنك تعرفه، تعرف طرفًا من عظمته، لكنك إذا رأيت إنسانًا يرتكب معصية بشكل وقح ماذا تقول ؟ إنه لا يعرف الله، ولو عرفه لما عصاه، هذا شيء طبيعي جداً، فسماعك للدروس جعل لك قناعات متراكمة، أن الله موجود، ويعلم، وسيحاسب، وقد تقول: والله لو أُقَطَّعَ إرباً إرباً لا أفعل هذا، خوفاً من الله عزّ وجل، هذا الخوف من الله محصِّلة التفكر في الكون، أو سماع الآيات، فلك أن تقرأها، ولك أن تسمعها، ولك أن تفكر فيها، الطرق كلها سالكة إلى الله، على كلٍ لو قرأت، أو سمعت، أو فكرت فالمحصلة أنك وصلت إلى الله، فإذا وصلت إلى الله تشعر عندئذٍ أن الله عزّ وجل عظيم، وأمره عظيم، ونهيه خطير، فإحجام المؤمن عن المعصية بسبب قناعات متراكمة عنده، وأعتقد أن المؤمن لو قطعته لا يعصي الله، لو مات من الجوع لا يأكل مالاً حرامًا مهما كلف الأمر، تجد إنسانًا من دون حاجة يحلف كذبًا، من دون سبب يطلق سبابًا يقشعر منه الجلد، معنى هذا أنه لا يعرف الله عزّ وجل، فعرفة الله عزّ وجل تؤدي إلى الطاعة، فأنت تطيع الله بقدر ما تعرفه، وكلما ضعفت المعرفة ضعفت الطاعة، إذاً:

(فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآَيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ)

فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآَيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ

هذه الآية خطيرة جداً، يقول الله عزّ وجل لكم: يا عبادي، ليس لكم إلي إلا طريقٌ واحد، طريق هذا الكون، هذا الكون مظهرٌ لأسماء الله الحسنى وصفاته الفضلى، كل أسماء الله في هذا الكون، عظمته من هذا الكون، علمه، قدرته، غِناه، رحمته، حكمته، كلها في هذا الكون، وبين يديك، هذا الكون فيه آيات لا يعلمها إلا الله:

في كل شيءٍ له آيةٌ تدل على أنه واحد

***

الآن انظر إلى نملة وهي تسير، ضع يدك أمامها تجدها قد وقفت لأنها رأت، وتجدها غيّرت من اتجاهها، أمر صدر من الدماغ للعضلات ؟ معنى ذلك أن فيها دماغا، وجهازا عصبيا، وجهازا عضليا، وقلبًا ينبض، وإدراكًا، ورؤية، هذه النملة الصغيرة.

هناك دويْبِيَة لا تزيد على ربع مليمتر تمشي وترى، إذا كانت البعوضة عندها جهاز تحليل دم، وجهاز تخدير، وجهاز تمييع، وجهاز رادار، ولها ثلاثة قلوب، وترف أربعة آلاف رفة في الثانية، ولها محاجم، ولها مخالب، هذه البعوضة التي إذا قتلها الإنسان لا يحس بشيء، لأن قتل بعوضة هيّنة على الناس، والنبي قال:

((لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ))

(من سنن الترمذي عن سهل بن سعد)

أي أن هذه الدنيا عند الله أقل من جناح بعوضة، لذلك هي أحقر من أن تكون عقاباً لعبد، وأحقر من أن تكون مكافأة، إن هذه الدنيا عرضٌ حاضر يأكل منه البَرُّ والفاجر.

فكر كل يوم بعد صلاة الفجر، قبل أن تنام، في أثناء النهار، هذا الفكر يجب أن يتحرّك، لأنه إذا تحرك قادك إلى الجنة، وإذا لم يتحرك استخدمت هذا الفكر لغير ما خلق له، وكنت من أشد الخاسرين.

جهاز كمبيوتر ثمنه الملايين، وتستعمله طاولة للأكل ؟! ألا تكون قد احتقرته ؟ حاسوب سعته التخزينية كذا ألف ميغا، وتستخدمه طاولة أكل ؟! هذا احتقار له، كذلك العقل البشري تستخدمه فقط لكسب الرزق؟! فقط لكسب المال ؟! فقط للإيقاع بين الناس ؟! للانغماس في الملذات فقط ؟! فيوم القيامة سيرى الإنسان أن هذا الفكر أداة معرفة الله، وأنه سبب سعادتك، لذلك هنيئاً لمن أعمل فكره في معرفة الله، وفي التقرُّب إليه.

(تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ)

فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ

لا يوجد حديث ثانٍ، لذلك من دون تفكر يكون الإنسان عابدًا، والعابد مقاومته هَشّة، فلا يستطيع كثيراً مقاومة الشهوات، والإيمان أحياناً يقاوم، والدنيا فيها فتن كثيرة، والإنسان المؤمن يقاوم هذه الإغراءات، فتن في الطريق، في العمل، في كسب المال، في الزواج، الزوجة تضغط على زوجها ليكسِبَ مالاً حراماً ليلبي رغباتها، الزوجة أحياناً تكون فتنة.

أعرف شابًا عمل في مكان براتب جيد جداً، وهو متزوج حديثاً، تحت ضغط داخلي من زوجته، ألبسة، وزينة، وما شاكل ذلك مدّ يده إلى الحرام من المحل التجاري، كشف أمره، فطُرد، بقي من دون عمل، فالزوجة فتنة، الطريق فتنة، التعامل المادي فتنة، كسب المال فتنة، إنفاق المال فتنة.

إن العبادة الآن لا تُنَجّي، يمكن قبل خمسين سنة، قبل مئة سنة كانت الأمور بسيطة جداً، والطرقات خالية من الفتن، وكسب المال سهل، وحلال، ويملأ قلب الناس الدين، أما الآن مع اشتداد الفتن، والضلالات، والمذاهب الهدّامة، وطُرُق الكسب غير المشروعة، فلا يكفي إلا الإيمان، لا يصمد أمام هذه الفتن وتلك الضلالات إلا الإيمان القوي، والقضية قضية مصيرية، لا قضية تسلية، قضية مصيرك الأبدي، إما أن تبقى، وإما أن تفنى، هذه قضية مصيرية.

فمثلاً: إذا كان عند إنسان عدة أعمال يجب أن ينجزها، لو فرضنا أنه أصابه مرض عضال، كل هذه البنود لا معنى لها، يلغيها كلها، عنده أمر أهم ؛ قضية وجوده أو عدم وجوده، بقاؤه حيًّا أو موته، هذا مقدّم على تفاصيل الحياة، فقد يحتاج إلى جهاز صغير، أو يحتاج إلى (إرتاج للباب)، يحتاج إلى

إصلاح غرفة، إصلاح مركبته، يكون معه مرض عضال فينسى كل هذه الأشياء، فنحن نريد أن نعرف أن معرفة الله قضية مصيرية متعلقة بالآخرة، متعلقة بسلامة الإنسان في الدنيا، وفوزه في الآخرة، فلذلك ليس للإنسان الحق أن يجعل أخطر قضية في الهامش.

هناك شيء على السطح وشيء مهمل، الإنسان عادةً يهتم بالأشياء التي على السطح، فهو في الدنيا مثلا لا يخطر في باله أن يهيئ مستودعات الوقود للشتاء، القضية تركها، لكن متى يفكر فيها ؟ إذا جاء البرد فجأةً وبقسوة بالغة، فيفكر أن يملأ مستودعات الوقود عنده في البيت، لكن العاقل هو الذي يُعِد للشيء قبل أن يقع، فلذلك موضوع الموت موضوع خطير جداً، وأكثر الناس لم يدخلوه في حساباتهم، يفكر في كل شيء، يقول لك: هذا البيت لا يربح إذا اشتريته، هذه الدكانة عليها تنظيم، دائماً تفكيره إلى عشرين سنة قادمة، إذا اشترى أو باع، أو أسس شركة يقول لك: هذه ليس لها مستقبل، لأن في فكره يعيش خمسين سنة قادمة، أما الموت فلا يدخله في حساباته اليومية، قد ينتقل إلى الله عزّ وجل بأقل من لمح البصر.

هذا العقل، أو ذاك الفكر الذي أودعه الله فينا علينا أن نُعْمِلَهُ وفق ما أراد الله، لا وفق ما نريد.

(إِنّ فِي خَلْقِ السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللّيْلِ وَالنّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (190) الّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكّرُونَ فِي خَلْقِ السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النّارِ (191))

(سورة آل عمران190-191)

إذا فكّر الإنسان صباحاً، وأحب أن يسجل تفكيراته على ورقة، مرة فكر في عينه، ومرة في أذنه، ومرة في شعره، مرة في جهازه العظمي، مرة في جهازه العضلي، مرة في جهاز الدوران، مرة في جهاز الهضم، مرة في جهاز التصفية والإفراز، مرة فكر في طعامه، مرة في شرابه، مرة في أولاده، مرة في الجبال، مرة في الأنهار، كل كلمة باب كبير لا ينتهي، فهذا الفكر ينبغي أن يدرّب على التفكّر في الكون، دائماً الشيء وخلاف ما هو عليه، الشيء وعدمه، الشيء وأصله، حتى تعرف قيمته.

رجل في الخمسين وزنه خمسة وثمانون كيلوًا، من أين جاء هذا الوزن ؟ من الطعام والشراب، فهذا الطعام والشراب ينمي العضلات، ويقوي العظام، وينشط الأنسجة، معنى هذا أن جهاز الهضم شيء عظيم جداً، تأكل تفاحة، تأكل برتقالة، تأكل خبزًا، تأكل لحمًا، هذا الطعام يصير كيلوسًا، يُهضم، تمتصه الأمعاء، يذهب إلى البناء، يصير عضلات، يصير فيه مواد شحمية، مواد دهنية، فهذا الجهاز الذي يحول الطعام إلى نسيج لحمي، ونسيج شحمي، ونسيج دهني، جهاز عظيم جداً، هذه من آيات الله.

(وَيْلٌ لِكُلّ أَفّاكٍ أَثِيمٍ)

كلمة ويل الهلاك..

(وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ)

الأفاك من هو ؟ الذي يفتري على الله، يقول لك: هكذا رأيي، فمن أنت ؟

يقولون هذا عندنا غير جائزٍ

الجواب:

فمن أنتم حتى يكون لكم عندُ ؟

من أنت ؟ أنت مشرّع ؟ لا، أنت منظّم ؟ لا تعرف كل شيء ؟ فالأفاك هو الذي يفتري على الله، تجده لو أحضرت له آية يقول لك: أنا هكذا قناعتي، هذا أفّاك، أنت معك علم يقيني ؟ لا، جاءك الوحي ؟ لا، عندك مناقشة منطقية ؟ لا، فكيف تدعي هذه الآراء، اقعد مع أكثر الناس تجد أن كل واحد يفلسف الحياة فلسفة تتناسب مع وضعه، إذا كان يحب الاختلاط يقول لك: الاختلاط ليس حرامًا، هذا تزمت، إذا كان ماله بالربا، يقول لك: الربا ماذا فيه ؟ فهل يعقل أن المال لا نثمره، أأنت مجنون ؟ فهو أصبح مشرّعاً، كل إنسان يريد دينًا يتناسب مع شهواته وانحرافاته، هذا الشيء الخطير في الدين، الذي يعجبك تطبقه، وما لا يعجبك لا تهتم فيه، أو تنكره، هذا موقف خطير في الدين.

(وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ)

الإمام الغزالي يقول: **" لأن يرتكب العوام الكبائر أهون من أن يقولوا على الله ما لا يعلمون ".**

هناك آية قرآنية في سورة الأعراف، ذكر الله المعاصي بالتسلسل، ذكر الفحشاء والمنكر، والإثم والعدوان، وذكر الشرك، وذكر الكفر، وذكر أكبر معصية على الإطلاق قال:

(وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ)

(سورة الأعراف33)

الإمام الشافعي يقول: " لأن أرتزق بالرقص أهون من أن أرتزق بالدين "، هذا دين، إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم..

((ابن عمر، دِينك دينك، إنه لحمك ودمك، خذ عن الذين استقاموا، ولا تأخذ عن الذين مالوا))

[أخرجه الخطيب البغدادي في الكفاية في علم الرواية عن ابن عمر]

موضوع الدين شيء خطير جداً، الدين متعلِّق بالآخرة، فأمور الدنيا تنتهي مع الموت، الدين خطير جداً، حتى إنهم قالوا: " لك أباءٌ ثلاثة، أبٌ أنجبك، وأبٌ زوّجك، وأبٌ دلّك على الله، الذي أنجبك تنتهي مهمته عند الموت، والذي زوّجك تنتهي مهمته عند فِراق زوجتك، أما الذي دلك على الله هذا الخير الذي جاءك من هذه الجهة يبقى إلى أبد الآبدين "، فقضية الدين قضية مصيرية.

أنا أتمنى على كل إنسان أن يشكِّل حياته وفق الدين، هناك أشخاص يطلبون العلم في وقت فراغهم، أما عمله فقبل كل شيء، وليس مستعداً أن يتخلى عن بيعة واحدة، ويتخلّى عن زبون واحد، ويحضر مجلس علم، إلى أن ينتهي الدوام، نشاطه الديني على الفضلة، ماذا بقي من عمله ؟

هناك إنسان الدين عنده كل حياته، يشكل حياته كلها وفق منهجه في الدين ؛ صلواته، دروس العلم مثلاً، طاعته لله عزّ وجل، وهناك أشخاص لا يهمه إذا كان ثمة اختلاط، يقول: ماذا أفعل ؟ هكذا أهلي، هكذا تريد زوجتي، فماذا أفعل ؟ لكن المؤمن يغيّر كل نمط حياته، يغيّر كل علاقاته وفق منهج الله عزّ وجل.

وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ

في هذه الآية شيء دقيق جداً:

(وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ)

هناك علاقة بين أفّاك وأثيم ؟ لو فرضنا أن انحراف العقيدة ليس له علاقة بالسلوك، فلا مانع، لتكن العقيدة منحرفة، لو فرضنا أن هناك انفصالا بين العقيدة والسلوك، لا مانع، اعتقد ما شئت، لكن هناك ارتباط دائم، الأفّاك دائماً أثيم.

مثلاً: لو أن إنسانًا اعتقد خطأً أن النبي عليه الصلاة والسلام سيشفع لأمته مهما عملت من ذنوب، معه بعض الأدلة، وبعض النصوص، ولكنه لم يحاول أن يفهمها فهمًا عميقًا، كأن تعتقد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سيشفع لك، هذا الاعتماد سيحملك على أن تعصي الله، لا يمكن أن تعتقد اعتقادًا خاطئًا إلا ويقابل هذا الاعتقاد سلوك خاطئ، فالأفاك دائماً أثيم..

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ (1) فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ (2))

(سورة الماعون1-2)

هو نفسه، لذلك على الإنسان أن يصحح عقيدته، لأن عقيدته متعلقة بسلوكه، فإذا اعتقدت أن فلانًا بيده أمرك، إذاً لو أمرك بمعصية تعصي الله من أجله، أما إذا اعتقدت أن الله بيده الأمر، وفلان لا يقدم ولا يؤخّر، لا تطيعه في معصية، فلا يسلك الإنسان سلوكًا إلا كان أساسه قناعة، إما صحيحة، وإما باطلة.

سأل والي البصرة الحسن البصري.. وكان تابعيًا جليلاً.. جاءه كتاب من الخليفة، هذا فيه توجيه خلاف المنهج الإلهي، فوقع في حيرة، إن نفّذ أمر الخليفة أغضب الله، وإن أرضى الله، ولم يعبأ بأمر الخليفة أغضب الخليفة، وقد يعزله من منصبه، فسأل الحسن البصري، قال له: ماذا أفعل ؟ قال له كلمة: **" إن الله يمنعك من يزيد، ولكن يزيد لا يمنعك من الله ".**

العقيدة الزائغة من لوازمها السلوك الزائغ، ولو فرضنا أن العقيدة الزائغة ليس لها علاقة بالسلوك فاعتقد ما شئت، لا مشكلة عندئذٍ، لكن نحن نشدد على العقيدة الصحيحة، لأن أي عقيدة خطأ يتبعها سلوك خطأ، فهؤلاء الذين يرتكبون المعاصي كيف يرتكبونها ؟ عندهم شعور أن الله لن يحاسبهم حسابًا دقيقًا، أو عندهم شعور آخر أن النبي سيشفع لهم، أو يقولون: من مات ورجع، وقال: هناك آخرة ؟ هذه أفظع، أما أن يرتكب الإنسان معصية من دون عقيدة فيها خلل فهذا مستحيل، العقيدة الصحيحة تحاصرك، انظر إلى الطبيب أحياناً تجده يبالغ في غسل الفاكهة أكثر من غيره، فما السبب ؟

مرة كنت مع مجموعة من الأصدقاء، وقدم لنا طعام فيه قشدة، الطبيب رفض أن يأكلها، لأنه: يفتح القلب ليجد الشريان مسدودًا كله من القشدة، كوليسترول، عنده كل يوم عملية قلب، يرى آثار المواد الدسمة في الشرايين، وكيف تسدها، فلا يأكل، الذي يرى الجراثيم والأمراض الإنتانية والحالات الصعبة في الحياة يكره أن يأكل فاكهة من دون غسل، أحياناً يغسلها مرتين أو ثلاثا، وبالصابون، لأنه يرى، فأنت كلما ازداد علمك يزداد انضباطك، فالقضية مصلحة ذاتية، أحب نفسك، ولا تحب أحداً آخر، حتى تنجو، إذا كانت نفسك غالية عليك، أنت حريص على سلامتك، على سعادتك، وهذا المنهج، هذه تعليمات الصانع، فهذه:

(وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ)

الأفاك دائماً أثيم، أيّ خلل في العقيدة يقابله خلل بالسلوك، فلا تصلح حياتك إلا إذا صحّت عقيدتك، ولا تصح عقيدتك إلا بمجلس علم، لابد من أن يجلس بمجلس، يسمع العقيدة الصحيحة، هذه أثرها كبير جداً، تتراكم هذه المعلومات، تتراكم القناعات فتنشئ استقامة، راقب نفسك، أنت لست مستقيماً ببساطة، مستقيم بعد قناعات طويلة جداً، مستقيم بعد سنوات حضرت فيها مجالس علم، مستقيم بعد قناعة أكيدة أن الله يعلم وسيحاسب، والرابح هو المستقيم، أنت مستقيم بعد قناعة متراكمة، فلذلك:

(وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ)

كل إنسان يعتقد اعتقادا خاطئًا، أو يفتري على الله كذباً فهذا لابدّ من أن يرتكب الإثم، لكن أيّ عقيدةٍ تسمح لك أن تفعل كل شيء ؟ إنها عقيدة الإلحاد، الملحد لا يوجد عنده ممنوع، يقتل إنسانًا لسبب تافه، وجد أحدهم سيارة عليها مفتاحها، شغّلها ومشى، سمع صوت طفل صغير فخنقه، وألقاه في الساقية، هذه بسيطة جداً، لم يفعل شيئًا، الطفل يحدث له مشكلة فتُكشف سرقته، خنقه، ورماه في الساقية، فالإلحاد يقابله توسُّع في الجريمة، توسع في أكل أموال الناس بالباطل، الذين يأكلون الأموال بالباطل لا يعرفون الله أبداً، أما رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فقال:

((مَنْ أَخَذَ أَمْوَالَ النَّاسِ يُرِيدُ أَدَاءَهَا أَدَّى اللَّهُ عَنْهُ، وَمَنْ أَخَذَ يُرِيدُ إِتْلَافَهَا أَتْلَفَهُ اللَّهُ))

[البخاري عن أبي هريرة]

ثمة قصص لا تعد ولا تحصى من هذا النوع:

اشترى أخوان بيتاً مناصفةً، لم يخطر في بال الثاني إطلاقا أن يطالبه بإيصال، وقد اشتراه عن طريق جمعية سكنية تابعة لإحدى الوزارات، فالأخ الأول سجل البيت باسمه، والثاني دفع نصف ثمنه، وهذا قبل عشرين سنة أو أقل، فبعدما صار ثمن البيت عشرين مليونًا، قال الذي يملك البيت لأخيه: لا شيء لك عندي، واستطاع بطريقة أو بأخرى أن يجعله خارج البيت، وظن نفسه ذكيًا، واتفق مع محامين لهم مكانة وشأن عظيم، واستأثر بهذا البيت.. وبالطبع هذه القصة طويلة.. بعد شهر مرض المغتصب مرضًا خبيثًا أصاب أمعاءه، بعد شهرين كان تحت التراب، رجع البيت إلى أخيه، فلو عرف أن الله يحاسب حسابًا دقيقًا لما فعل ما فعل.

إن الإنسان لا يرتكب معصية إلا بجهل كبير، أنت صديقك العلم، النجاة في العلم، بالعلم تعرف الله، تعرفه أنه يحاسب، تعرفه عادل، تعرف أنه لا يضيع عنده حق أبداً، تعرفه أن كل شيء بيده، فإذا أراد ربنا عزّ وجل أن يجعل حياة الإنسان جحيمًا بأتفه الأسباب، يجعلك من أسعد الناس بطاعته، فأنت عندما تتراكم عندك الحقائق والقناعات تستقيم، وتجد نفسك مستقيمًا بشكل عفوي، لا أفعل هذا، معاذ الله، سيدنا يوسف قال:

(مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ)

(سورة يوسف23)

لو وضعت ألف إنسان في مكان سيدنا يوسف لرآها مغنمًا، أما سيدنا يوسف فلأنه يعرف الله عزّ وجل قال:

(مَعَاذَ اللَّهِ)

(وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ)

وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ

كل إنسان يفتري على الله كذباً، كل إنسان يعتقد اعتقادًا خاطئًا، يظن بالله غير الحق ظن الجاهلية، عقيدته زائغة، منحرفة، من لوازم انحراف عقيدته وزيغه أن ينحرف في سلوكه، هذا الأفاك الأثيم..

(يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِراً كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (8) وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئاً اتَّخَذَهَا هُزُواً)

يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ فَيُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا

أحياناً يحب الإنسان أن يمزح، والكفار لا يحلو لهم المزاح إلا في شؤون العقيدة والدين، القضايا المقدّسة يجعلونها محلاً لمزاحهم واستهزائهم وسخريتهم

(أولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ)

أولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ

كيف أنّهم استهانوا بالشرع، إنسان بعيد عن الدين يريد أن يضع شبهات للناس، فيسأل عن التيس المستعار ؟ لا يبحث إلا قضايا يصعب تفسيرها، ويستهزئ أحياناً بالعبادات، بالطاعات، بالحج.

(وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئاً اتَّخَذَهَا هُزُواً أولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ)

وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا

استهان بشرع الله عزّ وجل، هذا عذابه مهين، فالعذاب عذابان: عذاب أليم عظيم، وعذاب مهين، وربنا عزّ وجل ليؤَدِّب العباد بعذاب واحد يجعل العذاب متعلِّقًا بالذنب، إذا كان متعاليًا على الله، مستهزئًا بشرع الله، هذا العذاب المناسب له العذاب المهين، فكل إنسان يستهزئ بالدين، يستهزئ بالقرآن الكريم، يستهزئ بهذا الشرع الحكيم، يستهزئ ببعض المقدّسات الإسلامية، هذا الذي يستهزئ عذابه مهين.

(مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئاً)

مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ وَلاَ يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا

قد يكون غنيًا كبيرًا..

(وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ)

وَلاَ مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ

وقد يكون حوله جمع غفير، لا تغني عنه لا أمواله ولا أتباعه يوم القيامة، لا أمواله الطائلة، ولا أتباعه الكثيرون.

(وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ)

وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ

بالدنيا مهين، وبالآخرة عظيم..

(هَذَا هُدًى وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ)

هَذَا هُدًى

الأولى:

(إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ (3) وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (4) وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (5))

قال تعالى:

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ)

وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ

اعتبروا هذه الآيات شيئًا سخيفًا، قالوا: ما فائدتها ؟ هذه معروفة، هذه الشمس ظاهرة أنها شمس، فماذا فيها ؟ هذه طبيعة، صنعت نفسها بنفسها، مادة معقدة، قال:

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ)

الوقفة الطويلة عند قوله تعالى:

(وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ)

وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ

هنا مركز الثقل: العقيدة المنحرفة يتبعها سلوك منحرف، والسلوك المنحرف سبب شقاء الدنيا وشقاء الآخر.

إذاً: أنت نجاتك في العلم، تعرّفت إلى الله عزّ وجل عرفته استقمت على أمره، ولما استقمت استحققت كل إكرام منه في الدنيا والآخرة، فالقضية بسيطة وبسيطة جداً، اعرف الله، واعرف أمره ونهيه، واستقم على أمره تسعد في الدنيا والآخرة.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الجاثية 045 - الدرس (3-8): تفسير الآيتان 12 – 13
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 16-09-1994

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الثالث من سورة الجاثية، ومع الآية الثانية عشر وهي قوله تعالى:

(اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)

وظيفة الكون

حقيقةٌ ثابتة دائما، أنّ الكون بسماواته وأرضه، بكل ما فيه من شيءٍ ظاهرٍ أو باطنٍ، كبيرٍ أو صغير، الكون له وظيفتان كبيرتان:

الوظيفة الأولى: أن يكون الكون وسيلة لمعرفة الله.

الوظيفة الثانية: أن تنتفع به في الدنيا.

هذا الكلام أساسه أن النبي صلى الله عليه وسلّم حينما رأى هلالاً فقال:

((هِلالُ خَيْرٍ وَرُشْدٍ))

(سنن أبي داود عن قتادة)

يرشدني إلى ربي، وينفعني في دنياي.

إن الكفّار ما استفادوا من الكون إلا بالوظيفة الثانية، انتفعوا بما في الأرض إلى أقصى درجة، سَخَّروا المواد، المعادن، المناجم، البحار، الفضاء استغلّوا ثروات الطبيعة إلى أقصى درجة، ولكنهم ما انتقلوا من الكون إلى خالق الكون، لكن الله سبحانه وتعالى أراد من خلق السماوات والأرض أن يكون الكون مظهراً لأسماء الله الحُسنى، أن تتعرّف إلى الله من خلال الكون، فلذلك تأتي الآيات في القرآن الكريم تلو الآيات تُنْبئ عن عظمة هذه الكون..

(اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ)

اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ البَحْرَ

البحر يشكِّل أربعة أخماس اليابسة، أوروبة، وأمريكة، وآسية، وإفريقية، وأقيانوسية هذه القارّات الخمس، وقارّة سادسة هي القطب الشمالي والجنوبي، هذه القارّات السِت لا تزيد على خمس سطح الأرض، بينما أربعة أخماس الأرض بحر، هذا البحر أكبر آيةٍ تدلُّ على الله، وقد أحصى العلماء في البحر ما يزيد على مليون نوع من الأسماك، والمُطّلعون على أشكال هذه الأسماك، وأحجامها، وألوانها،

وخصائصها يأخذهم العجب الشديد، فأسماك عملاقة كالحيتان، تزن مئة وخمسين طنّا، وأسماك تعيش في قعر المحيطات لها أرجل تمشي بها، وأسماك سلاحها ومضة كهربائيّة تقتل بها مَن أمامها، و تبلغ مضتها ستمئة فولط، وأسماك عندها مصابيح كهربائيّة تتألّق فترى طريقها، وأسماك تُطلِق سحابة دُخّانيّة تعمّي عن مكانها، وأسماك كالكرات، وأسماك متطاولة، وأسماك كالحيتان، وأسماك كالقنفذ، وأسماك كالخنازير، فعدد أنواع الأسماك لا يُعدُّ ولا يحصى، وما تراه في مصوّرات أو في كتب شيء لا يكاد يُصدّق.

هذا البحر يوجد في قاعه جبال، وما الجزر إلا رؤوس الجبال، هناك وديان، وتضاريس، وقد وضعوا خرائط لتضاريس البحار تحت سطح الماء، هناك وديان في البحار، أعمقها وادي مريانة في المحيط الهادي، هذا البحر المالح من أين جاءت ملوحته ؟ ولماذا كان مالحاً ؟ وما الحكمة في أنّه مالح ؟ هذا البحر الذي يحوي من الأسماك ما لا عدّ له ولا إحصاء، لماذا في المنطقة القطبيّة يتجمّد سطحه الأعلى فقط، والأسماك تعيش في بطن البحر في بحبوحةٍ ويُسرٍ وسلام ؟ لماذا لا يتجمّد الماء كلّه من أعلاه إلى أسفله ؟

خاصّة الماء هذه لولاها لما رأيتم على وجه الأرض كائناً حيّاً، فإذا بردّته فشأنه كشأن أي عنصر يتقلّص، وإذا سخّنته يتمدّد، إلا في الدرجة زائد أربع فتنعكس الآية، فإذا بردّته يتمدّد، وإذا تمدّد كثافته قلّت، فطفا على سطح الماء، لذلك لو ذهبت إلى المحيط المتجمِّد الشمالي التجمد فقط في طبقة سطحيّة، لأنه كلّما تجمّد الماء طفا على السطح، وبقيت أعماق المياه دافئةً كجوٍ مناسبٍ للأسماك، لو أن مياه البحار شأنها كأي شأن عنصر آخر من عناصر الأرض إذا برّدناها تقلّصت فزادت كثافتها، فغاصت في أعماق البحار، وبعد حينٍ من الزمن، لا أدري كم هو ؟ تصبح البحار كلها متجمِّدة، وينعدم التبخُّر، وتنعدم الأمطار، ويموت النبات، ويموت الحيوان، ويموت الإنسان، هذه حقيقة.

الماء له خصائص، من خصائصه أنه يدفع السطح المنغمس فيه إلى الأعلى، ولولا هذه الخاصّة لما أمكن أن نستفيد من البحار إطلاقاً، لولا هذه الخاصّة لكان البحر همزة فصلٍ، وليس همزة وصلٍ، إنشاء طريق يكلِّف ألوف الملايين، أما البحار فكلها طُرُق مجّانية لكل الشعوب والأمم، فالبحر همزة وصل تمخر فيه البواخر كالجبال، كالأعلام، بعض البواخر الآن حمولتها تزيد على مليون طن، المليون ألف ألف، والطن ألف كيلو، أي طريقٍ يستوعب هذه المركبة، أو هذه السفينة ؟ لولا أن الماء يدفع الأجسام المنغمسة فيه إلى الأعلى، هذا هو قانون أرخميدس.

الحقيقة أن الآية فيها نقطة دقيقة جداً، هذه النقطة هي مركز ثِقلها:

(اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ)

اللّهُ الّذِي سَخّرَ

أولاً: الله عزّ وجل خلق الخشب، وأعطاه خصائص، فالخشب يطفو على سطح الماء، خلق الماء، وأعطاه خصائص، وخلق الإنسان، وأعطاه عقلاً يكشف هذه الخصائص، فكلمة التسخير تعني أنه لولا أن الله جعل البحر بهذه الخصائص، لولا أنه حرّك الرياح قديماً، ولولا أنه أودع في بطن الأرض هذه الطاقة السائلة حديثاً لما أمكن التحرُّك على سطح الماء، فالتحرُّك كان من قبل بفعل الرياح، لأن الرياح تسيّر السفن عن طريق الأشرعّة، وحديثاً هذه المادّة التي أشار القرآن إليها:

(الّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنْ الشّجَرِ الأخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ)

(سورة يس80)

إحدى نظريّات البترول أن في عصور الأمطار الغزيرة، وعصور النباتات العملاقة هذه كلها دُفِنَت تحت سطح الأرض، وأصبحت بترولاً.

(الّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنْ الشّجَرِ الأخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ)

لذلك عندما قال ربنا عزّ وجل:

(وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً)

(سورة النحل: آية " 8 ")

أحياناً يستخدم الإنسان هذه لا لينتقل بها من مكانٍ إلى مكان، بل ليزهو به أمام أترابه..

وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ

لولا هذه الكلمة في هذه الآية لما كان هذا الكتاب كلام الله، النبي عليه الصلاة والسلام في عصره ما كان يُعْرَفُ إلا الخيل، والبغال، والحمير، هذه الوسائل الحيوانيّة في التنقّل، أما الطائرات، والمركبات، والصواريخ، والسيارات، والقطارات فهذه لم تكن معروفة، لكن الله يعلم ما سيكون، فقال:

(وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ)

والعلماء استنبطوا من قوله تعالى:

(وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ)

أن الفكرة من عند الله، وأن المواد الأوليّة من الأرض، وأن الطاقة التي تتحرّك بها من خلق الله عزّ وجل، فعُزِيَ خلق هذه المركبة إن كانت طائرة، أو مبحرة، أو على اليابسة تسير عُزِيَت إلى الله عزّ وجل.

هذا الكون لولا أن له قوانين ثابتة، ولولا أن الله أودع في الإنسان عقلاً فيه مبادئ تتوافق مع هذه

القوانين، ولولا أنه أعطى كل شيءٍ في الأرض خاصّة، وهدى الإنسان إلى اكتشافها، ولولا أن الله ثَبّتَ الخواص لما أمكن أن نستفيد من هذا الكون، ولما كان لهذه الآية من معنى.

معنى (سخّر) أي جعل الماء يدفع الأجسام نحو الأعلى، وجعل الرياح تسير بسرعات معيّنة، وبعض المواد تطفو على سطح الماء، وأعطى الإنسان عقلاً كشف هذه الخصائص، وصنع من كل هذه الخصائص مركبة، أو سفينة تمخر عُباب البحر..

(اللّهُ الّذِي سَخّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ)

اللّهُ الّذِي سَخّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ

إنه الله، فهل عرفتموه ؟ هل عرفتم هذا البحر الذي تقف على شاطئه، وتنعم برؤية منظره الجميل، والذي يُقِلّكَ من مكانٍ إلى مكان، والذي تأكل منه السمك الطري، والذي تستخرج منه حلية لنسائك يتزيّن بها من أجلك، هذا البحر هل عرفت أنه مسخّرٌ لك ؟

الأشياء لها خصائص، ولولا أن هذه الخصائص ثابتة لما استفدنا منها، الحديد له خاصّة، الفولاذ له خاصّة، النحاس له خاصّة، القصدير له خاصّة، الرصاص له خاصّة، الخشب له خاصّة، والخشب أنواع تزيد على مئة نوع، ولكل نوع خاصّة، والعقل اهتدى لهذه الخواصّ، العقل البشري مع ثبات الخصائص هو الذي جعل الإنسان يستفيد من هذا الكون.

البقرة مسخّرة.. مثلاً.. لولا أنها تنقاد لما أمكن الإنسان أن يستفيد منها، الغنمة مذلّلة ومسخّرة، وهناك حيوان بحجمها غير مذلّل، كالضبع، العقرب غير مذلّل، إذا رأى الإنسان عقرباً قفز من مكانه، وصرخ بأعلى صوته، بينما يقود جملاً وزنه عشرة أضعاف وزن الإنسان، وهو مطمئن، هذا التذليل من فضل الله ونعمته، وليس من جهد الإنسان وعقله، الله جلّ جلاله جعلها مذلّلة.

إذاً: ينبغي أن نعلم أن الكون كله مسخّرٌ لهذا الإنسان تسخير تعريفٍ وتكريم، إنسان أهداك هديّة ثمينة جداً، ألا ينبغي أن تشعر تجاه الذي قدّمه لك بشعورين اثنين ؟ الشعور الأول شعور الامتنان، والشعور الثاني شعور التقدير، شعور امتنان لأنه قدّم لك هديّةً من دون ثمن، وشعور التقدير لهذا العلم العالي الذي ينطوي عليه هذا الجهاز، لذلك ربنا عزّ وجل سخّر لنا هذا الكون تسخيرين ؛ تسخير تعريفٍ لأسمائه الحُسنى، وتسخير تكريمٍ لنا، لذلك قال تعالى:

(تَبَارَكَ اسْمُ رَبّكَ ذِي الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ)

(سورة الرحمن87)

الله عظيم، والله كريم، والإكرام من آثاره الحب، والعظمة والجلال من آثارها الإعجاب والتقدير، فربنا عزّ وجل في أكثر من آية وردت يقول:

(ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ)

(الرحمن27)

بقدر ما هو عظيم بقدر ما هو مُكْرِم، بقدر ما ينبغي أن تعظِّمه بالقدر الذي ينبغي أن تحبه..

(ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ)

(الرحمن27)

الآية قطعيّة الدلالة، واضحة، وبنصها جعل الكون مسخَّرًا لهذا الإنسان، بسماواته وأرضه، بشمسه وقمره، بليله ونهاره، بفصوله، بالهواء الذي نستنشقه، الهواء الذي له نسبٌ ثابتة، ولولا أن النبات يأخذ من الهواء غاز الفحم ويطرح الأكسجين، ولولا أن الإنسان يأخذ الأكسجين، ويطرح غاز الفحم لما ثبتت هذه النسبة في الهواء، الهواء ذو نسبٍ ثابتة، الطعام الذي تأكله، النبات الذي تتمتّع بمنظره، التضاريس التي تألفُها، الجبال لها مناخ خاصّ، والسهل له مناخ خاص، والساحل له مناخ خاص، والوديان لها مناخ خاص، والأغوار لها مناخ خاص، والصحراء لها مناخ خاص، ومن تفاوت هذه المناطق المناخيّة يتحرّك الهواء.

ما فائدة الصحراء ؟ لولا أن الصحراء كمنطقة حارّة تسخِّن الهواء، فيتمدّد، فيتخلخل الضغط لما أتى الهواء البارد من منطقةٍ أخرى ذات ضغطٍ مرتفع، فالضغط المنخفض يكون الهواء فيه مخلخلا، المنطقة حارّة، والضغط المرتفع المنطقة فيه باردة، والهواء كثيف، فإذا كان هناك تفاوت في الضغطين تحرّك الهواء ذو الضغط الأعلى إلى المكان الذي فيه هواء لضغطٍ أقلّ، لولا أن هناك صحارى حارّة ومناطق باردة لما تحرّك الهواء على سطح الأرض، هذه تسخير الرياح، هذه حكمة الهواء، إذاً الصحراء لها وظيفة، في أكثر النشرات الإخباريّة يقال لك: يوجد منخفض متمركز فوق قبرص، حتى الجُزُر لها آثار كبيرة جداً في مناخ القارّة، الجزر تستقطب أحياناً المنخفضات الجويّة، وتحرّكها حيث تتجه نحو المناطق الداخليّة في الأرض، هذا علم قائم بذاته، علم المُناخ.

هذا الكون مَعْرِض لعظمة الله، كيف أن الشركات أحياناً تشترك في معرض، ولله المثل الأعلى، تبرز بضاعتها الجميلة معروضة عرضًا رائعًا، الكون كلُّه معرضٌ لأسماء الله الحُسنى وصفاته الفُضلى، فإذا أردت أن تعرفه فلا سبيل لك إلا الكون، من خلال الكون تتعرّف إلى الله عزّ وجل، لهذا قال الله عزّ وجل:

(فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ)

(سورة الجاثية)

اللّهُ الّذِي سَخّرَ لَكُمُ البَحْرَ

لا يوجد حديث آخر، لأن الحواس الخمس لا يمكن أن ترى الله، قال تعالى:

(لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ)

(سورة الأنعام: آية " 103 ")

لذلك قال عليه الصلاة والسلام:

((تفكّروا في مخلوقات الله ولا تفكّروا في ذاته فتهلكوا))

[الجامع الصغير عن ابن عباس بسند حسن]

السبيل الوحيد لمعرفة الله أن تتأمّل فيما حولك، كل شيءٍ صغر أم كبر، بَعُدَ أم قرب ينطق بعظمة الله، وما عليك إلا أن تتأمّل..

(اللّهُ الّذِي سَخّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ)

اللّهُ الّذِي سَخّرَ لَكُمُ البَحْرَ

توجد أسماك في البحار كالأزهار تماماً، كأنها إناء فيه أزهار، فإذا مرّت سمكة لامستها أغصان هذه الأزهار، فخدِرت، وسقطت، وابتلعتها.

توجد أسماك في البحار كالطبيبات، يصطفُ أمامها السمك في نَسَقٍ طويل، وتعيش هذه الأسماك على القروح التي تتوضّع على جلد الأسماك، فتنظِّفها، وكأن هناك عرفاً في البحار أن هذه الأسماك التي تعمل كطبيبات لا أحد يلتهمها، إنها في حصن، وقد قرأت بحثاً مطوّلاً حول هذا الموضوع، ورأيت بأمّ عيني الصورة الملوّنة كيف أنّ نسقاً طويلاً من الأسماك ينتظر كل منها دوره في المعالجة، فهذا السمك فيه آيات عظيمة جداً، وهو مسخّر لنا ؟

قال لي صيّاد: إنه يصنع مكعّب من الحديد الشبك، وله فتحة كالعنق، السمكة تدخل فإذا دخلت لا تستطيع أن تخرج أبداً، فالسمك لا يستطيع أن يخرج من مكان صغير، لولا هذه الخاصّة لما أمكننا أن نأكل السمك، كل الشباك أساسها الدخول من مكان واسع، والسمكة ليس بإمكانها أن ترجع نحو الوراء، لا يوجد رجوع، ولا تستطيع أن تدخل إلا من مكانٍ واسع، فإذا ضاق عليها المكان ليس عندها قوّة تسديد، لكن الخفّاش مثلاً لو وضعته في غرفة، وقسمت الغرفة بحاجزٍ إلى قسمين، وفتحت في هذا الحاجز ثقباً لا يزيد قطره على حجم الخفّاش، يقطع الخفّاش من قسمٍ إلى قسم مئة مرّة دون أن يلامس

جناحه جدار هذا الثقب، الخفّاش بإمكانه الخروج من مكان ضيّق، أما السمك فليس بإمكانه، لذلك بهذه الطريقة يُصاد السمك، عن طريق الشباك ذات الجهة الواحدة.

والسمك عنده جهاز هو سطح مُقعّر يوجد في أسفله حبّات رمل، وفي قعره أعصاب حسّاسة، فما دامت الحبّات في مكانها فالسمك نحو الأعلى، فإذا قلب جسمه تحرّكت الرمال بفعل الجاذبيّة، فعرفت السمكة أنها في اتجاه القعر لا في الاتجاه الأعلى، ثم إن فيها خطّا، وهو خط ضغط في القسم الأول من سطحها الخارجي، هذا الخط أنبوب مفرّغ من الهواء، فبحسب ضغط الماء على هذا الخط تعرف السمكة أين هي من سطح الماء دائماً، وقد ورد في الحديث الشريف:

((أُحِلَّتْ لَنَا مَيْتَتَانِ: الْحُوتُ وَالْجَرَادُ))

(سنن ابن ماجة عن ابن عمر)

ولكن السمك لا يُذْبَح، والذبح فيه تذكية للحيوان.

كلكم يعلم أن الدم محرّم أكله، وأن النبي صلى الله عليه وسلّم حينما أمر بذبح الأوداج دون قطع الرقبة هذا الأمر النبوي لا يعرف أحدٌ زمن الرسول حكمته، لأن معطيات العلم وقتها لا تسمح أبداً بتفسير هذا الأمر النبوي، الآن عرفنا أن القلب ينبض ثمانين نبضة بأمرٍ من القلب ذاته، بمركز كهربائي أول وثانٍ وثالث، لكن إذا كان الأمر يقتضي أن يضرب القلب مئة وثمانين ضربة فإن هذا الأمر الاستثنائي يجب أن يأتيه من الدماغ، أو يجب أن يأتي عن طريق الدماغ من الكظرين فوق الكليتين، فإذا قُطع الرأس تعطّل الأمر الاستثنائي، فضربات القلب البطيئة لا تكفي لإخراج الدم من الخروف، لذلك نهى النبي عن قطع الرأس، وحينما تُقْطعُ الأوداج تنشأ حالة خطر عند الحيوان، فيأتي الأمر من الكظر إلى الدماغ إلى القلب بمضاعفة الوجيب، فالمئة وثمانون ضربة كافية أن تجعل الدم كله خارج الذبيحة، يصبح اللحم أحمر اللون، أزهر اللون رائعاً، فكيف أحلّ النبي صلى الله عليه وسلّم وهو المشرّع ؟

(وَمَا آتَاكُمْ الرّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا)

(سورة الحشر: آية " 7 ")

كيف أحلّ النبي لنا لحم السمك الذي لا يُذْبَح ذبحاً، بل يُصطاد اصطياداً ؟ فالسمكة تموت حينما تُخرَج من الماء، هنا الإعجاز، العلماء قالوا: " السمكة حينما نصطادها ينتقل دمها كله إلى غلاصمها نهى وكأنك ذبحتها "، فدم السمكة كلّه ينتقل إلى الغلاصم، يفتح الغلاصم نهى فإذا كانت ممتلئة بالدم فهذه السمكة قد اصطيدت صيداً، أما السمكة الطافية في بعض المذاهب لا يجوز أكلها، لأنها ميتة، فإذا كانت الغلاصم ليس فيها أثر للدم فهذه سمكة ميّتة، وليست مصطادة، أما إذا اصطدت سمكةً فينبغي أن تكون غلاصمها ممتلئة بالدم الأحمر القاني.

هناك معلومات عن الأسماك تضيق بها الدروس، تضيق بها المجلّدات، البحر شيء رهيب، ولا يتصوّر العقل عظمته، ومع ذلك يذهب الإنسان أحياناً إلى البحر ليستمتع بمائه، وبمنظر البحر، وهو غافلٌ عن الله عزّ وجل، وكثيراً ما تُرْتَكب المعاصي على شواطئ البحار، بدل أن نُسَبّح الله، وأن نوحِّده، وأن نخشع لعظمته، وأن نسجد لإنعامه وفضله تُرتكب المعاصي أكثرها على شواطئ البحار، هذا معنى قول الله عزّ وجل:

(ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ)

(سورة الروم: آية " 41)

إما في البواخر العملاقة التي فيها كل الموبقات، أو على شواطئ البحار..

(اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ)

لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ

أي أن هذه السفينة العملاقة تتحرّك بأمر الله، لأنه حينما يريد الله إغراق سفينة فلا رادّ لقضائه، السفينة التي قال عنها من بناها: إن هذه السفينة لا يستطيع القدر إغراقها، في عام ألف وتسعمئة واثني عشر، اسمها (التيتانيك)، كانت تضمّ نخبةً من أثرياء أوروبة، ثمن الحِلي الذي على النساء في هذه الباخرة يُقدّر بمئات الملايين، فيها المسابح، فيها المطاعم، فيها الأبهاء الواسعة، الثريّات، هي من أعجوبة العصر، وأضخم سفينة، وقد صُنِّعت جدرانها طبقتين، وبين الطبقتين حواجز، فلو أنها خُرِقت يكفي القبطان أن يُغْلِق الحواجز، فيبقى الخرق محصورا ومحدوداً، ومع ذلك في أول رحلةٍ لها من أوروبة إلى أمريكة غرقت في عرض المحيط الأطلسي، وقبل سنة فيما أعتقد عرفوا مكانها، واستخرجوا بعض ما فيها من الثروات، لذلك:

(لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ)

لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ

لا بأمر قبطانها، قبل سنة أو سنتين أبحرت باخرة من جدّة إلى مصر، فجأةً غرقت في وسط الجُزُر المرجانيّة، يركب رجل في أفخر غرفة من الدرجة الأولى فوجد نفسه يعالج مياه البحر، وراح من القتلى أعداد كبيرة جداً، فغرقُ الباخرة بأمر الله عزّ وجل، والطائرة شيءٌ آخر، تجدها وقد سقطت، ومات جميع ركّابها، هذه الطائرة التي تطير في جو السماء أيضاً بأمر الله عزّ وجل، ولو شاء الله لها أن تسقط لسقطت، فما قولكم أن تُرتَكب المعاصي على مَتْن الطائرات ؟ وأن توزّع الخمور على متن

الطائرات ؟ وأن تُرتكب الموبقات على متن الطائرات ؟ هذا هو الفساد الذي ظهر في البر والبحر والجو، لذلك قال تعالى:

(أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ (43) أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ (44) سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (45) بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ (46))

(سورة القمر46)

(وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)

وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ

قد تأكل فاكهةً ليست من بلادنا، هذه مستوردة، أو سُمِح باستيرادها حديثاً، كيف انتقلت ؟ عن طريق البحار، قد تشرب قهوة في فنجان، هذا من أين جاءنا ؟ من آخر الدنيا، قد تشتري خشباً لتبني بيتاً، هذا الخشب من أين جاءنا ؟، إن تسعة أعشار المواد التي نستهلكها مستوردة، كيف انتقلت إلينا ؟ هذا معنى قوله تعالى:

(وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)

وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ

لذلك قد يكون البحر مادّة للتفكّر، قد يكون البحر أحد أكبر الموضوعات الدّالة على عظمة الله عزّ وجل، فإذا ذهب الإنسان إلى البحر فعليه أن يفكّر، من حرّك هذا الماء ؟ من جعله ساكناً، وكأنّه صفحة زيت ؟ ومن جعله هائجاً، وكأنّه الجبال ؟

(وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ)

(سورة هود: آية " 42 ")

إنّ بعض الأمواج ارتفاعها عشرين مترًا، وهو ما يساوي ارتفاع بناء مؤلّف من ثلاثة طوابق تقريباً، وقد تبدو أكبر باخرةٍ كأنها ريشة، وقد أصاب إعصار المحيط الأطلسي في شاطئ أمريكة الشرقي، وكانت الخسائر ثلاثين مليار دولار، وقبل عشر سنوات تقريباً جاءت عاصفة بحريّة على الشاطئ السوري صدعت الميناء، لم يبق مقهى على الشاطئ من الشمال إلى الجنوب إلا وقد غمره الماء، فحينما يهيج البحر لا يقف أمامه شيء.

لقد بُنيت قاعدة نفطية في بحر الشمال، واستخرجوا النفط من قعر هذا البحر، والعمق خمسة آلاف متر، والبترول اكتشفوه على عمق خمسة آلاف متر أخرى، وأوصلوا فوهة البئر إلى سطح البحر بأساليب عجيبة، ثم بُنيت محطّة عائمة، مدينة فيها مطار، مكاتب، كل شيء في هذه المدينة، وقد دُرسَت

دراسة محكمة، درست المنطقة خلال سنوات طويلة، ودرست ارتفاع الأمواج والعواصف يقف أمامه وما إلى ذلك، وعلى غير المتوقّع جاءت عاصفةٌ يقف أمامه وحطّمت هذه المدينة قبل أعوام، أحياناً تجد ناقلة نفط تحمل مليون طن تتحطّم بفعل أمواج البحار، فلذلك البحر ذاته آية كبيرة، يمكن أن نعرف الله من خلال البحر.

أحياناً يتجلّى الله على البحر باسم (الجميل)، فأن تركب البحر متعة من متع الحياة، وأحياناً ينخلع القلب حينما تكون على سطح البحر، والله سبحانه وتعالى يستدرج أحياناً أهل الدنيا إلى البحر، فإذا صاروا على مَتْن سفينةٍ هاجت الأمواج، وماجت، وقالوا: يا الله، فإذا أعادهم إلى البر عادوا إلى معصيته كما كانوا.

الغوّاصة تقليدٌ للسمك، طبعاً السمك فيه أكياسٌ هوائيّة في أحشائه، فإذا أفرغها من الهواء غاص، أما إذا ملأها هواءً طفا، من أين يأتي بالهواء ؟ جهاز الهضم في السمك يُصنِّع من الغذاء هواءً، يُصنَّع الهواء فتملأ به الأكياس فيطفو على سطح الماء، وهذا مبدأ الغوّاصة نفسه، التي إذا انحدرت تحت سطح البحر إلى أقلّ من مسافة معيّنة قد تكون مئتي متر تتحطّم بفعل ضغط الماء، فما بال هذه السمكة التي لها أرجل، وتجري في قعر المحيط ! وتتحرّك في قعر المحيطات تحت اثني عشر ألف متر، ما بالها لا تتحطّم ؟ العلماء درسوا هذه الظاهرة فوجدوا أن فيها أجوافًا داخليّة يدخل فيه الماء، فصار الضغط متكافئًا، كما لو أن الإنسان سمع صوت مدفع، وفتح فمه، يدخل الصوت مرّة من فمه، ومرّة من أذنه فيتعادلا، أما لو بقي مغلقاً فمه، ينثقب غشاء الطبل، كذلك هذا السمك الذي في قعر البحار له أجواف فيها من ماء البحر، فصار الضغط متكافئًا، هذه بعض آيات الله الدّالة على عظمته.

شيء آخر، يجب أن يكون الإنسان في البحر مع الله دائماً، لأن هناك أخطار، فهناك سمك القرش، وهو من أشدُ الأسماك توحُّشاً، لذلك ما من إنسان يسبح في البحر إلا وفيه قلقٌ من سمك القرش، من أجل أن تكون مع الله دائماً لا أن تنسى، كبار السبّاحين لأتفه الأسباب ابتلعهم السمك، أحياناً يفتحون بطن سمك فيجدون فيه آثار عظام، آثار ساعات، لأنه كان قد التهم بعض السبّاحين، هناك أسماك كبيرة في الشواطئ، هذه الأسماك آتاها الله ذكاءً عجيباً، وهي الدلفين، لو درست وظيفتها على شواطئ البحار لوجدت أن وظيفتها إنقاذ الغرقى، تألف الإنسان أُلفةً لا حدود لها، وتحب الإنسان حبّاً شديداً، وتقود أصحاب السفن إلى شواطئ الأمان، وتنقذ الغرقى، هذه مهمّة هذه الأسماك.

وإذا أردت كائناً بحريًا يُعدُّ عملاق البحر فهناك الحوت الأزرق، وزنه مئة وخمسون طنًا، هذا الحوت ثروة كبيرة جداً، لكنّه الآن في طريق الانقراض، هذا الحوت يتنفّس الهواء، لولا أنه يتنفّس الهواء لما أمكن اصطياده، لأن بقيّة الأسماك تتنفّس عن طريق الغلاصم من أكسجين الماء، ويلاحظ في أحواض

الأسماك توجد فقعات هواء، فالسمك يتنفّس الأكسجين الممزوج بالماء، لكن الحوت أصله من الثدييات لا يتنفّس إلا بالهواء، فالحوت يخرج إلى السطح ليتنفّس فيصطاده الإنسان، هذا معنى:

(سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ)

والعجيب أن الأخبار عن البحار أخبار غريبة جداً، فإذا قرأ الإنسان، وإذا تأمّل، وإذا درس، وإذا سافر ينبغي أن يعلم أن البحر آية كبرى من آيات الله الدالة على عظمته.

ثم إنكم إذا أكلتم سمكاً صغيراً تشعرون ببعض اللُقيمات بمادّة كأنّها خشنة، هذا مبيض السمكة، المبيض فيه مئات ملايين البويضات، لو أن كل بويضةٍ أصبحت سمكة لجفّت مياه البحار، ولامتلأ البحر سمكاً، لولا أن السمك الكبير يلتهم الصغير، كما لو أنك طبخت في وعاءٍ فوضعت بقولاً وجفّ الماء، لذلك ثروات البحار كبيرة جداً..

(اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)

اللحم لم يُذكر طريّاً إلا في السمك..

(لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا)

(سورة النحل: آية " 14 ")

ولحم السمك له فوائد كبيرة جداً على القلب والرئتين، والأوعية والشرايين، بل إن هناك أمراض كثيرة جداً علاجها في لحم السمك أحياناً، فهو غذاء أساسي جداً..

(وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (12) وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ)

وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ

الآن عطفنا العام على الخاص، السماوات والأرض كلها مسخّرةٌ لهذا الإنسان..

(جَمِيعاً مِنْهُ)

أي عطاءً منه..

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)

هل بعد هذه الآيات من آيات ؟ هل هناك غموض في هذه الآيات ؟ أي أن السماوات والأرض مسخّرة لهذا الإنسان، فما قولك أيها الأخ الكريم أن كل شيءٍ خلقه الله يسبّح الله ؟..

(وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ)

(سورة الإسراء: آية " 44 ")

ما قولك في أن هذا المخلوق المكرّم الإنسان الذي خُلِقَت له السماوات والأرض، وسخرت له هو وحده غافل ؟ والكون كله يسبح الله عزّ وجل، هو وحده الغافل، لذلك:

(وَلا تَكُنْ مِنْ الْغَافِلِينَ)

(سورة الأعراف205)

إذا أكل الإنسان شيئًا، أو شرب شيئًا، أو سافر، ونظر، وتأمّل عليه أن يسبّح الله.

((أمرت أن يكون صمتي فكراً، ونطقي ذكراً، ونظري عبرةً))

[مشكاة المصابيح عن أبي هريرة]

الطرق إلى معرفة الله ثلاثة:

ثلاثة طرق إلى الله..

الطريق الأول: هو الكون إلا أن الكون أقصر الطرق وأوسعها، أوسع بابٍ تدخل منه على الله وأقصر طريقٍ إليه.

وفي أسلوب آخر:

(قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ ثُمّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ)

(سورة الأنعام 11)

الطريق الثاني: أن تفكِّر في أفعال الله، كيف الله عزّ وجل يمحق مال المرابي، ويُرْبي مال الصدقة، يقصم الظالم، ويعز المستقيم، كيف أنه يوفِّر الرزق الوفير لمن استقام على أمره، فأفعال الله وحدها تعرّفنا بذاته.

والطريق الثالث: هو القرآن الكريم، القرآن الكريم للتدبُّر، وأفعال الله للنظر، والكون للتفكّر، فإذا جمعت بين التدبُّر والنظر والتفكّر فقد سلكت الطرائق الثلاثة إلى الله عزّ وجل، هذا في العلم بالله.

أما العلم بأمره فيحتاج إلى مدارسة عن طريق معرفة أحكام الفقه:

(إنّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكّرُونَ)

إنّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكّرُون

فالتفكّر في خلق السماوات والأرض من أرقى العبادات..

" تفكُّر ساعةٍ أفضل من تعبد الله سبعين عاماً ".

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الجاثية 045 - الدرس (4-8): تفسير الآيات 14 – 19
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 23-09-1994

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الرابع من سورة الجاثية، ومع الآية الرابعة عشرة، وهي قوله تعالى:

(قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْماً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (14) مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ(15))

قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ

هؤلاء الذين لا يرجون أيام الله هم الكافرون، المؤمن يرجو أيام الله، يرجو نصره وتأييده في الدنيا، ويرجو عطاءه في الآخرة، فالأيام التي يتحقق فيها وعد الله ووعيده هي أيام الله، فالمؤمن يرجوها، يرجوها عطاءً، ويخافها ابتلاءً، يرجوها عطاءً ويخافها عقاباً، فإذا أردت صفة بارزةً في المؤمن فهو يرجو أيام الله، آماله كلها معقودةٌ على عطاء الله، رغائبه كلها موجّهَةٌ إلى ما عند الله، كل آماله أن يرضى الله عنه، وأن ينجيه من عذاب النار، وأن يدخله الجنة، فأيام الله هذا معناها، أي الأيام التي يتحقق فيها وعده أو وعيده.

المؤمن يدخل في حساباته اليومية هذه الأيام، الذي يأكل أموال الناس بالباطل ولا يرجو أيام الله، لا يخاف يوماً يمحَق الله ماله، والذي يعتدي على أعراض الناس لا يرجو أيام الله، ولا يخاف يوماً يعتدى على عرضه، والذي يظلم لا يرجو أيام الله، ولا يخاف يوماً يُكال له الصاع صاعين، فأيام الله المستقبل، المستقبل فيه أيام، فيه وعد ووعيد، الكافر يرثى له، فلماذا يقول الله عزّ وجل للمؤمنين:

(قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ)

هؤلاء مساكين، هؤلاء في عمى، هؤلاء كانت أعينهم في غطاءٍ عن ذكري، هؤلاء عُمِّيَت عليهم رحمة الله، إذاً يرثى لحالهم، إذاً وضع المؤمن مع أهل الدنيا، مع الضائعين، مع الشاردين، مع التائهين، مع الضالين، مع الكفار، لا وضع ند لند، وضع طبيب مع مريض، حقيقة المؤمن إذا رأى إنسانًا شاردًا يرتكب المعاصي، يتباهى بالموبقات، يقول: هذا إنسان يرثى لحاله، فيشفق عليه، إنه جاهل، وسوف يدفع الثمن باهظاً، جاهل وسوف يشقى في الدنيا والآخرة، فأنت فضلاً على أنه سيشقى في الدنيا والآخرة اغفر له، عالجه..

(قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ)

قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ

الحقيقة أن المؤمن سعيد، وقد يسأل سائل: كيف هو سعيد، وهو يعيش بين الناس، يصيبه ما يصيبهم ؟ الجواب: أن المؤمن لأن الله وعده بالجنة، ولأن الله راضٍ عنه، شعوره أن الله راضٍ عنه، وأنه موعودٌ بالجنة، هذا الشعور يمتص كل متاعب الحياة.

مثلا: اختار طالب جامعي فرعًا راقيًا جداً، وعنده آمال كبيرة جداً في المستقبل، دخلٌ كبير، وتحقيق لكل أهدافه، في أثناء الدراسة على الرغم من الدوام الطويل، والكتب الصعبة، والفحوص الشديدة، والإجراءات الدقيقة تراه مسرورًا، لا بيومه، ولكن بغده، فالمؤمن ربما تحمل من شَظَفِ العيش، ربما تحمل بعض المضايقات، ربما واجه بعض الاعتراضات، ربما كاد له الكفار، ربما ضَيَّقوا عليه الخِناق، ربما كان دخله أقلّ مما ينبغي، ربما كانت مكانته في الدنيا متوسّطة، متواضعة، لم يكن من أهل الحول والطول، الذي يغطي كل ذلك أن الله وعده بجنةٍ عرضها السماوات والأرض..

(أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا)

(سورة السجدة: آية " 18 ")

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ الْمُحْضَرِينَ)

(سورة القصص61)

هذا توجيه إلهي لطيف، المعنى التوجيهي: أن هذا الكافر، هذا المشرك، هذا العاصي، هذا الفاجر، هذا لا يرجو ما عند الله، لا يخاف وعيده، ولا يرجو وعده، لأنه في عمى، لأنه جاهل، فأنت أيها المؤمن أكبر منه، وأوسع أُفُقاً منه وأشد بصيرةً منه، قلبك مستنير، أنت رأيت الحق، رأيت مصائر الناس، كيف أن المؤمن سيصير إلى جنةٍ عرضها السماوات والأرض، وكيف أن الكافر سينتهي في الدنيا إلى عذاب وفي الآخرة إلى عذاب، فهذا يستحق الشفقة، لا يستحق أن تحقد عليه، ولا أن تنتقم منه، ولا أن تشعر أنك في مستواه، أنت أكبر منه بكثير، إذاً:

(قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْماً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)

صبر النبي صلى الله عليه وسلم على أهل الطائف وإيذائهم

الحقيقة: ما الذي حمل النبي صلى الله عليه وسلم على أن يقول لأبناء الطائف حينما بالغوا في الإساءة إليه، وحينما كذّبوه وسخروا منه، وحينما دفعوا صبيانهم ليضربوه، لماذا حينما عرض عليه جبريل عليه السلام أن يطبق عليهم الأخشبين، لماذا وقف النبي صلى الله عليه وسلم هذا الموقف ؟ وقال:

((بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئا))

[الجامع الصغير عن عائشة بسند صحيح]

الحقيقة أن هذا موقف الطبيب من مريض، النبي صلى الله عليه وسلم ما رآهم أنداداً له، رآهم في جهلٍ عميق، وفي ضلالةٍ ضالة، وفي غِطاء، وفي ضياع، لذلك رثى لحالهم فقال:

((بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئا))

ما تخلّى عنهم، ولكن اعتذر عنهم، ودعا لهم، وتوسم في أولادهم الخير، إذاً أنت دائمًا تمتحن نفسك من هذا الموقف، إذا أساء كافر إليك، أو اعتدى ضال عليك، هل تراه نداً لك، أم ترى نفسك أكبر منه بكثير ؟ أنت المؤمن، أنت صاحب الأفق الواسع، أنت صاحب القلب المستنير، أنت الذي أكرمك الله بمعرفته، أنت الذي أكرمك الله بالاستقامة على أمره، أنت الذي عرّفك الله بحقيقة الدنيا وحقيقة ذاتك، وماذا بعد الموت، وماذا قبل الموت، فهذا الذي يناهضك، ويعتدي، ويتطاول جاهل ضائع، كأن الله عزّ وجل يريد من المؤمن أن يكون أكبر من أخطاء الآخرين، أن يتسع صدره لأخطائهم، ولتطاولهم، ولبغيهم، ولعداوانهم، فهو أكبر منهم عند الله بكثير..

(قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا)

قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا

فالمغفرة لا تكون تصنّعاً، لكن أساسها العلم، وأساسها الكمال، فكما أن الطبيب حينما يأتيه مريض مصاب بمرض جلدي مزعج هل يحقد عليه ؟ لا، بالعكس، يرثي لحاله، يرجو له الشفاء، ينصحه، فكلما رأيت نفسك فوق الحقد، وفوق الانتقام، وفوق الشعور أن هذا ند لك، كلما كنت بهذه الحالة فأنت أعلى عند الله، وأنت أكرم عند الله، وكلما رأيت الكافر نداً لك، وأردت أن تنتقم منه فأنت في مستواه، لذلك الأنبياء جاءوا بهذه الدعوة العظيمة، والنبي عليه الصلاة والسلام على رأسهم جاء بهذه الدعوة، لو أنه يرى المعارضين والكفار والمشركين نداً له لما كان نبياً عليهم، لكن النبي عليه الصلاة والسلام كان كالأب الرحيم، كالأم الرؤوم، يرى أخطاء الناس فيمتصها، ويتجاوزها، وكل إنسان أراد هداية الخلق ينبغي أن يتجاوز عن أخطائهم، فكما قال أحد الخلفاء: **" يا بنيّ، من عفا ساد، ومن حَلُم عَظُم، ومن تجاوز استمال إليه القلوب "**، على كلٍ هناك أيام الله..

(لِيَجْزِيَ قَوْماً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)

لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ

إنسان عنده صندوق حديد، أي شيء يضعه في هذا الصندوق هو له، لو وضع قطعًا ذهبية له، لو وضع قطعًا معدنية له، ولو وضع موادّ سامة له، كله له..

(لِيَجْزِيَ قَوْماً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)

لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ

فإذا آمن الإنسان باليوم الآخر، آمن بالجزاء، آمن بعدالة الله عزّ وجل، لا يمكن أن يتجاوز الحدود، لأنه يعلم علم اليقين أن كل شيءٍ له عند الله حسابٌ دقيق.. لأن لكل حسنةٍ ثواباً، وإن لكل سيئةٍ عقاباً.
أيها الإخوة الكرام، يقول الله عزّ وجل بعد هذه الآية:

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا)

مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا

أجمل ما في الآية اللام وعلى..

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ)

مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ

هذه اللام لام المُلك، أي هذا يعود عليه بالخير، هذا له، هذا سينفعه يوم القيامة، هذا سينير له الطريق، سيكون في قبره مصباحاً وضاءً.

(وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا)

وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا

كأن الله عزّ وجل شَبَّهَ الإساءة بصخرة كبيرة تسحقه عليها، هو تحت وطأة إساءته، وشبّه العمل الصالح بشيء ثمين، قطعة ماس ثمنها ملايين، سبائك ذهبية..

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا)

يُشَمُّ من هذه الآية أن الإنسان مخيّر تخييرًا كاملاً، إن عملت كذا فالنتيجة كذا، إن عملت كذا فالنتيجة كذا، لولا أنه مخير فلا معنى لهذه الآية، لولا أن الإنسان مخير، والاختيار الذي منحه الله للإنسان هو الذي يثمّن عمله لما كان لهذه الآية من معنى إطلاقاً، فيا أيها الإنسان أنت مخير، فإن عملت صالحاً فلنفسك، وربنا عزّ وجل كلامه موجز، وقد قالوا: البلاغة في الإيجاز، أي عمل هذا ؟ يا ترى عمله في بيته ؟ عمله في حرفته ؟ كل واحد منا له حرفة، هذا مدرس، هذا مهندس، هذا طبيب، هذا بائع، هذا من أصحاب الحِرَف اليدوية.

وكل إنسان يعلم علم اليقين متى ينفع، ومتى يضر، متى يحسن، ومتى يسيء، متى يغش، ومتى ينصح، متى يتقن، ومتى يهمل.

أنت موظف، جاءك مواطن له عندك معاملة، لو أوهمته أنها تحتاج إلى يومين آخرين، وبإمكانك أن تخرجها من الدرج، وأن توقعها، وينتهي الأمر تعلم أنك أسأت، أطلت عليه الأمد، يأتيك المشتري وأنت بائع فقل له ما شئت، لكنك تعلم بالفطرة إن صدقته أو كذبته، إن نصحته أو غششته، إن أوهمته أو كنت صادقاً معه، هذه قضايا الفطرة مخيفة، لا تحتاج إلى تعليم، لا تحتاج إلى تذكير، فطرتك تكشف خطأك، وربنا عزّ وجل قال:

(بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ (14) وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ (15))

(سورة القيامة14-15)

أحياناً أنت أقوى من زوجتك، أقوى بكثير، أمْرها بكلمة تلفظها من فمك، لكنك إذا أسأت، وأقمت عليها الحُجّة تعلم أنك ظالم، وأنك تبالغ، وأنك لا تستقيم لك حجة عند الله، فالإنسان بصير على أعماله، وهنا المسؤولية، وهنا المحاسبة الدقيقة، في زواجك، مع أولادك، إن عدلت أو لم تعدل، مع زوجتك، إن أحسنت أو لم تحسن، مع زبائنك، إن نصحت أو غششت، مع صنعتك، إن أتقنت أو أهملت، يمكن أن توهم الناس بشيء لأمد طويل، ولا سيما أصحاب الاختصاص العالي، لا يكشفهم إلا أندادهم، من الذي يعلم أن هذا المريض لا يحتاج إلى تخطيط ؟ وأنك كلفته بالتخطيط لتزيد الربح، ما أحد يعلم إلا الله، المهندس، المدرس، ابنك يحتاج دروسًا خاصة، من يعلم ؟ الأب مستسلم، فعظمة الإيمان أن يرى الإنسان المؤمن أن الله عزّ وجل يراقبه، إذا دخلت في حالة المراقبة فقد وصلت إلى الجنة، وإذا دخلت في حالة المراقبة علمتَ أنّ الله يراقبك..

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً)

مَنْ عَمِلَ صَالِحًا

إياكم أن تظنوا أن الدين صلاةٌ فقط، وصيامٌ فقط، وحجٌ فقط، الدين يدخل في كل حركاتك وكل سكناتك، في عملك، كل كلمة تقولها لمن أمامك، أنت موظف، وهذا مُراجع، أنت طبيب، وهذا مريض، أنت مهندس، وهذا له عندك مشروع، أنت محامٍ، وهذا موكِّل، أنت تصلِح الأجهزة، وهذا أمامك جاهل، كل كلمة تقولها لمن أمامك الله يعلم ما إذا كنت صادقاً أو كاذباً، يعلم ما إذا كنت ناصحاً أو غاشاً، يعلم ما إذا كنت متجنياً أو منصفاً، الله يعلم، فلا يسعد الإنسان عند الله عزَ وجل إلا إذا رأى أن الله يراقبه،

(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا)

الكلام البليغ موجز:

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً)

مَنْ عَمِلَ صَالِحًا

ضمن الحرفة، ضمن البيت، ضمن العمل، ضمن النُزُهات، يمكن أن تعتدي على أعراض الناس، والناس لا يعرفون ذلك، لذلك الله عزّ وجل قال:

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ)

مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ

إذا وصل المؤمن إلى حال المراقبة مع الله، إذا شعر أن الله بالمرصاد، أن الله مُطّلِعٌ عليه، يعلم سرائره، يعلم نواياه، يعلم مقاصده، يعلم طموحاته، يعلم إلى ما يرمي بهذه الكلمة استقام على أمر الله. ومن أدق الآيات القرآنية:

(ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنّ اللّهَ يَعْلَمُ)

(سورة المائدة: آية " 97 ")

إذا وصلت إلى هذه الحقيقة، وهي أن الله يعلم فقد نجوت، لأنه إذا علمت أن الله يعلم، وسيجازي لا يمكن أن تعصيه أبداً، مستحيل، إذا أيقنت أنه يعلم وسوف يحاسب، ولن يفلت إنسان من قبضته، فقد نجوت، فإذا فهم الإنسان كتاب الله فهماً عميقاً، وكشفت له الحقائق، واستنار قلبه بنور الله عزّ وجل، تراه منضبطاً إلى أبعد الحدود، انطلاقاً من حبّه لذاته، انطلاقا من حبه لسلامته، انطلاقاً من حبه لوجوده، ولسلامة وجوده، ولكمال وجوده، ولاستمرار وجوده، لذلك كانت الاستقامة عين الكرامة، وكل كرامتك في الدنيا أساسها الاستقامة..

مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ

أحياناً قد يبدو لك ـ وهذا من الامتحان ـ أن دخلك يزداد إذا خرجت عن منهج الله، وهذا ما يقع فيه معظم الناس، فإذا كذبت عليهم، وتحكمت فيهم، وأنت تعلم، وهم لا يعلمون، تجني أرباحًا طائلة، وهذه أرباح توفّر لك حياة ؛ فتقتني البيت الفاخر، والمركبة الفاخرة، وتؤمّن لأولادك مستقبلهم، وتحل كل مشاكلك، لكن لا يمكن لإنسان أن يسلك طريق الانحراف و تنجح الخطة التي رسمها إلى ما لا نهاية، لابدّ من أن يفاجأ بأن الخطة التي رسمها لم تنجح، وأن الله عاقبه، لكن متى ؟ بعد أن يأخذ مجراها، فالله عزّ وجل لو عاقب الإنسان لعاقبه فور معصيته، لا يوجد اختيار، ألغي الاختيار، لو كافأه بعد الطاعة مباشرةً فلا اختيار.

ربما تطيعه فترة طويلة، ولا تجد أي ميزة لك، دخلٌ قليل، وبيت صغير، حياة فيها متاعب، وربما ترتكب أكبر المعاصي وإلى حين، سنة سنتين، ولا يحدث لك شيء، فأين الله ؟ هنا الاختيار، الله عزّ وجل سمح لك، تحقق اختيارك، تحقق شهواتك، تحقق كمالاتك دون عقاب، ودون ثواب، لكن بعد حين يشد الحبل، فقد أمّنت مستقبلك، ورتبت وضعك، والأمور كلها جيدة، فتفاجأ بمفاجئات لم تكن في الحسبان، هذا:

(أَتَى أَمْرُ اللهِ)

هذا:

(وَجَاءَ رَبُّكَ)

إلى أن تأخذ أبعادك كلها، إلى أن تحقق اختيارك، إلى أن تمضي فيما تريد، إلى أن تصل إلى كل غاياتك، فيقول لك: هل انتهيت ؟ الآن جاء الحساب، وحتى المؤمن يستقيم، يبالغ في الاستقامة، يبالغ في تحرّي الدخل الحلال، إلى أن يثبت لنفسه، وللناس أنه يريد وجه الله عزّ وجل، الآن تأتيك الدنيا وهي راغمة، لأنك نجحت في الامتحان، فليس هناك امتحان خلال دقيقة أو دقيقتين، بعدئذٍ يأتي الحساب..

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ)

لك..

(وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا)

وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا

العمل الصالح كالجوهرة الثمينة تتملّكها، والعمل السيئ كالصخرة الساحقة تسحق الإنسان، كلمة (لها) ومن كلمة (عليها)، الله عزّ وجل لم يقل: من عمل صالحاً فعلى نفسه، لم يقل: فمن أساء فلها، لا..

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا)

العمل السيئ يسحق.

(ثُمّ إِلَى رَبّكُمْ تُرْجَعُونَ)

ثُمّ إِلَى رَبّكُمْ تُرْجَعُونَ

أردت من هذه الآية أن العمل الصالح في بيتك، في عملك، في نزهتك، في أفراحك، في أتراحك، تعلم بالفطرة من دون تعليم، تضع قطعة أثاث خشب من أسوأ الأنواع، بعد حين تتحطم القطعة، من يعلم ؟ الله وحده يعلم، فالذي يصل إلى مرتبة المراقبة، وصل إلى الله، الذي يصل إلى مرتبة المراقبة وصل إلى سلامة الدنيا وسعادة الآخرة، الذي يشعر أن الله معه دائماً، كل كلمة سوف يُحاسب عليها، لماذا قلت كذا ؟ يقول لك الذ يريد أن يشتري حاجة من عندك: أنت اختر لي اللون، على ذوقك، بإمكانك أن تختار له أسوأ لون، لا يباع معك، وتقول له: هذا هو اللون الحديث، من يعلم ذلك ؟ الله يعلم، عندما خَيّرَكَ يجب أن تختار له أجمل لون، على هذا المستوى، فكل كلمة تقولها أنت مسؤول عنها..

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا)

مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا

لك أن تقول ما شئت، ولك أن تفعل ما شئت، لكن كله بحساب، كله بدقة بالغة، وكلما ظننت أن الله عزّ وجل لا يدقق تكون أنت لا تعلم، وما دام الله عزّ وجل قال:

وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرّةٍ شَرًا يَرَه)↓(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرّةٍ خَيْرًا يَرَه

(سورة الزلزلة7-8)

فقد انتهى الأمر.

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرّةٍ)

هذه الذرة ليس لها وزن إطلاقاً، يحملها الهواء، لو عملت عملاً صالحاً بمستوى هذه الذرة فهي مسجلة ومحفوظة عند الله، ولو عملت عملاً سيئاً بمستوى فهذه الذرة محفوظة عند الله عزّ وجل، هذا الدين، لذلك عندما يعرف الإنسان الله، ويراقبه دائماً لا يستطيع إلا أن يقول حقاً، إلا أن يقول صدقاً، لا يستطيع

إلا أن يكون صادقاً، مخلصاً، نصوحاً، أميناً، المؤمن شخصية فذّة كبيرة جداً، أنه أمين، صادق، عفيف، منصف، محسن، رحيم، الكمال البشري كله في المؤمن، كلمة مؤمن، يقول لك: فلان دكتور مثلاً، يضعون له دالاً، هذه الدال تعني ثلاثًا وثلاثين سنة دراسة، إذا قلت: مؤمن، فهذه كلمة، ولكن بالمعنى الذي أراده الله، بالمرتبة الصحيحة، كلمة مؤمن منصف، كلمة مؤمن لا يظلم، لا يكذب أبداً، لا يخون أبداً، مستقيم على أمر الله، وفق المنهج، يؤتمن على الملايين، مؤمن، والله الذي لا إله إلا هو لا يسمح له إيمانه أن يأكل درهماً واحداً حراماً.

ذكر لي أخ قصة أعدّها نموذجية، أخ من إخواننا بعدما سلك في الطريق إلى الله شوطًا لا بأس به، وهو يعمل في لف المحركات قال لي: قبل أن أتعرف إلى الله عزّ وجل يأتيني محرك محروق، الشرط خمسة أو ستة آلاف ليرة، يذهب الشخص، أفتحه فلا أجده محروقاً، أجد سلكًا مقطوعًا، ألحمه بالآلة خلال دقيقة، فلا يبقى في المحرك أي شيء، في زمن الجاهلية عندما يأتي صاحب السيارة في اليوم الثاني أقيم تمثيلية أمامه، بأن إصلاحها استغرق وقتا طويلا، قال لي: بعد ما عرفت الله عزّ وجل أقول له: خمسة وعشرين ليرة، فيستغرب الزبون !! فأخبره الحقيقة، من يعلم ؟ الله يعلم، هذه قصة واضحة، هكذا المؤمن، لأنه يعلم أن الله يعلم فهو وقاف عند حدود الله عزّ وجل.

وعلى هذا فقس كل المهن، التدريس، الهندسة، المحاماة، التجارة، صناعة غذائية، الآن الذي عنده صناعات غذائية من يعلم ماذا يضع في هذا البسكويت، فيه مواد غذائية سيئة جداً، منها مواد مسرطنة، من يعلم ؟ كشفوا في بعض المعامل أنها تضع صباغ البلاط في السكاكر، من يعلم ؟ الله يعلم، عظمة الإيمان أنك ترى أن الله يعلم، وهؤلاء عباده، فإذا أحسنت لهم أكرمك الله.

والله حدثني أخ، والله لا أنسى هذه الكلمة، له معمل في الصناعات الغذائية، قال لي: والله أنتقى المواد من أعلى درجة، لكي يرضى الله عني، هؤلاء لأنهم أبناء المسلمين، الخلق كلهم عيال الله، وأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله، وكثيراً من المعامل يضعون مواد سامة، مواد للدهان يضعونها في الطحينة، لتبييض لونها، فتباع بثمن أغلى، لا يعرفون الله أبداً، ولو أنهم صلوا في المساجد !!! فإنهم لا يعرفون الله أبداً، أما الدين فيدخل في الصناعة، ويدخل بالزراعة.

ففي الزراعة هناك مواد هرمونية، هذه المواد مسرطنة، تعطيها للشجر فيعطي ثمارًا كبيرة، وألوانًا زاهية، تبيع بضاعتك بالضعف تقريباً، لكن هذه الهرمونات ممنوعة دولياً، يمكن أن تستقيم على أمر الله، خذ نصف الدخل أو ثلثيه بالحلال، كثير من الصناعات الغذائية فيها انحرافات خطيرة تودي بحياة الناس، أو تؤذي أطفالهم، من يعلم ؟

أقول لكم كلمة: والله لا يمكن أن تستقيم الحياة دون إيمانٍ بالله، من يعلم ماذا تفعل أنت في المعمل ؟ ربما يكون الزيت نجسًا، سقطت فيه فأرة، من يعلم أن هذا الزيت رديء نجس ؟ يمكن أن تستعمله في

صنع الصابون، وتبيعه كزيت، وهو نجس، من يعلم ؟ الله وحده يعلم، فإذا علمت أن الله يعلم انتهيت إلى الجنة، والإنسان المستقيم لا يخسر، والإنسان المستقيم لا يضيعه الله، واسمعوا مني هذه الكلمة: والله زوال الكون أهون على الله من أن يضيّعَ مؤمناً مستقيماً، لكن قد يبدو له ربحه في الغش، وهذه رؤية شيطانية، قد يبدو له أن أرباحه الطائلة تحتاج إلى كذب، أو إلى غش، أو إلى بضاعة محرمة، أو إلى أعمال لا ترضي الله عزّ وجل، ما الذي يحصل ؟

يعطيك في بادئ الأمر أرباحًا طائلة، ثم يأتي القصم، مرض خبيث أتلف الحياة كلها.

أعرف رجلاً يعيش على إفساد أخلاق الشباب، عنده دار سينما، جمع ثروة جيدة جداً لكي يمضي حياته في الدعة والبحبوحة، أصيب بمرض خبيث في وقت التمتع بالحياة، بعد أن استقرت هذه الثروة بين يديه، فصار يبكي على أن كل هذا التعب لكي يرتاح بضع سنين، الله لم يسمح له أن يتنعم بها، لأن هذا المال أساسه مبني على إفساد أخلاق الشباب، كلما كان الفيلم فيه مناظر مؤذية أكثر كان الإقبال عليه أشد، لكن الله كبير، كلمة: (الله كبير) يجب أن تعلمها، كبير أيْ:

(إِنّ بَطْشَ رَبّكَ لَشَدِيدٌ)

(سورة البروج12)

تبني مجدك على أنقاض الناس، تبني ثروتك على متاعب الناس، الله ينتقم إن عاجلاً أو آجلاً، اسمعوا هذه الآية:

الآية الأولى:

(فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ)

(سورة النحل36)

الآية الثانية:

(قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ ثُمّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ)

(سورة الأنعام11)

إذا وجدت إنسانًا انحرف، وبعد الانحراف جاءته البطشة الكبرى، هذه على (الفاء)، وإذا انحرف الإنسان و أمد له الله فهذه على (ثم)، الفاء للترتيب على التعقيب، وثم للترتيب على التراخي، فعلى كلٍ لابدّ من الفاء أو من ثم، إما أن يأتي العقاب عاجلاً لحكمةٍ أرادها الله، أو أن يأتي العقاب آجلاً، لابدّ من العقاب.. إن لكل حسنةٍ ثواباً ولكل سيئةٍ عقاباً، والآية الأوضح من ذلك:

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرّةٍ خَيْراً يَرَهُ (7) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرّةٍ شَرّاً يَرَهُ (8))

(سورة الزلزلة7-8)

أبداً، هذا هو الدين، افعل ما تشاء

في آية قرآنية:

(اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ)

(سورة فصلت: آية " 40 ")

كلٌّ بحسابه، الآية دقيقة جداً.

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمّ إِلَى رَبّكُمْ تُرْجَعُونَ)

ترجعون لتقبضوا ثمن الطاعة، وتدفعوا ثمن المعصية، لتسعدوا بطاعتكم، وليشقى الإنسان بمعصيته.

(وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنّبُوّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطّيّبَاتِ وَفَضّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (16) وَآتَيْنَاهُمْ بَيّنَاتٍ مِنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ إِنّ رَبّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (17))

(وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ)

وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الكِتَاب وَالحُكْمَ

التوراة.

(وَالْحُكْمَ)

فَهْمَهُ..

(وَالنّبُوّةَ)

من فضل الله على بني إسرائيل أنه جعل فيهم النبوة إلى أمدٍ طويل.

(وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطّيّبَاتِ وَفَضّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ)

في زمانهم، لئلا يُفْهَمَ أنها مطلقة.

(وَفَضّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ)

في زمانهم.

(وَآتَيْنَاهُمْ بَيّنَاتٍ مِنَ الْأَمْرِ)

الأمر هو الدين.

(بَيّنَاتٍ)

دلائل واضحة، حجج، براهين قوية.

(فَمَا اخْتَلَفُوا إِلّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ)

فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمْ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ

الاختلاف: أنواع وأسبابه

وهذه الآية دقيقة جداً، الاختلاف له أسباب كثيرة، من أبرز أسبابه قلة المعلومات، أوضح مثل: سمعنا صوت مدفع ليلة العيد، فماذا نقول ؟ لعله مدفع العيد، لسنا متأكيدين، يقول قائل: لا، هناك تفجيرات في الجبل لشق طريق، لماذا اختلفنا ؟ لنقص المعلومات، هذا اختلاف طبيعي جداً، ومقبول، لكن الخلاف الخطير الخلاف القذر، ليس خلاف نقص معلومات، خلاف بغي وحسد، فمن المكن أن تعزي الخلافات بين المسلمين لا إلى نقص المعلومات، الكتاب واحد، السنة واحدة، علم الحديث واضح، حديث متواتر، صحيح، حسن، ضعيف، موضوع، الكتاب قطعي الثبوت، قطعي الدلالة، وظني الدلالة، الحديث ظني الثبوت، وظني الدلالة وقطعي، الكتاب واحد، الحديث واحد، الإله واحد، الكعبة واحدة، المنهج واحد، ومع ذلك هناك خلافات لا يعلمها إلا الله، يا تُرى هذه الخلافات بين المسلمين بسبب نقص المعلومات ؟ لا، المعلومات وافرة، بسبب الحسد والبغي والهوى، وربنا عزّ وجل لحكمةٍ أرادها أحياناً يتحدث عن بني إسرائيل، ونحن المعنيون، لأن الأمراض التي أصيبوا بها نحن معرّضون إلى أن نصاب بها مثلهم.

(وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ)

التوراة.

(وَالْحُكْمَ)

فهمه.

(وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ)

في زمانهم.

(وَآتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِنَ الْأَمْرِ)

أي كل شيء أمرناهم به، أو نهيناهم عنه بحجةٍ قويةٍ دامغة وبرهانٍ ساطع.

(وَآتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ)

العلم القطعي الواضح.

(بَغْياً بَيْنَهُمْ)

أي عدواناً على بعضهم بعضاً، حسداً لبعضهم بعضاً.

(رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ)

إنّ رَبّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ

وهذه الآية يمكن أن تنسحب على المسلمين تماماً، فالخلاف بين فرقهم وجماعاتهم، هذا خلاف ليس أساسه الجهل، لا، إن أساسه هو الهوى، وأساسه المصالح، وأساسه المكاسب، وأساسه حب الرئاسة، وأساسه حب السيطرة، وأساسه الحسد، وأساسه البغي، لمَ الخلاف وكتابنا واحد ؟ لِمَ الخلاف والسنة واحدة، والنبي صلى الله عليه وسلم واحد، والأمور واضحة، والقرآن بلسانٍ عربيٍ مبين، فلِمَ الخلاف ؟ لمَ التشرذم ؟ لمَ التقوقع ؟ لمَ تراشق التُهَم ؟ لمَ الطعن ؟ لمَ الإنكار ؟ لمَ البغضاء ؟ لِمَ العداوة ؟ لمَ التحزُبات ؟ فهؤلاء ما اختلفوا لجهلٍ، بل اختلفوا وهمْ في أعلى درجات العلم، معهم كتابٌ واضحٌ كالشمس، معظم آياته محكمات لا تحتاج إلى تفسير، الآيات المتشابهة قليلة، آيات العقيدة محكمة، آيات العبادات محكمة، آيات التشريع محكمة، لا إشكال أبداً، والأحاديث واضحة، بَيّنَة، فلماذا اختلفوا ؟ اختلفوا طمعاً في المكاسب، كلٌ يدعي وصلاً بليلى، كل جماعة تدعي أنها على حق، وما سواها على باطل، هذا حسد، هذا بغي، هذا حب رئاسة، هذا هوى، هذا عدوان، هذه هي المشكلة.

(وَآتَيْنَاهُمْ بَيّنَاتٍ مِنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ إِنّ رَبّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ)

هنيئاً لمن كان على حق، وكان مستقيم السريرة، وكان مخلصاً في دعوته، وكان وَفْقَ الكتاب والسنة، وكان متعاوناً مع الآخرين.

ثُمّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتّبِعْهَا

(ثُمّ جَعَلْنَاكَ)

يا محمد.

(ثُمّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍمِنَ الْأَمْرِ فَاتّبِعْهَا)

جعلناك على منهج قويم، على دستورٍ عظيم، على كتابٍ معجز، على محجّةٍ بيضاء كما قال عليه الصلاة والسلام:

((قَدْ تَرَكْتُكُمْ عَلَى الْبَيْضَاءِ، لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا، لَا يَزِيغُ عَنْهَا بَعْدِي إِلّا هَالِكٌ))

[ابن ماجه عن العِرْبَاض بْن سَارِيَةَ]

(ثُمّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ)

قال تعالى:

(إِنّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى)

(سورة الليل12)

الهدى على الله عزّ وجل، هو تكفل بهداية الخلق، ما علينا إلا أن نتبع الأمر، هو تكفّل بإظهار الحق، هو تكفل بإظهار الحق وإبطال الباطل..

(إنّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقا)

(سورة الإسراء81)

(ثُمّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتّبِعْهَا)

إذا لم يتبع الإنسان الحق فماذا سيتبع ؟ قال تعالى:

(وَلَا تَتّبِعْ أَهْوَاءَ الّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ)

وَلا تَتبعْ أهْوَاءَ الّذِينَ لا يَعْلَمُونَ

أنت بين أحد خيارين، إما أن تتبع منهج الله، أو تتبع البديل وهو الهوى ؛ والنزوات، والشهوات، والمصالح، والمكاسب، وكل شيء مادي دنيوي، فأنت بين خيارين صعبين، إما أن تتبع الحق، وإما أن تتبع الهوى، لذلك:

(فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنّمَا يَتّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلّ مِمّنْ اتّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنْ اللّهِ)

(سورة القصص: آية " 50 ")

اجعل دائماً هذه المعادلة: إما أن أتبع الهوى، وإما أن أتبع الحق في كل علاقاتك، في كل مواقفك، في كل نشاطاتك، إما أن تتبع الحق، وإما أن تتبع الهوى.

(ثُمّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتّبِعْهَا وَلَا تَتّبِعْ أَهْوَاءَ الّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (18) إِنّهُمْ)

إِنّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللّهِ شَيْئًا

هؤلاء الذين لا يعلمون، هؤلاء الذين يضغطون، هؤلاء الذين يغرونك، أو يضغطون عليك من أجل أن تتبع أهواءهم، يتساءلون مثلاً: لماذا هذا الحجاب ؟ لماذا أنت خائف من الربا ؟ مثلاً، هذه أهواء، الناس الضالون المضلون دائماً يحبون أن يوسعوا الباطل، فإذا كان الإنسان مستقيمًا لا يريحونه، دائماً عليه يكثرون الضغط، والإغراء، لا يعطونك ميزات إلا إذا كنت على هواهم.

(حَتّى تَتّبِعَ مِلّتَهُمْ)

(سورة البقرة: آية " 120 ")

هذا الضغط وهذا الإغراء، هي أهواء..

(إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً)

إذا ضغط على الإنسان كي يتبع أهواء الذين ضلوا، أو أغري بعطاء كبير كي يتبع أهواء الذين ضلوا، لا هؤلاء ولا هؤلاء، لا بالضغط، ولا بالإكراه، ولا بالإغراء، في النهاية ستستفيد، لأنك لا تنجو من عذاب الله.

والي البصرة جاءه من يزيد الخليفة الأموي توجيه معين، يبدو أن التوجيه مخالف للكتاب والسنة، فكان عنده الحسن البصري، فوقع في حيرة كبيرة، إن نفّذ توجيه الخليفة أغضب الله، وإذا لم ينفذه أغضب الخلفة، وقد يعزله من منصبه، فسأل الحسن البصري قال له: ماذا أفعل ؟ فأجابه بكلامٍ جامعٍ مانعٍ شافٍ، قال له: **" إن الله يمنعك من يزيد، ولكن يزيد لا يمنعك من الله ".**

كلام في منتهى البلاغة، فإذا سمعت كلام فلان ورضيته، مهما كان عظيمًا فلا يمنعك من الله، أما إذا أرضيت الله عزّ وجل، وكان الشخص شريرًا، وأراد أن يوقع بك الله يمنعك منه، وانتهى الأمر، " إن الله يمنعك من يزيد، ولكن يزيد لا يمنعك من الله "، هذه الكلمة تكتب بماء الذهب، اجعلها شعارًا لك، كلما جاءك ضغط أو إغراء من أجل أن تتبع الهوى لا أن تتبع الحق، فإذا أحب أحدهم أن يسير أهل بيته وفق الشرع عاداه كل أهله، قد يحرمونه من الميراث، الضغط أو الإغراء من أجل أن تتبع الهوى، يريدون الاختلاط، يريدون كسب الأموال بالباطل، يريدون أفعالاً لا ترضي الله عزّ وجل، لذلك:

(إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ)

سبيل الضغط على المؤمنين، هذه التولية بالباطل، يتعاون الكفار على المسلمين وعلى المؤمنين، يضعفونهم يمنعون عنهم الأشياء الأساسية في حياتهم.

(وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ)

لكن هذه الولاية لا تنجح، لسبب:

(وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ)

وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ

ما أدق هذه الآية ! لو فرضنا أهل الأرض اجتمعوا، دول العالم كلها اجتمعت على أن توقع الأذى بالمؤمنين، دول كبرى عظمى معها أسلحة فتّاكة تسيطر على العالم كله، لو أنها اجتمعت على أن توقع الأذى بالمؤمنين لا يستطيعون لسببٍ بسيط، هو أن الله مع المؤمنين، لأن الله بيده كل شيء، تصور جهازين أمامك يعملان بقوة كهربائية، ومعك المفتاح، فأنت بضغط على زر توقف واحدة، وتشغل الثانية، انتهى الأمر كله، توجد رافعات ترفع خمسة أطنان من الحديد، الرافعة هي مسطح مربع كبير

حوله وشيعة كهربائية، فإذا سرت الكهرباء، ينزل فوق الحديد، ويحمل خمسة أطنان، الشد كبير، أما العامل على الرافعة فيكبس الزر ميلي مترا واحدا فيقطع الكهرباء، فيسقط الحديد، فعلى الله القضية سهلة جداً..

((وَاعْلَمْ أَنّ الأُمّةَ لو اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللّهُ لَكَ))

(من سنن الترمذي عن ابن عباس)

(مَا يَفْتَحِ اللّهُ لِلنّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا)

(سورة فاطر)

شيء دقيق جداً، الأمر بيد الله عزّ وجل، لو أن الناس اجتمعوا كلهم ضد الإسلام، أنت كن مؤمنًا صادقًا، ولا تخف.

(وَاللّهُ وَلِيّ الْمُتّقِينَ)

كن مؤمنًا صادقًا، أقم الإسلام في بيتك، أقمه في عملك، حرر دخلك من الشبهات، اضبط حواسك، اضبط بيتك انتهى.

(إِنّ اللّهَ مَعَ الْمُتّقِينَ)

(سورة التوبة123)

لو تآمروا عليك، لو أن أقوى الأقوياء أراد أن يوقع بك الأذى لا يستطيع، لأن الله مع المتقين، فربنا لا يوجد غيره، الله عزّ وجل إذا كان مع المؤمنين انتهى الأمر، فإذا بدا لك أن الله تخلى عن المؤمنين، فهو لم يتخلّ، هم ليسوا بمؤمنين، لو أنهم مؤمنون لما تخلّى عنهم، وإسلامهم انتماء شكلي، وانتماء تاريخي، يقول لك: أنا مسلم، وتجده على البحر، المسلم وغير المسلم يشربون الخمر، ويسبحون عراة أمام بعضهم بعضاً، هذا مسلم، ما عاد مسلمًا، أين المسلم ؟ لا تجد فرقًا على الإطلاق، لا في كسب المال، ولا في إنفاقه، ولا في البيت، ولا في العمل، النظام ربوي، الشهوات، الاختلاط، هذا مسلم وهذا غير مسلم، هذه أصبحت عصبية، هذه أصبحت جهالة، أما المؤمن فهو متميّز بأخلاقه، متميز ببيته، متميز بعمله، نمط فذ، نمط غريب، كن مؤمنًا وانظر، الله لا يتخلى عنك:

(وَعَدَ اللّهُ الّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصّالِحَاتِ)

انظر إلى الآية ما أعظمها..

(لَيَسْتَخْلِفَنّهُم فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكّنَنّ لَهُمْ دِينَهُمْ الّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا)

لكن:

(يَعْبُدُونَنِي)

(سورة النور: آية " 55 ")

فهم لا يعبدونه، البيوت ليست إسلامية، العمل ليس إسلامياً، فيه غش، وكذب، وخداع، واختلاط، قد ترى امرأةً تمشي في الطريق، هل هذه مسلمة ؟ وأبوها مسلم ؟ مستحيل، كل مفاتنها في الطريق، أين أبوها، وأين إخوتها ؟ كيف سمحوا لها أن تمشي بهذا الشكل ؟ كلما كما يقولون: وكلما قلّ ماء الحياء قلّ ماء السماء.

(وَأَلَّوْ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا)

(سورة الجن16)

(وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنْ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ)

(سورة الأعراف: آية " 96 ")

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمْ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا)

(سورة فصلت: آية " 30 ")

نحن مقصِّرون، ولم يتخلّ الله عنا، ولكن وعده حق، والله لزوال الكون أهون على الله من أن لا يحقق وعده للمؤمنين للكن أين المؤمنون ؟ عدد كبير، كان الصحابة واحدًا منهم كألف، الآن ألف كأف، لا دين، ولا صدق، تجد القصر العدلي به ستة آلاف دعوة، كلها باطلة، لا رحمة، ولا إنصاف، أكل أموال الناس بالباطل، هؤلاء يستحقون أن يرحمهم الله عزّ وجل ؟ فالإنسان عليه أن يستقيم على أمر الله، فالآية هنا:

(وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ)

تصور جندين تشاجرا، وكان قائد الجيش مع واحد منهم، من خصمه ؟ انتهى الأمر، لما يكون ربنا مع مؤمن فلا تجد كافرًا، انتهى.

(وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الجاثية 045 - الدرس (5-8): تفسير الآيات 20 – 22
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1994-09-30

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام، مع الدرس الخامس من سورة الجاثية، ومع الآية العشرين.

أيها الإخوة الكرام، يقول الله عزّ وجل:

(هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ)

هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ

معنى بصائر:

بصائر جمع بصيرة، وبصيرة على وزن فَعِيلَة، وفعيلة صيغة مبالغة اسم الفاعل، أي تُبْصِر بها، هذه العين لو أنها في أعلى مستوى، وفي أدق حالة، هل يمكن أن ترى الأشياء من دون نور ؟ لو فحص الإنسان عينيه فوجدهما بأعلى درجة، ودخل إلى غرفةٍ مظلمة فهل يرى فيها شيئاً ؟ إنه لا يرى شيئاً، لابدّ من وسيط، لابدّ من نورٍ ترى به الأشياء، والعقل كالعين، والعقل الراجح والمتفوق لا يرى الحقيقة إلا إذا كان مهتدياً بنور الله، لأن العقل يهديه إلى أن لهذا الكون خالق، ولكن من هو الخالق ؟ يأتي الوحي ويقول:

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ)

(سورة السجدة: آية " 4 ")

العقل يصل بذاته إلى أن هذا القرآن كلام الله من خلال إعجازه، وأن الذي جاء به نبيّ الله من خلال قرآنه، ولكن هذا القرآن ماذا يقول ؟ من الذي يكشف لك حقائقه ؟ ربنا عزّ وجل يقول:

(أُوْلَئِكَ)

أهل البُعْدِ..

(يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ)

(سورة فصلت44)

فمهما الإنسان تمتّع بعقلٍ راجح فلابدّ له من نورٍ كاشف، وبشكل مختصر كيف أنك إذا شققت الطريق تضع لافتات، هنا منعطف خطر، هنا منزلق حادّ، هنا تقاطع خطر، هنا طريق ذات اتجاه واحد، هذه اللوحات فيها بصائر تنير للسائقين من ملابسات الطريق، وأخطار الطريق، وخصائص الطريق، كذلك الإنسان في الدنيا لابدّ له من بصائر، لابدّ له من كتاب من عند خالقه، أنت آلة معقّدة جداً، غاية التعقيد،

ثمينة جداً، غالية جداً، عظيمة النفع جداً، كيف تستعملها ؟ لابدّ من تعليمات الصانع.. القرآن تعليمات الصانع، قال:

(هَذَا بَصَائِرُ)

بصائر جمع بصيرة، بصيرة على وزن فعيلة، فعيلة مؤنّث فعيل، فعيل صيغة مبالغة اسم الفاعل، أي به نرى الحقائق.

شيءٌ آخر، أحياناً أنت ترى الحقيقة بشيئين ؛ إما ببيان، أو بنور، البيان أن تصغي إلى الحق، هذا حرام وهذا حلال، هذا يجوز، وهذا لا يجوز، في هذا المجال افعل ولا تفعل، هذا بيان، وإما أن تتصل بالله عزّ وجل اتصالاً محكماً فيُلْقي الله في قلبك النور، وهذا تؤكِّده الآيات الكريمة:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ)

(سورة الحديد: آية " 28 ")

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا)

(سورة الأنفال: آية " 29 ")

فالقرآن بصيرة، تقرأه وتستوعب أوامره ونواهيه فتطبقها، فصار التبصير بيانيا، أو صار التبصير نورانيا، إما أن تتصل بالله اتصالاً محكماً يلقي الله في قلبك النور، وفي النهاية من كانت صلته بالله محكمة، ومن كان إدراكه للقرآن عميقاً يلتقيان في تطبيق المنهج الإلهي..

(هَذَا بَصَائِرُ)

أي أنك في أشدِّ الحاجة إلى التبصير، وهذا لا يعرفه إلا من يقود السيارات.. إذا كنت في سفرٍ طويل، وتوجد مفارق متعدِّدة، ولا تعرف في أيّها تذهب، إنك تقع في أشد الحيرة، تقع في اضطراب، أذهب من هنا أم من هنا ؟ كم تكون ممتناً لو رأيت لوحة مضاءةً واسعة واضحةً بلغةٍ تفهمها، وكتب عليها: حمص من هنا، من هنا طرابُلس.. مثلاً.. هذه اللافتات بصائر، بدل أن تخطئ تصيب، وتسأل فتضطرب، وتقلق، فتجد لوحة مبيّنة، فربنا عزّ وجل من لوازم كماله أنه لمّا خلقنا نوّر هذا الكون ببيانه، الله عزّ وجل دائماً وأبداً يرسل الرُسُل، ينزّل الكتب، يبعث بالدعاة، فالإنسان دائماً في حالة تبيين، قال تعالى:

(إِنّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى)

(سورة الليل12)

(علينا)، وعلى إذا جاءت مع لفظ الجلالة تفيد الإلزام الذاتي، أي أن الله عزّ وجل تكفّل لنا أن يهدينا إلى سواء السبيل..

(إِنّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى)

قال تعالى:

(وَعَلَى اللّهِ قَصْدُ السّبِيلِ)

(سورة النحل: آية " 9 ")

وعلى الله قال بعض العلماء: " بيان سبيل القصد ". خُلِقت كي تسعد في أبد الآبدين، على الله عزّ وجل أن يبين لك معالم الطريق التي تودي بك إلى سعادتك..

(وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ)

الآية معكوسة، وعلى الله بيان سبيل القصد.. هكذا.. إذاً نشر الهُدى وتوضيح الأمور، وإنزال الكتب، وإرسال الأنبياء، وإلهام الدعاة والعلماء بتبصير الأمور، هذا مما يفعله الله عزّ وجل رحمة بالعباد، إذاً:

(هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً)

هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً

دقق في هاتين الكلمتين، هدىً من الضلالة، ورحمةٌ من الشقاء، قد يضل الإنسان وقد يشقى، يضلُ عقله، وتشقى نفسه، فإذا قرأ هذه البصائر، قرأ هذا الكتاب، وتدبّر آياته، واستوعب معانيه، وقف عند حلاله وحرامه، وقف عند مُحْكَمِهِ ومتشابهه، وقف عند الأمر والنهي، عند الوعد والوعيد، عند الحلال والحرام، وقف عند أخبار الماضين، وما سيكون بعد حين، إذا قرأ هذا القرآن كان له بصيرةً، وإذا أراه الحقّ حقاً عليه أن يتبعه، وأراه الباطل باطلاً فما عليه إلا أن يجتنبه، فالذي على الله عزّ وجل أدّاه..

(إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى)

(هَذَا بَصَائِرُ)

الآن نحن إما أن نستجيب أو لا نستجيب..

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ)

(سورة الأنفال: آية " 24 ")

هذه دعوة الله لسعادتنا، دعوة الله كي نحيا حياةً حقيقيّة، دعوة الله كي نصل إلى دار السلام بسلام، دعوة الله إلى أن نحقق الهدف الذي من أجله خُلِقنا، دعوة الله إلى أن يرحمنا الله عزّ وجل..

(هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ)

هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ

القضيّة قضيّة فهم، قضية محبّة للذّات، من أدرك إدراكاً صحيحاً وهو يحب ذاته لاشك أنه يسلك هذا الطريق.

(هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى)

من الضلالة..

(وَرَحْمَةٌ)

من الشقاء، والآية الكريمة:

(فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَى)

(سورة طه123)

من اتبع هداي فلا يضل عقله، ولا تشقى نفسه، ولا يوجد إنجاز أعظم، ولا تفوّق أكبر من أن يستنير عقلك، وتهتدي نفسك، وتسعد نفسك ؟ عقلك مستنير، ونفسك سعيدة، عقلك مستنير بالحقائق الربّانيّة، ونفسك سعيدة بالرَحَمَات الإلهية، عقلك يرى الحقّ حقاً والباطل باطلاً، ونفسك تُقْبِلُ على الله عزّ وجل فتسعد بهذا القُرب..

(هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ)

هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ

يُفْهَم من هذه الآية معنىً مخالف: أن الناس دائماً في شك، ليس عندهم الصدق الكافي للبحث عن الحقيقة، يقول لك: لا نعرف، الله أعلم، الله يجعل الخاتمة بخير، دائماً كلماته فيها شك، لا يوجد يقين، بالإيمان لا يوجد فيه شك، الإيمان فيه يقينيّات، إذا كانت حقائق الإيمان ليست واضحة وشاخصةً أمامك كإيمانك بوجودك فهذا ليس إيماناً، والدليل:

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا)

(سورة الحجرات: آية " 15 ")

(كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ (5) لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ (6))

(سورة التكاثر5-6)

لا يوجد شك في الإيمان، لا يوجد احتمال، لا يوجد حل وسط بين اليقين وعدم اليقين، الإيمان كله يقينيّات، فلن تؤمن حتى تكون الحقائق كالشمس في رابعة النهار، لذلك لو اجتمع أهل الأرض على أن يفتنوك لا يستطيعون، لا تستطيع سبائك الذهب اللامعة، ولا سياط الجلاّدين اللاذعة أن تصرفك عما أنت فيه، هذا هو الإيمان:

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا)

إن الذين آمنوا، آمنوا وازدادوا إيماناً، هذا الكتاب بصائر، تصور نفسك تمشي في طريق مظلم ملتوٍ، فيه أكمات، فيه حفر، فيه وحوش، فيه حشرات، فيه أفاعٍ، فيه ثمار يانعة، فيه كنوز، بلا مصباح، وهذا القرآن مصباحك، تأخذ الكنز، وتدع الأكمة أو الحفرة، أو الحشرة القاتلة، إذا كان هذا القرآن بصيرةً لك ما ضلّ عقلك، ولا شقيت نفسك، وإذا تفتّح عقلك نفسك تتبع العقل، وفي الأثر:

((أرجحكم عقلاً أشدّكم لله حبّاً))

إذا أدرك عقلك الحقيقة فقد أحببتَ لنفسك الخير، وبحكم حبّك لذاتك تبحث النفس عن الخير.

الآن الآية الدقيقةُ الدقيقة التي لو قرأها الإنسان، واستوعبها أدخلته في السعادة:

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)

أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا

لو استوى الذي يجترح السيئات مع الذي عمل الصالحات، لو استوى المؤمن مع الكافر، لو استوى المحسن مع المسيء، لو استوى الخائن مع المخلص، لو استوى الصادق مع الكاذب، لو استوى النصوح مع الغاش لما كان للدين طعم، ولا جدوى، ولا فائدة، بل هو باطل، يقول الله عزّ وجل: أيعقل أن نسوّي بين الصالح والطالح ؟ بين المحسن والمسيء ؟ بين المستقيم والمنحرف ؟ بين الغاش والناصح ؟ بين الصادق والكاذب ؟ بين من تتبّع أمر الله وطبّقه ومن لم يبال بأمر الله ؟ بين من اتبع العقل ومن اتبع الشهوة ؟ بين من سار في طريق الجنّة ومن سار في طريق النار ؟ بين من أساء للخلق، فبنى حياته على أنقاضهم ومن بنى آخرته على حساب مصالحه ؟ أيستويان ؟

حينما تتوهّم أنه يمكن أن يكون الصالح كالطالح معنى هذا أن الدين لا فائدة منه، إذا لم يكن للمؤمن معاملة خاصّة من الله، ليس له زواج خاص، ليس له عمل خاص، ليس له سمعة خاصة، ليس له توفيق خاص، ليس له دعم خاص، يستوي مع الكافر، كلاهما سيّان، كلاهما يساق بعصا واحدة، كلاهما تحيط به ظروفٌ واحدة، يعانيان من مشكلات واحدة، إذاً الدين شيء لا يجدي، ولا يغني، ولا ينفع، إذا توهّمت أن فلانًا لا دين له، ومع ذلك يكرمه الله، هو لا يصلي، ولا يصوم، شارب خمر، كاذب، زانٍ الله ومع هذا أعطاه الله، وأنعم عليه، عندها تقول: سبحان المعطي !!! وترى المؤمن المستقيم، وقد حرمه الله من نعمائه، لماذا ؟ لا نعرف، هناك حكمة، إذا قلت: هناك حكمة، وتعني أن هناك حكمة فكلامك مقبول، أما إذا قلت: هناك حكمة، وتعني أنه لا توجد حكمة فهذا الكلام صار فيه كفر.

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)

أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ

هل من المعقول لشاب نشأ في طاعة الله، يرتاد المساجد، وينعم بمجالس العلم، يغض بصره، يحرر دخله، يصدق ولا يكذب، ينصح ولا يغش، أن يعامله الله كما يعامل المسيء ؟ هذا الشيء مستحيل.

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)

إنسان غضّ بصره طوال حياته، وقبل أن يتزوج لم يرتكب معصية إلى أن يسّر الله له زواجا، هذا زواجه كزواج إنسان له تجارب في المعاصي ؟ وله آلاف الانحرافات، أيعقل أن يكون زواج هذا كزواج ذاك ؟

أنت لا تكذب، مالك كله حلال، لا تغش أبداً، هل أموالك هذه كأموال طائلة جاءتك من طريق غير مشروع ؟ مستحيل، المال الحلال يبارك الله لك فيه، والمال الحرام يَتْلَف، ويُتْلِف صاحبه، والإنسان المستقيم قبل الزواج من أوائل ثمرات الاستقامة زواج موفّق، زوجة تسرُّه إن نظر إليها، تحفظه إن غاب عنها، ولا نعمة أكبر من نعمة الاطمئنان لأهلك إذا غبت عنها، هذه نعمة كبيرة، هذه النعمة لا تُقدَّر بثمن، لا يعرفها إلا من فقدها، إذا الإنسان شعر أن زوجته ليست مستقيمة، ربما خانته في غيبته، فهل هذه حياة ؟ المؤمن مستقيم يعرف أن زوجته عفيفة مثله، فتجده مرتاحًا، فزواج المسلم غير زواج الكافر، والمسلم لا يكذب أبداً في عمله، يخاف من الله عزّ وجل، المال تحت قدمه، لا يغش المسلمين ؛ لا في طعامهم، ولا في شرابهم، لا في بيعهم، ولا في حاجاتهم، فتجد المؤمن مستعدًا ليضحي بالغالي والرخيص من أجل أن يرضى الله عنه، وتجد الكافر مستعدًا أن يضحي بكل القيم وكل المبادئ من أجل أن يكسب المال، فهل تنتظر من الله أن يعامل هذا المسيء كهذا المحسِن ؟

حقيقة معاملة الله للناس

فلو أردنا أن نتعرّف إلى الحقيقة لا من خلال كتاب الله، ولا من خلال سنّة رسول الله، ولا من خلال الكون، ولكن نظرنا إلى الناس كيف يعاملهم الله عزّ وجل لعرفنا الحقيقة من معاملة الله لعباده، المستقيم محفوظ، المنحرف يفاجأ بمصيبة لم تكن متوقّعة، من يكسب المال الحلال يبارك الله له في هذا المال، من يكسب المال الحرام يُتلفه الله، الأمور دقيقة جداً وعميقة، إيّاك أن تفهم الأمور فهمًا سطحيًا، كل مصيبة لها حكمة بالغة، لو كُشِفَ الغطاء لاخترتم الواقع.

مرّة قال لي أحدهم، ووالله لا أنسى هذه الكلمة، قال لي: كم تُقَدِّر عمري ؟ قلت له: ستون عاماً، قال: لا، عمري ستةٌ وسبعون عاماً، قال لي: والله أنا أشعر أنني ذو نشاطٍ بحيث أهدم حائطاً، لأنني لم آكل في حياتي كلها درهمًا حرامًا واحداً، ولا أعرف الحرام، تجد أشخاصًا كثيرين أكلوا المال الحرام فأتلفهم المال، هذه الآية آية مصيريّة، آية مفصليّة، اطمئن إذا كنت مع الله، لا تبالي، لا تخف، أبشِر، فإن الله يؤكِّد لعباده المؤمنين أن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لن يكونوا كالذين عملوا السيئات..

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)

أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ

لك معاملة خاصّة، لك توفيق خاص، لك حفظ خاص، لك تيسير خاص، لك بيت خاص، لك طمأنينة خاصّة، لك اتصال بالله خاص، لك مكانة خاصة، لك منزلة خاصّة، هذا كلّه من ثمرات الإيمان في الدنيا قبل الآخرة، لأن في الآخرة الرصيد..

(وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

(سورة آل عمران: آية " 185 ")

لكن في الدنيا تشجيع، توجد دفعات تشجيعيّة لبقيّة المحسنين، وتوجد عقابات ردعيّة لبقيّة المسيئين، ولكن الجزاء الحاسم يوم القيامة..

(وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

اطمئن، عليك أن تتبع أمر الله، وأن تطبّقه، وانتهت مهمّتك، والله عزّ وجل عليه أن يحفظك، قال تعالى:

(إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

(سورة هود56)

هو يحفظك، هو يوفّقك، تجد أن الله خلق من الضعف قوّة، يقول لك: كان لا شيء فصار كل شيء، كان خامل الذكر فرفع الله شأنه، كان دخله أقل من حاجته فيسّر الله له دخلاً غطّى حاجاته، كان بلا زوجة فيسر الله زواجه، كان بلا بيت يسّر الله له بيتًا، كان له عمل مُجْهِد ومردوده قليل فصار له عمل مريح ومردوده كبير، إذا دعا إلى الله عزّ جل الله وفّقه، يُطْلِقُ لسانه في الحق، كلما قرأت هذه الآية ازددت تعلقا بها:

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)

ليس في الآخرة، بل في الدنيا، والدليل:

(سَوَاءً مَحْيَاهُمْ)

أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ

هل بيت المسلم مثل بيت غير المسلم ؟ إذا ذهب المسلم إلى نزهة مثلاً، وجلس في مكان جميل، لا اختلاط فيه، ولا خمور، ولا منكر، جلس مع أهله مسرورًا، لكن لو جلس في مكان عام لا يرضي الله عزّ وجل يشعر بانقباض، لو دعا إخوانه إلى بيته في لقاء لطيف، ولا يوجد اختلاط في هذا اللقاء يشعر بالسعادة، ولو وجد اختلاطًا لوجدت أن كل إنسان عينه على زوجة الآخر، يبدأ الحسد، والغمز و اللمز،

والاضطراب، الزوج لاحظ أن زوجته تتكلّم مع فلان بطريقة لم تعجبه، فعاتبها، وهي عاتبته، كل حياة أهل الدنيا مصاعب، فلذلك عندما يطبّق الإنسان شرع الله عزّ وجل يرتاح.

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)

الحديث عن الآخرة حق، وأركّز الآن على الدنيا، وأنت في الدنيا، يستحيل على الله عزّ وجل أن يجعل حياة المؤمن في الدنيا كحياة الكافر، البيت متميز، الزواج متميز، العمل متميز، حتى الصحّة الجسميّة متميّزة، لأنه يصلي، والصلاة رياضة، يصوم، والصيام وقاية، يعتدل في الشهوات، والاعتدال هو الصواب، حتى في صحّته، حتى في بيته، حتى في عمله، حتى في علاقاته، حتى في أفراحه، النساء في الأعراس كلهنّ مصونات، لا تسمع إلا مديح رسول الله صلى الله عليه وسلم، وربما امرأة ألقت كلمة، هذا شيءٌ جميل ! هذا عرس إسلامي ؛ لا كتلك الأعراس التي تمتلئ بالانحرافات، ولا تمتُّ بصلة للإسلام.

عقد قِران المؤمن تجد فيه منشّدين، إلقاء كلمات، توزيع حلوى، أما أهل الدنيا ففيه اختلاط، عرس أنفق فيه كذا مليون، والعروس على المنصّة قال لزوجته: أنتِ طالق طالق طالق، لأن كل زواج بني على معصية الله يتولّى الشيطان التفريق بين الزوجين، وكل زواج مبني على طاعة الله يتولّى الله التوفيق بينهما.

هذه الآية تدفعك إلى العمل الصالح، والله الذي لا إله إلا هو زوال الكون أهون على الله من أن يضيّع مؤمناً مستقيماً، هل يضيعك ؟ يجعل أهل المعاصي يتفوّقون عليك ؟ وأنت متخلِّف في نهاية الركب، في الدرجة السُفلى لأنك مؤمن ؟ هذا دين الله عزّ وجل ؟ ألا يغار الله على أتباعه، وعلى المؤمنين ؟ لأنه مستقيم بقي بلا شيء، لأنه مستقيم طلّق زوجته، لأنه مستقيم فصلوه من عمله، هذا كلام الشيطان، وفّقه الله لأنه مستقيم، حفظه الله لأنه مستقيم، رفعه الله لأنه مستقيم، أكرمه الله لأنه مستقيم، يوجد كلام ـ والله ـ هو الكفر بعينه، كأن يقول: سبحان الله ! لأنه أحب أن لا يأكل مالاً حرامًا فبقي بلا عمل.. يذكرون كذلك كلمة (سبحان الله)، أين الله عزّ وجل ؟ أين التوفيق ؟ أين:

((ما ترك عبدٌ شيئاً لله إلا عوّضه الله خيراً منه في دينه ودنياه))

[الجامع الصغير عن ابن عمر بسند فيه مقال]

أين هي هذه ؟

((ما ترك عبدٌ شيئاً لله إلا عوّضه الله خيراً منه في دينه ودنياه))

هذه الآية يجب أن تُحْفَر في أذهاننا، يجب أن تمتزج مع دمائنا، يجب أن تتخلخل بين خلايانا.

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ)

هو لا يأبه لدين ولا لمنهج، حرام حلال يريد الربح فقط، غشّ الناس، كذب عليهم، لعب عليهم..

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ)

تجد أن ماله كله أتلف، مصادرات، مخالفات، أمراض وبيلة، في النهاية هو صفر اليدين، تجد المؤمن على دخل متواضع ولكن فيه بركة، الله متّعه فيه، متّعه بأهله وبأولاده، وحياته مستقرّة وهادئة، ومتنامية ومتصاعدة.

لا يوجد في الأرض كلِّها التي فيها خمسة آلاف مليون إنسانٍ إنسانٌ واحد سعيد بالبعد عن الله، فالله عزّ وجل قال:

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى)

(سورة طه124)

ولا يوجد مؤمن واحد حتى ولو كان فقيرًا، أو ضعيفًا، لو كانت حياته خشنة أو معه مرض، لا تجده إلا وهو سعيد.

(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ)

(سورة النحل: آية " 97 ")

اسأل إخواننا الأطبّاء عن الإنسان عند النزع كيف تكون حالته ؟ انهيار كامل، سيدنا سعد بن الربيع كان في طور النزع، تفقّده النبي صلى الله عليه وسلم، فأرسل من يسأل عنه في ساحة المعركة، وصل الصحابي، وقال له: " إن النبي الكريم أمرني أن أتفقّدك هل أنت مع الأحياء أم مع الأموات ؟ "، قال له: " أنا مع الأموات، لكن قل لرسول الله: "جزاك الله عنّا خير ما جزى نبيّاً عن أمته..

فأنا متصوِّر أن سيدنا سعد بن الربيع في قمّة السعادة وهو في النزع الأخير.. وقل لأصحابه: **" لا عذر لكم إذا خُلِص إلى نبيِّكم وفيكم عينٌ تطرف ".**

ما هذه السعادة ؟ إنه في قمّة النشوة وهو ينازع، فما هذا الإيمان ؟

وأنت مريض سعيد، وأنت فقير سعيد، وأنت بالنزع سعيد، وأنت تغادر الدنيا سعيد، لا يوجد أذى، كل أطوار حياة المؤمن سعادة، وإياكم أن تتوهّموا أنني أعني بالسعادة الماديّة، المؤمن قد يكون فقيرًا، وليس غنياً، ومع هذا هو سعيد، السعادة تنبع من الذات، ولا تأتي من المحيط، إنها تنبع من الذات.

عناصر السعادة عند أهل الدنيا

أهل الدنيا يرون أن السعادة الماديّة تحتاج إلى ثلاثة عناصر: تحتاج إلى وقت، وتحتاج إلى صحّة، وتحتاج إلى مال، وهذه الأشياء الثلاثة دائماً يتوفر عند المحظوظين اثنان منها:

الإنسان في أول طور في حياته صحّة طيبة وعنده وقت فراغ، ولكن لا يوجد مال فهو غير سعيد.

في الطور الثاني المال موجود والصحّة موجودة ولكن لا يوجد وقت، إنه مشغول، فهو غير سعيد.

في الطور الثالث المال موجود، والوقت موجود، ولكن الصحّة لا توجد، فهو غير سعيد، لو أردت الدنيا لذاتها لا تسعد بها أبداً، قال النبي الكريم:

((إنّ أسعد الناس في الدنيا أرغبهم عنها، وأشقاهم فيها أرغبهم فيها))

شيء يحيّر، إذا أقبلت عليها بعدت عنك، وإذا ابتعدت عنها أقبلت عليك، لذلك قال النبي الكريم:

((إياك والتنعُّم، فإن عباد الله ليسوا بالمتنعِّمين))

[الجامع الصغير عن معاذ بسند حسن]

أنت نعيمك بالعمل الصالح، نعيمك بطلب العلم، نعيمك بملازمة أهل الحق، نعيمك بالدعوة إلى الله، نعيمك في خدمة الخلق، نعيمك في مناجاة الحق، هذا هو نعيمك، يوجد أناس يتوهَّمون أن النعيم بيت فخم بمصيف، أكل وشرب ونوم، هذه حياة تُمَلّ، واسأل أصحاب هذه البيوتات الفخمة، إنهم يهجرونها كثيراً لأن حياتهم في ضنك..

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى)

(طه124)

هذه الآية آية مفصليّة:

(أَمْ حَسِبَ الّذِينَ اجْتَرَحُوا السّيّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ)

أي حياتهم، صحّتهم، زواجهم، عملهم، أفراحهم، أتراحهم، ما يعتورهم من أحوال، قال عليه الصلاة والسلام:

((عَجِبْتُ لأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنّ أَمْرَهُ كُلّهُ خَيْرٌ، إِنْ أَصَابَهُ مَا يُحِبّ حَمِدَ اللّهَ، وَكَانَ لَهُ خَيْرٌ، وَإِنْ أَصَابَهُ مَا يَكْرَهُ فَصَبَرَ كَانَ لَهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ كُلُّ أَحَدٍ أَمْرُهُ كُلُّهُ لَهُ خَيْرٌ إِلا الْمُؤْمِنُ))

(مسند أحمد عن صهيب)

غير المؤمن يتكبّر في الرخاء وينسى، وفي الشدّة ييئس، يأسٌ قاتل أو غفلةٌ مستحكمة، المؤمن شكور في الرخاء، صبور في البلاء، متعفِّف في الفقر، متعفِّف في الغنى، سموح، منفق، منصف في القوّة، متذلِّل لله عزّ وجل في الضعف.

صبر النبي صلى الله عليه وسلم على الفقر والجوع والأذى والغربة

النبي الكريم أذاقه الله الضعف والقهر في الطائف، قال صلى الله عليه وسلم:

((إن لم يكن لك غضبٌ عليّ فلا أبالي، ولك العُتبى حتى ترضى))

[الطبراني عن عبد الله بن جعفر**]**

أذاقه النصر بفتح مكّة، قال:

((اذهبوا فأنتم الطلقاء))

[سيرة ابن هشام]

أذاقه الفقر.. عَنْ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَاتَ يَوْمٍ:

((يَا عَائِشَةُ، هَلْ عِنْدَكُمْ شَيْءٌ ؟ قَالَتْ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ: مَا عِنْدَنَا شَيْءٌ، قَالَ: فَإِنِّي صَائِمٌ))

[مسلم]

لا يوجد شيء في بيته إطلاقاً، ولا تمرة، فلمّا صار غنياً قال له أحدهم: لمن هذا الوادي ؟ قال له: " هو لك "، قال: أشهد أنك رسول الله، تعطي عطاء من لا يخشى الفقر، أذاقه الله الفقر، وأذاقه الغنى، وأذاقه القهر، وأذاقه النصر، وأذاقه موت الولد..

((تَدْمَعُ الْعَيْنُ وَيَحْزَنُ الْقَلْبُ وَلَا نَقُولُ إِلَّا مَا يُرْضِي رَبَّنَا إِنَّا بِكَ يَا إِبْرَاهِيمُ لَمَحْزُونُونَ))

[البخاري ومسلم، واللفظ له]

أصابه موت الولد، أصابه ترك الوطن، الهجرة، ترك مكّة، فقال: اللهمّ إني تركت أحبّ البلاد إلي فأسكني أحبّ البلاد إليك، ترك مكّة، وسكن في المدينة، وإذا ظن الإنسان أن الله يسوي بين المسيء والمحسن فقد أساء، قال تعالى:

(سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ)

سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ

هذا حكم سيئ، ونظرة قاصرة، وتفكير ساذج، وعمى في القلب أن يسوي الله بين المحسن والمسيء، والمستقيم والمنحرف، والغاش والمخلص، والخائن والصادق، أبداً، الدليل: قال الله:

(وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ)

وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ

تصوّر جامعة كيف يكون نظام النجاح فيها ؟ تهدي الأستاذ هديّة فينجّحك، ولو لم تدرس، الفحص اختياري، والهدية بدلاً من الفحص فتنجح، هل هذه جامعة ؟ العلاقات الشخصية وحدها تنجحك من دون ورقة امتحان، من دون سؤال موحّد، لك علاقة مع الأستاذ طيّبة تنجح بها، قدّمت له هديّة ينجحك، أعطاك الأسئلة فدفعت ثمنها فتنجح، هل هذه جامعة ؟ هذه بالحق أم بالباطل ؟ انظر إلى الآية الكريمة:

(وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ)

وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ

لو كان الله يسوي بين الذين اجترحوا السيئات والذين آمنوا وعملوا الصالحات فهذا لم يُخلق بالحق، بل إنه خُلِق بالباطل ؟ لكنه لا يسوّي، بل خلق الله عزّ وجل السماوات والأرض وفق أسس ثابتة، أسس مكينة، وفق هدفٍ نبيل، ووفق استقرار، الدليل:

(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلا)

(سورة ص: آية " 27 ")

خلقهما بالحق، وما خلقهما بالباطل، معنى هذا أن الحق عكس الباطل، الباطل هو الشيء الزائل، الحق الشيء الثابت..

(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ)

(سورة الأنبياء16)

معنى هذا أن الحق خلاف اللعب، والحق خلاف الزائل، وخلاف الزائل الثابت، وخلاف اللعب الهادف، معنى هذا أن الحق بتعريف القرآن له الشيء الثابت الهادف، الشيء الثابت النبيل العظيم، فربنا عزّ وجل خلق السماوات والأرض لهدفٍ كبير، وخلق الله السماوات والأرض لتبقى لا لتزول. أيها الإخوة، العلاقة بين الآيتين علاقة تامّة..

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ)

الأمر ليس كما تتوهّمون لأن الله خلق..

(السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ)

إذاً: لن يكون الذين عملوا السيئات كالذين آمنوا وعملوا الصالحات، لذلك الروعة والعظمة أن تأتي النتائج وفق المقدِّمات، قال تعالى:

(وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ)

وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ

لا تتوهّم أنه يمكنك أن ترتكب إساءات دون أن تُحَاسَب عليها إطلاقاً، ثم تنجو، معنى هذا أن المنضبط غبي، الذي ضبط دخله، وكان قليلاً، وصبر على قلّته، والذي لم يضبط دخله، وتمتّع بهذا المال، ثم سوّى الله بين هذا وذاك، معنى هذا أن المستقيم إنسان غبي، محروم، من الذي أفلح ونجح ؟ الذي لم يبال بهذا النظام، ولم يأخذ به، فعلَ ما يشتهي، ثم جاء يوم القيامة وله الجنّة، لا..

(وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ)

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (92) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (93))

(سورة الحجر92-93)

(وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ)

(سورة إبراهيم: آية " 42 ")

لا يستوي الصالح والطالح، والمحسن والمسيء

أحياناً تسمع قصصًا مُفادها أن فلانًا عمل وكسَّب، وكثَّر واشترى، ونهب وسلب، وركَّز وضعه، واشترى بيوتًا ومراكب، معنى هذا أنه لا يوجد إله، والدنيا !!!

(أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى)

(سورة القيامة36)

هكذا بلا حساب ؟ بلا مسؤوليّة ؟ معقول لغني مسرف، ماله أكثره من الحرام ينفقه على ملذّاته، وفقير محروم ما ذاق طعم الحياة، ثم ويستويان يوم القيامة ؟ وهل يستوي إنسان ظالم إنسان مع المظلوم ؟! وإنسان مستغِل مع إنسان مستَغَل ؟ ودول قوية عاتية تتحكّم بهؤلاء الشعوب، يقتلون ملايين من أجل رفع مستوى المعيشة عند شعوبهم، يفتعلون حروبًا أهليّة تمتد سنوات من أجل بيع الأسلحة فقط، هذه الدول لن تُحَاكَم عند الله يوم القيامة ؟ سيستوون مع الشعوب المتخلِفة ؟! يقول الله عزّ وجل:

(وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ)

هذا الإيمان، تؤمن أنه لابد من العقاب لمن ظلم و أساء.

(وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ)

(ابراهيم42)

(لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ (196) مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (197))

سورة آل عمران196)

يقول الله عزّ وجل:

(فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ (19) إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ (20) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ (21) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (22) قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ (23) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ (24) وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ (25) وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ (26) يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ (27) مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ (28) هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ (29) خُذُوهُ فَغُلُّوهُ (30) ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ (31) ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ (32) إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ(33))

(سورة الحاقة19-33)

لا تفكر أبداً أن يستوي المؤمن والكافر..

(أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ)

(سورة السجدة18)

(أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ (35) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (36))

(سورة القلم)

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ)

(سورة القصص 61)

مستحيل أن يسوّى بينهم.

هذا الإيمان أيها الإخوة يحملكم على طاعة الله، ويحملكم على الثقة بالله، ويحملكم على الاستبشار، كفاك على عدوّك نصراً أنه في معصية الله، اجعل شعارك دائماً:

(وَمَنْ يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا)

(سورة الأحزاب71)

أنت الفائز، أنت الرابح، أنت الناجح، أنت الفالح، أنت المتفوّق حين تكون على منهجه، تنام مساءً دون أن تكون مغتصباً حقّ أحد، دون أن تكون آكلاً مالَ أحد، دون أن تكون معتدياً على أحد، أنت وفق منهج الله.

(وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ)

لأنه خلقهما بالحق فلن يجعل الذين اجترحوا السيئات كالذين آمنوا وعملوا الصالحات، لأنه خلقهما بالحق، ولأنه خلقهما بالحق.

(وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ)

وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ

اعتقد اعتقادًا قاطعًا أن الذي يرتكب المظالم، ويأكل أموال الناس بالباطل، ويعتدي على أعراض الناس إنسان أحمق على الإطلاق، ما السبب ؟ لأنه سوف يدفع الثمن باهظاً، إذا أخذ ليرة سرقة ودَفّعوه عوضاً عنها مليون ليرة، أخذ الليرة سرقة يكون هذا ذكاء منه أم غباء ؟ لا ينجو من العقاب، كله مسجّل عليه، فكل إنسان يرتكب المعصية، يأكل مالاً حرامًا، يعتدي على أعراض الناس، لا يقيم وزناً لشرع الله، لا يأتمر بأمر الله، لا ينتهي عما عنه نهى الله، ويظنُّ أنه على علم، وأنه ذكي وقادر، هذا هو الغباء بعينه.

(وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ)

وفي درسٍ قادم إن شاء الله تعالى نتابع:

(أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الجاثية 045 - الدرس (6-8): تفسير الآية 23
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 07-10-1994

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الكرام، مع الدرس السادس من سورة الجاثية، ومع الآية الثالثة والعشرين، وهي قوله تعالى:

(أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ)

أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ

الإله الذي يُعْبَد، الإله الذي يُطاع، الإله الذي يُحَب، الإله الذي بيده مصيرك، بيده رزقك، بيده حياتك، بيده موتك، بيده سعادتك، بيده شقاؤك، بيده إعزازك، بيده إذلالك، بيده أن يطمئنك، بيده أن يخيفك، هذا الإله، لذلك لا معبود بحقٍ إلا الله، فالإله الذي ينبغي أن يعبد هو الله، لأن الأمر كله بيده، لأن مقاليد السماوات والأرض كلها بيده.
إذا عبد الإنسان إنساناً، فأطاعه، وأحبه، وتوهم أن بيده مصيره، يرفعه أو يخفضه، يقربه أو يبعده، يعزه أو يذله، فهذا الإنسان ليس إلهاً، بل إنسان ضعيف يموت، لكن المُشْرك عامَلَه كما يعامَل الإله، ولا يعقل لإنسان ضعيف يأكل ويشرب وينام، ويتألّم ويمرض ويبكي أحياناً ويخاف، لا يعقل أن يكون هذا الإنسان إلهاً، لكن حينما يقول: فلان ألّهَهُ جماعةٌ من الناس، هو ليس إلهاً، ولكنهم عاملوه كما يعامل الإله، أحبوه، وأطاعوه، أطاعوه، وعصوا ربّهم، خافوه ورجوه، عقدوا آمالهم عليه، عاملوه كما يعامل الإله، قال:

(أَفَرَأَيْتَ)

التعجب في اتخذا الناس آلهة غير الله

وكأن في هذا التركيب، وتلك الصيغة إبداء العَجَب، أيعقل أن يتخذ الإنسان هواه إلهاً ؟! فيتحرك وفق أهوائه، وفق نزواته، وفق ملذّاته، وفق شهوته، شهوته مقدسة، لابدّ من أن يرويها ولو على حساب قيمه أو مبادئه، معنى:

(اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ)

معنى اتخاذ الهوى إلها

أي: جعل شهوته هي الموجّهَة لحركاته وسكناته، والإنسان يتحرك بباعثين ولهدفين، الباعث مصلحته، أو الباعث طاعة ربه، ولهدفين، إما إرضاء الله أو إرواء شهواته، فسلوك الإنسان له باعثان، وله هدفان.

الباعث الأول: مصالحه، الهدف إرواء شهواته.

الباعث الثاني: طاعة ربه، الهدف السعادة في الدنيا والآخرة، إنسان يتخذ هواه شهوته، شهوة النساء، كيف يتخذها إلهاً من دون الله، فيقيم علاقة مع امرأة خارج نطاق الزوجية، خارج نطاق المنهج الإلهي، إذاً هذه الشهوة عبدها من دون الله، أي روّاها بخلاف منهج الله.

حبه المال طبيعي، لك أن تكسبه من طريقٍ مشروع، أما حينما لا يعنيك إلا أن تأخذ المال من أي سبيل، فقد اتخذت المال إلهاً من دون الله، فهو الذي يحرّك سلوكك ؛ تحلف وأنت كاذب، تبيع دينك وأهلك وذمتك وأمانتك، الهدف أن تقبض المال فقط، إذاً حينما يُتَّخَذ الهوى إلهاً ليس معنى ذلك أن الهوى إله، لكنه عومل معاملة الإله.

من هو الإله المستحق للعبادة والتعظيم ؟

من الإله ؟ الذي بيده حياتك، وموتك، ورزقك، وعزتك، وصحتك، وسعادتك، ورفعتك، هو الذي يعطي، والذي يمنع، الذي يرفع، والذي يخفض، الذي يعز، والذي يذل، الذي يجمع، والذي يفرّق، الذي يمنح الحياة، ويأخذ الحياة، ويقدِّر الموت، هو الإله، هذا الذي ينبغي أن تعبده، لأن ثمة تناسبًا بين صفاته وأسمائه وبين العبادة له، فأنت لا يليق بك أن تعبد إنساناً من دون الله، إنه ندٌ لك، إنه عبدٌ فقير، قد لا يعلم ما أنت عليه، وإذا علم قد لا يستطيع أن ينقذك مما أنت فيه، إذاً هو ليس إلهاً، ولا يليق بك أن تعبده من دون الله، فالعبادة شيء خطير جداً.

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنّ وَالإِنسَ إلا لِيَعْبُدُونِ)

(سورة الذاريات56)

العبادة علة وجودك على وجه الأرض، لكن ينبغي أن تتوجه العبادة إلى الله عزّ وجل الذي منحك الوجود.

(هَلْ أَتَى عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِنَ الدّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا)

(سورة الإنسان1)

الذي خلق الهواء كي تتنفسه، ولأن الهواء ضروريٌ جداً لا يستطيع أحدٌ أن يتمَلّكَهُ، تستنشق الهواء في أي مكان، وخلق لك الماء، والطعام، والشراب، وخلق لك من نفسك زوجةً تسكن إليها، وجعل منك ومنها طفلاً صغيراً يؤنس وحدتك، هذا الذي يجب أن تعبده، لأنه هو الذي منحك السمع والبصر، وهو الذي منحك العقل، وهو الذي أعطاك القلب والشرايين، والرئة والتنفّس، الأجهزة المتعددة، وأنت لا تدري.

كنتَ نقطة ماءٍ فأصبحت كائناً سوياً، في الدماغ مئة وأربعون مليار خلية، وفي شبكية العين مئة وثلاثون مليارًا، وفي الشعر ثلاثمئة ألف شعرة، ثم انظر إلى العضلات، والعظام، والكليتين، لو تعطلت الكلية تصبح الحياة جحيماً، ولو استؤصل المستقيم لمرضٍ خبيث، وأصبحت الفتحة خارجية لصارت الحياة عبئًا ثقيلا، ما أحد يعرف قيمة المستقيم والمثانة أبداً، تمشي على قدمين متوازنًا.

إن الله هو الذي منحك نعمة الوجود، وأمدك بالهواء والماء، وأمدك بالطعام والشراب، وخلق لك من نفسك زوجةً، ومنحك أولاداً يملؤون بيتك سروراً، هذا الذي يجب أن تعبده، هذا الذي يجب تحبه، هذا الذي تطيعه، هذا الذي يجب أن تخشاه، هذا الذي يجب أن تعلِّق عليه الآمال، هذا الذي يجب أن ترجو رضاه، هذا الذي يجب أن تخشى غضبه، وليس الإنسان الذي يبدو لك قويًا تحبه، وتعصي الله من أجله، وتظن أنه يقربك، ويرفعك، ويغنيك، ويقوي مركزك، هو ليس إلهاً، هو بشر من جنسك، ولكنك عاملته كما يعامل الإله.

فإذا قلنا: اتخذته إلهاً، فهو ليس إلهاً، لكنك عاملته كما يعامل الإله، فأطعته على حساب طاعة الله.

مرة ذكرت لكم أن الحسن البصري، وهو من كبار التابعين، كان مرة مع والي البصرة للخليفة يزيد، وقد أرسل يزيد توجيهًا لهذا الوالي بالذّات، وهو توجيه يتنافى مع الحكم الشرعي، وهذا الوالي وقع في صراع، ماذا يفعل ؟ أينفذ أمر الخليفة فيغضب الله عزّ وجل ؟ أم لا ينفّذْهُ فيغضب الخليفة، وقد يعزل من منصبه ؟ فكان عنده وقتها التابعي الجليل الحسن البصري، قال له الوالي: **" يا إمام، ماذا أفعل أنا في حيرةٍ من أمري ؟ "**، القضية عند الحسن البصري واضحة وضوح الشمس في رابعة النهار، فقال له كلمة تكتب بماء الذهب قال له: **" يا فلان، إن الله يمنعك من يزيد، ولكن يزيد لا يمنعك من الله "**.

حينما تتخذ زيداً إلهاً، وتطيعه من دون الله، فإذا أراد الله بك سوءًا فلا يستطيع زيد أن يمنع عنك هذا السوء، أما إذا أراد زيدٌ سوءًا فإن الله يستطيع أن يمنعه عنك، هذا التوحيد، ما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد.

لذلك الدرس اليوم حول الهوى لا حول الأشخاص..

(أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ)

معاني اتخاذ الهوى إلها

الحقيقة أن ثمة مجموعة أحاديث شريفة يجب أن ندرسها جميعاً.

أولاً: ماذا قال الصحابة والتابعون في هذه الآية ؟

قال ابن عباس والحسن وقتادة:

(أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَـهَهُ هَوَاهُ)

" ذلك الكافر اتخذ دينه ما يهواه..

أليس هناك أشخاص غارقون في الطَرَب ؟ غارقون في الملذّات الحسّية ؟ غارقون في تتبع أخبار النساء ؟ غارقون في مغامراتٍ لا ترضي الله عزّ وجل ؟ أناس تعلّقوا بالنساء، أناس تعلقوا بجمع الدرهم والدينار، أناس تعلقوا بالمظاهر، أناس تعلقوا بالقوة في الأرض، قالوا: **" الكافر اتخذ دينه ما يهواه "،** دينه هواه.

وهذا ما يفعله العالم الكافر اليوم، ما الذي يسعده ؟ أن تكون امرأةٌ إلى جانبه دائماً، اتخذ سكرتيرة، ما الذي يسعده ؟ أن تكون كل اللقاءات مختلطة ليمتع عينيه، ويدافع عن هواه، يقول لك: هذا رقي وهذه حضارة، هو يعبد هواه من دون الله، فأي شيء مهما بدا مخالفاً للفطرة، مخالفاً للقيم، مخالفاً للمبادئ السامية، يفعله، لأنه يُروي شهوته، ويحقق غريزته، ويدغدغ نزواته.

قال سعيد بن جبير: **" كان أحدهم يعبد الحجر، فإذا رأى ما هو أحسن منه رمى به وعبد الآخر ".**

وقال بعض التابعين: المعنى: " أفرأيت من ينقاد لهواه ولمعبوده تعجيباً لذوي العقول "، أي يا أيها العقلاء، يا أيها المفكِّرون، أيعقل أن يفعل إنسان هذا العمل ؟!

وقيل: **" إنما سمي الهوى هوىً لأنه يهوي بصاحبه ".**

هناك تناسب بين الهوى وبين الهَوِيّ، سمي الهوى هوىً لأنه يهوي بصاحبه في مظالم، وفي ظلمات بعضها فوق بعض، وفي متاهات، يقول لك: فلان سقط، انتهى، لأنه تبع هواه فسقط، واتباع الهوى تقبض المال أو باللذة المحرمة.

هناك حقيقة أقولها دائماً آلاف المرات: ما من شهوةٍ أودعها الله في الإنسان وإلا وجعل لها قناةً نظيفةً يمكن أن تروى بها، ليس في الإسلام حرمان، في الإسلام تنظيم، وكل إنسان يروي شهوته المشروعة وفق المنهج الإلهي فلا شيء عليه، ليس في الدين رهبانية.. قال عليه الصلاة والسلام:

((أَنْتُمُ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا، أَمَا وَاللَّهِ إِنِّي لأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ، وَأَتْقَاكُمْ لَهُ، لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي))

(من صحيح البخاري عن حميد بن أبي حميد الطويل)

هذا هو الهوى.

ورود الهوى في القرآن في سياق الذم

ما وردت كلمة الهوى في القرآن الكريم إلا وذمّها الله عزّ وجل:

(وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ)

(سورة الأعراف: آية " 176 ")

وقال تعالى:

(وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا)

(سورة الكهف28)

ذمٌّ آخر، قال تعالى:

(بَلْ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ)

(سورة الروم: آية " 29 ")

وقال تعالى:

(وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنْ اللَّهِ)

(سورة القصص: آية " 50 ")

وقال تعالى:

(وَلا تَتَّبِعْ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ)

(سورة ص: آية " 26 ")

أمامك أيها الإنسان طريقان لا ثالث لهما: طريق الحق وطريق الهوى، طريق الرحمن وطريق الشيطان، طريق إرضاء الله عزّ وجل وطريق دغدغة نوازع الإنسان، طريق السمو وطريق اللذات، طريق اللذة العابرة وطريق السعادة الأبدية، طريق الشهوة وطريق العقل، طريق السماء وطريق الأرض، طريق الملائكة وطريق الشياطين، هذه الاثنينة في الحياة، فهما طريقان لا ثالث لهما: العقل، والخلق، والقِيَم، والمبادئ، والأهداف النبيلة، والسعادة الأخروية، والاستقرار، ورضاء الله عزّ وجل، هناك طريق الإيمان ؛ الشهوة العابرة مع الشقاء، والاكتئاب، والضياع، والتشعُّب، والتشرذم، والخوف، والقلق، والخنوع، والقهر والنفاق، كله في طريق الشهوة.

حينما يروي الإنسان شهوته بمعصية الله يضعف، لذلك أعداء المسلمين همّهم الأول إفساد أخلاق المسلمين، فحينما يتبرّعون بمحطات فضائية لإفساد أخلاق الشباب ما هدفهم ؟ حينما تفسد أخلاقُ الإنسان ينتهي كإنسان، وتبقى حيوانيته، هذا الحيوان يخاف، شديد الخوف، شديد القلق، شديد الخنوع، لأنه اتبع شهوته، لأنه أخلد إلى الأرض، واتبع هواه، فمثله كمثل الكلب.

قال النبي عليه الصلاة والسلام:

((لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به))

[شرح السنة للبغوي عن عبد الله بن عمرو]

من حقّ الإنسان أن يتزوج، لكن ليس من حقه أن ينظر إلى زوجات الآخرين، هن أجنبيات، لذلك:

((لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به))

من حقه أن يكسب المال، ولكن ليس من حقه أن يعتدي على كسب الآخرين، حينما تقنع بالدخل الحلال، وحينما تقنع بزوجتك التي سمح الله لك بها تكون كما قال أحد الأنبياء:

(بَقِيَّةُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ)

(سورة هود86)

هناك طرق متعددة لإرواء الشهوات، وطريق مشروع واحد نظيف يرضي الله، ويسعد امرأة معك، وهو طريق الزواج، بقي لك من علاقتك بالنساء الزواج، هذا هو الخير.

ثمة ألف طريق لكسب المال، ولكن بقي لك من كسب المال البيع والشراء، العمل المشروع، الهبة، أو الإرث، أو العمل، أو الكسب، إلخ.. هذا مباح لك أن تأخذه، إذاً:

((لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به))

وقال أبو أمامة: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول:

((ما عُبِدَ تحت السماء إلهٌ أبغض إلى الله من الهوى))

أكثر الناس الضالين، المنحرفين، التائهين، الشاردين، المقطوعين عن الله، يحركه الهوى فقط، يقسم وهو كاذب، يكابر، لأن هواه يتوافق مع هذه المكابرة، يرضى بالباطل، لأن هذا الرضا يجلب له الهوى، يغضب بغير حق، لأن هذا الغضب يجلب له الهوى، يتكلّم بما ليس قانعاً به تحقيقاً لأهوائه ومصالحه، يفند الأقوال وهي حق من أجل أن يحافظ على مكانته، فهذا الإنسان الذي يتبع الهوى إنسان شقي، أحياناً إنسان يسخر قلمه، يسخِّر فكره، يسخر لسانه، يسخر ذكاءه، يسخر مكانته، يسخر علمه وخبراته من أجل الهوى، وهذا هو الشقي الحقيقي، الإنسان أرقى من أن يكون مسخرًا للهوى.

أحياناً تبالغ في توضيح قضية، وأنت في الأصل لست مؤمناً بها، ولكن إرضاءً لزيد أو عبيد، تسخر ذكاءك، تسخر عبقريتك من أجل مدح شيء أو ذم شيء، مدح هذا الشيء يرضي زيدًا، وذم هذا الشيء يرضي عبيدًا، تمدح، وتذم لا عن قناعة، ولا عن رفض، لكن اتباعاً للهوى، تبالغ في مودة إنسان ليس حباً له، بل اتباعاً للهوى، تعادي إنسانًا اتباعاً للهوى، وهو من أكمل الناس، فعندما تكون علاقة الإنسان، وصلته، وقطيعته، ورضاؤه، وغضبه، وعطاؤه، ومنعه، وزيارته، ومجافاته بدافع الهوى فهو أشقى

الناس، وإن اتباع الهوى هوان، وإن عدوك الأول هو الهوى، وسمي الهوى هوى لأنه يهوي بك، والحديث المعروف:

((الْكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ، وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ، وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا، وَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ))

(من سنن الترمذي عن " شداد بن أوس ")

لما يعطل الإنسان عقله يعيش لحظته، وحينما يعطل عقله يعيش واقعه، يقول لك: هكذا الناس، هكذا يريدون، بناتي لا أريد أن أزعجهم، وهو يطلِق لهن العنان، يفسدن الشباب، وهو يدري أو لا يدري، يُطْلِق لزوجته العنان، يقبض الأموال من دون حساب، فيها حرام، أو شبهة ربا، أو غش، أو فساد، هو عليه أن يأخذ المال الوفير حتى ينفقه على شهواته المنحرفة، فهو إنسان هوائي أو شهواني. الرحماني ـ والحمد لله ـ يمشي على المنهج، الرحماني لا يتحرك قبل أن يعرف حكم الله في هذا الشيء، يفعله ولو دفع الثمن باهظاً، ويمتنع عن فعله ولو فوّت عليه أرباحاً طائلة، لأن الله أغلى عليه من المال كله.

من علامات قيام الساعة اتباع الهوى كما قال عليه الصلاة والسلام:

((إِذَا رَأَيْتَ شُحًّا مُطَاعًا، وَهَوًى مُتَّبَعًا، وَدُنْيَا مُؤْثَرَةً، وَإِعْجَابَ كُلِّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ فَعَلَيْكَ بِخَاصَّةِ نَفْسِكَ، وَدَعِ الْعَوَامَّ))

(من سنن الترمذي عن أبي أمية الشعباني)

الشهواني شهوته كلها في هذه البرامج المنحرفة، لذلك تجد العلم بالكتب، وفي مجالس العلم، وتأخذ العلم على يد العلماء، العلم في الكتاب والسنة، لذلك:

((إِذَا رَأَيْتَ شُحًّا مُطَاعًا، وَهَوًى مُتَّبَعًا، وَدُنْيَا مُؤْثَرَةً، وَإِعْجَابَ كُلِّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ))

لذلك:

((فَعَلَيْكَ بِخَاصَّةِ نَفْسِكَ، وَدَعِ الْعَوَامَّ))

(من سنن الترمذي عن أبي أمية الشعباني)

المهلكات والمنجيات

وقال صلى الله عليه وسلم:

((ثلاثٌ مهلكات، وثلاثٌ منجيات، فالمهلكات: شحٌ مطاع، وهوىً متبع، وإعجاب المرء بنفسه، والمنجيات: خشية الله في السر والعلانية، والقصد في الغنى والفقر، والعدل في الرضا والغضب))

[الجامع الصغير عن أنس بسند حسن]

ثلاث منجيات، وثلاث مهلكات، المهلكات شحٌ مطاع، بخل، ينفق الألوف، مئات الألوف، بضع الملايين على احتفالات، على مظاهر، على ثياب، يؤتى بها من باريس، يقول لك: الزهور بالملايين، فإذا دعي لمساعدة أسرة مقطوعة يتيمة، أو أرملة، أو مشروع خيري يبخل، لذلك:

((إِذَا رَأَيْتَ شُحّاً مُطاعاً، وَهَوًى مُتّبَعًا، وَدُنْيَا مُؤْثَرَةً، وَإِعْجَابَ كُلِّ ذِي رَأيٍ برأيهِ))

كل قد يظن أحد نفسه قطبًا عظيمًا، يقول لك: رأيي كذا، هل أنت مشرع ؟ أنت إنسان.

يقولون هذا عندنا غير جائزٍ فمن أنتم حتى يكون لكم عندُ ؟

شيء جميل، لكن من أنت ؟.

هناك إله شَرّع، وكتاب من الله أنزل، ونبي فَسّر، فلذلك:

((إِذَا رَأَيْتَ شُحّاً مُطاعاً، وَهَوًى مُتّبَعًا، وَدُنْيَا مُؤْثَرَةً، وَإِعْجَابَ كُلِّ ذِي رَأيٍ برأيهِ))

عندئذٍ:

((الْزَمْ بَيْتَكَ، وَامْلِكْ عَلَيْكَ لِسَانَكَ، وَخُذْ بِمَا تَعْرِفُ، وَدَعْ مَا تُنْكِرُ، وَعَلَيْكَ بِأَمْرِ خَاصّةِ نَفْسِكَ، وَدَعْ عَنْكَ أَمْرَ الْعَامّةِ))

[أبو داود عن ابن عمرو]

أولاد أخيك، بناتك، بنات أخيك، أولاد أصدقائك الخُلّص، جيرانك، هذه خاصّة نفسك..

((وَدَعْ عَنْكَ أَمْرَ الْعَامّةِ))

(يَا أَيُّهَا الّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ)

(سورة المائدة: آية " 105 ")

العبرة بالأقلية مع الحق لا بالأكثرية

هناك أشخاص من ضعف تفكيرهم يأخذون بالكثرة، لاعتقادهم أن الكثرة لا تخطئ ويقول: كلهم على غلط ؟! قال تعالى:

(وَمَا يَتّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلا ظَنّاً إِنّ الظّنّ لا يُغْنِي مِنْ الْحَقّ شَيْئًا)

(سورة يونس: آية " 36 ")

قال سبحانه:

(وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللّهِ)

(سورة الأنعام: آية " 116 ")

وقال:

(وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللّهِ إِلا وَهُمْ مُشْرِكُونَ)

(سورة يوسف106)

فأنت كن مع الأقلية المؤمنة، مع الأقلية الواعية، مع الأقلية المتبصِّرة، مع الأقلية المستقيمة، مع الأقلية التي عرفت ربها، لا تؤخذ بالأكثرية.

وقال أبو الدرداء رضي الله عنه: " إذا أصبح الرجل اجتمع هواه وعمله وعلمه، فإن كان عمله تبعاً لهواه فيومه يوم سوء.. وإذا كان عمله متبع لهواه فيومه يوم سوء.. وإن عمله تبعاً لعلمه فيومه يومٌ صالح "، فهل هذا العمل، وهذه الحفلة، وهذه النزهة، وهذه السباحة وفق الهوى أم وفق الشرع ؟ وفق الشرع يكون في لباس معيَّن، مكان معيَّن، لا تُكْشَفُ العورات، ولا يرى أحدنا عورة أخيه، هذه سباحة وفق الشرع، وهناك سباحة وفق الهوى، وهناك نزهة وفق الشرع في مكان جميل دون اختلاط، دون موسيقى، دون غناء، دون كلام بذيء، وهناك نزهة في أماكن عامة، ومقاصف، وغناء، ونساء كاسيات عاريات، وطاولات الخمر حولك، هذه نزهة غير شرعية.

هناك زواج شرعي، وزواج غير شرعي، نساء كاسيات عاريات، عرس مختلط ومكتوب على البطاقة: **" الطيبون للطيبات "**، أيّ طيّبين وأيّ طيّبات ؟!!!

قال سهل بن عبد الله التستري وهو أحد العارفين بالله: **" هواك داؤك، فإن خالفته فدواؤك ".**

الداء هو الهوى، ومخالفته هو الدواء.

قال أحد العلماء: " إذا شككت في أمرين ولم تدرِ خيرهما فانظر أبعدهما من هواك فافعله ؟.

الإنسان يحب الاختلاط، يحب إرواء شهواته، لكن المجتمع الذي أنت فيه، فيه جلوس على الركب، وسماع للحق، الزم هذا المجتمع، وابتعد عن الأهواء

أساس هذا الموضوع كله قوله تعالى:

(وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنْ الْهَوَى)

(سورة النازعات40)

الحقيقة أعمق من ذلك، المؤمن يدخل الجنة ؟ لأنه دفع الثمن، ثمن الجنة مخالفة الهوى، فأنت لا ترقى إلا بمخالفة الهوى، لذلك، ينبغي أن يكون التكليف الذي هو ثمن الجنة مخالفاً لطبع الإنسان، طبع الإنسان على محبة النوم، والتكليف أن تصلي الفجر في وقتها، طبع الإنسان على أخذ المال، والتكليف يأمره بإنفاق المال، طبع الإنسان على إطلاق البصر، والتكليف يأمره غض البصر، طبع الإنسان النَهْشُ في أعراض الآخرين، والتكليف يأمره بضبط اللسان، هذا هو الدين، الدين كله ضبط، أساساً الإسلام كله سيطرة على الذّات، والكفر كله إطلاق الأهواء إلى أبعد ما يمكن.

(أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ)

أما قول الله عزّ وجل:

(وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ)

وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ

معنى الإضلال ومفهومه

قبل أن أشرح المعنى الأول لهذه الآية أضرب مثلاً:

لو أن طالبًا انتسب للجامعة، ودفع قسطًا، لكنه ما داوم، ولا اشترى كتبًا، ولا قدم امتحانًا، أرسل له إنذارات عديدة، وأصرّ على موقفه، إذا صدر كتاب أو قرار من رئاسة الجامعة بترقين قيده، وطرده من الجامعة، فهذا الكتاب على علم أم على جهل ؟ على علم، على علم يقيني، إنه لم يقدم فحصًا، ولم يداوم، ولم يستجب للإنذار

المعنى الأول:

الله عزّ وجل يعلم أن هذا الإنسان يريد الهوى ولا يريد الحق، إذاً هذا الإضلال كما يقولون: إضلال حكمي، أي تحصيل حاصل، فإذا لم يدرس الإنسان، ولا قدم فحصًا لا ينجح، لا لأنهم ظلموه، بل لأن عدم تقديم الامتحان يجعل المقصر في الامتحان حكماً راسبًا، فهذا الذي يصر على الكفر، وعلى اتباع الهوى، وعلى إيثار الشهوة، هذا إنسان قدّم الدليل القطعي على أنه ضال، إذاً: أضله الله، وإضلال الله له تحصيل حاصل، قدّم الدليل القطعي على أنه أراد الضلال، لذلك قال علماء التفسير: " الإضلال إذا عزيَ إلى الله عزّ وجل فهو الإضلال الجزائي المبني على ضلال اختياري، هذا معنى:

(وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ)

المعنى الثاني:

إن الإنسان يعلم أن الدين حق، وهذا العمل حرام، وهذا العمل لا يجوز، وهذا مخالف للشرع، لكنه يؤثر الهوى على الحق..

(وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ)

أي هو يعلم.

هناك قصة تؤكّد هذا:

ذات مرة أبو جهل طاف بالبيت ومعه الوليد بن المغيرة، فتحدثا في شأن النبي صلى الله عليه وسلم، فقال أبو جهل أكفر الكفار: **" والله إني لأعلم أنه لصادق، فقال له الوليد: مه !.. أي عجيب.. وما دلك**

على ذلك ؟ قال: يا أبا عبد شمس، كنا نسميه في صباه الصادق الأمين، فلما تم عقله، وكبر رشده نسمِّيه الكذّاب الخائن ؟! والله إني لأعلم أنه لصادق، قال: فما يمنعك أن تصدقه، وتؤمن به ؟ قال: تتحدث عني بنات قريش أني قد اتبعت يتيم أبي طالب، واللاتِ والعزّى لن أتبعه أبداً ".

أضله الله على علم.

أحياناً يرتكب الإنسان المعصية، ويعلم أنها معصية، ويعلم أنها تنتهي به إلى النار، ويعلم أن المال سوف يدمِّر.

(يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا)

(سورة البقرة: آية " 276 ")

يفعل المعصية على علم، هذه مصيبة كبيرة، قال:

إن كنت لا تدري فتلك مصيبة   وإن كنت تدري فالمصيبة أعظم

* * *

أعظم بكثير، لأنه يعلم حقيقة هذا الدين، ويعلم حقيقة هذا الشرع، ويعلم أن الطريق النظيف هو الزواج، والزنا الطريق المنحرف، الكسب الحلال هو الطريق النظيف، إنه يعلم ذلك، لكنه آثر الهوى، وآثر الشهوة.

المعنى الثالث:

أحياناً تعجب من إنسان يحمل شهادة عليا، وهو وذكي، وعاقل، ويتبع الهوى، تعجب من طبيب لا يصلي، وقد قرأ في الجامعة من الآيات الدالة على عظمة الله ما يحيّرُ العقول، ومع ذلك لا يصلي، وقد يشرب الخمر، كيف ؟ هذا الذكاء في اختصاصه، هو ذكيٌ فيما هو فيه، قد تجد أناسًا أذكياء جداً في اختصاصهم، أو فيما أقيموا فيه، لكن الذكاء على مستوى الآخرة، الذكاء الشمولي يفتقرون إليه، إذاً هذا: أضله الله على علم.

معنى الأول: أنه أصر على الضلال فكان إضلال الله له جزاءً، جزاء ضلاله لاختياره.

والمعنى الثاني: هو يعلم الحق ولكنه آثر الهوى.

والمعنى الثالث: إذا كان في اختصاصه، في حرفته، في شهاداته، متفوقاً، وهو في سلوكه مع الله منحرفاً، هذا لا يمنع أن يكون هذا الذكي العاقل ذكيًا في اختصاصه، أما على مستوى الآخرة فهو أغبى الأغبياء.

(أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ)

الهدى ينفذ عن طريق الأذن، فالأذن طريق الهدى، يسمع الإنسان..

(أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ)

(سورة ق37)

سمع خطبة جمعة، سمع محاضرة، سمع درس دين، درس تفسير، درس حديث، درس سيرة، سمع موعظة، فالهدى يصل إلى القلب عن طريق الأذن، أحياناً يرى آيةً دالةً على عظمة الله عزّ وجل.. هناك حادثة وقعت في بلد مسلم لا يصدقها العقل: امرأة من باكستان مع طفليها في طائرة، لسبب أو لآخر تحطم زجاج النافذة الذي إلى جنبها، والضغط كما تعلمون ثمانية أمثال في داخل الطائرة عنه في الخارج، فهذه النافذة سحبت الطفلين وألقت بهما في البحر على ارتفاع أربعين ألف قدم، طبعاً الموت محقق، بعد أسبوع تأتي هذه المرأة برقية من السفارة: أن تعالي إلى قطر فالولدان صحيحان، قصّة ضَجَّت منها البلاد، نزلا إلى جانب قارب صيد، فالصيّاد رأى شيئا نزل من السماء فغاص، وأنقذهما، وأوصلهما إلى مستشفى، هذه آية من آيات الله..

وإذا العناية لاحظتك جفونها نَـمْ فالمخاوف كُلُّهُنّ أمانُ

* * *

حادثة أخرى، أحد ركاب طائرة كانت تحلِّق فوق جبال الألب احترقت وتصدّعت، وقع هذا الراكب فوق غابةٍ في جبال الألب المغطاة بخمسة أمتار من الثلوج، ومع مرونة الأغصان نزل هذا الراكب واقفاً على قدميه، هذه آيات، فربنا عزّ وجل يري آياته أحياناً، وهذه الباخرة التي غرقت في بحر البلطيق، في أقل من خمسة دقائق كان تسعمئة راكب في قعر البحر، والعمق ثمانون مترًا فقط، في أقل من خمسة دقائق، تسعمئة راكب أصبحوا في قاع البحر، أنقذوا مئة وأربعين، والباقي ثمانمئة راكب ماتوا، هذه كلها آيات دالة على عظمة الله عزّ وجل.

(وَمَا شَاءَ اللَّهُ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ)

(من سنن أبي داود عن أبي الصلت)

إذاً:

(وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً)

الهوى يقع على البصر وعلى الأذن، فإذا وقع كما قال النبي الكريم:

((حُبُّكَ الشَّيْءَ يُعْمِي وَيُصِمُّ))

(من سنن أبي داود عن أبي الدرداء)

الهوى غشاوة على العين، والهوى وَقْرَ في الأذن، فإذا كانت العين مغطّاة، والأذن مغلقة القلب، فأنّى له أن يهتدي ؟ فإذا أغلقت الباب الخارجي فالأبواب الداخلية كلها مغلقةٌ حكماً، فالإنسان حينما يهوى، حينما يعبد الهوى، حينما يتخذ إلهه هواه جُعل الهوى غشاء على عينيه ووقرًا في أذنيه، فأنّى للقلب أن يهتدي بهدى الله عزّ وجل ؟ هذا ما قاله الله عزّ وجل في مطلع سورة البقرة:

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (6) خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ)

(سورة البقرة6)

لماذا ؟

(وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ)

(سورة البقرة7)

منفذا القلب السمع والبصر، الهوى غشاءٌ أمام البصر، ووقرٌ في الأذن، القلب إذاً تحصيل حاصل، حكماً القلب في عَمَى، لأن الهوى هو الحجاب، والإنسان حينما يهوى يعمى.

((حُبُّكَ الشَّيْءَ يُعْمِي وَيُصِم))

(من سنن أبي داود عن أبي الدرداء)

واعلموا أن صاحب الحاجة أعمى وصاحب الحاجة أرعن.

لك أن تقول: صاحب الشهوة أعمى، صاحب الشهوة أرعن، فالهوى حينما يستحكم بالإنسان يجعله أعمى أصم، قال تعالى:

(صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ)

(سورة البقرة171)

لماذا لا يعقل ؟ لأن منفذ العقل هو السمع والبصر، والهوى حجابٌ كثيفٌ أمام البصر، ووقرٌ ثخينٌ في الأذن.الآية اليوم:

(أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ)

الهدى هُدى الله، ليس هناك هدى من جهة ثانية أبداً، إذا لم الله يهدك فأنت لست مهتديًا، وهدى الله عزّ وجل يحتاج إلى إصغاء سمع، أن تلقي السمع وأنت شهيد، وهدى الله يحتاج إلى أن تنظر..

(قُلْ انْظُرُوا)

(سورة يونس: آية 101)

أمر بالنظر.

(فَلْيَنْظُرْ الإِنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ)

(سورة عبس24)

(فَلْيَنظُرْ الإِنسَانُ مِمّ خُلِقَ)

(سورة الطارق5)

(أَفَلا يَنْظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ)

(سورة الغاشية17)

أمرك بالنظر..

(قُلْ انْظُرُوا مَاذَا فِي السّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ)

(سورة يونس: آية 101)

أمرك أن تصغي السمع..

(إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا)

(سورة التحريم: آية 4)

دليل الإصغاء الحقيقي التوبة، فالله أمرك أن تنظر، وأن تصغي، أن تنظر إلى الآيات لتعرف الله، وأن تصغي إلى الحق، فإما أن تصل إلى الحق بذاتك ؛ باحثاً، منقباً، متأملاً، محللاً، وإما أن يأتيك جاهزاً عن طريق الدرس، فهناك طريق جاهز، وتحتاج إلى إصغاء، وعلامة الإصغاء التوبة، فإذا غيّرت في البيت بعدما سمعت الدرس، وقلت: هذا حرام، هذا لا يجوز، هذا العمل فيه شبهة، عندما تتحرك حركة وفق الشرع فقد صحّ إصغاؤك.

والله لا يوجد شيء يدعوني إلى العجب كأن أرى إنسانًا يلزم مجلس علم عشر سنوات، وفي بيته معصية، عجيب، ماذا يسمع ؟! هذا حينما كان ينظر ماذا يفعل ؟ ليس له محاكمة داخلية، هذه معصية، هذا مال حرام، هذا سلوك شائن، الشيء الذي يدعو للعجب أن يلزم إنسان مجلس علم، وأن يصغي، ثم لا يتوب.

(إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا)

(سورة التحريم: آية 4)

علامة الإصغاء الصحيح هي التوبة، وعلامة النظر الصحيح هي التوبة، إذا نظرت أو استمعت، النظر تأمُّل وبحث ودرس، والاستماع تأخذ العلم جاهزاً، لك أن تفكِّر، ولك أن تستمع، وكلاهما طريقٌ موصل إلى الله عزّ وجل.

إذاً:

(أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (23) وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ (24))

وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ

لذلك يقال لك: هذه الحياة هكذا، يفسِّر المصائب، يفسر خرق العادات، يفسر توفيق الله، يفسر عقاب الله، على أن هكذا الدنيا مدٌ وجزر، يومٌ لك ويومٌ عليك، ما الذي يميتنا ؟ يقول لك: موضوع الهرم، الدهر هو الذي يميتنا، دائماً الكافر يميل إلى تفسير لا يوضح أن الله هو الخلاّق، هو المحيي، هو المميت، هو الرزّاق، هو المعز، هو المذل.

(وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ)

لذلك ورد في الحديث القدسي:

((ابْنُ آدَمَ يَسُبُّ الدَّهْرَ، وَأَنَا الدَّهْرُ، بِيَدِي الأَمْرُ أُقَلِّبُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ))

(صحيح البخاري عن أبي هريرة)

تقول لي: حظ ! فلان محظوظ، هذه البنت حظها قليل، هذا الكلام ليس له معنى، فهل الحظ إله ثانٍ، الحظ هو الله عزّ وجل..

(فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى (5) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى (6) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى (7))

(سورة الليل5-7)

هذه آية الحظ، الدهر، القدر، كلام ليس له معنى، لا يوجد إلا الله عزّ وجل، فوحِّدوا، لا تَعْزُ الأشياء إلى شيء غير معقول، غير منطقي، ليس له اسم.

(إِنْ هِيَ إِلا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ)

(سورة النجم: آية 23)

(وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ

أحضِرْ أبانا لنرى، هذا كلام ليس له معنى، الله عزّ وجل قال:

(قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ)

يحييكم في بطون أمهاتكم..

(ثُمَّ يُمِيتُكُمْ)

في نهاية الحياة..

(ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الجاثية 045 - الدرس (7-8): تفسير الآيات 24 - 29
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 14-10-1994

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون... مع الدرس السابع من سورة الجاثية، ومع الآية الرابعة والعشرين، وهي قوله تعالى:

(وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ)

وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ

المفترق الذي يفترق عنده المؤمن من الكافر هو هذا المُفْتَرَق، الكافر يرى الدنيا كل شيء، من سعد فيها فهو السعيد، ومن كان شقيًا فهو الشقي، من غنى فهو الغني، ومن افتقر فيها فهو الفقير، إذا كانت الدنيا أكبر همّ الإنسان، أرادها من طريقٍ مشروعٍ أو غير مشروع، أراد مالها من حلالٍ أو من حرام، أراد المُتعة بطريقةٍ تُرضي الله أو لا ترضيه، فلذلك أركان الإيمان خمسة، الركنان الأساسيّان اللذان وردا دائماً مقترنين هما: الإيمان بالله واليوم الآخر.

أولاً: دنيا في القاموس هي دنيا، وليست عُليا، كلها متاعب، لكنها أساس الدار الآخرة، فيها ابتلاء الإنسان، يُبتلى بالغنى كما يُبتلى بالفقر، يُبتلى بالصحّة كما يُبتلى بالمرض، يُبتلى بالقوّة كما يُبتلى بالضعف، يُبتلى بإقبال الدنيا عليه كما يُبتلى بإدبارها عنه، فهي دار ابتلاء وانقطاع، الموت يأتي فيأخذ كل شيء، ولا شيء إطلاقاً، حتى خاتمه، حتى الذهب الذي في أسنانه يُنْزَع، حتى حاجاته الشخصيّة، أخصُّ خصوصيّاته تؤخذ منه، قد يكون مِلء السمع والبصر فيصبح في ثانيةٍ واحدة خبراً من الأخبار، المرحوم فلان، عميد الأسرة، يملك الأموال الطائلة وغير الطائلة، المنقولة وغير المنقولة، البيوت، البساتين، القصور، المركبات الفخمة، في ثانيةٍ واحدة أصبح خبراً بعد أن كان مخبراً، وفي الأثر:

((الدنيا دار بلاءٍ وانقطاع، والناس فيها في زمن هُدنة))

نحن في الدنيا الآن كل إنسان له حبل مُرخى، بإمكانك أن تستقيم، وقد لا ترى النتائج سريعة، وبإمكانك أن لا تستقيم، وقد لا ترى العقاب سريعًا، بإمكانك أن تأكل المال الحرام إلى أمدٍ طويل دون أن تشعر أن هناك من يُحاسبك، وبإمكانك أن تتقصّى الحلال دون أن يزداد المال زيادة غير متوقّعة، بإمكانك أن تُطْلِق بصرك ولا أحد يُحاسبك، وبإمكانك أن تغض البصر، والله وحده يعلم أنك تطيعه، بإمكانك أن تصلي، بإمكانك أن لا تصلي، بإمكانك أن تُحسِن، بإمكانك أن تسيء، أنت مخيّر، والعقاب يتأخّر، أو

الجزاء يتأخّر، لو جاء الجزاء عقب السلوك لألغي الاختيار، ولو أن إنسانًا أساء، وجاءته الضربة الإلهيّة مباشرة لامتنع عن الإساءة، لا سموّا، ولا كمالاً، ولا حبّاً لله، ولا تقرُباً إليه، ولكن خوفاً من الضربة، إذًا ألغي الاختيار، لا، أنت لك أن تفعل ما تشاء، ولك أن تُحسن، ولك أن تسيء، ولك أن تعطي، ولك أن تمنع، ولك أن تعتدي على أعراض الناس، ولك أن تأكل مالهم ظلماً وعدواناً، ولك أن تقمعهم، ولك أن تؤذيهم، ولك أن تأخذ ما بأيديهم، وكأنّ الدنيا ليس فيها حساب، أما إذا جاء الحساب..

(فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ (9) عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ (10))

(سورة المدثر9-10)

(وَلا تَحْسَبَنّ اللّهَ غَافِلا عَمّا يَعْمَلُ الظّالِمُونَ إِنّمَا يُؤَخّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ)

(سورة إبراهيم42)

(إِنّ الْعاقِبَةَ لِلْمُتّقِينَ)

(سورة هود49)

المفترق الذي يفترق منه المؤمن والكافر هو هذا، الكافر يرى الدنيا كل شيء، المُتعة فيها هي كل شيء، اللذّة فيها كل شيء، نساؤها كل شيء، مالها كل شيء، مناصبها كل شيء ؛ وأما المؤمن فيراها دنيا لا عُليا، يراها ممرًا، وليست مقراً، يراها سببًا للآخرة، لذلك فيها يتعرّف إلى الله، فيها يستقيم على أمره، فيها يتقرّب إليه، إذا عمل فعمله طاعة لله، يعمل ليكسب المال لينفقه في سبيل الله، يتعلّم ليكون علمه موظّفاً في سبيل الله، يتزوّج ليأخذ بيد زوجته إلى الله ورسوله، ينجب الأولاد ليربّيَهُم على طاعة الله.

يوجد فرق كبير جداً بين حياة المؤمن وحياة الكافر، المؤمن هادف في حياته، المؤمن كل شيءٍ يسعده في الدنيا، لأنه في الأصل سعيدٌ بربّه، مهما تكن حياته خشنة فهو سعيد، سعيدٌ في الصحّة والمرض، في الغنى والفقر، في القوّة والضعف، قبل الزواج وبعد الزواج، قبل العمل وبعد العمل، قبل أن يكون مكتفياً، وبعد أن يكون مكتفياً، لأن سعادته لا تأتيه من الخارج، بل تنبع من داخله، تنبع سعادته من إقباله على الله، من ابتغاء مرضاته، تنبع سعادته من طمأنينته أن الله يحبُّه، تنبع سعادته من أنه يطبّق المنهج الذي لا يُخطئ، يطبّق ما في القرآن، لأن القرآن يهدي للتي هي أقوم، هذه سعادته، فلذلك سر إخفاق الكفّار أنهم ما رأوا في الدنيا إلا أنها كل شيء، ما رأوها ممراً، رأوها مقرّاً، ما رأوها دنيا، رأوها عُليا، ما رأوها فانية، رأوها باقية، لا تبقى لأحد..

(وَقَالُوا مَا هِيَ إِلّا حَيَاتُنَا الدُنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا)

وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا

ما الذي يميتنا ؟ هكذا الحياة ؟! الدهر يميتنا ؟! من هو الدهر ؟ يقول لك: تقلّبات الزمان، قلب لي الدهر ظهر المِجَنّ، سَخِرَ القدر مني، لي حظ، أو ليس لي حظ، هذا كلّه كلام الشرك..

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

((يُؤْذِينِي ابْنُ آدَمَ، يَسُبُّ الدَّهْرَ، وَأَنَا الدَّهْرُ، بِيَدِي الْأَمْرُ، أُقَلِّبُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ))

لا يوجد في قاموس المؤمن دهر ولا حظ، ولا الأيام طحنته، ولا قلب الدهر له ظهر المِجَن، ولا حظُّه سيّئ، لم يُعطَ حظّاً كما ينبغي، هذا كله كلام لا معنى له إطلاقاً..

(وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ)

وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ

تفسير المؤمن للحدث

من نعمة الله العظيمة على العبد القدرة على التفسير الصحيح، الحدث يقع، ويراه المؤمن والكافر، لا يتفاوتان في رؤيته، لكنّهما يتفاوتان في تفسيره، الله عزّ وجل يسوق مصيبة لإنسان، المؤمن يراها مَحْضُ رحمةٍ، ومحض عدلٍ، ومحض عنايةٍ مشدّدة، المؤمن يرى فحواها، يرى مؤَدّاها، يرى الغاية النبيلة التي توخّاها الله عزّ وجل، يرى من خلالها رحمة الله، يرى من خلالها عدل الله، يرى من خلالها حفظ الله له، يرى من خلالها تربية الله له ؛ يأتي الكافر فيرى المصيبة سوء طالع، سوء حظ، قهر، ظلم، حظّه سيئ، محروم، هكذا يرى الكافر، لذلك:

(وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ)

وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ

(الدهر) اسم بلا مسمّى، كلمة بلا معنى، شكل بلا مضمون، محتوٍ بلا محتوى، دائماً الإنسان العاقل هو الذي ينفذ إلى أعماق الأمر، أجمل كلمة في موضوع المصائب أن من لم تُحدِث المصيبة في نفسه موعظة فمصيبته في نفسه أكبر، وإذا لم تنفعك المصيبة فمصيبتك أعظم، لذلك آلاف الأشخاص اهتدوا عن طريق المصائب..

عَنْ أَبِي أُمَامَةَ قَالَ: اسْتَضْحَكَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمًا فَقِيلَ لَهُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ: مَا أَضْحَكَكَ؟ قَالَ:

((قَوْمٌ يُسَاقُونَ إِلَى الْجَنَّةِ مُقَرَّنِينَ فِي السَّلَاسِلِ))

[أحمد]

من لم تنفعه لطائف الإحسان نفعته سلاسل الامتحان، فإما أن تأتيه طوعاً، وإما يحملك على أن تأتيه كرهاً، لذلك بطولة المؤمن وهو في بحبوحة، وهو في صحّة، وهو في رخاء يذكر الله عزّ وجل، ويُقْبِلُ عليه، ويصطلح معه، ويتوب إليه، ويناجيه.

(وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ)

يا ترى هل حرّرت هذا العقل من الأوهام، والظنون، والخرافات، من العقائد الزائغة ؟ ألا ينبغي أن يمتلئ هذا العقل باليقينيّات ؟ بالقول الثابت ؟ يقول ربنا عزّ وجل:

(يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

(سورة إبراهيم: آية 27)

عقل المؤمن مليء بالحقائق، مليء بالقوانين، مليء بمعطيات صحيحة مطابقة للفطرة، مطابقة للعقل، مطابقة للنقل، وإذا لم يحضر الإنسان مجالس علم، وإذا لم يتعلّم، وإذا لم يطلب العلم من أهله، وإذا ما قرأ كتاب الله، وإذا ما فهم كتاب الله، وإذا ما تدبّر كلام الله أين يكون مصيره ؟ لابدّ من أن يُخطئ. تصوّر إنسانًا يقود سيّارة في طرقاتٍ شديدة الانعطاف بلا ضوء، بلا مصباح، الحادث حتمي، وكل إنسان ليس له نورٌ من الله إما بفهم كتابه، وفهم سُنَّة نبيّه، أو ليس له نورٌ من الله باتصاله بالله فلابدّ من أن يُخطئ.

النور نوران ؛ نورٌ بياني، ونورٌ إشراقي، النور البياني هو أن تقرأ كتاب الله، هذا حلال، وهذا حرام، هذا حقٌ، وهذا باطل، هذا يجوز، وهذا لا يجوز، هذا يرضي الله، وهذا لا يرضيه، أما النور الإشراقي فهو أن تتصل بالله، تشعر أن هذا العمل لا يرضي الله، تتكوّن عندك أذواق عالية، وكمالات إنسانيّة، يمتلئ قلبك رحمة، يمتلئ إنصافًا، أنت مع الحق، ولو كان على نفسك، مع الحق، ولو كان ضدّك.

(وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ)

وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ

إذاً ينبغي أن نحرّر عقولنا من الظنون، من الأوهام، من الخرافات، من الترّهات، من الدجل.

(وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتُوا بِآَبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ

هذا كلام تعجيزي، لأن الإنسان إذا أراد الهداية فهذا القرار الداخلي الذي يتخذه الإنسان كل شيءٍ حوله يزيده إيماناً، كأس الماء مثلاً، هذا لا تحتاج لكي تعرف الله أكثر من كأس ماء، من جعله عذباً فراتاً ؟ من جعله بهذه السيولة ؟ من جعله لا لون له، ولا طعم، ولا رائحة ؟ من جعله يتبخّر في درجة أربع عشرة ؟ من خَزّنه.

(وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ)

(سورة الحجر22)

لو أردنا أن نخزّن ماء لسنة فإننا نحتاج إلى بيتٍ بحجم بيتنا، وهذا الماء يصبح آسناً، انظر إلى الشروط الدقيقة التي خزّن الله بها الماء.. صنعوا خزّان للماء في جبل قاسيون، وقد قلّدوا تقليداً تخزين الماء الإلهي، المستودع عمقه أربعمئة متر تحت الجبل.. هناك شروط صعبة جداً لتخزين الماء، قال الله تعالى:

(وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ)

يعطيك هذا النبع كل ثانية ستة عشر متراً مكعّباً، يكفي دمشق وما حولها، كل ثانية، تمتدُّ جذوره إلى حمص، إلى ما تحت جبال لبنان، إلى سيف البادية..

(وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ)

إذا أردت الهدى فكل شيءٍ يهديك، رغيف الخبز يهديك، العصفور يهديك، بعض الطيور تقطع اثنين وعشرين ألف كيلو متر في رحلةٍ لها من القطب الشمالي إلى جنوب إفريقية، هناك طيور تقطع ستة آلاف كيلو متر دون توقُّف، هناك طيور تخزّن في أجسادها من الدهون كوقودٍ يعينها على السفر الطويل، إلى أن يصبح جسمها ذا وزنٍ مضاعف، هناك طيور تحلِّق بسرعة مئة كيلو متر، فالطير وحده آية من آيات الله، قال تعالى:

(أَوَ لَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنّ إلا الرّحْمَانُ)

(سورة الملك: آية 19)

دعوة إلهيّة، هل فكّرت في هذا الطير ؟ هل فكّرت في ريشة الطير؟ هل فكرت في طيران الطير ؟ هذا عن الطير، فماذا عن الأسماك ؟ البحار باب ثالث، الجبال باب رابع، الهواء باب خامس، تجد طائرة وزنها ثلاثمئة وخمسين طنًا، وتحمل أربعمئة وخمسين راكبًا بحاجاتهم وأمتعتهم، وتحلِّق على ارتفاع أربعين ألف قدم، ما الذي يحملها ؟ هذا الهواء الذي بيننا، الهواء آية، الماء آية، الطير آية، السمك آية، الجبال آية، تخزين المال آية، تتبّع الآيات الكونيّة التي ذكرها الله في القرآن الكريم، هذه موضوعات للتفكّر، وموضوعات للبحث، فلذلك:

(وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ (24) وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آَيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتُوا بِآَبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ(25))

مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتُوا بِآَبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ

نريد إنسانًا مات يقوم من قبره ليحدِّثنا أنه رأى النار، ورأى الآخرة، ورأى الجنّة، هذا أولاً طلب سخيف، كل هذا الكون ألا يدلُّ على الله عزّ وجل ؟ كل هذا الكون ألا يدلُّ على كماله، على علمه، على رحمته، على عدله، على أنه إلهٌ عظيم ؟ فعندما يتعامى الإنسان عن هذه الآيات الصارخة، ويطلب شيئًا سخيفًا فهذا يدلُّ على صغر عقل هذا الإنسان.

يروى من باب الطُرَف أن رجلاً طويل القامة، عريض المنكبين، ضخم الجثّة، يرتدي جُبّةً وعمامة دخل إلى مسجد فيه مجلس علم لأبي حنيفة النعمان، وأبو حنيفة كانت رجله تؤلمه فمدّها بين إخوانه لعذر، فلمّا دخل هذا الرجل رفعها استحياءً من هذا الإنسان الغريب، طبعاً الدرس عن صلاة الفجر، بعد أن شرح الدرس، وفصّل، وبيّن، وأحضر الأدلّة، رفع هذا الإنسان الغريب يده، وقال: يا سيّدنا، كيف نصلي الصبح إذا طلعت الشمس قبل الفجر ؟ قال له: " عندئذٍ يمدُّ أبو حنيفة رجله "، لأن هذا سؤال سخيف جدًّا، فالشمس والقمر والنجوم، والسماء والمجرّات، وكأس الماء والهواء، والثمار والحقول، والمحاصيل مليون آية تدلُّ على عظمة الله..

(ائْتُوا بِآَبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

ائْتُوا بِآَبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ

هذا طلب سخيف جداً، لذلك النبي عليه الصلاة والسلام حينما كان يُطالَب من قِبَل كفّار مكّة بآيات حسيّة صارخة كقولهم: لو أنك فجّرت الأرض ينبوعاً، لو أنّك أزحت الجبال عن مكّة، لو أن كتاباً نزل من السماء نراه بأعيننا، كفّار مكّة طالبوا النبي بمثل هذه المطالب، وهي مطالب سخيفة جداً، لذلك الله عزّ وجل يواسي النبي صلى الله عليه وسلم فيقول:

(لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (3) إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آَيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ (4))

(سورة الشعراء3-4)

ثم يذكر للنبي الكريم كيف أن بني إسرائيل رأوا البحر قد أصبح طريقاً يبساً، وكيف رأوا العصا أصبحت ثعباناً مبيناً، ثم إنهم أتَوا:

(عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آَلِهَةٌ)

(سورة الأعراف: آية 138)

يقول ربنا عزّ وجل:

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (67) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (68))

(سورة الشعراء)

ذكر الله في سورة الشعراء عشرات الأقوام الذين طالبوا أنبياءهم بآيات حسيّة خارقة للطبيعة، والله استجاب لهؤلاء، ومع ذلك لم يؤمنوا، فهذا الذي يقول:

(وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آَيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتُوا بِآَبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (25) قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)

لا ينجو من عذاب الله إلا إذا أدخل يوم القيامة في حساباته اليوميّة، ولو سألت المسلم: هل أنت مؤمن بالله ؟ يقول لك: نعم، أنا مؤمن بالله، واليوم الآخر، والكتاب، والنبيين، والملائكة، والقدر خيره وشرّه من الله تعالى، تدقِق في حياته فلا تجد في تعامله التجاري، في بيته، في خروج بناته، في علاقته بزوجته، في علاقته بجيرانه، لا تجد أنه يُدخِل في حساباته اليوم الآخر، يفعل ما يفعل، يأخذ ما لا حقّ له به، يعتدي، يظنّ أن الذكاء في كسب المال، ولو كان حراماً، واقتناص المتع، ولو كانت حراماً، العجيب أن الاعتراف القوي لا قيمة له أبداً، الحقيقة أنك لا تجد في حياته اليوميّة ما يُنْبِئ أنه مؤمن باليوم الآخر، وحينما يعصي الإنسان الله معنى ذلك أن هذا اليوم خارج حساباته، أما المؤمن فقبل أن يفعل أي شيء يفكِّر كيف سألقى الله بهذا العمل ؟ تجد شخصًا يَحْرِم بعض الورثة ظلماً وعدواناً، وهو يصلي، تجد شخصًا آخر يأخذ ما ليس له، وهو يُصلي، هذه النماذج المهزوزة، هذه النماذج المُسْلِمَة غير الملتزمة تبعد الناس عن الدين، لذلك:

(قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)

قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ

لاحظ نفسك لا مع خالق البشر، بل مع بشر مثلك، إنسان أقوى منك أصدر قانونًا، وعِلْمُ هذا الإنسان يطولك، وقدْرته تطولك تستقيم معه، استوردت بضاعة، تذهب بصورة هذه الوثائق إلى الماليّة، الماليّة طالبتك ببيان أرباحك، هل تستطيع أن تخفي عنها هذا الشيء المستورد ؟ لا تقدر، النسخة تذهب أصولاً إلى دوائر الماليّة كي تحاسب، فأنت مع إنسان مثلك أقوى منك لا تستطيع التفلّت من قبضته، لا من علمه، ولا من قدرته، فتستقيم معه، لماذا لا تستقيم مع الله ؟ ألست في قبضته ؟ أليس مصيرك بيد الله ؟ أليست حواسُّك الخمس بيد الله ؟ أليس قلبك بيد الله ؟ أليست عظامك بيد الله ؟ أليست عضلاتك بيد الله ؟

أليس أولادك، زوجك، عملك، رزقك بيد الله ؟ مادمت في قبضته، وما دام مصيرك إليه فكيف تعصيه ؟ ألا تعتقد أن الذي يعصي الله هناك خلل في عقله ؟ وفي الأثر:

((أرجحكم عقلاً أشدُّكم لله حبّاً))

(قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ)

أي أنه أحياكم في بطن أمهاتكم، ثم أماتكم بعد أن انتهت آجالكم.

(ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)

ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ

قرأتُ كتابًا يحتوي على مقالات طبيّة، حوالي مئة مقالة نُشرَت تباعاً في مجلات طبيّة، مؤلفها جمعها في كتاب، المقالات رائعة جداً، كيف تحافظ على قِوامك، صحّة العينين، صحّة الجلد... إلخ، لكن الذي أدهشني بعد أن تصفّحت الكتاب أن الذي ألّف هذه المقالات مات، هو ألّف كل هذه المقالات فلمَ لمْ يحافظ على قِوامه، وعلى صحّته، وعلى، و على ؟ لأن كل مخلوقٍ يموت، ولا يبقى إلا ذو العزّة والجبروت.

معنى ذلك أنك طارئ على الحياة، أتيت وسوف تغادر، أتينا إلى الدنيا وسوف نغادرها، اللذائذ تنقضي تبقى تبعاتها، المتاعب تنقضي تبقى ثمارها.

سمعت عن مطعمٍ يبيع الخمر، أصدقاء صاحب المطعم نصحوه ووجّهوه، أخذوه إلى الحج، وعاد من الحج، وألغى بيع الخمر، شيءٌ جميل، بعد فترة حنّ إلى بيع الخمر، فعاد وباع الخمر، وبعد سبعة عشر يوماً قضى نحبه، وجاء الأجل.

ثمة ملهى كبير فيه كل أنواع الموبقات، كل أنواع المحرّمات، الذي أشاده وصمّمه، وخطّط له بعد أن افتُتِح بأسبوع انتهى أجله، وكل ما يجري فيه الآن وزره عليه.

(النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ)

(سورة غافر46)

الأعمال الصالحة متعبة، لكنها تنقضي، هذا الذي صلّى الفجر في جماعة كل يوم، هذا الذي غضّ بصره عن محارم الله، هذا الذي عُرِضَ عليه مال كثير فقال: مَعاذ الله، الله كريم، هذا الذي دعته امرأة ذات منصبٍ وجمال فقال: إني أخاف الله ربّ العالمين، هذا الذي تقصّى الحلال، طلب العلم، جلس في مجالس العلم، طبّق الإسلام في بيته، طبّقه في عمله، وضع تحت قدمه الدنيا وما فيها، ركلها بقدمه وقال: الله هو الغني، هذا إذا جاء أجله انتهت متاعبه، وبقيت الجنّة، بقيت المكافأة، بقي النعيم المقيم..

(فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ (19) إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ (20) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ (21) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (22) قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ (23) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ(24))

(سورة الحاقة19-23)

المتاعب تنقضي، جهاد النفس والهوى ينقضي، غضّ البصر ينقضي، الصبر على الطاعة ينقضي، الصبر عن الشهوة ينقضي، الصبر على البلاء ينقضي، ويبقى النعيم المقيم ؛ واللذائذ المحرّمة تنقضي، والبيوت الفخمة نخرج منها إلى القبر، وما مِن بيت مهما كان فخماً، مهما كان واسعاً، مهما كان مزيّناً، مهما اعتنى صاحبه به فلابدّ لصاحبه من يوم يخرج منه بشكلٍ أفقي، ولا يعود، يشيّع إلى مثواه الأخير، سيدنا النبي عليه الصلاة والسلام أكرم الخلق على الله بيته لا يتّسع لصلاته في الليل ونوم زوجته، فكانت تُنَحّي نفسها جانباً حينما يصلي، فما هذه الغرفة الضيّقة التي لا تتسع لصلاته ونوم زوجته ؟ هذه الدنيا لا شأن لها، لو أنها شيءٌ عظيم لأعطاها للنبي الكريم.. قال عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ:

((دَخَلْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ مُضْطَجِعٌ عَلَى حَصِيرٍ، فَجَلَسْتُ، فَأَدْنَى عَلَيْهِ إِزَارَهُ، وَلَيْسَ عَلَيْهِ غَيْرُهُ، وَإِذَا الْحَصِيرُ قَدْ أَثَّرَ فِي جَنْبِهِ، فَنَظَرْتُ بِبَصَرِي فِي خِزَانَةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَإِذَا أَنَا بِقَبْضَةٍ مِنْ شَعِيرٍ نَحْوِ الصَّاعِ، وَمِثْلِهَا قَرَظًا فِي نَاحِيَةِ الْغُرْفَةِ، وَإِذَا أَفِيقٌ مُعَلَّقٌ، قَالَ: فَابْتَدَرَتْ عَيْنَايَ، قَالَ: مَا يُبْكِيكَ يَا ابْنَ الْخَطَّابِ ؟ قُلْتُ: يَا نَبِيَّ، اللَّهِ وَمَا لِي لَا أَبْكِي، وَهَذَا الْحَصِيرُ قَدْ أَثَّرَ فِي جَنْبِكَ، وَهَذِهِ خِزَانَتُكَ لَا أَرَى فِيهَا إِلَّا مَا أَرَى، وَذَاكَ قَيْصَرُ وَكِسْرَى فِي الثِّمَارِ وَالْأَنْهَارِ، وَأَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَصَفْوَتُهُ، وَهَذِهِ خِزَانَتُكَ ؟ فَقَالَ: يَا ابْنَ الْخَطَّابِ، أَلَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ لَنَا الْآخِرَةُ، وَلَهُمْ الدُّنْيَا ؟ قُلْتُ:بَلَى))

[مسلم]

اللذائذ تنقضي، ويبقى عقابها، والمتاعب تنقضي، ويبقى ثوابها، انظر في رمضان يأتي يوم العيد يُفطِر الناس جميعاً، الذي صام ثلاثين يوماً انتهت متاعبه، والذي أفطر في رمضان بقيت تبعة مسؤوليّة إفطاره، فاللذة تنقضي، والمتعة تنقضي، والابتلاء ينقضي، ويبقى الحساب الجزاء والعقاب.

لسيدنا علي كلمة رائعة جداً، يقول فيها: **" فاعل الخير خيرٌ من الخير، وفاعل الشر شرٌ من الشر ".**

هذا كلام عميق جداً، هذا الذي ألقى قنبلة على هيروشيما، وأزهق أرواح ثلاثمئة ألف إنسان بلحظة هم سيموتون عاجلاً أم آجلاً، لكن بقي من هذا العمل وزره على صاحبه، وفعْله هذا يشقى به إلى أبد الآبدين، معنى هذا أن فاعل الشر شرٌ من الشر نفسه، وأكبر شر في الأرض ينتهي مع يوم القيامة، مرض عضال ينتهي مع الموت، إنسان فقير مع الموت انتهى فقره، إنسان معذّب مع الموت ينتهي

عذابه ؟ ويبقى العذاب الأبدي لفاعل الشر، العمل الصالح تنتهي مشقّته وأعباؤه، ويبقى ثوابه وخيره إلى أبد الآبدين، والعمل السيّئ تنتهي لذّته، وتبقى تبعته..

(قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (26) وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ

الله سبحانه وتعالى مالك الملك، وملكيّة الله عزّ وجل غير ملكيّة الإنسان، الله يملكنا ملكاً وتصرُفاً ومصيراً، أنت قد تملك، ولا تستطيع أن تتصرّف، وقد تملك المنفعة، ولا تملك الرقبة، وقد تملك الرقبة والمنفعة، ولا تملك المصير، لكن الله سبحانه وتعالى إذا وصف نفسه بأنّه مالك الملك فهو يملك خلقاً وتصرفّاً ومصيراً..

(وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

أي أنت من ملك الله، معنى من ملك أنك لا تستطيع أن تتفلّت من قبضته، اعتقد ما شئت، وافعل ما شئت، لكنك في قبضته، والآن أعطاك حريّة اختيار، جعلك مختاراً..

(وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ)

وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ

النظريّات الباطلة، السلوك الباطل، الإنجاز الباطل، كل شيء يخدم الشيطان، يخدم الضلال، وكل شيء ينتهي بك إلى الله ورسوله فهو حق، كل شيء يقرّبك من الله فهو حق، كل شيء يقرّبك من المعصية فهو باطل ؛ كتاب، قصّة، حفلة، لقاء، نزهة، كل شيء يقربك من المعصية فهو باطل، كل شيء يقربك من الجنّة والطاعة فهذا حق، لذلك المبطل خاسر، لو كان مستقلاً بوجوده عن الله، قد نقول: هو ليس خاسراً، لكن مادام وجوده بالله عزّ وجل، وهو في قبضة الله، ومصيره إلى الله، إذاً: إذا كان مبطلاً فهو خاسر، لأنه سوف يُحاسَب، الله قال تعالى:

(اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ)

(سورة فصلت: آية 40)

كل شيء مسجّل، وكله تحاسب عنه، فلذلك:

(وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ)

الإنسان العاقل دائماً يعيش المستقبل، لا يعيش الحاضر، الحاضر دائماً يعيشه الأغبياء، الحيوانات تعيش الحاضر ؟ الآن أمامه شهوة يقتنصها، مكسب يأخذه، لا يفكِّر بالأبعاد، بالنتائج، بالمصير، دائماً العاقل يعيش المستقبل، وغير العاقل يعيش الحاضر، ماذا يوجد حوله من لذائذ يقترفها ليسعد نفسه حسب ظنِّه، أما المؤمن فكما قيل: **" إذا أردت إنفاذ أمرٍ فتدبّر عاقبته "..**

الله أعطانا عقلاً، تصوّر إنسانًا معه جهاز يكشف زيف النقود، ويقبض مبلغًا ضخمًا بعملة صعبة، والجهاز في جيبه، والعملة مزوّرة، ولا يستعمله ؟ يكون أغبى الأغبياء، والله عزّ وجل أعطاك عقلاً يكشف لك الحق من الباطل، الخير من الشر، أنزل كتابًا، عندك قرآن، وعندك سنّة، وعندك علماء، وعندك عقل، وعندك تفكير فكيف تقع في شيءٍ يُهلِكك ؟

(وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ)

لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ

لذلك الخسارة الحقيقيّة لا يكتشفها الإنسان إلا بعد فوات الأوان ؟ محل تجاري كله حركة وبيع وشراء، والمحل في طريق الهاوية، أرباح معدومة، ديون كثيرة، رأس المال يتناقص، فالإنسان العاقل يُدرِك أن المحل سينتهي قبل مدة طويلة، أما الإنسان الغبي فمتى يشعر أنه على وشك الإفلاس ؟ حينما يُفلِس فقط، هذا هو الفرق بين العاقل وغير العاقل.

العاقل يصلُ إلى الشيء قبل أن يصلَ إليه، أحياناً تجد مركبة واقفة في الشمس، على اليمين شمس، وعلى اليسار ظل، أنت تركب في ناحية الشمس، لأنك تعلم أن الطريق من دمشق إلى حلب صباحاً تكون الشمس في ناحية الشرق، والأيّام صيف حارّة، والغرب فيه ظل، أنت تجلس في الغرب، على اليسار، لأنك فكرت جيدا، هذا العاقل، الإنسان عندما يركب سيّارة، يركب طائرة، ينتقي المستقبل، أما الشيء الآني فلا يلتفت إليه، فلذلك:

(وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ (27) وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً)

وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا

أمم حاربت، أمم انتصرت، أمم قهرت غيرها، هذه الأمم المبطلة التي بنت مجدها على أنقاض الآخرين، هذه تجثو يوم القيامة ذليلة لتدفع ثمن ظلمها وانحرافها.

(وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا)

إلى المنهج الذي جاءها فلم تعتبر به..

(الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ

اليوم الآخر في هذه الآيات كلِّها، هو المحور العام، وكل شيءٍ تفعله مسجَّلٌ عليك، وهناك حسابٌ دقيقٌ يوم القيامة، وربما كرَّم الله المحسن تكريماً ـ كما يقولون ـ تشجيعياً لبقيّة المحسنين، وربما عاقب الله المسيء عقاباً تحذيرياً لبقيّة المسيئين، ولكن الحساب الكامل الرصيد في الحساب الختامي.

(وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

(سورة آل عمران: آية " 185)

لذلك العاقل هو الذي يجعل يوم القيامة هو الهدف، ويُدخِل هذا اليوم في حساباته اليوميّة، كلّما أعطى أو منع، وصل أو قطع، غضب أو حَلُم، أي حركة أو أي سكنة ينظر أن الله هل يرضى عنه بها أو لا يرضى ؟

(وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (28) هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (29))

هَذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ

يضعون على أحدث الطرقات العامّة جهاز رادار يصوِّر السيّارات المخالفة، وأحياناً تجيء المخالفة، ويتنصل منها صاحبها، يقال له: لا تتكلّم بأي كلمة، هذه الصورة، أليست هذه مركبتك ؟ أليس هذا رقمها؟ لقد رآها مصوّرة، فالمخالفة المصوّرة تُسْكِت، فربنا عزّ وجل قال:

(هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

هَذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ

كل المعاصي مصوّرة، مسجّلة، بتواريخها، بوقائعها، بمكانها، بزمانها، بألوانها، بملابساتها، بخلفيّاتها، ببواعثها، بأهدافها، كلّه مسجّل وسوف يُعْرَض هذا على الإنسان يوم القيامة، لذلك يقول:

(يَا وَيْلَتَنَا)

ما هذه القصّة ؟!!

(مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا(49))

(سورة الكهف)

أحياناً يكون الإنسان في سهرة، وهو لا يدري أن كل هذه السهرة مسجّلة، كل شيء تكلّمه مسجّل، إنه في الأخير يُصْعَق.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الجاثية 045 - الدرس (8-8): تفسير الآيات 30 - 37
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 21-10-1994

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الثامن والأخير من سورة الجاثية، ومع الآية الثلاثين، وهي قوله تعالى:

(فَأَمَّا الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ (30) وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آَيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنْتُمْ قَوْماً مُجْرِمِينَ (31))

لما قال الله عزّ وجل:

(هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ

إن أعمال الإنسان ؛ دقيقها وجليلها مسجلة عليه، ويوم القيامة تعرض عليه هذه الأعمال..

(إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

والإنسان في هذه الحياة الدنيا إذا شعر أنه مراقب، أو أن اتصالاته مراقبة، أو أن حركاته مراقبة ينضبط أشد الانضباط، ينضبط مع مخلوقٍ مثله، ربما كان أقوى، فكيف مع رب الأرض والسماوات ؟

(إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

كل حركةٍ، كل سكنةٍ، كل قولٍ، كل فعلٍ، كل نظرةٍ، كل تنصتٍ، كل استماعٍ، كل مزاحٍ، كل غضبٍ، كل وصلٍ، كل فصلٍ، كل عطاءٍ، كل مَنْعٍ، كل ضحكٍ، كل عبوسٍ، كل الحركات والسكنات، والأحوال والأقوال، والاتصالات، والغضب والرضا، والكرم والبخل، كله مسجل، وأفضل إيمانِ المرء أن يعلم أن الله معه حيث كان.

إذا أردت أن تعلو، وأن يرقى إيمانك إلى مستوى أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك فاعلم أن الله معك حيثما كنت.

(وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ)

(سورة الحديد: آية 4)

أنت أيها الأخ الكريم تستحي من إنسانٍ كبيرٍ في أسرتك، تستحي أن يسمعك تقول كلمة بذيئة، تستحي أن يراك في ثيابٍ مبتذلة، تستحي أن يراك غضوباً، فكيف بخالق الأرض والسماوات ؟!

(إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

كان السلف الصالح إذا صلى قيام الليل، وقرأ آيةً فاهتزّت مشاعره بها يعيدها إلى الفجر.

(إِنّا كُنّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

في عملك، في دكّانك، في المخبر، في مكتب المحامي، في عيادة الطبيب، في مكتب البيع والشراء، مع خصومك، مع أحبابك، مع أقربائك، مع أعدائك، هل كنت عادلاً ؟ هل أنصفت الناس من نفسك ؟ هل قلت كلمة الحق ولو كانت مُرّة ؟ هل وقفت الموقف الأخلاقي ؟ هل حابيت أولادك ؟ هل قلبت الحق إلى باطل، والباطل إلى حق من أجل أقربائك ؟ هل اخترت رجلاً ليس كفئاً لعملٍ محاباةً له، وتجد مَن حوله من هو أكفأ منه ؟ إن فعلت هذا فقد خنت الله ورسوله، هل كبّرت على إنسانٍ مسألة، ضخمتها من أجل أن تأخذ مالاً وفيراً ؟ هل هوّنت على إنسانٍ مسألة من أجل أن تأخذ منه مالاً أيضاً ؟ ماذا فعلت ؟

(إِنّا كُنّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

لا يستقيم الإنسان إلا إذا رأى أن الله معه يراقبه، النبي عليه الصلاة والسلام رأى بعض أصحابه يضرب غلاماً، قَالَ أَبُو مَسْعُودٍ الْبَدْرِيُّ: كُنْتُ أَضْرِبُ غُلَامًا لِي بِالسَّوْطِ، فَسَمِعْتُ صَوْتًا مِنْ خَلْفِي:

((اعْلَمْ أَبَا مَسْعُودٍ، فَلَمْ أَفْهَمْ الصَّوْتَ مِنْ الْغَضَبِ، قَالَ: فَلَمَّا دَنَا مِنِّي إِذَا هُوَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَإِذَا هُوَ يَقُولُ: اعْلَمْ أَبَا مَسْعُودٍ، اعْلَمْ أَبَا مَسْعُودٍ، قَالَ: فَأَلْقَيْتُ السَّوْطَ مِنْ يَدِي، فَقَالَ: اعْلَمْ أَبَا مَسْعُودٍ أَنَّ اللَّهَ أَقْدَرُ عَلَيْكَ مِنْكَ عَلَى هَذَا الْغُلَامِ، قَالَ: فَقُلْتُ: لَا أَضْرِبُ مَمْلُوكًا بَعْدَهُ أَبَدًا))

[مسلم]

حينما يشعر الإنسان أن المخلوقات التي هو أقوى منها حسيبها ربُّ العالمين يقشعر جلده، سيدنا عمر بن عبد العزيز دخلت عليه زوجته فاطمة بنت عبد الملك فرأته يبكي، قالت: **" مالك تبكي ؟ "، قال: " دعيني وشأني "، فلما ألحّت عليه قال: " يا فلانة، إني وُليتُ هذا الأمر، ونظرت في الفقير الجائع الضائع، وذي العيال الكثير والرزق القليل، والمريض، والشيخ الكبير.. ذكر أصنافاً تزيد على ثمانية عشر صنفاً، فقال: فنظرت فرأيت أن الله سيسألني عنهم جميعاً، وأن حجيجي من دونهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلهذا أبكي ".**

هل سألت نفسك هذا السؤال: يا ترى أنا أعطيت من حولي حقه ؟ أدّيت الواجبات ؟ ربيت أولادي التربية الصحيحة ؟ ربيت بناتي التربية الصحيحة ؟ اخترت لهن أزواجاً أطهاراً، أم أن المال هو الذي غرك في قبول هذا الشاب، فلمْ تسأل عن دينه ؟ وأنت تعلم أن في دينه رقة ولم تبالِ بها، أردت المال فقط، هذه الفتاة يوم القيامة التي تقول: **" يا رب، لن أدخل النار حتى أدخل أبي قبلي، لأنه هو الذي زوجني من هذا الرجل، وهو الذي حملني على الفساد ".**

لذلك: عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:

((مَنْ كَانَ لَهُ ثَلَاثُ بَنَاتٍ فَصَبَرَ عَلَيْهِنَّ، وَأَطْعَمَهُنَّ، وَسَقَاهُنَّ، وَكَسَاهُنَّ مِنْ جِدَتِهِ كُنَّ لَهُ حِجَابًا مِنْ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ))

[ابن ماجه بسند صحيح]

فأنت أب، وتربية البنات والأولاد شيءٌ عظيمٌ جداً، وشيءٌ كبيرٌ جداً، إذا ربَّيْتَ أولادك التربية الصحيحة، ونِمْتَ قرير العين، فأولادك من دون عملٍ آخر يدخلانك الجنة.

فالأبوة ـ أيها الإخوة ـ الكاملة سبب لدخول الجنة، والأمومة الكاملة سبب لدخول الجنة، والدعوة إلى الله الصادقة سبب لدخول الجنة، وإتقان عملك ورحمة المسلمين سبب لدخول الجنة، فأبواب الجنة مفتحة على مصاريعها، كل عملٍ ابتغيت به وجه الله، وأتقنته، ورحمت به المسلمين فهو سببٌ لدخول الجنة، فلذلك أنت مراقب، افعل ما تشاء، قال تعالى:

(اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ)

(سورة فصلت: آية " 40)

هذا اسمه أمر تهديد: افعل ما تشاء فكله مسجل.

(إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُم تَعْمَلُونَ

(وَقَالَتْ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ)

(سورة المائدة: آية 64)

في آية أخرى:

(سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا)

(سورة آل عمران: آية 181)

لقد سُجِّلت.

فقبل أن تقول كلمةً، قبل أن تغتاب إنساناً، قبل أن تفتري على إنسانٍ، قبل أن تصغِّر إنساناً، اعلم أن هذا الكلام كلّه مسجّل.

(إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

هذه الآية يمكن أن تقف عندها وقفة طويلة، في كل أعمالك، في بيتك، وأنت في خلوَتك، وأنت مع أهلك، وأنت مع خصومك، وأنت مع المشتري، وأنت مع المراجعين إن كنت موظفاً، وأنت مع المرضى إن كنت طبيباً، وأنت مع الموكِّلين إن كنت محامياً، وأنت مع الطلاب إن كنت مدرساً، وأنت مع أي مخلوق.

لماذا ذكر عليه الصلاة والسلام:

((أنّ امْرَأَةً بَغِيًّا رَأَتْ كَلْبًا فِي يَوْمٍ حَارٍّ يُطِيفُ بِبِئْرٍ قَدْ أَدْلَعَ لِسَانَهُ مِنْ الْعَطَشِ، فَنَزَعَتْ لَهُ بِمُوقِهَا فَغُفِرَ لَهَا))

[مسلم]

قد يقرأ الإنسان هذا الحديث فيقع في حيرة، هل من المعقول أن تكون سقاية كلب سببًا للمغفرة ؟! بعضهم قال: إن هذا الكلب في الصحراء لا صاحب له، لا تنتظر من صاحبه أن يشكرها، وهذا الكلب لا يمكن أن يقدِّم لها شيئاً مقابل هذه الخدمة، ولا أحد يراها حتى تشعر أنها عملت عملا عظيمًا أثنى الناس عليها، فكل عوامل الشرك منفية بهذا العمل، لكنها سقته ابتغاء وجه الله، فاستحقت المغفرة، فإذا أخلص الإنسان في عمله يجزيه الله عزّ وجل خير الجزاء.

يكفيك أن الله يراقبك، يكفيك أن الله مطلعٌ على سريرتك، يكفيك أنك بعين الله، يكفيك أن كل كلمةٍ تقولها الله عزّ وجل يراقبها،

(إِنّ رَبّكَ لَبِالْمِرْصَادِ)

(سورة الفجر: الآية 14)

هل أنت صادقٌ بها ؟ هل أنت مخلصٌ لها ؟

لو انضبط الناس هذا الانضباط لكنا في حال غير هذا الحال، ولكنا في حال من الوئام، ومن المحبة، ومن الثقة.

والله إنّ الحياة بين المؤمنين فيها سعادة كبيرة جداً، يتعامل الإنسان معهم بثقة فترتاح، وأي تعامل من دون ثقة تصير الحياة به معركة، معركة في الشراء معركة، في البيع، كل شيء فيه لُغْم، لا تعرف، إذا اشتريت فأنت خائف، إن بعت فأنت خائف، إن تعاقدت فأنت خائف، هذا الخوف الذي يأكل القلوب سببه عدم الثقة، وعدم الثقة من عدم الإيمان، أما لو أن كل إنسان راقب الله عزّ وجل لهانت الأمور.

هذا الذي سأله عمر مختبرًا أمانته، وقال له: **" بعني هذه الشاة، وخذ ثمنها، قال له: ليست لي، قال له: قل لصاحبها: ماتت، قال له: ليست لي، قال له: خذ ثمنها، قال له: والله إنني لفي أشد الحاجة إلى ثمنها، ولو قلت لصاحبها: ماتت أو أكلها الذئب لصدّقني، فإني عنده صادقٌ أمين، ولكن أين الله ؟! ".**

إنسان يصدق فهل يتركه الله فقيرًا ؟

لي صديق عنده قطعة تبديل لسيارة خمس سنوات، ولم تبع معه، وهي غالية جداً، فجاءه شخص يطلبها وسأله: هل هي أصلية ؟ وهي ليست أصلية، قال له: ليست أصلية، قال له: أنزلها، لو قال له: أصلية كان البيع حراما، لا تخف في الله لومة لائم، وهذا هو المؤمن الحقيقي.

مع الإيمان تجد الاستقامة والخوف من الله الشيء المبهر.

إنسان يبيع بناية من اثنتي عشرة سنة، ولم تسجل، ويعرض عليه أصحاب البيوت كل واحد مليونا، وسجل لنا، سعرها كان بثمانية وثلاثين ألفا، وأصبح ثمنها اثني عشر مليونا، بعدما صار في إمكانه أن يسجل لا يأخذ قرشًا زائدًا، ويقول لهم: أنا أخذتُ حقي، وليس لي عندكم شيء أبداً، هذا هو المؤمن.

الدين ليس بالصلاة فقط، وليس بالصيام فقط، الدين بالمعاملة، الدين بالالتزام، بالاستقامة، لما ظهر الإسلام صارخاً في سلوكِ أصحاب رسول الله عليهم رضوان الله فتحوا العالمين، فلما انكمش الإسلام إلى عباداتٍ تؤدى أداء أجوف أصبحنا مقهورين، أصبح المليار والمئتا مليون لا يزنون في ميزان القوى قشة، والله تعالى يقول:

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي)

(سورة النور: آية " 55 ")

(يَعْبُدُونَنِي)

من أجل أن نوقِر الوقت، وأن نكسب الحياة، الدين ليس لمن سبق، و لا لمن له في المسجد عشر سنوات، لا، الدين لمن صدق، لمن صدق في معاملة الله عزّ وجل، وأنت كلما بالغت في استقامتك على أمر الله أراك الله من آياته الشيء الكثير، أراك الله من آياته ما يبهر وما يُدْهِش، إذاً الآية الكريمة:

(هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

كله مسجل، والمفاجأة التي تصعق يوم القيامة يقول تعالى:

(مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا)

(سورة الكهف49)

تجد أناسا يصلون، ويصومون، ويحجون، ويزكون، وإيمانهم ضعيف، هؤلاء ليسوا أبطالاً، لضعف إيمانهم.

(مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ)

(سورة ق18)

كله مسجل.

إذا علمت أن الله يعلم فلا مشكلة إطلاقاً، وحُلّت كل مشكلاتك، بل إن الله سبحانه وتعالى خلق السماوات والأرض من أجل أن تعلم أن الله يعلم، والدليل:

(اللّهُ الّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنْ الأَرْض مِثْلَهُنّ يَتَنَزّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنّ لِتَعْلَمُوا)

(سورة الطلاق: آية 12)

علة الخلق أن تعلم:

(أَنّ اللّهَ عَلَى كُلّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنّ اللّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلّ شَيْءٍ عِلْمًا)

(سورة الطلاق12)

لن تستقيم على أمر الله إلا إذا علمت أن الله يعلم، وسيحاسب، وأنت في قبضته، فالاستقامة حتمية، لأنك تستقيم مع إنسان إذا أيقنت أنه يعلم، وسيحاسب، لأنه أقوى منك، تستقيم على أمره، وهو من جنسك ضعيفٌ مثلك.

الناس رجلان: مؤمن وكافر

تصور خمسة آلاف مليون من البشر لهم نِحَل، لهم ملل، لهم أجناس، لهم أعْراق، لهم منابت، لهم ثقافات، لهم مناهج، لو أردنا أن نقسِّم البشرية إلى كم قسم ستنقسم ؟ يقول لك: العنصر السامي، والعنصر الآري، والعنصر الأنجلوساكسوني، والعنصر الأبيض، والملونين، وشمال الكرة الغني، وجنوبها الفقير، وشرقها الذي يؤمن بالمجتمع، وغربها الذي يؤمن بالإنسان، وكل عرق أقسام لا تعد ولا تحصى، وكل قسم طوائف، وكل طائفة مذاهب، وكل مذهب شُعَب، وكل شُعَب قبائل، وكل قبيلة عشائر، وكل عشيرة أسر، التقسيمات التي في الأرض لا تعد ولا تحصى، كم مذهبا ؟ كم اتجاها ؟ كم مشربا ؟ كم منزعا ؟ كم نزعة ؟ كم مبدأ ؟ شيء لا يعد ولا يحصى، كل هؤلاء البشر على اختلاف نحلهم، ومللهم، وأجناسهم، وأعراقهم، وأنسابهم، وأصولهم، وفروعهم، وانتماءاتهم، ومذاهبهم، وعقائدهم، وأحزابهم، وطوائفهم، ومذاهبهم، وعشائرهم، وقبائلهم، وأسرهم، نوعان في النهاية، انظر إلى دقة القرآن، قال تعالى

(فَأَمّا الّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ (30) وَأَمّا الّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنْتُمْ قَوْماً مُجْرِمِينَ (31))

معنى ذلك أن كل التقسيمات باطلة، الإنسان مؤمن وكافر، متصل ومنقطع، منضبط و متفلِّت، محسن ومسيء، مُنصف وظالم، هذا الإنسان سعيد وشقي، يؤْثر شهوته أو يؤثر مبدأه، يؤثر الدنيا أو يؤثر الآخرة، مذهبان في النهاية، إما أن يكون الإنسان مؤمناً بصرف النظر عن جنسه وعرقه، وأصله وحسبه ونسبه، وثقافته، وحرفته، وأسرته، وقبيلته، وعشيرته، وطائفته، وملّته، ومذهبه، أو يكون

كافرًا.

في الحياة شيء اسمه الاثنينية، إما مع هؤلاء، وإما مع هؤلاء، وملة الكفر واحدة في شتى بقاع الأرض، وفي كل الحقب والعصور والأزمان، والمؤمنون بخندقٍ واحد في كل العصور والأزمان والفصول، المؤمن مؤمن أينما كان، والكافر كافر، فربنا عزّ وجل كل هذه التقسيمات، وهذه الانتماءات، وهذه العنعنات، وهذه العنجهيات، وهذا التشقيق، وذاك التفريع، وفلان نسبه إلى كذا، وفلان من الدول الغنية، ومن الدول الفقيرة، كل هذه التقسيمات لم يعبأ الله بها، قال في النهاية:

(فَأَمَّا الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ (30) وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا)

لماذا كفروا ؟ وما علة كفرهم ؟ الآية الأولى:

(فَأَمَّا الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)

إذاً: أيّ شيء اسمه إيمان وحده لا قيمة له.

العلم ليس مقصوداً لذاته في الإسلام، العلم وسيلة، وكل إنسان اكتفى بالعلم فهو جاهل، جاهل وهو عالم، لأنه اكتفى بالعلم، فهم الآية، حللها، نَمّق في شرحها، لكن لم يطبقها، لذلك الدعاء الذي يقصم الظهر:

" اللهم إني أعوذ بك أن يكون أحدٌ أسعد بما علمتني مني ".

يمكن أن تشرح لإنسان آية، وتتفنن بشرحها، وتتعمق في مدلولها، وتأتي بأمثلة، لكن المستمع عقل هذه الآية، وطبّقها، وسبقك.

" اللهم إني أعوذ بك أن يكون أحدٌ أسعد بما علمتني مني ".

انتبه إلى نفسك، لا تجعل أحداً من المستمعين أسعد منك بهذا القرآن، لا تجعل الذين تدعوهم إلى الله أسعد منك بهذا الدين، لا تجعل من يستمع إليك أوعى منك، إيّاك أن تفعل هذا، هذا الذي جاء في الأثر:

((أندم الناس رجلٌ دخل الناس بعلمه الجنة، ودخل هو بعلمه النار))

عَنْ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:

((مَنْ طَلَبَ الْعِلْمَ لِيُجَارِيَ بِهِ الْعُلَمَاءَ، أَوْ لِيُمَارِيَ بِهِ السُّفَهَاءَ، أَوْ يَصْرِفَ بِهِ وُجُوهَ النَّاسِ إِلَيْهِ أَدْخَلَهُ اللَّهُ النَّارَ))

[الترمذي بسند حسن]

الإخلاصَ الإخلاصَ، تعامل مع الله بإخلاص، تعامل معه بصدق، لا يكن لك سر وعلانية، لا تكن ازدواجيًا، لك موقف معلن وموقف حقيقي، ورع ظاهر وعدم ورع باطن، لك خلوة لا ترضي الله

وخلوة ترضي الناس، لا تكن كذلك، كن موحّد الاتجاه، الذي في قلبك على لسانك، وعلانيتك كسريرتك، وظاهرك كباطنك، هكذا المؤمن، وذو الوجهين ليس عند الله وجيهاً، وهذا هو النفاق قال:

(فَأَمّا الّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحَاتِ)

فَأَمّا الّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحَاتِ

العمل الصالح اقترن مع الإيمان في أكثر من مئتي آية في القرآن الكريم، الإيمان هو العقيدة، والعمل الصالح هو السلوك، الإنسان فيه جانب معرفي، وجانب سلوكي، إن لم يكن هناك تطابق كان هناك النفاق، من أي شيء عظمة كانت الأنبياء ؟ لأنهم فعلوا ما قالوا، وقالوا ما فعلوا، ليس هناك مسافة أبداً بين أقوالهم وأفعالهم، وإذا كنت كذلك فأنت من الموفّقين.

(فَأَمّا الّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحَاتِ)

عطاء الله عزّ وجل الجنةُ وما فيها مِن قرب مِنَ الله، وما فيها من جناتٍ تجري من تحتها الأنهار، ما فيها من حورٍ عين، ما فيها من ألوان النعيم، وألوان القرب من الله عزّ وجل، والدنيا وما فيها من عز، وما فيها من صحة، وما فيها من سعادة، وما فيها من سكينة، عطاء الله إجمالاً عبّر الله عزّ وجل عنها بكلمة رحمة.

(فَأَمّا الّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ)

فَأَمّا الّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ

أنت في رحمة الله، أنت في توفيق الله، أنت في ظل الله، أنت في رعاية الله، الله يدافع عنك، ويرفع شأنك، ويعلي قدرك، وهذه رحمة الله عزّ وجل، يقدّر على يديك الأعمال الكبيرة الجليلة العظيمة، هذه رحمة الله عزّ وجل، تعيش سعيداً، تموت حميداً، إذا انقلبتَ إلى الله عزّ وجل انقلبتَ إلى جنةٍ عرضها السماوات والأرض.

(إلا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ)

(سورة هود: آية 119)

خلقك ليرحمك، ورحمته في الدنيا والآخرة، مادياً ومعنوياً، هذه رحمة الله، قال تعالى:

(فَأَمّا الّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ)

ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ

فإذا انتهت بك الدنيا إلى الجنة، واللهِ الذي لا إله إلا هو سوف ترى أن أقوى الأقوياء ليس أمامك بشيء، وأنت مؤمن عادي مغمور، ولست مشهورًا، لا أحد يعرفك، إذا عرفت الله، وعرفت منهجه، واستقمت على أمره حينما تكشف الحقائق، وتنزع الأقنعة المزيّفة، ترى أن المؤمن هو الذي أفلح، وهو الذي نجح، وهو العاقل، وهو الذكي، وهو المتفوّق، وهو الفائز، وهو كل شيء، وأقوى الأقوياء، وأغنى الأغنياء، وأذكى الأذكياء، تراه في الحضيض يوم القيامة، فلذلك لا يحَقِّر الإنسان من شأنه فيقول: من أنا، لا أحد يعرفني ؟

سيدنا عمر رضي الله عنه في معركة نهاوند فيما أذكر جاءه رسول من هذه المعركة من أمير الجيش، قال له: " كيف الأحوال عندكم ؟ " قال: " واللهِ مات خلقٌ كثير "، قال له: " من هم ؟ "، ذكر له أسماء عدد كبير من الصحابة استشهدوا في سبيل الله، قال له: " ومن أيضاً ؟ " قال له: " مات خلقٌ كثير لا تعرفهم.. أي لا تعرفهم بالاسم.."، فبكى بكاءً شديداً، وقال هذا الخليفة العظيم: " وما ضرهم أني لا أعرفهم إذا كان الله يعرفهم ؟ " هذه علامة الإخلاص، فإذا لم يكن أحد يعرفك فلا توجد مشكلة أبداً إذا كان الله يعرفك، إذا كان الله مطّلعًا على عملك، مطلعًا على نواياك، مطلعًا على استقامتك، مطّلعًا على خوفك منه، مطّلعًا على حرصك على طاعته، فلذلك:

(فَأَمّا الّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ)

خالق الكون يقول:

(ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ)

ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ

هذا الفوز، انظر إلى الناس، من اشترى أرضًا، وصارت ثمنها مئة ضعف يقول لك: أنا فوق الريح، ما معنى فوق الريح ؟ ألن يموت بعد ذلك ؟ الذي عنده وكالة حصرية، والبيع بغير حساب، والوكالة متينة بيده، ألن يموت هذا ؟ انظر إلى مقاييس الناس، مقاييس الناس الذي عنده بيت واسع، الذي عنده دخل كبير، المتمكن من مركزه هو الذكي والقوي، ولكن الله قال:

(ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ)

إذا أنت قرأت القرآن وقلت: صدق الله العظيم، ورؤيتك أن الغني هو الفائز، أو القوي هو الفائز، إذا أنت مؤمن إيمانًا حقيقيًا، وشعرت أنك محروم، فأنت لست مؤمناً، ما عرفت قيمة إيمانك.

" من أوتي القرآن فظن أن أحداً أوتي خيراً منه فقد حقّر ما عظمه الله ".

إذا هدى الله إنسانًا، وآتاه العلم والحكمة، وفهمه القرآن، وأعانه على الاستقامة على أمره، وجعل له نورًا من قلبه، وجعل حوله أهلاً صالحين، فهذا عطاء لا يقدّر بثمن، هذا العطاء سبب للجنة، فلذلك إذا قال الإنسان:

(يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ)

(سورة القصص: آية 79)

لا يعلم شيئاً، إذا قال:

(وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا)

(سورة القصص: آية 80)

يعلم كل شيء، علامة العلم أن ترى العطاء عطاء الله، وأن ترى الهدى هدى الله، وأنت ترى الخير أن يجري الله على يديك الخير، وأن ترى الغنى والفقر بعد العرض على الله، هذا العقل، قال:

(وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ)

وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ

أيّ آياتٍ يا رب ؟ الكون آيات، آيات كونية، والقرآن آيات، وأفعال الله آيات، الآيات العلامات الدالة على وجود الله، ووحدانيته، وكماله، وعظمته، وعدالته، وعلمه، هذه الآيات، فالكون آيات، والقرآن آيات، والشيء الثالث أفعال الله آيات، أفعال الله وحدها يمكن أن توصلك إليه، لأن الله قال:

(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ)

(سورة الأنعام 11)

أفعال الله آيات، لو دققت فيما يجري في العالم، وفي المجتمعات، ومع كل إنسان، تجد محض علم، ورحمة، وعدل، وإنصاف، وإذا تأمّلت في آيات الكون، يوجد بالمحيط الأطلسي تيّار الخليج عرضه ثمانون كيلو مترا، عمقه أربعمئة وخمسون مترًا، سرعته ثمانية كيلو مترات في الساعة، كثافته كبيرة جداً، ثلاثة عشر ألف مليون متر مكعب بالدقيقة، هذا التيّار ساخن، يلطِّف الأجواء في المنطقة الباردة الشمالية، وهناك تيار ثانٍ بارد يحمل معه مغذّيات عشبية يصل إلى سواحل أمريكة الجنوبية، هذا التيار الذي يحمل معه مغذيات نباتية، يجتذب ملايين مملينة من الأسماك الصغيرة، وهذه الأسماك الصغيرة تجتذب أكثر من خمسين مليون طائر اسمه غراب البحر.. اسم خاص به، غراب المحيط.. هذه الطيور تعيش على هذه الأسماك، وهذه الأسماك تعيش على هذه الأعشاب، أما البشر فكيف يستفيدون منها ؟ مخلّفات الطيور بألوف الأطنان، هذه ثروة قومية للشعب في تشيلي، وفي بعض البلاد هناك، الله عزّ وجل من حين لآخر يغيّر مجرى هذا التيار البارد، فتموت الأسماك، وتموت الطيور، ولا يوجد مخلّفات

للطيور، فيجوع الناس، إن الله هو الرزاق، يرزق شعوبًا بالملايين، من مخلّفات الطيور، لأنها من أرقى أنواع الأسمدة، ويرزق الطيور من هذه الأسماك، ويرزق الأسماك من هذه الأعشاب، والتيار يمشي في البحر حتى يصل إلى سواحل أمريكة الجنوبية في تشيلي، وفي بعض البلاد الجنوبية الأخرى، ثمن هذا السماد الذي يُخَلِّفُهُ هذا الطير يعد أكبر ثروة قومية في هذه البلاد، هذه من آيات الله.

فالكون آيات، وكلامه آيات، وأفعاله آيات، ألا ترى في أفعاله العجب العجاب ؟ ألا ترى كيف يقهر أحياناً الأقوياء ؟ تجد قلعة من قلاع العالم تلاشت، أصبحت هشة كبيت العنكبوت، أليست هذه من آياته الدالة على أفعاله وحكمته ؟

(وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا)

ما الذي حملهم على الكفر ؟ أنهم:

(أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ)

وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ

لا يفهم الأمور إلا فهماً مادياً، لا يفهم الزلزال إلا أنه اضّطراب في القشرة الأرضية فقط، لا يفهم أن الزلزال عقاب إلهيّ أحياناً، لا يفهم أن الحروب الأهلية تأديب إلهيّ للفسق والفجور، لا يفهم أن قحط السماء تأديبٌ للناس ؟ قال الله عزّ وجل:

(وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ)

(سورة الأعراف: آية 96)

(وَأَلَّوْ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا)

(سورة الجن 16)

مؤتمر السكان الذي عُقِدَ في القاهرة ليعالج مشكلة الفقر في العالم الثالث، عندهم الفقر مشكلته زيادة السُكّان، إذاً يجب أن نؤخر الزواج إلى أعلى سن، وحتى يلبي الشاب حاجته، يجب أن نسمح له بالزنى، وأن تأتي القوانين مؤكِّدة لهذا السماح، وأن نسمح للشذوذ بين الرجال وبين النساء، حتى تقلّ المواليد، ولكي تكفي الموارد، حتى يعيش المجتمع في العالم الثالث في بحبوحة، هذا تخطيط الإنسان الأعمى، أما ربنا ماذا فقال:

(فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً (10) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً (11) وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَاراً (12) مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً (13))

(سورة نوح 10-13)

إذا تبتَ إلى الله توبة نصوحًا، واستغفرت من كل الذنوب، واصطلحت مع الله، واتجهت إلى الله، وطبّقت منهج الله، فإنه:

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ)

(سورة النساء: آية 147)

لماذا ؟ هذا كلام خالق الكون، لو أن واحدًا وقف في المؤتمر، وقال:

(فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا)

أراد أن يحل هذه المشكلة العويصة في العالم عن طريق كلام الله عزّ وجل، ماذا سيلقى من ردود فعل عند المؤتمرين ؟ سيلقى السخرية، لأنهم لا يعرفون الله أبداً، فهم أرادوا أن يحلوا المشكلة عن طريق الشذوذ، عن طريق الزنى، وعن طريق تأجيل سن الزواج، وعن طريق إصدار تشريعات تسهّل الإباحية والرذيلة، أتحل مشكلة بمشكلة ؟ طبعاً من الجهل والغباء أن تحل مشكلة بمشكلات.

أضرب مثلاً لذلك بإنسان ذهب إلى طبيب جراح تجميلي في خده الأيسر ندبة، قال له: كيف نعالج هذه الندبة ؟ قال له: الأمر سهل جداً، ننزع لك قطعة من خدك الأيمن نضعها على خدك الأيسر، فما هذا العلاج ؟ هذا شيء مضحك، نريد أن نعالج مشكلة بآلاف المشكلات، وهذا الذي جاء في المؤتمر لا تقبله الفطرة، ولو كان الذي يستمع إلى هذه المقررات علمانياً، لا يقبله، قال تعالى:

(وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنْتُمْ قَوْماً مُجْرِمِينَ)

وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُجْرِمِينَ

أحياناً يخالف الإنسان مخالفة سير، فيدفع مبلغا من المال، وتُحجز مركبته أسبوعًا أو أسبوعين، هو غير مجرم، أما إذا قتل إنسانًا فهو عندها مجرم، كلمة مخالفة، جنحة، أما جريمة ؟ فهذه شيء كبير جداً، إذا لم يعرف الإنسان الله عزّ وجل، ولا عَرّفَ نفسه بالله، ولا حملها على طاعته، ولا حملها على حضور مجلس علم، ولا أقام الإسلام في بيته، سمّاه الله مجرمًا، فهو مجرمٌ في حق نفسه، لكن متى يكتشف الجريمة ؟ عند الموت.

(يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي)

(سورة الفجر24)

(يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ)

(سورة الزمر: آية 56)

(يَا وَيْلَتِي لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلانًا خَلِيلا)

(سورة الفرقان28)

(رَبِّ ارْجِعُونِ (99) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ)

(سورة المؤمنون99)

كل إنسان يعصي الله فهو مجرم بكل معاني هذه الكلمة، اجعل هذه الكلمة ملء فمك، قال الله عزّ وجل:

(أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ)

(سورة القلم35)

إذا لم يكن الإنسان مسلمًا فهو مجرم، نحن نفهم الإجرام القتل، لا، قد يكون ناعمًا، لطيفًا، معطرًا، أنيقًا، ما دام لا يصلي فهو لا يعرف الله عزّ وجل، ويطلق لشهواته العنان فهذا مجرم، قال الله عزّ وجل:

(أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنْتُمْ قَوْماً مُجْرِمِينَ)

أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُجْرِمِينَ

إن لم يكن الإنسان مسلماً فهو مجرم لا في حق الآخرين، لا، إنه لم يَقتل، ولا أساء إطلاقاً، لكنه مجرم في حق نفسه، لأنه خسر نفسه.

قد يخسر الإنسان أحياناً سيارته، يخسر بيته، أحياناً يخسر شيئا من ماله، يقولون: مات فلان، وانتهى، المال لم يعد له قيمة، فحينما يخسر الإنسان نفسه يخسر كل شيء، فالكافر يوم القيامة خسر نفسه، فهذا هو المجرم الذي ضيّع سعادته الأبدية لسنواتٍ معدودة أمضاها في بعض الشهوات، ولم يكن سعيداً.

(وَإِذَا قِيلَ إِنّ وَعْدَ اللّهِ حَقّ وَالسّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السّاعَةُ إِنْ نَظُنّ إِلّا ظَنّاً وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ)

وَإِذَا قِيلَ إِنّ وَعْدَ اللّهِ حَقّ وَالسّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السّاعَةُ

الكافر لا شيء عنده اسمه يقينيات، دائماً يقول: لا أعرف، الله أعلم، يشكك في وجود الجنة، ما عنده شيء يقيني.

(إِنّمَا الْمُؤْمِنُونَ الّذِينَ آمَنُوا بِاللّهِ وَرَسُولِهِ ثُمّ لَمْ يَرْتَابُوا)

(سورة الحجرات: آية 15)

(وَمَا يَتّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلا ظَنًّا إِنّ الظّنّ لا يُغْنِي مِنْ الْحَقّ شَيْئًا)

(سورة يونس: آية 36)

فالحقيقة ليست فقط لا يدري، لا يريد أن يدري، لأن الله قال:

(وَالّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنّهُمْ سُبُلَنَا)

(سورة العنكبوت: آية 69)

هل مِن إنسان يطلب الحقيقة، ولا يصل إليها ؟ مستحيل.

(وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا)

الله عزّ وجل ينتظر منك أن تطلب الحقيقة حتى يهديك إليها، حتى يُلقي في قلبك النور، لكن لا تريدها.

(وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنّاً وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ)

ثمة شاعر كان اسمه فيلسوف الشعراء، قال:

زعم المنجم والطبيب كلاهما لا تبعث الأموات قلت إليكما

إن صح قولكما فلست بخاسرٍ أو صح قولي فالخسار عليكما

* * *

مسألة لا تزال في الشك والظن والوهم، لعدم يقينه، ولعدم انضباطه، ولعدم طاعته لله عزّ وجل، يوم القيامة أعماله، وانحرافاته، وفساده، وعدوانه، وطغيانه تعرض عليه.

(وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ)

وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون

أحياناً تتلو على الإنسان جريمته فتجد نظره في الأرض، قد أحاطت به خطيئته، وقيّدته سيّئاته، حجبته زلاّته، وأذلته مساوئه.

(وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا)

انظر ماذا فعلت ؟ هذه الفتاة التي كنت سببا في فساد ذريتها، لو تزوجتها لما كانت كذلك، أنت أنشأت هذه الدار دارا للهو، انظر كم من الناس أفسدت بإنشائها.

(وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا)

أنت روّجت هذه الضلالة، كم تبعك فيها ؟ مئة مليون اعتنقوا هذه الضلالة، ومارسوا الانحراف، لأنك أنت أقنعتهم بها.

(وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا)

لذلك:

(إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ)

(سورة يس: آية 12)

فأعظم عمل الذي يموت صاحبه، وتبقى آثاره بعد موت صاحبه، كإنسان ترك علمًا نافعًا، أو ترك ولدًا صالحًا، أو أسس ميتمًا، أو أسس معهدًا شرعيًا، أو بنى مسجدا، أو علّم الناس، وأسوأ شيء إنسان أسس ملهى، أسس دار قمار أو وبعد ذلك مات، كل من دخل هذه الدار في صحيفته، وفي رقبته يوم القيامة.

(وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (33) وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا)

وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا

هذا اليوم يوم الفصل..

(لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلْ الْعَامِلُونَ)

(سورة الصافات61)

(وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (34) ذَلِكُمْ بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُواً وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (35))

وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا

الغرور أن تظن الشيء أكبر من حجمه الحقيقي، دائماً أهل الدنيا مغرورن بها، قبل أن ينام يحلم بالبيت، كم غرفة ؟ في جناح شرقي، أو جناح غربي، هنا غرفة نوم، هنا غرفة جلوس، دائماً يحلم ببيت، بمركبة، بزوجة، بمركز، بدخل كبير، بسياحة حول العالم.

(ذَلِكُمْ بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُواً وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ)

الإنسان في البدايات يظن المال كل شيء، بعد حين يظنه شيئاً، وليس كل شيء، لكن بعدما يواجه الحقيقة العظمى يراه لا شيئًا، المال والجاه، والسلطان، والنساء، والمُتَع، والشهوات، هذه في البدايات كل شيء، بعد حين شيء، وليس كل شيء، أما عند مواجهة الحقيقة فليس بشيء، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ، وَعَبْدُ الدِّرْهَمِ، وَعَبْدُ الْخَمِيصَةِ، إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ، وَإِنْ لَمْ يُعْطَ سَخِطَ تَعِسَ وَانْتَكَسَ))

[البخاري]

(فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (36) وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (37))

ملخص السورة:

ملخص هذه السورة أن الله سبحانه وتعالى يُحْمَدُ على أفعاله كلها، لأن أفعاله كلها خير..

(قُلْ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

(سورة آل عمران26)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأحقاف 046 - الدرس (1-6): تفسيرالآيات الآية: 1-5 خلق الإنسان بالحق لأجل مسمى و هدف كبير

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 28-10-1994

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس الأول من سورة الأحقاف.

تحدي الله عز وجل الناس أجمعين أن يأتوا بمثل هذا القرآن:

(حم (1) تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (2) مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنْذِرُوا مُعْرِضُونَ (3))

[سورة الأحقاف]

أوّلا، قوله تعالى: حم، هذه الحروف أوائل السور، الحروف المقطعة، كما أذكر دائماً، وأعيد، للمفسرين فيها مذاهب شتى، بعضهم قال: الله أعلم بمراده، وبعضهم قال: من هذه الأحرف نُظم القرآن الكريم، والله سبحانه وتعالى يتحدى الناس أجمعين، أن يأتوا بآية أو سورة من مثله، مع أن المواد الأولية بين أيدينا ؛ ثمانية وعشرون حرفاً في اللغة العربية نُظم منها هذا القرآن الكريم، أي تقريباً للحقيقة، مكونات الحليب معروفة، مكونات البيضة معروفة، هل يستطيع البشر قاطبة أن يصنعوا بيضة كالتي خلقها الله من الدجاجة، هل يستطيعون أن يجعلوا هذه الحشائش الخضراء لبنًا سائغًا للشاربين، فالإنسان، عضلاته، عظامه يقال لك: كلسيوم، مغنيزيوم، حديد، مكوناته معروفة، كلّها تدخل في تركيب جسم الإنسان، هل بإمكان البشر أن يخلقوا الحياة في الكائن ؟ المواد معروفة، أما الحياة فهي سر من أسرار الله عز وجل، إذن من هذه الأحرف نُظم القرآن الكريم.

القرآن الكريم معجز لأنه كلام الله سبحانه و تعالى:

والحقيقة لو سألت، هل هناك دليل عقليٌ، قطعيٌ، جامعٌ، مانعٌ، يثبت للإنسان من دون أدنى شك أن هذا القرآن كلام الله ؟ طبعاً نعم، والدليل هو الإعجاز، كلما قرأت القرآن، وكلما تدبرت آياته، وكلما وقفت على إشاراته، تشعر أنه من سابع المستحيلات، أن يكون هذا الكلام كلام البشر، يعني لما ربنا عز وجل مثلاً قال:

(غُلِبَتِ الرُّومُ (2) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (3) فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ)

[سورة الروم]

قال في أدنى الأرض، ما أحد يعرف على الإطلاق وقت نزول كتاب الله، أن أخفض نقطة في الأرض هي غور فلسطين، والمعركة التي جرت بين الفرس والروم وقعت في غور فلسطين، فقال سبحانه: في أدنى الأرض، هذا من إعجاز القرآن العلمي، قال:

(وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (27))

[سورة الحج]

آيات الله الكريمة يستحيل أن تكون من كلام البشر:

في عهد النبي عليه الصلاة والسلام، ما كان أحد يعرف أن الأرض كروية، ولو كانت الأرض منبسطة، لقال: من كل فج بعيد، لكنه قال: من كل فج عميق، والعمق في الشكل الهندسي، كلما ابتعدت عن نقطة من النقاط، ينشأ بعد وعمق، لأن الشكل كروي، وكذلك لما قال ربنا عز وجل عن العسل:

(فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ)

[سورة النحل]

ما كان أحد يعرف أن العسل له قيم دوائية، يظن الناسُ أنه شراب، أو غذاء سكري الطعم، أما الآن اكتُشِفت خصائص علاجية في العسل تفوق الحد المعقول، ولو تتبعت آيات القرآن الكريم (وما أكثرها) لهالك الأمر، لكني ذكرت ثلاث آيات فقط، وهناك آلاف من آيات الله الكريمة، تدل بدليل قطعي لا لبس فيه، على أن هذا الكلام يستحيل أن يكون كلام البشر، وكذلك لما قال ربنا عز وجل:

(وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً)

[سورة النحل: الآية 8]

هذه وسائل النقل المعروفة في عهد النبي، الخيل، والبغال، والحمير، والجمال، ولم يكن هناك طائرات، لكن ربنا قال:

(وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ(8))

[سورة النحل]

من أراد التثبت من أن هذا القرآن كلام الله فعليه بالتدبر و البحث و القراءة:

لأن هذا الكلام، كلام خالق الأكوان، فالله يعلم ما سيكون، علم ما كان، ويعلم ما يكون، ويعلم ما لا يكون لو كان كيف كان يكون، إذًا لو سألتني عن دليل قطعيّ، جامع، مانع، يثبت للإنسان الجاحد أن هذا القرآن كلام الله، أقول لك كلمة واحدة: هي إعجازه ؛ الإعجاز العلمي، والإعجاز الإخباري، غيب الماضي، وغيب الحاضر، وغيب المستقبل، الإعجاز التشريعي، الإعجاز التربوي، هذا كلام الله عز

وجل، فمن أراد أن يتثبت من أن هذا القرآن كلام الله، فليبحث، فليتدبر، فليتفهم، فليقرأ قراءة تفهم، قراءة وعي، قراءة تدبر، حتى يستقر بأعماقه أن هذا القرآن كلام الله، حتى إذا قرأت القرآن ورأيت الأمر والنهي، ورأيت الوعد والوعيد، تعرف من صاحب هذا الكلام، والشيء الثابت أن الإنسان ينصاع للأمر على قدر الآمر، كلّما عظم الآمر عظم أمره، وكلّما صغر في عينك الآمر، صغر أمره.

الدعوة الناجحة إلى الله عز وجل تنطلق من تعريف الآمر قبل الأمر:

لذلك أية دعوة إلى الله عز وجل، تنطلق من تعريف الآمر قبل الأمر دعوة ناجحة، أما إذا انطلقت مَن تعريف الأمر قبل الآمر، فهذه الدعوة قد لا تنجح، لأن قيمة الأمر من قيمة الآمر، لا تنظر إلى صغر الذنب، ولكن انظر على من اجترأت، ذكرت لكم مرة أنّ الإمام الغزالي لما خاطب نفسه، قال لها: يا نفس لو أن طبيباً منعك من أكلة تحبينها لا شك أنك تمتنعين، أيكون الطبيب أصدق عندك من الله ؟. طبيب يقول لك هذا البيت لا يناسبك، وهذا الطعام لا يناسبك، وإذا فعلت يُخْشى أن يكون كذا وكذا، تنصاع رأساً، والله سبحانه وتعالى، يأمرك وينهاك، ويعدك ويتوعدك، ولا تعبأ ؟ أيكون الطبيب أصدق عندكِ من الله ؟ ! قال: إذّا ما أكفرك !، أيكون وعيد الطبيب (يعني الإنذار بالمرض) أشدّ عندك من وعيد الله ؟ إذاً ما أجهلكِ ! والإنسان لمّا يعصي، فهو مذنوب بالجهل أو بالكفر، إذاً السلوك الصحيح أن توقن يقينًا لا شك فيه، يقيناً كيقينك بوجودك، كيقينك بالمحسوسات، كيقينك بالشمس في رابعة النهار، أن توقن أن هذا الكلام كلام الله، إذا أيقنت، تقف موقفًا آخر، الأمر تعبأ به، والنهي تخاف أن تقترفه، والوعد تصدِّقه.

من طابق بين أحواله و قناعاته و نصوص القرآن فهو مؤمن صادق:

أريد أن أوضح لكم حقيقة، يعني إنسان مستقيم على أمر الله، ولديه مع استقامته شعور بالحرمان، فالله ما أعطاه، ورأى صديقاً له أعطاه الله الدنيا بزخارفها، فإذا قال لك مرة واحدة: أنا محروم، والله قد أعطى فلانًا، فإيمانه صفر، لأن الله قال:

(وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا (71))

[سورة الأحزاب]

ذاك ما رأى الفوز، بل رأى الخسران، رأى الحرمان، يعني دائماً المؤمن الصادق، يحاول أن يطابق بين أحواله، وقناعاته، ونصوص القرآن الكريم، كلها تؤكد أنه من يطع الله ورسوله، فقد فاز فوزاً عظيماً، إذا كانت رؤيتك أن الأقوياء هم الذين فازوا فوزاً عظيماً، وأن الأغنياء هم الذين فازوا فوزاً

عظيماً، وأن الذين احتالوا على الناس، وحصّلوا ثروة طائلة،هم الذين فازوا فوزاً عظيماً، وأن المنغمسين في الملذات، والمباهج الدنيوية، هم الذين فازوا فوزاً عظيما، وأن الذي جمع المال مما حلّ وحرم، هو الذي فاز فوزاً عظيماً، وتقرأ في القرآن الكريم قوله تعالى:

(وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا (71))

[سورة الأحزاب]

وتقول: صدق الله العظيم، والحقيقة بكل أسفٍ مُرّة، فإنّ هذا الذي يقرأ القرآن بهذه الطريقة، ما صدّق الله عز وجل وكبَا به حصانُه.

المؤمن الحق من تعامل مع الله عز وجل بالصدق:

إذا قال الله عز وجل:

(وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ)

[سورة البقرة: الآية 221]

هذا في شأن الزواج، فإذا جاءك من ترضى دينه، وخلقه، فلم تزوجه لا لشيء إلا لأنه فقير، وجاءك من لا ترضى دينه، ولا خلقه، فزوجته طمعاً في ماله، فأنت لست في مستوى القرآن الكريم، لأنك ما صدقت الله عز وجل، ليكن الإنسان جريئًا مع نفسه، ولا يكن كالنعامة، تغرس رأسها في الرمل، وتنسى أنها كبيرة الحجم، ومشاهدة من كل جانب، فتعامل دائماً مع الله بالصدق، إذا قال الله عز وجل وهو خالق الكون:

(وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ)

[سورة البقرة: الآية 221]

فقوله هو الحق و الصواب، وحينما تتحرك حركة مناقضة لهذه الآية، فأنت إذًا ما صدّقت الله عز وجل.

من تحرك حركة مناقضة لآيات الله عز وجل فهو إنسان كاذب:

إذا قال الله عز وجل:

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ)

[سورة النور: الآية 30]

ولم تعبأ بهذه الآية، فأنت ما صدقت الله عز وجل، ولم تر عظمة الآمر، لقد قرأت الأمر، لكن لم تعرف عظمة الآمر، وإذا قال الله عز وجل:

(يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ)

[سورة البقرة: الآية 276]

وطُلِب منك أن تقرض إنسانًا، والمبلغ موجود، لكن بحسابات الآلة الحاسبة، هناك تضخم نقدي بعد عام، وإذا أقرضتُ هذا المبلغ سأسترده أقل بعشرين بالمئة، أو سبعة عشر بالمئة بعد عام، فقلت: والله لا مجال ولا إمكان، فأنت ما صدقت اللهَ عز وجل إذ يقول:

(مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً)

[سورة البقرة: الآية 245]

من تعامل مع القرآن تعاملاً جاداً كان إيمانه عميقاً:

وإذا قال ربنا عز وجل:

(وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (39))

[سورة سبأ]

إذا قلت لإنسان، لا تفرط، القرش إذا انصرف لا يعوض، فهذا كلام الشيطان، أما كلام الواحد الديان:

(وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (39))

[سورة سبأ]

الأمر يحتاج إلى إيمان عميق، كي تتعامل مع هذا القرآن تعاملاً جاداً، تعامل المصدِّق، هذا الذي يقول: قرأنا وتباركنا، وسلوكه في وادٍ، والقرآن في واد آخر، فهذا الذي أضعف المسلمين، وهذا الذي جعلهم (وهم يزيدون عن مليار ومئتي مليون) لا وزن لهم في العالم، لأن الله عز وجل كلامه واضح كالشمس.

عند عدم تعامل الإنسان مع الآيات على أنها كلام خالق الكون فإيمانه فيه ضعف شديد:

اسمع قوله تعالى و تدبّر:

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (55))

[سورة النور]

فأين الاستخلاف ؟

(لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا)

[سورة النور]

أين الاستخلاف ؟ وأين التمكين ؟ وأين التطمين ؟ قال:

(يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا)

[سورة النور]

يعني الحقيقة، وهي مؤلمة ؛ أنّك إن لم تتعامل مع الآيات على أنها كلام خالق الكون، وعلى أن زوال الكون أهون على الله من ألاّ يتحقق وعده ووعيده، فهذا يعني أنّ الإيمان فيه ضعفٌ شديد.

مهما كانت الجموع كثيرة وقراءتهم شكلية فلا وزن لهم يوم القيامة:

إنّ هذه القراءة الشكلية: نقرأ، ولا نفهم، ونفهم، ولا نطبق، ونطبق، ولا نخلص، فالعاقبة عندئذ:

(فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا (105))

[سورة الكهف]

مهما كانت الجموع كثيرة، والنبي عليه الصلاة والسلام يقول في الحديث الصحيح:

((خَيْرُ الصَّحَابَةِ أَرْبَعَةٌ وَخَيْرُ السَّرَايَا أَرْبَعُ مِائَةٍ وَخَيْرُ الْجُيُوشِ أَرْبَعَةُ آلَافٍ وَلَا يُغْلَبُ اثْنَا عَشَرَ أَلْفًا مِنْ قِلَّةٍ))

[أخرجه الترمذي عن ابن عباس]

لن لتأبيد النفي، لن تغلب أمتي من اثني عشر ألفًا من قلة، وقد يجتمع في المسجد الحرام في موسم الحج، مليون ونصف مليون حاج، يطوفون، ويسعون، ويلبّون، فكيف نوفّق بين هذه الجموع الغفيرة، والملايين المملينة من حجاج بيت الله الحرام، وقول النبي في الحديث الصحيح:

((خَيْرُ الصَّحَابَةِ أَرْبَعَةٌ وَخَيْرُ السَّرَايَا أَرْبَعُ مِائَةٍ وَخَيْرُ الْجُيُوشِ أَرْبَعَةُ آلَافٍ وَلَا يُغْلَبُ اثْنَا عَشَرَ أَلْفًا مِنْ قِلَّةٍ))

[أخرجه الترمذي عن ابن عباس]

من نشأ في طاعة الله عز وجل يطمئن الله قلبه:

أيها الأخوة الكرام، لو صدقنا اللهَ لكُنّا في حال غير هذا الحال، ولو قرأنا هذا القرآن قراءة من يخشى الله، قراءة من يصدّقُ الله، قراءة من يرى أن وعد الله ووعيده قاب قوسين، يكون في حال غير هذا الحال، سيدنا سعد بن أبي وقاص يقول: ثلاثة أنا فيهن رجل، من هذه الثلاثة: أني ما سمعت حديثاً من رسول الله إلا ظننت أنه حق من الله تعالى، يعني شاب نشأ في طاعة الله، الله عز وجل يقول له:

(وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ (40))

[سورة غافر]

قد يقلق حيناً، لكن خالق الأكوان يطمئن قلبه.

من بنى عمله على حرام له معيشة ضنكا:

ربنا عز وجل يقول من جانب آخر:

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (124))

[سورة السجدة]

هذا الذي يبني عمله متوهِّماً غفلة الله عز وجل، يتعامل ببضاعة محرمة، بأسلوبٍ محرم لا يرضي الله في حرفته، ولا في كسب المال، لا يقيم الإسلام في بيته، هذا ألم يقرأ قوله تعالى:

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (124))

[سورة السجدة]

من بنى حياته على منهج الله فهو من أسعد الناس:

إذاً فاسمع قوله تعالى:

(فَمَنْ أَسّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنّمَ)

[سورة التوبة]

إنسان بنى زواجه وفق منهج الله، واختار عملاً يرضي الله، سلك في هذا العمل الأسلوب الذي أقره الشرع، حتى نزهاته جعلها وفق ما يرضي الله، من غير اختلاط، ولا انحراف، بل في استقامة وامتثال، فإذا بنى الإنسان حياته على منهج الله، فهو من أسعد الناس، فالقضية ليست قضية جموع، ولا قضية تبرك شكلي، بل القضيةُ قضية التزام عملي، يعني كما قال أحد العلماء، أظنه سهل التُّستري، قال: تَرْكُ دانق من حرام، خير من ثمانين حجة بعد الإسلام، والحديث الشريف:

((لأن أمشي مع أخ في حاجته خير لي من صيام شهرٍ واعتكافِهِ في مسجدي هذا))

[ورد في الأثر]

المؤمن يقينه بقوانين الله عز وجل في كتاب الله يقيناً قطعياً:

أي: أنا أرجو الله سبحانه وتعالى أن تجلسوا في البيت، وأن تتلو هذا الكتاب، وأن تتعاملوا معه بصدق، الأمر أمر، والنهي نهي، والوعد وعد، والوعيد وعيد، وأن يعتقد أحدكم جازماً أن القوانين في هذا القرآن لها حتمية الوقوع، أجل، حتمية الوقوع حقّاً، كيف أنّ الحديد يتمدد بالحرارة، وكيف أنّ المباني

كلها حينما تصمم يتركون فواصل تمدد، لأن يقين المهندسين بخصائص الحديد، يقين قطعي، هذا المعدن يتمدد بالحرارة، فإن لم يتركوا فواصل تمدُّد تلتوِ الجسور، وتنهار الأبنية، إذاً يقينك بالقوانين الفيزيائية يقين قطعي، وينبغي أن يكون يقينك بقوانين الله عز وجل في كتاب الله يقيناً قطعياً، حينما توقن فإنك تتحرك حركة توافقية، وحينما توقن تلتزم، حينما توقن تتعامل مع الله بصدق، والنبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((استقيموا ولَنْ تُحصُوا))

أي لن تحصوا الخيرات التي تأتي من الاستقامة.

الله عز وجل في أكثر الآيات يُعرف الإنسان أن هذا القرآن كلامه:

المؤمن الصادق يرى بأن الأمر كله بيد الله، مهما كان الأمر مستعصياً، مهما كان الأمر صعباً، فالأمر بيد الله، ما عليك إلا أن تطيعه، وترى عندئذ أن الأمور كلها تجري لصالحك، فالله سبحانه وتعالى ما من عبد خطب ودّه إلا أراه من آياته التوفيقَ، والتيسيرَ، وتذليلَ العقبات، الراحة النفسية، التوفيق في الزواج، التوفيق في العمل، السمعة الطيبة، هذه كلها، بعض العطاءات المبدئية في الدنيا، تشجيعاً لا تكريماً، إذاً يطالعنا سؤال كبير، هل أنت موقن يقيناً قطعياً، كيقينك بوجودك، أن هذا القرآن كلام الله ؟ إذا كان يقينك هكذا، فصعبٌ جداً أن نفسر المعصية، وصعب جداً أن نفسر التقصير، وصعب جداً أن نفهم أنك تتحرك في بيتك، أو في عملك، بخلاف منهج الله، بل صار التفسير سهلاً، إن وقع شيءٌ من ذلك منك فأنت لست موقناً أن هذا القرآن كلام الله، أو لم تعرف من هو الآمر، لذلك ربنا عز وجل في أكثر الآيات، يُعرّفك بأنّ هذا القرآن تنزيل من الله العزيز الحكيم، أحيانا يسأل الإنسانُ إنساناً آخر هل تعرف مؤلفَ هذا الكتاب ؟ وأحياناً أخرى، هل تعرف من هذا الشخص الذي إلى جانبي في الصورة ؟ هو فلان، فأحياناً الإنسان يعرِّف غيره، وربنا عز وجل يقول معرّفًا بالقرآن العظيم ومنزلِه:

(تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (2))

[سورة الجاثية]

(الله): سبحانه وتعالى علَمٌ على الذات، ذات الله اسمها (الله)، علَمٌ على الذات صاحب الأسماء الحسنى، قال تعالى

(وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا)

[سورة الأعراف: الآية 180]

الموجود، الواحد، الكامل.

من أحصى أسماء الله تعالى اتجه إليه و إلى تطبيق أمره:

لذلك:

((إنّ لِلّهِ عَزّ وَجَلّ تِسْعَةَ وَتِسْعِينَ اسْمًا مَنْ أحْصَاهَا كُلّهَا دَخَلَ الْجَنّةَ))

[رواه الترمذي عن أبي هريرة]

الإحصاء شيء، والعدّ شيء، العد أن تقول: الخالق، البارئ، المصور، هذا العد، أما الإحصاء فهو غير العد، هل عرفت معنى رحمته، ومعنى حكمته...إلخ، فإذا عرفت معنى حكمته، ومعنى رحمته، ومعنى عدالته، ومعنى قوته، ومعنى علمه فقد أحصيتها، ومن أحصاها دخل الجنة، فيكفي أن تتعرف إلى أسماء الله تعالى، وأن تحصيها، إذا أحصيتها فلا شك أنك اتجهت إلى الله، واتجهت إلى تطبيق أمره، عندئذ تستحق دخول الجنة، إذاً ربنا عز وجل يقول لنا: هذا الذي بين أيديكم، هذا الكتاب ليس كتاباً من تأليف إنسان، وليس كتاباً من وضع بشر، فضل كلام الله على كلام خلقه كفضل الله على خلقه، هذا الذي بين أيديكم تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم، والله سبحانه سماه مرة كتاباً، وسماه مرة قرآناً، كما سماه نوراً يبدد الظلمات، ووصفه بأنه نور لأنه يبدد كلّ ظلمة، وسماه بأسماء كثيرة في القرآن الكريم، كل اسم يشير إلى خاصة، سماه: حبل الله، كل من تمسك به نجا، قال تعالى:

(مَا خَلَقْنَا السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إلّا بِالْحَقّ وَأَجَلٍ مُسَمّى وَالّذِينَ كَفَرُوا عَمّا أُنْذِرُوا مُعْرِضُونَ (3))

[سورة الأحقاف]

تساؤل الإنسان عن الهدف من وجوده في الحياة:

أيها الأخوة الكرام، الإنسان أحياناً لديه أسئلة عميقة جداً يطرحها، فمثلاً ما جدوى الحياة ؟ والإنسان في يوم واحد يُشيّع جنازة، ويحضر عقد قران، ويزور زوجين حديثين أنجبا مولوداً، هذا طفل خُلق، خرج من قبر الرحم إلى الدنيا، وذاك إنسان دخل القبر، قبر التراب، هناك متناقضات ؛ مِن قبر الرحم إلى الدنيا، وإنسان خرج من الدنيا إلى قبر التراب، والكلُّ في أثناء حياته يعمل، ويسعى، ويجمع، ويبني، ويزين، ويتبجح، ثم يموت، وكأنه لم يكن، والأسئلة كثيرة جداً، منها: ما جدوى الحياة ؟ ما فلسفة الحياة ؟ لماذا نحن في الأرض ؟ نأكل ونشرب، ونجمع المال، وننام، ونستيقظ، إلى أن يأتي الأجل.

الحياة رسالة كبيرة:

فإذا الإنسان أغفل في حياته تلك الرسالة التي حمّلنا الله إياها، وغفل عن المهمة العظمى التي جاء من أجلها، فالحياة تغدو بلا معنى، عوام الناس يعيشون ليأكلوا، والأرقى منهم، يأكلون ليعيشوا، والأرقى من هؤلاء وهؤلاء، يعيشون ليتعرفوا إلى الله عز وجل، فالحياة رسالة كبيرة، وقد قال سبحانه:

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا(72))

[سورة الأحزاب]

رسالة عظمى أنيطت بنا، فالإنسان حينما تستهلكه الحياة، يُستهلك، فقد يَستهلك عمره استهلاكاً وهو في غفلة، فمتى يصحو ؟ عند الموت، يصحو عند المرض العضال، يصحو حينما يقترب من أجله، حينما تأتيه مشكلة تدنيه من قبره يصحو، لكنه صحا بعد فوات الأوان.

خلق السماوات و الأرض بالحق:

فيا أيها الأخوة الأكارم يقول الله عز وجل:

(مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنْذِرُوا مُعْرِضُونَ (3))

[سورة الأحقاف]

يعني قريب من مليون مليون مجرة، كل مجرة فيها قريب من مليون مليون نجم، بعض الشموس تكبر شمسنا بمليارات المرات، المجموعة الشمسية طولها مسافات شاسعة، الأرض نقطة في هذا الكون الكبير، الأرض أربعةُ أخماسها محيطات، وخمس قارات، وتجد المدينة الصغيرة، لا شيء أمام حجم الأرض، فهذا الكون لماذا خلق ؟ من خلقه ؟ ولماذا خلقه ؟ وماذا بعد ؟ فهذه أسئلة كبرى، جاء الجواب:

(مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنْذِرُوا مُعْرِضُونَ (3))

[سورة الأحقاف]

السعيد من عرف الله فاختار الحياة الباقية:

ما معنى بالحق ؟ إنّ الله عز وجل وصف القرآن الكريم بأنه مثاني، قال تعالى:

(وَلَقَدْ آَتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآَنَ الْعَظِيمَ (87))

[سورة الحجر]

من معاني المثاني، أن الآية تنثني على أختها فتفسرها، وربنا عز وجل نفى أن يكون خلق السماوات والأرض باطلاً، ونفى أن يكون خلق السماوات والأرض لعباً، وأثبت أنهما بالحق، ما هو الحق إذاً ؟ نفى أن يكون الخلقُ بالباطل، نفى الباطل ونفى اللعب، وقال بالحق خلقت السماوات والأرض، معناها الحق هو الشيء المناقض للباطل، والشيء المناقض للعب، الباطل هو الشيء الزائل، و اللعب الشيء العابث، فالحق ثابت وهادف، يعني أنت، أنت خلقت بالحق، ما معنى بالحق ؟ أنك خلقت لتبقى، الموت حالة طارئة تصيبك، انفصال النفس عن الجسد عن الروح، حالة عرضية تصيب الإنسان، قال تعالى:

(كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ)

[سورة آل عمران: الآية 185]

خلقت لتبقى، وخلقت لهدف عظيم، فمن هو السعيد ؟ هو الذي عرف أنه خلق ليبقى، فاختار الحياة الباقية، وعرف أنه خلق لهدف عظيم، فبحث عن هذا الهدف.

كل إنسان مخلوق بالحق و لهدف عظيم:

كلمة "بالحق" وحدها تكفي.

(مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنْذِرُوا مُعْرِضُونَ (3))

[سورة الأحقاف]

بالحق، هو الثبات، والديمومة، والاستمرار، أحيانا ننشئ جامعة، يقول لك استغرق بناؤها عشر سنوات، لأن الجامعة بنيت لتبقى، لكن ؛ جناح في معرض قد يكون من قماش، وقد يكون من مواد أولية بسيطة جداً، لا تقوى على الاستمرار شهراً، فالجناح في المعرض بني ليزال بعد حين، لكنّ الجامعة بنيت لتبقى، فكلمة "بالحق" تعني الشيء الثابت، وأنت مخلوق بالحق، قال تعالى:

(وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ (77))

[سورة الزخرف]

خلق الله عز وجل الإنسان ليبقى:

خُلق الإنسانُ ليبقى، هذه نقطة هامة، وخُلِق لهدف عظيم، فالله عز وجل نفى اللعب، ونفى البطل، فالباطل هو الزوال، واللعب هو العبث، فأنت حينما توقن أنك مخلوق بالحق، وأن الكون كله خلق بالحق، وأنه ما من شيء خلقه الله إلا بالحق، وأن الموت حق، وأن الجنة حق، كيف يلقن الميت ؟ يا

عبد الله اعلم أن الجنة حق، والنار حق، والميزان حق، إلى آخره، كلمة حق، شيء ثابت، واضح، والحق تعني الشيء الهادف، فنحن نسعد إذا أيقنا بالثبات، وهذا ما يؤكده قوله تعالى:

(مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنْذِرُوا مُعْرِضُونَ (3))

[سورة الأحقاف]

الشارد عن الله لا يدخل موضوع الموت في حساباته أبداً:

إنّ الإنسان قد يشتري بيتاً ليتملكه، وكلما دخل إلى البيت يشعر أن هذا البيت بيته وملكه، ويبقى فيه زمنًا ؛ شهرًا، شهرين، سنة، سنتين، خمساً، عشراً، والبيت بيته، أما إذا استأجر بيتاً إيجاراً سياحياً، فالمدة ستة أشهر بالضبط، ولا يتمكن من البقاء في البيت بعدها يوماً واحداً، ويصير إحساسه بالزمن قويا جداً، مضى شهر، مضى شهران، بقي أربعة، بقي ثلاثة أشهر، إحساسه بالزمن قوي، لأنه يقيم في بيت إقامة مؤقتة، والزمن يمضي ويتناقص، والإنسان أيها الأخوة أحياناً ينسى الزمن، لأنه شارد، وكأنه لا موت يرقبه، فموضوع الموت لا يدخل في حساباته أبداً، يغفل، ينغمس في الملذات، في كسب المال، يدخل منافسات، يدخل سباقات في الدنيا، يبني قيماً باطلة كلها، يتنافس مع زملائه لتجميع أكبر مبلغ ممكن، همُّه الربح والثراء، يتنافس في درجات، في منجزات، في مكتسبات، كلها قيمتها في الدار الآخرة باطلة، لأن الإحساس بالزمن ضعيف لديه، لذلك ربنا عز وجل قال:

(وَالْعَصْرِ (1))

[سورة العصر]

أقسم بالزمن تنبيهاً للغافلين، فأنت زمن.

من عناصر سعادة الإنسان أنه خلق لهدف كبير ولم يخلق عبثاً:

هناك شيء ثان، من أجل أن تنجو، لابد أن تشعر وتوقن بالرسالة التي أنيطت بك، أنت مكلف، أجل: مكلف، أنت المخلوق الأول المكرم، المكلف، فأنت إذًا مخلوق أول، مكرم، مكلف، فسعادتك بمعرفة هذا التكليف، وتنفيذ هذا التكليف، وأنت مخلوق للأبد، الموت حالة طارئة، كمثل الإنسان يخلع ثياباً بليَت ويلبس ثياباً جديدة، وإذا امرؤٌ خلع ثياباً وارتدى ثياباً، فهل تغيرت حقيقتُه ؟ هو هو، ثقافته هي ثقافته، معلوماته هي معلوماته، شخصيته هي ذاتها بملكاته وإمكاناته، فقط بدل الثياب، والموت عملية تبديل، يخلع هذا الثوب الأرضي الترابي، ويرتدي ثوبا نورانياً في الجنة، قال تعالى:

(وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (169))

[سورة آل عمران]

إذًا عناصر سعادتك، أن تعرف أنك خلقت لتبقى، بالحق مخلوقاً، وتعرف أنك خلقت لهدف كبير ولم تخلق عبثاً.

الأحمق من حسب أنه سينجو و يتفلت من عقاب الله:

انظر مليّاً في القرآن الكريم، قال تعالى:

(أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ (115))

[سورة المؤمنون]

وقال كذلك:

(أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى (36) أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى (37) ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى (38))

[سورة القيامة]

من دون حساب، اغتصاب أموال من دون حساب، اغتصاب أموال، وانتهاك أعراض، استعلاء في الأرض، هل يعد هذا ذكاء ؟ حينما يحسب الإنسان أنه يتفلت من عقاب الله، فهو أحمق حقّاً، قال سبحانه:

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (92) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (93))

[سورة الحجر]

وقال:

(وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ (42))

[سورة إبراهيم]

شعور الإنسان بالزمن أنه سيمضي هذا الشعور يجعله على الصراط المستقيم:

نجاتنا أيها الأخوة ؛ إذا عرفنا أننا خلقنا بالحق، خلقنا لنبقى، وهناك هدف كبير يجب أن نسعى إليه، فالآن نحن في الدنيا، وأهم شيء في الدنيا أن نشعر بالزمن، فأنت رأسمالك زمن، وأنت باقٍ لأجل مسمى، الإنسان كل يوم يستيقظ كالذي سبق، فهل يبقى إلى ما لا نهاية، مستحيل، مستحيل، فإذا أراد ربنا عز وجل أن يقبض هذا العبد، فقد يبدأ بمرض، يا ترى بالكلية ؟ أو بالكبد ؟ أو بالقلب ؟ تصلب شرايين ؟ خثرة دماغية ؟ لا نعرف، كل يوم نستيقظ كالذي سبق، فهل إلى ما لا نهاية ؟ مستحيل، لكل أجل مسمى، ذكرت لكم قبل أسبوع، أنه وقع تحت يدي كتاب وصاحب الكتاب طبيب مشهور، توفي(رحمه الله) عمل مقالات بمجلة طبية، من ثلاثين سنة، و كل مقالة أوفى من الأخرى، كيف تحافظ

على نعومة جلدك، على رشاقتك، على كبدك، على كليتك، اطلعت على الفهرس، مقالات رائعة جداً، لكن فوجئت أن الطبيب نفسه مؤلف الكتاب مات، فلماذا لم يحافظ على كليتيه ؟ وعلى و على...؟ مات بعد ذلك، الموت لابد منه، إذا شعرت أنك مؤقت ولأجل مسمى، وهذا البيت مؤقت، هذه الوظيفة مؤقتة، كل شيء بين يديك مؤقت، وشعورك بالزمن أنه سيمضي، وأنه سيأتي يوم تحاسب فيه، هذا الشعور يجعلك على الصراط المستقيم.

من عرف الحق نجا من عذاب الله في الدنيا و الآخرة:

ثلاث كلمات كان درسنا اليوم في محيطها: الإنسان، خلق بالحق، ولأجل مسمى، يعني، خلق ليبقى، وخلق لهدف كبير، والآن بقاؤه في الدنيا مؤقت، تجد الإنسان عندما يبني بيتاً، ويؤثِّثه ويزينه، و كأنه سوف يعيش فيه مليون سنة، فهناك أشخاص بعد أسبوعين من انتهاء البيت ماتوا، بعد أسبوعين، أو أسبوع أحياناً ! فثلاث كلمات ؛ أنت واحدة، ثم خلقت بالحق، والثالثة لأجل مسمى، والحق خلاصته في كلمتين، الديمومة والهدف، والأجل إحساس بالوقت، تتذكرون مثال البيت المؤجر تأجيراً سياحياً ستة أشهر، يجد أنه مضى شهران، فهو يحسب كل يوم مضى، وكم يوماً بقي، إنه مضطر لتغيير البيت، وينتقل إلى بيت آخر، أما الذي اشترى بيتاً، ينسى الزمن نهائياً، فلذلك نحن ننجو إذا عرفنا الهدف الكبير، وعرفنا أننا مخلدون، إما في جنة يدوم نعيمها، أو لا سمح الله ولا قدر في نار لا ينفذ عذابها، وقد قال ربنا عن آل فرعون:

(النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا)

[سورة غافر: الآية 46]

(وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ (46))

[سورة غافر]

ستة آلاف سنة مضت، وهم يعرضون يومياً مرتين على النار، إنه عذاب نفسي مرير.

كل شيء في الحياة الدنيا مرهون بوقت و مدة:

أما الشيء الآخر فهو:

(وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ (36))

[سورة البقرة]

إنّ الإنسان إذا نزل بفندق فخم، كل ليلة بعشرة آلاف ليرة، ثلاث ليالٍ فقط، هذا جهدي وهذه إمكاناتي، وإذا سافر أحدٌ إلى بلد أجنبي، فيدرك أنه سيرجع بعد أسبوع، ولا يتحمل أية نفقة أكثر من ذلك، كلُّ

شيء مرهون بوقت ومدة، كله مؤقت، فلذلك وأجل مسمى، وإذا علمت أنك في هذه الدنيا مؤقت، ولا بد أن تنتقل للدار الآخرة عملت لحياتك الأخرى.

الغفلة هي أخطر مرض يصيب الإنسان:

لكن الذين كفروا عما أنذروا معرضون، فالكافر غافل، يعني أخطر مرض يصيب الإنسان، الغفلة، أجل الغفلة إذا كان إنسان راكباً سيارة، وتنطلق به بمنحدر شديد، والمناظر جميلة، وعلى اليمين، وعلى اليسار غابات، والنسيم عليل، وليس معه مكبح، وفي النهاية منعطف حاد، وهو يضحك، معناه: أحمق، أحمق حقيقة، ولو عرف الحقيقة لتدارك أمره، ولو تيقن أنه ليس في السيارة مكبح لأصلح منذ البداية حاله، لكن لم يعد الآن سرور، ولا ضحك، فكل إنسان يضحك وهو يعصي، كالذي يركب مركبة تهوي بمنحدر شديد، في نهايته منعطف حاد، وليس معه مكابح، يضحك، وينظر إلى الغابات، ولا يدري سوء المصير، بينما ترى الإنسان المؤمن، دائماً يعيش في مستقبله، يعيش آخرته، لا يعيش في الماضي، ولا يعيش في الحاضر، الحاضر يتعامل معه لصلاح المستقبل.

النار عاقبة من أشرك مع الله أحداً آخر:

قال تعالى:

(مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنْذِرُوا مُعْرِضُونَ (3) قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ)

[سورة الأحقاف]

إنهم معرضون عن الحق، ملتفتون إلى الباطل، وقديماً كانوا مع ضيق التفكير على مستوى الشعوب، يعبدون الأصنام ؛ كانت القبيلة تعمل صنماً من تمر، تجوع فتأكله، مرة رجل أديب، شاعر، رأى ثُعلبانًا (أي ثُعلبًا) يبول على رأس صنم، فقال:

أربٌ يبول الثعلبان برأسه   لقد ضل من بالت عليه الثعالب

* * *

عدم قدرة الأوثان على الخلق:

كان العرب في الجاهلية يعبدون أصناماً من دون الله، لا تتكلم، ولا تسمع، ولا تتحرك، ولا تملك موتاً، ولا حياة، ولا نشوراً، والإنسان أحياناً يعبد الشخص، يقول لك: فلان يدعمني، فلان يده طائلة، فلان يخلصني إذا نابني شيء، هذا كذلك شرك، ربنا عز وجل قال:

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ)

[سورة الأحقاف]

إما أن يكونوا أصناماً، وإما أن يكونوا أشخاصاً، فهم سواء:

(أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ)

[سورة الأحقاف]

هذا الذي تعامله كما يُعامل الإله، ماذا فعل ؟ أيخلق إنساناً ؟ أيخلق دجاجة ؟ أيخلق ذبابة ؟ لو جاءه مرض عضال، هل ينجو منه ؟ تسمع أن ملوكاً أصيبوا بمرض خبيث، إنه ملك! نعم ملك، وهذا الذي تدعونه من دون الله، هل يستطيع أن يصرف عنه مرضاً خبيثاً ؟ لا يقدر، قال تعالى:

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ)

[سورة الأحقاف]

الغبي من عَبَدَ الأوثان من دون الله:

الآن، ربنا عز وجل علمنا أن هناك دليلين، دليل عقلي ودليل نقلي، قال سبحانه:

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ)

[سورة الأحقاف]

هذا الدليل العقلي، أما الدليل النقلي:

(ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (4))

[سورة الأحقاف]

يعني إما أن تأتي بدليل عقلي، أو دليل نقلي، لكن لا دليل عقلي ولا دليل نقلي، وتعبد من دون الله أوثاناً، لا يملكون موتاً، ولا حياة، ولا رزقاً، ولا يسمعون، ولا يستجيبون، هذا هو الغباء الحقيقي.

من استعان بالله و لجأ إليه اطمأن و ارتاح:

لذلك يقول الله عز وجل:

(وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ (5))

[سورة الأحقاف]

الإنسان ضعيف، هكذا خلقه الله، فمتى يرتاح ويطمئن ؟ إذا استعان بقوي، إذا احتمى بقوي، إذا لجأ إلى قوي، فمن هو القوي ؟ هو الله، ما سوى الله ضعيف مثلك، أحد الخلفاء رأى عالماً جليلاً في الحرم المكي، قال له سلني حاجتك ؟ قال له: والله إني لأستحي أن أسأل غير الله في بيت الله، فلما التقاه خارج الحرم، قال له سلني حاجتك ؟ قال له: والله ما سألتها من يملكها، أفأسألها من لا يملكها ؟ فلما ألحّ عليه، قال له: نجني من النار، قال له هذه ليست لي، فقال العالمُ: إذاً ليست لي عندك حاجة، فيا أخي حاجتك كلها عند الله عز وجل، الدعاء اللطيف: اللهم ولا تجعل حوائجنا إلا إليك، لا تجعل حوائجنا إلا إليك، اجمعنا عليك، وفرقنا عليك، ولا تجعل حوائجنا إلا إليك، لذلك المؤمن عزيز عند بالله، شريف، كما قال النبي الكريم: شرف المؤمن قيامه بالليل، وعزه استغناؤه عن الناس....

المؤمن لا يبذل ماء وجهه إلا لخالقه سبحانه:

تحس بنفس المؤمن غنى، وليس مستعداً أن يبذل ماء وجهه، ولا يتضعضع لأحد، ولا يتذلل لمخلوق، والإنسان المؤمن يقصد الواحد الديان، بصلاته، بركوعه، بسجوده، بقيام ليله، بدعائه، يا رب ليس لي إلا أنت، هذا الإخلاص في الدعاء، الله عز وجل يعطيك، قال سبحانه:

(أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ (1) وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ (2) الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ (3) وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ (4) فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (5) إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (6) فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ (7) وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ (8))

[سورة الانشرح]

الموت أكبر واعظ للإنسان:

أيها الأخوة الأكارم، أرجو الله سبحانه وتعالى أن نستفيد من ثلاث كلمات في هذا الدرس، أن نعرف الهدف، وأن نعرف الديمومة، وأن نعرف التوقيت في حياتنا الدنيا، نحن مؤقتون، يعني لا تجد أحداً منا سواء من أقربائه، من جيرانه، من أصحابه إلا و يسمع أن فلاناً توفي رحمه الله، وبالشام وحدها تجد خمسين، أو ستين نعوة في اليوم، وقال لي شخص: إن النعوات المكتوبة عُشر غير المكتوبة، معنى هذا أن عدداً كبيراً يموت كل يوم، والإنسان بعد موته أين ذهب ؟ إلى أين ؟ ترك بيته إلى المثوى الأخير، فهذا الموت أكبر واعظ، يقول سيدنا عمر: كفى بالموت واعظاً يا عمر، كفى بالموت واعظاً يا عمر، وكل مخلوق يموت، ولا يبقى إلا ذو العزة والجبروت، والليل مهما طال، فلا بد من طلوع الفجر، والعمر مهما طال فلا بد من نزول القبر.

كل ابن أنثى وإن طالت سلامته   يوما على آلة حدباء محمول
فإذا حملت إلى القبور جنازة   فاعلم بأنك بعدها محمـول

* * *

أضلّ إنسان من يدعو من دون الله من لا يستجيب له:

كان أحد الصالحين قد اشترى قبراً، وصار يضطجع فيه كل خميس، ويتلو قوله تعالى:

(قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (99) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ)

[سورة المؤمنون]

فيخاطب نفسه ويقول: يا نفس قومي، لقد أرجعناك، فالإنسان ليتصور نفسه في كل يوم أنه قد انتهى أجله، ليهيئ أموره، حساباته، فإذا به جانَب المعاصي وأدّى الحقوق، وكلّ التزاماته أنفذها، ويبقى خفيفاً، التائب خفيف، والمذنب تثقله الكوابيس، عليه أوزارٌ كالجبال تسحقه، ومن أضل (ليس هناك رجل أضل من هذا الذي يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة)، بربكم، تحتاج إلى تأشيرة خروج مثلاً، ذهبت إلى دائرة الهجرة والجوازات، بناء مؤلف من أربعة طوابق، لا يمنحك هذه التأشيرة إلا المدير العام، فإذا وقفت أمام مدخل الدائرة، وهذا الذي يكتب العرائض، رجوته أن يوافق لك على الخروج، ألا يكون أحمقاً من يفعل هذا ؟ فما دخل كاتب العرائض ؟ تتجه إلى إنسان لا يملك شيئاً، أربعة طوابق، كل الموظفين لا يملكون حق التوقيع إلا المدير العام، العقل يقول لك: اذهب إلى المدير العام، هذا الذي بيده التوقيع، تبذل ماء وجهك لإنسان لا يملك لك حق التوقيع، إنها حماقة، بل اسأل: يا أخي بيد من القضية ؟ من المسؤول عن الموضوع ؟ من الذي يوقع ؟ ممّن الموافقة ؟

العاقل من استعان بمن بيده كل شيء:

هكذا يفعل الناس، فلماذا مع رب العالمين لا تفعل هكذا ؟ الأمر بيده، المرض بيده، الرزق بيده، الشفاء بيده، السعادة بيده، الزواج بيده، أعداؤك بيده، أصدقاؤك بيده، زوجتك بيده، أولادك بيده، كل شيء بيده، ضِمْنَ القلب، فالدسامات بيده، والشرايين كذلك، يقال لك: تسعون بالمئة أنها مسدودة، لكن الأمر بيده، كله بيده، أحياناً ينسد الشريان، وأحياناً ينفتح، فالكل بيده، فلماذا لا نتجه إليه ؟ لماذا لا نتوسّل إليه ونرجوه ؟ لماذا لا نقف بين يديه ؟.

أيها الأخوة الأكارم، قال تعالى:

(وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ (5))

[سورة الأحقاف]

قال تعالى:

(وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ (6))

[سورة الأحقاف]

هذه الآية إن شاء الله تعالى، في درس قادم نتابعها.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأحقاف 046 - الدرس (2-6): تفسيرالآيات 7-11 ، إصرار الكفار على العناد و الاستكبار و تعطيل القدرات

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 04-11-1994

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس الثاني من سورة الأحقاف.

الكفار في أي مكان و زمان ردهم على الحق واحد:

مع الآية السابعة وهي قوله تعالى:

(وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ (7))

[سورة الأحقاف]

النبي عليه الصلاة والسلام، فيما روي عنه قوله: " ملة الكفر واحدة "يعني الكفار، في أي زمان، وفي أي مكان، ردهم على الحق واحد، تارة يقولون غيبيات، تارة يقولون ما وراء الطبيعة، تارة يقولون هذا فكر ليس واقعياً، لا يعنينا، نحن مع الواقع، كما يقولون: هذه مثاليات حالمة، هذا سحر مبين، هذه تقاليد، هذا فكر كلاسيكي، أساطير الأولين، هذه ردود الكفار دائماً.

عدم وجدان السعادة و الهدى لا يدل على عدم وجودهما:

الآية الكريمة التالية واضحة:

(قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي)

[سورة هود: الآية28]

بينة، فكر واضح، عقيدة ناصعة، مبادئ كالشمس الساطعة، قال الله تعالى:

(قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ(28))

[سورة هود]

هذه السعادة، أي قاعدة بالفلسفة، أن عدم الوجدان لا يدل على عدم الوجود كلية، يعني إذا الإنسان لم ير سعادة في حياته، ليس معنى ذلك أنه ليس في الأرض سعادة، إذا لم تر هدى في حياته، ليس معنى هذا ليس في الأرض هدى، عدم الوجدان لا يدل على عدم الوجود، الإنسان التائه، الشارد، الضائع، الشقي،

المتحيّر، الخائف، القلق، هذا له أن يقول: أنا خائف، وقلق، له أن يقول ذلك، ولكن ليس له أن يقول، ليس في الأرض هدى، وليس في الأرض قيم، وليس في الأرض رحمة.

الناس رجلان رجل موصول بالله و رجل مقطوع عنه:

لذلك أيها الأخوة الكرام، ربنا سبحانه وتعالى يقول:

(وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ (7))

[سورة الأحقاف]

يعني معركة الحق مع الباطل، معركة أزلية، أبدية، دائماً من الناس مؤمن وكافر، ومنهم مستقيم ومنحرف، منهم عادل وظالم، فيهم موصول بالله، وفيهم مقطوع عن الله، بين الناس قاسي القلب، وبينهم رحيم، القصة كلها، أنك أحد رجلين، موصول بالله، أو مقطوع عنه، إذا كنت موصولاً فأنت رحيمٌ، وأنت متواضعٌ، وأنت منصفٌ، وأنت منضبطٌ بالشرع، وأنت موصولٌ، وأنت محسنٌ للخلق، فالقضية تتلخص في أنك يجب أن تختار أحد الاتجاهين، الاتجاه الأول، أن تختار العقل، العقل يقودك إلى الله، والله يأمرك بالإحسان وبالعدل، والله سبحانه وتعالى أعدك لحياة أبدية، وهذه الدنيا، حياةٌ دنيا إعدادية لحياة عليا أبدية، فهنا الاختيار، اختيار مصيري، يعني أحياناً ليس من موضوع في حياة المؤمن أو في حياة الإنسان أخطر من دينك، قال لابن عمر: دينَك دينَك، إنه لحمك ودمك، خذ عن الذين استقاموا، ولا تأخذ عن الذين مالوا، قال تعالى:

(وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ (7))

[سورة الأحقاف]

كل ما في الكون يدل الإنسان على الله عز وجل:

إذا أراد الإنسان أن يدرس مثلاً، فالكتاب يفيده، والمعلم يفيده، ووسائل الإيضاح تفيده، مناقشة في أسرته تفيده، مجلة فيها مقال علمي تفيده، هذا إذا أراد أن يتعلم، أما إذا رفض العلم من أصله، فلو وضعنا له أعظم الأساتذة، وألحقناه بأعظم المدارس، ثم وفرنا له أفخم مكتبة، ووفّرنا له كل الوسائل السمعية، والبصرية، فلن يستفيد، فالهدى قرار داخلي، إن لم تتّخذ هذا القرار، لا شيء في الأرض يفيدك في الوصول إلى الهدى، وإن اتّخذت هذا القرار، كأس الماء يعلّمك، صوت الطّائر يرشدك إلى الله، القمر يدلك على الله، أي شيء تقع عينك عليه يدلّك على الله، أي حدث يقع لك تفهمه فهماً عميقاً، فهماً دينياً، فهماً إلهياً، فالخلاصة أن الإنسان يحْدِثُ في نفسه رغبة كي يهتدي، عندئذ كل ما في الكون يدله على الله، بل إن الكون كله مظهر لأسماء الله الحسنى.

إصرار الكفار على العناد و الاستكبار و تعطيل القدرات:

أما الاتجاه الثاني فهؤلاء الكفار تتلى عليهم الآيات بينات، واضحات، بليغات، ومع ذلك، قالوا هذا سحر مبين، فخذ مثلاً أعمال النبي عليه الصلاة والسلام، ألم يلتقوا بالنبي؟ ألم يروا منطقه ؟ ألم يسمعوا حجته ؟ ألم يروا كماله ؟ ما أفادهم ذلك شيئاً، قال تعالى:

(تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (1) مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ (2))

[سورة المسد]

أي أن أصحاب الاتجاه الثاني أصروا على العناد والاستكبار وتعطيل كل القدرات.

أما سيدنا سلمان الفارسي، جاء من بلاد فارس، كاهنٌ ينقله إلى كاهن، إلى أن وصل إلى النبي باختياره و سعيه.

الهدى قرار داخلي:

أيها الأخوة الكرام، نقطة دقيقة جداً أريد أن أقف عندها قليلاً، الهدى قرار داخلي، اختيار، إن اخترت الهدى، كل شيء في الكون يدل على الله، وإن لم تختر الهدى، لا شيء في الأرض تستفيد منه، حتى القرآن، و هو عليهم عمى، قال تعالى:

(وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا (82))

[سورة الإسراء]

القرآن نفسه ما أجدى معهم، حتى الدعاة إلى الله لا يعبؤون بكلامهم، ينظرون إليهم من زاوية أخرى، يتهمونهم: لعل لهم مصالحَ، لعل لهم أغراضاً مادية من هذه الدعوة، يتعامون عن فحوى دعوتهم، وعن حقيقة الهدى التي جاؤوا بها، قال تعالى:

(وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ (7) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ)

[سورة الأحقاف]

القرآن الكريم أكبر حجة على أنه كلام الله عز وجل:

الحقيقة، هذا القرآن جاء النبيّ عن طريق الوحي، والقرآن أكبر حجة على أنه كلام الله عز وجل، إعجازه: فيه إعجاز علمي، فيه إعجاز تشريعي، فيه إعجاز لغوي، فيه إعجاز بلاغي، فيه إعجاز إخباري، فيه إعجاز تربوي، فإذا أردت أن تفهم كلام الله، وأن تتدبر آياته، كل يوم، تضع يدك على دليل قطعي، جامع، مانع، على أن هذا الكلام كلام الله، يعني ؛ ما من صفحة في كتاب الله، ما من آية،

ما من توجيه، ما من أمر، ما من نهي، ما من حكم، إلا ويدلك على أن هذا الكلام لا يمكن أن يكون كلام النبي عليه الصلاة والسلام، إنه كلام الله، قال تعالى:

(وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى (3) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى (4))

[سورة النجم]

كل إنسان يتهم هذا القرآن بأنه من عند النبي فهو لم يقرأه إطلاقاً:

(أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا)

[سورة الأحقاف]

معنى ذلك، أنهم يقولون: إنّ هذا الكلامَ كلامُ النبي، فمن يقل ذلك فما قرأ القرآن، يعني: لا يوجد موقف أشد سخافة بالإنسان من أن تأتيه رسالة، فيمزقها قبل أن يقرأها، هل رأيتم إنساناً جاءته رسالة ويمزقها من فوره ؟ لعل فيها حوالة، لعل فيها بشارة، لعل فيها دعوة، كيف تسيغ لنفسك أن تُمزّق هذه الرسالة قبل أن تقرأها، وكل إنسان يتهم هذا القرآن بأنه من عند محمد عليه الصلاة والسلام، هذا كلام مفترى، يقولون: محمد إنسان عبقري، ذكي جداً، صاغ هذا القرآن، اقتبس من بَحيرة الراهب، ومن أمية بن أبي الصلت، وجمع هذه الآيات، وجمع بدعوته العرب، وأراد أن يكون زعيماً لهم، هذا كلام الأجانب، الكفار، كل إنسان يتهم هذا القرآن بأنه من عند النبي، لم يقرأه إطلاقاً.

من قرأ القرآن الكريم قراءة متأنية اكتشف الإعجاز فيه:

أحد أكبر علماء البحار عرض ما توصل إليه في عالَم البحار، وهذا العالم قد اكتشف عن طريق صور من المركبات الفضائية أن بين كل بحرين خطاً، بين البحر الأحمر والبحر العربي يوجد خط، عند باب المندب، وبين البحر الأحمر والمتوسط خط، عند قناة السويس، وبين الأبيض والأطلسي خط عند جبل طارق، وبين البحر الأسود والبحر المتوسط خطّ عند البوسفور، هذا الخط رئي من خلال مركبات الفضاء، هذا العالم الكبير، عالم البحار، وجد أن كل بحر له مكونات، وله درجة ملوحة، وله درجة كثافة، وله خصائص ليست موجودة في البحر الآخر، بل إن مياه أي بحر لا تختلط بمياه البحر الآخر، وعدّ هذا إنجازاً، وقفزة في عالم العلم، وأنها تعني اكتشافًا لم يُسبق إليه.

الإعجاز العلمي للقرآن الكريم:

ثم إنّ أحد العلماء المسلمين سافر إلى بلد أجنبي، والتقى بهذا العالم، وتلا عليه قوله تعالى:

(مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (19) بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ (20) فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (21))

[سورة الرحمن]

يقول هذا العالم المسلم، ما إن سمع هذا الكلام، وطلب ترجمته الحرفية، وتأكد أنه في كتاب قديم هو القرآن حتى أعلن إسلامه، ليس معقولاً، شيء لم يعرفه أحد من قبل، بل أضاف إلى ذلك أن البرزخ يمنع مياه كل بحر أن تختلط بمياه البحر الآخر، بينما الحِجْر يمنع أسماك المياه العذبة من أن تذهب إلى المياه المالحة، قال تعالى:

(وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا (53))

[سورة الفرقان]

لذلك أكبر أساطيل صيد السمك تجدها في مصبات أنهار المياه العذبة في البحار، لأنه مكان تجمّع سمك هائل، أسماك المياه العذبة لا تذهب إلى المياه المالحة.

الحكمة من مخاطبة الله عز وجل النحل بالمؤنث و النمل بالمذكر:

إذا قرأت القرآن، ووقفت عند آياته، ولا سيما الآيات الكونية، تشعر بما لا سبيل إلى الشك، أن هذا الكلام كلام الله، والآيات هذه من لدن حكيم خبير، وقد ذكرت في الخطبة في أسبوع سابق أنه لماذا خاطب الله النحلة بضمير المؤنث ؟

(وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا)

[سورة النحل]

ولماذا خاطب الله النمل بضمير المذكر ؟

(يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (18))

[سورة النمل]

فهل كان في عهد النبي عالم يعرف أن للنحل ملكة أنثى، ولها ذكر، لكنه لا يشترك في صنع العسل، و الملِكة أنثى في عالم النحل ؟ والإناث تصنع العسل وحدها، وأن النمل ذكر وأنثى ؟ وأن التي تنسج بيت العنكبوت هي الأنثى ؟ اتّخذت بيتاً، هذه التاء المؤنثة الساكنة، هذه من الإعجاز العلمي لكتاب الله، التي تنسج بيت العنكبوت هي الأنثى، والتي تجني الرحيق، وتصنع العسل هي الأنثى، قال تعالى:

(وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ (68))

[سورة النحل]

بينما النمل، خاطب الله مجموع النمل ذكوراً وإناثاً، والمجموع على مبدأ التغليب يُخاطب بضمير المذكر دائماً.

المؤمن الحق يسعى لتعظيم شأن القرآن الكريم:

لو دخل تسع وتسعون طالبة إلى القاعة ودخل معهنّ طالب واحد، نقول دخل الطلاب، من ضمائر التأنيث والتذكير، تعرف أن هذا القرآن كلام الله، يعني لا يوجد كتاب على وجه الأرض، إلا بعد شهر، شهرين، ثلاثة، سنة، سنتين، وجدوا فيه أخطاء، ومع تقدّم العلم فإنّ هذه المعطيات اختلفت، لا يوجد كتاب على الإطلاق، إلاّ بعد حين ظهر فيه بعض النقص، أو بعض الخطأ في المعطيات، لكن هذا القرآن الكريم، مضى على نزوله من السماء أكثر من ألف وخمسمئة عام تقريباً، فما ظهرت حقيقة علمية تصادم آية قرآنية من عند الله عز وجل.

أي إذا كان من عند الله، يجب أن يُقرأ قراءة واعية، متأنية، فيها تدبر، فيها تفكر، فيها موازنة، يجب أن يكون هذا الكلام في قلوبنا، فالإنسان مثلاً، لو أنه اعتلت صحته، لا سمح الله، واستدعى طبيباً من أعلى مستوى، وقال له هذا الطعام لا يناسبك، وصعود الدرج لا يناسبك، وهذا البيت لا يناسبك، وهذه الصنعة التي أنت فيها لا تناسبك، هذه كلها تجهد القلب، مثلاً، فكيف يفكر ؟ فوراً يسعى لتغيير البيت، وتغيير الصنعة، وترك هذه الأكلات الطيبة، لماذا ؟ لحرصه على صحته، ولأنه صدّق الطبيب، إذًا هذا القرآن الكريم كلام خالق الكون، ليس كلام الطبيب، هذا كلام خالق الكون، ألا ينبغي أن نقرأه، فنحلّ حلاله، ونحرم حرامه، وأن نخاف من وعيده، وأن نستبشر بوعده، وأن نصدق غيبه، وأن نُعظّم شأنه، هذا كتابنا المقرر.

المؤمن من تناسب حجم إيمانه مع حجم تعظيم القرآن الكريم:

تصور يا أخي الكريم، إنساناً عنده مكتبة، والكتب ملءَ جدرانها الأربعة، من الأرض إلى السقف، ويوجد كتاب واحد بهذه المكتبة، سيؤدي أحدنا فيه امتحاناً بعد أسبوع، إنه امتحان التخرج، وسوف يترتب على نجاحه في هذه الشهادة مستقبل باهر، أليس من المنطق والعقلانية أن يقرأ هذا الكتاب المقرر وحده ؟ فنحن ؛ هذا القرآن، كتابنا المقرر، وهو منهج لنا، فيه أسباب سعادتنا، بعدم فهمه أسباب شقائنا، بتطبيق أحكامه أسباب سلامتنا، بتلاوته أسباب اتصالنا بالله عز وجل، فهذا يعني أنْ يتناسب حجم إيمانك مع حجم تعظيمك لهذا القرآن الكريم، هذا كلامه عز وجل قال:

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ)

[سورة الأنعام: الآية1]

الكون كله دخل في هذه الآية، وآية ثانية أشارت إلى القرآن:

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا (1))

[سورة الكهف]

معنى ذلك أن هذا الكتاب في كفة، والكون كله في كفة، هذا الكون خَلْقُ الله، و القرآن كلامه.

كلام البشر لا يقدم ولا يؤخر في كتاب الله:

قال تعالى:

(أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَى بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ(8))

[سورة الأحقاف]

نحن الآن أمام نقطة مهمة جدّاً، إنك إذا قلت للذهب نحاس، لا يصير نحاساً، كلام البشر لا يقدم ولا يؤخر في قدر كتاب الله، قل ما شئت عن كتاب الله، قل ما شئت عن رسول الله، النبي حقيقة ثابتة، حقيقة النبوة ثابتة، وهذا القرآن حقيقة ثابتة، إذا قلت هو افتراء، فإنه يبقى وحياً، إذا قلت إن النبي ذكي وعبقري، يبقى النبي نبياً يوحى إليه، فإياك أن تتوهم أن ادعاءك، أو وصفك الأشياء على غير ما هي عليه، يبدّل من طبيعتها، قال تعالى:

(أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ)

[سورة الأحقاف]

فأنْ يأتي إنسان ويدّعي أن هذا الكلام كلام بشر، فهل تعتقد أنّ الله عز وجل لا يحاسبه، لو أنني فعلت هذا، هل تملكون أنني لا أعاقب من قبل الله عز وجل ؟ هل تملكون ألا أكون عبرة للبشر ؟

توعد الله من قال بأن هذا القرآن كلام البشر بالعذاب الأليم:

اسمعوا قوله تعالى:

(وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ (44) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (45) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (46) فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ(47))

[سورة الحاقة]

وبعد، فلما الإنسان يبحث و يجدُّ في الحياة، فإن الله يعطيه مدى، يرخي له الحبل، أما إذا أراد أن يلعب بدين الله، فإنّ الله يقصمه رأساً، إنسان يفتري، يدعي، يتعالم بشيء ما أنزل الله به من سلطان، يبتدع ولا يتبع، فالله عز وجل لا يتركه، الله هو رب العالمين.

(وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ)

[سورة الحديد: الآية 4]

(مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ (18))

[سورة ق]

الآيات التي تحدد مقام النبي عليه الصلاة والسلام:

النبي عليه الصلاة والسلام، قال: إن افتريته فَرضاً. يعني قل: إن افتريته فلا تملكون لي من الله شيئاً، إذا أنا افتريت كلاماً ما قاله الله عز وجل، وافتريته على الله، فالله سوف يحاسبني، وأنتم لا تستطيعون أن تمنعوا عقاب الله أن يأتيني، وبالمناسبة هناك أربع آيات تحدد مقام النبي عليه الصلاة والسلام، أول آية:

(وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ)

[سورة هود: الآية 31]

ثاني آية:

(قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا (21))

[سورة الجن]

ثالث آية:

(قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا)

[سورة الأعراف: الآية188]

رابع آية:

(قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (15))

[سورة الأنعام]

العذاب الأليم لمن ادعى أنه يعلم الغيب:

إذا كان هذا شأن النبي، لا يملك لنا ولا لنفسه نفعاً ولا ضراً، ولا موتاً، ولا حياة، ولا نشوراً، ويخاف إن عصى ربه عذاب يوم عظيم، ولا يعلم الغيب، هذا مقام النبي، فهل يجرؤ إنسان بعد النبي أن يتخطى هذا الخط الأحمر، هذا خط أحمر، أن ليس من شأن البشر أن يعلموا الغيب، وليس من شأن البشر أن يملكوا نفعاً ولا ضراً، ولا موتاً، ولا حياة، ولا نشوراً، وليس من شأن البشر أن يستثنوا من طاعة الله عز وجل، قال تعالى:

(قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (15))

[سورة الأنعام]

هذه الآيات الأربع، لو جعلتَها مقياساً، فأي إنسان تجاوز الخط الأحمر وادعى أنه يعلم الغيب، أو ادعى أنه يملك لك نفعاً أو ضراً، أو ادعى أنه ينقذك من عذاب الله، فهذا كلام باطل، لك أن تردّه.

كتاب الله عز وجل مقياس لكل إنسان على مرّ الزمان:

إخواننا الكرام، كتاب الله عز وجل مقياس، كيف أن الإنسان أمامه عدة قطع من القماش، على كل قطعة طولها، على لصاقة، وأنت معك متر نظامي، متر أساسي، محدد بقطع معدنية، لك أن تمتحن طول أي قطعة، أنت اكتب على هذه القطعة أي طول تريده، لكن هذا المتر كفيل أن يكشف الحقيقة، فالإنسان كلما تمكن من كتاب الله، يصبح كلام الله عز وجل مقياساً، مرة قال لي أخ: يقول رجل في مسجد: إن كل إنسان يقول: إن النبي ميت فهو كافر، قال له لماذا ؟ قال له لأن النبي يقول: أنا حي طري في قبري، طيب إن الله عز وجل يقول:

(إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ (30))

[سورة الزمر]

فالحق أنّ هذه الآية مقياس، أنت لو توسعت بفهم كتاب الله، وتعمقت بفهم مدلولات آياته، صار كل كتاب الله مقياساً، أية مقولة، أية قصة، أي ادعاء، أي افتراء، أيّة نظرية أي كتاب، أيّة مقالة، مقياسها كلام الله عز وجل.

الله عز وجل وحده الذي يعلم حقيقة بني البشر:

قال تعالى:

(أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِن افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ)

[سورة الأحقاف]

خوضكم في هذا الباطل، في هذه التُهم، خوضكم في ادِّعائكم أنّ كلام الله كلام محمد، خوضكم في أن هذا الكلام مفترى من عند النبي عليه الصلاة والسلام، هذا الخوض، وهذا الاسترسال في الباطل، هذا كلُّه يعلمه الله، يعني:

(وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا (17))

[سورة الإسراء]

والنقطة الدقيقة، يجب أن تعلم علم اليقين، أن الله عز وجل وحده هو الذي يعلم حقيقة بني البشر، النبي عليه الصلاة والسلام، لما جاءه وفد وطلبوا منه علماء وقراء كي يفقهوا قومهم، فأرسل معهم النبيُّ سبعين قارئًا، وقتلوا على الطريق، لِمَ لمْ يعلم أن هذا الوفد كاذب، هذا شأن البشر، لا يعلم إلا إذا أعلمه الله، في حالات كثيرة جداً أعلمه الله، فجاءه الوحي، ونبهه، لكن إذا لم يأته الوحي، فالإنسان أيّاً كان لا يعرف حقيقة الإنسان من داخله، لأنّ الإنسان مستور، فكل إنسان يقول لك: الشيخ يعلم خبايا نفس

مريده، يعلم ما يجول في نفسه، يعلم ماذا يأكل في بيته، يعلم ماذا يفعل مع أهله، هذا كلام فيه شطحات، وهو غير صحيح، لأنه الإنسان ليس من شأنه أن يعلم إلا أن يُعلِمه الله عز وجل.

من قيّم الآخرين تطاول على مقام الألوهية:

لذلك:

(هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ)

[سورة الأحقاف: الآية8]

كان سيدنا الصديق رضي الله عنه إذا مُدِح فله دعاء لطيف جداً، كان يقول: اللهم أنت أعلم بي من نفسي، وأنا أعلم بنفسي منهم، اللهم اجعلني خيراً مما يقولون، واغفر لي ما لا يعلمون، ولا تؤاخذني بما يقولون.

أي أريد من هذه الآية أن نفهم أن تقييم الأشخاص من شأن الله عز وجل، لا من شأن البشر، وكل إنسان يُقيّم الآخرين، تقييماً في تسرع، و ارتجال، وإجحاف، فهذا إنسان تطاول على مقام الألوهية، تقييم البشر من شأن خالق البشر، حتى إذا زكيت إنساناً، قل: والله أعلم:

(فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى (32))

[سورة النجم]

حتى إذا مدحت نفسك، قل أرجو أن أكون كذلك، هذا هو الأدب، والأدب أحياناً يتطابق مع الواقع، أنت كذلك لا تعلم، قال تعالى:

(كَفَى بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (8))

[سورة الأحقاف]

من يشعر أن الله عز وجل يعلم كل شيء يستقيم أمره و ترتاح نفسه:

لذلك فالإنسان إذا آمن بالله إيماناً صحيحاً، ترتاح نفسه، لأن الله عز وجل لا يحتاج إلى إيصالات، لا يحتاج يميناً، لا يحتاج وثائق، هو يعلم، حينما تشعر أن الله يعلم يستقيم أمرك، فالمخلص، لماذا يستغني عن مديح الناس ؟ غني، يشعر بالغنى الذاتي، لأن عمله يعرفه الله تعالى، سيدنا عمر لما جاءه رسول من معركة من المعارك، أعتقد معركة نهاوند، وسأل هذا الرسول عن مصير الجيش، قال له: والله يا أمير المؤمنين، مات خلق كثير، قال له:من هم ؟ عد لي أسماءهم ؟ قال إنك لا تعرفهم، يعني أنّ بعض الأشخاص يعرفهم بأسمائهم، لكنّ خلقاً كثيراً لا يعرفهم بأسمائهم، لعله يعرفهم بوجوههم، قال له: مات خلق كثير أنت لا تعرفهم، بكى سيدنا عمر، ثم قال: وما ضرهم أني لا أعرفهم إذا كان الله يعرفهم، سر

الإخلاص، أنت لا تحتاج أن يعلم الناس ماذا تفعل، يكفي أن الله يعلم، لا تحتاج أن تبين ماذا فعلت ؟ كم دفعت ؟ كم تكلفت ؟ كم جهداً بذلت ؟ كم كتاباً قرأت ؟ كم ليلاً سهرت ؟ لا حاجة لذلك، لأن الذي تعبده يراك حين تقوم، فالآية ما أدقها:

(فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آَخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ (213) وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ (214) وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (215) فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ (216) وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (217) الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ (218) وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ(219))

[سورة الشعراء]

من وصل إلى الله وصل إلى كل شيء:

إخواننا الكرام، حال المراقبة، إذا الإنسان وصل إلى الله فقد وصل إلى كل شيء، لأنه إذا شعر أن الله معه دائماً، ينضبط، والكون كله خلق من أجل أن تعلم أن الله معك، قال تعالى:

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا(12))

[سورة الطلاق]

إذا علمت أن الله يعلم، وأنه سيحاسبك، فلا بد من أن تستقيم على أمر الله عز وجل، النبي عليه الصلاة والسلام في بعض توجيهاته النبوية الشريفة بيّن أن الإنسان ليستحي من الله، كما يستحي من رجل وقور في أسرته، يعني لو فرضنا أن إنساناً همّ بمعصية، وشعر أنه مراقب، مراقب من إنسان، يكف، يستحي، فكيف إذا علم أن الله معه ؟

من ازداد إيماناً بالله ازدادت عزته بالله وازداد تعففه عن الناس:

يروى أن رجلا راود امرأة عن نفسها، وأغلق الأبواب كلها، قالت له إن هناك باباً لا تستطيع أن تغلقه، إنه باب السماء، فارتعش خوفاً، وكف عن فعلته، فإذا شعرتَ أن الله معك، انتهى كل شيء، إذا شعرت أن كل كلمة سوف تُحاسبُ عليها، أنت تتكلم، هناك من يصدّقك، بإمكانك أن تبالغ، بإمكانك أن توجه توجيهاً خاطئاً، بإمكانك أن تغريَ فلاناً حتى يشتري هذه البضاعة، بإمكانك أن تقول لهذا المريض، إنه يحتاج إلى تحاليل، أو إلى تخطيط، بإمكان المحامي أن يقول لهذا المُوكِّل، القضية رابحة مئة في المئة، بينما هي خاسرة مئة في المئة، لك أن تقول ما تشاء، وهذا الذي أمامك واثق منك، ولا يملك أن يناقشك فيما تقول، فمن الذي يعلم حقيقة ما تقول ؟ الله عز وجل، فتجد المؤمن منضبطاً، فأنا والله أحياناً يأتيني أخ كريم يرجوني أن أوصي طبيباً مؤمناً به، أقول له كلمة يستغرب، أقول له، والله الطبيب المؤمن لا

يوَصّى، لأنه يعلم أنّ الله يراقبه، يعني، يجب ألا تُجدِي معه التّوصية، لأنه يراقب الله في علاجه لهذا المريض، و لا يجرؤ إنسان أن يقول كلاماً غير صحيح، أو فيه مبالغة، أوفيه تخويف، أوفيه ابتزاز، فالطبيب هكذا، والمحامي هكذا، والمهندس هكذا، والمدرس هكذا، كلما شعرت أن الله معك، تجد أنك لا تتكلم إلا بالحق، ولا تقول إلا كلمة الحق، لا تزيد ولا تنقص، وكفى به شهيداً، الله مشاهد، ويكفيك أن الله معك، كفى به شهيداً بيني وبينكم، وهو الغفور الرحيم، والإنسان كلما ازداد إيمانه بالله، تزداد عزته بالله، ويزداد تعففه عن الناس، عن أموال الناس، ومن جلس إلى غني فتضعضع له، ذهب ثلثا دينه، أما المؤمن، يطلب من الله عز وجل، أي يبذل ماء وجهه لربه فقط، يتذلل، يمرّغ جبهته في أعتاب الله، بالسجود، أما مع الناس، فهو عفيف، عزيز، شريف، شرف المؤمن قيامُه بالليل، وعزه استغناؤه عن الناس.

المؤمن قوي في الله بعيد عن النفاق:

أحد الخلفاء رأى عالماً جليلاً في الحرم المكي، قال له سلني حاجتك ؟ قال له: والله إني لأستحي أن أسأل غير الله في بيت الله، فلمّا التقاه خارج الحرم، قال له سلني حاجتك ؟ قال له: والله ما سألتها من يملكها، أفأسألها من لا يملكها ؟ فلما ألحّ عليه، قال له: أريد أن تدخلني الجنة، وأن تنقذني من النار، قال له هذه ليست لي، قال له: إذاً ليست لي عندك حاجة، فتجد المؤمن عزيز النفس، قوياً في الله، بعيدٌ عن النفاق، ليس عنده خنوع، دنياه محدودة، لأنه لا يحب الدنيا كما يحبها أهل الدنيا، يكفيه منها ما يُبلّغه المقيل، دخلوا على سيدنا أبي عبيدة بن الجراح، وكان قائد الجيوش الإسلامية في الشام، رأوا في غرفته قدر ماء مغطى برغيف خبز، وعلى الحائط سيفه، ولديه جلد يجلس عليه، فقالوا، ما هذا ؟ فقال هو للدنيا، وهو على الدنيا كثير، ألا يبلّغنا المقيل ؟ تجد الإنسان يسعى للدنيا سنوات قد لا يعيشها، يبني بيتاً لا يسكنه، يُهيّئ مرافق، أي تستهلك عشرة أشخاص، قال تعالى:

(قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ (9))

[سورة الأحقاف]

تقييم البشر ليس من شأن البشر بل من شأن خالق البشر:

أيها الأخوة الكرام هذه الآية دقيقة جداً، تروي كتب التفسير أن أحد أصحاب النبي (وهذه القصة أرويها كثيراً لكم) اسمه أبو السائب، توفي، فجاء النبي عليه الصلاة والسلام إلى بيت أبي السائب وهو مسجى على السرير، فسمع امرأة من وراء الستر تقول:

((رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْكَ أَبَا السَّائِبِ فَشَهَادَتِي عَلَيْكَ لَقَدْ أَكْرَمَكَ اللَّهُ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَا يُدْرِيكِ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَكْرَمَهُ فَقُلْتُ بِأَبِي أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ فَمَنْ يُكْرِمُهُ اللَّهُ فَقَالَ أَمَّا هُوَ فَقَدْ جَاءَهُ الْيَقِينُ وَاللَّهِ إِنِّي لَأَرْجُو لَهُ الْخَيْرَ وَاللَّهِ مَا أَدْرِي وَأَنَا رَسُولُ اللَّهِ مَا يُفْعَلُ بِي قَالَتْ فَوَاللَّهِ لَا أُزَكِّي أَحَدًا بَعْدَهُ أَبَدًا))

[رواه البخاري عن ابن شهاب]

فكما تعلمون أن أقوال النبي عليه الصلاة والسلام تشريع، وأفعاله تشريع، وإقراره تشريع، إذا سكت عند كلام أحد فالذي قيل صحيح، إذا صحابي قال في حضرته كلاماً معيناً، والنبي بقي ساكتاً، فالكلام صار سنة، وصار تشريعاً، أي إنسان غير النبي الكريم، إذا سكت يسكت، فلعله خير إن شاء الله، أما إذا النبي سكت عن قول قيل أمامه، فقد صار هذا القول حقاً، صار تشريعاً، فلما قالت:

((رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْكَ أَبَا السَّائِبِ فَشَهَادَتِي عَلَيْكَ لَقَدْ أَكْرَمَكَ اللَّهُ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَا يُدْرِيكِ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَكْرَمَهُ فَقُلْتُ بِأَبِي أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ فَمَنْ يُكْرِمُهُ اللَّهُ فَقَالَ أَمَّا هُوَ فَقَدْ جَاءَهُ الْيَقِينُ وَاللَّهِ إِنِّي لَأَرْجُو لَهُ الْخَيْرَ وَاللَّهِ مَا أَدْرِي وَأَنَا رَسُولُ اللَّهِ مَا يُفْعَلُ بِي))

[رواه البخاري عن ابن شهاب]

يعني ليس من شأن البشر أن يعلموا مصير البشر، كثير من الناس مَنْ يقول لك: هذا إلى الجنة، وذاك كافر، من قال لك هذا الكلام ؟ منتهى السخافة، منتهى الجرأة، منتهى التطاول على مقام الربوبية، أنت تقول كافر ؟! تقول هالك ؟! من قال هلك الناس، فهو أهلكُهم، لذلك تقييم البشر كما قلت قبل قليل، ليس من شأن البشر، بل من شأن خالق البشر، فلما قالت، هنيئاً لك أبا السائب لقد أكرمك الله، قال عليه الصلاة والسلام:

((وَمَا يُدْرِيكِ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَكْرَمَهُ فَقُلْتُ بِأَبِي أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ فَمَنْ يُكْرِمُهُ اللَّهُ فَقَالَ أَمَّا هُوَ فَقَدْ جَاءَهُ الْيَقِينُ وَاللَّهِ إِنِّي لَأَرْجُو لَهُ الْخَيْرَ وَاللَّهِ مَا أَدْرِي وَأَنَا رَسُولُ اللَّهِ مَا يُفْعَلُ بِي))

[رواه البخاري عن ابن شهاب]

الجنة مصير من آمن و استقام على أمر الله و النار عاقبة المتلبس بالمعاصي:

يوجد علماء وقفوا عند هذا القول وقفة طويلة، قالوا ألا يدري النبي أنه إلى الجنة ؟ إذا بشّر النبيُّ بعضَ أصحابه أنهم إلى الجنة فهم إليها، ألا يدري النبي أنه من مات كافراً دخل النار؟ هكذا قال الله عز وجل في القرآن الكريم، فكيف يقول لا أدري ما يُفعلُ بي ولا بكم ؟ العلماء قالوا هذا الكلام منوطٌ بالدنيا، أمّا بالآخرة فالقرآن وضّح كل شيء، وضح كل شيء، حتى إذا الإنسان أمضى كل حياته في طاعة الله، وفي طلب العلم، وفي الإخلاص لله، فإذا قال لك لا أعرف، يجوز إلى جهنم، كل التعب على الأرض، هذا كلام فيه مخالفة لكتاب الله عز وجل، أين قوله:

(يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ)

[سورة التوبة: الآية 21]

أين هي ؟

(إِنّ الّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا (107))

[سورة الكهف]

أنت تخالف كلام الله عز وجل، إذا الإنسان أطاع الله كل حياته، ويقال: لا نعرف، يجوز إلى جهنم مرة واحدة، و إنسان آخر، يرتكب كل المعاصي والآثام، وهو زانٍ، وشارب خمر، رأيناه يلبس ثوباً أبيضاً، لعل الله غفر له، وجهه يفيض نوراً، هكذا يحكي العوام أحياناً، وقد يكون تارك صلاة، شارب خمر، زانياً، ما ترك معصية إلا وقع فيها، يقول لك:" وجهه كبة نور"، رأيناه يلبس ثوباً أبيضاً "، هذه مغالطات، الإنسان إذا آمن، واستقام على أمر الله، وأخلص، فالله وعده بالجنة، وإذا الإنسان مات كافراً متلبساً بالمعاصي، فالله أوعده النار.

لا أدري ما يفعل بي ولا بكم: آية متعلقة بالدنيا و ليس بالآخرة:

أما هذه الآية، ولا أدري ما يفعل بي ولا بكم، في الدنيا، يا ترى حكمة الله أن ننتصر الآن ؟ أما بعد حين ؟ لا نعرف، يا ترى: أهذه السنة فيها خير ؟ لا نعرف، فيها أمطار غزيرة ؟ لا نعرف، الينابيع تجف ؟ لا نعرف، المحاصيل وفيرة ؟ لا نعرف، وماذا يحدث ؟ فالله أعلم، وهذا الذي حدث في شرق العالم، هذه الدول العظمى التي انهارت، والله لو تنبأ أحدٌ بما آلت إليه قبل خمسة أعوام لأُودع مستشفى المجانين، أليس كذلك ؟ لو تنبأ أحدٌ بما كان، قبل خمسة أعوام لعُدّ مجنوناً، مستحيل، يعني ليس من شأن البشر أن يعلموا الغيب، هذا المعنى، يا ترى، ماذا يحدث ؟ يحدث هذا الذي يقال عنه كذا وكذا ؟ يحدث، أو لا يحدث ؟ يا ترى، الأمور نحو الأحسن، نحو الأسوأ ؟ لا نعرف، هذا اسمه غيب، والغيب لله عز

وجل، يعني ليس من شأن البشر أن يعلم الغيب، هذا المعنى، أما قضية الجنة والنار، واضحة بالقرآن الكريم، الآيات التي تبشر المؤمن بالجنة، والآيات التي تتوعد الكافر بالنار واضحة جداً.

النبي الكريم متبع لأوامر ربه و ليس مبتدعاً:

قال تعالى:

(قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ)

[سورة الأحقاف]

أنا لست أول الرسل، هناك رسل جاءت قبلي:

(وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ)

[سورة الأحقاف]

أنتم تكلفونني مالا أطيق، افعل كذا، اجعل هذه الأرض تتفجر ينابيع، لا أقدر، أنزل علينا من السماء كتاباً نقرأه، باعد هذه الجبال عن مكة، أنا لا أقدر أن أعرف ما سيكون بعد حين حتى تطالبوني بما لا أطيق.

(إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ)

[سورة الأحقاف]

أنا متبع، والمؤمن متبع، وليس مبتدعاً، قال أحد العلماء، وقد ذكر ثلاث نصائح تكتب على ظفر، لإيجازها، وبلاغتها، قال: اتبع لا تبتدع، اتضع لا ترتفع، الورع لا يتسع، أعيد: اتبع لا تبتدع، اتضع لا ترتفع، الورع لا يتسع.

المؤمن الحقيقي لا يقف موقف المتردد من قضاء قضاه الله عز وجل:

فالنبي الكريم:

(إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ)

[سورة الأحقاف]

فكل بدعة ضلالة، أجل: كل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار، كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار، أنت متبع، أنت كمؤمن لا يمكن أن تقف موقف المتردد من قضاء قضاه الله عز وجل، إذا كنت مؤمناً، يعني الله قال:

(يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا)

[سورة البقرة: الآية 276]

انتهى الأمر، الحكم واضح، وكذلك يربي الصدقات واضح، إذا ترددت أن الصدقة تُنقص المال، فأنت لا تعرف الله عز وجل، أما الآية الدقيقة:

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ)

[سورة الأحزاب: الآية 36]

إذا الله قضى بشيء، أعطاه حكماً معيناً، قال لك:

(وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ)

[سورة البقرة]

إذا كان لك رأي آخر لست مؤمناً بهذا الكتاب، أي إذا أنت بحثت عن رجل غني، ضعيف الدين لابنتك، فأنت لست مؤمناً بكلام الله عز وجل، ولو قلت صدق الله العظيم، ما صدقته، لأنك لو صدقته، لبحثت عن المؤمن فقط، عن المؤمن وكفى.

السعيد من اتبع تعليمات الوحي:

إذاً:

(إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ)

[سورة الأحقاف]

كلمة الوحي لا أحد يعرف حجمها، الوحي يعني توجيه السماء للأرض، توجيه الخالق، فإذا كان عندك جهاز معقد، وأصابه عطب، وأمامك مئة كتاب على الطاولة، أحد هذه الكتب تعليمات صانع هذا الجهاز، ولك جار خضري مثلاً، تسأل مَنْ عن إصلاح هذا الجهاز المعقد ؟ فهل تسأل الخضري أم تعود إلى تعليمات الصانع ؟ فلإصلاح الحاسوب تسأل الصانع، وهذه تعليماته، هذا المنطق السليم فإذا كان لك رأي، أو موقف مغاير للوحي، فأنت لست مؤمناً، هذا الوحي من عند خالق السماوات والأرض:

(إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ (9))

[سورة الأحقاف]

نذير، من هو النذير ؟ هو الذي يبين قبل وقوع الشيء علامات وقوعه، فإذا كان الإنسان من السعداء يتعظ، ويأخذ الحيطة.

الله عز وجل يقيم الحجج على من استنكف عن الإيمان:

قال تعالى:

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَآَمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ(10))

[سورة الأحقاف]

دائماً الله عز وجل يقيم الحجج، فاليهود رفضوا أن يؤمنوا، لكن عبد الله بن سلام، من أحبار اليهود، آمن، وأصبح من كبار الصحابة، ودائماً وأبداً، هناك أشخاص يُعدُّون حجةً على أقوامهم، لقد آمن ابن سلام، وحسن إسلامه، وصار من كبار الصحابة، ومن بلاد الفرس سيدنا سلمان الفارسي، ومن بلاد الروم صهيب الرومي، فالإنسان إذا استنكف عن أن يؤمن، هناك من يُقيمُ عليه الحجة، أو هناك من تُقامُ عليه الحجة بعدم إيمانه.

الله عز وجل خلق العقل ليكون قائداً لا أداة تبرير:

أما قوله تعالى:

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (10))

[سورة الأحقاف]

لأن الظالم يجعل من عقله أداة للتبرير، العقل يجب أن يكون قائداً، فإذا الإنسان ظلم، وتلبس بمعصية الظلم، صار همه الأول الدفاع عن سلوكه، وعن ظلمه، لكن الإنسان إذا استقام فإنه يرى نفسه مع المؤمنين بشكل عفوي، قال تعالى:

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ (1) فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ (2))

[سورة الماعون]

قال تعالى:

(فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ)

[سورة القصص: الآية 50]

فالإنسان عندما يستقيم، يلتقي لقاء عفوياً مع المؤمنين، صار مؤمناً، ما الذي يحول بينك وبين أن تعتقد الاعتقاد الصحيح ؟ المعاصي، والموبقات، والافتراءات، والإنسان لما يعصي، لمّا يكسب مالاً حراماً، يدافع عن ذاته، فهو الآن يكابر، يجعل من عقله أداة تبرير، لا أداة تحرير، العقل قائد، صار مقوداً، العقل حاكم، صار محكوماً عليه.

من أسباب عدم الهدى الفسق والظلم والخيانة والانحراف:

لذلك: إن الله لا يهدي القوم الظالمين.. تحصيل حاصل، جلس مع إنسان متلبس بمعصية، ومصر عليها مستحيل أن تقنعه، لأنه يدافع عن ذاته، أما لو ترك المعصية، فالعقل يأخذ دوراً قيادياً، يصدّقك دائماً، لذلك أهون ألف مرة أن تقنع إنساناً بعيداً عن الإيمان، لكنّه أخلاقي، من أن تقنع إنساناً متلبساً بمظاهر الدين، لكنّه غير أخلاقي، لأن هذا يفلسف الأمر لصالحه، إن الله لا يهدي القوم الظالمين، وفي القرآن آيات كثيرة تؤكد هذا المعنى:

(وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ (52))

[سورة يوسف]

(وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (7))

[سورة الصف]

(وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (5))

[سورة الصف]

الفسق والظلم، والخيانة، والانحراف، هذه أسباب عدم الهدى.

من لم يذق طعم القرب من الله عز وجل هو أغبى إنسان على الإطلاق:

قال تعالى:

(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ)

[سورة الأحقاف]

فعلاً لأن الإنسان، أي إنسان، يحب ذاته، يحب وجوده، يحب استمرار وجوده، يحب كمال وجوده، يحب سلامة وجوده، فكل إنسان بحسب تصوره المحدود، يظن أنه وصل إلى أعلى العُلا، أما لو اطّلع الإنسان الكافر على نعيم المؤمنين، على مشاعر المؤمنين، على ما أعدّ الله للمؤمنين، لاحتقر نفسه، فمثلاً شخص ما أكل في حياته عسلاً، أكل دبساً فقط، فإنه يقسم بالله: أن أطيب أكلة حلو بالأرض هي الدبس، هو صادق حسب واقعه، لكن لأنه لم يأكل عسلاً، فكلامه غلط، إن الكافر مادي، مقياسه الدنيا: بيت، دخل، مال، طعام، نساء، رحلات، سفر، حفلات، هذا مقياسه، ما ذاق طعم القرب من الله عز وجل، ما ذاق طعم السكينة، ما ذاق طعم الاتصال بالله، ما ذاق شعور: "أنه في خدمة خلق الله"، هذا الشعور ما ذاقه، ما عرف ماذا بعد الحياة، هو غارق في حياة مادية محضة، فبذهنه أنه هو سَبَقَ المؤمنين، والمؤمنون في تصوُّره دراويش (أي جدبان) هكذا يظنهم، هو الفَهِمُ فقط: أكل مالاً حراماً،

وركز وضعه الاجتماعي والمادي، ووصل إلى أعلى المراتب، وظن نفسه أذكى الناس، بينما في الحقيقة هو أغبى شخص، لأنه يوم القيامة سوف يدفع الثمن باهظاً.

بطولة الإنسان الكبرى أن يأتيه الموت و هو مستعد للقاء الله عز وجل:

دائماً أقول لكم من يضحك أوّلاً يبكي كثيراً، ومن يضحك آخراً يضحك كثيراً، بطولتك لا أن تضحك أوّلاً، البطولة أن يأتي ملك الموت وأنت في طاعة الله، وأنت مستعد للقاء الله عز وجل، وأنت قد أمضيت كل شبابك في طاعة الله، أمضيت كل وقتك في خدمة الخلق، في معرفة الله، في القيام بأمره ونهيه، هذه هي البطولة، لهذا يقول سيدنا عليٌّ: الغنى والفقر بعد العرض على الله، قال تعالى:

(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ (11))

[سورة الأحقاف]

أي إذا الإنسان، لم يصِل إلى الهدى، ولم يذق طعم الهدى، فإنه يقول لك مباشرة: هذه غيبيات، وهذا إفك قديم، قال تعالى

(وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَانًا عَرَبِيًّا لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ (12))

[سورة الأحقاف]

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأحقاف 046 - الدرس (3-6): تفسيرالآيات 13- 16 ، استقامة الإنسان تؤكد إيمانه بالله عز وجل

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1994-11-11

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الكرام مع الدرس الثالث من سورة الأحقاف.

الصادق من طابق قوله ما في قلبه:

مع الآية الثالثة عشرة، وهي قوله تعالى:

(إِنّ الّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللّهُ ثُمّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (13))

[سورة الأحقاف]

أولاً: إن الذين قالوا، ولم يقل الله آمنوا، فالعلماء قالوا: كأن الآية الكريمة تشير إلى أنه ينبغي أن يكون القول مطابقاً لما في القلب، فإذا طابق القول ما في القلب كان الإنسان صادقاً، أما إذا كان هناك مسافة واسعة جداً بين ما يقوله الإنسان وبين ما يفعله، صار نفاقاً، النبي عليه الصلاة والسلام كان يقول لمن سأله قائلاً: عظني ولا تطل، فعن عبد الله بن سفيان عن أبيه قال: يا رسول الله أخبرني أمراً في الإسلام لا أسأل عنه أحداً بعدك قال:

((قُلْ آمَنْتُ بِاللّهِ ثُمّ اسْتَقِمْ))

[رواه مسلم عن سفيانَ بن عبد الله رضي الله عنه]

يفهم أن القول ينبغي أن يكون مطابقًا لما في القلب.

ليس الإيمان بالتمني ولا بالتحلي:

لما سئل النبي عليه الصلاة و السلام عن الإيمان، قال:

((ليس الإيمان بالتمني ولا بالتحلي))

[رواه البيهقي]

بالتمني كأن يقول قائل: اللهم اجعلنا مؤمنين، فالمسلمون دائماً وعلى تقصيرهم، وعلى مخالفاتهم، وعلى خرقهم لحدود الله، وعلى شركهم الخفي، وعلى انغماسهم في الملذات، وعلى أن بيوتهم مليئة بالمعاصي، ومع كل ذلك دائماً يقولون: اللهم اجعلنا مؤمنين، ويقولون: الله يتوب علينا، اللهم لا تعاملنا بعملنا، فالنبي قال ليس الإيمان بالتمني (ليس هذا التمني إيماناً)، ولا بالتحلي، أحدهم وضع مصحفاً في

سيارته، ووضع في محله التجاري: إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً، وأبرز آية الكرسي بمحله، أو ببيته، ليراها الناسُ، فإذا كان بيتُه يعجُّ باختلاط الجنسين، ويفور فيه نتنُ المعاصي، وفيه غناء، وأعمال لا ترضي الله عز وجل، وليس فيه قرآن يُتلى، فهذه اللوحات ماذا تعني ؟ لا أقول انزعوا اللوحات، لا، أبقوها على ما هي عليه فعسى أن يكون لها أثر يوماً ما، لكن ليس الإيمان بالتمني، ولا بالتحلي، ولكن هو ما وقر في القلب وصدقه العمل، ما وقر في القلب، تَطَابَق مع ما أقرّه اللسان، وصدقه العمل.

من اكتفى بأن الله خلقه و لم يتحقق من ألوهيته فأمره خسارة:

من هو المؤمن ؟ هذا الذي ما في قلبه على لسانه، ويؤكد ذلك عملُه، فالعمل إذا كان موافقًا للقلب، موافقًا للسان، فيشعر القارئ بحلاوة:

(إن الذين قالوا)

يعني كأن الله سبحانه وتعالى، لا يريدنا أن نقول إلا ما هو حق، والقول يكفي، إذا كان القول مطابقًا لما في القلب، إن الذين قالوا ربنا الله، الرب هو المربي، والرب هو الممد، والتربية تربية نفسية و تربية مادية، فربنا الله هو صاحب الأسماء الحسنى، من الذي خلقك ؟ الله جل جلاله، من الذي أمدك بما تحتاج ؟ الله جل جلاله، من الذي أسبغ عليك نعمه ظاهرة وباطنة ؟ الله جل جلاله، من الذي يعالجك إذا انحرفت ؟ الله جل جلاله، فربنا رب العالمين، لكنّ الإنسان إذا اكتفى بأن الله عز وجل هو الذي خلقنا، وهو الذي أمدنا، وهو الذي أنزل هذا الكتاب على نبيه، ولم يتحقق من ألوهية الله عز وجل، وبأنّ الله هو المعطي، هو المانع، هو الرافع، هو الخافض، الأمر كله بيده، المصير كله إليه، له الخلق، وله الأمر، وهو الذي في السماء إله، وفي الأرض إله، ولا يشرك في حكمه أحداً فأمره خسارة، أما إذا تحققت من مقام الألوهية، فأنت عندئذ مضطر لأن تنصاع لأمر الله، والأمر كله بيده، فمتى يعصي الإنسانُ ربّه ؟ ولماذا يعصي ؟ وكيف يعصي ؟ يعصي حينما يرى أن في المعصية تحقيقاً لمصالحه المادية أو المعنوية، ومتى يعصي ؟ إذا توهم أو غفل عن أن الذي أمر لا يراه، لكن إذا أيقنت أن الذي أمر يراك، وأنه سيحاسبك، وأن الأمر كله بيده، فلن تعصيه، يعني هذا الكلام ينقلنا إلى موضوع دقيق، الإقرار بوجود الله عز وجل لا يكفي، الإقرار ببعض أسمائه الحسنى لا يكفي، ألم يقل إبليس: رب فبعزتك، الإقرار بوجود خالق عظيم لهذا الكون، والإقرار بوجود ربٍّ حكيمٍ، دون أن تستجيب لأمره، دون أن تنصاع لأمره، دون أن تعبده، دون أن يبدو ذلك في علاقتك اليومية، هذا لا يجدي شيئاً.

الإيمان الحقيقي هو الإيمان الذي ينتهي بالإنسان إلى الاستقامة:

(إن الذين قالوا ربنا الله ثم)

ثم: حرف عطف يفيد الترتيب على التراخي، ولهذا الحرف معانٍ كثيرة، قالوا ربنا الله ثم استقاموا، يعني إلى أن أثمر إيمانه استقامة، صار لديه تأمل، وصار لديه بحث، وقام بدراسة، وأجرى مع نفسه تساؤلات، وتكونت لديه إجابات، ووقع بينه وبين نفسه حوار ؛ أي قال وتحقق، قال وتبنى هذا الأمر، قال وتعمق، قال و درس، قال وأتى بالبرهان، قال وطلب الدليل، ثم خلصوا إلى أن قالوا ربنا الله، هذا القول انتهى بهم إلى أن يستقيموا، والحقيقة هذا المقياس، دقيق، دقيق، فإن الإيمان لا يعد إيماناً مثمراً، إلا إذا انتهى بك إلى الاستقامة، الإيمان الذي ينتهي بك إلى الاستقامة هو إيمان حقيقي، أما الإيمان الذي لا ينتهي بك إلى الاستقامة فهو إيمان لا يكفي، أو إيمان شكلي، أو إيمان سطحي ناتج عن تفكير تقليدي، أما الإيمان الحقيقي الذي أراده الله عز وجل، من صفاته اللازمة أنه ينقلك إلى الاستقامة، إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا، هذا يعني أن الإنسان عليه أن يقتطع من وقته وقتاً لمعرفة الله، قضية الإيمان خطيرة، قالوا ربنا الله ثم استقاموا، مع أن هذا القول أخذ فترة زمنية، واستغرق جانباً من وقت الإنسان، جانباً من تفكيره، جانباً من اهتمامه، بذل جهداً، بذل طاقة حتى استيقن بهذه الحقيقة.

استقامة الإنسان تؤكد إيمانه بالله عز وجل:

إن الذين قالوا، أولاً قالوا: تعني أنه لا ينبغي إلا أن تقول إلا الذي في قلبك، وإذا قلت ما في قلبك، وكان ما في قلبك إيمانًا، فهذا القول أصبح في مستوى الإيمان، ربنا الله، الله عز وجل له أسماء حسنى كثيرة، هو الخالق البارئ المصور، هو الرزاق، هو الغني، هو القدير، هو السميع، هو البصير، ولأسماء الله الحسنى معان دقيقة جداً، فإنّ لله تسعة وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنة، والإحصاء غير العد، الإحصاء يعني أن تفهمها اسماً اسماً، أن تفهم المدلول الدقيق لهذا الاسم، أن تعرف كيف يكون الله رحيماً، ما معنى رحمة الله ؟ أن تربط الاسم بأفعال الله، أن تربط الاسم بالآية الكريمة، فالذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون، يعني كما أقول لكم دائماً، الآيات القرآنية أحياناً تفصِّل، وأحياناً توجز، والدين أن تؤمن بالله وأن تستقيم على أمره، بل إنّ الاستقامة على أمر الله هي محك صحة الإيمان، الدعوى سهلة، أن تدعي أنك مؤمن قضية سهلة، لكن الذي يؤكد إيمانك هو استقامتك، هذا يذكرنا بآيات في سورة فصلت:

(إِنّ الّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللّهُ ثُمّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا)

[سورة فصلت: الآية 30]

فعل الإنسان مؤشر لقناعته:

إذاً فالاستقامة هي المؤشر على صحة الإيمان، وكأن كلمة (ثم) تفيد التراخي، يعني أنّ الإيمان يجب أن يأخذ من وقتك وقتاً وجهدا ودراسة، وتمحيصاً ودرساً وبحثاً، إلى أن تتحقق من هذه الحقائق، إلى أن تتبناها عندئذ تجد أنك مدفوع شئت أم أبيت إلى تطبيقها، أوضح مثلاً: عندما يكون ضغط الإنسان مرتفعاً، وثقافته الطبية محدودة جداً، يجلس إلى طبيب، ويحاول هذا الطبيب أن يقنعه، بأن الملح يزيد اختزان السوائل في الجسم، والسوائل إذا اختزنت في الجسم امتلأت بها الأوعية، فصارت حركة القلب مجهدة، أما إذا السائل خفّ بالجسم صار القلب مرتاحاً، لو فرضنا أن الطبيب وضّح بشكل دقيق جداً مضاعفات شرب الماء، مضاعفات إكثار الملح في الطعام، كيف أن الملح يخزن سوائل كثيرة، وكيف أن السوائل لها علاقة بامتلاء الأوعية بالدماء، وكيف أن امتلاء الأوعية بالدماء يجهد القلب، فإذا أتيته بأمثلة بسيطة، ووضحت له حتى قنع، عندئذ تجده ترك الملح في الطعام، الترك دليل قناعة، وهذه نقطة مهمة جداً في حياتنا، ليس المهم ما تقوله، ولا ما تسمعه، ولا ما تقرؤه، موطن الثقل المعول عليه الذي تفعله، لأن الذي تفعله هو تعبير عن قناعتك بالذي تعتقده، قد تقترح على أحدهم يوماً خمسين اقتراحاً فيجاملك، ويقول لك: أنا شاكر لك كثيراً، لكن في النهاية لا يفعل ما هو قانع به، فكأن فعل الإنسان هو مؤشر لقناعته، إذاً إذا كان الإيمان لم ينتهِ بنا إلى التطبيق، فهو إيمان عقيم لا يجدي.

إنهاء الازدواجية في حياة المسلمين:

إبليس آمن، لكنه أبى و استكبر، فأنت إذا اعتقدت بحقيقة صارخة، كأن يقول قائل: أنا مؤمن بالله، فماذا فعل ؟ فما مردود هذا الكلام عنده ؟ الله عز وجل موجود، ووجوده ظاهر في كل خلقه، فأنت إذا قلت للشمس وهي ساطعة، إنها ساطعة، أنت ماذا فعلت ؟ ما أضفت شيئاً، لو قلت ليست ساطعة، وهي ساطعة لسخر الناس منك، إن قلت إنها ساطعة، ما زدت عن أن قلت الحقيقة، وإن أنكرت الحقيقة استخف بك الآخرون، أنت إذا قلت للشمس ساطعة، هي ساطعة، أنت ما فعلت شيئاً، لكنك حينما تستفيد من هذه الأشعة، حينما تسخن بها الماء، حينما تتعرض لها، من أجل صحة الجلد مثلاً، حينما تشتري بيتاً تدخل منه الشمس، فقد استفدت منها، أما أن تقر أنها في كبد السماء، فأنت ما فعلت شيئاً، أريد من هذه الأمثلة أن أقول لكم، حينما تقر أن لهذا الكون خالقاً ولم تستجب لأمره، فأنت ما فعلت شيئاً، حينما تقول: الجنة حق، ولا تعمل لها، فأنت ما فعلت شيئاً، إذا قلت: النار حق ولم تتقها، فكذلك أنت ما فعلت شيئاً، وإذا قلت: الصدقة ترضي الله عز وجل، ولم تنفق من مالك، فما فعلت شيئاً، إن قلت: إنّ أكل الربا يمحق المال، ثم أكلته، فما فعلت شيئاً، أريد وأرجو الله سبحانه وتعالى أن تُمحَى الازدواجية في حياة

المسلمين، إنها ازدواجية واضحة جداً، تجد الجوامع ممتلئة، ولو دخلت بيوت رواد المساجد لَمَا وجدتَ في هذه البيوت ما يشعر أنهم متمسكون بهذا الدين، هذه المسافة بين الشروخ وبين الاعتقاد، هذه حالة مرضية يجب أن تعالج.

الأمانة و الصدق و التواضع عوامل تشد الإنسان إلى الإسلام:

أساساً أقول لكم دائماً النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((لن تغلب أمتي من اثني عشر ألفاً من قلة))

[الجامع الصغير]

فكيف إذا كنا ملياراً و مئتي مليون ؟! معنى ذلك أنّ عندنا خللاً خطيراً، أداء الصلوات من دون استقامة، تصبح الصلاة جوفاء، أداء الصيام من دون ضبط الجوارح، فالصيام أجوف، أداء مناسك الحج دون عقد صلح قطعي، يصبح الحج سياحة، الأعمال التي يبدو للناس أنها أعمال عظيمة، إذا ابتغي بها السمعة والمديح والثناء، فهذه الأعمال تُفرغ من مضمونها، وتنتهي إلى الإحباط، فنحن نعاني من مشكلة مُرّة حقّاً، إنّ هناك ملايين في العالم الإسلامي، مشاعرها مع الإسلام، تفكيرها إسلامي، تمنياتها إسلامية، كذلك إذا دخلت إلى أعمالهم تجدهم يتعاملون بالربا، تجد كسباً غير مشروع، إذا دخلت إلى بيوتهم لا تجد انضباطاً، لا من حيث الحجاب، ولا من حيث وسائل اللهو، فإذا لم يتميز المسلم، وإذا لم يكن إيمانُهُ صارخاً، وإذا لم يكن إيمانه حقيقياً في عمله، فكيف يَعظُمُ هذا الدين ويسود ؟ الذي أراه أن الذي يشد الناس إلى الدين ليس الصلاة، الصلاة فرض، لكن الذي يشد الناس إلى الإسلام أمانتك، صدقك، وتواضعك.

من آمن بالله الإيمان الحق عليه أن يطبق هذا في بيته و علاقاته:

النجاشي لما سأل سيدنا جعفر عن الإسلام وعن نبي الإسلام ماذا قال ؟ قال: كنا قوماً أهل جاهلية حتى بعث الله فينا رجلاً نعرف أمانته، وصدقه وعفافه، ونسبه، المفروض أن المؤمن يكون في أعلى درجات الأمانة، في أعلى درجات الصدق، في أعلى درجات الاستقامة، في أعلى درجات الإتقان والإخلاص، حتى يشد الناس للدين، باستقامته، بكلمته الصادقة، بتواضعه الشديد، بحبه للخير، هذا الذي أتمنى على الله عز وجل أن يوفقني في هذا الدرس إلى بيانه وتوضيحه،(إن الذين قالوا ربنا الله)، هذا هو الجانب الاعتقادي، يعني آمنت بالله خالقاً، وآمنت به مربياً، وآمنت به مسيراً، آمنت بالله موجوداً، آمنت به كاملاً، وآمنت به واحداً، آمنت بأسمائه الحسنى وصفاته الفضلى، وماذا بعد الإيمان بالله ؟ ماذا تنتظر ؟

إصلاح بيتك، عملك، حرفتك، حركاتك، سكناتك، اتصالاتك مع الآخرين، متى تغضب ؟ متى ترضى ؟ متى تعطي ؟ متى تمنع ؟ متى تصل ؟ متى تقطع ؟ وفق منظومة قيم، هذا الذي نشعر أننا بأمس الحاجة إليه،(إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا)، فالمؤمن الصادق مهما عظمت دنياه، إذا جاءته من طريق غير مشروع، ينبغي أن يركلها بقدمه، المال مهما كثر إذا كان فيه شبهة، ينبغي أن يدوسه بقدمه، لأن الله عز وجل هو الغني، وهو الرزاق، وهو المعطي، وهو المعز، وهو ذو القوة المتين.

لا يتعاظم إيمان الإنسان إلا إذا طبق ما يعتقد:

إذًا يلمح من الآيات أنهم قالوا ربنا الله، والقول تعبير عن إيمانهم، عما استقر من حقائق الإيمان في قلوبهم، ثم قال، مرة ومرتين وثلاثاً و أربعاً، كلما رأى آية، قال ربي الله، ربي وربك الله، النبي رأى الهلال قال: ربي وربك الله، كلما رأى آية كونية في السماوات أو في الأرض، ورأى ظاهرة تدل على عظمة الله، عظم الله بذكره المتواصل، يعني أحياناً، التراخي يفيد التكرار، يفيد الاستمرار، يفيد التراكم، يعني آمن وآمن وآمن وآمن، إلى أن حمله إيمانه المتراكم على الاستقامة على أمر الله، الإنسان قد يتولّى بنفسه فحص ذاته، فقد يعطي بعض الأطباء مريضاً جهازاً يفحص مستوى السكر ذاتياً، وقد يجري فحصاً دورياً، وأحياناً يعطيه جهاز ضغط، افحص ضغطك كل يوم، فإذا كان الإنسان حريصاً على صحته، حريصاً على جسمه، حريصاً على سلامة أعضائه وأجهزته، يحضر جهازاً إلى البيت، يقول لك: أنا أفحص ضغطي كل يوم، أنا أفحص السكر كل يوم، فهل تفحص إيمانك كل يوم ؟ مثل حرصك على فحص السكر كل يوم، والكوليسترول، والضغط، فلا بدّ أنْ تكون حريصاً على فحص إيمانك، فإيمانك يتعاظم بمدى تطبيقك لما تعتقد.

لا خوف عليهم و لا هم يحزنون: من ثمارها:

المؤمن معافى من القلق الذي يشيع بين المقصرين:

قالوا ربنا الله ثم استقاموا، عندئذ، قطفوا الثمار، أول ثمرة فلا خوف عليهم، ولا هم يحزنون، هذا الخوف من المستقبل، هناك قلق عميق عند الإنسان البعيد عن الله عز وجل، المستقبل مظلم، يقول لك: تواجهه مفاجآت، وتطالعه أخطار، لعلي لا أستمر في عملي، هذا هاجسُه إذا كان موظفاً، وكان دخله كبيراً، فلعل تجارتي تبور، إذا كان وكيلاً حصرياً لشركة مثلاً، ولعل مشروعي لا ينجح، ويخشى أنْ تقع منافسة، فهو دائماً يرى في المستقبل شيئاً مخيفاً، كأن هناك ألغاماً في المستقبل، كأنما يغشاه ظلام،

ظلمات بعضها فوق بعض، هذا القلق الذي يشيع بين المشركين، يشيع بين المقصرين، فالمؤمن معافى من كل هذا، فلا خوف عليهم:

(قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا)

[سورة التوبة: الآية 51]

الله عز وجل لا يغير ما بك من نعمة إلا إذا غيرت ما بك من استقامة:

(إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ)

[سورة الرعد: الآية 11]

انظر، دقة الآية، فأنت في بحبوحة، وأنت على منهج الله، الله عز وجل لا يغير ما بك من نعمة، إلا إذا غيرت ما بك من استقامة، إذاً المقصود الآن أن الثمرة الأولى، فلا خوف عليهم، الشدة النفسية، الضغط النفسي، القلق الممزق، الضياع، الشعور بالقهر، بالحرمان، الخوف الشديد، فهذه الأمراض النفسية، وهذه الشدة النفسية، إنْ صحّ التعبير، هي وراء أمراض كثيرة، وراء أمراض القلب، والأوعية والضغط، وأمراض الجهاز الهضمي، أمراض لا تعد ولا تحصى، حتى إن الشدة النفسية وراء الأمراض العضالة التي سببها ضعف المناعة في الإنسان، إذاً لا خوف عليهم، أنت عبد، لك أن تتلقى عن الله أمره، وعليك أن تطيعه، وانتهى الأمر، وهذا المعنى موجود بآيتين:

(بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ (66))

[سورة الزمر]

وانتهت مهمتك، وقوله تعالى:

(قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آَتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ (144))

[سورة الأعراف]

مهمة الإنسان في الدنيا:

تجد إنساناً بالتعبير العامي، " يحمل السُّلم بالعرض" بالعرض، دائماً يعترض، وينتقد، ويتشاءم، وييأس، ويقنط من رحمة الله، أنت لك مهمتان ؛ مهمة أن تعرف الله عز وجل، ومهمة أن تستقيم على أمره وانتهت مهمتك إذ صار أمرك بيده، دع همّك عند الله عز وجل، هذا الهم الكبير دعه عند الله، واسترح، فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون على ما مضى،

حياة المؤمن تبدأ بعد الموت:

قد تجد الإنسان الذي تجاوز الخمسين أو الستين، متألماً أشد الألم على شبابه، كان نشيطاً، وكان يتمتع بصحته تامة، وكان يتحرك حركة خفيفة، أمّا الآن فإنّ حركته صارت ثقيلة، فإذا كنت تتوهم أن الحياة تنتهي عند الموت، فعندئذٍ والله معك الحق، لكنْ ما قولك إذا كانت الحياة تبدأ بعد الموت، نعم تبدأ بعد الموت، والدليل تجده في حسرة الكافر بعد أنْ ظهرت له الحقيقة مُرّة صارخةً فهو:

(يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي (24))

[سورة الفجر]

فالحياة الحقيقية بعد الموت، والإيمان بالآخرة يحل كلّ مشكلة، فإذا آمن الإنسان يقيناً أنه توجد آخرة، والآخرة هي حياة أبدية مسعدة، لهم ما يشاؤون فيها، على الطلب، بينما الدنيا قائمة على السعي، على السعي المضني، على السعي مع الكدح الشديد، أما الآخرة فعلى الطلب، لمجرد أن تتمنى شيئاً فهو أمامك، والدليل قوله تعالى:

(لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ (35))

[سورة ق]

فهذه الحياة الأبدية، إذا أنت آمنت بها إيماناً حقيقياً، وسعيت من أجلها، فليس عندك من مشكلة، هكذا تمتص كل مشاكلك، والإنسان لما يرى أن الدنيا ممرٌ وليست مقراً، ويرى أنها مرحلة إعداد وليست مرحلة استقرار، يسعد بها، وقد قال عليه الصلاة والسلام: إن أسعد الناس في الدنيا أرغبهم عنها، وأشقاهم فيها أرغبهم فيها.

من ازداد علماً ازداد رفعة و مكانة عند الله عز وجل:

إذاً فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون، شيء جميل جداً، لا تحزن على ما فات، ولا تخشَ مما هو آت، أول ثمرة نفسية لمن قال: الله ربي، واستقام على أمر الله عز وجل، أنه لا يندم على ما فات، ولا يخشى مما هو آت، ولكنّ الذي يحطم الناس، القلق والندم، القلق من المستقبل، والندم على الماضي، فهو يرى أن الشباب مضى وانتهى ولن يعود، كما يرى أن ليس هناك حياة غير الحياة الدنيا، إذاً حينما تمضي دنياه، أو يمضي معظمها، أو يبقى منها أمد يسير، فهذا يورث نفسه كآبة، ويقول لك طبيبه: إنه يعاني من مرض كآبة، وهذا المرض منتشر بأوربا بشكل مذهل، طبعاً هو لا يؤمن بآخرة فأعطى نفسه كل الشهوات حينما كان شاباً، فلما كبرت سنه، وضعف بصره، وانحنى ظهره، وشاب شعره، وأصبح على هامش الحياة، انفض عنه الناس، وتهرب منه أهله، فدخل بمرض الكآبة، الكآبة يعني شعور بالنهاية،

شعور بالاضمحلال، لكنّ الإنسان إنْ آمن بالآخرة لم تعد هناك شيخوخة، بل شباب دائم، كلما ازداد علماً ازداد رفعة عند الله، كلما ازداد علماً ازداد مكانة، كلما ازداد علماً ازداد تألقاً، كلما ازداد علماً وعملاً ازداد سعادة، فلذلك مرض الكآبة هو محصلة القلق والندم، الندم على ما مضى، والقلق مما سيأتي، هذه المحصلة، هي الكآبة، والمؤمن معافى من هذا المرض ولا يعاني من كآبة.

(إنّ الّذِينَ قالُوا رَبُّنَا اللّهُ ثُمّ اسْتَقامُوا فلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ولَا هُمْ يَحْزَنُونَ (13) أولَئِكَ أصْحَابُ الْجَنّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ(14))

[سورة الأحقاف]

عطاء الدنيا محدود و عطاء الآخرة إلى أبد الآبدين:

هؤلاء الذين في الدنيا، تعرفوا إلى الله، واستقاموا على أمره، وفي الدنيا لم يخشوا مما سيأتي، ولم يندموا على ما مضى، هؤلاء أصحاب الجنة خالدين فيها جزاء بما كانوا يعملون، والحقيقة أن من كرم الله عز وجل أن حياتك في الدنيا معدودة: ستون، سبعون، خمس وسبعون، أو ثلاثون، أو أربعون، أو خمسون، إنها سنوات معدودة، لكن عطاء الآخرة بعدها إلى أبد الآبدين، في هذه الدنيا المحدودة، إيمانك بالله، واستقامتك على أمره، يجعلك من أهل الجنة، من أصحاب الجنة، خالدين فيها جزاء بما كانوا يعملون.

من حمل ابنه على طاعة الله عندئذ يغدو الابن عملاً صالحاً مستمراً لوالديه:

(وَوَصّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ)

[سورة الأحقاف]

هنا حقيقة وهي أنّ عطف الآباء على أبنائهم طبع فيهم، لكن بر الأبناء بآبائهم تكليف، عطف الآباء على الأبناء طبع، الله عز وجل لحكمة أرادها أودع في قلوب الآباء محبة الأبناء، ومع المحبة الرعاية، ومع الرعاية الخدمات، فلذلك محبة والديك لك، هذه من محبة الله لك، لأن الله أحبك أودع حبك في قلوب والديك، لكنك إذا كبرت، وبلغت سن التكليف، فالآن أنت مكلف أن تبر والديك، فبر الوالدين تكليف، بينما رعاية الأبناء طبع، لكن يضاف إلى ذلك أن الآباء حينما يرعون أبناءهم، لهم أجر، و هذا الأجر يزيد كثيراً إذا دلّ الأب ابنه على الله، وعرف ابنه بالله، وحمل ابنه على طاعة الله، عندئذ يغدو الابن عملاً صالحاً مستمراً لوالديه:

(وَوَصّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا)

[سورة الأحقاف]

العبادة لله وحده والإحسان للوالدين:

هنا يوجد تداخل، فبعض الأبناء يفهم أن الأب يعبد من دون الله، طبعاً لا يقول هذا بلسانه، لكن لو أمره أبوه بمعصية، لو قال له طلق زوجتك، يطلقها رأساً، لو حمله أبوه على كسب مال حرام، لقال: ماذا أفعل ؟ هكذا أبي يريد، فاعلم أنّ الله أمرك أنْ تبرّ أباك، وأن تحسن إليه، لا أن تطيعه في معصية الله عز وجل، العبادة لله وحده، والإحسان للوالدين:

(وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا)

إذاً لماذا الأب ؟ لأنه سبب وجودك في الدنيا.

لا يعرف قدر الآباء إلا من أنجب الأولاد:

(حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا)

الحمل حالة شاقة، تشبه حالة مرضية تصيب الإنسان، الحمل فيه مشقة كبيرة جداً، والوضع فيه مشقة كذلك، فأوّلاً، الأب والأم السبب في وجودك، وثانياً الحمل كان فيه مشقة، ولا يعرف قدر الآباء إلا من صار أباً، فالطفل الصغير كم يأخذ من اهتمامه ؟ من وقته ؟ من انشغال نفسه به ؟ من المال ؟ من الإنفاق والمعالجة ؟ تجد الابن يستقطب اهتمامات الأسرة كلها، ويستقطب كل طاقات الأسرة، من أجل أن ينمو نمواً صحيحاً، فلا يعرف قدر الآباء إلا من أنجب الأولاد.

الحمل حالة شاقة أقله ستة أشهر:

(حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا)

وعلى ضوء هذه الآية فإنّ سيدنا عثمان جيء بامرأة ولدت بعد ستة أشهر، يعني بحسب المألوف، كأن هذا الولد ليس من زوجها، فلما همّ أن يقيم عليها الحد، سيدنا أبو الحسن، سيدنا علي رضي الله عنه، ذكر له الآيتين:

(حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا)

(وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ)

[سورة البقرة]

فاطرح أربعاً وعشرين شهراً من ثلاثين، تجد النتيجة ستة أشهر، فمن جمع بين الآيتين، يتضح له أن أقل الحمل ستة أشهر.

(وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً)

من بلغ الأربعين ولم يغلب خيره شره فليتجهز إلى النار:

هناك خط بياني صاعد، هذا الخط يصل إلى سن الأربعين، عند هذه السن تكتمل رجولة الإنسان، ويكتمل عقله، وتكتمل مشاعره، ويكتمل نضجه، عندئذ تقام عليه الحجة، يعني من دخل في الأربعين أقيمت عليه الحجة، بلغ أشده، وبلغ أربعين سنة، لذلك ورد أنه من بلغ الأربعين ولم يغلب خيره شره، فليتجهز إلى النار، يعني بلغ الأربعين وما استقام على أمر الله، فقد نضج عقله، وما هداه إلى الله، وكذلك انفعالاته نضجت، وما اتصلت بالله عز وجل، أي مشاعره ليست إسلامية، فكره غير صحيح، أعماله لا ترضي الله عز وجل، وهو في الأربعين، يعني يجوز أن تعذر شاباً في الثامنة عشرة، في الخامسة عشرة، يوصف بالطيش، يقولون لك: ما استقر بعد، لكن إنساناً في الأربعين قامت عليه حجة كبيرة جداً.

(حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (15))

[سورة الأحقاف]

أولاً، أوزعني يعني ألهمني، أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ.

من آمن بالله و شكر نعمه حقق الهدف من وجوده:

الحقيقة، لما ربنا عز وجل قال:

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآَمَنْتُمْ)

[سورة النساء]

دقق في هذه الآية:

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآَمَنْتُمْ)

فالمعنى أنكم إذا شكرتم وآمنتم لا يعذبكم الله عز وجل، ومعنى لا يعذبكم، أنكم حققتم المراد من خلقكم، معنى ذلك أننا خلقنا كي نؤمن، وكي نشكر، لماذا ؟ لأن الله سبحانه وتعالى تفضل علينا بنعمة الإيجاد، وبنعمة الإمداد، وبنعمة الهدى والرشاد، فهذه النعم الكبيرة، أنت موجود، لك اسم، وأنت تتلقى كل شيء، هواء، وماء، ولك بيت ومأوى، وعقل، وزوجة، وأولاد، وسائل راحة كثيرة، أنت مغمور بالنعم، فهذه النعم، ماذا تقتضي ؟ تقتضي أن تشكرها لله عز وجل، وأنت إذا آمنت بالله، لأنه خلقك، وأنعم عليك، أوجد وأنعم، إذا آمنت به موجوداً، وشكرت هذه النعم، فقد حققت الهدف الكبير من وجودك، لذلك قال الله تعالى:

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآَمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا (147))

[سورة النساء]

فعليك أن تشعر أن موضوع الشكر موضوع أساسي في حياتك، وما عليك إلاّ أنْ تؤمن وتشكر، فإذا آمنت وشكرت فقد وقعت على الخط المستقيم، على المنهج القويم، حققت الهدف الكبير من وجودك في هذه الحياة الدنيا.

العمل الصالح مقيد بأنه وفق منهج الله:

إذًا:

(حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (15))

وتطالعنا في الآية كلمة دقيقة جداً، وهي: أنْ أعمل صالحاً ترضاه والإعراب يفيدنا في إيضاح المعنى ؛ فإنّ (ترضاه) جملة فعلية، في محل نصب صفة لصالحاً، أعمل صالحاً مرضياً عندك يا رب، والصفة قيد، يعني إذا قلت أنا أريد إنساناً ليعمل في هذه الدائرة، أي إنساناً مقبولاً، إنساناً يحمل شهادة ثانوية، وصارت الصفة قيداً، فكلما أضفت صفة قيدت الأمر، فالعمل الصالح في القرآن الكريم مقيد بأنه يرضي الله، معنى ذلك أنّ هناك أعمالاً صالحة لا ترضي الله، يقول لك يانصيب خيري، مثلاً، حفلة ساهرة، يخصص ريعها للأيتام، هذا عمل لا يرضي الله، أي إذا كان فيه معصية، فيه فسق، فيه رقص، فيه غناء، ويُخصّص ريع الحفلة للأيتام، فهذا عمل من زاوية دنيوية صالح، لكنه لا يرضي الله عز وجل، والله قال:

(وأن أعمل صالحا ترضاه)

فالعمل الصالح مقيد بأنه وفق منهج الله، أنت يجب أن تعبد الله وفق منهج الله، لا حسب مزاجك الشخصي.

كلّ إنسان يشقى بشقاء أولاده ويسعد بسعادتهم:

إذاً موضوع النعمة موضوع كبير جداً، أنت يجب أن تؤمن، ويجب أن تشكر، والإيمان رد فعل لوجود الله عز وجل، والشكر رد فعل لإحسانه إليك، هو موجود، وأحسنَ إليك، فرد فعل وجود الله عز وجل، أن تؤمن به، وردك على إحسانه إليك بالشكر له:

(أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي)

الحقيقة أني ذكرت في إحدى الخطب أن الإنسان يشقى بشقاء أولاده ويسعد بسعادتهم، يعني أنّ الأب حينما يرى ابنه مؤمناً مستقيماً، طيباً، صالحاً، يشعر بشعور الرضا و السرور إلى حدٍّ لا يوصف أبداً، شعور: أن ابنك استمرار لك، وأنك تركتَ ذرية صالحة، هذا من الدعاء، وأصلح لي في ذريتي:

(إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (15))

فواجب الأب أن يصلح ذريته، بالتوجيه، والإرشاد، والترغيب، والترهيب، والأسلوب الإيجابي، والأسلوب السلبي، والنصيحة مرة، والوعظ مرة، والإعراض مرة، عليك أن تحاول أن تربي ابنك ليكون صالحاً:

(وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (15))

[سورة الأحقاف]

الدعاء والرجاء في الإسلام منوط بالعمل و السعي:

الإنسان عندما يقول: وأصلح لي في ذريتي، ويقرأ هذه الآية، ويدعو الله عز وجل من أعماقه:

(فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا (110))

[سورة الكهف]

وهذه الآية، طبعاً ليس لها علاقة بالآية الأولى، إلا أنني أستنبط منها أن الرجاء في القرآن مرتبط بالسعي، إذا رجوت شيئاً أو دعوت الله لبلوغك شيئاً ما، فهذا الدعاء، أو ذاك الرجاء ليس مقبولاً إلا إذا سعيت إليه، شخص دعا ربه أن يهديه لطلب العلم ، ولحضر مجالس العلم، فهذا طلبُ هداية من دون جهد، فدعاؤه دعاء فارغ، لكنّ آخر دعا الله عز وجل أن يرزقه، فقام و تحرك وسعى إلى أبواب الرزق، فأصاب رزقا، فأردتُ أن يفهم كلُّ مسلم هذه الآية:

(فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا (110))

[سورة الكهف]

إذا رجوت فاعمل، وإذا تمنيت فاعمل، وإذا دعوت فاعمل.

من دعا الله بأمر جليل ينبغي أن يرى الله في سلوكه ما يؤكد هذا الدعاء:

الذي يقول: وأصلح لي في ذريتي، يردِّد ببساطة: الله يهديهم، ويصلحهم، وأنت لا تُربّيهم، ولا تعلِّمهم، فهذا دعاء فارغ، الدعاء سهل جداً، لا يكلف شيئاً، كل إنسان يدعو الله أن يهدي أولاده، لكن الدعاء في

الإسلام والرجاء في الإسلام منوط بالعمل و السعي، فأنت بعد أن تبذل كل جهدك، وكل طاقتك، بالرعاية والتوجيه، والإرشاد والدلالة، والحرص والإكرام، والتشجيع، بعد أن تستنفذ كل الوسائل في تربية أولادك، قل ربي أصلح لي في ذريتي، الآن صار الدعاء يتناسب مع السعي، فيه أدب صار الدعاء مسموعاً، أما دعاء لا يكلفك إلا كلمتين تردِّدهما، والبيت كله مسيب، لا توجيه، ولا رعاية، ولا أمر بالصلاة، ولا جو إسلامي في البيت، وتقول: ربي أصلح لي في ذريتي، وبدوري أحب أن نكون واقعيين، ونكون مع روح القرآن، لا مع نصه، ليس معقولاً أن تدعو الله عز وجل أن يصلح لك ذريتك، وأنت تهمل هذه الذرية، لا تحملها على طاعة الله، فإذا دعوت الله لأمر جليل، ينبغي أن يرى الله في سلوكك ما يؤكد هذا الدعاء، يا رب نجحني في الامتحان ! ادرُسْ حتى ينجحك، يا رب أضرع إليك أنْ تشفيني، فخذ بأسباب الصحة، نفذ الوصية النبوية، نفذ الطب النبوي، واطلب من الله الشفاء، يا رب أسألك أنْ تهدي أولادي، حاول إرشادهم، ودلهم على الله عز وجل، تقنعهم، تجلس معهم وترشدهم، فأنا أردت من هذه الكلمة، أنّ الدعاء إذا خلا من السعي والعمل، فهذا الدعاء لا قيمة له.

من شروط الدعاء المستجاب الإيمان بالله و الاستجابة لأمره:

لذلك ترى الله عز وجل قال:

(وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ (186))

[سورة البقرة]

أي إذا آمنوا بي، واستجابوا لأمري، ثم دعوني، فالآن يرشدون إلى الدعاء المستجاب، إذا أردت أن تكون مستجاب الدعوة، فأطب مطعمك.

مرة ثانية أرجو من الله سبحانه وتعالى أن يوفقني لتوضيح هذه النقطة ؛ الدعاء سهل، فالمسلمون في شتى بقاع الأرض يقولون: يا رب انصرنا على أعدائنا، اللهم شتِّت شملهم، اللهم اجعل تدميرهم في تدبيرهم، اللهم اجعل الدائرة عليهم، هذا دعاء، و هذا وحده لا يجدي أبداً، فإن الله تعالى قال:

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ)

[سورة الأنفال]

و لكننا نقول: اللهم انصرنا على أنفسنا أوّلاً لكي نستحق أن ينصرنا على أعدائنا، فالدعاء واجب، و شيء أساسي: مخ العبادة الدعاء، لكن الفهم السطحي لموضوع الدعاء هو الخطير، إن الله سبحانه و تعالى يريد أن يرى من عملك ما يؤكِّد دعاءك، فإن دعوت: اللهم أصلح لي زوجي، فليس كاف، بل يجب أن تدلّها على الله تعرّفها بما أمر سبحانه، و بما نهى، و تعمل جادة، وأن تكون لها أنت قدوة،

فعندئذ يصلح أولادك أيضاً، لأن الأبوين في صلاح، ومع دعائهما للأولاد تكون أسرة صالحة. تدعو الله أن يرزقك رزقاً حلالاً طيباً، فيجب أن تسعى في السبل المشروعة لكسب الرزق، تدعو الله أن يعافيك من كل مرض، يجب أن تأخذ بأسباب الصحة، فلما يرافق الدعاء الأخذ بالأسباب وسعي حثيث، وعمل طيب، صار الدعاء جاداً، وعندئذ يكون الدعاء مستجاباً.

الدعاء وحده لا يكفي إن لم يأخذ الإنسان بالأسباب:

حتى لا نقع في مشكلتين، هناك ناس تطرفوا، لم يعبؤوا بالدعاء مطلقاً، يقول لك: يا أخي لا يستجيب لنا الله عز وجل، ولا يسمع لنا، أناس اعتقدوا به اعتقاداً مرضياً، اعتبروا أنك فقط تدعو، انتهى كل شيء عندهم، لا ما انتهى كل شيء، لأنّ الدعاء وحده لا يكفي، ولا عدم الدعاء يكفي، لابد من أن تعمل وتدعو، أن تتحرك وتدعو، أن تأخذ بالأسباب وتدعو، أن تفعل ما ألزمك الله به وتدعو، أن تقوم بجهد مشكور وتدعو، هذا الكلام تعليق على جملة

(وأصلح لي في ذريتي، إني تبت إليك وإني من المسلمين)

(أولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا)

[سورة الأحقاف]

العمل إذا لم يرافقه إخلاص ونية عالية لا يقبل:

ثم يقول الله تعالى:

(أولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ (16))

[سورة الأحقاف]

فالعبرة بالقبول، أيها الأخوة، هناك عمل:

(وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا (23))

[سورة الفرقان]

فالعبرة بالقبول، والقبول يحتاج إلى إخلاص، نحن الآن دخلنا في موضوع ثالث، أولاً الله يريد منك أن تسعى، وأن تعمل، والعمل إذا لم يرافقه إخلاص ونية عالية، لا يقبل، فأنت يجب أن تعمل مخلصاً حتى تقبل عند الله عز وجل، حتى يستجيب دعاءك، يجب أن تعمل مخلصاً.

ربنا عز وجل من كرمه يأخذ أحسن أعمالك ويقبلها ويتجاوز عن أعمالك التي لا ترضيه:

(أولَئِكَ الّذِينَ نَتَقَبّلُ عَنْهُمْ أحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجاوَزُ عَنْ سَيّئَاتِهِمْ فِي أصْحَابِ الْجَنّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ (16))

[سورة الأحقاف]

أي ربنا عز وجل من كرمه يأخذ أحسن أعمالك، ويقبلها، ويتجاوز عن أعمالك التي لا ترضيه، والتي تبت منها ويتجاوز عنها، شخص له جاهلية، الله يعفو عنه، الإسلام يهدم ما كان قبله، الإسلام يجب ما كان قبله، الذي فعلته قبل أن تعلم فالله عز وجل يغفر لك إن رجعتَ عنها، لكن دقق في هذه النقطة أيها الأخ، هناك ذنب لا يغفر، وذنب لا يترك، وذنب يغفر، ما كان بينك وبين الله، يغفره الله عز وجل إن تبتَ إليه، لأن حقوق الله مبنية على المسامحة، وما كان بينك وبين العباد هذا لا يُترك، لأن حقوق العباد مبنية على المشاححة، وما كان متعلقا بالشرك، فهذا الذنب لا يُغفر، لأنك كسرت قارب النجاة، فالغرق محقق، أنت حينما أشركت، توجهت إلى جهة فقيرة لا تملك لك شيئاً، أي واحد دمر نفسه بيده، فهناك ذنب لا يُغفر، وذنب لا يُترك، وذنب يغفر، ما هو متعلق بحقوق الله يغفر، ما هو متعلق بحقوق العباد لا يترك حتى يؤدّى، بالأداء أو المسامحة، لكن ما كان شركاً، هذا الذنب لا يمكن أن يغفر.

المغفرة تتعلق بالذنوب التي بينك وبين الله أما حقوق العباد لا تمحى إلا بالأداء أو المسامحة:

إذاً معنى قوله تعالى:

(أولَئِكَ الّذِينَ نَتَقَبّلُ عَنْهُمْ أحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجاوَزُ عَنْ سَيّئَاتِهِمْ)

أي سيئات ؟ ما كان بينك وبين الله، لأنه يغفر لكم من ذنوبكم، من للتبعيض، كثير من الأشخاص يتوهمون أنه بعد أن يحج كل الذنوب تمحى بالحج، يقول لك عاد من ذنوبه كيوم ولدته أمه، فهذا غير صحيح وهو كلام جزاف، فالمغفرة تتعلق بالذنوب التي بينك وبين الله، وهذا صحيح، أما فيما بينك وبين العباد، فهذه الذنوب لو تحج مليون حجة، لا تسقط إلا بالأداء أو المسامحة، انتبه، حقوق متعلقة برقبتك، مال بذمتك ما أديته، حصة باسمك في البيت اغتصبتها، هكذا ذنوب لا يحلها ولا يمحوها الحج، ولا العمرة، ولا الصيام ولا الزكاة، لا يحلها إلا الأداء أو المسامحة، نعم، نتجاوز عن سيئاتهم، يعني التي كانت بينهم وبين ربهم، أما التي بينهم وبين عباد الله، هذه السيئات لا تمحى إلا بالأداء أو المسامحة:

(فِي أصْحَابِ الْجَنّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ (16))

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأحقاف 046 - الدرس (4-6): تفسيرالآيات 15- 20 ، العاقل من برّ والديه و ادخر عطاء الله له للآخرة

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 18-11-1994

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الكرام، مع الدرس الرابع من سورة الأحقاف.

على الإنسان أن يحسن إلى والديه لأنهما سبب وجوده:

مع الآية الخامسة عشرة، وقد شُرحت في الدرس الماضي شرحاً موجزاً، ونظراً لارتباطها بالآية التي تليها، فلا بد أن نقف عندها وقفة متأنِّية إن شاء الله تعالى، يقول الله عز وجل:

(وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ (15))

(سورة الأحقاف)

الوصيّة من الله تعالى أمر، يعني الله عز وجل أمَرَ الإنسان أن يُحْسنَ إلى والدَيه، أما كلمة " الإنسان"، مادامتْ جاءَتْ معرّفة بألْ فهي تعني أيّ إنسانٍ من دون شرْطٍ أو قَيْد، لأنه ولد مِن أبوين، ولأنّ هذين الأبوَين كانَا سبب وُجوده، إذًا لا بدّ أن يُحْسِنَ إليهما والشيء الذي يلفت النّظر هو أنّ الله سبحانه وتعالى في معظم آيات القرآن الكريم كلّما ورد الحديث عن الإيمان بالله، وعن عبادته، يوصي الإنسان بالإحسان للوالدَين.

أعظم عملٍ يأتي بعد الإيمان بالله برُّ الوالدين:

معنى ذلك أنّ أعظم عملٍ يأتي بعد الإيمان بالله برُّ الوالدين، قال تعالى:

(وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا)

(سورة الإسراء)

وقال أيضاً:

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (13) أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (14) وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا)

(سورة الأحقاف)

الله جلّ جلاله هو الذي خلق، وهو الذي ربّى، وهو الذي أمدّ، وهو الذي هدى، لكنّ هذين الأبوَين كان هذا الخَلْقُ بِسَبَبِهما، لذلك: العبادة لله والإحسان للوالدين، ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله.

وصية الله عز وجل للإنسان ببر والديه:

الشيء الآخر في الآية، أنّ الوصيّة بمعنى الأمر، ووصّينا أيْ أمرنا، ووصيّة الله تعالى أمر، قال تعالى:

(قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ)

يعني أمر.

(سورة الصافات: الآية 102)

مقام الألوهيّة ؛ إذا وصّاك الله بوَالِدَيك فهو يأمرك أن تبَرّهُما، والإنسان في الآية تعني أيّ إنسان مِن دون استِثناء، أما بوالديه فتعني والدَيه، المطلق في القرآن على إطلاقه ، الوالدان المؤمنان، المشركان، الفاسقان، والعاصيان، الكافران، ووصينا الإنسان بوالديه، أدِّ الذي عليك واطّلب من الله الذي لك ! لذلك لِيَعْمل العاق ما شاء أن يعمل فلن يدخل الجنّة، لِيَعْمل العاق ما شاء أن يعمل فلن يُغْفر له، ولا تتعامل مع عاقّ لِوَالِدَيه، لو كان فيه خيراً لكان خيرهُ لِوالِدَيه.

أجلُّ نعمة يسديها الابن لوالديه دعوتهما إلى الله عز وجل:

أقول لكم أيها الأخوة: إنّ أعظم عملٍ على الإطلاق أن تردّ على نعمة الأبوّة بدَعْوتِهما إلى الله عز وجل، فإذا وُفِّقَ الشابّ المؤمن بِحِكمة بالغة وبأسلوب حكيم وبتَلَطُّف شديد، وبإحسانٍ بالغ أن يأخذ بيَدِ أبيه وأمّه إلى الله فهذه أجلُّ نعمة يسديها لوالديه، ولا يستطيع أن يفي بحقّهما إلا أن يجدهما عبْدَين فيُعْتقهما، هذا الكلام إذا وسَّعناه، يعني إذا كان والِداه عَبْدَين لِشَهواتهما، فليعتقهما من أسر الشهوة، وهذا أعظم عملٍ على الإطلاق، فالذي كان سبب وُجودك ردّدْت جميله بأن دَلَلْتَهُ على الله، قد يكون الأب شارداً ومُقصّراً، وواقعاً في بعض المخالفات والمعاصي، ولكن الابن لا يستطيع أن يأخذ بيَدِ أبيه إلا بذكاءٍ بارع، وبحِكمة بالغة، وبتَفَهُّم دقيق، وبأدَبٍ جمّ، وبالإحسان، افْتَح قلبَهُ بالإحسان قبل أن تطلب منه أن يُصْغي لِكَلامك، إذًا قال تعالى:

(وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ (15))

(سورة الأحقاف)

رعايَة الآباء لأبنائهم طبعٌ وفطرة فطرهم الله عليها:

الشيء الذي يلفت النَّظر أيضاً أنّ رعايَة الآباء لأبنائهم طبعٌ وفطرة، لذلك فالأب حينما يقدّم كلّ ما في وُسْعِهِ لأولاده، هذا جزءٌ من كيانه، وجزء من فطرته التي فطره الله عليها، طبعًا في حالات شاذّة

ومرضِيّة، لا حكم لها، ففي بلاد الغرب، امرأة فرنسيّة أغْلَقت على أولادها الباب وغادرت المنزل حتى ماتوا جوعاً !! هذه حالات نادرة وشاذّة، أما أيّ أبٍ أو أمٍّ على وجه الإطلاق فقد أوْدَعَ الله في قلبهما حبّ أولادهما، ورعايتهم، وليس في بقيّة المخلوقات مخلوقات ترعى ما كان منها كبيراً إلا بني الإنسان، لأنّ الله عز وجل أكرم الإنسان، كيف تفهم رحمة الله بك ؟ وكيف تفهم حبّ الله لك ؟ وكيف تفهم رعايته لك ؟ إنه سبحانه أوْدع رحمته بك في قلب أبيك وأمِّك، ومحبّتُهُ لك أوْدعها في قلب أبيك وأمِّك، وحِرْصُهُ عليك أوْدعهُ في قلب أبيك وأمِّك.

من إكرام الله للإنسان أن يسخر له من يؤدبه و يرعاه:

الإنسان إذا كان إيمانه عميقًا، وكانت له القدرة على اخْتِراق الظواهر، فإذا رأى أمًّا ترعى ابنها فهذه رعاية الله، إذا رأيتَ أباً يُعطي كلّ ما في وُسْعِهِ لأولاده، فهذه محبّة الله، وهذا إكرام الله، ومن إكرام الله لنا أن يُسخِّر بعضنا لبعض، وإذا الإنسان تلقّى من أبيه وأمِّه رعاية، ومودّة ورحمةً وحرصاً ومالاً، ووالده زوّجَهُ، ينبغي أن يشْكر والدَهُ إلى أقصى الحدود، لكن ينبغي ألاّ ينسى أنّ هذا إكرام الله له، وأنّ الأب كلّه، والأمّ كلّها برَحمتها، وحرصِها، وحنانها، وعطفها، ورعايتها، إنّما هي تمثِّل رحمة الله تعالى فوصّينا بمَعنى أمرْنا، والإنسان مطلق الإنسان، والوالدان تعني مطلق الوالدين، عليك أن تُحْسن إليهما، والله يتولّى أمر إيمانهما، لكن إذا أمكن بحِكمة بالغة، وبأسلوب ذكيّ، وأدبٍ جمّ، وإحسانٍ بالغ أن تنقل إليهما الحق، وأن تنقل إليهما أمر الله عز وجل، وتعرِّفهما به، فهذا عمل لا يعدلُهُ عملٌ على الإطلاق، فالذي كان سببَ وُجودك له عليك حقّ كبير، ولا تفي هذا الحق إلا إذا دَلَلْتهُ على الله تعالى، لذلك قال بعضهم: هناك أبٌ أنْجبك، وهناك أبٌ زوّجَك وهناك أبٌ دلّك على الله، فالأب الذي أنجبكَ ينتهي فضلهُ عند نهاية الحياة، والأب الذي زوّجَك يبدأ فضلهُ من وقت الزّواج وإلى نهاية العلاقة الزّوجيّة، أمّا الذي دلّك على الله، فهذا الإكرام يستمرّ إلى أبد الآبدين ! لأنّ أعظم نِعمةٍ على الإطلاق أنْ تعرف الله تعالى، وأن تعرف أمرهُ وتستقيم عليه.

الطاعة لله وحده والإحسان للوالدين:

قال تعالى:

((وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا (15))

(سورة الأحقاف)

(إحسانًا) إعرابها تمييز، ومعنى تمييز، أيْ في الجملة كلمة مُبهمة فأزال التمييزُ إبهامها، فلولا التّمييز لصدَقَت على أشياء كثيرة، تقول مثلاً سِرتُ ثلاثين، فثلاثين لفظة مبهمة يا ترى ثلاثين متراً أو كيلو متراً، فثلاثين لا تُحدِّد المعنى، ولكن إذا قلتَ سِرتُ ثلاثين مترًا كانت (متراً) تمييزاً، فلولا ذِكْرُ هذه الكلمة لصدَقَت الكلمة الأولى على أشياء كثيرة، فوصّينا الإنسان ؛ طاعةً ؟ لا، بل إحسانًا ! وفرق كبير بين الطاعة والإحسان، وهناك أبناء يخلطون بين الطاعة والإحسان فالطاعة لله، ولا طاعة لِمَخلوق في معصيَة الخالق، لكنّ الإحسان للوالدين شيء، والطاعة شيء آخر، أحياناً الأب تعاملهُ ربَوي، وابنهُ معه في المحلّ، يأمره بالتعامل معه، فنقول: لا طاعة لِمَخلوق في معصيَة الخالق، قال تعالى:

(وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ(15))

(سورة لقمان)

لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق:

قالت له: يا بنيّ إما أن تكفر بِمُحمّد وإلاّ سأدع الطّعام حتى أموت (الكلام موجّهٌ لسيّدنا سعد بن أبي وقّاص)، فقال: يا أُمّي لو أنّ لك مئة نفس فخرجَت واحدةً واحدةً ما كفرتُ بِمُحمّد، فَكُلي إن شئتِ أو لا تأكلي، ثمّ هي أكَلَت، المفروض أن يعرف الإنسان هذه الحقيقة فالطاعة شيء، والإحسان شيءٌ آخر، وكثير من الأبناء تجدهُ يطلِّق امرأة صالحةً مؤمنة محجّبة، لا لِشَيء، ولكن لأنّ أمّه لم تحبّها فطلّقها !!! هذا خطأ كبير، فالأمّ لها حُقوق والزّوجة لها حُقوق وعلى المؤمن أن يُعطي كلّ ذي حقّ حقّه، لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

وفي قراءة: حُسنًا بدلَ إحسانًا، وقد وردت " حُسنًا " في سورة العنكبوت، في قوله تعالى:

(وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا)

(سورة العنكبوت: الآية8)

والحُسن ضدّه القبح، والإحسان ضدّه الإساءة، فأنت مكلّف أن تحْسِن، وأن تُجْمِل.

زيارة الأم و الأب أعظم عمل يقوم به الإنسان:

أحيانًا يتكلّم الإنسان كلمة مع والدَيه يريد بها وجْه الله، لكنّها قاسِيَة، فهذا أحْسنَ ولكنّه لم يُجْمل، فالكلمة اللطيفة والكلمة الجميلة والكلمة الرقيقة والكلمة المتوازنة، أحيانًا لا يُجْمل القَول من خلالها، لذا قال بعضهم في تفسير قوله تعالى: (وبالوالدين إحسانًا)، هذه الباء حرف جرّ تُفيد الإلصاق، فأحيانًا يشتاق الأب لابنه، والابن بمنصب رفيع مشغول، يبْعث له سائقًا يقدِّم لأبيه الفواكه والحلويّات، ويأخذه إلى

نزهةٍ ممتِعَة، ولكن المقصود أن تكون أنت معه، فالباء هنا تفيد الإلصاق، أي أنّ الإحسان إلى الوالدين ينبغي أن يكون بالذّات، وينبغي أن تزورهما في أقرب وقت، إنّ الأب والأمّ أحدهما أو كلاهما قد يتقدّمان في السنّ، وعافَتْ نفسهما الطّعام والشّراب والنُّزهات، ولكنّ حبّهما لأولادهما شيء يتعاظم، لذا أعظم عمل أن تزور أمّك وأباك، فإن كانت الزيارة كلّ يوم كان الأفضل، وقد تكون كل يومين، أما أن تغيب الأشهر، ولا تراهما، فهذا لا عذر لك به عند الله عز وجل

العناية الفائقة بالمرأة الحامل لسلامة جسمها:

قال تعالى:

(وَوَصّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا (15))

(سورة الأحقاف)

العلّة أنّها حملتهُ كرهاً، فهذا الحُوَين من خمسمئة مليون حُوَين يقذفها الرّجل في اللِّقاء الزّوجي، أقوى حُوَين يلقِح البُوَيضة، والحوين الذي يلقِح البويضة يصبح بويضة ملقّحة، وهذه البويضة تنقسم إلى عشرة آلاف جُزَيْء، وهي في طريقها إلى الرّحِم، فإذا وصلت إلى الرّحم تعلّقت في جِدار الرّحم، وهذه البُوَيضة وصفها العلماء بأنّها الآكلة، أي تأكل جدار الرّحم، كي تصل إلى الدم، وهي شرهٌة شرهاً لا حدود له بدَم الرّحم من أجل أن تتغذّى، فَمُهمّة الأم أن تقدّم كل كيانها وكلّ أجهزتها وكلّ أعضائها وكلّ أنسِجَتها من أجل أن تؤمّن لهذه البويضة الغذاء الأمثل، والشيء الذي يلفت النّظَر أنّ هذه البويضة تحتاج إلى أكمل أنواع الغذاء، فإذا كان هذا الغذاء ليس متوافراً في الدمّ أُخِذ من أنسجة الأم، في أثناء تشكّل عظام الجنين، إذا كان الكلس في دم المرأة لا يكفي، وطعامها فقير من المواد الكِلسِيّة، لذلك إطعامُ المرأة الحامل الحليب والجبن، ومشتقات الألبان ضرورةٌ، وإلا تفقدُ أسنانها، فهذه البُوَيضة وهي في طوْر تشكّل الجهاز العظمي، تأخذ كلّ الكِلس من المرأة فإذا لم يكفِ أخذَت من عظامها ومن كلس أسنانها، لذا معظم الحوامل يُصَبْن بنَخر الأسنان في أثناء الحمل إذا كانت العناية بالغذاء ضعيفة، وهذا هو معنى حملتْهُ كُرهاً، حالة الحَمْل تعني جِسْماً مُسْتنفراً استِنفاراً كاملاً بِكُلّ أجهزته وأعضائه، وأنسجته لِتَخليق هذا الجنين التّخليق الأمثل فالإنسان أحيانًا يحتاج إلى شريط كهرباء لآلة يُعالجها، فهل يُعقل أن يقطع الشّريط الأساسي في البيت ؟ هكذا الجِسم، لا بدّ من تَشكيل هذا الجنين، فإذا كان بالدم المواد الأوليّة فيها، وإلا أخذ الجنين من أنسجة أمّه العظميّة وما سوى ذلك، هذا معنى قول الله تعالى:

(حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا (15))

(سورة الأحقاف)

لذلك يَعُدُّ الأطباء حالة الحمل حالة ضَعف شديد، فالمرأة الحامل تحتاج إلى عِناية فائقة لسلامة جسمها من خلال العناية بغذائها.

عدم استطاعة أي إنسان تأدية حق أمه كاملاً:

قال تعالى:

(وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا (15))

(سورة الأحقاف)

أحدهم سأل النبي عليه الصلاة والسلام، وقد حملَ أُمّهُ يطوف بها حول الكعبة، فقال: يا رسول الله هل أدّيتُ ما لها عليّ ؟ فقال: لا، ولا بزفرة واحدة، والزّفرة كلمة (آه) أثناء الطّلْق ! طبعاً ربُّنا عز وجل في هذا المقطع من كتاب الله كما ذكرت تفاسير كثيرة أنّ هذه القصّة لا تعني زيداً و لا عُبيدًا بالذات، بل هذان نموذجان بشريان متكرّران في هذه السورة، ولا تخصّ واحداً، بل هي عامّة.

من عرف الله شكره على وجوده:

بعد قليل تَرَوْن النّموذج الآخر، قال تعالى:

(حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ (15))

(سورة الأحقاف)

الأشُدّ تبدأ من سن الثلاثين، وتكتمل في سن الأربعين، قال تعالى:

(وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى (15))

(سورة الأحقاف)

أساس الإيمان شُكر، وإذا عرفت الله وشكَرْتَهُ حققت الهدف من وُجودك والدليل قوله تعالى:

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآَمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا(147))

(سورة النساء)

أكبر شيئين تفعلهما في الحياة أن تؤمن بالله، وأن تشكرهُ على نِعمة الإيجاد ونعمة الإمداد، ونعمة الهدى والإرّشاد.

اكتمال ملكات الإنسان بدءاً من الثلاثين و حتى الأربعين:

لذلك بدءاً من الثلاثين وحتى الأربعين تكْتَمِلُ ملكاتُ الإنسان، وإدراكه وانْفِعالاته، ومحاكمته، وهذه كلّها تكْتَمِل في تلك الفترة، فإذًا ما بين الثلاثين والأربعين أشُدُّ الإنسان، والعلماء قالوا: للإنسان خطّ

بياني صاعد، وعند عامٍ معيَّن من الأعوام يقف الصُّعود، ويبدأ السَّير المستقيم، ثمّ يبدأ الخطّ بالهبوط والانحدار، إذ قد يصل إلى أرذل العمر، فالإنسان خطّه البياني صاعد، ومستقيم وهابط، ويبدو أنّ الصُّعود ينتهي في الثلاثين، ويستمرّ مستقيماً إلى الأربعين، وبعد الأربعين يبدأ الهبوط التّدريجي، فالإنسان إن ركب طائرةً، والمسافة بعيدة، فمن قبرص تبدأ الطائرة تهبط، تدريجيًا إلى مطار دمشق ! هذا إذا كان السّفر طويلاً، فقبل ألف كيلو متر يبدأ الهبوط التدريجي، وكذلك الإنسان يكْتَمِلُ في الثلاثين ويستمرّ اكتِمالهُ حتى الأربعين، وبعد الأربعين يبدأ الهبوط التدريجي، ويشعر بوَهنٍ في قِواه، ويضعف بصره، ويشيب شعره، وأحياناً يشعر بميل إلى الراحة لم يكن يشعر به سابقًا، قال تعالى:

(حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً (15))

(سورة الأحقاف)

سِنُّ الأربعين هو النّذير للإنسان:

الإنسان ليس له عذر بعد الأربعين، لذلك القرطبي في تفسيره يقول: سِنُّ الأربعين هو النّذير، قال تعالى:

(أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمْ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ(37))

(سورة فاطر)

سِنُّ الأربعين هو النّذير، ما لك حجّة، من دخل في الأربعين دخل في أسواق الآخرة، قال تعالى:

(حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ (15))

(سورة الأحقاف)

أوْزِعني أيْ ألْهمني أن أشكر نعمتك، والنِّعَم لا تُعدُّ ولا تُحصى، والدليل هل تقول لإنسان: خُذ هذه الليرة وعُدّها ؟ فهذا كلام لا معنى له.

من أعظم النعم التي منحها الله تعالى للإنسان:

قال الله تعالى:

(وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ(18))

(سورة النحل)

1 ـ نعمة البصر:

هناك نعمة واحدة لو أمضَيت الحياة كلّها في تَعداد خيراتها لما أدْركت هذه الخيرات، نعمة البصر.

2 ـ نعمة العقل:

نعمة العقل الذي في الرأس، فأقرب الناس إليك يحملونك إلى المستشفى إن جننت !! فنِعمة العقل لا تعدلها نعمة.

3 ـ نعمة السمع و النطق:

وكذا نعمة السمع والبصر، ونِعمة النُّطق، ونعمة سلامة الأعضاء والأجهزة.

4 ـ نعمة معرفة الله و الاستقامة على أمره:

نعمة معرفة الله والاستقامة على أمره، هذه نِعَمٌ لا تُعدّ ولا تحصى.

5 ـ نعمة الصراط المستقيم و هي النعمة المطلقة:

ولكن النّعمة المطلقة التي ما بعدها نِعمة هي نعمة الصّراط المستقيم، قال تعالى:

(اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ(6)صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ(7))

(سورة الفاتحة)

أن تكون حركتك في الحياة وِفْق منهج الله، وإذا كنت كذلك فأنت في أعظم نعمة، ولو افْتَقَرْتَ إلى المال، ولو أتْعَبَتْك الحياة، وكانت تحفّ بك آلاف المشكلات، إذا كنت على منهج الله سائراً فأنت في النِّعمة العظمى المطلقة، قال تعالى:

(حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ (15))

(سورة الأحقاف)

6 ـ نعمة الولد الصالح:

من أعظم النِّعَم أن يُنْجِب الوالدان ولداً صالحاً، فالوالدان قد يسكنا أفخَر البيوت، لكنّ هذه النّعمة تنتهي عند الموت، وعندما يموت صاحب البيت يؤخذ النّعش إلى مقبرة الباب الصغير ! له فيها قبرٌ صغير، وبيته كانت مساحته أربعمئة متر، وتزيينات البيت بالملايين، فنعمة السّكن تنتهي بالموت، ونعمة المال تنتهي بالموت، ونعمة المكانة الاجتماعيّة تنتهي بالموت، لكنّ نعمة الطاعة لله عز وجل هذه تبدأ بعد الموت إلى أبد الآبدين، إذًا أعظم نعمة هي نعمة الهدى، فهذا الذي جاءهُ ولدٌ صالح فكان اسْتِمراراً له، كلّ أعمال ذريّته في صحيفته ولو مات الإنسان، فالذي خلّف ذريّةً صالحة لا يموت، يموت جسمه ويبقى عملهُ مستمرّاً، أعظمٌ شيءٍ أيها الأخوة، أن تنتهي حياة الإنسان وأن يستمرّ عمله الصالح من بعده، علم صالحٌ نشره، أو ولدٌ صالح ينفع الناس من بعده، مشروع خيري أسّسهُ واستمرّ من بعده.

أسوأ عمل يفعله الإنسان هو العمل الذي يستمرّ شرّه بعد موته:

بالمقابل أسوأ عمل يفعله الإنسان هو العمل الذي يستمرّ شرُّه بعد موته، أسّس ملهى من الدرجة الأولى فيه كلّ الموبقات ولم يلبث أن زوي عوده و مات، فكلّ هذا العمل في صحيفته إلى يوم القيامة، أفسد الفتيات، وفعل المنكرات، وسنّ سنة سيّئة، لذلك هناك عملان كبيران: العمل الصالح الذي يستمرّ بعد موت صاحبه، وهذا يكون في الدرجة الأولى عن طريق أولاد صالحين، فالذي خلّف الصالحين لم يمت وهذا يحتاج إلى جهد كبير.

من ربّى أولاده تربية صالحة فقد أكرمه الله بنعمة كبيرة:

الآن هناك عقبات كبيرة، ونحن في زمن الفساد، وإذا أكرم الله تعالى الإنسان بتَربيَة أولاده تربية صحيحة بحيث تعرّفوا إلى الله، واستقاموا على أمره، أقول لكم هذه الكلمة، وأقسم عليها بالله: الابن الصالح لو معك خمسة آلاف مليون، بل ولو ملكت الشام كلّها وأسواقها، ولك ولدٌ صالح يدعو الخلقَ من بعدك للإيمان بالله خير لك من كلّ هذه الدنيا وهذا هو معنى قول النبي عليه الصلاة والسلام فيما رواه البخاري قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((يَوْمَ خَيْبَرَ لَأُعْطِيَنّ الرَّايَةَ غَدًا رَجُلًا يُفْتَحُ عَلَى يَدَيْهِ يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيُحِبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، فَبَاتَ النَّاسُ لَيْلَتَهُمْ أَيُّهُمْ يُعْطَى ؟ فَغَدَوْا كُلُّهُمْ يَرْجُوهُ فَقَالَ أَيْنَ عَلِيٌّ ؟ فَقِيلَ: يَشْتَكِي عَيْنَيْهِ فَبَصَقَ فِي عَيْنَيْهِ وَدَعَا لَهُ فَبَرَأَ كَأَنْ لَمْ يَكُنْ بِهِ وَجَعٌ فَأَعْطَاهُ، فَقَالَ: أُقَاتِلُهُمْ حَتَّى يَكُونُوا مِثْلَنَا، فَقَالَ انْفُذْ عَلَى رِسْلِكَ حَتَّى

تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ ثُمّ ادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ، فَوَاللّهِ لَأَنْ يَهْدِيَ اللّهُ بِكَ رَجُلًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النّعَمِ))

(رواه البخاري عن سهل بن سعد)

لأن يهدي الله بك رجلاً خير لك من حمر النعم.

المؤمن الصالح لا ينسى الدُعاء لِوالِدَيه بعد موتهما:

قال تعالى:

(أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيّ وَعَلَى وَالِدَيّ (15))

(سورة الأحقاف)

أنت خلقتني من والدين، وجعلتني نسلاً لهما، وأنعمت عليهما بي، وأنعمت عليّ بهما، أنعمت عليّ إذْ جعلتني نسلاً صالحاً منهما، وأنعمت بي عليهما إذْ جعلتهما يُربّياني هذه التَّربيَة، لذلك المؤمن الصالح لا ينسى الدُعاء لِوالِدَيه في الصلاة خمس مرات، قال يا رسول الله هل بقي عليّ شيء مِن برّ والديّ بعد موتهما ؟ قال: نعم، أربعة أشياء، أن تُصلِّي عليهما صلاة الجنازة، وأن تدعُوَ لهما كل يوم خمس مرات، رب اغفر لي ولوالديّ، رب ارحمهما كما ربّياني صغيرًا وأن تصل صديقهما، وأن تنفذ عهدهما، وأن تصل الرّحِمَ التي لم يكن لها صلة إلا بهما، فهذا الذي بقي عليك مِن برّهما بعد موتهما، النِّعمة الأولى هي الشُكر، والثانية أن أعملَ صالحاً ترضاه.

الفرق بين الاستقامة و العمل الصالح:

الحقيقة أنّ الاستقامة عمل لكنّها عمل سلبي، فالذي لم يؤْذِ، ولم يغتب، ولم يأكل المال الحرام، وما نَمّ، وما اعتدى وما بهت، وما سفك، وما غشّ، وما دلّس، ولكن ماذا فعل ؟! إنه امتنع عن الرذائل، فالاستقامة: الكفُّ عن الحرام، وعن ظلم الناس، والكف عن الكذب عليهم، وعن غشّهم و إهانتهم هذه الاستقامة، ولكن ما العمل الصالح الذي فعلته من أجلي ؟ العمل الصالح عمل إيجابي، يقول الله عز وجل للإنسان يوم القيامة: ماذا فعلت من أجلي ؟ يقول هذا الإنسان: صليت، يقول: كل هذا لك، فالإنسان أحيانًا يكون صادقًا لا يكذب ومعظّم، فيقطف الثِمار كلّها بحياته، ويكون أميناً محترماً، ويكون مثلاً مستقيم اللِّسان، فكلّ طاعة يفعلها الإنسان يقطف ثمرها في الدنيا بالدرجة الأولى، وهذه كلها لنفسه، ولكنّ ماذا فعلتَ من أجلي ؟ هل أنفقت مالكَ ؟ هل أنفقت وقتك ؟ هل أنفقت خِبرتَكَ ؟ هذا هو العمل الصالح، قال تعالى:

(وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ (15))

العمل الصالح لا يُرضي الله إلا بحالتين:

1 ـ أن يكون موافقاً للشريعة:

إنّ العمل الصالح لا يُرضي الله إلا بحالتين معاً ؛ أن يكون هذا العمل موافقًا للشّريعة، وفق منهج الله.

2 ـ أن يكون خالصاً لوجه الله تعالى:

أن يكون هذا العمل خالصًا لِوَجه الله. فالإخلاص وموافقة السنّة شرطان ضروريان من شروط العمل الصالح، فالعمل لا يُقبل إلا إذا كان خالصاً وصواباً، فالخالص ما ابْتُغِيَ به وجه الله، وصواباً ما وافق السنّة، فالعمل الصالح ليس على مزاجنا، ولكن وفق الشريعة، وذكرت في الدرس الماضي مثالين فَهِمَهُما أخٌ كريم على غير ما أردتهما، فقلْتُ لو قرأت في الإعلانات أنّ حفلة ساهرة غِنائيّة يرصد ريعها للأيتام، فهذا العمل في نظر الناس صالح، أما عند الله فهو ليس بصالح، فالقصد أن يكون العمل مَرْضيًّا عنه، فلا يقبل العمل الصالح إلا إذا كان وفق منهج الله.

العمل الصالح مقيّد بكونه وفق منهج الله:

أقول مكرراً: العمل الصالح مقيّد بكونه وفق منهج الله، فإذا خطر لإنسان أن يعمل عملاً صالحاً مخالفًا للشّرع، ومبنيًّا على فساد، ومَبنيًّا على إيقاظ الغرائز، مبنيًّا على معصيَة، ثمّ يقول لك: هذا عمل صالح، فما أصاب، لأنّ العمل الصالح يجب أن يكون مقيّدًا بمَنهج الله تعالى، أيْ يجب أن تعملَ صالحاً وفق ما يريد الله، لا وفق مِزاج الناس.

الابن الصالح أكبر مصادر السعادة لأبيه:

قال تعالى:

(وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي (15))

(سورة الأحقاف)

هذا دعاء، وقد سبقه شُكْرٌ، ثم التمكين من العمل الصالح، ثم إصْلاح الذريّة، فكلاهما دعاء و ضراعة، فمن كان أباً يعرف تماماً معنى هذه الآية، حينما يرى ابنهُ وفق ما يريد، تقرّ عَينُهُ، حينما يرى زوجته

صالحة، تخاف الله عز وجل وترجو الله واليوم الآخر، حينما يرى أولاده واقفين معه في الصّلاة وحينما يراهم ورِعين، هذه نعمة لا يعرفها إلا من أكرمه الله بها، لذلك الجهود الجبارة التي يبذلها الأب من أجل تربيَة أولاده ينساها كلّها إذا رأى ابنهُ صالحاً،! ويصبح الابن أحدَ أكبر مصادر السعادة لأبيه، قال تعالى:

(وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي (15))

(سورة الأحقاف)

أصلح تتعدّى بذاتها، أما أصلِح لي في ذريّتي أي أصلِحهم وأُلطُف بهم وأحيانًا يأتي الصّلاح بقَسْوة، فهناك ردّ جميل وردّ غير جميل، ونحن نقول: اللهمّ رُدَّنا إليك ردًّا جميلاً، فهناك ردّ غير جميل.

التوبة أساس استجابة الدعاء:

قال تعالى:

(إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ (15))

(سورة الأحقاف)

فهذا الدعاء ثمنه التوبة، فالإنسان إذا تاب يشعر أنّه قدّم بين يدي دعائه، وإذا كان الإنسان مقيماً على معصيّة تجده لا يستطيع أن يدعُوَ الله تعالى أبداً، فمعصيَتُهُ حِجاب، أما إن تاب فتوبتُه تصبح قربة بين يدي دعائه، يا رب أنا أدعوك ورأسمالي توبتي، فالإنسان قبل أن يدعو عليه أن يتوب، إذا كان يدعو وكان متَلَبّساً بمَعصية أو مخالفة، فدعاؤُهُ لا يكون دعاءً حارًّا ولا مؤثِراً، قال تعالى:

(إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (15))

(سورة الأحقاف)

الناس نموذجان:

1 ـ نموذج التقى الإيمان فيه مع النّسَب:

هذا النموذج قال تعالى:

(أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ (16))

(سورة الأحقاف)

ومن كرم الله على الإنسان المؤمن أنّ الله سبحانه وتعالى يتقبّل عمله وهو في أعلى درجاته، لو أن الإنسان صنع عِدّة أشياءٍ متفاوتة في الإتقان، وأحد هذه الأشياء في درجةٍ عالِيَة من الإتقان، يُعْطَى الجائزة على هذا التّفوّق، قال تعالى:

(أولَئِكَ الّذِينَ نَتَقبّلُ عَنْهُمْ أحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجاوَزُ عَنْ سَيّئَاتِهِمْ فِي أصْحَابِ الْجَنّةِ وَعْدَ الصّدْقِ الّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ (16))

(سورة الأحقاف)

هذا النموذج الأول الذي التقى الإيمان فيه مع النّسَب، الابن مؤمن والأبوان مؤمنان فكان الإيمان مع النّسَب خير على خير.

2 ـ نموذج افترق الإيمان فيه عن النسب:

أما النموذج الثاني فافترق الإيمان عن النّسب، والذي قال لِوَالِدَيه: أفٍّ لكما، (أفّ) اسم فعلٍ مضارع يفيد التضجُّر، قال تعالى:

(وَالّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أفٍّ لَكُمَا أتَعِدَانِنِي أنْ أخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إنّ وَعْدَ اللّهِ حَقّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إلّا أسَاطِيرُ الْأوّلِينَ (17))

(سورة الأحقاف)

لقد أضاف إلى عقوق الوالدين الكفر بالآخرة، فهاتان النِّعمتان ؛ نِعمة الهدى والبرّ، وتِلْكُم الجريمتان ؛ الكُفْر والعُقوق، أوّلاً قال لِوَالديه أفٍّ لكما، فهذا أشدّ أنواع العقوق، وأن يتضجّر الابن من أبيه وأمِّه قائلاً: أتعدانني أن أخرج وقد خلت القرون من قبلي، فهذا كفر بالدار الآخرة، الوالدان مؤمنان، وهما على أحرّ من الجمر قلقاً على ابنهما.

ملة الكفر واحدة في كل مكان و زمان:

قال تعالى:

(وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إنّ وَعْدَ اللّهِ حَقّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إلّا أسَاطِيرُ الْأوّلِينَ (17))

(سورة الأحقاف)

وهذا ما يقوله الكفار في كلّ عصر، يقولون لك: أساطير الأولين كما هي مُغيّبات، كما هي وراء الطبيعة، وإنّ الدِّين يلخّص حالة ضعف الإنسان أمام قوى الطبيعة القاهرة، والدِّين أداة تفرقة، والدِّين مرحلة عاشها الإنسان وانتهى منها الآن، هذه كلّها كلمات الكافرين، ومِلّة الكفر واحدة، قال تعالى:

(أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آَمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (17))

(سورة الأحقاف)

أي هذه خرافات.

أشدُّ أنواع الخسارة أن يخسر الإنسان آخرته و نفسه:

قال تعالى:

(أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ (18))

(سورة الأحقاف)

أخسر شيء يتردى إليه الإنسان:

(قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا(103)الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا(104)أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآَيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا(105))

(سورة الكهف)

يعني أشدُّ أنواع الخسارة أن تخسر آخرتك، وأشد أنواع الخسارة أن تخسر نفسك، فرأسمالك الحقيقي نفسك وعند الموت كلّ شيءٍ تتركهُ، وتبقى نفسكَ إما في جنّة يدوم نعيمها، أو في نار لا ينفد عذابها، فما هي الخسارة العظمى ؟ أن تخسر الدار الآخرة وأن تخسر نفسك التي بين جنبيك، وهي رأسمالك الوحيد.

العذاب عاقبة من أعرض عن ذكر الله تعالى:

قال تعالى:

(أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ (18))

(سورة الأحقاف)

حقّ عليهم القول، هو قانون ربنا عز وجل، لما أعرض عن الله عز وجل تبعَ شَهوته وانغمس فيها، وإنّ اتِّباع الشّهوة لا بدّ أن يتبعه اعتِداءٌ على حقوق الآخرين، فالشّهوة من لوازمها العُدوان، فوقع في شرّ عمله فاستَحقّ العذاب.

من خرج عن منهج الله عز وجل أصبح تحت طائلة العقوبات الإلهيّة:

أحيانًا يقول لك: تحت طائلة العقوبة الفلانيّة، لما الإنسان خرج عن منهج الله حق عليه العذاب، فكلمة حقّ عليهم القول تعني أنّ فلانًا خالف القانون الفلاني فانطبقت عليه المادة الفلانيّة القاضيَة بإيقاع العقوبة فيه، هذا هو المعنى، فهو معنى مُقنَّن، فالإنسان إذا خرج عن منهج الله، والخروج هو الظُّلم، والظلم والعدوان له عقاب عند الله عز وجل، فحينما خرج عن منهج الله واتَّبَع شهوته، أصبح تحت طائلة العقوبات الإلهيّة، قال تعالى:

(أولَئِكَ الَّذِينَ حَقّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنّ وَالْإِنْسِ إِنّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ (18))

(سورة الأحقاف)

هذا شأن العصاة في العالم، وفي كلّ الأزمنة والأمكنة قال تعالى:

(إِنّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ (18))

(سورة الأحقاف)

من شروط العمل الصالح الإخلاص و مطابقة الشريعة و المنهج:

قال تعالى:

(وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (19))

(سورة الأحقاف)

لِكُلٍّ من النموذجين، من المؤمنين والكفار، من هؤلاء ومن هؤلاء، ولكل درجات مما عملوا، فأنت لك عند الله تعالى مرتبة بحَجم عملك الصالح، والعمل الصالح لا يُسمّى صالحاً إلا بشَرطين ؛ الإخلاص ومطابقته للشريعة والمنهج، إنّ مرتبتك بحَسب عملك الصالح، وعملك الصالح لا يُسَمّى صالحاً إلا بنِيّة خالصة، ومُوافقةٍ للشّرع، وحجمك بحجم عَملك، وعملك يُقيّم بإخلاصك، وتَحرّيك الحلال، قال تعالى:

(وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (19))

(سورة الأحقاف)

تأخذ حقّك كاملاً، قال تعالى:

(وَيَوْمَ يُعْرَضُ الّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النّار أَذْهَبْتُمْ طَيّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ (20))

(سورة الأحقاف)

العاقل من ادخر عطاء الله له للآخرة:

الإنسان له عند الله تعالى عطاءً، إما أن يستعجلهُ في الدنيا وينقضي مع الموت، وإما أن يدّخِرَهُ اللهُ له للآخرة، ويبقى فيه إلى أبد الآبدين:

((عَنْ عَائِشَةَ أَنَّهُمْ ذَبَحُوا شَاةً فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا بَقِيَ مِنْهَا ؟ قَالَتْ: مَا بَقِيَ مِنْهَا إِلَّا كَتِفُهَا، قَالَ: بَقِيَ كُلُّهَا غَيْرَ كَتِفِهَا))

(رواه الترمذي عن عائشة)

فالذي أنفقته هو الذي بقيَ، أما الذي استهلكتهُ هو الذي فنيَ، فالباقيات هي ما أنفقته، أما المستهلك فهو الذي تأكله وتتمتع به آنياً، إذًا كما قال تعالى:

(أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا (20))

(سورة الأحقاف)

سبب عذاب النار ردّ الحق والانغِماس في المعاصي:

الإنسان قد يستعجل أحيانًا، يريد أن يتمتّع متعاً زائدة على الحدّ المعقول في الطعام، والشراب، والنِّساء، والسّفَر، والبيوت، والقصور، والمركبات، والحفلات، والاختلاط، وهذا تنطبق عليه هذه الآية:

(وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ (20))

(سورة الأحقاف)

الاستكبار ردّ الحق، والفسق معروف، فعذاب النار سببه ردّ الحق والانغِماس في المعاصي، قال تعالى:

(وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ (20))

(سورة الأحقاف)

العِبرة بِخَواتِمِ الأعمال:

لذلك:

((اسْتَيْقَظَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَاتَ لَيْلَةٍ فَقَالَ: سُبْحَانَ اللَّهِ مَاذَا أُنْزِلَ اللَّيْلَةَ مِنَ الْفِتَنِ وَمَاذَا فُتِحَ مِنَ الْخَزَائِنِ ؟ أَيْقِظُوا صَوَاحِبَاتِ الْحُجَرِ فَرُبَّ كَاسِيَةٍ فِي الدُّنْيَا عَارِيَةٍ فِي الْآخِرَةِ))

(رواه البخاري عن أم سلمة)

الأمور بِخَواتيمها، والذي يضحك أخيراً هو الذي يضحك كثيراً، والذي يضحكُ أوّلاً هو الذي يبكي كثيراً والعِبرة بِخَواتِمِ الأعمال.

الناس نموذجان لا ثالث لهما:

هذه الصفحة أيها الأخوة من هذه السورة تُقدّم نموذجَين بَشَرِيَيْن، هذان النّموذجان لا يَعْنِيان أحداً بالذات، هذا أوجه التفاسير، إنّما هما نموذجان يُصوّران حالة شَخصَين، وكأنّهما يُوحيان أنّهما شَخصان مُحَدّدان، لكنّ الآيات توحي أنّ هذا النموذج مُتَكرّر، والإشارة إلى التحديد على أنّه نموذج مُتَكَرّر، وكل نموذج له مصير، فأوّل نموذج في قوله تعالى:

(أولَئِكَ الّذِينَ نَتَقَبّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنّةِ وَعْدَ الصّدْقِ الّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ (16))

(سورة الأحقاف)

النموذج الثاني في قوله تعالى:

(أولَئِكَ الّذِينَ حَقّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنّ وَالْإِنْسِ إِنّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ (18))

(سورة الأحقاف)

حجم الإنسان الديني تحدّده التضحية و طلب العلم و الأمر بالمعروف:

التعقيب الإجمالي في قوله تعالى:

(وَلِكُلّ دَرَجَاتٌ مِمّا عَمِلُوا وَلِيُوَفّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (19))

(سورة الأحقاف)

أكرر و أقول: حجمك عند الله تعالى بِحَجم عملك الصالح، الحجم الديني تحدِّده التّضحيَة والإنفاق، وطلب العلم، وعلمك واستقامتك، وعملك وذِكْرك، وإقبالك ودَعوتك وأمرَك بالمعروف.

من انغمس في الملذات تعجل نصيبه من الله:

آخر تعقيب يشمل النموذجين كليهما، أنّ هؤلاء الذين انغمسوا في الملذات واستمرؤوا المعاصي تعجّلوا نصيبهم من الله، لذلك فالنبي الكريم صلى الله عليه وسلّم حينما كان مضطجعاً على حصير، ودخل عليه عمر بن الخطاب، فصار يبكي، فقال له: ما يُبكيك ؟ فقال: رسول الله ينام على الحصير، وكِسرى ملك الفرس ينام على الحرير ! فقال عليه الصلاة والسلام عدة كلمات في ثلاث روايات: أولئك قومٌ عُجّلَت لهم طيباتهم في الحياة الدنيا، والرّواية الثانية: ألا ترضى يا عمر أن تكون الدنيا لهم والآخرة لنا،

والرّواية الثالثة: يا عمر إنّما هي نبوّة وليسَت مُلكاً ! يقول عليه الصلاة والسلام إذا أصبح أحدكم معافى في جسده آمنا في سربه عنده قوت يومه فكأنما ملك الدنيا بحذافيرها:

((كان النبي عليه الصلاة والسلام حينما يستيقظ يقول: الحمد لله الذي ردّ عليّ روحي....))

(متفق عليه عن أبي هريرة)

فهناك من ينام ولا يفيق، ثمّ ينهض من فراشه ويمشي على قدَمَيه، ويرى طريقه ويسمع ويتكلّم:

((.... وعافاني في بدني وأذِنَ لي بذِكره))

فالإنسان إذا استيقظ معافى، وعنده قوت يومه، وكان له طعام ليلةٍ واحدة، كان وآمنًا في سربه فلا هو من الملاحقين ولا هو مطلوب، فكأنّما ملك الدنيا بحذافيرها.

من ازداد علماً ازداد قرباً من الله عز وجل:

إذا كانت الصِّحَة، وتحقق الإيمان والاستقامة والأمْن وصلتَ إلى كلّ شيء، والباقي كلّه صُوَر خدّاعة مزيّفة، وكلّها تتساقط عند الموت، وتبقى حقيقة واحدة هي الإيمان، لذلك السُّعداء هم الذين ينطلقون إلى الله ولا يعبؤون بتَقاليد المجتمع، ولا لِمظاهره، بيتُ يسكنه ويأوي إليه كبيراً كان أو صغيراً، ملكًا كان أو أجرةً، مع مفتاح فهذا مأوى، والله تعالى آواك برَحمته، وألبسك ثياباً تسترُ عورتَك، ولك زوجة تعفُّك عن الحرام، ولك أولاد أبرار، ولك دخْلٌ يُغَطِّي نفقاتك أو لا يُغطِّي ومع المشقّة أحيانًا، على الدنيا السّلام، خُذْ من الدنيا ما شئتَ، وخذ بِقدرها همّاً، ومن أخذ من الدنيا فوق ما يكفيه أخذ من حتْفِهِ وهو لا يشعر، فالدنيا لها سقف، ولو كان معك ألف مليون، ما الذي ستأكلُهُ ؟ ليس أكثر من ملء بطنك، وكم ثمن البذلة التي تلبسها ؟ وعلى كم سرير تنام عليه ؟ فالدنيا لها سقف حتمي، أما الآخرة فلا سقفَ لها، وكلّما ازْددْتَ علماً ازددتَ قرباً، وكلّما ازددْت عملا صالحاً ازْددْت قرباً، فالآخرة لا سقفَ لها، أما الدنيا فمحدودة بسُقوف عديدة، وبالعكس قد تجد الإنسان لا يأكل هذه الأكلة لأنّ معه مرض السكّر، ففي الدنيا قد تحرم الكثير، والدنيا دائماً لا تصفو لإنسان، أوحى ربُّك للدنيا أنْ تشدّدي وتضيّقي وتكدّري وتمَرْمَري على أوليائي حتى يُحِبُّوا لِقائي، فالعِبرة أن تُحِبّ لقاء الله عز وجل، أما إن كانت الأمور على ما يرام فقد تكره اللِّقاء، وهذه هي الطامة الكبرى، لذا فالمنغِّصات أحيانًا لها فوائد تربوِيَّة كبيرة جدّاً، فالإنسان المؤمن يرجو لقاء الله ويشتاق إليه، والدنيا كيف ما سمَحَ الله له منها يرضى بها.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأحقاف 046 - الدرس (5-6): تفسيرالآيات 21- 27 ، المواعظ و العبر من قصة سيدنا هود عليه السلام

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 25-11-1994

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الخامس من سورة الأحقاف.

العبر من قوله تعالى وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ:

تذكير الله عز وجل النبي الكريم بهود عليه السلام و تكذيب قومه له:

مع الآية العشرين، وهي قوله تعالى:

(وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ(21))

(سورة الأحقاف)

الله سبحانه وتعالى يُوجّه الخطاب للنبي عليه الصلاة والسلام، ويقول له: واذكر أخا عادٍ، يعني هوداً، وهي أُخوّة نسَب، قال تعالى:

(وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ(50))

(سورة هود)

فكان هود عليه السلام أخًا لقومه نسبيًّا فيقول الله عز وجل للنبي عليه الصلاة والسلام: اُذْكر هوداً، واذكر تَكذيب قومِهِ له، واذكر صبرَهُ على قومه، واذكرْ شِدّة المحنة التي قاساها، لك به أُسْوَةٌ حسنة.

قصص القرآن الكريم عبر و دروس للإنسان:

أيها الأخوة قصص القرآن لا ينبغي أن تكون قصصاً بالمعنى المعروف للقصة إطلاقًا ! إنَّما هي عِبرٌ ودروس، فالله سبحانه وتعالى حينما يوردُ قِصّة في القرآن الكريم تُتْلى إلى يوم القيامة، ومعنى ذلك أنّ هذه القصّة ينبغي أن تكون عِبْرةً، ينبغي أن تُستنبط منها الحقائق والدُّروس، وينبغي أن تؤخذ منها القواعد، فالله سبحانه وتعالى يؤدِّب النبي عليه الصلاة والسلام أدَباً رفيعاً، فإذا ضاقتْ عليك الأمور، وضاقتْ نفسُكَ بِتَكذيب قوْمِكَ لك، إذا ضاقت نفسُكَ لِتآمُر الناس عليك، إذا أرادوا إخراجَكَ من بيتك، إذا

أرادوا أن يُحاربوك، إذا نكّلوا بأصحابك، إذا فعَلُوا الأفاعيل، فاذْكُرْ أخا عادٍ، فقد أرْسِل إلى قومه وتحمّل منهم ما تحمّل.

نحن كيف نستفيد من هذه الآية ؟ إذا أُصِبْتَ بمُصيبةٍ فاذْكُر مصيبة المسلمين برَسول الله صلى الله عليه وسلّم، النبي على عُلُوّ شأنِهِ مات ابنه إبراهيم، وقال: إنّ العَين لتَدْمع، وإنّ القلب ليَخشَع، ولا نقول ما يُسْخِط الربّ، وإنّا على فراقك يا إبراهيم لَمَحزونون.

امرأة شريفة طاهرةٌ عفيفة، تكلّم الناس بها الناس عنها كلاماً لا يليق بها، فهذه لها في السيّدة عائشة أُسْوَة حسنة، وحديث الإفك لا تخفى على مسلم.

صحابيّ جليل عانَى مِن شِدّة الفقر لك بهِ أُسْوةٌ حسنة، فإذا قرأت سيرَ الصحابة، وإذا قرأت قِصَص الأنبياء ينبغي أن تكون هذه القِصص عِبراً لك ودروساً.

إهلاك الله عز وجل قوم هود لإفسادهم في الأرض:

هناك معنى آخر وهو: يا محمّد اُذْكُر لِقومك أخا عادٍ، أيْ ذَكِّرْهم كيف كان قوم هود أشِدّاء وأقوياء ؟ وكذّبوا ولم ينصاعوا، وسَخِروا واستهزؤوا فأهلكَهُم الله عز وجل.

العاقل من اتعظ بغيره:

إذًا الآية تحْتَمِلُ معْنَيَيْن، أيْ اُذْكُر يا محمّد في نفْسِكَ أخا عادٍ كيف دعا قومه إلى ربّه، وتحمّل من قومه ما تحمّل، أيْ يا محمّد اذكر لِقَومك قِصّة أخي عادٍ سيّدنا هود، وكيف أنّ قومه لم يؤمنوا به، واستهزؤوا به، واستعجلوا العذاب، وغرهم أنهم كانوا أقوياء وأشِدّاء، ومع كلّ ذلك أهْلكهم الله عز وجل، إذًا نحن نستفيد من هذه الآية كَتَطْبيق عمَلي، إذا رأيْت في التاريخ إنسانًا طغى وبغى، ونَسِيَ المبْتَدَا والمُنْتهى، ثمّ قصَمَهُ الله عز وجل فهذه عِبْرةٌ ينبغي أن نأخذ بها، إذا رأيتَ إنسانًا أكل مالاً حراماً فدمّر الله ماله، هذه عِبْرةٌ ينبغي أن نأخذ بها، وإذا رأيتَ إنسانًا اعْتدى على أعراض الآخرين، وفضَحَهُ الله تعالى في بيته، فهذه عِبرة ينبغي أن نأخذ بها، والمؤمن شأنُهُ كما قال عليه الصلاة والسلام: أمرتُ أن يكون صمتي فِكراً، ونطقي ذِكراً، ونظري عِبْرةً ! فالمؤمن يتّعِظ بالآخرين.

الله عز وجل رحيم بعباده يُرْسِلُ أنبياءَهُ ورُسلَهُ إلى الأقوام ليبشروهم و ينذروهم:

قال تعالى:

(إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ (21))

(سورة الأحقاف)

الأحقاف كُثبان الرّمال المرتفعة، ويذكر المُفسِّرون أنّ الأحقاف هي نُجود من الرّمال المرتفعة في جنوب الجزيرة العربيّة، وهي على وجْه الغلبَة بلاد حضرَمَوت، فحَضْرَمَوت كانت بلاد أخي عادٍ، أيْ قَوْم هود، فالمعنى واذكر لِقَومك قصّة هؤلاء القوم، واذْكُر لِنَفسك قصّة هذا النبي، النبي حقيقة، فهي موعظة لِرَسول الله، وقوم سيّدنا هود موعظة لِبَقِيّة الأقوام، قال تعالى:

(وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ (21))

(سورة الأحقاف)

فالإنذارات مستَمِرّة متلاحقة، فمِن بين يَدَيْه أيْ مِن أمامه، ومِن خلفه، أيْ مِن ورائِهِ، فالنُّذُر كانت قبله وبعده، فليس هودٌ أوّل نذير، وليس آخر نذير، كان نذيراً وقد جاءَت من قبله النُّذر، وسوف تأتي من بعده النُّذر، وهذا يدلّ على رحمة الله جلّ جلاله بعِباده، فالإله الرحيم دائماً يُرْسِلُ أنبياءَهُ ورُسلَهُ إلى أقوامهم مبشِّرين ومنذرين.

العبادة أعلى علاقة بين المخلوق و خالقه:

فمضمون الدّعوة:

(وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ (21))

(سورة الأحقاف)

أنْذَرهم، وهم مُقيمون بالأحقاف، مضمون الإنذار: ألاّ تعبدوا إلا الله، قال تعالى:

(وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ (21))

(سورة الأحقاف)

فإذا ضَغطنا أيّة دَعْوَةٍ سماويّة بِكَلمات كانت: ألاّ تعبدوا إلا الله ، العِبادة غاية الخُضوع مع غاية الحبّ والاستِسلام، مع غاية الإخلاص، العبادة هي أعلى علاقة بين المخلوق وخالقه ! قال تعالى:

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ(56))

(سورة الذاريات)

قال تعالى:

(أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ (21))

(سورة الأحقاف)

الله عز وجل وحده من يستحق العبادة:

الإنسان لا بدّ له مِن أن يعبُد، فإما أن يعبد الله وإما أن يعبدَ غير الله، والإنسان فيه ضَعف، وهذا الإنسان الضّعيف كيف يَقوى ؟ بِعبادةِ جِهةٍ قويّة، وفيه نقص، كيف يكمِّله ؟ بِعِبادة جهة قوِيّة، فالمؤمن يعبد الله القويّ الغنيّ الرحمن الرحيم الرؤوف الحكيم العليم السميع البصير، والأشقِياء لِضَعفِهم وخوفهم، وقلقِهم وضياعهم يعبدون غير الله، يعبدون الأقوياء، والتّوجيه الإلهي عن طريق هذا النبي الكريم، قال تعالى:

(أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ (21))

(سورة الأحقاف)

هذا شيء دقيق جداً، و على الإنسان أن يحاسب نفسه، فهل يُطيع مخلوقًا، ويعصي خالقًا ؟ إذًا هو يعبدُهُ من دون الله ، هل يسمحُ لِنَفسِهِ أن تُرْتَكَبَ معْصِيَةٌ في بيتِه إرْضَاءً لِزَوجته، أو لبناته، أو لأولاده، أو لأصْدِقائه ؟ إذًا هو يعبدهم من دون الله، فالتوجيه الإلهي:

(أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ (21))

(سورة الأحقاف)

من الذي يستحقّ العبادة ؟ هو اللهُ جلّ جلاله، فالذي يستحق أن يُعْبَدُ هو الذي يُحْيي، والذي يُعبدُ هو الذي يُميت، والذي يُعبدُ هو الذي يرزق، والذي يُعْبَدُ هو الذي يُعطي ويمْنعُ، ويرفع ويخفض ويبسط ويقبض، ويُحيي ويُميت ؛ هذا الذي يستحقّ العبادة، هو الذي يعلم ما كان وما يكون وما سيَكون، يعلم السرّ وأخفى، يعلم الجهر، وكل ما خفي عليك أنت يعلمه الله، ويعلم ما أعْلَنْتَهُ، وما أسْرَرْتَهُ، فهذا هو الذي ينبغي أن يُعْبَد.

من عبد غير الله تعالى خسر دنياه و آخرته:

أما إذا عبدْت إنسانًا ضعيفًا لئيماً قاصِراً في إدراكه، وقاصِراً في سلطانه، فقد خَسِرتَ خسارةً مبينة، إذًا كما قال تعالى:

(أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ (21))

(سورة الأحقاف)

فالمؤمن الصادق دائماً يراقب نفسهُ، هل يُطيعُ مخلوقًا ويعصي خالقًا ؟ هل يمحضُ حُبّه لِغَير الله تعالى ؟ وهل يمْحض ولاءهُ لِغَير الله ؟ هل يُوجّه اهْتِمامه لغير الله ؟ قال تعالى:

(إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (21))

(سورة الأحقاف)

الخير و الأمانة في منهج الله و الكذب و الخيانة في غيره:

و بعد، فإنه يطالعنا الآن سؤال دقيق ؛ أيْ إذا عبَدَ الإنسان غير الله، لماذا يستحقّ هذا العذاب العظيم ؟ لو أنّ الله تجاوَزَ عنه ؛ أعْبُد من شئتَ.

((يَا عِبَادِي لَوْ أَنّ أَوّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي لَوْ أَنّ أَوّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي لَوْ أَنّ أَوّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمّا عِنْدِي إِلّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ، يَا عِبَادِي إِنّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ ثُمّ أُوَفِّيكُمْ إِيّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللّهَ وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنّ إِلّا نَفْسَهُ))

[رواه مسلم عن أبي ذرّ رضي الله عنه]

لا إيماننا بالله عز وجل ينفعُ الله عز وجل، ولا كفرنا به يضرهُ، فلماذا إن عبدنا غيره فلنا عذاب عظيم؟! هذا سؤال ! لعلّ الجواب أنّك إذا عبَدْت غيره خرجْت عن منهج العدالة، وأقمْت شؤونك على العُدوان، ولأنّ الله تعالى عادِل، ومنهجه هو الحقّ، وهو مصدر العدل، والرّحمة، والإنصاف، ومصدر الخير، والنور، والصِّدق، والوفاء، أما منهج غير الله يستحيل أن يكون فيه الصّدْق، بل الصِّدق كلّه في منهج الله، وإذا ابْتَدَعْتَ منهجاً آخر كان فيه الكذب والفجور، والأمانة كلها في منهج الله، وإن اتَّبَعتَ غير منهجه ففي الخيانة، والإحسان كله في منهج الله، وإن اتَّبَعت منهجاً آخر كانت الإساءة، وكذلك الاستقامة في منهج الله، وإن اتَّبعْتَ منهجاً آخر كان الانحِراف، فالخير كله في منهج الله، وفي غيره الشرّ.

الحق واحد لا يتعدد:

إذًا الله جلّ جلاله حينما تعبدُ غيرهُ لا بدّ من أن تطغى، ولا بدّ من أن تبْغي، ولا بدّ من أن تعتدي، ولا بدّ من أن تنحرف، ولا بدّ من أن تسيء، لأنّ الحق لا يتعدّد أما الباطل فيتعدّد، فالحق خطّ مستقيم، فبين نقطتين لا يمرّ إلا مستقيم واحدٌ، إذًا ينبغي أن نلحظ ما بين الآيتَين من صلة وشيجة:

(أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ (21))

(سورة الأحقاف)

هذه الآية الأولى، والثانية:

(إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (21))

(سورة الأحقاف)

لأنّكم إن عبدتم غير الله فلا بدّ أن تنحرفوا، ولا بدّ من أن تُسيؤوا، فمنهج غير الله عز وجل ضلال و شقاء.

الطّغيان والبغي مِن لوازم عبادة غير الله:

في الهند إذا مات الرّجل ينبغي أن تُحرق امرأته معه، أو ينبغي أن تُدْفنَ معه وهي حيّة، هذا عُدْوان، فأيٌّ منهجٍ آخر فيه عُدْوانٌ شديد، هناك أدِلّة واقِعيّة، أنظر هذا الذي لا يستجيب لأمر الله تعالى، أين يذهب ؟ كيف يتعامل مع الناس ؟ قال تعالى:

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى(9)عَبْدًا إِذَا صَلَّى(10))

(سورة العلق)

ثم أنظر إلى أحواله، وإلى علاقاته، إلى معاملاته، وإلى أخلاقه وسلوكه ففيه الكذب والفجور، وهو يخون وليس أمينًا، كما أنه قاسي القلب، لا يرحم، ومجحف لا ينصف، ومعتدٍ لا يستقيم، ومنحرف لا يسير على منهج الله عز وجل، لذلك مِن لوازم عبادة غير الله الطّغيان، والبغي، والعُدوان، والظّلم، وهذه الصّفات لها عقاب شديد، ومن ثم فالانْسِجام واضح بين الآيتين:

(أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ (21))

(سورة الأحقاف)

إنّكم إن عبدْتم غير الله، قال تعالى:

(إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (21))

(سورة الأحقاف)

الذي يعبد غير الله قد يعتدي على أعراض الآخرين، وهذا واقِع.

العذاب الأليم لمن اعتدى على أعراض الآخرين:

المؤمن مستقيم لا يعرف من النِّساء إلا امرأته، أما غير المؤمن يعتدي على أعراض الآخرين، وهذه الفتاة التي اعْتُدِيَ عليها، فأصبَحَتْ بعد هذا الاعتِداء ساقطة، وأصبْحَتْ تأكل بِثَدْيَيْها، فلما زوى جمالها أُلْقِيَتْ على قارعة الطريق، أليس هذا الذي اعتدَى عليها وساقها إلى تلك النِّهاية الوخيمة يستحقُّ يوم القيامة أن يذيقه الله جزاء عمله ؟ إن هذه الفتاة كان مِن المُمْكن أن تكون أُمًّا شريفة لها أولاد، ولها أصهار، ولها مكانة اجْتِماعيّة رفيعة، فأنت حينما اعْتَدَيتَ عليها حوّلتها إلى ساقطة، ولمّا سقطت أكَلَتْ بِثَدْيَيْها، فلمّا زوى جمالها أُلقِيَت كما تُلقى الفأرة الميّتة خارج المنزل، هذا هو العُدْوان، فيستحيل على الذي يخرج عن منهج الله تعالى إلا أن يستبد ويطغى ويعتدي، إما على أموال الناس، أو على

أعراضهم، أو على مُمْتلكاتهم، أو على حُقوقهم الأدَبيّة فيهضمها، لا بدّ من أن يتكبّر ويجْحَد، ولا بدّ من أن يكون قاسِيَ القلب، فهو مقطوع عن الله تعالى، فليس له العذاب العظيم لأنّه لم يعبد، ولكن لأنّه طغى وبغى، واعْتدَى وظلَم، وجحَد وأنْكَر.

فَحْوى دعوة الأنبياء جميعاً عبادة الله وحده و توحيده:

إذًا فَحْوى دعوة هذا النبي الكريم: ألاّ تعبدوا إلا الله، والحقيقة هذه فَحْوى دعوة الأنبياء جميعاً، قال تعالى:

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنّهُ لَا إِلَهَ إِلّا أَنَا فَاعْبُدُونِ(25))

(سورة الأنبياء)

وقال تعالى أيضاً:

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللّهِ وَلَوْ أَنّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرّسُولُ لَوَجَدُوا اللّهَ تَوّابًا رَحِيمًا(64))

(سورة النساء)

أن تعبد الله وحده، وأن تُوَحِّدهُ عقيدةً، وأن تعبدَهُ سلوكًا، هذا هو الدِّين، إذا أردت أن تبسِّط، وأن توجز، وأن تضغَط، فعليك أن تُوَحِّدهُ، وأن تعبُدَهُ، فما من نبيّ على الإطلاق إلا و قد جاء بهاتين الحقيقتَين، توحيد الله عز وجل وعبادته.

أمنية الكافر يوم القيامة أن يدفع دنياه بأكملها فداءً من العذاب العظيم الذي نوّه الله به:

قال تعالى:

(إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (21))

(سورة الأحقاف)

ما قوْلُكَ أيها الأخ الكريم إذا قال لك الله العظيم: عذاب يوم عظيم ؟! لو قال لك طفل: معي مبلغٌ كبير، كم تُقدِّر هذا المبلغ ؟ فلعله مائة ليرة، ولكن إذا قال لك إنسانٌ راشِد: معي مبلغ كبير، فلعله مئة ألف ليرة، بينما إذا قال لك تاجر كبير: معي مبلغ كبير، وإذا قال لك أغنى أغنياء الأرض: أنا معي مبلغ كبير، فالمبلغ إذًا بالملايين، كلمة كبير تتراوَح بحَسَب القائل، خالق الكون يقول لك: عذاب يوم عظيم، فما هو هذا العذاب ؟! هنا تجد مرجعيته، قال تعالى:

(يُبَصّرُونَهُمْ يَوَدّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ(11)وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ(12)وَفَصِيلَتِهِ الّتِي تُؤْوِيهِ(13))

(سورة المعارج)

لو أنّ للكافر الدنيا بأكملها ومثلها معها، لدفَعَها فداءً من العذاب العظيم الذي نوّه الله به.

إقبال الناس على عبادة غير الله على الرغم من الإنذارات المستمرة من الله تعالى:

قال تعالى:

(وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ (21))

(سورة الأحقاف)

فالإنذارات مستَمِرّة، وليس إنذار هذا النبي الكريم أوّل إنذار، وليس آخر إنذار، ونحن نعيش، ونرى مِن حولنا مواعظ وعِبَراً ودروساً، وهذه المواعظ وتلك العِبَر، وهذه الدروس ليْسَت أوّل الدروس وليْسَت آخرها، مادام هناك خالق رحيم فإنذاراته مستمرّة، وعلاجاته مستمرّة، وأدواؤه مستمرّة، لكن ردّ الفِعْل كان قبيحاً مستهجناً ؛ قال تعالى:

(قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (22))

(سورة الأحقاف)

تأفِكَنا أي تصرفَنا عن آلهتنا، وقد يسأل سائل، كيف نُصَدِّق شعباً كشَعب الهند إحصاء ما قبل عشرين سنة أربعمئة وخمسون مليونًا، والآن حوالي سبعمائة مليون، يعبدون بوذا !! كيف يُقْبِلُ الناس على هذه العِبادة ؟ هناك جواب دقيق جداً خلاصته أن هذه الأصنام، وهذه الأديان الوَضْعِيّة، ليس فيها تكاليف، فأتباعها في بحبوحة، اِفْعَل ما تشاء ولكنّ أقرّ بهذا الصّنَم أنّه إله، وانتهى الأمر، إقبال الناس على هذه الأديان بمَلايينِهم المُمَلْيَنَة، وبالأعداد الغفيرة، هذا لا يدلّ على أنّ هذا الدِّين حق، ولكن يدلّ على أنّ هذا الدّين لا تكليف فيه، امتناع شكلي، وإقرار صوري، ثم لك أن تفعل ما تشاء.

إقبال الناس على التّمَسُّك بالمذاهب الوَضْعِيّة لانعدام التكاليف فيها:

من قرأ تاريخ الأديان في العالم يرى العَجَب العُجاب ، فأكثر الأديان بُعْداً عن الحق أقربها إلى الإباحِيَّة والاشتراك في النِّساء وفي الأموال، فحينما تنعدم القيود والموانع والزّوّاج والأوامر والنّواهي يصبح الانتِماء سهلاً، فلذلك إن رأيْت الملايين من الناس تَدينُ بدِين أرضي وضعي فلا تعْجَب، لأنّ هذا الدِّين لا تكليف فيه، والدُّخول فيه واعتناقه سَهل جدّاً، وهناك مصالح دنيوية كثيرة تتحقّق من هذا الدِّين، لكنّ دين الله هو دين الحق، بمَعنى أنّ فيه الأمر وفيه النّهي، فالإنسان المؤمن يبحث عن منهج حقيقيّ فيه الأمر والنّهي، والحرام والحلال، وما لك و ما عليك، فالجاهِلِيُّون مثلاً لو قرأت عنهم لوجَدْتَ أنّ بضعة عشر رجلاً يتزوّجون امرأة واحدة، وهي تنتقي وتختار منهم، فحينما تلِدُ تقول: هذا الغلام لفُلان،

وانتهى الأمر !! فوضى في العلاقات الجِنْسِيّة، وإباحية مرذولة، وفوضى في كسب المال، بأيّ طريقة لك أن تكسب المال، وهذه هي الجاهليّة فإقبال الناس على التَّمَسُّك بالجاهليّة الأولى والثانية، أو على المذاهب الوَضْعِيّة أساسه أنّ هذه المذاهب وتلك الجاهليّة ليس فيها تكاليف، شريعة الغاب: البقاء للأقوى، والمسالك فوضى، فالأنبياء لمّا يأتون بالمنهج، فمن الذي يُعارضهم ؟ المُتْرفون، الغارقون في الشّهوات والمُنْحرفون و المتسلطون، قال تعالى حكاية عنهم:

(قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آَلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (22))

(سورة الأحقاف)

استهزاء الكفار بوعيد الله و تكذيبهم له:

طبعاً كذّبوا دعوته وسَخِروا منه ومنها، قال تعالى يحكي مقالتهم:

(قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آَلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (22))

(سورة الأحقاف)

(فَأْتِنَا) اسْتِهزاء بوَعيد الله عز وجل و تكذيباً، ألمْ يقل لهم أخوهم هود:

(إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (21) قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آَلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (22))

(سورة الأحقاف)

هذا هو الاستهزاء والتكذيب، فقال لهم بأدَب النبوّة:

(قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ (23))

(سورة الأحقاف)

هذا تركيب فيه قصْر، يعني العلم عند الله وحده، فهو الذي يأتي بالعذاب، أما متى يأتي به ؟ أو كيف يأتي به ؟ وبأيّ طريقة يأتي به ؟ ومن يُصيب به ؟ هذا ليس من شأنك، هذا مِن شأن الله تعالى.

(المؤمن كلما ارتقى إيمانه تمسك بمنهج الله عز وجل:)

بالمناسبة المؤمن كلّما نما إيمانه يتمسّك بعُبوديّته لله عز وجل، ويتخلّى عن مواقف لا تليق بذوي الإيمان، فلو سُئِلَ عن تقييم شخصٍ ؛ ماذا يقول ؟ يقول: تَقييم الأشخاص من شأن الله، وليس من شأن البشر، ولا من شأني، وحتّى لو مدَحَ شخصاً يقول: أحْسَبُهُ كذلك، ولا أُزكّي على الله أحداً، فالمؤمن كلّما ارتقى تمسّك بالمنهج، رسول الله عليه الصلاة والسلام دخل بيت أحد أصحابه وقد توُفِّي مِن فوره، فلما سمع امرأة تقول: هنيئًا لك يا أبا السائب فقد أكرَمَك الله قال: وما يدريك أنّ الله قد أكرمه ؟! فأنْ تقول: فلان من أهل الجنّة، هذا تألٍّ على الله تعالى، من قال لك ذلك ؟ ليس هناك على وجه اليقين أُناسٌ بُشِّروا

بالجنّة إلا العشرة المبشّرين، أما الباقون فنرجْو أن يكونوا من أهل الجنّة، وهذا هو مقام العبوديّة، مقام فيه تواضع، وبعيد عن التّألي على الله.

ملة الكفر واحدة في كل مكان و زمان:

قال تعالى حكاية عنهم:

(قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (22))

(سورة الأحقاف)

وهذا يُعادُ كلّ يوم و يتكرر عن الكثير من الناس، فأنت تقول لأحدهم: هذا الدّخْل حرام، وهذا الدّخْل رَبَوي مثلاً، فيقول لك: وما الذي يحدث ؟ هل يُدَمِّر الله لي مالي ؟ دعْهُ يُدَمِّرْهُ !! فإذا نبّهتَ إنسانًا إلى معْصِيَة كبيرة، إلى حرام، إلى علاقة رَبَوِيّة، إلى علاقة مع النِّساء مريبة، واختلاط مرذول يقول لك آخر: دعْهُ يفعل ما يشاء، إنها مقالة أهل الضلال، وهذا كلام الكافرين، ومِلّة الكفر واحدة، قال تعالى:

(فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (22))

(سورة الأحقاف)

خشية المؤمن بعقله و خوف الكافر بعينه:

سبحان الله ! فكلّ إنسانٍ يتحدّى ويتألّى، ويطلب العِقاب ويسْتعجله، وحينما يأتي العِقاب تجِدُه يتلوى كما تتلوى الأفعى من شِدّة العذاب وقسوة النار و حرها، ثم نتيجة العُنْجهيّة والكبرياء يلاقي الذل و الهوان عقاباً و جزاء وفاقاً، ثم يصيح ويستغيث ولا مغيث، ويستجير ولا مُجير، إنّ الإنسان بطبعه يخاف، فأما المؤمن يخاف بعَقلِهِ، أما الكافر فيخاف بعَيْنِهِ، عندما يضرس ويأتيه العذاب حينها يخاف، أما المؤمن فهو يخاف بعَقلِه، والذي يخاف بعقله نسمّيه يخْشى، وليس ما يعتريه خوف بل خشية، فالخوف بالعَين، أما الخَشْيَة فبالعَقل.

مهمة الأنبياء التبليغ:

بأدب النبوّة قال هود عليه السلام:

(قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ (23))

(سورة الأحقاف)

هذا ليس من شأني، متى يأتي العذاب ؟ وكيف يأتي ؟ ما نوع العذاب، وما شدة العذاب ؟ ومن يُصيب هذا العذاب ؟ فهذا ليس من شأني ! هذا مِن شأن وحده، إنما العلم عند الله، وإنما من شأني أن أبلِّغكم ما أرسلت به:

(وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ (23))

(سورة الأحقاف)

من ازداد معرفة بالله ازداد خشية منه:

الذي لا يخاف جاهل، وبالمناسبة ما أكثر ما ذكرت هذه الحادثة، فبعض الفلاّحين يأخذون أطفالهم الصِّغار جدّاً، ابن سنة مثلاً، إلى الحقل، أثناء الحصيد، وقد يمرّ ثعبان كبير وقد يبقى بجانِب طفلٍ صغير، فهذا الطِّفل الصغير يضعُ يده على الثعبان ويألفُهُ ويستأنس به ولا يعرف ما خطورة هذا الكائن، فلو كان كبيراً لصاحَ بأعلى صوته ! فعَدَم الخوف يدلّ على عدم الإدراك، والإنسان يخاف بِقَدْر عِلمِهِ، لذلك قال عليه الصلاة والسلام رأس الحكمة مخافة الله، وأشدُّكم لله خشيَةً أنا، هكذا قال النبي عليه الصلاة والسلام، وسيّدنا عمر رضي الله عنه كان يقول: أتمنّى أن أنقلب إلى الله لا إلي ولا عليّ، ليت أمّ عمر لم تلِد عمر، ليتها كانت عقيماً، هذا عِملاق الإسلام المبشّر بالجنّة، الذي جنّد الجند، وفتح البلاد، وجهّز الجيوش، وفتح الله على يديه أطراف الدنيا، وكان زاهداً متقشّفاً، يُضرب به المثل في الورَع، والزّهد والعدل، ومع ذلك قال: أتمنّى أن أنقلب إلى الله لا إلي ولا عليّ، ليت أمّ عمر لم تلِد عمر، ليتها كانت عقيماً، هذا كلام حقيقي وليس تمثيلاً لِشِدّة معرفته بالله كانت خشيتُهُ منه كبيرة و موجعة، وأنت تخشى الله بِقَدْر معرفتك به، كلّما ازددْت منه معرفةً ازْددْت به خشْيةً، قال تعالى:

(وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ (23))

(سورة الأحقاف)

التعريف بالإنسان الجاهل:

من هو الجاهل ؟ هذا الذي يرتكب الموبقات، ويعتدي على أموال الناس وعلى أعراضهم، ويظنّ أنّ هذا العمل فيه ذكاء وبطولة، ثم هو يتبجّح بين الناس بعُدْوانه على الآخرين، وعُدوانه على أعراضهم، هذا جاهل حقّاً، هذا الذي لا يرى العقاب الحتْمي، ولا يرى المصير الحَتمي لِكُلّ معْصيَة وانْحراف، فهو جاهل حقّاً، قال تعالى:

(قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ (23))

(سورة الأحقاف)

وكلّ إنسانٍ يدعو إلى الله عز وجل يُواجِه هذه الحالات، إنسان مستهزئ، يقول لك: اليوم يفرجها الله !! هذا كلام الناس المُتفلِّتين والمنحرفين الشادرين في الضلال و الغواية.

وصف حال قوم لوط عليه السلام:

تروي كُتب التفسير أنّ هؤلاء القوم، قوم هودٍ الذين سكنوا بالأحقاف أصابتهم مَوجة حرٍّ شديدة، جعلتْ بلادهم مُغْبرّة، حرّ لا يُطاق، وغبار شديد، وبعد هذا الحرّ الشديد، وهذا الغبار الذي لا يُطاق، رأوا السماء ملبّدة بالغيوم ! قال تعالى يصف حالهم:

(فَلَمّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا (24))

(سورة الأحقاف)

رأوا سحاباً في السماء، فقالوا: جاء المطر، قال تعالى:

(بل هو ما استعجلتم به)

هذا هو العذاب الذي أنذركم به نبيُّكم.

عقاب الله عز وجل لا يبقي على شيء:

قد تسمعون بالأخبار الإذاعية و تشاهدون في المحطات المرئية ما تفعله الأمطار، تدمِّر وتهلك القرى، والإعصار الذي أصاب أمريكا دمَّر كلّ شيء، وكانت الخسائر ثلاثين ملياراً، قال تعالى:

(فَلَمّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (24))

(سورة الأحقاف)

الرّياح لها سرعات مذهلة تتجاوز المئة و الخمسين كيلومتراً أو المئتين، فتدمِّر البيوت، و تتلف المحاصيل، وتزهق الأرواح، وتقتلع الأشجار، وقد يكون الدمار شاملاً، لا يبقى على شيء، وهذا يجري في ساعات محدودة.

الأعراض الجَويّة ليست شيئاً عارضاً بل هي عذاب من الله عز وجل:

قال تعالى:

(قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (24) تُدَمِّرُ كُلّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا (25))

(سورة الأحقاف)

انظر إلى الدِقّة في التعبير ؛ بأمر ربّها، معنى ذلك إن سَمِعت عن فيَضانٍ، أو إعصار، أو زلزال، أو رياح شديدة أهلكت الحرث والنّسل، عن وباء اجتاح العالم، إيّاك أن تفهم هذا أنّه شيءٌ عارض، بل قال تعالى:

(تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا (25))

(سورة الأحقاف)

هذه الرِّياح لها ربٌّ هو الذي أرسلها، وسمح لها أن تُدَمِّر، وهذه الصاعقة لها رب هو الذي أنزلها على القوم، وهذه الأرض لها ربّ هو الذي زلزلها، وهذا الماء الذي طغى وبغى، له ربّ هو الذي أرسله، فالإنسان حينما يرى الأعراض الجَوِيّة مِن مطرٍ إلى ثلج أو رياح شديدة، أو صقيع يدمِّر المحاصيل كلها، هذا الفهْم ينبغي أن يكون فهماً توْحيدِيًّا، في أحد المرات انخفضت الحرارة ببَعض المناطق الزّراعِيّة إلى اثنتي عشرة درجة تحت الصِّفر، فأتلفت ثمانين مليون ثمن البذور ! وأتت على محاصيل ثمنها مئات الملايين، وحتى ألف مليون أحيانًا تصاب بصَقيعٍ طارئ فلا يُبقي منها ولا يذر.

الدمار و الهلاك عاقبة قوم هود عليه السلام:

أدقّ ما في الآية:

(تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا (25))

(سورة الأحقاف)

فالمياه لها رب، والرياح لها رب، والجرثوم له ربّ، وكذا الزلازل والبراكين، وهذه الأوبئة والأمراض، هذه كلّها لها ربّ، قال تعالى:

(تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (25))

(سورة الأحقاف)

فأصحاب المساكن بادوا وماتوا عن آخرهم، قال تعالى:

(كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (25))

(سورة الأحقاف)

ما من مصيبة تقع في الأرض إلا ولها سبب معين:

أحيانًا يقولون لك: أصبح هناك انفِتاح، ولكن مع هذا الانفتاح معاصٍ، ومنكرات، وفِتَن، واختلاط، وشرب الخمور، ومناظر لا ترضي الله عز وجل، وبرامج ساقطة، ومحطّات فضائيّة، فإذا كان من

حولنا قد دُمّروا وفعلنا مثل فِعلهم فمِن المحتمل أن نُدَمَّر مثلهم ! وهذه قاعدة إلهية، ولن تجد لسنة الله تبديلاً، وشيءٌ مُتَوَقّع جدّاً أن يُصيب العُصاة ما أصاب مَن قبلهم، قال تعالى:

(فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (25))

(سورة الأحقاف)

وبعد، فإني أرجو الله سبحانه وتعالى وأطلب إلى الأخوة الكرام أنه إذا سمع أحدكم عن خبر من مشكلات العالم عليه ألاّ يعْزل هذه المشكلة عن التوحيد، هذا الشيء الذي حدث له ربٌّ أحدثه، وهذه المصيبة وقعت لسبب، وما من مصيبة تقع في الأرض إلا ولها سبب، قال تعالى:

(وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ(117))

(سورة هود)

من أعرض عن ذكر الله دمره الله و لو بعد حين:

الإنسان عليه أنْ يتّعظ، وعليه أن يستقيم على أمر الله، لِقَول الله تعالى:

(وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ(88))

(سورة الأنبياء)

القصّة مؤثِّرة، نبيٌّ كريم دعاهم إلى رب كريم، إلى منهج قويم، وإلى طاعة الواحد الأحد، كذّبوا واستهزؤوا، وأعرضوا واسْتعجَلوا العذاب، فجاءتهم سحابة ظنّوها مطراً لأوديتهم، فإذا في هذه السحابة عذاب أليم، تُدَمِّر كلّ شيءٍ بأمْر ربّها، قال تعالى:

(فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (25))

(سورة الأحقاف)

القوة و البأس لا ينجيان العبد من عذاب الله:

قال تعالى:

(وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ (26))

(سورة الأحقاف)

إن الله سبحانه و تعالى يمهل و لا يهمل، والله يعطي الصِّحة، ويعطي القوّة، ويعطي المال والثَّرْوَة، الإنسان لما يكون قويّاً، ومع القوّة جهل، فإذا رأيْت الله يُتابِعُ نِعَمَهُ عليك، وأنت تعصيهِ فاحْذَرْهُ، إذا وجد الإنسان القوّة والشّأن والمنعَة وهو على غير منهج الله فهذا اسْتِدراج، وليس إكراماً، قال تعالى:

(وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ (26))

(سورة الأحقاف)

أيْ مكّانهم ما لم نُمَكِّن لكم، فكانوا أكثر منكم قوّة، وأكثر جمْعاً، وأكثر غِنًى، ومع ذلك ما أغنى عنهم جمعهم ولا قوّتهم ولا بأسهم من الله شيئًا.

العقل من أعظم النعم التي منحها الله تعالى للإنسان:

قال تعالى:

(وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً (26))

(سورة الأحقاف)

الأفئدة إن جاءت مع السمع والبصر فهي العقل، فهناك عَقل الرأس، وهناك عقل القلب، فإذا جاء الفؤاد مع السمع والبصر، فالبصر والسمع نافذة، والعقل هو الذي يحكم، أعطيناهم سمْعاً لِيَستمعوا إلى الحق، وأبصاراً لِيَرَوا الآيات، وأفئدةً عقولاً كي تحْكُم بوُجود الله عز وجل وأسمائه الحسنى، قال تعالى:

(فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ(26))

(سورة الأحقاف)

من أراد الهدى فكل شيء يدله على الله:

أيها الأخوة، أراد الله جلّ جلاله من هذه الآيات أن يُعْلِمَنا أنّ الإنسان العاصي ينبغي ألاّ يغترّ بقُوّته، ولا برفْعة شأنه، ولا بغِناه، ففي لحظة واحدة تصبح القوّة ضعفًا، والغنى فقْراً، ويصبح الرجل خبراً بعد أن رجلاً، لذلك قال تعالى:

(وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً (26))

(سورة الأحقاف)

هذه الأجهزة حجّة علينا، أعْطيتك يا عبدي سمعاً من أجل أن تستمع إلى الحق فأعرضْت عن الحق، وأعطيتُكَ بصراً من أجل تنظر إلى الآيات فلم تنظر، وأعطيتُكَ عقْلاً من أجل أن تحكم بهذه الحقائق فلم تستخدمه، فالإنسان إذا أراد الهدى كلّ شيءٍ يدلّه على الله، أمّا إن أراد الدنيا وشهواتها تصبح الدنيا حِجاباً بينه وبين الحقيقة، لذلك قال عليه الصلاة والسلام: حبُّك الشيء يعمي ويصمّ، قال تعالى:

(فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ(26))

(سورة الأحقاف)

حاق بهم: أي أحاط بهم، فاسْتِهزاؤهم أحاط بهم وأوْصَلَهم إلى الهَلاك.

الهلاك عاقبة من سار على درب الأقوام السابقة:

ثمّ يقول الله عز وجل:

(وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَى وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (27))

(سورة الأحقاف)

هذه الآية مُطبّقة الآن، شرقُنا في هلاك، وغربنا في هلاك، وجنوبنا في هَلاك، تارةً حروب أهليّة، وتارةً صواعق، وتارةً براكين، وتارةً زلازل، وتارةً فيضانات، أي: أَهْلِكَ ما حولنا من القرى لأنّهم فسقوا وعَصَوا فإذا سِرنا على درْبهم، ومنهجهم فالهَلاك مُحَقّق، قال تعالى:

(وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (27))

(سورة الأحقاف)

فالآيات صرّفناها أي أظهرناها، فالآيات صارخة، ولكنّ الأعمى لا يرى، وإذا ذُكِر الله وحده اشْمأزّت قلوب الذين كفروا، أما إذا ذُكِرَ الذين من دونه إذا هم يستبشرون !! فأنت إن أشْركت يفرحون، أما إن وحّدتَ وأعطيت تفسيراً توحيديًّا، وفسّرتها على أنها فعلٌ يتعلّق بالله سبحانه، قال جل جلاله:

(وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَى وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (27))

(سورة الأحقاف)

الأحداث الكبرى ينبغي على الإنسان أن يربطها بكلام الله ويعطيها تفسيراً توحيدياً:

وإليك أيها الأخ الكريم هذه الواقعة: مركبة فضائيّة اسمها المُتَحَدّي ! تتحدّى مَن ؟! بعد سبعين ثانية من انطلاقها أصبحت كتلة من اللّهَب، هذا الخبَر ينبغي أن نقف عنده، قلعة من قلاع الكفر في العالم، كيف تهاوت كبيت العنكبوت ؟ هذه آية من آيات الله الكبرى، وكذلك مرض الإيدز، هو آية من آيات الله عز وجل، وهناك مرض أحدث منه، وهذا المرض يؤدِّي إلى أن يتآكل جلد الإنسان وعضلاته في أقلّ من أربع وعشرين ساعة !!! وأسبابه أيضاً انحراف جِنسي، وقد ظهر هذا المرض في بريطانيا، وهذه آية عن أعاصير في بلاد الفسق والفجور، ونوادي العُراة، فهبّ بها إعصار يُدَمِّرها عن آخرها، هذه آيات دالة على الله و على عظمته، فالذي أتمناه على الأخوة الكرام أنّ هذه الأحداث الكبرى ينبغي ألاّ نفهمها فهْماً ضيّقاً محدوداً، ولكن أن نربطها بكلام الله عز وجل، ونعطيها تفسيراً توحيدياً، قال تعالى:

(وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (27))

(سورة الأحقاف)

و لكن هيهات فهُم عميٌ صمّ، كما قال تعالى:

(فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آَلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (28))

(سورة الأحقاف)

من اتخذ جهة أرضية و اعتمد عليها فإنقاذًا للتّوحيد يُخَيّب الله له ظنه:

الشيء الثابت أنّ كلّ إنسان اتّخذ جهة ما ّإلهاً من دون الله، هذه الجهة لا بدّ من أن تخذلهُ، وهذا من قدر الله عز وجل، لماذا تخْذِلُهُ ؟ من أجل أن يتّعظ، وأن يتخلّى عن شِرْكِهِ، وهذه قاعدة أساسيّة، إذا اتَّخَذْتَ جهة من الجهات، واعْتَمَدْتَ عليها، واتّخذتها إلهاً فالنتيجة في قوله تعالى:

(فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آَلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (28))

(سورة الأحقاف)

ولو اتّكَلْت على جهة أرضيّة، واسْتَغْنيْت عن الله عز وجل بهذه الجهة، فلا بدّ من أن تُخَيِّب أملك، واحذر إنقاذاً لفكرة التّوحيد لديك.

عزل خالد بن الوليد من قِبل عمر بن الخطاب إنقاذاً لعقيدة التوحيد:

سيّدنا عمر عندما عزل سيّدنا خالد، وهو سيف من سيوف الله، والعزل صعبٌ تفسيره، فعمر بن الخطاب من المبشّرين بالجنّة، وسيّدنا خالد وصفه النبي بأنّه سيف من سيوف الله، ولقد قبِلَ العزل من قيادة الجيش، وجاء إلى عمر، فقال له: يا أمير المؤمنين، لِمَ عَزَلْتني ؟ فقال له عمر: والله إنّي لأُحِبُّك ، فقال له: لِمَ عزلتني مرّةً ثانية ؟ فقال له عمر: والله إنّي لأُحِبُّك ، فلما ألحّ عليه في الثالثة، قال له: ما عزلتك يا بن الوليد إلا مخافة أن يُفْتَتَنَ الناس بكَ لِكثرة ما أبليْتَ في سبيل الله، فعُمَر خاف على عقيدة التوحيد، خاف أن يظنّ الناس أنّ النّصر من عند خالد، وينسوا أنّه من عند الله فعزَلَه، واستمر النّصْر، فعمر ابن الخطاب رضي الله عنه أنقذ فكرة التوحيد لدى الناس، وكلّ إنسان يعتمد على جهة أرضيّة، ويثق بها، وينسى ربّه، فإنقاذًا للتّوحيد يُخَيّب الله له ظنّه، ويُحْبطُ عمله، وعند الضرورة هذه الجهة لا تنجدك، ولا تخلّصك، ولا تفكّ أسرك، قال تعالى:

(فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آَلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (28))

(سورة الأحقاف)

هدف القصة في القرآن الكريم:

الموعظة و العبرة:

أيها الأخوة، عودٌ إلى فقرات هذه القصّة، أوّلاً إنّ الإنسان إذا قرأ القصّة في القرآن ينبغي ألاّ يتوهّمها قِصّة، وإنّما هي حقائق، وقوانين، صيغَت على شكل قصّة، ففيها الدروس، وفيها العِبر، وفيها المواعظ، وفيها الحقائق، وفيها الأُسس.

من عبد الله جاءته الخيرات و من كفر و طغى جاءه العقاب:

الشيء الثاني أنّ الإنسان إذا عبد غير الله لا بدّ من أن يعتدي، ولا بدّ من أن ينحرف، ولا بدّ من أن يطغى، ويبغي لذلك يأتي العقاب، قال تعالى:

(أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (21))

(سورة الأحقاف)

بالمقابل:

(بَلْ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنْ الشَّاكِرِينَ(66))

(سورة الزمر)

فما هي العلاقة بين أن تكون عابداً، وبين أن تكون شاكراً ؟ العلاقة أنّك إذا عبَدْته جاءَتْك الخَيرات، إذاً عليك أن تشْكر، وإذا لم تعبدْهُ وفعلْتَ المنكران، فإذاً عليك أن تنتظر العقاب من الله عز وجل، إنها قوانين سماوية، وقد جاء رجل للنبي عليه الصلاة والسلام وقال: يا رسول الله عظني وأوجز، فتلا عليه هذه المقولة:

((قُلْ آمَنْتُ بِاللَّهِ ثُمَّ اسْتَقِمْ))

[رواه مسلم عن سفيانَ بن عبد الله رضي الله عنه]

قال: أريد أخف من ذلك، قال: إذّا فاستعدّ للبلاء.

ملخّص الموضوع إن عبدت الله عز وجل جاءتك الخيرات فلتشكر، وإن لم تعبدْهُ انحرفْت فاعْتَدَيت، فظَلَمْت فجاءك العقاب فاصبر.

على الإنسان أن يتقوّى بطاعة الله و يترفع عن عبادة غيره:

الشيء الثالث في الآية، أنّ الإنسان مهما كان مُمَكّناً في الأرض، مِن قوّة ومال وسلطان، فهذه كلها بثانية قد تصبح خبراً بعد أثر، لذا على الإنسان أن يتقوّى بطاعة الله، والعوام لهم كلمة تعجبني: التّقوى أقوى، فالاستقامة والترفّع عن أموال الناس وعدم إيذائهم، هذه هي القوّة حقّاً، لأنّ فيها رضا الله، وإذا رضي أمدّ وقوّى، والإنسان عليه أن يتّعظ، قال تعالى:

(وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَى وَصَرَّفْنَا الْآَيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (27))

(سورة الأحقاف)

وبعد، فالإنسان إذا اعتمد على غير الله عز وجل، فهذا الذي اعتمَدَ عليه يُخَيِّب ظنّه، وعندئذٍ يرى حقيقة نتيجة التوحيد، وما تعلّمت العبيد أفضل من التوحيد.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الأحقاف 046 - الدرس (6-6): تفسيرالآيات 28- 35، خصائص الجن - علامة تدبّر آيات القرآن الكريم الانْطِلاق في تبليغه
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1994-12-02

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس السادس والأخير من سورة الأحقاف.

العوالِمُ عالمان:عالمُ الغيب وعالم الشّهادة:

نبدأ من الآية التاسعة والعشرين، وهذه الآية أيها الأخوة مُتَعَلّقة بالجنّ، والجنّ كما نعلم مِن إخبار ربّنا جلّ جلاله، مخلوقات خلقت من النار، لِقَول الله عز وجل في معرض الحِوار بين إبليس وبين ربّه:

(قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ(76))

(سورة ص)

قبل أن نمضي في الحديث عن الجنّ، لا بدّ من مقدّمة أساسيّة.

العوالِمُ عالمان ؛ عالمُ الغَيب، وعالم الشّهادة، العالم المادي والمحسوس هو عالم الشّهادة، والعالم المُغَيَّبُ عنّا هو عالم الغيب، وهناك عالم يجمع بين الغيب والشّهادة، شيءٌ غابَ عنك، وبقِيَتْ آثارهُ، فذاته غائبة، أما آثاره فباقيَة.

عالم المحسوسات والمعقولات والإخباريات:

عالم المحسوسات:

عندنا عالم المحسوسات، وعالم الغيب، وعالم بينهما، فعالم المحسوسات هناك حواس أوْدَعَها الله تعالى فيك تتعرّف إليه عن طريقها، فالعين ترى بها الصُّوَر، والأذن تستمع بها إلى الأصوات، وحاسّة اللّمَس تتحسّس ملْمسَ الأشياء، وهذه هي الحواس التي تتعرّف بها إلى عالم المحسوسات، بالإضافة إلى بقية الحواس فبالذّوْق تكتشف طُعُوم الأشياء، وبالشّمّ تكتشف روائِحَها، صورتها وصوتها وملمسها ورائحتها ومذاقها، هذا عالم المحسوسات ؛ سبيل اليقين به الحواس الخمس، حواس بني البشر، وغير البشر مشتَركون إلى حدّ ما في هذا العالم، وفي هذه الأدَوات.

عالم المعقولات:

العالم الثاني عالم ما غابَتْ عين الشّيء وبقِيَت آثاره، فهذا العالم يختص العَقْلُ أو الفِكر بمَعرفته، شيءٌ غابَتْ عينه، وبقيَت آثاره، هناك دُخانٌ وراء جِدار فتقول: لا دُخان بلا نار، وأنت لم ترَ عَيْنَ النار، لكنّك رأيْت آثارها، ولم ترَ عيْنَ الكهرباء، ولكنّك رأيْت تألّق المصباح، وتكبير الصّوت، ودوران المِرْوحة، وتبريد الثّلاجة، فالتّبريد، والدّوَران، والصّوت، والضوء ؛ هذه آثار الكهرباء، إذّا العالم الثاني هو عالَم غابَتْ عينه، وبقيَت آثار، سبيل معرفته العقل أو باسم آخر هو الفِكر.

كلّ ما في الكون يدلّ على الله تعالى:

الله جلّ جلاله لا تُدْرِكه الأبصار، ولا يُسأل عنه متى كان ؟! لأنّه خالق الزّمان، ولا أينَ لأنّه خالق المكان، وكلّ ما خطر في بالك فالله خِلاف ذلك، قال تعالى:

(لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السّمِيعُ البَصِيرُ(11))

(سورة الشورى)

ولكنّ كلّ هذا الكون يدلّ عليه، وكلّ هذا الكون بمَجَرّاته ومُذنّباته وكازاراته وكَواكبه، وأفلاكه، وأرضِه، وسمائِهِ، وبجبال الأرض وأنهارها ومهادها وصحاريها، وسهولها وأغوارها، وجبالها وهضابها وأغوارها وبحارها وبُحَيْراتها، وبينابيعها، وبأسماكها وأطيارها، كلّ ما في الكون يدلّ على الله تعالى، وفي كلّ شي له آية تدلّ على أنّه الواحد.

إذّا العالم الثاني وسبيل معرفة الله عز وجل بواسطة العقل، قال تعالى:

(إِنّ فِي خَلْقِ السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللّيْلِ وَالنّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ(190)الّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكّرُونَ فِي خَلْقِ السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النّارِ(191))

(سورة آل عمران)

عالم الإخباريات:

بقيَ شيءٌ ثالث، فعالم المحسوسات تتم معرفته عن طريق الحواس الخمس وهي أدواتنا لمعرفة هذا العالم، والعالم العلوي غابَتْ عنّا ذات الله عز وجل، ولكنّ آثار قدرة الله عز وجل تحت ِسَمعنا وأبصارنا، إذّا حواسُّنا طريقنا إلى معرفة ما حولنا، أمّا عقلنا فهو سبيلنا إلى معرفة الله عز وجل، وعالم الغيب عالم غابَت فيه ذوات الأشياء وآثارها، وإذا غابَتْ ذوات الأشياء وآثارها ليس هناك من سبيل

لمعرفة عالم الغيب إلا الخبر الصادق، فما له من طريق، إذ العقل عاجز، والحواس عاجزة، فمثلاً الجنّ، بالعقل لا نستطيع أن نتعرّف عليهم، ولا بالحواس الخمس، ولا يمكننا أن نعرف عن الجنّ شيئًا إلا بالخبر الصادق، وهو ما أخبرنا الله به، فعالم الغيب سبيل معرفته الخبر الصادق.

عالم الغيب لا يتعرّف الإنسان إليه إلا عن طريق الخبر الصادق:

الملائكة من عالم الغيب، الجنّ من عالم الغيب، الماضي السحيق من عالم الغيب، والحياة بعد الموت من عالم الغيب، البرزخ من عالم الغيب، وكذا الصِّراط المستقيم، والحوض، والجنّة والنار، هذه كلها من عالم الغيب، ولا نتعرّف إليه إلا عن طريق الخبر الصادق، فإنّ الجنّ مخلوقات خُلقت من نار، والدليل قوله تعالى:

(قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ(76))

(سورة ص)

وإبليس ليس طاووس الملائكة كما يدّعي بعضهم، إبليس من الجنّ، لِقَول الله تعالى:

(فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ(73)إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنْ الْكَافِرِينَ(74))

(سورة ص)

من خصائص الجن:

خُلقت من نار:

إذاً إبليس من الجنّ، والجنّ مخلوقات خُلِقَت من نار.

عالمُ الجنّ يَرَون عالم الإنس وعالم الإنس لا يرَون عالم الجن:

عالمُ الجنّ يَرَون عالم الإنس، وعالم الإنس لا يرَون عالم الجنّ والدليل، قوله تعالى:

(إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ(27))

(سورة الأعراف)

عدم معرفة شيء عن الجن إلا من الأخبار الصادقة عن ربّ العالمين:

في موضوع الجنّ لا نملِك إلا الأخبار الصادقة عن ربّ العالمين، قال تعالى:

(إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ(27))

(سورة الأعراف)

عالم الجن له تجمعات:

عالم الجنّ له تجمّعات، كيف أنّ البشر أُمَم وشُعوب وقبائل وعشائر، كذلك عالم الجنّ في عالمه، تجمّعات وتجمّعات، والدليل قوله تعالى:

(إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ(27))

(سورة الأعراف)

الجنّ بإمكانه أن يعيش على الأرض:

عالم الجنّ بإمكانه أن يعيش على الأرض والدليل، قوله تعالى:

(وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ(36))

(سورة البقرة)

الحديث للجنّ والإنس معاً، فالجنّ يسكنون الأرض، وفُضلاً عن سُكنى الأرض فبإمكانهم أن يعيشوا خارج الأرض، والدليل قول الجنّ في القرآن الكريم:

(وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا(8)وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعْ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا(9))

(سورة الجن)

فعالم الجنّ بإمكانه أن يحْيا على وجه الأرض، وبإمكانه أنْ يَحيا خارج الأرض.

سرعة انتقال الجن بين السماء والأرض سرعة قِياسِيّة:

سرعة انتقال الجن بين السماء والأرض سرعة قِياسيّة، لذلك حينما خاطب الله الجنّ والإنس قال:

(يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ(33))

(سورة الرحمن)

قدرة الجن على اجتياز المسافات البعيدة:

وقال أيضاً:

(يَا مَعْشَرَ الْجِنّ وَالْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنفُسِنَا وَغَرّتْهُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ أَنّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ(130))

(سورة الأنعام)

لماذا بدأ بالجنّ ؟ لأنّه أقدَر من الإنس على اجتياز المسافات البعيدة، قال تعالى:

(قَالَ عِفْرِيتٌ مِنْ الْجِنّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ(39))

(سورة النمل)

هذه أيضًا خاصّة من خواص الجنّ.

الجنّ سُمِحَ لهم أن يُوَسْوِسُوا لِبَنِي آدم الغافلون المنقطعون عن الله تعالى:

الجنّ سُمِحَ لهم أن يُوَسْوِسُوا لِبَنِي آدم، لِحِكمة مطلقة أرادها الله عز وجل قال تعالى:

(قَالَ فَبِعِزّتِكَ لَأُغْوِيَنّهُمْ أَجْمَعِينَ(82)إِلّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلَصِينَ(83))

(سورة ص)

الجنّ يُوَسْوِسون ولكن ليس لهم سلطان على أيّ إنسان:

العِباد المُخْلصُون لا يستطيع الجنّ أن يلقوا إليهم أيّة وسوسة، أما الأناس الضالون، المنقَطِعون عن الله عز وجل والغافلون، فالجنّ ولاسيما شياطين الجنّ يُوَسْوِسون إليهم، ومن الحقائق القاطعة في موضوع الجنّ، أنّ الجنّ ليس لهم على بني البشر سلطان، يُوَسْوِسون ولكن ليس لهم سلطان على أيّ إنسان، إنسانٌ يقول لك: اِفْعَل واتّجه إلى هنا، وقِفْ، لا تُنْفِقْ، أو أنْفِقْ، هذا كلام الناس للناس، ولكن هذا الجِنِيّ لا يستطيع أبداً أن يفعل شيئاً من ذلك، وأن يقودك مثلاً إلى مكانٍ ما، والدليل قوله تعالى:

(وَقَالَ الشّيْطَانُ لَمّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنّ اللّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيّ إِنّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي مِنْ قَبْلُ إِنّ الظّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ(22))

(سورة إبراهيم)

الاستماع لكلام البشر و فهمه:

الجنّ يستمعون إلى كلام بني البشر، ويفهمونه، والدليل قوله تعالى:

(وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ (29))

(سورة الأحقاف)

فَمِن خصائص الجنّ أنّها تستطيع أن تستمع لِكَلام البشر، وأن تفهمه.

أقسام الجن:

والجنّ على أقسام ؛ منهم المؤمنون، ومنهم الكافرون، والدليل قوله تعالى:

(وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا(14))

(سورة الجن)

فالجنّ مهيؤون للهدى، فقد يضِلُّون، وقد يهتدون، يؤمنون أو يكفرون والشيء الثابت أنّ النبي صلى الله عليه وسلّم كما يقول بعض المفسّرين: بل لم يرَ الجنّ، ولم يرهم يسْتمعون إليه، ولكنّ وحْيَ السّماء أخبره أنّهم استمعوا إليه، هذه الحقائق عن الجنّ مِن خِلال الكتاب الكريم، لا نمْلك غير ذلك، وأيّة نصوص أخرى ليْسَت صحيحة، وليْسَتْ بشيء في هذا الموضوع، هذا القرآن الكريم هو كتابنا، وما صحّ مِن كلام رسول الله صلى الله عليه وسلّم هو مَصْدرٌ ثانٍ للعقائد، والتشريع في ديننا ولكن غير القرآن، وغير السنّة، لا نعبأ إطلاقاً بِكُلّ ما يُقال خلافهما.

عدم معرفة الجن للغيب:

هذا القرآن أخبرنا أنّ موضوع الجنّ بِمُجمَلِهِ موضوع إخباري، فليس الجنّ مِن عالم الشّهادة، ولكن هو مِن عالم الغَيب، وعالم الغَيب لا سبيل إلى معرفته إلا عن طريق الخبر الصادق، وفي القرآن الكريم الخبر الصادق، وما صحّ من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلّم هو الخبر الصادق، فإذا جَمَعْتُم هذه الحقائق مِن خلال هذه الآيات والأحاديث، بإمكانكم أن تضَعُوا إشارة رفض على آلاف القصص، آلاف مُؤلفة، فعَالم الجنّ لا يعلمون الغيب، والدليل أنّ سيّدنا سليمان لمّا توفّاه الله عز وجل وكان متّكئًا على عصاه، وقد كلّف الجنّ بأعمال شاقة قال تعالى:

(فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتْ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ(14))

(سورة سبأ)

عدم معرفة الإنسان لحقائق للجن إلا عن طريق القرآن الكريم و الأحاديث الصحيحة:

هذه حقائق من كتاب الله فالجنّ مخلوقات من نار، وهم أوّلاً مُكلّفون كالإنسان، وثانياً يسكنون الأرض، وبإمكانهم أن يسكنوا في كوكب آخر، أو في السماء، وانتقالهم سريع جّدّاً، ولهم تجمّعات، وسُمِحَ لهم أن يُوَسْوِسوا لنا، ولكن لا سُلطان لهم على بني البشر، هذه حقائق أساسيّة، وهم لا يعلمون الغيب، ومن الجنّ من هو مؤمن ومنهم من هو كافر، يسمعون صوت الإنسان ويفهمونه، وعندهم قابلِيّة الهدى والضّلال ؛ هذه بعض الحقائق التي وردَت في القرآن الكريم عن الجنّ. لذلك أيّة خرافة أو أيّة قصّة أو أيّة مقولة تتناقض مع هذه الآيات الكريمة، ومع تلك الأحاديث الصحيحة لك أن ترفضها، بل ينبغي أن ترفضها، لأنّ هذا الدِّين دينٌ قويم، فيه الحق المبين.

وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ: آية يستنبط منها:

من خصائص النبي الشريفة أنه بُعث للإنس و الجن معاً:

والآن إلى الآية الكريمة، قال تعالى:

(وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ (29))

(سورة الأحقاف)

الله عز وجل رحْمةً منه بعَالم الجنّ صَرَفَ نفراً من هؤلاء الجنّ إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم، واختلف العلماء في عدد هذا النّفر، بعضهم قال: من ثلاثة إلى عشرة، وبعضهم قال: عشرات الألوف، وهذا لا يَعْنينَا، لأنّه من الغيب، والله عز وجل لم يُحَدِّد عددهم قال تعالى:

(وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ (29))

(سورة الأحقاف)

يُسْتَنبطُ من هذا النص أنّ هذا القرآن للإنس وللجنّ، وأنّ النبي عليه الصلاة والسلام مِن خصائصه الشريفة أنّهُ بُعِثَ للإنس، والجنّ معاً، وأنّه بُعِث للجن، ودليله هذه الآية.

السّماع عند الله ليس أنْ تُلقي السّمْع ولكن أن تصغي و تتدبر:

هناك معنى آخر نستفيده، ونلمسُهُ من هذه الآية أنّك مثلاً إذا الْتَقيْتَ برَجُلٍ ذكرَ لك حديثاً شريفاً، أو آيةً قرآنيّة، وإذا ساقك الله إلى مسْجِدٍ فأسْمَعَك خطبةً، أو درس عِلمٍ، أو حديثًا فيه حقّ صريح فهذا ينبغي أن تراه من الله عز وجل، فرحمة الله تعالى ساقتْك إلى هذا المسجد ورحمة الله تعالى هي التي ساقتْك إلى هذه الخطبة، ورحمة الله هي التي ساقتْك إلى هذا الإنسان، وهذا ليس عَفْواً، ولا مُصادفة، ولا خطأً، إنّما هو مَقْصودٌ من الله عز وجل، قال تعالى:

(وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا (29))

(سورة الأحقاف)

قال تعالى:

(وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ(204))

(سورة الأعراف)

الإنصات أن تسكت، والإنصات عمل سلبي، أنْصِت أي اسْكُت، طيّب والسّماع ؟! قد يبْدو لِبَعض الناس أنّ الإنصات كالسّماع، الله عز وجل قال:

(وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ(21))

(سورة الأنفال)

السّماع عند الله ليس أنْ تُلقي السّمْع، ولكن السماع عند الله تعالى أن تُصغي وأن تتدبّر، وأن تتأمّل، وأن تُفكِّر، وأن تتحرّك.

سماع الإنسان الحقيقي أن يفهم الكلام و يعيه و يتبنى مضمونه:

كنتُ أضربُ مثلاً طرقْتُهُ على مسامِعِكم كثيراً أنّه إذا قال إنسان لآخر: اِنْتَبِه على كَتفِكَ عقرب، فما معنى سماع هذه الكلمة ؟ هل تعني أنْ تبقى هادئًا ومرْتاحاً ومُبْتَسِماً ؟ وأن تقول للذي نبّهك وأنت مرتاح النّفس، وبِهُدوء، أنا شاكر لك لِتَنبيهك وملاحظتك القيّمة واللّطيفة، ولا يسَعُني إلا أن أعبّر عن شُكري وامْتِناني، هل هذا الكلام يدلّ على سماعك لِما قال ؟! والله إذاً ما فَقِهْت أنت من كلامه شيئاً، لو فقِهْتَ لَقَفَزْتَ قفزةً، وصرخْتَ صوتًا، هذا إن فقِهْتَ معنى كلمة عقرب، فالسّماع الحقيقي ليس أن تصل هذه المَوجات إلى طَبْلة الأذن، ولكنّ السماع الحقيقي أن تفهم هذا الكلام، وأن تَعِيَه و تتدبّره، وأن تبحث فيه، وتقلّب وُجوهه، أن تتبنّى مضمون هذا الكلام، أن تنطلق إلى تطبيق فحواه، فإذا قال الطبيب للمريض دَع المِلح كُلِيّا، وأنّ المِلح يرفع الضّغط، وارتفاع الضّغط قد يُسبّب انْفِجاراً ببَعض شرايين الدِّماغ،

ومعنى الانفِجار الشّلَل، فإذا فَهِمْتَ كلام الطبيب فهماً دقيقاً، وبيّن لك أنّك على خطر، فهل يُمكن أن تأكل المِلح بعد هذا التوجيه والتنبيه ؟! مستحيل، ما معنى السّماع ؟ السّماع هو التّطبيق، قال تعالى:

(وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ(21))

(سورة الأنفال)

فالذي قُلتَ له: إحْذَر على كتِفِكَ عَقْربٌ، وبقِيَ هادئًا مرتاحاً مبْتَسِماً وشكَرَكَ شكراً أدَبِيًّا، ورقّق العبارات وأثنى على ملاحظاتك اللطيفة، وقال: أنا لا يسعني إلا أن أعبّر عن شُكري وامتِناني لهذا الكلام الطيّب، فهذا والله ما سَمِع ما قلتَ له إطلاقًا، لأنّه لو سَمِع لكان في شُغْلٍ عن شُكْرك، ولقفزَ مِن تَوّه، وصرخ ونزع العقرب عن كتِفِهِ، هذا إن عرف معنى كلمة عقرب.

على الإنسان أن يتأمل فيما قرأ من القرآن الكريم:

لذلك قال تعالى:

(وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ(204))

(سورة الأعراف)

ماذا نفْهم من هذه الآية ؟ نفهم من هذه الآية أنّه ليس لك أن تقول مع القرآن الكريم شيئًا أبداً، إما أن تستمع إليه وإما أن تغلقَ المذياع إن كنتَ تسمع بواسطته، إذا كنتَ تقرأ القرآن في الصّلاة ينبغي أن تستَمِع، ومعنى تستَمِع أن تتأمّل فيما تقرأ، وإذا قرئ القرآن في مناسبة ينبغي أن تستمع أي أن تتأمّل فيما تقرأ، قال تعالى:

(أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا(24))

(سورة محمد)

التوبة النصوح علامة الإصغاء إلى الحق:

الله عز وجل أمرنا أن ننظر في الكون، وأن نُفَكِّر، وأمرنا كذلك أن ننظر في أفعاله، وأمرنا في تلاوة قرآنه أن نتدبّر، وهناك آية أخرى تُؤكِّد هذا المعنى، قال تعالى:

(إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ(4))

(سورة التحريم)

علامة الإصْغاء إلى الحق التوبة النصوح:

(إنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ(4))

(سورة التحريم)

علامة تدبّر آيات القرآن الكريم الانْطِلاق في تبليغه:

إذًا قال تعالى:

(وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ (29))

(سورة الأحقاف)

معنى ذلك أنّهم أنْصَتُوا، واسْتَمَعوا، وفهموا، وتدبَّروا، و امتلؤوا إعْجاباً وعلامة إعْجابهم أنّهم انْطلقُوا إلى قومهم مسرعين ! فهل نفْهم من هذا المعنى معنى يتعلّق بنا نحن ؟ أنت إذا فَهِمْتَ آية في درسٍ ما فهْماً عميقاً هزّ كيانَكَ، فهل يعْقل أن تبقى ساكتًا ؟ مستحيل ! إن كنت قد فَهِمْتَ هذه الآية فهماً عميقاً هزّ كيانك، ورأيْتَ في الآية طريقًا لِسَعادتك، رأيتَ في الآية حلاً لِمُشكلات الإنسان، ورأيْت في الآية سبباً لِخُلودك في الآخرة، إذا فَهِمْتَ القرآن هكذا والله الذي لا إله إلا هو لا تستطيع أن تسْكتْ، فأنت إن الْتَقَيْتَ بأهل بيتِكَ تُخبرهم عن معنى هذه الآية، وكذا إن الْتَقَيْت بأولادك، وزملائك، وجيرانك، وبِمَن حوْلَكَ، وبِمن فوقك، وبِمَن دونك، فعلامة التدبّر الانْطِلاق في التَّبليغ، النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً وَحَدِّثُوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا حَرَجَ وَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ))

(رواه البخاري عن عبد الله بن عمرو)

الوعي و الإدراك و الفهم من علامات تدبر القرآن الكريم:

أنت إذا مَلِئْتَ إعجاباً بالآية تُبَلِّغُها للناس، أما إن لم تنتَبِه إليها، ولم تتأمل فيها، ولم تعْقِلها، ولم تتدبَّر معانيها، فلن تتحدث بشيء، بل تبقى ساكتًا، فلو حضرْتَ الدرس الأسبوعي وقيل لك: ما هو ملخَّص هذا الدرس ؟ وكنت في غيبوبة عن الدرس فلن تستطيع أن تتفوّه ولو بِكَلمة، لذا من علامة الوَعْي، والإدراك، والفهْم، وتدبّر أنّ النّفس البشريّة تمتلئ إعْظاماً لِهذا الكتاب الكريم، وعندئذ تنطلق إلى نقله إلى الآخرين، أَيَكون الجنّ أعْقَل مِن بني البشر ؟! قال تعالى:

(فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ (29) قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ (30))

(سورة الأحقاف)

وِحْدة الأديان السّماويّة حقيقة مسلم بها، والحقّ كذلك واحِد، وإن رأيْتَ هناك تناقضاً، فَكِتابٌ بقي كما أنزله الله عز وجل، وحفظه الله عز وجل، وكتاب آخر لِحِكمةٍ أرادها الله لم يحْفظه فقد حرّف، وبُدّل، ونُقِلَ، وحُذِف منه، فمعنى أن الذي حفظه الله أبداً من أجل أن نعمل به، ونهتدي بهديه وحده و ندع ما سواه.

القرآن الكريم يهدي إلى الحق اعْتِقاداً وإخباراً:

قال تعالى:

(قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ (30))

(سورة الأحقاف)

ماذا نفْهم من هذه الآية ؟! يهدي إلى الحق اعْتِقاداً، وإخباراً، نعتقِدُ أنّه لا إله إلا الله ؛ هذه عقيدة، ونعتقِدُ أنّ الله على كلّ شيء قدير ؛ هذه عقيدة، ونعتقد بأنّ الله بكلّ شيءٍ عليم، ونعتقد أنّ الله عليم، وقديم، وحيّ قيُّوم، كلّ هذه عقيدة، أخبرنا عن قوم عادٍ وثمود، وعن قوم فرعون، وعن آدم عليه السّلام، وعن إبليس، هذه أخبار، وكلها صواب وحق تعني أنّ هناك معتقدات وهناك أخبار، وقوله تعالى: وإلى طريق مستقيم تعني الأمْر، لذلك قال بعض العلماء كلمة رائعة جدّاً: القرآن خبرٌ وأمْرٌ، أيْ الخبر صادق والأمر عَدل، هذا معنى قول الله عز وجل:

(وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ(115))

(سورة الأنعام)

كلام الله عز وجل إخبار عنه تعالى أو أمر و نهي:

كلام الله عز وجل لا يزيد عن كونه إخباراً عنه تعالى، أو أمراً ونهْياً فالإخبار صادق، والأمر والنّهي عدْلٌ:

(وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ(115))

(سورة الأنعام)

قال الله لك: إنّ الله واحدٌ لا شريك له، صدَقَ، وإنّه على كلّ شيءٍ قدير ؛ صدَقَ، وبكلّ شيءٍ عليم صدَقَ، وقال لك:

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ(30))

(سورة النور)

هذا هو العدل، لك أن تنظر إلى ما أحلّ الله لك، أما إذا نظرْت إلى امرأة لا تَحِلّ لك فهذا عُدْوان، فكلّ أمرِهِ ونهْيِهِ عدْلٌ، وكلّ إخبارِهِ صِدْقٌ:

(وَتَمّتْ كَلِمَةُ رَبّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السّمِيعُ الْعَلِيمُ(115))

(سورة الأنعام)

الإيمان شرط أساسي من شروط إجابة الدعوة:

قال تعالى:

(قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ (30) يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللّهِ (31))

(سورة الأحقاف)

من هو داعيُ الله عز وجل ؟ محمّد صلوات الله عليه، قال تعالى:

(يَا أَيّهَا النّبِيّ إِنّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشّرًا وَنَذِيرًا(45)وَدَاعِيًا إِلَى اللّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا(46))

(سورة الأحزاب)

قال تعالى:

(يَا أَيّهَا الّذِينَ آَمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلّهِ وَلِلرّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنّ اللّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ(24))

(سورة الأنفال)

دَعوة إلى الحياة، وآمنوا به وأجيبوا دعوته، ومعنى آمنوا به بعد أن قال: أجيبوا دعوته ؛ أيْ: إنّكم لن تستطيعوا أن تجيبوا دعوته ما لم تؤمنوا به.

حقوق الله مبْنيّة على المسامحة وحقوق العباد مَبْنِيّة على المُشاححة:

قال تعالى:

(وَآَمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ (31))

(سورة الأحقاف)

من هذه للتّبعيض أي إذا آمنتُم بالله، واسْتَجَبتُم له، يغفر لكم بعض ذنوبكم التي هي بينه وبينكم ولكنّ الذنوب التي بينكم وبين العباد ؛ هذه لا تُغْفر إلا بالأداء أو المسامحة لأنّ حقوق الله مبْنيّة على المسامحة، وحقوق العباد مَبْنِيّة على المُشاححة هذا معنى يغفر لكم من ذنوبكم، قال تعالى:

(وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (31))

(سورة الأحقاف)

طبعاً كما قال تعالى:

(فَمَنْ زُحْزِحَ عَنْ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ(185))

(سورة آل عمران)

الإنسان مصيره بيد الله عز وجل:

الحالة الثانية، قال تعالى:

(وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (32))

(سورة الأحقاف)

إذا أحد الناس رفضَ الدِّين، ورفضَ أن يؤمن بالله تعالى، وقال: الكون طبيعة، والإنسان كائنٌ مُعَقَّد ومن خِلال التَّطوّرات أصبح إنسانًا، والدنيا هي كلّ شيء، وبعد الموت لا شيء، فمِمَّا يتْبعُ هذا الرّفض رفض الأمر والنَّهي، ورفض نِظام الله عز وجل وشريعته، وهذا الذي رفض الدِّين، ورفض أن يأتَمِر بما أمر وينتهي عما نُهي فما مصيره ؟ هو في قبْضة الله، قال تعالى:

(وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (32))

(سورة الأحقاف)

من لم يستجب لله و لم يؤمن به لا يستطيع أن يتفلّت من عِقابه:

بأيّ لحظة ! نقطة من الدّم لا تزيد في حجمها عن رأس دبوس، إذا تجمّدَت في مكان في الدِّماغ، ففي مكان تكون شللاً، وفي مكان تكون عمى، وفي آخر تكون خللاً، وفي غيره تكون جنونًا، الإنسان ضعيف، وخثرة من الدَّم يكفي أن تتجمّد في أيّ مكان في الجِسم، فيكون لها مضاعفات خطيرة، أحيانًا موتٌ مفاجئ، هذا هو الإنسان ! الإنسان تحت ألطاف الرّحمن:

((بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ سَبْعًا هَلْ تَنْتَظِرُونَ إِلَّا فَقْرًا مُنْسِيًا أَوْ غِنًى مُطْغِيًا أَوْ مَرَضًا مُفْسِدًا أَوْ هَرَمًا مُفَنِّدًا أَوْ مَوْتًا مُجْهِزًا أَوِ الدَّجَّالَ فَشَرُّ غَائِبٍ يُنْتَظَرُ أَوِ السَّاعَةَ فَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ))

(رواه الترمذي عن أبي هريرة)

إذا الإنسان لم يجب داعي الله، ولم يسْتَجب لله، ولم يؤمن بالله أو آمنَ به إيمانًا شَكْليًّا أجْوف، ولم يأتَمِر، ولم ينته، ولم يلتزم، ولم يُعطِ، ولا يمْنَع، ولم يُطبِّق ما أمر الله به، فما الذي يحْصل ؟! قال عليه الصلاة والسلام:

((بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ سَبْعًا هَلْ تَنْتَظِرُونَ إِلَّا فَقْرًا مُنْسِيًا أَوْ غِنًى مُطْغِيًا أَوْ مَرَضًا مُفْسِدًا أَوْ هَرَمًا مُفَنِّدًا أَوْ مَوْتًا مُجْهِزًا أَوِ الدَّجَّالَ فَشَرُّ غَائِبٍ يُنْتَظَرُ أَوِ السَّاعَةَ فَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ))

(رواه الترمذي عن أبي هريرة)

الإنسان في قبضة الرحمن، لكنّ الحَبل مُرخى، إنسان مربوط بحَبل متين، يتحرّك وينسى أنّه مربوط بهذا الحبل، يظنّ أنّه حرّ، ولكن في أيّة لحظة إذا شُدّ الحبل أصبح في قبضة الرحمن عز وجل.

معنى الإعجاز في الأرض أنه:

لا يستطيع أن يتفلّت من عِقاب الله:

قال تعالى:

(وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (32))

(سورة الأحقاف)

معنى الإعجاز في الأرض أنّه لا يستطيع أن يتفلّت من عِقاب الله.

لا يستطيع أن يفعل شيئًا ما يرده الله:

ومعنى الإعجاز في الأرض أنّه لا يستطيع أن يفعل شيئًا ما يرده الله ؛ فهما معنيان، كلّما قرأتم في كتاب الله هذه الآية، أو مثيلاتها فليس بمُعجز في الأرض أيْ لا يستطيع الإنسان مهما كَبُر، ومهما علا شأنُه، ومهما قوي أن يفعل شيئاً لم يرده الله، كما أنّه لا يستطيع أن يتفلّت من عذاب الله، أو عقابه، بل هو في قبضة الله دائماً، قال تعالى:

(يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (31) وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ (32))

(سورة الأحقاف)

مهما كانت له جماعة في الدنيا، فهؤلاء لا ينفعونه يوم القيامة، ويأتي ربّه فرداً كما خلقهُ فرداً ! قال تعالى:

(أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (32))

(سورة الأحقاف)

قدرة الله عز وجل في خلق السماوات و الأرض:

ثمّ قال تعالى:

(أوَلَمْ يَرَوْا أنّ اللّهَ الّذِي خَلَقَ السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنّ بِقادِرٍ عَلَى أنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إنّهُ عَلَى كُلّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(33))

(سورة الأحقاف)

ورد في الأثر القدسي:

((أنْ يا عبدي خلقت لك السماوات والأرض، ولم أعْيَ بخَلقِهنّ، أفيُعْيِيني رغيف أسوقه لك كلّ حين ؟! لي عليك فريضة، ولك عليّ رزق، فإذا خالفتني في فريضتي لم أخالفك في رزقك، وعزّتي وجلالي إن لم ترْض بما قسَمْتُهُ لك فلأسلطنّ عليك الدنيا، تركض فيها ركض الوحش في البريّة، ثمّ لا ينالك منها إلا ما قسمتُهُ لك، ولا أبالي، وكنتَ عندي مَذموماً، أنت تريد، وأنا أريد، فإذا سلّمتَ لي فيما أريد، كفَيْتُكَ ما تريد، وإن لم تُسلِّم لي فيما أريد، أتْعَبْتُكَ فيما تُريد، ثمّ لا يكون إلا ما أريد))

قال تعالى:

(أوَلَمْ يَرَوْا أنّ اللّهَ الّذِي خَلَقَ السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ (33))

(سورة الأحقاف)

بعض المجرّات تبعد عنّا أربعة وعشرين ألف مليون سنة ضوئيّة ! مع أنّ الضوء يقطع في الثانية الواحدة ثلاثمئة ألف كيلو متر، فكم يقطع في هذه السّنوات ؟! مليون مليون مجرّة، وفي كلّ مجرّة مليون مليون نجم، وما المجموعة الشّمسيّة إلا نقطة كالهباء في جوّ الغرفة في الصيف.

جريمة الكافر جريمة كبيرة جدّاً لا تغتفر:

ثم يقول تعالى:

(بَلَى إنّهُ عَلَى كُلّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (33) وَيَوْمَ يُعْرَضُ الّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النّارِ ألَيْسَ هَذَا بِالْحَقّ قالُوا بَلَى وَرَبّنَا قالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (34))

(سورة الأحقاف)

أحيانًا تكون مدة المحاكمات طويلة، ثماني سنوات، أدِلّة ومذكّرات وشُهود ودعاوى وافْتِراءات وأيْمان، وأحيانًا أخرى المحاكمة تستغرق دقائق ! متى ؟ إذا كان هناك اعْتِراف، هل أنت قتلتَ ؟ نعم ! انتهى كل شيء نتيجة الاعتراف، فالاعتراف سيّد الأدلّة باعتراف المجرم لا حاجة للشّهود، ولا للأدلّة انتهى كلّ شيء والقانون واضِح، فربّنا عز وجل أراد في هذه الآية أن يبيّن أنّ جريمة الكافر جريمة كبيرة جدّاً، وأنّه لا يستطيع أن يكذب إطلاقًا قال تعالى:

(بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (33) وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (34))

(سورة الأحقاف)

انتهَتْ المحاكمة بِكَلِمَتَين أليس هذا بالحق ؟!

حساب الكافر يوم القيامة حساب سريع جداً:

قال تعالى:

(لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ(22))

(سورة ق)

فرعون حينما أدْركه الغرق قال:

(حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آَمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آَمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ(90))

(سورة يونس)

كما قلتُ قبل قليل أحيانًا تكون الجريمة واضِحة، والمجرم لا يسَعُهُ إلا أن يعترف، فإذا اعترف صدَر القرار، فالمحاكمة تكون سريعة جدًّا، قال تعالى:

(وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (34))

(سورة الأحقاف)

من بنى مجده على أنقاض الآخرين فالنار مثوى له:

الله عز وجل يُريهم أعمالهم، وإساءتهم، وإضلالهم للبشر، وأنهم بنَوا مجْدهم على أنقاض الآخرين، وبَنَوا حياتهم على موت غيرهم، كما بنوا غِناهم على فقرهم، وبَنَوا أمْنَهُم على خوفهم، قال تعالى:

(أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا (34))

(سورة الأحقاف)

مع القسم، قال تعالى:

(فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (34))

(سورة الأحقاف)

لقي أحدهم النبي عليه الصلاة والسلام فقال له يا رسول الله: عِظني ولا تُطِل ! فقال عليه الصلاة والسلام:

((قُلْ آمَنْتُ بِاللَّهِ ثُمَّ اسْتَقِمْ))

(أخرجه مسلم عن سفيان بن عبد الله الثقفي)

فقال: أريد أخفّ من ذلك فقال: إذًا فاستَعدّ للبلاء !

من آمن بالله و استقام على أمره أصابه الخير في الدنيا و الآخرة:

كلام واضح كالشمس، هذا نقوله لأنفسنا، الدِّين كلّه إيمان واستقامة والحق واضِح، والأمر واضِح، والنّهي واضح، والحلال حلال، والحرام حرام، والخير خير، والشرّ شرّ، والإساءة إساءة، إذا آمنت بالله واسْتَقَمت على أمره لك الخير في الدنيا والآخرة، وإلا فادْفَع الثَّمَن ، قال تعالى:

(قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ(15))

(سورة القصص)

لما وكزهُ موسى عليه السلام، أقول مرّةً ثانية وأكرر: فهذه الآية يُقاس عليها أشياء كثيرة كلّما وجدْت إنسانًا دُمِّر بِسَبب كسب مال حرام، أو عُدوان على أعراض الناس، أو جهله بالله عز وجل، فكلّما رأيْت مصيبة كبيرة فادحة، فقل: هذا من عمل الشيطان، إنه عدو مضل مبين، فالإنسان إما أن يكون رحمانيًّا، وإما أن يكون شَيْطانِيًّا، ملائكِيًّا أو شَهْوانِيًّا، مستقيماً أو منحرفاً، محسِنًا أو مسيئاً عدْلاً أو ظالماً.

الصبر مفتاح الفرج:

قال تعالى:

(فَاصْبِرْ (35))

(سورة الأحقاف)

يا محمد، إذا كان النبي عليه الصلاة والسلام، وهو على علوّ مقامه، ورفْعة مكانته وعِصْمته، و الله جلّ جلاله يقول له: اصْبِر ! وأنت يا أيها المؤمن اصْبِر، إنّ الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، هذه الحياة دار ابْتِلاء لا دار اسْتِواء، ومنزل ترحٍ لا منزل فرح، فمن عرفها لم يفرح لِرَخاء، ولم يحزَن لِشَقَاء، قد جعلها الله دار بلوى، وجعل الآخرة دار عُقبى، فجعل بلاء الدنيا لِعَطاء الآخرة سبباً وجعل عطاء الآخرة من بلوى الدنيا عِوَضاً، فيأخذ لِيُعطي، ويبتلي لِيَجزي، فاصْبِر، الزّوجة ليْسَت على ما يُرام اصْبِر، الله تعالى أمرك أن تصْبر، ودعوْت إلى الله فلم تُفْلح فاصْبِر، دَعَوْتَ إلى الله تعالى فاستهزئ بكَ اصْبِر، أحْسَنْتَ إلى إنسانٍ فأساء إليك اصبر، أولادك ليسوا على ما يُرام ؛ اصْبِرْ، دخْلُكَ لا يكفي اصبر، ليس عندك بيت اصبر، تخاف أن تُقيم شرع الله اصبر.

الخوف لا يُنقص من قدْر الإنسان و إنما كلّ عمل له جزاء محدّد:

هؤلاء أنبياء وخافوا، قال تعالى:

(فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ(18))

(سورة القصص)

الخوف لا يُنقص من قدْر الإنسان، قد تخاف وأنت مستقيم، اصبر، وقال تعالى:

(إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ(10))

(سورة الزمر)

كلّ عمل له جزاء محدّد فالحسنة بعشر أمثالها إلى المئة وإلى السبعمئة، كلّك صبْر، إذّا فاصبر، فالجزاء وافر وكثير.

عُلُوّ الهمّة من الإيمان:

أيها الأخوة، إذا ذهب شخص إلى طبيب الأسنان، وهو يعلم عِلْم اليقين أنّ قلع هذا الضرّس يحتاج إلى مخدّر لِصالِحِه، ولكن هذا المخدِّر يحدث ألماً بسيطًا حين الحَقْن، والأمر واضح، فما عليك إلا أن تصبر دون أن يطلب أحد منك ذلك، فالصّبر مأمور به حينما لا يكون الأمر واضحاً عندك، وإذا كان واضحِاً لا تحتاج إلى صبر، ولا أجر لك أساساً، فإن كنتَ مستقيماً، وتُعاني من مشكلة وتستغيث، يا الله ما السّبب ؟ اصبر، ألسْتَ واثقاً بالله عز وجل ؟ ومن حكمته ؟ وعدالته ؟ ومن توفيقه ؟ ومن وعْده الذي لا بدّ أن يقع ؟ فاصبر، وإذا النبي قيل له: اصْبِر فنحن من باب أولى، قال تعالى:

(فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ)

(سورة الأحقاف)

أرجح التفاسير أنّ كلّ الأنبياء من أولي العزم، وبعضهم قال: أولو العزم سيدنا نوح وإبراهيم وموسى ومحمّد، وبعضهم أضاف سيّدنا آدم، وبعضهم أضاف سيّدنا عيسى، لكنّ أرجح الأقوال أنّ كلّ الأنبياء من أولي العزم، لذلك عُلُوّ الهمّة من الإيمان.

الدنيا ساعة على الإنسان أن يشغلها بالطاعة:

المؤمن قويّ بدينِهِ، قال تعالى:

(فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ)

(سورة الأحقاف)

الدنيا ساعة، والدليل أنّ لِكُلٍّ مِنَّا عمر محدود، كيف مضَتْ هذه السّنوات ؟ سل واحداً واحداً، جوابهم واحد الدنيا حُلُم، فالبارحة كنت بالابتدائي، والإعدادي، والثانوي، مدرّس ثمّ التقاعد، فالإنسان له مجموعة أيام، يوم يولد، ثم دخل الابتدائي والإعدادي والثانوي والليسانس والدكتوراه، وأسّس مشروعاً تِجاريّاً، ثمّ تزوّج، وأنجَبَ أولاداً، زوّجَ بناته، وأولاده، وبعدها نقرأ نَعْوَتَهُ !! قال تعالى:

(لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ(19))

(سورة الانشقاق)

ومن دخل الأربعين دخل أسواق الآخرة، والأربعين كما قال بعض المُفسّرين في قوله تعالى:

(أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمْ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ(37))

(سورة فاطر)

قالوا النّذير سِنُّ الأربعين !

كل إنسان بين عملين: عمل سيئ و آخر جيد:

إلى متى أنت باللذات مشغول وأنت عن كل ما قدمت مسؤول

* * *

إلى متى أنت شارد ؟ أين التّوبة ؟ وأين الانضباط ؟ أين طلب العلم ؟ وأين الالتزام ؟ وأين التّطبيق ؟ إذًا:

(فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ)

(سورة الأحقاف)

لذلك قالوا: الدنيا ساعة اجعلها طاعة.

أيها الأخوة، اللّذائذ المحرّمة تنقضي، وتبقى تَبِعاتُها، والمشقّات في العبادات تنقضي، ويبقى أجرها وثوابها، أقرب مثل رمضان، إنسان يصوم وآخر يُفطِر، يوم العيد الذي صام فطر، ولكن كسب أجراً،

وبقي الأجر، والذي كفر أكل كالخِنزير، وبقي الإثم، فأنت بين عَمَلين، بين عملٍ يبقى ثوابه، وتنتهي متاعبهُ، وبين عملٍ سيئ يبقى عقابه، وتنتهي لذائدُه.

استعراض حياة الإنسان يوم القيامة:

قال تعالى:

(كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ (35))

(سورة الأحقاف)

الإنسان أحيانًا، وهذا شيء ثابت، لو أنّه لاحَ له شبَح الموت، يستعرض حياته كلها في ثوانٍ معدودة، قال لي شخصٌ وقع من الطائرة، وشاء الله له أن يبقى حيّاً ! قال لي: حينما كنت أهوي، والله اسْتَعرضْتُ حياتي دقيقةً دقيقةً، كَسُرعة البرق وهكذا حال كل الناس يوم القيامة، قال تعالى:

(كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ (35))

(سورة الأحقاف)

التبليغ مهمة الإنسان في الدنيا:

ثمّ يقول تعالى:

(بَلَاغٌ)

(سورة الأحقاف)

أي أنت جئتَ إلى الدنيا من أجل أن تُبَلّغَ هذا البلاغ، انتبه أنت الآن في دار الإبلاغ، وأنت الآن تُبَلّغ، وكلّ فعْل له حِسابه والأصل في المحاكمات الإبلاغ، فالذي لا يُبَلّغ لا يُحاكم، قال تعالى:

(فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ (35))

(سورة الأحقاف)

هذه الآية ردّ على كلّ من يدّعي، ويتوهّم أنّ في الكون ظلماً، هل نُجازي إلا الكفور ؟

طاعة الله عز وجل سبيل الإنسان للنجاة:

ما الذي يعصِمُك من الهلاك ؟ الطاعة لله تعالى، قال تعالى:

(إِنّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللّهِ أَتْقَاكُمْ إِنّ اللّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ(13))

(سورة الحجرات)

قال تعالى:

(فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ)

(سورة الأحقاف)

الموت مصير كل إنسان:

كلّ مُتَوَقَّعٍ آت، وكلّ آتٍ قريب، الإنسان أحيانًا يرى الأمد طويلاً، وهذا من ضعف التّفكير، أو قل: نتيجة الغفلة التي تكتنف الإنسان، فما دام الموت في طريقِهِ إلينا فكأنّه جاء، وكلّ واحدٍ مِنّا عليه أن يعلم أنّه حُكِمَ عليه بالموت مع وَقف التّنفيذ، والتّنفيذ سيَكون فجأةً من دون سابق إنذار، عليه أن يستعِدّ، قال تعالى:

(كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ (35))

(سورة الأحقاف)

كلمة بلاغ مُخيفة، هناك توقيع، ومسؤوليّة، وتَبِعَة، قال تعالى:

(فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ (35))

(سورة الأحقاف)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة محمد 047 - الدرس (1-8): تفسيرالآيات 1-6 ، من آمن بالله عز وجل أصلح باله في الدنيا و وعده بحياة طيبة في الآخرة

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1994-12-09

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الأول من سورة محمد صلى الله عليه وسلّم.

الكافر من أنكر الحق و أعرض عنه و انصرف إلى الدنيا:

(الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ (1))

الذين كفروا أي كذّبوا بالحق، وصدُّوا أي صدّوا أنفسهم عن الله عزّ وجل، وصدوا غيرهم، حقيقة الكفر تكذيبٌ وإعراض، إنكارٌ وإعراض، هؤلاء الذين كفروا ما رأوا أن لهذا الكون خالقاً، وما رأوا أن لهذا الكون مربّياً، وما رأوا أن لهذا الكون مسيّراً، ما عرفوا أسماءه الحسنى، وما عرفوا قدرته، ولا رأوا رحمته، ولا عدله، ولا لطفه، ثم إنهم انصرفوا إلى الدنيا، انكبّوا عليها، أداروا ظهرهم للحق، لم يعبؤوا به بل تنكروا له، هناك جانبٌ فكري وجانبٌ سلوكي، فكرياً أنكروا، سلوكياً أعرضوا..

للصدّ عن سبيل الله عدة معان:

1- أعمال الإنسان لأنه كفر بالله وصدّ عن سبيل الله ضلّت :

(الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ)

يحتمل أن يكون للصدِّ هنا معنيان: صدّوا أنفسهم، وصدّوا غيرهم، وهذا هو الضالُ المُضِل، الفاسد المُفْسِد، الذي ينحرف ويأمر غيره أن ينحرف، الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل، لكن أدق ما في الآية:

(أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ (1))

المعنى الأول: لو أنّ للكافر أعمالاً جليلة، هناك كافر ينفق، يُحسِنْ، أحياناً يقف موقف فيه شهامة، هذه الأعمال الجليلة.. العرب كانوا في الجاهلية كُرَماء، وكانوا شجعان، وكانوا يُقرون الضيف، ويحملون الكَل.. هذه الأعمال الجليلة التي كانت للكافرين قبل بعثة النبي عليه الصلاة والسلام، ثم لما جاءت بعثة النبي ما أسلموا، بل كذّبوا وأعرضوا، فهذه الأعمال الجليلة التي كانت لهم ما مصيرها ؟ الجواب:

(أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ (1))

فيا تُرى هل الله جلّ جلاله أضلّ أعمالهم أم أنّ كفرهم هو الذي أضلّ أعمالهم ؟

من عمل عملاً صالحاً عليه أن يبتغي وجه الله عز وجل به:

الإنسان أحياناً يعْملُ عملاً صالحاً، لمن يعمله ؟ فإنه يريد مَنْ يشيد له بهذا العمل ويعلق لوحة رخاميّة، يَقول: أنفق المحسن الفلاني، و لقد ضلّ هذا الإنسان عن الله عزّ وجل، تنكب سبيل الهدى، فإذا عَمِلَ عملاً صالحاً فهذا العمل يدلُّ عليه هدفه الصحيح و سلامة توجهه، والهدف الصحيح أن تبتغي به وجه الله، العمل الصالح لا يليق به إلا أن يُبتغى به وجه الله، لأنه ما من إنسانٍ على وجه الأرض بإمكانه أن يكافئك عليه إلا الله، لذلك حينما يسدي إليك أحدٌ معروفاً تتوجّه إلى الله بأعماق قلبك فتقول: جزى الله عنا فلاناً ما هو أهله، لأنك أنت عاجزٌ عن أن تجزيه، لو جزيته في الدنيا من يجزيه في الآخرة ؟ كلمة:

(أَضَلّ أَعْمَالَهُمْ (1))

الإنسان حينما ينسى الله عزّ وجل يضيع و يتردى:

الأعمال الطيّبة التي يفعلها الكافر لا هدف لها، لذلك تارةً يستجدي المديح، تارةً ينوّه بها هو، كأن يترك لها آثاراً مكتوبة لأنه لم يبتغ بها وجه الله عزّ وجل، لابدّ من جهةٍ تتجه إليها في كل أعمالك، لا يوجد إنسان يعمل عملاً إلا وفي خاطره جهة يتجه بها إليه، أحياناً الإنسان يقيم وليمة فلو أنه لم يبتغ بها وجه الله عزّ وجل لابدّ من أن يستجدي مديح الضيوف بهذا الطعام، يسألهم كيف الطعام ؟ هل أعجبكم هذا الطعام ؟ لأن الإنسان حينما ينسى الله عزّ وجل يضيع و يتردى، فأجمل كلمة:

(أَضَلّ أَعْمَالَهُمْ (1))

أي أن هذا العمل الحسن الذي فعله مَن كفر بالله وصدّ نفسه عن سبيل الله، فماذا كان يبتغي من عمله ؟ عمل بلا هدف، إذاً لابدّ من أن يستجدي به المديح، لابدّ من أن ينوّه به، لابدّ من أن يمدح نفسه لأنه لا يوجد عمل بلا مقابل، الإنسان العاقل لا يعمل عملاً بلا مقابل، فالمقابل هو مديح الناس، أو إكبار الناس، أو رفعة الشأن، أو تخليد العمل.

العمل الصالح الذي يعمله الكافر عمل ضال لا هدف له:

إذاً:

(أَضَلّ أَعْمَالَهُمْ (1))

المعنى الأول: أن العمل الحسن الذي يبدو للناس أن الكافر يفعله فهذا العمل كفرٌ بالله عزّ وجل، وإضلالٌ لنفسه عن سبيل الله مما يجعل هذا العمل ضالاً أي لا هدف له، الإنسان الضال يمشي بلا هدف، لو أن إنساناً ضلّ طريقه في الصحراء فهو يتحرّك حركة عشوائية بلا هدف، تارةً يميناً، تارةً شمالاً، تارةً شرقاً، تارةً غرباً، لا يعرف، فالحركة غير الهادفة حركة ضالّة، والعمل الصالح الذي يفعله الكافر الذي لم يؤمن بالله عزّ وجل، ولم يؤمن برسوله، وصدّ نفسه عن الله وعن رسوله، هذا العمل الصالح الذي يفعله الكافر عملٌ ضال أي بلا هدف فهو سراب بقيعة، لذلك مما يرافق هذا العمل التأكيد على مدح الذات، مما يرافق هذا العمل استجداء المديح، مما يرافق هذا العمل محاولة تخليد عمله بشيٍ أو بآخر.. هذا هو المعنى الأول.. أيْ حتى الأعمال الصالحة..(حتى هنا حرف ابتداء).. التي يفعلها الكفّار هذه الأعمال ليس لها هدفٌ واضح لذلك شُبّهت في هذه الآية الكريمة بأنها ضالّة تتحرّك حركة عشوائية.

2 ـ حينما يفقد الإنسان الهدف السامي من وراء عمله يضيع ويشقى :

شيءٌ آخر في هذه الآية: الإنسان حينما يكفر بالله، وحينما يرى أن الدنيا هي كل شيء، وحينما يبتعد عن الآخرة يُلغى الهدف السامي من حياته، حينما يفقد الإنسان الهدف السامي و الغاية النبيلة من وراء عمله يضيع ويشقى.

فالمعنى الثاني إذًا: أن أعمال الكافر الذي كَفَرَ وصدّ نفسه عن سبيل الله أعماله تتحرّك حركةً عشوائيّةً دونما هدف، إن كانت صالحةً يبتغي بها السمعة والمجد ومديح الآخرين فقد طها، وإن لم تكن صالحةً فهي أعمال ضالّة شاردة تتحرّك حركة عشوائيّة.

3 ـ الكافر يتحرك في الحياة الدنيا كما يتحرّك الأعمى في طريقٍ موحشةٍ :

ثم إن هناك معنىً ثالثاً:

(الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ)

لأنه في عمى..

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى(124)قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا(125)قَالَ كَذَلِكَ)

(سورة طه)

كنتَ في الدنيا أعمى، فالأعمى الذي لا يعرف الله عزّ وجل تجده لا يأتي عمله مصيباً، يأتي عمله أخرق، قد يدبّر تدبيراً يكون هذا التدبير تدميراً له..

الكافر مهما كان ذكيّاً لأنه كفر بالله عزّ وجل انقطع عن الله:

(إِنّ الّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمّ يُغْلَبُونَ)

(سورة الأنفال: آية 36)

أيْ أنّ الكافر مهما كان ذكيّاً، لو كان في أعلى مستويات الذكاء، لو كان عاقلاً كما يدّعي، لو كان ذا خبراتٍ متراكمة، لو أُتيحَت له الحقائق كلُّها وتوافرت بين يديه فلأنه كفر بالله عزّ وجل فقد انقطع عن الله عزّ وجل، وما دام قد انقطع عن الله عزّ وجل فهو في عمى، لذلك الكافر يتحرّك في الحياة الدنيا كما يتحرّك الأعمى في طريقٍ موحشةٍ مظلمة مليئة بالمخاطر، حركة الأعمى حركة عشوائيّة، حركة غير هادفة، حركة ضلالية.

من كان عمله خالصاً لله أكرمه الله في الدنيا و الآخرة:

أول معنى: لو كان يَقري الضيف، لو كان يعين على نوائب الدهر، لو كان شجاعاً، فأعماله لأنه كفر بالله وصدّ عن سبيل الله ضلّت، وتنكّبت الهدف الصحيح، لا يليق بالعمل الصالح إلا أن يتجه لله عزّ وجل، لأن الله جلّ جلاله هو الذي يكافئ على هذه الأعمال، ويكافئ عليها بجنّةٍ عرضها السماوات والأرض، فالإنسان لا يليق به أن يعمل شيئاً لغير الله، أما إذا كان عمله لله خالصاً فالله عزّ وجل أكرمه في الدنيا وفي الآخرة، هذه الآية دقيقة دلالتها جداً، أيْ لا ينفع الإنسان ذكاؤه، ولا عقله، ولا خبرته، ولا من حوله، ولا من فوقه، ولا من دونه لأنه لمّا كفر بالله، و صدّ نفسه وغيره عن سبيل الله ضلّ عمله، فإن كان هذا العمل صالحاً ليس له هدف، تارةً يثني على نفسه، وتارةً يستجدي المديح، وتارةً يخلِّد أعماله بأشياء يراها تنفعه، والخير كل الخير أن هذه الأعمال ينبغي أن يتجه إلى الله عزّ وجل:

(هُوَ أَهْلُ التّقْوَى)

(سورة المدثر: آية 56)

أيْ هو الله جلّ جلاله أهلٌ أن تتقيه، أهلٌ أن تخلص له، أهلٌ أن تتجه إليه، أهلٌ أن توظف شبابك في طاعته، أهلٌ أن تُنفِق كل ما آتاك الله في سبيله..

من يكفر بالله عز وجل يصدّ الناس عن فعل الخير:

(أَضَلّ أَعْمَالَهُمْ (1))

والمعنى الثاني: أن الإنسان حينما يكفر بالله و يضل عمله، فكيف يتصرف و يتعامل مع الآخرين ؟ فتراه يقول: اتق شرّ من أحسنت إليه، فإذا فعل عملاً صالحاً وقابله الناس على هذا العمل الصالح بإساءةٍ

يقول لك: حلفت يمينًا ألاّ أخدم أحداً، إنه لا يعرف الله عزّ وجل ؛ فهو إذاً يصد الناس عن فعل الخير.
المعنى الثالث: أنه إذا أراد أن يعمل فلمن يعمل ؟ فلأي رد فعلٍ سيّئ يحلف أيماناً مغلّظةً أنه لن يعمل صالحاً بعد اليوم، لأنه هو في الأساس كفر وضلّ نفسه عن سبيل الله إذاً فأعماله بلا جدوى، إذ يغلِّظ الأيمان ألاّ يفعل مع أحد خيراً.
والشيء الثاني:

(أَضَلّ أَعْمَالَهُمْ (1))

يعني ؛ إذا أراد الكافر أن يكيد للمؤمن، وإذا أراد الكافر أن يطفئ نور الله عزّ وجل فالله لا يمكِّنه، ولا يسمح له، بل يجعل عمله خُلّبياً تائهاً، لا يتحرّك إلا حركة ضالّة.

الله عز وجل لن يتخلى عن دينه:

ثلاثة معانٍ أيها الأخوة...
أول معنى: العمل الصالح لا هدف له، لذلك يستجدي عمله تعويضاً بالمديح، والثناء، والتخليد.
المعنى الثاني: أنه إذا أراد أن يعمل ليس هناك جهةٌ عُليا يبتغي رضوانها، فهو يعمل بقدر ما ينال من مكافآت وثناءات، فإذا خاب ظنّه في الذين يحسن إليهم يقلع عن العمل الصالح.
والمعنى الثالث: أنه إذا أراد أن يكيد لدين الله، فإنه يعمل على أن يُحبط مسعى المسلمين، فهناك أناسٌ يتخوّفون من حربٍ عالميّةٍ ثالثة ضد الإسلام ويبعثون الأسى في نفوس المسلمين، والجواب: هذا دين الله عزّ وجل، والله جلّ جلاله لن يتخلّى عنه، لذلك:

(الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلّ أَعْمَالَهُمْ (1))

أيْ أنّه يخطِّط ويدبّر ويتآمر ليطفئ نور الله عزّ وجل، ثم هو ينخذل ويبقى دين الله قويًّا، قال بعضهم:" **ما ضرّ السحاب نبح الكلاب، وما ضرّ البحر أن ألقى فيه غلامٌ بحجر، ولو أن الناس أرادوا أن يغبّروا على الإسلام ما غبّروا إلا على أنفسهم"**

من يكيد للمسلمين يدمره الله و يخذله:

(الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلّ أَعْمَالَهُمْ (1))

هذه آية، لكن والله الذي لا إله إلا هو هناك آلاف القصص التي تؤكِّدها وتوضِّحها، أحياناً ربنا عزّ وجل لحكمةٍ يريدها يجعل تدمير الكافر في تدبيره، يدبّر، ويدبّر، ويخطِّط، ويُحكم التدبير ثم يُدَمّر من خلال تدبيره..

((الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ (1)))

لا أعماله الصالحة مقبولة، وليس هناك جهة يؤمن بها ويتوجّه إليها، وحينما يعمل فهو في حيرة كبيرة، وحينما يكيد للمسلمين لا يستطيع..بل يدمر مخذولاً.

((أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ (1)))

على الإنسان أن يحذر من أن يكون في خندق معادٍ للدين لأن الله يدافع عن دينه:

((إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا(15)وَأَكِيدُ كَيْدًا(16) فَمَهِّلْ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا(17)))

(سورة الطارق)

لو عُدْنَا إلى التاريخ كم هي المؤامرات التي حِيكت ضدّ النبي صلى الله عليه وسلّم؟ أخرجوه من بلده، عذّبوه، وقاتلوه عشرين عاماً، فماذا كانت النتيجة ؟ النتيجة أن النبي صلى الله عليه وسلّم رفع الله ذكره، وأعزّ أصحابه، ونصر دينه، وهزم الأحزاب وحده، وأن الذين عارضوه وناوئوه، ونكّلوا بأصحابه، وقاتلوه وأخرجوه هم في مزبلة التاريخ الآن، وهذه سنّة الله في خلقه، فالإنسان لِيحذرْ ألف مرّة أن يكون في خندقٍ معادٍ للدين لأن الله يدافع عن دينه، وهذه الآية تلقي الأضواء كاشفة:

((الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ (1)))

يُنفِق الأموال، يخطط، يدبّر والإسلام يزداد قوّةً، أنشئت في بلد إفريقي كان مستعمراً من قِبَل فرنسا أربعة آلاف كنيسة على مستوى القرى حتى غدا في كل قرية كنيسة، بل وعلى مستوى المزرعة، كم كلّفت هذه الكنائس ؟! ومع ذلك حينما انتهى هذا الاستعمار انقلبت كلّها إلى مساجد..

الأعمال الطيّبة لا يليق بها أن تكون لغير الله تعالى:

((الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ (1)))

أحياناً تُنْفِق الأموال الطائلة من أجل أن تضل إنسانًا وتخرجه من الإيمان إلى الكفر، فيأخذ هذه الأموال ويزداد إيماناً، أحياناً يقسو أهلُ الكفر على المسلم لكن قسوتهم عليه تزيده إيماناً بدينه، يزداد تمسُكاً، فالأمر عجيب، هذه الآية يجب أن تُدخِل على قلب المؤمن السرور، الكافر لو كان ذكيًا، لو كان قويًا، لو استعان بخبرات العالم كلها، لو عمل ليلاً نهاراً ليكيد للمسلمين هو الذي يُخْفِق، وهو الذي يواجه الفشل، والمسلم هو الذي يوفِّقه الله عزّ وجل هذا بشرط أن يكون المسلم مسلماً حقيقيًا.

يمكن أن تقرأ التاريخ، وأن ترى التاريخ كلّه تأكيداً لهذه الآية، هناك آلاف الفرق الضالّة التي ظهرت في التاريخ الإسلامي أين هي الآن ؟ لقد تلاشت وانهارت وبقي الدين شامخاً كالطود، فالإنسان يقوى

بالحق، أما إذا عارض الحق يدمّره الحق، لكن أخطر شيء في هذه الآية أن العمل الصالح هو أيّ عملٍ يحمل بذور التعاون، إنه عمل صحي، إكرام الأيتام، إطعام الفقراء، بناء المدارس مثلاً، تأسيس المساجد، هذه الأعمال الطيّبة لا يليق بها أن تكون لغير الله، الدعاء:**"اللهمّ إني أعوذ بك أن أتزيّن للناس بشيءٍ يشينني عندك ، اللهمّ إني أعوذ بك من أن أقول قولاً فيه رضاك وألتمس به أحداً سواك"** .. وقد قيل : **" كفاك على عدوّك نصراً أنه في معصية الله "** .. إذا كان خصمك في المعصية فأنت المنتصر ، ومعصيته تخذله ، معصيته تُضلّ عمله ، معصيته تحبط مسعاه ، معصيته تفسد عليه خطّته، إذاً هنا ألغي الذكاء ، وألغي التدبير ، وألغيت القوّة ، وألغيت الخبرات ، أين هي ؟ ما دام الله سبحانه وتعالى متكفّلٌ أن يضلّ أعمال الكافرين ، فلا تبتئس و لا تحزن .

(وَالَّذِينَ آمَنُوا)

آمنوا بالله، آمنوا به موجوداً وكاملاً وواحداً، آمنوا به خالقاً، آمنوا به ربّاً، آمنوا به مسيّراً..

(وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)

استقاموا على أمره وتقرّبوا إليه بخدمة خلقه..

(وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ)

هذا عطف الخاصّ على العام للعناية به، أيْ أنهم آمنوا بهذا القرآن بالذّات وآمنوا بما نُزّل على محمد صلّى الله عليه وسلّم..

(وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ)

حق من عند الله..

(كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ)

ما هو البال ؟ البال هو الحال، أيْ أصلح أحوالهم، فبينما تكون نفس الكافر قلقة، مضطربة، خائفة، ممزّقة، مشتّتة، مبعثرةً، تائهة، شاردةً، ضالّة، تكون نفس المؤمن مطمئنّة، مستريحة، واثقة من حفظ الله لها، لا تخشى في الله لومة لائم، ينزّل الله عليها السكينة والأمن..

الله عزّ وجل رفع صلاح البال إلى مستوى الهدى:

(فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ(81)الَّذِينَ آمَنُوا)

(سورة الأنعام)

هذا معنى صلاح البال، وهناك آية أخرى:

(سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ(5))

(سورة محمد)

أيْ أنّ ربنا عزّ وجل رفع صلاح البال إلى مستوى الهدى، تجد المؤمن لو شققت على صدره، أو لو قرأت أفكاره، أو لو اطلعت على سريرة نفسه وجدت فيه الأمن، وجدت فيه الراحة، الرضا بقضاء الله، وجدت فيه التفاؤل، وجدت فيه الاستقرار، هذا معنى يصلح بالهم، بالهم أي حالهم، أيْ يطمئنهم، يثبّتهم، يرفع معنويّاتهم، يأخذ بأيدهم، يلهمهم، يرشدهم، يسدد خطاهم..

لا قيمة للإيمان من دون عمل صالح:

(وَالَّذِينَ آمَنُوا)

آمنوا بالله..

(وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)

والإيمان والعمل الصالح يتكرّر في القرآن الكريم أكثر من مئتي مرّة، بمعنى أنه لا قيمة للإيمان من دون عمل صالح، والعمل من دون إيمانٍ ضلال في صحراء، العمل من دون إيمان لا يكون، والإيمان من دون عمل جنون، تزداد حجّة الله عليك، قال تعالى: فلله الحجة البالغة.

(وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ)

صلاح البال لا يقدّر بثمن:

الحقيقة هذا الكتاب الذي بين أيدينا إذا قرأناه فكلّما كان إيماننا بالله عزّ وجل في مستوى عالٍ نأخذ بمعانيه مأخذاً جديّاً ونتحرّك وفق مدلولاته، أما إذا كان الإيمان ضعيف كما يقولون: فهم يقرؤونه للتبرُّك ولا يتورعون عن أن يعصوه، وقد قال النبي عليه الصلاة والسلام:

((مَا آمَنَ بِالْقُرْآنِ مَنِ اسْتَحَلّ مَحَارِمَهُ))

(سنن الترمذي: عن محمد بن يزيد)

((ورُبَّ تالٍ للقرآن والقرآن يلعنه))

القرآن ينبغي أن تقيم حدوده، وأن تُحلّ حلاله، وأن تحرّم حرامه، وأن تتحرّك وفق ما يأمرك به، وأن تتخلّق بأخلاقه، كما سئلت السيدة عائشة فقالت:

((كان خُلُقُه القرآن))

عليه الصلاة والسلام..

(كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ)

هذا صلاح البال لا يقدّر بثمن.

القلق، الاضطراب، الضياع من لوازم الانقطاع عن الله عزّ وجل:

إن الله يعطي القوّة، والذكاء، والمال، والجمال للكثيرين من خلقه، ولكنه يعطي السكينة بقدرٍ لأصفيائه المؤمنين.. يعني إذا صحّ التعبير ؛ الصحّة النفسية، التوازن، التكيُّف، الاستقرار، الأمن، الطمأنينة، التفاؤل، النظرة الموضوعية هذه الخصائص التي يسمّونها مظاهر الصحّة النفسية متوافرةٌ جميعها في المؤمن ؛ لكن القلق، الاضطراب، الخوف، العنف، التبعثر، الضياع من لوازم الانقطاع عن الله عزّ وجل، وهذا معنى قوله تعالى:

(وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ)

(وَالَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآَمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ (2))

أعلى شعور يشعر به الإنسان أن خالق الكون راض عنه:

إنّ الإنسان إذا شعر أن خالق الكون راضٍ عنه، هل هناك شعور أعلى من هذا الشعور ؟.." **إن الله راضٍ عن أبي بكر** " .. هكذا أخبر النبي الصدّيقَ رضي الله عنه ، ماذا شعر أبو بكر ؟ وحينما قال النبي الكريم لسيدنا معاذ : " **والله يا معاذ إني لأحبُّك** " ، من هذا الذي يحبُّه ؟ رسول الله ، وحينما دخل سعد على النبي الكريم قال : " **هذا سعدٌ هذا خالي أروني خالاً مثل خالي** " ، بماذا شعر هذا الصحابي الجليل ؟ حينما قال لسعدٍ في بعض المعارك : " **ارم سعدٌ فداك أبي وأمي** " ، إذا أنت كنت تعيش بعصر وإنسان له شأن ومكانة فأكرمك ، أو رفع من شأنك ، أو خصّك بتحية أو بابتسامة ، خصّك ببطاقة ، خصّك بدعوة ، تجد نفسك لفترة طويلة تملأ الدنيا ضجيجاً بهذا اللقاء ، وبهذا التكريم ، فكيف إذا كان خالق الكون راضياً عنك ؟ كيف إذا شعرت أن الله يحبُّك ؟ من بيده ملكوت السماوات والأرض، فسعادتك مجنحة ولا توصف ، كل علاقاتك مع البشر علاقات محدودة ، والإنسان ضعيف ، فلو أن أحداً أكرمك بكلماتٍ معسولة ، أو أنه قرّبك ، فماذا عنده ؟ إنه فقير مثلك ، لكن الخالق العظيم إذا قرّب الإنسان ، أو إذا طمأن الإنسان ، أو إذا تجلّى على هذا الإنسان ، فملأ قلبه سكينةً ، أو ملأ حياته سعادةً، أو أودع محبّته في قلوب الخلق ، حتى جعل أعداءه في خدمته ، فبماذا يشعر هذا الإنسان ؟ إن شعوره التيه والاعتزاز و السلامة .

الإيمان يورث المرء سعادة لا يعرفها إلا من ذاقها والبعد عن الله شقاء لا يعرفه إلا من ذاقه:

والله أيها الأخوة... إنّ الإيمان يورث المرء سعادة لا يعرفها إلا من ذاقها، وفي البعد عن الله شقاء لا يعرفه إلا من ذاقه، قال له: "يا بني ما خيرٌ بعده النار بخير، وما شرٌّ بعده الجنّة بشر، وكل نعيم دون الجنّة محقور وكل بلاءٍ دون النار عافية " لذلك عندما قال الشاعر:

فليتك تحلو والحياةُ مـريرةٌ ولـيتك ترضى والأنامُ غضابُ
وليت الذي بيني وبينك عامرٌ وبيني وبين العالمينَ خـرابُ
وليت شرابي من ودادِك سائغٌ وشربي من ماءِ الفراتِ سرابُ

* * *

فهو على صواب و قد أفلح، وقال بعض العارفين بالله:

فلو شاهدت عيناك من حسننا الذ ي رأوه لما ولّيت عنّا لغيـرنا
ولو سمعت أذُناك حسن خطابنا خلعت عنك ثياب العُجبِ ثم جئتنا
ولو ذُقت من طعم المحبّة ذرّةً عذرت الذي أضحى قتيلاً بـحبّنا
ولو نسمت من قربنا لك نسمة لمتّ غريباً واشتياقاً لقربنـا

* * *

فهذا ذاق طعم القُرب.

من انعقدت صلته مع الله عز وجل أيده الله بنصره و تأييده:

إخواننا الكرام... بالمختصر المفيد المعلومات الدينية وحدها لا تكفي، فهي ثقافة وحسب، والإسلام من دون اتصال بالله يصبح فلكلوراً، تراثاً، تقاليداً، عادات، ثقافة، مشاعر سطحيّة، أما إذا آمن الإنسان، وأحكم استقامته، وصلَح عمله، وانعقدت صلته مع الله عزّ وجل صار في عالَم آخر، تحوّل إلى عالم القُرب واستظلّ ظلال رحمة الله، وأمن بحفظ الله وحالفه توفيق الله، وتأييد الله، وصار الله يدافع عنه، لذلك:

(وَالَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآَمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ)

فالماضي مضى وانتهى، الإسلام يجبُّ ما قبله، نعم، الإسلام يهدم ما كان قبله..

((يَا ابْنَ آدَمَ لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ وَلا أُبَالِي))

(سنن الترمذي عن أنس بن مالك)

من عاهد الله على طاعته شعر بحفظ الله له وتوفيقه إياه:

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ)

(سورة الزمر: آية 53)

القضيّة مع الله سهلة جداً، لذلك عُدْ إلى الله و سترى أن الله:

(كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ (2))

مهما كانت السيّئات، مهما كَبُرَتْ، مهما استحكمت، الصُلْحَة بلمحة، الصلح مع الله مُسْعِد، فإذا الإنسان تاب توبة نصوحاً وعاهد الله على طاعته، وشعر بالأمن والطمأنينة، وشعر بحفظ الله له وتوفيقه إياه، هذا الشعور لا يقدّر بثمن.

من آمن بالله عز وجل أصلح باله في الدنيا و وعده بحياة طيبة في الآخرة:

لذلك:

(كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ (2))

ذاك الماضي، وأما الحاضر:

(وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ)

فالمؤمن مرتاح، بينما تجد شخصاً بعيداً عن الله تجده ثائراً، مضطرباً، أفعاله عنيفة جداً، كلامه قاسٍ، حياته تعيسة، لكن المؤمن مطمئن، متوازن، واثق أن الله بيده كل شيء، وأن الله لا يتخلّى عنه، وأنه وعده بالحياة الطيّبة فهو ينتظر وعد الله عزّ وجل..

(وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ (2) ذَلِكَ)

من أسّس بنيانه على شفا جُرُفٍ هار انهار به في نار جهنّم:

لماذا هؤلاء سعداء، وأولئك أشقياء ؟ لماذا أولئك أضلّ الله أعمالهم ؟ بينما هؤلاء..

(كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ)

قال:

(ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ)

الباطل هو الشيء الزائل، أيْ أنّ المبطل أسّس بناءه على شفا جرفٍ هار فانهار به في نار جهنّم، أحياناً قد تجد بناء سقط فيقال لك: بُني على مغارة، شيء طبيعي جداً أن ينهار لأنه ليس له أساس، فقد

أنفق شخصٌ أمواله الطائلة وأنشأ بناء وفجأةً أصبح البناء أنقاضاً وتحته قتلى لا يعلمهم إلا الله، لأنه أسّس بنيانه على شفا جُرُفٍ هار فانهار به في نار جهنّم..

دين الله عز وجل دين ثابت لا تزيده الأيام إلا رسوخاً:

(ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ)

فمعتقداته باطلة غير صحيحة، وأفكاره سراب، معتقداته من بنات الخيال، فهي ترهات مخالفة للدين..

(اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ)

الحق الشيء الثابت، من نِعَمِ الله علينا أن ديننا الحنيف لا تزيده الأيّام إلا رسوخاً، فمنذ أن ظهر هذا الدين والأحداث، والاكتشافات، والعلوم تزيدنا إيماناً بهذا الدين، أما الباطل، فأيّ إنسان اتبع الباطل، اعتنق مذهباً أرضياً وضعياً يفاجأ بل ويُصْعَق أو يفاجأ بأن هذا المبدأ لا أصل له، قائم على رمال، وهذا ما جعل كل من يعتنق المذاهب الوضعيّة التي انهارت انهياراً كبيت العنكبوت، يتضايقون إذ وقعوا في شرّ أعمالهم، ووقعوا في إحباطٍ شديد وفي خيبة أملٍ مُرّة، لكن الذي اتبع منهج الله عزّ وجل ينام مرتاح البال، ثم إنه لا يمكن أن يظهر شيءٌ في الأرض ؛ سواء أكان فكراً أو اكتشافًا، أو حقيقةٌ علميٌّ إلاّ و تؤكِّدُ صحة ما جاء في هذا الدين لأنه من عند الله عزّ وجل..

من اعتمد على غير الله تضيع آماله و يقع في شر عمله:

(ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ)

الشيء الزائل..

(الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ)

وبعد فإذا كان الإنسان مع الله، فالله لا يحول ولا يزول، أما لو كان مع إنسان مثله وهذا الإنسان مات فجأةً، ضاعت كل آماله، ولو اعتمد على جهة وهذه الجهة ضَعُفَ مركزها ضاعت كل آماله، أو لو علّق آماله بشيءٍ وهذا الشيء فقده فجأةً وقع في شرّ عمله..

(ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ (3))

من كمال عقل الإنسان أن يتمسّك بالحق و يتعلّق بالله عزّ وجل:

سمعت هذه القصّة: أنّ إنسانًا جاء بهذا الصحن.. الدش إلى بيته ولأن الصورة غير واضحة، فنصحوه أن يضعه في الشرفة، فلما وضعه في الشرفة تبيّن أمام الشرفة شجرة من التين، فجاء بسلّم، ونشر الغصن الذي يحجب عنه الصورة، ثم اضطرب السُلّم فتمسّك بهذا الغصن الذي قطعه وقد بقيت منه قطعة عالقة فوقع على الأرض وقد أُصيب بثلاثين كسراً في جسمه، إنه أمسك بشيء واهٍ خلا به..

(ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ)

أمسك بشيء باطل، شيء ليس له أصل، ليس له أساس، ليس له وجود، أفكار كلّها أوهام تعلّق بها، بنى حياته عليها فلمّا انهارت انهار معها، من كمال عقل الإنسان أن يتمسّك بالحق، يتعلّق بالله عزّ وجل، بكل العصور، بكل العهود، بكل المجتمعات، بكل البيئات، بكل الأنظمة واللهُ هو هو لا يتغيّر، بيده كل شيء، فإذا كنت معه فليس عندك مفاجأة أبداً، إذا كنت مع غيره نجاحك منوط بهذا الذي تعلّقت به، فالبطولة أن تكون مع الأصل القوي، مع الواحد، مع القديم، مع الباقي، مع الذي بيده كل شيء..

(ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا)

لماذا أضلّ أعمالهم ؟ لأنهم اتبعوا الباطل..

العفو عن الأسرى وإطلاق سراحهم قد يقربهم من الحق:

(وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ (3) فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ (4))

هذه الآية تتحدّث عن الأسرى، الأسير إذا أطلقته وعاد إلى بلاد الكفّار وقوّى من شوكتهم، وأعاد الكرّة فإنه يُقتَل، لكن العفو عنه وإطلاق سراحه قد يقربه من الحق، وكذلك قبول الفدية منه إذ تُقبَل الفدية، أو يُمَنُّ عليه بالإطلاق، أو لحكمةٍ يراها الذي يتخذ القرار الكُلِّي، فكل هذا ربما يدنيه من الإيمان. وهذا متعلِّق بالقتال مع الأعداء.

على المؤمن أن يضعضع صفوف أعدائه و يأخذ منهم أسرى:

لذلك:

(فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ)

أيْ ضعضعتم قوّتهم، وأزلتموهم عن مكانتهم..

(فَشُدُّوا الْوَثَاقَ)

خذوا منهم أسرى بعد أن تثخنوهم بالقتل و الجراح:

(فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ)

أي إطلاق سراح بلا مقابل..

(وَإِمَّا فِدَاءً)

يُفدَى الأسير بمبلغ من المال، أو بشيءٍ آخر..

قدرة الله على إبادة أعدائه و لكنه سمح للإنسان بشرف الجهاد:

(حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ)

هذا المعنى دقيق جداً، دقة هذا المعنى توضِّح أن هذا الدين دين الله، فالله عزّ وجل قادر أن يفني أعداءه عن آخرهم بأدنى بادرةٍ من عنده مباشرةً، دون أن نقاتلهم، ولكن شاءت حكمة الله عزّ وجل أن يسمح لكم بشرف الدفاع عن دينه، فهذا الدين دين الله، وهذا الدين لن يتخلّى الله عنه، المشكلة بالنسبة لك أن يسمح الله لك أن تدافع عنه ويفيض عنك بشرف الجهاد.

أقوى أنواع الجهاد الجهاد الفكري:

طبعاً هناك حالات كثيرة تَمُر بالمسلمين، فهناك الجهاد الفكري وهو أقوى جهاد، قال تعالى:

(وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا(52))

(سورة الفرقان)

فتوضيح الحق، تبيين الحق، إقناع الناس بالحق هذا جهاد أيضاً، فأنت إما أن تنال شرف هذا الجهاد في إيضاح الحق للناس وتبيينه، وإما أن يستغني الله عنك وهو الذي ينصر دينه، على كلٍ فالله عزّ وجل لا ينتظر من عباده من ينصر دينه، هذا دينه ولا يتخلّى عنه، لذلك:

(وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ (4))

الجنة مصير من قدّم حياته رخيصة لرفع كلمة الله وإعلائـها:

(وَلا تَحْسَبَنّ الّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبّهِمْ يُرْزَقُونَ(169))

(سورة آل عمران)

فبالجهاد يقدّم الإنسان حياته رخيصة لرفع كلمة الله وإعلائها، والإنسان إذا قدّم ماله، فالله عزّ وجل يتقبّل هذا المال بيده، الصدقة تقع في يَدِ الله قبل أن تقع في يدِ الفقير، إذا أنت قدّمت جزءاً من مالك تلقاه الله بيده على تفسيرٍ يليق بحضرة الله عزّ وجل، فكيف إذا قدّمت نفسك كلّها ؟! هذا شيء لا يُقدّر بثمن، فهؤلاء الذين قتلوا في سبيل الله قال سبحانه:

(فَلَنْ يُضِلّ أَعْمَالَهُمْ (4) سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ (5))

الله عز وجل ما ترك للإنسان الجهاد إلا ليكسبه هذا الشرف:

أدقُّ ما في الآية الرابعة:

(وَلَوْ يَشَاءُ اللّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ)

أيْ أن الله عزّ وجل لا ينتظر من الناس أن يؤيّدوا هذا الدين، هذا دينه ويؤيّده مباشرةً، ويهزم أعداءه من دون أن تنالوا شرف هذا العمل، ولكن إذا ترك الله الأمر لكم فمن أجل أن يكسبكم شرف الدفاع عن الدين..

(وَلَوْ يَشَاءُ اللّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللّهِ فَلَنْ يُضِلّ أَعْمَالَهُمْ (4))

وينبغي أن يشعر كل مؤمن إذا دعا إلى الله، إذا بلغ الناس آيات القرآن، طبعاً لكل عصرٍ جهاده، فإذا دعا إلى الله، وأقنع الناس بالحق، فحملهم على قبوله، أعانهم على تطبيقه، بيّن أسرار الشريعة وكان قدوةً لهم قبل كل شيء فهذا نوعٌ من الجهاد تنال به شرف الدفاع عن هذا الدين، أما إذا استنكفت فهذا الدين دينه ولن يخذله ولن يتخلّى عنه.

المؤمن حينما يرى مقامه في الجنّة ينسى كل المتاعب التي ساقها الله له في الدنيا:

هؤلاء الذين قُتِلوا في سبيل الله، قال سبحانه مبيّنًا مصيرهم:

(فَلَنْ يُضِلّ أَعْمَالَهُمْ (4) سَيَهْدِيهِمْ)

إلى الجنّة، طبعاً بعد الدنيا لا يوجد هدى، الهدى في دار التكليف، فأما أن تأتي هذه الكلمة بعد الموت فمعناها..

(سَيَهْدِيهِمْ)

إلى الجنّة..

(وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ (5))

أيْ أنّ المؤمن حينما يرى مقامه في الجنّة يقول:**"لم أر شرّاً قط "**، كل المتاعب التي ساقها الله له في الدنيا ينساها ، والكافر إذا رأى مقامه في النار يقول : **" لم أر خيراً قط "** ، كل اللذائذ التي تمتّع بها في الدنيا ينساها ..

(سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ (5) وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ (6))

المؤمن بعد إخلاصه الشديد لله واتصاله العميق به يذوق طعم الجنّة في الدنيا قبل الآخرة:

الإنسان في الدنيا إذا اتصل بالله عزّ وجل ذاق طعم القُرْب، فالمؤمن في ساعات تألّقه وساعات قربه من الله عزّ وجل يشعر بطعم أهل الجنّة، على أثر عمل صالح، على أثر عبادة مقبولة، إذا خرج من الصيام، إذا ذهب لأداء فريضة الحج، إذا زار سيّد الأنام، بالعبادات أو بالأعمال الصالحة إذا توافر الإخلاص، والإحكام، والإتقان يحقق الله له هذا الاتصال، ويذيقه طعم قُرْبه، ويقول لك إن حدثك أنا في جنّة، فالمؤمن إذا دخل جنّة الله.. جنّة الآخرة.. قال: هذه الجنّة عرفت بعض مذاقها في الدنيا..

(وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ (6))

هناك تفسير آخر: أنّه في الجنة من يُعَرِّف أهل الجنّة على ما فيها من خيرات حِسان، وما فيها من لذائذ، وما فيها من فواكه، فهناك من يعرّفه على ما فيها، أو أن المؤمن حينما كان في الدنيا عَقِبَ أعماله الصالحة، أو عباداته المقبولة، أو بعد إخلاصه الشديد واتصاله العميق يذوق طعم الجنّة، لذلك:

(وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ(46))

(سورة الرحمن)

بعضهم قال:**"في الدنيا جنّة وفي الآخرة جنّة "** ..

شرح هذه الآيات في الدرس القادم إن شاء الله:

(وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ (6) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ (7) وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ (8) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ (9))

هذه الآيات إن شاء الله تعالى نشرحها في درسٍ قادم.

الكافر لا ينفعه عقله يوم القيامة و المؤمن يتمتّع بسعادة لا توصف:

أريد قبل أن أنهي الدرس أن أقف عند ثلاث نِقاط:

الأولى: أن الكافر لا ينفعه عقله، ولا ذكاؤه، ولا قوّته، ولابدّ من أن يرتكب أخطاءً فاحشة وحماقات لا توصف لقول الله عزّ وجل:

(الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ (1))

وأما المؤمن فيتمتَّع بسعادة لا توصف، وهي مِصداَق قوله تعالى:

(سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ (5))

السبب أن الكافر بنى عقيدته على باطل، وسلوكه على باطل، والمؤمن بنى عقيدته على الحق، والحق أبدي سرمدي، وأن هذا الدين دين الله، وأن لكل عصرٍ جهاده، وأنك إذا سمح الله لك أن تنشر هذا الدين، وأن تدعو إلى الله عزّ وجل بحكمةٍ وبأسلوبٍ مؤثِر فهذا شرفٌ لك، واعلم أنّ الله عزّ وجل لا ينتظرك هو مستغنٍ عنك..فبادر أنت لتوظيف نفسك لخدمة دينه و نصره.

ما لم ننصر دين الله فلن يحقق الله لنا أن ننتصر على أعدائنا:

(وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ (4) سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ (5) وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ (6))

أيْ أنّ المؤمن ينتقل من جنّة إلى جنّة، فنعمه تتصل في الدنيا والآخرة معاً، لكن إذا أردتم النصر على أعدائكم..

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ)

ما لم ننصر دين الله فلن يحقق الله لنا أن ننتصر على أعدائنا، فالنصر على الأعداء ثمنه أن تنصر دين الله، والآية واضحة كالشمس، آية محكمة.. ونصرنا لدين الله، يعني العمل بالكتاب والسنة معًا بإخلاص ويقين: قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ (7))

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة محمد 047 - الدرس (2-8): تفسيرالآيات 7-11، المؤمن في عين الله مادام ملتزماً أوامره

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 16-12-1994

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الثاني من سورة محمد صلى الله عليه وسلم.

من علامات الإيمان أنك إذا سمعت آيةً مُصَدَّرَةً بـ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا تشعر أنك مَعْنِيٌّ بها:

مع الآية السابعة وهي قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ (7) وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ (8))

أولاً أيها الأخوة الكرام... من علامات الإيمان أنك إذا سمعت آيةً مُصَدَّرَةً بقوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا)

تشعر أنك مَعْنِيٌّ بها، وأنها موجهةٌ لك، ألست مؤمناً ؟ الله جلّ جلاله يخاطب المؤمنين، وقد قال بعض العلماء: **" الله سبحانه وتعالى يخاطب عامة الناس بأصول الدين ويخاطب المؤمنين بفروع الدين".**

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ)

(سورة النور: آية 30)

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ(20))

(سورة الأنفال)

نصر دين الله عز وجل تطبيق لأوامره:

كلمة:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا)

إذا شعرت أنك مخاطبٌ بها، وأنك معنيٌ بها فهذه إحدى علامات الإيمان، الشيء الثاني أن الله جلّ جلاله مُنَزّهٌ عن أن تنصره، هو القوي العزيز، يحتاجه كل مخلوق، كل شيءٍ يحتاجه في كل شيء، فكيف يقول الله عزّ وجل:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ)

لعل بعض المفسرين يقول: إن تنصروا دين الله، وما معنى: أن تنصر دين الله ؟ أن تطبق الأوامر، ولأضرب على ذلك مثلاً بسيطاً، لو أن مئة رجلٍ في نزهةٍ، ودخل وقت العصر، فإذا قاموا جميعاً ليصلوا نصروا دين الله عزّ وجل، وصار الذي لم يصلّ شاذاً منحرفاً مقصراً، يشار إليه، أما إذا لم يقم أحد للصلاة فقد خذلوا دين الله عزّ وجل، فصار إذا قام أحدهم ليصلي صار هو الشاذ، وإذا حَجّبَ المؤمنون نساءهم وواحدٌ قصر في تحجيب زوجته صار شاذاً، أما إذا سَيَّبَ جميع الرجال هذا الحكم الشرعي وأراد أحدٌ من الناس المؤمنين أن يقيم أمر الله عزّ وجل صار وحده شاذاً، فنصر دين الله أي أن تطبق الأوامر.

من طبق أمر الله عز وجل وسع دائرة الحق و حاصر دائرة الباطل:

طبعاً الأوامر كثيرة جداً ؛ العبادات ؛ الصلاة، الصوم، الحج، الزكاة، إذا أدّى الجميع زكاة أموالهم، صار الذي لم يؤدِ الزكاة شاذاً، أما إذا تخلّف الناس عن تأدية الزكاة ضعف هذا الأمر الإلهي، طبعاً لأن معظم الناس يتحرّكون بالتقليد، الذين يتحركون وفق قناعاتهم ولا يعبؤون بالمجموع هؤلاء قِلّة، أما الخط العريض في المجتمع أن يتحرّك وفق التقليد، فحينما تقيم أمر الله عزّ وجل، حينما تجعل بيتك بيتاً إسلامياً، حينما تجعل عملك عملاً إسلامياً، حينما تتعامل مع الآخرين تعاملاً إسلامياً، أنت ماذا فعلت ؟ نصرت دين الله، فأوّلاً نصر دين الله عزّ وجل في التوجُّه إليه، في الإقبال عليه، في إفراده بالعبودية، في إفراده بالإخلاص، فإذا توجّهت إليه، وأقبلت عليه، وأخلصت له، ووحدته في أفعاله فلن تقبل أن أحداً مع الله عزّ وجل له فعل وإرادة، هذا هو التوحيد، ثم أقمت العبادات، أقمت الصلاة والصيام والحج والزكاة، ثم تعاملت مع الآخرين وفق منهج الله عزّ وجل، بأسلوبٍ رفيع، قالوا: إذا فعلت هذا فقد نصرت الله، وهو غني عن أن تنصره، لكنك طبقت دينه، وفي تطبيق دينه وسّعت دائرة المؤمنين وحاصرت دائرة المنحرفين فقوي الضعيف بهذا.

الله عز وجل غني عن العالمين:

أول معنى: الله جلّ جلاله غنيٌ عن أن تنصره، لأنه العزيز الحكيم.

((لَوْ أَنّ أوّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا يَا عِبَادِي لَوْ أَنّ أوّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا))

(صحيح مسلم: عن أبي ذر)

كما قال الله عزّ وجل:

(إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنّ اللّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ)

(سورة الزمر: آية 7)

معنى ذلك كلمة: إن تنصروا الله لا تعني أبداً ولا يعقل أن تعني، والله منزهٌ عن أن تعني أنك تنصر الله عزّ وجل، لكن هذا أسلوب من أساليب البلاغة، إنك إن طبّقت أمر الله وسّعْتَ دائرة الحق، وحاصرت دائرة الباطل، دائماً الأغلبية لهم قيمة.

المؤمن الصادق المطبّق أحكام الدين في عصر الفساد ينبغي أن يشعر بغربة:

إذا أراد الإنسان أن يعصي أمر الله عزّ وجل والأكثرون يطيعونه صار هذا الإنسان شاذاً، أما إذا كان الأكثرون يعصونه وأراد أن يطيعه صار المطيع هو الشاذ ويتحمّل مصاعب كثيرة، لذلك النبي عليه الصلاة والسلام حينما أشار إلى أنه صلى الله عليه وسلم اشتاق لأحبابه، فقال أصحابه: " أو لسنا أحبابك؟ قال:

((لا أنتم أصحابي، أحبابي أناسٌ يأتون في آخر الزمان القابض منهم على دينه كالقابض على الجمر))

قالوا: لِمَ ؟ قال:

((لأنكم تجدون على الخير معواناً ولا يجدون))

لذلك ورد في الحديث الشريف:

((بدأ الدين غريباً وسيعود كما بدأ فطوبى للغرباء))

[مسلم، ابن ماجه، أحمد]

فالمؤمن الصادق، المخلص، الملتزم، المطبّق أحكام الدين في عصر الفساد والفتن والانحراف ينبغي أن يشعر بغربة، فإن لم يشعر بغربةٍ فهناك استفهامٌ كبير على إيمانه.

من أراد نصر الله فلينتصر لدينه:

إذاً..

(إِنْ تَنْصُرُوا اللّهَ يَنْصُرْكُمْ)

فينصركم على ماذا ؟ أين مفعول ينصركم ؟ علماء البلاغة يقولون: إذا حذف المفعول أطلق الفعل، صار مطلقاً ؛ ينصركم على عدوكم، على أنفسكم، أي شيءٍ تريدونه يصبح مذللاً وهذا من كرامة الله للمؤمن، ربنا عزّ وجل قال:

(وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ)

(سورة الصف: آية 13)

أخبار النصر تملأ القلب سعادةً، وأخبار التراجع والهزيمة تملأ القلب ضيقاً، وحرجاً، وحزناً، فهذه الآية أصلٌ في تعاملنا مع الله عزّ وجل في شأن النصر، إن أردت نصر الله فانتصر لدينه، إن أردت نصر الله فانتصر على نفسك، إن أردت نصر الله فأقم الإسلام في بيتك، وأقمه في عملك، إن أردت نصر الله عزّ وجل فكن له كما يريد ليكون لك كما تريد.

عبدي كن لي كما أريد أكن لك كما تريد، أنت تريد وأنا أريد فإذا سلمت لي فيما أريد كفيتك ما تريد، وإن لم تسلم لي فيما أريد أتعبتك فيما تريد، ثم لا يكون إلا ما أريد.

وهذه الآية تصلح على المستوى الفردي وعلى المستوى الجماعي، أي كأمة إن لم نقم أمر الله فينا فلن ننصر، قال تعالى:

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ)

(سورة الأنفال: آية " 33 ")

من أراد ألا يعذب عليه بطاعة الله عز وجل:

بعض المفسرين وقعوا في حيرة:

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ)

أنت بين ظهرانيهم، لكن بعضهم وسّع المعنى قال: ما دامت سنتك فيهم مطبقة في حياتهم، ما دام بيعهم وشراؤهم وفق شرع الله عزّ وجل، ما دام زواجهم وفق سنة رسول الله، ما دامت أفراحهم وأتراحهم وفق المنهج الإلهي، ما دامت سنة النبي صلى الله عليه وسلم قائمة في حياتهم فهم في بحبوحةٍ من أن يعذّبوا، فهذه ضمانة كاملة، أي إذا أردنا ألا نعذب فعلينا بطاعة الله عزّ وجل.

مرة ثانية، هذه الآية الكريمة يمكن أن تفهم على مستويين ؛ مستوى جماعي كأمة ومستوى فردي، العرب حينما دخلوا الأندلس انتصروا وأنشؤوا حضارةً، وأنشؤوا دولةً عريقةً، أما حينما التفتوا إلى اللهو وإلى الموشّحات، وإلى المجون والقيان وما إلى ذلك خُذلوا، وتفرقوا ثم دحروا وأُخرجوا من الأندلس، هذا قانون الله في الأرض.

(إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ)

وهو كلام خالق الكون، فعلاقتنا كمسلمين مع النصر تتم وفق هذا القانون.

المسلم الحقيقي يخشى من ذنبه أضعاف ما يخشى من عدوه:

لذلك المسلم يخشى من ذنبه أضعاف ما يخشى من عدوه، وقد ورد في الأثر أن:

((لا يخافن العبد إلا ذنبه ولا يرجون إلا ربه))

فالذنب خطير، لأن الأمر كله بيد الله، هكذا، الله يقوي الكافر ويقوي المؤمن، الأمر بيده، القوة بيده، حسم المعركة بيده، إذا تواجه الحق والباطل أو إذا تحارب الحق مع الباطل فالمعركة قصيرة جداً، لأن الله مع الحق، وإذا اصطدم باطلان فالمعركة طويلة جداً، لأن القوى تتغير فتتكافأ تارةً ولا تتكافأ تارةً أخرى، فهذه الآية أصلٌ في النصر على المستوى الجماعي.

أما على المستوى الفردي ؛ فأنت في عملك، في بيتك، إذا أقمت دين الله أعطاك الله هيبةً، ألم يقل الإمام الشعراني: " إني أعرف مقامي عند ربي من أخلاق زوجتي "، حتى على مستوى البيت إذا كنت غيوراً، إذا كنت تأتمر بأمر الله، تنتهي عما نهى عنه، وتقيم شرع الله في بيتك فلك هيبةٌ كبيرة، الكل ينصاعون، فإذا أردت المعنى الفردي بحيث تكون كلمتك هي العُليا في أسرتك، فانصر دين الله في البيت، تساهلْ في الأمور التي لا علاقة لها بالدين، وكن في أمور الدين وقّافاً عند كتاب الله، في عملك، مع أقرانك، مع من هم أقوى منك، مع من هم أضعف منك، حتى على المستوى الفردي.

(إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ)

(من اعتصم بأمر الله و طبق أمره نصره على أقوى أعدائه:)

هذا القرآن معجز، كلامٌ جامعٌ مانع، إن أخذت هذه الآية على مستوى أمة لن نستطيع أن ننتصر على عدونا إلا إذا تمسّكنا بإسلامنا، و لن نستطيع أن نقف أمام القوى الغاشمة إلا إذا اعتصمنا بالله وأطعناه وطبقنا أمره، أما على المستوى الفردي فحتى في عملك لن تستطيع أن تنتصر على خصومك أو على منافسيك إلا إذا كنت مع الله عزّ وجل طائعاً، مستسلماً، مؤتمراً بما أمر، منتهياً عما عنه نهى وزجر.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ)

والنصر مطلق، أي مشكلة النصر فيها محك، فالإنسان أحياناً ينتصر على مرضه، ينتصر على من يشاكسه، ينتصر على أقرب الناس إليه، ينتصر على أبعد الناس عنه، ينتصر في عمله، ينتصر في علاقته مع خصومه، مع الأقوياء، مع الضعفاء.

(إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ)

بطولة الإنسان لا أن ينتصر أن يحافظ على هذا النصر:

لكن:

(وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ (7))

هذه لها لفتة لطيفة جداً، يا ترى ثبت الله أقدامنا فانتصرنا ؟ أم انتصرنا فثبت أقدامنا ؟ لبعض المفسرين رأيٌ رائع في هذه الآية في حكمة تأخير:

(وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ (7))

كيف ؟ فالحقيقة أن الإنسان حينما ينتصر أمامه منزلاقاتٌ خطيرة، فالبطولة لا أن تنتصر، البطولة لا أن تصل إلى قمة الجبل، فهذه بعض البطولة، ولكن البطولة أن تبقى في القمة، ما الذي يجعلك في الحضيض بعد أن بلغت القمة ؟ الكِبْر، الزهو، التقصير في طاعة الله عزّ وجل.. فقبل يوم حنينٍ طبعاً كان المسلمون قد انتصروا وفتحوا مكة، فتح مكة كان فتحاً مبيناً، هذه المدينة التي ناصبت العداء للنبي عليه الصلاة والسلام ولأصحابه عشرين عاماً، وكان عليه الصلاة والسلام بإمكانه أن يلغي وجود أهلها لكنه قال:

((اذهبوا فأنتم الطلقاء))

فهذه مكة التي ناصبت النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه العداء عشرين عاماً فتحت وانتصر النبي وأصحابه نصراً حاسماً مؤزراً عزيزاً، فماذا قال أصحاب النبي، نعم أصحاب النبي ؟ وهم على ما هم عليه من حبٍ لله ورسوله، ومن ورع، ومن تضحيةٍ وإيثار، قالوا: لن نغلب اليوم من قلة، شعروا بالزهو وهم أصحاب النبي، والنبي معهم قال:

(وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمْ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ(25))

(سورة التوبة)

من انتصر عليه أن يعزو هذا النصر إلى الله عز وجل:

إذاً البطولة لا أن تنتصر، بل أن تحافظ على هذا النصر، بالتواضع، دخل عليه الصلاة والسلام مكة فاتحاً وقد كادت ذؤابة عمامته تلامس عنق بعيره تواضعاً لله عزّ وجل، فالمنتصر أمامه منزلاقات خطيرة، فتصور من باب التمثيل ؛ جبل له طرق صعبة جداً للوصول لقمته، طرق وعرة، ملتوية، فيها أكمات، فيها حُفَر، فيها صخور، فما إن وصلت إلى قمة الجبل حتى تنفّست الصُعَدَاء، لكنك وأنت على قمة الجبل تجد طريقًا زَلِقاً مبلّطًا ببلاط ثقيل مع آثار الصابون فرضاً، فأنت حين تصل إلى قمة الجبل

تبذل جهداً لا حدود له، لكن الزهو وحده وأنت في قمة الجبل يجعلك في الحضيض، والكبر يلقيك في الحضيض، الآن إذا انتصرت ورأيت أن الغلبة قد آلت إليك وأن العدو قد خضع فربما تساهلت في تطبيق أمر الله عزّ وجل، فللحضيض تنحدر، لذلك البطولة لا أن تصل إلى القمة، البطولة أن تبقى في القمة، لا أن تنتصر بل أن تحافظ على النصر، لذلك بعض العلماء يقول: ومعنى قوله تعالى:

(إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ (7))

بعد النصر، يثبت أقدامكم على نتائج النصر، على مكتسبات النصر، وأنت إذا انتصرت ينبغي أن تعزو هذا إلى الله عزّ وجل، ينبغي أن تتواضع له، ينبغي أن تزداد تطبيقاً لأمر الله، فإذا فعلت هذا بعد النصر بقيت في القمة..

الغرور يودي بالمنتصر إلى الحضيض:

(وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ (7))

القدم هي التي تزل، فالأصل أن يقال: ويثبتكم لكن لأن القدم أداة الثبات وأداة الانزلاق جاءت كلمة القدم لتعبّر عن الكيان كله، وهذا في المجاز العقلي الاستخدام الجزئي ليعبر عن الكل.

(إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ (7))

تثبيت القدم الحفاظ على نتائج النصر بعد النصر، فهذه نقطةٌ دقيقة جداً، فآلاف الأشخاص، آلاف المؤسسات تبدأ بجهدٍ واضح، فإذا بلغت قمة النجاح تساهلت في مستوى البضاعة فانهارت وأصابها الكساد، ثم اختلف الشركاء وتفرقوا، وأغلقت هذه المؤسسة لماذا؟ لأنهم لم يحافظوا على النصر، فهؤلاء الذين يتحركون نحو العُلا، نحو القمم، عليهم أن ينتبهوا إلى أن أخطاراً كبيرةً تنتظر من يصل إلى قمة النجاح، الغرور يودي بالمنتصر إلى الحضيض، الغرور، الزهو، الكبر، المعصية.

ما من إنسان إلا وتغمره سعادةٌ لا توصف حينما ينتصر:

المؤمن لا يخشى من عدوه بل يخشى من ذنبه، لأن الأمر بيد الله، لكنه إذا أذنب ينبغي أن يؤدي الثمن باهظاً، هذا معنى أن الله سبحانه وتعالى قال:

(يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ (7))

أيْ يثبت أقدامكم بعد النصر، وبعضهم قال: عطف السبب على المُسَبِّب، يثبت أقدامكم عطف الله السبب على المسبب، أي ينصركم لتثبيت أقدامكم، والمعنى الآخر جيد، لكن هذه الآية أصلٌ، فليس من

إنسان إلا وتغمره سعادةٌ لا توصف حينما ينتصر، حتى ولو دخل امتحاناً وفاز فيه، لو نجح في امتحان، فالنجاح محبب للنفوس والدليل:

(وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ)

(سورة الصف)

الله عز وجل لا يمنح النصر إلا بالعدل:

إنك إن قرأت في التاريخ عن معركةٍ وقعت بين المسلمين وغير المسلمين وانتهت المعركة بانتصار المسلمين تشعر بالراحة، والغِبْطَة والسرور، وهي معركةٌ وقعت قبل ألف عام وقطفت ثمار نتائجها، فكيف إذا كانت معركة معاصرة ؟ أنت إذا سمعت أن هؤلاء الكفار اجتاحوا بلداً مسلماً تتألم أشد الألم وقد لا تحتمل هذه الأخبار، قال تعالى:

(وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرْ الْمُؤْمِنِينَ(13))

(سورة الصف)

لكن النبي صلى الله عليه وسلم لشدة أدبه مع الله عزّ وجل كان يدعو ويقول:

((اللهم إني أسألك موجبات رحمتك))

[الترمذي، ابن ماجه عن عبد الله بن أبي أوفى]

الموجبات، لأنك عادل يا رب فأنت لا تمنح النصر إلا بالعدل، لذلك لما وقف النبي عليه الصلاة والسلام في معركة بدر يناجي ربه ويقول: يا رب إن تهلك هذه الفئة فلن تعبد بعد اليوم. وقد وقع الرداء من على كتفه، فجاء سيدنا الصديق رضي الله عنه ووضع الرداء على كتف النبي وقال: " يا رسول الله بعد مناشدتك ربك، إن الله ناصرك "، ليس معنى هذا أن ثقة الصديق بالنصر أشد من ثقة رسول الله، لكن المعنى أن النبي عليه الصلاة والسلام كان يخشى أن يكون هناك تقصيرٌ في الإعداد، لأن الله لا يعطي إلا بالعدل، فالحذر الحذر أن يكون هناك تقصير.

من أقام أمر الله عز وجل نصره الله و ذلل له كل الصعاب:

فلذلك:

(إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ)

ولو قرأتَ التاريخ الإسلامي من ألفه إلى يائه لوجدتَ هذا التاريخ كله تجسيداً لهذه الآية: كانوا يقيمون أمر الله عزّ وجل فينتصرون، بمدينة فينا (عاصمة النمسا) لوحة في المتحف شهيرة، هذه اللوحة تصوّر وصول محمد الفاتح إليها فاتحاً، الجُند الأتراك حينما كانوا متمسّكين بإسلامهم فكانوا يشترون العنب من

فتيات فينا دون أن ينظروا إلى أولئك الفتيات، هكذا لوحة زيتية، كيف أن الجندي المسلم يشتري العنب من الفتاة دون أن ينظر إليها تطبيقاً لأمر الله عزّ وجل، كادت فتوحات المسلمين من الشرق والغرب أن تفتح أوروبا بأكملها إن لم ننصره بتطبيق دينه فلن ينصرنا، وهذه حقيقةٌ ربانية، فاعرف فضائل إسلامك أيها المؤمن و لُذ بها.

من انتصر على نفسه نصره الله على عدوه:

لهذا إذا دعوت في الخطبة فإني أقول: اللهم انصرنا على أنفسنا، حتى نستحق أن تنصرنا على أعدائنا، لنبدأ بأنفسنا، لنقيم الإسلام في بيوتنا، اعمل مراجعة ؛ فالزوجة هل ترضي الله عزّ وجل حال كونها في البيت ؟ هل يرضي اللهَ وضعُها خارج البيت ؟ بناتك في البيت، هل تأمرهن بالصلاة ؟ وأنت هل تتصرف في البيت كما أمر الله عزّ وجل ؟ فأنت حينما تقيم الإسلام في البيت وهذه مملكتك، وحينما تقيمه في معملك وهذا المعمل مملكتك أيضاً، عندئذٍ يتولى الله عنك أمر كل ما لا تستطيع أن تصل إليه ويذلله لك، هذا معنى قول الله عزّ وجل:

(إنّ اللّهَ لا يُغَيّرُ مَا بقوْمٍ حَتّى يُغَيّرُوا مَا بِأنْفُسِهِمْ)

(سورة الرعد: آية 11)

فإذا كنت في بحبوحةٍ و أنت مستقيم، ولا تغير من استقامتك فلا يغير الله من بحبوحتك، وإن كنت في ضيقٍ غَيّر من سلوكك وتصرفاتك إلى الأحسن حتى يغيّر الله، هذا ملخص الملخص، إذا كنت في بحبوحةٍ لا تغير فلا يُغيِّر، وإن كنت في ضيقٍ غَيّر حتى يُغَيّر.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ (7))

من أقام أمر الله عز وجل دافع الله عنه في علياته:

مرة ثانية: هذه الآية تفهم على مستويين ؛ على مستوى فردي وعلى مستوى جماعي، وحدك، بعملك، ببيتك، الله يقوّيك، يسبغ عليك هيبة، من هاب الله هابه كل شيء، ومن لم يهب الله أهابه الله من كل شيء، يروي أن الحسن البصري من كبار التابعين نفذ أمر الله في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، هذا التنفيذ لأمر الله في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أغضب الحجاج، فقال لأصحابه: **" والله لأسقينكم من دمه، ائتوني به لأقطع رأسه، وجاء بالسيّاف، ومد النِطَعُ، وطُلِبَ لقطع رأسه، فلما دخل على الحجاج حرّك شفتيه بكلامٍ لم يفهمه أحد، فما كان من الحجاج إلا أن وقف وقال: أهلاً بأبي سعيد، واستقبله وما زال يقربه حتى أجلسه على سريره، وسأله عن صحته، واستفتاه في بعض**

القضايا، وتقول رواية: وعطره، ثم ودعه، وقال له مودعاً: أنت يا أبا سعيد سيّد العلماء، وشيّعه إلى باب القصر "..

السياف الذي جيء به ليقطع رأسه والحاجب صُعِقا، فتبعه الحاجب عند خروجه وقال له: يا أبا سعيد لقد جيء بك لغير ما فعل بك، فماذا قلت وأنت داخلٌ على الحجاج ؟ قال قلت: **" يا ملاذي عند كربتي، يا مؤنسي في وحشتي، اجعل نقمته علي برداً وسلاماً كما جعلت النار برداً وسلاماً على إبراهيم"**. ما الذي بُدّلَ في قلب الحجاج ؟ جاء به ليقطع رأسه فأكرمه، واستفتاه وأثنى عليه، ودعا له وشَيَّعه إلى باب قصره، أنت إذا أقمت أمر الله عزّ وجل فالله في عليائه يدافع عنك، أنت مع من ؟.

(قالا رَبّنَا إِنّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى(45)قالَ لا تَخَافَا إِنّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى(46))

(سورة طه)

من شعر أن الله معه عليه أن يطيعه و يقيم أمره:

أين يكون الله تعالى ؟

(إِنّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى(46))

إذا شعرت أن الله معك دائماً وأنه ناصرك دائماً، فما عليك إلا أن تطيعه فقط، ما عليك إلا أن تقيم أمره، ما عليك إلا أن تستلم له وعلى الله الباقي، لهذا جاءت الآيات:

(بَلْ اللّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنْ الشّاكِرِينَ(66))

(سورة الزمر)

ما عليك إلا أن تعبده مخلصاً وانتهى الأمر، وانتهى كل شيء.

الشقاء والتعاسة عاقبة البعد عن الله والإقبال والتفاؤل عاقبة المؤمن:

(وَالّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَهُمْ وَأَضَلّ أَعْمَالَهُمْ (8))

أما: **(تعساً لهم)** أورد القرطبي عشرة وجوهٍ في تفسيرها، فاتني أن آتي بها لكن أذكر بعضها: تعساً لهم أي شقاءً لهم، تعساً لهم أي خزياً لهم، تعساً لهم أي بعداً لهم، تعساً لهم أي تحقيراً لهم، الذين كفروا تعساً لهم، أي الشقاء والتعاسة، والخزي والعار، والبُعْد واللعن، والقلق والحيرة، والقهر والحرمان، والوحشة والضيق، كل هذا في البُعد عن الله عزّ وجل ؛ والأمن والطمأنينة، والثقة والرضا، والإقبال والتفاؤل في الإيمان بالله وطاعته.

(وَالّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَهُمْ وَأَضَلّ أَعْمَالَهُمْ (8))

كلنا قد حُكِمَ علينا بالموت، أبداً كل مخلوقٍ يموت ولا يبقى إلا ذو العزة والجبروت..

والليل مهما طال فلابد من طلوع الفجر والعمر مهما طال فلابد من نزول القبر

****

و كل ابن أنثى و إن طالت سلامتـه يوماً على آلة حدباء محمـــول

فإذا حملت إلى القبـــور جنازة   فاعلم بأنك بعدهــا محمـــول

****

الذين كفروا أضل الله أعمالهم لكن المؤمن أعماله تنمو و ترقى به:

ما الذي يبقى بعد الموت ؟ العمل

((يا قييس إن لك قريناً يدفن معك وأنت ميّت وتدفن معه وهو حي، فإن كان كريماً أكرمك، وإن كان لئيماً أسلمك ألا وهو عملك))

الذين كفروا أضل أعمالهم، لكن المؤمن أعماله تنمو و ترقى به..

(ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ(24)تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ)

(سورة إبراهيم)

النبي جاء بمفرده عندما بعثه الله لهذه الأمة، الآن في بالعالم مليار ومئتا ومليون مسلم، الخير يتوسّع، فالمؤمن إذا آمن بالله واستقام على أمره له عمل مشرف، له عمل ينمو، عمل يتوسّع، فإذا الإنسان دعا إلى هدى فكل من استفاد من هذا الهدى في صحيفته، أما الكافر:

(وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا(23))

(سورة الفرقان)

تجد طاقاته الفكرية، عمله، أمواله، حركته هذا كله يتبدد، لا وجود له، هذا معنى (فأحبط أعمالهم)، إن كانت فيما يبدو طيبة لا أجر لهم بها، أرادوا بها الدنيا، وإن كانت سيئة بحكم طبيعة البشر ينبذونها، و كل شيء سيّئ منبوذ، الناس ينفرون منه.

شعور الكافر بالتعاسة في كل أحواله:

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ (8))

ألا تكفي هذه الآية ؛ أن الكافر يشعر بالتعاسة في كل أحواله وقد يؤكد هذا المعنى قول النبي عليه الصلاة والسلام:

((تعس عبد الدرهم والدينار، تعس عبد الفرج، تعس عبد البطن، تعس عبد الخميصة))

[البخاري عن أبي هريرة]

(فَتَعْسًا لَهُمْ وَأَضَلّ أَعْمَالَهُمْ (8) ذَلِكَ)

أيْ أنّ السعادة في النصر والشقاء في الخذلان.

الجاهل يرى أن حدود الشرع حدودٌ تقيّد حريته:

(ذَلِكَ بِأَنّهُمْ)

أيْ الكفار..

(كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ (9))

الصحابة الكرام أخبر الله عنهم بأنهم يفرحون بما نُزّلَ عليهم، كلما جاء الوحي يشرّع لهم أمراً أو يحذرهم من أمر، يأمرهم بأمر، ينهاهم عن أمر، فرحوا به، أي سمت نفوسهم حتى اقتربت من مستوى الشرع، لكن الكافر تتوق نفسه للشهوة ويسلك فيها طرقاً غير مشروعة، لذلك يشعر بأن الشرع يقيّدُهُ، يكره أحكام الشرع، وقد يتضح من هذا أن المؤمن يرى أحكام الشرع ضماناً لسلامته، كما لو أن إنسانًا مشى في طريق فإذا بلوحةٍ: ممنوع المرور ؛ حقل ألغام، هل يشعر هذا الإنسان المواطن بحقد على من وضع هذه اللوحة ؟ لا أبداً بالعكس، يمتن لأن هذه اللوحة تضمن له سلامته، فإذا رأيت أن هذه اللوحة التي فيها منع، ورأيت أن فيها قيداً لحريتك فأنت لا تعرف الحقيقة، الجاهل يرى أن حدود الشرع حدودٌ تقيّد حريته، يحب أن يتفلّت، مع أن الحقيقة الدقيقة أنه على نور و تبصرة تورثه السلامة.

حياة المؤمن حياة مقيّدة بالمنهج و الأمر والنهي:

الله عزّ وجل قال:

(أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبّهِمْ)

(سورة البقرة: آية " 5 ")

(على) تفيد العلو، الهُدى كله قيود ؛ عليك بغض البصر، عليك بصدق الحديث، أداء الأمانة، صلة الرحم، عليك أن تؤدي الصلوات، هذه حرام، هذه حلال، هذا ممنوع، هذا مكروه، هذه فيها شبهة، حياة المؤمن بحسب الظن كلها قيود، وكلها مناهج، وكلها مبادئ ومع ذلك فهذا الهدى على ما فيه من قيود فإنها تطلقه إلى العلو وترقى به.

(أُولَئِكَ عَلَى هُدًى)

على ما في الهدى من قيود، ومن أوامر ونواهٍ، افعل ولا تفعل، واجب، فرض، مندوب، مستحب، مباح، مكروه تنزيهاً، مكروه تحريماً، حرام، كل شؤون الدنيا تتعاورها هذه الأحكام الخمسة، فحياة المؤمن حياة مقيّدة بالمنهج، مقيدة بالأمر والنهي، ومع ذلك هذه القيود تجعله طليقاً..

الانطلاق في الحرية تنتهي بالمتفلت إلى القيد والفتك:

(كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ(38)إِلا أَصْحَابَ الْيَمِينِ(39))

(سورة المدثر)

طلقاء، فالقيود تنتهي بك إلى الانطلاق والعلو، والضلال يزيّن للناظر السطحي أن الضال إنسان حر ؛ يفعل ما يشاء، يأكل ما يشاء، يذهب إلى أي مكانٍ يشاء، يلتقي مع من يشاء، يمارس المتعة كيفما يشاء، ومع ذلك فهذه الحرية، وهذه الانطلاقة في الحرية تنتهي به إلى القيد والفتك.

(أُوْلَئِكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ(22))

(سورة الزمر)

فالمعنى المستفاد من كلمة (على) ومن كلمة (في)، أنّ الهدى على قيوده يرفعك، والضلال على طلاقته يقيدك، إما في كآبة، أو في مرض نفسي، أو في سجن، أو في قهر، أو في مرض بدني، أو في مصير أسود.

ما من معصية في الأرض إلا بسبب خروج عن منهج الله عز وجل:

لذلك:

(ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ (9))

أيْ خرجوا عن منهج الله، والشيء الثابت أنه ما من مشكلةٍ على الإطلاق في الأرض إلا من بعد معصية، خروج عن منهج الله، من يعمل في الأمن الجنائي عندهم قاعدة، إذا بُلِّغوا عن جريمة، يقولون لك: فتش عن المرأة، هذه القاعدة عدّلتُها فقلت: إذا رأيت مشكلة في الأرض فتِّش عن المعصية، هذه المشكلة وراءها معصية، وراءها خروج عن منهج الله عزّ وجل، فتش عن المعصية تحل المشكلة، هذه القضية سببها تلك المعصية..

(ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ (9))

من كفر بالله عز وجل حبط عمله في الدنيا و الآخرة:

طبعاً عندنا دليل عملي:

(أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ)

أخبرنا الله أن الذي يكفر بالله ويكفر بأمره ونهيه يُحْبطُ عمله ويصبح عمله منحطاً، دنيئاً، خسيساً، محتقراً، أو يحبط عمله ولو كان صالحاً لأن نيته الدنيا وقد أصابها وانتهى الأمر، تعلّمت العلم ليقال عنك عالم وقد قيل خذوه إلى النار.

(ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ (9))

من يتعدى بذاته يدمره الله عز وجل:

إذًا دليل عملي:

(أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ)

(أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ(6)إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ(7))

(سورة الفجر)

الفراعنة أين هم ؟ قوم عادٍ وثمود أين هم ؟ هذه الأقوام التي آتاها الله قوةً وأشادت الأبنية، لا يزال بناء الأهرام سرّاً حتى الآن، كيف وصلوا إلى هذا البناء الشامخ، كيف نُقِلتْ الأحجار ؟ كيف صممت هذه الخطوط ؟

الدمار ينتظر كل إنسان خرج عن منهج الله وكفر به:

لذلك:

(أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا (10))

طبعاً دمَّر فعلٌ متعدٍ، يتعدى بذاته تقول: دمره الله، أما هنا دمر عليهم، قال علماء التفسير: " دمر عليهم بمعنى أنه دمَّرهم، ودمر ممتلكاتهم، ربما فوق رؤوسهم فدفنوا تحت أنقاضها، ودمر أموالهم، ودمر بيوتهم، ودمر آثارهم، أحياناً يأتي زلزال لا يبقي ولا يذر، أحياناً إعصار لا يبقي حجراً فوق حجر..

(دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا (10))

الشيء الدقيق في الآية أن هذه المواعظ وهذا التاريخ الذي يورده القرآن الكريم وكيف أهلك الأمم مهما كانت قوية ؟ هذا المصير ينتظر كل إنسان خرج عن منهج الله وكفر بما عند الله.

المؤمنُ في عين الله عزّ وجل مادام مقيماً لأمره ملتزماً بطاعته:

(وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا (10) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آَمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ (11))

تصور ؛ أب في أعلى مستويات العلم والقدرات المالية، والذكاء، والفهم، وله ابن يربّيه أعلى تربية ؛ يتابع نموه الجسدي، يتابع أسنانه فإذا تراكبت يذهب به رأساً إلى مقوم الأسنان، يتابع أجهزته، يتابع دراسته، يتابع ألفاظه، حركاته، عاداته، ترى هذا الابن في عناية فائقة تحوطه اهتمامات شاملة لأن له ولياً، له ولي عظيم، وعاقل، ومربٍ ساهر، وغني، ومقتدر، فكل طاقات الأب وخبراته في الحياة كلها تصب للعناية بابنه هذا، وتصور: طفل ليس له أب وليس له أهل، وفي الأزقة لا أخلاق ولا علم ولا عادات، منحرف، ذاك ابن له من يربيه، وهذا ليس له من يربيه، هذا المعنى القريب، أيضاً المؤمنُ في عين الله عزّ وجل، ولقد قال ربنا عزّ وجل:

(فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا)

(سورة الطور: آية 48)

طبعاً هذه الآية للنبي عليه الصلاة والسلام، ولكنها في الوقت نفسه لكل مؤمنٍ بحسب إيمانه وإخلاصه وطاعته، أنت بعناية الله عزّ وجل، أنت تحت ظل الله يوم لا ظل إلا ظله، أنت بتوفيق الله، وبتأييد الله، وبنصر الله.

الله مع المؤمن في التوفيق والتأييد والنصر والعَوْن:

حتى الآيات الكريمة:

(وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ(19))

(سورة الأنفال)

(أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ(194))

(سورة البقرة)

(إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ(46))

(سورة الأنفال)

هذه معية خاصة أيها الأخوة، ومعنى المعية الخاصة أي أن الله مع المؤمن في التوفيق والتأييد والنصر والعَوْن، أما إذا قال الله:

(وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ)

(سورة الحديد: آية 4)

هذه مع أيِّ مخلوق بالعلم، معهم بعلمه، لكن مع المؤمنين بتوفيقه وتأييده ونصره وإنجاحه..

الله عز وجل وليّ الذين آمنوا:

(أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا (10) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ (11))

الآية الكريمة:

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ(30))

(سورة فصلت)

الآن دقق:

(نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ(31)نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ(32))

(سورة فصلت)

ماذا تشعر إذا قال الله: يا عبدي أنا وليُّك ؟ إذا كان الله معك فمن عليك ؟ وإذا كان الله عليك فمن معك ؟ لا يوجد معك أحد، يجب أن يشعر المؤمن إذا تلا هذه الآية بقشعريرة.

من استقام على أمر الله نقله من حال إلى حال:

(ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا)

عليك أن تؤمن وأن تستقيم، والله بعدها وليك، فلا تخف، ولا تحزن، ولا تخشَ أحداً، ولا تخشَ إلا ذنبك.

(ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا)

ينقلك من حالٍ إلى حال، من منزلةٍ إلى منزلة، من مقامٍ إلى مقام، من توفيق إلى توفيق، من نصر إلى نصر، الله وليك، اجعل هذه الكلمة هدفاً وشعاراً لك: إذا كان الله معك فمن عليك ؟ وإذا كان الله عليك فمن معك ؟ يا رب ماذا وجد من فقدك ؟ وماذا فقد من وجدك ؟!

(إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ (12))

حياة الكافر حياة متعة ليس لها أثر مستقبلي إطلاقاً:

حياة الكافر حياة متعة، والمتعة الشيء الطارئ، لذة طارئة ليس لها أثر مستقبلي إطلاقاً، لذةٌ عابرة ليس لها مردود.

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ (12))

دابةٌ في النهار جيفةٌ في الليل، في النهار دواب، في الليل جِيَفٌ، هؤلاء الذين كفروا ؛ لا صلاة، ولا ذكر، ولا تلاوة ؛ ولا أمر بالمعروف ؛ ولا نهي عن المنكر، ولا مجلس علم ؛ ولا فهم لكتاب الله ؛ ولا فهم لسنة رسوله، كالبهائم، وأساساً فالإنسان من دون علم كالبهيمة، بهيمة فلتانة غير منضبطة، وهناك بهائم ملجومة، كما أن هناك بهائم برية شاردة هائمة، فانظر و تأمل.

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ (12))

هذه الآية إن شاء الله تعالى نعود إليها بالتفصيل في درسٍ قادم.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة محمد 047 - الدرس (3-8): تفسيرالآيات 12-15، موازنة بين الحق والباطل

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 21-12-1994

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الثالث من سورة محمد صلى الله عليه وسلّم.

انقسام البشر إلى فريقين: فريق إلى الجنة، و فريق إلى النار:

مع الآية الثانية عشرة وهي قوله تعالى:

(إِنّ اللّهَ يُدْخِلُ الّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحَاتِ جَنّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنّارُ مَثْوًى لَهُمْ (12))

ففي النهاية ينقسم البشر جميعاً إلى فريقين ؛ فريقٍ يدخل الجنّة ففيها:

((ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمِعَت، ولا خطر على قلب بشر))

[متفق عليه عن أبي هريرة]

إلى أبد الآبدين، ولك أن تفهم الأبد كيفما شئت، على كلِ أكبر رقم يمكن لعقلٍ بشري أن يتصوّره إذا نُسِبَ إلى الأبد أصبح صفراً، لو أن هناك رقماً من الأرض إلى القمر أصفار، ثلاثمئة وستون ألف كيلو متر أصفار، أو رقماً من الأرض إلى الشمس ؟ مئة وستة وخمسون مليون كيلومتر أصفار، كل ميليمتر صفر، لو أن هناك رقم من الأرض إلى المجرّة مليون سنة ضوئيّة كله أصفار بعد الرقم (1) هذا الرقم إذا قيس إلى اللانهاية تجده صفرًا، فما هو الأبد ؟

على الإنسان ألا يضيع آخرته بدنياه:

(إِنّ اللّهَ يُدْخِلُ الّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحَاتِ جَنّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ(12))

لو أن إنساناً آثر الحياة الدنيا بضْع سنوات، الإنسان متى يستقر نفسياً ؟ بعد أن يُنْهي دراسته، وبعد أن يؤسِّس عملاً، وبعد أن يتزوّج، وبعد أن يشتري بيتاً، يعني بعد الزواج وتأمين العمل وشراء المنزل، وقد توفّر له ثابت، وصار ذا مكانة، واستقرار عائلي، فمن الآن بدأت حياته، كم سنة ؟ سنوات معدودة قد لا تزيد على عشر سنوات، قد لا تزيد على عشرين عاماً، من أجل هذه السنوات العشرين نُضَيِّع الأبد ؟ من أجل بضع شهواتٍ، من أجل أن نكسب مكسباً محدوداً نتركه عند الموت نضيع الأبد ؟

(إِنّ اللّهَ يُدْخِلُ الّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحَاتِ جَنّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ(12))

إيمان الإنسان من دون عمل صالح لا قيمة له إطلاقاً:

أيها الأخوة الأكارم، في الأعمّ الأغلب إن كلمة الإيمان أُرْدِفَت في القرآن الكريم بالعمل الصالح، الإيمان بلا عمل لا قيمة له إطلاقاً..

(إنّ اللّهَ يُدْخِلُ الّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحَاتِ (12))

والعمل الصالح من معانيه الاستقامة على أمر الله، من معانيه البذل والعطاء، وأن تنفق مما أعطاك الله عزّ وجل..

(إنّ اللّهَ يُدْخِلُ الّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحَاتِ (12))

هذا الوعد من الله يُنسي المؤمن كل متاعب الحياة الدنيا، الإنسان إذا رأى مقامه في الجنّة يقول: **" لم أر شرّاً قط "**، لو أن حياته كلها كانت مشحونةً بالمتاعب ؛ فقر، مرض، ضيق، ضغط، شدّة، أجل مهما كانت حياة المؤمن كلها مشحونةً بالمتاعب فإذا جاء أجله ورأى مقامه في الجنّة يقول: لم أر شرّاً قط، وقد ورد في الحديث:

((وعزّتي وجلالي لا أقبض عبدي المؤمن وأنا أحبُ أن أرحمه إلا ابتليته بكل سيئةٍ كان عمِلها سقماً في جسده، أو اقتاراً في رزقه، أو مصيبة في ماله أو ولده، حتى أبلغ منه مثل الذر، فإذا بقي عليه شيء شدّدت عليه سكرات الموت حتى يلقاني كيوم ولدته أمه))

[ورد في الأثر]

من نجا من عذاب الآخرة لا قيمة لمتاعب الدنيا عنده:

نحن أيها الأخوة، في هذه الدنيا التي هي دار تنقية، دار ابتلاء، دار امتحان، في دار عمل، كل متاعب الحياة الدنيا ليست بشيء أمام أن ترى نفسك قد نجوت من عذاب الآخرة:

(فَمَنْ زُحْزِحَ عَنْ النّار وَأُدْخِلَ الْجَنّة فقدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إلا مَتَاعُ الْغُرُور(185))

(سورة آل عمران)

هذا المعنى، المؤمن يوطِّن نفسه على تحمُّل بعض المشاق، على تحمّل بعض المتاعب، على الصبر، على معالجة الله له، لأن الله رب العالمين هو الذي يعالج عباده المؤمنين ؛ يُنَقِّيهم، يطهّرهم، يرقى بهم من حالٍ إلى حال، من مقامٍ إلى مقام، من منزلة إلى منزلة، من مستوى إلى مستوى.. أنا أعطيك الدليل.. أليس لك صديقٌ في سِنِّك تماماً، يمشي في طريقٍ آخر غير طريق الدين ؟ بعد حين التقيت به واستمعت إليه تعرف نعمة الله عليك، قد ترى ضيق أفقه، قد ترى شركه، قد ترى دناءة نفسه، قد ترى

تَعَلُّقه بالدنيا، قد ترى ضعف إيمانه بالله، قد ترى مُزاحاً له لا يُرضي، إذًا لن تعرف قيمة الإيمان، وقيمة الطُهر، وقيمة السمو إلا إذا رأيت إنساناً آخر يمشي في طريقٍ آخر.

وعد الله عز وجل للإنسان بالجنة يلغي كل متاعب الحياة الدنيا عنده ويبددها:

فيا أيها الأخوة الأكارم:

(إِنّ اللّهَ يُدْخِلُ الّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحَاتِ جَنّاتٍ (12))

أيْ إنّ هذا الوعد يمتص كل متاعب الحياة الدنيا، ذكرت مرّةً مثلاً يقرّب هذا المعنى: إنسان دخله قليلٌ جداً، عنده ثمانية أولاد، ودخله لا يزيد عن ألفٍ وخمسمئة ليرة في هذه الأيام، وبيته مستأجراً، حياته ضيّقة جداً، طعامه خَشِن جداً، بيته صغير جداً، له عمٌ مثلاً يملك خمسمئة مليون، ليس له أولاد وتوفي فجأةً بحادث، ألم تنتقل كل هذه الثروة لهذا الفقير فجأةً ؟ بقي عامٌ إلى أن قبض المبلغ الأول، لماذا هو في هذا العام من أسعد الناس ؟ مع أن حياته هي هي، وطعامه هو هو، وبيته هو هو، لم يتغيّر في حياته شيءٌ إطلاقاً، ومع ذلك تراه من أسعد الناس لأنه دَخَلَ في الوعد الحقيقي، كل هذه الثروة آلت إليه، وبقي أشهراً حتى يقبض هذه المبالغ الطائلة، إذاً هذا الوعد بهذا الغنى الكبير في نظره طبعاً يُنسيه كل متاعب دنياه.

وكذلك حال المؤمن، فحينما يعده خالق الكون بجنّةٍ عرضها السماوات والأرض فهذا الوعد يلغي كل متاعب الحياة الدنيا ويبددها، يقول المؤمن: والله أنا راضٍ يا رب، راضٍ عن كل شيء.

المؤمن راض عن كل ما قدّره الله له:

لذلك أحد الأشخاص كان يطوف حول الكعبة ويقول: " يا رب هل أنت راضٍ عني ؟ " كان وراءه الإمام الشافعي فقال: **" يا هذا هل أنت راضٍ عن الله حتى يرضى عنك ؟ " فوقف وقال: " من أنت سبحان الله ؟ من أنت يرحمك الله ؟ " قال: " أنا محمدٌ بن إدريس " قال: " ما هذا الكلام ؟ كيف أرضى عن الله وأنا أتمنّى رضاه ؟ ما فهمت هذا الكلام "، فقال الإمام الشافعي: " إذا كان سرورك بالنقمة كسرورك بالنعمة فقد رضيت عن الله ".** المؤمن يرضى بقضاء الله وقدره، يرضى بنصيبه من الله عزّ وجل، المؤمن راضٍ عن الله عزّ وجل..

(إِنّ اللّهَ يُدْخِلُ الّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحَاتِ جَنّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ(12))

هذا الفريق الأول.

الكافر من أنكر وجود الله عز وجل:

وأما الفريق الثاني، قال:

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا (12))

أيْ ما عرفوا ربّهم، ما عرفوا منهجه، وأنكروا ؛ إما أنكروا وجود ربهم، أو أنكروا أسماءه، أو أنكروا ألوهيته، آمنوا بأنه خلق لكنهم لم يؤمنوا بأنه فعّال، فهو معهم أينما كانوا، والأمر كله بيده، فمن آمن بالله خالقاً ولم يؤمن به مربياً ومسيّراً ما عبده، إنه يعبد الذي يراه فعّالاً في حياته..

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ (12))

فالأنعام ؛ حيوانات همّها الطعام والشراب، تأكل بلا قيد، وكلّما سَمِنَت اقترب وقت ذبحها، تأكل لتُذبَح، الأغنام تُسَمّن لا من أجلها، لا من أجل صحّتها، لا، بل تسمّن من أجل أن تُذبَح.

الكافر يتمتّع بالدنيا والمؤمن يتزوّد منها:

هؤلاء الذين كفروا..

(يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ (12))

فالكافر يعيش ليأكل، والأرقى من هذا قليلاً: الغافل الذي يأكل ليعيش، والأرقى من هذا وذاك الذي يعيش ليعرف الله عزّ وجل، يعيش ليعرف الله، لذلك قالوا: "المؤمن يتزوّد، والمنافق يتزيّن " ؛ الكافر يتمتّع والمؤمن يتزوّد ؛ يتزوّد من الدنيا بما يعينه على متابعة السير، يتزود من الدنيا بما يعينه على طاعة الله، يتزود من الدنيا ما يعينه على العمل الصالح، والمنافق يتزيّن، قيمته متاعه، أما الكافر يتمتّع، متعته في الحياة الدنيا هي كل حياته، ولا شيء عنده فوق ذلك، لهذا قال عليه الصلاة والسلام:

((تعس عبد الدرهَم والدينار، تعس عبد البطن، تعس عبد الفرج، تعس عبد الخميصة والقطيفة))

[البخاري عن أبي هريرة]

أيْ عبد الثياب..

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ (12))

أولاً: حياتهم كلها متع ليس فيها أعمال، وليس فيها مبادئ يعملون بها، وليس فيها قِيَم يتحلون بها عملاً و سلوكاً، إنما هي متعٌ فارغة تنقضي بانقضاء الحياة الدنيا، وبعدئذٍ يواجهون تبعات أعمالهم.

ليس للإنسان من ماله إلا الذي أنفقه طاعات وصدقات و قربات:

أيها الأخوة الكرام... النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((ليسَ لكَ مِنْ مَالِكَ إلا مَا أكَلْتَ فَأفْنَيْتَ أوْ لَبسْتَ فَأبْلَيْتَ أوْ تَصَدّقْتَ فَأمْضَيْتَ))

[مسند أحمد عن مطرّف]

تصوّر: شخص عنده مئة مليون، ينفق على طعامه كم في السنة ؟ وعلى لباسه كم ؟ وبكم يتصدّق ؟ له من هذا المبلغ الطائل المبلغ الصغير الذي أكل منه، ولبس منه، وتصدّق منه، هذا المبلغ الصغير ثلاثة أقسام، الذي أكله فني، والذي لبسه بلي، ما له مما أنفق إلا الثلث، إن كان تصدّق بالثُّلث وما تبقى محاسبٌ عنه حساباً دقيقاً، كيف اكتسبته ؟ وكيف أنفقته ؟ لذلك المال ما انتفعت به، والكسب الذي اكتسبته دون أن تنتفع به، اكتسبته وأنت محاسبٌ عليه..

تصوّر إنساناً استقرض قرضاً كبيراً، وبعد أن استقرض هذا القرض ضاع منه، لقد وقّع سندات، فعليه تبعة هذا القرض، وعليه أن يؤدّي هذا القرض دون أن ينتفع به.. بالضبط هذا معنى الكسب، أي أنك بذلت جهداً كبيراً، اكتسبت مالاً وفيراً، أودعته في جهةٍ ما، لم تنتفع به إطلاقاً لكنك محاسبٌ عليه كيف كسبته ؟ وكيف أنفقته ؟ أما الذي لك، فالذي أكلته يفنى، والذي لبسته يبلى، ويبقى الذي أنفقته في سبيل الله، يعني من كل ثروتك ليس لك إلا الذي أنفقته طاعات وصدقات وقربات، والباقي فني وبلي وضاع بَدَدا، لذلك قالوا: **" أندم الناس غنيّ دخل ورثته بماله الجنّة، ودخل هو بماله النار، وأندم الناس عالمٌ دخل الناس بعلمه الجنّة ودخل هو بعلمه النار "..**

الإنسان على الرغم من قوّته الله عزّ وجل قادرٌ على أن يحطِّمه في أية لحظة:

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ (12))

المؤمن يأكل بمعىً واحدة، والكافر يأكل بسبعة أمعاء، أيْ أنّ همّه الطعام والشراب..

(وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ (13))

أيْ مع الله لا أحد قوي، ومع الله لا أحد غني، الإنسان على الرغم من قوّته المزعومة أو من ذكائه الموهوم فالله عزّ وجل قادرٌ على أن يحطِّمه في أية لحظة..

من عظمة الله عزّ وجل إهلاك القرى الظالمة بانهيار ذاتي:

(وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ (13))

أيْ وكم من قريةٍ، هذه كم تكثيريّة، يعني أكثر القرى الظالمة:

(هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ (13))

وقد تقرأ في التاريخ الحديث عن دول عُظمى أشد من معظم الدول الأخرى تملك أسلحة نوويّة تكفي لتدمير الأرض خمس مرّات..

(أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ (13))

ما أهلكناهم بتسليط عدوٍ خارجي عليهم، لا، بل أهلكناهم ذاتياً، أهلكناهم بانهيار ذاتي داخلي، وهذا من عظمة الله عزّ وجل، وأحياناً إذا زال الشيء العظيم بشيءٍ عظيم نقول: القضيّة معقولة، أما أن يتلاشى الشيء العظيم بسببٍ تافه فهذه وقائع محيّرة، قال بعضهم: **" عرفت الله من نقض العزائم ".**

حياة المؤمن حياةٌ متميّزة بقيمها وأهدافها النبيلة:

المؤمن يأكل أيها الأخوة ويشرب، وينام، ويتزوّج، ويعمل، ويستمتع بالمباح، بما أباحه الله له، لكنه مع استمتاعه ليبقى هادفاً، قال تعالى:

(إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ)

لكن..

(وَتَرْجُونَ مِنْ اللَّهِ مَا لا يَرْجُونَ)

(سورة النساء: آية " 104 ")

المؤمن إذا تزوّج يرجو من الله ما لا يرجوه غير المؤمن، إذا أسّس المؤمن عملاً فهو يرجو من عمله أن يكون داعيةً بعمله لا بلسانه، هذا المؤمن ؛ صدق، أمانة، إخلاص، خدمة، قناعة، رحمة، فالمؤمن إذا تزوّج يرجو من الله ما لا يرجوه الكافر، والمؤمن إذا عمل عملاً، وأسّس عملاً يرجو من عمله ما لا يرجوه الكافر، وحياة المؤمن حياةٌ متميّزة بقيمها، وبأهدافها النبيلة، وبانضباطها بقواعد الشرع، فحياته انضباط وقيم وأهداف.

المتعة المشروعة ليست حراماً:

أيها الأخوة، النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((إياك والتنعُّم فإن عباد الله ليسوا بالمتنعّمين))

[مسند الإمام أحمد عن معاذ بن جبل]

الحديث متعلِّقٌ بهذه الآية، إيّاك أن تجعله التنعُّم هدفاً في حياتك، هذا يتنافى مع حقيقة الدنيا، يتنافى مع كون الدنيا دار عمل، دار إعداد، دار سعي، لكن الإنسان أحياناً يكرمه الله بمتعةٍ بريئةٍ، أي أن الإنسان عندما يتزوج، وينجب أولاداً، ويعمل عملاً شرعياً فيكسب مالاً، قد يأكل طعاماً طيّباً، وقد يركن إلى

أهله ساعة لطيفة، قد يُداعب أولاده مساءً هذه متعة ولكنها متعة بريئة، متعةٌ أتتك عرضاً، قدّرها الله لك من أجل أن تتابع مسيرة العمر، فالإنسان في السفر، والسفر طويل وشاق، من حين لآخر يستريح، هذه الراحة في أثناء السفر لصالح السفر، لصالح متابعة الطريق، لصالح تجديد النشاط، لذلك المتعة المشروعة ليست حراماً..

(قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنْ الرِّزْقِ)

(سورة الأعراف: آية 32)

طبعاً هذه المتع التي سمح الله لنا بها كالطعام والشراب مثلاً، فالطعام له نكهات طيّبة، فهل المؤمن لا يحس بطعم الطعام ؟! لا إنه يحس بطعمه، سيدنا عمر مرّة قال: " والله إني لأذوَق منكم "، المؤمن عنده إحساس مرهف، لكن المؤمن يتمتّع عرضاً دون أن تكون المتعة دَيْدَنَهُ، دون أن تكون زينة الحياة الدنيا هدفه، الله عزّ وجل يُقَدِّر له متعةً بريئةً طيّبة طاهرةً نظيفة في أثناء هذا الطريق الشاق الطويل وهو في طريق معرفة الله عزّ وجل والسعي للدار الآخرة، يتمتّع، ولكنها متعةٌ تعينه على متابعة الطريق، أما أن تُتّخذ المتعة ديدناً وهدفاً ومبدأً فهذا هو الذي لا يريده الله عزّ وجل، وهذا هو المقصود من قول النبي الكريم:

((إياك والتنعُّم فإن عباد الله ليسوا بالمتنعّمين))

[مسند الإمام أحمد عن معاذ بن جبل]

من غادر بلده إلى بلد آخر تقام به شرائع الدين فهذا أمر مشروع:

(وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ (13))

النبي عليه الصلاة والسلام حينما خرج من مكّة قال:

((والله لأنتِ أحبُّ بلاد الله إلى الله، وأنتِ أحبُّ البلاد إليّ، ولولا أن أهلكِ أخرجوني ما خرجت))

فالهجرة قضيّة مؤثرة وعميقة الأبعاد، الإنسان حينما يهاجر تُقطّع جذوره، أو تُقتَلع جذوره، الإنسان في بلده له مكانة ومع ذلك تغرّب منها إلى بلدٍ آخر ليتعرض أحياناً للهوان، ومع ذلك فالنبي عليه الصلاة والسلام ضرب لأمّته المثل الأعلى في التضحية، من أجل الدعوة نرضى بكل شيء، من أجل الفوز بالآخرة مهما بلغ الثمن نبذله، ولو كان الثمن أن ندع الأرض التي ولدنا عليها..

(وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوْ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلا قَلِيلٌ مِنْهُمْ)

(سورة النساء: آية " 66)

فالإنسان بفطرته يتعلّق بموطنه ومع ذلك إذا كان يُرْضي الله عزّ وجل أن تغادر بلدك إلى بلدٍ آخر تُقام فيه شعائر الدين، وتنجو بدينك فهذا أمرٌ مشروع.

عدم استواء المؤمن مع الفاسق:

ثم يقول الله عزّ وجل:

(أفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ (14))

دقق النظر في هذه الموازنة، فهناك آيات كثيرة تشبه هذه الآية..

(أفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لا يَسْتَوُونَ(18))

(سورة السجدة)

(أفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ(35)مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ(36))

(سورة القلم)

(أفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ الْمُحْضَرِينَ(61))

(سورة القصص)

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ(21))

(سورة الجاثية)

من يتمتع بعقيدة صحيحة يضع يده على حقيقة الكون و الإنسان:

(أفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ (14))

إنسان يعتقد عقيدةً متينةً أن الله سبحانه وتعالى خلق الكون، وأنه ربُّ العالمين، وأنه الفعّال لما يريد، ويعتقد اعتقاداً جازماً أنه لا إله إلا الله، وأنه كاملٌ في أسمائه الحسنى وصفاته الفُضلى، ويعتقد أن النبي عليه الصلاة والسلام سيّد الخلق وحبيب الحق، وأنه المثل الأعلى والقدوة لنا، وأنه معصومٌ في أقواله وأفعاله، وأنه الإنسان الكامل، وأن كل ما أمرنا به هو عين الحق، وكل ما نهانا عنه هو عين الباطل، ويعتقد أن لله ملائكةً يكتبون كل أعمالنا، ويعتقد أن هذا المنهج، هذا الكتاب هو من عند الله فيه خبرنا، وخبر من قبلنا، وخبر من بعدنا، فيه أمْرٌ ونَهْيٌ، ووعدٌ ووعيد، وحرامٌ وحلال، فيه غيب الماضي، وغيب الحاضر، وغيب المستقبل، ويعتقد أن الله سبحانه وتعالى عادلٌ في كل أفعاله، حكيمٌ وقديرٌ، ولطيفٌ ورحيمٌ، هذا الذي يعتقد هذه العقيدة الصحيحة، المُطابقة للواقع، التي لا يمكن أن تُنقض في يوم من الأيّام، بينما أيٌ مذهبٍ وضعي من المحتمل جداً أن يأتي رأيٌ آخر ينقضه، إذا اعتقدت بنظريّةٍ ليست في كتاب الله فمن البديهي جداً أن تأتي حقيقةٌ فتنقضها، فلذلك هذا الذي يتمتّع بعقيدةٍ صحيحة، ويفهم فهماً عميقاً، وقد وضع يده على حقيقة الكون والحياة والإنسان، ثم هو يطيع الله عزّ وجل..

أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ: آية لها معنيان:

(أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ (14))

فمثلاً.. شخص يمشي في طريق وله عينان مبصرتان، يرى بهما الأكمة والحفرة، والشيء النافع والشيء الضار، ومعالم الطريق كلها واضحة وكذلك خباياها، يمشي مطمئن النفس لأنه يرى، يرى حقيقة الأشياء، هذا الذي يمشي مطمئنًا لما يتمتَّع به من رؤيةٍ صحيحة ونظرٍ ثاقب، فهل هذا يشبه إنساناً أعمى يتخبّط في مشيه، يتعثّر في خطواته، يصدم شجرة ويقع في حفرة، ويدوس على حشرةٍ مؤذيةٍ ؟ قال:

(أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ (14))

1- الشيطان عن طريق الوسواس يزيّن للإنسان عمله:

المفسِّرون في هذه الآية لهم رأيان..

الرأي الأول: أن الشيطان عن طريق الوسواس يزيّن له عمله، أي توجد عندنا مصيبتان، المصيبة الأولى أن عمله سيئ، والمصيبة الأسوأ أن يرى عمله حسناً ؛ ويزعم قائلاً: نحن مستنيرون، نحن تركنا هذا الشيء القديم.. الغيبيّات.. نحن في عصر العلم، في عصر المساواة، فيغطّي كل معاصيه بكلماتٍ برّاقة، فالمصيبة مصيبتان، الأولى أن عمله سيئ، والمصيبة الثانية أنه يتصوّر أن هذا العمل السيئ هو عملٌ طيّب..قال تعالى:

(أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ (14))

نعوذ بالله من أن نتوهَّم الأعمال السيئة أعمالاً طيّبة ونحسب الأورام شحمًا و لحماً.

من أخطأ و له عقيدة صحيحة سرعان ما يتوب إلى ربه:

إخواننا الكرام...إنّ الإنسان إذا أخطأ وله عقيدة صحيحة فالقضيّة سهلة جداً، لماذا هي سهلة ؟ لأنه سريعاً ما يعدل عن خطئه ويتوب، إنسان يعلم أن هذا الشيء يؤذيه لا يفعله، فإذا فعله مغلوباً ففي الأرجح فإنه في المرّة القادمة لا يفعله، وإذا فعله ثانية في الأرجح فإنه في المرّة الثالثة لا يفعله، لكنك إذا اعتقدت أن هذا الذي تفعله عين الحق، وعين الصواب، وهو الشيء الجيد فهذه هي المصيبة، المصيبة ألاّ تدري وألاّ تدري أنك لا تدري، المصيبة أن يكون العمل سيئاً وأن تراه حسناً، لذلك سيّد الخلق وحبيب الحق حينما كان يدعو الله عزّ وجل.. وأدعية النبي علم.. كان يقول:

((اللهمّ أرنا الحقّ حقّاً.. لأن هناك من يرى الحق باطلاً.. وارزقنا اتباعه))

أعظم نعمة على الإطلاق ينالها الإنسان هي نعمة الهدى:

ما قيمة الرؤية الصحيحة من دون عمل ؟

((اللهمّ أرنا الحقّ حقّاً وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه))

[ورد في الأثر]

معنى ذلك أن هناك من يرى الحقّ باطلاً والباطل حقّاً، ألم تلتق مع إنسانٍ يرى أن الدين كلّه قضيّة قديمة ليست صالحة لهذا العصر ؟ ألم تستمع إلى من يقول: الدين أفيون الشعوب ؟ ألم تستمع إلى من يقول: هذه التفرقة بين الجنسين شيء سخيف بالٍ لا يليق بعصرنا هذا ؟ ألا ترى من يقول: إن مظاهر العبوديّة لله عبارة عن ضعف بشري أمام قوى الطبيعة المخيفة ؟

يعني من دون مبالغة أعظم نعمةٍ على الإطلاق ؛ تفوق نعمة الصحّة، وتفوق نعمة المال، وتفوق نعمة القوّة، لأن الصحّة تزول بالموت، والمال يزول عند الموت، والقوّة تتلاشى عند الموت، أعظم نعمةٍ على الإطلاق هي نعمة الهدى، لذلك النِعَم التي دون الهدى لا تتم إلا بالهدى، الهدى واحد، والصحة صف فصار الرقم عشرة، مهتدٍ وصحيح، ومعه مال يكفيه هذا صفر ثانٍ فصار رقمه مئة، مهتدٍ وصحّته طيبة ومعه ما يكفيه، الهدى واحد والمال صفر والصحّة صفر ثانٍ، وله مكانة اجتماعيّة، والله آتاه طلاقة لسان، آتاه ذكاء، آتاه حسن تصرُّف، آتاه زوجة صالحة، آتاه أولاداً أبراراً، كل نعمة صفر أمام الرقم (+)، ولكن لا تنسى أن هذه النعمة الأولى التي هي واحد هي نعمة الهُدى، لو ألغيتها فكل ما عندك يغدو أصفاراً، لذلك قالوا: تمام النعمة الهدى.

من أصابه الهدى و الصحة و الكفاية ما فاته من الدنيا شيء:

أحياناً تجد أخًا يقول لك: الله مفضِّل، فقد منّ عليه بمال، وهو ساكن في بيت، ويتوافر لديه من الطعام ما لذّ وطاب، وعنده مركبتان أو ثلاث، وله أولاد في خدمته، لكنّك لو استمعت إليه لوجدت في عقيدته خللاً، لا يؤدي العبادات أحياناً، له ظنّ بالله سيّئ، إذا كنت مؤمناً حقاً ترى أن كل هذه النعم التي هو بها لا قيمة لها، نظير ضعف عقيدته، ونظير عدم عبادته لله عزّ وجل، فلذلك تمام النعمة الهدى، بعد الهدى الصحّة، بعد الصحّة الكفاية، وانتهى الأمر إلى وضوح وسعادة، فمن أصاب الهُدى، وأصاب الصحّة، وأصاب الكفاية ما فاته من الدنيا شيء، نال الدنيا بحذافيرها، بل بحذافير حذافيرها..

من عرف الله و عمل صالحاً فقد أنعم الله عليه:

(أفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ (14))

هذا يعرف حقيقة الحياة الدنيا، أنها ممر وليست مَقَراً، يعرف سرّ وجوده بها، ويعرف أن له رباً عظيماً وهذا منهجه، وهذا نبيُّه عليه الصلاة والسلام، وهذه سنّة نبيِّه، والفلاح أن تؤمن به، والفلاح أن تتبع أمره، والفلاح أن تنفق من مالك في سبيله، هذا الذي يعرف هذه الحقائق، يعرف أن الله موجود، وأن الله واحد، وأن الله كامل، وأن أسماءه كلها حسنى، وأن أنبياءه معصومون، وأن النبي الكريم سيّد الأنبياء، المثل الأعلى، وأن هذا القرآن كتاب الحق، كتابنا المقرّر، طبعاً هذه المعرفة الدقيقة العميقة، المتنامية، الواضحة، الشمولية، التفصيلية هذه المعرفة إذا اقترن بها العمل الطيّب فهذه هي النعمة الحقيقية..

(أفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ (14))

زُيِّنَ فعل مبني للمجهول، مَن الذي زَيّن له سوء عمله ؟ الشيطان، هذا وجه.

1- الإنسان الفاسق يفلسف عمله السيئ بأنه عمل طيب:

والوجه الثاني هو نفسه فلسف عمله السيئ، فهو ذو عقل.

العقل قوة إدراكية وضعه الله في الإنسان ليعرف الله به:

الله عزّ وجل أعطانا العقل كي نتعرّف إلى الله به، مثلاً: واحد يوجد عنده آلة معقّدة جداً فممكن أن يربح منها مئات الملايين، فاستخدمها في تزوير العملة فدخل إلى السجن، الآلة نفسها، بدل أن تكون هذه الآلة سبباً في غناك جعلتها سبباً في دمارك، كذلك العقل، هذا العقل قوة إدراكيّة أودعه الله فيك كي تعرف الله عزّ وجل، لكنك إذا أردت الشهوة وانتبهت أن لديك جهازاً عظيماً، هذا الجهاز يمكن أن تستعمله لغير ما خُلِق له، يمكن أن تُعمِلَه في فلسفة انحرافك، هذا هو العقل التبريري، أخطر شيء في الإنسان أن يكون عقله تبريرياً، إنه مصرّ على شهواته، مُصِر على باطله، على كفره، على انحرافه، على عدوانه، على بغيه، مُصِرْ على هذا الانحراف، لكن لو كان حيواناً ينحرف وكفى، أما الإنسان الذي لديه عقل ينحرف ويفلسف انحرافه، فهذه المبادئ الوضعيّة الهدّامة، فلسفة الشر، فلسفة الكفر، فلسفة الانحراف، فلسفة الإلحاد، لأن لديه عقلاً، فإن هذا العقل قوّةٌ إدراكيّة ما أودعه الله في الإنسان إلا من أجل أن يعرف الله به.

أخطر شيء استخدام العقل لتبرير الكفر و فلسفة الانحراف:

الإنسان أحياناً يركب مركبة كل ما فيها مجهّز لتنقلك إلى هدفك وأنت مرتاح، هذه المركبة هكذا صُمِّمت، حينما صُنعت في معملها صُمِّمت لتنقلك إلى هدفك وأنت مرتاح، يقول لك: هذه مكيّفة في الصيف، مُدفّأة في الشتاء، فيها أجهزة حمل مرنة جداً، مثلا القيادة سهلة، فيها صوت خفيف جداً، فيها إضاءة ذاتيّة الحركة، شيء جميل، أما إذا الإنسان قاد هذه المركبة وهو سكران هوى بها إلى أعماق الوادي فتحطّمت أضلاعه، المركبة هي هي، إما أن تنقلك إلى هدفك وأنت مرتاح، وإما أن تكون سبباً في هلاك الإنسان وهكذا العقل فهو حيادي، إذا الإنسان استخدمه كأداة لمعرفة الله كان سبب سعادته، ورد في الأثر أن الله جلّ جلاله عندما خلق العقل قال له:

((أقبل فأقبل، ثم قال له: أدبر فأدبر، قال: وعزّتي وجلالي ما خلقت خلقاً أحبّ إليّ منك بك أعطي وبك آخذ))

أي إذا استعملك الإنسان لما خُلِقت له يستحق عطائي الأبدي السرمدي، وإذا لم يستعملك أو أساء استعمالك كان سبب هلاكه.. بك أعطي وبك آخذ.. فأخطر عقل هو العقل التبريري، الشهوة أولاً والعقل يبرّر، العدوان أولاً والعقل يبرّر، ولو استمعت إلى ما يقوله الكفّار عن أعمالهم فكله يفلسفه عقل تبريري، يعتدون ويرفعون أفكاراً إنسانيّة لا تَمُت إلى الواقع بصلة، فالشيء الخطر جداً أن تستخدم العقل لتبرير الكفر، لفلسفة الانحراف، لتغطية الشهوة..

العقل المفلسف للشهوة وللمعصية أخطر عقل:

(أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ (14))

فمن هو المزيّن ؟ الشيطان، والإنسان يزيّن عمله في بعض الأحيان، يتفلسف، يفلسف انحرافه، ويفلسف حقده، ويفلسف انتقامه، ويفلسف شهوانيّته، ويفلسف طمعه، ويفلسف بخله، لذلك:

(كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ (14))

المصيبة الكبيرة أن يكون الخطأ لا في المفردات بل في المنهج، لا في الجزئيات بل في طريقة التفكير، لذلك العقل المبرّر، العقل المزيّن، العقل المفلسف للشهوة وللمعصية وللانحراف هو أخطر عقل، كيف أن العقل سبب الرُقي فالعقل الآخر سبب الهلاك.

الحقّ واحد لا يتعدد:

أيها الأخوة... أحياناً نرى في آيةٍ واحدة كلمةٍ هي مركز الثِقل، لأننا نحن في عصر الباطلُ فيه مزيّن، والشهوة مفلسفة، والانحراف مغطّى، والإنسان الجاهل أحياناً يصدّق هذا الكلام، فمن أجل ألاّ نقع في شرّ فلسفتنا، ألاّ نقع في شرّ أعمالنا، ينبغي أن تعلم علم اليقين أن الحق لا يتعدّد، الحق واحد، وأن الحق هو الله جلّ جلاله، وأن الحق كلامه، وأن الحق شرعه، وأن الحق ما قال، والباطل ما لم يقل، فلذلك هذا القرآن فيه تفسير لنشأة الحياة، فيه تفسير لما نحن عليه بعد الممات، فيه تفسير لأثمن ما في الدنيا وهو العمل الصالح، فيه تفسير لمهمّة الإنسان في الدنيا ورسالته التي أُنيطت به، للأمانة التي حملها، للتكليف الذي كُلِّف به، فهذا الكتاب هو خاتم الكتب، أُنْزِلَ على خاتم الأنبياء وهو الحق.

العقل إذا ضلّ زيّن للإنسان سوء عمله:

أي نظريّة، أي مبدأ وضعي، أي فلسفة مستوردة، أي تفسير للكون غير التفسير القرآني، أي تفسير لبدء الخليقة غير التفسير الإلهي فذاك باطل، باطل أي خطأ ليس له صحة، لا يتطابق مع الحقيقة، وبقي علينا ألاّ نصغي لهذا التزيّين للباطل ولا نلتفت للتزييف إن الله عزّ وجل..وسنأتي بمثل قريب..خلقنا وأنزل على عبده النبي الكريم منهجاً نتحرّك به، فإذا نهانا عن شيء ما، فقد نهانا عن أن نختلط بالنساء مثلاً، فلو رأيت من يقول: الاختلاط يُهَذّب المشاعر فهذه فلسفة سقيمة، وهذا هو عمل العقل التبريري، هذا عمل العقل المُخادِع، وإذا رأيت المعصية.. قال بعضهم: " تعلّموا السحر ولا تعملوا به " هذا الكلام لا هو آية ولا هو حديث، هذا معنى للتوريط والمكر، فالإنسان قد يلتقي مع أصدقاء، وقد يقرأ مقالة في مجلّة، ويسمع محاضرة لإنسان غير مؤمن بالدين، ويسمع خبراً، ويقول بعضهم فيه: أنت مثلاً ضعيف لأنك أخلاقي، أعوذ بالله، الأخلاقي قوي جداً، وهذه كلمة من طغيان العقل، فالعقل إذا ضل يزيّن للإنسان سوء عمله، يبرّر له أخطاءه، يغطي له انحرافاته، فهذا مطبٌّ كبير ومزلق خطير، أن يصغي الإنسان لهذه الأقوال، مقياسنا هو كلام الله عزّ وجل، هذا هو الحق وخلافه باطل، أما خلافه فمزيّن برّاق، والله عزّ وجل قال:

(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ)

(سورة الأنعام: آية 112)

من زُيّن له سوء عمله وقع في مصيبتين مصيبة سوء عمله ومصيبة فلسفة سوء عمله:

يقولون: الإنسان أحياناً في نفسه شر، فإذا شاهد مسرحيّة فيها شر فالشر الذي في نفسه يتفرغ، ويصير طيّباً، يا ترى فهل المجتمعات الغربيّة عن طريق المسرحيات تحولوا إلى ملائكة أم أنهم ازدادوا وحشيّة؟! هذه من فلسفة الباطل، إنهم يفلسفون الفنون، يفلسفون الانحرافات، يفلسفون الاختلاط، الرقص يفلسفونه على أنه رياضة، كل شيء فيه انحراف أو معصية يتغطّى بفلسفة مفتعلة، هذا هو الذي ذكره الله عزّ وجل في القرآن الكريم:

(كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ (14))

فالذي يُزَيّن له سوء عمله يقع في مصيبتين: مصيبة العمل السيئ، ومصيبة أنه يتوهّم أن هذا العمل السيئ هو عملٌ طيّب، الذي يستبيح الربا بدعوى تنمية الأموال وعدم تجميدها هذه من فلسفة العقل المنحرف، فكلّما رأيت فكراً يفلسف الباطل، يغطّي الباطل، يثني على الباطل، يبيّن النواحي الإيجابيّة في الباطل، يبيّن النواحي التي تعود على الإنسان بالمتعة في الباطل، فاعلم أن هذا الإنسان مصاب بمصيبتين: بمصيبة سوء عمله، ومصيبة فلسفة سوء عمله، تلك الفلسفة قد تروق لبعض الناس، لكن أيها الأخوة الحلال ما أحلّه الله، والحرام ما حرّمه الله، والحق ما جاء في كتاب الله..فحذار ثم حذار.

مجموع القضايا التي عالجها القرآن الكريم تام:

(هَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إلا أَحْصَاهَا)

(سورة الكهف: آية 49)

(مَا فَرّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ)

(سورة الأنعام: آية 38)

(الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمْ الإِسْلامَ دِينًا)

(سورة المائدة: آية 3)

الإتمام عددي، والإكمال نوعي، يعني مجموع القضايا التي عالجها القرآن الكريم تام، طريقة المعالجة كاملة وانتهى الأمر..

((كل محدثةٍ بدعة وكل بدعةٍ ضلالة وكل ضلالةٍ في النار))

[مسلم عن جابر بن عبد الله]

تسويغ المعصية ما هو إلا تغطية لسوء الفعل:

لذلك يجب أن نحذر جميعاً من أن يزيّن لنا سوء عملنا، الشرع سمح أن يرى الإنسان مخطوبته مرّة واحدة أو مرّتين دون ما بأس، لا شهرين أو ثلاثة، زيارات وسهرات ونزهات، ولم يعقد عقد قِران بعد ولا شيء يُثبت هذه العلاقة شرعاً، وفجأةً اختفى الخطيب وبطن الفتاة المخطوبة قد كبر، هذا زُيّن له سوء عمله فرآه حسناً، وهذا هو الشيطان، يلغي العقد يقول لك: خطبة لكي نمتحنها، لنعرفها مثلاً، يُسمح بالاختلاط فينشأ عنه طلاق أحياناً، خراب بيوت، خيانات زوجيّة، يُسمح بالربا فيتجمّع المال بأيدي فئة قليلة وتُحرَم منها الكثرة الكثيرة، فلا ترى معصية إلا إذا استمعت إلى من يقترفها، وهو ذكي، يقدّم لك تبريراً، أو عَقْلَنَة لهذه المعصية، أو تسويغاً لمساءته، أو تغطية لقبح عمله، هذا معنى:

(كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ (14))

الله عز وجل وضّح للإنسان كافة الأمور مع الأهداف و الوسائل:

الذي يُزيّن له سوء عمله واقعٌ في مصيبتين: مصيبة سوء العمل ومصيبة الوهم أن هذا العمل صحيح، هذه الآية صحيحة الدلالة جداً، و لعلها تحمل لك أيها المؤمن تحذيراً صارخًا جداً:

(أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ (14))

الأمور واضحة جداً، جليّة جداً، والنبي الكريم قال:

((تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك))

[ابن ماجه عن العرباض بن سارية]

الأمور واضحة، كل شيء مع الدليل العقلي، والنقلي، والفطري، والواقعي، الأهداف واضحة، الوسائل واضحة..

(أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ (14))

اتبع هواه أولاً واستنجد بعقله من بعدُ ليبرّر له هذا العمل السيئ، وذاك الانحراف، وهذا العدوان، وأكل المال الحرام.

الجنة ثمن طاعة الإنسان لله عز وجل:

الآية الأخيرة في درسنا:

(مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ (15))

هذه الجنّة التي فيها ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمِعَت، ولا خطر على قلب بشر، هذه الجنّة..

(فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آَسِنٍ (15))

الماء الراكد في الدنيا يتغيّر طعمه ولونه وريحه، فالماء في الجنّة غير آسن..

(وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ (15))

اللبن في الدنيا إذا طالت مدّته تغيّر طعمه فأصبح حامضيّاً..

اصطلاح الإنسان مع ربه من أعظم النعم على الإطلاق:

(وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ (15))

معنى ذلك أن خمرة الدنيا ليس فيها لذّةٌ أثناء شربها، يبدو أنها تُشرَبُ كي تُخَدِّر صاحبها أما في أثناء شربها ليست لذيذةً..

(وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ (15))

وفوق كل هذا..

(وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ (15))

أنت بعدما تبت إلى الله فالماضي كلّه مُسِح وعفت آثاره، الإسلام يهدم ما كان قبله، الإسلام يجبُّ ما كان قبله، الصُلحة بلمحة، إذا رجع العبد العاصي إلى الله نادى منادٍ في السماوات والأرض أن هنّؤوا فلاناً فقد اصطلح مع الله.

(وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ (15))

هذه الحالة الرائعة، جنّةٌ إلى أبد الآبدين، فيها ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر، توازى..

النار عاقبة الكافر يوم القيامة:

(كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ (15))

وفي هذه الآية إعجازٌ علمي، ليس في الأمعاء أعصاب حس أبداً، لو فتحت بطن الإنسان وفتحت أمعاءه، وسكبت ماءً يغلي فإنه لا يشعر بألم أو سخونة أبداً، ذكر لي طبيب عن دماغ الإنسان: إنه فتح دماغ إنسان وبدأ يقطِّع منه، فالدماغ هذا العضو الحسّاس الذي تُنقل إليه كل مشاعر الحس لا يحس بشيء إطلاقاً، يمكن أن تُجرى عمليّة في الدماغ من دون تخدير إطلاقاً، كذلك في الأمعاء لا توجد أعصاب حس، وعليه فالإنسان إذا شرب ماءً يغلي لا يشعر بشيء إطلاقاً، الآية جاءت:

(فقطّعَ أَمْعَاءَهُمْ (15))

لكن هذا الماء الذي يغلي مزّق أمعاءهم، قطّعها ولم يشعروا بألم الحر، من كان يعرف هذه الحقيقة ؟ ليس في الأمعاء أعصاب حس، لكن هناك أعصاب ضغط، آلام عقد الأمعاء لا تُحتمل، آلام ضغط وليست آلام إحساس..

(وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فقطّعَ أَمْعَاءَهُمْ (15))

موازنة بين الحق و الباطل:

أيضاً موازنة، من كان في الجنّة وهذه حاله كمن كان في النار وهذه حاله ؟..

(أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ (14))

هذه حاله..

(كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ (14))

هذه حاله، هل يستويان ؟ فكأن الدرس اليوم عبارة عن عقد موازنة بين الحق والباطل.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة محمد 047 - الدرس (4-8): تفسيرالآيات 16-18، من غفل عن الحق خسر الدنيا والأخرة

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 30-12-1994

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون مع الدرس الرابع من سورة محمد صلى الله عليه وسلم.

المنافقون إن هم كالأنعام بل هم أضل سبيلاً:

مع الآية السادسة عشرة وهي قوله تعالى:

(وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ(16))

هذه من للتبعيض..

(وَمِنْهُمْ (16))

الـهم على من تعود ؟

(إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ(12))

(وَمِنْهُمْ (16))

أي من هؤلاء الذين كفروا ؛ الذين يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام، مِن هؤلاء من يستمع إليك، أي يمكن أن يتوجه الإنسان الشارد عن الله عزّ وجل إلى مجلس علم مثلاً، فيعرف: من هؤلاء الكفار، من هؤلاء المنافقين، من هؤلاء الذين:

(إِنْ هُمْ إِلا كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلا(44))

(سورة الفرقان)

الآيات التي تصف بعضاً ممن عاشوا مع رسول الله في حقيقتها تصف نماذج بشرية:

لو أنهم مثلاً اجتمعوا برسول الله صلى الله عليه وسلم ما الذي يحصل ؟ فلنستعرض بعض النماذج البشرية: لو أن إنساناً امتلأ قلبه حباً للدنيا، لو أن إنساناً شرد عن الله شرود البعير، لو أن إنساناً أعرض عن الله عزّ وجل وكان في جلسةٍ يُذْكَر فيها اسم الله عزّ وجل، ما موقفه ؟ ماذا يحصل ؟ في الحقيقة أيها الأخوة ؛ إن الآيات التي تصف بعضاً ممن عاشوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما هي في

حقيقتها تصف نماذج بشرية، نموذج متكرر نراه في كل حين، في كل عصر ؛ إنسان شارد، إنسان غافل، إنسان منغمس في الدنيا، إنسان أخرج من حساباته الدار الآخرة، إنسان لم يعبأ بهذا الدين العظيم، هذا الإنسان لو جلس في مجلس علم، لو التقى مع إنسان يدعو إلى الله مثلاً، فما موقفه ؟ هذا الذي حصل في عهد النبي صلى الله عليه وسلم يمكن أن يقع في أي عصر.

(وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ (16))

يستمع، يُصغِي..

من أراد أن يعرف الله أي شيء في الأرض يدل عليه:

(حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا (16))

ما من مثلٍ يوضّح هذه الحقيقة كالمثل التالي: إنسان ذكي، إنسان ذكي ولا أقول: عاقلاً، متفوقاً، دارساً، لكن امتلأ قلبه حباً للدنيا، أصر على الدنيا ولم يعبأ بالآخرة، لو أنه استمع إلى الحق لا يعقل شيئاً، لا يفقه شيئاً، لا يدري ماذا قيل، لا يدري ما موضوع الخطبة إطلاقاً.

(مَاذَا قَالَ آنِفًا (16))

طيب هو ذكي، حَصّل تحصيلاً عالياً، فلماذا غفل عن موضوع هذه الخطبة مثلاً ؟ لأنه هو في واد وموضوع الخطبة في وادٍ آخر، آلة تصوير من أغلى الآلات، لو أن إنساناً أمسكها ووضعها أمام منظرٍ جميلٍ جداً، وضبط كل حركاتها وسكناتها، ضبط الفتحة والمسافة والسرعة، وضغط على زرها المتعلق بالتقاط الصورة لكنها ليس بداخلها فيلم، فلا قيمة لهذه الآلة، ولا قيمة لهذا الضغط، ولا قيمة لذاك التوجُّه، فالإنسان إذا طلب الحق فأي شيءٍ يدله على الله، قرار الحق قرار داخلي، إذا أردت أن تعرف الحقيقة، إذا أردت أن تصل إليها، فأي شيءٍ في الأرض يدلّك على الله، أما إذا كان هناك إعراض داخلي، انصراف عن الحق داخلي، عدم اعتناء بالحق داخلي، هذا الانصراف الداخلي أثره سقيم، فلو أنه التقى برسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:

(مَاذَا قَالَ آنِفًا (16))

ولو قرأ أعظم كتاب، ولو استمع إلى أبلغ شريط، ولو حضر أعظم خطبةٍ، يقول:

(مَاذَا قَالَ آنِفًا (16))

لماذا لم يعقل ؟ لماذا لم يفهم ؟ لأنه في واد والحق في وادٍ آخر.

من لم يطلب الحق لا يفهم شيئاً:

أقرب مثل: أحياناً الإنسان يدخل إلى محل تجاري فيه بضائع منوعة، لقد دخل إلى هذا المحل ليشتري قماشاً معيناً، فقد يأتي صاحب المحل التجاري ويعرض عليه بضاعة أخرى، لا يعبأ، ولا يهتم، ولا يسمع، ولا يدقق، ولا يفكِّر إطلاقاً، هو في واد والبضاعة المعروضة عليه في وادٍ آخر، فلذلك هذا نموذج متكرر، أن يكون الإنسان غافلاً أو ممتلئًا قلبه بالدنيا، منصرفًا إلى الدنيا، مصراً على شهواتها، لم يُدخل في حساباته الدار الآخرة، مثل هذا الإنسان لو التقى برجل يحدِّثه عن الله عزّ وجل، لا تجد إصغاءً، ولا فهماً، ولا تأثُّراً، ولا عقلاً.

(وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ (16))

هل في الدنيا أبلغ من النبي ؟ هل هناك من رجل أبلغ من رسول الله ؟ أنقى منه ؟ أكثر تأثيراً من أسلوب النبي عليه الصلاة والسلام ؟ أوتي جوامع الكلم، من حيث البلاغة فكلامه في أرفع مستوياتها على الإطلاق، بعد كلام الله كلام رسول الله، على الإطلاق، ومن حيث قوة التأثير، النبي عليه الصلاة والسلام أعلى مخلوقٍ على الإطلاق في قوة التأثير، ومع ذلك إن لم تطلب الحق تقل:

(مَاذَا قَالَ آنِفًا (16))

إن لم تصر على طلب الحق تقلْ: لم أفهم شيئاً، ما الموضوع الذي طرقه اليوم الخطيب ؟ وما الشيء الطريف فيها يقول لك: والله حضرنا خطبة رائعة، فتقول له: ماذا قال الخطيب ؟ يقول لك: والله لم أتذكر ولكن خطبة رائعة، لا يذكر منها ولا كلمة واحدة ولا آية ولا حديث، لأنه في واد وموضوع الخطبةِ في وادٍ آخر.

من صدق في طلب الحقيقة تعلم من كل شيء:

لذلك لما الإنسان يصدق توجهُه في طلب الحقيقة يتعلم من كل شيء، فكأس الماء يُعَلِّمُهُ، ابنه الذي أمامه يعلمه، كل شيءٍ يُعْطيه درساً بليغاً، أما إذا ابتعد الإنسان عن الحق فلو واجه الآيات وجهاً لوجه لا يتأثر بها، لذلك النبي عليه الصلاة والصلاة قال:

((أمرت أن يكون صمتي فكراً، ونطقي ذكراً، ونظري عبرةً))

إذا نظرت فاعتبر، وإذا صمتّ ففكر، وإذا نظرت فاذكر، إذاً هؤلاء الذين كفروا والذين يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم.

(وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا (16))

حدثني أخ له صديقٌ دعاه إلى حضور مجلس علم قبل أن يصطلح مع الله، قبل أن يتوب إليه، قبل أن يلتفت إليه، قال له بعد أن حضر الدرس: بالحرف الواحد: والله لم أفهم من الدرس كلمةً واحدة، ولم أعِ شيئاً، لأنني في واد والمتحدث في واد، لكن بعد أن توجّه إلى الله، بعد أن أراد الهدى، بعد أن اصطلح مع الله عزّ وجل، أصبح أذناً صاغية، آلة من دون فيلم، لا فائدة منها إطلاقاً، لكن لما يطلب الإنسان الحقيقة يتأثر بكل كلمة، فالإنسان بعد أن يطلب الحق، كله آذان، كله أعْيُن، لكنه قبل أن يطلب الحق.

(صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ(171))

(سورة البقرة)

في كل كرسيٍ تَسَنَّدَ إنسانٌ   متكتفٌ أعمى أصمٌ أخرس

* * *

الإنسان إذا طلب شيئاً عقل عنه أما إذا أعرض عنه لم يفهم شيئاً:

أما في أوامر الدنيا فهو يفهم كل شيء، ربنا عزّ وجل وصف أهل الدنيا قال:

(يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنْ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنْ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ(7))

(سورة الروم)

والدليل: حدِّث إنسانًا بأمور الدين، فإذا كان في وادٍ آخر يشعرك أن هذا الحديث لا يعنيه، يتململ، يتثاءب، يعتذر، ثم أطْرُق معه حديثًا آخر دنيوياً، يقف على قدميه ساعاتٍ طويلة وهو لا يشعر لأن الدنيا تعنيه، لأنه راغبٌ فيها، لأنه لا يعلم شيئاً غيرها، لأنها أمنيته في الحياة، فهذا نموذج بشري متكرر، وهذا الشيء مما يعزّي إخواننا الكرام، فلو كنت حريصاً على هداية أخ صديق وجئت به إلى المسجد وقد مُلِئْتَ أنت إعجاباً بالدرس، وسألته يقول لك: ما قال شيئاً يذكر، ماذا قال المتكلم ؟ لم أفهم عليه ولا كلمة واحدة، لا تتألم، لا تصب بالإحباط، فهذا شيء طبيعي جداً، الإنسان إذا طلب شيئاً عقل عنه، أما إذا أعرض عنه لم يفهم شيئاً.

علامة اهتمام الإنسان الحفظ و الإصغاء و التأثر:

شخص آخر مثلاً ساكن في بيت يملكه، والبيت مرتب ومنظم وهو مستقر فيه، فبينما هو في الطريق قال لقائل: هل تريد بيتًا شراءً ؟ فيمكن ألا يسمعه، إذ ليس له علاقة، لكنك تصور: إنسان بلا بيت، خطب وعقد العقد ولم يجد بيتًا، ومضى على الخطبة سنتان، والأمور تعقدت وصار مشروع الزواج في خطر، يتمزق، فهو لا يعرف نفسه متزوجاً غير متزوج، وبينما هو بالطريق قال له قائل: هل تريد بيتًا؟

يمكن أن ينكب على رجليه يقبلهما من شدة اهتمامه، فإذا اهتم الإنسان بطلب الحق، يصغي، يتأثر، يحضر المجلس، يحفظ كل ما قيل فيه، علامة الاهتمام الحفظ، الدليل:

(مَاذَا قَالَ آنِفًا (16))

لم يفهم شيئًا، لا فهم ولا حفظ، وهذا كذلك مؤشر لنا كلنا.

من علامات صدق الإنسان أن يستوعب الحقيقة و يتفاعل معها:

إذا جلست في مجلس علم، واستوعبت الآيات وفهمتها وتأثرت بها، وحفظتها، وتحدثت بها أثناء الأسبوع، هذا دليل صدقك، دليل إخلاصك، دليل أنك طلبت الحق، أما إذا جلست مع عدد من الأخوة تتذاكرون بالدرس ولم يخطر ببالك ولا فكرة، ولا آية، ولا حديث، والله هذه مشكلة، مشكلة كبيرة جداً أن تقول كما يقول هؤلاء:

(مَاذَا قَالَ آنِفًا (16))

أن تستوعب الحقيقة، أن تتفاعل معها، أن تحفظها، أن تكون في قلبك، أن تتمثلها كلما تحرّكت هذا من علامات الصدق، أما ألاّ تذكر ماذا قيل، ولم تستوعب شيئاً مما قيل، ولم تعبأ به، ولم تحفظ آية و لو واحدة أو حديثاً مما قيل بل نسيت، وتنسى ما قيل فهذا كله علامة أن هذا المستمع من أهل الدنيا.

من كان بعيد الاهتمام عن الدين فهو في غفلة مرعبة:

(وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ (16))

للصحابة الكرام المقربين من رسول الله صلى الله عليه وسلم مواقف للتعلم ملموسة، كسيدنا ابن الزبير، كسيدنا ابن مسعود، هكذا ورد في التفاسير..لكن من كانت قلوبهم غلف فيقولون:

(مَاذَا قَالَ آنِفًا (16))

يعني ماذا قال قبل قليل ؟ أحياناً الإنسان يصلي، ويقرأ الإمام سورةً قراءةً جيدةً رائعةً فإذا سألته ماذا قرأ الإمام في الصلاة ؟ لا يذكر شيئاً، ألم يقل النبي عليه الصلاة والسلام ؟:

((ليس للمرء من صلاته إلا ما عقل منها))

[ورد في الأثر]

ماذا عقلت من الصلاة ؟ قد لا يذكر بعضهم ماذا قرأ الإمام، ومرة كان أناس في نزهة صلى فيهم الإمام الظهر خمس ركعات، وما من واحدٍ ذكر أنه أضاف ركعةً خامسة، فالإنسان أحياناً يكون بعيداً اهتمامه، ويكون له وجود جسمي لكن نفسه ليست موجودة فهذه غفلة مرعبة.

من امتلأ قلبه بالدنيا لم يعد فيه مكان للحق:

(وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ(16))

كلمة (طبع) ؛ من أوجه تفسيراتها طبع بمعنى مَلأ، كأن يكون لديك إناء امتلأ ولم يبق فيه مكان لإضافة شيء جديد، إناء امتلأ بشيء وأردت أن تضع فيه شيئاً جديداً فليس هناك مكان إطلاقاً، كما كان الشاعر:

بلاني الدهر بالأرزاء حتى فؤادي في غشاءٍ من نبالِ

فكنت إذا أصابتني سهامٌ تكسّرت النصال على النصالِ

* * *

ليس فيه شواغر.. قال:

(وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ (16))

أي أن القلب إذا امتلأ بالهواء لم يبق فيه مكانٌ للحق، هذا معنى الآية، فالقلب امتلأ بالهوى ولم يبق فيه مكانٌ للحق، فإذا الإنسان ملأ قلبه بالمتع، وملأت الدنيا قلبه وحضر مجلس علمٍ، هذا فالحق لن يجد في قلب هذا الإنسان مكاناً، لم يبق محلاّت، هذا معنى الطبع، طبع الإناء أي ملأه، أو طبع الإناء أغلقه بعد أن امتلأ، فهذا تحصيل حاصل..

(مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ)

(سورة الأحزاب: آية " 4 ")

لك قلبٌ واحد فإذا امتلأ بالدنيا لم يعد فيه مكان للحق، أما إذا فرّغته من الدنيا استوعب الحق.

من امتلأ قلبه بحب الدنيا خسر الدنيا و الآخرة:

(أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ (16))

أي أن الله عزّ وجل نظر إلى قلوبهم فرآها ممتلئة حباً للدنيا، إذاً هذا الإنسان لا يعي على خير..

(فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ)

(سورة الصف: آية " 5 ")

فهذا الإضلال إذا عُزِيَ إلى الله عزّ وجل فهو الإضلال الجزائي المبني على ضلال اختياري، إذا عزي الزيغ إلى الله:

(فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ)

(سورة الصف: آية " 5 ")

فهذه الإزاغة الجزائية المبنية على الزَيْغ الاختياري، إذا عزي الطبع إلى الله، فهذا هو الطبع الجزائي المبني على امتلاءٍ اختياري لحب الدنيا، امتلأ القلب فلم يعد فيه شواغر، وأنت أحياناً إذا أردت أن تضع في وعاءٍ شيئاً، تقول: إنه ممتلئ، فكما لو أن إنساناً أتى ليستمع إلى مجلس علمٍ لكن قلبه ممتلئٌ شهواتٍ دنيئة.

ذاكرة الإنسان متعلقة باهتمامه:

لذلك يُروى أن سيدنا عثمان قال: " أيدخل أحدكم إلى المسجد والزنا بين عينيه ؟ فقيل له: أوحيٌ بعد رسول الله ؟ قال: لا ولكنها فراسة صادقة ". فذاك يكون في عالم آخر.

أنت تلاحظ أحياناً.. إخوانَنا المدرسين.. تجد أن طالباً شارداً، يكون درس فيزياء، كيمياء، رياضيات، درس لغة عربية، المدرس يجهد في توضيح الأفكار، وتسجيل الملاحظات على السبورة، وإملاء القواعد، لكن ذاك الطالب في عالم آخر، فلذلك الانتباه أساسه الاهتمام، خذ مثلاً صاحب محل تجاري عنده عشرة آلاف صنف، كقطع الغيار، أعندك القطعة الفلانية ؟ يقول له: باقي قطعة، اصعد يا بني تجدها على الرف الثالث باليمين، بآخر الرف تجد قطعة أحضرها، فما معنى ذلك ؟ معنى ذلك أنه مهتم كل الاهتمام بهذه المصلحة ويكسب منها رزقه، فحفظ كل تفاصيلها، فسبحان الله الذاكرة متعلقة بالاهتمام، كلما نما اهتمامك في شيء نمت معه الذاكرة، أحياناً إنسان يكون نَسّاء أي كثير النسيان لكن بالموضوعات التي يهتم لها لا ينسى شيئاً، معنى ذلك أن الذاكرة اصطفائية، فلذلك هنا: كما أن هناك إضلالاً جزائياً أساسه الضلال الاختياري، وكما أن هناك إزاغة جزائيةً أساسها الزيغ الاختياري، هناك طبع جزائيٌ أساسه امتلاء القلب بالشهوات، ذهبنا لنملأ قلبه خيراً فوجدانه ممتلئاً شرًا.

من اتبع أهواءه امتلأ قلبه بالشهوة:

إذاً..

(أولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ (16))

تأمل في تتمة الآية تجد أن الله عزّ وجل عطف السبب على المُسَبَّب، بماذا امتلأت قلوبهم حتى لم يبق فيها مكان للحق ؟ قال:

(أولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ (16))

حينما اتبعوا أهواءهم امتلأت قلوبهم بالشهوات، وقد تجدون هذه النماذج كثيرةً جداً، شخص كل اهتمامه بالأعمال الفنية الساقطة، يتتبعها حركةً حركة، فإذا تكلم لا يتكلّم إلا عنها، وهذا النموذج إخواننا

الكرام متكرر، اليوم سألني أخ كريم فقال: إن الله عزّ وجل حينما يقص علينا بعض القصص لا نجد فيها تفاصيل، ولا جزئيات، ولا أسماء أمكنة، ولا أسماء أزمنة، كلامٌ عام، فما حكمة ربنا جلّ جلاله من أن قصص القرآن الكريم ليس فيها تفاصيل، ولا أمكنة ولا أزمنة ؟ قلت له: يا أخي لو أن الله سبحانه وتعالى ذكر لك أسماء الشخصيّات، والمكان الذي تحركوا عليه، والزمان الذي غَلّفَ هذه الأحداث، وأورد تفاصيل كثيرة جداً، لوقع في وهمك أن هذا تاريخ، أو أن هذه قصة وقعت ولن تقع مرة ثانية، فلم يعد القرآن إذًا كتاب هداية، لكن الله سبحانه وتعالى حينما يغفل هذه التفاصيل، والأسماء ؛ أسماء الشخصيات، والأماكن والأزمنة من أجل أن يلقي في روعك أن هذا نموذج متكرر تجده في كل زمان، فكل من يبحث عن تفاصيل قصص القرآن الكريم كأنه يَفْسِدُ على الله حكمته، بل هو نموذج متكرر.

من كان صادقاً في طلب الله عقل و فهم و استفاد:

طبعاً تقرؤون هذه الآيات:

(وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ (16))

مَن هؤلاء:

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ (12))

هؤلاء كانوا في عهد النبي عليه الصلاة والسلام ولكن خصوص السبب لا يعني أن هذه الآية لا تنطبق على كل إنسانٍ فيه هذه الصفات، فهذا إذاً كما يسميه بعض العلماء نموذج متكرر نجده في كل زمانٍ ومكان، فليحذر أحدنا أن يكون ذلك النموذج المتكرر، أي اطلب الله بصدق، إذا كنت صادقاً عقلت واستفدت وفهمت وحفظت وتحرّكت، أما إذا ما فقد الصدق في طلب الحقيقة تقول كما قال هؤلاء:

(مَاذَا قَالَ آنِفًا (16))

موضوع التذكر له علاقة بالاهتمام و صدق التوجه:

صار عدم استيعاب موضوع العلم، أو عدم عقل المعلومات وفهمها، وصمة عار بحق الإنسان، الدليل أنه ليس مهتمًا، والإنسان أحياناً ينسى أشياء كثيرة ويذكر أشياء كثيرة، الذي ينساه لا يهتم له، فمثلا شخص تقول له: الاسم الكريم، يقول لك اسمه، بعد دقيقة تنسى اسمه، دقيقة واحدة وتنسى اسمه فما السر ؟ وإنسان آخر تسأله عن اسمه فلا تنساه طول حياتك، فموضوع التذكر له علاقة بالاهتمام و صدق التوجه، هذا النموذج الأول:

(وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آَنِفًا أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ (16) وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآَتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (17))

من اختار رضوان الله و الدار الآخرة شرح الله صدره للإيمان:

هذا موضوع آخر، النبي عليه الصلاة والسلام قال:

((إِنّ الْقُلُوبَ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللّهِ يُقَلِّبُهَا كَيْفَ يَشَاءُ))

[الترمذي عن أنس]

إذا اختار الإنسانُ أن يصل إلى الله، إذا اختار رضوان الله، إذا اختار الدار الآخرة، فالله عزّ وجل يزيده هدىً، هو اهتدى، حينما طلب الحقيقة اهتدى، حينما طلب رضوان الله اهتدى، حينما طلب الدار الآخرة اهتدى، فكيف يزيده الله هدىً ؟ قيل: يشرح الله له صدره للإيمان، ألم يقل الله عزّ وجل

(حَبَّبَ إِلَيْكُمْ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ)

(سورة الحجرات: آية " 7 ")

فهذا القلب، قلبك الذي هو بين إصبعين من أصابع الرحمن حينما يشرحه للهدى يكون قد أعانك على نفسك، أنت اخترت الطريق الصحيح والله سبحانه وتعالى وجّه قلبك إليه، فهذا مما يزيدك الله به هدىً، وبعضهم قال: النبي عليه الصلاة والسلام ببيانه وسنته المطهّرة القولية والعملية يزيدك هدىً، والله عزّ وجل قال:

(إِلا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ)

(سورة النساء: آية " 29 ")

وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى: آية لها عدة معان:

1- انشراح صدرك:

مثلاً أربعمئة حديثٍ شريف تُوضّحُ أحكام البيع والشراء والتجارة، ففيها زيادة بيان و هداية، فالنبي من خلال سنته القولية والعملية زاد المهتدين هدىً، فإما أن نفهم أنّ الهدى انشراح الصدر، أي أن يزيدك الله هدىً فهو انشراح صدرك.

2 ـ بيّن لك ما في القرآن الكريم:

إما أن نفهم أن يزيدك الله هدىً أن النبي صلى الله عليه وسلم بيّن لك ما في القرآن الكريم.

3 ـ وفقك إلى العمل الذي يرضاه:

وإما أن تفهم أن يزيدك الله هدىً أنه وفقك إلى العمل، وإلى تطبيق هذا الذي سمعته.

4 ـ أن ترى بعينك الأحداث التي تؤكِّدُ ما في القرآن:

وإما أن يزيدك الله به هدىً أن ترى بعينك الأحداث التي تؤكِّدُ ما في القرآن، فالخلاصة: إما أن الحوادث تؤكد ما في القرآن، وإما أن الله سبحانهُ وتعالى يوفقك إلى تطبيق ما تعلمت، وإما أن الله سبحانه وتعالى عن طريق النبي صلى الله عليه وسلم يوضِّح لك ما في كتابه من تفاصيل، وإما أن الله سبحانه وتعالى يشرح صدرك للهدى، فشرح الصدر، وبيان النبي، والتوفيق للعمل، وأن ترى الحوادث تؤكِّدُ ما في القرآن الكريم، أربع معانٍ في قوله تعالى:

(وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى (17))

من طلب الهدى أعطاه الله زيادة عليها:

على ضوء هذه الآية أرجو الإصغاء إليّ: أنت في طريق ووصلت إلى مفرق طرق، فهناك طريقان، وأنت تتجه إلى حمص، ولا تدري من أي طريقٍ تسلك، فرأيت إنسانًا سألته: من أين حمص ؟ قال لك: من هذا الطريق، قلت له: شكراً بارك الله بك، قال لك: انتبه يا أخي بعد حين هناك تحويلة، بعد حين آخر هناك ممر خطر، بعد حين ثالث يواجهك حاجز، أنت حينما سألته وأجابك، وشكرته زادك تفاصيل، هذا من باب التقريب، وأنت حينما طلبت الحق واهتديت إلى الله عزّ وجل فأعطاك تفاصيل كثيرة، كيف تعامل زوجتك، كيف تعامل أولادك، كيف تكسب رزقاً حلالاً، كيف تمضي وقت الفراغ، كيف تربي أولادك، زادهم هدىً، هذه الزيادة، طلبت الهُدى فأعطاك الله ما طلبت وزيادة.

من اختار الهدى شرح الله صدره بالإيمان:

إذاً المعاني الدقيقة لهذه الآية:

(وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى (17))

أولاً شرح الله صدورهم وهذا أكبر دعمٍ لهم، فالإنسان أحياناً ينقبض، ومن لوازم هذه الآية أن الإنسان لو اختار اختياراً سيئاً، لو اختار أن يعصي الله عزّ وجل يشعر بضيق، يشعر بقلق، بكآبة، هذه الكآبة من خلق الله عزّ وجل، فضيق القلب، وكآبة القلب، والشعور بالحرج حينما يقدم الإنسان على معصية، هذه معونة من الله لك إذ نَفّرَكَ منها، أبعدك عنها، وحينما ينشرح صدرك، ويفرح قلبك، وتشعر بالانطلاق حينما تختار الهدى، فالله سبحانه وتعالى أعانك على ذلك..

(وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى (17))

النبي زاد الإنسان هدىً لأنه بيّن ما نزل في كتاب الله عزّ وجل:

حينما يبيّن لك النبي التفاصيل، فمثلاً أمرك الله بأداء الزكاة، والنبي بين لك بالأحاديث الشريفة أحكام الزكاة، تفاصيل الزكاة، زكاة العروض، زكاة النقدين، زكاة المواشي، زكاة الحلي، زكاة الركاز، النبي زادك هدىً لأنه بين ما نزل في كتاب الله عزّ وجل، وحينما توفق إلى العمل الصالح وتقطف ثماره يزيدك الله به هدىً، وحينما ترى المرابي وقد دُمِّرَ ماله، والله سبحانه وتعالى يقول مخوفًا من عاقبة الربا:

(فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ)

(سورة البقرة: آية " 279 ")

هذه الوقائع و الأحداث تزيدك هدىً، حينما ترى أن الذي يزني يُزنى به ولو بجداره فهذا مما يزيدك هدىً، حينما يعق الإنسان والديه ولا يوفق في حياته، فهذا كذلك يزيدك هدىً، فالحوادث تزيدك، والتطبيق حينما تطبّق تقطف ثمار الهدى، والنبي يبيّن، وشرح الصدر يدفع، هذا معنى:

(وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (17))

الله عز وجل دلّ الإنسان على المنهج التفصيلي الذي ينبغي أن يسير عليه:

آتاهم المنهج التفصيلي الذي ينبغي أن يسيروا عليه، يعني بيّن لهم ما يتقون، لذلك قال تعالى:

(الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا)

(سورة المائدة: آية " 3 ")

ما من قضيةٍ متعلقةٍ بالدار الآخرة، متعلقةٍ باتصالك بالله عزّ وجل، متعلقةٍ بسبب وجودك في الأرض، متعلقةٍ بالهدف الكبير الذي خلقت من أجله، ما من قضيةٍ متعلقةٍ بهذه الموضوعات إلا وبينها الله عزّ وجل..

(الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا)

(سورة المائدة: آية " 3 ")

العاقل من يحتاط لساعته و يعدّ لها العدة اللازمة:

(وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآَتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (17) فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا (18))

وها نحن الآن بصدد الحديث عن الساعة: يعني أولاً هناك ساعتان، الساعة العُظْمى يوم القيامة، وساعة صغرى هي ساعة كل إنسان، فكل إنسان له ساعة، ساعةٌ خاصة وساعةٌ عامة، والأولى أن ينتبه الإنسان لساعته الخاصة، ساعة مغادرة الدنيا، والعاقل هو الذي يحتاط لهذه الساعة ويُعِدُّ لها كل شيء، يعد لها معرفة الله، يعد لها الاستقامة على أمره، يعد لها العمل الصالح.

ماذا ينتظر الإنسان من الدنيا ؟ هل ينتظر إلا:

1- الفقر المفاجئ:

(فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا (18))

الناس في لهو، وفي غفلة، لكن لو أن واحداً منهم وهو منغمس في شهواته، في لقاءاته، في سهراته، في زياراته، في تمتعه بما حرّم الله، في كسبه للمال الحرام وهو منغمس وجاءته أزمةٌ في قلبه فجأةً، وأخذ إلى المستشفى، وشعر أنه على وشك مغادرة الدنيا، والله الذي لا إله إلا هو يشعر بآلام وبضيق لو وزّعَ على أهل بلدٍ لكفاهم.

(فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ (18))

ألم يقل النبي عليه الصلاة والسلام:

((بَادِرُوا بِالأَعْمَالِ سَبْعًا هَلْ تَنْتَظِرُونَ إِلا فَقْرًا مُنْسِيًا))

[سنن الترمذي: عن أبي هريرة]

فقر مفاجئ ممكن.

2 ـ الغنى المطغي:

((أَوْ غِنًى مُطْغِيًا))

والله لقد قال لي شخص يوماً: إنّ بيتي مساحته ألف متر مع الحدائق، ما دخل لبيتي حلويات إلا بالصواني، ولا دخل فواكه إلا بالصناديق، وعندي ثلاث سيارات، واحدة للسفر مريحة، وثانية للمدينة، وثالثة للمعمل، وذكر لي من دخله الكبير ومن ألوان حياته المترفة الشيء الكثير، ثم دارت الأيام فرأيته والله ينام في غرفةٍ قميئة ويأكل أكلاً خشناً لا يأكله معظم الناس، فقر مفاجئ، طبعاً هذا الغنى كان ببلد آخر، ثم أخرج بيومٍ واحد، وجاء إلى بلده لا يملك ولا ليرة واحدة، فأخذ غرفة صار يخيط فيها، فرأيت أن الفقر المفاجئ ممكن، هذا الفقر المفاجئ حذر منه رسول الله صلى الله عليه و سلم:

((هَلْ تَنْتَظِرُونَ إلا فَقْرًا مُنْسِيًا))

ينسيك كل شيء.

((أوْ غِنًى مُطْغِيًا))

كنت مستقيماً لكنّ الغنى حملك على المعاصي كلها، هذا من البلاء، هذا من أكبر المصائب أن تكون ملتزماً فيأتي المال الكثير فيحملك على معصية الله عزّ وجل، هذا بلاء

دعوة النبي الكريم بأن من أحبه فليجعل الله رزقه كفافاً:

أنا مرة سألت إنسانًا قلت له: عدد لي المصائب، ذكر لي المرض والفقر والقهر والجوع، فقلت له: لكنك أكبر مصيبة لم تذكرها، قال لي: ما هي ؟ قلت له: الغنى المطغي إن هذا المال سبب الشقاء الأبدي، سبب دخول النار، لذلك النبي الكريم قال:

((اللهم من أحبني فاجعل رزقه كفافاً))

[ورد في الأثر]

وكلما قال لي إنسان: أنا دخلي الحمد لله كافيني، مستورة، أقول له: إذاً أصابتك دعوة النبي عليه الصلاة والسلام، أنت ممن تحب رسول الله، إذاً أصابتك دعوة النبي، خذ من الدنيا ما شئت، وخذ بقدرها هماً ومن أخذ من الدنيا فوق ما يكفيه أخذ من حتفه وهو لا يشعر، إذاً:

(فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلّا السّاعَةَ (18))

3 ـ المرض المفسد:

((هل تنتظرون إلا فقراً منسياً أو غنىً مطغياً أو مرضاً مفسداً))

هناك أمراض تذهب بلذائذ الدنيا كلها، وأمراض تمنعك من لذائذ الطعام، وأمراض تمنعك من الأشياء التي يتمتع بها الفقير، كان في هذه البلدة قبل خمسين سنة والٍ، كان مركز الوالي بالمرجة التي فيها الآن

بائعو الحلويات، مرة دخل عليه مدير مكتبة فرآه مطلاً من نافذة غرفته.. وكان بالطابق الأرضي سجن.. والدمعة على خده، قال له: يا سيدي مالك ؟ قال: جاء إنسان ينتظر سجينه ليراه فلم يسمحوا له، فجلس على الأرض وتناول طعاماً بنَهَم، وأتمنى أن أكون مكانه على أن آكل هذا الطعام بهذا النَهَم، محروم من الأكل كله، فالنبي صلى الله عليه و سلم يقول:

((أو مرضاً مفسداً))

مرض يفسد الحياة كلها.

4 ـ الهرم المفند:

((أو هرماً مفنداً))

أي تضعف ملكاته، تضعف ذاكرته، يعيد القصة مئتين أو ثلاثمئة مرة في حياته، أهله يخرجون من جلدهم من قصصه، فقد حفظوها كلها، وذات مرة ذكر لي أخ قصة بينما كنت في أحد المساجد، وهي قصة مؤثرة وهو رجل يصلي بارك الله به، وبعد ثلاثة أيام أعادها علي ثم بعد جمعة أعادها مرة ثالثة، ورابعة، حفظتها غيباً بكل تفاصيلها، هذا الهرم المفند، يعيد القصة مئة مرة، ويصبح حُشرياً، وظله ثقيل، وينصرف الناس من حوله.

من كان تقياً متعه الله بسمعه و بصره و فؤاده إلى يوم مماته:

لذلك فالإنسان المؤمن يمتِّعُهُ الله بقوته وملكاته وعقله وذاكرته، وكذلك زرت إنسانًا أعرف أنه ما اقترف حراماً في حياته، ولا أكل درهماً حراماً، قال لي: والله أجريت تحليلات كلها مطمئنة عمره ستة وتسعون عاماً.. فكل التحاليل نتائجها سليمة، وذاكرته قوية، فالإنسان المستقيم جاء في وصفه من عاش تقياً عاش قوياً.

إذا كان دخله حلالاً، وأنفق المال وفق ما يرضي الله عزّ وجل يمتعه الله بسمعه وبصره وعقله وقوته ما أحياه، ويجعله الوارث له، كما قال النبي الكريم:

((اللهمّ مَتِّعْنَا بِأَسْمَاعِنَا وَأَبْصَارِنَا وَقُوّتِنَا مَا أَحْيَيْتَنَا))

[سنن الترمذي: عن ابن عمر]

ذكر لي أخ أنّ أمه فقدت ملكاتها كلها، قال لي: نربطها، لأننا لو لم نربط يديها لأكلت من غائطها، وصلت إلى شيخوخة لا تحتمل، هذا يسمى أرذل العمر، أما المؤمن لكرامته على الله عزّ وجل تكون أجمل سنوات حياته في خريف عمره، يزداد عقله، ويزداد مكانة وعلماً وفهماً وهو في قلوب الآخرين،

الشباب كلهم مثل بعض، أما التفاوت فيبدو واضحاً في خريف العمر، أيام الشيخوخة، فالمؤمن حينما يكون في شبابه مستقيماً، يمتعه الله بسمعه وبصره وقوته ما أحياه.

5 ـ الموت المفاجئ:

(فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ (18))

طبعاً:

((فماذا ينتظر أحدكم من الدنيا هل تنتظرون إلا فقراً منسياً أو غنىً مطغياً أو مرضاً مفسداً أو هرماً مفنداً أو موتاً مجهزاً))

[سنن الترمذي: عن أبي هريرة]

يقول لك: بيتي ثمنه أربعون مليون، فلما توفي استقر بالقبر، أمعقول هذه النقلة المذهلة من قصر كل شيء فيه إلى حفرة صغيرة ؟ نعم معقول. وهذا هو مصيرنا جميعاً، لكن هذا القبر إما أن يغدو روضة من رياض الجنة أو حفرة من حُفَر النيران.

من أشراط الساعة بعثة النبي الكريم:

(فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً (18))

أو أن الساعة التي وعد الله بها كل الخلائق كما قال عليه الصلاة والسلام:

((بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ يَعْنِي إِصْبَعَيْنِ))

[صحيح البخاري: عن أبي هريرة]

يعنى أنّ مجيء النبي عليه الصلاة والسلام من أحد أشراط الساعة، ما دام النبي قد جاء برسالته فالساعة قريبة..

(فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا (18))

من أشراطها بعثة النبي عليه الصلاة والسلام.

الإيمان قضية وقت لا قضية قبول أو رفض:

(فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ (18))

يعني كيف يتذكرون هذه الحقائق ومتى ؟ يتذكرون ؟ بعد أن جاءتهم الساعة ؟ كفرعون متى آمن ؟ بعد أن أدركه الغرق، فقال:

(آمَنْتُ بالذي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ(90))

(سورة يونس)

فقال الله عزّ وجل:

(أَالآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ)

(سورة يونس: آية " 91 ")

معنى ذلك أن الإيمان الذي يحدث عند الموت لا قيمة له ولا ينفع صاحبه بل يزيده ألماً وفجيعة، والإيمان قضية وقت لا قضية قبول أو رفض، أجل: قضية وقت حصراً لا قضية قبول أو رفض.

من أيقن بالساعة متأخراً ما نفعه يقينه أبداً:

(فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ (18))

(فَأَنَّى لَهُمْ (18))

أي كيف يتصرفون حينما تأتي ساعتهم ؟ إما أن تأتي ساعتهم، أو أن تأتي هذه الساعة، يوم القيامة، الطالب لما يقرع جرس الامتحان، ولم يكن درس من قبل، فماذا أفاده أنْ يؤمن أن هناك امتحانًا ؟ العبرة بالاستعداد له، لا باليقين أن هناك امتحان، لو كان طالب مشككًا بالامتحان ثم قرع جرس الامتحان، وأيقن أن هناك امتحان، فكونه ما درس ولا استعد لهذا الامتحان وقرع الجرس فلا يعني هذا شيئاً عنده، ولا ينفعه، ولا ينجّيه، هذا اليقين المتأخِّر لا قيمة له، فهو يقين متأخر دون أيّ عمل، لذلك:

(لا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا)

(سورة الأنعام: آية " 158 ")

من أتى أجله و هو منكر للإيمان خسر آخرته:

فالعبرة كما قلت وأقول دائماً وقد ذكرت هذه الفكر المرة تلو المرة: خيارك مع الإيمان خيار وقت لا خيار قبول أو رفض، لا تستطيع أن ترفض الإيمان حينما يأتي الأجل:

(فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ(22))

(سورة ق: الآية "22")

(يَقُولُ يَالَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي(24))

(سورة الفجر)

(يَالَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلا(27)يَاوَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلانًا خَلِيلا(28))

(سورة الفرقان)

(يَاحَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ)

(سورة الزمر: آية " 56 ")

الإيمان سيحصل، لكن ليس هناك عمل، كما لو أن طالباً عرف السؤال ولكنه لم يدرس ولم يستعد، خرج من الامتحان فتح الكتاب هذا هو الجواب، ما قيمة هذه المعرفة المتأخرة ؟ فالنتيجة صفر، والصفر خسار و بوار.

تذكر الإنسان لا ينفعه إذا جاء أجله:

(فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ (18))

يعني إذا جاءت الساعة فما قيمة هذا التذكر ؟ التذكر لا ينفعهم، فقد مضى وقت الاستعداد لهذا الامتحان، ولات حين مناص.

(فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ (19))

هذه الآية إن شاء الله لها تفاصيل في الدرس القادم.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة محمد 047 - الدرس (5-8): تفسيرالآيات 19 -23 ، لا إله إلأ الله أساس دعوة الأنبياء جميعا

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 06-01-1995

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون مع الدرس الخامس من سورة محمدٍ صلى الله عليه وسلّم.

النشاط الفكري ميّز الإنسان عن سائر المخلوقات:

مع الآية التاسعة عشر وهي قوله تعالى:

(فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ (19))

أولاً: العلم يقتضي النظر، التفكّر، التأمّل، البحث، الدرس، المتابعة، البحث عن الدليل، اعتماد التعليل، هذا هو العلم، لذلك عدّ العلماء هذه الآية أصلاً في رفض الاعتقاد تقليداً، من يعتقد تقليداً فإيمانه مرفوض، الإيمان المبنيّ على التقليد مرفوض بنصّ هذه الآية، فالله جلّ جلاله لم يقل للنبي عليه الصلاة والسلام: قل لا إله إلا الله، بل إنه قال: فاعلم.

والله سبحانه وتعالى أعطى الإنسان قوّةً إدراكيّة، بهذه القوة الإدراكيّة يستطيع أن يَعْلَم، يستطيع أن ينظر، يستطيع أن يتأمّل، أن يدرس، أن يبحث، أن يُعَلِّم، أن يبحث عن السبب، أن يربط الأسباب بالنتائج، هذا النشاط الفكري مما يتميّز به الإنسان، مما امتاز به الإنسان على سائر المخلوقات، ما أمرك أن تعلم إلا بعد أن أعطاك موجبات العلم، ما أمرك أن تعلم إلا بعد أن زوّدك بهذا العقل، أو ذاك الفكر،(فاعلم)، أما إذا قلنا لإنسان: افعل وهو يفعل ؛ فماذا يعني هذا الأمر ؟ يعني الثبات، إذا قلنا لمن لم يدرس: ادرس، أي عليه أن يدرس، أما إذا قلنا له وهو يدرس: ادرس، أي داوم على هذه الدراسة.

فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ: آية لها عدة معان:

1- على الإنسان أن ينظر و يتأمل حتى يصل إلى يقين بأنه لا إله إلا الله:

المعنى الأول: يقتضي النظر والتأمّل إلى أن تصل إلى يقينٍ قطعيٍّ أنه لا إله إلا الله، أو إذا وُجِّه الأمر لمن يطبّق هذا الأمر فمعناه اثبت على هذا الأمر، وأيُّ أمرٍ موجّهٍ إلى النبي عليه الصلاة والسلام فهو موجّهٌ بالتبعيّة إلى أمّته صلى الله عليه وسلّم، إذاً نحن أيضاً مأمورون أن نعلم أنه لا إله إلا الله، ولكي

نعلم أنه لا إله إلا الله ينبغي أن نتفكّر في ملكوت السماوات والأرض، علينا أن نتفكّر في خلقه، وعلينا أن نتفكّر في أفعاله..

(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ(11))

(سورة الأنعام)

وعلينا أن نتدبّر آياته، فمن أجل أن تعرف الله بإمكانك أن تعرفه من خلال خلقه، ومن أفعاله، ومن كلامه.

2 ـ هذه الآية جمعت إلى اليقين الاستدلالي اليقين الإخباري:

شيءٌ آخر:

(فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ (19))

ما وصلتَ إليه بالاستدلال، فالآن جاءك بالخبر اليقيني، أنت بحثت، ودرست، وتأمّلت، وتفكّرت إلى أن وصلت إلى أنه لا إله إلا الله استنباطاً، ثم أخبرك الله أنه لا إله إلا الله يقيناً، فقد جمعت إلى اليقين الاستدلالي اليقين الإخباري، هذا شرح و إيضاح لكلمة:

(فَاعْلَمْ (19))

والأمر في القرآن يقتضي الوجوب، أي من الخطأ الفادح أن يتصوّر الإنسان أن أوامر الله لا تزيد عن الصلاة والصيام والحج والزكاة، أيُّ أمرٍ في كتاب الله يقتضي الوجوب، أنت أمام منهج كامل، بل إن العبادات التعامليّة والعبادات العلمية هي أخطر بكثير من العبادات التَعَبُديّة، أي أنه أمرك أن تفكِّر، أمَرك أن تؤمن، أمَرك أن تعتقد اعتقاداً صحيحاً، أمَرك أن تعامل الناس بالصدق والأمانة، هذه العبادات التعاملية مع العبادات العِلْمِيّة أهمُّ من العبادات الشعائريّة..

(فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ (19))

لا إله إلا الله فحوى دعوة الأنبياء جميعاً :

العلم يحتاج إلى أن تقتطع من وقتك وقتاً تتعرّف فيه إلى الله عزّ وجل، أما أن يقول الإنسان: ليس عندي وقت، هذا عذرٌ أقبح من ذنبٍ، وهو مردود على صاحبه، أنت خُلِقْتَ من أجل أن تعرف الله، والله سبحانه وتعالى أعطاك كل المؤهِّلات وكل الإمكانات وأمرك أن تعلم، والعلم يقتضي النظر، يقتضي التأمّل، يقتضي التفكّر، يقتضي البحث، يقتضي البحث عن الأسباب، يقتضي الموازنة، يقتضي ربط الأسباب بالنتائج، يقتضي البحث عن الدليل، يقتضي التعليل، إلى أن تستيقن أنه لا إله إلا الله، فهذه

الكلمة هي الدين كلّه، بل هي فحوى دعوة الأنبياء جميعاً، إذا أردت أن تضغط الدين كلّه في كلمات قل: (لا إله إلا الله).

الله عز وجل هو المعبود الوحيد الذي يستحق العبادة:

(الإله) هو المعبود الذي يستحقّ العبادة، كلمة معبود أي يستحق العبادة، ومن الذي يستحق العبادة ؟ هو الذي خَلَق، وهو الذي أمَدّ، وهو الذي ربّى، وهو الذي سيّر، وهو الذي يرزق، وهو الذي يحيي، هو الذي يميت، هو المعطي، هو المانع، هو الخافض، هو الرافع، هو المعز، هو المذل، هو الذي بيده الأمر كله، بيده ملكوت السماوات والأرض، بيده الخلق والأمر، هو الذي لا يُسأل عما يفعل، فليس من شأن الألوهيّة أن يُسأل..

(وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ)

(سورة الزخرف: آية " 84 ")

(وَاللَّهُ يَحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ)

(سورة الرعد: آية " 41 ")

أي إذا بحثت عن الآيات القرآنية التي تتحدّث عن الله عزّ وجل ملخّصها:

(فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ (19))

الإله الذي يستحق العبادة، وهل يستحق العبادة من لا يخلُق ؟ هل يستحق العبادة من لا يرزُق ؟ هل يستحق العبادة من لا يحيي ولا يميت ؟ هل يستحق العبادة من لا يعلم ؟ هل يستحق العبادة من لا يرحم؟ هل يستحق العبادة من لا يعفو ؟ لا تجدُ جهةً مؤهّلة أن تعبدها إلا الله..

3 ـ العلم هو الخطوة الأولى إلى أية مَكْرُمَةٍ:

(فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ (19))

والعلماء استنبطوا من هذه الآية أن العبادة العلمية تسبق العبادة العمليّة، أنت لا تعمل أو لا يصح عملك إن لم تعلم، لذلك العلم هو الخطوة الأولى إلى أية مَكْرُمَةٍ، إلى أي كسبٍ حقيقي في الدين، الخطوة الأولى العلم، ينبغي أن تعلم، لذلك حينما نُعَطِل الجانب العلمي في الإنسان عطّلنا فيه إنسانيّته، لو حذفت العلم وموجبات العلم لرأيت الإنسان يستوي مع الحيوان في كل نشاطات حياته ؛ من طعامٍ وشرابٍ، ونومٍ، وعملٍ، وزواجٍ، تستوي مع بقية المخلوقات لو ألغيت العلم، أما بالعلم فتتميز عليها جميعاً..

(فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ (19))

إنك إن علمت أنه لا إله إلا الله توجّهت إليه وحده، وهذا هو سر كلمة (فاعلم)

التوحيد أساس سعادة الإنسان في الدنيا و الآخرة:

أضرب المثل الثاني مرّة ثانية، بل لقد ذكرته كثيراً: أنت تدخل في بناء مؤلّف من عشرة طوابق، في كل طابق عشر غرف، في كل غرفة خمسة موظفين، عشرة طوابق، في كل هذا البناء إنسان واحد مُخَوّل أن يعطيك الموافقة على السفر، واحد فقط، إذا أيقنت أن هناك واحداً هو الذي يوافق ؛ فهل يمكن أن تقف أمام موظّف وأن تبذل ماء وجهك أمامه ؟ أو أن ترجوه ؟ أو أن تستعطفه ؟ أو أن تقدّم له هديّة، وأنت تعلم أن الذي يوقِّع على إذن السفر هو مدير هذه الدائرة ؟ لماذا أمرك الله أن توحده ؟ من أجل أن تتجه إليه وحده، وهيّأ لك أسباب السعادة من أجل أن تسعد، فغير الله عزّ وجل لا يُسعِد ولو كان كبيراً، ولو كان غنياً، ولو كان قوياً لا يُسعِد، أمرك أن توحِّد الألوهية من أجل أن توحِّد الوجهة، من أجل أن تسعد، من أجل أن تحقق سرّ وجودك في الأرض وإلى أبد الآبدين، لذلك قال تعالى:

(فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ (19))

العلم بـلا إله إلا الله أساس كل سعادة و انضباط:

العلم يقتضي التفكّر في الكون، والعلم يقتضي النظر في أفعال الله عزّ وجل، والعلم يقتضي تدبُّر آيات القرآن الكريم، هكذا يقتضي العلم، لذلك إنسان ليس له مجلس علم، وما له منهل علمي، ما له مرجع علمي، ما له مسجد يأوي إليه، فهذا إنسان ضائع، شارد، هالك لأنه من دون مصدر علمي، من دون منهل علمي، من دون موجّه، من دون مرجع يضل ويفعل أفعالاً سيّئة، يتحرّك حركة عشوائيّة، يقترف الحرام وهو لا يدري، يأخذ ما ليس له وهو لا يدري، يمشي في طريقٍ مسدود وهو لا يدري، يتيه في هذه الدنيا وهو لا يدري، تتنازعه الأهواء، تمزّقه الشهوات، تحطِمه الكآبة، لذلك فالله عزّ وجل أمرنا أن نعلم..

(أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ (19))

لأن العلم بـ:"لا إله إلا الله" أساس كل سعادة، أساس كل انضباط، أساس كل وجهةٍ إلى الله عزّ وجل..

(فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ (19))

ورد في بعض الأحاديث:

((لا إله إلا الله حصني، من دخلها أمن من عذابي))

[ورد في الأثر]

ورد أيضاً:

((لا إله إلا الله لا يسبقها عمل - لأنه لا شرك - ولا تتركُ ذنباً))

[أخرجه ابن ماجه عن أم هانئ]

من ألغى العلم من حياته ألغى وجوده الإنساني:

تصوّر أنك في مكان مع إنسان عظيم من البشر فهل بإمكانك أن تتبدّل في ثيابك أمامه ؟ لا يمكن، هل بإمكانك أن تلفظ كلمة بذيئةً ؟ لا يمكن، فشعورك أنه يعلم وأنه معك في مجلس واحد يجعلك تنضبط، لذلك إذا علِمتَ أنه لا إله إلا الله كانت لك حصنًا، إخواننا كلمة لا إله إلا الله تُقال سريعاً لكن ترجمتها تحتاج إلى سنوات، إلى جهدٍ جهيد، لا تظن أن تنال الجنّة بركيعات تركعها ودريهمات تنفقها، الجنّة أعظم من ذلك، أعظم بكثير، الجنة تحتاج إلى طلب العلم، إلى جلوس على الركب في المساجد، إلى سنوات لأن سلعة الله غالية.

يعني بنظام الحياة الدنيا هل تجد إنسانًا يُقال له: دكتور، أو يضع حرف الدال قبل اسمه قبل دراسة خمسة وثلاثين سنة ؟ كي يُقال له: دكتور أو يُقال له السيد فلان، أو الأستاذ، أو المهندس، هناك إنسان قد يصل إلى مرتبة علميّة في الدنيا أن تغنيه شيئاً، وقد لا يكفي دخل هذه الشهادة خمسة أيام من الشهر، ومع ذلك هذا اللقب العلمي يحتاج إلى سنوات طويلة من الدراسة، والإنسان يطمع أن يدخل الجنّة، أن يكون مؤمناً وهذا أعلى لقب علمي، أعلى لقب أخلاقي، أعلى لقب جمالي، أفيطمع أحد أن يكون مؤمناً من دون أن يفرّغ من وقته وقتاً يطلب فيه العلم ؟ ينهل فيه من مناهل المعرفة ؟ لذلك كل إنسان يلغي من حياته العلم أو طلب العلم فأنا أقول لكم: إنه يلغي وجوده الإنساني..

الإيمان المطلوب هو الإيمان بلا إله إلا الله:

(فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ (19))

إذا كان هذا الأمر موجّهاً إلى النبي عليه الصلاة والسلام، فهذا اليقين الإخباري المتطابق مع اليقين الاستدلالي، أو إذا أردنا أن نعمِّم هذا الأمر إلى أمّة محمد صلى الله عليه وسلّم.. أمة التبليغ فهذا يعني أنّ على كل مؤمنٍ أن يبذل جهداً واضحاً في معرفة أنه **"لا إله إلا الله".**

أيها الأخوة الكرام... لا ينبغي أن يغترّ الإنسان أو أن يتوهَّم أنه مؤمنٌ بأن يقول إن لهذا الكون إلهاً، فهذه الحقيقة ما أنكرها أحد إلا قلّةٌ قليلةٌ جداً من المرضى..

(وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ)

(سورة لقمان: آية " 25 ")

لو سألت أهل الدنيا، سكّان القارّات الخمس من خلق الكون ؟ لقالوا: الله، وماذا عن بوذا ؟ قالوا: هذا نتقرّب به إلى الله..

(مَا نَعْبُدُهُمْ إلا لِيُقَرّبُونَا إِلَى اللّهِ زُلْفَى)

(سورة الزمر: آية " 3 ")

فأن تعتقد أن لهذا الكون خالقاً فهذا إيمان لا أحد يُنكره أولاً، ولا يرقى بك ثانياً، ولا يمنعك من المعاصي ثالثاً، ولا يسمو بروحك إلى الله عزّ وجل، لكن الإيمان المطلوب هو الإيمان بـ: **"لا إله إلا الله".**

العبادة هي خلاصة الطاعة و الحب و الاستسلام لله عز وجل:

توحيد الربوبيّة أن تؤمن أن لهذا الكون خالقاً واحداً، لكنّ توحيد الألوهيّة أن تؤمن أن لهذا الكون خالقاً هو المسير لكل شؤونه، هو المستحق للعبادة، العبادة أن تتجه إلى جهةٍ ما، أن تمحضها ودّك، أن تمحضها حبّك، أن تمحضها طاعتك، هذه العبادة، أي أن خلاصة الطاعة، وخلاصة الحب، وخلاصة الاستسلام، وخلاصة الانصياع هي العبادة، فلذلك إن علمت أنه لا إله إلا الله، لا مسيّر لهذا الكون إلا الله عبدته، فإذا عبدته سعدت بقربه، أي أن الدين علم وسلوك وسعادة، جانب عقلي، جانب عملي، جانب جمالي، الجمالي هو الهدف..

(إلا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ)

(سورة هود: آية " 119 ")

الجانب الجمالي، فالثمن السلوك، والسبب المعرفة، سبب وثمن ونتيجة، أنت إذًا تعرفه، فتطيعه، ثم تسعد به ؛ هذا هو الدين..

(فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ (19))

النبي عليه الصلاة والسلام معصوم عصمة تامة لأنه مشرّع:

في الآية نقطة لغوية دقيقة جداً، هذه النقطة إعادة الجار، تقول مثلاً: أمسكت بالقلم والدفتر، ولكن أمسكت بالقلم وبالدفتر فهذا يقتضي معنى آخر، فرقٌ كبير بين أن تقول: أمسكت بالقلم والدفتر، أي أنك عطفت المجرور الثاني على الأول، أما إذا قلت: أمسكت بالقلم وبالدفتر هنا المجروران اختلفا، العمل اختلف والاسم اختلف، فإذا قال الله عزّ وجل: يا محمد استغفر لذنبك ويا أيها المؤمنون استغفروا لذنوبكم، معنى ذلك أن استغفار النبي غير استغفار المؤمنين، وأن ذنب النبي غير ذنب المؤمنين، إعادة الجار يعني التمايز بين المجرورين، فالنبي عليه الصلاة والسلام يستغفر لئلا يقع في الذنب، إن صحّ التعبير هو استغفارٌ وقائي، يستغفر لكي لا يُذْنِب، فلئلا يُذْنِب يستغفر، فالنبي عليه الصلاة والسلام كما هو ثابتٌ في علم العقيدة معصومٌ قبل النبوّة وبعد النبوّة من الصغائر والكبائر، من الأقوال والأفعال

والأحوال، عصمةٌ تامّةٌ مطلقة، الله سبحانه وتعالى يعصم الأنبياء لأنهم مشرِّعون، لو أنه تطرّق إلى اعتقادنا أن النبي عليه الصلاة والسلام قد يُخطئ شككنا في كل سنّته، معصومٌ عن أن يُخْطِئ في أقواله وفي أفعاله وفي أحواله، لا قبل النبوّة ولا بعدها، لا في الكبائر ولا في الصغائر، فالنبي معصوم، إذاً استغفار النبي من طبيعةٍ غير طبيعة استغفار المؤمنين، النبي يستغفر لئلا يُخطئ، يستغفر لئلا يقع في الذنب، استغفاره وقائي..

استغفار المؤمنين غير استغفار النبي الكريم:

لو كان إنسان يمشي في طريق غير ممهد و لا معبّد، وفيه حفر، فإذا وقع في حفرةٍ نهض منها، هذا شأن المؤمن إذا وقع في حفرةٍ نهض منها، لكن الذي يطلق مصباحاً متألِّقاً كشّافاً يضيء طريقه، فهذا لا يقع في الحفرة لأنه رآها قبل أن يقع بها، فالأول يتقي الحفر بالخروج منها، والثاني يتقي الحفر بعدم الوقوع فيها.. فاستغفار النبي شيء، واستغفار المؤمنين شيءٌ آخر، المؤمن قد يقع في الذنب ثم يستغفر، لكن:

(وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ (19))

بعضهم قال: " إذا كان للنبي صلى الله عليه وسلّم ذنبٌ فهو ترك الأولى "، هكذا قال بعض المفسّرين، لكن الأصح أن استغفار النبي عليه الصلاة والسلام استغفارٌ وقائي، أي أنه يتصل بالله ليتألّق مصباحه ليرى كل شيءٍ أمامه فلا يقع في ذنب، أما المؤمن يقع في الذنب فيستغفر فيغفر الله له، لذلك فالجار عندما تتذكر:

(وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ (19))

فهذه اللام حرف جر تكرر في كلمة:

(وَلِلْمُؤْمِنِينَ (19))

مما يعني أن استغفار المؤمنين غير استغفار النبي، وطبيعة ذنب المؤمنين غير طبيعة ذنب النبي عليه الصلاة والسلام..

تقلب الإنسان في أحواله ثم استقراره على حال معين:

(وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ (19))

بعضهم قال: **" إذا كان للنبي صلى الله عليه وسلّم ذنب فذنبه أنه كلّما أقبل على الله عزّ وجل عرف من كمالاته وأسمائه الحسنى ما لم يعرفه من قبل، فيشعر بالذنب لمعرفته الأدنى و الأقل التي كانت**

قبل معرفته الجديدة " إنسان أنت ظننت أن معه ليسانس فرضاً ثم اكتشفت أن معه دكتوراه، فأنت تشعر أنك لم تقدره حقّ قدره في النظرة الأولى، لعلّ هذا أيضاً مما يُفَسّر به ذنب النبي عليه الصلاة والسلام، فهو يقبل على الله بشكلٍ مستمر وكلّما أقْبَلَ عليه رأى من كماله ما لم يرَه من قبل..

(وَاللّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ (19))

الإنسان يتقلّب في أحواله ثم يستقر على حال، أو يتقلّب في النهار من نشاطٍ إلى نشاط ثم يثوي في الليل، أو يتقلّب في الدنيا من عملٍ إلى عمل ثم يثوي في الآخرة إمّا في الجنّة أو في النار، التقلُّب هو الحركة، والثناء هو الاستقرار، فالله سبحانه وتعالى يعلم متقلّبنا ومثوانا، لعلّ الله سبحانه وتعالى يرى أن هذا الإنسان في حيرة، وفي حركة عشوائيّة، لكن الله يعلم فيه الخير إذاً يمهله إلى أن يثوي إلى طاعة الله، ولعلّ هذا المنافق يعلم اللهُ جلّ جلاله أنه يتحرّك ليرضي المؤمنين لكنّه ليس مؤمناً، له مصالح مع المؤمنين، فيعمل بعمل أهل الجنة لكنه ربّما استقر على غير ذلك، إذاً التقلّب: الحركة، أما مثواكم.. فالثوي: الاستقرار.. فالله عزّ وجل يعلم حاضركم ومستقبلكم، يعلم الحركة الظاهرة والحال العميق، يعلم حالكم في الدنيا وحالكم في الآخرة، فهي كلمة شموليّة..

(وَاللّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ (19))

الله عز وجل عليم بظاهر الإنسان و باطنه:

بعض الناس مثلاً يعمل في التجارة وفي الوظيفة ويسافر، ثم يستقر على عمل معين، فتوجد حركة استكشافيّة ثم هناك استقرار، قد تكون الدنيا للحركة والآخرة فيها الاستقرار، يعلم ما تفعلون في الدنيا ويعلم ما أنتم عليه في الآخرة، يعلم ما تفعلونه في النهار وما تستقرّون عليه في الليل، الإنسان له جلوة وله خلوة، في الجلوة متقلّبكم، وفي الخلوة مثواكم.

إنّ معنى الآية: أنه يعلم ما تفعلونه في النهار، وما تقولونه، وما تدّعونه، وما تفتخرون به، ويعلم ما أنتم عليه في الليل، هل أنتم في مستوى هذه الدعوى، أم أنّ أحوالكم في الليل غير أحوالكم في النهار ؟..

(يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ (19))

يعلم ما أنتم عليه في الدنيا وما أنتم عليه في الآخرة، يعلم ظاهركم ويعلم باطنكم، أي أنّ الآية شموليّة يطبق عليها معانٍ كثيرة..

(يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ (19))

الله عز وجل يعلم بتصرف الإنسان و استقراره:

هناك آية تؤكّد هذا المعنى وهي:

(وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ(214)وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنْ اتَّبَعَكَ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ(215)فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ(216)وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ(217)الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ(218)وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِي(219))

(سورة الشعراء)

لعلّ التقلّب التصرُّف، فالإنسان قد ينتقل من حالٍ إلى حال، من يقين إلى يقين، من عمل إلى عمل، من درجة إلى درجة، من رقي إلى رقي، هذا التقلّب، التقلّب في مدارج الآخرة، في مدارج السالكين، أو التقلّب في دركات الضالّين، التطور نحو الأعلى أو نحو الأسفل، ويعلم الله عزّ وجل أين يستقر هذا الإنسان، في أي مكان يستقر، أو إلى أية دركة من دركات النار يهوي، ثم يستقر..

تشوق المؤمنين إلى القتال و خوف المنافقين منه:

(وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ (19) وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ (20))

يعني سورةٌ تدعو إلى الجهاد، قال:

(فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ (20))

المنافقون هم مع المؤمنين في صلواتهم، في صيامهم، في احتفالاتهم، أما في الجهاد والقتال هم ليسوا معهم، ترتعد فرائصهم، تخور قلوبهم، تضعف عزيمتهم، قال:

(وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ (20))

المؤمنون يدعون إلى القتال، إلى الجهاد، طبعاً لإيمانهم ولتشوقهم للبذل في سبيل الله ويلبون النداء.

آيات الله محكمة لا جدل فيها:

قال:

(فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ (20))

(محكمة) أيْ واضحة لا تحتاج إلى تفسير، ومن رحمة الله بنا أن الآيات التي تتعلّق بالحرام والحلال وبأصول العقيدة آياتٌ محكمة لا تحتاج إلى تفسير، واضحة لا تحتاج برهانًا، ليست موضع جدل، ولا موضع اجتهاد، ولا موضع تردّد، الآيات المحكمات واضحاتٌ جَلِيّات، قال:

(فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ (20))

هؤلاء المنافقون، في آية أخرى قال الله عزّ وجل فيهم:

(وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ(8)يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ(9)فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمْ اللَّهُ مَرَضًا)

(سورة البقرة)

إذاً هذا المُصطلح في القرآن يعني المنافقين.

خوف المنافقين من القتال و ارتعاد أوصالهم عند ذكره:

قال سبحانه: أي رأيت المنافقين..

(رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ (20))

بخوفٍ شديد، بفزع، بانهيار نفسي..

(نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ (20))

خافوا على هذه الحياة الدنيا أن تنقطع، خافوا أن يموتوا..

(فَأَوْلَى لَهُمْ (20))

أن يتوبوا إلى الله، والحقيقة هذا مقياس دقيق جداً..

(قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ(6))

(سورة الجمعة)

علامة صحّة العمل عدم الخوف من الموت:

علامة المؤمن الصادق أنه يرجو لقاء الله، أو يشتاق إلى لقاء الله عزّ وجل، أما إذا أراد الحياة الدنيا فإنما يريدها ليزداد عمله، لأن النبي عليه الصلاة والسلام وهو الصادق المصدوق يقول:

((خيركم من طال عمره وحسُن عمله))

[ورد في الأثر]

فلا يرغب المؤمن في الحياة إلا ابتغاء أن يزداد عمله الصالح، والنبي عليه الصلاة والسلام كان يعلِّمنا ويقول:

((اللَّهُمَّ أَحْيِنِي مَا كَانَتِ الْحَيَاةُ خَيْرًا لِي وَتَوَفَّنِي إِذَا كَانَتِ الْوَفَاةُ خَيْرًا لِي))

[صحيح البخاري: عن أنس بن مالك]

إلا أن الذين ابتعدوا عن ربهم وعصوا أمره لا شيء يخيفهم كالموت، والتفكّر في الموت مقياس دقيق، فالإنسان إذا خاف من الموت خوفاً مَرَضياً فهذه علامة ليست طيّبة، أما إذا تصوَّر الموت ولم ير فيه ما ينخلع له قلبه فهذه علامة طيّبة، لأن علامة صحّة العمل عدم الخوف من الموت، لكن علامة الانحراف وأكل أموال الناس بالباطل، والعدوان على الناس وظلمهم فهذه علامتها الخوف من الموت..

(وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنْ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنْ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ)

(سورة البقرة: آية " 96 ")

ترحيب المؤمن بالموت و خوف المنافق منه:

(رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ (20))

والحقيقة أن الإنسان عندما يخوض غمار حربٍ.. مثلاً.. فالمؤمن يرحّب بلقاء الله عزّ وجل، تظهر منه شجاعة، شيءٌ لا يُصَدَّق، قد تكون فئة قليلة جداً تنقضُ عليها فئةٌ كبيرةٌ كبيرة وتبقى أسابيع عدة دون أن تصل إلى مرادها، السبب أن المؤمن يُرَحِّب بالموت فيصبح شجاعاً، بينما غير المؤمن يشل الموت حركته، ينهار من فزعه...

أفضل شيء للإنسان أن يتجه إلى طاعة الله و طلب جنته:

(فَأَوْلَى لَهُمْ (20))

هذه الكلمة لها تفاسير كثيرة، من أوجه تفسيراتها: أولى لهم أن يطيعوا الله، أولى لهم أن يتوبوا إليه، أولى لهم أن يقبلوا عليه، أولى لهم أن يتجهوا إلى الآخرة، أولى لهم..

(أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى(34))

(سورة القيامة)

الأولى أيْ الأفضل، الأحسن، الأكمل، الذي يليق بك أن تفعل كذا وكذا..

(فَأَوْلَى لَهُمْ (20))

أيْ أولى لهم أن يطيعوا الله عزّ وجل، أولى لهم أن يؤمنوا، أولى لهم أن يُخلِصوا، أولى لهم أن يتوبوا..

الأَوْلى بالإنسان أن يكون عمله طاعة وقوله حقاً:

(فَأَوْلَى لَهُمْ (20) طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ (21))

أيْ أنّ الأوْلى بالإنسان والذي يليق به أن يكون عمله طاعة وأن يكون قوله حقّاً، فأنت سلوك وعندك كلام..

(طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ (21))

القول المعروف هو القول الحق، والطاعة هي طاعة الله عزّ وجل..

(طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ (21))

هذا أولى لهم، أولى لهم أن يطيعوا، وأولى لهم أن ينطقوا بالحق..

من آثر الآخرة على الدنيا ربح الدنيا والآخرة معاً:

(فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ (21))

أيْ إذا جاء وقت الشدّة، وجاء وقت اللقاء مع العدو..

(فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ (21))

صدقوا الله في بذل أنفسهم..

(صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ)

(سورة الأحزاب: آية " 23 ")

لماذا رضي الله عن المؤمنين ؟ قال: لأنهم بايعوا النبي صلى الله عليه وسلّم على الموت تحت الشجرة، إذا قلنا للصحابة **"رضي الله عنهم"** فهذه عبارةٌ تقريرية، أما إذا قلنا عن عالمٍ جليل: **"رضي الله عنه"** فهذه عبارةٌ دُعائيّة، وفرقٌ كبير بين التقرير وبين الدعاء..

(طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ (21))

أيْ أوْلى لهم أن يطيعوا وأن ينطقوا بالحق..

من صدق في نشر كلمة الحق ربح الدنيا و الآخرة:

(فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ (21))

وهذا معناه أن الإنسان دائماً إذا آثر الآخرة على الدنيا ربح الدنيا والآخرة، وأنه إذا آثر الدنيا على الآخرة خسر الآخرة والدنيا، فليس هناك حل وسط، إما أن تربحهما معاً، وإما أن تخسرهما معاً، والإنسان ربما كانت نيّته أفضل من عمله..

(فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ (21))

مَعَ بذل نفوسهم ربما ينتصرون فيعيشون حياةً مديدةً في عزٍّ كريم، الله عزّ وجل قال:

((وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا(3))

(سورة الفتح)

النصر العزيز مفرح، والله عزّ وجل قال:

((وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ(4)بِنَصْرِ اللَّهِ)

(سورة الروم)

فعندما يبذل الإنسانُ حياته من أجل نشر كلمة الحق فقد كسب حياته وكسب آخرته، والإنسان حينما يضنّ بحياته من أجل نشر الحق خسر حياته وخسر آخرته، والقضيّة معادلة صعبة إما أن تربحهما معاً وإما أن تخسرهما معاً، إذاً علينا بالصدق..

من أحبّ دنياه دفع آخرته ثمناً لها:

((فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ (22))

أيْ في الأرض..

((أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ (22))

الإنسان حينما يتولّى أمر الناس إما أن يصلحهم وإما أن يفسدهم، لعلّه يفسدهم بالمعصية، يفسدهم حينما يظلمهم، يفسدهم حينما يسمح لبعضهم أن يتكلّم على بعض، أفسدهم جميعاً، يفسدهم إذا أصغى لأحدٍ وأصمّ أذنه عن الآخر، يفسدهم إذا فرّق بينهم، يفسدهم إذا قرّب بعضهم وأبعد بعضهم الآخر، يفسدهم إذا ميّز بينهم، يفسدهم إذا ظلمهم، يفسدهم إذا اهتم بدنياهم ولم يهتمّ بآخرتهم، بل إن بعضهم يرى أن في فساد الناس مصلحة له، فلذلك:

((فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ (22))

والإنسان أحياناً من أجل مصالحه يُضَحّي بكل علاقاته، والدنيا إذا أحبّها الإنسان حبّاً جمّاً دفع ثمنها باهظاً، دفع آخرته ثمنها، ودفع علاقاته مع أقربائه، ودفع مبادئه ثمناً لدنياه.

من ولّي أمر الناس و لم يحطهم بنصحه حرم الله عليه الجنة:

قال:

((فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ (22))

طبعاً أن يتولّى الإنسان أمر الناس هذه أمانة، وإنها يوم القيامة خزيٌ وندامة إلا من رحم الله، أن يتولّى الناس أمر عشرة هي أمانة وإنها يوم القيامة خزيٌ وندامة إلا من رحِمَ الله، فالإنسان إذا تولّى أمر عشرة فلم يحطها بنصحه حرّم الله عليه الجنّة يوم القيامة..

(فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ (22))

(فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ (22))

من عامل الناس بمكيالين فقد أفسدهم:

تصوّر رئيس دائرة.. مثلاً.. عنده عشرة موظّفين إذا قرّب الأغنياء وأبعد الفقراء فقد أفسدهم، إذا أصغى إلى وشاية بعضهم ولم يتحقّق من الأمر فقد أفسدهم جميعاً، إذا ظلمهم فقد أفسدهم، إذا ضَيّق عليهم فقد أفسدهم، إذا توهّم أن مصلحته في فساد دينهم فدعاهم إلى الفساد كي يُحْكِمَ عليهم قبضته فقد أفسدهم، فالإفساد هو إخراج الشيء عن طبيعته، فالإنسان مفطور فطرة عالية فإذا رسّخت فيه الفضيلة، والصدق والأمانة، والرحمة والعدل فقد حافظت على البُنْيَة العالية، حافظت على طبيعة الإنسان، أما إذا قرّبت المنافق وأبعدت الصادق، وإذا نصحك شخص أبعدته، وإن نافق لك آخر قرّبته، قرّبت الغني وأبعدت الفقير، أخذت من هذا وأعطيت لهذا، هذا ظلمته وهذا أكرمته فقد أفسدتهم، فالإنسان أحياناً يُمْتَحَن، يتولّى إدارة ما كمدير مدرسة مثلاً، رئيس مستشفى، رئيس دائرة عنده عشرة موظّفين أو أكثر فإذا حابى بعضهم وعاملهم بمكيالين فقد أفسدهم، قرّب من يلوذ به فقد أفسدهم، قرّب الأغنياء أفسدهم، وهذا هو المعنى:

(فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ (22)

الإنسان بُنْيان الله وملعونٌ من هدم بنيان الله:

لذلك إذا انتقى الإنسان.. لو أنه مُعَلِّم ابتدائي انتقى عَرّيفًا وفي هذا الصف من هو أرضى لله منه فقد خان الله ورسوله.. يجب أن تختار إنسانًا مناسباً، تختار الكفء، المخلص، وأن تجعل هناك مقياساً دقيقًا، فإياكم أن تفعلوا السوء والزيغ، قال تعالى:

(فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ)

(سورة الصف)

فالحذر من الزلل.

(فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ (22))

والإنسان بُنْيان الله، وملعونٌ من هدم بنيان الله، هذا الإنسان إذا خوّفته، أو إذا أفقرته، أو إذا أحوجت المرأة أن تأكل بثدييها فقد أفسدتها، إذا ضيّقت على الإنسان حتى اضطر إلى أن يأكل المال الحرام فقد أفسدته، من الذي جعله يأكل المال الحرام ؟ الذي ضيّق عليه، إذاً الإفساد واسع جداً، فخلاصة الإفساد:

أن تخرجه عن طبيعته، الإنسان ينبغي أن يكون أميناً جعلته يخون من أجل أن يأكل، ينبغي أن يكون صادقاً فجعلته يكذب، ينبغي أن يكون عفيفاً فجعلته يزني، طبعاً طريق الزواج طويل جداً في أيامنا هذه، فحملت الشاب على أن يزني، أفسدناه نحن، حينما وضعنا العراقيل أمام زواج الشباب أفسدنا الشباب، فهذه أمور مخيفة، المفروض أن نعمل في بناء الإنسان لا في هدمه، واذكر أخي المؤمن أنّ الإنسان بنيان الله وملعونٌ من هدم بنيان الله، تخوّفُ إنسانًا، وتضطره إلى أضيق السبل، تدفعه إلى القبائح والرذائل كالسرقة مثلاً، فعندما تنشأ بطالة تنشأ معها سرقات وجرائم، خط الجريمة يصعد مع البطالة، كذلك إذا سمحنا ببرامج داعرة مثلاً..فقد يقع الأخ على أخته، قد يقع زنا المحارم الذي لا يمكن لإنسان أن يتصوّره، وهذا يقع، إذا سمحنا بأيّ شيء يُفْسِد الأخلاق فقد عملنا على إفساده، وهدمنا بنيان الله تعالى في شخص الإنسان التائه.

من أخرج الإنسان عن طبيعته الخيّرة ساهم في انتشار الفساد:

هذه آية واسعة المعاني، ولذلك عندما تجد أن هناك قوانين صارمة جداً تكافح المخدّرات فعليك أن ترتاح لها، فالذي يتاجر بالمخدّرات في القانون الجديد يُعدم إن الله يزع بالسلطان ما لا يزعه بالقرآن..
والآن هناك مخدِّرات: شمّة واحدة صار المرء مدمنًا، وبالإدمان انتهى الإنسان خلقاً و ديناً و مواطنة، من يشقى به ؟ أبوه وأمه يشقيان به، فمع هدمه فرداً هُدمت أسرة، وهذا هو الفساد، الفساد أن تُخْرِجَ الإنسان عن طبيعته الخيّرة.
عندما ترى فتاة.. مثلاً.. تخاف من الله، تؤدي صلواتها، تستحي هكذا طبيعة الفتاة كما أرادها الله، أما إذا دفعتها إلى الاختلاط مع الرجال، دفعتها إلى الاحتكاك معهم فأصبحت مسترجلة، وأصبحت جريئة بوقاحة، وأصبحت تتساهل في أمر دينها، أصبحت مثار فتنة، فقد أفسدتها وأفسدت من حولها وأنت لا تدري.
فالماء مثلاً لا لون له، لا طعم له، لا رائحة له، فإذا كان تعكر أفسدته، صار له رائحة نتن أفسدته، صار ذا له طعم قبيح أفسدته..هذه صورة مبسطة للفساد، فالإنسان ينبغي أن يكون صادقاً، أميناً، عفيفاً، بريئاً، محبّاً، منصفاً، فحينما تسهم في إفساد هذه البُنْيَة النفسية فهذا عمل خطير.

القتل عاقبة المفسد في الأرض:

لذلك:

(إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا)

(سورة المائدة: آية " 33 ")

الإنسان الذي يقترف مثلاً جرائم هذا ينبغي أن يُعَاقب عقاباً شديداً، المواطن يرتاح عندما يجد الأمن مستتباً، هذه من نعم الله العُظمى.. إن الله يزع بالسلطان ما لا يزعه بالقرآن..

من لوازم اختيار الشهوة فقدان الرؤية الصحيحة و عدم الإصغاء للحق:

قال:

(فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ (22) أُولَئِكَ)

أيْ أنّ هؤلاء الذين أفسدوا في الأرض..

(أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ (23))

هؤلاء يفسدون وهم في حالة عمى، أيْ أنهم اختاروا الشهوة.. من لوازم اختيار الشهوة أن الشهوة كانت كالوقر في آذانهم، وكالغِشاوة على أعينهم ففقدوا أبصارهم، فقدوا رؤيتهم الصحيحة، وفقدوا إصغاءهم للحق..

أساس الدين أن تتقرب إلى الله بخدمة عباده لا بإفساده‍م:

(أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ (23))

لعنهم عندما أفسدوا عباد الله، فأساس الدين أن تتقرّب إلى الله بخدمة عباده، بإكرامهم، بالإحسان إليهم، بإنصافهم، بمسح جراحاتهم، بمسح دموعهم، هذا الأساس، أصل التقرُّب إلى الله خدمة العباد، وكل إنسان يفسد إنسانًا، يفقره، يجيعه، يدفعه إلى الزنا، يدفعه إلى أن يأكل المال الحرام، يدفعه إلى أن يخون، يدفعه إلى أن يزني فقد أفسده. فالإنسان قبل أن يتحرك، قبل أن يقول، قبل أن يفعل، لينظر ماذا يفعل، وأقرب شيء لنا: الأب الذي يأتي بهذه الأجهزة التي تشيع الفساد في البيت، ماذا فعل هذا الأب بأولاده ؟ أفسدهم، هو وليّ أمر أولاده، فإذا سمح لهم بشيءٍ يحطِّمهم ويقيم العلاقات التي لا ترضي الله بينهم فقد أفسدهم، هذه كلمة واسعة جداً لكن ملخّصها: أن إفساد الشيء إخراجه عن طبيعته، والإنسان له فطرةٌ عالية فإذا حملته على المعصية، أو على الكذب، أو على النفاق، أو على السرقة، أو على الزنا، أو أخفته، أو أجعته، أو قهرته فقد أفسدته، تشوّهت حقيقته، فلذلك الصحّة النفسية بالإيمان، وكل إنسان بعيد عن الإيمان يصبح عنده مرض نفسي، خوف شديد، نفاق شديد، قهر، حرمان، ضياع، تشتُّت..

من علامات المنافق أنه يُفْسِدُ في الأرض:

(فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ (22) أُولَئِكَ الَّذِينَ (23))

أفسدوا..

(لَعَنَهُمُ اللَّهُ (23))

فأنت أمام شيئين: إما أن تفعل شيئاً تتقرّب به إلى الله كخدمة العباد، كإصلاح ذات العباد، الله عزّ وجل قال:

(وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ)

(سورة الأنفال: آية " 1 ")

إذا أصلحت بين الناس، نَمّيت القيم، نميت المكارم، وجّهت الآخرين نحو الاستقامة، نحو الخوف من الله، وحصّنت الإنسان بالفضائل، عرّفته بالله فأنت وصلته بالله عزّ وجل، إذاً فأنت تتقرّب إلى الله بهذا العمل، أما إذا أفسدته، ذلّلته على الشهوات، فممكن إفساد إنسان بفيلم واحد تطلعه عليه، فانتهى وأخذ خطاً آخر، وممكن إفساده بمجلّة، أو بقصّة، أو بشمّة، فانتهى خيره، نسأل الله أن يعافي كل أخ مبتلى بالتدخين فأساسه رفيق سيئ أفسده، فالصديق السوء يسبب للأهل المتاعب التي لا حصر لها دائماً، فالفساد شيءٌ مخيف، ومن علامات المنافق أنه يُفْسِدُ في الأرض..

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ(11)أَلا إِنَّهُمْ هُمْ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لا يَشْعُرُونَ(12))

(سورة البقرة)

من أفسد الناس انقطع عن نور الله و طرد من رحمته:

(أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ (23))

حينما أفسدوا طردهم الله من رحمته، عندما طردهم انقطعوا عن نور الله عزّ وجل..

(فَأَصَمَّهُمْ (23))

تحصيل حاصل..

(وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ (23))

صارت الشهوة وقراً في آذانهم، أصمّتهم، وتحوّلت الشهوة إلى غشاوة على أعينهم فأعمت أبصارهم، الأساس أنهم آثروا الشهوة فأصبحوا في متاهةٍ، وفي عمىً، وفي صمم..

على الإنسان أن يتدبر القرآن و يفهمه:

(أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا (24))

وبعد فهذه الآية دقيقة جداً في دلالتها، نحن مطلوبٌ منا أن نقرأ القرآن، وأن نقرأه مجوّداً، وأن نحفظ القرآن، لكن الشيء الذي لا يمكن أن نفرّط فيه وهو مطلوبٌ منا قبل كل شيء أن نتدبّر آيات القرآن الكريم، إنّ الإنسان الذي هو صاحب حرفة عندما يصدر مرسوم تشريعي يمس حرفته، فكيف يقرؤه بعناية بالغة ؟ فلو فرضنا أنّ إنسانًا يعمل في حرفة وصدر مرسوماً ينظِّم هذه الحرفة، يعمل في تجارة العقارات وصدر نظام ضرائبي جديد، كيف يقرؤه ؟ بعناية بالغة حرفًا حرفًا، كلمةً كلمةً، يسأل الخبراء، يسأل المختّصين، ينتظر مرسوماً تفصيلياً تفسيرياً، هكذا الإنسان، لماذا في شأن دنياه يعتني بالنصوص ويفهمها، قال:

(أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا (24) إِنّ الّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشّيْطَانُ سَوّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ(25))

هاتان الآيتان إن شاء الله سبحانه وتعالى نشرحهما في درسٍ قادم.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة محمد 047 - الدرس (6-8): تفسيرالآيات 24-28
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 13-01-1995

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون... مع الدرس السادس من سورة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلّم.

العاقل من تدبر آيات القرآن الكريم و فهم معانيه:

مع الآية الرابعة والعشرين وهي قوله تعالى:

(أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا (24))

أيها الأخوة تدبر الشيء: النظرُ إلى عاقبته ومؤدّاه، أو النظر إلى ما ورائه والقُبُل مقدم الإنسان والدُبُر عكس القبل، فنظر إلى دبر الشيء أي: نظر إلى نتائجه، نظر إلى ما ينتج عنه من نفعٍ أو من ضُر، تدبّر الأمر نظر إلى عواقبه، تدبّر آيات القرآن الكريم نظر إلى هذا الأمر ورأى الخير الذي ينتج عن تطبيقه، ونظر إلى هذا النهي ورأى الشر الذي ينتج عن اقترافه، فالإنسان عليه أن يقرأ القرآن، وعليه أن يتدبر آيات القرآن الكريم، إذا كان الله جلّ جلاله توعّد المرابين بحربٍ من الله ورسوله، فكيف يجرؤ عبدٌ على أكل الربا وقد توعده الله بحرب ؟! ما معنى تدبر هذه الآية ؟ إن الله سبحانه وتعالى في قرآنه الكريم، وفي آيةٍ محكمةٍ واضحةٍ قطعية الدلالة تؤكد أن من يقترف هذه المعصية فالله سبحانه وتعالى سيدمره.

على الإنسان أن يقرأ القرآن تعبداً و تدبراً:

التدبر أن تقرأ الأمر وأن تعرف من هو الآمر، وما هي النتائج ؟ أن تقرأ النهي وتعرف من هو الناهي وما هي النتائج ؟ فانطلاقاً من حبك لذاتك، وانطلاقاً من حبك لوجودك ولسلامة وجودك، ولكمال وجودك، ولاستمرار وجودك تَدَبَّرْ آيات القرآن الكريم، تفحّصْ الحلال وكيف أن النفس تطيب به، وتدبر آيات الحرام وكيف أن النفس تحرم به من السعادة، تدبر آيات الأمر وكيف أن أمر الله أصل كل خير، تدبر آيات النهي وكيف أن النهي ضمانٌ من الوقوع في الهلاك، تدبر آيات الكون وكيف أنها السبيل لمعرفة الله عزّ وجل، تدبر مشاهد يوم القيامة وأن الله سبحانه وتعالى وعد المؤمنين بالجنة ووعد الكفار بالنار.

(وَمَنْ أَصْدَقُ مِنْ اللَّهِ حَدِيثًا(87))

(سورة النساء)

فهذا الكتاب الذي هو من عند خالق الكون ألا يستأهل أن تقرأه قراءة تدبر ؟ قراءة تمعُن، قراءة تبصُّر، قراءة تأمُّل، قراءة فهم، قراءة بحث، قراءة درس، فأحياناً الإنسان يتأمل مادة بمرسوم أو قانون، ماذا يقصد الوزير ؟ أيسمح بالاستيراد ؟ لا يسمح، لو أنه سُمِح لأصبحنا فوق الريح هكذا يقول، أم لهذا السماح قيد يا ترى، من أجل مصالحك الدنيوية تقرأ القرار مرة ومرتين وثلاثاً وتسأل خبراء وأشخاصاً لهم خبرة، وأصدقاء، وزملاء، بعد ذلك تنتظر المرسوم التفسيري، لأن هذا الأمر يتعلق بمصالحك المادية، ولكن مصيرك في الآخرة متعلق بهذا الأمر والنهي الإلهيين.

تأكيد الله عز وجل على قراءة التدبر:

لذلك فالقرآن الكريم يُقرأ تعبداً، ويقرأ تدبراً، قراءة التعبد غير قراءة التدبر، قراءة التعبد تشعر براحة نفسية حينما تقرؤه وبسرور، كلام الله من أي بابٍ أتيته تسعد به، لو أنك قرأته تسعد به، حفظته تسعد به، فهمته تسعد به، لكن الله سبحانه وتعالى يؤكِّد على التدبر.

(أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا (24))

إله في عليائه يأمرك بغض البصر، ليس هذا في الحديث الشريف فحسب بل في نص القرآن الكريم أيضاً، فالإنسان حينما يمشي في الطريق ويملأ عينيه من الحرام، ما موقفه مع الله ؟ مكشوف، كيف يتوازن ؟ كيف يقدر أن يرتاح نفسياً ؟ هل يأمن مكر الله عزّ وجل ؟ هل يأمن عقابه ؟ لما الإنسان تمتد يده لمال حرام فقد أهلك نفسه، والله عزّ وجل قال:

(وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ)

(سورة البقرة: آية " 188 ")

التدبر يوصل الإنسان إلى عاقبة كل أمر يريد أن يفعله:

خالق الكون بآيةٍ واضحةٍ، صريحةٍ، بينةٍ، محكمةٍ، قطعية الدلالة يقول:

(وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ)

ورد في الحديث الشريف أنه:

((مَا آمَنَ بِالْقُرْآنِ مَنِ اسْتَحَلّ مَحَارِمَه))

[من سنن الترمذي: عن " صهيب "]

((ورب تالٍ للقرآن والقرآن يلعنه))

[ورد في الأثر]

أنت مع كتاب خالق الكون، فضل كلام الله على كلام خلقه كفضل الله على خلقه، التدبر: هذا الأمر لو أنني طبّقته ما العاقبة ؟ الله عزّ وجل قال:

(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً)

(سورة النحل: آية " 97 ")

من أراد الدنيا و زينتها عاش عيشة ضنكاً:

قال لك:

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي)

(سورة طه: آية " 124 ")

أردتَ الدنيا، أردت زينتها، أردت الملاهي، أردت الأصدقاء، أردت الاختلاط، أردت اقتراف الذنوب، أردت المُتَع الرخيصة.

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا)

(سورة طه: آية " 124 ")

خالق الكون الذي بيده كل شيء يقول لك:

(فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا)

معيشة كلها متاعب، كلها احباطات، كلها إخفاق، كلها تعسير، كلها ضيق نفسي، ضيق على تعسير على إحباط على قهر على حرمان يعني معيشة ضنكاً.

(فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا)

ضيق القلب عاقبة المعرض عن ذكر الله:

قد يقول قائل: هؤلاء الذين ينعمون بأموالٍ كثيرة ومراتب عالية ما علاقتهم بهذه الآية ؟ أجاب المفسرون: ضيق القلب، لو أنك تملك المال الوفير والجاه العريض..

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا)

(سورة طه: آية " 124 ")

وإذا أردت فابحث، اذهب إلى هؤلاء الذين هم في نظر الناس في أعلى قمم النجاح المادي، المالي، الاقتصادي، ادخُل في صميم حياتهم.

(فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا)

التدبر كلمة تتضمن عدة معان منها:

1- قراءة القرآن الكريم و فهم معانيه:

التدبر أن تقرأ كتاب الله، أن تقرأ الآية، أن تفهم معناها الدقيق، أن ترى ما النتيجة التي تتأتى من تطبيقها، وما الخطر الذي يتأتى من مخالفتها، فالإنسان قد أعطاه الله عزّ وجل فكراً، هو أثمن ما يملكه، هذا الفكر لماذا يعمل في الدنيا ؟ لكسب المال، والإيقاع بين الناس، يعمل في الكيد بين الخلائق، لِمَ لا يعمل هذا الفكر في فهم كلام الله، في التدبر ؟ الله يقول:

(أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآَنَ)

2 - النظر إلى النتائج:

التدبر أن تنظر إلى النتائج، نتيجة الطاعة، نتيجة المعصية، ماذا بعد الحياة الدنيا، ما معنى أن يدخل الإنسان جهنم ؟ الإنسان يتدبّر الآية، أيطيق لهب شمعةٍ على إصبعه، اعمل للدنيا بقدر بقائك فيها، واعمل للآخرة بقدر مقامك فيها، واتق الله بقدر حاجتك إليه، واتق النار بقدر صبرك عليها، التدبر مهم جداً.

من قرأ القرآن قراءة تعبد تمكّن من معرفة أحكام الله تعالى:

فيا أيها الكريم يجب أن يكون لك حصة تقرأ فيها القرآن قراءة تعبد، أنا والله بشهر أختمه، أو بأسبوعين، أو بأسبوع، أو بأشهر ثلاثة، لا يوجد مانع، ولك حصة تقرأ فيها القرآن قراءة تدبر، يعني تكفيك آية واحدة، قال له: **" عظني ولا تطل "**، قال عليه الصلاة والسلام:

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَه(7)وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَه(8))

(سورة الزلزلة)

قال: **" كفيت يا رسول الله "**، آية اكتفى بها، فقال عليه الصلاة والسلام:

((فقُهَ الرجل))

فاقرأ آيات الأمر والنهي، اقرأ آيات الوعد والوعيد، اقرأ خبر الماضي، غيب الماضي، وغيب الحاضر، وغيب المستقل، اقرأ وصف ربنا للجنة والنار، اقرأ ما حدثنا به ربنا عزّ وجل عن ذاته وكيف حَدّثنا عن نفسه لتتمكن من معرفته..

عظمة الله عز وجل تتجلى من خلال فهم الآيات الكونية:

(اللّهُ لا إِلَـهَ إِلا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ)

(سورة البقرة: آية " 255 ")

(هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (24))

(سورة الحشر)

فاقرأ القرآن قراءة تدبر، اقرأ القرآن قراءة درس، قراءة تعبُّد، قراءة بحث، قراءة فهم، قراءة معاينة، قراءة غوص في الأعماق، هل هناك كتابٌ يستحق أن تغوص فيه كالقرآن ؟ العجيب أن دارساً للأدب يأخذ قصيدة قيلت في الجاهلية، فلا يزال يدرس أبعاد المعاني، وماذا يريد الشاعر من هذا البيت ؟ وما الخلفية التي دفعته لهذا البيت ؟ وماذا يعني هذا البيت ؟ فهذا الجهد الكبير يبذل لفهم كلام إنسان عادي، فالأولى أن تفهم كلام الله بهذا العمق، الأولى أن تقف عند آياته، عند حلاله، عند حرامه، عند محكمه، عند متشابه، عند وعده، عند وعيده، عند وصف الله للأقوام السابقة، عند مشاهد الجنة، عند مشاهد النار، عند الآيات الكونية الدالة على عظمة الله.

(أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا (24))

الفرق الكبير بين العالم و العابد:

لذلك من بعض المعاني التي ترد في قوله تعالى:

(إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ(1)وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ(2)لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ(3))

(سورة القدر)

من بعض المعاني التي يمكن أن تستنبط من هذه الآيات أنك إذا قدّرت الله حق قدره فهذا الذي حصل خيرٌ لك من ألف شهرٍ تعبده، لأن العلم شيء والعبادة شيء، العابد مهما عبد الله خيره محصورٌ فيه، يسعد لكن لا يستطيع أن ينفع، ويوم القيامة:

(ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ(32))

(سورة النحل)

من الممكن أن تقرأ القرآن قراءة تعبد وترتاح وتسعد، لكنك لا تستطيع أن تنقل هذا القرآن للناس شرحاً وإيضاحاً وتبصيراً، العابد لذاته، يعمل لذاته، يعمل لإسعاد نفسه، لكن الجنة تحتاج إلى عمل، ماذا قدمت؟ ماذا فعلت ؟ ما العمل الذي فعلته حتى تستحق رضوان الله عزّ وجل ؟ فقراءة القرآن قراءة تعبُّد

مريحة جداً ومسعدة، لكنك إذا قرأته قراءة تدبر وفهمت أسراره، ومدلولات كلماته، والقوانين التي يمكن أن تستنبط من آياته الدقيقة ووضحتها للناس فقد ارتقيت بالعلم..

((فَضْلَ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ))

[سنن أبي داود]

وكما قال عليه الصلاة والسلام:

((فَضْلُ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِي عَلَى أَدْنَاكُمْ))

[سنن الترمذي]

قراءة التعبد تسعد بها لكنك لا ترقى بها و قراءة التدبر تسعد و ترقى بها:

لذلك قراءة التعبُّد شيء، وقراءة التدبر شيءٌ آخر، قراءة التعبد تسعد بها لكنك لا ترقى بها، ولا تستطيع أن تكسب الدرجات العُلا في الجنة بها، ولا تنسى أن الله سبحانه وتعالى يقول آمراً النبيَّ عليه الصلاة والسلام:

(وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا(52))

(سورة الفرقان)

جاهدهم بالقرآن، قف عند آياته، ولو كانت آية واحدة فقط، القضية ليست قضية كم، بل القضية قضية نوع، لو أن آية واحدةً عقلتها لكانت سبب سعادتك في الدنيا والآخرة، آية واحدة، ولا تنسى أن القرآن الكريم ما فرّط بشيء، فيه كل شيء أنت محتاجٌ إليه في علاقتك بالله عزّ وجل، فيه كل شيء أنت محتاجٌ إليه في توجهك إلى الله عزّ وجل، كتاب هداية.

من عَقِل معاني الآيات و بلغها للناس شعر بسعادة لا توصف:

(أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا (24))

لذلك أرجو الله سبحانه وتعالى أن تكون هذه الآية منطلقاً لنا، فما الذي يمنع في أيام الأسبوع أن تقرأ القرآن مرتين، مرة قراءة تعبُّد ومرة قراءة تدبر، لو أنك جعلت من آيات درس الجمعة، آيات التدبر طوال الجمعة، الإنسان يستمع أحياناً ويسعد في الاستماع ويتأثر، فلو أنه بعدما ذهب إلى البيت قرأ الآيات التي فُسّرَت، ودرس ما قيل في شرح هذه الآيات وحَوْل هذه الآيات، واستعمل عقله، وقلّب الآية على وجوهها، فإذا عقل معانيها الدقيقة فعليه أن يبلِّغها للناس، كما قال عليه الصلاة والسلام:

((بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً))

[من صحيح البخاري: عن "عبد الله بن عمرو]

فإذا عقلها وبلّغها للناس فبدون أن يشعر يطبّقها على نفسه فيسعد بمعانيها، والإنسان يحب ذاته، وخيره في فهم كتاب الله وتطبيق ما فيه ؛ فلنستمع إذًا إلى بعض الآيات في الأسبوع ونطبقها تطبيقاً دقيقاً.

ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً: آية لها عدة معان:

1- المعتدي لا يحبه الله و لا يستجيب له:

اليوم في الخطبة ذكرت:

((ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ(55))

(سورة الأعراف)

في معانٍ دقيقة، المعتدي لا أحبه وبالتالي لا أستجيب له، فالذي يعتدي على أموال الناس، الذي يعتدي على ما في أيديهم، الذي يعتدي على أعراضهم، الذي يبيح لنفسه ما حرّمه الله عليه هذا لو دعا دعاءً مُنَمّقاً بصوتٍ عالٍ، لو تشدق بالدعاء، لو تقعّر بالدعاء لا يستجيب الله له.

((ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ(55))

(سورة الأعراف)

هذا معنى.

2 ـ على الإنسان أن يدعو ربه تضرعاً و تذللاً:

هناك معنى آخر: أمرك الله عزّ وجل أن تدعوه تضرعاً، تذللاً، خضوعاً، استكانة، تعبُّداً، فإذا تعودته مستكبراً فقد اعتديت على شروط الدعاء ولن يستجيب الله لك.

3 ـ على الإنسان أن يدعو ربه همساً:

أمرك الله عزّ وجل أن تدعوه خفية همساً بينك وبينه، إنك لا تنادي أصم، إنك تنادي من يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، فإذا رفعت الصوت في الدعاء رياءً، فقد اعتديت على شروط الدعاء، إذاً لا يستجيب الله لك.

4 ـ من دعا فأطال كثيراً حمل الناس على الملل و أثقل عليهم:

إنك إذا دعوت فأطلت كثيراً حتى حملت الناس على السأم والملل فقد اعتديت عليهم، إذا دعوت لنفسك فادعُ الساعات الطِوال، أما إذا دعوت للناس فادعُ الدعاء المختصر الذي لا يثقل عليهم، فأنت قد عرفت هذه الآية مثلاً بأربعة معانٍ، والشرطين الأساسين، الخفية والتضرُّع وعدم العدوان، إذا فهمت هذه الآية بهذا الفهم الدقيق لك أن تذكرها للناس، هذه الآية أصبحت للدعوة موضوعاً كما أصبحت موضوعاً للحديث في المجالس.

التدبر هو معرفة النتائج:

ما أسعد هذا الإنسان الذي يمضي كل وقته في ذكر الله عزّ وجل أينما جلس، معظم الناس يمضون الساعات الطوال مع بعضهم يتبادلون كلاماً فارغاً لا معنى له في معصية وبُعد عن الله عزّ وجل، أما إذا ذكرت الله عزّ وجل:

((ما ذكرني عبد في ملأٍ إلا ذكرته في ملأٍ خيرٌ منه، وما ذكرني عبدي في نفسه إلا ذكرته في ملأٍ من ملائكتي، وما ذكرني في ملأٍ من خلقي إلا ذكرته في ملأٍ خيرِ منه))

[متفق عليه عن أبي هريرة]

فأحياناً تجد أن الآية فيها مفتاح سعادتك، مفتاح التوفيق، مفتاح الفوز في الدنيا والآخرة، آية واحدة، كلام خالق الكون..

(الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ)

(سورة الأنعام: آية " 1 ")

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ)

(سورة الكهف: آية " 1 ")

أيْ أنّ الكون يوازي هذا القرآن الكريم وأن هذا القرآن في عظمته يوازي الكون في سعته، الكون خلقه وهذا كلامه، فما الذي يمنعنا من أن نفهم كلام الله فهماً عميقاً، ما الذي يمنعنا من أن نقف عند آياته وقفةً متأنية ؟ ما الذي يمنعنا من أن نتفحّص كلام الله عزّ وجل، أبعاده، الأحكام الشرعية المستنبطة من كلام الله عزّ وجل ؟ ما الذي يمنعنا أن نأتمر بما أمر الله وأن ننتهي عما نهى الله عنه ؟ التدبر إذًا: معرفة النتائج.

العاقل من يصل إلى النتائج على صعيد الفكر قبل أن يصل إليها على صعيد الواقع:

إذا أردت أن تذهب إلى بلدٍ غربي، وتستقر فيه قد يذهب الإنسان إلى هناك فيعجب بالرفاه، والحضارة، والأبنية الفخمة، والمركبات الرخيصة، والحدائق الغنّاء، والشوارع العريضة فهذا لم يتدبر، أما الذي يتدبر فهو يتصور أنه تزوج هناك، وأنجب أولاداً، ونشأ الأولاد في ظل الإباحية الجنسية، فماذا ينفعه ؟ إذا أردت إنفاذ أمرٍ تدبر عاقبته، لذلك: من هو العاقل ؟ هو الذي يصل إلى النتائج على صعيد الفكر قبل أن يصل إليها على صعيد الواقع، يصل إليها بعقله قبل أن يصل إليها بجسده، هذا هو التدبر، لذلك دائماً المتدبر لا يندم، لأنه رأى الذي سيكون قبل أن يكون.

(أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآَنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا (24))

ليس هناك عمل يعلو على أن تفهم كلام الله، الإنسان يدرس ويعمل طيلة حياته، يا ترى عمله، دوامه في وظيفته، كسب رزقه، تجارته، صحته، زواجه، أولاده، فما من عمل على الإطلاق يعلو على أن تفهم المنهج الذي في كتاب الله.

وجود الإنسان لا معنى له من دون منهج يسير عليه:

الله عزّ وجل قال:

(الرَّحْمَانُ(1)عَلَّمَ الْقُرْآَنَ(2)خَلَقَ الْإِنسَانَ(3)عَلَّمَهُ الْبَيَانَ(4))

(سورة الرحمن)

أيعقل أنّ يُعلّم الإنسان القرآن قبل أن يخلق ؟ هكذا الآية:

(الرَّحْمَانُ(1)عَلَّمَ الْقُرْآَنَ(2)خَلَقَ الْإِنسَانَ(3))

فالإجابة عن هذا السؤال: أن الترتيب بين الآيتين ليس ترتيباً زمنياً بل هو ترتيب رُتَبي، بمعنى أن وجود الإنسان لا معنى له من دون منهج يسير عليه، لذلك ليس هناك من عملٍ على الإطلاق مقدّم على فهم منهج الله، ليس هناك عملٌ على الإطلاق يعلو على أن تفهم كلام الله، لأنه منهجك، نجاحك في الزواج نتيجة فهمك لكلام الله، نجاحك بالتجارة انعكاس لفهمك لكلام الله، نجاحك مع أهلك سببه فهمك لكلام الله، نجاحك في علاقاتك الاجتماعية، نجاحك في صحتك..

من كان حريصاً على سلامته و سعادته عليه أن يفهم آيات القرآن فهماً دقيقاً:

(وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا)

(سورة الأعراف: آية " 31 ")

نجاحك في كل شيء أساسه فهم المنهج، مرة ضربت مثلاً قلت فيه: لو فرضنا جهاز حاسوب ثمنه ثلاثون مليون لتحليل الدم، فممكن أن تضع نقطة دم في مكان فيه وخلال ثوانٍ تظهر على الشاشة نتائج سبعة وعشرين تحليلاً، فلو فرضنا أجرة كل تحليل ألف ليرة، وعندهم مئة زبون، مئة ألف كل يوم، فلو أنك اشتريت هذا الحاسوب وليس معه كتاب التعليمات، تعليمات التشغيل والصيانة، وأنك إذا استعملته من دون كتاب تفسده، ويصاب بالعَطَب، وإن خفت عليه جَمّدت ثمنه، أليس هذا الكتاب أثمن منه ؟ أنا أعتقد من يشتري هذا الحاسوب بهذا الرقم الكبير، يركب الطائرة ويذهب بنفسه ليأتي بدفتر التعليمات، لأنها أساسيةٌ في استعمال هذا الحاسوب، مصيريةٌ لتشغيله، فأقول لكم: ما من عملٍ على الإطلاق يعلو على أن تفهم منهجك في الحياة، كيف تعامل زوجك، كيف تتقي المصائب، كيف تتقي الهلاك، كيف تسعد بذاتك، فالإنسان آلة معقدة جداً، وهذا الكتاب تعليمات الصانع، ولاحظ نفسك حينما تقتني آلة غالية جداً، تحرص على ترجمة تعليماتها ولو كانت بلغة صينية، هل يوجد أحد هنا يفهم اللغة الصينية ؟ أو اللغة الألمانية، وقليل عندنا من يترجم لها فإذا كانت الآلة غالية،غالية الثمن وعظيمة النفع، تحرص على ترجمة تعليمات الصانع مهما كلّفك الأمر، وهذا القرآن الذي أمامك تعليمات الصانع، فإن كنت حريصاً على سلامتك، وإن كنت حريصاً على سعادتك فعليك بفهم هذه الآيات فهماً دقيقاً دقيقاً.

(أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآَنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا (24))

القرآن الكريم فيه إشارات إلى أدق الحقائق:

مرة قال لي أخ: ابني مريض مضى عليه بالمستشفى أسبوع، قلت له: خير إن شاء الله، قال لي: لقد أكل فواكه غير ناضجة، عندنا بستان فقطف من أشجار البستان، فقلت له: هل علّمته القرآن ؟ قال لي: ما علاقة هذه بهذه ؟ قلت له: الله قال:

(كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ)

(سورة الأنعام: آية " 141 ")

الفواكه الفجّة تؤذي الجسم، القرآن فيه كل شيء تقريباً، لو قرأتَ القرآن قراءة دقيقة لوجدتَ فيه إشارات إلى أدق الحقائق.

على الإنسان أن يكون في حياته خبيران أحدهما لدنياه و الآخر لآخرته:

فيا أيها الأخوة الكرام... هذه آية دقيقة جداً:

(أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآَنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا (24))

أنت أحياناً يغيب عن ذهنك أن بعض الناس من بني جنسك من هو أقوى منك بحكم موقعه، فيصدر قراراً، تتأمل بالقرار ساعات طويلة، ماذا يقصد بهذه الكلمة ؟ وماذا يعني بهذه الكلمة ؟ وهل يقصد المنع المُطْلق أم المنع المشروط ؟ وما رأي مفسري هذا القرار ؟ ما رأي كبار الموظفين عنده ؟ ألا تستحي من الله أن تأخذ نصّاً بشرياً وتدرسه وتقتله دراسة وتقلبه على وجوهه وتبحث عن مراميه، وعن أبعاده، وعن دلالاته، وكلام ربك بين يديك ألا تسأل عنه؟ أنت يلزمك أن يكون في حياتك خبيران ؛ أحدهما لدنياك والآخر لآخرتك، قال تعالى:

(فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ(43))

(سورة النحل)

كل إنسان بحاجة إلى من يعرفه بالله عز وجل:

قال:

(فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا(59))

(سورة الفرقان)

فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيراً: أنت بحاجة إلى إنسان يدلك على الله، يكون مرجعاً لك، طبعاً يأتيك بالدليل وليس من عنده ؟ لا أحد مؤهّل بأن يعطيك شيئًا من عنده، يقول لك: هذا افعله وهذا هو الدليل، وهذا لا تفعله وهذا هو الدليل، أنت بحاجة إلى من يعرّفك بالله عزّ وجل.

(فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا(59))

وأنت بحاجة إلى إنسان خبير في الدنيا، أردت أن تقدم على عمل، على مشروع، اسأل الخبراء المؤمنين، اسأل أهل الخبرة من المؤمنين، لأن من المؤمنين مَن ينصحونك، لو فرضنا أنك التجأت إلى مؤمنٍ غير خبير فلن يفيدك، هو طيّب لكنه ساذج بهذا الموضوع، ولو كان خبيثًا يقول لك: أنت تحتاج لهذا العمل، يخاف أن تنافسه فيه، في أمر الدنيا، اسأل أهل الخبرة من المؤمنين، وفي أمر الآخرة اسأل به خبيراً، أحياناً آية يعسر عليك فهمها.

(وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ)

(سورة السجدة: آية " 13 ")

هذه الآية ألم تشكل عليك ؟ اسأل عنها الخبراء من مفسّري القرآن الكريم، الله عزّ وجل جعل بعض الآيات تدعو إلى التساؤل حتى يتحرك الإنسان، لينطلق ولا يبقى خاملاً، الأشياء الواضحة جداً تدعو إلى الكسل أحياناً، فهناك آيات تحتاج إلى تأمُّل، إلى تدبر، إلى سؤال مَن هو أكثر منك خبرةً فيها.

حبّ الدنيا و المعاصي تحجب الإنسان عن الله عز وجل:

(أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآَنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا (24))

ما الذي يجعل على قلب الإنسان قِفلاً ؟ حب الدنيا، حبك الشيء يعمي ويصم، وما الذي يجعل على القلب قفلاً ؟ المعاصي، المعاصي حُجُب، كل معصية حجاب، الغارق في المعاصي لا يعي على خير، لا يرى شيئاً، غارق في شهواته، هو غارق وفيه عمى، هو في ظلام، وفي ظلماتٍ بعضها فوق بعض، إذا أخرج يده لم يكد يراها، فربنا عزّ وجل وصف الشهوات والمعاصي وصفاً مجازياً، فهي قفلٌ على القلب، فلا يظن أحدٌ أن الله عزّ وجل قفل قلب هذا الإنسان، هذا المعنى لا يليق بالله عزّ وجل، فالإنسان مخيَّر، حينما اختار الشهوة واختار المعصية جعل من الشهوة والمعصية قفلاً على قلبه، هذا يسمونه تحصيل حاصل، حينما اختار الشهوة الدنيئة والمعصية القبيحة، جعل من الشهوة والمعصية قفلاً على قلبه، المعاصي بريد الكفر، قد ينسى المرء بعض العلم بالمعصية.

علامة إصغاء الإنسان تطبيق ما سمع:

(أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآَنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا (24))

(أفلا) حرف حض، أيْ تدبروا القرآن، فإن لم تفعلوا، فإن لم تستطيعوا فاعلموا أن على القلوب أقفالاً هي المعاصي والشهوات، لذلك فالإنسان بمجرد أن يستقيم يصبح مصغياً للحق، فلو فرضنا أنّ واحداً ألقى محاضرة والحضور استمعوا استماعاً دقيقًا جداً إلى درجة أنه لو رميت إبرةً لسمعت صوتها، يعني أنهم منصتون، فهل هذا هو الإصغاء الذي أراده الله ؟ لا والله..

(إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا)

(سورة التحريم: آية 4)

علامة الإصغاء لا أن ترى النفوس مستمعة استماعاً دقيقاً، علامة الإصغاء التطبيق..

(إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا)

تدبر آيات القرآن الكريم يبدأ بالتفكر و التأمل و الدرس و ينتهي بالتطبيق:

لذلك التدبر علامته لا التشدُّق بمعاني الآيات، لكن تطبيقها، إذا طبقتها فقد تدبرتها، علامة الفهم الدقيق التطبيق العملي، وإلا دخلنا في متاهةِ العلم للعلم، والعلم في الدين ليس هدفاً لذاته، ما أردنا العلم للعلم، لكن العلم للتطبيق، للسمو، للسعادة، المعنى الجديد الآن الذي ينتج عن هذه المعاني، أنك إذا وقفت عند الآية فاهماً، متفَحِّصاً، كُشفت لك الأبعاد، المؤدى، النتائج، لكن إذا تعمّقتَ في فهمها ولم تبادر إلى

تطبيق مضمونها فأنت لم تتدبرها، لأن التطبيق علامة الوعي، وعلامة الفهم العميق، فالتدبر يبدأ بالتفكر، والتأمل، والبحث، والدرس وينتهي بالتطبيق، أما إذا لم يشعر الإنسان بحاجة إلى التدبر فالمعنى أن قلبه مقفل، فليبحث عن العقبات.

على الإنسان أن يبعد المعاصي و الشهوات عن قلبه ليتدبر آيات القرآن الكريم:

لا أحد تتعطل سيارته وهو في سفر فيبقى مكتوف اليدين، فأول عمل يفتح غطاء المحرِّك، ما الذي حصل ؟ لماذا توقفت ؟ أين العُطل ؟ أين الخلل ؟ ما السبب ؟ فإذا الإنسان لم يرَ بنفسه حاجة ملحّة إلى التدبر فمعنى ذلك أن على قلبه قفلاً، فلينزع هذه الأقفال بعيداً، والأقفال هي المعاصي، والأقفال هي الشهوات، وهذا المعنى ورد في آيات أخرى، الذي يقترفون المعاصي..

(أُوْلَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ (44))

(سورة فصلت)

والآية الثانية:

(وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلا خَسَارًا(82))

(سورة الإسراء)

الآية الثالثة:

(وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى)

(سورة فصلت: آية 44)

الاتجاه إلى غير الله من أخطر الأعمال التي تؤدي بصاحبها إلى الشقاء:

الإنسان حينما يتلبس بالمعاصي، وينغمس في الشهوات يكون بينه وبين هذا الكتاب حجابٌ سميك، وكلما ازددت استقامةً وإخلاصاً وصفاءً كلما رأيت نفسك تفهم هذا القرآن فهماً دقيقاً عميقاً، قال تعالى يصف هؤلاء الذين ارتدُّوا على أدبارهم..

(إِنّ الّذِينَ ارْتَدّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشّيْطَانُ سَوّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ(25))

الحركة الطبيعية نحو الأمام، ونحو الله عزّ وجل، ونحو الحق، ونحو الجنة، أما الحركة المعاكسة فهي نحو الشهوات، فربنا عزّ وجل عبر عن الحركة المعاكسة للهدف الذي خلقتَ من أجله بالارتداد على الأدبار، من هنا طريق الجامعة، أدرت ظهرك للجامعة واتجهت عكس الاتجاه، من هنا طريق الكسب أدرت، ظهرك لهذه الجهة واتجهت جهة معاكسة، فقال تعالى:

(إِنّ الّذِينَ ارْتَدّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشّيْطَانُ سَوّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ(25))

وهذه هي المصيبة الكبيرة أن الإنسان بعد أن يعرف الحق يتَّجه إلى الباطل، بعد أن يعرف الهدى يتجه إلى الضلال، بعد أن يعرف الطُهْرَ والكمال يتجه إلى الدَنَس والمعصية، بعد أن يعرف الله يتجه إلى ما سواه، هذا من أخطر الأعمال التي تؤدي بصاحبها إلى الشقاء.

على الإنسان أن يصغي لصوت الحق إن وقع بين وسوسة الشيطان و إلهام الملائكة:

(إنّ الّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أدْبَارِهِمْ)

إنّ الله عزّ وجل حينما خلق الإنسان رسم له هدفًا وقال: اتجه نحوي يا عبدي، اتجه نحو الحق، اتجه نحو الآخرة، اتجه نحو الإحسان، اتجه نحو الفهم، اتجه نحو العمل الصالح، فإذا سار الإنسان باتجاهٍ معاكسٍ نحو الشهوة، نحو الشيطان، نحو المعصية، نحو المتعة الرخيصة، نحو الدنيا، فكأنه أدار ظهره للحق، إذاً يرتد على دبره، ولّىَ الحق دبره، واتجه نحو الباطل.

(إنّ الّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشّيْطَانُ سَوّلَ لَهُمْ وَأمْلَى لَهُمْ(25))

أصغَوا إلى صوت الشيطان، أصغَوا إلى وسوسته، أنت بين وسوسة الشيطان وإلهام الملائكة، الملك يلهمك: أن يا عبد الله اتق الله، والشيطان يوسوس لك: أن يا أيها الرجل التفت إلى الدنيا، أما قوله تعالى: (أملى لهم) فبعضهم قال: الإملاء هنا بمعنى أنه منّاهم بمستقبل رغيد، إن فعلت هكذا سعدت في دنياك، إذا أخذت هذا المال الحرام اشتريت به بيتاً جميلاً وتزوجت أجمل امرأةٍ وعشت في بحبوحةٍ ويسر وكنت من سعداء الدنيا، أملى لهم الأماني، وبعضهم قال: الشيطان سوّل لهم والله سبحانه وتعالى أمدّهم تحقيقاً لاختيارهم، كلا المعنيين صحيح.

(إنّ الّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشّيْطَانُ سَوّلَ لَهُمْ وَأمْلَى لَهُمْ (25) ذَلِكَ بِأنّهُمْ)

عدم تعاون الإنسان الكافر مع المؤمن بأي ظرف من الظروف:

الآن دققوا النظر:

(ذَلِكَ بِأنّهُمْ قَالُوا لِلّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزّلَ اللّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأمْرِ وَاللّهُ يَعْلَمُ إسْرَارَهُمْ (26))

فهل من المعقول أن يتعاون إنسان مع كافر ؟

(ذَلِكَ بِأنّهُمْ)

هؤلاء الذين ارتدوا على أدبارهم، هؤلاء الذين أصغوا لصوت الشيطان، ماذا فعلوا حتى ألمّ بهم ما ألم بهم ؟ قال:

(ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ)

هم اليهود، اليهود كانوا يقيمون على العرب بأنه الله بعث نبيًّا منهم هو خاتم الأنبياء، فلما كان هذا النبي الكريم من نسل إبراهيم عليه السلام كرهوا هذه النبوة لأنها ليست منهم.

من رغب عن الدين احتقر نفسه:

قال سبحانه:

(إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ (25) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ)

اليهود..

(سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ (26))

يعلم أنهم كاذبون، أيْ أنّ هؤلاء الذين جاءتهم الرسالة وضلوا عنها آثروا في طاعتهم وفي تآمرهم الذين كرهوا هذه الرسالة وهم اليهود، والله يعلم إسرارهم يعلم نواياهم السيئة، يعلم كذبهم، قال:

(فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ (27))

لماذا وجوههم وأدبارهم بالذات ؟ الوجه الذي اتجه نحو الشيطان، أو نحو الشهوة، والدبر الذي استدار للحق، فلان أعطى هذا الشيء دُبُرَهُ، أعطاه ظهره، دليل الإعراض والاحتقار، وبالمناسبة الإنسان أحياناً يحتقر شيئاً ما برفضه، قد تحتقر صديقًا سفيهاً، فاسقًا، بذيء اللسان، تعرض عنه، رغبت عنه احتقاراً له، لكن أي إنسانٍ إذا رغب عن الدين فهو في الحقيقة يحتقر نفسه.

سمو نفس الإنسان مرتبطة بمعرفة و تطبيق منهج الله عز وجل:

(وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ)

(سورة البقرة: آية 130)

في الدين وحده، إذا أدرت ظهرك له فأنت بهذا العمل تحتقر نفسك، تحتقرها وتجعلها سفيهة لا قيمة لها، لأن الإنسان له حاجات عُليا وحاجات دنيا، الحاجات الدنيا الطعام، والشراب، والزواج، والعُليا معرفة الله، فالإنسان إذا أعرض عن الله عزّ وجل تخلّى عن قيمته الإنسانية وبقي على مستوى البهيمة، فكل إنسان يُعْرِض عن الدين يحقِر نفسه، يجعلها في مصافِّ البهائم، الذي يرفعك عن الحيوانات أنّ الله سبحانه وتعالى أعطاك قوةً إدراكية، أنت بهذه القوة الإدراكية يمكن أن تعرف الله، إذا عرفته وعرفت

منهجه، وسمت نفسك إليه، أكّدت فيك الجانب الإنساني، الإنسان هو المخلوق الأول، والمخلوق المكرم، والمخلوق المكلف.

دُبُرُ الإنسان الذي أَدَارهُ للحق هو مكان ضربه يوم القيامة:

(ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ (26) فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ (27))

لا شك أنّ الإنسان إذا ارتكب جريمة وألقي القبض عليه، فإذا كان أتعب رجال الأمن الجنائي ثم ألقي القبض عليه، يتلقوه بالضربات والركلات الكثيرة إلى أن يصل إلى مكان التحقيق، فيُهان، يضرب أمام الناس أحياناً، يضرب على أي مكان في جسمه، بأي شيء، يرفس بالرجل، بعقب بندقية، مجرم أتعب رجال الأمن ثم ألقي القبض عليه، قال:

(فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ (27))

الوجه الذي ولّيته إلى الدنيا هو مكان الضرب، والدُبُرُ الذي أَدَرْتَهُ للحق هو مكان الضرب.

(يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ (27))

النار عاقبة من يسخط الله عز وجل: لذلك هذه النتيجة المأساوية، وهذا الهلاك..

(الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ (27))

فهم في أدنى حالات الإهانة، قال تعالى:

(ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ (28))

هل هناك إنسان على وجه الإطلاق لا يعلم بالفطرة ما الذي يرضي الله، وما الذي يسخطه ؟ ليس أحد أبداً، بالفطرة، بر الوالدين يرضي الله، عقوقهما يُسْخِطُ الله، الكذب يسخطه، الصدق يرضيه، الإحسان يرضيه، الإساءة تسخطه، العدل يرضيه، الظلم يسخطه، الرحمة ترضيه، القسوة تسخطه، فبالبديهة ومن دون تعلم من دون جهد كبير.

(ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ (28))

الذي يسخط الله عزّ وجل فعلوه، والذي يرضيه ابتعدوا عنه، هذه النتائج، هذه النتيجة المأساوية، هذا الهلاك الشديد، دخول النار إلى أبد الآبدين..

من آثر دنياه على آخرته اتبع ما أسخط الله عز وجل:

(ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ (28))

هذا مقياس دقيق، ما الذي يسعدك ؛ أن ترضي الله أم أن تسخطه ؟ أن ترضي الله أم ألاّ تعبأ برضاه ؟ لذلك الله عزّ وجل يضع الإنسان في امتحانات صعبة، كل كلام وكل سلوك لا قيمة له إذا فعل في سرّهِ ما يخالف علانيته:

((ركعتان من ورع خيرٌ من ألف ركعةٍ من مُخَلِّط))

[الجامع الصغير عن أنس]

(ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ (28))

إذا آثر الرجل زوجته على والدته، وأهان والدته من أجل زوجته هذا اتبع ما أسخط الله، إذا كان يغش المسلمين في البيع والشراء ليكسب أموالاً طائلة على حساب استقامته وعلى حساب دينه، فهذا اتبع ما أسخط الله، حينما تاجر ببضاعة محرمة تفسد الناس كأن تنشر إحدى دور النشر كتاباً فيه ضلالات وسموم فكرية.. يقول المسؤول عنها: مبيعاته بلغت أربع طبعات.. فلو كانت مئة طبعة، أنت تربح من وراء إضلال الناس، اتبعت ما أسخط الله، هذا هو الدين، فالدين دخل في كل شيء، دخل بحرفتك، دخل بمهنتك، فلتعلموا إخواننا الكرام أن موضوع الاستقامة موضوع دقيق جداً، فينبغي ألاّ يكون في أعمال جانبٌ فيه معونة للباطل، وترويج للباطل أو شيء من الإثم والعدوان:

(وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ)

(سورة المائدة: آية 2)

أول ثمرة من ثمار الدين الاتصال بالله عز وجل:

حتى تجد الطريق سالكًا إلى الله عزّ وجل، ومن أجل أن تسعد بهذا الدين، من أجل أن تُقبِل على الله عزّ وجل ينبغي ألاّ يكون في كل حياتك ما فيه دعم للباطل، من أعان ظالماً ولو بشطر كلمة، لو أعطاه قلماً، أو قال له: معك حق، أو قال له: لا عليك، لو هز برأسه إرضاءً لهذا الظالم..

((مَنْ أَعَانَ عَلَى قَتْلِ مُؤْمِنٍ بِشَطْرِ كَلِمَةٍ لَقِيَ اللَّهَ عَزّ وَجَلّ مَكْتُوبٌ بَيْنَ عَيْنَيْهِ آيِسٌ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ))

(من سنن ابن ماجة: عن " أبي هريرة)

أعمالك، مصلحتك، مهنتك، حرفتك، يا ترى هل فيها غش ؟ فيها حرام ؟ فيها مجاوزة للحدود ؟ حتى تشعر بقيمة الدين، أول ثمار الدين الاتصال بالله، توفيق، سعادة، إكرام، طمأنينة، سكينة، شعور بالتفوق، هذا يحتاج إلى استقامة، إلى بذل، إلى تضحية، قال:

(ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ (28))

من كان عمله مبنياً على فاحشة ظاهرة عليه أن يتخلى عنه:

يا ترى أهذه الرحلة ترضيه أم تسخطه ؟ فيها اختلاط مع أناس متحللين من الدين، قد يشربون الخمر أمامك، قد يمزحون مُزاحاً رخيصاً، يعرضون زوجاتهم بأبهى زينة، أرخص رحلة، ارفضها من أساسها إذا كانت تسخط الله عزّ وجل، يا ترى هل هذه السهرة ترضيه أم تسخطه ؟ وهذا الاجتماع يرضيه أم يسخطه ؟ يا ترى هذه الأفكار التي تروّجها من أجل أن تبيع بضاعتك ترضيه أم تسخطه ؟ فالمشكلة كبيرة جداً، قد يكون العمل مبنياً على معصية واضحة جداً وفاحشة في قبحها، فلذلك:

(ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ (28))

الله عنده حساب موحّد، بيتك، وعملك، ونشاطاتك، وأفراحك، وأتراحك كلها بحساب واحد، يقول لك: أنا أصلِّي، الصلاة مع المعاصي ليست لها قيمة، صلّ طبعاً لا أقول لك لا تصلي، لكن هذه الصلاة لا تقدم ولا تؤخر مع المعاصي، هذه الآية دقيقة جداً، هل تشعر أنك ارتكبت جريمةً حينما تفعل ما يسخط الله ؟ هذه علامة إيمانك، هل تسعد بطاعة الله ؟ بخدمة الخلق ؟ بالإنصاف ؟ أن تقول الحق ولو على نفسك ؟ أحياناً يكون الخلاف بين ابنك وبين ابن الجيران، أنت كمؤمن يجب أن تكون مع الحق، ما الذي يرضي الله ؟ أن تكون مع الحق ولو كان مع ابن الجيران، ما الذي يسخطه ؟ أن تنحاز إلى ابنك انحيازاً أعمى، عندك صانع بالمحل ما الذي يرضي الله ؟ أن تنصفه، أن ترحمه، أن تحسن إليه، ما الذي يسخطه ؟ أن تستغلّه ؟ أن تستغل يُتْمَهُ وضعفه ؟ وأن تعصره عصراً ؟

الدين سلوك و قيم و صدق و أمانة:

قال لي شخص يعمل في محل تجاري: طلب من معلمه إجازة ساعة ليومين في الأسبوع ليلتحق بمدرسة ليلية، فقال له: غير ممكن، فكان عنده صديقه وقال له: يفقس بكرة إن يتعلم يفقس، أما إذا أنفق على ابنه أربعين ألف ليرة مقابل دروس خاصة لكي يصبح طبيباً هذا ممكن، فابنه يجب أن يكون متعلماً، أما هذا الصانع إذا أحب أن يأخذ شهادة كفاءَةٍ بالليل لا يتركه يلتحق بمدرسة ليلية ويقول: يفقس بعد ذلك، هذا يسخط الله عزّ وجل، انتبه، فالدين ما هو صلاة وصوم فقط، الدين تعامل يومي، بعث ابنه ليعلمه ميكانيك (مكنسيان)، قال لأبيه: لم يفك صاحب المحل المحرك أمامي ولا مرة واحدة، الأب مقتنع أنه سيتعلم المصلحة فلم يأخذ أجرة من المعلم، فالمعلم صاحب المحل استخدمه في تنظيف المحل، أما وقت فك المحرك يصرفه إلى الخارج، يقول: إن يتعلم فسوف ينافسني، إذّا استخدمته ولم يعلمه و لم يعطه أجراً، فلو صلّى في أول صف فقد خان والد هذا الغلام الصغير، بل خان أمانته وخان الله من بعد، فالدين أعمق من أن تصلي وتصوم، الدين أعمق بكثير، الدين سلوك، الدين قِيَم، الدين صدق، الدين أمانة، الدين رحمة.

من فهم الدين فهماً أخلاقياً فتح العالم:

" الشريعة رحمة كلها عدلٌ كلها مصلحة كلها، وأية قضيةٍ خرجت من الرحمة إلى القسوة، ومن العدل إلى الجور، ومن المصلحة إلى المفسدة فليست من الشريعة، ولو أدخلت عليها بألف تأويل وتأويل ".

الصحابة لما فتحوا العالم فهموا الدين فهماً عميقًا، فهموا الدين صدقًا وأمانة، وحسن جوار، وكفّوا عن الحرام والدماء، انظر إلى قصر العدل، يقال لك: ثمانية آلاف دعوى عقارية، وكذا دعوى مدنية وجزائية إلخ...، شخص استأجر بيتاً و تركه مهجوراً وحجزه بأجرة مئة ليرة في الشهر، وصاحب البيت يتحرق ليزوج ابنه فيه، فليس لديه بيت آخر، ولكن عنده بيت مؤجر، والمستأجر يحتجزه مهجوراً، فليحذر الإنسانُ قبل أن يقول لك الصلاة والصوم، فليعلم أن الدين استقامة، الدين أداء الحقوق، الدين رحمة، الدين خدمة، الدين إنصاف، فلما الصحابة الكرام فهموا الدين فهماً أخلاقياً فتحوا العالم، لما فهمناه فهماً شعائرياً وطقوساً، غُزينا في عقر دارنا، مليار ومئتا مليون مسلم ليست كلمتهم هي العُليا، وأمرهم ليس بيدهم.

الاستقامة أساس تمكين و استخلاف الإنسان في الأرض:

(وَعَدَ اللّهُ الّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنّهُم فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكّنَنّ لَهُمْ دِينَهُمْ الّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدّلَنّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا)

(سورة النور: آية 55)

أين التمكين ؟ وأين الاستخلاف ؟ وأين الأمن ؟ هذا وعد الله:

(وَمَنْ أَصْدَقُ مِنْ اللّهِ حَدِيثًا(87))

(سورة النساء)

(وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنْ اللّهِ)

(سورة التوبة: آية 111)

فنحن أيها الأخوة بحاجة إلى استقامة، نحن كفانا كلاماً، فالكلام كثير، والكتب كثيرة، فنحن بحاجة إلى مسلم، ولسنا بحاجة إلى إنسان ثقافي، لا أريد مشاعر إسلامية، ولا أريد ثقافة إسلامية، لا أريد فكراً إسلامياً، أريد مسلماً، أريد مسلماً يرى الدنيّة في معصية الله، أريد مسلماً يقيم nالإسلام في بيته، في عمله، في أفراحه، في أتراحه، في علاقاته، في كل نشاطات حياته، انظر إلى هذه الآية ما أدقها دلالة ومعنى:

(ذَلِكَ بِأَنّهُمْ اتّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللّهَ (28))

من اتقى الله كان أعبد الناس:

والله الذي لا إله إلا هو ما من واحدٍ على وجه الأرض إلا ويعلم بالفطرة من دون تعليم ما الذي يرضي الله وما الذي يسخطه، فإذا اتبعت ما يرضي الله وابتعدت عما يسخطه نِلْتَ مرادك في الدنيا والآخرة.. **" ليس الولي الذي يمشي على وجه الماء ولا الذي يطير في الهواء ولكن الولي كل الولي الذي تجده عند الحلال والحرام ".. " اتق الحرام تكن أعبد الناس "..** الدين لا يحتاج إلى دجل، ولا إلى تغطية، ولا إلى مبالغة، هذِهِ كلها حالات مرضية، اتق الحرام تكن أعبد الناس.

((ترك دانقٍ من حرام خيرٌ من ثمانين حجةً بعد الإسلام))

[ورد في الأثر]

((لأن أمشي مع أخ مؤمنٍ في حاجته خيرٌ لي من صيام شهرٍ واعتكافه في مسجدي هذا))

[الترغيب والترهيب عن ابن عباس بسند ضعيف]

((إنّ فُلانَةَ يُذْكَرُ مِنْ كَثْرَةِ صَلاتِهَا وَصِيَامِهَا وَصَدَقَتِهَا غَيْرَ أَنَّهَا تُؤْذِي جِيرَانَهَا بِلِسَانِهَا قَالَ هِيَ فِي النَّار))

[من مسند أحمد:عن أبي هريرة]

ركعتان من ورع خير من ألف ركعة من مخلِط:

((من لم يكن له ورع يحجزه عن معصية الله إذا خلا بها لم يعبأ الله بسائر عمله شيئاً))

[رواه الديلمي عن أنس]

على المؤمن أن يتدبر القرآن و يفهم معانيه و يطبق آياته عبادة و سلوكاً:

كُن مؤمنًا صادقًا وخذ تأييداً وحفظاً ونصراً وتوفيقاً في كل شيء، الله عزّ وجل يرينا آياته دائماً، فالله عزّ وجل خلقنا ليسعدنا، ويرينا آياته دائماً في تأييد المؤمن وخذلان الفاسق، يرينا آياته في توفيق الذي يراعى منهج الله وفي التعسير على من يخرج عن منهج الله عزّ وجل، فهذه الآية كانت محور الدرس وجدير بالمؤمن أن يتدبر القرآن و يفهم معانيه و يطبق آياته عبادة و سلوكاً، قال تعالى:

(أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآَنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا (24))

ليس هناك على وجه الأرض من عملٍ أبعد غايةً من أن تفهم كلام الله وأن تطبقه.

لا قيمة لعمل الإنسان إن اتبع ما أسخط الله تعالى:

والشيء الثاني:

(ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ (28))

أي:

(وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا(23))

(سورة الفرقان)

لا قيمة لأعمالهم مهما بلغت ومهما عظمت في الدنيا، لا قيمة لها عند الله عزّ وجل ولا قيمة لأصحابها..

(فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا(105))

(سورة الكهف)

لهم صغارٌ عند الله.

الغنى والفقر يكونان بعد العرض على الله:

(إِذَا وَقَعَتْ الْوَاقِعَةُ(1)لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ(2)خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ(3))

(سورة الواقعة)

يوم القيامة يعلو أناسٌ كانوا في مقياس البشر في الحضيض ؛ ويصغر أناسٌ كانوا في مقياس البشر في القمم.

(إِذَا وَقَعَتْ الْوَاقِعَةُ(1)لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ(2)خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ(3))

(سورة الواقعة)

والغنى والفقر يكونان بعد العرض على الله.

(تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ(83))

(سورة القصص)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة محمد 047 - الدرس (7-8): تفسيرالآيات 30-35

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1995-01-20

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس السابع من سورة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلّم.

ستر الله عز وجل حال المنافق رحمة به:

مع الآية التاسعة والعشرين، يقول الله سبحانه وتعالى:

(وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ (30))

أيْ أنّ المنافق ستَرَ الله سبحانه وتعالى حالَه رحمة به، وقد أعطاه بهذا الستر فرصة ليتوب، لكن المنافق شاء أم أبى يظهر نفاقه من فلتات لسانه، ومن سيماه..

(وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ (30))

فعملك عند الله سبحانه وتعالى مكشوفٌ ومحدّد، والإنسان إذا علِم علم اليقين أن الله يعلم فلابدّ من أن يستقيم على أمر الله، فالعاقبة أن تعلم أن الله لا يعلم، أما إذا علمت أن الله يعلم وأنه سيحاسبك، فهاتان الحقيقتان كافيتان كي تستقيم على أمر الله.

علّة وجود الإنسان في الدنيا امتحان الله سبحانه وتعالى له:

أكرّر: أنْ تعلم أن الله يعلم وأنّ الله سيُحاسِب..

(وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ (31))

ولقد ذكرت في دروس سابقة: أن الإنسان جاء الله به إلى الدنيا ليمتحنه هو..

(الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا)

(سورة الملك: آية " 2 ")

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ(2))

(سورة العنكبوت)

الله عز وجل عليم بحقيقة كل إنسان:

(وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ(30))

(سورة المؤمنون)

لو قرأت الآيات المتعلِّقة بالابتلاء لوجدت أن علّة وجود الإنسان في الدنيا ليبتليه الله سبحانه وتعالى..

(إنّا هَدَيْنَاهُ السّبِيلَ إمّا شَاكِرًا وَإمّا كَفُورًا(3))

(سورة الإنسان)

ومعنى الابتلاء أنّ الله عزّ وجل أودع في الإنسان حاجات، حاجة إلى الطعام والشراب، وحاجة إلى النساء، وحاجة إلى الذِّكْر الخ...، أودع هذه الحاجات وجعل مضامين هذه الحاجات أمام عينيك، فإما أن تسلك إليها الطريق القويم وفق منهج الله عزّ وجل، وإما أن تسلك إليها الطريق المنحرف، فمِن خلق الحاجة وتوفير مضمون الحاجة تُبتَلى، فهذه التفاحة التي خلقها الله على هذا الغصن هي لك، خَلَقَ التفاحة و غيرها من أجل أن تأكلها، وأودع فيك شهوةً كي تأخذها، لكن كيف تنتقل إليك ؟ إما شراءً، وإما ضيافة، وإما هديّة، وإما سرقة، وإما تسوّلاً، فطريق الانتقال باختيارك وهي لك، فالله عزّ وجل يضع الإنسان في ظروف صعبة، هذه الظروف تكشف حقيقته تماماً، فالإنسان مهما حاول أن يخفي أحواله وحاول أن يخفي عن الناس حقيقته فالله عزّ وجل يعلم حقيقة كل إنسان، والإنسان كما قال الله عزّ وجل..

(بَلِ الإنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ(14)وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ(15))

(سورة القيامة)

العاقل من آثر طاعة الله عز وجل على الدنيا و ما فيها:

الإنسان إذا تعامل مع الحقائق سَعِد في الدنيا والآخرة، وإذا تعامل مع الأوهام والتمنّيات شقي في الدنيا والآخرة.

(وَلَنَبْلُوَنّكُمْ)

أيْ أنّ المرأة تُبْتَلَى بها، فإما أن تزيدك طاعة لله عزّ وجل، وإما أن تحرفك عن الطريق الحق، فالإنسان بعد الزواج، والزواج امتحان، إما أن تأخذ عليه.. هذه الزوجة.. كل اهتماماته، وإما أن تكون معواناً له على طريق الحق، المال إما أن يزيدك قرباً من الله عزّ وجل أو بعداً عنه، الوسامة، الجمال، الذكاء، الطلاقة، العلم، الجاه، كل حظوظ الدنيا إما أنها درجات ترقى بها، وإما أنها دركات تهوي بها..

(وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ (30) وَلَنَبْلُوَنّكُمْ حَتّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ(31))

قد تحتاج إلى المال، وهناك عدّة طرق لكسب المال لكنها غير مشروعة، فماذا تفعل ؟ وقد يؤخِّر الله لك الكسب المشروع، الباب المشروع مغلق، وغير المشروع مفتوح، هذا ابتلاء من الله، فهذا التأخير

في الكسب المشروع، وتوافر الكسب غير المشروع هذا ابتلاء، فالإنسان إما أن يصبر ويؤكِّد لنفسه أن طاعة الله أغلى عليه من الدنيا وما فيها، وإما أن تزل قدمه فيقول لك: أنا مضطر فماذا أفعل ؟

كل شيء ناله الإنسان من الله ممتحن به:

فأنت ممتَحَنْ في موضوعاتٍ ثلاثة ؛ ممتحن فيما أعطاك الله، وممتحن فيما حَرَمَكَ الله، وممتحن فيما أصابك من فعل الله من أمره التكويني، كل شيء نلته من الله ممتحنٌ به، والذي زواه الله عنك ممتحنٌ به، وفعل الله التكويني ممتحنٌ به، أعطاك حظوظًا معيّنة، قدر الله عزّ وجل وشاء لك أن تكون ذا دخلٍ محدود.. مثلاً.. أو دخل غير محدود، أو صحّة طيّبة أو مرض معيّن، أو زواج ناجح أو زواج غير ناجح، فأنت ممتحن..

(وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ (31))

والحقيقة الابتلاء لا يكون في حالة الرخاء، أيْ أنه إذا كانت مصالحك كلها متوافقةً مع عبادتك فليس هناك ابتلاء، متى يكون الابتلاء ؟ حينما تتعارض مصالحك مع شرع الله عزّ وجل، فلو فرضنا أن شاباً متزوّج ولكن عند أهله، والدته موجودة وزوجته، فإذا الزوجة والوالدة كانتا متوافقين توافقًا تامًا فلا امتحان عند الزوج، فمتى يُمتحن إذًا ؟ حينما يختلفان، فإما أن ينحاز إلى زوجته وقد تكون ظالمة، وإما أن ينحاز إلى أمه وقد تكون ظالمة، ففي حال الوفاق بين الزوجة والأم انتفى الامتحان، ليس هناك مشكلة، لكن متى يبدأ الامتحان ؟ حينما تتعارض الحقوق، أهو مع الحق أم مع أمه ؟ أهو مع الحق أم مع زوجته ؟ هو مع الحق حيثما كان الحق، فالإنسان بالزواج يمتحن، بالمال يُمتحن، بالفقر يمتحن، بالصحّة يمتحن، بالمرض يمتحن، بالغنى يمتحن، بالوجاهة يُمتحن، بالقوّة يمتحن، بالضعف يمتحن، كل وقت له امتحانه الخاص.

الكفر نوعان:

1- كفر بواحٍ يُخرج من الملّة:

وبعد، مع الآية التي تليها:

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا)

أيْ أنّ هذا الدين لا قيمة له عندهم، كفروا به، كفروا بأصله، كفروا بالوحي، أو كفروا بأحقيّته، أو كفروا ببعض أجزائه، فهناك أشخاص أحدهم يصلي ويصوم لكن قضيّة الربا غير مقتنع بها، فهذا

التحريم لم يعبأ به، وكفر به، فالكفر إما أن يكون واسعاً، وإما أن يكون ضيّقاً، إذا رفضت كل هذه الدعوة فهذا هو الكفر البواح الذي يُخرج من الملّة.

2 ـ كفر جزئي:

أما إذا قبلت هذا الدين ولم تقبل بعض أوامره ونواهيه فهذا كفر جزئي.

سعي الكافر دائماً لصرف الناس عن الدين بوسائل متعدِّدة:

على كلٍ فالآية يُقْصَد بها الذين كفروا في أصل الدين..

(إِنّ الّذِينَ كَفَرُوا)

هذا الموقف الداخلي، كَفَرَ أيْ كذّب هذا الدين، كذّب هذا القرآن، كذّب الوحي، كذّب ما جاء به النبي عليه الصلاة والسلام، فهذا كله تكذيب، والكفر معناه الإعراض، أيْ أنّه كذّب وأعرض، بينما الإيمان تصديقٌ وإقبالٌ..

(إِنّ الّذِينَ كَفَرُوا)

فهذا الموقف العقائدي كفر، الموقف السلوكي:

(إِنّ الّذِينَ كَفَرُوا وَصَدّوا عَنْ سَبِيلِ اللّهِ)

أي أن الكافر دائماً يسعى لصرف الناس عن الدين بوسائل متعدِّدة، يصرفهم عن الدين بإلقاء الشبُهات، يصرفهم عن الدين بتفنيد حقائق الدين وإظهار أنها خطأ، هذه طريقة للصرف، يصرفهم عن الدين بتزيين الباطل، يصرفهم عن الدين بالشهوات، بالأموال، بالضغط، بالإكراه، بالتعذيب، بوسائل لا تعدُّ ولا تحصى يستخدمها الكفّار لصرف الناس عن الدين، إما بالتفنيد، وإما بالطّعْن، وإما بالتفجير من الداخل، وإما بإعطاء صور مشوّهة لرجال الدين، وإما بإلقاء الشُبهات، وإما بالإكراه المادي، وإما بالتعذيب الجسدي، وإما بإلقاء الفتن، وإما ببذر الشهوات.

حياة الكافر تكذيبٌ وإعراضٌ وصدٌ:

هذه البرامج.. مثلاً.. التي تُبَثُّ فضائياً من دول كافرة من أجل أن تفسد أخلاق المسلمين، أليس هذا صدّاً عن سبيل الله ؟! هو من غير شك صدٌ عن سبيل الله، هذه النظريات الهدّامة التي توضع بين أيدي المسلمين مبنيّةٌ على الكفر بأصل هذا الدين، والكفر بأوامره ونواهيه، هذه المبادئ الوضعيّة الهدّامة التي تخرج عن منهج الله عزّ وجل أليست صدّاً عن سبيل الله ؟ أجل هي صدٌ عن سبيل الله، هذه

الشبهات التي يبثونها حول تعدد الزواج.. مثلاً.. والطلاق، وما جاء به الإسلام من قواعد شرعيّة، فهناك من يأخذ بعضها ويشوهه ليظهر أن هذا الدين باطلٌ، هذا أيضاً صدٌّ عن سبيل الله، ولاسيما في العقدين الأخيرين من القرن الماضي فأساليب الكفّار الماكرة صارت لا تعد ولا تحصى فيما يتعلّق بصدِّ الناس عن سبيل الله، بل إن الحقيقة اتضحت في أن الكافر موقفه الداخلي تكذيب، موقفه النفسي إعراض، موقفه السلوكي صدٌّ عن سبيل الله، ثلاثة مواقف: عقيديًّا مكذِّب، نفسياً مُعْرِض، سلوكياً يصد الناس عن سبيل الله.. أبداً.. ولو درست حياة الكافر لما وجدتها تزيد عن هذه الخصائص، تكذيبٌ وإعراضٌ وصدٌّ، قال تعالى:

(إِنّ الّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللّهِ)

تكذيب الكفار النبي الكريم قولاً و عملاً و سلوكاً:

بقي هناك شيء، أن هؤلاء الذين يدعون إلى الصدّ عن سبيل الله ويشاقون النبي عليه الصلاة والسلام قولاً و عملاً و سلوكًا..

(يَا أَيُّهَا النّبِيُّ إِنّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشّرًا وَنَذِيرًا(45)وَدَاعِيًا إِلَى اللّهِ)

(سورة الأحزاب)

فهو سيّد الدعاة إلى الله، لكنهم يشاقون النبي عليه الصلاة والسلام في حياته، أيْ يريدون أن يطفؤوا نور الله، يريدون أن يوقفوا دعوته، يريدون أن يتهموه اتهاماتٍ باطلة، يريدون أن يُخرجوه من بلده مكّة وقد أخرجوه فعلاً، يريدون لهذه الفئة التي آمنت به أن تُسْحَق، وأن تُسْتَأصل، وأن تُحارَب وقد حاربوها، هذا في حياته، بعد مماته..

(وَشَاقّوا الرّسُولَ)

أي طعنوا في سُنّته، قالوا: يكفينا القرآن الكريم، لا نحتاج إلى سنّة، مع أن الله سبحانه وتعالى يقول:

(وَمَا آتَاكُمْ الرّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا)

(سورة الحشر: آية " 7 ")

الإنسان يدرك الحق بفطرته:

إذاً:

(إِنّ الّذِينَ كَفَرُوا)

كذّبوا، وأعرضوا، وصدّوا الناس عن سبيل الله، ثم إن هؤلاء الكفّار توجّهوا إلى النبي عليه الصلاة والسلام، في حياته كادوا له، في حياته كذّبوه، في حياته استخفّوا به، في حياته عذّبوا أصحابه، في

حياته أخرجوه من بلده، في حياته حاربوه، وبعد مماته حاربوا سنّته، وحاربوا منهجه القويم، وقياساً على ذلك الدعاة إلى الله عزّ وجل حينما يُنال منهم ظلماً وعدواناً فهذا نيلٌ من النبي عليه الصلاة والسلام لأنهم يسيرون على منهجه ويقتفون أثره..

(إِنّ الّذِينَ كَفَرُوا وَصَدّوا عَنْ سَبِيلِ اللّهِ وَشَاقّوا الرّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيّنَ لَهُمُ الْهُدَى)

والحقيقة أن الإنسان يُدْرِك الحق بفطرته، حتى هؤلاء الذين أشركوا يوم القيامة يقولون:

(وَاللّهِ رَبّنَا مَا كُنّا مُشْرِكِينَ (23) انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ (24))

(سورة الأنعام: آية " 24 ")

فالإنسان بفطرته يدرك الحقيقة..

كفّار الأرض على كفرهم لن يضروا دين الله عزّ وجل:

(إِنّ الّذِينَ كَفَرُوا وَصَدّوا عَنْ سَبِيلِ اللّهِ وَشَاقّوا الرّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيّنَ لَهُمُ الْهُدَى لَنْ يَضُرُّوا اللّهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ (32))

قال العلماء: هذا قرار إلهي، أيْ أنّ كفّار الأرض على كفرهم، على تكذيبهم، على إعراضهم، على صدِّهم عن سبيل الله، على نيلهم من النبي عليه الصلاة والسلام، بقوّتهم، بجموعهم، بأموالهم، بذكائهم، بأجهزتهم لن يضروا الله شيئًا و لا رسوله، وهم:

كناطح يوما صخرة ليوهنها فلم يضرها و أوهى قرنه الوعلُ

* * *

(إِنّ الّذِينَ كَفَرُوا وَصَدّوا عَنْ سَبِيلِ اللّهِ وَشَاقّوا الرّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيّنَ لَهُمُ الْهُدَى لَنْ يَضُرُّوا اللّهَ شَيْئًا)

طبعاً لن يضروا الإله، فهذا شيء بديهي جداً لا يمكن أن يُقبَل كمعنى للآية، المقصود لن يضروا دين الله عزّ وجل، الحديث القدسي:

((يَا عِبَادِي لَوْ أَنّ أَوّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا يَا عِبَادِي لَوْ أَنّ أَوّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا يَا عِبَادِي لَوْ أَنّ أَوّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمّا عِنْدِي إِلا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ))

(صحيح مسلم: عن أبي ذر)

دين الله عز وجل لن يزيده الله إلا قوة و منعة و بأساً:

إذاً هذا قرار إلهي، أي أن أهل الأرض لو أنهم كلهم كادوا لهذا الدين فلن يضروا الله شيئاً، والتاريخ أمامكم، كفّار قريش هم الأقوياء، هم الأغنياء، هم السادة، هم عليّة القوم، هم أشراف القبائل، وضعوا كل طاقتهم لدحض هذا الدين، ما الذي حصل في النهاية ؟ أتمّ الله نوره وأخزاهم وجعلهم في مزبلة التاريخ، هذه الحقيقة، ولا توجد جهة تقف في وجه الدين إلا سيحبط الله عملها، هذه الآية حقيقة ثابتة، هذه سنّة من سنن الله في خلقه، فالكفّار لن يضرّوا الله شيئاً.. ما ضرّ السحاب نبح الكلاب.. ما ضرّ البحر أن ألقى فيه غلامٌ بحجر.. لو تحوّل الناس إلى كنّاسين لِيغبّروا على الإسلام لما غبّروا إلا على أنفسهم..

هذه الآية ينبغي أن تبثّ الثقة في نفوس المؤمنين، فمهما كان الكافر قوياً، مهما كان غنياً، مهما كان ذكياً، مهما امتلك من وسائل الدمار، هذه القلعة التي كانت من أقوى قِلاع الكفر في العالم ألم تتهاوى أمامكم كبيت العنكبوت ؟! هل استطاعوا أن يستأصلوا هذا الدين من نفوس المسلمين ؟ ما استطاعوا، سبعين عامًا يجرّدون قواهم ويقمعون قوى الإيمان والإسلام وفي النهاية ظل الإيمان أعمق في قلوب المسلمين من تجريدهم ومن قمعهم.. فلذلك يقول الله عزّ وجل:

(إِنّ الّذِينَ كَفَرُوا وَصَدّوا عَنْ سَبِيلِ اللّهِ وَشَاقّوا الرّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيّنَ لَهُمُ الْهُدَى لَنْ يَضُرّوا اللّهَ شَيْئًا)

أيْ لا تقلق على هذا الدين لأنه دين الله، لا تقلق عليه أبداً مهما كاد له الكفّار، مهما بدت لك المعركة شرسةً، لو رأيت حرباً عالمية تُقام على هذا الدين، فهذا الدين لن يزيده الله إلا قوةً ومنعة وبأساً.

إحباط عمل الكفار من قِبل الله عز وجل و لو كان كالجبال:

أما القرار الثاني..

(وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ (32))

أول قرار:

(لَنْ يَضُرّوا اللّهَ شَيْئًا)

أيْ أنّ الدين راسخ صرحه لا يتأثّر مهما أرجف المرجفون و تمادى الناعقون، ولو أن الناس جميعاً حاربوه، لو أن الناس جميعاً كادوا له، لو أن الناس جميعاً استخدموا كل ما يملكون للنيل منه..

(لَنْ يَضُرّوا اللّهَ شَيْئًا)

أي لن يضروا دين الله شيئاً، وانتهى أمرهم إلى ضلالٍ وإلى بوارٍ.

(وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ (32))

أعمالهم لو أنها كالجبال..

(وَلَا تَحْسَبَنّ اللّهَ غَافِلا عَمّا يَعْمَلُ الظّالِمُونَ إِنّمَا يُؤَخّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ(42))

(سورة إبراهيم)

(وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ(46))

(سورة إبراهيم)

دين الإسلام ثابت لن ينتهي و لو كاد له الكائدون:

أحياناً الله عزّ وجل يُلقي في قلب الكفّار الرُعْب، وفي قلب المؤمنين الثبات، فترى الثبات العجيب، شيء يفوق حد التصوُّر، قلّة قليلة تصمد أمام أكبر قوّة ؟! عشرة أسابيع وهي صامدة، فما هذا الإيمان؟

(إِنّ الّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللّهِ وَشَاقّوا الرّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيّنَ لَهُمُ الْهُدَى لَنْ يَضُرُّوا اللّهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ (32))

هذه الآية دقيقة المعاني والدلالات جداً أيها الأخوة، لا تقلق على دين الله، لا تقل: انتهينا، لا لم ننته، هذا الدين لا ينتهي لأنه دين الله، مهما كاد له الكائدون، مهما تنكّر له المتنكِّرون، مهما طعن به الطاعنون، مهما حاربه المحاربون، إن الذين كفروا..

(لَنْ يَضُرُّوا اللّهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ (32))

هذا العمل المُعَدّ له إعداداً كبيراً سيتهاوى كبيت العنكبوت، يُحْبِطُ الله أعمالهم..

(إِنّ الّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمّ يُغْلَبُونَ)

(سورة الأنفال: آية " 36 ")

الفِرَق الضالة التي أرادت أن تكيد للإسلام أين هي الآن ؟ كلُّها تلاشت، لو قرأت التاريخ الإسلامي تجد أنّ كل هؤلاء الذين كادوا لهذا الدين تلاشوا وانتهوا.

تعاطف المؤمن مع الكافر يؤدي إلى إحباط عمله:

لكن ألق السمع لهذه الآية بعد كل ما مضى:

(يَا أَيُّهَا الّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللّهَ وَأَطِيعُوا الرّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ (33))

قد يسأل سائل ما علاقة هذه الآية بالتي قبلها ؟

(إِنّ الّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللّهِ وَشَاقّوا الرّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيّنَ لَهُمُ الْهُدَى لَنْ يَضُرُّوا اللّهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ (32))

فالخطاب فيها يتحول للمؤمنين:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ (33))

بعضهم قال: **" قد يكون للمؤمن مع الكافر مصالح، كعلاقات تجاريّة، أو علاقات قرابة، وعلاقات نَسَب، فلو أن المؤمن تعاطف مع الكافر في عمله فقد أحبط عمله.**

العلاقة الحميمة بين المؤمن و الكافر منهي عنها:

ربنا عزّ وجل يحذِّر المؤمن من أن تزلّ قدمه وأن يرضى عن عمل الكافر، يحذِّر المؤمن من أن يعشو بصره ويؤيّد كافراً في عمله، يحذِّر المؤمن من أن يزيغ قلبه ويدعم الكافر انطلاقاً من مصلحته، هذا الشيء غلط كبير، لو أن المؤمنين في جهة، والكفار في جهة فالقضية سهلة، ولكن أحياناً يكون هناك تداخل مصالح، فالذين آمنوا عليهم ألاّ تزلّ أقدامهم، طبعاً قد يكون إيمانهم ضعيف، الله عزّ وجل يخاطب المؤمنين دائماً ويأمرهم بأوامر هي في الأصل موجودة لديهم لكن إذا قيل لإنسان يصلي: صلِّ، أيْ اثبت على صلاتك، وإذا قلنا لإنسان صلاته ناقصة: صلِّ، معناها أتمم صلاتك، وإذا قلنا لإنسان لا يصلي: صلِّ، معناها صلِّ فعلاً، فإما أن تكون بعيداً عن هذا الأمر فمعنى الأمر إذًا أن تفعله، وإما أن يكون هذا الأمر عندك ليس كاملاً فمعنى الأمر أن تكمِّله، وإما أن تكون مطبِّقاً له تماماً فمعنى الأمر أن تثبت عليه، إما الثبات، وإما الكمال، وإما الابتداء بالعمل، هذا معنى الأمر، فلو أن بين المؤمنين أناساً ضِعافاً في إيمانهم وهم على علاقةٍ مع الكفّار، والكافر هذا موقفه ؛ تكذيبٌ عقيدي، وإعراضٌ نفسي، وصدٌّ سلوكيٌّ عن سبيل الله، وكيدٌ للنبي وأتباعه من بعده..

(وَشَاقُّوا الرَّسُولَ)

من خصائص الكافر الإعراض مع الصدّ:

التكذيب مع الإعراض مع الصد مع النَيل هذه خصائص الكافر، لو أن هناك تداخل بين الناس، إنسان مؤمن له مع كافر مصلحة في ميراث، في قضيّة، في شراكة، وكيل شركة فرضاً، فهناك بينهم علاقات، فعندما يرضى المؤمن عن فعل الكافر فقد شاركه في الإثم، وكلكم يعلم أيها الأخوة، " من أعان ظالماً سلّطه الله عليه ". هنا النقطة دقيقة جداً: مؤمن له علاقة مع كافر، علاقة قرابة، أو علاقة مصلحة، أو علاقة شراكة مثلاً، أحياناً يكون ميل لمصلحته، والكافر هذا موقفه ؛ تكذيب وإعراض وصدّ عن سبيل الله ونَيل من النبي عليه الصلاة والسلام، فإذا المؤمن سكت، أو أقرّه على عمله، أو

تياسر معه فقد حَبِط عمله، فجاء الآن التحذير أن: أيها المؤمنون إن الكفّار هذه خصائصهم والله سبحانه وتعالى سيخذلهم، وسيخزيهم، وسيحبط أعمالهم فإياكم أن تزلّ أقدامكم فتكونوا على شاكلتهم..

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ (33))

فالعلاقة الحميمة مع الكافر منهي عنها..

من هوي الكفرة حُشِرَ معهم ولا ينفعه عمله شيئاً:

(يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لا تَتَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ)

(سورة الممتحنة: آية " 13 ")

(وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ)

(سورة المائدة: آية " 51 ")

(وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ)

(سورة آل عمران: آية " 28 ")

من هوي الكفرة حُشِرَ معهم ولا ينفعه عمله شيئاً، من أقام مع الكفّار برئت منه ذمّة الله. يحصل تداخل، هذا التداخل ينقلك شيئاً فشيئاً إلى طريقتهم، وإلى إعراضهم، وإلى حبّهم للدنيا، فلابدّ للمؤمنين من أن يتعاونوا، لابدّ للمؤمنين من أن يشكِّلوا مجتمعاً نظيفاً، مجتمعاً تسود فيه الشعائر الدينيّة، يسود فيه النظام الإسلامي، أما التداخل فربما أدّى إلى مذلة القدم..

جهنم عاقبة من مات كافراً:

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا)

مرّة ثانية..

(وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ (34))

الإنسان إذا مات كافراً فهو في جهنّم إلى أبد الآبدين، والإنسان إذا أقرّ لله بالتوحيد، وللنبي بالرسالة، ولهذا القرآن بالمصداقيّة، فإذا كان منه معاصٍ يُحَاسَبُ عليها حساباً دقيقاً لكن الخلود في النار لمن مات كافراً، مات منكراً لهذا الدين، مات منكراً للتوحيد، منكراً لهذا القرآن، منكرًا لهذه الرسالة..

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ (34))

هذه (لن) تفيد تأبيد النفي، نفي المستقبل..

(فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ (34))

المؤمن الصافي عليه ألا يمتزج بعلاقة حميمة مع الكافر المنحرف:

لذلك القرآن الكريم يقول:

(إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ)

(سورة النساء: آية " 48 ")

سياق هذا الآيات يدعونا إلى هذا التوضيح، فما الذي يصرف الإنسان عن الدين ؟ عَلاقة حميمة مع كافر، أو مع منافق، المنافق كافر ولكن في غلاف إسلامي طبعاً لمصالح يراها، فالإنسان عندما يكفر وله غلاف إسلامي هش رقيق فهذا منافق، فالمنافق والكافر واحد، فلئلا تكون هناك علاقات، أو مصالح مشتركة، أو محاولة للتعاون، هذا مما يدفع المؤمن إلى أن تزلّ قدمه، لذلك فعلاقات المؤمن الحميمة يجب أن تكون مع المؤمنين:

((لا تصاحب إلا مؤمناً، ولا يأكل طعامك إلا تقي))

[أخرجه أحمد، وأبو داود، والترمذي، وابن حبان، والحاكم، عن أبي سعيد]

وأنت حينما تعيش مع المؤمنين تسعد بهم، فلا توجد تناقضات، علاقاتك الحميمة إن كانت مع المؤمنين فأنت بها سعيد، لأن الذي تحرّمه أنت يحرّمه المؤمن، والذي تحلّه يُحلّه، والذي تؤمن به يؤمن به، والذي تكفر به يكفر به، والذي يؤلمك يؤلمه، والذي يسعدك يسعده، هذا التوافق، فكأن هذه الآية تريد ألاّ يمتزج المؤمن الصافي بعلاقة حميمة مع الكافر المنحرف، هذا الذي جعل الآية بين الآيتين..

من تعاطف مع المنافق و مال إليه فقد حبط إيمانه:

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ (32) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ)

أيْ الزموا طاعة الله عزّ وجل، الزموا منهج الله عزّ وجل، إياكم أن تزلّ أقدامكم فتقتربوا من أهل الكفر، فتجاملوهم، تداهنونهم، تقرّونهم على أعمالهم، ترضون منكراتهم، ترضون أعمالهم..

(أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ (33))

معنى هذا إذا أنتم تعاطفتم وملتم إليهم، أو دعمتموهم، أو أقررتموهم فقد حبط إيمانكم والنبي الكريم يقول: إن الله ليغضب إذا مُدِحَ الفاسق. لماذا ؟ لأنك إذا مدحت الفاسق وهو فاسق عند الله وأنت مدحته فما الذي يحصل ؟ الجهلة يظنّون فسقه طاعة، ما دام مُدِح فهذا إذًا بريء، فالله عزّ وجل لا يريد أن يُمْدَح الفاسق، لك قريب لا يصلي مثلاً، لك قريب يحمل شهادة عُليا ولا يوجد عنده التزام بالدين إطلاقاً، فلو أنت أثنيت عليه أمام أولادك ثناء كبيرًا، أثنيت على ذكائه، وعلى فهمه، وعلى حكمته وهو لا

يصلي، ولا يصوم رمضان.. مثلاً.. ولا يعبأ بأوامر هذا الدين، وقد تزلُّ قدمه إلى معصيةٍ ويراها هو شيئاً طبيعياً، فهذا الابن إذا سمعك تمدح هذا القريب الفاسق غير الملتزم فأنت بذلك توقعه في حرج كبير، تجعل عقيدته مضطربة.

غضب الله عز وجل إن مدح الفاسق:

لذلك: إن الله ليغضب إذا مُدِحَ الفاسق، فهذه الآية جاءت بين آيتين: الأولى(إن الذين كفروا)، والثالثة: (إن الذين كفروا)، بينهما(يا أيها الذين آمنوا)، معنى ذلك أن المؤمن معرّض أن ينحرف، أن يقترب، أن يُقِر، ولا يغيب عن أذهانكم أن النبي الكريم يقول:

((الذنب شؤم على غير صاحبه))

[الجامع الصغير عن أنس بسند فيه ضعف]

إن الذنب شؤمٌ على غير صاحبه الآن إن رضيه يعني غير صاحبه فقد شاركه في الإثم، إذا كان لك صديق مؤمن وقع في ذنب أو ارتكب معصية أو مخالفة، وأنت لم تقل إلا: هو مضطر فدبّر حاله، هل تدري أنك بهذه الكلمة أصبحت شريكاً له في الإثم ؟ أنت لم تفعل شيئًا، هو الذي أكل المال الحرام، هو الذي فعل هذا الذنب، لكنك حينما قلت عنه: إنه دبّر حاله لأنه مضطر، أقررته على هذا العمل، فأنت شريكه في الإثم..

((فالذنب شؤمٌ على غير صاحبه إن رضي به فقد شاركه في الإثم، وإن ذكره فقد اغتابه، وإن عيّره ابتلي به))

[الجامع الصغير عن أنس بسند فيه ضعف]

فانتبه إذا زلّت قدم أخيك المؤمن بذنب فإن ذكرت هذا الذنب فقد اغتبته، وإن رضيت به فقد شاركته في الإثم، وإن عيّرته ابتليت به، يجب أن تقول: أصلحه الله ووقاني الوقوع في هذا الذنب، ادعُ له بالصلاح واستعذ بالله من أن تزلّ قدمك، هذا شأنك مع المؤمن، فكيف بالكافر إذا أثنيت على ذكائه، على اختراعاته، على نظامه، أحياناً إنسان يذهب إلى أوروبا ويعود فيملأ أسماع أهله لشهرين أو ثلاثة مديحاً لأولئك القوم ؛ فالنظام، والترتيب، والحدائق، والأبنية، ومحلات البيع، والمواصلات، والاتصالات الرائعة، ويكون قد رأى آلاف المنكرات والقبائح والانحرافات والانحلال الأخلاقي وهذا يسكت عنه، يذكر الشيء الإيجابي فقط ويسكت على السلبي، بينما إن رأى في بلده أمراً سلبياً يضخّمه وينسى الإيجابيّات.

أكبر خطر أن يموت الإنسان كافراً:

وبعد إليكم آخر خبر قد سمعته عن الإيدز: إنه يوجد في العالم خمسة عشر مليونًا مصابون بالإيدز، قالوا: هذا الرقم هو نصف الرقم الحقيقي، وهناك تجري إحصاءات كم يموت بالدقيقة، أما العالَم الإسلامي فقد سمّاه الأجانب الحزام الأخضر لهذا المرض، شيء قليل جداً لا يُذكَر، والمصابون أساسهم كانوا في الغرب، الحِزام الأخضر لهذا المرض، نسبة الطلاق في أمريكا اثنان وستون بالمئة، أيْ أنّ بين كل مئة زواج اثنين وستين حالة طلاق، في ألمانيا ستة وثلاثون، وفي العالم الإسلامي أو في سوريا بالذات ثلاثة بالألف نسبة الطلاق، هذا عدا استهانتهم بالدين، فآثار العمل به ضعيفة..

(إنّ الّذِينَ كَفَرُوا وَصَدّوا عَنْ سَبِيلِ اللّهِ ثُمّ مَاتُوا وَهُمْ كُفّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللّهُ لَهُمْ (34))

أيْ أنّ أكبر خطر أن يموت الإنسان كافراً، والكفر كما قلت لكم قبل قليل: تضيق دائرته وتتسع، تضيق دائرته فيصبح كفراً بواحاً، وتتسع إذا طبّقت أمراً ما وقلت: غير معقول أن يُطبّق هذا الأمر، ليس هذا الأمرُ لهذا الزمان، أنت ماذا قلت ؟ كأنك كذّبت قول الله عزّ وجل أو اعترضت عليه:

(لا يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْسًا إلا وُسْعَهَا)

(سورة البقرة: آية " 286 ")

شرع الله عز وجل كامل لا يحتاج إلى أي تبديل أو تعديل:

إذا كنت قلت: هذا الأمر صعب تطبيقه ومستحيل تطبيقه، بينما هذا أمر قد نصّ عليه في القرآن الكريم، والله عزّ وجل يقول:

(لا يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْسًا إلا وُسْعَهَا)

(سورة البقرة: آية " 286 ")

معنى ذلك أنك أنكرت آيةً في كتاب الله، وهو إنكار لفظي.. إنكار نطقي.. إنكار عملي، فتضيق الدائرة حتى يصبح كفراً بواحاً، وتتسع حتى يشمل أي إنكارٍ لأمرٍ من أوامر الله، يا أخي هذه غير معقولة، هذه لا تصير في هذا الزمان، الله عزّ وجل قال:

(الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمْ الإِسْلامَ دِينًا)

(سورة المائدة: آية " 3 ")

هذا الشرع من حيث عدد القضايا التي طرحها تام، ومن حيث طريقة المعالجة كامل، وأية إضافةٍ على هذا الشرع هي إضافة باطلة لأنها بدعة..

((كل محدثةٍ بدعة وكل بدعةٍ ضلالة وكل ضلالةٍ في النار))

[مسلم والنسائي، واللفظ له عن جابر]

لأنه شرع الله عزّ وجل، الله عزّ وجل خبرته قديمة، شيء بديهي جداً أن تنفي عنه البداءة، البداءة أنه بدا له شيءٌ لم يكن بادياً من قبل فعدّل رأيه، هذا من شأن الإنسان ينظِّم تنظيماً معيَّنًا، يرى الخلل فيجري تعديلاً يلغي النظام كلّه ويحدث غيره، ففي تبدُّل مستمر، لكن الله سبحانه وتعالى شرعه كامل، وحكيم، ولا يحتاج إلى إضافة، ولا إلى حذف، ولا إلى تعديل.

المؤمن يحمل عقيدة هي أعلى عقيدة مطابقة للواقع:

الآية تذكّرنا بأن الله سبحانه وتعالى عنده ذنبٌ يُغفَر، وعنده ذنبٌ لا يُترك، وعنده ذنبٌ لا يُغْفَر، أما الذي يُغْفَر فما كان بينك وبين الله، وأما الذي لا يُتْرَك فما كان بينك وبين العبيد من حقوق، حقوق الله عزّ وجل مبنيّةٌ على المسامحة، وحقوق العباد مبنيّةٌ على المشاحة، وأما الذنب الذي لا يُغْفَر فالإشراك بالله عزّ وجل، الإشراك بالله لا يُغْفَر، فهذا الذي مات كافراً..

(فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ (34) فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ (35))

أنتم الأعلون، أعلون بعقيدتكم، وتصوراتكم للكون والحياة والإنسان، المؤمن يحمل عقيدة هي أعلى عقيدة مطابقة للواقع.. قال لي شخص: كنت في بلد في آسيا، وأمُّ مدير الشركة الذي علاقتي معه توفيت، فتوقّع أن تلغى المواعيد كلها في اليوم التالي، فقال له: لا مانع كل شيء على حاله القديم فقال له: ووالدتك ؟ قال: أضعها في البراد شهرين أو ثلاثة حتى يأتي دورها بالحرق، ثم ماذا ؟ نحرقها لأن القبر يكلِّف ثلاثة ملايين والحرق يكلِّف مليون، كلفة الحرق أقل.. نحرقها ونضع رمادها في قارورة صغيرة، ثم ماذا ؟ ثم نضعها في بيت العبادة لكي تتقدّس وفي الأعياد نأخذ هذه القارورة إلى بيتنا لنتبارك بها.. فتلك معتقداتهم، والزوجة تُحْرَق مع زوجها إذا مات الزوج، تُحْرَق معه في الهند فهناك أديان، وخرافات، وعقائد باطلة، ودجل، وتزوير..

المؤمن عال بعقيدته و تصوره للكون والحياة والإنسان:

(وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ)

بعقيدتكم، عقيدتك أيها المسلم وفق الحقيقة المُطْلَقة، عقيدتك وفق العلم، وفق الواقع، وفق الفطرة..

(وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ)

وأنتم الأعلون بتوجهكم إلى الله عزّ وجل، وأنتم الأعلون بمنهجكم القويم، وأنتم الأعلون بسلوككم القويم، باستقامتكم، وأنتم الأعلون لأن الله معكم، لأن القوة الكُبرى في الكون معكم، لذلك:

(فَلَا تَهِنُوا)

ليس من الإيمان أن تشعر بالهوان، أنت عبد لله والله معك، ليس من الإيمان أن تيأس، ولا أن تخنع، ولا أن تخضع، ولا أن تستخذي، ولا أن تشعر ألاّ دور لك في الحياة، فأنت بإيمانك كل شيء، وأنت وأمثالك الأعلون ؛ قال سبحانه:

(فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ)

أي الاستسلام..

كل عمل صالح يفعله المؤمن لا يُقْطع عنه خيره ولا يغبن فيه:

(وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ)

أنت مؤمن، أنت على الحق، وبالحق، ومن أجل الحق تعمل، التصوّر صحيح، العقيدة صحيحة، المنهج قويم، المبادئ سليمة، القِيَم رفيعة، المنهج أخلاقي، الهدف الجنة، القوة الكُبرى في الكون معك الله معك، أعلون لأن الله معكم، تصور لو كانت جهة قوية جداً وأمامها ضعيفان، فإذا كانت هذه الجهة القويّة مع أحدهما صار قوياً بها، إذا دعمَك أكبر شخص قوي فأنت أقوى من كل قوي، لذلك:

(وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ (35))

أي أنّ كلّ عمل صالح تفعله لا يُقْطع عنك خيره ولا تغبن فيه.

فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ آية تبثّ في المؤمنين المعنويات العالية:

أيها الأخوة الكرام مرّةً ثانية هذه الآية أيضاً تبثُّ في المؤمنين المعنويات العالية إن صحّ التعبير..

(فَلَا تَهِنُوا)

يجب أن تشعر أنك بإيمانك بالله، ومعرفتك بمنهجه، وطلبك للآخرة أنت أعظم الناس، لا تخضع، لا تحتقر نفسك، لا تضع نفسك موضعاً لا يرضي الله عزّ وجل، لا تيأس من نصر الله، لا تستخذي، لا تخنع، لا تضعُف قِواك أمام العقبات الكأداء..

(فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ)

أنتم أعلون بعقيدتكم، أعلون بتوجّهكم، أعلون بمنهجكم، بقيمكم، بمبادئكم، باستقامتكم، بأهدافكم..

الله عز وجل مع المؤمن بالتأييد و الحفظ و النصر:

(وَاللَّهُ مَعَكُمْ)

وهذه معيّةٌ خاصّة، الله عزّ وجل مع كل مخلوق معيّةٌ عامة..

(وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ)

(سورة الحديد: آية " 4 ")

أي معكم بعلمه، لكن هذه المعيّة خاصّة للمؤمنين ؛ معكم بالنصر، والتأييد، والتوفيق، والحفظ..

أعمال الإنسان الصالحة يضاعفها الله له يوم القيامة أضعافاً مضاعفة:

(وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ (35))

أي أن حجم أعمالكم، تضحياتكم، استقامتكم، الجهاد الذي تجاهدون به أنفسكم، فجهاد النفس يحتاج إلى جهد كبير، فضبط الشهوات، وضبط الجوارح، وضبط الدخل، وضبط الإنفاق، والبحث عن زوجة صالحة، هذا كلّه يحتاج إلى جهد، قال:

(وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ (35))

خدمت المسلمين، نصحتهم في عملهم، قدّمت شيئًا من مالك، من وقتك، من جهدك، من راحتك..

(وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ (35))

عملك محفوظ، بل يضاعفه لك أضعافاً كثيرة، الإنسان في الدنيا قد يضع اللقمة في فم زوجته فيراها يوم القيامة كأُحُد ثواباً، الله عزّ وجل ينمّيها له، فأعمالك الصالحة ينميها الله كلها نماءً كبيراً..

دين الله لن تزيده الضغوط إلا قوّةً و ثباتاً:

(فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ (35))

ملخّص الدرس: أن الله سبحانه وتعالى يبيّن أن خصائص الكافر تكذيبٌ بالحق، وإعراضٌ نفسيٌّ عن الله، وصدٌّ للناس عن سبيل الله، ومشاققةٌ لرسول الله في حياته وبعد مماته، في حياته تآمرٌ عليه، وبعد موته انتقاصٌ من سنّته، ولأتباعه من بعده، فهذا شأن الكافر، ومع كل الجهود، والأموال، والتخطيط، والقوى، والكَيد، مع كل هؤلاء قال:

(لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا)

دين الله لن تزيده الضغوط إلا قوّةً، ولن يزيده الإنكار إلا تأجُّجاً، ولن يزيده حرص الأعداء على زواله إلا ثباتاً وبقاء، والتاريخ أمامكم..

(وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ (32))

دين الله لا يتأثّر لكنهم هم سيتأثّرون..

ثقة المؤمن بالله عز وجل أساس إيمانه بالله تعالى:

(وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا(23))

(سورة الفرقان)

دولة استعمارية احتلّت بلداً عربياً وأراد أن يسيره تسييراً غير ديني، فأنشأت أكثر من أربعة آلاف معبد غير إسلامي، ثم تحوّلت كلها إلى مساجد بعد الاستقلال، فلذلك على المسلم أن يكون دائماً حريصاً على ثقته بالله سبحانه وأن تنمو وتتأجج و يعظِم هذا الدين، الذي ارتضاه الله لعباده.

(لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ (32))

والله حذّر المؤمنين من أن تزلّ أقدامهم فيقرّوا الكافرين على أعمالهم، باتصال مصالح، بعلاقات معيّنة، بقرابة، بأشياء.

على المؤمن أن يتعامل مع الله تعالى بالصدق والإخلاص والطاعة:

ثم يقول الله عزّ وجل:

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ (34) فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ(35))

هذه الآية وحدها تكفينا، ثق بنصر الله، بتأييده الفردي أو الجماعي، وأنت إذا أطعت الله عزّ وجل لابدّ من أن ترى آيات الله واضحة جليّة، إن أطعته لابدّ من أن ترى ما يرضيك، عبدي كن لي كما أريد أكن لك كما تريد، كن لي كما أريد ولا تعلمني بما يصلحك، أنت تريد وأنا أريد فإذا سلمت لي في ما أريد كفيتك ما تريد، وإن لم تسلم لي في ما أريد أتعبتك في ما تريد ثم لا يكون إلا ما أريد.

المؤمن يتعامل مع الله تعاملاً مباشراً، يتعامل مع الله بالصدق والإخلاص والطاعة، والله عزّ وجل يريه من آياته العجب العُجاب في كل زمان، في كل مكان.

الله سبحانه وتعالى يوفِّق المؤمن ويؤيده ويبث في نفسه الطمأنينة والثقة:

سيدنا يونس دخل في بطن حوت، نادى في الظلمات ؛ ظلمة بطن الحوت وظلمة البحر وظلمة الليل، ثلاث ظلمات..

(فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (87) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ (88))

(سورة الأنبياء)

هذه القصّة هنا انتهت، أما التعليق الذي جعلها قانوناً هو:

(وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ(88))

(سورة الأنبياء)

في كل زمان عند كل كرب ننجي المؤمنين، والقصص التي تُروى لا تعد ولا تحصى، كيف أن الله سبحانه وتعالى يوفِّق المؤمن، ويؤيده، ويبث في نفسه الطمأنينة والثقة، ويرفع من شأنه، ويُعلي مقامه، ويرفع ذكره، وينصره على خصومه..

(وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ(88))

(سورة الأنبياء)

(فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ (35))

على المؤمن أن يغير ما بنفسه حتى يغير الله ما به:

والآية الكريمة التي تعرفونها جميعاً والظرف مناسب لأن نذكرها فهذا المقام مناسبتها:

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي)

(سورة النور: آية " 55 ")

أنت عليك أن تعبده وعلى الله التوفيق والتأييد، عليك أن تطيعه وعلى الله النصر و الإنجاح: "....لا يغير الله ما بقومٍ حتى يغيروا ما في أنفسهم ".. العقبة عندنا، علينا أن نغيّر ما بأنفسنا حتى يغير الله ما بنا من كرب، ما بنا من قهر، فهذا الذي يجري في العالم الإسلامي يتألّم له كل مسلم، فالحل أن نغير ما بأنفسنا حتى يغير الله ما بنا، وفي درسٍ آخر إن شاء الله تعالى ننتقل إلى قوله تعالى:

(إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ (36))

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة محمد 047 - الدرس (8-8): تفسيرالآيات 36-38 ،قيمة الأنسان عند ربه تتعلق بقيمة عمله

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 27-01-1995

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون مع الدرس الثامن والأخير من سورة محمد صلى الله عليه وسلم.

الله عز وجل نهى عبده المؤمن عن الاستكانة و الضعف:

مع الآية الخامسة والثلاثين وهي قوله تعالى:

(فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ (35))

هذه الآية وحدها تملأ قلب الإنسان المؤمن رضاً وثقةً بالله عزّ وجل، فالله سبحانه وتعالى ينهانا عن أن نستكين، عن أن نستخذي، عن أن نضعف، عن أن تضعف معنوياتنا، عن أن نستسلم لمصيبةٍ دون أن نتحرك، الله سبحانه وتعالى لا يرضى لنا هذه الحالة لأننا عباده،

((إِنّ اللّهَ يَلُومُ عَلَى الْعَجْزِ وَلَكِنْ عَلَيْكَ بِالْكَيْسِ فَإِذَا غَلَبَكَ أَمْرٌ فَقُلْ حَسْبِيَ اللّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ))

[سنن أبي داود عن عوف بن مالك]

هذا الحديث أيها الأخوة وحده لو تدبره المسلمون اليوم لكانوا في حالٍ غير هذه الحال:

((إِنّ اللّهَ يَلُومُ عَلَى الْعَجْزِ))

على الإنسان أن يبذل كل ما في وسعه قبل أن يستسلم و يضعف:

الإنسان قد يستسلم لمصيبة، يخضع لظالم، يستخذي، يقنع، يقول: هذا حظي، هذا ما أراده الله لي، لن تقوم لي قائمة..

((إِنّ اللّهَ يَلُومُ عَلَى الْعَجْزِ))

يلومك على استسلامك و استخذالك.

(وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ(39))

(سورة الشورى)

((وَلَكِنْ عَلَيْكَ بِالْكَيْسِ))

التدبير، دبّر أمرك، اتخذ بالأسباب، اسأل، ارفع قضيتك لمن تثق بعدله، تحرّك، لا تستسلم، لا تيأس.

((إنّ اللّهَ يَلُومُ عَلَى الْعَجْزِ وَلَكِنْ عَلَيْكَ بِالْكَيْسِ.. سلامة التصرف والتدبير، قال: فَإِذَا غَلَبَكَ أَمْرٌ فَقُلْ حَسْبِيَ اللّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ))

لا يُقبَل منك أن تقول: حسبي الله ونعم الوكيل إلا عندما تبذل كل ما في وسعك من أسباب، والله سبحانه وتعالى لحكمةٍ بالغة يشاء لك أن تكون هكذا. فلذلك يقول الله عزّ وجل:

(فَلَا تَهِنُوا)

آيات التوحيد تملأ القلب طمأنينة و ثقة:

أنت غالٍ على الله، أنت مؤمن، والأمر بيد الله، لا يوجد إله آخر..

(وَهُوَ الّذِي فِي السّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الأَرْضِ إِلَهٌ)

(سورة الزخرف: آية " 84 ")

(يَدُ اللّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ)

(سورة الفتح: آية " 10 ")

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكّلْ عَلَيْهِ)

(سورة هود: آية " 123 ")

(لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ)

(سورة الأعراف: آية " 54 ")

(وَاللّهُ يَحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ)

(سورة الرعد: آية " 41 ")

(مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيّ وَلا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا(26))

(سورة الكهف)

(أَلا إِلَى اللّهِ تَصِيرُ الأُمُورُ(53))

(سورة الشورى)

هذه آيات التوحيد احفظها عن ظهر قلب، آيات التوحيد تملأ القلب طمأنينة، تملأ القلب ثقة، تورث القلب راحة، آيات التوحيد، ليس إلا الله، ليس في الكون إلا الله، وكل ما تراه صورٌ بصور.

من توكل على الله كان أقوى الناس:

(فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السّلْمِ)

أن تتنازل عن حقوقك، وأن تتنازل عن كرامتك، وأن تبذل ماء وجهك، وأن تصير خطيئة لإنسان، وأن تصير مستضعفًا، لا. فليس هذا حال المؤمن أبدًا. فالمؤمن عزيز.

﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ﴾

بربكم طفلٌ صغير أبوه ملك البلاد أليس أقوى من أقوى قويٍّ في هذه البلاد ؟ الطفل قوي بقوة أبيه، والطفل غني بغنى أبيه، والطفل يعلم بعلم أبيه.

﴿وَاللَّهُ مَعَكُمْ﴾

القوة الوحيدة في الكون معكم إذا كنتم مؤمنين، إذا أردت أن تكون أقوى الناس فتوكل على الله، المؤمن قوي جداً، لا لأنه قوي، بل لأنه مستقيمٌ على منهج الله، والله لا يتخلى عنه، هذه قوته فقط، قوته ليست ذاتيةً، قوته من تأييد الله له، من توفيق الله له، من حفظ الله له، من نصر الله له، هذه قوته، ليست قوته ذاتيه، لكن باتصاله بالله، واستقامته على منهجه، وإقباله عليه، فهو يستمد قوته من الله سبحانه.

المؤمن الحقيقي لا يستسلم إلا لله عز وجل:

الآية دقيقة المعنى و الدلالات واضحة جداً:

﴿فَلَا تَهِنُوا﴾

لا تخشع لغير الله عزّ وجل، لا تذل نفسك لغير الله عزّ وجل، لا تبذل ماء وجهك لسبب تافه، لا تضيّع كرامتك، لا ينبغي للمؤمن أن يذل نفسه، ابتغوا الحوائج بعزة الأنفس فإن الأمور تجري بالمقادير.

﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ﴾

تتخلى عن حقوقك، تتخلى عن كرامتك، تتخلى عما هو لك لأنك تظن أنك أضعف من الكافر، فالكافر من أين أتته قوته ؟ الذي أعطاه القوة يعطيك أمثالها وأضعافها، فالمؤمن لا يستسلم إلاّ الله.

المؤمن عال بمنهجه و قيمه و عقيدته:

﴿وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ﴾

تصميم، أنتم الأعلون بعقيدتكم، أنتم الأعلون بمنهجكم، أنتم الأعلون بقيمكم، أنتم الأعلون بأخلاقكم، أنتم الأعلون بتأييد الله لكم.

﴿وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ﴾

وإذا كان الله معك فمن عليك ؟ وإذا كان الله عليك فمن معك ؟ تصور: مجنّد غر هدده عرّيف في الجيش، ووالده قائد الجيش، فانخلع قلبه من الخوف أليس هذا غبياً وجاهلاً ؟

عمل الإنسان محفوظ و يحاسب عليه يوم القيامة:

لذلك:

(وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ (35))

مهما عملت عملاً دقيقاً، قليلاً، صغيراً فالله سبحانه وتعالى يحفظه لك ويثيبك عليه.

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَه(7)وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَه(8))

(سورة الزلزلة)

(وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ(47))

(سورة الأنبياء)

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَه(7)وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَه(8))

جئتَ إلى مجلس العلم من مكان بعيد، استغرق الطريق ساعة، فهذا محفوظ لك، أدّيت الصلوات في أوقاتها، أنفقت من مالك الحلال الذي كسبته بكد يمينك وعرق جبينك، عملك محفوظ، أمضيت الساعات الطوال في طلب العلم عملك محفوظ، كظمت الغيظ في سبيل الله عملك محفوظ، رضيت بقضاء الله وقدره عملك محفوظ، بذلت جهداً كبيراً في خدمة الآخرين عملك محفوظ، دعوت إلى الله عملك محفوظ، و كل ذلك مُثابٌ عليه.

(وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ (35))

الله عز وجل مع المؤمن يؤيده بنصره:

أنت تتعامل مع خالق الكون، مع رب العالمين، أيعقل أن يضيّعَ عليك عملك ؟ هذا يتنافى مع كمال الله، يتنافى مع رحمته، يتنافى مع عدالته، والتاريخ أمامكم، الباطل له جولات لكن الحق هو المنتصر أخيراً، الإنسان المنحرف ربما تاه على عباد الله لكن الله مع المؤمنين ؛ ينصرهم ويحفظهم، ويؤيدهم، ويوفقهم، ويعلي قدرهم، ويسدِّد خطاهم، ويرفع ذكرهم، وهذا التاريخ صحائفه بين يديك، هؤلاء الذي آمنوا برسول الله هم في العلياء، والذين حاربوهم في مزبلة التاريخ، أين أبو لهب ؟ أين أبو جهل ؟ أين أمية بن خلف ؟ هؤلاء صناديد الكفر، أقوياء مكة أين هم ؟ وأين سيدنا الصديق ؟ سيدنا عمر ؟ سيدنا عثمان بن عفان ؟ سيدنا علي ؟ هؤلاء الأصحاب الكرام هم في أعلى عليين، وتاريخ البشر يشفُّ عن هذه الحقيقة.

(فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ (35))

الله سبحانه وتعالى لا يضيّع أجر من أحسن عملاً:

واللهِ أيها الأخوة... لزوال الكون كله أهون على الله من أن يضيّع على مؤمن عمله الصالح، اعتنيتَ بأولادك تعبك محفوظ، صبرت على زوجتك صبرك محفوظ، كظمت غيظك كظمك محفوظ، عُرِضَت لك الدنيا من طريقٍ مشبوه فعففت عنها، وقلت: حسبي الله ونعم الوكيل، والله الغني، عرض عليك مبلغٌ ضخم أنت في أمسّ الحاجة إليه لكنه من طريقٍ مشبوه فعففت عنه وبقيت على دخلك القليل، عملك محفوظ، فالله سبحانه وتعالى لا يضيّع أجر من أحسن عملاً.

((البر لا يبلى والذنب لا ينسى والديان لا يموت، اعمل ما شئت كما تدين تدان))

[أخرجه عبد الرزاق في الجامع عن أبى قلابة]

البر لا يبلى والذنب لا ينسى والديان لا يموت، السعيد من أمضى حياته في الأعمال الصالحة، في خدمة الخلق، في معرفة الحق، في الأمر بالمعروف، في النهي عن المنكر، في إقامة شرع الله عزّ وجل، في نصر دين الله، لأن كل هذه الأعمال سوف يكافأ عليها المؤمن أضعافاً مضاعفة، وقد يكافأ عليها بغير حساب، فالزوج إن يضع اللقمة في فم زوجته فهي له صدقة، إن يتصدق باللقمة من الطعام، يرَها يوم القيامة كجبل أحد، الله كريم خلقنا لنربح عليه، خلقنا لتكون تجارتنا معه أربح تجارة، فلا تجد تجارة تربح بالمئة مليون، إلا عند الله.

الله سبحانه وتعالى خلق الإنسان ليربح الدنيا و الآخرة:

أرباح التجارة في الدنيا لا تتجاوز بالمئة ثلاثين، خمسة وعشرين، خمسة وثلاثين، خمسة وخمسين، يقول لك: ربحنا بالمئة مئة، وهذا ربح خيالي، لكن الله سبحانه وتعالى خلقك كي تربح عليه لا ليربح عليك:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ(10)تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ(11))

(سورة الصف)

إذاً فهذه الآية إذا تدبرها الإنسان، وقرأها بعناية، وطبق مضمونها كما يريد الله عزّ وجل إيماناً واستقامة وعملاً وإخلاصاً تأتي على نفسه بلسماً وشفاءً.

من أحبه الله ألقى محبته في قلوب الخلق:

(فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ (35))

تجد ربنا عزّ وجل في الوقت المناسب أنقذك، بالوقت المناسب حفظك، قد يسخّر لك عدوّاً يدافع عنك، وقد يسخّر لك خصماً يدعمك، أو قد يسوق لك شخصاً فاجراً يكون حصنًا أحياناً " إذا كان الله معك فمن عليك ؟ أمّا إذا كان عليك فمن معك " فقد يهينك أقرب الناس لك، يتخلى عنك ابنك، تتخلى عنك زوجتك، يتخلى عنك أقرب الأصحاب إذا كان الله عليك، أمّا إذا كان معك ألقى حبك في قلوب الخلق، ألقى مهابتك في قلوب الخلق، وإذا تخلى عنك تنكّر لك أقرب الناس إليك، لذلك:

كن مع الله ترَ الله معك واترك الكل وحاذر طمعك

وإذا أعطاك فمن يمنعه ؟ ثم من يعطي إذا ما منعك؟

* * *

من طلب العلم أكدّ إنسانيته ومن تخلى عن طلب العلم هبط إلى مستوى البهيمة:

ثم يقول الله عزّ وجل:

(إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ (36))

أما كلمة (إنما) أداة قصر وحصر، وللإيضاح أذكر بالمثل المعروف في كتب البلاغة: شوقي شاعر، وهذا لا يمنع أن يكون كاتباً، أو حقوقياً، أو موظفاً، أما إذا قلنا: إنما شوقي شاعر، قصرنا شوقي على الشِعْر، وإذا قلنا: إنما الشاعر شوقي قصرنا الشعر على شوقي مثلاً، فكلمة (إنما) دقيقة جداً في القرآن الكريم يجب أن تفهمها فهماً بلاغياً صحيحاً، فهماً أصولياً، إذا قال لك الله عزّ وجل:

(إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ)

(سورة فاطر: آية " 28 ")

أيْ أنّ العلماء وحدهم وليس أحدٌ سواهم يخشى الله، أجل ؛ وحدهم يخشون الله حقّاً، هذه الآية معناها: الطريق الوحيد الذي لا ثاني له لخشية الله هو أن تكون عالماً، لذلك " كن عالماً أو متعلماً أو مستمعاً أو محباً ولا تكن الخامسة فتهلك " فالإنسان إذا طلب العلم أكدّ إنسانيته، وإذا تخلى عن طلب العلم هبط إلى مستوى البهيمة.

من عمل عملاً انتهى عند الموت أضاع دنياه و آخرته:

(إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا)

أيْ أنّ الحياة الدنيا تعريفها الحصري والقصري..

(إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ)

(لعب)، ما هو اللعب ؟ العمل الذي ليس أي نفع وراءه، إذا شخص انتسب للجامعة ودرس أول سنة، والثانية، و الثالثة، والرابعة، صار يحمل إجازة، فإذا تابع ودرس دبلوم، ماجستير، صار دكتوراً، تعيَّن بشهادته، صار له دخل، ارتفعت مكانته الاجتماعية، فالوقت الذي أمضاه في الدراسة كان من نتائجه هذا المنصب وهذا الدخل، إنسان أسس محلاً تجارياً، بعد أيام، بعد أشهر، بعد سنوات، اشتهر هذا المحل وعرف من القاصي و الداني وكثر رواده وغدا له زبائن ثابتون، وتعاظم دخل صاحبه، فالتأسيس ليس استهلاكاً للوقت، بل استثمارٌ له، أيام فالدراسة ليست استهلاكًا للوقت بل هي استثمارٌ للوقت.

أما إذا الإنسان لعب بالنرد (الطاولة) فيقول مزهواً: بعد ثمانية غلبته، خير إن شاء الله، شيء ليس له طائل، هذا اللعب، عمل عابث ليس له هدف، لا هدف، ولا نتيجة، ولا مردود، ضياع للوقت واستهانة بالعمر، فتعريف اللعب: عمل ينتهي بانقضائه، أما هناك أعمال خطيرة جداً تبقى آثارُها إلى يوم القيامة، وأعمال النبي اللهم صلِّ عليه آثارها إلى أبد الآبدين، جاء الحياة الدنيا ودعا إلى الله عزّ وجل فعمّ الهُدى بقاع الأرض، وهذا الدرس ووجودنا في المسجد من آثار دعوته، سوريا من فتحها ؟ أصحاب رسول الله، من فتح مصر ؟ من فتح العراق ؟ من فتح بلاد الهند والسند ؟ من فتح شمال إفريقيا ؟ الأعمال التي لها ما وراءها، التي لها نتائج كبيرة، التي تسعد إلى أبد الآبدين هذه أعمال جليلة، خُلِقْتَ أنت لهذه الأعمال، أما أن تعمل عملاً ينتهي كله عند الموت فهذا عين الضياع.

أي عمل ينتهي عند الموت هو لعب و لهو:

وبعد، دققوا النظر: أي عمل ينتهي عند الموت هو لعب، لو زينت بيتك بأعظم زينة، فهذا العمل لعب، السبب ؟ أن كل هذا العمل الضخم ينتهي عند الموت، أنت ابحث عن عمل تبدأ نتائجه بعد الموت، وتقطف ثماره أبداً، ابحث عن عمل تقطف ثماره بعد الموت، هذا العمل المُجدي، فدائماً عندك خط أحمر هو خط الموت، كل عملٍ تستمر آثاره بعد الموت، احرص عليه، وكل عملٍ تنتهي آثاره عند الموت فهذا من اللعب، وقد يكون عملاً كبيراً، قد يكون عملاً فخماً جداً، قد يكون عملاً جليلاً جداً، كأن يؤسس الإنسان مزرعة ويبذل فيها ثلاثين مليونًا، حتى أصبحت قطعة من الجنة مثلاً ؛ المسابح، والماء الساخن، والملاعب، والورود، والفيلات، هذه المزرعة تنتهي كل ثمارها عند الموت، إذاً لعب، أما الأنبياء الذين دعوا إلى الله عزّ وجل فإلى الآن آثار دعواتهم، الصحابة الكرام الذين فتحوا هذه البلاد إلى الآن آثار فتوحاتهم، مقياس دقيق، كل عملٍ ينتهي عند الموت هذا لعب، كل عملٍ يبدأ بعد الموت فهذا عمل صالح.

العمل الصالح هو كل عمل يبدأ بعد الموت:

لذلك فالإنسان حينما يأتيه ملك الموت لا يندم إلا على شيءٍ واحد..

(رَبِّ ارْجِعُونِ(99)لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ)

(سورة المؤمنون)

أيْ أنت هنا في الدنيا من أجل العمل الصالح، فإذا فعلته حققت المُراد من خلقك، وإذا أضعت الأوقات كلها في عملٍ لا طائل تحته فهو لعب، بالنسبة للذين ذهبوا إلى القمر، قرأت تعليقًا قال: هذا العمل ليس تقدماً لكنه تحرك، وصلنا إلى القمر ودفعنا أربعة وعشرين ألف مليون دولار، وهذا المبلغ أنهك العالم كله، وأخذ من سكان العالم كله فرق أسعار وتعويض دولار، ماذا فعلنا ؟ إنسان وقف على سطح القمر لساعات معدودة ورجع، فما المردود الذي جناه العالم كله ؟ لقد دفع الفقراء ثمن هذه الرحلة من أقواتهم، فهذا لعب.

أما الأنبياء الذين أرسلهم الله، وحملوا الرسالات ونشروا الحق والهدى فهذا عمل عظيم، أخرجوا الناس من الظلمات إلى النور وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ونشروا العدل ليسعد العباد.

قيمة الإنسان عند ربه تتعلق بقيمة عمله:

أنت قيمتك من قيمة عملك، فإما أن يكون العمل لعباً، أو يكون نفعاً و خيراً، إنّ كلمة لعب توحي بأننا صغار، فقد يكون شخص يتمتع بأعلى مكانة اقتصادية، مدير أكبر شركة في العالم، وتسمع منه عن أجهزة كهربائية دقيقة جداً وحساسة جداً.. يقول: نقلنا الصورة عبر الأقمار، ونقلنا معها الأفلام الإباحية، فهذا عمل، لكنه عمل لعب، لأن عند الموت تنتهي كل أرباحه ويبقى إفساده الناس وإضلالهم، فهل هناك أخطر من اللعب ؟ نعم العمل الذي أخطر من هو اللعب الذي تستمر آثاره السيئة بعد الموت، هذا أخطر من اللعب، الآن دققوا الله عزّ وجل قال:

(إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ)

لو فرضنا أنّ إنسانًا في العطلة الصيفية، طالب مثلاً ليس لديه واجبات دراسية، وليس لديه دوام في الجامعة، بلا مسؤولية في عطلته الصيفية، وأمضى أربع ساعات بلعب الورق مثلاً، فهذا اسمه لعب، وليس له فائدة، لكن تصور أنه أمضى أربع ساعات في أيام الامتحان بلعب الورق فهذا اسمه لهو، فاللهو يعني التلهي بالخسيس عن النفيس، فهناك إذًا فرق بين اللعب و اللهو، فاللهو شيءٌ خسيس، سخيف، دنيء، حقير، شغلك عن شيءٍ ثمينٍ عظيم، هذا هو اللهو، إن فعلت فعلاً لا طائل منه، لا فائدة منه، لا نتيجة له، لا أثر له، انقضى بانقضائه هذا لعب، أما إذا عملت عملاً لا فائدة له، ولا جدوى، ولا

مردود، ولا نتيجة، لكنه في الوقت نفسه شغلك عن عملٍ عظيم، عن كسبٍ كبير، عن رسالةٍ عظمى، فهذا اسمه لهو، اللهو أن تتلهى بالخسيس عن النفيس.

كل عمل ليس له نتائج لا فائدة منه:

(أَلْهَاكُمْ التَّكَاثُرُ(1)حَتَّى زُرْتُمْ الْمَقَابِرَ(2)كَلا سَوْفَ تَعْلَمُونَ(3)ثُمّ كَلا سَوْفَ تَعْلَمُونَ(4))

(سورة التكاثر)

فربنا عزّ وجل يبيّن لنا أنما الحياة الدنيا لعبٌ ولهوٌ، أي عمل ليس له نتائج ؛ أكلنا، شربنا، سكنا في بيوت، قمنا بنزهات، سهرنا، دعونا الناس لولائم، انطلقنا في سياحة حول العالم، شاهدنا البلاد، والعباد، والجبال، والبحار، والجزر، في المصايف، وفي المشاتي، وركبنا الطائرات، والبواخر، والبوارج، وركبنا اليخوت، وركبنا السيارات، وأكلنا ما لذّ وطاب، واستمتعنا بكل مباهج الدنيا، ثم جاء ملك الموت، هل لهذه المتع كلها أثر بعد الموت ؟ لا. بل ربما كان الأثر سلبياً، فمثلاً إذا الإنسان حضر أكثر من ثلاثين دعوة وآلمه ضرسُه، فإذا أراد أن يستدعي أول أكلة أكلها في أول يوم هل تنسيه وجع ضرسه ؟ أو التي بعدها ؟ لو استدعى بذاكرته كل ألوان الطعام التي أكلها لا يغنيه عن هذه الآلام المبرحة التي يَئِنّ منها.

اللهو هو التلهي بالخسيس عن النفيس:

لذلك:

(إِنّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ)

لعب: عمل لا طائل منه، أما اللهو عمل دنيء يصرفك عن النفيس، تصور (من باب التقريب) طالب أوفد إلى بلد غربي لينال دكتوراه، باختصاص نادر، فإذا تخرج وعاد إلى بلده شغل أعلى منصب في الجامعة، وكان هناك إغراء شديد: يُعطى" فيلا" وسيارة مع منصب رفيع ودخل كبير جداً، لكنه إذا ذهب إلى هناك وأعجبته لعبة كرة القدم مثلاً فأمضى وقته في مشاهدة مبارياتها هناك، ومضى الشهر والشهران والعام والعامان وعاد بعد أربع سنوات بخفّي حنين لا شهادة ولا علم، فماذا فعل بنفسه ؟ التهى بهذه اللعبة عن دراسة اختصاصه النادر الذي سيعود عليه بالنفع الكبير، فصار مفهوم اللهو واضحاً، واللعب واضحاً، قال:

(إِنّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتّقُوا)

الهدف من وجود الإنسان في الدنيا هو معرفة منهج الله و تطبيقه:

البديل:

(وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا)

الإيمان أمر فكري والتقوى سلوك، الدين عقيدة وعمل، إيمان وعمل، أيْ نشاط ذهني، ونشاط سلوكي.

(الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)

هذه الآية وردت مئتي مرة في القرآن الكريم.

(وَإِنْ تُؤْمِنُوا)

أيْ بالله، بخالق الكون، برب الكون، بالإله المسيّر، تؤمنوا به خالقاً مربياً مسيراً موجوداً كاملاً واحداً، تؤمنوا بأسمائه الحسنى كلها، تتعرفوا إلى منهجه، تطبقوا منهجه.

(وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا)

هذا الهدف من وجودنا في الدنيا، هذه مهمتنا الأساسية، إن لم نعرف هذه المهمة خسرنا خسارةً كبرى..

(قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

(سورة الزمر: آية " 15 ")

من عمل عملاً صالحاً كافأه الله عليه أضعافاً كثيرة:

إذًا:

(إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ (36))

أيْ أن كل عملٍ عملته سوف تكافأ عليه أضعافاً كثيرة لا تعد ولا تحصى..

(مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ(261))

(سورة البقرة)

وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ: آية لها عدة معان:

1- الله عز وجل لا يسألكم أموالكم كلّها لتنفقوها في سبيله:

أما الآية الكريمة:

(وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ (36))

أول معنى: ولا يسألكم أموالكم كلّها لتنفقوها في سبيله، عند الله لا يوجد مصادرات، المال كله لا يأخذه منك، قال لك: ادفع ربع العشر، واحد بالأربعين، فالزكاة اثنان ونصف بالمئة، واللهُ ما سألك أموالك كلها، تكاليف الدين ليست مرهقة، لم يقل لك: صلِّ ألف ركعة في اليوم، قال لك: خمس صلوات، لم يقل لك: صم خمسة أشهر، صم شهراً واحداً، لم يقل لك: اترك النساء كلية، لا بل تزوج، لكن إياك أن تطلق بصرك في الحرام، لم يقل لك: لا تشتغل، اقعد بالبيت وتعبد، لا. بل قال لك: اشتغل لكن وفق منهج الله عزّ وجل وتعبد أيضاً، فالشرع واقعي، الإسلام دين الفطرة، دين الواقع، لا تطرُّفَ في الإسلام، قال:

(وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ (36))

طبعاً يقاس عليها كل شيء، أولاً ما سألك مالك كله، والنبي عليه الصلاة والسلام حينما دعاكم إلى الله ما سألكم أموالكم، فالدعوة إلى الله من دون مقابل، لا يقدر إنسان أن يدخل عند طبيب إلا ومعه خمسمئة ليرة احتياطًا، المحامي كذلك، المهندس كذلك، لكنه يقدر أن يدخل إلى أي مسجد ويسمع الدرس دون رسم دخول دون رسم خروج، بالمجان، النبي عليه الصلاة والسلام حينما دعا إلى الله لم يسألكم أموالكم.

2 ـ الله عزّ وجل إذا سألكم أموالكم فهذه ليست أموالكم هي أمواله:

المعنى الثاني: ثم إن الله عزّ وجل إذا سألكم أموالكم فهذه ليست أموالكم هي أمواله، هذا ماله، لله ما أعطى وله ما أخذ، إذًا المعنى الثاني ما سألك مالك سألك ماله، مالك الذي بين يديك هو مال الله عزّ وجل، لم يقل له: أعطني من مالك، أعطني من مال الله، أعرابي جاف قاسٍ قال: **" أعطني يا محمد من مال الله فهذا المال ليس مالك ولا مال أبيك "، فقال النبي: "صدق إنه مال الله "** فقد تلقّاه بالحلم، فأول معنى: ما سألك مالك كله، والمعنى الثاني أن النبي حينما دعاكم ما سألكم أموالكم.

3 ـ الله عز وجل حينما سألكم أموالكم ما سألكم مالكم ليأخذه بل ليعود عليكم ثواباً وأجراً:

والمعنى الثالث هو حينما سألكم أموالكم ما سألكم مالكم ليأخذه ؟ بل ليعود عليكم ثواباً وأجراً وسعادة أبدية، فهذه كلها معانٍ تلمح من كلمة:

(وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ (36))

الشرع واقعي ويراعي فطرة الإنسان دائماً:

(إِنْ يَسْأَلْكُمُوهَا)

لو أنه سألكم مالكم كله، وكلفكم صيام السنة كلها، ومنعكم من الزواج، ومنعكم من العمل لأعنتكم، قال:

(إِنْ يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ)

بإلحاح ومبالغةٍ تبخلوا عندئذٍ.

(تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ (37))

فلو أن إنساناً متعلقاً بالمال، متعلقاً بالزوجة بحكم فطرته، ولو قال الله لك: لا تتزوج، لا تشتغل، لا تكسب مالاً، هات مالك كله، فالإنسان عندئذٍ يضطر مرغماً انسجاماً مع فطرته وطبيعته أن يبخل، وأن يكره هذا الدين الذي يقرر أن يستولي على كل ماله، فالنبي الكريم لما أمر أحد ولاته بأخذ الزكاة قال:

((وإياك وكرائم أموالهم))

هو يعطيك، لا تنتقي أنت فتأخذ أجمل ناقة منه كزكاة، فالدين واقعي، الدين يكلفك واحداً بالأربعين، ربع العشر، قال لك: صلِّ خمس أوقات، قال لك: صم شهراً، قال لك: إذا كنت مريضاً أفطر ولا حرج عليك على أن تقضيه، مسافر أفطر، أيضاً أباح لك أن تتزوج، كما أباح لك أن تشتغل، اكسب مالاً، فالشرع واقعي، ويراعي فطرة الإنسان تماماً.

الدين الإسلامي دين الفطرة:

قال:

(إِنْ يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ)

أيْ إذا سألكم إياها بشدة وبإلحاح عندئذٍ تبخلون، لأنكم تكرهون ديناً يأخذ كل مالكم، تكرهون ديناً يأخذ كل وقتكم، تكرهون ديناً يمنعكم من شهوةٍ أودعت فيكم بالفطرة، فالدين الذي يمنع الزواج مكروه، وأتباعه كرهوه وكفروا به، لأنه ليس معقولاً، ولئن قبلوه ظاهراً فقد وقعوا في انحرافات خطيرة، هؤلاء

الذين اتخذوا هذه الرهبانية إذ ابتدعوها، وما كتبناها عليهم، هم حينما كتبوها على أنفسهم ما رعوها حق رعايتها، أما دين الفطرة فقد قال لك: تزوج.. و..

(كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ)

(سورة البقرة: آية " 57 ")

فتح لك الأبواب أن تشتغل وتكسب مالاً، وادفع منه لنا إذا ادخرت و بلغ مدخرك النصاب بالمئة اثنين ونصف، صلِّ خمسة أوقات، صم ثلاثين يوماً، فالإسلام واقعي، ولو أنه فرضٌ..

(إِنْ يَسْأَلْكُمُوهَا)

كلها بإلحاح، وإصرار..

(فَيُحْفِكُمْ)

إذا سألكم إيّاها مع المبالغة في السؤال فعندئذٍ تبخلون، وتكرهون هذا الدين..

الدين الإسلامي لو كلف الإنسان فوق ما يطيق لكرهه:

(وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ (37))

الكراهية عندئذ تظهر واضحة لهذا الدين لأنه غير واقعي، فربنا عزّ وجل حكيم، لأن كل شيء يتحمل ضغطًا معينًا ولدرجة معينة، لو رفعنا الضغط لاختلت الموازين، فالله حكيم، لا يكلف الله نفساً إلا وسعها، لو كلّفنا فوق ما نطيق لكرهنا هذا الدين انسجاماً مع فطرتنا، لكن هذا الدين يتوافق مع الفطرة.

(إِنْ يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا)

على الإنسان أن يتعامل مع الله بعكس ما يتعامل مع الناس:

طبعاً:

(إِنْ يَسْأَلْكُمُوهَا)

فعل الشرط.

(فَيُحْفِكُمْ)

معطوف عطف بيان، أيْ كيف السؤال ؟ بإلحاح، وجواب الشرط:

(تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ (37))

(تبخلوا) عندئذٍ، لذلك إذا أردت أن يحبك الناس فلا تسألهم ما في أيديهم أبداً، كلهم يحبونك، إذا أردت أن يحبك الله فاسأله كل ما عنده، فتعامل مع الله بعكس ما تتعامل مع الناس..

لا تسألن بني آدم حاجــة وسل الذي أبوابه لا تغلق
الله يغضب إن تركت سؤاله وبني آدم حين يسأل يغضب

* * *

المؤمن الصادق يدعو إلى الله دون أجر أو مكافأة:

دلني على عملٍ إذا عملتُه أحبني الناس ؟ قال: **" ازهد بما في أيدي الناس يحبك الناس، وارغب بما عند الله يحبك الله "**، فالمؤمن الصادق يدعو إلى الله، لا يطلب لا أجرًا ولا مكافأة، ولا مادياً، ولا معنوياً، إطلاقاً..

(إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُورًا(9))

(سورة الإنسان)

لا يذوق معنى الإخلاص إلا من كان مخلصاً، لا تبتغ من وراء عملك الصالح شيئاً عندئذ يحبك الناس جميعاً، فإذا نظرت إلى ما في أيديهم، وطمعت بأموالهم، ولمّحْتَ لهم، وصرّحْتَ لهم كرهك الناس، لو أن الدين الذي هو دين الله سألك كل مالك لكرهته، ولو سألك كل وقتك لوليت مدبراً، ولو منعك من تلبية شهوات أودعها الله فيك لسئمت وعاندت و أبيت.

الإسلام دين واقعي وازن بين الدنيا و الآخرة:

قال تعالى:

(إِنْ يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ (37) هَاأَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ)

قال العلماء: الإنفاق هنا إنفاق الزكاة، أو إنفاق الصدقة، أو الإنفاق من أجل الجهاد، هذا السؤال واقعي، والدين ينسجم مع الفطرة، والله عزّ وجل ما كلّفك فوق ما تطيق، كلفك الشيء اليسير القليل.. **" إن الله أمر عباده تخييراً، ونهاهم تحذيراً، وكلّف يسيراً، ولم يكلف عسيراً، وأعطى على القليل كثيراً، ولم يعصَ مغلوباً ولم يُطع مكرهاً "**.. لذلك فالنبي الكريم اللهم صلِّ عليه قال:

((أنا أشدكم لله خشية، وأنا أنام وأقوم))

لم يقل لك: لا تنم، بل قال: نم.

((إِنّ لِجَسَدِكَ عَلَيْكَ حَقًّا))

(سنن البخاري: عن عمرو بن العاص)

((أَنَامُ وَأَصُومُ وَأُفْطِرُ وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي))

(صحيح مسلم: عن أبي هريرة)

دين الإسلام واقعي متوازن، وازنَ بين الدنيا والآخرة، بين حاجات الجسد وحاجات الروح، بين القيم والحاجات، بين الحاضر والمستقبل، بين ما ينبغي أن تفعله وما أنت فيه، هناك موازنات دقيقة، لذلك ديننا دين الحق، دين فيه مقومات استمراره.

التقصير بالعمل الصالح لا يضر إلا صاحبه:

وبعد فيا أيها المسلمون:

(هَاأَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ)

النفقة الشرعية، تدعون لتنفقوا زكاة أموالكم، فالزكاة فرض، تدعون لتنفقوا صدقاتكم، تدعون لتنفقوا في سبيل نشر هذا الدين.

(هَاأَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ)

إنّ الإنسان عندما يعرف أن عمله الصالح له، وتقصيره في العمل الصالح عليه، عندئذٍ يبادر بالعمل الصالح، قال:

(وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ)

((يَا عِبَادِي لَوْ أَنّ أَوّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا يَا عِبَادِي لَوْ أَنّ أَوّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا يَا عِبَادِي لَوْ أَنّ أَوّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمّا عِنْدِي إِلا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلا يَلُومَنّ إِلا نَفْسَهُ))

(صحيح مسلم: عن أبي ذر)

النبي عليه الصلاة والسلام كان في رمضان أجود ما يكون:

(هَاأَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ)

نحن على أبواب شهر رمضان الكريم، والنبي عليه الصلاة والسلام كان في رمضان أجود ما يكون، كان جواداً وكان أجود ما يكون في رمضان، كان أجود من الريح المُرْسَلة، في الشدة والرخاء، قال:

(وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ)

كل مَن أنفق في سبيل الله بإخلاص عُوِّض عليه أضعافاً كثيرة:

عندما يقرأ المؤمن القرآن يجد فيه ثماني آيات حصراً تَعِد المنفق بالتعويض والخُلف..

(وَمَا أَنفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ)

(سورة سبأ: آية " 39 ")

وكل مَن أنفق في سبيل الله بإخلاص يتحسس هذه الآيات، يجد أن الله سبحانه وتعالى عوّض عليه أضعافاً كثيرة، ورزقه من حيث لا يحتسب.

(وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ (38))

من أنفق ماله مخلصاً في سبيل الله لن يضيع الله عمله:

أيها المؤمن: لا تزهد فيما عند الله عز وجل، فهناك من لا يزهد فيما عنده، واعلم أنك إذا بخلت بإنفاق المال على عباده الفقراء هناك من ينفق سخاء، والله عزّ وجل هو الغني وهو الكريم..

((أنفق يا بلالُ، ولا تخش من ذي العرش إقلالا))

[أخرجه السيوطي في الجامع الصغير]

((عبدي أنفق أنفق عليك))

وما ذاق لذة الإنفاق، وما ذاق لذة العطاء إلا من أنفق مخلصاً في سبيل الله، فالصدقة تقع في يد الله قبل أن تقع في يد الفقير، قال النبي الكريم:

((باكروا بالصّدقة، فإن البلاء لا يتخطاها))

[رواه أبو الشيخ، وابن أبي الدنيا والبيهقي، عن أنس]

((صدقة السر تطفئ غضب الرب))

[أخرجه ابن عساكر عن ابن عباس]

وإذا الإنسان أنفق من ماله فيما بينه وبين الله إنفاقاً مخلصاً وأراد به وجه الله فالله سبحانه وتعالى لن يضيّعَ عمله، وأحياناً يقال (وهذا مثل عامي): "يروح الزاهد فيأتي ألف عاشق". واسمع قوله تعالى ففيه تهديد ووعيد وترغيب.

(وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ (38))

أعيذ نفسي وإياك أخي المؤمن من سوء العاقبة.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الفتح 048 - الدرس (1-8): تفسيرالآيات 1-7، إشاراتٌ دقيقة إلى ما جرى للنبي عليه الصلاة والسلام في صلح الحديبية.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1995-02-03

بسم الله الرحمن الرحيم

ما من حدثٍ وقع في عهد النبي إلا وله أبعاده الجليلة وحكمته الفريدة :

أيها الأخوة المؤمنون... مع الدرس الأول من سورة الفتح:

(إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا (1) لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا (2) وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا (3))

[سورة الفتح]

الأحداث التي جرت في عهد النبي عليه الصلاة والسلام قدَّرها الله جلَّ جلاله لحكمةٍ بالغة، ولحكمةٍ تعليميةٍ وتشريعية، فما من حدثٍ وقع في عهد النبي إلا وله أبعاده الجليلة، وله حكمته الفَريدة، فالنبي عليه الصلاة والسلام بشكلٍ موجزٍ مختصر فيما ترويه كتب السيرة أراد أن يعتمر، فتوجَّه إلى مكة معتمراً وساق الهدي وقلَّدها، أي أشعر أنها هديٌ تقدَّم لبيت الله الحرام، وسار معه بعض القبائل ممن حول المدينة، وعلمت قريشٌ بتوجُّه محمد صلى الله عليه وسلَّم مع أصحابه ليعتمروا، فأبت واستنفرت ووقفت موقفاً في غاية العداوة والخصومة.

وفي الحديبية جرت مفاوضات ورسل، وتبادل النبي مع قريش رسلاً عدة، واستقر الأمر على صلح، هذا الصلح مؤَدَّاه أن النبي عليه الصلاة والسلام لا يعتمر في هذا العام بل يرجع، وقد سمح للناس أن يؤمنوا بعد أن كانت قريش تعذب من يسلم أشد التعذيب.

الحكمة من عدم فتح الصحابة الكرام مكة عنوةً في يوم الحديبية :

هذا الصلح في ظاهره ليس مما يروي طموح المسلمين، إذا لم يستطع المسلمون أن يصلوا إلى مكة المكرَّمة ليطوفوا حول البيت معتمرين، بل ردوا إلى المدينة، وسمح لهم أن يعتمروا في العام القادم، وجرت نصوصٌ دقيقةٌ بين النبي وبين قريش أراد الله سبحانه وتعالى أن يجعل هذا الصلح فتحاً مبيناً، مع أن النبي عليه الصلاة والسلام لم يحقق ما كان يصبو إليه وأصحابه من وصولٍ لمكة المكرَّمة، وطوافٍ حول الكعبة، وقد اتجه أكثر المفسِّرين إلى تفسير هذا الفتح الجليل بصلح الحديبية، بينما قلة منهم فسَّرت هذا الفتح بفتح مكة، والحقيقة فتح مكة كان حدثاً من أبرز أحداث الدعوة الإسلامية، لأن

مكة التي ائتمرت على النبي، وأخرجته، وكادت له، وحاربته قرابة عشرين عاماً، فتحت عنوةً، والله سبحانه وتعالى نصر النبي عليه الصلاة والسلام نصراً عزيزاً، فلك أن تَعُدَّ هذا الفتح المبين هو فتح مكة، ولك أن تعد هذا الفتح المبين هو صلح الحديبية.

لكن الذين عَدُّوا هذا الفتح المبين صلح الحديبية انطلقوا من أن هذا الصلح في ظاهر نصوصه إجحاف بحق المسلمين الذين لم يحققوا أهدافهم، وتنازلوا عن مطالبهم، وفي باطنه خير عميم، من هذه الحكم الإلهية أن نفراً من المؤمنين كانوا قد آمنوا سراً في قريش، وخافوا أن يعلنوا إسلامهم وإيمانهم، ولو أن الصحابة الكرام فتحوا مكة عنوةً في يوم الحديبية لقتلوا أناساً عَلِمَ الله أنهم مؤمنون..

(وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ)

[سورة الفتح: آية 25]

لو قاتلتموهم لأصابتكم من قتالهم معرَّةٌ، أي تحمَّلتم إثم قتل إنسانٍ أسلم.

الإنسان يجب أن يستسلم لأمر الله لأن الله يعلم وهو لا يعلم :

ملخص هذا الموضوع أنه:

(وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (216))

[سورة البقرة]

أمر هذا الدين بيد الله عزَّ وجل، الدين دين الله، والله سبحانه وتعالى لا يتخلَّى عنه، فإذا رأيت أشياء قد لا ترتاح لها، هذا بتقدير الله، ولحكمةٍ بالغةٍ أرادها الله عزَّ وجل، فلعل ما يبدو لك أنه غير مُريحٍ للمسلمين هو سبب نصر المسلمين، هو سبب انتشار الدين في العالم، هو بدايات تحقُّق قوله تعالى:

(لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ)

[سورة الفتح: آية 28]

أراد المفسِّرون حينما رجَّحوا أن الفتح المبين صلح الحديبية، أن الإنسان يجب أن يستسلم لأمر الله، سيدنا عمر ضاق ذرعاً ببنود هذا الصلح، فَعَبَّر عن ألمه لسيِّدنا الصديق، فقال الصديق رضي الله عنه: الزم غرزه، أي أنا مستسلم، لأن النبي عليه الصلاة والسلام إنما فعل ما أمره الله به، فحينما توقَّفت ناقته قالوا: خلأت ناقة رسول الله، فقال عليه الصلاة والسلام:

((ما خلأت القصواء، وما ذاك لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل))

[البخاري عن المسور بن مخرمة]

النبي عليه الصلاة والسلام تلقَّى توجيهاً من الله عزَّ وجل أن يقبل بهذه الشروط لصالح المسلمين، لأن الله يعلم ونحن لا نعلم، يعلم أن أُناساً مؤمنون في مكّة لو أن الصحابة قاتلوا أهل قريش لقتلوهم وهم لا يشعرون.

الإنسان عليه أن يسعى ويجتهد وحينما تغلبه الأقدار يكون قد وقع ما أراده الله :

وقد نزلت هذه السورة بعد صلح الحديبية، وقد عَبَّرَ النبي صلى الله عليه وسلم عن أنه ما من آيةٍ في كتاب الله أحبُّ إليه من هذه الآية:

(إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا (1))

والفتح هو النصر، فافتح بيننا وبينهم أي انصرنا عليهم، وفتحنا لك فتحاً، فتحاً مفعول مطلق تأكيدٌ للفعل، ولا تستخدم هذه الصيغة إلا إذا فُتِحَت المدينة عنوةً، لذلك بعضهم يرجِّح أن هذه الآية تعني فتح مكة..

(إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا (1) لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ)

[سورة الفتح]

أن على الإنسان أن يسعى لرفع شأن المسلمين، وأحياناً هو يريد والله يريد شيئاً آخر، لذلك التوجيه:

((إن الله يَلُومُ على العَجْز، ولكن عليكَ بالكَيْس، فإذا غَلَبَك أمر، فقل حَسبيَ الله ونعم الوكيل))

[أخرجه أبو داود عن عوف بن مالك]

الإنسان عليه أن يسعى، عليه أن يجتهد، عليه أن يتحرَّك، وحينما تغلبه الأقدار يكون قد وقع ما أراده الله، وإرادة الله متعلقة بالحكمة المطلقة، وحكمته متعلقةٌ بالخير المطلق، فهذا من دواعي أن نستيقن أن الذي وقع إنما وقع لحكمةٍ بالغة، وليس في الإمكان أبدع مما كان، ومن يقرأ سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم قراءةً مفصَّلة ولاسيما في ملابسات صلح الحديبية يرى ويعلم علم اليقين أن كل الخير كان من هذا الصلح، أحد بنوده: الذي يسلم لا ينضم إلى النبي، على النبي صلى الله عليه وسلم أن يرجعه إلى قريش، والذي يرتد من المسلمين يرد إلى قريش.

أي إجراءٍ يتولاَّه الله في شأن المسلمين هو خيرٌ إن في عاجل أمرهم أو في آجله :

شرطان ليسا متوازيين، وليسا متماثلين، هذا البند في صلح الحديبية كان له أثر كبير جداً في أن بعض القُرَشيين الذين أسلموا توجهوا إلى النبي عليه الصلاة والسلام لينضموا إلى المسلمين فردَّهم في ضوء بنود الصلح، فلما ردهم تألموا أشد الألم وكَمَنوا لقريشٍ على طريقها إلى الشام، وهددوا مصالحها، فبعثت قريشٌ إلى النبي عليه الصلاة والسلام رسولاً ترجوه أن يقبلهم، ولكنَّه لم يقبلهم.

فالإنسان قد يبدو له أن هذه الشروط فيها تنازلات وليست متماثلة، ولكن لو درستم دقائق الشروط والنتائج التي ترتَّبت عليها هذه الشروط لاستسلمتم، فقد أراد الله عزَّ وجل أن يطمئن المسلمين، أي إجراءٍ يتولاّه الله عزَّ وجل في شأن المسلمين هو خيرٌ إن في عاجل أمرهم، أو في آجله.

على كلٍّ الموضوع يحتاج إلى دراسات طويلة في شرح الحديبية، وفي دراسة الملابسات والبنود، والنبي صلى الله عليه وسلم قبل بهذه الشروط لأن الله أمره أن يقبل بها.. إنما أنا رسولٌ يوحى إلي.. تنفيذ لأمر الله عزَّ وجل، والله هو المدبِّر، اجتهد، وتوخ الخير، وتحرَّك، واسع، وطالب، لكن أنت تريد وأنا أريد والله يفعل ما يريد، وفعل الله عزَّ وجل كله حكمة.

(إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا (1))

الصُلح الذي جرى بين النبي وبين قريش كان سبباً لفتح مكة ولنصر المسلمين :

الهدف المباشر من تحرُّك النبي صلى الله عليه وسلم لم يتحقق، وسمَّاه الله فتحاً لأن الذي تحقق أن الناس بعد هذا الصُلح شعروا بالأمن نوعاً ما، وصار المسلمون الذين لم يُعترف بهم من قبل إطلاقاً صاروا أنداداً لقريش، هذا إنجاز لم يكن بادياً لكل ذي عَيْن، إنجاز كبير، حالة الحرب انتهت، ودخل المسلمون في حالة السلم، وحينما تنتهي حالة الحرب يطمئنُّ الناس، وينطلقوا إلى نشر هذا الدين، فنشاط المسلمين بعد صلح الحديبية تضاعف في بث هذا الدين، كانوا منشغلين بحرب قريش الآن انشغلوا بنشر هذه الرسالة في شتَّى الأنحاء، هذا الصلح فتح لأنه أعطى المسلمين والمؤمنين راحةً نفسية أتاحت لهم أن ينتقلوا إلى موقع آخر من مواقع الدعوة، وهو موقع نشر الدعوة بالطريقة السلمية، هذا أيضاً فتح. أعطت فرصة لمن أسلم في مكة المكرمة أن يتحرَّك وفق منهج إسلامه دون ضغطٍ أو تعذيبٍ، عاشوا في راحةٍ نفسية، وتحرَّك المسلمون تحركاً كثيفاً في نشر هذا الدين، وأُنقذ من أنقذ من مسلمي قريش الذين كانوا يخفون إيمانهم، كل هذا الخير نتج من خلال هذا الصُلح الذي جرى بين النبي صلى الله عليه وسلم وبين قريش، والذي كان هذا الصلح سبباً لفتح مكة، ولنصر المسلمين النصر الحاسم.

(إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا (1) لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ)

فتح مبين بهذا الجُهد الجهيد الذي بذله النبي وأصحابه الكرام في عمرة بيت الله الحرام، ثم في الصلح، ثم حينما بايعوا النبي عليه الصلاة والسلام على الموت في سبيل الله..

(لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ)

[سورة الفتح: آية 18]

صلح الحديبية درسٌ على مرّ الأجيال للمسلمين :

لمَ كانت المبايعة؟ النبي عليه الصلاة والسلام أرسل سيدنا عثمان إلى قريش مفاوضاً، تأخَّرت عودته أياماً ثلاثة، فغلب على ظن المسلمين أنه قُتل، لذلك بايعوا النبي عليه الصلاة والسلام بيعة الرضوان، وقد نزل فيها القرآن قال:

(لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا (18))

[سورة الفتح]

كانت مناسبة أن عبر المؤمنون عن بذل كل ما يملكون في سبيل الله، وقد رَضي الله عن المؤمنين حينما بايعوا النبي عليه الصلاة والسلام، لقد رضي النبي عليه الصلاة والسلام حينما رأى أصحابه بهذه التضحية وهذا الإيثار، إذاً هناك فوائد عديدة جداً؛ ظهرت تضحية الصحابة الكرام، أُنقذ من أسلم خفيةً في قريش، هؤلاء الذين ردّوا بعد أن أسلموا هددوا مصالح قريش، فتمنت قريش أن يقبلهم النبي خلافاً لبنود الصلح، لكن النبي لم يخالف بنود الصلح، قريش أصبحت نداً لندٍ مع رسول الله بعد أن كانت لا تعترف بوجود المسلمين.

شيءٌ آخر: هو أن النبي عليه الصلاة والسلام بعد الصلح صارت هناك بحبوحة والناس عاشوا في راحةٍ نفسيةٍ، وسلامٍ، وأمنٍ، وتوجَّهت كل طاقتهم إلى نشر الدعوة بدل توجيه طاقاتهم إلى صَدِّ العدوان، وفرقٌ كبير بين أن تشتغل في صدّ العدوان، وبين أن تشتغل في نشر الدعوة، هذه المعاني نستنبط منها المواعظ والعبر، فالله سبحانه وتعالى لا يتخلّى عن دينه أبداً، هذا دين الله، وكأن صلح الحديبية بشكلٍ أو بآخر درسٌ على مرّ الأجيال للمسلمين، إذا جاءت الأمور على غير ما تشتهون فلا تحزنوا ولا تقلقوا فالعاقبة خير، إذا جاءت الأمور في العالم الإسلامي على غير ما يشتهي المسلمون، وتوهَّم المسلمون أن المسلمين لن تقوم لهم قائمة فهم واهمون، إذا توهم المسلمون أن هناك كيداً تزول له الجبال، ويحيق بهم مكر سيئ ينبغي ألا يقلقوا، لأن هذا الدين دين الله، وأن الله سبحانه وتعالى لا يتخلّى عن دينه، وسوف يرى الناس جميعاً كيف أن الذي آلمنا من واقع المسلمين ربما كان سبب نصرهم وتقدُّمهم.

الحكم من الأحداث التي جرت في عهد النبي عليه الصلاة والسلام :

عوداً على بدء: إن الأحداث التي جرت في عهد النبي عليه الصلاة والسلام، هذه الأحداث إنما وقعت لحكمتين، الأولى تعليمية؛ والثانية تشريعية، فالإنسان حينما يقرأ التاريخ يستنبط منه قوانين تعينه على التعامل مع واقعه، لذلك قراءة التاريخ فيها موعظة كبيرة جداً، اقرأ التاريخ ترى أن التاريخ يعيد نفسه،

وترى الإنسان هو الإنسان، وأن الخير هو الخير، وأن الشر هو الشر، وأن الإيمان هو الإيمان، وأن الكفر هو الكفر، وأن التاريخ يعيد نفسه، وبإمكانك إذا قرأت التاريخ أن تستنبط من قراءته المواعظ والعِبَر التي تعينك على فهم الواقع، فصلح الحديبية في ظاهر بنوده تنازلٌ من المسلمين، لكن في حقيقته سببٌ لنصر المسلمين النصر المؤزر، ولفتح مكة الفتح المبين:

(إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا (1))

فأنا من أنصار الذين يرون أن الفتح المبين هو صلح الحديبية لأنه كان سبب فتح مكة، والإنسان عليه أن يستسلم، ولاسيما وأن النبي عليه الصلاة والسلام أشار إشاراتٍ صريحةً إلى أنه رسولٌ يفعل ما يأمره الله تعالى به، فسيدنا الصديق أدرك هذه الحقيقة، ذكر هذا لسيدنا عمر، قال له: " الزم غِرزه إنه يوحى إليه ".. وانتهى الأمر.

(لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ)

مغفرة ذنب النبي مغفرةٌ وقائية :

قالوا: ذنب الأنبياء له تعريفٌ خاص، أولاً: ترك الأولى، وقد قال بعضهم: إن مغفرة الذنب للنبي مغفرةٌ وقائيَّة، بمعنى أن اتصال النبي بالله عزَّ وجل الاتصال الشديد ينفي عنه الذنب، فإما أن يغفر الذنب بعد وقوع الذنب، وإما أن يحصل الاتصال بالله عزَّ وجل بحيث لا يقع معه ذنب، إما أنه مغفرةٌ وقائية وإما أنه ترك الأولى، لكن الثابت أن النبي عليه الصلاة والسلام معصومٌ قبل النبوة وبعدها، معصومٌ في كل أقواله وأفعاله وإقراراته، معنى أنه معصوم أن كل ما قاله حق، في غضبه وفي سروره، لو أنه غير معصوم لكان ينبغي أن نتحرَّى حالات الغضب التي غضب بها حتى نحذف الأحاديث التي قالها وهو غاضب، لكن علماء العقيدة يؤكّدون بتصريح من النبي عليه الصلاة والسلام أنه معصومٌ في كل أقواله وأفعاله وإقراره، إذاً المغفرة هنا من نوع آخر، مغفرة ذنب النبي مغفرةٌ وقائية.

(لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا (2))

[سورة الفتح]

أربعةُ أشياء: مغفرة الذنب المتقدم والمتأخر، وإتمام النعمة عليك، والهداية إلى الصراط المستقيم، والقاعدة تقول: إنك إذا وصفت إنساناً مستقيماً بالاستقامة، أو إذا أمرت إنساناً بالاستقامة وهو مستقيم، معنى ذلك أن اثبت على استقامتك، فتمام النعمة الهدى، تمام النعمة النبوَّة، تمام النعمة انتشار هذا الدين، تمام النعمة فتح مكّة المكرَّمة التي ناصبت العداء النبي عليه الصلاة والسلام ردحاً من الزمن..

(وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا (3))

[سورة الفتح]

والنصر هنا موصوفٌ بأنه عزيز.

القلوب بيد الله عز وجل يقلبها كيف يشاء :

(هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ)

[سورة الفتح: آية 4]

السكينة شيء يصعب تعريفه، شعورٌ لا يعرفه إلا من ذاقه، شعور بالأمن، منقطع النظير، شعور بالرضا، شعور بالسعادة، فقد قال النبي الكريم:

((قلوب العباد بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء))

[الترمذي و ابن ماجه عن أنس]

في آية أخرى تقول:

(وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ)

[سورة الحشر: آية 2]

معنى ذلك أن الرعب شيء يخلقه الله خلقاً فيقذفه في القلب، فالقلب أحياناً يمتلئ رعباً، خوفاً، يمتلئ قلقاً، ضيقاً، يمتلئ ضَجَراً، سَأَماً، من الذي خلق فيه السأمَ والضجر والضيق والقلق والخوف والرعب ؟ الله جلَّ جلاله، والقلب يمتلئ طمأنينةً، رضاً، يمتلئ استقراراً، تفاؤلاً، يمتلئ استبشاراً، هذا القلب بيد الله عزَّ وجل، فالإنسان المؤمن المستقيم، الخاضع لله، المنيب إليه، المطبِّق لمنهجه، يملأ الله له قلبَه طمأنينةً، هذا معنى قول الله عزَّ وجل:

(فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آَخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ (213))

[سورة الشعراء]

هذا معنى قول الله عزَّ وجل:

(هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ)

السكينة أحد أكبر الحوافز للإيمان بالله :

لذلك أحد أكبر الحوافز إلى الإيمان تلك السكينة التي يتفضَّل الله بها على المؤمن، هذه السكينة تُعْطيه طاقة على الصبر عجيبة، تعطيه طاقة في التحرُّك عجيبة، تعطيه حافزاً إلى البذل عجيباً، صبر وحركة وحافز، فلذلك إذا رأيت المؤمن متمَكِّناً في طريق الإيمان، ساعياً إلى مرضاة ربه الكريم، منطلقاً إلى طاعته، متحمِّلاً كل الشدائد في سبيله، لا تستغرب، لأن الله سبحانه وتعالى ألقى في قلبه السكينة، يعبِّر

عنه بعضهم بالأحوال؛ لك حال مع الله، استقامتك تنقلك إلى حالٍ مع الله طيِّب، استقامتك تجعلك شُجاعاً، متماسكاً.

(هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ)

هذه الآية ليست خاصَّةً بأصحاب رسول الله، هذه الآية لكل زمانٍ ومكان، لكل مؤمنٍ على كَرِّ الأيام، لكل مؤمنٍ في أي ظَرْفٍ صعب، لو أن الظرف صعبٌ في ظاهره لكن قد يكون في باطنه أمنٌ وطُمَأْنينة، وسكينة واستقرار.

المؤمن مع قناعاته الفكرية هناك مشاعر يشعر بها تزيده صلة بالله وحباً له :

ثم يقول تعالى :

(هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ)

[سورة الفتح: آية 4]

الإيمان الأول إيمان القناعة، أما الإيمان الثاني فإيمان السعادة، أنت أحياناً تقنع بالشيء ثم تنتفع به، انتفاعك به يزيدُك على إيمانك الفكري به إيماناً، هذه السكينة ضاعفت ثقتهم بالله عزَّ وجل، ضاعفت محبَّتَهُم لله عزَّ وجل، ضاعفت بَذْلَهُم وتضحيتهم، لذلك أقول لكم: إذا رأيت مؤمناً متمسِّكاً بأسباب الفَوْزِ في الدنيا، متمسكاً بهذا الدين، لا تظن أن قناعاته وحدها حملته على هذا التمَسُّك، يجب أن تعتقد أن مع قناعاته سعادةً لمسها في قلبه، النبي الكريم يقول:

((ذَاقَ طَعْمَ الإِيمَانِ مَنْ رَضِيَ بِاللَّهِ رَبًّا، وَبِالإِسْلامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولا))

[من صحيح مسلم عن عبد المطلب]

((من غض بصره عن محارم الله أورثه الله حلاوة في قلبه إلى يوم يلقاه))

[ورد في الأثر]

فالمؤمن مع قناعاته الفكرية هناك مشاعر يشعر بها، هذه المشاعر تزيده صلة بالله وحباً له.. ذاق حلاوة الإيمان:

((من غض بصره عن محارم الله أورثه الله حلاوة في قلبه إلى يوم يلقاه))

[ورد في الأثر]

وهذا معنى الآية:

(هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ)

القلب يملؤه الله بحسب عمل الإنسان وإخلاصه واستقامته :

بالمقابل.. الكفار:

(وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ)

[سورة الحشر: آية 2]

الكافر يملأ الله قلبه قلقاً، وخوفاً، وهلعاً، يملأ قلبه ضجراً، وسأماً، يملأ قلبه ذُعراً، فالقلوب بيد الله عزَّ وجل، هذا القلب يملؤه الله بحسب عملك وحسب إخلاصك واستقامتك.

(لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ)

أحياناً نحن في علاقاتنا اليومية نختار الشيء لأسباب فكرية، هذا الشيء شراؤه جيد، وسعره رخيص، يبدو أن الشركة المصنِّعة ممتازة، وإنتاجه كثير، وأعطاله قليلة، معلومات عديدة تدعوك لشرائه، فإذا اشتريته، واستعملته، وانتفعت به، واستمتعت به، وأعطاك الخير الكثير، تتضاعف ثقتك به، مع أنها ليست في الأساس كافية.

الله عزَّ وجل له جنود لا يعلمها إلا هو :

(هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (4))

[سورة الفتح]

الله عزَّ وجل له جنود لا يعلمها إلا هو، وربنا عزَّ وجل لحكمةٍ بالغة قد يكون من جنوده الجراثيم، نابليون أخرجه من عَكّا الطاعون، اليوم أضعف فيروس على الإطلاق فيروس الإيدز، إذا خرج من الجسم يموت بعد دقائق، ومع ذلك ألوف الملايين مسخرةٌ للبحث عن مصلٍ مضادٍ لهذا الفيروس، والطريق لا يزال مسدوداً أمامه.

(وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

[سورة الفتح: آية 4]

الملائكة جنود، الجن جنود، الجراثيم جنود، الفيروسات جنود، العواصف جنود، الأعاصير جنود، الفيضانات جنود، الصواعق جنود، الزلازل جنود، الحر الشديد جنود، البرد الشديد جنود.

(وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (4))

[سورة الفتح]

الله عزَّ وجل قادر على أن ينصر المؤمنين في كل حال، لكن أحياناً لحكمةٍ بالغةٍ يُعْطيهم ويمنعهم، يرفعهم ويخفضهم، يؤَيِّدهم ويبدو أنه تخلى عنهم تأديباً لهم وتربيةً لهم.

(وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (4) لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا (5))

[سورة الفتح]

الفوز الحقيقي يكون في دخول الجنة :

أخواننا الكرام... كلمة دقيقة جداً..

(لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ)

الفوز الحقيقي في دخول الجنة..

(وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ)

التي وقعت منهم في الدنيا..

(وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا (5))

هذا هو الفوز عند الله، فما الفوز عندك؟ عند الناس الفوز هو المال، ومتاع الحياة الدنيا، لذلك حينما تختلف الرؤية بين الإنسان وبين مقاييس القرآن تقع الضلالة، أن تصل إلى الجنة ونعيمها، وأن تُكَفَّر عنك سيِّئاتُك، وتنال رضا الله عزَّ وجل، هذا عند الله هو الفوز العظيم..

(لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ (61))

[سورة الصافات]

(وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ (26))

[سورة المطففين]

سبب عدم خروج المنافقين مع الرسول الكريم ليعتمروا :

(وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ)

[سورة الفتح: آية6]

المنافقون حينما خرج النبي عليه الصلاة والسلام ليعتمر مع أصحابه الكرام، ودعي بعض هؤلاء للخروج معه امتنعوا، لماذا؟ لأنهم ظنوا أنهم حينما يتجِّهون إلى مكة المكرمة فقريش تقتلهم عن آخرهم، ظنوا أن النبي لن يعود، نسوا أن هذا رسول الله، وأن زوال الكون أهون على الله من أن يتخلَّى عن رسوله.

(وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ)

ظنوا أن الله سيتخلّى عن النبي الكريم، وظنوا أن قريشاً سوف تتمكن من إبادتهم وقتلهم عن آخرهم، كيف لا؟ كيف يخرج النبي إلى مكة معتمراً وقد حارب قريشاً في أُحد وفي بدر وهناك قتلى من قريش؟ كيف يسكت أهل قريش عن محاربة النبي وعن إبادة النبي وأصحابه؟ فالمنافقون ظنوا أن النبي صلى الله عليه وسلم لن ينتصر، وأنه سيهزم، وأنه لن يعود إلى المدينة..

(وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (6) وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (7))

[سورة الفتح]

أيها الأخوة الكرام... هذه الآيات فيها إشاراتٌ دقيقة إلى ما جرى للنبي عليه الصلاة والسلام في صلح الحديبية، وأرجو الله سبحانه وتعالى في الأسبوع القادم أن نعود إلى هذا الصلح، وإلى ملابساته، وإلى أسبابه، وإلى نتائجه، فإن دراسة سيرة رسول الله في هذه الآيات بالذات تلقي ضوءاً كاشفاً وضّاحاً على مدلول هذه الآيات.

والحمد لله رب العالمين

بسم الله الرحمن الرحيم

معرفة سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم فرضُ عين على كل مسلم :

مع الدرس الثاني من دروس تفسير سورة الفتح.

آيات سورة الفتح لها أسباب نزول، إن هذه الأسباب كامنة في صلح الحديبية وفتح مكَّة، وبعض آيات القرآن الكريم المتعلّقة بأسباب نزولٍ خاصَّة لا تتبدى، ولا تتضح، ولا تنكشف حقيقتها، ولا تظهر أبعادها إلا إذا عرفت الأسباب التي نزلت بسببها، وسوف أركّز على السيرة لأنني أعتقد اعتقاداً جازماً أنَّ معرفة سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم فرضُ عين، والدليل ما قاله علماء الأصول: " ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، وما لا يتم الفرض إلا به فهو فرض، وما لا تتم السنَّة إلا به فهو سنَّة ".

الصلاة فرض لكن لا تتم إلا بالوضوء، والوضوء إذاً فرض، الله جلَّ جلاله يقول:

(وَمَا آَتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا)

[سورة الحشر: آية 7]

معرفة السنَّة فرض عين بشِقَّيها القولية والعملية :

ولكن كيف أعرف ما أمرني به رسول الله وما نهاني عنه إلا أن أقرأ سيرته القولية؟ ما قصد الأحاديث؟ هي فرض عين لأن السنة مُبَيِّنَة، لكن حينما قال الله عزَّ وجل:

(لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآَخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا (21))

[سورة الأحزاب]

كيف يكون النبي عليه الصلاة والسلام أُسْوَةً حسنة لنا إن لم نقف على حقيقة مواقفه وسيرته وأفعاله؟

إذاً يجب أن نعتقد بادئ ذي بدء أن معرفة السنَّة فرض عين بشِقَّيها القولية والعملية.

ألا نكتفي بالقرآن الكريم؟ إن الذي يكتفي بالقرآن الكريم ولا يعبأ بالسنة فإنه يُخالف القرآن الكريم، لأن القرآن الكريم يأمرك أن تأخذ ما أمرك به النبي، وأن تنتهي عما نهاك عنه النبي، وأن يكون النبي لك أسوةً حسنة، إذاً معرفة الأحاديث شيء طبيعي جداً، لكن يجب أن تألفوا أيضاً أن قراءة السيرة بدقةٍ وإحكام جزءٌ من الدين، جزءٌ من عقيدتك، لأن هذا الإنسان الكامل الذي هو النبي عليه الصلاة والسلام معصومٌ عن أن يخطئ؛ لا في أقواله، ولا في أفعاله، ولا في إقراره، هذا الإنسان الكامل حياته كلُّها بكل

ما فيها تشريع، أقواله تشريع، أفعاله تشريع، إقراره.. إذا سكت.. وصحابي تكلّم كلاماً أمامه، سكوت النبي إقرار.. أصبح هذا الكلام -كلام الصحابي- من السنة لأن النبي عليه الصلاة و السلام لا يسكت عن الخطأ.

امرأة قالت لأحد الصحابة الذين توفّوا: هنيئاً لك أبا السائب لقد أكرمك الله. النبي موجود لو سكت لكان كلامها صحيحاً بل إنه قال: "وما أدراك أن الله أكرمه؟ قولي: أرجو الله أن يكرمه، وأنا نبيٌ مرسل لا أدري ما يُفعل بي ".

حياة النبي ليست أحداثاً عفويةً إنما هي مُقدَّرَةٌ لحكمةٍ بالغةٍ :

ثمَّ إني ذكرت في الدرس الماضي أن في سيرة النبي عليه الصلاة والسلام دلالاتٌ تشريعية، وأن النبي عليه الصلاة والسلام حياته ليست أحداثاً عفوية، وما جرى في حياته من مواقف، ومن أزمات، ومن أحداث، إنما هي مُقَدَّرَةٌ لحكمةٍ بالغةٍ بالغةٍ بالغة، موقفه عليه الصلاة والسلام من هذه الأحداث أيضاً تشريع، لذلك يمكن أن ترى التشريع في كلام الله، ويمكن أن ترى التشريع في أقوال رسول الله، ويمكن أن ترى التشريع في أفعال رسول الله، ونظراً لأن في سورتَي محمدٍ صلى الله عليه وسلم والفتح توجد آياتٌ كثيرة متعلقة بصلح الحديبية وفتح مكّة، هذه الآيات لا تُفْهَم، ولا تتضح، ولا تنجلي على حقيقتها، إلا إذا درسنا صلح الحديبية وفتح مكّة دراسة وَعْي واستنباط.

قالوا: الكون قرآنٌ صامت، والقرآن كونٌ ناطق، والنبي عليه الصلاة والسلام قرآنٌ يمشي، لأن السيدة عائشة كانت تقول: " كان خلقه القرآن ".

كلّما كانت الرؤيا واضحة وذات دلالة فهي إعلامٌ من الله مباشر لهذا المؤمن :

النبي عليه الصلاة والسلام أخبر أصحابه الكرام أنَّه رأى في النوم أنه دخل مكّة.

من أجل أن تعرفوا ملابسات هذا الصلح.. الإنسان يتعلّق ببلده.. فمكة بلد النبي عليه الصلاة والسلام، فيها أهله، وأقرباؤه، وأنسباؤه، وبنو رَحِمه، وقد ابتعد عن مكّة سنواتٍ طويلة، وناصبته العِداء، حروب وعداوات، وتنكيل وإخراج وقتل، شيء يُنهك الطرفين، لذلك النبي عليه الصلاة والسلام أخبر أصحابه أنه رأى في المنام أنه دخل مكة هو وأصحابه:

(آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ)

[سورة الفتح: آية 27]

وأنه دخل البيت وأخذ مفتاحه، وطاف مع أصحابه واعتمر، هذه رؤيا النبي، ورؤيا الأنبياء حق، سيدنا إبراهيم قال:

(يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ)

[سورة الصافات: آية 102]

لم يقل له: افعل ما ترى، بل قال له:

(افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ)

فحينما رأى النبي عليه الصلاة والسلام أنه دخل مكة، واعتمر مع أصحابه، فهذه الرؤيا حق وهذه بشارة، وأحياناً المؤمن يرى رؤيا واضحة كَفَلَق الصبح، كلّما كانت الرؤيا واضحةً وذات دلالة فهي إعلامٌ من الله مباشر لهذا المؤمن، لذلك ورد في الأحاديث:

((الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا مِنَ النُّبُوَّةِ))

[عن أبي سعيد الخدري صحيح البخاري]

أي طريقة إعلام مباشر، لكن هذا الدين.. المنام لا يجوز أن تُتاجر به ولا أن تستنبط منه أحكاماً تشريعية.. المنام لك وحدك بشارةٌ أو تحذير، لك وحدك، لا يُروى، ولا يُتاجر به، ولا يُتحدَّى به الناس، إنما هو من أجل تطمينك أو تحذيرك.

تلبية النبي عند خروجه للعمرة تنطوي على دعوة أن تعال إليَّ يا عبدي :

طبعاً حينما أخبر النبي أصحابه فرحوا فرحاً شديداً، ثم أعلمهم أنه يريد الخروج للعمرة فتجهَّز المسلمون للسفر، وخرج عليه الصلاة والسلام معتمراً ليأمن أهل مكّة ومن حولهم من حَرْبِهِ، وليعلموا أنه صلى الله عليه وسلم إنما خرج زائراً للبيت، ومعظّماً له، عمرة لوجه الله عزَّ وجل، وكانت تلبية النبي عليه الصلاة والسلام: " لبَّيك اللهمَّ لبَّيك، لا شريك لك لبَّيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك ". وهذه التلبية تنطوي على دعوة، أن تعال إليَّ يا عبدي، الله عزَّ وجل تمشياً مع طبيعة الإنسان المادِّية اتخذ بيتاً في الأرض، ودعاك إليه، من أجل أن يُكرمك فيه..

((إن بيوتي في الأرض المساجد وإن زواري فيها هم عمارها فطوبى لعبد تطهر في بيته ثم زارني وحق على المزور أن يكرم الزائر))

[أبو نعيم عن أبي سعيد الخدري]

واستعمل النبي صلى الله عليه وسلم على المدينة عبد الله بن أم مكتوبٍ على الصلاة.. وهذا نظام إداري من نظم النبي يستخلف حينما يغزو أو يسافر من ينوب عنه في إدارة شؤون المدينة، واستنفر النبي العرب ومن حوله من أهل البوادي ممن أسلم من غِفار، وقبيلة أسْلم، ومُزَينة، وجُهَيْنة.

تخلف المنافقين عن الرسول صلى الله عليه وسلم خوفاً من العاقبة :

تخلّف بعض الأعراب المنافقين.. المنافق كسول، المنافق مُثَبِّط، المنافق يتخلّف، المنافق يُنفق وهو كاره، المنافق يقوم إلى الصلاة كَسْلان، المُنافق يفرح بمصيبةٍ ألمَّت بمؤمن.. الْمُنَافِق:

((إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ))

[صحيح البخاري عن أبي هريرة]

المنافق إذا دعي إلى القتال أو إلى الحَجِّ والعمرة توانى وتكاسل، ماذا قال الله عزَّ وجل؟ قال:

(سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (11))

[سورة الفتح]

أراد النبي أن يخرج هو وأصحابه ومَنْ حول المدينة من المسلمين الذين أسلموا حديثاً، أن يخرجوا جميعاً معتمرين، بل إنَّ بعض الأعراب ظنّوا أن النبي لن يرجع إلى المدينة، لأنه سيقتل هناك، قريش بينها وبين النبي دماء وحروب، فإذا خرج النبي وأصحابه إلى مكّة معتمراً توقع هؤلاء.. وهم سيئو الظن.. أنه لا بدَّ من أن تنشأ معركة حاسمة ينتصر فيها الكفّار، لذلك قال تعالى:

(بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا (12))

[سورة الفتح]

المؤمن عليه أن يتفاءل لا أن يستسلم ويضعُف لأن الأمر بيد الله :

الحقيقة هذا شيء مستمر، المنافق يقول لك: لن تقوم للمسلمين قائمةٌ بعد اليوم، لأن العالَم كلّه أجمع على حربهم، وعلى تفتيتهم، وعلى إضعافهم، وعلى إفقارهم، لا يرى أن الله عزَّ وجل بيده الأمر، لا يرى أن الله يحكم ولا مُعقّب لحكمه، لا يرى أن الله إذا أراد شيئاً كان هذا الشيء، المؤمن عليه أن يتفاءل، عليه أن يرجو رحمة الله ، عليه أن ينتظر وعده، لا أن يستسلم، ولا أن يستخزي، ولا أن يضعُف، ولا أن يهون..

(بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ)

بالله.. هل الله يتخلى عن نبيِّه؟! يتخلى عن المؤمنين؟! لا يتخلى عن المؤمن، بل إنه يعالجه، يؤدبه، يضيِّق عليه، لكن المؤمن ضمن دائرة العناية المشددة.

حكمة النبي الكريم من تقليد الهدي و عدم حمل الدروع عند خروجه من المدينة :

غادر النبي عليه الصلاة والسلام المدينة بعد أن اغتسل ببيته، ولبس ثوبين، وركب راحلته القصواء، وخرجت معه أم سلمة من زوجاته، ومعه الأنصار والمهاجرون ومن لحق بهم من العرب، وساق معه من الهدي سبعين بدنة- أي ناقة- وأشعر رسول الله بعضها، لطّخ جنبها الأيمن بالدَّم إشعاراً أنها هديٌ لبيت الله الحرام- لله عزَّ وجل- وجعل في عنقها قلادةً إشعاراً بأن هذا هديٌ لله عزَّ وجل- هذا تقليد جاهلي أقرَّه النبي- وبذلك قطع النبي صلى الله عليه وسلم على قريشٍ كل حجَّة عندما جلّل الهَدي وأشعره وقلّده، ولم يحمل المسلمون من السلاح إلا السيوف في القُرَب.. سلاح شخصي فردي فلا توجد دروع، إذاً لا حرب، كان من عادة العرب في الجاهلية أن الذي يصُدّ الناس عن بيت الله الحرام يسقط من نظر الناس، والنبي لحكمةٍ بالغة حينما جلّل الهدي، وأشعره، وقلّده، ولم يحمل الدروع، واكتفى بالسلاح الشخصي، أراد أن يُحرج قريشاً، أنا جئت معتمراً فإن منعتموني فقد سقطتم أنتم. وكان المسلمون ألفاً وأربعمئة رجل، ليس معهم سلاحٌ إلا السيوف ولا دروع، مع مئتي فرس، سيدنا عمر رضي الله عنه وهو عملاق الإسلام قال: يا رسول الله ألا تخشى من أبي سفيان وأصحابه ولم تأخذ للحرب عُدَّتها؟ فقال عليه الصلاة والسلام: " لست أحب حمل السلاح معتمراً " النبي الكريم يقول: "المؤمن كيسٌ فطِنٌ حذر"، فماذا هيأ النبي من حذر وفطنة وكياسة.

الإسلام قوة وحكمة :

أرسل بشر بن سفيان الخُزاعي عيناً إلى مكَّة، اليوم المعلومات أخطر شيء في اتخاذ القرارات قرارات الحروب وغيرها، وكل إنسان معلوماته غير صحيحة فإن قراره غير حكيم، لا تستطيع أن تتخذ قراراً حكيماً إلا بمُعطيات صحيحة، فالنبي عاقل وحكيم.. أرسل من يخبره عن أهل مكَّة، وعن أحوالهم، وعن موقفهم من عمرة النبي عليه الصلاة والسلام، أرسل بشر بن سفيان الخزاعي عيناً له إلى مكَّة، وعاد بشر وقال: يا رسول الله هذه قريشٌ قد سَمْعَت بخروجك، واستنفروا من أطاعهم من الناس، وأجلبت ثقيف معهم، ومعهم النساء والصبيان، ومعهم العود المطافيل- أي النياق مع وليداتها- إنهم استعدوا استعداداً كبيراً جداً، وساقوا معهم نساءهم وأطفالهم لئلا يتراجعوا، وساقوا معهم زادهم ونوقهم كي يمدُّوهم بالطاقة.. ولبسوا جلود النمر مظهرين العداوة والحقد، ونزلوا بذي طوى يعاهدون الله ألا يدخلها عليهم عنوةً أبداً، أنت تلاحظ أحياناً أن الكافر عداوته غير معقولة، عداوته شديدة جداً، عداوته ليس فيها اعتدال، لم يفعل النبي شيئاً، أراد أن يعتمر فقط، فهل يحتاج هذا الأمر إلى كل هذا الاستعداد؟! خيول، ونوق، ونساء، وولدان، وجلود نمور؟

وسيدنا خالد لم يكن قد أسلم بعد، قد قدِم إلى كراع الغميم حول المدينة بمئتي فرس، فأمر النبي الكريم رداً على هذا الاستفزاز عبَّاد بن بشر فتقدَّم بخيله فأقام إزاءه، الحياة مُعقَّدة جداً، إن لم تكن قوياً أكلك الأقوياء، إن لم تكن حكيماً غلبك الحكماء، إن لم تكن مستعداً غلبك من استعد، فالإسلام قوة وحكمة.

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ)

[سورة الأنفال: آية 60]

المشاورة أمر إلهي لأن من استشار الرجال استعار عقولهم :

عندما أرسلت قريش سيدنا خالد- وقتها كان مشركاً- إلى ظاهر المدينة بمئتي فارس، النبي الكريم أرسل من يقف أمامه وهو عبَّاد بن بشر، وجعلت قريشٌ على الجبال عيوناً ترقب حركات المسلمين- الإنسان هو الإنسان، والوسائل مختلفة، أما الحقائق فواحدة، فالآن بالأقمار الصناعية تُرصد حركاتنا- أرسلت قريشٌ رجالاً وقفوا على رؤوس الجبال عيوناً على تحرُّكات المسلمين، ولما علم النبي صلى الله عليه وسلم أن قريشاً تريد منعه من بيت الله الحرام قال: أشيروا عليَّ أيها الناس؟ ألم يأمره الله؟

(وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ)

[سورة آل عمران: آية 159]

حينما يسأل الإنسان يستنير فكره، وتنجلي الأمور أمامه، سيدنا عمر كان يستشير الصِغار أحياناً لحِدَّة ذكائهم، يستشير النساء في أمر النساء، يستشير السيدة حفصة في المدة التي تتحمَّلها المرأة بعيدة عن زوجها، استشار السيدة عائشة في حياة النبي الخاصَّة، فالمشاورة أمر إلهي، وكل إنسان يستبدّ برأيه يخالف منهج الله عزَّ وجل، وقالوا: " من استشار الرجال استعار عقولهم ". والله عزَّ وجل أمر النبي أن يشاور، ووصف المؤمنين فقال:

(وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ)

[سورة الشورى: آية 38]

فالنبي قال: أشيروا عليَّ أيها الناس أتريدون أن نَؤمَّ البيت فمن صدَّنا عنه قاتلناه؟ فقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: يا رسول الله خرجت عامراً لهذا البيت لا تريد قتل أحد ولا حرباً فتوجَّه له فمن صدَّنا عنه قاتلناه، ما دام خرجت فَسِر على بركة الله من صدنا عنه قاتلناه، وحزن النبي الكريم أشدَّ الحزن لموقف قريشٍ ومبالغتها في الخُصومة، فهناك دم وقرابة ونسب، وكان يتمنى أن تكون الرحمة والمودة مكان هذه الخصومة، فقال عليه الصلاة والسلام: فامضوا على اسم الله وعلى بركته فساروا، وقال النبي الكريم: يا ويح قريش نَهَكتهم الحرب، ماذا عليهم لو خلَّوا بيني وبين سائر العرب فإن هم أصابوني كان ذلك الذي أرادوه وإن أظهرني الله عليهم دخلوا في الإسلام وافرين، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة، أي

ماذا يمنعهم لو خلّوا بيني وبين الاعتمار ببيت الله الحرام؟ قال عليه الصلاة والسلام: فلا أزال أجاهد على الذي بعثني الله به حتى يظهره الله أو تنفر هذه السالفة.

المؤمن سليم الصدر طيِّب الطوية أما الكافر فموقفه عدائي :

كلكم يعلم عندما عرضوا عليه الغنى، والمال، والنساء الجميلات، قال: والله يا عم لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يُظهره الله أو أهلك دونه. سار النبي وأصحابه ووصلوا إلى مكانٍ قرب الحديبية، فبركت ناقته القصواء، فقال الناس: خلأت ناقة رسول الله- أي حرنت بعدما ألحوا عليها أن تنهض مصوتين لها: حل حل- فقال عليه الصلاة والسلام:

((ما خلأت القصواء، وما ذاك لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل))

[البخاري عن المسور بن مخرمة]

فيل أبرهة أحجمت عن اقتحام الكعبة، ووقفت ناقته صلى الله عليه وسلم أمام بيت أبي أيوب الأنصاري بالهجرة، قال: ولكن حبسها حابس الفيل، والذي نفس محمدٍ بيده لا تدعوني قريش اليوم إلى خصلةٍ يسألون فيها صلة الرحِمِ إلا أعطيتُهُم إياها، والله أيها الأخوة هذه حقيقة، تجد المؤمن سليم الصدر، طيِّب الطوية، رحيماً، متسامحاً، لا حقد في قلبه، لا معاناة في نفسه، أما الكافر فموقفه عدائي، يرعد ويربد، يفور ولا يهمد، يضطرب، يعلو صوته، ويتكلم كلاماً قاسياً، فلم كل هذه العداوة؟ النبي الكريم وصف المنافق: إذا خاصم فجر. قال: والله والذي نفس محمدٍ بيده لا تدعوني قريشٌ اليوم إلى خصلةٍ يسألون فيها صلة رحِمٍ إلا أعطيتهم إياها.

موقف قريش العدائي من النبي عليه الصلاة و السلام :

وصل النبي إلى الحديبية واستقرَّ بها، أرسلت قريشٌ بعض الرُسُل من هؤلاء الرسل بديل بن ورقاء الخُزاعي وقال لرسول الله صلى الله عليه وسلّم: جئناك من عند قومك، كعب بن لؤي وعامر بن لؤي قد استنفروا لك الأحابيش ومن أطاعهم، معهم العود المطافيل، والنساء والصبيان، يقسمون بالله لا يُخَلّون بينك وبين البيت حتى تبيد خضراءهم، رسول قريش يخبره أن قريشاً أخذت عُدتها وأُهبتها وهي تُقسِم أنها لن تسمح لك بدخول البيت، فقال عليه الصلاة والسلام: لم نأت لقتال أحد ولكنا جئنا معتمرين، وإن قريشاً قد نهكتهم الحرب وأضرَّت بهم، فإن شاؤوا ماددناهم مدَّةً ويخلّوا بيني وبين الناس، وإن شاؤوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا، وإن أبوا فلهم ذلك.. هذا الرسول علِم علم اليقين أن النبي صلى الله عليه وسلّم -بعد أن سمع منه ورأى بعينه- لم يأت يريد حرباً، إنما جاء معتمراً زائراً معظّماً حرمة هذا

البيت الحرام، قال: سأبلغهم ذلك، فانطلق حتى أتى قريشاً فقال: إنا جئناكم من عند هذا الرجل، وسمعناه يقول قولاً فإن شئتم أن نعرض عليكم فعلنا، فقال سفهاء قريش: لا حاجة لنا أن تُخبرنا عن شيء، وقال ذو الرأي: هات ما سمعته، فحدثهم بديل بما قاله النبي وقال: يا معشر قريش إنكم تعجلون على محمد، وإن محمداً لم يأت لقتالٍ، وإنما جاء زائراً هذا البيت، فقالت قريش: إن كان جاء لا يريد قتالاً فوالله لا يدخلها علينا في جنوده معتمراً، تسمع العرب أنه دخل علينا عنوةً وبيننا وبينهم من الحرب ما بيننا، والله لا كان هذا أبداً وفينا عينٌ تطرف. أول رسول سمع من النبي، رأى الوضع طبيعياً، بلّغ قريشاً فلم تتحرَّك ولم تلن قَنَاتُها.

أرسلت قريش رسولاً آخر، لما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: هذا من قوم يتألهون- أي يعظّمون الله عزَّ وجل- فابعثوا الهَدْي في وجهه، فبعثوا الهدي، فلما رأى الهدي قال: إنما القوم أتوا عمَّاراً، فقال عليه الصلاة والسلام: أجل يا أخا بني كنانة، وعاد الحُلَيْس إلى قريش وأخبرهم بما رأى وقال لهم: إني رأيت ما لا يحلُّ منعه، رأيت الهدي في قلائده قد أكل أوباره، والرجال قد شَعُثوا، فقالوا له: اجلس فإنما أنت أعرابي ولا علم لك إنما رأيت من محمدٍ مكيدةً، فغضب الحُلَيْس من ذلك وقال: يا معشر قريش والله ما على هذا حالفناكم، ولا على هذا عاقدناكم، يُصدّ عن بيت الله الحرام من جاءه معظّماً؟ والذي نفس الحُلَيْس بيده لتخلّون بين محمدٍ وما جاء به أو لأنفرنّ بالأحابيش نفرة رجلٍ واحد.

المبالغة في محبة الرسول الكريم و توقيره من قِبل أصحابه الكرام :

بان موقف قريش، إنه موقف عدائي، أول رسول قنع، والثاني قنع، أما الثالث فاسمعوا ماذا قال له، قولٌ بليغ: هم ليوث غاباتٍ، وغيوث جدباتٍ، ما في عهودهم خورٌ، ولا في صفوفهم كدرٌ، ولا في خدودهم ثُغُرٌ، ولا في عيونهم خَزَرٌ- صغر- ولا في صدورهم وَغَرٌ، ولا في حديثهم زَوَرٌ، ولا في قولهم خَلَفٌ- هذه صفة أصحاب النبي- قال عروة: يا معشر قريش إني جئت كِسْرى في ملكه، وقيصر في ملكه، والنجاشي في ملكه، ما رأيت ملكاً في قومه قطُّ مثل محمدٍ في أصحابه، لقد رأيت قوماً لا يسلمونه أبداً، فانظروا رأيكم فإن عرض عليكم رُشداً فاقبلوا ما عرض عليكم، فإني لكم ناصح مع أني أخاف ألا تُنصروا عليه.

وهذا دليلٌ على جودة عقله وتفطُّنه لما كان عليه الصحابة من المبالغة في محبة رسول الله صلى الله عليه وسلّم، وتوقيره، ومراعاة أموره، هؤلاء الرسل رأوا النبي، وأصحاب النبي، رأوا هذا الحب الشديد، والتعاون المُعْجِز بين النبي وأصحابه، رأوا التواد والرحمة والتضحية والإيثار، رأوا عظمة الداعي والدعاة.

فقالت قريش لهذا الرسول الثالث: لا تتكلَّم بهذا يا أبا يعفور ولكن نردَّه عامنا هذا ويرجع إلى قابل.. إنهم لانوا قليلاً، هذا العام لا اعتمار بل العام القادم.

بيعة الرضوان :

أرسل النبي عليه الصلاة والسلام رسولاً اسمه خِراش بن أمية إلى قريش، وحمله على بعيرٍ له يُقال له ثعلب، ليبلِّغ أشرافهم أنه ما جاء النبي إلا معتمراً، ماذا فعلت قريش؟ عقروا جمل النبي الكريم، عقره عكرمة بن أبي جهل الذي صار من كبار الصحابة، عقر الناقة عداوة وبغضاء وحقداً، عقر ناقة رسول الله والذي عليها رسول رسول الله، وأرادوا قتل الرسول، ولكن منعه الأحابيش فخلَّوا سبيله حتى أتى النبي صلى الله عليه وسلَّم وأخبره بما لقي.

أرسل النبي صلى الله عليه وسلَّم سيدنا عثمان بن عفَّان سفيراً له إلى قريش، دخل عثمان بن عفَّان رضي الله عنه مكَّة مع عشرةٍ من المسلمين استأذنوا رسول الله صلى الله عليه وسلَّم ليزوروا أهاليهم، فلقيه أبَان بن سعيد بن العاص فأجار عثمان حتى يبلِّغ رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلَّم، وهم يردُّون عليه: إن محمداً لا يدخلها علينا أبداً.

ولما فرغ عثمان من تبليغ رسالة النبي قالوا له: إن شئت أن تطوف بالبيت فطف أنت وحدك، فقال رضي الله عنه: ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله، قال بعض المسلمين: لقد خَلَصَ عثمان إلى البيت فطاف به دوننا، فقال عليه الصلاة والسلام: ما أظنَّه طاف بالبيت ونحن محصورون، النبي يَعْرِفُ قَدْر عثمان، قال: لا يفعلها، أما سيِّئو الظن فقالوا: الآن سوف يطوف بالبيت، قالوا: وما يمنعه يا رسول الله وقد خلص إليه؟ صار قريباً، فقال عليه الصلاة والسلام: ذلك ظنِّي به ألا يطوف بالكعبة حتى نطوف ولو مكث سنة ما طاف بها حتى أطوف.

وقريش حَبَسَت سيدنا عثمان ثلاثة أيام، فبلغ النبي الكريم أن عثمان قد قُتِل وقُتِل معه العشرة الذين رافقوه، فقال النبي الكريم عند بلوغه ذلك: لا نبرح حتى نُناجز القوم. ما دام أول رسول كادوا أن يقتلوه، وعقروا الناقة، والثاني قتلوه مع أصحابه العشرة، الآن: لا نبرح هذا المكان حتى نناجز القوم، وكانت بيعة الرضوان.

مبايعة الصحابة الكرام النبي عليه الصلاة و السلام على الفتح أو الشهادة :

قال سلمة بن الأكوع: بينما نحن جلوسٌ عند رسول الله قائلون إذ نادى منادي رسول الله وهو عمر بن الخطَّاب: أيها الناس البيعة البيعة، فسِرنا إلى النبي الكريم وهو تحت الشجرة فبايعناه- في الطريق القديم

بين مكة والمدينة في المنتصف يوجد مسجد البيعة- وبايعه الناس على عدم الفِرار، وأنه إما الفتح وإما الشهادة، ولم يتخلّف منا أحدٌ إلا الجِدَّ بن قيس، قال ابن الأكوع: لكأني أنظر إليه لاصقاً بإبط ناقته يستتر بها، وكان من المنافقين فما بايع، وكان سيد بني سلمة في الجاهلية، ولما سألهم النبي من سيِّدكم؟ قالوا: الجد بن قيس على بخلٍ فيه، فقال النبي الكريم: وأي داءٍ أَدْوَأ من البخل؟ هذا أكبر داء في الإنسان، فكيف هو سيدكم؟ بل سيدكم عمرو بن الجموح.

الصحابة الكرام بايعوا واحداً واحداً، تخلّف هذا المنافق، والنبي الكريم بايع عن عثمان، وضع يده على يده وقال: هذه عن عثمان.." اللهمَّ هذه عن عثمان فإنه في حاجتك وحاجة رسولك فأنا أبايع عنه ".

فإذا كان الإنسان في حاجة الله ورسوله، في خدمة الخلق وإكرامهم، في الإحسان إليهم، في الدعوة إليه، فإن هذا عملٌ عظيم، قال: اللهمَّ هذه عن عثمان فإنه في حاجتك وحاجة رسولك فأنا أبايع عنه، فضرب بيمينه على شماله، وهذا يَدُلُّ على علم رسول الله بعدم نبأ مقتل عثمان، لكن كانت هذه البيعة شحذاً لهمة الصحابة، ورفعاً لمعنوياتهم، وتزاحم الصحابة على بيعة رسول الله، وبدأ البيعة أحد الصحابة وقال: إني أبايعك على ما في نفسك، هكذا قال الصحابي وهو سنان بن أبي سنان الأسدي، فقال النبي: وما في نفسي؟ أي كيف عرفت ما في نفسي؟ قال: أضرب بسيفي بين يديك حتى يُظهرك الله أو أُقتل، فصار الناس يقولون لرسول الله نبايعك على بيعة سِنان، واحد واحد، واحدهم بايع ثلاث مرَّات من شدة تعلقه برسول الله، كان أُبَيٍّ بن سلول كبير المنافقين معهم، فجاء ابنه عبد الله وهو من الصحابة الكرام، وهو أدرى بنفاق أبيه وقال: يا أبت أذكّرك الله ألا تفضحنا في هذا الموقف، تطوف ولم يطف رسول الله، قم فبايع النبي.

أيها الأخوة... هذه البيعة رضي الله عنهم بها جميعاً، والآية الكريمة:

(لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا (18))

[سورة الفتح]

إن شاء الله في درسٍ قادم نتابع هذا الصلح الذي سمَّاه القرآن الكريم:

(إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا (1))

[سورة الفتح]

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الفتح 048 - الدرس (3-8): صلح الحديبية 2/3
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1995-02-17

بسم الله الرحمن الرحيم

مع الدرس الثالث من سورة الفتح.

ضعف قريش و استعطاف النبي عليه الصلاة و السلام في الصلح :

كان محمد بن سلمة رضي الله عنه على حرس رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحديبية، بعثت قريشٌ أربعين أو خمسين رجلاً عليهم مِكْرَز بن حفص- قائد هذه الحملة الصغيرة- وقال عليه الصلاة والسلام في حقّ مِكرز: " هذا رجلٌ غادرٌ فاجر ".. لقد أرسلت قريشٌ هذه الكتيبة ليطوفوا بعسكر رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلاً رجاء أن يصيبوا منهم أحداً، وكانت قريش قد حَجَزَت سيدنا عثمان بن عفان وعشرةً من أصحاب رسول الله معه في مكة، وحجز هؤلاء الصحابة كان سَبَبَ بيعة الرضوان، جاءت قريش مرة ثانية لتأخذ مزيداً من الأسرى، فالنبي عليه الصلاة والسلام نَبَّه أصحابه.

فما كان من محمد بن سلمة هذا الصحابي الجليل الشجاع إلا أن أخذ كل هؤلاء أسرى، إلا مِكْرَز فقد أفلت، وصدق عليه الصلاة والسلام حينما قال عنه: " إنه رجلٌ فاجرٌ غادر "، وأوتي بهؤلاء الأسرى إلى النبي عليه الصلاة والسلام، فَحُبِسوا، وبلغ قريشٌ أسر أصحابها، فجاء جمعٌ منها رموا المسلمين بالنَبْل والحجارة، فقتل من المسلمين ابن زنيم رمياً بسهمٍ، فأسر المسلمون منهم اثني عشر رجلاً، المسلمون أسروا جماعة ثانية، أول جماعة خمسين، والثانية اثني عشر، وعند ذلك بعثت قريشٌ إلى النبي صلى الله عليه وسلم جمعاً على رأسهم سُهَيل بن عمرو، وقالت: ائت محمداً وصالحه، أول جماعة أسرى، والثانية أسرى، بيعة الرضوان، مجيء النبي وأصحابه مهللين مكبِّرين، آمِّين البيت، معهم الهدي لا يريدون حرباً، مقالة قالها الرسل الثلاثة الذين أرسلتهم قريش إلى النبي، كل هذه العوامل اجتمعت وحَمَلَت قريش على طلب الصُلح، إذاً ضَعُفَت قريش، وبدأت تستعطف، وبدأت تريد الصلح، يقول الله عزَّ وجل:

(وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (22) سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا (23) وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا (24))

[سورة الفتح]

النبي عليه الصلاة والسلام رحيمٌ بالخلق عامة حتى الكُفَّار :

إذاً هذا الصلح من فعل الله مباشرةً، كف أيدي قريش عن النبي وأصحابه، وكف أيدي النبي وأصحابه عن قريش، لحكمةٍ أرادها الله سوف نراها بعد قليل، فما مغزى هذه القصة إلا أن نوقن أن الأمر كله بيد الله، وأن الله سبحانه وتعالى بيده الخير في كل الأحوال، وأن الشيء الذي يُزْعِجنا ونكرهه ربما كان خيراً لنا.

النبي عليه الصلاة والسلام لما رأى سهيل بن عمرو رئيساً للوفد عرف بفطنته كل شيء، قال: "قد سهَّل الله لكم من أمركم، القوم يأتون إليكم بأرحامهم وسائلوكم الصلح، فابعثوا الهَدي، وأظهروا التلبية، لعلّ ذلك يلين قلوبهم".

النبي عليه الصلاة والسلام رحيمٌ بالخلق عامة حتى الكُفَّار، لا يريد قتالهم بقدر ما يريد هدايتهم، وكلما اشتدت الرحمة في قلب الإنسان صارت رحمته تَنْصَبُّ على أعدائه، هو لا يريد إبادتهم، بينما نرى الحروب الحديثة الآن حروب إبادة، حروب منافع، حروب مكاسب، لكن الله سبحانه وتعالى يقول في القرآن الكريم:

(وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً)

[سورة التوبة: آية 36]

(وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (39))

[سورة الأنفال]

إزالة الفتن وإقامة شرع الله هو الهدف الشريف والنبيل من الحروب الإسلامية :

الهدف الشريف والنبيل من الحروب الإسلامية إزالة الفتن، وإقامة شرع الله، الشيء الذي يَلْفِت النظر أن أبا سفيان لم يرد ذكره إطلاقاً في صلح الحديبية، إذ أنه كان غائباً في بعض تجاراته، والأرجح في اليمن لتعطُّل طريق تجارة قريش في الشام- كان أبو سفيان مسافراً إلى اليمن- كل ذلك مقدمة للأحداث الجليلة التي تمخضت منها المفاوضات.

كان من تعليمات قريشٍ إلى رئيس وفدها جليةً واضحة، ائت محمداً وصالحه، ولا يكن في صلحه إلا أن يرجع عامه هذا، فأول شرط أصرَّت عليه قريش أن يرجع محمدٌ عن العمرة في هذا العام، حتى لا تتحدث العرب أنه دخلها عنوةً أبداً، تريد حفاظاً على ماء وجهها، إن قريشاً لا تحتمل أن يأتيها محمدٌ عليه الصلاة والسلام وهي التي أخرجته من مكة أن يأتيها ليعتمر البيت عنوةً وقسراً، فالرؤية واضحة في نفس سهيل بن عمرو وفكره، وهي أوضح في نفس النبي عليه الصلاة والسلام.

الغاية التي سعى سهيل بن عمرو لتحقيقها هي الصلح وإبعاد الحرب :

أقبل سهيلٌ على النبي صلى الله عليه وسلم، فقال عليه الصلاة والسلام: أراد القوم الصلح حينما بعثوا هذا الرجل. وكلكم يعلم أن من صفات الأنبياء الفطانة، والفطن سريع الإدراك، يدرك السطور وما بين السطور وما خلف السطور، يدرك الوقائع وما خلف الوقائع، يدرك البواعث العميقة، فالنبي عليه الصلاة والسلام حينما رأى سهيلاً، قال: أراد القوم الصلح حينما بعثوا هذا الرجل، سهيل بن عمرو، قال: يا محمد إن الذي كان من حبس أصحابك- عثمان والعشرة- وما كان من قتال من قاتلك- مكرز- لم يكن من رأي ذوي رأينا، بل كنا كارهين له حين بلغنا ولم نعلم به، وكان من سفهائنا فابعث إلينا بأصحابنا الذين أسرت أولاً وثانياً. هذا الذي حدث من حجز عثمان وأصحابه ومن كتيبة مكرز، سوء تَصَرُّف ممارسات خاطئة من سفهاء مكة.

وهنا يُلمَسُ في كلام سهيل المدخل اللطيف ففيه لينٌ وتوددٌ حتى وتراجعٌ، وغاية سهيل تحقيق الهدف الذي جاء من أجله ألا وهو الصلح وإبعاد الحرب، يبدو أن قريشاً أيقنت من بيعة الرضوان أن أصحاب النبي كرجلٍ واحد وقفوا معه صفاً واحداً، وبايعوه على الموت، الشيء الثاني ما ذكره الرسل الثلاثة من أخبارٍ طيبة، من أن أصحاب رسول الله ما جاؤوا يبتغون حرباً، والشيء المهم أن أسر الخمسين وأسر الباقين جعلهم يشعرون أنهم فيما لو التحم الفريقان فالنصر للمسلمين، وقد أشارت الآية الكريمة:

(مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا (24))

[سورة الفتح]

أولاً: سهيل أراد إطلاق سراح الأسرى القرشيين، لكن هؤلاء الأسرى كانوا ورقةً رابحة بيد النبي عليه الصلاة والسلام، وأمام مطلب سهيل بن عمرو قال عليه الصلاة والسلام: " غير أني لا أرسلهم حتى ترسلوا أصحابي ". فقال سهيل: نفعل، فبعث إلى قريشٍ بذلك، فبعثوا بمن كان عندهم، عثمان والرجال العشر، فأطلق عليه الصلاة والسلام أسرى قريش ولم يسلبهم- لم يأخذ منهم شيئاً- بل مَنَّ وعفا عنهم وصَفَح، فمن دخل مكة من المسلمين لا يؤسَرْ ولا يحتجز لأنهم وفدٌ مفاوض.

حنكة النبي وانصياعه لأمر الله عزَّ وجل :

الآن سوف ترون معي حنكة النبي، ورحمته، وحكمته، وبُعد نظره، وأدب النبي مع الوحي، وانصياعه لأمر الله عزَّ وجل، وهذا الصلح يكاد يكون أمراً من الله، فيه استسلامٌ لمشيئته، لكن الخير كله كان فيما بعده، قال: جثا سهيلٌ على ركبتيه بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم، والمسلمون حوله جلوس، وتكلَّم وأطال، وكان عَبَّاد بن بشر يقول: اخفض صوتك عند رسول الله. أحياناً الكافر لا يعرف قدر النبي، ولا

يعرف مكانته العظيمة، فيكلمه كلام ندٍ لند، قد يرفع صوته، فقال له عروة: اخفض صوتك عند رسول الله، يقول عليه الصلاة والسلام لسهيل: خلّوا بيننا وبين البيت نطوف به، فقال سهيل: لا والله لا تتحدث العرب بنا أنَّا أخذنا ضغطة ولكن ذلك في العام القابل. النبي عليه الصلاة والسلام امتاز ببعد النظر، ودقة التقدير، ثم أراد سهيلٌ أن يكتب العقد كما يراه ويتصوَّره لا كما يراه النبي فتساهل عليه الصلاة والسلام معه.

أحياناً الإنسان يتساهل بشيء، هذه ملاحظة، أحياناً في الصلح بين الزوجين، الإنسان كبير العقل والنفس والقلب يهمُّه التئام الزوجين، يهمه الأولاد، يخاف من تشريد الأولاد، لذلك المُفاوض في شؤون الصلح بين الزوجين قد يتساهل في بعض الأمور فيُلام على تساهله، هدفه كبير جداً، هدفه عالٍ جداً، هدفه أن يتَّفِق الزوجان، والأمور المادية لا قيمة لها، أما حينما ندقق بالتفاصيل، ونجعل من هذه التفاصيل عقبة كؤوداً، فعندئذٍ لا يعنينا هذا الهدف النبيل، يعنينا الانتصار، والتحدي، وتنفيذ القول، فحينما نرى أن النبي عليه الصلاة والسلام تساهل كثيراً مع سهيل بن عمرو، لا لضعفٍ به، ولا لضعفٍ في أصحابه، ولا ضعفٍ في تأييد قتاله، ولكن النبي عليه الصلاة والسلام أراد هداية قريش، أراد أن يريح أصحابه سنواتٍ طويلة، وأن يلتفت إلى الدعوة إلى الله عزَّ وجل، وأراد أن يُلَيِّن قلب القُرَشيين.

موقف عمر بن الخطاب من العقد بين النبي الكريم و كفار قريش :

سيدنا عمر كما تعلمون كان شديداً، هو عملاق الإسلام، وقد أعزَّ الله به المُسلمين حينما أسلم، هكذا قال النبي عليه الصلاة والسلام، فدائماً يمثِّل الجانب القوي، يمثل الصقور بالتعبير الحديث، حينما رأى أن العقد سيكتب وفق ما يمليه سهيل لا وَفْقَ ما يمليه رسول الله عليه الصلاة والسلام تألم أشد الألم ووثب، فأتى أبا بكر رضي الله عنه وقال: يا أبا بكر أليس هو برسول الله؟ قال أبو بكرٍ: بلى -إذا قلنا: نعم غلط، فبلى تفيد نفي النفي، ونفي النفي إثبات، أما نعم فتفيد إثبات النفي- قال عمر: أو لسنا بالمسلمين؟ قال أبو بكرٍ: بلى، قال عمر: أو ليسوا بالمشركين؟ قال أبو بكرٍ: بلى، قال: فعلامَ نُعْطي الدنيَّة في ديننا؟ يجيبه أبو بكر: يا عمر الزم غرزه.. أي ركابه، كن معه، كن تحت جناحه، لا تعترض فهو رسول الله يوحى إليه، الزم غرزه.. إنه رسول الله، وليس يعصي ربه، معنى ذلك أن الله أمره بذلك، وهو ناصره، استمسك بغرزه حتى تموت، فإني أشهد أنه رسول الله، قال عمر: وأنا أشهد أنه رسول الله، ثم أتى عمر النبي عليه الصلاة والسلام قال له مثل ما قال لأبي بكر، فقال عليه الصلاة والسلام، وفي قوله حل للعقدة قال: " أنا عبد الله ورسوله، ولن أخالف أمره ولن يُضَيِّعَني " فُهم أن تفاصيل الصُلح كانت بوحي من الله عزَّ وجل، رحمةً بعباده كلهم، لأن بمكة أناساً مؤمنين، أخفوا إيمانهم، كتموا إيمانهم، فلو التحم

الصحابة الكرام مع أهل مكة لقتلوا منهم أعداداً كبيرة دون أن يعلموا، فالله سبحانه وتعالى رب العباد كلهم، هذا الجواب الدقيق الدقيق أنا عبد الله ورسوله، ولن أخالف أمره ولن يضيعني.

شروط العقد الذي أبرم بين النبي عليه الصلاة و السلام و سهيل بن عمرو :

ثم دعا النبي عليه الصلاة والسلام علي بن أبي طالب ليكتب فقال: اكتب بسم الله الرحمن الرحيم، فقال سهيل بن عمرو: لا أعرف هذا.. لا أعرف أنه رحمنٌ رحيم.. ولكن اكتب: باسمك اللهم، فكتبها، لأن قريشاً كانت تقولها، فَضَجَّ المسلمون، والنبي حليم هادئ، وهذا هو التعديل الأول لسهيل بن عمرو، النبي أراد تنفيذ أمر الله عزَّ وجل، وأراد أن ينْعُم الناس بالأمن سنواتٍ طويلة، وأراد أن يعطي فرصةً لأهل مكة لعلهم يتوبون إلى الله عزَّ وجل، ثم قال: اكتب: هذا ما صالح عليه محمدٌ رسول الله سهيل بن عمرو، فقال سهيل: لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك، ولم أصُدَّك عن البيت، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك، ولو علمت أنك رسول الله ما خالفتك، ولاتبعتك، فقال النبي عليه الصلاة والسلام بكل ثقة واطمئنان لعلي بن أبي طالب: امْحُه -امح رسول الله- فقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: والله ما أنا بالذي أمحوه، والله لا أمحوك أبداً من الرسالة، فقال عليه الصلاة والسلام: أرينه.. أين رسول الله ؟ كان عليه الصلاة والسلام أمياً.. فأراه إيَّاه فمحاه النبي الكريم بيده الشريفة، وقال: اكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو، وهذا هو التعديل الثاني لسهيل بن عمرو، وقال عندها صلى الله عليه وسلم: أنا والله رسول الله وإن كذَّبتموني، وأنا محمد بن عبد الله. فجعل عليٌ يتلكَّأ ويأبى أن يكتب، فقال عليه الصلاة والسلام: اكتب فإن لك مثلها.

يروي التاريخ أنه لما صار صلحٌ بين علي رضي الله عنه وكان أمير المؤمنين ومعاوية، رفض كاتب الصلح أن يكتب: هذا ما اتفق عليه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب قال له: ولك مثلها، وهذا من دلائل نبوة النبي عليه الصلاة والسلام.

ثم اتفق النبي عليه الصلاة والسلام، وسهيل بن عمرو على أن تضع الحرب أوزارها عشر سنين تأمن فيه الناس، ويكف بعضهم عن بعض، على أنه من أتى محمداً من قريشٍ ممن هو على دين محمدٍ بغير إذن وليِّه رُدَّ إليه ذكراً كان أو أنثى، ومن أتى قريشاً ممن كان مع محمدٍ مرتداً ذكراً كان أو أنثى لن تردَّه قريش، شرط فيه إجحاف بالمسلمين لأنه لا توجد معاملة بالمثل، وشرطوا أنه من أحبَّ من القبائل أن يدخل في عقد محمدٍ وعهده دخل فيه، ومن أحب أن يدخل في عقد قريشٍ وعهدها دخل فيه، وأن بيننا وبينكم هُدنةً.

وقال سهيل: وإنك ترجع عامك هذا فلا تدخل مكة.. والله لو عرف سهيل من يخاطب لذاب كما تذوب الشمعة ولكن لا يعرفه، يعرف أنه إنسانٌ جمع الناس حولَه، واستقلَّ بهم، وحارب قريشاً مرتين، أما لو عرف أنه رسول الله لاختلف الوضع كثيراً، وقال سهيل: وإنك ترجع عامك هذا فلا تدخل مكة، وإنه إذا كان عامٌ قابل خرج منها قريش فتدخلها بأصحابك فتقيم بها ثلاثة أيامٍ، معك سلاح الراكب، السيوف في القرب والقوس لا تدخل بغيرهما، في العام القادم قريش تخرج والنبي عليه الصلاة والسلام وأصحابه يعتمرون ثلاثة أيامٍ وليس معهم من السلاح إلا سلاحاً شخصياً -سيوفٌ في قربها- فكتب عليه الصلاة والسلام في أسفل الكتاب ولنا عليكم مثل الذي لكم علينا.

كُتب الكتاب فأخذه رسول الله ونُسخ مثله لقريش، نسخه محمد بن سلمة رضي الله عنه لسهيل لأن سهيلاً قال: يكون هذا الكتاب عندي، فقال عليه الصلاة والسلام: بل عندي.

وعند كتابة هذا العقد، عَقْد الصلح بين النبي عليه الصلاة والسلام وبين سهيل بن عمرو قال المسلمون: سبحان الله! كيف نرد للمشركين من جاء مسلماً، وعسر عليهم هذا الشرط، وكان مما قال عمر رضي الله عنه: أترضى بهذا يا رسول الله؟ فتبسَّم عليه الصلاة والسلام وقال: نعم إنه من ذهب منا إليهم فأبعده الله عنَّا-لا رده الله- ومن جاءنا منهم فرددناه سيجعل الله له فرجاً ومخرجاً، ومن أعرض عنا وذهب إليهم فلسنا منه في شيءٍ وليس منا بل هو أولى بهم.

قصة أبي جندل مع النبي صلى الله عليه و سلم :

وبينما رسول الله صلى الله عليه وسلم وسهيل بن عمروٍ يكتبان الكتاب بالشروط المذكورة، جاء أبو جندل وهو ابن سهيل بن عمرو، جاء مسلماً، يرسف في القيود، قد أُفلت إلى أن جاء النبي صلى الله عليه وسلم ورمى بنفسه بين أظهر المسلمين، فجعل المسلمون يرحِّبون به ويهنئونه، فلما رأى سهيلٌ ابنه أبا جندل قام إليه فضرب وجهه بغُصنٍ من شجرةٍ بها شوكٌ ضرباً شديداً، حتى رَقَّ عليه المسلمون وبكوا وأخذ سهيل بتلابيب أبي جندل وقال: يا محمد هذا أول ما أقاضيك به- شروط جديدة - وأن ترده إلي، لقد لجَّت القضية بيني وبينك.. أي انتهت، وقعنا وانتهينا، يجب أن تنفذ العقد.. فقال عليه الصلاة والسلام: صَدَقت.

فجعل سهيلٌ يجر ابنه أبا جندل ليرده إلى قريش، وجعل أبو جندل يصرخ بأعلى صوته: يا معشر المسلمين أرد إلى المشركين يفتنونني عن ديني، ألا ترون ما لاقيت؟ فزاد ذلك الناس إلى ما بهم فإنهم كانوا لا يشكّون في دخولهم مكة وطوافهم بالبيت لأن الله عزَّ وجل قال:

(لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ)

[سورة الفتح: آية 27]

النبي قصَّ عليهم رؤياه، أيقنوا جميعاً أنهم داخلون مكة، الآن لا توجد مكة، ولا يوجد عمرة، وسوف يعودون إلى مكة، وهذا الذي جاء مسلماً عليهم أن يردوه، تألَّم السلمون أشد الألم ودخل عليهم همٌّ عظيم، رُد أبو جندل إلى قريش بعد أن ضربه أبوه ضرباً مبرحاً، فقال عليه الصلاة والسلام لأبي جندل: " اصبر واحتسب فإن الله جاعلٌ لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً، إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صُلحاً، وأعطيناهم على ذلك وأعطونا عهد الله ألا نغدر بهم "-أي هكذا الشرط- ومما قاله صلى الله عليه وسلم لسهيل: إنا لم نقض الكتاب بعد، فقال سهيل: بلى، لقد لَجَّت القضية بيني وبينك، فقال عليه الصلاة والسلام: أجره لي- اسمح لي بهذا الشخص- فقال: ما أنا مجيرٌ لك بذلك، فقال: بلى فافعل، فقال: ما أنا بفاعل، فقال مِكْرَز وحوَيْطِب: قد أجرناه لك، وقالا لسهيل: لا تعذبه، وقال حويْطِب لمكرز: ما رأيت قوماً أشدَّ حباً لمن دخل معهم من أصحاب محمد.. هذا منا.

ولما فرغ النبي عليه الصلاة والسلام من الصلح أشهد عليه رجالاً من المسلمين، هم: أبو بكرٍ، وعمر، وعثمان، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقَّاص، وأبو عبيدة بن الجراح، ومحمد بن سلمة، ورجال من قريش، حويطب ومكرز، وقام إلى هديه صلى الله عليه وسلم وفيه جملٌ لأبي جهل، كان نجيباً في رأسه حلقةٌ من فِضَّة غنمه صلى الله عليه وسلم يوم بدر، ونفر هذا الجمل ودخل مكة وانتهى إلى دار أبي سفيان، وخرج في أثره عمرو بن غنمة الأنصاري، فأبى سفهاء مكة أن يردّوه.. لم يدخل الجمل في العقد.. حتى أمرهم سهيل بن عمرو بشرائه، فدفعوا فيه عدة ثياب، فقال عليه الصلاة والسلام: لولا أنا سميَّناه في الهدي فعلنا. وبأمرٍ من سهيل بن عمرو عرضوا مئة من الإبل مكانه، قال سهيل: فإن قبلها فامسكوا هذا الجمل، وإلا فلا تتعرضوا له، فأبى عليه الصلاة والسلام وقال: لو لم يكن هذا الجمل للهدي لقبلت المئة.

المشاورة من السُنَّة :

الآن بقي في هذا الصلح شيءٌ دقيق، لما فرغ النبي عليه الصلاة والسلام من كتابة الصلح أمر المسلمين بالنحر والحلق وذلك ثلاث مرات، يبدو أن الصحابة الكرام تألَّموا أشد الألم من هذه البنود، ورأوا فيها إحباطاً لطموحهم بدخول مكة والطواف حول البيت، فتلكؤوا في تنفيذ هذا الأمر قليلاً، النبي عليه الصلاة والسلام دخل على أم سلمة وهو شديد الغضب فاضطجع، فقالت: مالك يا رسول الله؟ قالت ذلك مراراً وهو لا يجيبها، ثم ذكر لها ما لقي من الناس وقال: هلك المسلمون، أمرتهم أن ينحروا ويحلقوا فلم يفعلوا، وفي روايةٍ: عجباً يا أم سلمة ألا ترين إلى الناس آمرهم بالأمر فلا يفعلونه؟ فقالت له: يا رسول الله لا تلمهم، فإنهم قد دخلهم أمرٌ عظيم مما أدخلت على نفسك من المشقَّة في أمر الصلح،

رجوعهم بغير فتح، وأشارت رضي الله عنها أن يخرج ولا يكلِّم أحداً منهم وينحر بُدنة ويحلق رأسه، وهذا يدل على فضل أم سلمة ووافر عقلها، لكن النبي عليه الصلاة والسلام حينما استشارها وعرض عليها الأمر أراد أن يكون قدوةً لنا في أن نستشير من حولنا، لأن النبي صلى الله عليه وسلم أمره الله جلَّ جلاله بنصِّ القرآن الكريم، قال تعالى:

(وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ)

[سورة آل عمران: آية 159]

وقال:

(وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ)

[سورة الشورى: آية 38]

وقال الله عزَّ وجل:

(وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ)

[سورة الطلاق: آية 6]

إذاً المشاورة من السُنَّة، وها هي أم سلمة تشير على النبي صلى الله عليه وسلم وقد وقف منها الموقف المشرِّع، فهو حينما استشارها شرع لنا ذلك.

تسمية الصلح مع قريش بالفتح المبين :

وخرج النبي عليه الصلاة والسلام فأخذ حربةً وقصد هديه، وأهوى بالحربة إلى البُدن رافعاً صوته: بسم الله أكبر، ثم دعا خُراش بن أمية الخُزاعي، فحلق رأسه الشريف ورمى شعره على شجرة، فأخذه الناس فلما رأى أصحابه ذلك قاموا فنحروا وحلقوا وقصَّر بعضهم، فدعا عليه الصلاة والسلام للمحلّقين ثلاثاً قال:

" رحم الله المحلقين، فقالوا: والمقصرين؟ قال: رحم الله المحلقين، فقالوا: والمقصرين؟ قال: رحم الله المحلقين، فقالوا: والمقصرين، قال: والمقصرين ".

عندئذٍ أقام المسافرين في الحديبية بضعة عشر يوماً، وقيل: أقاموا عشرين يوماً، ثم انصرفوا إلى المدينة، وكان عمر بن الخطاب يسير مع رسول الله ليلاً فسأله عمر عن شيءٍ، فلم يجبه النبي، ثم سأله فلم يجبه، ثم سأله فلم يجبه، فقال عمر يخاطب نفسه: ثكلتك أمك يا عمر، سألت رسول الله ثلاث مراتٍ فلم يجبني، فقال عمر: وحركت بعيري ثم تقدَّمت أمام المسلمين، وخشيت أن ينزِّل فيَّ قرآن- شعر أنه ارتكب ذنباً عظيماً حينما وقف هذا الموقف المُعارض- فما لبثت أن سمعت صارخاً يصرُخ بي قال:

فقلت: لقد خشيت أن يكون قد نزل في قرآن فجئت رسول الله صلى الله عليه وسلم فسلمت عليه فقال: لقد أنزلت علي الليلة سورةٌ لهي أحب إلي مما طلعت عليه الشمس- نزلت في الطريق - ثم قرأ:

(إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا (1))

[سورة الفتح]

الله عزَّ وجل سَمَّى هذا الصلح: فتحاً مبيناً.

بنود الصلح ليست في صالح المسلمين فيها تنازلات كثيرة و لكنه أمر من الله :

على أن الصحابة تضايقوا وتألَّموا و أحبطوا، وشعر أحدهم أنه لم يعتمر، ولم يطف بالبيت، وعاد خائباً، وأن الصلح بنوده ليست في صالح المسلمين، فيها تنازلات كثيرة جداً، ولكن النبي قال: أنا عبد الله ورسوله، أفعل ما يأمرني الله به. ثم جاء قوله تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (10))

[سورة الفتح]

ثم يقول الله عزَّ وجل في الطريق إلى المدينة بعد صلح الحديبية:

(لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا (18))

[سورة الفتح]

الحكمة من الصلح :

ثم يقول الله عزَّ وجل:

(وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا (24))

[سورة الفتح]

(وَهُوَ الَّذِي)

فلا تتألَّموا، الله منع النبي أن يقاتلهم..

(بِبَطْنِ مَكَّةَ)

أي في الحديبية..

(وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا (24) هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ)

[سورة الفتح]

الهدي كان معكم، وأنتم أردتم بيت الله الحرام، صدّوكم عن المسجد الحرام.. وانظر إلى الحكمة:

(وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا)

[: آية 25 سورة الفتح]

لو أن المؤمنين في مكة الذين لا تعرفونهم لو تزيَّلوا:

(لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (25))

[سورة الفتح]

لكن هؤلاء المؤمنين مع الكفار بينهم، لو حاربتموهم لقتلتموهم وهم مؤمنون..

(إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ)

[سورة الفتح: آية 26]

عدم فهم سورة الفتح إلا بقراءة أسباب النزول :

النبي كان هادئاً جداً، شرط مهين لا يوجد مانع، تنازل، محو اسمه من الرسالة لا يوجد مانع، من جاء مسلماً يرد، من جاء مرتداً لا يرد، كل هذه الشروط لم يفهمها الصحابة:

(إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (26) لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا (27) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا (28))

[سورة الفتح]

أرأيتم إلى أن هذه الآيات يَصْعُب تفسيرها دون أن نعلم القصة على حقيقتها، هناك آيات لا تفهم إلا بأسباب النزول، سورة الفتح بأكملها وبعضاً من سورة محمد عليه الصلاة والسلام لا نفهمها إلا إذا قرأنا أسباب النزول.

صلح الحديبية من أعظم الفتوح :

ولما نزلت هذه السورة على النبي صلى الله عليه وسلم، قال جبريل للنبي عليه الصلاة والسلام: نُهَنِّئُك يا رسول الله، وهنَّأه المسلمون، وتكلم بعض الصحابة وقالوا: ما هذا بفتح لقد صددنا عن البيت؟! فقال عليه الصلاة والسلام لمَّا بلغه ذلك: " بئس الكلام، بل هو أعظم الفتح، لقد رضي المشركون أن يدفعوكم بالرواح عن بلادهم، ويسألونكم القضيَّة، ويربحوا إليكم في الأمان، لقد رأوا منكم ما كرهوا وأظفركم الله عليهم، ورَدَّكم الله تعالى سالمين مأجورين، فهذا أعظم الفتح ". الآن النبي حل الموضوع: لأن قريشاً أصبحت نداً لكم، طلبوا منكم الصلح، وهادنوكم، وخضعوا لكم، ولانوا لكم، وعُدُّتم سالمين غانمين، ثم قال النبي: أنسيتم يوم أحد؟

(إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ)

[سورة آل عمران: آية 153]

أنسيتم يوم الأحزاب؟

(إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا (10))

[سورة الأحزاب]

أنسيتم ذلك؟ فقال المسلمون: صدق الله ورسوله، فهو أعظم الفتوح، والله يا نبي الله ما فكرنا فيما فكَّرت فيه، ولأنت أعلم بالله وبأمره منا، هذا هو الملخص، عندئذٍ الصحابة استسلموا، ما فكرنا فيما فكرت فيه، ولأنت أعلم بالله وبأمره منا.

الله سبحانه وتعالى ناصر دينه وناصر المؤمنين و لو بعد حين :

هناك رواية في ختام الدرس، لما صُدوا قال سيدنا عمر: أين الرؤيا يا رسول الله؟ أي كيف نفسِّر الرؤيا إذاً؟ وهذا يمثل منتهى الجرأة والحرية الفكرية، فأنزل الله عزَّ وجل:

(لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آَمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا (27))

[سورة الفتح]

سيدنا عمر قال: يا رسول الله ألم تقل إنك تدخل مكة آمناً؟ سأله سؤالاً، فأجابه النبي: بلى، أفقلت لكم من عامي هذا؟ من قال لك إنني سأدخلها في هذا العام؟ هناك نقطة ضعف في السؤال، فقال عمر ومن حوله: لا، فقال عليه الصلاة والسلام كما قال جبريل: فإنكم تأتونه وتطوفون به.

على كلٍّ حال هذا درس بليغ، أحياناً يكون الوحي هو الذي يأمر وينهى، وملخص الموضوع كله:

(وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (216))

[سورة البقرة]

قد يقول أحدكم: لماذا الإسلام مُحارب في العالم كله؟ والله الذي أراه أن الخير في النهاية للمسلمين، وأن هذا الدين سوف يظهره الله على الدين كله، وأن الإسلام يكسبُ أضعاف ما يخسر الآن، ألا ترى إلى أن الإسلام أصبح القضية الأولى في العالم؟ ألا ترى أن العالم كله فرز فريقين؟ مسلم وغير مسلم، فالذي نقيسه على هذا الصلح أن الله عزَّ وجل لا يتخلى عن دينه، وله حكمةٌ قد نعرفها وقد لا نعرفها، ينبغي أن نستسلم، والله سبحانه وتعالى ناصر دينه وناصر المؤمنين.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الفتح 048 - الدرس (4-8): صلح الحديبية 3/3
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1995-02-24

بسم الله الرحمن الرحيم

مع الدرس الرابع من دروس تفسير سورة الفتح.

تعلق إرادة الله عز وجل بالحكمة المطلقة :

أيها الأخوة الكرام: إن المسلمين أحياناً تؤلمهم أحداثٌ معيّنة وقد يكون الخير فيها، وقد لا ينجلي خيرها إلا بعد حين، فلعل صُلْحَ الحديبية الذي أَمَضَّ المسلمين وآلمهم أشدّ الألم وقتها، ثم تكشَّفت الخيرات والبركات التي أتت منه بشكلٍ غير متوقع، فلعل في هذا درساً مستمراً للمسلمين..

(وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (216))

[سورة البقرة: آية 216]

هذا ينطبق على مجموع المسلمين، وينطبق على أفراد المسلمين، أنت مسلم مؤمن أنه ما من شيءٍ وقع إلا أراده الله، وما من شيءٍ أراده الله إلا وقع، وأن إرادة الله عزَّ وجل متعلقة بالحكمة المُطلقة، وأن حكمته المطلقة متعلقةٌ بالخير المطلق، هذه الفكرة تُلقي على قلبك برداً وسلاماً، تتحرَّك وتسعى دون أن تحقد، دون أن تُسحَق، دون أن تتألَّم، السعي مطلوب ولكنَّك مستسلمٌ لمشيئة الله.

صلح الحديبية نتجت عنه خيراتٌ لا يعلمها إلا الله، مع أن بنوده فيما يبدو كانت مهينةً، فكانت هناك تنازلات وكان المسلمون في أوج قوتهم متحمِّسون أعزَّة.

التفكير في شيءٍ أوحى الله به دليل على عدم اليقين من حكمة الله :

النبي عليه الصلاة والسلام كان ينفِّذ وحيّ الله من السماء، لذلك أنت عقلك يتحرَّك ويدرس، ويُحلِّل ويوازن، ويقيم ويقلِّد، ويبحث ويدرس فيما لا وحي فيه من السماء، أما إذا كان هناك وحي من السماء فانتهى كل شيء، لأن الله عزَّ وجل حكمته مطلقة، وعدله مطلق، ورحمته مطلقة، لا تسْمَح لنفسك أن تفكِّر في شيءٍ أوحى الله به، لأن التفكير به دليل على عدم اليقين من حكمة الله.

لنستمع الآن إلى ما قاله الإمام النووي رحمه الله تعالى قال: " إن المصلحة المترتبة على هذا الصلح هي ما ظهر من ثمراته الباهرة، وفوائده المتظاهرة التي علمها رسول الله وخَفِيَت عليهم، فحمله ذلك على موافقتهم، ذلك أنهم قبل الصلح لم يكونوا يختلطون بالمسلمين، ولا تظهر عندهم أمور رسول الله

صلى الله عليه وسلّم كما هي، ولا يجتمعون بمن يُعلّمهم بها مفصّلةً، فلّما حصل الصُلْحُ اختلط المسلمون بأهل مكّة، صار السفر مباحاً، كفّار مكة جاؤوا إلى المدينة والمسلمون زاروا أقرباءهم، هذا الاختلاط عرّف أهل مكة بالإسلام، وعرّفهم بالنبي، بدلائل نبوّته، بكمالاته، كل الخير كان في هذا الصلح، لأن المسلمين التفتوا إلى الدعوة وإلى نشرها، وإلى توضيحها، اطمأنوا لأن الدماء حُقِنت، في قلوبهم طمأنينة، وفي تصرفاتهم أمان.

ثم إن أعداداً كبيرةً جداً أسلمت في عهد هذا الصلح في سنتين وهي أعداد تفوق الأعداد التي دخلت في الإسلام منذ ظهوره، وهذه ثمرة من ثمار الصلح الكبيرة..

كلامٌ طويل قاله الإمام النووي وفيه تحليلٌ دقيقٌ جداً لنتائج هذا الصلح، لكن الملخَّص أن المسلمين انتقلوا من طور الحرب إلى طور السلم، من طور تجميع الجهود للدفاع عن كيان هذا الدين وأهله، إلى تجميع الجهود لنشر هذا الدين.. كان موضوعاً دفاعياً فصار موضوعاً دَعَوياً.. كانت قريش لا تعترف بالمسلمين، لا تعترف بوجودهم، وإنما تريد أن تستأصلهم، أصبح المسلمون أنداداً لقريش، اعترفوا بهم كقوةٍ مستقلّةٍ وصالحتهم..

ومع ذلك سيدنا عمر حينما اعترض على النبي صلى الله عليه وسلّم فقال: يا رسول الله علام نعطي الدنية في ديننا؟ قال عمر: وما زلت أصوم وأتصدق وأصلي وأعتق مخافة كلامي الذي تكلّمت به، حينما رجوت أن يكون هذا خيراً. فهذا الذي عمله عمر بعد موقفه من صيامٍ وتصدّقٍ وصلاةٍ وعتقٍ مخافة كلامه في الحديبية، إنما عمله لتأخره في قبوله توجيه النبي عليه الصلاة والسلام، سيدنا عمر كان في أعلى درجات الورع، لذلك كل ما فعله كان تكفيراً لموقفه من النبي عليه الصلاة والسلام حينما رأى في بنود الصلح مهانةً للمسلمين .

عمل النبي الكريم بعد الصلح :

الآن: ماذا فعل النبي بعد الصلح؟ بعث النبي صلى الله عليه وسلّم إلى مكة من الحديبية بعشرين بدنةً مع ناجية بن جندل الأسلمي حيث نحرها بالمروة، وقسَّم لحمها على فقراء مكّة ففتح بذلك باب المودّة، وكسب شعور فقراء المكيّين بهديته المرسلة إليهم، وهذا من مزايا الصلح، فقبل الصلح كانت مكة محرمة على المسلمين، والآن زيارات متبادلة، استمال قلوب الفقراء إليه.

الحكمة من قطع الشجرة التي بايع المسلمون النبي تحتها :

و في خلافة عمر راح الناس يعظّمون هذه الشجرة التي بايع الصحابة النبي تحتها، والله عزَّ وجل قال:

(لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ)

[سورة الفتح: آية18]

حفاظاً على التوحيد قطْعَ الشجرة، حتى لا يقدّسوا غير الله، وفعلها سيدنا عمر مرة أخرى لما رأى خالد بن الوليد ينتصر في كل معاركه التي خاضها، توهَّم الناس أن الناصر هو خالد فعزله سيدنا عمر، واستمر النصر، لماذا عزله؟ قال له: لمَ عزلتني؟ قال له: والله إني أحبك يا أبا سليمان، قال له: ولمَ عزلتني؟ قال له: والله إني أحبك، قال له: لمَ عزلتني؟ قال: والله يا أبا سليمان ما عزلتك إلا مخافة أن يُفتتن الناس بك لكثرة ما أبْليت في سبيل الله.. إنقاذاً للتوحيد.. فسيدنا عمر إنقاذاً للتوحيد عزل سيدنا خالد، وإنقاذاً للتوحيد قطع الشجرة..

(أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ)

[سورة فصلت: آية 14]

قصة أبي بصير مع قريش و النبي الكريم :

جاء إلى النبي عليه الصلاة والسلام وهو بالمدينة أبو بصير وكان ممن حُبسَ بمكة، وكتب في ردّه- طبعاً عندما هرب وجاء إلى المدينة والصُلح قائم، وأول بنود الصلح أن يرد النبي إلى مكة من جاء مسلماً- فهذا أبو بصير جاء النبي مسلماً فكتب في ردّه زاهر بن عوف والأخنس بن شُريق كتبا كتاباً إلى النبي أنه قد جاءك فلانٌ- أبو بصير- مسلماً فردّه إلينا وفق بنود الصلح، وبعثا به رجلاً من بني عامر، بعثوا رجلين ليتسلما هذا الذي فرَّ إلى النبي تنفيذاً لبنود الصلح، فقدِما على النبي صلى الله عليه وسلم بالكتاب، فقرأه أُبَيٍّ بن كعب رضي الله عنه على النبي فإذا فيه: قد عرفت ما شرطناك عليه من رد من قدِم عليك من أصحابنا فابعث إلينا بصاحبنا.

فقال عليه الصلاة والسلام: " يا أبا بصير إنا قد أعطينا هؤلاء القوم ما علمت، ولا يصلح لنا في ديننا الغَدْر، وإن الله جاعلٌ لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً فانطلق إلى قومك " قال: يا رسول الله أتردني إلى المشركين يفتنوني عن ديني؟ موقف يقطّع نياط القلب، لكن الصلح يقضي بأن ترد من جاءك منهم.. فقال عليه الصلاة والسلام: يا أبا بصير انطلق فإن الله سيجعل لك ولمن حولك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً. فانطلق معهم وسلَّمه لهم حسب الصلح، المسلمون ضجَّوا وصاروا يقولون: الرجل يكون خيراً من ألف رجل.. يغرونه بالذين معه..

حتى إذا كانوا بذي الحليفة جلس أبو بصير إلى جدار ومعه صاحباه، فسلَّ أحد الرجلين سيفه ثم هزَّه وقال: لأضربنّ بسيفي هذا في الأوس والخزرج يوماً إلى الليل، فقال له أبو بصير: أو صارمٌ سيفك هذا يا أخا بني عامر؟ قال: نعم انظر إليه إن شئت، قال: ناولنيه، قال: انظر إليه، فناوله فلما قبض عليه قتله

به، ثم تناوله بفيه وصاحبه نائم فقطع أساره.. لأنه مقيّد.. قطع أساره بفيه، فطلب المولى، فخرج المولى سريعاً حتى أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو جالسٌ في المسجد، فلما رآه رسول الله والحصى من تحت قدميه.. من شدة الخوف.. وأبو بصير في أثره حتى أزعجه، قال عليه الصلاة والسلام: هذا الرجل قد رأى فزعاً، قد رأى هذا ذعراً. فلما انتهى إلى النبي عليه الصلاة والسلام وهو جالسٌ في المسجد قال له: ويحك مالك؟ قال: قتل صاحبكم صاحبي- قتل صاحبكم أي أبو بصير صاحبي من بني عامر- وأُفلِت منه ولم أكد وإني لمقتول، واستغاث برسول الله صلى الله عليه وسلم، فأمّنه النبي صلى الله عليه وسلم، فإذا أبو بصير بباب المسجد ودخل متوشّحاً السيف وقال: يا رسول الله وفَّت ذمَّتك- أنت وفيت بعهدك واتركني أنا لكي أتصرَّف- وفَّت ذمتك وأدى الله عنك أسلمتني بيد القوم وقد امتنعت بديني أن أُفتن فيه ويُفتَن بي، فقال له النبي الكريم: اذهب حيث شئت- ارجع- فقال أبو بصير: يا رسول الله هذا سَلَب العامري فخمِّسه؟ فقال عليه الصلاة والسلام: إذا خمَّسته رأوني لم أوف لهم بالذي عاهدتهم عليه، ولكن شأنك بسلب صاحبك- اذهب عنا-

موقف قريش من أبي بصير :

ثم خرج أبو بصير حتى نزل العيسى من ناحية ذي المروة على ساحل البحر بطريق عير قريش وتجارتها التي كانوا يمرّون عليها إلى الشام، واجتمع إليه جمعُ من المسلمين الذين كانوا احتبسوا بمكة، أي إنهم بلغهم خبره رضي الله عنه، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في حقّه، ماذا قال النبي في حقّه؟ قال: وايَمْ أمّه مسعِر حربٍ لو كان معه رجال- أي رجل شديد جدا- مُسعِر حربٍ لو كان معه رجال- أي لو كان معه رجال يتسللون إليه- وفطِن أبو بصير من لحن هذا القول أن الله سَيَرُدُّه وأنه جاعلٌ له فرجاً ومخرجاً، وانفلت أبو جندل بن سهيل بن عمرو- لحق به- وخرج من مكة في سبعين فارساً أسلموا- هذا كلّه أثناء الصلح- فلحقوا بأبي بصير وكرهوا أن يقدموا على النبي في تلك المُدَّة التي هي زمن صلح وهُدنة- لكي لا يحرجوه- خوفاً أن يردهم إلى أهلهم، فلم يزل أصحابه يكثرون حتى بلغوا ثلاثمئة- ثلاثمائة يقعدون على طريق القوافل- وكان أبو بصير كثيراً ما يقول وهو بسيف البحر: الله العليّ الأكبر، من ينصر الله فسوف يُنصَر.

عندئذٍ اضطرت قريش أن تُرسل أمام هذا الواقع- واقع خطير لأن حياتها في تجارتها، وتجارتها مقطوعة بسبب أبي بصير وثلاثمئة فارس حوله على طريق القوافل- فأرسلت إلى النبي صلى الله عليه وسلّم: إنَّا أسقطنا هذا الشرط من الشروط فمن جاءك منهم إليك فأمسكه من غير حرج- اقبله- انظر النبي نفَّذ الوعد، ومن أتاه فهو آمن، فإنا أسقطنا هذا الشرط، فإن هؤلاء الركَّب قد فتحوا علينا باباً لا

يصلح إقراره. الآن استنجدوا بالنبي أن هذا الشرط الغه لنا، من جاءك مسلماً اقبله ولا حرج عليك، نحن أسقطناه من المعاهدة، شيء جميل..

فكتب النبي عليه الصلاة والسلام إلى أبي جندل وأبي بصير أن أقدما عليّ ومن معكم من المسلمين يلحقون ببلادهم وأهليهم وألا يتعرَّضوا لأحدٍ مرَّ بهم من قريش ولا لعيرهم، فقدِم كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلَّم وأبو بصيرٍ يُحتَضر، فمات رضي الله عنه وكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلَّم في يده يقرأ به ويبكي من الفرح.. لكن الله عزَّ وجل كتب له الشهادة.. فدفنه أبو جندل مكانه، وقدِم أبو جندل على النبي صلى الله عليه وسلَّم مع ناسٍ من أصحابه، ورجع باقيهم إلى أهلِهم، وأمَّنت قريش على عيرها وتجارتها، وعلِم الصحابة الذين عَسِرَ عليهم رد أبي جندل إلى قريش مع أبيه سهيل بُعْد نظر النبي الذي أصبح واضحاً وضوح الشمس.

النبي الكريم تلقَّى وحياً من الله ومع الوحي لا يوجد تفكير :

اسمعوا الآن ماذا قال سيدنا الصديق في هذا الصلح؟ يقول رضي الله عنه: ما كان فتحٌ في الإسلام أعظم من فتح الحديبية عندما قال الله عز وجل:

(إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا (1))

[سورة الفتح]

صلح الحديبية، ولكن الناس قصُر رأيهم عما كان بين محمدٍ وربه، فالمشكلة كلَّها أن الصحابة ظنَّوا أنه اجتهادٌ من رسول الله، مع أن النبي صلى الله عليه وسلم تلقَّى وحياً من الله، ومع الوحي لا يوجد تفكير.

تذكرون عندما الحباب بن منذر رأى الموقع الذي جلس فيه صحابة رسول الله في معركة بدر، قال له: يا رسول الله أهذا الموقع وحيٌ أم رأيٌّ؟ قال: بل هو رأيٌّ، قال: ليس بموقع.. انظر إلى دقة الصحابي، أول شيء سأل: وحيٌّ أم رأيٌّ؟ إذا كان وحياً لن يتفوه بكلمة وإذا كان الرأي والمشورة فموقع خطأ، هذه قاعدة.. الالتباس بالحديبية أن الله سبحانه وتعالى أوحى إلى النبي أن افعل كذا وكذا، وتساهل في كذا وكذا، فالنبي وقف عند أمر الله عزَّ وجل، كان الصديق قريباً من رسول الله لذا قال لعمر رضي الله عنه: الزم غرزه إني صدقته، سيدنا عمر لم يدرك هذه الناحية فكان في حيرةٍ من أمره.

يقول سيدنا الصديق: ولكن الناس قصُر رأيهم عما كان بين محمدٍ وربِّه والعباد يعجلون، والله لا يعجل لعجلة العباد حتى تبلغ الأمور ما أراد.

الله عزَّ وجل ناظر إلى أعداد كبيرة جداً من قريش مؤمنة لكنها تُخفي إيمانها خوفاً من قريش، فلمَّا كان الصُلحُ أعلنت إسلامها وبقيت في مكانها، فلما عرفوا أن أبا بصير في طريق قريش انضم إليه ثلاثمئة.

موقف سهيل بن عمرو رئيس الوفد المُفاوض من النبي الكريم بعد إسلامه

سهيل بن عمرو رئيس الوفد المُفاوض، عندما كتب النبي الكريم: بسم الله الرحمن الرحيم فإنه رفض، وقال: لا نعرف هذا، نحن نعرف باسمك اللهمَّ.. عندما كتب هذا ما اتفق عليه محمدٌ رسول الله فقال له: امح رسول الله لو آمنا بك ما قاتلناك، هذا الإنسان نفسه، كان يعترض على مقولة النبي والنبي تساهل معه، سهيل بن عمرو نفسه بعد أن أسلم يقول سيدنا الصديق: لقد رأيت سهيل بن عمرو في حجة الوداع قائماً عند المَنْحَر يقرِّب للنبي صلى الله عليه وسلّم بُدْنَه- أي يقدِم ناقة وراء ناقة- والنبي ينحرها بيده، ودعا الحلاق لحلق رأسه، فانظر إلى سهيل بن عمرو كلّما ينفَض من شعره صلى الله عليه وسلم يضع شعره على عينه، سهيل بن عمرو الذي رفض أن يكتب محمد رسول الله، وتكلّم معه بالمفرد نداً لند، عندما عرف مقامه كان إذا قطع الحلاق شيئاً من شعر النبي يأخذ هذه الشعرة ويضعها على عينه تبرُّكاً به، هكذا كانت النتيجة، رئيس الوفد المفاوض أسلم، أعداد كبيرة جداً أسلمت، المسلمون ارتاحوا من الحرب وصار هناك دعوة إلى الله، النبي أرسل كتبه إلى الملوك الأعاجم، الناس دخلوا في دين الله أفواجاً، كل هذا ببركة هذا الصلح.

يقول أحد العلماء وهو الزُهْري: " فما فتحٌ في الإسلام كان أعظم منه، إنما كان القتال حيث التقى الناس، فلما كانت الهُدنة ووضعت الحرب، وأمِن الناس بعضهم بعضاً، والتقوا فتفاوضوا في الحديث والمنازعة، فلم يُكلَّم أحدٌ بالإسلام يعقل شيئاً إلا دخل فيه، ولقد دخل في تَيْنَك السنتين مثلما كان في الإسلام من قبل ". وقال بن هشام: والدليل على قول الزُهري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ كل من معه للحديبية، وأخذ من هم حول المدينة فكم كان العدد؟ ألف وأربعمئة.. عندما دخل مكة فاتحاً دخلها في عشرة آلاف مقاتِل، كلّهم آمنوا فيما بين الصلح وبين الفتح.

نتائج صلح الحديبية حسب آراء بعض علماء التاريخ :

قال: صُلح الحديبية اعترافٌ رسميٌّ موقعٌ من قريش بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن معه قوةٌ مستقلةٌ متميزةٌ، وصنو قريشٍ زعيمة القبائل، وهذا يعني أن كل قِوى الجزيرة العربية راجعت حساباتها، قريش اعترفت برسول الله، اعترفت به قوة متميزة ومستقلة، فكل واحد عاون قريشاً على النبي توقف وراجع حساباته.

أما هذه الهُدنة في هذا الصُلح كانت فرصة ذهبية للمسلمين فاتصلوا بالقبائل، واختلطوا بأفرادها فشرحوا لهم الإسلام، وبلّغوا الرسالة بالحكمة والموعظة الحسنة، وبالحُجَّة والبرهان والعقل والمنطق فأسلم في سنتين اثنتين من الصلح ما يعادل الذين أسلموا قبل الصلح منذ بداية الدعوة، أهل قريش جاؤوا

إلى المدينة ورأوا المسلمين في توادّهم وتراحمهم، وتعاطفهم وألفتهم، والتفاتهم حول النبي، وتعظيمهم له، أي سمعوا أخبار النبي.

المسلمون ذهبوا إلى أهليهم في مكة وذكَّروهم بالنبي، وبأخلاقه، وبنبوته، بدلائله النبوية، بالإسلام وعظمة الإسلام .

قريش أدركت بعد صلح الحديبية أن الأمر قد استبان، وأن الإسلام ظاهرٌ منتصرٌ لا محالة، وخاصَّةً بعد أن حشدت أضخم جمعٍ في تاريخها في غزوة الأحزاب وأخفقت، وبعد أن تكرَّرت انتصارات المسلمين أيقنت قريشٌ أيضاً أن أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم عَظُمَ في جميع أنحاء الجزيرة، وأن العاقبة المحتومة ظَفَرَ الإسلام وظهوره وفتح مكة ذاتها قريباً.

إسلام خالد بن الوليد :

سيدنا خالد بن الوليد قال لقريش بعد الحديبية- هذا الرجل مفكِّر وهو الذي كان ألدَّ خصوم رسول الله، الذي كان أحد أكبر الأسباب في مشكلة أحد- قال خالد: لقد استبان لكل ذي عقلٍ أن محمداً ليس بساحرٍ ولا شاعر، وأن كلامه من كلام رب العالمين، فَحُق على كل ذي لبٍ أن يتبعه. هذا كلام سيدنا خالد، وقال عمرو بن العاص: والله ليظهرنّ محمدٌ على قريش عرف هذا الحق العرب والعجم.

يقول عمرو: ابتعت بعيراً وخرجت أريد المدينة حتى مررت على مرِّ الظهران، ثم مضيت حتى إذا كنت بالهدَّبة فإذا رجلان قد سبقاني بغير سفيرٍ يريدان منزلاً، وأحدهما دَخَلَ الخيمة والآخر يُمسِكُ الراحلتين، قال: فنظرت فإذا خالد بن الوليد، فقال لسيدنا خالد: أين تريد؟ قال خالد: أريد محمداً، دخل الناس في الإسلام فلم يبق أحدٌ به طُعمٌ- لم يبق أحد غيرنا- والله لو أقمت بمكة لأخِذَ برقابنا كما يؤخذ برقبة الضبع في مغارتها- أي انتهينا- عمرو قال: وأنا والله قد أردت محمداً وأردت الإسلام، فخرج عثمان بن أبي طلحة فرحَّب بي فنزلنا جميعنا في المنزل، ثم اتفقنا حتى أتينا المدينة فما أنسى قول رجلٍ لقيناه ببئر أبي عُتبة يصيح: يا رباح! يا رباح! يا رباح! فتفاءلنا بقوله وسِرنا، ثم نظر إلينا فأسمعه يقول: قد أعطت مكة المقادة بعد هذين- زعيمان كبيران من فطاحل أهل مكة هما سيدنا خالد وعمر- ماذا قال هذا الرجل؟ قال: قد أعطت مكة المقادة للنبي بعد هذين، فظننت أنه يعنيني ويعني خالد بن الوليد، وولَّى مدبراً إلى المسجد سريعاً فظننت أنه بشَّر رسول الله بقدومنا فكان كما ظننت.. أدرك أنه إذا جاء هذين الرجلين ليُسلِما انتهت قريش.. وأنخنا بالحرَّة فلبسنا صالح ثيابنا، ثم نودي بالعصر فانطلقنا حتى اطلعنا عليه وإنَّ لوجهه تَهلُّلاً والمسلمون حوله قد سُرَّوا بإسلامنا.

يقول خالد رضي الله عنه: فأسرعنا في المشي فاطّلعت عليه فما زال يبتسم لي حتى وقفت عليه فسلّمت عليه بالنبوة وقلت: يا رسول الله، فردَّ عليَّ السلام بوجهٍ طلق، فقلت: إني أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله، فقال: تعال.. ثم قال عليه الصلاة والسلام: الحمد لله الذي هداك قد كنت أرى لك عقلاً رَجَوْت ألا يُسلِمك إلا إلى خير. معنى هذا أن الإنسان إذا الله آتاه ذكاءً وعقلاً ولم يعرف الله صار سؤاله كبيراً ووضعه غير مقبول، إنسان عاقل وذكي ويتأخَّر عن طاعته لله عزَّ وجل؟ قال: يا رسول الله إني قد رأيت ما كنت أشهد من تلك المواطن عليك معانداً للحق فادع الله أن يغفرها لي، فقال عليه الصلاة والسلام: يا خالد الإسلام يجبُّ ما قبله.. سيدنا خالد كم مرَّة حارب النبي؟ في بدر، وفي أحد، وفي الخندق، فقال النبي: اللهمَّ اغفر لخالد بن الوليد كلّ ما أوضع فيه من صدٍّ عن سبيلك.. الصُلحة بلمحة، قائد عسكري من الطرف الآخر عندما أسلم غفر الله عزَّ وجل له كل ما كان منه من محاربةٍ للدين.. وتقدَّم عثمان وعمر فبايعا رسول الله صلى الله عليه وسلَّم، وكان قدومنا في صفر سنة ثمانٍ للهجرة.

قضية الإسلام هي القضية الأولى في العالم :

وبالطبع الصلح أعاد طريق القوافل، والحركة أصبحت سالكة، ولقاءات، واتصالات، ودخل الناس أفواجاً في دين الله، والنبي عليه الصلاة والسلام قوي مركزه كثيراً والتفت إلى الدعوة، وفي العام القادم دخل النبي صلى الله عليه وسلم مكة لعمرة القضاء، وبقي فيها ثلاثة أيامٍ محققاً نصراً إعلامياً رائعاً، وتمت العُمرة في العام القادم، وهذه بعض ما كتبه كتَّاب السيرة عن صلح الحديبية.

(فَتْحًا مُبِينًا (1))

هذه الفكرة.. فالإنسان لو شاهد ما يجري في العالم في أقاصي الدنيا من حروب ضد المسلمين لعل في هذا صحوةً لأهل الأرض كلّهم.. والشيء الحقيقي الآن قضية الإسلام هي القضية الأولى في العالم، والذين ابتعدوا عن هذا الدين هم الآن في شوق إلى معرفته لتفسير ما يحدث، فإذاً:

(وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (216))

[سورة البقرة: آية 216]

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الفتح 048 - الدرس (5-8): تفسير الآيات 1-10، الله جلَّ جلاله هو الذي يدبِّر الأمور ويتولى أمر هذا الدين العظيم

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 17-03-1995

بسم الله الرحمن الرحيم

مع الدرس الخامس من دروس تفسير سورة الفتح.

الفتح المُبين هو صلح الحديبية :

قال تعالى:

(إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا (1))

[سورة الفتح]

في أرجح الأقوال هذا الفتح المُبين هو صلح الحديبية، ذلك لأن المسلمين بعد هذا الصُلح برز لهم كيانٌ مستقلٌ، واعترف الخصوم بهم كقوةٍ مستقلةٍ في الجزيرة العربية، ودخل في دين الله في سَنَتي صلح الحديبية ما لا يدخل في الإسلام منذ نشأته، كلكم يعلم أن النبي عليه الصلاة والسلام حينما خرج مع أصحابه في صلح الحديبية كانوا لا يزيدون عن ألفٍ وأربعمئة رجل، أما في فتح مكة صاروا فعشرة آلاف رجل، كل هذا في هذه السنوات المعدودة التي كان فيها صلح الحديبية، لذلك الله جلَّ جلاله عدَّ هذا فتحاً مبيناً.

الله جلَّ جلاله هو الذي يدبِّر الأمور ويتولى أمر هذا الدين :

أحياناً تمر الدعوة الإسلامية بمراحل، من مراحلها الأولى القتال والحماس، وهناك مرحلة تحتاج إلى سلمٍ، وإلى طمأنينة، وإلى استقرار، كي ينشط الدعاة إلى الله عزَّ وجل في نشر معالم هذا الدين، لذلك ربنا سبحانه وتعالى عدَّ هذا الصلح صلح الحديبية فتحاً مبيناً..

(إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا (1) لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا (2))

[سورة الفتح]

الله جلَّ جلاله هو الذي يدبِّر الأمور، وهو الذي يربي نبيه وأصحابه الكرام، وهو الذي يتولى أمر هذا الدين، فالإنسان إذا آمن أن الله سبحانه وتعالى بيده كل شيء، وأنه لا حول ولا قوة إلا بالله، وأنه ما شاء

الله كان وما لم يشأ لم يكن، وأنه إليه يُرجع الأمر كله، وأن أفعاله كلها فيها حكمة ما بعدها حكمة، وعلمٌ ما بعده علم، إذا أيقن الإنسان بهذه الحقائق عندئذٍ يستسلم لقضاء الله وقدره، ولتدبيره وتسييره.

النصر الذي أكرم الله به نبيه كان نصراً عزيزاً :

النبي عليه الصلاة والسلام في كل ما فعله في صلح الحديبية كان يستلهم التوجيه من الله عزَّ وجل، لذلك قال: إني رسول الله ولن يضيِّعَني، والصحابة الكرام حينما تألموا لبعض الشروط في صلح الحديبية انطلقوا من أن الأمر الذي تمّ بين النبي وبين الأعداء كان عن اجتهادٍ أو عن رأيٍ ومكيدة، الأمر خلاف ذلك، النبي عليه الصلاة والسلام كان يتلقَّى الأوامر التفصيلية من الله عزَّ وجل، وأوضح مثالٍ على ذلك أن ناقته حينما وقفت قالوا: خلأت، قال: ما خلأت ولكن حبسها حابس الفيل.

(وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا (3))

[سورة الفتح]

وصفَ النصر هنا بأنه عزيز، أحياناً الإنسان ينتصر نصراً غير عزيز، نصر لجهاتٍ معيَّنة يدٌ في هذا النصر، هذا نصر يشوبه منة، لكن النصر الذي أكرم الله به نبيه كان نصراً عزيزاً.

نزول السكينة على قلب المؤمن يشعره بالسعادة و الطمأنينة :

ثم قال تعالى:

(هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (4))

[سورة الفتح]

هذه السكينة إذا نزلت على قلب المؤمن شعر بسعادةٍ ما بعدها سعادة، وشعر باستقرارٍ وطمأنينةٍ ما بعدها طمأنينة، والذي يعين المؤمن على سلوك طريق الإيمان ليست قناعاته الفكرية فحسب بل تلك السكينة التي ينزلّها الله على قلبه، هذه السكينة تحول بينه وبين الضعف، والوهن، والنفاق، والتملُّق، وضياع الذات، كل أعراض الإعراض تبدو مقيتة في حياة الإنسان، لكن الإنسان إذا تنزَّلت على قلبه السكينة صار إنساناً آخر.

(لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (4))

[سورة الفتح]

الإنسان خُلِقَ لجنةٍ عرضها السماوات والأرض وجميع المصائب ردعٌ له :

فهناك جنود لا نراها، أحياناً الله جلَّ جلاله ينزِّل ملائكةً يثبِّتون الذين آمنوا، هناك تصرفات كثيرة جداً لا نعلمها ولا نراها، وهذا من قبيل:

(وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (4))

[سورة الفتح: 4]

كل هذه التصرُّفات.

(لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا (5))

[سورة الفتح]

هذه الآية هي علة وجود الإنسان، خُلِقَ الإنسان لجنةٍ عرضها السماوات والأرض، وجميع المصائب التي على وجه الأرض إنما هي ردعٌ للإنسان عن طريق هلاكه، ودفعٌ إلى طريق سعادته.

(لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا (5))

الفوز العظيم أن تنتهي من الدنيا إلى جنة الله التي أعدَّها لعباده المؤمنين :

ما الفوز العظيم في نظرك؟ إن لم يكن الفوز العظيم في نظرك مُطابقاً للفوز العظيم في هذه الآية فأنت بعيدٌ عن الإيمان، الفوز العظيم أن تدخل الجنة، لهذا يقول سيدنا علي كرم الله وجهه: " يا بُنَيّ ما خيرٌ بعده النار بخير، وما شرٌ بعده الجنة بشر، وكل نعيمٌ دون الجنة محقور، وكل بلاءٌ دون النار عافية ".

مهما تمتَّعت في الدنيا، مهما نِلْتَ من مالها، ومن شهواتها، ومن مغانمها، ومن مكاسبها، إذا انتهت الدنيا بالإنسان إلى النار فهذا ليس بخير، ومهما ساق الله للإنسان من مصائب، مهما تحمَّل من مشاق، إذا انتهت الدنيا به إلى الجنة فهذا ليس بشر، لذلك المؤمن حينما يأتيه ملك الموت ويريه الله مقامه في الجنة، يقول: لم أر شراً قط، ينسى كل متاعب الحياة، ينسى كل المَشاق التي تحمَّلها، ينسى كل الهموم التي عاناها، وحينما يرى الكافر مكانه في النار يقول: لم أر خيراً قط، فلذلك الفوز العظيم أن تنتهي من الدنيا إلى جنة الله التي أعدَّها لعباده المؤمنين، والآية واضحة جداً.

الآخرة شيء عظيم على الإنسان أن يسعى لها :

كل أفعال الله، وكل تصرُّفاته، وكل تدبيراته، من أجل أن يدخل المؤمنين والمؤمنات جناتٍ تجري من تحتها الأنهار، يقول عليه الصلاة والسلام:

((ما أخذت الدنيا من الآخرة إلا كما أخذ المخيط غرس في البحر من مائه))

[الطبراني عن المستورد بن شداد]

هذا كلام النبي، والنبي لا ينطق عن الهوى، الآخرة شيء عظيم، الدنيا فيها أماكن جميلة جداً، وفيها مباهج، وفيها مُتَع، وفيها طعام وشراب، ونساء، ورحلات، وسهرات، ولقاءات، والدنيا كما قيل: خضرةٌ نضرة، ومع هذا الجمال كله، يقول عليه الصلاة والسلام:

((ما أخذت الدنيا من الآخرة إلا كما أخذ المخيط غرس في البحر من مائه))

[الطبراني عن المستورد بن شداد]

بربِّك اذهب إلى طرطوس، واركب قارباً إلى أرواد، وامسك إبرةٍ واغمسها في مياه البحر واسحبها، ماذا أخذت من مياه البحر هذه الإبرة الصغيرة؟ ما عَلِقَ من الماء على هذه الإبرة هي الدنيا والبحر هو الآخرة، هذا كلام النبي ولا ينطق عن الهوى، ليس من شأن النبي أن يبالغ، المبالغات من شأن أشخاص عاديين، أما النبي الكريم فلا يبالغ، هذه الدنيا وهذه الآخرة، يكفي أنها إلى الأبد..

(وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى (73))

[سورة طه]

فلذلك الفوز العظيم دائماً وأبداً، وازن بين تصورك للفوز العظيم وبين الفوز العظيم الذي ذكره الله في القرآن الكريم، إذا كنت تتوهم أن الفوز العظيم بزوجةٍ، أو بمنزلٍ، أو بمكانةٍ، أو بمالٍ، فهذا التصور مناقض لما في كتاب الله.

المؤمن الكامل يُحسن الظن بالله لأن الله جلَّ جلاله لن يدع المؤمنين لخصومهم :

(وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ)

[سورة الفتح: 6]

حينما دعا النبي المنافقين ليذهبوا معه إلى العمرة قبيل صلح الحديبية ظنوا أن قريشاً لن تدع النبي ستقاتله، والنبي لن يعود إلى المدينة، ولن يعود أصحابه إليها، ظنوا بالله ظن السوء، ظنوا أن الله سيتخلَّى عن هذا الدين العظيم، سيتخلى عن نبيه، سيتخلى عن المؤمنين، سيعذب الله المشركين والمشركات، والمنافقين والمنافقات:

(وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (6))

المؤمن الكامل يُحسن الظن بالله عزَّ وجل، لأن الله جلَّ جلاله لن يدع المؤمنين لخصومهم، الله جلَّ جلاله لن يُديل الكفر عن التوحيد، لن يُديل الشرك على الإيمان، لن يسمح لأعدائه أن يستمروا في قوتهم إلى ما شاء الله، يعطيهم جولة ليمتحنهم لكن العاقبة للمتقين، فلذلك ربنا سبحانه وتعالى ذكر أن المنافقين حينما دُعوا ليكونوا مع النبي صلى الله عليه وسلم في هذه العمرة المباركة رفضوا لظنِّهم أن النبي عليه الصلاة والسلام لن يرجع وأصحابه إلى المدينة سالمين، لما بين النبي وأصحابه من جهة وبين كفار قريش من عداوةٍ وحروبٍ طويلةٍ تمَّت من قبل.

ربنا عزَّ وجل القلوب بيده والمخلوقات بيده والملائكة بيده :

ثم يقول تعالى:

(وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (7))

[سورة الفتح]

أحياناً المرض الجلدي يكون من جنود الله، الفيروس الذي يصيب هؤلاء المنحرفين بنقص المناعة المُكتسب، أليس هذا الفيروس من جنود الله عزَّ وجل؟ وهذا الفيروس أضعف مخلوق على الإطلاق، ومع ذلك أوروبا وأمريكا بأكملهما، بكل طاقتهما، وبكل إمكاناتهما، لا يستطيعان أن يوقفا هذا الفيروس عند حدِّه.

(وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (7))

فقلوب العباد بيد الله عزَّ وجل، أحياناً يلقي الله الخوف في قلوب الأعداء، والنبي الكريم يقول: نصرت بالرعب، فربنا عزَّ وجل القلوب بيده، المخلوقات كلها بيده، الملائكة بيده.

النبي الكريم يشهد يوم القيامة أمام رب العالمين على أمَّته استجابتهم أو رفضهم :

(إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (8))

[سورة الفتح]

شاهداً على أمَّتك، قد بلَّغتهم، كلنا إذا وقفنا أمام مقام النبي عليه الصلاة والسلام نقول: أشهد أنك بلَّغت الرسالة، وأدَّيت الأمانة، ونصحت الأمة، وكشفت الغُمَّة، وجاهدت في الله حق الجهاد، وهديت العباد إلى سبيل الرشاد. فكما أنك تشهد أن النبي بلَّغ الرسالة، النبي عليه الصلاة والسلام يشهد يوم القيامة أمام

رب العالمين أنه بلَّغ الرسالة، يشهد على أمَّته استجابتهم أو رفضهم، يشهد على أمته إيمانهم أو كفرهم، يشهد على أمَّته استقامتهم أو انحرافهم.

(إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا)

للمؤمنين..

(وَنَذِيرًا (8))

للكافرين..

من طبق شريعة الله عزَّ وجل وسَّع رقعة الحق وضيَّق رقعة الباطل :

(لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ)

أي تنصرونه، وتنصروا دينه، الله جلَّ جلاله غنيٌّ عن أن ننصره، لكنك إذا نصرت دينه فكأنما نصرت الله عزَّ وجل، إذا أقمت شرع الله في بيتك نصرت الله.. إذا طبَّقت شريعة الله عزَّ وجل وسَّعت رقعة الحق، فإذا وسَّعت رقعة الحق ضيَّقت رقعة الباطل، هذا هو النصر.

وأمثلة على ذلك كثيرة، تجار في سوق، لو أنهم جميعاً لم يتعاملوا بالربا، صار الذي يتعامل بالربا شاذاً، أما لو كلهم تعاملوا بالربا خذلوا دين الله عزَّ وجل، لو أراد أحدهم أن ينزه علاقاته المالية عن الربا صار شاذاً، نصر دين الله عزَّ وجل تطبيقه، إذا طبَّقت دين الله عزَّ وجل اتسعت رقعته وتنامت، وضيَّقت الباطل وحاصرته، أما إذا المسلمون استنكفوا عن نصرة دين الله عزَّ وجل فالباطل يتسع والحق ينكمش ويحاصر، وعندئذٍ يصبح الأصل هو الباطل والحق هو الاستثناء، وهذا الشيء واضح جداً في العلاقات الاجتماعية، في الحفلات، في التعامل المالي، في البيع، في الشراء، إذا كل المؤمنين طبَّقوا الدين تطبيقاً صحيحاً، أصبح الباطل هو الشاذ، هو الاستثناء، أما إذا قصَّروا وتهاونوا صار الأصل هو الباطل، والاستقامة هي الاستثناء.

من علامات الإيمان أن المؤمن يُعَظِّم شعائر الله و أوامره وكتابه :

لذلك:

(إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (8) لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ)

التعذير النصر، والتوقير التعظيم، والهاء في توقيره تعود على الله جلَّ جلاله:

(وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ (32))

[سورة الحج]

من علامات الإيمان أن المؤمن يُعَظِّم شعائر الله، يعظم أوامره، يعظم كتابه، يعظم رسوله، يعظم أصحاب رسوله، فمن لوازم الإيمان أنه إذا ذكر أصحاب النبي عليك أن تُمْسِك، من علامة الإيمان أن توقِّر الله، وأن توقر نبيه، وأن توقر أصحاب النبي الذين أحبوا النبي وأحبهم النبي، هذه من علامات الإيمان، أن تعظِّم شعائر الله، أن تعظم الأوامر الإلهية.

محبَّة النبي هي محبة الله وإرضاء النبي هو إرضاء الله حُكماً :

(إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (8) لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (9))

[سورة الفتح]

(بُكْرَةً وَأَصِيلًا)

صباحاً ومساءً وبينهما، هذه الصلوات الخمس أنت تسبح الله في الصلاة، أنت آمنت بالله وآمنت برسوله، ونصرت دينه وعظَّمت شعائره، وذكرته في صلواتك الخمس.

(إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ)

[سورة الفتح: آية10]

لمّا الصحابة الكرام نُمِيَ إليهم أن سيدنا عثمان رضي الله عنه قُتِل، أراد النبي أن يتوثَّق من جاهزية أصحابه للقتال، فبايعه الصحابة.. بايعوه واحداً واحداً على الموت في سبيل الله، هذه البيعة في حقيقتها إنما هي بيعةٌ لله عزَّ وجل، القرآن الكريم يذكر كثيراً أن محبَّة النبي هي محبة الله، إرضاء النبي هو إرضاء الله، حُكماً، أضرب مثلاً: أنت حينما تأتي لمجلس علم تأتي إلى ربك، هذا بيت الله عزَّ وجل، أنت حينما تعين أخاك المؤمن أنت تنفذ أمر الله عزَّ وجل.

الدين أعظم وأجلّ من أن يكون مرتبطاً بأشخاص لأنه مبدأ إلهي :

في الدين لا يوجد أشخاص، هناك مبادئ، والحقيقة كلما عَظُمَت المبادئ صغر الأشخاص، وكلما صَغُرَت المبادئ كبر الأشخاص، المؤمن الصادق عاهد الله، وعاهده على الطاعة، وعلى البذل، فلذلك هدفه كبير، من علامات ضعف التفكير ربط الدين بأشخاص، ومن علامات النُضْج أن الدين أعظم وأجلُّ من أن يكون مرتبطاً بأشخاص معينين، الدين مبدأ إلهي، منهج من السماء إلى الأرض نسير عليه، فلذلك:

(إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ)

لا يوجد انفصال لأن النبي أنكر ذاته كلياً، هو باب الله كما قال عليه الصلاة والسلام:

((سلوا لي الوسيلة فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله وأرجو أن أكون أنا))

[أخرجه مسلم عن ابن عمر]

وكلنا في الصلاة نقول: " اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم الوسيلة والفضيلة وابعثه المقام المحمود الذي وعدته ".

الحب في الله توحيد و الحب مع الله شرك :

لذلك الله عزَّ وجل في هذه الآية بيَّن أن نصرة النبي هي نصرةٌ لله عزَّ وجل، والبيعة للنبي إنما هي بيعة لله عزَّ وجل، ومحبة النبي هي محبة الله عزَّ وجل، وفرقٌ بين أن تُحِبَّ في الله وأن تحب مع الله، أن تحب في الله هذا توحيد، وأن تحب مع الله هذا شرك، لأنك تحب الله تحب نبيَّه، لأنك تحب الله تحب نبيه وصحابته، لأنك تحب الله تحب النبي والصحابة والمؤمنين، فمحبَّتك للصحابة الكرام محبة في الله، محبَّتُك للمؤمنين محبة في الله، محبتك للنبي محبةٌ في الله، أما إذا أحببت إنساناً لذاته هذا حبٌ مع الله، الحب مع الله شِرْك.

(إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ)

على الموت..

(إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ)

فأحياناً الإنسان يتصدَّق، ورد بالحديث:

((الصدقة تقع في يد الله قبل أن تقع في يد الفقير))

[الطبراني عن أبي أمامة بسند ضعيف]

أحياناً الإنسان يزور أخاه المريض، يقول الله عزَّ وجل في الحديث القدسي:

((يا بنَ آدمَ مَرِضْتُ فلم تَعُدْني، قال: يا رب كَيْفَ أعُودُكَ وأنتَ ربُّ العالمين؟ قال: أمَا علمتَ أنَّ عبدي فلاناً مَرِضَ فلم تَعُدْهُ؟ أما علمتَ أنَّكَ لو عُدْتَهُ لوجَدتني عنده))

[أخرجه مسلم عن أبي هريرة]

انظر إلى التوحيد، إذا زُرت أخاك المريض كأنَّك تعود الله عزَّ وجل.

((استطعمتك فلم تطعمني، فيقول: كيف أطعمك وأنت رب العالمين؟ فيقول: أما علمت أن عبدي فلاناً جاع، فلو أطعمته لوجدت ذلك عندي))

[أخرجه مسلم عن أبي هريرة]

هذا هو التوحيد، المؤمن إذا زار أخاه المريض فكأنما عاد ربه، إذا أطعم أخاه فكأنما أطعم ربه، إذا سقى أخاه فكأنما سقى ربه، إذا بايع نبيِّه فكأنما بايع الله عزَّ وجل، وسع الدائرة تجد الدين فيه انسجام، وفيه تَوَحُّد.

(إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (10))

[سورة الفتح]

من كرم الله العظيم أنّ الإنسان إذا عمل عملاً خالصاً يتجلّى على قلبه بالسكينة :

تصوَّر الصحابة الكرام عندما نزلت هذه الآية، لما بايعوا النبي، والله عزَّ وجل يقول:

(يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ)

بماذا شعر الصحابي الجليل؟ لعله شعور لا يوصف عندما يعرف المرء أن يد الله فوق يده، وكل مؤمن في أي زمان إذا عمل عملاً خالصاً لله عزَّ وجل يشعر بسكينةٍ تنزل على قلبه، وهي رضا الله عزَّ وجل، فالله عزَّ وجل من كرمه العظيم أنَّك إذا عملت عملاً خالصاً له تجلَّى على قلبك تجلياً يشعرك أنه راضٍ عنك، هذه السكينة وهذه هي الرحمة، فإذا أنت أخلصت عملك لله عزَّ وجل تكون في رحمة الله، ومن كان في رحمة الله لا تستطيع قوى الشر كلها أن تنال منه، لذلك الإخلاص الإخلاص. طبعاً كلمة لو نزعتها وحدها لها معنى آخر، مهما كان عدوك قوياً يد الله فوقه، مهما كان عدوك لئيماً، أو قاسياً، أو قوياً، أو حاقداً، لا تخف منه، لأن يد الله فوقه.. مُكَبَّل.. هذا ما يؤكّده قوله تعالى:

(اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (62))

[سورة الزمر]

(لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (54))

[سورة الأعراف]

مباركة الله عز وجل بيعة الصحابة للنبي الكريم :

لو نزعت هذه الفقرة من الآية وحدها:

(يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ)

أما معناها السياقي فمعنى آخر، حينما وضعوا أيديهم في يد النبي عليه الصلاة والسلام وبايعوه على الموت في سبيل الله، قال تعالى:

(يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ)

أي أن الله بارك لهم هذه البيعة، ورضي الله عنهم بهذه البيعة، لذلك النبي قال:

((يد الله مع الجماعة))

[رواه الحكيم وابن جرير عن ابن عمر]

((يد الله على الجماعة))

[أخرجه الترمذي عن ابن عباس]

عليها حفظاً، وعليها دفاعاً، وعليها مباركة، وعليها تأييداً، وعليها نصراً.

كأن الله سبحانه وتعالى فيما يبدو من هذه الآيات يحبنا أن نكون متعاونين، متباذلين، متناصحين، متحابين، متزاورين، هذا معنى قول النبي الكريم: " يد الله مع الجماعة.. تأييداً ونصراً.. ويد الله على الجماعة.. حفظاً ورعاية.. " معها وعليها، فلذلك الله عز وجل قال:

(إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (10))

[سورة الفتح]

أعظم أنواع البطولة أن الإنسان إذا عاهد الله عزَّ وجل أن يفي بهذا العهد :

الله عزَّ وجل في آية أخرى يقول:

(وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ (102))

[سورة الأعراف: 102]

فمن أعظم أنواع البطولة أنك إذا عاهدت الله عزَّ وجل أن تفي بهذا العهد، إنسان عاهد الله وهو يطوف حول الكعبة ألا يعصيه، كلما هَمَّ بمخالفةٍ أو تقصيرٍ عليه أن يذكر ذلك العهد.

(وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ)

[سورة الفتح: آية 10]

هذا الضَم في عليُه للتعظيم لتعظيم العهد، أحياناً تعاهد صديقاً لك، تعاهد أخاً، تعاهد زميلاً، تعاهد رجلاً من عامَّة الناس، لكنك هنا تُعاهد الله، فجاءت الهاء مضمومة للتعظيم، هذا عهد غليظ، عهد كبير، أنَّك تعاهد خالق الكون.

من نكث فإنما ينكث على نفسه و لا يضر أحداً غيره :

لذلك قال أحد الصحابة:" لا تنظر إلى صغر الذنب ولكن انظر على من اجترأت".

(فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ)

[سورة الفتح: آية10]

وفي الحديث الشريف:

((يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا))

[مسلم عن أبي ذر]

(إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ)

[سورة الزمر: 7]

لذلك:

(فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ)

أما الإنسان إن قصَّر، أو نقض عهد الله عزَّ وجل من بعد ميثاقه، أو لم يفِ بعهده مع الله عزَّ وجل، و لم يلتزم أوامر الشرع، فيضرُّ من؟ لا يضر أحداً لأن الله غنيٌّ عنه، لكن إنما يضر نفسه وحده.

(فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (10))

فالإنسان عندما يخرج عن قواعد الشرع يجب أن يفكر على من يخرج.

زوال الكون أهون على الله من أن يُضَيِّعَ مؤمناً :

(إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (111))

[سورة التوبة]

أي أن زوال الكون أهون على الله من أن يُضَيِّعَ مؤمناً، من أن يبخس حَقَّه.

(فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا (112))

[سورة طه]

لا يظلم ولا ينقص من جزائه شيئاً..

(سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (11))

[سورة الفتح]

الله تعالى يحول بين المرء وقلبه :

أحياناً الإنسان لضعف إيمانه بالله، لجهله، يظن أن الله لا يعلم ما في نفسه، نفسك مكشوفة أمام الله عزَّ وجل، الله جلَّ جلاله يعلّم حقيقة نفوسنا، الله يحول بين المرء وقلبه.

(وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ (16) إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ (17) مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ (18))

[سورة ق]

فالمخلّفون من الأعراب لما دُعوا إلى أن يذهبوا مع النبي:

(سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا)

الإعجاز العلمي في الآية التالية :

الحقيقة هذه يوجد فيها إعجاز قرآني، لما الله قال:

(سَيَقُولُ لَكَ)

هم لو سكتوا لبطلت هذه الآية، وهناك آية أبلغ من ذلك:

(سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (142))

[سورة البقرة]

الله عزَّ وجل وصفهم بأنهم سفهاء، وقال:

(سَيَقُولُ)

لو أنَّهم فكروا قليلاً لما وصفوا بالسَفَه، لم يقولوا بعد، لو سكتوا لأبطلوا الآية، لكن يجب أن تعلم أن الله سبحانه وتعالى بيده كل شيء..

(شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا)

الإنسان إن أصرَّ على شيء ورغب فيه يجد متسعاً من الوقت ليفعله :

هناك آية قرآنية أخرى:

(وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ (46))

[سورة التوبة]

أحياناً يكون العذر غير مقبول عند الله، الدليل: لو أراد الإنسان شيئاً يفعله، إذا أصرَّ على شيء، ورغب في شيء، وتوجَّه إلى شيء، يجد متسعاً من الوقت ليفعله، إذا كان الأمر يهمك تلغي كل المواعيد، وتنظم أمورك، فالإنسان يلقي الأعذار وهي عند الله غير مقبولة إطلاقاً، يلقي الأعذار وهو يعلم أنه كاذبٌ بهذه الأعذار.

(سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا)

كل إنسان بقبضة الله عز وجل :

الإنسان يكذب، وينتحل المعاذير، ويقدِّم الأعذار الواهية، وهو يعلم أن الله يعلم كذبه، فهذا الإنسان لو أراد الله أن يعالجه من يستطيع أن يدفع عنه؟ هذه المعالجة.

(قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا)

الإنسان في قبضة الله عزَّ وجل، فكيف يجترئ على الله عزَّ وجل؟ في قبضته؛ أجهزته، أعضاؤه، حواسه، أهله، أولاده، من حوله، من فوقه، من تحته، كلُّهم بيد الله عزَّ وجل.

(قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (11) بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا (12))

[سورة الفتح]

المنافق إنسان توعده الله عز وجل بعذاب أليم :

ترتاحون أيها المنافقون إذا لم ينقلب النبي والمؤمنون إلى أهليهم أبداً، الإنسان حينما يفرح بمصيبة مؤمن يجب أن يعلم أنه منافق، وأنه وضع نفسه قطعاً في خندق المنافقين، لقول الله عزَّ وجل:

(إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ)

[سورة التوبة: آية 50]

شعور مخيف إذا ارتاحت نفسك لمصاب مؤمن بمكروه، أو خسارة، أو فاحشة، ابك على نفسك، واندب حظك من الإيمان، ليس لك حظٌ منه إطلاقاً:

(إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آَمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآَخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (19))

[سورة النور]

الله عزَّ وجل توعَّدهم بعذابٍ أليم.

من علامة الإيمان أن يفرح الإنسان لخيرٍ أصاب أخاه المؤمن :

لذلك:

(بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا)

[سورة الفتح: 12]

هكذا ظننتم، أما المشكلة فليس في هذا الظن:

(وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ)

[سورة الفتح: 12]

شيء مُزَيَّن لكم، أن لن يعودوا إلى المدينة، أن يموتوا، أن يقتلوا، أن يقعوا في مواجهةٍ مع قريش فيبادوا، هذا هو المنافق، فالإنسان قبل أن يفرح بمصيبةٍ ألمَّت بمؤمن ليعُد إلى المليون، فرحه يعني أنه منافق، أضرب مثلاً هل في الأرض كلها امرأةٌ تفرح بفضيحة ابنتها؟ فإذا كان ذلك فليعلم الإنسان أن هذه الفتاة ليست ابنتها، هذا التفسير.. فإنسان يفرح بمصيبة مؤمن معناها أنه ليس بمؤمن.

ومن علامة الإيمان أن تفرح بخيرٍ أصاب أخاك المؤمن، اشترى أخوك بيتاً، هنيئاً له، تهنِّئه من أعماق أعماقك، نال شهادة عالية، أسس مشروعاً ونجح، لأن المؤمن للمؤمنين، علاقة المؤمنين علاقة متميزة، الكل لواحد والواحد للكل، إذا أكرم الله عزَّ وجل أخاً لك، هذا خيره للجميع، كلهم له وهو لهم، هذا هو مجتمع المؤمنين، الفكر وحده لا يكفي، عندنا أفكار إسلامية، نحن بحاجة أن نعيش مجتمعاً إسلامياً، بحاجة إلى أن يشعر كلٌ منا بحبٍ حقيقي لأخيه المؤمن.

من لم يؤمن بالله يتفلت من منهجه و نظامه وهذا التجاوز له عقاب عند الله عزَّ وجل :

هؤلاء الذين زُيِّن في قلوبهم أن لن ينقلب النبي والمؤمنون قال:

(وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا (12))

كالأرض البور لا خير فيها، هناك إنسان كتلة من الشر، إذا لم يكن كتلة شر فهو كتلة سلبية لا ينفع ولا يضر، يعيش لذاته، ما خرج من ذاته أبداً، يعيش لمصالحه، لبيته، لأولاده فقط، لا يتحرَّك، لا يعنيه أمر المؤمنين، لا يأمر بمعروف، لا ينهى عن منكر، لا يعين، لا يتحرَّك، لا يغار، سلبي، انسحب من الحياة، متقوقع، انهزامي، خانع، ليس هذا هو الإيمان.

(وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا (12) وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا (13))

الحقيقة السعير لا لأنه لم يؤمن فقط، هو حينما لم يؤمن بالله، بكتابه، بوجوده، بمنهجه، وبيان رسوله لمنهجه، معناه أنه تفلّت من النظام، لما تفلّت أكل ما ليس له، وقع بالانحراف، بالعدوان، فصار السعير لعدوانه، وإساءاته، وتقصيره الناتج عن تفلُّتِهِ من منهج الله عزَّ وجل، هذا هو التفسير الدقيق.

(وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ باللَّهِ وَرَسُولِهِ)

من لم يؤمن بالله ورسوله، لا بدَّ من أن يتجاوز الحدود، مثله مثل سيارة تسير بلا مقود، محرك قوي ولكن لا يوجد مقود، والطرقات كلها متعرِّجة، فالحادث حتمي، إنسان فيه شهوات ينطلق بلا منهج، بلا قيم، بلا أمر، بلا نهي، بلا دستور، بلا نظام، تحرِّكه، شهواته، ونزواته، وأهواؤه، ومطامعه، فهذا الإنسان قطعاً لا بدَّ من أن يعتدي، أن يأخذ ما له وما ليس له، هذا العدوان وهذا التقصير وهذا التجاوز له عقاب عند الله عزَّ وجل.

(وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ باللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا (13))

[سورة الفتح]

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الفتح 048 - الدرس (6-8): تفسيرالآيات 11-17 ، الله عز وجل عالم بخبايا الأنفس و ما يعتلجها من خواطر

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1995-03-24

بسم الله الرحمن الرحيم

أيّ عذر يقدِّمه الإنسان لربه الله جلَّ جلاله يعلم حقيقته :

مع الدرس السادس من سورة الفتح، ومع الآية الحادية عشرة، وهي قوله تعالى:

(سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ)

الذين هم حول المدينة المنورة، القبائل التي سَكَنَتْ حول المدينة المنورة دَعاهم النبي صلى الله عليه وسلم ليذهبوا معه إلى العمرة التي انتهت بصلح الحديبية..

(سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا)

هذا عُذْرُهُم، هم مشغولون بأموالهم وبأهليهم، والحقيقة أن الأمر خلاف ذلك، إذا تعاملت مع الله يجب أن تعلم علم اليقين أن الله يعلم السرَّ وأخفى، خواطِرُك التي في ذهنك يعلمها الله؛ الخواطر، الصراعات، التوقُّعات، التمنِّيات، كل ما خطر في بالك فهو عند الله مكشوف، هؤلاء الأعراب حينما دعاهم النبي صلى الله عليه وسلم ليخرجوا معه قالوا:

(شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا)

والإنسان في حقيقته إذا أراد شيئاً تجاوز كل المعوِّقات، لو أراد شيئاً دنيوياً ألغى كل المواعيد، ألغى كل المشاغل، أما أن يحتجَّ الإنسان بمشاغله وأمواله وأولاده فهذه حجَّةٌ واهية لا تُقبَل عند الله عزَّ وجل. يقول لك مثلاً أحدهم: أنا لا أستطيع أن أستيقظ على صلاة الفجر، لماذا إذا كان هناك رحلة لا تنام الليل؟ لماذا؟ فأية حجَّةٍ، وأي عذرٍ يقدِّمه الإنسان لربه فإن الله جلَّ جلاله يعلم حقيقته، فهؤلاء الأعراب الذين دُعوا إلى الخروج مع النبي صلى الله عليه وسلم قالوا:

(شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا)

طلب الجنة من غير عملٍ ذنبٌ من الذنوب :

إن طلب الجنة من غير عملٍ ذنبٌ من الذنوب، وربنا سبحانه وتعالى غفورٌ رحيم لكن مغفرته مقيدةٌ بتوبة العبد..

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (53))

[سورة الزمر]

لكن متى؟

(وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ)

[سورة الزمر: آية 54]

(نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (49) وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ (50))

[سورة الحجر]

آياتٌ كثيرةٌ في القرآن الكريم تؤكِّد أن الله يغفر ولكن متى؟

(ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (119))

[سورة النحل]

فكلمة استغفر لنا من دون توبةٍ صادقة، من دون إنابةٍ إلى الله عزَّ وجل، نوعٌ من الاستهزاء..

(شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا)

من اشتغل بالخسيس عن النفيس فهو خاسر لا محالة :

إذا كنت مشغولاً عن معرفة الله، إذا كنت مشغولاً بدنياك عن طلب العلم، إذا كنت مشغولاً بدنياك عن أداء واجباتك الدينية، إذا كنت مشغولاً بدنياك عن الأعمال الصالحة، إذا كنت مشغولاً بدنياك عن القُربات إلى الله عزَّ وجل، فينبغي أن تعلم علم اليقين أنك خاسرٌ كبير لأنك اشتغلت بالتافه.. بالخسيس عن النفيس.. اشتغلت بالشيء الرخيص عن الشيء الثمين..

(سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا)

وربنا سبحانه وتعالى يقول:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (9))

[سورة المنافقون]

ربنا عزَّ وجل فضح هؤلاء:

(يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ)

[سورة الفتح: آية 11]

لأن يسقط الإنسان من السماء إلى الأرض فَتَنْحَطِمُ أضلاعه أهون من أن يسقط من عين الله، الإنسان إذا كذب على الله يسقط من عينه، تقول: مشغول؟! لماذا أنت مشغول؟ لماذا إذا أردت الدنيا لا يشغلك عنها شيء؟..

(يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا)

على الإنسان أن يطيع الله لأن الله هو الأقوى :

إذا أراد الله أن يوقِع عقاباً بهذا الإنسان الذي كذب على الله من يستطيع أن يمنع عنه هذا الضُر؟ لا أحد يستطيع.. لا تنسوا أن أحد ولاة البصرة كان إلى جانبه الحسن البصري التابعي الجليل وقد تلقى توجيهاً من يزيد بن معاوية، يبدو أن هذا التوجيه لا يرضي الله عزَّ وجل، فوقع هذا الوالي في حيرة، أنه إن نفَّذ توجيه يزيد أغضب الله عزَّ وجل، وإن لم يُنفِّذ توجيهه أغضب يزيد، فسأل الحسن البصري ماذا أفعل؟ هذا هو التوجيه، فقال الحسن البصري كلمة خالدةً، قال له: إن الله يمنعك من يزيد ولكن يزيد لا يمنعك من الله.. ودائماً وأبداً قِس على هذه المقولة.

لو أجبرك إنسان أن تعصي الله عزَّ وجل، وأراد الله أن يوقع ضراً بهذا الإنسان، لا يستطيع أحد أن يُنقِذُك وينقذه من الله، أما إذا أرضيت الله وعصيت زيداً ولو كان قوياً فإن الله سبحانه وتعالى يمنعُك من زيد هذا، فهذا هو العقل والمنطق أن تطيع الأقوى، الأقوى هو الله، لهذا:

((من التمس رضا الله بسخط الناس رضي الله عنه وأرضى الناس عنه، ومن التمس رضا الناس بسخط الله سخط الله عليه وأسخط الناس عليه))

[أخرجه الترمذي والإمام أحمد عن عائشة أم المؤمنين]

(يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا)

على الإنسان أن يتفادى سخط الله برضوانه وعقابه بالعمل الذي يرضيه :

الإنسان في قبضة الله.. من يمنع هذه الخلايا في جسم الإنسان من أن تتكاثر تكاثراً عشوائياً؟ الله يمنعها، وتوجد حالات كثيرة جداً تمَّ شفاؤها ذاتياً دون تدخل طبي، لكنك إذا أرضيت زيداً أو عبيداً، وعصيت خالقك، لو أن الله عزَّ وجل شاء لهذه الخلايا أن تنمو في أماكن حسَّاسة من يمنعها؟ من يملك القلب؟ من يملك الكليتين؟ من يملك الكبد؟ هذه الأعضاء النبيلة الحسَّاسة التي إذا تعطَّلت خسِر الإنسان حياته الدنيا ووقع في ألمٍ شديد، فالإنسان يجب أن يشعر أنه في قبضة الله، هو وكل من حوله، وكل

أجهزته، وأن كل من فوقه، وكل من تحته، بيد الله عزَّ وجل، فالذي يجترئ على الله ويعصيه لا يملك من الله شيئاً لو أراد الله أن يؤدِّبه، كلّما كَبُرَ العقل ازداد الخوف من الله، لاحظ الطبيب إنه يغسل الخضار ويبالغ في غسلها لماذا؟ لأنه يرى كل يومٍ بعينه في المستشفى الأمراض الوبيلة سببها العدوى وانتقال الجراثيم، فكلّما ازداد علم الطبيب ازداد خوفه، وكلّما ازداد علم الإنسان بالقوانين ازدادت حيطته، والخوف يتنامى مع العلم، والذي لا يخاف لا يعلم..

(قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا)

هل هناك جهةٌ في الأرض مهما كانت قويةً تمنع عنك قضاء الله عزَّ وجل؟ لذلك لا ملجأ من الله إلا إليه، لا تستطيع أن تتفادى عقاب الله إلا بطاعته، لا تستطيع أن تتفادى سخط الله إلا برضوانه، لا تستطيع أن تتفادى عقاب الله إلا بالعمل الذي يُرضيه، والله سبحانه وتعالى بابه مفتوح لكل عباده، يكفي أن تقول: يا رب، ليقول الله لك: لبَّيك يا عبدي، بل إنه قد ورد:

((أن العبد إذا قال: يا رب وهو راكع، قال الله: لبَّيك يا عبدي، فإذا قال العبد: يا رب وهو ساجد، قال: لبَّيك يا عبدي، فإذا قال العبد العبد العاصي: لبَّيك يا رب وهو عاصٍ، يقول الله عزَّ وجل: لبيك، ثم لبيك، ثم لبيك))

[ورد في الأثر]

(وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى)

[سورة النحل: آية 60]

الابن الشارد المنحرف العاق لو أقبل على أبيه تائباً يدخل على قلب الأب من السرور ما لا يوصَف بخلاف ابنه المستقيم، لأن رحمة الله عزَّ وجل هي التي تجعل فرح الله بهذا العبد العائد إليه.

لحظة الرجوع إلى الله لحظة لا توصف :

لذلك:

((إذا رجع العبد إلى الله نادى منادٍ في السماوات والأرض أن هنِئوا فلاناً فقد اصطلح مع الله))

[ورد في الأثر]

الإنسان يشتري بيتاً ويأتي المهنئون لتهنئته، ينال شهادة عُليا يأتيه المهنِّئون، يتزوَّج يأتيه المهنِّئون، يُنْجِبُ ولداً يأتيه المهنئون، والله الذي لا إله غيره التهنئة الحقيقية ذات المعنى لا تُقال إلا لمن اصطلح مع الله وتاب إليه، وسار على منهجه، فأنزل الله عليه سكينته، وأسعده وحفظه، وأيَّده ونصره، لحظة الرجوع إلى الله لا توصف، أن تشعر أن خالق الكون يحبُّك، أن خالق الكون يرضى عنك، أن خالق الكون أنت بعينه..

(فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا)

[سورة الطور: آية 48]

ربنا جلَّ جلاله يعرف خبايا النفس البشرية وما يعتلج فيها من خواطر :

(قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (11))

خبير غير بصير، أي أن ربنا جلَّ جلاله يعرف خبايا النفس البشرية، أعماق أعماقها، ما يعتلج فيها من خواطر، من هموم، من أحزان، فالله عزَّ وجل هو الخالق، هو الخبير، وقال تعالى:

(وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ (14))

[سورة فاطر]

أنت مكشوف عند الله عزَّ وجل، حينما تُقْبِل على الله عزَّ وجل هذه الهموم تُبدَّد، هذه المُقلِقات تزول، هذا الخوف ينمحي، هذا الشعور بالضياع يذهب، تجد ذاتك..

(بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (11))

[سورة الفتح]

وربنا عزَّ وجل خبير بالنفوس..

(بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا)

[سورة الفتح: آية 12]

هذا هو السبب الحقيقي، تَخَلَّف هؤلاء الأعراب عن رسول الله لظنِّهم أن النبي لن يرجع إلى المدينة، إنه يذهب إلى أُناسٍ حاربوه مرَّاتٍ عديدة ولا بدَّ أنهم سيحاربونه الآن، وربما أبادوا أصحابه ولن يعود إلى المدينة، انظروا إلى هذا الظن!!

من كان مع الله كان الله معه لأن الله جلَّ جلاله لا يتَخَلَّى عن عباده المؤمنين :

في حياتنا المعاصرة نرى مؤمناً مستقيماً ومخلصاً لله عزّ وجل، يحاط ببعض الأخطار، فتجد أهل الدنيا يقولون لك: انتهى لن تقوم له قائمة، خَسِرَ دنياه، خسِر منصبه.. لا.. هذا ظن الإنسان الذي لا يعرف الله عزَّ وجل، الله جلَّ جلاله لا يتَخَلَّى عن عباده المؤمنين، أحياناً الإنسان يجري حسابات كلّها ماديِّة ويتغافل عن وجود الله عزَّ وجل، وعن أن الأمر كلّه بيد الله، يتغافل عن أن الله مع المستقيم، مع الطائع، مع المُنيب، مع المخلص، فربما هذا الإنسان المؤمن قد يكون فقيراً فيقال له: أنت لن تتزوج أبداً، على حسابات الآلة الحاسبة هذا صحيح لا يوجد أمل، دخله أربعة آلاف لا تكفيه مؤونته من الطعام

والشراب، أنىّ له أن يشتري البيت وأن يدفع المهر؟ لكن شاباً مؤمناً مستقيماً على أمر الله أيتخلى الله عنه؟ أهل الدنيا حساباتهم كلّها مادّية، يتغافلون عن أن الله موجود، وأن الأمر كلّه بيدِ الله، وأن الله هو الرزَّاق، وهو الموَفِّق، وهو الحافظ، وهو الناصر، وهو المؤيِّد، وهو السِّتِّير، وهو الرزاق، إنهم يتغافلون عن هذا، لا مانع من أن يدرس الإنسان الأمور دراسة موضوعية، ولكن يجب ألاّ ينسى أن الله موجود، وأن الله لا يتخلّى عن عباده المؤمنين، وأن الله لا يسمح لأهل الدنيا أن يستطيلوا عليهم، هو يحفظهم وينصرهم، ويؤيدهم ويرزقهم، وخلاف هذا الظن جهلٌ بالله عزَّ وجل..

(بَلْ ظَنَنْتُمْ)

فقريش قوية جداً وهي في مكة.. في عُقْرِ دارها.. معها الرجال، معها الفُرسان، معها الأسلحة، معها المراكب، معها كل شيء، ومعها العرب جميعاً، والنبي عليه الصلاة والسلام هذا الذي خرج من مكة خائفاً أُهْدِرَ دمه، وضعت مئتا ناقة لمن يأتي به حياً أو ميتاً، مع أصحابه الضِعاف، هؤلاء سيذهبون إلى مكة ليعتمروا تحت سَمْعِ قريشٍ وبصرها هؤلاء المنافقون بحسابات أرضية، بحسابات مادّية، أيقنوا أن النبي صلى الله عليه وسلّم وأصحابه الكرام لن يرجعوا إلى المدينة لذلك تنصَّلوا وانسحبوا واعتذروا، الحقيقة أن الله فضحهم، قال:

(بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا)

ظننتم أنهم هالِكون، ظننتم أن قريشاً ستبُيدهم، أين الله؟

(قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى (45))

ويعنيان بهذا فرعون..

(قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى (46))

[سورة طه]

ويجب أن تكون هذه الآية في ذهن كل مؤمن.. إنني معك يا عبدي أسمع وأرى.. كن معه ولا تبالِ، كن مع الله ترَ الله معك، أخلِص له، استقم على أمره، اطلب رضاه ولا تخشى أحداً..

((إذا أردت أن تكون أقوى الناس فتوكَّل على الله، إذا أردت أن تكون أكرم الناس فاتق الله، إذا أردت أن تكون أغنى الناس فكن بما في يدي الله أوثق منك بما في يديك))

[ورد في الأثر]

ارتفاع معنويات المؤمن مهم جداً لأنّ همّ الكفار أن يضعضعوا ثقة المؤمن بربه :

أريد من هذا الكلام أن يثق المؤمن بربه لأن ارتفاع معنويات المؤمن مهم جداً، الكُفّار دائماً همهم أن يُضعضِعوا المؤمنين، أن يُضعِفوا ثقتهم بالله عزَّ وجل، أن يقيِّموهم بما في أيديهم..

سيدنا النبي عليه الصلاة والسلام عندما جاء إليه عدي بن حاتم قال له: " لعله يا عَدِيّ إنما يمنعك من دخولٍ في هذا الدين ما تَرى من حاجتهم- أي من فقر أصحابه، لأن أصحابه كانوا فقراء- وَيْمُ الله ليوشكنَّ المال أن يفيض فيهم حتى لا يوجد من يأخذه، ولعلَّه إنما يمنعك من دخولٍ في هذا الدين أنَّك ترى أن المُلك والسلطان في غيرهم، وَيْمُ الله ليوشكن أن تسمع بالمرأة البابلية تحج البيت على بعيرها لا تخاف أحداً- يستتبُّ لهم الأمر في طول البلاد وعرضها- ولعله إنما يمنعك من دخولٍ في هذا الدين ما ترى من كثرة عدوِّهم، والذي نفس محمدٍ بيده ليوشكن أن ترى القصور البابلية مفتَّحة لهم ".. وعاش عدي بن حاتم حتى رأى كل ذلك بعينه..

سيدنا النبي عليه الصلاة والسلام في الهجرة وقد تبعه سُراقة ليأتي به إلى قريش وينال المئتي ناقة، عندما ساخت قدما فرس سُراقة في الرمال، والتجأ إلى النبي عليه الصلاة والسلام المرَّة الأولى، والثانية، والثالثة قال له: " يا سُراقة كيف بك إذا لبست سِواري كسرى؟.. هذه تعرفونها من السيرة لكن حللوها، النبي ملاحق، النبي مهدور دمه، أي إنسانٍ يأتي بالنبي يأخذ مئتي ناقة، ومع ذلك قال عليه الصلاة والسلام: "يا سُراقة كيف بك إذا لبست سِواري كسرى؟ ماذا يُفهم من هذا الكلام؟ يُفهم منه أن النبي عليه الصلاة والسلام سيصل إلى المدينة، وسيكون في المدينة مع المؤمنين، يكون لهم كيان، وهذا الكيان بداية المجتمع الإسلامي، وسوف يُحاربون قريشاً، وسوف تدين الجزيرة العربية لهم جميعاً، وسوف يَنْطَلقون لفتح البلاد الأخرى، وسوف يصلون إلى أكبر دولةٍ في حينه- دولة كسرى- وسوف يهزمونها، وسوف يأتون بسِواري كسرى مع الغنائم- يا سُراقة كيف بك إذا لبست سِواري كسرى؟- وهذا الذي حصل، حينما جاءت الغنائم لو أن أحداً رفع رُمْحَهُ وأحداً آخر في الطرف المقابل رفع رمحه لما رأى الأول الآخر، كلّها غنائم؛ سِواري كسرى، تاج كسرى، قميص كسرى، كل ما في القصور قد جيء به إلى المدينة. تذكَّر عمر رضي الله عنه سُراقة ووعْد النبي له، قال: أين سُراقة؟ ألبسه سِواري كسرى فكبَّر الصحابة، فقال: أعيرابيٌّ يلبس سِواري كسرى !! لقد صدق رسول الله.

الله عز وجل مع المؤمن بالنصر والتأييد والحفظ والتوفيق :

إذا آمنت بالله، واستقمت على أمره، وتقرَّبت إليه، يجب أن تشعر أن الله لن يتخلى عنك، وأنه معك، وأنه سينصرك، وأنه سيؤيِّدُك، وأن الله سبحانه وتعالى يقول في آياتٍ كثيرة:

(وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ (19))

[سورة الأنفال]

(مَعَ الْمُؤْمِنِينَ)

تعني أنه معهم بالنصر، والتأييد، والحفظ، والتوفيق..

(بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ)

[سورة الفتح: آية 12]

نرتاح منهم، انظر إلى المنافق !!

المنافق كالأرض البور لا خير فيه إطلاقاً :

إذا أخوك المؤمن أصابه خير وتضايقت، وأخوك المؤمن تزوَّج، نال شهادة، اشترى بيتاً، دعا إلى الله فوفقه الله في الدعوة، فطعنت به، وحسدته، وتمنَّيت له أن يُخفِق في عمله، وإذا أصابه مكروه ارتحت لهذا المكروه، يجب أن تعلم علم اليقين أنَّك مع المنافقين.. هكذا.. هذا قرآن يُتلى إلى يوم القيامة..

(وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ)

فرحتم، فالآن سيذهب ليعتمر فتحاربه قريش وتقضي عليه، وتبيده مع أصحابه، ونرتاح من هذه الدعوة بقضِّها وقضيضها..

(وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا (12))

[سورة الفتح: آية 12]

كالأرض البور لا تُمْسِك ولا تنبت، لا يوجد فيها خير إطلاقاً، تجد إنساناً كلَّه أذى، كلَّه انتقاد، كلَّه حسد، كلَّه غيبة، إنه أناني أنانية مفرطة، حريص على مصالحه، على أن يكون المال كلّه له، على أن يأكل وحده، على أن ينام وحده، على أن يسكن في البيت وحده، على أن يركب هذه المركبة وحده، إنه يحب ذاته ولا يحب أحداً، هذا البور لا يتحرَّك إلا بأجر وأجر باهظ، وإذا كان متمكناً ذبح الآخرين من الوريد إلى الوريد، بالأسعار المرتفعة يستغل، إذا علِم أن الناس بحاجةٍ إلى سلعةٍ بين يديه رفع سعرها رفعاً جنونياً ليقنصَهُم قنصاً، هؤلاء الذين يتمحورون حول مصالحهم، وحول المال يأخذونه جشعاً ونهباً، وحول الشهوات ينغمسون فيها إلى قمَّة رؤوسهم، ولا يعنيهم من أمر الناس ما يعنيهم، هؤلاء وصفهم الله عزَّ وجل بأنهم قومٌ بور، أرضٌ بور قاحلة لا ماء فيها، ولا نبات فيها، ولا زهرة فيها تُسَبِّح الله عزّ وجل..

(وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا (12))

المؤمن كلّه خير :

تجد المؤمن كله خير، كلّه أعمال صالحة، إذا تكلَّم ذكر الله، وإذا تحرَّك نفع الناس، وإذا صَمَتَ فكَّر بآيات الله، هكذا النبي علّمنا قال أمرت:

((أن يكون صمتي فكراً، ونطقي ذكراً، ونظري عبرة))

[القرطبي في تفسيره عن أبي هريرة]

إذا مات المؤمن بَكَتْ عليه السماوات والأرض بدليل أن الكفار إذا ماتوا:

(فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ)

[سورة الدخان: آية 29]

لا تبكي عليهم بل بالعكس تستريح منهم.. النبي عليه الصلاة والسلام:

((مُرَّ عَلَيْهِ بِجِنَازَةٍ فَقَالَ مُسْتَرِيحٌ وَمُسْتَرَاحٌ - لم يفهم أصحاب النبي ماذا قال النبي- قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا الْمُسْتَرِيحُ وَالْمُسْتَرَاحُ مِنْهُ قَالَ: الْعَبْدُ الْمُؤْمِنُ يَسْتَرِيحُ مِنْ نَصَبِ الدُّنْيَا وَأَذَاهَا إِلَى رَحْمَةِ اللَّهِ وَالْعَبْدُ الْفَاجِرُ يَسْتَرِيحُ مِنْهُ الْعِبَادُ وَالْبِلَادُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ))

[البخاري عن أبي قتادة]

(وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ)

بالله عزَّ وجل..

(وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا (12))

لا خير فيكم.

حجم الإنسان عند الله بحجم عمله الصالح :

الإنسان يعيش عمراً إما أن يكون هذا العمر كلّه خيراً أو شراً، الله سبحانه وتعالى أقسم بعمر النبي فقال:

(لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ (72))

[سورة الحجر]

وكل واحد منَّا يسأل نفسه ماذا قدَّمت للإسلام؟ ماذا فعلت؟ ما نوع عملي؟ حجمك عند الله بحجم عملك الصالح، ماذا نفعت؟ هل دعوت إلى الله؟ هل أمرت بالمعروف؟ هل نَهَيْتَ عن المنكر؟ هل أعنت المسكين؟ هل أطعمت الفقير الجائع؟ ماذا فعلت؟

(وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا (12) وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا (13))

الإنسان إذا لم يؤمن بالله موجوداً، وكاملاً، وواحداً، وبالتالي لم يؤمن بمنهجه؛ بكتابه، وسنة رسوله، سيتفلت من هذا المنهج، وحينما يتحرَّك الإنسان حركة عشوائية سوف يعتدي على الآخرين، وسوف يأخذ ما ليس له عندئذٍ يستحق النار..

(وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا (13))

باب التوبة مفتوح أمام كل إنسان :

لكن رحمة الله عزَّ وجل وتربيته تُشير إلى أن باب التوبة مفتوح أمام هذا الإنسان الشارد، الشيء اللطيف في القرآن الكريم أنه كلَّما وصف الله أهل النِفاق أو أهل الكفر، كلَّما وصف الله مشاهد يوم القيامة يأتي باب التوبة ليُفتَح، قال:

(وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

[سورة الفتح: آية 14]

قيل: إن هذه المُلكية أعلى أنواع المُلكية خَلقاً، وتصرُّفاً، ومصيراً.

معمل طائرات يصنع طائرةً ويبيعها، صنعها وانتهى الأمر، أما الآن هي في يد جهة أخرى تتصرَّف بها..

(وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى)

[سورة النحل: آية 60]

الله عزّ..

(خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (62))

[سورة الزمر]

(لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (54))

[سورة الأعراف]

ملك الله عزَّ وجل ملك خلق ومُلك تصرُّفٍ ومُلك مصير :

إذاً معنى..

(وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

[سورة الفتح: آية 14]

خلقاً، وتصرُّفاً، ومصيراً، قد تملك ولا تنتفع، وقد تنتفع ولا تملك، وقد تملك وتنتفع والمصير ليس لك، لكن ملك الله عزَّ وجل مُلكٌ، ملك خلقٍ، ومُلك تصرُّفٍ، ومُلك مصيرٍ، هذا معنى قول الله عزَّ وجل:

(وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ)

أحاول أن أقرب هذا المعنى للأذهان؛ مرض عضال الشفاء منه عن طريق الجراحة وطريق الدواء أيهما تختار؟ لا شك طريق الدواء هو الأجدى عندك، وكذا الإنسان إذا استجاب لله عزَّ وجل يَشْفَى من أمراضه دون أن يدفع الثمن باهظاً، أما إذا ركب رأسه ولم يستجب لله عزَّ وجل عندئذٍ يُغْفَر له ولكن

متى؟ بعد عذابٍ شديد، فإما أن يُغفَر لك بالدعوة البيانية واستجابتك لهذه الدعوة، وإما أن يُغفَر لك بعد معالجةٍ مرَّة سببها عدم استجابتك لأمر الله.

(وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (16))

[سورة الفتح: آية 16]

تعذيب تأديب، تعذيب معالجة..

(وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (14))

العطاء الإلهي نوعان :

كل أفعال الله تنطلق من حرصه على مغفرة ذنوب عباده،ثم رحمته بهم، المغفرة تنظيف، والعطاء الإلهي نوعان: نوع سلبي يغفر، يُطهِّر، والنوع الثاني يمنح، فربنا عزَّ وجل غفور رحيم، غفور يُطهر الإنسان من ذنوبه، ورحيم يتجلى عليه، هذه الآية تُشير إلى أن هؤلاء الأعراب الجُفاة الذين تخلَّفوا عن رسول الله، والذين ظنوا بالله ظن السوء، والذين زُيِّنَ لهم أن النبي لن يعود إلى المدينة، مع كل ذنوبهم وانحرافهم ومع ذلك باب التوبة مفتوحٌ أمامهم..

(سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا)

[سورة الفتح: آية 15]

الله عزَّ وجل لا يُعطي إلا بعد أن يمتحن :

بعد صلح الحديبية توجَّه النبي إلى خيبر ليفتحها، وخيبر فيها غنائم كثيرة، المنافقون بحاسَّتهم السادسة شعروا أن هناك في هذه الغزوة مغانم كثيرة، حينما غَلَبَ على ظنّهم أن النبي لن يعود تخلوا عنه واعتذروا..

(شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا)

وحينما غلب على ظنّهم أن هناك مغانم كثيرة من خَيْبَر قالوا:

(ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ)

نحن معكم..

(سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ)

الله عزَّ وجل لا يُعطي إلا بعد أن يمتحن، فالإنسان إذا رَسَب في الامتحان لا يُعطى شيئاً، الإمام الشافعي سُئل: أندعو الله بالتمكين أم بالابتلاء؟ فأجاب إجابة رائعة، قال: " لن تُمكَّن قبل أن تبتلى ".

تظن نفسك ذكياً جداً، الأخطار تلافيتها، والمغانم سعيت إليها، هذا شيء لا يكون، حينما غَلَبَ على ظنِّهم أن النبي لن يعود إلى المدينة وأنه مقتول هو وأصحابه قالوا:

(شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا)

أما حينما غلب على ظنهم أن هذه الغزوة ناجحة وهناك مغانم كثيرة فقالوا:

(ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ)

الله عزَّ وجل نهى نبيه الكريم عن أن يقبل معه المنافقين :

هذا الكلام ينطبق على معظم الناس، يهرب من تكاليف الدين، ويسارع إلى المغانم، يتنصل من الأعمال الشاقة متوارياً عن الأنظار، ويتواجد عند الغنائم تراه في المقدِّمة، وهذا الإنسان يظن نفسه أنه ذكي، يريد الجنَّة بلا ثمن، يريد الدنيا بلا ثمن، وهذا شيء مستحيل، هذا خلاف سنة الله عزَّ وجل، خلاف سنن الله في خلقه..

(قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا)

[سورة الفتح: آية 15]

هكذا قال الله عزَّ وجل، نهى الله نبيه عن أن يقبل معه المنافقين، لن تذهبوا معي أبداً، ولن تقاتلوا معي عدواً أبداً.

الغُنمُ بالغُرم :

ويوجد رأي آخر: إن الله سبحانه وتعالى أوحى إلى نبيه أن الصحابة الكرام حينما فاتهم فتح مكة فوعدهم بغنائم خيبر حصراً لمن كان مع النبي في الحديبية، على كلٍّ التوجيه الأول قرآني والثاني نبوي، هؤلاء المنافقون يريدون أن يبدِّلوا كلام الله، أي يبتعدون عن المغارم ويقبلون على المغانم، والقاعدة الشهيرة: " الغُنمُ بالغُرم ".. ندعو الله بالتمكين أم بالابتلاء؟ قال: لن تُمكَّن قبل أن تبتلى.. والمؤمن يريد مغانم الإسلام فقط، الإسلام فيه جهاد، الإسلام فيه ضبط الجوارح، ضبط الأعضاء، الإسلام فيه بذل، فيه صدقة، فيه ضبط الشهوات، بعد ضبط الشهوات، والمجاهدة، وضبط الدخل، وضبط الإنفاق، الله عزَّ وجل يُعلي قدر الإنسان، يرفع ذكره، أما يريد أن يُرفع ذكره بلا ثمن، فيتحطَّم..

(سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا)

أي أنتم أنانيون تريدون هذه الغنائم لكم وحدكم؟!

(بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا (15))

[سورة الفتح: آية 15]

قولوا ما شئتم لن تتبعونا.

الله عز وجل يفتح باب التوبة دائماً لعباده :

لكن ربنا عزَّ وجل رحيم، هؤلاء الذين أرادوا أن يأخذوا المغانم دون المغارم، أرادوا أن يتبعوا النبي في فتحه لخيبر وأن يبتعدوا عنه في الحديبية، هؤلاء الذين ظنوا أنهم أذكياء يقبلون على المغانم ويتنصَّلون من المغارم، هؤلاء أنفسهم الله لا يتخلى عنهم فيقول:

(قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ)

[سورة الفتح: آية 16]

توجد عندكم فرصة ثانية، إذا أقبلتم على بذل الجُهْد فإنه بعد هذا الجهد غنيمةٌ تأخذونها ..

(تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (16))

ربنا عزَّ وجل يفتح باب التوبة، توجد فرصة ثانية.

يُروى أن رجلاً رأى نملةً صعدت ونزلت ووقعت أربعين مرَّة، وكان عمره أربعين سنة، في الأربعين طلب العلم وتعلَّم القراءة والكتابة، وحفظ كتاب الله عزَّ وجل، ولم يمت إلا وهو شيخ الأزهر، قال: علَّمتني الحياة نملة وقعت أربعين مرة.

الله عزَّ وجل حينما يعلم من الإنسان الصدق يأتيه بنفحة ينسى بها كل متاعبه :

أنت استقم، وتُب إلى الله، واقرأ القرآن، وغض بصرك، وحرر دخلك ونفسك، و إن تفلّت فارجع وجرب المحاولة مرَّة ثانية، ومحاولة ثالثة، ورابعة، وخامسة، المؤمن مذنب توَّاب، كثير التوبة والأوبة إلى الله عزَّ وجل، فلا يستسلمنّ الإنسان إذا زلَّت قدمه مرَّة، وغلط مرَّة، وانحجب مرَّة، ولا يظنن أن حياته انتهت هذا جبن وصغار، أيعقل أن تكون النملة أشد تصميماً منك؟ نملةٌ علَّمت رجلاً فصار شيخ الأزهر، هذا الثبات والتصميم..

أخلق بذي الصبر أن يحظى بحاجته ومدمن القرع للأبواب أن يلجا

***

اجلس كل يوم واذكر الله عزَّ وجل.. ولا تيأسنَّ من المرة الأولى، في اليوم الثاني، الثالث، أول أسبوع والثاني تشعر بالراحة، أراد الله أن يمتحن صدقك، اقرأ القرآن كل يوم ستأتيك ساعة وتأتي نفحة تنسيك

التعب كلّه.. إن لربكم في أيام دهركم نفحات ألا فتعرَّضوا لها.. عرِّض نفسك للنفحة، اقرأ القرآن، صلِّ صلاة متقنة، اذكر الله عزَّ وجل، استغفر وادعُ، أنت بهذا تعرِّض نفسك لنفحةٍ إلهية، وربنا عزَّ وجل حينما يعلم منك الصدق تأتيك النفحة فتنسى بها كل المتاعب السابقة..

(قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (16))

عُذران دائمان وعذرٌ مؤقَّت هذه الأعذار التي يمكن أن تُقبل عند الله :

أما هؤلاء الذين عذرهم الله عزَّ وجل في عدم خروجهم مع رسول الله فقال:

(لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ)

[سورة الفتح: آية 17]

هذا عذر دائم، الأعمى والأعرج..

(وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ)

هذا عذر مؤقَّت..

(وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا (17))

يعذِّبه عذاباً تأديبياً، تعذيباً ليتوب إلى الله عزَّ وجل.

(لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ)

عُذران دائمان وعذرٌ مؤقَّت، هذه الأعذار التي يمكن أن تُقبل عند الله، أما:

(شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا)

هذا عذر غير مقبول، توجد أعذار مقبولة عند الله وعند الناس، وتوجد أعذار غير مقبولة كالتكاسل.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الفتح 048 - الدرس (7-8): تفسيرالآيات 18-24 ، أعظم هدف للإنسان أن يطلب رضا الله عز وجل

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 31-03-1995

بسم الله الرحمن الرحيم

أعظم هدفٍ يسعى إليه الإنسان رضا الله عزَّ وجل :

أيها الأخوة المؤمنون... مع الدرس السابع من سورة الفتح، ومع الآية الثامنة عشرة وهي قوله تعالى:

(لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا (18))

[سورة الفتح]

أيها الأخوة... ما منا واحدٌ إلا وله هدفٌ يسعى إليه، الأهداف على تنوِّعها إن كانت متعلقةً بالدنيا تنتهي عند الموت، فلو حَصَّلت مالاً وفيراً، أو منصباً رفيعاً، أو مكانة اجتماعية، أو انغمست في متعٍ أرضيةٍ، كلُّ هذه المكاسب تنتهي عند الموت، لكن أعظم هدفٍ على الإطلاق يُمكن أن تسعى إليه ويمكن أن يستمر مكسبه إلى أبد الآبدين هو أن تطلب رضاء الله عزَّ وجل، لأن الله إذا رضي عنك نِلْتَ كل شيء، وكنت الفائز الأكبر، والرابح الأكبر، والمُفلح الأكبر.

(لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ)

هذه الآية ألا تَهُزُّ المشاعر؟ خالق السماوات والأرض، إذا كان الأرض لا تُرى في المجموعة الشمسية إلا كالهباء، ذرة، المجموعة الشمسية نقطة في نهر المجرة، مجرَّتنا نقطة من بين المجرَّات، وهذا الكون لا يعلم حدوده إلا الله، لا يعلم نهايته إلا الله، فإذا كان خالق هذا الكون راضٍ عنك ماذا خسرت؟ وماذا فاتك من الدنيا؟ هذا الذي يقولونه: " يا رب ماذا وجد من فقدك؟ وماذا فقد من وجدك؟

((ابن آدم اطلبني تجدني، فإذا وجدتني وجدت كل شيء، وإن فتك فاتك كل شيء، وأنا أحب إليك من كل شيء))

[تفسير ابن كثير]

فلذلك الهدف، إلى ماذا تهدف؟ أتهدف إلى مبلغٍ من المال تحوزه؟ أم إلى مرتبةٍ تنالها؟ أم إلى سمعةٍ تتمتَّع بها؟ أم إلى وجاهةٍ تنعم بها؟ ما الذي يدفعك ويحرِّك سلوكك في هذه الحياة؟ هؤلاء الصحابة الكرام رضي الله عنهم، ليس هذا الرضا رضاً دُعائياً بل رضاً تقريرياً، لقد حرف تحقيق.

رضا الله عز وجل في متناول كل مؤمن :

(لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ)

أول معنى أن رضاء الله في متناول المؤمنين، أحياناً تتمنَّى أن ترضي جهة ولكن لا سبيل إلى إرضائها، لا سبيل إلى أن تصل إليها، ولا إلى أن تتقرب منها، لكن الله سبحانه وتعالى جَعَلَ الطريق إليه سالكاً لكل مؤمن، بإمكانك أن تصل إلى رضوان الله عزَّ وجل بطاعته..

(إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (13))

[سورة الحجرات]

أبلغ كلمة قالها سيدنا عمر لسيدنا سعد، قال له: " يا سعد لا يَغُرَّنَكَ أنك خال رسول الله ".

النبي كان كلما دخل سيدنا سعد يقول:

((هذا خالي فليُرني امْرُؤ خَالَهُ))

[أخرجه الترمذي عن جابر بن عبد الله]

يداعبه، والنبي لم يفدِ أحداً بأمه وأبيه إلا سيدنا سعد، قال له:

((ارْمِ فداك أبي وأمِّي))

[أخرجه البخاري ومسلم والترمذي عن علي بن أبي طالب]

ومع أن النبي فدّاه بأمه وأبيه ومع أن النبي كان يرحِّب به كلما دخل عليه ويقول: هذا خالي فليُرني امْرُؤ خَالَهُ. قال له سيدنا عمر: " يا سعد لا يغرنك أنك خال رسول الله، فالخلق كلهم عند الله سواسية، ليس بينه وبينهم قرابة إلا طاعتهم له ".

عدم استواء من كان في سخط الله ومن كان في رضوان الله :

أحياناً يكون الإنسان له شأن كبير، أقرباؤه في الدرجة الأولى، القرابة ليس لها علاقة بالكسب، لأن قريبه له مكانة عالية، أما الله عزَّ وجل فكما قال سيدنا عمر: " ليس بينه وبينهم قرابة إلا طاعته ". فلا أعتقد أنه يوجد هدف أسمى، ولا أنبل، ولا أعظم، ولا يوجد هناك شيء يقدِّس حياتك ويرفعك من المستوى التافه إلى المستوى الراقي إلا أن تطلب رضوان الله، أي لا يستوي من كان في سخط الله ومن كان في رضوان الله، لا يستوي من لا يتأثر لو كان في سخط الله.

(ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ (28))

[سورة محمد]

هناك إنسان يَتَّبع ما يُسْخِطُ الله ويكره رضوانه، و إنسان آخر رضاء الله عنه يحرَص عليه حرصاً لا حدود له، فلذلك لا تنظر إلى صِغَرِ الذنب ولكن انظر على من اجترأت، الدنيا تفنى، مالها يفنى، نساؤها

تفنى، مناصبها تفنى، وجاهتها تفنى، شهاداتها تفنى، ملذَّاتها تفنى، بيوتها تفنى، قصورها تفنى، بساتينها تفنى، أما إذا كنت مع الله فالله هو الباقي، أول ليلة يوضع الإنسان في قبره يقول الله عزَّ وجل:"عبدي رجعوا وتركوك، وفي التراب دفنوك، ولو بقوا معك ما نفعوك، ولم يبق لك إلا أنا وأنا الحي الذي لا يموت "

شعور المؤمن لا يعرفه إلا من ذاقه :

أخواننا الكرام... هذه الآية كلّما قُرأتْ الإنسان يتأثر:

(لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ)

هل أنت في هذا الطريق؟ في طريق مرضاة الله؟ هل تتمنى رضوانه؟ هل تتمنى أن يتجلّى على قلبك؟ هل تسعد أشد السعادة إذا شعرت أن الله يحبك، وأنك قريبٌ منه، وأنك على منهجه تسير؟

(لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ)

مرضاته ليست صعبة في متناول كل مؤمن، ألا تستطيع أن تضبط لسانك؟ ضبط اللسان ثمن مرضاة الله، ألا تستطيع أن تضبط جوارحك؟ ضبط الجوارح ثمن مرضاة الله، ألا تستطيع أن تتحرَّى الحلال؟ تحرِّي الحلال ثمن رضوان الله، ألا تستطيع أن تتحرك في شهواتك وفق منهج الله؟ نعم، هذا التحرُّك وفق منهج الله ثمن رضوان الله عزَّ وجل، فالشيء ليس مستحيلاً، لا توجد طلبات من الله تعجيزية، مرضاة الله عزَّ وجل في متناول كل واحدٍ منا، يكفي أن يكُفَّ عن الحرام، اتق المحارم تكن أعبد الناس وارض بما قسمه الله تكن أغنى الناس، أدِّ الصلوات الخمس بإخلاص، اضبط الدخل والإنفاق، اضبط الجوارح، أقم الإسلام في بيتك، ربِّ أولادك وبناتك، وزوجتك، فأنت في مرضاة الله.

(لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ)

فشعور المؤمن لا يعرفه إلا من ذاقه، فإذا أويت إلى فراشك وكنت في مرضاة الله هذا الشعور لا يقدَّر بثمن، تشعر بأن الدنيا كلها بين يديك، في أحد الفنادق كتب على السرير: إن لم تنم فالذنب ليس من فروشنا، ولكن من ذنوبك.

طاعة الله عزَّ وجل هي الشيء الوحيد الذي ينال به الإنسان رضوان الله

الإنسان في النهار يتحرَّك وقد يغفل عن حالته النفسية، أما إذا أوى إلى الفراش فتظهر عيوبه ونواياه، الإنسان متى يتألَّم؟ إذا خلا مع نفسه، فإذا كنت تطلب مرضاة الله عزَّ وجل فأنت أسعد الناس، ألا تحفزك هذه الآية إلى أن تكون على منهج الصحابة سائراً؟.

(لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ)

ماذا يرضي الله؟ يرضي الله أن تُحْسِنِ إلى خلقه، يرضي الله أن ترى كل المخلوقات مخلوقاته، الخلق كلهم عيال الله وأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله، يُرضي الله أن كل إنسان وقف في بابك؛ أنت موظف، مهندس، طبيب، عامل، صاحب مصلحة، صاحب حرفة، أن كل إنسان وقف في بابك ترى هذا الإنسان عبداً لله، ويرضي الله أن تُحْسِنَ إليه، وأن تعاونه، هؤلاء كلهم عبيده، أحياناً الإنسان يتقرب لإنسان بخدمة ابنه، أحياناً إنسان يقدِّم لطفل صغير قطعة من السُكَّر، وهي في الحقيقة للأب لا للابن، أراد أن يكرم الأب بإكرام ابنه، وأنت بمتناول يدِّك أن تتقرب إلى الله بخدمة عباده، والله في عون العبد مادام العبد في عون أخيه، فأول نقطة أن رضوان الله في متناول البشر، بيدك، وطاعة الله عزَّ وجل هي الشيء الوحيد الذي تنال به رضوان الله..

(إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (13))

[سورة الحجرات]

على كل إنسان أن يتوخى مرضاة الله عزَّ وجل :

بقي المؤمن الصادق في كل حركة، في كل سكنة، في نومه، في يقظته، في كل حركة يسأل: ما الذي يرضي الله؟ أنا حلفت يميناً ألا أزور أختي، أيرضي الله أن أحنث بهذه اليمين وأن أزورها وأن أُكَفِّرَ عنها؟ هكذا يرضي الله، أنا حلفت ألا أتكلم مع فلان، أيرضي الله أن أسلم عليه؟ المؤمن قال:

لو قال تيهاً قف على جمر الغضاء لوقفت ممتثلاً ولم أتوقف

أو كان من يرضى بخدي موطئاً لوضعته أرضاً ولم أستنكف

***

تيهاً: أي محبوبه.

إذا كان الله غالياً عليك من أجل أن ترضيه تفعل كل شيء، فالتبر يستوي عندك والتراب في مرضاة الله عزَّ وجل، يستوي عندك رضوان الناس عنك أو سخطهم، فالأبيات التي يقولها بعض العارفين بالله:

فليتك تحلو والحياة مريرة وليتك ترضى والأنام غضاب

***

لو أن الأنام كلهم غضبوا عنك والله جلَّ جلاله راضٍ عنك فبهذا تسعد.

فليتك تحلو والحياة مريرة وليتك ترضى والأنام غضاب

وليت الذي بينك وبينك عامرٌ وبيني وبين العالمين خراب

***

أحياناً تكون هناك علاقات عامرة بينك وبين الله ومع الناس في أسوأ حال فلا يوجد مانع، الأصل أن تتوخى مرضاة الله عزَّ وجل، ولك في الصحابة أسوةٌ حسنة:

(لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ)

على الإنسان ألا يعظِّم إلا الله عزَّ وجل :

شيء آخر: يا ترى سيدنا الصديق ألم يكن مع الصحابة في هذه البيعة؟ سيدنا عمر ألم يكن مع الصحابة في هذه البيعة؟ فإذا كان الله رضي عن أُنَاسٍ أيحق لك أن تغضب عليهم أنت؟ فمن أنت أساساً؟ إذا الله عزَّ وجل رضي عن المؤمنين وفيهم الصحابة الكرام الأربعة الراشدون فهل يحق لإنسانٍ كائناً من كان ألا يرضى عنهم؟ وما يزنُ عدم رضائك عنهم؟

(لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ)

تروي الكتب أن هذه الشجرة ضاعت عن الناس لحكمةٍ أرادها الله عزَّ وجل، صحابةٌ كرام في العام التالي توجَّهوا إلى مكان البيعة فلم يجدوا الشجرة، سيلٌ جرفها، نارٌ أحرقتها، ويُروى أن سيدنا عمر رضي الله عنه قطعها، هذه رواية وردت وتلك رواية وردت، إما أن الله سبحانه وتعالى تولَّى بنفسه أن يذهبها من مكانها لئلا تُعْبَد من دون الله، أو سيدنا عمر أمر بقطعها، لأننا نحن في الإسلام لا نعظِّم إلا الله عزَّ وجل، وأول بدايات عبادة الأوثان أساسها تعظيم رجال صالحين أو أماكن وهكذا، فلذلك من الحكمة أن سيدنا عمر أمر بقطعها لئلا تُعْبَدَ من دون الله، وبالطبع ليست القيمة للشجرة بل لمن بايع تحت الشجرة، ليست القيمة للمكان بل لمن كان في المكان:

(لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا (18))

أكمل موقف ألا يجري الإنسان على لسانه عن صحابي جليل أنه أخطأ أو لم يخطئ

من لوازم الآية السابقة مادام الله عزَّ وجل في القرآن الكريم، وفي آيةٍ قطعية الدلالة، يبيِّن أنه رضي عن المؤمنين الذين كانوا مع النبي، والذين كانوا مع النبي التاريخ يعرف أسماءهم واحداً واحداً، لذلك إذا نُشِبَ خلافٌ بينهم ينبغي أن تسكت أنت:

((إذا ذكر أصحابي فأمسكوا))

[الطبراني عن عبد الله بن مسعود]

فأنت لست في مستوى أن ترى الحق مع من:

((إذا ذكر أصحابي فأمسكوا))

[الطبراني عن عبد الله بن مسعود]

هذا أكمل موقف، أكمل موقف تقفه فيما نُشِب بين الصحابة بعد وفاة النبي أن تلزم الصمت.. كجنديين غرِّين يتناقشان في مكانة رئيسي أركان، فمن أنت أمام أيهم أفهم؟ هذا الشيء فوق مستوى هذين الجنديين، ممرضان يتناقشان في أي طبيبي القلب أمهر؟ هذا النقاش فوق مستوى هذين الممرضين، فلذلك:

((إذا ذكر أصحابي فأمسكوا))

[الطبراني عن عبد الله بن مسعود]

أكمل موقف ألا تجري على لسانك عن صحابي جليل أنه أخطأ أو لم يخطئ، الحق معه، الحق مع خصمه، هذه المعلومات لا تعنينا إطلاقاً لأن الله سبحانه وتعالى رضي عنهم أجمعين، وإذا اختلفوا فباجتهادات فيما بينهم، والمجتهد في الإسلام له أجر؛ من اجتهد وأخطأ فله أجر، ومن اجتهد فأصاب فله أجران.

لا يعني هذا أنهم معصومون كالنبي، إلا أن الله سبحانه وتعالى رضي عنهم، ورضاء الله عنهم يكفينا أن نصمت وأن نمسك ألسنتنا عن أن نخوض فيما بينهم.

على الإنسان أن يستهلك وقته فيما يرضي الله لا في القيل و القال :

شيء آخر: لا يعنينا أن نسترجع من التاريخ مشكلات نعانيها الآن، هذه القضايا مضت وعفا الزمان عنها، وكل واحد انقلب إلى رحمة الله، وكل واحد له مكان عند الله، بحسب إخلاصه، بحسب صدقه، بحسب بذله وتضحيته، هذا الشيء لا يعنينا أبداً، يعنينا أن الله سبحانه تعالى أخبرنا أنه رضي عنهم أجمعين، لذلك النبي الكريم قال:

((إذا ذكر القدر فأمسكوا، وإذا ذكر أصحابي فأمسكوا))

[الطبراني عن عبد الله بن مسعود]

((لا تسبوا أحدًا من أصحابي ، فإن أحدكم لو أنفق مثل أحد ذهبًا ما أدرك مُد أحدهم ولا نصيفه))

[البخاري و مسلم عن أبي سعيد الخدري]

ونحن لسنا في مستوى أن نحكم بينهم، ولا أن ندخل في التفاصيل التي كانت بينهم، ولا يعنينا إلا أن الله رضي عنهم، ويعنينا أن نسير على منهجهم، وأن نقتفي أثرهم، لأن الله رضي عنهم، والآية التي أذكرها كثيراً:

(تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (134))

وَفِّر وقتك، الوقت ثمين جداً، والهدف كبير، والرسالة كبيرة، والزمن قصير، والموت على الأبواب، فهذا الوقت الثمين لا تستهلكه في قيل وقال، والحق مع مَنْ؟ والخلاف مِن حق مَنْ؟ هذا الوقت الثمين لا تستهلكه في هذه الموضوعات، استهلكه في القُربات من الله عزَّ وجل، استهلكه فيما يرضي الله..

(تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (134))

الموت يلغي كل شيء :

أول معنى: أن أعظم هدفٍ على الإطلاق تتحرَّك نحوه أن تطلب مرضاة الله عزَّ وجل، وإذا رضي الله عنك نِلتَ كل شيء، ما فاتك شيء، وإذا فاتك أن يرضى الله عنك ما نلت شيئاً وخسرت كل شيء، والدنيا منقطعة يأتي الموت يلغي كل شيء، يلغي غنى الغني، وفقر الفقير، وقوة القوي، وضعف الضعيف، ووسامة الوسيم، ودمامة الدميم، وصحة الصحيح، ومرض المريض، الدنيا تنتهي، لكن الذي يبقى رضوان الله عزَّ وجل.

(لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ)

هناك نقطة ثالثة، أولاً: أعظم هدف، ثانياً: إذا رضي الله عن أناس لا يحق لإنسان كائناً من كان ألا يرضى عنهم، المعنى الثالث: رضوان الله على الإنسان في متناول الإنسان، طاعة الله وحدها طريق رضوانه، الرضا في متناول يدك، وإذا رضي الله عن إنسان لا يحق لك أن تتكلم عنه أنت.

الله عزَّ وجل لا يحتاج إلى بيان أو قسم لأنه يعلم السر و أخفى :

والمعنى الرابع: أن هؤلاء الصحابة رضي الله عنهم لا على شيءٍ فعلوه بل على نيةٍ عَقَدوها، ما حاربوا، هذا أبلغ شيء.

((إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى))

[أخرجه البخاري عن عمر بن الخطاب]

ما فعلوا شيئاً، عاهدوا النبي على بذل الغالي والرخيص، والنفس والنفيس، والله عزَّ وجل ما حمَّلهم هذه الحرب، إذاً يمكن أن تصل إلى رضوان الله بالنية الصادقة فقط، لذلك هنيئاً لمن كانت نواياه طيبة للناس، هنيئاً لمن ينوي الخير للناس جميعاً، لمن يحب عباد الله، لمن لا يحسدهم، لمن لا يطعن بهم، لمن لا يوقع بينهم العداوة والبغضاء، نِيَّتُكَ وحدك سبب رضوان الله عنك.

(فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ)

الله عزَّ وجل لا يحتاج لا إلى بيان، ولا إلى فاتورة، ولا إلى قسَم، ولا إلى يمين.

(وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى (7))

[سورة طه]

يعلم ما أسررت، وما يخفى عنك يعلمه، فعلم ما في قلوبهم.

نية المؤمن خير من عمله :

الإنسان إذا كانت نواياه طيبة، الله عزَّ وجل يكافئه على نواياه الطيبة، وقد ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم:

((نية المؤمن خير من عمله ونية الكافر شرٌ من عمله))

[الطبراني عن سهل بن سعد]

لو اطلعت على ما في نفسه يتمنَّى أن يمحى الحق من الأرض، ألا يبقى مسجدٌ يذكر فيه اسم الله، فهذه تمنياته، لكن الله لا يسمح له بذلك، أما المؤمن فيتمنَّى أن يعُمَّ الهدى الأرض كلها، يتمنى أن يعيش الناس كلُّهم في بحبوحة، يتمنى أن ينتشر الحق، أن يعم الفضل، لذلك تَفَحَّص نِيَّتَك دائماً، أخواننا الكرام ورد: درهمٌ تنفقه في إخلاص خيرٌ من مئة ألف درهمٍ يُنفق في رياء- درهم واحد - رب درهم سبق ألف درهم.

((يا معاذ أخلص دينك يكفك القليل من العمل))

[الحاكم في المستدرك عن معاذ بن جبل]

سيدنا الصحابي الجليل زيد الخيل لما التقى النبي قال: من أنت؟ قال: أنا زيد الخيل، قال: بل أنت زيد الخير. بدل له اسمه، أعجب النبي قال: والله يا زيد ما وصِفَ لي رجلٌ فرأيته إلا رأيته دون ما وصف إلا أنت يا زيد. دعاه إلى بيته، أعطاه وسادة ليتكئ عليها قال: والله يا رسول الله - ولم يمض على إسلامه إلا وقتٌ قصير- لا أتكئ في حضرتك.. ما هذا الأدب؟.. قال: يا رسول الله أعطني ثلاثمئة فارس لأغزو بهم الروم، فقال عليه الصلاة والسلام: لله دَرُّكَ يا زيد، أي رجلٍ أنت؟! والقصة تعرفونها.. قال: كيف أصبحت يا زيد؟ قال: أحب الله ورسوله، أصبحت أحب الخير وأهله، إذا قدرت عليه بادرت إليه، وإذا فاتني حزنت عليه. غادر المدينة وفي الطريق توفَّاه الله.. فإنسان حصل على كل هذا المقام في يومين أو ثلاثة أيام.. " أخلص دينك يكفك القليل من العمل ".

سحرة فرعون في ثوان أصبحوا من كبار المؤمنين، الإنسان إذا صدق فلا توجد مرحلة أمامه، يحرق المراحل كلها، فلذلك رضي الله عن الصحابة الكرام.

حاجة الإنسان إلى فهم كلام الله :

كأن الإسلام هرم، والله أعلم، أول قسم القرآن الكريم، القسم الثاني السنة القولية، الأحاديث بيان لكتاب الله، القسم الثالث السنة العملية، سلوك النبي أوضح في الدلالة على فهمه لكلام الله من كلامه، لذلك أنت في حاجة إلى فهم كلام الله، وفهم سنة النبي القولية، وفهم سنته العملية، آخر قسم سِيَر الصحابة، لأن الصحابة فيهم كل النماذج، فيهم الشاب، الكبير، الفقير، والغني، فيهم جميع النماذج، لا بدَّ من أن ترى نموذجاً مشابهاً لك من الصحابة، لتقتدي به، هذا بجماله، هذا بشبابه، هذا بدعوته، هذا بلسانه، هذا بعلمه، هذا شاب، هذا كبير، هذا غني، هذا فقير، فأنت بحاجةٍ ماسَّة إلى أن تفهم كلام الله، وأن تفهم تفسيره من رسول الله، سنته القولية، وأن تفهم دقة فهم النبي لكلام الله من سنته العملية، ثم أن تقف على سِيَرِ الصحابة الكرام لترى لماذا رضي الله عنهم هؤلاء؟.

(لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا (18))

المؤمن حينما يرضي الله تتنزَّل على قلبه السكينة و الطمأنينة :

هذه السكينة فيها آيات كثيرة، شَهِدَ الله أنها أثمن شيءٍ تناله في الدنيا من الله، الله عزَّ وجل قد يُعْطي المال للناس، قد يعطي الصحة يقول لك: صحته مثل الحصان، أو شيء ثان، أو يعطي الذكاء لكنه لا يعطي السكينة إلا بقدرٍ لأصفيائه المؤمنين، هذه السكينة خاصة بالمؤمنين يمكن أن ترى كافراً غنياً، وقوياً، ووسيم الطلعة، وذكياً، أما المؤمن فيتميَّز عطاء الله له بالسكينة، فتجده مطمئناً، الكافر قلبه يغلي قلقاً، يغلي حسداً، يغلي كَمَداً، يغلي ضجراً، يغلي تمزُّقاً، يغلي ضياعاً، المؤمن مستقر لأنه شعر أن خالق الكون راض عنه، جندي قائد الجيش يحبه، ما شعوره؟ شعور لا يقدَّر بثمن، لا يخاف من أحد، لا يوجد عنده وقاحة ولكنه أديب ومحمي، لا يجرؤ إنسان في كل هذا السلك أن يناله بأذى، وهذا مثال للتقريب، المؤمن حينما يرضي الله عزَّ وجل تتنزَّل على قلبه السكينة، تسميها حالاً هي الحال، تسميها السعادة هي السعادة، تسميها الأمن هي الأمن، الطمأنينة الطمأنينة، الله أسماها السكينة..

(لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا (18))

المؤمن مقدَّس أحواله الداخلية راقية جداً :

المؤمن مقدَّس، معنى مقدس أي أن أحواله الداخلية راقية جداً، لا توجد عنده نوايا سيئة، لا يوجد عنده قلق.

إذا كنت في كل حـالٍ معي فعن حمل زادي أنا في غنى
وإذا العنـاية لاحظتك جفونـها نَمْ فالمخاوف كلهن أمـان

***

الحياة كلها مقلقة، والله إذا الإنسان ترك الإيمان، وترك طاعة الرحمن، والله يعاني من آلام ومن مخاوف لا يعلمها إلا الله، ألف سيف مسلط فوق رقبتك، هكذا الحياة الحديثة، هذه الحياة المعاصرة هكذا، مقلقات بالصحة، مقلقات بالدخل، مقلقات بالتجارة، راكب مركبتك فتنام فجأة فتصاب بحادث يصيب عمودك الفقري فتصبح مشلولاً، أخطار، كيفما تحركت هناك أخطار، أما إذا تعرَّفت إلى الواحد الديان ورضي الله عنك، فأول ثمرة من ثمار الإيمان ينزل على قلبك السكينة، ساكن في بيت صغير فأنت أسعد الناس، عندك دخل وسط، أسعد الناس، عندك أولاد وسط، وزوجة وسط، كله وسط، وأنت أسعد الناس بهم، والذي عنده الدرجات العليا من كل شيء تجده شقياً، فالله إذا منح السكينة منح كل شيء، وإذا حَجَبَ عنك السكينة حجب عنك كل شيء، الله أسماها رحمة.

(مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (2))

[سورة فاطر]

الله إذا حجب عن الإنسان الرحمة، أو السكينة، أو الأمن، حجب عنه كل شيء، وإذا منحه السكينة منحه كل شيء، والسكينة ثمنها طاعة الله عزَّ وجل، وبين الطاعة والسكينة في رضوان الله، وشتَّانَ بين أن تكون في رضوان الله وبين أن يكون الإنسان في سخط الله:

(ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ (28))

[سورة محمد]

المؤمن يضحي بالنفس والنفيس والغالي والرخيص مقابل أن يرضى الله عنه :

المؤمن يقول لك: أنا أريد رضا الله عزَّ وجل، يضحي بالدنيا كلها، يضحي بالنفس والنفيس والغالي والرخيص مقابل أن يرضى الله عنه، المال تحت قدمه إذا كان إنفاقه يرضي الله، والمال تحت قدمه إذا كان تركه يرضي الله، لذلك المؤمن تجده كريماً لأنه يعرف ما عند الله، أحدهم قال للنبي: لمن هذا

الوادي؟ قال له: هو لك. قال: أتهزأ بي؟! واد من غنم بالملايين، قال: هو لك. فقال: أشهد أنك رسول الله تعطي عطاء من لا يخشى الفقر. لذلك لا يجتمع في قلب مؤمن بُخل ولا جبن أبداً، فالبخل والجبن من علامات ضعف الإيمان، إذا كان ضعف الإيمان فتجد هناك بخل، يحرص.

(إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا (19) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا (20) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا (21) إِلَّا الْمُصَلِّينَ (22))

[سورة المعارج]

من آثر الآخرة على الدنيا كسبهما معاً :

ثم يقول تعالى :

(لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا (18))

بايعوا وكل طموحهم أن يصلوا إلى مكة، ويطوفوا حول البيت، وأن يعتمروا، الله عزَّ وجل رضي عنهم، وأنزل على قلبهم السكينة، وأثابهم فتحاً قريباً، والذي تمنوه وصلوا إليه.

(وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (19))

[سورة الفتح]

فحتى الدنيا الإنسان إذا طلب مرضاة الله أتته وهي راغمة: "عبدي أنت تريد وأنا أريد فإذا سَلَّمْتَ لي فيما أريد كفيتك ما تريد، وإذا لم تسلّم لي فيما أريد أتعبتك فيما تريد ثم لا يكون إلا ما أريد ".

من آثر الآخرة على الدنيا كسبهما معاً- ربحهما معاً- ومن آثر الدنيا على الآخرة خسرهما معاً، هم ضَحّوا بأرواحهم في البيعة، عاهدوا الله على بذل كل شيء، الله عزَّ وجل ما أخذ منهم شيئاً، كَفَّ أيدي الناس عنهم، وأثابهم فتحاً قريباً، ومغانم كثيرةً تأخذونها، لذلك:

((اسْتَقِيمُوا وَلَنْ تُحْصُوا))

[رواه ابن ماجه وأحمد والدارمي عَنْ ثَوْبَانَ]

دنيا، ومال، وصحة، ومكانة، ومرضاة الله، وذكر عريض:

((أوحى ربك إلى الدنيا أنه من خدمكِ فاستخدميه ومن خدمني فاخدميه))

[ورد في الأثر]

(وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ (46))

[سورة الرحمن]

من يصطلح مع الله عز وجل تتبدل حياته تبدلاً جذرياً :

لذلك:

(وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا (18) وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (19))

[سورة الفتح]

فعندما تكون ماشياً مع الله عزَّ وجل فالخير كله معك، الدنيا كلها، عِزُّ الدنيا، طمأنينة الدنيا، سعادة الدنيا، عِزُّ الآخرة، ما يوجد الآخرة من نعيمٍ مقيم، أنت مع خالق الكون.

((مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ))

[من سنن الترمذي عن أبي هريرة]

والإنسان عندما يرتدي ثيابه، ويخرج من بيته ليستمع إلى مجلس علم، فهذا طريق الجنة:

((مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ))

[من سنن الترمذي عن أبي هريرة]

و:

((إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضاً بما يصنع))

[الترمذي عن زر بن حبيش]

أنت لست ماشياً مع جهة أرضية، مع جهة يجوز أن تنجح أو ألا تنجح، أنت بقلق، هناك أناس ربطوا مصيرهم مع جهة أرضية فلما انهارت انهاروا معها، أنت مع الحق، مع خالق السماوات والأرض، مع الأبدي السرمدي، مع مالك المُلك، مع الذي بيده كل شيء، مع الذي بيده مفاتيح السماوات والأرض..

(وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (19))

[سورة الفتح]

والله أنا هذا الذي أراه، إخواننا الكرام أحياناً أسمع من أخ مخلص وصادق، لما اصطلح مع الله بصدق، وتعامل مع الله بإخلاص، تجد دنياه تبدَّلت، فالشيء واضح جداً، واضح كالشمس، فالأمور كلها لصالحه، هناك دعم إلهي، ودفاع عنه، مَحْمي، إله يدافع عن مؤمن.

(إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ (38))

[سورة الحج]

يشعر بود مع الله، فهناك تبدُّل جذري يصيب حياة المؤمن حينما يصطلح مع الله، تبدل جذري.

(وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ)

[سورة الفتح: آية20]

العطاء الحقيقي لا يكون إلا في الآخرة :

هذا الصلح الذي دام سنوات عِدَّة وكَفَّ أيدي الناس عنكم هذه مغانم أولى، ثم جاءت المغانم الأخرى بفتح مكة، وغزو خيبر، وأخذ غنائم خيبر، فالمغانم لا تُحصى في الدنيا والآخرة، لكن العطاء في الدنيا عطاء تشجيعي، لو وزن ما في الدنيا لا يعدل عند الله جناح بعوضة، العطاء الحقيقي في الآخرة، لكن ربنا عزَّ وجل لا بدَّ من أن يُرِيَ المؤمن من آياته الدالة على محبته له، فأنت مخلص مستقيم، تبذل الغالي والرخيص، لا بدَّ من أن يريك الله من آياته التي تشعرك أنه يحبك، وأنك في رضوانه، فأحياناً شخص - ليس هذا الموقف حكيماً- يكون في أعماقه راضياً عن ابنه، لكنه لا يعطيه وجهاً أبداً، دائماً مقصِّر، الابن يجهد، أما ربنا عزَّ وجل إذا رضي عن عبد فيُعْلِمُهُ بذلك، كيف يعلمه؟ يريه آية من آياته، أحياناً بالتوفيق، بالتيسير، بالحفظ، بالنصر، بالتأييد، بالإكرام، بالكرامة أحياناً، فالله عزَّ وجل قال:

(وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا (20))

[سورة الفتح]

إذا أخلصت لله عزَّ وجل في طاعتك لا بدَّ من أن يريك أنه يحبك :

أحياناً الإنسان يقول لك بلسانه: أنا راض عنك، أحياناً يبتسم لك، أحياناً يصافحك بحرارة، أحياناً يثني عليك، هذا موقف إنسان لإنسان، أما الواحد الديَّان إذا رضي عن عبد فكيف يعلم هذا العبد أن الله راضٍ عنه؟ أحياناً يشعر هذا بالتوفيق، بالطمأنينة، بالتجلّي في قلبه، بالسكينة، أحياناً يشعر أن الله يدافع عنه، كأنه محمي، الله عزَّ وجل إذا كاد له الناس يكيد الله لهم.

(إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا (15) وَأَكِيدُ كَيْدًا (16))

[سورة الطارق]

هذا الشيء من آيات الله الدالة على محبته للمؤمنين.

فمن الممكن أن نقول: إذا أخلصت لله عزَّ وجل في طاعتك، وتقرَّبت إليه ببذل ما عندك، لا بدَّ من أن يريك الله من آياته التي تطمئِنُك ويشعرك أن الله يحبك، فالله عزَّ وجل أولاً رضي عنهم، أنزل على قلبهم السكينة، أثابهم فتحاً قريباً، مغانم كثيراً، ووعدهم بمغانم أكثر، وكف أيدي الناس عنهم قال:

(وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ)

من تقرب من الله تقرب الله منه :

الآن اسأل مؤمناً معاصراً يقول لك: والله الله وفقني بالزواج، وبشراء بيت، ومرتاح والحمد لله، وأموري منتظمة، وعندي أولاد أبرار، تجد المؤمن وهو لا يشعر ينطق بفضل الله عنه، فالله عزَّ وجل أنت قربت منه، فالله أيضاً يقرب منك، هكذا الحديث القدسي يقول:

((إِذَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي شِبْرًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا ، وَإِذَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا ، وَإِذَا أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ أَهَرْوَلُ))

[البزار عن سلمان الفارسي]

أي إذا أنت قرَّبت فالله يقرب، أنت بذلت الله يعطيك، أنفقت ينفق عليك، ذكرته في نفسك يذكرك في ملائكته، ذكرته في ملأ يذكرك في ملأ خير منهم، تدافع عن دينه فيدافع عنك.

(إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا (96))

[سورة مريم]

ادعُ الله وحده، أخلص له وحده، أقبل عليه، لأن:

(وَلِتَكُونَ آَيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ)

وصدقوني أيها الأخوة ما من إنسان مؤمن يَصْدُق الله، يخلص له، يتحرَّى رضوانه، يخدم خلقه، ينصفهم من نفسه، لا يأخذ ما ليس له، يسعى لنشر الحق، يسعى للتوفيق بين الناس، هذا المؤمن الله عزَّ وجل يُريه من آياته، قد يريه كل يوم آية، تسميها كرامة، تسميها آية، تسميها توفيقاً، تسميها حفظاً، تسميها تأييداً، تسميها نصراً، فالله حاضر ناظر:

(وَلِتَكُونَ آَيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ)

أي يجب أن ترى آية.

العاقبة أن يكون المؤمن صادقاً في إيمانه :

تقول لي : إنها شيء استثنائي ليس معقولاً، وفقني الله توفيقاً غير طبيعياً، الله يسر لي أموري، قلب همي فرحاً، قلب ضعفي قوة، قلب فقري غنى، قلب شتاتي اجتماعاً، قلب قلقي طمأنينة، وهكذا، هذه آيات الله في الأرض، هذه آيات الله للمؤمنين، هذه هي الكرامة الحقيقية، أنت قرَّبت من الله يريك من آياته الدالة على عظمته:

(وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا)

[سورة الفتح]

فتح مكة في حينه لم تتمكنوا منه، لكن الله عزَّ وجل مكة قد أحيط بها من أجلكم.. فهي لكم:

(وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا (21))

أحاط بها، وهيَّأها لكم كي تفتحوها بعد حين، ولا تنسوا أن مكة أخرجت النبي وصحابته، ونكّلت بهم، وحاربتهم، وناصبتهم العداء، وقست عليهم، وكادت للمؤمنين، فلا تتصور عظمة الفرح الذي أصاب المؤمنين حينما دخلوا مكة فاتحين، ومع ذلك فالنبي كادت ذؤابة عمامته تلامس عنق بعيره تواضعاً لله عزَّ وجل، إذا أنت مؤمن صادق، العاقبة لك، والمصير لك، والفوز لك، والنجاح لك، والتوفيق لك، ورِفْعَةُ الشأن لك، ورضوان الله يحوطك من كل جهة، العاقبة أن تكون مؤمناً صادقاً.

من رضي الله عنه أعطاه الدنيا و الآخرة :

هذه القصة ليست تاريخية، فهي لنا، إلههُم إلهنا، وربهم ربنا، الله واحد، كتابه واحد، والدنيا واحدة، فهذه الآيات ليست لأخذ العلم، بل للاتباع، يجب أن يقول لي الأخ: أنا رأيت من آيات الله الدالة على محبته لي- رأيت هذه الآيات- فلا يوجد إنسان إلا وعنده عدد من القصص، وفقني، أكرمني، شبح مصيبة أزيح عني، أسكت خصومي، الله دافع عني:

(وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا (20) وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا)

مجمَّدة لكم، مكة لكم..

(إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (1) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا (2) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا (3))

[سورة النصر]

الله إذا أعطى أدهش، إذا رضي عنك أعطاك الدنيا والآخرة، رفع لك ذكرك، فهل هناك إنسان في الأرض على وجه الإطلاق أكرم من النبي عليه الصلاة والسلام؟ اذهب إلى مقامه، انظر إلى هذه العظمة، انظر إلى هؤلاء الملايين الذين يقفون أمامه وقد مضى على وفاته ألفٌ وخمسمئة عام، يقفون خاشعين، يبكون، ما هذه المكانة العلية؟ الله عزَّ وجل قال:

(أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ (1) وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ (2) الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ (3) وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ (4))

[سورة الشرح]

المشقة وصعوبة الانضباط في آخر الزمان هذه عند الله مقدرة ولها جزاء مضاعف :

أنا أقول لكم أيها الأخوة: ربنا وربُّهم واحد، النبي يقول:

((اشتقت لأحبابي، قالوا: أو لسنا أحبابك؟ قال: لا أنتم أصحابي أحبابي أناس يأتون في آخر الزمان الصَّابِرُ فِيهِمْ عَلَى دِينِهِ كَالْقَابِضِ عَلَى الْجَمْرِ، أجره كأجر سبعين، قالوا : منا أم منهم؟ قال : بل منكم، قالوا: و لمَ؟ قال : لأنكم تجدون على الخير معواناً و لا يجدون))

[الترمذي عن أنس]

الأجر الآن ضرب مليون، ضرب سبعين من أجر الصحابة، لأن الطُرُقات فيها مفاسد، فيها نساء كاسيات عاريات، أصبح المنكر معروفاً، والمعروف منكراً، أمر الناس بالمُنكر ونهوا عن المعروف، يؤتمن الخائن، يخوَّن الأمين، يصدَّق الكاذب، يكَذَّب الصادق، فهناك علامات للساعة كثيرة جداً وبعضها تحقق، فلذلك:

((الصَّابِرُ فِيهِمْ عَلَى دِينِهِ كَالْقَابِضِ عَلَى الْجَمْرِ، أجره كأجر سبعين، قالوا : منا أم منهم؟ قال : بل منكم))

[الترمذي عن أنس]

شجاعة المؤمنين ودعم الله لهم أصل في الدين :

(وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا (21) وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (22) سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا (23))

[سورة الفتح]

أي أن الله عزَّ وجل أظهر في هاتين الآيتين شجاعة المؤمنين، ودعم الله لهم، أي أنتم الأقوياء وهم الضعفاء، أنتم الشجعان وهم الجبناء، أنتم المتحدون وهم المتفرِّقون، هذا شأن المؤمنين، هذا هو الأصل في الدين.

على كل إنسان أن يسعى و يتخذ الأسباب ثم يتوكل على رب الأرباب :

الله عزَّ وجل قال:

(وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ)

[سورة المنافقون]

(وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا (24))

[سورة الفتح]

هذه الآيات- تحدثت في رمضان عن قصة صلح الحديبية بالتفصيل- وكيف أن الصحابة تألَّموا لهذا الصلح، وكانوا يتمنَّون أن يفتحوا مكة، وهم أقوياء، ولكن الله كفهم عن فتح مكة، وكف أهل مكة عن حربهم، لحكمةٍ سوف نراها بعد آياتٍ عدة في الدرس القادم إن شاء الله تعالى، لذلك الملخص:

(كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (216))

[سورة البقرة]

دائماً استسلم لله عزَّ وجل، أنت اسعَ واتخذ الأسباب ثم توكَّل على ربِّ الأرباب.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الفتح 048 - الدرس (8-8): تفسيرالآيات 25-29 ، كل شيء يقع لا يقع إلا بمشيئة الله لأن إرادة الله متعلقة بالحكمة المطلقة

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 07-04-1995

بسم الله الرحمن الرحيم

أحداث صلح الحديبية إنما هي من صنع الله عزَّ وجل :

مع الدرس الثامن من سورة الفتح، ومع الآية الرابعة والعشرين وهي قوله تعالى:

(وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا (24))

في هذه الآية إشارةٌ توحيديةٌ دقيقةٌ وخطيرة، فالصحابة الكرام وفيهم النبي عليه الصلاة والسلام ذهبوا إلى العمرة ولم يتمكّنوا من أدائها، لأن قريشاً صدتهم عن البيت الحرام، وكانت وفود ورسل ومناقشات ومحاورات وعهود ومواثيق بين الطرفين، هذه كلُّها جرت بين قريش وبين النبي عليه الصلاة والسلام، يقول الله عزَّ وجل:

(وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ)

كل هذه الأحداث التي عاينتموها، ورأيتموها رأي العين، وعشتموها، إنما هي من صنع الله عزَّ وجل، أنت تدرس، تتجه نحو الوظيفة، أو نحو التجارة، تتزوج فلانة، تشتري بيتاً، أو تدعو إلى الله، فإنك تظن نفسك أنت الذي تتحرَّك، لكن يجب أن تعلم علم اليقين أن الله عزَّ وجل هو بيده كل شيء، هو يحرِّك، هو يوفِّق، هو يمنع، هو يُعطي، هو يُلهم، هو يلين قلب فلان، هو يقسِّي قلب فلان، الأحداث التي تعتقدون أنها من صنعكم إنما هي من خلق الله عزَّ وجل، هم خرجوا من مكَّة والنبي عليه الصلاة السلام أراه الله رؤيا فيها بُشرى دخول المسجد الحرام، وخرجوا مع الهدي معكوفاً، ووقفوا في الحديبية، وجاءت قريش برسلها تمنع النبي عليه الصلاة والسلام، وتمَّت المفاوضات، وتمّ الُصلح، وكُتِب الصلح، وحُذِفت كلمات، وأضيفت كلمات، هذه الأحداث الكثيرة التي عاينها الصحابة ورأوها رأي العين، وهم فيما يبدو فعلوها والنبي عليه الصلاة والسلام بين أظهرهم، الله عزَّ وجل يقول:

(وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ)

كل شيء يقع لا يقع إلا بمشيئة الله :

ما الذي قيّد قريشاً من أن يقاتلوا النبي؟ الله جلَّ جلاله، وأنتم في أعلى درجات قوَّتِكُم ما الذي منعكم من أن تفتحوا مكة؟ الله جلَّ جلاله، معنى هذا أن الإنسان يبدو أنه يتحرَّك، لكن الله يحرِّكه، يبدو أن فلاناً منع، لكن الله سمح له أن يمنع، يبدو أن فلاناً وافق، لكن الحقيقة أن الله سمح له أن يوافق، فالإنسان إذا تعمَّق في فهم الأحداث يرى أن الله سبحانه وتعالى وحده هو المتصرِّف، أنت أي فعلٍ تفعله لا تملك إلا الإرادة، المشيئة، الاختيار، الانبعاث لهذا الفعل، وما سوى ذلك فهو من فعل الله عزَّ وجل.

النقطة الثانية: أن الشيء الذي وقع لم يقع إلا بمشيئة الله، لذلك قالوا: لكل واقعٍ حكمة. لو أن الذي أوقعه ليس حكيماً، لو أن الذي أوقعه ليس فهيماً، ما دام قد وقع فلكل واقع حكمة.

هذه الفكرة تُريح الإنسان أي ما الراحة التي تريحه يقدرها الله له و هي راحة لا تُقدَّر بثمن، الأمور بيد الله، هو المتصرِّف، هو الذي يعطي، هو الذي يمنع:

((قلوب العباد بين أصبعين من أصابع الرحمن))

[أحمد و ابن ماجه عن أنس]

فلان قسا قلبه عليك، الله قسَّاه، فلان لان قلبه لك، الله ألان قلبه لك، حينما توحِّد تصل إلى نهاية النهاية، حينما توحِّد تصل إلى نهاية العلم.

الإنسان إذا فعل شيئاً لا يمكن أن يفعله إلا إذا كان موافِقاً لخطة الله عزَّ وجل :

أدق ما في الآية أن الأحداث التي جرت من مواقف النبي والصحابة وقريش والحوار والسؤال والجواب والاتفاقيات كلها من صنع الله، يقول الله عزَّ وجل:

(وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا (24))

لذلك يجب أن تعتقد اعتقادا جازماً أن الإنسان إذا فعل شيئاً، أراد شيئاً وفعله لا يمكن أن يفعله إلا إذا كان موافِقاً لخطة الله عزَّ وجل، فما دام قد فعله فقد أذن الله به، وما دام الله قد أذن به فهناك حكمةٌ منه عرفها من عرفها وجهلها من جهلها، أنت قد لا تعلمها لأن الله عز وجل يقول:

(وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا (85))

[سورة الإسراء: آية 85]

(وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ)

[سورة البقرة: آية 255]

لكن الله سبحانه وتعالى يكشف لعباده المؤمنين من حينٍ إلى آخر عن حكمة أفعاله، ماذا على المؤمن أن يفعل؟ أن يقيس كل فعلٍ لم ير حكمته على فعلٍ رأى حكمته، أن يقيس كل فعلٍ لم تبد له حكمته على فعلٍ رأى حكمته من قبل، الله عوَّدك الجميل فقِس على ما قد مضى، الإنسان يتعرَّف إلى حالات كثيرة يرى فيها حكمةً ما بعدها حكمة، رحمة ما بعدها رحمة، لطفاً ما بعده لطف، عدالة ما بعدها عدالة، فيخشع قلبه، فإذا رأى فعلاً لم تبدُ حكمته فعليه أن يقيسه على الذي بدت له حكمته.

من يربط أموره بالله عز وجل يطمئن قلبه وتطيب نفسه :

القصة كلّها من أجل أن تستسلم لقضاء الله، من أجل أن تطيب نفسك بما يفعله الله عزَّ وجل..

(وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (66))

[سورة آل عمران]

فهذا الذي جرى بدءاً من الرؤيا التي رآها النبي عليه الصلاة والسلام وفيها بشارةٌ بفتح مكة، وانتهاءً بفتح مكة، هذه الأحداث العُظْمى التي تمَّت في هذا الموضوع يبدو للمراقب أنَّ قريشاً فعلتها، والنبي وأصحابه وافقوا ورفضوا، ولكن الله يقول:

(وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا (24))

فهذه الآية يجب أن يكون لها تطبيق عملي في حياتنا، فأنت يجب ألا تيأس أولاً، وألا تعترض على قضاء الله ثانياً، وألا تظن أن الإنسان هو الذي يصنع فعله، الإنسان لا يصنع فعله أبداً، الإنسان يريد ويتمنَّى والله سبحانه وتعالى يسمح له أو لا يسمح له، أي أن الأمور إذا ربطتها بالله عزَّ وجل يطيب قلبك، يطمئن قلبك، وتطيب نفسك، وتستسلم لمشيئة الله التي من ورائها حكمةٌ لا يعلمها إلا الله، تجد المؤمن مستقراً، راضياً، لقناعته أن يداً واحدة تعمل في الكون، لا تنس قول الله عزَّ وجل:

(يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ)

[سورة الفتح: آية 10]

(وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى)

[سورة الأنفال: آية 17]

من استسلم لفعل الله ورضي به قبل أن تنكشف له الحكمة لا بدَّ من أن يكافئه الله

هذا الموضوع يجب أن ينسحب إلى حياتنا اليومية، أي إنّ هذا الزواج تمّ، سمح الله به، لم يتم لسببٍ تافه، هذه مشيئة الله، ابحث عن حكمة الله فإن وجدتها وجدتها، وإن لم تجدها يجب أن تستسلم لها، واعلم علم اليقين أن وراء هذا الفعل حكمة ربما كشفها الله لك بعد حين.

بالمناسبة من رحمة الله بالإنسان أن الإنسان إذا رأى تصرُّفاً لله عزَّ وجل ولم تتضح له حكمته فاستسلم بناءً على أن الله حكيم، وعلى أن الله رحيم، وعلى أن الله عادل، إذا استسلم لفعل الله ورضي به قبل أن تنكشف له الحكمة لا بدَّ من أن يكافئه الله على هذا الاستسلام، وعلى هذا الرضى، بكشف الحكمة له، لذلك الإنسان إذا كُشِفَت له حكمة الله في أفعاله يذوب حُباً لله، يذوب شكراً لله عزَّ وجل، المؤمن راض عن الله..

شخص يطوف حول الكعبة وهو يقول: يا ربّ هل أنت راضٍ عني؟ وكان وراءه الإمام الشافعي فقال: يا هذا هل أنت راضياً عن الله حتى يرضى عنك؟ قال: يا سبحان الله كيف أرضى عنه وأنا أتمنَّى رضاه؟ فقال الشافعي: إذا كان سرورك بالنِقمة كسرورك بالنعمة فقد رضيت عن الله.

إيمان الإنسان يظهر في الشدة لا في الرخاء :

الحقيقة أن الإنسان لا يبدو إيمانه بالرخاء، بل يبدو في الشدة، لا يبدو في العطاء بل يبدو في الحرمان، لا يبدو في الصحة بل يبدو في المرض، لا يبدو في الغنى بل يبدو في الفقر، فهذا الذي يعاني ما يعاني ويقول: الحمد لله رب العالمين من أعماق أعماقه هذا دليل على أنه يرى أن الله وحده يتصرَّف، وأن أفعال الله رحمةٌ كلها، حكمةٌ كلها، عدالةٌ كلها..

(وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا (24) هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ)

الله عز وجل عليم و الإنسان لا يرى الأمور إلا من زاوية واحدة :

لماذا كفَّ الله أيدي المؤمنين عن أن يفتحوا مكة وكانوا أقوياء؟ وكانوا في أعلى درجات الاستعداد؟ وقد باعوا أنفسهم في سبيل الله، وقد عاهدوا النبي على بذل الغالي والرخيص في سبيل الله؟ ومع ذلك الله جلَّ جلاله كفَّ أيدي المؤمنين عن مكة، وكذلك منع قريشاً من أن يركبوا رؤوسَهم وأن يرتكبوا حماقاتٍ، فكأن الله سبحانه وتعالى كفَّ أيدي هؤلاء وأيدي هؤلاء، لماذا؟ جاء التفسير: لأن في مكة رجالاً مؤمنين، هؤلاء آمنوا وهم مستضعفون، آمنوا ولم يُهاجروا، آمنوا ولم يُعلِنوا إيمانهم، وهم كُثُر، فلو أن اشتباكاً حصل بين المؤمنين وبين أهل مكة لقتِل هؤلاء، هم عند المسلمين كفَّار وهم عند الله

مؤمنون، معنى ذلك أن الإنسان إذا نظر إلى أمر في الأعم الأغلب يراه من زاوية واحدة، من وجهة نظرٍ واحدة، وهذه لا تكفي، لكن الله سبحانه وتعالى بكل شيءٍ عليم، هؤلاء المؤمنون الذين آمنوا سراً ولم يُظهروا إسلامهم وهم في قريش، وهم عند قريش مثلهم مشركون، هؤلاء الله جلَّ جلاله يريد أن يرحمَهم وأن ينقذهم فكفَّ أيدي المؤمنين عن قريش، وكفَّ أيدي قريش عن المؤمنين.. اتضحت الحكمة؟.. وعلى هذا: قِس كل ذلك..

(هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَئُوهُمْ)

ربما قتلتموهم، فإذا قتلتموهم وهم مؤمنون..

(فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ)

[سورة الفتح: آية 25]

الثمن باهظ، الذي يقتل مؤمناً خطأً عليه ديَّة، هذا مؤمن..

(لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ)

[سورة الفتح: آية 25]

حكمة الله جلَّ جلاله من كفَّ أيدي المؤمنين وأيدي قريش وعدم اشتباكهم :

بالمناسبة: الله عزَّ وجل أسماؤه مطلَقة، الإنسان إذا قيل له: فلان عادل، هذه عدالة نسبية، قد يصيب وقد يخطئ، لكن الله سبحانه وتعالى أسماؤه مطلقة أي لا يمكن أن يُظلَم في ملكِه عصفور، ولا نملة، عدل مطلَق، لو أن قريشاً حاربت، أو لو أن المؤمنين فتحوا مكة لقتل المؤمنون المستترون في مكة، هذه هي حكمة الله جلَّ جلاله من كفَّ أيدي المؤمنين وأيدي قريش، وعدم اشتباكهم، وتوقيع العهد – الصلح- الذي بدا للمؤمنين أن فيه انتقاصاً من حقوقهم..

(لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا)

لو فُرزوا، لو خرجوا من قريش..

(لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (25))

أي كف أيدي المؤمنين عن كفار قريش لا لكرامتهم على الله، هم كفار، هم أعداء الدين، وهم صدوا المؤمنين عن المسجد الحرام، لكن كفَّ أيدي المؤمنين عن قريش رحمة بهؤلاء المؤمنين..

(إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ)

[سورة الفتح: آية 26]

الإنسان الكامل يغضب للحق لا لأسباب تافهة :

أحياناً الإنسان يغضب لسبب غير معقول، لسبب تافه.. مثلاً.. رجل غير مستقيم أقل من عادي، قيلت في حقه كلمة حق فيغضب غضباً لا حدود له، أحياناً لموضوع تافهٍ لا يُقدِّم ولا يؤخِّر، وصف الله عزَّ وجل هؤلاء بأنهم جاهلون، قال:

(إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ)

أي أن الكافر يندفع ليقاتل الناس، يأخذ ما في أيدي الناس، يبالغ في إيذاء الناس، من أجل من؟ هو لا يعلم، انحياز أعمى، اندفاع أرعن، هذه حمية الجاهلية، يثأرون لقيمٍ تافهة، لمبادئ سخيفة، لأقوال لا تُقدِّم ولا تؤخِّر، فالإنسان الكامل يغضب للحق لا لأسباب تافهة، يُعْطي لأسبابٍ وجيهة، يمنع لأسبابٍ وجيهة، أما هذا الذي يعطي أو يمنع لأسبابٍ عُنصريةٍ تافهةٍ حقيرةٍ فهذا الجاهلية تحرِّكه، إذا الإنسان انحرف وارتكب حماقات يقال: يجهل، فما علاقة يجهل كسلوك ويجهل كعلم؟ نقص العلم يؤدِّي إلى انحرافٍ في السلوك، فسمي انحراف السلوك جهلاً بسببه- بسبب الجهل- وهذا معنى دقيق لأن الإنسان إذا جهل حقيقة وهو يتحرَّك في الحياة ففي الأعم الأغلب سيتحرَّك حركةً حمقاء، حركةً رَعْناء، حركةً ظالمةً، حركةً سخيفة، فيتحرَّك لأسبابٍ تافهةٍ وحقيرة..

(إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ)

أيّ نقص في العلم يقابله سلوك أرعن أحمق :

لو تتبعت ما يجري بين الناس تجد خصومات، دعاوى تستمر سنوات وسنوات، لأسبابٍ أتفه من التافه، هذه هي الجاهلية، كيد، بغضاء، تجد أسرة تتآمر على أسرة، وجماعة تكيد لجماعة، أما المؤمن فإنه مع الله:

((إن الله يحب معالي الأمور وأشرافها ويكره سفسافها))

[أخرجه الطبراني عن حسين بن علي]

رجل في ساعة غضب قال لعبدٍ أسود: يا بن السوداء، فقال النبي عليه الصلاة والسلام: إنك امرؤ فيك جاهلية. أي إذا أنت انحزت انحيازاً أعمى، أو فعلت عملاً خلاف الشرع، أو غضبت لأسباب تافهة، أو تعصَّبت تعصُّباً أعمى، فإن هذا جهل، أي نقص في العلم قابله سلوك أَرْعَن، إذاً كل نقص في العلم يقابله سلوك أرعن..

(إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ)

توجد سورة الله عزَّ وجل قال فيها:

(أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا (83))

[سورة مريم]

أحياناً يندفع الكافر اندفاع البركان، يندفع كالمِرْجَل ليوقِع الأذى بالناس دون أن ينال منه شيئاً، هكذا بلا سبب، فأنت تعجَب ما الذي يدفعه لهذا الإيذاء؟ ما الذي يحمله على هذه العداوة والبغضاء؟ لماذا يُصِّر هذا الكافر على إيقاع الأذى بالناس؟ الإنسان أحياناً يوقِعُ الأذى بالناس ويكسب مكسباً كبيراً، مقابل هذا الأذى كسب إلى حدٍ ما، تقول: يوجد تكافؤ، إذا آذيت فلاناً يأتيك مبلغ كبير، فإذا أوقعت الأذى ونِلت هذا المبلغ إلى حدٍ ما فالعمل مقبول عند أهل الدنيا، عند الماديين، لكن الذي يلفت النظر أشخاص يندفعون اندفاع البركان، ويقتحمون اقتحام السَهْم لإيقاع الأذى بالناس دون أن يكسِبوا من إيقاع هذا الأذى أي مكسب، بماذا نفسِّر هذا؟ نفسِّر هذا بأن الشياطين تأزُّهم أزا، والعياذ بالله أن يكون الإنسان أُلعوبة بيد الشيطان، يندفع إلى صدِّ الناس عن سبيل الله، يندفع إلى معاداة أهل الحق، يندفع إلى ما يتوهَّم أنه يطفئ هذه الدعوة، يُطفِئ نور الله عزَّ وجل.

الشقي من يجلس في خندق معادٍ للدين :

من هو الشقي؟ الشقي كل الشقي الذي يجلس في خندق معادٍ للدين، الله خالق الكون مع الحق وأنت ضد الحق؟! الله خالق الكون الذي بيده كل شيء هذا دينه وأنت ضدّ هذا الدين؟! هذه..

(إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ)

بالمقابل الكافر يغلي كالمِرْجَل، ينطلق كالسهم، يريد أن يوقِعَ الأذى بالناس، يريد أن يصدّ الناس عن سبيل الله، أن يُطفئ هذه الدعوة، أن يمحو الحق فيما يزعم، أن يعمل على تقوية الباطل، ويرسخ المعصية بين الناس، لمَ هذا الاندفاع؟ وعلامَ هذا الانفعال؟ ولمَ هذا السهر؟

من أحبه الله منحه العلم و الحكمة :

قال: أما المؤمن..

(فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ)

رحمته، تجلّيه، الطمأنينة التي يشعرها المؤمن لا يعلمها إلا من ذاقها..

(فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ)

المؤمن في هدوء، وسكون، وطمأنينة، وتوازن، وحِلم، وتبصر، ورؤية صحيحة، وأهداف واضحة، وحكمة بالغة، هذه كلها من عطاءات الإيمان.

أحياناً يقول أخ: ليس معي مال. أنت معك حكمة وهذه الحكمة لا تقدَّر بثمن، يوجد أشخاص معهم مال ولكنهم فقدوا الحكمة، فهذا المال يبدَّد، يوجد أشخاص متزوِّجون وفقدوا الحكمة فهم أشقى الناس بزواجهم، المؤمن بحكمته.. والله عزَّ وجل قال:

(وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا)

[سورة البقرة: آية 269]

والله أعطى المُلك لمن لا يُحب ولمن يُحب، أعطى المال لمن لا يحب ولمن يحب، ما دام قد أعطى المال لمن لا يُحِب ولمن يُحِب إذاً المال ليس مقياساً، وما دام قد أعطى المُلك لمن لا يُحب ولمن يُحب إذاً ليس مقياساً، لكن الله إذا أحبَّ عبداً مَنَحَه علماً وحكمة..

(وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آَتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (14))

[سورة القصص]

(فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (26))

[سورة الفتح: آية 26]

قيد الشرع وسام شرف للمؤمن :

المؤمن أعلى وسام شرف في صدره أنه على منهج الله سائر، أنه وفق الشرع مقيَّد، المؤمن مقيّد وقيده يرفعه عند الله، وغير المؤمن متفلت، يقول لك: أنا حر، الحر الذي يقيد نفسه بالحق فقيد الشرع وسام شرف، يوجد في حياتك منظومة قِيَم، يوجد شيء اسمه حرام وشيء اسمه حلال، يوجد شيء ممنوع تعمله، أما هذا الذي يفعل ما يشاء، يفعل ما يحلو له، يعيش لحظته من دون قيود، فهذا إنسان متفلّت، هذا إنسان يعيش على هامش الحياة..

(فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا (105))

[سورة الكهف]

فسيدنا يوسف ما الذي رفعه إلى أعلى عليين؟ لأنه قال:

(مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (23))

[سورة يوسف]

لو فعل ما يحلو له فقد هذه المكانة عند الله وعند الناس، لذلك قالوا: إن الحضارة الغربية أساسها السيطرة على المادة، لكن حضارة الإسلام أساسها السيطرة على الذات، المؤمن إنسان عظيم لأنه مُخَيَّر ولكنه مسيطر على حركاته، وسكناته، ونزواته، وأهوائه، يقيِّد حركاته وسكناته وفق الشرع..

(وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى)

المؤمن مقيَّد بالحق لكن هذا القيد يرفعه :

المؤمن وَقَّاف عند كتاب الله.. إنسان سأل سيدنا عمر فقال له: أتحبني؟ فقال له: والله لا أحِبك، قال له: هل يمنعك بغضك لي من أن تعطيني حقّي؟ فقال له: لا والله لا أمنعك حقك مع أني لا أحبك.. هذا هو الدين، سيدنا الصدِّيق ماذا فعل؟ منع عطاءً عن مسطح الذي تكلَّم في حَقِّ ابنته عائشة تكلَّم في شرفها وعفّتها فعاتبه الله عز وجل قال: ألا تحبون أن يغفر الله لكم؟ فالمؤمن يترفَّع عن الانتقام، يترفع عن أن يأخذ بالثأر، يترفع عن أن يوقع الأذى بالناس، مقيَّد بالحق، لكن هذا القيد يرفعه، والدليل كلمة.. على..

(أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ)

[سورة البقرة: آية 5]

على حرف استعلاء، الهدى يرفعها، كلّما قيدت نفسك بالحق الحق يرفعك، وكلما تفلّتت فإن الباطل يدخلك في قيد، قال:

(أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ (3))

[سورة الزمر]

شيء ضمن شيء، إما كآبة، أو سجن، أو وحشة، أو ألم..

(وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (26))

[سورة الفتح]

المؤمن مظنة صلاح و صدق و أمانة :

أما معنى كلمة

(وَأَهْلَهَا)

فأنت مؤمن، أنت مظنة صلاح، مظنة صدق، مظنة أمانة، مظنة حياء، مظنة عَفاف، مظنة كرم، مظنة شجاعة، هذه المكارم الأخلاقية تليق بالمؤمن، فأنت أهلٌ لها وهي أهلٌ لك، أما المفاجأة أن ترى مؤمناً بخيلاً.. فإن هذا غير معقول.. أنت رجل مؤمن ومن لوازم الإيمان الكرم، أنت مؤمن ومن لوازم الإيمان الشجاعة، أنت مؤمن ومن لوازم الإيمان الحِلم، فالناس إذا عرفوا إنساناً ديّناً فيتوقعون منه كل

خير، يتوقعون منه الإخلاص، الصدق، الأمانة، العفَّة، الحياء، الوَرَع، هذا ينبغي أن يكون وهذا لا ينبغي أن يكون.

(وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (26))

[سورة الفتح]

أنت كمؤمن لا تخيِّب ظن الناس فيك، لك مجتمعك الصغير من حولك، أخوات، أقرباء، أهل زوجة، زبائن، جيران، زُملاء بالعمل، يرونك تُصَلِّي، يرونك تغض بصرك، عندها يعلقون آمالاً كبيرة عليك، أنت صادق لا تكذب، حييٌ لا تتواقح، فلا تفاجئ الناس بتصرُّف لا يتناسب مع الإيمان لا يليق بالمؤمن، حينما تخيب ظنهم تهدم الُمثل العليا في حياتهم.

من خيب ظن الناس بموقف مفاجئ يكون قد هدم ركناً في الإسلام :

الناس في ظنهم أن صاحب الدين لا يغلط، لا تزل قدمه، هو عفيف، فلو وقع هذا الشخص في موقف لا يليق به تتزعزع ثقتهم لا في هذا الشخص بل في الدين كله، إذا كان الإنسان مظنة دين، معروف أنه دين، له مجلس علم، ينتمي إلى جماعة، إلى مسجد، مظنة صدق، وأمانة، وحياء، وعفاف، وكرم، وإخلاص، ليس له أن يخطئ، فإذا خيب ظن الناس بموقف مفاجئ يكون قد هدم ركناً في الإسلام:

((أنت على ثغرة من ثغر الإسلام فلا يؤتين من قبلك))

[ورد في الأثر]

أنت رحيم لا تقسَ، أنت عادل لا تظلم، أنت منصف لا تجحد.

(وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (26))

[سورة الفتح]

أحياناً موقف واحد يهدم ألف محاضرة، موقف من رجل دين واحد يجعل الكثيرين يشكون بالدين كله، لأنهم يرون الدين من خلال فلان، وهذا خطأ كبير، فقبل أن تعمل عملاً سيئاً، قبل أن تخلف وعدك وأنت مؤمن، قبل أن تكذب وأنت مؤمن، قبل أن تحلف يميناً غير صحيح وأنت مؤمن تمهل لأن حولك أصدقاء، حولك جيران، حولك موظفين، حولك زوجتك، إذا لم تكن أنت عظيماً في بيتك فهذه مشكلة كبيرة جداً، فلذلك كن أهلاً لهذا اللقب الكبير، كلمة مؤمن لقب عالٍ جداً لقب أخلاقي، جمالي، علمي، أنت تعرف الحقيقة، تعرف المنهج، تعرف ربك، وأنت أخلاقي، الإيمان صدق، وأمانة، واستقامة، وإخلاص، وإنصاف، وحلم، وحياء، وروعة، وأنت أيضاً سعيد بالله عزَّ وجل، فلا ينبغي أن تتضعضع أمام غني، ولا أن تذل أمام قوي، ينبغي أن تبقى في أعلى مكان، فقد تكون مواطناً عادياً لكن كرامتك موفورة، رغم أن منصبك بسيط جداً، دخلك قليل، فهذه مقاييس لا قيمة لها.

(لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ)

الله سبحانه وتعالى يُطَمْئِن المؤمنين أن هذا الدين دينه وسينصره إلى أبد الآبدين :

النبي عليه الصلاة والسلام رأى أنه سيدخل مكة إن شاء الله.

(لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آَمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا (27))

الله عزَّ وجل سمَّى صلح الحديبية فتحاً قريباً، وعلم أن في مكة مؤمنين لا تعلمونهم أنتم، لو دخلتم إليهم لقتلتموهم ظلماً، والله سبحانه وتعالى يُطَمْئِن المؤمنين أن هذا الدين دينه، وأنه سينصره، نصره وسينصره وسيتابع نصره إلى أبد الآبدين، فقال تعالى:

(هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا (28))

[سورة الفتح]

انتشار الدين وانتصاره ليس بسبب قوة المسلمين الذاتية بل بسبب تأييد الله له :

انتشار الدين وانتصار الدين ليس بسبب قوة المسلمين الذاتية، بل بسبب تأييد الله له، والله سبحانه وتعالى يبشِّر المؤمنين أن هذا الدين سوف ينتصر على كل الأديان إلى يوم القيامة، والبشائر واضحة، ففي العالم كله الآن الإسلام ينتشر رغم المعركة الشرسة ضده لكنَّه ينتشر، ينتشر بشكلٍ عجيب، في فرنسا العام الماضي احتفل بافتتاح المسجد رقم ألف في فرنسا، في فرنسا صار الإسلام الدين الثاني، الدولة ملزمة بتعليم الطلاب التربية الإسلامية، وبإقامة الشعائر للمواطن الفرنسي المسلم، بأمريكا ملايين مملينة أصبحوا مسلمين، وقد أشادت القيادات العليا بالإسلام في عيد الهجرة، وعيد أول الفطر، وهذا الشيء لم يكن من قبل، فلذلك يبشرنا الله عزَّ وجل يبشرنا أن هذا الدين دينه، وسينصره على كل الأديان، والمستقبل له.

(هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا (28))

أما ما يجري من هجومٍ على الإسلام، فبيت شعر يجيب على هذا السؤال:

إذا أراد الله نشر فضيلـــةٍ   طويت أتاح لها لسان حسـود

لولا اشتعال النار فيما جاورت   ما كان يعرف طيب عرف العود

***

شيء يثار حول الإسلام، أناسٌ كثيرون لا يعلمهم إلا الله يسألون: ما الإسلام؟ دعونا نقرأ عن الإسلام لنعرف ما الإسلام؟ الدخول في الإسلام بأعداد كبيرة جداً على مستوى العالم وهذا من فضل الله عزَّ وجل، وهذه بشارة، لكن النبي صلى الله عليه و سلم إنسان جاء بهذه الرسالة، وفي خلال ربع قرن يصل الإسلام إلى أواسط آسيا!! أعظم دولة في العالم وقتها دولة كسرى تتساقط كبيت العنكبوت أمام جيوش المسلمين، ودولة قيصر كذلك، مصر تفتح، بلاد الهند تفتح، بلاد السند تفتح، شيء غريب على قوى البشر المحدودة، أما أنه دين الله عزَّ وجل والله يؤيده وينصره، فهذا الشيء طبيعي.

(لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا (28) مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ)

محمدٌ رسول الله معه وحي ومعه توجيهات الصانع :

طبعاً سهيل بن عمرو لم يرض أن يكتب: هذا ما اتفق عليه محمد رسول الله، قال: لا، بل ابن عبد الله، سيدنا رسول الله قال: يا علي امحُ كلمة رسول الله، هذا هو الرد، أي رغم أنفك يا سهيل محمدٌ رسول الله وأكبر خطأ نرتكبه أن نقول: محمد عبقري، أو محمد مُصْلِح اجتماعي، هذا ما يريده الكفار، محمدٌ رسول الله، معه وحي، لا تعزُ نجاحه في الدعوة إلى ذكاء، ولا إلى عبقرية، لا، هو رسول الله، مؤيدٌ بالوحي، والأجانب أساساً يريدون أن ينتقصوا من إسلامنا بإضفاء صفة العبقرية على نبينا، هو لا شك أوتي من الفطانة ما لم يؤت أحدٌ مثله، ولكن هو في التعريف: محمدٌ رسول الله، معه وحي، معه توجيهات الصانع..

(وَالَّذِينَ مَعَهُ)

[سورة الفتح: آية 29]

المؤمن رحيم و رقيق القلب و هذه علامة إيمانه :

ماذا نرى اليوم؟ نرى قسوة المؤمن على أخيه المؤمن، ونرى ضعف المؤمن أمام الكافر، ليس هذا من الإيمان من شيء.

(أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ)

هذه علامة الإيمان، هذا المؤمن يجب أن ترحمه، يجب أن تنصفه، يجب أن تدافع عنه، يجب أن يَرِقَّ قلبك له، الإنسان حينما يبتعد عن الله عزَّ وجب، يقسو على الضعيف ويركع أمام القوي، أما المؤمن فيرحم الضعيف، ولا يذلُّ أمام القوي:

(أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ)

هذه مواقفهم في العلاقات العامة.

المواقف التعبدية للمؤمن :

أما مواقفهم التعبُّدية:

(تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا)

[سورة الفتح: آية 29]

فالصلاة عندهم في المقام الأول، الصلاة عماد الدين:

(تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا)

موقفهم مع الكفار هكذا، مع المؤمنين هكذا، عبادتهم صلاتهم في المقام الأول.

نوايا المؤمن :

الآن نواياهم:

(يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا)

[سورة الفتح: آية 29]

تَغْنيهم الآخرة، يعنيهم رضوان الله عزَّ وجل، يسعون إلى مرضاة الله فهو أسمى أهدافهم..

وما مقصودهم جنات عدنٍ   ولا الحور الحسانُ ولا الخياما

سوى نظر الحبيب فذا مناهم   وهذا مطلب القوم الكراما

***

(سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ)

[سورة الفتح: آية29]

فيمكن أن تفسر هذه الآية تفسيراً صغيراً، أن على جباههم علامات من أثر السجود، لكن وجهه المُقبل على الله عزَّ وجل، ترى الصفاء في وجهه، ترى الحب في وجهه، ترى الإخلاص في وجهه، ترى البراءة في وجهه، ترى النور في وجهه، ترى الحُسن الإيماني في وجهه.

(سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ)

من شدة اتصالهم بالله.

(مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ)

المؤمن مشرق و هذه الإشراق سببه الاتصال بالله عز وجل :

الله اختار بالصلاة السجود لأن أقرب وضعٍ تكون فيه مع الله وأنت ساجد، أعلى درجات الصلة وأنت ساجد، فلذلك اختار الله عزَّ وجل من الصلاة سجودها، قال:

(سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ)

المؤمن وجهه منوَّر، لا أعني أبداً لون الوجه، سيدنا بلال وجهه منور وهو أسود، أعني الحسن الإيماني، تجد فيه الصفاء، والبراءة، والحب، والإخلاص، والرقة، والنور، فيه إشراق، هي سيماههم، والسبب اتصاله بالله، هذا الإشراق وهذا الحسن وهذا النور وهذا التألُّق وهذا الجمال:

وأجمل منك لم تر قط عيني وأكمل منك لم تلد النساء

خلقت مبرءاً من كل عيبٍ كأنك قد خلقت كما تشاء

***

(سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ)

كل مخلوق له اتصال بالله يتألَّق و كل إنسان مقطوع عن الله في وجهه سواد المَعصية :

لكن هذا الشيء ليس في الدين الإسلامي فقط، كل إنسان في أي مكانٍ وزمان إذا اتصل بخالق الأكوان فله هذا الوجه..

(ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ)

[سورة الفتح: آية 29]

فهذا شيء قديم، هذه نواميس الله عزَّ وجل في الكون، كل مخلوق له اتصال بالله يتألَّق، مقطوع عن الله تجده انطفأ، انكمد، اغبر وجهه، صار في وجهه سواد المَعصية، سواد البعد، سواد الجَفاء..

المؤمن يبدأ صغيراً ولكن يتنامى إيمانه وملكاته حتى يصير إنساناً فذاً عظيماً :

(كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ)

[سورة الفتح: آية 29]

هناك أشجار كالزيتون تُخْرِج فسائل من طرف جذرها.

(كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ)

هذه الكلمة فيها إعجاز، هذا الزرع آزر هذه الفسيلة، وهذه الفسيلة آزرت هذا الزرع، النبي عليه الصلاة والسلام علَّم أصحابه، وجَّههم، تعهَّدَهُم بالتربية، دلَّهم على الله، زَكَّاهم، طهَّرهم، والصحابة دعموا هذه الدعوة، ونصروا النبي، فكانوا معه، وافتدوه بأرواحهم وأموالهم.

(فَآزَرَهُ)

يا ترى آزر الفرع أم الفرع آزر الأصل كلاهما صحيح.

(فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ)

كانت فسيلة غضة صغيرة صارت شجرةً وارفة الظلال، المؤمن يبدأ صغيراً، ولكن يتنامى إيمانه، تتنامى ملكاته، يصير إنساناً فذاً عظيماً، أحياناً يصير أمة..

(إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (120))

[سورة النحل]

(فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ)

[سورة الفتح: آية 29]

المؤمن شخصيته فذة :

الكافر تافه، المؤمن شخصيته فذة ودائماً الكافر يحسده، من أين هذه الحكمة؟ من أين هذه الشجاعة؟ من أين هذا الحلم؟ من أين هذا التعفف؟ تجد الكافر حقيراً أمام شهواته، تافهاً أمام شهواته، المؤمن يضبطها، عفّته تلفت النظر، أمانته تَلْفِت النظر، عفته عن المال الحرام تلفت النظر، عفته عن النساء تلفت النظر، استقامته تلفت النظر، دأبه على عمله يلفت النظر.

(لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ)

من كان على شاكلتهم، هذه للنبي عليه الصلاة والسلام ولأصحابه ولكل مؤمنٍ سار على أثره بعد مماته.

الأجر العظيم هو سعادة الدنيا والآخرة :

ثم قال تعالى:

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (29))

[سورة الفتح]

المغفرة محو السيئات، والأجر العظيم سعادة الدنيا والآخرة، هذه السورة عن النبي وأصحابه.

الحياة تعاون و النبي صلى الله عليه وسلم يوَضِّح ويبيِّن ويعاون :

أرجو الله سبحانه وتعالى أن تكون هذه السورة موجودة عندنا، تعاون في الحياة، فالنبي صلى الله عليه وسلم يوَضِّح ويبيِّن ويعاون، وصحابته يتلقَّوْن ويعينونه، هناك تعاون، إذا لم يكن هناك تعاون بين المؤمن والمؤمن، الأول ينصح والثاني يستجيب، الأول يوجه والثاني يطبِّق، الأول يطلب والثاني يقدِّم.

(فَآَزَرَهُ)

النبي آزر أصحابه، وأصحابه آزروه، والحياة تعاون، والله عزَّ وجل قال:

(وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (2))

[سورة المائدة]

وبهذا تنتهي هذه السورة الكريمة وهي سورة الفتح.

والحمد لله رب العالمين

الفهرس